# شؤون فلسطينية

٨٠ تموز ( يوليو ) ١٩٧٨



# شؤون فلسطينية

رئيس التحرير: محمود درويش
سكرتير التحرير: الياس خوري

تموز ( يوليو ) ١٩٧٨ — ٨٠

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية



**العنوان :** بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني ( متفرع من السادات ) ، رأس بيروت ، بيروت – لبنان ، ص·ب ١٦٩١ · تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت ·

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي ( بريد جوي ) : ٦٠ ل·ل· في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل·ل· في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل·ل· في اوروبا ، ١٢٥ ل·ل· في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي ( بريد عادي ) · ٦٥ ل·ل· في جميع الدول غير العربية ·

الغلاف للفنان مصطفى الحلاج

غلاف العدد الماضي (٧٩) للفنان سامي برهان
وليس لعبد القادر ارناؤوط كما ورد

# المحتويـات

# الإرهاب الأسود

لا وقت ، لا وقت · المشنقة تسبق السؤال ، والرصاصة تبحث عن صدر او ظهر · ونادرا ما يرى القتيل وجه قاتله ، كانه يخرج منه على قوس الظلال ويختفي فيه · او كأن القتل انتحار ، رياح تهب ورمل · وغالبا ما ندرك ان الاشجار العربية ، المتعانقة او المفترقة ، جنازة ثابتة وصامته · ودائما نعرف ان اضلاعنا مشانق · ونحمد اليوم التالي على معجزة التكرار · ومن الهواء يأتي زوار لا نعرفهم · يأخذوننا من ذاتنا ، وينصرفون ، فندافع عن تهمة لم يوجهها الينا احد ، ونتعذب في سجن لا جدران له · ومن الشوارع تنفجر اسرار لا تعنينا وتتكسر قامات لا نودعها ونادرا ما نحزن · وحين نبحث في السجون عن اسمائنا لا نجد لها اثرا ولا شبها · وعندما نتحرى الجدران عن دمنا لا نجد غير هتافات جميلة تعدنا بصباح حتمي ، يكتبها زوار الليلنيابة عن الشهداء · وتتاح لنا احيانا فرص لمحاورة الجلادين ، فنجدهم اذكياء وطيبين ، يعرفون لغتنا واحلامنا وينحتون لنا المستقبل في الصخر· وكلما خاطبناهم بلغة عاطفية سبقونا الى البكاء· وكلما عاتبناهم على ظلم لحق بالابرياء اخذونا الى الشرفة لنرى صفوف الشهداء تبايعهم ، فنعتذر او نكاد ، ونفتش عن القاتل في مكان آخر ، وننبش جلودنا لنلمس دمه فينزلق · وتبقى التهمة مسألة نفسية وترجأ الاسئلة الى زمن آخر · الكل يعرف الخطر الذي يتربص بالرجاء ، والكل يتفق على ان تحول الشمس الى احتمال يومي صار موضوعا قابلا للخلاف · فأين الخطأ واين الصواب ؟ والجلادون ظرفاء يحبون الاغاني وانيقون بلا حدود · وحين يمرض الواحد منهم يؤتى اليه بجماهير حزينة لتعوده وتودعه ، فيسأل مترجمه الشعبي عن اللغط فيجيب : جاء الشعب مودعا ، فيتساءل ببراءة صادقة : الى اين يسافر الشعب ؟!· هل يستطيع وزير واحد ان يبلغ الحاكم ان الشعب لا يسافر ؟ لماذا تسبق المشنقة السؤال اذن ؟ ولماذا يبنون لنا مزيدا من السجون اذا كنا جميعا طلقاء ؟· تنزل الاسئلة الى الهمس فيسمعها العصفور ويشي · ولكن الوجدان يشتاق الى محاكمة يتلو فيها المدعي العام

لائحة الاتهام لننجو من هذا الكابوس ، ولنستمع الى محامي دفاع واحد بلغته القانونية القديمة التي كدنا ننساها · وكمنشتاق الى مظاهرة واحدة ، في عاصمة واحدة ، نحتج فيها على خيانة واحدة ، او نحيي فيها بطولة مضادة ! وكم نحن الى افتتاحية ساخنة تعيد الينا ذكريات خلاف ما ، وقع يوما ما ، بين حاكم ومحكوم · هل انتهت الحرب الطويلة مع العدو ، الذي ما زال يحتل الاوطان ، لينتهي الفارق بين الليل والنهار ؟· وهل يكفي ان يصدر الحاكم بيانا جبانا عن آخر الحروب ، ليحل السلام بين المتخم والمحروم وبين السجين والسجان وبين الظالم والمظلوم ؟ هل كانت سعادتنا بسيطة وقريبة الى هذا الحد ولم نعرف ؟ وهل نندم على عمر ضاع امام شعار لم يتحقق ، لا لشيء الا لان احد الاقزام قفز على الشجرة وطال في الظلال ! واذا كان عمرنا قائما على هذا الوهم فمن اين الحاكم جاء ؟ لماذا لا يسقط الساقط وحده ؟· لا وقت للسؤال ، ولا وقت للجواب، لان المشنقة جاهزة، ولان الحوار اضاعة لوقت الحاكم المشغول ·· بماذا ؟·· كان شعار « لا صوت يعلو فوق صوت المعركة » كابحا للتعبير عن الحاجة الى الخبز والحرية ، لان قيدنا كان شرطا لحرية الوطن · فأي صوت يكبح الان واية معركة تعلن ؟ دائما كانت المشنقة صدى ، وتتحول اليوم الى افتتاح · لقد أعلن الحاكم الحرب علينا من الوريد الى الوريد · وهو الذي يبشر بانهيار السلطة ويعد المشانق للاحتمالات · انه زمن الارهاب الاسود · ارهاب يميني ولو وقف على يسار الضحية · ارهاب اصيل ، عروبي ، نابع من ذواتنا ، غير مستورد · مستتر خلف حجاب رغم انه ذكر · ويصلي خمس مرات في اليوم ، اذا شئتم ، تقي ، اصولي ، يقطع اليد الممتدة الى الرغيف والحرف بحد السيف ، وفق الشريعة · وأحيانا متمدن : يستخدم ارقى ادوات التعذيب البشري ومراقبة الاحلام على الشاطيء · وسري : ليجعلك القاتل والقتيل في جسد واحد · وعلني : كمنشآت النفط التي تجتاح القيم ، وكصحف هذه الايام ، وكشاشة التلفزيون التي لا يغادرها

وجه الحاكم الذي الغى الفكاهة · وجاهل : يكره الكتابة والصحافة فيشتريها ويرميها في المرحاض · ومثقف : يعلن ان الحروب الوطنية والاهلية هامشية ، لا تدخل في الجوهر · وشاعر : يضع السحر والشعوذة بديلا للمعرفة العلمية ، ويحدد التناقض الرئيسي بين حنجرة الشاعر وخصر الراقصة · وديموقراطي : يعدد اسماءه ويحدد جوهره ، ثم يوحد صورته حين يعم الاجتهاد العيون · وفاشي: لا يتقن المهنة فلا يبني ولا يحارب الا الفقراء · واشتراكي : ولكن طبيعة الانسان التي يتنازعها الخير والشر هي العائق ، ولان التناقض الرئيسي بين الانسان والله · انه الارهاب الاسود · انه الارهاب الاسود الذي يخاف الشفق الممكن في عروق الامة ، الارهاب الجارف الذي يعرف من هم اعداؤه من فرط ما يعرف نفسه وطريقة استيلائه على السلطة · انه الارهاب الاسود الذي استسلم للغزاة بلا ثمن فخاف سؤال الشارع فجعل المشنقة تسبق السؤال · انه الارهاب الاسود الذي يدعونا الى المعركة ويخذلنا في اوج المعركة لانه لا يعادي سوانا · طالبناه بأن يعامل « العبيد » كما يعامل « طائفة اليهود » ، على الاقل ، فجن واتهمنا بالخلاعة، لان لليهود امريكا تحميهم وخطوط دفاع مشتركة · انه الارهاب الاسود الذي يستبق العاصفة التي تتاهب للانفجار فينا ، ويعرف سر فلسطين فيجعلها سرا او عيبا من عيوب القرية · انه ارهاب السلطة ، بميوعة صفاتها الطبقية ، وبوضوح تجلياتها في تسليم الارض ، وفي تحريم النبض ، وفي تعميم القبض · لها حرس ، وعسس ، وادباء وشعراء محمولون على الاوراق وعلى ناقلات الجنود ، انه الارهاب الاسود الذي يعي ازمته فيسبق السؤال بالمشنقة ويحول الكتاب الى كلاب ، ويحول القمع الى ارهاب · انه الارهاب الاسود الذي لا يخيفنا بقدر ما يخيفنا ان لا نعي انه ارهاب ، فلنعلن اننا في زمن الارهاب ، في زمن الارهاب الاسود ·

محمود درويش

باسل أمين عقل

# سياسة كارتر الفلسطينية

حين تسلم الرئيس جيمي كارتر مهام الرئاسة في الولايات المتحدة الاميركية وجلس الى مكتبه في الغرفة البيضاوية في البيت الابيض كانت تكهنات المراقبين السياسيين حول سياسته المرتقبة بشأن الصراع العربي الاسرائيلي تتراوح بين التفاؤل والتشاؤم · فالمتشائمون بقوا على قناعتهم بأن الحكومة الامريكية لن تغير موقفها المتحيز والمتحالف مع اسرائيل ، والمتفائلون توقعوا تغيرا في السياسة الامريكية اما جذريا او اساسيا ·

وقد بنى المتفائلون تفاؤلهم على عدة اعتبارات يمكن ايجازها على النحو التالي :

**اولا :** كون الرئيس كارتر يمثل عهدا جديدا ووجها جديدا ودما جديدا ونهاية لمرحلة ووترجيت التي هزت المجتمع السياسي الامريكي ·

**ثانيا :** الدور الهام الذي لعبته اصوات الزنوج الامريكيين ـ وهم الطبقة العاملة ـ في انتخاب الرئيس كارتر الامر الذي جعل كارتر مدينا بشكل كلي لاصوات اليهود الامريكيين ·

**ثالثا :** النزعة الدينية لدى كارتر وتوجهاته البيوريتانية مما اكسبه في نظر العديد من الناس صفات الصدق والعدل والموضوعية ·

**رابعا :** العداء السافر الذي اظهرته الادارات الامريكية السابقة تجاه الاماني الوطنية العربية والفلسطينية والاعتقاد بأن استمرار هذا العداء لا بد وان يعود

بالضرر على المصالح الامريكية في المنطقـة ، نفطيا وماليا واستراتيجيـا وسياسيا ·

**خامسا :** ميل مصر ـ وهي اكبر دولة عربية ـ نحو الولايات المتحدة بشكل فاق كل التقديرات وعلى حساب علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي ·

**سادسا :** تبلور الهدف الفلسطيني للمرحلة التالية وهو اقامة دولة فلسطينية مستقلة على اي جزء من الوطن الفلسطيني يتم تحريره من الاحتلال الاسرائيلي ·

**سابعا :** تعاظم التأييد الدولي لنضال الشعب الفلسطيني مما خلق مناخـا مناسبا لتحرك امريكي جديد وخاصة في اعقاب وصول ياسر عرفات الى هيئة الامم وقرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ٣٢٣٦ الخاص بحق الشعـب الفلسطيني في تقرير المصير والعودة والاستقلال · ثم دخول منظمة التحرير الى مجلس الامن وتشكيل لجنة العشرين ، وتقرير تلك اللجنة الذي وضـــع برنامجا زمنيا لتنفيذ ما نص عليه القرار ٣٢٣٦ من حقوق وطنية للشـــعب الفلسطيني بالاضافة الى قرار المجتمع الدولي ممثلا بالجمعية العامة في اواخر عام ١٩٧٥ باعتبار الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية والتمييز العنصري ·

**ثامنا :** فشل سياسة الخطوة خطوة الكيسنجرية ·

**تاسعا :** بفوز كارتر اصبح الحزب الحاكم لاول مرة منذ سنوات صاحـب الاغلبية ايضا داخل الكونجرس · فخلال السنوات الماضية كـان الحـــــزب الجمهوري يحكم بينما الحزب الديمقراطي يسيطر على الاغلبية في الكونجرس ، وهذا يوفر لكارتر تعاملا افضل مع السلطتين التنفيذية والتشريعية ·

وحيث ان ادارة كارتر على وشك الشروع خلال ثلاثة او اربعة اشهر فـي الاعداد للانتخابات الكونجرسية التي تشمل حوالي خمسة وستين في المائة من مقاعد مجلس الكونجرس · ولما كان الاعداد لانتخابات الفترة الثانية لرئاسة الجمهورية سيبدأ مباشرة بعد انتخابات الكونجرس فانه من غير الممكن ان يقوم كارتر بخطوات جديدة على صعيد محاولات تسوية الصراع العربي الاسرائيلي الا بعد انتهاء انتخابات الفترة الثانية لرئاسة الجمهورية اي في اواخر ١٩٨٠ · وعليه فانه من المناسب ان نحاول استكشاف ايهما كان على حق ، المتفائلون ام المتشائمون وذلك باستعراض سيرة سياسة كارتر حتى الان · وهي على اية حال سيرة لا تخلو من الاثارة والطرافة ايضا ·

اذا حاولنا تحليل سياسة كارتر برسم خط بياني امكننا تقسيم رحلة الخط البياني الى مرحلتين · الاولى تميزت بالصعود المتدرج اما الثانية فتميـــزت بالهبوط العامودي دون ان يكون للخط البياني اية تعرجات افقية خلال هبوطه المفاجىء ·

## الصعود المتدرج :

هناك مجموعة علامات فاصلة على طريق صعود الخط البياني يمكن تناولها على النحو التالي :

**اولا : تصريح الوطن الفلسطيني** : خلال اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة في شهر اذار ١٩٧٧ فاجأ الرئيس كارتر العالم بتصريحه حول ضرورة قيام وطن للفلسطينيين · وعلى الرغم من وجود مآخذ رئيسية على التصريح اهمها :

أ ) انه لم يجدد فلسطين وطنا للفلسطينيين ·

ب ) انه لم يلتزم بمبدأ الاستقلال والسيادة للفلسطينيين ·

جـ ) انه ورد ضمن تصور امريكي للحل تضمن فيما تضمن فترة انتقالية لعدة سنوات يتم خلالها تعامل اقتصادي وسياسي وثقافي وسياحي بين العرب واسرائيل (١) ·

وعلى الرغم من تلك المآخذ فقد اعتبر التصريح قياسا على المواقف الامريكية السابقة بمثابة قفزة نوعية في السياسة الامريكية وذلك لسببين :

أ ) انه يمثل ولاول مرة سياسة فلسطينية من جانب حكومة الولايات المتحدة ·

ب ) انه يمثل اول اعتراف امريكي بضرورة قيام وطن فلسطيني ( على الرغم من المآخذ السالفة الذكر ) منذ ان ايدت الولايات المتحدة قرار التقسيم في نوفمبر ١٩٤٧ الذي نص على مبدأ قيام دولة فلسطينية · وبقي تعبير الوطن الفلسطيني كما اطلقه كارتر خاضعا للنقاش وقابلا للتفسير ·

ثانيا : **منظمة التحرير تمثل جزءا اساسيا من الشعب الفلسطيني** : ويستمر الخط البياني لسياسة كارتر في صعوده في غمرة الحديث عن جنيف وعن من يمثل الفلسطينيين · فخلال مؤتمر صحفي عقده الرئيس كارتر في واشنطن بتاريخ ٢٩ سبتمبر ( ايلول ) ١٩٧٧ (٢) قال الرئيس كارتر حرفيا :

« ( بالنسبة لمنظمة التحرير ) هذا امر لا زال في مرحلة التفاوض ولا استطيع التكهن بالنتيجة النهائية · وليس لدينا موقف عام حول من يمثل الفلسطينيين بالتحديد او ما هو شكل المجموعة العربية التي سيمثل فيها الفلسطينيون · انني لا استطيع الاجابة على هذا السؤال لانني لم اجد الاجابة له في عقلي » ·

وفي رد على سؤال آخر خلال المؤتمر الصحفي نفسه قال كارتر حرفيا :

« ان منظمة التحرير لا تمثل شعبا · انها هيئة تمثل بالتأكيد جزءا اساسيا من الفلسطينيين · انني متأكد انهم ليسوا الممثلين الوحيدين للفلسطينيين ، فواضح ان هناك مثلا رؤساء بلديات ومسئولين محليين في منطقة الضفة الغربية يعتبرون ايضا ممثلين للفلسطينيين · وهؤلاء قد يكونون او لا يكونون اعضاء في منظمة التحرير · وهكذا فاننا نحاول ايجاد الصيغة المحددة لطرحها على الاخرين » ·

وهذا كلام له مغزاه اذا نظرنا اليه من خلال البنية السياسية الامريكية الداخلية . اذ لم يكن بمقدور كارتر في ظل الالتزامات الامريكية لاسرائيل ، ووزن الفئات الضاغطة الصهيونية ان يعلن ان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني · ولعله من المفيد ان نذكر في هذا المجال ان الملحق رقم (٨) من اتفاقية سيناء الثانية والذي بقي سرياً ثم اعلن (٣) تضمن اتفاقا بين حكومة الولايات المتحدة واسرائيل بتاريخ ١ سبتمبر ( ايلول ) ١٩٧٥ تعهدت الحكومة الامريكية بموجبه « بعدم الاعتراف او التفاوض مع منظمة التحرير ما دامت منظمة التحرير لا تعترف بحق اسرائيل في الوجود ولا تقبل قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ وان تتشاور حكومة الولايات المتحدة وتنسق موقفها واستراتيجيتها في مؤتمر جنيف للسلام حول هذا الموضوع مع حكومة اسرائيل » · وقد وقع الاتفاق نيابة عن الحكومة الامريكية هنري كيسنجر بينما وقعه عن اسرائيل ايجال آلون ·

وعلى اية حال فان تصريح كارتر يمكن اعتباره بمثابة اعتراف ضمني بمنظمة التحرير الفلسطينية · وفي الوقت الذي كان باتريك موينهان مندوب الولايات المتحدة السابق لدى الامم المتحدة في عهد الرئيس فورد يغادر القاعة وراء ممثل اسرائيل حين يقف ممثل فلسطين ليتحدث ، اخذ اندرو يونج المندوب الاميركي الجديد يصافح اعضاء الوفد الفلسطيني ويتحدث اليهم ·

ثالثا : **البيان السوفييتي الامريكي** : وبلغ الخط البياني لسياسة كارتر قمة صعوده بصدور البيان السوفييتي الامريكي في اليوم الاول من اكتوبر ١٩٧٧ · وبالمقياس العربي الفلسطيني تضمن البيان السوفييتي الامريكي الثغرات التالية :

أ ) تضمن البيان روح القرار ٢٤٢ دون ان يذكره تحديدا ·

ب ) نص البيان على اقامة علاقات سلمية طبيعية وهو ما لم يشر اليه حتى القرار ٢٤٢ ·

جـ ) اغفل البيان ذكر منظمة التحرير الفلسطينية ·

ولا شك ان ثغرات البيان المشترك لم تغب عن بال الاتحاد السوفييتي ، ولكنه

في الاغلب تغاضى عنها من اجل انتزاع الاعتراف الامريكي بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني · وهذا على ما يبدو اقصى ما استطاع حليفنا السوفييتي انتزاعه في ظل موازين القوى العالمية وميزان القوى العربية الاسرائيلية · ولو كانت اوضاعنا العربية على غير ما هي عليه من ضعف وتفكك وتهلهل لانتزع لنا السوفييت اكثر بكثير من ذلك ·

وبالمقابل نص البيان السوفييتي الامريكي على ما يلي :

أ ) الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ·

ب ) مبادىء السيادة والسلامة الاقليمية والاستقلال السياسي لـ « شعوب » المنطقة · ويلاحظ هنا ان البيان استعمل الفاظ « الشعوب » و « الاطراف » عما يشمل الشعب الفلسطيني لانه « شعب » و « طرف » وذلك باعتراف الامم المتحدة وحتى الحكومة الامريكية التي ما انكرت كوننا شعبا والطرف الرئيسي المباشر في الصراع مع اسرائيل · اما قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ فانه يتحدث عن « دول » المنطقة · وحيث ان الشعب الفلسطيني لا يملك دولة ولم يكن له دولة يوم اصدر مجلس الامن قراره رقم ٢٤٢ في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ فان القرار المذكور ينطبق على الدول وليس على الشعوب · ولكن الحكومة الامريكية درجت على معاملة الشعب الفلسطيني كدولة عند البحث في التزاماته وكشعب من اللاجئين عند البحث في حقوقه ·

جـ ) تثبيت حق الشعب الفلسطيني في ارسال ممثليه الى مؤتمر جنيف على قدم المساواة مع بقية الاطراف ·

ولعل اهم واخطر ما في البيان السوفييتي الامريكي النقاط الثلاث التالية :

أ ) التزام حكومة الولايات المتحدة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني · وقد اصدر الوفد الفلسطيني في نيويورك بيانا ـ كان من اول ردود الفعل على البيان المشترك ـ اعلن فيه ان منظمة التحرير ترى في البيان « مؤشرات ايجابية » وسارع البيان الفلسطيني الى تفسير الحقوق المشروعة على انها تعني حق تقرير المصير والعودة والاستقلال كما اقرتها واكدتها الجمعية العامة للامم المتحدة ·

ب ) عودة الاتحاد السوفييتي حليف العرب الرئيسي الى لعب دور الشريك المتكافىء مع الولايات المتحدة في عملية البحث عن السلام وذلك بعد ان انفردت الاخيرة طيلة اربع سنوات في محاولة اعادة ترتيب اوضاع المنطقة العربية بمعزل عن الاتحاد السوفييتي دون جدوى ·

جـ ) التزام الدولتين الاعظم علنا وفي بيان مشترك بعقد مؤتمر جنيف في

موعد اقصاه ديسمبر ١٩٧٧ ٠

فماذا كانت النتيجة ؟

لقد اتيح لكاتب هذا البحث ان يشهد على الطبيعة في نيويورك ــ المعقل الاول للصهيونية العالمية ــ ردود فعل الفئات الضاغطة الصهيونية الامريكية على البيان السوفييتي الامريكي المشترك وتراجع ادارة كارتر المهين امام تلك الحملات الاسرائيلية الصهيونية ٠ ولعل استعمال كلمة « مهين » مناسب لوصف تراجع كارتر لان المحيطين به وانصاره كانوا يتبجحون بالقول ان كارتر لن يسمح للوبي الصهيوني بأن يعامله مثل من سبقوه من رؤساء امريكا لانه على حد تعبيرهم « بندقة يصعب كسرها » A hard nut to crack

ولنستعرض رحلة الهبوط العامودي المفاجيء للخط البياني لسياسة كارتر ٠

**الهبوط العامودي :**

كان البيان السوفييتي الامريكي المشترك نهاية المطاف بالنسبة لسياسة كارتر الفلسطينية ٠ ومنذ صدور البيان المشترك والرئيس الامريكي في حالة تراجع ناسفا كل ما قاله او ما اوحى به في السابق ٠ وفيما يلي اهم ملامح الضغوط الاسرائيلية والصهيونية والتراجع الامريكي :

**الضغوط الاسرائيلية والصهيونية :**

**اولا :** اصدرت الحكومة الاسرائيلية بيانا من خمس نقاط رفضت فيه البيان المشترك لانه « يتعارض والمعنى الحقيقي لقرار مجلس الامن ٢٤٢ » ٠ وجاء البيان الاسرائيلي بتاريخ ٢/١٠/٧٧ اي بعد يوم واحد من صدور البيان المشترك ٠

**ثانيا :** بتاريخ ٢/١٠/٧٧ وخلال وجود مناحيم بيجن في المستشفى قال سيمحا ايرليخ وزير المالية الاسرائيلي : « ان اسرائيل لن توافق على دولة فلسطينية ولن تقبل بوجود منظمة التحرير في جنيف ٠ لا يوجد شيء في البيان المشترك لا يدعو الى القلق » ٠ وعبر ايرليخ عن امله بأن البيان لن يعيش ٠ واضاف ان البيان هو « حصيلة محادثات السالت والجهود الامريكية التي تستهدف تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتي على حساب اسرائيل » (٤)٠

**ثالثا :** وصف اسحق رابين البيان المشترك بأنه « **نقطة تحول لا سابقة لها في العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة** » ٠ واضاف انه **لولا وجود بيجن في المستشفى لاستعمل الفاظا اقسى من ذلك بكثير** ٠ ولاحظ رابين ان انسحاب

اسرائيل الى حدود ٦٧ والحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني قد ورد ذكرهما قبل انهاء حالة الحرب واقامة علاقات سلمية طبيعية (٥) ٠

**رابعا** : اعلن شمعون بيريز وزير الدفاع السابق وزعيم التحالف العمالي ان البيان السوفييتي الامريكي « عزل اسرائيل كليا عن الساحة السياسية الدولية وانه يتعارض مع كل قواعد اللعبة ويتناقض مع قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ اللذين لم ينصا على تمثيل فلسطيني في جنيف وبالتأكيد لم يدعوا الى اقامة دولة فلسطينية » (٦) ٠ ويلاحظ هنا ان تصريحات المسئولين وغير المسئولين الاسرائيليين اشتمت في البيان السوفييتي الامريكي رائحة الدولة الفلسطينية ، الامر الذي ينسجم مع تحليلنا للالفاظ التي تعمد البيان المشترك استعمالها مثل « الشعوب » و « الاطراف » وذلك حتى يترك الباب مفتوحا امام الشعب الفلسطيني ٠ وهذه نقطة الفضل فيها بلا ادنى شك للاتحاد السوفييتي ، ولكن المهم ان الولايات المتحدة ـ وهي موضع بحثنا ـ قد التزمت بها او ألزمت بها كما التزمت ايضا بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني التي يفهمها السوفييت على انها تعني ايضا ضمن ما تعني اقامة دولة فلسطينية ٠

هذه عينة من الضغوط الاسرائيلية ٠ اما الضغوط الصهيونية الامريكية فيمكن على سبيل المثال لا الحصر ابراز مظاهرها التالية :

**اولا** : كان موشي دايان وزير الخارجية الاسرائيلي في نيويورك يحضر اجتماعات الجمعية العامة للامم المتحدة وقت صدور البيان ٠ فأخذ يجوب الولايات المتحدة الامريكية ويخطب في التجمعات اليهودية محرضا اياها بألفاظ خارجة عن العرف واللياقة الدبلوماسية ـ وكأنه في تل ابيب ـ ضد الرئيس كاتر بسبب تورطه في البيان المشترك ٠

**ثانيا** : اعلن الحاخام الكسندر شندلر رئيس مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الامريكية الرئيسية في برقية مفتوحة الى سايروس فانس وزير الخارجية الامريكي ان البيان المشترك « يعني تخلي امريكا عن التزامها التاريخي بأمن وبقاء اسرائيل ويهدد مصالح اسرائيل باعطاء دور رئيسي للاتحاد السوفييتي ليس فقط في جنيف ولكن ايضا في الشرق الاوسط » (٧) ٠

**ثالثا** : دعا الحاخام جوزيف شتيرن شتاين « الشعب اليهودي في امريكا » الى « تعبئة فورية قومية » ٠ ووصف البيان المشترك بأنه « ميونيخ جديدة » وطالب باجتماع القيادات اليهودية في واشنطن للتعبير عن قلقها بسبب « الاتجاه المميت الذي انتهجته السياسة الامريكية واخطارها القاتلة على دولة اسرائيل » (٨) ٠

**رابعا** : كان سكان الولايات المتحدة يقرؤون هذه التصريحات في ابرز

الصحف التي جندتها اجهزة الاعلام الصهيونية في حملة شرسة ضد كارتر والبيان المشترك · واخذت محطات الاذاعة والتلفزيون الامريكية تذيع ساعة بساعة اخبار وتطورات الحملة الصهيونية · كما ان القنال ١٣ على التلفزيون الامريكي كان ينقل ويكرر بشكل مستمر البرقيات التي تتناقلها وكالات الانباء حول تفاصيل الاحتجاجات الصهيونية ·

**خامسا** : نظهم اليهود وانصارهم مظاهرات في جميع انحاء امريكا واطلقوا شعار : كارتر رئيس الفترة الواحدة بمعنى انه لن يفوز في انتخابات الرئاسة للفترة الثانية One term President

**سادسا** : خلال اسبوع واحد عرض التلفزيون الامريكي فيلمين متعاقبين : الاول حول اغتيال ابراهام لنكولن والثاني حول اغتيال جون كنيدي · ومغزى عرض الفيلمين في ذلك الوقت مفهوم ولا يحتاج الى اي تعليق ·

**سابعا** : شنت الاوركسترا الصهيونية داخل الكونجرس حملة سياسية شملت الكونجرس والصحافة والتلفزيون ضد البيان المشترك والدور الذي سيلعبه السوفييت · والحديث عن اخطار المشاركة السوفييتية يؤثر على العديد من الامريكيين الذين لا يرون في السوفييت الا « البعبع » الذي يحمل في جعبته الفوضى والصراع الطبقي والسيطرة الدموية على الحكم والالحاد · وفي هذا المجال قال السناتور هنري جاكسون وهو من غلاة الصهيونيين المتعصبين ان موافقة امريكا على التعاون مع الاتحاد السوفييتي في معالجة الصراع العربي الاسرائيلي كانت بمثابة « السماح للثعلب في العودة الى بيت الدجاج » (٩) ·
« The fox back in the chicken coop ».

**ثامنا** : بتاريخ ٤/١٠/٧٧ ( بعد ثلاثة ايام من البيان المشترك ) هبطت في نيويورك طائرة هليوكوبتر تقل الرئيس كارتر ليلقي خطابا امام الجمعية العامة للامم المتحدة · وكان المفروض ان يجري احتفال صغير في مكان هبوط الطائرة يلقي خلاله كارتر كلمة يعلن فيها تأييده للمستر كاوش المرشح الديمقراطي لرئاسة بلدية نيويورك · وما ان وصل كارتر الى كاوش الذي كان في عداد المستقبلين ومد له يده مصافحا حتى فاجأ كاوش الرئيس وعدسات التلفزيون بتسليمه رسالة تتضمن احتجاجا على البيان السوفييتي الامريكي · وتجهم وجه الرئيس الامريكي وغادر مكان الاحتفال متجها الى مبنى الامم المتحدة دون ان يلقي كلمته المقررة ·

وتحول المشهد الى حدث سياسي غير مألوف لانه تم بشكل علني وتلفزيوني وبين شخصين ينتميان الى حزب واحد · وخرجت صحف المساء في نيويورك في نفس اليوم وعلى صدر صفحاتها مانشيت عريض يقول : « كارتر يتعرض

للتوبيخ العلني » · وكان الحادث مادة دسمة للتعليق على شاشات التلفزيون ومحطات الاذاعة ·

وقد اراد كاوش بعمله هذا ان يضرب ثلاثة عصافير بحجر واحد :

أ ) ان يساهم علنا بحكم ولائه الصهيوني وعلى مستوى الرئاسة الامريكية في الاحتجاج على البيان المشترك ·

ب ) ان يقول لكارتر ما معناه انه لا يريد تأييده له في انتخابات رئاسة بلدية نيويورك لان ادارته تجرأت ووافقت على البيان المشترك ·

جـ ) ان يضمن بموقفه هذا نجاحه في الانتخابات ·

وقد صحت تقديرات كاوش وحساباته وهو اليوم رئيس لبلدية نيويورك ·

ولا يفوتنا ان نسجل في هذا المقام ان كارتر اضطر بعد ايام قليلة من الحادث المذكور ان يستقبل كاوش في البيت الابيض مع مجموعة من جهابذة السياسة الامريكية المؤيدين لاسرائيل وقال لهم كلمته المشهورة : « افضل الانتحار السياسي على الحاق الاذى باسرائيل » · رئيس احدى اكبر دولتين في العالم يفضل الانتحار السياسي على الحاق الاذى باحدى اصغر الدول في العالم ···

وقد سقنا المثال الاخير بشيء من التفصيل للتدليل على المدى الذي يمكن ان يذهب اليه اللوبي الصهيوني في تحقيق اغراضه ومآربه ·

هذه امثلة وعينات من الضغوط الصهيونية والاسرائيلية فكيف كان رد فعل كارتر وادارته ؟

## التراجع الامريكي :

أيقن كبار المسئولين في الادارة الامريكية وخاصة المعنيين برسم سياستها الشرق الاوسطية ان رد الفعل الصهيوني على البيان المشترك كان اعنف واعم بكثير مما تصوروا · وتمهيدا للتراجع بعد ان ارتعدت فرائصهم واستبد بهم الخوف والقلق على مستقبل كارتر السياسي وبالتالي على ادارته اخذ بعضهم يمرر معلومات عبر الصحفيين مفادها ان « ادارة كارتر تتعرض للمدفعية الصهيونية الثقيلة » وان « الضغط شديد » وانه « لا بد من تطمين اسرائيل »· وبدأت رحلة التراجع او الهبوط العامودي على النحو التالي :

**اولا :** اعلن زبجنيو بريجنسكي رئيس مجلس الامن القومي في حديث للتلفزيون الكندي بعد اقل من اربع وعشرين ساعة على صدور البيان المشترك « اذا تعرضت اسرائيل للتهديد وخاصة من دولة خارجية فان الولايات المتحدة

حتى من الان وبدون معاهدة امنية ستهب بالتأكيد لنجدة اسرائيل » · (١٠)

وقد جاء كلام بريجنسكي في اعقاب تصريحات متعددة لكارتر اكد فيها ان الولايات المتحدة تنتهج سياسة متوازنة even handed policy بالنسبة للصراع العربي الاسرائيلي · ومع ذلك فان التأكيدات والتطمينات توجه الى اسرائيل فقط ·

**ثانيا** : بتاريخ ٤/١٠/٧٧ ألقى الرئيس كارتر خطابه امام الجمعية العامة للامم المتحدة وكانت الحملة الصهيونية في ذروتها · ومع انه اتى بشكل عابر على لفظ الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني فان خطابه باجماع جميع المراقبين ( ويمكن الرجوع اليه في محاضر الامم المتحدة ) جاء صهيونيا شكلا ومحتوى بنسبة ثمانين في المائة · والطريف ان كارتر تلعثم حين قال « الشعب الفلسطيني » فلفظ بدلا منه « الشعب البانامي » وكأنه خائف من مجرد اللفظ ··

وخلال حديثه عن اسرائيل قال كارتر : « اسرائيل التي قاتلت اربع مرات في حروب رئيسية دفاعا عن وجودها » ·

ألم يكن بمقدور كارتر ان يقول بالمقابل تطبيقا لسياسته « المتساوية » : « الشعب الفلسطيني المحروم من وطن طيلة ثلاثين عاما » ولو قال هذا الكلام لجاء منسجما مع تصريحه حول انشاء وطن للفلسطينيين ·

**ثالثا** : في اليوم التالي اي بتاريخ ٥/١٠/٧٧ عقد اجتماع في نيويورك بين كارتر ودايان في جناح الرئيس الامريكي في الفندق · ثم استأنف دايان وفانس الاجتماع حتى الثانية صباحا خرج بعدها دايان ليعلن في مؤتمر صحفي في ساعات الفجر الاولى ان الاتفاق كامل بين الحكومتين ، واتضح فيما بعد ان الجانبين اتفقا على ورقة عمل بشأن جنيف اذيع نصها الرسمي يوم ١٣/١٠/٧٧ خلال جلسة الكنيست · (١١) وتضمنت الورقة ما يلي :

أ ) ان تشكل الاطراف العربية وفدا عربيا موحدا الى جنيف يضم عربا فلسطينيين ·

والقصد بطبيعة الحال تذويب استقلالية الطرف الفلسطيني وهويته وتجاوز منظمة التحرير الفلسطينية ·

ب ) ان ينقسم المؤتمر الى مجموعات عمل مصرية اسرائيلية واردنية اسرائيلية وسورية اسرائيلية ولبنانية اسرائيلية · وان يبحث موضوع الضفة الغربية وغزة في مجموعة عمل تضم اسرائيل والاردن ومصر وعربا فلسطينيين ·

والقصد بطبيعة الحال ان تواجه اسرائيل كل طرف عربي على حدة ، للحيلولة دون بروز موقف عربي موحد وحتى لا تكون القضية الفلسطينية القضية المركزية في المؤتمر ٠

جـ ) حل مشكلة اللاجئين العرب واللاجئين اليهود سيبحث وفقا لشروط يتم الاتفاق عليها ٠

والقصد بطبيعة الحال خلق مشكلة جديدة تدعم الموقف التفاوضي الاسرائيلي واضعاف اهم ورقة يحملها الطرف الفلسطيني وهي ورقة حق العودة ٠ وحق العودة كما اقرته واكدته الامم المتحدة يشمل اراضي فلسطين التي احتلت عام ١٩٤٨ ٠ وهذا يعني في حالة التطبيق الدولة الديمقراطية العلمانية ٠

د ) ان يبقى الاطار الاساسي لصلاحيات مؤتمر جنيف Terms of reference كما هو الا اذا وافقت على تغييره كافة الاطراف الى المؤتمر ٠

والقصد بطبيعة الحال تثبيت قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ كاطار لانعقاد مؤتمر جنيف الامر الذي تجنبه البيان السوفييتي الامريكي تحديدا ٠ ويترتب على ذلك التراجع عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني لان القرار ٢٤٢ يتعامل مع الفلسطينيين كلاجئين ٠

ماذا بقي من البيان السوفييتي الامريكي ؟

**رابعا :** اذا كانت الدولتان الاعظم قد اتفقتا في البيان المشترك على مجموعة مبادىء من اجل عقد مؤتمر جنيف دون ان تشيرا الى القرار ٢٤٢ فلماذا العودة الى الحديث عنه كقاعدة واساس لمؤتمر جنيف ٠ ولعل الحديث التالي لبريجنسكي يؤكد تحليلنا للبند « د » من ورقة العمل الامريكية الاسرائيلية ٠ ففي حديث تلفزيوني بتاريخ ٣٠-١٠-٧٧ سئل بريجنسكي عن امكانية اشتراك منظمة التحرير في مؤتمر جنيف فاجاب : « لا يمكن لاحد ان يشترك في المؤتمر قبل ان يقبل اساس المؤتمر وهو القرار ٢٤٢ ٠ ومنظمة التحرير لم تقبل هذا القرار ٠ وثانيا فان الاطراف المشتركة في المؤتمر هي التي تقرر من يشترك فيه ٠٠٠ ومنظمة التحرير كهيئة لا تستطيع المشاركة بسبب موقفها من القرار ٢٤٢ وايضا بسبب العداء الاسرائيلي الشديد لها ٠٠٠ ولكن دايان وزير الخارجية يشرب الشاي عادة مع رؤساء البلديات في الضفة الغربية ٠ وهو يعلم جيدا علاقة هؤلاء بمنظمة التحرير ٠ وهكذا فان هناك وسائل اخرى لمعالجة مشكلة كهذه » ٠ (١٢)

**خامسا :** واذا كانت لا تزال لدى البعض بقية من اوهام حول ما يعنيه الرئيس كارتر بتعبير الوطن الفلسطيني على اعتبار انه ربما كان يرمي العودة الى مبدأ التقسيم وبالتالي السيادة والاستقلال الفلسطينيين ٠ فقد اختار الرئيس

الامريكي يوم ٢ نوفمبر ١٩٧٧ اي ذكرى مرور ستين عاما على صدور وعـــد بلفور ليعلن مفهومه للوطن الفلسطيني · ففي خطاب له امام المؤتمر اليهـودي العالمي الذي كان يحتفل بالمناسبة قال كارتر : « سنستمر في تشجيع الوصـول الى حل بناء للقضية الفلسطينية ونحن من جانبنا لا نفضل دولة فلسطينيـــة مستقلة في الضفة الغربية ( تصفيق ) ··· ان علاقتنا باسرائيل ستظل قوية · فمنذ عام ١٩٧٣ قدمنا لاسرائيل مساعدات عسكرية واقتصادية قيمتها عشـرة بلايين دولار كان ثلثاها عبارة عن هبات مباشرة وقروض مسهلة Concessional وان حجم هذه المساعدة لا مثيل لها في التاريخ · وهو دعم سلامة اسرائيـل الاقتصادية وقوى قدرتها العسكرية · ان دعمنا سيستمر · » (١٣) (تصفيق)

وهكذا في ذكرى الوطن القومي اليهودي اعلن كارتر انه لا يحبذ وطنـــا فلسطينيا مستقلا ·

**سادسا** : توقف الحديث نهائيا عن البيان المشترك وبالتالي عن الحقـــوق المشروعة للشعب الفلسطيني · واشرفنا على نهاية شهر ديسمبر ١٩٧٧ ولـم ينعقد مؤتمر جنيف وكان قد مضى ثلاثة اشهر على صدور البيـــان · وتحققت تمنيات سيمحا ارليخ فقضى البيان المشترك متأثرا بالهجمات الصهيونية وتخلي الامريكيين عنه · وساعد على التعجيل بنهايته زيارة الرئيس السادات للقـدس والمناخ السياسي الجديد الذي استشرى عربيا ودوليا · وبدلا من ان يستفيـد كارتر من التنازل التاريخي الذي اقدم عليه السادات بزيارته للقدس فيتقـــدم خطوة على الصعيد الفلسطيني رأيناه يمعن في تراجعه حماية لنفسه ومستقلبه من براثن اسرائيل واللوبي الصهيوني وكأنه يريد الانعتاق من مرحلة ما بعـــد البيان المشترك ·

ففي لقاء له مع ممثلي شبكات التلفزيون الامريكي دار جزء من الحوار على النحـــو التالي :

الرئيس : ان الرئيس السادات لا يزال يصر على ان ما يسمى الكيـــــان الفلسطيني يجب ان يكون دولة مستقلة · وانا افضل ان لا يكون الكيان مستقلا وان يرتبط بشكل ما بالدول المحيطة مثل اسرائيل او الاردن ··· ورايي الشخصي انه لا يمكن تحقيق سلام دائم بخلق دولة جديدة راديكالية مستقلة في قلـــب منطقة الشرق الاوسط ·

سؤال : هل توافق على موقف مناحيم بيجن الذي يقول بوجود دائم للقوات الاسرائيلية في الضفة الغربية وان كل من يريد السلام يجب ان يعلم ذلك · هل هذا موقف تفاوضي واقعي ؟

الرئيس : نعم انه بالتأكيد موقف تفاوضي واقعي ··· واعتقـــد ان رئيس

الوزراء بيجن قد أظهر قدرا كبيرا من الواقعية · وعلى اية حال فان العلاقة بين حكومة الحكم الذاتي في الضفة الغربية والاردن او اسرائيل سوف تخضع لمزيد من المفاوضات · (١٤)

وبهذا الكلام يكون كارتر قد انحاز علنا الى الموقف الاسرائيلي ، وتبني مشروع بيجن للسلام الذي عرضه عليه قبل ذلك بأيام في واشنطن ثم عرضه على الرئيس السادات في اجتماع الاسماعيلية خلال عيد الميلاد المجيد · وبذلك خذل كارتر الرئيس السادات الذي ما زال يرفض مشروع بيجن القائم على حكم ذاتي للفلسطينيين ووجود عسكري اسرائيلي في الضفة وفترة انتقالية لمدة خمس سنوات يتقرر بعدها مع من يرتبط فلسطينيو الارض المحتلة ، مع الاردن او مع اسرائيل · وعاد كارتر بعد يومين وكرر تحبيذه لكيان فلسطيني مرتبط بالاردن وذلك خلال وجوده في بولندا · قال : « ان موقفنا هو مجرد تعبير عن تحبيذ وليس في نيتنا محاولة فرض التسوية » (١٥) ·

**سابعا** : وفي نفس الوقت وحتى يتم احكام التراجع الامريكي كانت قد بقيت نقطة اساسية ما زالت تزعج اسرائيل وهي الموقف الاميركي الحقيقي من منظمة التحرير · وقد تنطح بريجنسكي لحسم الموضوع حين قال في حديث لمجلة باري ماتش الفرنسية « وداعا منظمة التحرير · » (١٦) واذا كان كلام بريجنسكي هذا لا ينطوي على تراجع وقح وجبان فكيف يمكن التوفيق بين كلامه وكلام رئيسه كارتر قبل ثلاثة اشهر فقط حين قال ان منظمة التحرير الفلسطينية تمثل جزءا اساسيا من الشعب الفلسطيني ؟

وعلى سبيل التندر نذكر ان كاتب هذا البحث شارك فيما بعد في لقاء تم بين وفد فلسطيني ووفد من الكونجرس الامريكي في دمشق · وعندما اثير موضوع « وداعا منظمة التحرير » استنكر معظمهم التصريح · ولكن احد اعضاء الوفد الفلسطيني قال بلهجة لا تخلو من السخرية : « ان التعبير الدارج بالانكليزية هو : باي باي نراكم فيما بعد Bye Bye See You Later ولكن بريجنسكي على ما يبدو ودعنا ونسي ان يقول متى سيلقانا · »

وقد سئل بريجنسكي فيما بعد في لقاء تلفزيوني عن حقيقة تصريحه المشار اليه فأجاب بأنه قال « لم يعد هناك دور لمنظمة التحرير (١٧ ) » · وهذا لا ينفي الواقعة بل يؤكدها ويؤكد قصة « الوداع » ···

**ثامنا** : وعندما ارتطم الخط البياني لسياسة كارتر الفلسطينية في هبوطه العامودي بالارض كان الارتطام قويا وكان صداه صوت كارتر يعلن في حديث صحفي لصحيفة صنداي تيمز ما يلي : (١٨)

أ ) ان التسوية الدائمة لن تشمل دولة فلسطينية مستقلة · واضاف انه «لن

يغير موقفه من موضوع الدولة » · وهكذا حل « التصميم » مكان « التحبيذ » بعد ان كان كارتر يردد انه « يفضل » كيانا فلسطينيا ولا « يحبذ » دولة مستقلة·

ب ) ان التسوية الدائمة لن تشمل « انسحابا اسرائيليا كليا من الاراضي المحتلة » ·

جـ ) ان التسوية الدائمة ستقوم « اساسا على مشروع بيجن الخاص بالحكم الذاتي » ·

د ) انه ملتزم بوعود كيسنجر واتفاقاته مع الاسرائيليين ·

هـ ) ان العنصر الاهم في رسم سياسة اميركا الشرق اوسطية هو « امن اسرائيل وليس الخوف من خطر النفط العربي » ·

و ) انه عندما مارس العرب حظر النفط عام ١٩٧٣ لم تتخل الولايات المتحدة عن اسرائيل كما انها لن تتخل عنها مستقبلا · « ولدينا مصادر بترول آمنة جداً وغير عربية مثل فنزويلا والاسكا وبريطانيا والمكسيك ونيجيريا » ·

ز ) انه يفضل ان يتعامل السادات وبيجن مع بعضهما مباشرة « دون ان يعتمدا على الولايات المتحدة لتقوم بدور الوسيط لانه دور يستهلك الوقت ويبعث على الخيبة » ·

ان كارتر سيخوض انتخابات رئاسته للفترة الثانية في نهاية عام ١٩٨٠ · واغلب الظن انه سيفوز وسيبقى في الحكم حتى نهاية ١٩٨٤ لانه نادرا ما خسر رئيس امريكي الانتخابات وهو في الحكم · واذا كان الرئيس فورد قد خسر الانتخابات امام كارتر فلانه رئيس غير منتخب وقد جاء الى الحكم ليكمل فترة رئاسة نيكسون في اعقاب فضيحة ووترجيت · ومع ذلك فان كارتر فاز على فورد بفارق ضئيل في الاصوات ·

وعلى هذا الاساس يمكن تحديد معالم سياسة كارتر الفلسطينية من الان وحتى نهاية ١٩٨٠ وربما حتى نهاية ١٩٨٤ على النحو التالي :

**أولا :** اقفال الباب نهائيا امام اي حديث عن دولة فلسطينية مستقلة ·

**ثانيا :** معارضة الحقوق الوطنية الفلسطينية التي اقرتها الجمعية العامة للامم المتحدة وهي حق تقرير المصير والعودة والاستقلال ·

**ثالثا :** عدم الاعتراف او التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية ·

**رابعا :** تكريس مشروع بيجن الخاص بالحكم الذاتي اساسا لاي حل ·

**خامسا :** ربط الكيان الفلسطيني المقترح بالسيادة الاردنية وربما الاسرائيلية·

**سادسا :** الالتزام بوجود اسرائيلي عسكري دائم في الضفة الغربية ٠

**سابعا :** اسقاط احد اهم ادوات الضغط العربي وهو النفط كعنصر فاعل او مؤثــــر ٠

**ثامنا :** رفض القيام بدور الوسيط في الصراع علما ان الرئيس السادات لا يزال يطالب الولايات المتحدة بان تكون شريكا وليس فقط وسيطا ٠

**تاسعا :** اخضاع الاراضي المحتلة والمنطقة العربية لهيمنة الالة العسكريــــة الاسرائيلية المزودة باستمرار باحدث الاسلحة الامريكية ٠

**عاشرا :** أمن اسرائيل اولا وآخرا ٠

ويود كاتب هذا البحث ان يذكر انه شاهد بنفســه الرئيس السادات علــى شاشة التلفزيون الامريكي خلال شهر نوفمبر ١٩٧٧ يقول انه في الفترة التــي سبقت زيارته للقدس تبادل والرئيس كارتر « مجموعة رسائل سرية بخط اليــد وانه استوحى فكرة زيارة القدس من احدى هذه الرسائل » ٠ كما ان الرئيــس السادات كان قد ذكر في بعض احاديثه الصحفية ان كارتر كان قد رجاه قبــل زيارته للقدس بان يساعده سياسيا ٠ ومن المعلومات التي تسربت وهي علــى أية حال غير مؤكدة ان كارتر اقترح ـ غالبا في رسائله السرية ـ على السادات ان يقابل الاسرائيليين فيالخارج ٠ فما كان من السادات الا ان تجاوب تجاوبا كريما جدا فذهب الى القدس اي الى ابعد مما طلب كارتر ٠

فهل معنى ذلك ـ وهذا مجرد اجتهاد ـ ان كارتر ايقن خلال الحملة الصهيونية عليه بعد البيان السوفييتي الامريكي انه لن يستطيع المضي في خطته الشــرق اوسطية وبالتالي فقد لجأ الى الرئيس السادات ليعفيه من مسئولية الضغــــط على اسرائيل فكانت رحلة القدس ؟ ان هذا الاجتهاد يفترض حسن النية فــــي كارتر وسياسته ولكنه اضطر للتراجع عن نواياه بسبب الضغط الصهيوني ٠

ويبقى الاجتهاد الاخر وهو ان كارتر كان من البداية ملتزمــــا بالمواقــف الامريكية الثابتة من اسرائيل وان كل ما صدر عنه في العام الاول من حكمــه كان مجرد بالونات وفقاقيع ضمن اللعبة الدولية الكبيرة لاستعادة مواقع نفوذ في المنطقة فقدتها الولايات المتحدة على يد عبد الناصر وبدأت تستعيدها عــلى يــد السادات ٠

ومهما يكن من امر فالحصيلة واحدة : بيجن يقرر ان الاراضي المحتلة هــي اراض محررة ٠ و. دايان يعلن ان على الفلسطينيين ان يســتوطنوا فــي اماكن تشتتهم ٠ ووايزمان يعربد في جنوب لبنان وغيره قصفا وقتلا وسفكا ٠ وشارون يتباهى بانه يعمل على جلب مليوني يهودي مهاجر ضمن خطته العشرينيــــة

الخاصة باقامة المستوطنات في الاراضي العربية المحتلة · والسادات لا يــزال يأمل خيرا في اسرائيل وكارتر علما ان بضاعة الوقت بالنسبة لنا ثمينـــة جدا· فهل مطلوب منا اليوم ان ننتظر حتى ينتهي كارتر من انتخابات عـــام ١٩٨٠ وبالتالي يتحرر من القيد الانتخابي اليهودي ؟

ان الحركة الصهيونية حركة اخطبوطية ذات نفوذ هائل واموال ذات ارقام فلكية · ولكن الامة العربية تملك اضعاف ما تملكه الصهيونية مالا ونفـــوذا ونفطا وموقعا وبشرا · انما الفارق بين الاثنتين هو ان اسرائيل ، وجودا وامنا، تشكل البند رقم واحد على قائمة اولويات الحركة الصهيونية · بينما لا تشكل فلسطين وهي رديف للامن والوجود العربي اي بند على قائمة اولوياتنا · فعندما « قلق » الكيان الاسرائيلي من البيان السوفييتي الامريكي انطلقت كل القـوى والطاقات والامكانيات الصهيونية من عقالها حتى تم قتل البيـــــان في مهده · وعندما تهان كبرياؤنا وتداس حقوقنا وتنتهك سيادتنا وتحتل اوطاننا سنينـــا وسنين ، نزايد على بعضنا قولا وليس فعلا ، ونعاير بعضنا ادعـــــاء وكذبا ، ونتحدث عن مآثرنا انتفاخا وغرورا ، ونتكفىء على انفسنا قوميـــا واقليميا . ونطلق الوعود سفسطة وهراء ، ونتصيد اخطاء الشعب الفلسطيني ونتفــرج عليه وهو يناطح السحاب وحده ، لان القضية قضيته اعانه الله واخذ بيده ···

منذ حوالي ثلاثين عاما دفع الكاتب البريطاني الساخر « جورج اورويـــل » بواحد من كتبه الى المطبعة وقد اختار له العنوان التالي : ١٩٨٤ ، والكتـــاب عبارة عن محاولة لتخيل العالم عام ١٩٨٤ والمتغيرات التي ستطرأ عليه بشريا وسياسيا واقتصاديا وتكنولوجيا · ولقد كان اورويل قريبا مـــــن الواقع فـــي تصوراته الاستباقية للعالم اليوم قبل ثلاثين عاما الا فيما يتعلق بالعالم العربي الذي على ما يبدو بقي على حاله · ويخشى ان يأتي عام ١٩٨٤ ونحن لا نزال نراوح مكاننا · وتشاء الظروف ان يكون عام ١٩٨٤ نهاية الفتـــــرة الثانيـــة لرئاسة كارتر · وعندها ستتبجح اميركا بالعذر المزمن وهو الانتخابات· وتمضي الانتخابات ويفوز رئيس جديد ويتسلم الرئاسة ثم يبدأ في تعلم المشكلة ويرســل مندوبيه الى منطقتنا لجس النبض · ثم تقترب الانتخابات الكونجرسية ونسمــع العذر المزمن مرة اخرى · فتتوقف الحركة في حين تستمر اسرائيل في ابتــلاع الارض شبرا شبرا وهكذا دواليك ونحن صامدون مثابرون على الدعاء اليه تعالى ليمدنا بالنصر المؤزر من عنده ·

بقيت في جعبتنا الكلمات التالية :

خلال شهر نوفمبر ١٩٧٧ اتيح لكاتب هذا البحث ان يشاهد موشيه دايــان وزير خارجية اسرائيل على التلفزيون الاميركي في برنامج يوم الاحد الصباحي Face the Nation مـ عالمذيعة المعروفة باربارا وولترز · ويعتبر البرنامج مـــن

اهم البرامج التلفزيونية في اميركا وتشاهده اعلى نسبة من المشاهدين لانه يذاع صباحا وخلال عطلة نهاية الاسبوع حيث الناس في منازلهم ٠

ومن بديهيات الظهور على التلفزيون في الولايات المتحدة والعالم الغربي عموما ان يكون السياسي معتدلا ومعقولا في لهجته حتى يعطي افضل صورة عن بلاده وقضيته ويكسب بالتالي المزيد من تأييد الرأي العام ٠

وقد جرى الحوار على النحو التالي :

باربارا وولترز : ان قضية فلسطين هي لب الموضوع ومحور الصراع العربي الاسرائيلي ٠ وما لم ينصف الفلسطينيون فانه لا أمل في سلام دائم في منطقة الشرق الاوسط ٠ وكل سلام بدونهم سيفشل فما رأيكم ٠

دايان : ان عليهم اولا ان يعدلوا ميثاقهم الوطني ٠

باربارا وولترز : لنفرض انهم عدلوه فماذا سيأخذ الفلسطينيون ٠

دايان : عليهم ان يقبلوا القرار ٢٤٢ ٠

باربارا وولترز : لنفرض انهم قبلوه فماذا سيأخذون ٠

دايان : عليهم في هذه الحالة ان يغيروا احشاءهم ٠

ولكل الذين ما زالوا يعتقدون ان المشكلة تكمن في عدم قبول الفلسطينيين القرار ٢٤٢ نقول :

أليست كلمات دايان هذه هي التعجيز بعينه والكذب والغرور والغطرسة والاستخفاف بنا وبكل ما نمثل في هذا العالم ؟

ولكن هل نلوم دايان ؟

ام نلوم كارتر ؟

ام نلوم أنفسنا ؟

هذا هو السؤال ٠

---

**الحواشي :**

(١) **نشرة وزارة الخارجية الامريكية**، ١١ نيسان (ابريل) ١٩٧٧ ص٠ ٣٢٤_٣٢٥

(٢) **نشرة وزارة الخارجية الامريكية** ، ٣١ اكتوبر ١٩٧٧ ص٠ ٥٨٤ _ ٥٨٦ ٠

(٣) نشرت نصه لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الامريكي بتاريخ ٣ اكتوبر ١٩٧٥ ٠

(٤) نشرة **الوكالة التلغرافية اليهودية**

الصادرة في نيويورك بتاريخ ٣ـ١٠ـ٧٧ رقم ١٨٦ .

(٥) **المصدر السابق** .

(٦) **المصدر السابق** .

(٧) **المصدر السابق** .

(٨)**المصدر السابق** . ( وشتيرن هـو رئيس المنظمة الصهيونية الامريكية ) .

(٩) حديث تلفزيوني لشبكة التلفزيون الامريكـي N B C فـي برنـامـج Meet the Press بتاريخ ٢ـ١٠ـ٧٧ .

(١٠) شبكة التلفزيون الكندي C T N بتاريخ ٢ـ١٠ـ٧٧ .

(١١) صحيفـة **جيروسالـم بوست** ١٤ـ١٠ـ٧٧ ص ١ .

(١٢) **نشرة وزارة الخارجية الامريكية،** بتاريخ ٥ـ١٢ـ٧٧ ص ٨٠٣ ـ ٨٠٤ .

(١٣) **نشرة وزارة الخارجية الامريكية،** بتاريخ ٢٨ـ١١ـ٧٧ ص ٧٦٠ ـ ٧٦٢ .

(١٤) تم اللقاء التلفزيوني مع ممثلين عن شبكات CBS , NBC , PBS , ABC بتاريخ ٢٨ـ١٢ـ٧٧ .

(١٥) صحيفة **نيويورك تايمـز** ص ٢ بتاريخ ٣١ـ١٢ـ٧٧ .

(١٦) مجلة **بـاري ماتش** بتاريـخ ٢٨ـ١٢ـ٧٧ .

(١٧) شبكة التلفزيون الامريكي CBS بتاريخ ٨ـ١ـ٧٨ .

(١٨) صحيفـة **صنداي تايمـز** البريطانية ص ٨ بتاريخ ٣٠ـ٤ـ٧٨ .


محمود درويش

**يوميات الحزن العادي**

**في السجن ، والوطن ، والمنفى ، والعالم**

صدر عن مركز الابحاث ودار العودة

طبعة جديدة منقحة

سعر النسخة ١٠ ل.ل. او ما يعادلها

سمير كرم

# معادلة "التوازن الاستراتيجي" بين سحر التكنولوجيا والعقيدة العسكرية

حينما يبدو « الانفراج الدولي » في لحظات تراجع تتقدم تلقائيا على القضايا الدولية العامة المتعلقة به قضية التوازن الاستراتيجي العالمي · ووراء هذه القضية تثار مسائل عديدة في الوقت الراهن لا تنفصل عنها بأي حال ·· قنبلة « النيوترون » بين نعم ولا · محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية ( سولت ) بين الجمود والالغاء · قوة حلف الاطلسي في مواجهة قوة حلف وارسو بين الاعتماد على الترسانة الذرية والعودة الى الترسانة التقليدية · حتى صراعات القرن الافريقي ، وما يجري في اقليم « شابا » الزائيري والدور الكوبي في افريقيا ·· فضلا عن الصراع العربي الاسرائيلي بأعراضه المزمنة ·· كل هذا يناقش ــ وتتخذ فيه قرارات ومواقف احيانا ــ في ضوء تلك القضية الهامة للغاية قضية « التوازن الاستراتيجي العالمي »·

واعراض التراجع التي تعتري « الانفراج الدولي » هي في التحليل الاخير انعكاس لشعور اطراف دولية عديدة بظواهر تغير في الميزان الاستراتيجي لم تكن بادية بوضوح عندما تأسس « الانفراج الدولي » في بداية السبعينات على فرضية امكان تثبيت هذا الميزان بدقة عند نقطة « توازن امني » مطلق وليس نسبيا ·

ومما لا شك فيه ان كثير من القرارات السياسية الاقليمية يتخذ في مناطق العالم المختلفة هنا وهناك على اساس افتراض حالة معينة للميزان الاستراتيجي : فهو اما أميل الى تفوق الغرب ، او أميل الى تفوق الشرق ، او هو في حالة التوازن المطلق شبه الوهمية ·

ولعل نظرة الى الداخل ـ اعني الداخل العربي تؤكد ان كثيرا من القرارات السياسية منذ بداية السبعينات للان اتخذ ، من قبل من يملكون اتخاذ القرار في اكبر اقطار الوطن العربي ، على اساس افتراض ( على درجة من اليقين تنفي عنه حتى صفة الافتراض ) بأن الميزان الاستراتيجي العالمي مائل ميلا حاسما لصالح الغرب ، بالتحديد لصالح الولايات المتحدة · لقد جاء التحول الى الاعتماد الكلي على الولايات المتحدة في البحث عن حل للصراع العربي ـ الاسرائيلي نتيجة عوامل عديدة ومتشابكة · فبعضها موضوعي وبعضها ذاتي ، ولكن من المؤكد ان على رأس هذه العوامل تصور لدى القيادات السياسية التي مارست هذا التحول بأن التوازن الاستراتيجي العالمي هو في الظرف الراهن ، وللمدى المنظور ، لصالح الولايات المتحدة الاميركية · ويفسر هذا في الواقع ان التوجه الى « اميركا » ليس فقط من اجل حل النزاع بل لحل كل المشكلات ـ التي تأتي وراء النزاع ـ اقتصادية واجتماعية وامنية ··· الخ · وقد عبر رئيس النظام المصري انور السادات عن وجود هذا التصور بالتفوق الاميركي الحاسم في عبارة بسيطة للغاية : « ان من يتغطى بالاتحاد السوفياتي هو في الحقيقة عريان »· وينتشر هذا التصور في كتب ومقالات وتعليقات تصدر يوميا عن اجهزة الاعلام العربية ( مصرية وغيرها ) ·

### اذا كانت فيتنام لا تكفي ؟

ولقد سبق ان قيل ببساطة لاصحاب المعلومات القائلة بالتفوق الاستراتيجي المطلق للولايات المتحدة ان هزيمة العسكرية الاميركية في فيتنام ـ بعد جهود استغرقت ١٣ عاما ، و ٥٥ الف قتيل ، واكثر من ٢٠٠ الف جريح و ٤٥٠ مليار دولار ـ هي برهان كاف على خطأ تلك المعلومات · ولكن كانت هناك دائما حجج يقوم بعضها على افتراضات من نوع « لو ان » · فلو ان الولايات المتحدة ارادت ان تسحق فيتنام الثورة لفعلت · ولو ان الاتحاد السوفياتي تدخل مباشرة في تلك الحرب لكانت حسابات اخرى · ولو ان الرأي العام الاميركي لم يكن ·· واكثر من عشرين « لو ان » اخرى ·

واليوم بعد انقضاء خمسة اعوام على الانسحاب الاميركي من فيتنام وثلاث سنوات على انهيار النظم التي ظلت اميركا تحارب لابقائها في الهند الصينية زهاء خمسة عشر عاما ، فان القضية المطروحة في طول الغرب وعرضه ـ وفي الولايات المتحدة اكثر من غيرها ـ هي قضية التوازن الاستراتيجي المباشر بينها وبين الاتحاد السوفياتي · واليوم ـ بينما بعض النظم العربية يتوغل بعيدا في طريق الذهاب نحو اميركا للاحتماء بمظلة تفوقها الاستراتيجي ـ فان حلفاء

الولايات المتحدة في العالم الغربي يراجعون حساباتهم بشأن هذا التفــوق ويتوغلون في طريق العودة عن الاعتماد الكلي على الاحتماء بتلك المظلة . بينما عرب اميركا في طريق الذهاب فان حلفاء اميركا في طريق الاياب . واكثر من هذا ان الشعب الاميركي والمؤسسات الاميركية نفسها تعاني محنة التراجــع الحاد عن مراكز التوازن الاستراتيجي وعن خطوط « التكافؤ » الامني .

ولا بد قبل الدخول في تفاصيل هذه المشكلة من اشارة واضحة الى ان النظم العربية الذاهبة في الطريق الاميركي المراجع املا في ان يحسم التفــوق الاستراتيجي الاميركي مشكلة الصراع في الشرق الاوسط ، ليست ـ فــي الحقيقة ـ وحدها التي تربط بين الاستراتيجية الامنية العالمية ومواقف الولايات المتحدة الاميركية من قضايا اقليمية محددة ، على رأسها ازمة الشرق الاوسط . بل الواقع ان هذه الازمة وغيرها من مواقع الصراع كانت ترتبط باستمـرار في التفكير الاستراتيجي الاميركي بمشكلات التوازن الامني العالمي . فأميركا لا تكف عن الزعم بأن لها مصالح امنية استراتيجية في الشرق الاوسط . وقبلها في الشرق الاقصى ، وطوال الوقت في اميركا اللاتينية ، وفي المحيط الهادي والمحيط الهندي ... الخ . فضلا عن ان احد اساليب الممارسة الاميركيــة للعلاقات الدولية يعتمد اعتمادا مباشرا على « المساومة » ، بل ان المساومـة جزء اساسي من نظرية الامن الاستراتيجي الاميركية ( كما سنرى تفصيلا ) . ولعل بامكاننا ان نعود الى مثل فيتنام لنتذكر فحسب ان عرب اميركا كانوا اول من فسر التراجع الاميركي في بداية العام ١٩٧٣ ( حينما وقعت اتفاقية وقف اطلاق النار في باريس وقضت اساسا بانسحاب جميع القوات الاميركية فــي غضون ستة اشهر ) بأنه يعني ان الولايات المتحدة حصلت على تنازل سوفياتي بالمقابل لاطلاق يدها في الشرق الاوسط . ( كان هذا في بداية العام نفسه الذي شهد قرب نهايته حرب تشرين ! ) .

وفي هذا الصدد يقول مصدر عسكري اميركي ـ هو بول نيتز ( وكان عضوا في الوفد الاميركي في محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية « سولت » بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي طوال الفترة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٤ ) :

« فيما يتعلق باستيلاء فيتنام الشمالية النهائي ( على فيتنام الجنوبية ) فــي جنوب شرقي اسيا ، فان السوفيات قاموا بأعمال فعلية ساعدت فيتنام الشمالية على انتهاك الاتفاقات . وفيما يتعلق بالشرق الاوسط يصعب تأكيد الحجة التي تساق غالبا والتي تقول ان السوفيات مارسوا ضبط النفس في ازمة تشرين ١٩٧٣ . اذ لا يبدو ما يوحي بأنهم امتنعوا عن عمل كل ما من شأنه تشجيــع هجوم مصر وسوريا على اسرائيل وجعل هذا الهجوم ممكنا ، وكذلك تشجيــع العمل الذي اتخذته منظمة « الاوبيك » بشأن اسعار النفط وحظره . ان السوفيات لم يدربوا ويجهزوا المصريين والسوريين فحسب لهذا الهجوم المفاجىء ، بـل

انهم امتنعوا ايضا عن تحذيرنا حين صار هذا الهجوم وشيكا · وعندما تحولت المعركة ضد المهاجمين هدد السوفيات بالتدخل بقواتهم »· (١)

وفيما يتعلق بفيتنام ـ قبل ذلك ـ يقول مصدر اميركي آخر انه في اواخر العام ١٩٧١ « كان الرئيس الاميركي نيكسون شديد الشغف بعقد اجتماع قمة مع السوفيات · وكان يفضل ان يكون ذلك في موسكو في لحظة مناسبة من الناحية السياسية قبيل انتخابات الرئاسة ( الاميركية ) للعام ١٩٧٢ · ولكن الى ان يصبح في الامكان ايجاد صيغة تكسر جمود محادثات « سولت » او حتى يظهر الروس بعض الاهتمام بمساعدة الرئيس على الخروج من فيتنام « بشرف »، ( والمقصود هنا هو كيسنجر وزير خارجيته ) فان فكرة عقد مثل هذا الاجتماع للقمة هي مجرد خيال · لقد كان الربط بين محادثات « سولت » وفيتنام يكمن في قلب استراتيجية الادارة ( الاميركية ) ··· » (٢)

## نظرية الربط بين المشاكل

ويطلق الاميركيون على دبلوماسية « المساومة » هذه اسم نظرية « الربط » Linkage وهي تعني بالنسبة اليهم محاولة قبض الثمن عن اي اتفاق مع السوفيات بشأن الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، من حساب مشكلات اخرى لا علاقة لها مباشرة بمشكلة التوازن الاستراتيجي بين الدولتين · وقد شرح « كالب » ، في المصدر المذكور ، باستفاضة هذه النظرية كواحدة من اسس تفكير كيسنجر وتخطيطه للسياسة الاميركية ، وهي تعطي مثالا على فشل هذه النظرية في النتائج النهائية · والمسألة كلها تتضح اكثر مع قصة تطور التوازن الاستراتيجي كما تعكسها علاقات الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بازاء مسألة « الحد من الاسلحة الاستراتيجية » ·

وقد بدأت القصة مع الخطاب الافتتاحي لنيكسون يوم تنصيبه رئيسا للولايات المتحدة في ٢٠ كانون الثاني ( يناير ) ١٩٦٩ ، وبالتحديد مع عبارة من خطابه هذا قدر لها ان تتردد كثيرا كشعار بعد ذلك: «بعد فترة من المواجهة، ندخل الان حقبة من المفاوضة »· وعلى حين ان العالم كله اخذ العبارة في سياق حملة نيكسون الانتخابية التي طغت عليها مسألة تخليص اميركا من ورطتها في فيتنام ـ وكانت قد اودت بحياة سلفه « ليندون جونسون » السياسية وحياة خمسة من جنرالات اميركا العسكرية ـ فان الاتحاد السوفياتي وحده كان يعلم ان قصد نيكسون هو اوسع من مشكلة فيتنام وألصق بالعلاقات الثنائية الاميركية ـ السوفياتية ، هو بالتحديد مشكلة التوازن الاستراتيجي · فقد كانت تحذيرات القادة والباحثين الاكاديميين وتقارير الاستخبارات العسكرية الاميركية قد توالت في الفترة السابقة على ذلك تدعو كلها الى ضرورة الدخول في

محادثات مع السوفيات للحد من الاسلحة الاستراتيجية · جاء التحذير من السناتور وليام فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ الاميركي ، وجاء من الاساتذة المتخصصين في المشكلات الامنية والاستراتيجية في « معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا » الشهير ، وجاء من « وكالة الرقابة على الاسلحة ونزع السلاح » الاميركية : « اننا والاتحاد السوفياتي نقف عند مفترق طرق » ـ « لدينا الان فرصة افضل مما يحتمل ان يكون لدينا في المستقبل المنظور لاتخاذ قرارات قد تمكننا من تحاشي انطلاقة صاروخية جديدة في سباق الاسلحة الاستراتيجية » · وجاء آخر التحذيرات من « كلارك كليفورد » وزير الدفاع في حكومة جونسون في اخر يوم له في البيت الابيض في مؤتمر صحافي وداعي : « **سوف يتخطى الاتحاد السوفياتي الولايات المتحدة في عدد الصواريخ الاستراتيجية التي تطلق من قواعد ارضية بحلول منتصف هذا العام ( ١٩٦٨ ) وذلك كنتيجة لجهد سوفياتي ساحق بدأ في منتصف الستينات بعد ازمة كوبا لتحقيق التكافؤ على الاقل ، وربما التفوق في الاسلحة الذرية** »· (٣)

وقد تناولت حكومة نيكسون مشكلة التوازن الاستراتيجي في اليوم التالي مباشرة لتنصيبه في اجتماع لمجلس الامن القومي الاميركي حضره الى جانب نيكسون وكيسنجر ( وكان آنذاك مستشاره لشؤون مجلس الامن القومي ، اي رئيس هذا المجلس ) كل من نائب الرئيس سبيرو آغنيو ، وليام روجرز وزير الخارجية ، ملفين ليرد وزير الدفاع ، ايرل هويلر رئيس هيئة اركان الحرب الاميركية المشتركة ، ريتشارد هلمز مدير وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية والجنرال جورج لنكولن رئيس مكتب التخطيط للطوارىء · وبعد الاجتماع مباشرة اعلن المتحدث باسم وزارة الخارجية ان محادثات « سولت » ستلقى اولوية في الاعتبار من جانب الادارة الجديدة · وقد « اذهل » الادارة الجديدة ان الاتحاد السوفياتي اعلن فور خطاب نيكسون الافتتاحي ـ وبسرعة غير معتادة من موسكو ـ استعداده للجلوس للتفاوض حول المشكلة « بمجرد ان يكون ممثلو ادارة نيكسون الجديدة مستعدين له »· ولكن الادارة الجديدة لم تكن مستعدة تماما ، لاسباب عديدة اهمها انها كانت منقسمة بين نظريتين · ويلي ذلك ان المشكلة على درجة من التعقيد والتفصيل كانت تستوجب استعدادا كثيفا · اما الانقسام فكان بين نيكسون وكيسنجر من ناحية ، وباقي اعضاء الادارة ومن ورائهم معظم زعامات الكونغرس واصحاب الرأي في المسائل الاستراتيجية من ناحية اخرى · كانت هذه الاغلبية تريد البدء فورا بمحادثات « سولت » بغض النظر عن الموقف بالنسبة لمشكلات اخرى عالقة · بينما كان رأي كيسنجر كما عبر عنه نيكسون آنذاك : « ما اريده هو ان اعمل على ان ندخل محادثات الاسلحة الاستراتيجية على نحو ، وفي وقت ، يدعم ـ اذا

امكن ـ التقدم بشأن مشكلات سياسية بارزة في الوقت نفسه ـ بشأن مشكلة الشرق الاوسط مثلا والمشكلات البارزة الاخرى حيث تستطيع الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، بالعمل معا ، خدمة قضية السلام »٠

وعندما رفض نيكسون بوضوح ان يبدأ محادثات « سولت » فورا اثار سخطا وخيبة امل لكثير من اعضاء الكونغرس والاكاديميين وكتاب المقالات الافتتاحية ، بل انه جاء مفاجأة لمعظم الدبلوماسيين الاجانب في واشنطن وخاصة ممثلي الدول الحليفة لاميركا ٠ بل ان كيسنجر نفسه فوجيء بالطريقة التي عبر بها نيكسون عن نظريتهما في « الربط » بين « سولت » والمشكلات العالمية الاخرى ٠ فقد كان كيسنجر يريد لهذه النظرية الا تمارس علنا على الصفحات الاولى للجرائد ٠ اما بالنسبة للسوفيات فقد كانت دبلوماسية « الربط » ـ بتعبير اناتولي دوبرينين السفير السوفياتي في واشنطن ـ بمثابة ممارسة للضغط ولوي الذراع ٠ ومع ذلك فقد كانت لدى كيسنجر ونيكسون حجة قوية ، وهي ان مسألة الاسلحة الاستراتيجية تحتاج الى دراسة مستفيضة قبل الجلوس الى مائدة المحادثات مع السوفيات ٠ وكان هذا بمثابة بداية فصل ثان من القصة ٠ فقد كون كيسنجر فريقا من الباحثين التابعين لمجلس الامن القومي ، عهد اليه بوضع دراسة لتكون بمثابة « حساب ختامي » للقوة العسكرية لكل من الدولتين الاكبر : عدد الصواريخ من جميع الانواع التي تملكها كل من الدولتين ، وكذلك عدد الطائرات والدبابات والصواريخ والقوات ، وقدرة التعبئة ، مواضع التركيز في انتاج الاسلحة ، الجوانب السياسية والاقتصادية المؤثرة في القوة العسكرية ٠

فماذا كانت المحصلة المحددة لهذا الحساب الختامي ؟

ان نيكسون مرشح انتخابات الرئاسة قبل اسابيع من ذلك يدعو في حملته الانتخابية الى « تفوق عسكري حاسم » للولايات المتحدة على الاتحاد السوفياتي ٠ ولكن كيسنجر ( كما يقول كالب في كتابه المذكور عن كيسنجر ) « **استطاع ان يؤكد ما يشعر به غريزيا ، وهو ان هذا « التفوق » غير ممكن بلوغه خلال السبعينات ٠ الروس يبنون غواصات من الطراز الحامل لصواريخ من نوع بولاريس ، وصواريخ موجهة عابرة للقارات اضخم من اية صواريخ في الترسانة الاميركية ، فان التفوق بنسبة ستة الى واحد الذي كانت تتمتع به الولايات المتحدة يوما ما على الاتحاد السوفياتي هو امر بعيد عن متناول الرئيس في السبعينات** »٠

الواقع ان هذا لم يكن مجرد شعور غريزي او استنتاج دعم شعورا غريزيا لدى كيسنجر ، انما كان النتيجة الواضحة المباشرة التي انتهى اليها المشرف على تلك الدراسة ـ مورتون هالبرين ـ الذي قال : « **من المستحيل ان نهرب**

**من النتيجة، وهي انه لا برنامج استراتيجيا اميركيا يمكن ان يعطيك نوع التفوق الذي كنت تملكه في الخمسينات** »· فلقد اظهرت الدراسة ان السوفيات حققوا قفزات كبيرة في جهدهم الدؤوب للحاق بالولايات المتحدة والتغلب عليها ·

**الكفاية بدلا من التفوق**

ومن ثم كانت الصيغة التي اقترحها كيسنجر على نيكسون كبديل عن صيغة التفوق ـ المستحيلة ـ هي صيغة « الكفاية » كهدف للسياسة العسكرية الاميركية · ويمكن ان نقول ان كلمة « التفوق » بالمعنى العسكري اختفت من القاموس الرسمي الاميركي ( وقد لا ينطبق هذا على القاموس الدعائي ) منذ ذلك الوقت ، وان احتفظ بهذا المفهوم وبالمصطلح نفسه بعض المتشبثين بحلم التفوق الاستراتيجي الاميركي وكأنه شيء قريب من العقيدة الدينية · وعندما عاد نيكسون الى الحديث في ٢٩ كانون الثاني ( يناير ) ١٩٦٩ عن التوازن الاستراتيجي كان لا بد له ان يغطي تراجعه عن المواقع التي كان يلتزمها وهو مرشح للرئاسة ، ومن هنا كان قوله : « **ان هدفنا التأكد من ان الولايات المتحدة تملك قوة عسكرية كافية لحماية مصالحها والابقاء على التزاماتها ··· انني اعتقد ان « الكفاية » تعبير افضل من تعبير « التفوق » او « التكافؤ »**»· كان تصور نيكسون ان « الكفاية » هي في الموضع الوسط بين « التفوق » و « التكافؤ » ، ومع ذلك فقد اضطر ـ بعد هذا التراجع عن « التفوق » الذي لم يكن بالطبع مجرد تراجع « لغوي » انما انعكاس لموازين القوى والعلاقات الاستراتيجية مع الاتحاد السوفياتي ـ اضطر للتراجع مرة اخرى وعمليا عندما وقع على مبدأ « **التكافؤ الامني** » في اول اتفاقية للحد من الاسلحة الاستراتيجية وقعها مع السوفيات بعد عامين من ذلك ، وبالتحديد في ٣٠ ايار ( مايو ) ١٩٧٢ · فقد ازال هذا الاتفاق حجة التفوق ، ولم يعترف بما اسماه نيكسون يوما « الكفاية » من القوة الاستراتيجية الاميركية تجاه الاتحاد السوفياتي ·

هذه التراجعات كانت تواكبها في الواقع العملي تراجعات في المخططات العسكرية الاميركية وفي العقائد الحربية للمفكرين الاستراتيجيين الاميركيين · كانت الخطة العسكرية الاميركية في سنوات التفوق الاستراتيجي الاميركي تقوم على اساس عقيدة « الرد الانتقامي الشامل » العسكرية ومبدأ « مركز القوة » السياسي في مواجهة اي تغيير تعتبره الولايات المتحدة ماسا بالنظام العالمي وخاصة في اوروبا الغربية · ولكن الانجازات التي حققها الاتحاد السوفياتي في مجال الصواريخ العابرة للقارات اجبر الولايات المتحدة على التراجع نحو مواقع اكثر اعتدالا ، الى خطة « الحرب المحدودة » التي يمكن ان تستخدم

فيها الاسلحة الذرية التكتيكية ( ذات الاثر التدميري المحدود ) · وكانت هذه الخطة ترمي الى حصر اي حرب ذرية في نطاق القارة الاوروبية حتى لا تتعرض الاراضي الاميركية لرد انتقامي مباشر بعد ان اصبح ذلك عمليا · ولم يكن من اليسير ان ينطلي هذا لا على الاستراتيجيين السوفيات ، ولا على القوى الاستقلالية النزعة في اوروبا الغربية · عارضت هذه القوى بشدة خطة الحرب المحدودة بالاسلحة الذرية التكتيكية لخطرها على البلدان الاوروبية الغربية · اما الاتحاد السوفياتي فأعلن ان على اولئك الذين يؤيدون الحروب المحدودة ان يفهموا بوضوح تام ان استخدام اي نوع من السلاح الذري من جانب حلف الاطلسي سيعني حربا ذرية بكل ما تعنيه من عواقب · وبعبارة اخرى فان اولئك الذين يخططون للافلات من ضربة انتقامية باستخدام اسلحة ذرية بجرعات صغيرة ، وفي الوقت نفسه جر شعوب اخرى الى لهيب الحرب مخطئون · وسوف يتلقون العقاب الذي يستحقون» · (٤) ثم كانت خطوة التراجع الاخيرة في الخطة الاستراتيجية الاميركية نحو عقيدة « الرد المرن » · وهو تعبير لا يخفي بذاته دلالة على ان الميزان الاستراتيجي للولايات المتحدة يضعها في مواقع الدفاع اكثر منها في مواقع الهجوم ·

ولا يعني هذا التطور العام ـ بطبيعة الحال ـ انه لم تعد داخل الولايات المتحدة قوة تتشبث ـ في اشكال مختلفة ـ بنظريات التفوق الساحق او نظريات « التوازن النووي » ، ولكن هذه القوى تلقى مقاومة حتى من الادارات الاميركية المتعاقبة نفسها ، التي تدرك ان الواقع العملي لم يعد يترك مجالا لوضع الخطط على مثل هذه الاسس الخيالية ·

وتشكل الاتفاقات التي عقدت في اجتماع مؤتمر القمة الاميركي ـ السوفياتي بموسكو في ايار ( مايو ) ١٩٧٢ فصلا قائما بذاته في قصة التوازن الاستراتيجي · لقد شهد هذا الاجتماع توقيع ثلاث وثائق اساسية : اولاها وثيقة « المبادىء الاساسية للعلاقات المتبادلة بين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية والولايات المتحدة »· والثانية « المعاهدة الاميركية ـ السوفياتية للحد من انظمة الصواريخ المضادة للصواريخ »· والثالثة « الاتفاقية المرحلية بشأن اجراءات معينة فيما يتعلق بالحد من الاسلحة الاستراتيجية الهجومية »·

وقد قضت المعاهدة بأن تحد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بدرجة كبيرة من امكانية نصب انظمة الصواريخ المضادة للصواريخ ، فلم تسمح لاي من الدولتين بأكثر من موقعين لانظمة هذه الصواريخ لكل منهما : واحدة حول كل من واشنطن وموسكو . وواحدة اخرى للدفاع عن صوامع اطلاق الصواريخ العابرة للقارات . على الا يزيد عدد الصواريخ في كل من هذه الشبكات الاربع عن ١٠٠ صاروخ مضاد للصواريخ ، وعدد مساو من منصات الاطلاق ، وعدد مساو ايضا من محطات الرادار ·

اما الاتفاقية المرحلية فقد تضمنت تعهدا من الدولتين بألا تبدأ اعتبارا من اول تموز ( يوليو ) ١٩٧٢ ببناء اي منصات ارضية ثابتة لاطلاق الصواريخ العابرة للقارات ٠ كما حددت هذه الاتفاقية عدد الغواصات الحديثة وعدد منصات اطلاق الصواريخ عليها ٠

والواقع ان تحديد عدد الصواريخ الدفاعية ( المضادة للصواريخ ) او الهجومية ( عابرة القارات ) لم يكن اجراء من اجراءات نزع السلاح ، انما كان من اجراءات الحد من سرعة سباق التسلح ٠ وقد وصف المعلق الفرنسي ـ الاميركي الولاء والعقيدة ـ ريمون آرون اول اتفاقية للحد من الاسلحة الاستراتيجية بأنها « **كانت ممكنة فقط بفعل القبول الاميركي بمبدأ المساواة وتغير نسب القوات الذرية ( والقوات التقليدية على السواء ) لصالح الاتحاد السوفياتي** »٠ واضاف انها كانت انعكاسا لظهور عوامل جديدة هي : « صعود الاتحاد السوفياتي ، وضعف ممكن في تصميم الاميركيين ، واستمرار في التعامل بين الدولتين الاعظم ، مع استمرار المجابهة بينهما بالمثل ، اما مباشرة او من خلال حلفاء متوسطين لهما في مناطق العالم الاخرى »٠ (٥)

وكان تقييم آرون العملي لهذه الاتفاقات انها : « اتاحت للاتحاد السوفياتي تفوقا عدديا بنسبة ٤٠٪ في الصواريخ العابرة للقارات ( ١٤٠٨ له مقابل ١٠٠٠ للولايات المتحدة ) وفي الغواصات حاملة الصواريخ ( ٦٢ مقابل ٤٤ ) ، وتفوقا بنسبة ٣٣٪ في عدد الصواريخ التي تطلق من الغواصات ( ٩٥٠ مقابل ٧١٠ ) وتفوقا بنسبة ثلاثة امثال في زنة الرؤوس الذرية للصواريخ عموما ٠٠٠ ان اتفاقية موسكو للحد من الاسلحة الاستراتيجية تقدم النقيض للعناد الاميركي في فيتنام ٠٠٠ لقد بلغ التفكير الاميركي ذروته في معاهدة ما كان يمكن ان يصدق عليها مجلس الشيوخ قبل مأساة فيتنام ونفور الرأي العام الاميركي »٠ (٦)

ومع ذلك فان رؤية التراجع في قوة الولايات المتحدة الاستراتيجية بمنظور « مأساة فيتنام » وحده هو من قبيل التبسيط المخل للنظرة الاحادية الى مشكلة هي بطبيعتها متعددة الجوانب ٠ واردن يغفل ـ مثلا ـ ما لمسه المتفاوضون الاميركيون انفسهم قبل التوقيع على هذه الاتفاقات من ان الاتحاد السوفياتي بصدد « برنامج ساحق لبناء الصواريخ العابرة للقارات والغواصات الحديثة حاملة الصواريخ ، بينما لم تضف الولايات المتحدة صاروخا واحدا لترسانتها من الصواريخ العابرة للقارات على مدى سنوات »٠ (٧)

وعلى اي حال فان التوقيع على هذه الوثائق لم يكن بمثابة نهاية المطاف للعقائد الاستراتيجية الاميركية المتشبثة بأحلام التفوق الحاسم ، ليس من قبيل العواطف والاهواء ، انما من قبيل مصالح المجتمع الصناعي ـ العسكري الاميركي ، التي تجمع بين مجموعات من اكثر قادة الحكم في الولايات المتحدة

نفوذا اقتصاديا وسياسيا · وهذا هو ما يفسر كل محاولات المخططين الاستراتيجيين الاميركيين للتكيف مع الظروف الجديدة والتغلب على نصوص الاتفاقات المعقودة مع الاتحاد السوفياتي بخلق توجهات جديدة للتكنولوجيا العسكرية الاميركية ، بحثا عن مجالات للتفوق لم يسبق ان طرقها غيرهم · وهذا ايضا ما يفسر جهود هذه القوى وتلك المصالح لوقف تحسن العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة لخلق ظروف تمنع اكمال الطريق الذي بدأ باتفاقات العام ١٩٧٢ في مجال الحد من الاسلحة الاستراتيجية · وهنا ينبغي ان نضع في الاعتبار ان « الاتفاقية المرحلية بشأن اجراءات الحد من الاسلحة الاستراتيجية الهجومية » انتهى اجلها في تشرين الاول ( اكتوبر ) ١٩٧٧ · وكان من المقرر وفقا للبيان المشترك عن اجتماع القمة الاميركي ـ السوفياتي الاخير ( فورد ـ بريجنيف في « فلاريفو ستوك » ١٩٧٤ ) ـ ان يمد اجلها الى ٣١ كانون الاول ( ديسمبر ) ١٩٨٥ · وتطورات السياسة الاميركية تتجه نحو عرقلة استكمال محادثات « سولت » بالرجوع عن تعهدات مبدئية قطعتها الولايات المتحدة على نفسها في اجتماع « فلاديفوستوك »·

ولهذا فان اعلى الاصوات حديثا عن تدهور مركز الولايات المتحدة في ميزان القوة الاستراتيجية هم الاستراتيجيون الاميركيون انفسهم ، والغربيون بوجه عام ·

الكولونيل ريتشارد هيد الضابط بقيادة السلاح الجوي الاميركي والعضو العسكري بمجلس العلاقات الخارجية الاميركي ، واحد مؤلفي كتاب **السياسة الدفاعية الاميركية** American Defense Policy كتب منذ فترة وجيزة للغاية مقالا عن « التكنولوجيا والميزان العسكري » قال في سطوره الاولى :

« تقف الولايات المتحدة عند نقطة حرجة الان في علاقتها مع الاتحاد السوفياتي ··· وانني لا ازعم ان استمرار علاقة الوفاق او انقطاعها سيتوقف على مسائل تتجاوز كثيرا حدود الرقابة على الاسلحة وحدها ، مسائل تنطوي على اعتبارات واعتقادات ذاتية بشأن اصول وطبيعة الاهداف الاستراتيجية السوفياتية وأثر التكنولوجيا على الميزان العسكري ···

« **خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة على الاقل ، وضع الاتحاد السوفياتي استثمارات ضخمة في العلوم والتكنولوجيا ذات الصلة بالامور العسكرية على حساب الاستثمارات في التكنولوجيا بالنسبة لجميع القطاعات الاخرى · في الوقت نفسه وقف السوفيات يرقبون الولايات المتحدة وهي تحول مصادرها الدفاعية الى جنوب شرقي آسيا ، وهي تلغي برامج تحديث قواتها وتخفض نفقات ابحاث التطوير العسكري · خلال هذه الفترة نفسها حقق الاتحاد السوفياتي قفزات كبرى في استغلال التكنولوجيا للاغراض العسكرية ، وقد**

**حول ـ بصورة اساسية ـ الميزان العسكري بنصب اعداد ضخمة من الصواريخ العابرة للقارات ومن التي تطلق من الغواصات ، وحسن بصورة درامية نوعية قواته التقليدية » ٠**

ويضيف الكولونيل هيد نفسه انه : « **خلال السنوات العشر من ١٩٦٧ الى ١٩٧٧ كان مستوى الانفاق السوفياتي على القوات الاستراتيجية ـ محسوبا بالدولار ـ يعادل مثلي ونصف مثل انفاق الولايات المتحدة ٠٠٠ وفي العام ١٩٧٧ فان الاستثمار السوفياتي في الانظمة الاستراتيجية فاق الاستثمار الاميركي بأكثر من ثلاثة امثال** » ٠ ( وفقا لتقديرات وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية ) ٠ ويقول مؤكدا : « منذ العام ١٩٦٧ حينما توقف مستوى القوة الاميركية من الصواريخ العابرة للقارات عند ١٠٥٤ صاروخا ، لم يتم ادخال الا صاروخ استراتيجي واحد يطلق من قواعد ارضية هو الصاروخ « مانيوتمان ـ ٣ » الذي نصب في العام ١٩٧٠ ٠ وخلال السنوات الاحدى عشرة منذ تلك السنة نصب الاتحاد السوفياتي ستة صواريخ كبيرة جديدة عابرة للقارات ومن انواع مختلفة ٠ والحقيقة ان الولايات المتحدة تحولت الى اسلوب الزيادة العددية في التنمية ، بينما **السوفيات ـ بما بنوه من صواريخ اس ٠ اس ـ ١٧ و ١٨ و ١٩ قد احدثوا زيادات دراماتيكية في قدرتهم في مجال الصواريخ العابرة للقارات ٠٠٠ ويتفق معظم المحللين على ان التحسين الذي يمكن ادخاله مستقبلا على الصاروخ « مانيوتمان » لن يحل المشكلة الاساسية التي سببتها التطورات السوفياتية في مجال الصواريخ العابرة للقارات ـ أعني مشكلة الاستهداف المتزايد لصوامع الصواريخ الى حد كبير** » ٠ (٨)

وفي تحليل كتبه « جوزف فروم » نائب رئيس تحرير المجلة التي تعبر عن آراء واتجاهات « البنتاغون » ( وزارة الدفاع الاميركية ) بالذات قال : « ان السوفيات قد ابادوا تقدم الاميركيين عليهم بنسبة ٥ الى ١ ، وحققوا تكافؤا مع هذا البلد ، بل الاكثر مدعاة لقلق مخططي البنتاغون انه بحلول منتصف الثمانينات ـ واذا سارت الامور في مسارها الحالي ـ سيتمكن الروس من تدمير الالف صاروخ ارضي من طراز مانيوتمان التي يملكها هذا البلد ( أميركا ) في الضربة الاولى » ٠

ويضيف « فروم » : من حيث القوات التقليدية ( غير الذرية ) حقق السوفيات تفوقا حاسما على قوات حلف الاطلسي في اوروبا بحشد مثير من القوة البشرية والاسلحة الحديثة ٠ ويخشى الاستراتيجيون الرسميون ان يؤدي اثر هذه التطورين مجتمعين ( في القوة الذرية والتقليدية ) الى ازالة مصداقية الردع الذري الاميركي في اوروبا وعلى نطاق العالم ٠٠٠ ويعتقد الخبراء الاستراتيجيون ان ترسانة الاسلحة الذرية التكتيكية في اوروبا تفقد **مصداقيتها كرادع** ٠» (٩)

وعن القوات التقليدية ايضا كتب المعلق العسكري « مالكولم ماكينتوش » : **« ان ما يواجه حلف الاطلسي اليوم عبر الحدود الالمانية ، ليس فقط ٩٣٥ الفا من قوات معاهدة وارسو ، انما ٩٣٥ الفا من هذه القوات منظمة ومنتشرة ومدربة ومجهزة لشن « هجوم مباغت » ، وتحكمها عقيدة مبنية على اساس المفاجأة وعلى اساس معدل تقدم لمسافة ٧٠ ميلا ( ١١٢ كيلو مترا ) يوميا ٠» (١٠)**

**« التطورات الدراماتيكية » ٠**

فاذا انتقلنا من آراء الكتاب الاستراتيجيين والعسكريين الى اراء القادة المسؤولين عن الميزان الاستراتيجي الاميركي ، فهل نجد اختلافا كبيرا عن هذا التصور نفسه بان الولايات المتحدة قد تخلفت خلال السنوات العشر الاخيرة في مجال القوة الاستراتيجية ؟

وزير الدفاع الاميركي هارولد براون قال في حديث مع المجلة نفسها المعبرة عن آراء وزارته والتي توفر لها معلوماتها : « **اذا استمرت الاتجاهات الحالية ٠٠٠ فان الموقف بعد خمس سنوات من الآن يمكن ان يصبح موقفا خطيرا ٠ »**

وبعيدا عن هذه الاجابات البسيطة نستطيع ان نعثر على اجابة اكثر تفصيلا واهمية في البيان الذي القاه وزير الدفاع الاميركي الحالي نفسه في ٢٢ شباط ( فبراير ) ١٩٧٧ امام الكونغرس والذي اعتبر بمثابة « **البرنامج الدفاعي الجديد للولايات المتحدة** » ٠ وقد ناقش في هذا البيان التوازن بين قدرات اميركا الذرية وغير الذرية ، واوضح انه يؤيد بشدة تحسين القوات التقليدية مع استمرار الحفاظ على امتلاك « تكافؤ » ذري مع الاتحاد السوفياتي ٠ في هذا البيان قال براون متحدثا عن « أحوال الامن » :

**« خلال السنوات الثلاثين الماضية غير عدد من التطورات الدراماتيكية مشكلة ضمان الامن الاميركي ٠ فان الاسلحة الذرية وشبكات الاطلاق العابرة للقارات جعلت الولايات المتحدة مستهدفة لهجوم خطر ٠»**

وعندما وصل براون الى نقطة من بيانه تحتم عليه فيها ان يحكم على حالة التوازن الاستراتيجي بشكل واضح وبدون مداورة قال : « **ان ميزان القوة بشكل عام ــ وان يكون يحوطه الشك في بعض المجالات ( الوظيفية والجغرافية) ليس في الوقت الحاضر في غير صالح الولايات المتحدة وحلفائها ٠ ان القوة العسكرية للاتحاد السوفياتي قد اعتراها تعاظم حقيقي خلال العقد الاخير ٠ ولقد زادت الجوانب المكشوفة للهجوم لدينا ، ولكن الامر كذلك بالنسبة اليهم ٠ »**

ولا تخفى على احد دلالة استخدام هذه العبارة « ليس في غير صالح الولايات المتحدة وحلفائها » ٠ ان وزير الدفاع الاميركي لم يستطع ان **يقول**

للكونغرس ـ حتى وهو يتحدث عن برنامج وزارته الدفاعي الجديد وما وراء ذلك اعتبارات الثقة بالنفس ـ ان الميزان العسكري هو بالتحديد في صالح الولايات المتحدة وحلفائها · وعندما تحدث مباشرة عن « الميزان الاستراتيجي الذري » قال :

**« من المؤكد ، ومما لا مجال للشك فيه ، ان السوفيات قد حسنوا قدراتهم خلال السنوات الاخيرة بزيادة قوة الدفع لاوزان اثقل في صواريخهم العابرة للقارات ، وفي نشر صواريخهم ذات الرؤوس التي تتجه الى اهداف متعددة في وقت واحد ، وفي تحسينات كبيرة على دقة الصواريخ · ولا تزال دفاعاتهم المضادة للقاذفات مثيرة للدهشة ، على الاقل من حيث اعدادها ، كما ان لديهم برنامجا طموحا لبحوث التطوير والتنمية للدفاع المضاد للصواريخ ، وهناك دليل على أنهم كرسوا جهدا اكبر من الولايات المتحدة للجوانب المادية المتعلقة ببرنامج الدفاع المدني ···**

« علينا ان لا نستهين بشأن المنافسة · لقد زاد السوفيات من نفقاتهم على بحوث التطوير والتنمية ، ويقدر ان عدد الاشخاص المدربين الذين يدخلون مجال بحوث التطوير والتنمية العسكرية آخذ في الازدياد ، ولا شك ان التسهيلات التي يقدمونها لهذه البحوث تتوسع باطراد · والتجهيزات السوفياتية تزداد باطراد تعقيدا ومقدرة · ومن المؤكد ان السوفيات سيحققون التكافؤ معنا في جوانب تكنولوجية معينة · بل ان باستطاعتهم ان يركزوا في مصادرهم المخصصة لبحوث التطوير والتنمية على عدد من التكنولوجيات الجديدة فيتقدموا علينا فيها ··

« ان افضل الدبابات التي يملكها السوفيات باعداد كبيرة هي اكثر فاعلية من افضل الدبابات التي نملكها نحن باعداد كبيرة · ولكن التفاوت ليس انعكاسا لنقص تكنولوجي من جانبنا ، انما هو بالاحرى نتيجة لقلة استثماراتنا في مجال التجهيزات خلال العقد الاخير ·» (١١)

### التكنولوجيا ام العقيدة العسكرية ؟

ربما يمكننا ان نفترض ان هذه الشهادات الواقعية المباشرة على السنة اميركية وغربية مسؤولة وخارج اطار المسؤولية الرسمية لا تكفي لاقناع اتباع عبادة التفوق الاميركي في وطننا العربي ، فهم يعتقدون دائما ان في جعبة الولايات المتحدة سلاحا او اسلحة سحرية خارقة واسطورية ، ولانهم لا يعرفونها على وجه التحديد انما على وجه التجريد يطلقون عليها اسما واحدا عاما هو « التكنولوجيا الاميركية » ·

ويمكننا ان نجاريهم قليلا في تجاهل ما تحمله هذه الشهادات نفسها من اشارات الى ان ما اصاب القوة الاستراتيجية الاميركية من جمود خلال السنوات العشر او الخمس عشرة الماضية قد أصاب التكنولوجيا العسكرية الاميركية ايضا ، والامر ذاته بالنسبة لتقدم القوة الاستراتيجية السوفياتية · فقد «أصاب» التقدم ايضا التكنولوجيا العسكرية السوفياتية · فماذا يقول الاستراتيجيون الاميركيون في أمر « التكنولوجيا » خلافا للشهادات المقتضبة ؟

قبل ان نسرد مزيدا من الشهادات الغربية في هذا الصدد لا بد من ايضاح حقيقة اساسية هي ان اي تقدير للميزان العسكري بين قوتين هو في الاساس مقارنة بين نظامين سياسيين ــ اقتصاديين ــ اجتماعيين ــ عسكريين · فالميزان الاستراتيجي ليس مجرد قائمة ذات شقين متقابلين تحتوي على ارقام هنا وارقام هناك تحت عناوين الصواريخ والغواصات والصواريخ المضادة والدبابات والصوامع ··· الخ · فهذه المقارنات الصماء الكمية تتعامى عن عوامل حيوية للغاية تشكل معايير حتمية في الحكم على القوة الاستراتيجية لنظام ما · منها الاستعداد او تحديد الهدف بدقة ، والارادة السياسية والظروف التي يجري فيها استخدام الاسلحة والتكنولوجيا ··· الخ · فالمعيار الحقيقي لاسهام دولة ما في التوازن العسكري هو في التحليل النهائي قدرتها على انجاز مهام محددة تتعلق بالحفاظ على قيمها ورعاياها وخلق الظروف الملائمة لحياتهم وتقدمهم · بل المؤكد ان الاستخدام الفعال للتكنولوجيا لاغراض عسكرية يتوقف في الحقيقة على عوامل ليست بذاتها عوامل تكنولوجية · مثل العقيدة العسكرية والتدريب ونظام الافضليات والعمليات التنظيمية واسلوب البحوث التطويرية والميزانيات ··· الخ · (١٢)

ولعل من المفيد ان نختار من كل مجموعات العوامل غير التكنولوجية المؤثرة في استخدام التكنولوجيا عسكريا ، ابعدها عن التعقيدات التقنية المتخصصة ، وهو عامل العقيدة العسكرية كانعكاس للتشكيلة الاقتصادية ــ الاجتماعية المتباينة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة · فالعقيدة العسكرية ــ السوفياتية مستمدة اساسا من جذور سياسية وثقافية مختلفة عن تلك التي تستمد منها العقيدة العسكرية الاميركية · فبالنسبة للاتحاد السوفياتي ينظر الى الحرب على أنها « علم » . وبالنسبة للضابط السوفياتي فان العلم العسكري يشكل نسقا موحدا من المعرفة عن الاستعداد للحرب وشنها دفاعا عن الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية ضد العدوان الامبريالي · ومهام هذا النسق المعرفي هي دراسة القوانين الموضوعية للصراع المسلح · وبالاضافة الى هذا فان العقيدة العسكرية السوفياتية تحدد متطلبات الاسلحة الجديدة وتخلق الخطط والتكتيكات العملياتية وتؤثر في تحديد المخصصات للاستثمارات العسكرية وتوجه ــ فكريا ــ افراد القوات المسلحة ، وتقوم بمهمة التعبئة

للجماهير الشعبية والمهنيين وتجمع التأييد السياسي · (١٣)

وعلى الجانب الاميركي فان الاستراتيجيين الاميركيين لا يأخذون كل هذا الحديث السوفياتي عن العقيدة العسكرية وعن الحرب كعلم مأخذ الجد ، حتى انهم « يجدون صعوبة في اخذ الكتابات السوفياتية عن فن الحرب « مأخذ الجد » · (١٤) ولا يعني هذا غياب او انعدام عقيدة عسكرية اميركية ، انما يكتفي الاميركيون عادة بالحديث عن نظريات الكم والكيف ، وعن التفوق النوعي في الاسلحة ( اي التفوق التكنولوجي ) ، ويضعون تصوراتهم الخاصة عن اهتمامات السوفيات في خططهم العسكرية وفي انتاجهم للاسلحة ··· الخ · « وعلى الرغم من ان معظم الغربيين يعتقدون ان العسكريين الروس تشغلهم تماما امور « الكم » في القوة البشرية والمادية على السواء ، فان قراءة عن كثب لعقيدتهم تشير الى انهم لا يتحدثون عن مجرد « كم » انما عن « معايير في التسلح » · وتقصد هذه المعايير فيما يتعلق بالتسلح التقليدي الى ان تكون بمثابة ادلة تخطيطية لتوفير تفوق نسبي متميز ، وكاف للامساك بزمام المبادرة والتغلب على تفوق غربي متوقع في النوع ، وتوجه الضربة الى الجهاز العصبي المركزي للخصم · » (١٥)

ويحذر الكاتب نفسه ـ كولونيل هيد ـ من ان المقارنات الثابتة بين الاحوال الراهنة للتكنولوجيا العسكرية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يمكن ان تقوم ـ على احسن الفروض ـ مؤشرات هادية مفيدة الى طريقتين متناقضتين في تناول الامور ، ولكنها ـ في اسوأ الفروض ـ تخفي وبالتحديد يمكن ان تخدع صانعي السياسة الاميركية بجعلهم يعتقدون ان «التفوق التكنولوجي» يضمن لهم السلام ·

ولقد كشفت التطورات الاخيرة في مجال القوة الاستراتيجية عن نقطة ضعف ادركت الولايات المتحدة مدى خطورتها ، ولا تزال رغم هذا الادراك عاجزة عن عمل شيء محدد ازاءها · ونقطة الضعف هذه في الواقع تتعلق باختلاف العقيدة العسكرية بين الدولتين الاعظم ، كما ان لها انعكاساتها بالنسبة لمدى عنصر الحسم الذي يتمتع به سلاح التفوق التكنولوجي الاميركي ، حتى على فرض صحة وجود مثل هذا التفوق المطلق · ولها ايضا دلالاتها بالنسبة لتصور مركز كل من الدولتين عسكريا بين مواقع الهجوم ومواقع الدفاع ·

### لماذا الدفاع المدني ؟

**نقطة الضعف الخطيرة هذه التي كشفتها التطورات الاخيرة · واثارت ولا تزال تثير موجات من القلق والشعور الداهم بالخطر ، هي « الدفاع المدني » ·**

لقد اضطرت السلطات الاميركية لان تعترف بأن « **السوفيات قد بنوا نظام دفاعهم المدني على مدى خمس او ست او سبع سنوات ، وهو لا يزال ينمو ٠ ونحن ننظر اليه لنرى بعناية اكبر اذا كان المقصود به شيئا اكثر مما كنا ندركه في الماضي ٠ ان مستوى جهد الدفاع المدني السوفياتي مثير لبعض القلق من جانبنا ، لانه يوحي بانهم ( المقصود السوفيات ) قد يتوصلون ـ خطأ في اعتقادي ـ الى استنتاج بان باستطاعتهم ان يحافظوا على بقائهم كبلد نشط وقوي بعد تبدل نووي شامل ٠** » (١٦)

وعندما سئل وزير الدفاع الاميركي ـ تعقيبا على هذا الكلام مباشرة ـ « هل يتعين علينا ان نواجه هذا ببناء نظام واسع للدفاع المدني خاص بنا ؟ »٠

اجـاب بقوله :

« **لقد حاولنا ذلك في الستينات ٠ وكانت النتيجة الاساسية التي انتهيت اليها من تلك التجربة ان البنية السياسية والاجتماعية الاميركية ليست مما يسمح باعتبار برنامج شامل للدفاع المدني امرا ممكنا من الناحية السياسية بالنسبة لنا ٠٠٠ انني اعتقد ان فكرة اجلاء الناس من المدن الكبـرى الى الريف دون ممارسة ـ ولم تكن هناك ممارسة لذلك في الاتحـاد السوفياتي ـ تعني ان الخطة يمكن ان تفشل ٠ ووجهة نظري ان افضل رد على برنامج الدفاع المدني السوفياتي هو تعديل قدرتنا الهجومية لكي نظهر للسوفيات ان الدفاع المدني لا يجدي ٠ ومع ذلك فانني لا استبعد زيادة متواضعة في جهود الدفاع المدني الاميركي ٠**»

ويمكن للمرء ان يتغاضى عن التناقضات الكثيرة التي تحتويها هذه الفقرة ، ولكنه لا يمكن ان يتغاضى عن حقيقة لا اخلاقية تكشف عنها هذه التصريحـات وهي ان حياة الملايين من الاميركيين لا تساوي في نظر وزير الدفاع الاميركي المخاطرة بنفقات برنامج للدفاع المدني لمجرد ان مثل هذا البرنامج « يمكن ان يفشل » ٠ ومع ذلك فدعنا من الاعتبارات الانسانية والاخلاقية ، ولنبق في اطار الاعتبارات « العملية » ٠

ينفق السوفيات على « برنامج كاسح ودقيق للغاية للدفاع المدني ما يقـارب الف مليون دولار سنويا ، مقابل نفقات الدفاع المدني الاميركية التي تقـارب ٨٠ مليون دولار سنويا ٠» (١٧) وقد جاء في « كتاب الدفاع المدني السوفياتي » الذي وزع في الاتحاد السوفياتي باعداد ضخمة منذ اوائل السبعينات ان تنفيذ هذا البرنامج من شأنه ان يحد من الخسائر المدنية بحيث تتراوح فقط بين ٥ الى ٨ في المائة من سكان المدن و ٣ الى ٤ في المائة من اجمالي السكان ، حتى بعـد هجوم مباشر تشنه الولايات المتحدة على المدن السوفياتية ٠ ويستنتج مصـدر اميركي من هذا الجهد السوفياتي الكبير في مجال الدفـاع المدني انه يعني

ـ بدرجة ـ لا يكاد الاميركيون او الغربيون عموما يفهمونها ـ ان الحرب الذرية ممكنة الحدوث وان الاتحاد السوفياتي يمكن ان يحافظ على بقائه على الرغم منها ٠ (١٨)

وقد خصص « المسح الاستراتيجي » Strategic Survey لعام ١٩٧٦ الذي اصدره المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ( لندن ) مساحة كبيرة لبرنامج الدفاع المدني السوفياتي من المهم للغاية ان نعرض فقرات بارزة منها ٠

« لم يكن احد في الولايات المتحدة منذ اوائل الستينات يعتبر ان الدفاع المدني عامل يمكن ان يؤثر جديا على التوازن الاستراتيجي الاميركي ـ السوفياتي ٠ لقد تخلت ادارة كنيدي عن فكرتها القصيرة العمر الخاصة ببرنامج انشاء مخبأ على نطاق قومي بسبب ضخامة تكاليفه والمعارضة السياسية له بين قطاعات واسعة من الرأي العام الاميركي ، والاعتقاد بانه يمكن ان ينظر اليه على انه محاولة استفزازية لزعزعة استقرار علاقة الردع المتبادل بين الدولتين الاعظم ٠٠٠ ولكن الاتحاد السوفياتي لم يشارك في هذا الرأي ، فمنذ منتصف الخمسينات تبذل مجهودات مستمرة لكفالة الحماية ضد الهجوم للسكان المدنيين وللصناعة الثقيلة على السواء ٠ ولقد ساد الاعتقاد في الاوساط الدفاعية الغربية ـ بسبب القوة التدميرية للاسلحة الذرية وخاصة نظرا لانعدام الدفاعات المضادة للصواريخ ـ بان مثل هذه الاجراءات لا يمكنها ان تمنع الولايات المتحدة من توجيه ضربة انتقامية على قدر من الاتساع بحيث يكف الاتحاد السوفياتي عن الوجود كمجتمع حديث ٠ الا انه في العام ١٩٧٦ واجه هذه النظرة تحد قوي ٠ لقد انتبه الرأي العام الى مدى واهمية برنامج الدفاع المدني السوفياتي ٠٠٠»

ويشير « المسح الاستراتيجي » نفسه الى ان المسؤول عن برنامج الدفاع المدني السوفياتي قد رقي في شباط ( فبراير ) ١٩٧٧ الى رتبة جنرال ويقدر عدد العاملين في جهازه بنحو ٧٠ الف موظف حكومي ، بينهم هيئة اركان تضم اكثر من ٥٠ من الجنرالات موزعين في مختلف انحاء الاتحاد السوفياتي ٠ كما يشير الى انه من الواضح ان نشاطات الاستخبارات الاميركية لم تهتم خلال السنوات من ١٩٧١ الى ١٩٧٥ بجهود الدفاع المدني السوفياتي ، ولا حتى عن طريق تجميع وتحليل صور الاقمار الصناعية للتجسس ٠

ويتحدث « المسح الاستراتيجي » كذلك عن بعض عناصر برنامج الدفاع المدني السوفياتي ، فيشير الى وجود منشآت مدعمة ضد التفجرات النووية ، باعداد ضخمة متفرقة في جميع ارجاء الاتحاد السوفياتي ، بينها ابنية للقيادات والرقابة ومراكز للاتصالات قادرة على الصمود للهجوم الذري ٠ كما نشرت في انحاء البلاد قيادات من النوع نفسه ، ومثلها في منغوليا واوروبا

الشرقية · ومنها بصفة خاصة مجموعة من المنشآت لايواء الصف الاول من القيادات السوفيانية الحزبية والحكومية والعسكرية على بعد ٨٠ ميلا من موسكو وفيما يتعلق بكافة السكان بوجه عام فان هناك خططا واضحة لاستخدام المخابيء ولتفريق التجمعات السكانية · وقد بنيت شبكات المخابيء في موسكو ولينينغراد وكييف ، ووضعت الخطط لاجلاء المدن السوفياتية من سكانها خلال ٧٢ ساعة ويصف المسح اجراءات هذا البرنامج بأنها ترمي الى توفير افضل حماية ممكنة ضد الاسلحة الذرية والكيماوية والبيولوجية · وقد انشئت لتسهيل تنفيذه شبكة منظمات محلية واقليمية وقومية وطنية للدفاع المدني · وتتولى هذه المنظمات ، بين ما تتولاه ، تزويد كل تلميذ في المدارس السوفياتية بمائة ساعة من التعليم عن الاسلحة النووية واجراءات الدفاع المدني · واخيرا فقد اقام الاتحاد السوفياتي خنادق ضخمة تحت الارض لتخزين الغلال والمواد الغذائية الاخرى · الامر الذي خسر اخيرا شراء الاتحاد السوفياتي كميات ضخمة من القمح من الغرب تزيد في نسبتها عن نسبة ضعف محاصيله منه في السنوات الماضية ·

ويذهب بعض المعلقين الاستراتيجيين الى ان هدف هذا البرنامج هو في الحقيقة تحقيق تفوق لقدرة الاتحاد السوفياتي على البقاء بعد حرب ذرية · ويقول هؤلاء ان نتيجة هذا البرنامج العملية ستكون وفاة عشرة اميركيين مقابل كل سوفياتي واحد – في حالة نشوب حرب ذرية بين الدولتين ، بل يتخيل بعضهم ان اربعين اميركيا سيموتون مقابل كل سوفياتي واحد ، وان قدرة الاتحاد السوفياتي على النهوض واستئناف نشاطه كمجتمع صناعي حديث ستتعاظم بصورة هائلة بسبب اجراءات الحماية التي ادخلها · وعلى اقل تقدير فان وجود هذا البرنامج السوفياتي الواسع النطاق للدفاع المدني يضعف الثقة الاميركية بمقدرة الولايات المتحدة على الردع ، ويقوي شكوك الاميركيين في الدوافع السوفياتية · (١٩)

لا يعني هذا كله ان الاتحاد السوفياتي قد استطاع ان يضع مارد القوة الذرية الاميركية في قمقم الدفاع المدني ، ولا يعني ان قصة التوازن الذري الاستراتيجي انتهت الى هذه النهاية السعيدة ( او المأساوية وفقا لعين الناظر اليها ) انما يعنينا منه – كما يعنينا من كل ما سقناه من شهادات حية – ان ندخل قدرا من العقلانية على تصورات عرب الحل الاميركي المبني على تفوق اميركا الساحق في تقرير شؤون العالم · ان فصولا كثيرة هامة قادمة من قصة التوازن الاستراتيجي ، بعضها ستشهده قاعات الجمعية العامة للامم المتحدة التي تخصص هذا العام دورة خاصة لمسألة نزع السلاح ، وبعضها ستشهده قاعات مفاوضات « سولت – ٢ » ، وبعضها تشهده بالفعل الان قاعات البيت الابيض والكونغرس الاميركيين ومقار القيادات الاوروبية في نقاشات حامية للغاية محورها : المضي الى انتاج قنبلة «النيوترون» ام لا ؟ اقامة نظام صاروخي

جديد من طراز ام · اكس ( الذي يوصف بأنه يمثل الامل الوحيد للحيلولة دون تحول ميزان القوة الذي بدوره يمكن ان يتسبب في كوارث للولايات المتحـــدة خلال عقد من الآن ) · ولن تكون قنبلة « النيوترون » الوصفة السحرية لاثبات نظرية التفوق التكنولوجي الاميركي ، ولن يكون الصاروخ ام · اكس الا طلقـة من حلقات سباق التسلح المتتابع اذا لم تنجح مفاوضات « سولت ـ ٢ » فـــي دفنه في المهـــد ·

انما الحقيقة الاعم من كل التفصيلات الصغيرة هي ان طموح اميركـــا في مجال القوة الاستراتيجية لم تعد له علاقة بخيالات واوهام التفوق الساحق او الحاسم · ما تريده امريكا لا يتجاوز ما عبر عنه وزير دفاعهـا في برنامجـه الجديـــــد حين قال « ان ميزان القوة ـ وان يكن يحيطه الشك فـي بعـــض المجالات (الوظيفية والجغرافية) ليس في الوقت الحاضر في غير صالح الولايات المتحدة وحلفائها » · وقد عبر بول نيتز مفاوض « سولت » الاميركي المخضـرم عن هذا المعنى نفسه ، ولكن بلغة عسكرية اكثر تحديدا ، في قوله :

**« ان الاتجاهات في القوة العسكرية تسير على نحو من شأنه ـ ما لـم نتحرك سريعا لتحويلها ـ ان الولايات المتحدة تتحرك نحو مركز ليس لها فيه الا حـد ادنى من الردع ، وهو مركز سوف نسلم فيـــه بالنصر العسكري والسياسي للاتحاد السوفياتي اذا فشل الردع · وبينما قد يكون من المستحيل ـ وربما من غير المرغوب فيه سياسيا ـ ان تعمل الولايات المتحدة من اجل اكتساب القدرة على الفوز في حرب نووية ، فان هناك سبلا عدة للعمل امام الولايات المتحـدة بحيث تستطيع ان تحرم السوفيات من اكتساب هذه القدرة وازالـــة عـــدم الاستقرار من جانب واحد الذي سببه تفوقهم في قوة اطلاق الاوزان الاضخـــم وسببه برنامجهم للدفاع المدني ·» (٢٠)**

وقد تنبأ احد رجال الكونغرس الاميركي ( النائب شرودر ) مؤخرا بان « القوة الصاروخية السوفياتية القادرة على توجيه ضربات قاتلة في وقتها لاهـــــداف محصنة ستزيد في الثمانينات الى مائة مثل ما كانت عليه في العـام ١٩٧٥ ، ويعني هذا انه اذا لم تتخذ الولايات المتحدة اجراء ما لتحسين دقـة صواريخها فان الاتحاد السوفياتي سيكون قد حقق تفوقا عليها بنسبة ٢٥ الى واحد ·»(٢١)

---

**الحواشي :**

---

(1) Paul Nitze, « Assuring Strategy Stability in An Era Of Detente » **Foreign Affairs,** January 1976, P. 209.

(2) Marvin and Bernard Kalb, **Kissinger,** New York, 1976, P. 141.

(٣) **المصدر السابق** ص ـ ١٢٣ .

(4) Spartak Beglov, **International Relations in Nuclear Age,** Moscow n.d. , P. 52 .

(5)Raymon Aron, **The Imperial Republic,** London 1975, P.P. 123-124

(٦) **المصدر نفسه** ص. ص ١٥٥ـ١٥٦.

(7) Kalb, **OP. Cit,** P. 366.

(8) Coonel Richard G. Head, «Technology and Military Balance,» **Foreign Affairs,** April 1978 , P.P. 544-563 .

(9) **U.S. News and World Report,** July 25, 1977 P. 24 .

(10) **New York Times,** November 14,1977.

(11) **Survival,** (I.I. S.S.) May / June 1977. P.P. 121-124 .

(١٢) مقال ريتشارد هيد **المذكور** في الحاشية ، ١٨ صفحة ٥٤٦ .

(١٣) بيبشيف ، **بعض قضايا العمل الحزبي السياسي بالقوات المسلحة السوفياتية** ، موسكو ١٩٧٥ .

(١٤) مقال ريتشارد هيد ص ـ ٥٤٨ .

(١٥) **المصدر نفسه** ، ص ـ ٥٥٠ .

(١٦) حديث وزيد الدفاع الاميركي براون في **المصدر المذكور** في الحاشية (٩) اعلاه .

(17) Eugene Wigner, «The Atom and The Bomb» , **Christian Science Monitor,** November 13, 1977 .

(١٨) بول نيتز ، **المصدر المذكور** في الحاشية (١) ص.ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

(19) **Strategic Survey,** 1976, I.I.S.S. London P.P. 31-34.

(٢٠) نيتز ، **المصدر المذكور** ص ـ ٢٢٧

(٢١) نيتز ، **المصدر المذكور** ص ـ ٢٢٨

محمد المجذوب

# السيطرة الاسرائيلية على الثروات العربية

في نهاية شهر نيسان ( ابريل ) المنصرم ، قالت صحيفة ( الاهرام ) ان مصر تقدمت بشكوى الى الامم المتحدة والولايات المتحدة طالبت فيها بايقاف اسرائيل عن التنقيب عن النفط في صحراء سيناء وخليج السويس ، وذكرت بقرار الجمعية العامة ، الصادر في كانون الاول ( ديسمبر ) ١٩٧٧ ، حول عدم قانونية اشتراك الشركات الخاصة والعامة في عمليات النفط الاسرائيلية المتنازع عليها ، واعتبرت ان هذه العمليات تشكل انتهاكا للقانون الدولي العام وقرارات الامم المتحدة واتفاقات وقف اطلاق النار ، ووصفتها بأنها تتناقض مع جميع الاعراف الدولية التي تحرم اغتصاب ثروات المناطق الخاضعة للاحتلال ٠ وأضافت الصحيفة ان مصر عممت شكواها على الجمعية العامة ، وطلبت ادراجها في جدول اعمال الجمعية ، وهددت « باتخاذ عدد من التدابير الصارمة ضد الاعمال غير الشرعية التي تقوم بها اسرائيل في تنقيبها عن النفط في الاراضي المصرية المحتلة ومياه خليج السويس » (١) ٠

وردت اسرائيل على الشكوى المصرية فأعلنت ، بلسان وزير الطاقة فيها ، انها سترفض اي طلب مصري بايقاف عمليات استغلال النفط في سيناء ، لان القانون الدولي واتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩ لا يوفران اي اساس قانوني لمثل هذا الطلب ، « اذ ان الابار التي تستغل حاليا في سيناء قد اكتشفتها اسرائيل » (٢) ٠

وادعت اسرائيل ان الجزء الاكبر من حقل رمضان ، الغني بالنفط ، يقع في المياه المحتلة من خليج السويس ، وان القانون الدولي يسمح لدولة الاحتلال باستغلال موارد الارض المحتلة ، مع ان المدير العام لمكتب شركة « اموكو

انترناشيونال » في القاهرة قد اكد ان الجزء الاكبر من الحقل المذكور يقع في المياه الاقليمية المصرية التي لم تحتلها اسرائيل ، وان لديه خرائط تثبت ذلك (٣) ٠

وعندما بدأت بعض الاوساط الدولية تبدي اهتمامها بهذا الموضوع سارع المثل الدائم لاسرائيل في الامم المتحدة الى القول بان من حق اسرائيل ، بمقتضى القانون الدولي ، ان تقوم بالتنقيب واستغلال الموارد النفطية في سيناء ، لانها تعد ملكية عامة (٤) ٠

وموضوع استغلال النفط في سيناء وخليج السويس يثير مسألتين مهمتين : محاولات اسرائيل للسيطرة على الاقتصاد العربي تحت ستار التعاون ، وموقف القانون الدولي العام من عمليات استغلال ثروات الاراضي المحتلة من قبل دول الاحتلال ٠

**اولا ـ محاولات اسرائيل للسيطرة على الاقتصاد العربي**

اسرائيل كيان أوجدته الحركة الصهيونية ، بالتواطؤ مع الامبريالية العالمية ، لخدمة المصالح الاستعمارية في المشرق العربي ٠ وخدمة هذه المصالح لا تتم الا اذا كان هذا الكيان قويا ، عسكريا واقتصاديا ٠ ولذا تحرص الدول الغربية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة، على تعزيز قدرته العسكرية ليصبح بمفرده أقوى من كل الدول العربية مجتمعة ، وعلى تعزيز قدرته الاقتصادية ليتمكن من السيطرة على الاقتصاد العربي ٠ والناحية الاقتصادية هي التي تعنينا هنا ٠

لقد حاولت اسرائيل ، بشتى الوسائل والحيل ، فرض سيطرتها الاقتصادية على العرب فلم توفق ٠ غير أنها لم تيأس ٠ لقد بقيت فترة تترصد الفرص ٠ وسنحت فرصة ذهبية نادرة مع زيارة الرئيس السادات للقدس المحتلة واعترافه بالكيان الصهيوني ودعوته الاسرائيليين الى العيش مع العرب بأمان واطمئنان ٠ واستغلت اسرائيل هذه الفرصة وأخذت تلوح برايات التعاون مخفية رغبتها في السيطرة تدريجيا على الاقتصاد العربي ٠

**١ ـ لقد بدأت بالاعراب عن رغبتها في تحقيق التعاون مع كل الدول العربية ٠** وقد عبر المدير العام لوزارة الداخلية الاسرائيلية ، بعد الزيارة المشؤومة ، عن أمله في اقتراب اليوم « الذي سيقوم فيه تعاون بين اسرائيل وجاراتها » ، حيث يشترك « خبراء من الدول المجاورة في الندوات والاجتماعات في اسرائيل ، ويشارك خبراء من اسرائيل في مؤتمرات دولية تعقد في الدول العربية » (٥) ٠

**٢ ـ وتظاهرت اسرائيل بانها مستعدة للتضحية بمصالحها المادية في سبيل السلام ٠** فقد أعلن وزير الطاقة والتجهيزات فيها ان اسرائيل « لن تتردد في

التضحية بحقول النفط في الطور من اجل السلام الحقيقي » · وقال انه على الرغم من مرور شهرين فقط على اكتشاف النفط في السويس فقد انقض علينا غضب السلام · ولكنه استدرك وأضاف : « ان السلام أفضل من النفط » (٦) · وعندما ظهرت حركة « السلام الان » رفعت عدة شعارات كان أبرزها شعار « السلام افضل من قطعة أرض » (٧) ·

٣ ـ **وأفاض المسؤولون الاسرائيليون في الحديث عن مزايا التعاون وزعموا ان هذا التعاون سيكون لمصلحة الدول العربية** · ففي العام ١٩٦٥ ، وبتكليف من غولدا مائير ، وضع المدير العام لمصرف اسرائيل ، المتخصص باقتصاديات الدول العربية ، دراسات حول التعاون الاقتصادي بين اسرائيل والدول العربية · وجاء في هذه الدراسات ان انشاء علاقات تجارية مع اسرائيل سيسهم في تحسين الميزان التجاري للدول العربية ويسمح لهذه الدول بالاستفادة من الموقع الجغرافي الذي تتمتع به اسرائيل كبلد مرور للتجارة العربية ( تجارة الترانزيت ) ، فميناء حيفا وميناء اشدود قد يستخدمان كمنفذ الى البحر المتوسط ، وخصوصا بالنسبة الى الاردن · والاتصال البري بين مصر والدول العربية في المشرق غير متاح الا عبر اسرائيل · وهو يعتبر ذا أهمية قصوى لنجاح السوق العربية المشتركة (٨) ·

وأبلغ جاد يعقوبي ، عضو الكنيست ، اللجنة الاقتصادية التابعة للامم المتحدة « ان اسرائيل تتطلع نحو اقامة سوق شرق اوسطية تخدمكسوق مشتركة بيننا وبين جيراننا العرب » · وذكر « ان الاردن ، في اطار السوق المشتركة ، يستطيع الاستفادة من موانىء حيفا وأشدود » وانه « يمكن اصلاح واتمام شبكة الخطوط الحديدية الممتدة من حيفا الى الاردن ، ومن تركيا الى الحدود اللبنانية على طول ساحل البحر المتوسط الى قناة السويس » (٩) ·

وزعم الاسرائيليون أحيانا **ان التعاون بين اسرائيل والدول العربية سيعود بالفائدة على كل الاطراف** · لقد قدم يعقوب مريدور ، احد مؤسسي حركة حيروت ( حزب بيغن ) ، وصاحب احد الاساطيل البحرية ، مشروعا بشأن التعاون الاقتصادي بين اسرائيل والدول العربية ، في حال التوصل الى السلام · ووصف هذا المشروع بانه « مشروع مارشال موسع » · وقال عنه انه « مشروع اقتصادي من أجل تعمير الشرق الاوسط » يقوم على انشاء صندوق برأسمال مقداره ١٥ مليار دولار · واكد على ان « مصر والاردن وسوريا واسرائيل ستكون المستفيدة من هذا المشروع » (١٠) ·

بل ان الاسرائيليين لم يتورعوا عن الادعاء بان هذا التعاون المزعوم سيكون « من شأنه احداث المعجزات في الشرق الاوسط » (١١) ·

٤ ـ **ولم يكد ملك المغرب ، الحسن الثاني ، يطرح فكرته حول الجمع بين**

**« العبقرية الاسرائيلية والموارد العربية » (١٢) ، حتى سارع الزعماء الاسرائيليون الى تلقفها والتركيز عليها بغية ايهام العرب بان اسرائيل قادرة على مساعدتهم ·** فقد استهوت الفكرة بيغن فقال ، في الكلمة التي عقب بها على خطاب الرئيس السادات في الكنيست : « انني مستعد للتصديق على كلام جلالة ملك المغرب الذي قال علانية بانه اذا قام السلام في الشرق الاوسط فان الدمج بين الثروة العربية والعبقرية اليهودية سيحول هذه المنطقة الى جنات عدن على الارض » (١٣) · وساير نقيب المهندسين الاسرائيليين هذا التيار فأعلن ان الدول العربية تمتلك مناجم ومصادر طبيعية ضخمة وان اسرائيل تمتلك الخبرة والتكنولوجيا المتطورة ، وأكد على ان المركز الدولي للتعاون التقني في اسرائيل « سيكون قادرا على مساعدة شعوب المنطقة وانه مستعد للتعاون مع اية دولة عربية في المنطقة » (١٤) ·

**٥ ـ وركز الاسرائيليون على فكرة التخلف الاقتصادي الذي يلف المنطقة وادعوا ان ازالة هذا التخلف مرهونة بمدى التعاون بين اسرائيل وجيرانها ·** فقد أعلن بيغن في خطاب الكنيست ، المذكور ، ما يلي : « اننا نقترح تعاونا اقتصاديا لتطوير بلدينا · هناك بلاد رائعة في الشرق الاوسط · هكذا خلقه الله : واحة الصحراء · ولكن يوجد فيه أيضا صحارى وبالامكان احياؤها · هيا نتعاون في هذا المجال ونفتح بلدينا ونقض على الفقر والجوع والنقص في السكن ، ونرفع شعبينا الى مستوى الدول المتطورة ولا نسمى بعد ذلك بالدول النامية » (١٥) ·

**٦ ـ وبرعوا في اسلوب الضرب على وتر التنمية الاقتصادية التي تحتاج اليها أقطار المنطقة ، للادعاء بعد ذلك بان هذه التنمية تضيع او تتقلص بسبب ارتفاع الميزانيات المخصصة للدفاع ·** فبعد زيارة السادات للقدس المحتلة ، قرر مصرف اسرائيل الكشف عن الدراسات التي أعدها المدير العام للمصرف · وقد ورد فيها ان ميزانيات الدفاع هي المشكلة الاقتصادية الرئيسية لدول المنطقة ، لانها تشكل ما بين ٢٥ و ٣٠٪ من الدخل القومي لكل من مصر واسرائيل · ويمكن ، في حال اقامة علاقات طبيعية بين الدولتين ، توجيه موارد تقدر بمليار دولار الى التنمية الاقتصادية · واذا أمكن خفض النفقات الامنية لكل من الدولتين الى الثلث فقط أصبح من الممكن زيادة التوظيفات في التنمية الاقتصادية بمعدل ٥٠٪ ومضاعفة ميزانية الانعاش الاجتماعي دفعة واحدة (١٦) ·

**٧ ـ وتحمست بعض المؤسسات الاسرائيلية لفكرة التعاون فوضعت « خرائط سلام » اقتصادية ، واقترحت مشاريع تعاون متعددة في حال التوصل الى اتفاق سلام مع الدول العربية ·** فقد ذكرت بعض الصحف ، بعد الزيارة ، ان وزارة المال ورجال الصناعة يعدون « خرائط سلام » اقتصادية ، وان بعض المؤسسات

الاقتصادية تدرس السوق العربية ، وان المستشار الاقتصادي لوزارة المـــال بدأ باعداد التقديرات الاولية لتأثير السلام في الاقتصاد بكامله (١٧) ٠

٨ ـ **وحاول بعض الزعماء الاسرائيليين تحديد مجالات التعـــاون بيـــن الطرفين . وخصوصا بين مصر واسرائل** ، فأعلنوا ، كما فعل نائب وزير المالية ،انه « ستتبلور قريبا خطة عمل في مجال التعاون الاقتصادي » ، واشاروا الـــى امكان التعاون مع مصر لاستغلال طاقة مياه الري ، ومد سكة حديـــد الـــى ايلات (١٨) ٠ ومن أهم محاولات التعاون المقترحة : التعاون في مجال الثروات الطبيعية ، وفي المجال الذري ، وفي المجال النفطي ٠

لقد اهتم المسؤولون السياسيون والاقتصاديون في اسرائيل بامكان استغلال **الثروات الطبيعية في الاقطار العربية** . ضمن اطار التعاون الاقتصادي المحتمل ، فاقترح موشى شفرير ( الخبير الجيولوجي ، ورئيس اللجنة التي كانت تشرف على آبار أبو رديس ) ، في المذكرة التي رفعها الى رئيس الحكومة بيغن حـــول استغلال حقل النفط الذي تم اكتشافه في خليج السويس ، اقامة تعاون بيـــن اسرائيل ومصر لاستغلال الثروات الطبيعية في سيناء ٠ وبين انه « بالامكـــان ضخ كميات هائلة من المياه الجوفية العميقة في وادي تسين ، وتوطين شبـــه جزيرة سيناء بلاجئين فلسطينيين ومستوطنين يهود » ٠ وأكد على وجود ثروات طبيعية في سيناء بالامكان استغلالها ، كالفوسفات والرمل الزجاجي والجبـــس والفحم (١٩) ٠

ورأى احد الباحثين ان اسرائيل تستطيع ، ضمن اطار التعاون مع الاردن ، استغلال ثروات البحر الميت ، وضمن اطار التعاون مع مصر ، استغلال الثروات المعدنية في سيناء ، وضمن اطار التعاون مع الدول العربية ، استغلال المواد الخام المهملة ٠ واكد انه بالامكان ، في حال تطور التجارة بين اسرائيل والدول العربية ، اقامة مشاريع مشتركة تندمج فيها الثروات الطبيعية والخبرة ورؤوس الاموال (٢٠) ٠

**وفي مجال التعاون الذري** قدم البعض مشروعا لاقامة محطة قوى ذريـــــة مشتركة بين مصر واسرائيل في احدى مناطق العريش ٠ فقد أعلن المدير العـــام لشركة الكهرباء ان شركته اخذت في الآونة الاخيرة تعد دراسة اولية عـــــن تعيين مواقع في احدى مناطق العريش من اجل اقامة محطة قوى ذرية مشتركـــة بين الدولتين ، من المحتمل ان تقام في المستقبل (٢١) ٠

وقدم عالم الذرة ، شمعون يفتاح ، اقتراحا باقامة مركز ذري مشترك بيـــن مصر واسرائيل في صحراء سيناء ، يحتوي على مفاعلات ذرية لانتاج الكهرباء والوقود الذري وتحلية مياه البحر ٠ واعتبر ان « اقامة مثل هذا المركز ستربط مصر باسرائيل مدة ثلاثين سنة على الاقل في مجال التعاون ، حيث ان هذه المدة

الزمنية هي المعقولة لنشاط مفاعل ذري » (٢٢) ٠

ووجه يوسف روم ، عميد كلية الهندسة الجوية في معهد التخنيون ، والنائب في الكنيست ، دعوة الى تحويل سيناء الى جسر سلام يربط بين مصر واسرائيل بتعاون اقتصادي وتكنولوجي . ويقوم على أعمدة تتكون من مشروعات مشتركة في حقلي الذرة والنفط ، فسيناء ، في رأيه ، « تشكل مصلحة اسرائيلية ـ مصرية مشتركة ، حيث ان الحقائق التكنولوجية والاقتصادية التي ستتعين فيها ستؤثر بصورة حاسمة في الناحية السياسية للمشكلة » (٢٣) ٠

وبالاضافة الى الثروات الطبيعية والمحطات والمفاعلات الذرية ، فقد اهتم الاسرائيليون بمجال التعاون النفطي ٠ ويبدو ان الاكتشافات النفطية التي تمت مؤخرا في سيناء وخليج السويس تشير الى وجود كميات هائلة من الذهب الاسود يمكن ان تجعل من اسرائيل ، في نهاية هذا العام ، دولة منتجة ومصدرة للنفط ، ويمكن ان تجعل من خليج السويس ، كما قال الخبير موشى شفرير في مذكرته المشار اليها ، « المصدر الثاني للنفط ، من حيث الاهمية في الشرق الاوسط ، بعد الخليج الفارسي » ٠ وهنا يكمن سر حرص اسرائيل على البقاء في سيناء ، او على مشاركة المصريين في استغلال ثروات سيناء في حال انسحابها منها ٠

ومما لا شك فيه ان حاجة اسرائيل الى النفط تتضاعف عاما بعد عام ٠ ومن المنتظر ان تستهلك هذا العام ١٢ مليون طن ٠ وزيادة حاجتها الى النفط لا تفسر بسبب ازدياد الاستهلاك الفردي له ، بل بسبب اتساع حجم الصناعة فيها ٠ والنفط لم يعد بالنسبة اليها مصدرا للطاقة فحسب ، بل اصبح كذلك مادة تدخل في انتاج كل السلع الصناعية ( من الصناعة البتروكيماوية الى صناعة المطاط والبلاستيك والالبسة النسائية ) ٠ وبما ان طموحها الصناعي ، مع ما يتطلبه ذلك من قدرة على تصريف السلع باسعار مغرية وعلى سد الفجوة بين الصادرات والواردات ، يفرض عليها الحصول على موارد نفطية كافية ، فقد عمدت ، منذ اليوم الاول لاحتلالها سيناء ، الى استخراج النفط من آبارها بطريقة استنزافية ترمي الى الحصول على اكبر كمية ممكنة باسرع وقت ممكن ، دون أدنى اهتمام بالاضرار الفنية التي يمكن ان تصيب ابار النفط ٠ وبقيت على هذا المنوال حتى فك الاشتباك الثاني ورحلة السادات الى القدس المحتلة ، فقد أيقنت انذاك ان الرئيس المصري على استعداد للتنازل وان مصلحتها تقضي بالاقلاع عن فكرة الاستنزاف والسعي الى استملاك النفط أو مشاركة مصر في ملكيته (٢٤) ٠

ولجأت اسرائيل ، لتبرير موقفها وتمويه مسلكها ، الى بعض الحجج القانونية الواهية ٠ فزعمت ان القانون الدولي يسمح لها بالاحتفاظ بحق استثمار ابار النفط التي اكتشفتها في سيناء ، حتى ولو أجبرت على الانسحاب منها (٢٥) ٠

## ثانيا ـ القانون الدولي واستغلال ثروات الاراضي المحتلة

الاحتلال الحربي ، في القانون الدولي العام ، مرحلة تعقب لجوء احدى الدول الى استخدام القوة المسلحة · ومن دلائل الاحتلال وقوع كل اقليم الدولة المغلوبة، او وقوع جزء منه ، تحت سلطة الدولة الغازية · وتبتدىء فترة الاحتلال ، حسب اتفاقية لاهاي لعام ١٩٠٧ ، بمجرد اكتمال سيطرة الدولة المنتصرة وممارسة الجيش الغازي للسلطة الفعلية فوق الاقليم المحتل او فوق الجزء المحتل منه · والاحتلال مرحلة مؤقتة تنتهي بانسحاب القوات الغازية من الاقليم المحتل ، بالتفاهم او بالقوة ·

ومع ان غالبية الدول قد عبرت ، في نهاية الحرب العالمية الثانية ، عن رغبتها في تحريم اللجوء الى القوة بأي شكل كان ، فان ميثاق الامم المتحدة قد اضطر الى السماح باستعمال القوة المسلحة في حالتين : حالة الدفاع المشروع عن النفس ، وحالة قيام الامم المتحدة نفسها باستخدام القوة ضد دولة معينة · واذا نتج عن الحالة الثانية احتلال لاقليم هذه الدولة ، او لجزء منه ، فانه يعتبر عملا مشروعا ·

ومن المسائل المهمة التي يثيرها الاحتلال الحربي : مسألة السيادة ومسألة ادارة الاقليم المحتل ·

١ ـ ففي الماضي كان الغزو او الاحتلال سببا من أسباب اكتساب الاقليم · وكانت دولة الاحتلال تعتبر الاراضي المحتلة جزءا من اقليمها تتصرف به كما تتصرف باملاكها · ولكن الوضع أخذ يتغير ويتطور ابتداء من القرن الثامن عشر ، حيث بدأ المجتمع الدولي يميز بين الاحتلال والغزو والاستيلاء · وبصدور اتفاقيتي لاهاي لعامي ١٨٩٩ و ١٩٠٧ ، اصبح للاحتلال وضع قانوني متفق عليه ·

وفي العام ١٩٤٩ ، صدرت اتفاقيات جنيف ووافقت عليها غالبية دول العالم · وقد حددت الاتفاقية الرابعة منها المبادىء والقواعد الاساسية التي يخضع لها الاحتلال الحربي · ويمكننا تلخيصها بالنقاط التالية :

أ ـ **الاحتلال وضع مؤقت** ليس له صفة الدوام وليس له اي تأثير في استمرار وجود الدولة ·

**ب ـ الاحتلال لا يؤدي ، من الناحية القانونية ، الى نقل السيادة** من دولة الى اخرى ، اي انه لا يكسب دولة الاحتلال حق السيادة على الاقليم المحتل ، لان السيادة تبقى كامنة في السكان الذين يحق لهم ، خلال فترة الاحتلال ، رفض الغزو او الضم واللجوء الى المقاومة · ان كل ما يمكن ان يسفر

عنه الاحتلال ، بالنسبة الى السيادة ، هو تجميد ممارستها ·

جـ ـ الاحتلال يخول دولة الاحتلال **صلاحية ممارسة سلطة فعلية واقعية تستهدف حفظ النظام والامن في الاقليم المحتل** وتسيير شؤون سكانه · وهذه السلطة لا تستند مطلقا الى حق السيادة على الاقليم ولا تؤثر في الوضع القانوني للاقليم · انها تستند فقط الى قانون الاحتلال الحربي المستمد من الاتفاقيات الدولية ·

**د ـ قانون الاحتلال هو الذي يحدد الاطار التشريعي والاجرائي الذي يحق لسلطة الاحتلال ان تتحرك ضمنه** · وكل تغيير تدخله هذه السلطة على شؤون الاقليم يجب ان يتم في اضيق نطاق ويقتصر على مواجهة متطلبات الحياة اليومية للسكان ·

٢ ـ والمسألة الثانية التي يعالجها قانون الاحتلال الحربي هي مسألة ادارة الاقليم المحتل · فالاحتلال يؤدي الى انهيار السلطة الشرعية للبلاد ونشوء فراغ سياسي واداري فيها · ولتجنب قيام حالة من الفوضى بسبب غياب سلطة القانون وتوقف المؤسسات والمرافق العامة عن العمل ، فان قانون الاحتلال قد نص على وجوب قيام سلطة حكومية بديلة تسد الفراغ وتحول دون تدهور الاوضاع الداخلية ·

والقانون الذي أوجد السلطة البديلة رسم لها حدود الصلاحيات التي تملكها في ادارة الاقليم المحتل وفي احداث التغييرات في الاراضي المحتلة · ويمكننا ايجازها بالنقاط التالية :

أ ـ على سلطة الاحتلال **الامتناع عن احداث التغييرات في المؤسسات الاساسية** الا في حالة الضرورة القصوى ، او في حدود الضرورات التي يفرضها حفظ النظام والامن ·

ب ـ على سلطة الاحتلال ان تكتفي ، في الاقليم المحتل ، بممارسة **حقوق الادارة** ، لانها لا تملك ، بموجب قانون الاحتلال ، اي حق في ضم الاقليم الى أراضيها ، او في تقسيم الاقليم ، او في تشكيل حكومة مدنية فيه · ثم ان حق الادارة الذي تمارسه يعتبر حقا استثنائيا لا يجوز مقارنته بحق الادارة الذي تمارسه السلطة الشرعية الاصلية على الاقليم في الاحوال العادية · ومن هنا يحظر على سلطة الاحتلال اجراء اي تغيير اداري من شأنه خدمة مصالحها السياسية او الاقتصادية وتهيئة الاقليم للضم فيما بعد ·

جـ ـ على سلطة الاحتلال ان تدير الاقليم المحتل بواسطة **حكومة عسكرية** · وتعرف هذه الحكومة بانها « ذلك الشكل من الحكومة التي يؤسسها ويقيمها أحد الاطراف المتحاربة بقوة السلاح في الاقليم المعادي الذي جرى احتلاله من

اجل حكم ذلك الاقليم » · وتختلف الحكومة العسكرية هنا عن الحكم العسكري العرفي الذي تفرضه الدولة نفسها على المواطنين في بعض الحالات الاستثنائية الخاصة ( ٢٦ ) ·

د ـ على سلطة الاحتلال **الا تقدم على تدمير الاملاك الخاصة للدولـــة او استعمالها الا اذا قضت الضرورة بذلك** · ولمنع التعسف في استعمال هذا الحق، وضع قانون الاحتلال قيودا وحدودا مستمدة من مبدأين : الضرورة والانسانية· وهذه القيود والحدود ليست ثابتة لان وضعها مرتبط بطبيعة املاك الدولـــة المحتلة ( املاك منقولة او غير منقولة · املاك قابلة لخدمة اغراض عسكريـة · املاك ضرورية لسد حاجات جيش الاحتلال ) · واذا كانت اتفاقية لاهاي لعام ١٩٠٧ ، التي تنظم العلاقات الاقتصادية في وقت الحرب ، تسمح للعدو الموجود فوق ارض خصمه بتدمير الاملاك العامة غير المنقولة ، لاغراض حربيـــة ، او باستعمالها لاغراض ادارية او استراتيجية ، فانها تحظر عليه حرية التدمير من أجل التدمير · واذا كانت المادة ٥٥ من الاتفاقية تخول العدو المحتل حـــق ادارة املاك دولة الخصم واستثمارها ، فانها تفرض عليه بالمقابل المحافظة على جوهرها واصولها من التلف (٢٧) ·

تلك هي أهم القواعد العامة التي يخضع لها الاحتلال الحربي والتي حظيت بموافقة كل دول العالم تقريبا · غير ان اسرائيل ترفض احترامها والرضـــوخ لها ·

ان الاستناد الى الغزو العسكري ، كحجة قانونية لتبرير التوسع الاقليمي ، لم يعد أمرا مقبولا او متصورا في المرحلة الحالية لتطور القانون الدولـــي ، « فلم تعد هناك دولة واحدة تجادل في صحة القاعدة القائلة بعدم جواز استخدام القوة لتحقيق مكاسب اقليمية وما تستلزمه لزوما من عدم الاعتراف بالتغييرات الاقليمية الناجمة عن استخدام القوة · بل انه يمكن القول ، بغير مبالغة ، ان هذه القاعدة هي الركن الاساسي في بناء القانون الدولي المعاصر كله ، اذ بها فقـط يتأكد دور هذا القانون كالوسيلة البديلة عن الحرب لتسوية المنازعات الاقليمية بين الدول » (٢٨) · ولكن اسرائيل ترفض الاعتراف والعمل بمبدأ عدم جـواز الاستيلاء على الاقاليم باستعمال القوة · ان احتلالها للاراضي العربية ، فـــي العام ١٩٦٧ ، قد تم نتيجة لاستعمال القوة الذي تحرمه القوانين والاتفاقيـات الدولية المعاصرة وليس دفاعا عن النفس ، كما يدعي زعماؤها · واحتلالهـــا لهذه الاراضي ، بعد استيلائها على قسم من فلسطين العربية في العام ١٩٤٨ ، يستهدف ضمها والاستيلاء عليها نهائيا ·

وعندما نلقي نظرة على الكيفية التي استغلت بها ، منذ العام ١٩٦٧ ، ابـار النفط في سيناء نجد ان استنزاف هذه الآبار كان ديدنها وهاجسها · فقد صرح

يوما نائب وزير المالية الاسرائيلية ان آبار ابو رديس تعمل باقصى طاقتها وانه ينتظر نضوبها بعد عشر سنوات (٢٩) ·

ومع ان القانون الدولي يحرم على السلطة المحتلة ان تتنازل لطرف ثالث عن حق استغلال املاك العدو ، فان اسرائيل قد تنازلت لشركات أجنبية عن حق استغلال آبار النفط او عن حق التنقيب عنه في سيناء وخليج السويس · وكشفت نشرة ( بلاتس اويل غرام ) الاميركية عن ان وزارة الطاقة الاسرائيلية أصدرت اوامرها الى شركة ( نبتون اويل ) ، التي تتولى تشغيل منطقة الامتياز في خليج السويس ، بان ترفع انتاج حقل النفط الجديد في علما ( جنوب غرب الطور ) ، الى الحد الاقصى ، بغض النظر عن اي اعتبار ·وذكرت ان مراقبين نفطيين يعتقدون ان الاوامر « باستنزاف البئر بأسرع وقت ممكن » تستند الى قرار اتخذه مجلس الوزراء الاسرائيلي (٣٠) ·

لقد أتيح للجنة الخاصة للامم المتحدة ، في العام ١٩٧٢ ، ان تناقش الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل في الاراضي المحتلة وان تذيع المبادىء التالية التي تجسد أحكام القانون الدولي في هذا الصدد :

أ ــ تحريم ضم الاقليم وتحريم نقل اي قسم من سكان دولة الاحتلال لاستيطان الاراضي المحتلة ·

ب ــ اعتبار الاحتلال العسكري او الحربي وضعا مؤقتا وحالة واقعية لا تجيز التصرف بالاقليم المحتل ·

جـ ــ حظر مصادرة الاملاك الخاصة او بيعها ، وجعل حق سلطة الاحتلال مقتصرا على ادارة واستغلال الاملاك العامة للخصم ·

د ــ وجوب التمييز ، عند الحديث عن حق الانتفاع بالاملاك العامة ، بين **الاموال المتجددة والاموال غير المتجددة** · والاولى هي تلك التي لا تنضب باستغلالها ، وانما تتجدد · اما الثانية فهي تلك التي تنفد نتيجة الاستغلال · والاراضي الزراعية مثل على الاموال المتجددة · ويحق لسلطة الاحتلال الانتفاع بها واستثمارها · ولكنه يحظر على هذه السلطة استغلال الاموال التي لا تتجدد لانه يترتب على ذلك نفادها بعد فترة من الزمن وحرمان السكان من احد مصادر ثروتهم ·

واعتبرت احدى اللجان التابعة للامم المتحدة ، التي اهتمت بمسألة حقوق الانسان في الاراضي المحتلة ، ان النفط الخام الذي يجري استخراجه هو من المصادر غير المتجددة التي لا يجوز للسلطة المحتلة الانتفاع بها عن طريق الاستخراج لانه يترتب على عملية الاستخراج نفاده بعد مدة من الزمن ، وبالتالي حرمان سكان الاراضي المحتلة من مصادر ثروتهم ، وهو أمر مخالف لاحكام القانون الدولي لا يحق لاسرائيل ، باعتبارها دولة محتلة ، القيام به (٣١) ·

## الحواشي

١ ــ **الاهرام** ، في ٢٦ــ٤ــ١٩٧٨ ·

٢ ــ **النهار** و **السفيــر** ، في ٢٨ــ٤ــ١٩٧٨ ·

٣ ــ نشرة ( **عالم النفط** ) ، في ١٦ــ٥ــ١٩٧٨ ·

٤ ــ وكالات الانباء العالمية في ١٦ــ٥ــ١٩٧٨ ·

٥ ــ **دافار** ، فـــي ٢٠ــ١٢ــ١٩٧٧ · ونشير الى ان المصادر العبرية مقتبسة من **نشرة م·د·ف·**

٦ ــ **معاريف** ، في ٢٥ــ١٢ــ١٩٧٧ ·

٧ ــ **السفير** ، في ٢٢ــ٥ــ١٩٧٨ ·

٨ ــ راجع العرض الذي قدمه يسرائيل تومار لدراسات المدير العام لمصـــــرف اسرائيل ، في صحيفة **يديعوت احرونوت** ، في ٢ــ١٢ــ١٩٧٧ ·

٩ ــ **السفير** ، في ١٢ــ١٠ــ١٩٧٧ ·

١٠ ــ **معاريف** ، في ٢٣ــ١٢ــ١٩٧٧ ·

١١ ــ هذا ما قاله نقيب المهندسيـــن الاسرائيليين · **دافـــــار** ، في ٢٠ــ١٢ــ١٩٧٧ ·

١٢ ــ صرح الحسن الثاني ، قبـــل الزيارة بيومين ، انه يرغب في ان يرى الشرق الاوسط وقد جمع بين « العبقرية الاسرائيلية والموارد العربية » · **السفير** ، في ١٨ــ١١ــ١٩٧٧ ·

١٣ ــ **السفير** في ٢١ــ١١ــ١٩٧٧ ·

١٤ ــ **دافار** ، في ٢٠ــ١٢ــ١٩٧٧ ·

١٥ ــ **شؤون فلسطينية** ، عدد ينايـــر ــ فبراير ١٩٧٨ ، ص ٣٤٦ · وكتـــاب : **زيارة السادات لاسرائيل** · مؤسســـــة الدراسات الفلسطينية ، بيـــروت ١٩٧٨ ، ص ٣٨ ·

١٦ ــ **نفس المرجع** الوارد في الحاشية الثامنة ·

١٧ ــ **يديعوت احرونوت** ، في ١٩ــ١٢ــ١٩٧٧ ·

١٨ ــ **معاريف** ، في ٢٨ــ١٢ــ١٩٧٧ ·

١٩ ــ **دافار** ، في ١١ــ١٢ــ١٩٧٧ ·

٢٠ ــ **دافار** ، في ٢ــ١ــ١٩٧٨ ·

٢١ ــ **هارتس** ، في ٣ــ١ــ١٩٧٨ ·

٢٢ ــ **معاريف** ، في ٩ــ١٢ــ١٩٧٧ ·

٢٣ ــ **معاريف** ، في ٢٩ــ١٢ــ١٩٧٧ ·

٢٤ ــ راجع ما كتبه حسين ابو النمل عن : تزايد اهمية النفط في الاقتصـــــاد الاسرائيلي ، في **السفيـــــر** ، في ١ــ٦ــ١٩٧٨ ·

٢٤ ــ من تصريح لوزيـر الطاقـــــة الاسرائيلي · **النهار** ، في ٦ــ٤ــ١٩٧٨ ·

٢٥ ــ من تصريح لوزير الطـــاقـــة الاسرائيلي · **النهار** ، في ٦ــ٤ــ١٩٧٨ ·

٢٦ ــ د· تيسير النابلسي : **الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية** · مركـــــز الابحاث · بيروت ١٩٧٥ ، ص ٩٥ــ٩٦ ·

(27) Odile Debbasch, L'occupation mititaire , **L.G.D.J.** Paris 1962, P.P 25 - 29 .

٢٨ ــ د· ابراهيم شحاته : **الحـــدود الامنة والمعترف بها** · مؤسسة الدراســات الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١٧ ·

٢٩ ــ من تقرير المكتب الرئيسي لمقاطعة اسرائيل · دمشق ١٩٧١ ·

٣٠ ــ نشرة **عالم النفط** ، المذكورة ·

٣١ ــ نقلا عن د· النابلسي ، **المرجع المذكور** ، ص ١٧٢ ــ ١٧٣ ·

عبد الحفيظ محارب

# الموقف من التسوية بين ليكود والتجمّع العمّالي

تتزاحم في مخيلة المرء عندما ينتهي من البحث في هذا الموضوع ويشرع بالكتابة حوله ، صورتان ، وتهمتان صادرتان عن طرفين مختلفين ، موجهتان ضد المفاوض الاسرائيلي بشكل خاص والسياسة الاسرائيلية بشكل عام ٠

بطلة الصورة رئيسة وزراء اسرائيل سابقا غولدا مئير وهي تقف وسط حشد كبير ، في التاسع عشر من تشرين الثاني ( نوفمبر ) الماضي في مطار اللد ، تأهبا لاستقبال السادات الضيف الذي شاءت الظروف ان يكون الرجل الاول في استقباله مناحيم بيجن وليس غولدا مئير ٠ فعندما هبطت الطائرة واخذ الضيف برفقة بيجن يحيي مستقبليه فردا فردا ، ومن بينهم غولدا مئير ، بادرته وعلى مسمع من بيجن بالقول : « لقد تأخرت ! » ، فرد عليها : « ها انذا قد جئت ! » ٠ وليس خافيا على احد ما رمت اليه غولدا مئير في قولها ، الا ان ما كان يخفيه الزمن ، توجهها بعد ذلك الى المستوطنين في الاغوار وهضبة الجولان ، والقاء الخطب الحماسية هناك ضد « التنازلات الكبيرة » التي قدمتها حكومة بيجن للطرف المصري ، مع حث المستوطنين على البقاء « الى الابد » في مستوطناتهم تحت السيادة الاسرائيلية ٠

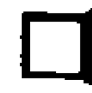
والصورة الثانية ، ارتسمت فوق منصة الكنيست خلال اليوم الثاني للزيارة ، حين نصب الضيف نفسه حكما على كلمتين سياسيتين القيتا داخل القاعة ، الاولى لزعيم التكتل اليميني الحاكم مناحيم بيجن ، والثانية لزعيم التجمع العمالي المعارض شمعون بيرس ٠

وأصدر الضيف الحكم ، حكمه الى جانب بيريس ، حين امتدح كلمته ناعتا

اياها بانها « بناءة » ٠ ولا نعرف اذا كان ما يزال واثقا من عدالة حكمه ام لا ٠

اما التهمتان فموجهتان اساسا ضد السياسة الاسرائيلية التي يختطها التكتل اليميني الحاكم تجاه المفاوضات مع مصر ٠ وقد صدرت التهمة الاولى عن الطرف المصري ، عندما ضاق ذرع المسؤولين والمعلقين المصريين وعيل صبرهم من طريقة واسلوب المفاوض الذي يجلس امامهم ، فما كان منهم الا نعت المفاوض الاسرائيلي بـ « شايلوك » ، بطل مسرحية « تاجر البندقية » لشكسبير ! ومن الجدير بالذكر ان هذه التهمة حظيت بدراسة وتعليق عدد من المسؤولين والمعلقين الاسرائيليين ، فمنهم من اعتبرها نوعا من اللاسامية ، ومنهم من رأى غير ذلك ناظرا اليها من زاويتها الادبية فقط !

اما التهمة الثانية ، وهي شبيهة بالتهمة الاولى ، فقد صدرت عن احد قادة حزب مبام ، شريك حزب العمل في التجمع العمالي ، مردخاي بنطوف ، ووردت في مقال له (١) يتهم فيه سياسة حكومة التكتل اليميني تجاه السلام باللجوء الى « الكذب والخداع » ، معلنا انه بصفته يهوديا فانه يخجل من تمسك «الحكومة اليهودية بوسائل الكذب والخداع » ، والتي تقوم حسب رأيه بكل ما يلصقه اللاساميون باليهود ٠ولا يبدي بنطوف استغرابا من ذلك بل يكتفي بابداء «الخجل» اعتقادا منه ان الجناح التصحيحي اليميني في الحركة الصهيونية الذي يعتبر الاساس الفكري المسير لليكود ، لم يخلق اية فكرة جديدة او طريق جديدة ، ليصل بعد ذلك الى تفجير التهمة : « ولا غرابة اذن ان ما بقي له ، يتمثل في الذهنية المهجرية للبائع المتجول اليهودي الذي يرى **كبرياءه في خداع الاغيار ، ويحلم في الحاق الاذى بهم** ٠ وعلى هذه الخلفية فقط يمكن لسياسة حكومة بيجن شق مسار لها » ٠ ومن اللافت للنظر ان هذه التهمة الشبيهة بتهمة « شايلوك » التي اطلقها المصريون ، وربما تكون ابشع منها ، باعتبار انها تفتقر الى جانب ادبي كما في مسرحية « تاجر البندقية » ، لم تحظ بتحليل او رد فعل من جانب اي كان في اسرائيل ، مع العلم انها صادرة عن شخصية سياسية مرموقة ، ومن زعامة حزب مبام ٠



يهدف هذا المقال الى تسليط الضوء على مواقف التكتلين الاساسيين في اسرائيل ، الليكود الحاكم والمعراخ ( التجمع العمالي ) المعارض ، تجاه التسوية مع مصر ، والتسوية الخاصة بالضفة الغربية وقطاع غزة ، للوقوف على الفوارق المختلفة بينهما ٠ وبسبب الاختلاف في نظرة كل من الفريقين تجاه الاراضي الفلسطينية وسيناء ، ارتأينا ، تقسيم الموضوع الى قسمين رئيسيين ، الاول يتعلق بنظرة كل من الفريقين تجاه التسوية مع مصر ، والثاني تجاه

الحلول المطروحة بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة · وقد حرصنا في بحثنا عن التصورات المختلفة لكلا الفريقين ، تجاه التسوية ، على ثلاثة امور : (١) الاعتماد بقدر الامكان على ما كتبه او افضى به المسؤولون في تلك التكتلات السياسية ، (٢) التركيز على المواقف السياسية المستجدة عقب زيارة السادات ، دون الرجوع الى البرامج السياسية السابقة ، والمعروفة ، للتيارات السياسية ، (٣) تسليط الضوء على موقف التجمع العمالي ــ الذي يعتبر البديل للتكتل اليميني الحاكم ــ وذلك لسببين ، الاول ، يعود الى عدم وضوح افكاره مقارنة مع موقف الليكود اليميني المحدد ببنود ، والثاني ، ازالة الوهم العالق عند البعض بالنسبة لــ « اعتدال » الجناح العمالي ·

**الموقف الرسمي تجاه سيناء**

في الثامن والعشرين من شهر كانون الاول ( ديسمبر ) الماضي شهدت الكنيست الاسرائيلية نقاشات سياسية خطيرة امتدت قرابة عشر ساعات ، اثر تقديم رئيس الحكومة مناحيم بيجن مشروعه الخاص بالتسوية تجاه سيناء والضفة الغربية وقطاع غزة · وقد حظي المشروع بموافقة اكثرية اعضاء الكنيست ( ٦٤ عضوا ، ومعارضة ٨ اعضاء ، بينما امتنع الباقون عن التصويت ) · واعتمدت خطة التسوية مع مصر ، كما عرضها بيجن في بيانه فى الكنيست (٢) على المبادىء التالية :

« ١ ــ التجريد من السلاح ــ الجيش المصري لن يجتاز ممري الميتلا والجدي·

٢ ــ يبقى اتفاق خفض القوات ساري المفعول على المنطقة الواقعة بين ممري الميتلا والجدي وقناة السويس ·

٣ ــ بقاء المستوطنات الاسرائيلية في اماكنها ، وستكون هذه المستوطنات مرتبطة بالادارة والقضاء الاسرائيليين لفترة انتقالية تستمر سنوات عدة ، وسترابط قوات الجيش الاسرائيلي خلال هذه الفترة على امتداد خط دفاعي وسط سيناء ، مع الاحتفاظ بمطارات ومحطات انذار اسرائيلية ، حتى انسحاب قواتنا على الحدود الدولية ·

٤ ــ ضمان حرية الملاحة في مضائق تيران ··· » ·

من الملاحظ في هذه الخطة ان بيجن لم يطالب بسيادة اسرائيلية رسمية على اي جزء من سيناء ، واعترف بالحدود الدولية كحدود نهائية بين مصر واسرائيل · وقد اجمعت المصادر الاسرائيلية ، بعد القائه بيانه ، أن بيجن تعهد للسادات خلال لقائه معه بالاسماعيلية باعادة السيادة المصرية على جميع سيناء مقابل السلام الحقيقي · كما واوضح وزير الخارجية موشيه ديان كذلك ،

في مقابلة تلفزيونية معه (٣) بقوله « ··· ليس بوسع اسرائيل مطالبة مصر بسيادة اسرائيلية على اجزاء من سيناء ، ولم يسبق لاسرائيل ابدا ان طبقت سيادتها على اي منطقة في سيناء ، ولم تعارض سيادة مصر على شبه الجزيرة » · الا انه من الواضح ايضا ان بيجن اطر هذه السيادة بشروط تتسم بالغموض ، ويمكن لها نسف جوهر السيادة المصرية ، وتحويلها الى سيادة اسمية فقط ·

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما هو سر « سخاء » بيجن حين اعترف بالسيادة المصرية على سيناء مقابل السلام الحقيقي مع مصر ؟

اقدم بيجن على ذلك تصورا منه انه بذلك يخدم المشروع الاسرائيلي تجاه مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ، فقد اعتقد ان متطلبات اللعبة السياسية تستوجب احداث « تنازلات كبيرة » لمصر لدفعها للموافقة على مشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، والعمل من خلال هذا « الطعم » لرسم مستقبل السلام الشامل ، كما ترتأيه اسرائيل ، بالاشتراك مع اكبر دولة عربية في المنطقة ، الا ان الرئيس السادات لم ينجذب نحو الطعم الذي نصبه له بيجن ، حين رفض مشروع الادارة الذاتية الخاص باراض فلسطينية · وقد اعتبر عدد كبير من الاسرائيليين ان الخطأ الاساسي الذي ارتكبه بيجن في تعامله مع المفاوضات ، يكمن في « سخائه » غير المدروس تجاه مصر ·

وكان من نتيجة عدم قبول مصر لمشروع الادارة الذاتية ، واستمرارها بمطالبة اسرائيل بالانسحاب من جميع المناطق المحتلة منذ ١٩٦٧ ، تصليب الموقف الاسرائيلي الرسمي تجاه مستقبل سيناء عن طريق تفسير البنود الاسرائيلية المتسمة بالغموض ، والمتعلقة بالاستيطان والامن · ولذلك اخذت تثير مسألة ضرورة بقاء ثلاثة مطارات حديثة في سيناء لفترة طويلة تحت السيطرة الاسرائيلية ، بالاضافة الى المطالبة ببقاء المستوطنات ، وخاصة تلك الواقعة في شمال سيناء تحت الادارة الاسرائيلية ، مع الاعلان عن عدم استعداد اسرائيل للتخلي عن مستوطنة واحدة ، كما قال رئيس الحكومة مناحيم بيجن عشية اعلان مصر عن وقفها للمفاوضات في « اللجنة السياسية » المصرية الاسرائيلية في القدس : « يجب ان تبقى هذه المستوطنات على ما هي عليه ، ولن نوافق ازاء التجربة التي مرت على الشعب اليهودي في هذا الجيل ، على ان تكون هنالك مستوطنات يهودية دون قوة حماية يهودية ··· واذا ما تقرر ازالة هذه المستوطنات ، فانني لن انتظر حتى يأتوا ليقيلوني ، بل سأتوجه بنفسي الى رئيس الدولة » (٤)

واتبعت حكومة اسرائيل تهديد بيجن بالاستقالة ـ ومن الطريف حقا ان يعتمد بيجن في اللعبة السياسية نفس السلاح الذي يلوح به السادات بين الحين

والاخر – بنشاط استيطاني في الاراضي المصرية ٠ فعند مطلع العام ، ووسط مفاوضات اللجنة السياسية ، قامت السلطات الاسرائيلية باعمال تمهيد للاراضي في المنطقة الواقعة بين العريش وبير لحفان ، لمدة تزيد عن اسبوع ، حيث قامت بتمهيد عشرين قطعة من الارض ، مساحة كل منها خمسون دونما ، مع الحرص على نشر الانباء عن اعمال التمهيد . والتكتم على الهدف من ورائها٠ واتضح فيما بعد ان القصد من وراء ذلك هو اقامة عدد من المستوطنات الصورية في عمق سيناء ، لحمل المصريين على التنازل عن منطقة مشارف رفح ، مقابل تنازل المفاوض الاسرائيلي عن المستوطنات الصورية !

ثم ارفقت حكومة اسرائيل تصرفاتها تلك بقرارين متناقضين ٠ ففي الثامن من كانون الثاني ( يناير ) قررت عدم اقامة مستوطنات جديدة في سيناء خلال المفاوضات ، واللجوء بدلا من ذلك الى «تسميك» المستوطنات القائمة في مشارف رفح . اي دعم الاستيطان بزيادة عدد المباني ومضاعفة عدد السكان ٠ كما راح ليكود الحاكم يعلن عن سياسة جديدة تربط بين مبادىء التسوية في سيناء ومشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية ، ككل لا يتجزأ ، اي ان اسرائيل لن تقبل حلا في سيناء يعتمد على المبادىء الانفة الذكر ، اذا لم يكن هذا الحل ضمن « صفقة رزمة » تشمل الاراضي المصرية والفلسطينية معا ٠

اذن يمكن القول ان سياسة اسرائيل تجاه الحل مع مصر ، تعتمد على الاعتراف بالسيادة المصرية على جميع اجزاء سيناء ، مع ربط هذا الاعتراف بشروط تجعل من السيادة المصرية سيادة اسمية ، وفق المبادىء الواردة في خطة بيجن ، والتي تخضع للمراجعة الاولى بين الطرفين في عام ٢٠٠١م٠

**موقف المعارضة**

اذا استثنينا موقف الحزب الشيوعي ، راكاح ، نجد ان المعارضة « المبدئية » لمشروع السلام لحكومة التكتل اليميني ، لا تكمن في اوساط التجمع العمالي المعارض ، وانما في الاجنحة المتطرفة داخل الليكود والاحزاب المشاركة له في الحكم ، وكذلك في الهيئات الممثلة لغلاة المستوطنين والتوسعيين التي تدور في فلك الليكود وعلى يمينه ٠ وربما تكون هذه الفئات اكثر التيارات السياسية تجانسا مع نفسها تجاه السلام والتسوية ، وتخشى اكثر من غيرها ان تؤدي عملية السلام والتسوية الى انسحاب اسرائيلي من اراض تعتبرها جزءا لا يتجزأ من « ارض اسرائيل المحررة » ٠ ولذا فانها استقبلت زيارة السادات – على الرغم مما تضمنته من مكاسب عظيمة للكيان الاسرائيلي – بفتور مصحوب بالتخوف من احتمال حدوث تنازلات اسرائيلية للطرف العربي ٠ وقد تحركت هذه الاوساط قبل ان يطرح بيجن مشروعه امام السادات ٠ فعشية توجه بيجن الى الاسماعيلية ، عقد قرابة مئة شخص من الليكود برئاسة غيئولاه

كوهين وموشيه شمير ، اجتماعا تمخض عن مذكرة موجهة الى بيجن اعربوا فيها عن « الذهول والالم » من الخطة التي تحمل بين طياتها ، حسب قولهم ، « بذور الكارثة لشعب اسرائيل · انها خطوة غير اخلاقية ، واستسلام للعدوان العربي ، وقد تؤدي الى كارثة وليس الى سلام · اننا على اعتقاد ان الرأي القائل بضرورة دفع مناطق ارض اسرائيل مقابل السلام لهو رأي خاطىء من اساسه » · وعندما طرح بيجن خطته في الكنيست للتصديق عليها لم يجد من يرفع صوته ضدها ، غير الحزب الشيوعي وعدد بسيط من بين صفوف الليكود، وكل منهما ، بالطبع ، لمواقفه الخاصة به ·

وكان من نتيجة طرح مشروع بيجن الذي وافقت عليه حكومة الائتلاف ، ان برزت وتبلورت « معارضة بيتية » تجاه التسوية المقترحة · ويكاد لا يخلو حزب او جناح ضمن التشكيلة الحزبية التي تشكل الحكومة الائتلافية من مثل هذه المعارضة · ففي حركة « حيروت » التي يتزعمها بيجن ، قاد المعارضة كل من النائبين غيئولاه كوهين وشموئيل كاتس · وفي كتلة « لعام » المنضوية تحت لواء الليكود ، قاد المعارضة كل من موشيه شمير وتسفي شيلواح · وبلغت حالة الغضب عند الاخير درجة اندفع معها الى تقديم استقالته من ادارة الليكود · وفي كتلة الحزب الديني القومي ( المفدال ) تزعم المعارضة النائب الحاخام حاييم دروكمان · اما في كتلة الحركة الديمقراطية للتغيير ( داش ) فقد تزعم المعارضة هناك مئير زوريع الذي لم يجد امامه سوى الاستقالة من الحركة احتجاجا على موقف حزبه ( الى جانب اسباب اخرى ) · وسعت هذه التيارات الى خلق مجموعة ضغط داخل الكنيست ضد سياسة الحكومة تجاه التسوية ، بيد ان فاعلية ضغطها لا زالت محدودة · ومن المستبعد ان تشكل هذه المعارضة خطرا حقيقيا على الائتلاف الحكومي ، ولكنها مع ذلك تعتبر بمثابة مؤشر لامكانية بروز مراكز قوى داخل التنظيمات اليمينية ، يمكن لها ان تعمل على تفتيت مركزية تلك الاحزاب ، كما حدث لحزب العمل خلال السبعينات حين ظهرت « المنابر » داخله بكثرة ، وامعنت في تمزيق الحزب من الداخل · وليس هنالك شك بأن ظهور مثل هذه المعارضة قد اثر ، ولو بشكل محدود ، على قيادة بيجن للحزب ، وقد جرب بيجن قوته تجاه المعارضة « البيتية » ( داخل حركة حيروت ) عندما جرى التصويت في مركز الحركة لاختيار احد اعضائها لشغل منصب وزير في الحكومة · وجرت المنافسة بين حاييم لنداو ، وشموئيل كاتس ، فوضع بيجن كل ثقله الى جانب المرشح الاول ، بينما وضع الجناح المعارض لسياسته تجاه التسوية مع مصر ، ثقله الى جانب المرشح الثاني ، فنال مرشح بيجن ٦٠٪ من الاصوات بينما نال مرشح المعارضة ٤٠٪ · الا انه ينبغي ان لا يغيب عن البال ان النسبة الكبيرة التي تصدت لبيجن ، ليست ناجمة كلها عن سياسته تجاه التسوية فقط ، بل عن اسباب

اخرى متعددة ، اهمها معارضة سياسته او التحفظ تجاهها ·

ويعتبر شموئيل كاتس ـ احد قادة اتسل سابقا ـ المعبر عن « فكر » هذه المجموعة ، والذي يتلخص كما يقول في مقال له (٥) في ان « لا يوجد حق مطلق على ارض اسرائيل سوى حق شعب اسرائيل ، اما حقوق العرب فانها تتمثل في المواطنة الكاملة اذا ما ارادوا ذلك » · وتجد هذه المعارضة الاطمئنان في اتساع الهوة بين الموقفين المصري والاسرائيلي ، ولا ترى والحال كذلك ، ضرورة القيام بنشاطات محمومة ضد سياسة الحكومة ، او كما تقول غيئولاه كوهين (٦) : « ربما لا نحتاج الى استخدام المعارضة ضد مشروع السلام ، لانه اتضح ان بيجن لن يقدم تنازلات اخرى في خطته ، وسيشكل السادات معارضة للمشروع ، واذا لم يتنازل السادات ، فان بيجن هو الذي سيعارض »·

الى جانب المعارضة « البيتية » هنالك ايضا معارضة الهيئات السياسية التي تدور في فلك الليكود وعلى يمينه ، مثل جوش ايمونيم وحركة ارض اسرائيل الكاملة ومنبر « فيرد » ، التي تتشكل من غلاة التوسعيين والاستيطانيين · وقد اعتمدت هذه المعارضة في تصديها لسياسة الحكومة تجاه التسوية اسلوب عقد الاجتماعات الاحتجاجية والتظاهرات ·

وهنالك معارضة من نوع اخر تتمثل في مجموعة المستوطنين في المناطق العربية المحتلة منذ ١٩٦٧ · ويختلف هذا النوع من المعارضة عن تيارات المعارضة السابقة ، بسبب الانتماءات السياسية المختلفة لهؤلاء المستوطنين الذين يتوزعون في ولاءاتهم على مجموعة الاحزاب الصهيونية من عمالية ويمينية · الا انه من اللافت للنظر ان المستوطنين المنتمين الى الاحزاب العمالية يبدون معارضة اكثر واشد من احزابهم تجاه التسوية ، وكذلك الامر بالنسبة للمنتمين الى التيارات اليمينية · وقد افصح هؤلاء عن مواقفهم بالاجتماعات الاحتجاجية التي جرت في مشارف رفح وغور الاردن وفي كريات اربع · ومن الجدير بالذكر ان قادة حزب العمل المعارض ، مثل غولدا مئير وبيريس ، شمروا عن سواعدهم اثناء المفاوضات المصرية الاسرائيلية ، وتوجهوا نحو المستوطنين في الاراضي العربية المحتلة منذ ١٩٦٧ ، داعين اياهم للبقاء « الى الابد » في مستوطناتهم · واحتفل هؤلاء القادة في السابع من كانون الثاني ( يناير ) الماضي بتدشين مستوطنة ناحال حوليت في مشارف رفح وتحويلها الى كيبوتس مدني ، بينما انهمك قادة التكتل اليميني بتهدئة روع المستوطنين ، من خلال الادلاء بتصريحات تقول انه لا يمكن التنازل عن مستوطنة واحدة ·

اذن يمكن القول ان المعارضة « البيتية » الرافضة للتسوية قلبا وقالبا ، ليست في عجلة من امرها · فمن خلال مراهنتها على الهوة الكبيرة بين الموقفين المصري والاسرائيلي ، تنشط بالتصدي لسياسة الحكومة ، مع الحرص على

عدم تجاوز الحد الذي يؤدي الى احتمالات الانشقاق · ومع ذلك فانها اوضح بكثير من المعارضة الاخرى ، والاهم ، التي سنركز الحديث حولها ·

**موقف التجمع العمالي المعارض**

يعتبر التجمع العمالي المعارض الذي يتشكل من تحالف حزبي العمل ومبام الكتلة السياسية الرئيسية والوحدة التي يمكن ان تكون بديلا او خلفا لليكود اليميني الحاكم ، فضلا عن كونها الكتلة السياسية الاساسية التي قادت الييشوف اليهودي والدولة الاسرائيلية حتى السابع عشر من ايار ( مايو ١٩٧٧ ، حين حدث الانقلاب السياسي ، واسفرت الانتخابات عن سقوط التجمع العمالي وفوز الليكود · وقد اعتبر الكثيرون ذلك اليوم المشهور بمثابة الحد الفاصل بين **الاعتدال** السياسي **والتعنت** السياسي في مجتمع المهاجرين والمستوطنين الصهيونيين ، وذهب البعض انطلاقا من هذه الرؤيا الى تأبين « التسوية »، وهذا يقودنا الى السؤال ، كيف ينظر التجمع العمالي الى التسوية؟ ويمكن الوقوف على ذلك من خلال الاحاطة بنظرة التجمع تجاه « مشروع السلام » الاسرائيلي الوارد في بيان بيجن عند اواخر العام الماضي في الكنيست · فعندما طرح المشروع للتصويت عليه ، لم يرفع احد من اعضاء التجمع صوته ضده او الى جانبه ، اي ان كتلة التجمع التزمت « التحفظ » تجاه المشروع · وقد عادت الكتلة بعد وقف المباحثات السياسية بين مصر واسرائيل ، واثناء طرح الثقة بالحكومة ، الى تبني عدم رفع اليد سلبا او ايجابا ، والتزمت بمبدأ « التحفظ » مع اشفاع هذا التحفظ بتحميل الليكود ثلث اسباب فشل المفاوضات وتحميل مصر عبء الثلثين الباقيين ·

ولعله من المفيد هنا الوقوف على سر التحفظ الذي يعتمده التجمع العمالي المعارض · لقد فسر زعيم التجمع بيريس ذلك بقوله (٧) « لو تأكدنا من ان اقتراحنا سيقبل في حال سقوط اقتراح الليكود ، لصوتنا ضده · ولكن بما اننا اعتقدنا ان معارضة الليكود تؤدي الى فشل المفاوضات ، فقد ارتأينا انه من الافضل ان يطرح الليكود مشروعا سيئا من ان تظهر اسرائيل كمفشلة للمفاوضات · ولم يكن بوسعنا التصويت الى جانب المشروع لاننا نعارضه ، ولكن ليس بوسعنا التصويت ضده لاننا نقف الى جانب السلام » · ويبدو ان تخوف رئيس المعارضة من فشل المفاوضات او توقفها ، ورغبته في استمرارها ومواصلتها ، هما اللذان دفعاه بعد اعلان مصر عن وقفها لمفاوضات اللجنة السياسية في القدس ، الى الذهاب الى سالسبورغ لمقابلة الرئيس السادات واقناعه باعادة المفاوضات ·

**ولكن ما الذي يريده حزب العمل من المفاوضات ؟**

**في الخامس من كانون الثاني ( يناير ) واثناء سير المفاوضات** بين مصر

واسرائيل ، عقد المكتب السياسي لحزب العمل جلسة تدارس فيها مشروع السلام لحكومة الليكود ، وانتقده فيما يخص المستوطنات القائمة خـارج « الخط الاخضر » · وتقرر ان يقوم الحزب بنشاط جماهيري لمطالبة الحكومة « بذل كل جهد سياسي بهدف ان تبقى المستوطنات التي اقيمت خارج الخط الاخضر ، وفق القرارات الرسمية ، في حال استتباب السلام ، داخل اراضي دولـة اسرائيل ، وفي حدود قابلة للدفاع » ·

وفي هذا الاجتماع اعاد ابا ايبن سبب « نقدنا للحكومة » الى كونها « لم تعمل لضمان بقاء المستوطنات تحت الحكم الاسرائيلي » معتبرا ذلك بمثابة « عطاء دون اخذ » · اما يوسي سريد فقد قال « لا اقول ان مشروع الحكومة هو مشروع استيطاني ، ولكن يجب النضال من اجل ان تبقى المستوطنات فـي اراضينا » · وحذا مئير زرحي الرئيس السابق لحزب العمل ، حذو زميليه ( هؤلاء الثلاثة من فئة الحمائم في الحزب ) حين قال ان « خطة التجمع العمالي تعتمد على وجود دولة يهودية واستيطان ليس وسط التجمعات العربية ، بـل في المناطق الخالية · وعلى ضوء ذلك اقيمت المستوطنات ، ولذا يجب النضال من اجل بقائها تحت السيادة الاسرائيلية » (٨) ·

وقد وجد قادة التجمع العمالي انفسهم نتيجة موقفهم هذا في تنافس مـع الليكود حول موضوع الاستيطان · وربما كان هذا الواقع هو الذي دفع السادات للادلاء بتصريح « متشدد » تجاه الاستيطان في مشارف رفـح حين قـال « فليحرقوها » ، اي المستوطنات ، وعاد وخفف من حدة تصريحه وقـال « فليحرثوها » ، على اثر وصف بيجن له بـ « نيرون » ·

الا ان حزب العمل يرى ان المشكلة لا تتمثل في الاستيطان بقدر ما تتمثل فـي استعداد حكومة التكتل اليميني لاعادة السيادة المصرية على شبه جزيرة سيناء، ذلك ان هذا « الاستعداد » يمكن له ان يحول دون الاستيطان الاسرائيلي هناك· وقد عبر رئيس الحزب شمعون بيريس عن ذلك ، حين انتقد في بيانه فـي الكنيست (٩) عدم تمسك الحكومة في مشروعها بمناطق معينة فـي سينـاء ، موضحا انه « يجب ان نذكر ان هنالك مكانا ، حسب القرار ٢٤٢ ، لتعديلات حدودية من اجل خلق حدود آمنة · ومع الاخذ بعين الاعتبار حجم منطقة سيناء. ما الذي حال دون الحكومة في المطالبة بتعديلات لا تثير الضجـة عـلى امتداد الحدود الدولية ؟ » · ويرى بيريس ان هذه التعديلات ، التي لا تثيـر الضجة ، يمكن لها ان تحتل « شريطا ارضيا بعرض ٢٠ ــ ٣٠ كم الى الغرب من الحدود الدولية [ اي داخل الاراضي المصرية ] يمنح طائراتنا مجالا ، ومستوطناتنا وتشكيلاتنا العسكرية اراض » ·

وعاد بيريس واوضح انه على استعداد لاعادة السيادة المصرية على ٩٨٪

من سيناء (١٠) ، واخذ يركز بعد وقف المفاوضات على ان خطأ الحكومة يتمثل في « التنازلات الكبيرة » في سيناء في بداية المفاوضات · ففي مقابلة معه (١١) اعلن انه يعتقد « ان الحكومة كانت على خطأ في تقويمها للوضع · لقد اعتقد رئيس الحكومة انه من الممكن بواسطة بدء المفاوضات من النهاية ، انهاء المفاوضات بسرعة ، وخاصة في سيناء · الا ان المشكلة هي : عندما يبدأون من النهاية قد يصلون الى نهاية المفاوضات وهي في بدايتها · ان الفرضية القائلة بأن التنازلات الكبيرة في سيناء ستخلص الحكومة من مفاوضات سريعة في يهودا والسامرة ، غير صحيحة ·ومن المفهوم ان لهذا الخطأ جذورا ايديولوجية· وكذلك فان مسألة المستوطنات لم توضح فورا من جانب رئيس الحكومة ، وقد اتضح ان القيام بتسويات تحت عنوان الدفاع اسهل منه تحت عنوان «الاستيطان» · انني اتهم الحكومة التي بدأت الحوار ، ولكن يجب الامتناع عن الدخول الى المضمون بسرعة كهذه » ·

من الواضح ان نقد بيريس منصب بالاساس على موافقة الليكود على الانسحاب الى الحدود الدولية ، ولكن لو قدر للتجمع العمالي الفوز في الانتخابات الاخيرة ، وحل السادات ضيفا على بيريس ، بدلا من بيجن ، عارضا عليه السلام كما عرضه على زعيم التكتل اليميني الحاكم ، فما هو رده على ذلك بالنسبة لسيناء ؟ حول ذلك يجيب زعيم المعارضة العمالية في مقابلة صحفية اخرى (١٢) « قبل كل شيء ما كنت التزم بانسحاب الى الحدود الدولية ، لانه في اللحظة التي تصدر فيها سلفا موافقة على هذا الانسحاب ، يأتي السادات ويعلن انه يرغب في سلام كامل ، فتنتهي ادعاءاتك · كنا سنعثر على طريق وسط لانسحاب الى حدود آمنة » ·

واذا كان بيريس « لا يلزم » نفسه بالانسحاب الى الحدود الدولية ، حتى مقابل الاعتراف ومعاهدة السلام ، فان ابا ايبن وزير الخارجية الاسبق ومن اقطاب حزب العمل المعارض ، يرى هو الاخر ان الحكومة اخطأت في تسرعها بابداء الاستعداد للانسحاب الى الحدود الدولية ، ويفضل ان تعتمد « معاهدة السلام على اساس الحدود السابقة ، ومتطلبات امن اسرائيل ، واتفاق خاص في شرم الشيخ » · وهذه الصيغة بنظر ابا ايبن افضل من الصيغة التي طرحها بيجن · ويكمن « الافضل » هنا في تعبير « على اساس » الذي يمكن من خلاله ازالة معالم الحدود الدولية وطمسها لصالح اسرائيل · ويوضح ابا ايبن سبب تفضيله لهذه الصيغة بقوله انها « تبدو لي افضل من تلك التي تنتهجها الحكومة اليوم ، ذلك ان تعبير « على اساس » مدروس ، وجاء لتمكين احداث تعديلات معينة هنا وهناك · كما ان اضافة متطلبات اسرائيل الامنية تعطي غطاء اخر لهذه الامكانية البسيطة الحيوية · وينبغي على الحكومة الان الاخذ بعين الاعتبار *الواقع الذي* طرأ في منطقة مشارف رفح ، ليس فقط كوقائع مادية ، بل

ايضا كحقائق انسانية عميقة · فبعد ان رددت اسرائيـــل طوال عشر سنوات ونصف الادعاء القائل بأن مشارف رفح تغلق محور الغزو الكلاسيكي الـــى اسرائيل ··· فانه من غير المعقول الان التغاضي عن احد ادعاءاتنا الامنيــة القليلة التي حظيت بتقدير ايجابي من جانب اطراف ثالثة ··· » (١٣)

من الواضح ان الاتفاق الذي يقدر له الاعتماد « على اساس » الحـــدود السابقة يعني عند ابا ايبن ضم منطقة مشارف رفح وربما مناطق اخرى الـى اسرائيل ·

واذا كان ابا ايبن قد انحى باللائمة على الحكومة لعدم اعتمادهـا كلمـــات مطاطية غامضة مبهمة ، وفق اصول « الدبلوماسية اللبقة » التي يتقنها وزير الخارجية الاسبق ، لتمكين اسرائيل من التسلل من خلال تلك الكلمات لنهش سيادة اراضي الغير ، فان كلا من يغئال الون وحاييم بارليف ، من قيادة حزب العمل ، يريان ان حكومة التكتل اليميني اخطأت في تنازلها عن شبه جزيرة سيناء ، وكان يجب عليها الاصرار على عدم التنازل عن اماكن معينة منها ، ولكن ليس من خلال اعتماد مقولة « على اساس الحدود الدولية » بل على أساس امن اسرائيل · فبارليف ، الذي قاد الحملة الانتخابية لكتلة التجمـــع العمالي ، يرى انه « لا يجوز لاسرائيل ، كما لا يجوز لاية حكومة التخلي عن مشارف رفح · فهذه منطقة حيوية لاسرائيل يستحيل التقليل من اهميتها لسببين اساسيين وحيويين : الاول هوان المشارف تفصل بين سيناء وقطاع غزة وتحول دون الامتداد المتواصل بين القطاع وسيناء ··· والثاني لا يقل اهمية : قاعدة اسرائيل الجوية في المشارف وهي ذات اهمية كبيرة جدا لمتطلبات توزيـــــع طائرات سلاح الجو الاسرائيلي » (١٤) · اما يغئال ألون فقد بنى نقده لسياسة بيجن ، في اجتماع لحزب العمل في نتانيا ، على اساس « تهوره حين تسرع وتنازل بسرعة عن جميع سيناء ، بما في ذلك المستوطنات اليهودية ، انطلاقا من الافتراض الخاطىء بأنه سيحصل بواسطة ذلك على قبول مصر لخطته بالنسبة ليهودا والسامرة » · واعرب ألون عن اعتقاده بأن الحكومة قد « ارتكبت ظلمـا بحق المستوطنين في مشارف رفح وخليج شلومو [ العقبة ] ··· » وركز على ان هؤلاء المستوطنين يقومون برسالة قومية « ونضال سياسي لتحقيق حدود قابلة للدفاع » (١٥) ·

وقبل الانتقال الى اراء وسط حزب مبام شريك حزب العمل في التجمـــع العمالي ، يجدر بنا الوقوف قليلا حول فكرة ترددت وسط التجمع العمالـــي وعند بعض الاطراف في حكومة التكتل اليميني الحاكم ، تمثل في مبادلـــة الاراضي مع مصر ·

## فكرة استبدال الاراضي

وسط الجدل حول « تهور » بيجن بوعده للسادات في لقاء الاسماعيلية باعادة السيادة المصرية على كل شبه جزيرة سيناء ، برزت فكرة استبدال المناطق او الاراضي ، وهي تهدف بالاساس الى ازالة نتائج « التهور » المذكور مع الحرص على ان لا يؤثر ذلك على مبدأ السيادة المصرية الذي اعترف بـه بيجن ! كيف ؟

ينتمي اصحاب هذه الفكرة الى مدرسة التجمع العمالي او خريجي هذا التجمع ، مثل امنون روبينشتاين ، احد اقطاب الحركة الديمقراطية للتغيير ( داش ) المشاركة في حكومة التكتل اليميني · وقد ارتأينا معالجة هذه الفكـرة التي يتبناها زعيما « داش » اكثر من غيرهما ، في مجال الحديث حول المعارضة العمالية وليس في مجال الحديث حول سياسة حكومة الليكود ، لسببين : (١) عدم تبني الفكرة من قبل التيارات اليمينية ، (٢) حقيقة كون زعماء داش اقرب من ناحية البنية الفكرية الى التجمع العمالي منهم الى الليكود ، على الرغم من اشتراكهم في حكومة التكتل اليميني · فزعيما الحركة ، ينتميان تاريخيا الى مدرسة حزب العمل ، وكان احدهما ، امنون روبينشتاين ، من الوجوه البارزة في الحزب ، ومن جناحه الحمائمي ! بينما كان يئغال يدين مقربا اليه · وسنقف هنا على وجهة نظر كل من ابا ايبن وروبنشتاين حول الموضوع ·

يرى ابا ايبن في مقال له (١٦) انه في حال رفض مصر التنازل من طـرف واحد عن اجزاء معينة من سيناء « سيكون من المستحسـن فحص امكانية قيام مثلـث مكتظ بالمستوطنات في مشارف رفح كجزء من ارض اسرائيـل ، مقابل تنازل عن قطعة صغيرة داخل حدودنا ، **لا تزيد ولا تقلل** ، من الناحية الامنية الاستيطانية » · ويعتقد ايبن ان استبدال المناطق ولو بشكل رمزي « لا يتعارض ومبدأ السيادة المصرية الذي التزمت به الحكومة فيلقاء الاسماعيلية» ·

ولعله من المفيد والطريف هنا الوقوف على معالجة امنون روبنشتاين فـي مقال له (١٧) عن قطعة الارض التي ستتنازل عنها اسرائيل وفق مبدأ التبادلية والتي وصفها ابا ايبن بأنها « لا تزيد ولا تقلل ··· » ·

يعارض روبينشتاين تثبيت الحدود الدولية بين مصر واسرائيـل كحدود دائمة ، بحجة ان ذلك لا يمنح اسرائيل بعض المناطق الحيوية لامنها ، كمـا ويعارض احداث تعديلات على الحدود لصالح اسرائيل فقط ، ولان ذلك بمثابة « خدش للكرامة الوطنية المصرية » ، ولذا فانه يرى ان الحل الامثل يكمـن فـي احداث تعديلات على الحدود لصالح الطرفين ! كيف ؟

تحصل اسرائيل على منطقة مشارف رفح وقطاع بالقرب من ايلات ، مقابل

تنازلها عن « منطقة ما في المنطقة الوسطى من الحدود مع سيناء » · الى هنا يمكن ان يكون الطرح « معقولا » ، الا ان « العبقرية » تجلت في الاشتراط المشفوع بهذا الطرح ، وهو « ليس من الضروري ان يقوم التبادل على اساس المساواة في قطع الارض المتبادلة ، فمن الممكن والضروري ان يقوم على اساس التساوي النسبي ، اي ان تكون قطع الارض المتبادلة مرتبطة بشكل مباشر مع حجم الدولة التي تعطيها ، وليس على اساس التساوي الميكانيكي بين هذه وتلك » · ويضيف روبينشتاين موضحا « وبهذا الخصوص ، يجدر بنا ان نذكر ان مشارف رفح تشكل ٥٪ من مساحة مصر ! ومن حق اسرائيل الصغيرة ، المطالبة باعتماد مبدأ التبادلية على التباين الكبير في مساحة كل من الدولتين ، وعلى مصر الاخذ بعين الاعتبار الفارق الكبير بين تنازل اسرائيل وتنازل مصر عن هذه المنطقة من ناحية الحجم » · وتجدر الاشارة الى ان روبينشتاين يعارض تطبيق مبدأ التبادلية في الحدود الاخرى · كما وانه تراجع واضفى على مفهومه لمبدأ التبادلية نوعا من الكرم ، حين عرض على مصر ان يتم الحساب ، ليس مع حجم مساحة مصر ككل ، بل مع حجم سيناء فقط ، ولو افترضنا جدلا ان مصر تمشت مع مبدأ التبادلية حتى وفق شروط روبينشتاين ، واختارت منطقة ، ولنقل ان الاختيار وقع على منطقة ايلات باعتبارها منطقة حيوية جدا لمصر ، حيث تربطها بالجزء الشرقي من العالم العربي ، وتجعل منها حلقة وصل بين مشرقه ومغربه ، فليس هنالك شك بأن روبينشتاين ، لن يكتفي حينئذ بالكفر بمبدأ التبادلية بل بلعنه ايضا !

### موقف مبام من التسوية مع مصر

يعتبر حزب مبام شريك حزب العمل في التجمع العمالي في نظر الكثيرين ، الجناح « المعتدل » في التشكيلة العامة للتيارات السياسية الصهيونية · كما وينظر اليه الكثيرون من بين صفوف التيارات اليمينية ، كيسار متطرف · وليس هنالك شك بأنه الحزب الوحيد في مجموعة الاحزاب الصهيونية الذي يحرص على اقامة علاقات مع الاحزاب والحركات اليسارية العالمية ، وذلك بهدف « تجميل » الصهيونية في نظر تلك التيارات ·

والسؤال المطروح ، هل تختلف نظرة مبام ـ الجناح المعتدل في الصهيونية ـ تجاه التسوية مع مصر ، عن وجهات النظر الاخرى ، اليمينية والعمالية ؟ الحقيقة هي ان مبام يحمل في جوفه الواسع ، معظم الطروحات السابقة للتكتلين الاساسيين السائدين في مجتمع المهاجرين والمستوطنين الصهيونيين ، وتكمن ميزته في اجترارها وتليينها بشكل يضفي عليها مسحة من « الاعتدال » وسط التغني لدرجة الاسفاف بالسلام · بيد ان مسحة « الاعتدال » هذه تزول عندما يجد الحزب نفسه مضطرا لاتخاذ موقف مصيري ، لتحل محلها مسحة تتسم بالغموض ، ومؤطرة بالتطرف ·

هكذا هو حزب مبام ماضيا وحاضرا · ففي الماضي ، وكمثل فقط ، انتفض الحزب عقب العدوان الثلاثي على مصر ضد الرأي العام العالمي المطالب بالانسحاب ، رافعا شعار « لن نخرج من غزة » · وفي الوقت الحاضر ، وخاصة عندما يجد نفسه مضطرا لاتخاذ موقف مصيري ، يقوم بنفس الدور · ففي اعقاب الحديث عن مصير مستوطنات رفح ادلى سكرتير مبام مئير تلمي بدلوه واكد على ان « المستوطنات التي اقيمت في حينه في مشارف رفح ، حسب قرار الحكومة يجب ان تبقى ، ويجب عدم وقف تطويرها » (١٨) · كما ان مئير يعري، وهو من ابرز اقطاب الحزب ويلتقي في كثير من الحلول مع «المعارضة البيتية» في الليكود ، يرى ان الحل مع مصر يجب ان يعتمد على فرض السيادة الاسرائيلية على منطقة مشارف رفح ضمن عملية « التعديلات الطفيفة » على الحدود ، وايجاد ترتيبات أمنية في شرم الشيخ ·

وفي اعقاب وقف مباحثات اللجنة السياسية المصرية ـ الاسرائيلية ، ثار الحزب وهاج ضد وقف المفاوضات ، وجمع انصاره للتظاهر امام الكنيست ، وهم يرفعون شعارات بهذا المعنى ـ من بينها « نعم لحدود الامن ، لا لنسف المفاوضات » ـ وذلك خلال النقاش الدائر في الكنيست حول سياسة اسرائيل تجاه التسوية · وفي الوقت نفسه كان احد زعماء مبام ، الوزير السابق فيكتور شمطوف يلقي خطابا داخل الكنيست ينتقد فيه الحكومة ويحذرها قائلا « اذا لم تبذل الحكومة قصارى جهدها لاستئناف المفاوضات ، يحتمل ان تطرأ ديناميكية سلبية تغلق نهائيا الباب امام السياق السياسي » · واضاف « حقا ، هنالك هوة كبيرة بين موقفي مصر واسرائيل تجاه سيناء ، ولكن يمكن ردم الهوة بين الموقفين » · كيف ؟

« بما ان حكومة بيجن اعترفت بالسيادة المصرية على سيناء ، يتوجب على مصر الموافقة على تعديلات في الحدود حيوية بالنسبة لاسرائيل ، على شكل استبدال مناطق ، او بشكل اخر » (١٩) ·

والحقيقة ان المرء يجد نفسه شبه عاجز عن تفسير اسباب التظاهرة التي تتهم الحكومة الاسرائيلية بدفع مصر لوقف المفاوضات ، اللهم اذا كان هؤلاء المتظاهرين ينتمون الى حزب اخر غير حزب فيكتور شمطوف الذي يدعو السادات للتنازل عن « سيادة » منحها له بيجن ! واذا ما ارجعنا سبب التظاهرة الى رغبة الحزب في استمرار مفاوضات السلام « الى الابد » بين مصر واسرائيل ، فهل يعقل ان تستمر المفاوضات حسب شروط شمطوف اكثر مما استمرت حسب شروط بيجن ؟ واذا ما اخذنا بعين الحسبان ، ان هنالك فئة من مبام ، مستعدة لتقول للسادات ، وتنتقد بيجن لعدم قوله ذلك له، ان اسرائيل « على استعداد للتنازل عن قطاع غزة مقابل ان تبقى بأيدينا منطقة مشارف

رفح » يتضح لنا مدى ما يحمل جوف هذا الحزب من تناقضات ورغبات مرتعشة تصل الى درجة السخف ·

ذكرنا ان حزب مبام درج على تغليف مطالبه ومواقفه السياسية بالتوق الى السلام والتغني به ، وخير مثال على ذلك مقال يعقوب حزان ، احد شيوخ الحزب ودهاقنته · ففي مقاله (٢٠) تحت عنوان « ضوء احمر على المفترق » يعرب حزان عن اعتقاده الراسخ انه « لا شيء في نظري اسمى من السلام » والسلام حسب رأيه هو جوهر هذا الوجود · ولا شك ان صورة المهاتما غاندي تأخذ طريقها لترتسم في ذهن المرء وهو يقرأ هذا الكلام حول السلام · بيد ان الصورة ما تلبث ان تزول بسرعة لتحل محلها صورة اخرى مغايرة تماما · ولكن ما هو السلام الذي يريده حزان ؟ اعتبر حزان « الخطأ الذي لا يغتفر لمناحيم بيجن » استعداده لاعادة السيادة المصرية على سيناء بغرض تمرير مشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية دون ان يكون متيقنا من قبول السادات للمشروع · ويكشف حزان النقاب عن انه وافق على مشروع بيجن بالنسبة لسيناء على اساس انه يبقي المستوطنات حتى عام ٢٠٠١م لتخضع حينذاك « للمراجعة » فقط · « في حديثي مع اعضاء مبام وحزب العمل ادعيت ان امامنا فترة ٢٥ سنة ، واذا ما عرف الشعب اليهودي كيف يستغل هذه الفترة بحيث يصبح بعد ٢٥ عاما عدد المستوطنين اليهود في مشارف رفح ١٠٠٫٠٠٠ ـ ١٥٠٫٠٠٠ ، فان الواقع هو الذي سيقرر حينئذ ··· ولن تقاتل مصر من اجل اعادة هذه المنطقة المكتظة بالمستوطنين اليهود ··· ولكن اتضح مع مرور الوقت ان هذا الافتراض ليس سليما ، فالسادات مصر على موقفه » · وامام اصرار السادات على الغاء المستوطنات ، يجد حزان ان لا مناص من السير في طريق اخر : امن اسرائيل · ووفق ذلك يمكن الابقاء على المشارف والمستوطنات معا ، ذلك ان « مشارف رفح هي بمثابة الحزام الامني الحيوي بالنسبة لاسرائيل · الى هذه المنطقة عدنا وخضنا حروبا ، وروى مقاتلونا هضابها بدمائهم · انها حيوية لامن اسرائيل بقدر حيوية ممري الميتلا والجدي لامن مصر · وعندما تكون الصحراء الممتدة بينها وبين ممري الميتلا والجدي مجردة من السلاح ، فان امننا سيترسخ ، ويترسخ امن السلام » ·

واذا ما عدنا الى ايمان حزان بأن « لا شيء في نظري اسمى من السلام » ، لن نستطع التخلص من اصبع الاتهام البارز وسط مشارف رفح المصرية والموجه ضد حزان بشكل خاص وسياسة مبام بشكل عام ·

ونجد هنا من المفيد الوقوف على نظرة مبام من خلال الاحاطة بفكر مردخاي بنطوف ، احد قادة الحزب الذي اتهم ، كما ورد معنا سابقا ، الليكود بـ « الذهنية المهجرية للبائع المتجول اليهودي ، الذي يجد كبرياءه في خداع

الاغيار ، ويحلم في الحاق الاذى بهم » · فبنطوف يتحدث في مقال له ( ٢١ ) عن موقفه تجاه المفاوضات بالقول : « انني اقف الى جانب جميـــع الجهود الكبيرة للحصول على افضل حدود يمكن الحصول عليها ، شريطة ان لا ينضم الينا سكان عرب ، بحجم كبير ، وان لا تفشل المفاوضات الجارية حـــــول السلام » ·

ولا يعارض بنطوف اقامة مستوطنات في المناطق العربية المحتلة ، الا انه ينتقد الحكومة في اختيار الزمان والمكان ، وافتقارها الى ما اسماه بـ «اللياقة» لادارة المفاوضات حول السلام ، ويرى ان فشل الحكومة ينبع من « الفهم القائل بامكانية خداع الاغيار » · وتمثل ذلك حسب رأيه بابداء حكومة بيجن استعدادها للانسحاب من سيناء حتى الحدود الدولية ، للوصول الى اتفاق منفرد مع مصر، لتحظى من خلاله بالسيطرة على الضفة الغربية وقطاع غزة · ويعتقد بنطوف ان الحكومة تسرعت فيعرضها هذا على السادات ، اعتقادا منه انه كان من الممكن في حال توفر لياقة وقدرة على ادارة المفاوضات ان يتخلى السادات عن بعض المناطق في سيناء · « كان من الممكن اذن التوصل الى اتفاق معه حول نفس نسبة ٢٪ التي تشكل مشارف رفح ونقاطا اخرى ، والتي يكتفى بها حتى ابطال الحدود القابلة للدفاع ، مثل بيريس ، لولا « المفاهيم » التعيسة والمعالجـــة الفاشلة للحكومة » · ويستطرد بنطوف : « انني اؤمن بان لا يزال من الممكـــن التوصل الى اتفاق مع مصر حول تعديلات على الحدود في سيناء ، تشمـــل مشارف رفح ، وترتيبات على الاقل لفترة طويلة في شرم الشيخ ، ومنطقـــة ايلات ··· يمكن ان نقترح على المصريين ( صفقة رزمة )ونقول للسادات : اذا كنت انت معنا الى هذه الدرجة بمساعدة الفلسطينيين ، سنقترب نحوك حول هذا الموضوع ، في حال اقترابك منا في قضية حدود سيناء » ·

ويبدو ان مردخاي بنطوف الذي يضيق ذرعا بـ « الذهنية المهجرية للبائع المتجول اليهودي » تسيطر على مخيلته ذهنية **الصهيوني الرأسمالي الكبير** ، فهو يتحدث عن « امكانية ثانية لحل مشاكلنا الامنية في حدودنا مع مصر » · وتعتمد فكرته على احداث تزاوج بين ما يسميه بـ « الكمية العربية » و«النوعية الاسرائيلية » · ولم يجد مكانا لهذا التزاوج افضل من المناطق الصحراوية المصرية في سيناء الواقعة على امتداد الحدود الدولية « حيث قوة العمـــل المصرية ، والتكنولوجيا الاسرائيلية والمال العربي ( بترو دولار ) مع العبقريـــة اليهودية » ·

في نهاية حديثنا عن موقف التجمع العمالي بجناحيه تجـــاه التسويـــة مـــع مصر ، تجدر الاشارة هنا الى موقف الجمهور الاسرائيلي تجاه ما يمكن التنازل عنه في سيناء مقابل اتفاق سلام « ضعيف » مع مصر ، وذلك من خلال نتائج

استقصاء للرأي العام اجراه معهد البحوث الاجتماعية والتطبيقية التابع للجامعة العبرية في القدس · فقد تبين من نتائج الاستقصاء (٢٢) ان ٧٠٪ يعارضون اعادة شرم الشيخ ، و٨٠٪ يعارضون اعادة جزء كبير من سيناء او معظمها الى مصر مقابل معاهدة سلام ·

ربما يتبادر الى الاذهان بعد الاحاطة بموقفي كل من التيارين الاساسيين في « المجتمع الاسرائيلي » تجاه التسوية مع مصر ، السؤال ، ايهما اكثر « اعتدالا » او اشد « تطرفا » تجاه هذا الموضوع ؟ لنترك الاجابة على هذا التساؤل لوزير الدفاع الاسرائيلي عيزر فايتسمان ، الذي رد على السادات اثناء اجتماعه به في شهر ابريل الماضي عندما اشتكى الاخير من ان بيجن يشكل عقبة امام السلام وان ديان « يتحدث اكثر من اللازم » ، بقوله – وفق ما ذكره الكاتب الاسرائيلي الواسع الاطلاع يوسف حماريف ( ٢٣ ) – موجها كلامه الى الرئيس السادات : « عليك ان تعرف سيدي الرئيس *ان بيجن هو الند* الوحيد لك في المفاوضات · لقد مرت ٣٠ سنة دون مفاوضات ، وهو الوحيد القادر على تسليم البضاعة اليك ، واذا كنت تعتقد غير ذلك ، فانك لا تحكم عليه بشكل سليم » ·

ولكي يكون حكمنا نحن سليما ، من الافضل لنا عدم التسرع في الاجابة ، ومن المستحسن اصدار الحكم ، بعد وقوفنا على كيفية تعاطي التيارين الاساسيين مع « البضاعة » الاخرى في الاراضي الفلسطينية عن طريق الحكم الذاتي ·

### مشروع الحكم الذاتي

يعتمد مشروع الحكم الذاتي ، الشق الثاني من مشروع بيجن ، على ٢٦ بندا ، تحدد مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة خلال فترة خمس سنوات · ومن اللافت للنظر ان المشروع مليء بالبنود الجوفاء التي لا تحمل معنى ، الا التخفيف من حدة المعاني الاحتلالية البشعة الواردة في بعض البنود والتستر عليها ( انظر نص المشروع في « شؤون فلسطينية » ، عدد ٧٦ ، ص ١٨٢ ) ·

وسنقف هنا عند البنود الجوهرية الاساسية في المشروع ، للاحاطة بجوهر سياسة الليكود تجاه مستقبل الاراضي الفلسطينية ولنتمكن من الوقوف على نقاط الاختلاف القائمة بينه وبين التجمع العمالي ·

ينص البند ١١ من المشروع : « يعهد بشؤون الامن والنظام العام في مناطق يهودا والسامرة وقطاع غزة الى السلطات الاسرائيلية » ·

والبند ١٤ : « يمنح سكان يهودا والسامرة ولواء غزة ، بغض النظر عن جنسياتهم سواء كانوا مجنسين ام لا ، حق الاختيار الحر ، للحصول على

الجنسية الاسرائيلية ، او الجنسية الاردنية » ٠

والبند ١٥ : « تمنح الجنسية الاسرائيلية للذين يطلبونها من المقيمين في مناطق يهودا والسامرة وقطاع غزة ، وفقا لقانون التجنس في دولة اسرائيل »٠

والبند ١٦ : « يحق لسكان يهودا والسامرة وقطاع غزة ، الذين يختارون الجنسية الاسرائيلية ، بناء على حق الانتخاب ، ان ينتخبوا وينتخبوا للكنيست وفقا لقانون الانتخابات » ٠

والبند ٢٠ : « يحق لسكان اسرائيل تملك الاراضي والاستيطان في مناطق يهودا والسامرة واقليم غزة ، كما يحق للعرب ، من سكان يهودا والسامرة واقليم غزة الذين يصبحون مواطنين اسرائيليين ، بناء على حق الاختيار الممنوح لهم تملك الاراضي والاستيطان في اسرائيل » ٠

والبند ٢٤ : «تتمسك اسرائيل بحقها ومطلبها في السيادة على يهودا والسامرة واقليم غزة وادراكا منها لوجود مطالب اخرى ، فانها تقترح ، من اجل الاتفاق والسلام ، ابقاء مسألة السيادة في تلك المناطق مفتوحة » ٠

اما البند الاخير ٢٦ فينص : « تخضع هذه المبادىء لاعادة النظر فيها بعد خمس سنوات » ٠

وقد اكد بيجن على اهمية البند ١١ اثناء مخاطبته اعضاء الكنيست بالقول « بدون هذا البند ، ليست هنالك اهمية لمشروع الحكم الذاتي الاداري » ٠ وعاد بعد ذلك ، في مناسبات مختلفة ، وكرد على الانتقادات الموجهة اليه من المعارضة البيتية والمعارضة العمالية ، وسيج مشروع الحكم الذاتي ، بشروط لا تؤثر عليها عملية « المراجعة » بعد مضي خمس سنوات ، وهي :

١ ــ عدم اعادة « يهودا والسامرة » الى سلطة اجنبية ، وبطبيعة الحال لن يكون هنالك تنازل عن اجزاء من «ارض اسرائيل الغربية » ٠

٢ ــ حق الاستيطان الاسرائيلي في مناطق الحكم الذاتي قائم وسيستمر ٠

٣ ــ سياسة الامن والخارجية ستبقى بيد اسرائيل ٠

٤ ــ الحفاظ على جميع العوامل التي تحول دون اقامة دولة فلسطينية ٠

٥ــ الاخذ سلفا بعين الاعتبار جميع المعاني والنتائج الممكنة من ناحية الارتباط الصهيوني في « يهودا والسامرة » وبالعكس ، في المستقبل القريب والبعيد معا (٢٤) ٠

هذه « البضاعة » نقلها رئيس حكومة اسرائيل مناحيم بيجن الى الرئيس انور السادات في الاسماعيلية ، وعرضها للتداول معه في جزيرة الفرسان التي

غدت تعرف ، بعد ان وطئتها قدما بيجن بـ «جزيرة السلام » ! الا ان السادات لم يستسغ هذا النوع من « البضائع » مما اضطر بيجن الى العودة بها ، وتحمل عبء الترويج لها امام منتقديه وخاصة اوساط التجمع العمالي ٠

ازاء رفض مصر للمشروع ، وانتقادات التجمع العمالي له ، وانسجاما مع سياسة الليكود تجاه الاراضي الفلسطينية المحتلة منذ ١٩٦٧ ، سيج بيجن مشروعه بموقف متطرف ، حين اعلن ان تعبير « الانسحاب من مناطق » الوارد في قرار مجلس الامن ٢٤٢ لا يتعلق بالاردن من قريب او بعيد ، ولا يسري على الضفة الغربية وقطاع غزة ٠ واجتهاد بيجن في هذا الصدد هو ان قرار مجلس الامن يدعو الى انسحاب من اراض كانت خاضعة لسيادة دول ، ولم يخسر الاردن ، حسب رأيه سيادة على اراض في الحرب ، وانما خسر ضما كان قد فرضه على الضفة الغربية ، لم تعترف به الاسرة الدولية باستثناء دولتين هما بريطانيا والباكستان ٠ اما بخصوص قطاع غزة ، فلم يسبق لمصر ان اعلنت سيادتها عليه ٠ وانطلاقا من هذه الرؤيا لقرار مجلس الامن ، يرى بيجن ان مسألة الانسحاب لا تمس الاراضي الفلسطينية ، ولا يحق للاردن بموجب القرار المطالبة بشيء في المناطق التي كانت خاضعة له في السابق ٠

وقبل الانتقال الى نظرة التجمع العمالي تجاه مشروع الحكم الذاتي ، تجدر الاشارة هنا الى ان صاحب المشروع حرص على عدم اشتمال مشروعه على مدينة القدس العربية ، على اساس انها جزء لا يتجزأ من اسرائيل وفق قرار الضم الذي اتخذته حكومة الائتلاف الوطني بزعامة حزب العمل عقب حرب ١٩٦٧ ٠

### موقف التجمع العمالي

لم يواجه التجمع العمالي هنا ما سبق له ان واجهه في الاراضي المصرية ، فالوضع هنا مختلف تماما ، والتعاطي معه مختلف بعض الشيء ومصحوب بالغموض وربما بالتناقض الظاهري في بعض الاحيان ٠ ولذلك يجدر بنا اولا الوقوف قليلا حول الاختلافات الاساسية القائمة بين التيارين الاساسيين في « المجتمع الاسرائيلي » تجاه صبغة الدولة اليهودية ومستقبلها ٠ فالتجمع العمالي الذي سبق له ان قاد الييشوف « والمجتمع الاسرائيلي » حتى السابع عشر من ايار ( مايو ) ١٩٧٧ ، **تتنازعه طوال تاريخه نزعة التوسع ، وشهوة نقاء الدولة اليهودية** ٠ وما بين النزعة والشهوة ، يجد هذا التيار مبتغاه ، في الاراضي قليلة السكان او غير المكتظة ٠ اما التيار اليميني فتتملكه وتسيطر عليه نزعة التوسع ولا يعير اهتماما كبيرا لشهوة النقاء ، فهو لا يرى ، خلافا للتجمع العمالي ، عيبا في الايديولوجية الصهيونية بالسيطرة على الارض مع

سكانها خاصة وان منطلقاته الفكرية تعبر عن مصالح الشرعية البرجوازية اليهودية التواقة الى الايدي العاملة الرخيصة ·

بسبب هذا التباين في الفهم الصهيوني لدى كل من التيارين تجاه المسألتين الاقليمية والديمغرافية ، هنالك تباين في الحلول التي يطرحها كل من الفريقين لحل معضلة الارض والسكان الاغيار · فالتجمع العمالي يحرص في حله الخاص بالاراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ على فرض السيادة الاسرائيلية على اكبر قدر من الاراضي قليلة السكان دون تطبيقها على المناطق المكتظة بالسكان ، الذين يشكلون حسب منظريه « قنبلة موقوتة » · والحل الذي يرتأيه اصحاب هذا التيار ، لا يكمن في منح سكان « المناطق المأهولة » حتى بعد انتزاع اراضيهم غير المكتظة ، الاستقلال ، لان في ذلك استمرارا لوجود « القنبلة الموقوتة » ، وصمام الامان لهذه القنبلة الذي اثبت ـ حسب اعتقاد هذا التيار ـ ان جدارته قائم في الاردن · اما التيار الاخر فيرى ان صمام الامان ليس موجودا في هذه الدولة العربية أو تلك وانما في يد اسرائيل ·

والان كيف ينظر قادة التجمع العمالي تجاه مشروع الحكم الذاتي ؟

افصح رئيس المعارضة العمالية شمعون بيريس عن وجهة نظره تجاه الموضوع في مناسبات عدة ، من بينها مقابلة صحفية (٢٥) اعرب فيها عن اعتقاده ان مشروع الحكم الذاتي « مزروع بالعقبات والمشاكل » ، واوضح انه « اذا ما قبل مشروع الضفة الغربية ، فسيكون بمثابة نواة لاقامة دولة فلسطينية، واذا ما رفض فستتركز جميع الضغوطات على اسرائيل · وتساءل بيريس : هل بوسع بيجن اصدار جواز سفر اردني لسكان الضفة ؟ من الواضح لا · وماذا سيفعل عندما يطالب قسم من سكان قطاع غزة بالحصول على جوازات سفر اسرائيلية؟ان ذلك من شأنه ان يخل بشكل واضح بالتوازن الديمغرافي،ويمهد الطريق امام مطالب العرب لاستعادة ممتلكات واراض ··· وهنالك مسألة هامة اخرى : الهجرة · لن يكونبوسعنا الحيلولة دون تبني الادارة قانون العودة » · كما وانتقد بيريس المشروع لكونه لم يحسم مسألة السيادة وابقاها « مفتوحة » الامر الذي يتسبب حسب اعتقاده بحدوث خلافات مستقبلا حول هذا الموضوع ·

فالواضح ان الامر الذي يزعج بيريس يتمثل في وجود السكان العرب ، واغلاق المشروع الباب امام النظام الاردني للمشاركة في تقرير مستقبل هؤلاء السكان · ويعتقد بيريس انه لا يمكن لمصر المساهمة في حل هذا الموضوع ، فالمشكلة ، كما يقول في مقال له (٢٦) بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة هي « مسألة واقع مشترك عملي لمفاوضات اكثر منها مسألة طرح خطة كلامية · يجب اعفاء مصر من هذه المفاوضات عن طريق ادخال الملك حسين وبسرعة

وبقدر المستطاع في المسار السياسي » · ثم عاد واوضح رأيه امام الكنيست (٢٧) نافيا تهمة « العمالة للتاج الهاشمي » التي تتندر بها عادة اوساط اليمين ملصقة اياها بالفريق العمالي ، فقد انتقد بيريس الحكومة بقوله انها « تغمض عينيها امام الخيار الحقيقي الماثل امامنا في يهودا والسامرة · فعلى المدى البعيد يمكن لاجزاء هامة من هذه الاقاليم ان تكون اما شريكة مع الاردن او قاعدة لمنظمة التحرير الفلسطينية · نحن لسنا عملاء للتاج الهاشمي · ولكن من يرفض م·ت·ف· عليه تأييد الاردن » ·

ومن الجدير بالذكر هنا ان بيريس تمنى اكثر من مرة على النظام الاردني تغيير اسم « المملكة الاردنية الهاشمية » بحيث يحمل الاسم الجديد كلمة فلسطين الى جانب الاردن ، مدفوعا بذلك من المعاناة التي تلحقها به المعضلة الديمغرافية في الضفة الغربية وقطاع غزة · ويشفع بيريس التمني بشحنة من الانتقادات ضد مشروع بيجن الذي يغلق الباب امام الدور الذي يريده بيريس للاردن في الضفة الغربية وقطاع غزة · والحل البديل الذي يطرحه زعيم المعارضة العمالية هو « الحل الاقليمي الوسط » في الضفة الغربية وقطاع غزة بين اسرائيل والاردن ، اي التوصل من خلال المفاوضات مع الاردن الى حل يتيح لاسرائيل سلخ مناطق ــ غير مكتظة بالسكان ــ من الضفة الغربية ، ومنح الاردن سائر المناطق المأهولة · « والحل الاقليمي الوسط » الذي يتبناه التجمع العمالي بجناحيه ، ومنابره المختلفة ، ليس حلا اقليمية وسطا بين اسرائيل والاردن ، يمكن للطرفين بمقتضاه التنازل عن مناطق ، كأن يتنازل الاردن عن منطقة ما في الضفة الغربية ، مقابل تنازل اسرائيل عن ايلات مثلا · فكلمة « الوسط » المرادفة للحل الاقليمي ، تحوم باستمرار حول مناطق معينة في الضفة الغربية ، وتظلل مناطق غير مكتظة بالسكان · وباختصار شديد ، فان « الوسط » هو **حالة الرضى الكامنة بين نزعة التوسع وشهوة النقاء** ، وتجد هذه الحالة عند حزب العمل تعبيرا لها في مشروع الون ·

ومن الطبيعي والحال كذلك ، ان يتمسك يغئال الون ، احد قادة حزب العمل ، بمشروعه ، ويوجه انتقادات لاذعة ضد مشروع الحكم الذاتي المنافس له والذي لا يعتمد على مبدأ « الحل الاقليمي الوسط » · ومن بين الانتقادات ما ورد على لسانه في اجتماع عقده حزب العمل في مدينة نتانيا (٢٨) حيث شن هجوما عنيفا على مشروع الحكم الذاتي ، مركزا على النقاط الواردة فيه والتي تمنح العرب حق اختيار الجنسية الاسرائيلية ، ليقول ان « المشروع ضد الصهيونية ، ومن شأنه تحويل الدولة اليهودية الى دولة ثنائية القومية » ·

اما القطب الاخر في حزب العمل ابا ايبن ، فلم يختلف في معارضته للمشروع عن زميليه في مقالاته المتعددة · وسنقف هنا من خلال مقال له (٢٩) على نظرة التجمع العمالي حول قرار مجلس الامن المغاير لنظرة الليكود · فابا ايبن يعتقد

ان تفسير الليكود لقرار مجلس الامن ٢٤٢ ، الذي جاء كانسجام مع مشروع الحكم الذاتي ، يسيء الى مكانة اسرائيل في المحافل الدولية ، ومع ذلك لا ينكر امكان حدوث اختلافات في وجهات النظر لو ان الحكم الان بيد التجمع العمالي حول تفسير القرار ٢٤٢ و « حجم الانسحاب الذي يتطلبه » · الا انه يعتقد ان « الحكومة الاسرائيلية التي كانت على استعداد لاعادة معظم عرب يهودا والسامرة للحكم الاردني — مع مناطق سكناهم — كانت ستحظى بمكانة مختلفة في ميدان المفاوضات والرأي العام العالمي ، عن المكانة التي تحظى بها الحكومة اليوم » ·

وكشف ايبن النقاب عن ان الحكومة العمالية كانت قد اعطت تفسيرا دقيقا في اب ( اغسطس ) ١٩٧٠ لقرار مجلس الامن ٢٤٢ فيما يتعلق بمصير الضفة الغربية ، وذلك في المذكرة التي قدمتها للاردن بواسطة مندوب الامم المتحدة يارينغ ، حيث اقترحت اجراء مفاوضات للتوصل الى اتفاق « على اساس » قرار مجلس الامن ٢٤٢ · وقد سبق لنا ان وقفنا على المعاني الكامنة في تعبير « على اساس » في نظر ابا ايبن بالنسبة للاراضي المصرية · اما بالنسبة للضفة الغربية فتعني « انسحاب قوات عسكرية اسرائيلية من مناطق اخذت في يونيو ١٩٦٧ ، الى حدود امنة ، معترف بها ومتفق عليها ، يتم تثبيتها في اتفاق السلام » ·

ما هو موقف زعماء حزب مبام شريك حزب العمل في التجمع العمالي تجاه مشروع الحكم الذاتي ؟

لا يختلف موقف حزب مبام عن حزب العمل من حيث الجوهر تجاه مشروع الحكم الذاتي · الا ان الاختلاف يكمن في مسألة التشديد على « المخاطر » الكامنة في المشروع ، والمتمثلة في الخطر على صيغة « المجتمع » اليهودي ، واحتمال خطر قيام دولة فلسطينية ، تتطابق حدودها مع حدود الحكم الذاتي · ويمكن استشفاف ذلك من خلال كتابات زعماء الحزب وعلى رأسهم مئير تلمي ويعقوب حزان · فالاول يخشى ان يؤدي مشروع الحكم الذاتي في نهاية الامر ، وعقب صراعات عنيفة ، الى اقامة دولة فلسطينية على كامل تراب الحكم الذاتي ، وبذلك تحرم اسرائيل من اقتطاع بعض المناطق في الوقت الحاضر · اي انه يخشى ان تؤدي الاطماع « الكبيرة » لبيجن في الضفة الغربية الى فقدان الاطماع « الصغيرة » لحزب مبام والاطماع « المتوسطة » لحزب العمل والتي يمكن لها حسب اعتقاده ان تتحقق في الوقت الحاضر بواسطة « الحل الاقليمي الوسط » · ويحذر تلمي من المخاطر التي « تنتظرنا » اعتقادا منه انه ليس بوسع اسرائيل السيطرة على مر السنين على تجمع فلسطيني داخل اسرائيل واخر في الحكم الذاتي ، واذا ما حاولت ذلك فانها « تصنع بيديها الطبخة

الحارة ، ذات المذاق المعروف جيدا في تاريخ الحكم الذاتي في اقطار العالم · اننا بأيدينا نذكي العداء والكراهية اللذين سيتفجران في يوم من الايام ··· كما ويجب علينا التحلي بالرؤيا المستقبلية : ان الحد لمنطقة الحكم الذاتي هو الذي سيثبت حدود دولة اسرائيل مستقبلا » (٣٠) · اما في حال تمكن اسرائيل من السيطرة على الضفة الغربية وقطاع غزة ، فانه يرى في ذلك خطرا يهدد الصيغة اليهودية لاسرائيل · ولا يختلف حزان عن ذلك ، ففي مقال له (٣١) شجب مشروع الحكم الذاتي لكونه يحمل بين احشائه خطرين : خطر الاقلية العربية الكبيرة ، وخطر احتمال قيام دولة فلسطينية · والخطر الاول ناجم عن الضم ، والثانيناجم عن احتمال انتهاءالضم نتيجة التطورات المستقبلية · حول ذلك يقول حزان ان « ضم الضفة الغربية ··· يهدد بتشويه الجوهر الاجتماعي والاخلاقي لدولة اسرائيل · ويعتبر الجوهر القومي والاجتماعي لدولتنا عاملا في تثبيت أمنها وقدرة دفاعها بشكل لا يقل ، ان لم يزد ، عن حدود الامن ··· فالاقلية الكبيرة ··· ستتحول الى اقلية معادية مقاتلة ··· » · وبالنسبة الى خطر قيام دولة فلسطينية يشير حزان الى « ان خطة بيجن تحمل بذورا خطرة لاقامة دولة فلسطينية تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، تتطابق حدودها مع حدود عام ١٩٤٨ » ·

والخلاص من ذلك كله ، حسب وجهة نظر زعامة مبام يكمن في التصدي لمشروع بيجن ، واعتماد « الحل الاقليمي الوسط » في الضفة الغربية مع الاردن ·

لعلنا نكون في ما تقدم قد احطنا بنظرة كل من التيارين الاساسيين في « المجتمع الاسرائيلي » تجاه التسوية ، واقتربنا الى اقرب موقع يمكننا من النظر الى حقيقة موقف كليهما ، واستنتاج النتائج من « الحقيقة » الماثلة امامنا · سنترك الاستنتاجات للقارىء ، ونترك له ايضا الاجابة على التساؤل الذي طرحناه عند نهاية الحديث عن موقف كلا التيارين من التسوية مع مصر ، واجاب عليه وزير الدفاع عيزر فايتسمان ·

ولكن ما نود قوله هنا ان موقف التيارين قد جاء بعد حدوث انقلاب في الموقف العربي الرسمي · فقد كان هذا الموقف حتى التاسع عشر من نوفمبر ١٩٧٧ يعتمد على ركيزتين اساسيتين لاحلال السلام في الشرق الاوسط : (١) انسحاب اسرائيل من جميع المناطق المحتلة منذ ١٩٦٧ ، (٢) اعادة الحقوق الشرعية للشعب العربي الفلسطيني · الا ان الركيزة الثانية سقطت خلال الزيارة واقعا ونصا · فقد تهدمت الركيزة بمجرد وصول رئيس اكبر دولة عربية الى اسرائيل ، وتكرس هدمهاباعترافه باسرائيل وتمسكه في بيانه في الكنيست بالركيزة الاولى فقط · اي ان الموقف العربي الرسمي الذي تقوده مصر الان قد اسقط نصف المطلب العربي الرسمي ، على امل ان تقوم اسرائيل

في المقابل بالتراجع عن مطالبها في المناطق المحتلة حديثا ، لتنعم بالاعتراف الرسمي والسلام مع العالم العربي في حدود ١٩٦٧ · بيد ان هذا الامل سقط كما سقطت الركيزة الثانية في الفهم العربي للسلام ، وبقي الفهم الاسرائيلي للسلام عند كلا التيارين الاساسيين يدور حول التنازلات الممكنة في المناطق العربية المحتلة منذ ١٩٦٧ ، دون التصور على الاطلاق حدوث اية تنازلات داخل « الخط الاخضر » · اي ان السلام الذي تريده اسرائيل مرتهن بحدوث انقلاب اخر في الفهم العربي للسلام ، يمعن في الركيزة الوحيدة المتبقية قضما ، ويتيح لاسرائيل **سلخ** مزيد من الاراضي العربية ، **ونهش** السيادة العربية على اجزاء كبيرة منها ·

ان سبب عدم حدوث نقلة في الموقف الاسرائيلي والفهم الاسرائيلي للسلام ، لجهة « الاعتدال » لا يعود حسب رأينا الى روحية « شايلوك » التي انبعثت من جديد وحلت في بيجن كما يزعم البعض في مصر ، ولا يعود كذلك الى « الذهنية المهجرية للبائع اليهودي المتجول الذي يرى كبرياءه في خداع الاغيار ويحلم في الحاق الاذى بهم » ، التي تهتدي بها سياسة الليكود كما يزعم بنطوف احد زعماء مبام ، وانما يعود الى عاملين اثنين ، شرحهما يطول ، ونكتفي بذكرهما فقط :

١ ـ النزعة التوسعية المتحكمة « بالمجتمع الاسرائيلي » ، والنابعة عن الفكر الصهيوني ·

٢ ـ واقع الدول العربية المؤطر بعامل مشترك : غياب دور الجماهير من خلال قمعها بطرق ووسائل شتى ·

**وبين النزعة والواقع علاقة جدلية ، حيث تنتعش النزعة بتدهور الواقع ، وتتلاشى وتزول بتغييره رأسا على عقب الى الافضل · ولا شك ان عملية التغيير تسبق التلاشي والزوال ، ومن يرى غير ذلك فسيبقى يئن تحت وطأة اعباء تلك النزعة التي ابتلينا بها منذ قرابة ثمانين عاما ·**

---

**الحواشي**

(١) حوتام ، ١٧ـ٢ـ١٩٧٨ ·

(٢) النص في دافار ، ٢٩ـ١٢ـ١٩٧٧ ·

(٣) المصدر نفسه ، ١ـ١ـ١٩٧٨ ·

(٤) معاريف ١٦ـ١ـ١٩٧٨ ·

(٥) معاريف ، ٣ـ٣ـ١٩٧٨ ·

(٦) المصدر نفسه ، ١٥ـ١ـ١٩٧٨ ·

(٧) دافار ، ٤ـ١ـ١٩٧٨ ·

(٨) معاريف ، ٦ـ١ـ١٩٧٨ ·

(٩) النص في دافار ، ٢٨ـ١ـ١٩٧٨ ·

(١٠) **يديعوت احرونوت** ، ٢٠ـ١ـ١٩٧٨ ·

(١١) عل همشمار ، ١٣ـ٢ـ١٩٧٨ ٠
(١٢) هاتسوفيه ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(١٣) معاريف ، ٦ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(١٤) المصدر نفسه ، ٢٠ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(١٥) دافار ، ٦ـ٢ـ١٩٧٨ ٠
(١٦) معاريف ، ٦ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(١٧) هارتس ، ١٣ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(١٨) دافار ، ٤ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(١٩) معاريف ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(٢٠) عل همشمار ، ٣ـ٢ـ١٩٧٨ ٠
(٢١) حوتام ، ١٧ـ٢ـ١٩٧٨ ٠
(٢٢) دافار ، ٤ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(٢٣) معاريف ، ١٤ـ٤ـ١٩٧٨ ٠
(٢٤) انظر يديعوت احرونوت ، ٢٢ ـ ٢ـ١٩٧٨ ٠
(٢٥) هاتسوفيه ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(٢٦) يديعوت احرونوت ، ٢٠ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(٢٧) دافار ، ٢٨ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(٢٨) المصدر نفسه ، ٦ـ٣ـ١٩٧٨ ٠
(٢٩) معاريف ، ٣ـ٢ـ١٩٧٨ ٠
(٣٠) عل همشمار ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ٠
(٣١) المصدر نفسه ، ٣ـ٢ـ١٩٧٨ ٠

عبد القادر ياسين

# التطوّر الصّناعي في فلسطين حتى عام ١٩٤٨

## ملامح التطور الصناعي

تطورت الصناعة في فلسطين ، منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى ، تطورا سريعا ، فأنشىء عدد كبير من المحلات الصناعية الحديثة ، اتسم أكثرها بالصغر ، في حين توسع العديد من المحلات القديمة · وارتفع مجموع المحلات الصناعية من ٥٠٠ر١ تقريبا في العام ١٩١٣ ، الى نحو ٠٠٠ر٦ ، في العام ١٩٣٦ · ومن هذا العدد كان نحو ٥٠٠ر٤ محلا للحرف ، و ٥٠٠ر١ معمل ودكان صناعي (★) ، وارتفع مجموع رؤوس الاموال ، في المدة نفسها ، من حوالي مليون جنيه مصري الى أكثر من عشرة ملايين · وزاد عدد المشتغلين بالصناعة ، في العام ١٩٣٦ ، على أربعين الف عامل · ونقص العدد النسبي لاصحاب الحرف ، في حين زاد العدد النسبي للعمال المستخدمين في المعامل ، وتطورت طرق الانتاج ، واخذت المعامل المجهزة بالات حديثة وعمال مستأجرين تحل تدريجيا محل دكاكين الصناعة التقليدية ، وادخلت انواع عديدة من الصناعات الجديدة ، وبلغت قيمة الالات الصناعية المستوردة نحو خمسة ملايين جنيه ، في المدة من ١٩٢٥ ــ ١٩٣٧ ، وأدخلت صناعة الاسمنت ، والمرايا ، والاسرة ، والاواني الالمنيوم (١) ·

ولفت نظر احدى لجان التحقيق البريطانية الرسمية ، في العام ١٩٣٠ ، سرعة تقدم الصناعات الصغيرة ، بينما كانت الصناعات الكبيرة أقرب الى الثبات على حالها (٢) ·

**وأدى فتح الاسواق الفلسطينية ، من قبل الاستعمار البريطاني ، الى احداث تغييرات جوهرية في التكوين الاجتماعي لفلسطين ، وتزايد تقهقر العلاقات الانتاجية الاقطاعية لحساب العلاقات الرأسمالية** • كما أدى هذا الفتح الى افساح المجال ـ نسبيا ـ امام الصناعة العربية • فكان ٥ر٦٠٪ من مجموع المحلات الصناعية في فلسطين ، في العام ١٩٢٧ ، يمتلكها العرب ، وبلغ رأس المال المستثمر فيها نحو ٦١٣ر٠٠٠ جنيه فلسطيني • اما الاستثمار الاجمالي فبلغ ، انذاك ، ٣ر٥١٤ر٨٨٦ جنيها فلسطينيا • وكان يعمل في هذه المحلات ١٧ر٩٥٥ شخصا (٣) • وغني عن القول بانه كان في فلسطين ، بين العامين ١٩٢٠ و ١٩٢٥ ، مائة وثلاثون شركة ، هبط عددها ، بين ١٩٢٦ و ١٩٣١ ، الى مائة فقط ، بتأثير الازمة الاقتصادية التي اجتاحت فلسطين ، اواخر العشرينات، ثم عاد عدد الشركات وارتفع ، فوصل فيما بين العامين ١٩٣٢ و ١٩٣٧ ، الى ٨٤٢ شركة (٤) • وقفز عدد المشروعات الصناعية العربية ، في العام ١٩٣٨ ، الى ما يزيد عن ألفي مشروع صناعي ، بواقع ١١٪ من مجموع رأس المال المستثمر في صناعات البلاد • وتراوح حجم انتاج المشاريع العربية هذه ما بين ٢٠٪ و ٢٥٪ من مجمل الانتاج الصناعي في فلسطين ، في العام المذكور (٥) •

واخذ رأس المال الاجنبي بعنق البرجوازية العربية في فلسطين ، حيث بلغ في العام ١٩٣٦ ، نحو ثمانين مليون جنيه فلسطيني ، مما أدى الى اطالة أمد المرحلة التجارية في حياة البرجوازية العربية الفلسطينية ، والى تشويه نموها • وحاول قطاع منها التحول الى برجوازية كومبرادورية ، تتاجر بالخامات وتسوق البضائع الاوروبية المستوردة • رغم ان الرأسمالية اليهودية قد سبقتها في هذا المجال •

ويرى اقتصادي صهيوني ان اتجاه التطور الصناعي في فلسطين خضع لعاملين اثنين : أولهما ، ان رأس المال الاجنبي كان يسعى الى الاستثمار في ميدان يقل فيه عنصر المخاطرة ، الى ابعد حد ممكن ، كما هو الحال في قطاع الخدمات ( الغاز ، الكهرباء ، الهاتف ، سكة الحديد ، ووسائل المواصلات الاخرى ) ، حيث يتسع مجال الحصول على فائدة منتظمة من رأس المال فضلا عن الطابع الاحتكاري لهذا القطاع • كما اختصت المصالح الاجنبية بمشروعات التعدين ، التي حصلت على امتيازات بشأنها • وكان لهذه المشروعات التعدينية وضع خاص يعلو على مستويات البلد العادية ، من حيث ان انتاجها كان معدا للسوق العالمية ، وليس للسوق المحلية • وكلما عظم نطاق هذه المؤسسات ، ظل تكوين هذه الصناعات « غير عضوي » ، بالموازنة مع الاقتصاد بوجه عام (٦) •

وزادت رؤوس الاموال الاجنبية من نشاط التجارة الفلسطينية بشكل ملفت للنظر • وارتفعت حمولة السفن التي دخلت موانىء فلسطين ، حاملة تجارتها ،

من ٥٧٥ر١ طنا في العام ١٩٣٢ ، الى ٠٠٠ر٣٠٠ر٧ طن في العـام ١٩٣٥ ٠ وضخامة هذا الرقم تتضح اذا ما علمنا ان حمولة السفن التي دخلت موانـىء الهند ، في العام نفسه، بلغت ٠٠٠ر٢٢٠ر٨ طن٠ ونتج عن هذا النشاط التجاري تدفق البضائع الاجنبية الى الاسواق الفلسطينيـة ، فارتفعـت الصادرات الفلسطينية من ٥٣٠ر٤١٢ر١ جنيها مصريا ، في العام ١٩٢٣ ، الى ٧٦٩ر١١٧ر٥ جنيها فلسطينيا في العام ١٩٣٩ ، في حين تضاعف حجم الواردات ، في الفترة نفسها من ٩٠٧ر٩٤٨ر٤ جنيها مصريا الى ٢٢٨ر٦٣٢ر١٤ جنيها فلسطينيـا ٠ وأدى فتح الاسواق الفلسطينية ، من جهة اخرى ، الى احداث تطورات جوهرية في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السائدة في المجتمع العربي الفلسطينـي ، فأخذت العلاقات الاقطاعية في التلاشي ، وحلت المعاملات التجارية النقدية بيـن الافراد (٧) ٠

وبالرغم من اسهام الاستعمار البريطاني في احداث التحول الرأسمالي فـي فلسطين ، بنصيب كبير ، الا انه لم يدفع به الى اكثر مما يخدم اقتصاد احتكاراته، في الاساس ٠ ومن ثمة لم يكن الاستعمار البريطاني معنيا بادخال اصلاحـات بعيدة المدى في البلاد ، ولجأ ، بدلا من ذلك ، الى تنمية علاقاته الطيبة مع الطبقات العربية الفلسطينية السائدة ـ كبار الملاك والرأسمالية الزراعية ٠ لذا ، ليـس غريبا ان تبقى ، تحت القشرة الرأسمالية ، الاشكال والاسس القديمة للحيـاة السياسية والاجتماعية في فلسطين (٨) ، طوال فترة الانتداب البريطاني ٠

وعلى الرغم من بلوغ الصناعة في فلسطين درجة عالية من التطور ، الا ان المهم هو الطريقة التي سار بها التصنيع ، فالخطط الصناعية تحققت من دون تشجيع الحكومة ، التي لم تمنح سوى قدر ضئيل للغاية من الحماية ، وفـي القطاع اليهودي دون القطاع العربي (٩) ٠

وكان لتطور التصنيع في فلسطين نتائج عدة ، لعل اهمها : (١٠)

١ ـ اتساع نطاق القطاع الصناعي ( عدد المنشآت الصناعية ، عدد العمال المستخدمين ، حجم الانتاج ، والاجور المدفوعة ) ، ٢ ـ زيادة الواردات مـن السلع الرأسمالية ، كالالات والمعدات والوقود ، ٣ ـ نقص الوارد من السلع التي يجري انتاجها داخل البلاد ، ٤ ـ زيادة الصادر من السلع الصناعية المحلية ٠

وثمة عوامل عدة دفعت بالصناعة في طريق النمو ، اهمها : (١١)

١ ) **اضطرار حكومة الانتداب البريطاني الى تطوير الاقتصاد المحلي** ، بمـا يفيد الاقتصاد الامبريالي البريطاني ، فزادت الخطوط الحديدية ( من ٢٠٠ كـم عام ١٩٠٣ الى ٤٧٢ كم في العام ١٩٣٦ ) والطرق المرصوفة ( من ٣٠٠ كم في العام ١٩١٣ الى ٧٥٠ في العام ١٩٣٦ ) ، **وبنت ميناء حيفا** ، وحسنت **مرفـأ يافا** الطبيعي ، كما أدخلت الهاتف والبرق الى البلاد ٠ وخفضت الضرائـب

المفروضة على الصناعة ، والزراعة المرتبطة بالصناعة ، واهتمت ــ الى حد ما ــ بالزراعة ، من حيث استخدام الري والاساليب العلمية وتأمين حقوق المالكين ، وخاصة اليهود منهم · وترتب على ذلك كله رفع القدرة الشرائية لدى المزارعين، مما عاد على الصناعة بالفائدة ·

٢ ) بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، **بدأ التغيير الى الاتجاه الاستهلاكي في** أذواق الناس ، فأخذ سكان المدن بمظاهر الحياة الغربية ، شيئا فشيئا ، **وزاد الاقبال على السلع الاجنبية** ، ومن ثمة تأثرت صناعات النسيج والصابون والدباغة والاحذية التقليدية ·

٣ ) **الهجرة اليهودية** ، وما ترتب عليها من زيادة الطلب على السلع ، وانشئت صناعات ، واستمرت ، بسبب حركة البناء ، بما فيها الاسمنت والآجر والقرميد والادوات المعدنية والنجارة الخ ··· كما رافق الهجرة تدفق هائل من رؤوس الاموال · وحتى اواخر الثلاثينات ،استثمر المستوطنون اليهود ما بين ٩٠ ــ ٩٥ مليون جنيه فلسطيني · وبلغ عدد المهاجرين اليهود من ذوي رؤوس الاموال ( ١ر٠٠٠ جنيه فلسطيني فما فوق ) ، في السنوات ١٩٣٢ ــ ١٩٣٦ ، حوالي ١٨ر٣٨٠ مهاجرا ، من حوالي ١٧٤٠٠٠ ، هم مجموع المهاجرين اليهود الى فلسطين خلال تلك السنوات · ومن المبالغ استثمر ٨ر٦٥٤ر٠٠٠ جنيه في الصناعات والحرف اليهودية ، حتى ١٩٣٤ ــ ١٩٣٥ · كذلك كان قسم كبير من المهاجرين يتألف من أرباب الصناعات والصناع المهرة ·

٤ ) بالرغم من افتقارها للمواد الاولية ، تتمتع فلسطين بميزة **الوصول الى البحر بسهولة** · كما يسر لها **موقعها** اغلب احتياجاتها بسعر رخيص نسبيا · فشركة الكهرباء الفلسطينية ( **روتنبرغ** ) امكنها توفير الطاقة الكهربائية بسهولة، وبرزت قيمة خط انابيب البترول المنتهي عند حيفا · واخيرا **فان العمال الفلسطينيين قادرون على التكيف** ·

على ان ثمة مصاعب واجهت الصناعة في فلسطين ، وكان ابرزها (١٢) :

١ ــ صعوبة تصريف المصنوعات في الاسواق الخارجية · ٢ ــ منافسة المنتوجات الاجنبية ( التي تباع ، احيانا ، بأسعار غير مربحة ) · ٣ ــ **وقلة كمية المنتوج** ، نسبيا ·

**واستحوذت المواد الاستهلاكيه** ــ حسب احصاء اجرته حكومة الانتداب في العام ١٩٢٨ ــ **على أغلبية الصناعة** · فالمنسوجات والالبسة وادوات الزينة والمأكولات شكلت نحو نصف مجمل الصناعات ، واستوعبت ٤٢ر٦٪ من مجمل العاملين في الصناعة · بينما لم تمثل الصناعات المتقدمة الا نسبة ضئيلة من مجمل الصناعات · فالادوات المعدنية والكهرباء لم تشكل سوى ٩ر٦٪ من

مجموع العاملين في الصناعة · وثمة استنتاج اخر هو ضالة رأس المال المستثمر في المنشأة الواحدة ، واستنتاج رابع هو ضالة الايدي العاملة في كل منشأة (١٣) · وهذا ما يؤكده الجدول رقم (١) ، الذي يوضح نسبة المحلات الصناعية الصغيرة والكبيرة ، وحجم العاملين في كل نمط منهما على حدة ·

جدول رقم (١)

العمالة حسب احصاء ١٩٢٨ الحكومي (١٤)

| فئات العمال | المحلات | | العمال المأجورون | |
|---|---|---|---|---|
| | عدد | ٪ | عدد | ٪ |
| من دون عمال مأجورين | ١٠٠ر١ | ٤ر٣١ | ـ | ـ |
| بعامل واحد | ٧٠٣ | ١ر٢٠ | ٧٠٣ | ١ر٦ |
| بعاملين ــ ٣ | ٩٢٠ | ٢ر٢٦ | ١٧٨ر٢ | ٧ر١٨ |
| ٤ ــ ٥ | ٤٦٥ | ٣ر١٣ | ٠٠١ر٢ | ٢ر١٧ |
| ٦ ــ ١٠ | ١٨٢ | ٢ر٥ | ٣٠٨ر١ | ٣ر١١ |
| ١١ ــ ٢٠ | ٦٢ | ٨ر١ | ٩٢٢ر٠ | ٩ر٧ |
| ٢١ ــ ٣٠ | ٢٧ | ٨ر٠ | ٦٨٩ر٠ | ٩ر٥ |
| ٣١ ــ ٤٠ | ١٥ | ٤ر٠ | ٥٣٨ | ٦ر٤ |
| ٤١ ــ ٥٠ | ٤ | ١ر٠ | ١٦٨ر٠ | ٦ر١ |
| ٥١ ــ ١٠٠ | ١٥ | ٤ر٠ | ١٠٥٨ | ١ر٩ |
| فوق ــ ١٠٠ | ١٢ | ٣ر٠ | ٠٤٤ر٢ | ٦ر١٧ |
| المجموع | ٥٠٥ر٣ | ١٠٠ | ٦٢٧ر١١ | ١٠٠ |

يؤكد الجدول رقم (١) النسبة الكبيرة التي تمثلها المحلات الصغيرة ( خمسة عمال فأقل ، برأس مال ألف جنيه فأقل ) بين المحلات الصناعية في فلسطين ، اذ بلغت نسبتها حوالي ٦١٪ من مجموع المحلات الصناعية في فلسطين ، في العام ١٩٢٨ · واحتلت المحلات المتوسطة ( ٦ ــ ٥٠ عاملا ، برأس مال من ألف الى عشرين ألف جنيه فلسطيني ) المرتبة الثانية ، اذ شكلت زهاء ٣ر٨٪ من جملة المحلات ، بحيث لم يبق للصناعات الكبيرة سوى ٧ر٠٪ من مجمل المحلات ·

وبالرغم من اجتياح الازمة الاقتصادية فلسطين ، فيما بين العامين ١٩٢٥ و ١٩٢٩ ( اي في السنوات الاربع السابقة على الازمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٨ ــ ١٩٣٢ ) ، فان زيادة مطردة حصلت في الانتاج الزراعي والصناعي معا · وكانت ايرادات المشاريع الصناعية مشجعة · ووسعت الصناعات الكبرى ــ كالاسمنت والدقيق والصابون ــ نطاق تجارتها · وازدهرت صناعة الدخان الحديثة العهد ، حتى ان الصناعات الصغيرة في تل أبيب اخذت تزيد من

انتاجها ، وتوسع اسواقها في فلسطين وخارجها · وهكذا ، بينما كانت **الواردات في هبوط مستمر ، اخذت الصادرات في الصعود البطيء** · فقد كانت قيمة المنتوجات الفلسطينية المصدرة الى الخارج ، في العام ١٩٢٥ ، نحو ١٫٣٣٠٫٨٣٠ جنيها مصريا ، وفي العام التالي بلغت ١٫٣٠٨٫٣٣٢ جنيها مصريا ، وفي العام ١٩٢٧ وصلت الى ١٫٨٨٩٫٧٥٩ جنيها مصريا · وفي العام نفسه زادت الصادرات الزراعية على الواردات الزراعية ، لاول مرة منذ الحرب العالمية الاولى (١٥) ·

وفي اوائل الثلاثينات كانت احوال عرب فلسطين الاقتصادية ، عموما ، تسير في مدارج التحسن ، فارتفعت الاجور ، واتسعت الاسواق لتصريف حاصلات البلاد ، وبنيت الطرق والجسور والمدارس الجديدة ، وبدأ العمل في التدابير التي قر الرأي ، في العام ١٩٣٠ ، على اتخاذها ، تحت زعم صيانة مصالح العرب وتحسينها (١٦) ·

ودل احصاء الصناعات ، الذي **أجرته دائرة الجمارك والمكوس والتجارة** ، في العام ١٩٢٨ ، على ان قيمة المنتوجات الصناعية في ذلك العام ، بلغت ٣٫٨٨٦٫١٤٩ جنيها فلسطينيا · وقفز هذا الرقم الى اكثر من خمسة ملايين ونصف المليون جنيه ، في العام ١٩٣٣ ، والى اكثر من ستة ملايين ونصف المليون ، في العام التالي ، والى حوالي سبعة ملايين جنيه ، في العام ١٩٣٥ · وبهذا تكون الزيادة من العام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٥ ، اكثر من ثلاثة ملايين جنيه ، ( بواقع ٨٤٫١٪ ) من المنتوجات الصناعية (١٧) ·

وبالرغم من عدم قيام تجارة صادرات واسعة في فلسطين ، لتصدير البضائع المصنوعة محليا ، الا ان الصادرات الصناعية حققت تقدما ملموسا ، خلال النصف الاول من الثلاثينات · وهو ما يوضحه الجدول رقم (٢) ·

**جدول رقم (٢)**

**الصادرات الصناعية الفلسطينية من العام ١٩٢٧ ـ ١٩٣٦ (١٨)**

| السنة | قيمة المصدر ( بالجنيه الفلسطيني ) | السنة | قيمة المصدر |
|---|---|---|---|
| | | ١٩٣٢ | ٤٣٥٫٠٠٠ |
| ١٩٢٧ | ٤٢٦٫٩٨٣ | ١٩٣٣ | ٤٠٦٫٠٠٠ |
| ١٩٢٨ | ٤٢٦٫١٦٠ | ١٩٣٤ | ٤٠٤٫٠٠٠ |
| ١٩٢٩ | ٤٨٢٫٨٢٦ | ١٩٣٥ | ٤٧٨٫٠٠٠ |
| ١٩٣١ | ٣٦٤٫٠٠٠ | ١٩٣٦ | ٥٤٧ |

ويستدل من الجدول رقم (٢) ان صادرات السلع الصناعية المحلية قفزت ، خلال تسعة اعوام امتدت من العام ١٩٢٧ ـ ١٩٣٦ ، الى ما نسبته ١٢٨٪ ،

وهو معدل بطيء · كما يلاحظ سمبسون ان صادرات الصابون ، في السنتين الاولى والثانية ، من هذه السنوات التسع ، زادت على الخمسين في المائة ، وهي الصناعة التي قدر ناتجها السنوي في نابلس وحدها ، في العام ١٩٣٠ ، بمائتين وأربعين الف جنيه فلسطيني · واستخدم أصحاب معامل الصابون ، وهم من العرب ، قرابة مائتي عامل عربي في معاملهم (١٩) ·

على أن هذا التطور الصناعي لم يكن كله ملكا لعرب فلسطين ، بل لم ينلهم سوى نسبة ضئيلة جدا منه · بعد أن دخل فلسطين عنصر جديد مع الاحتلال البريطاني ، هو الصهيونية ومؤسساتها ، التي أخذت تمد نشاطها الى مختلف مجالات الحياة الفلسطينية · على ان بحثنا سيقتصر على الصناعة العربية دون اليهودية ، لان تطور ونمو الصناعة الاخيرة لم يؤثر ايجابيا على الطبقة العاملة العربية الفلسطينية ، اذ رفعت الصهيونية في وجه هذه الطبقة شعاري « **احتلال العمل** » و « **العمل العبري** » ، اللذين حالا دون تشغيل العمال العرب الفلسطينيين في المصانع اليهودية ·

**الصناعة العربية**

**حتى اواسط الثلاثينات ، كانت الصناعة العربية متنوعة** ، وتشتمل على بعض المعامل الكبيرة ، وعدد كبير من المحلات الصناعية الصغيرة ، التي تؤلف في مجموعها ، قسما لا يستهان به في صناعة فلسطين · واشتملت الصناعات العربية على الصابون ، الطحن ، الآجر ، القرميد ، السجاير ، الحياكة ، القطن، التعدين ( الملح ، الرمل ، والحجارة ) ، الاسرة ، المسامير ، الحلويات ، الملابس، والصناعات الصغرى ·وفيما بين العامين ١٩٣١ و١٩٣٧ جرى تسجيل ٥٢٩ محلا عربيا (شركات وتعاونيات وشركات تضامن) ، وبين هذه المحلات عدد كبير من المعامل الكبيرة ، احدها للادوات المعدنية ، واخر للكبريت ، ومضرب للارز (٢٠)·

ويبين الجدول رقم (٣) مدى تطور وحجم المنشآت الصناعية العربية ، فيما بين العامين ١٩٢١ و ١٩٣٩ ·

**الجدول رقم (٣)**

**منشآت عربية سجلتها دائرة الصحة** (٢١)

| النوع / السنة | ١٩٢١ | ١٩٣٥ | ١٩٣٩ |
|---|---|---|---|
| مخابز | ١٥١ | ٢٠٥ | ٢٩٥ |
| مطاحن | ٤٥ | ١٠٧ | ١٤١ |
| مصانع مياه غازية | ٧ | ١٣ | ١٧ |
| مصانع ثلج | ٤ | ١١ | ١٩ |
| مصانع ومخازن الزيوت | ٦٢ | ١٣٢ | ٩١ |
| منشآت تستخدم الات تدار بالقوة الطبيعية | ٧ | ٣١٣ | ٥٤١ |
| مصانع الصابون | ٤١ | ١٤ | ٣٠ |

ومنذ الاحتلال البريطاني لفلسطين توسعت البرجوازية المحلية في تكوين شركاتها · ومن استقرائنا لبعض صحف الفترة الاولى للاحتلال ، نجد انه قد تألفت ، في كانون الثاني ( يناير ) ١٩١٩ « **شركة صندوق التوفير الوطني** » منأرباب الحرفوقسم من رجال الطبقةالوسطى (٢٢ـ٢٣)· كماتشكلت في الرملة جمعيه تحت اسم « **الجمعية الخيرية الاقتصادية** » وفي العام ١٩٢١ تأسس « **مصنع دخان ديك وسنطي للسجاير** » في حيفا ، و « **معمل حزبون للسجاير** » في القدس ، و « **شركة الدخان والتنباك الوطني** » في نابلس ، والاخيرة كانت تحت ادارة **شكري فخري الدين** ، وضمت لجنتها التأسيسية كلا من : **الحاج عبد الرحيم النابلسي ، قاسم كمال ، طاهر المصري ، عبد الفتاح آغا طوقان ، عبد الرحيم التميمي** ، **حسن عرفات** ، **صادق كنعان** ، **عثمان الخياط** ، **وشكري فخري الدين** · وبلغ رأسمالها ـ عند التأسيس ـ ستة الاف جنيه مصري (٢٤)· وفي صيف العام ١٩٢٨ كان في فلسطين ١١ معملا للسجاير ، وخمسة معامل للتنباك · وبلغت مقطوعية هذه المعامل مجتمعة ، من ايار ( مايو ) ١٩٢٧ الى نيسان ( ابريل ) ١٩٢٨ ، نحو ٥٩٠ر٥١٦ كيلوغراما ، مقابل نحو ٦٣٠ر٤٩٩ كيلوغراما في العام ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ ، و ١٩١ر٤٢٢ كيلوغراما في العام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ (٢٥) ·

وقفز عدد مشاريع عرب فلسطين الصناعية من ١٢٠٠ مشروع ، عشية نشوب الحرب العالمية الاولى ، الى ٢٢٠٠ مشروع في العام ١٩٣٣ ، وان عجزت الصناعة العربية عن منافسة الصناعة اليهودية ، بسبب افتقار الاولى لرؤوس الاموال الضخمة والى المهارة الفنية ، والمواد الخام المجتلبة من الخارج ، واخيرا الى الحماية الجمركية (٢٦) · وهي امور تمتعت بها الصناعة اليهودية وحدها ، مما جعلها تتقدم على الصناعة العربية باضطراد · فصناعة الصابون في القطاع اليهودي ، مثلا ، اضرت بصناعة الصابون العربية ، على الوجه الذي يبينه الجدول رقم (٤) ·

**جدول رقم (٤)**

**قيمة المصدر من الصابون الفلسطيني (٢٧)**
**خلال الاعوام من ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤**

| السنة | قيمة المصدر ( بالجنيه الفلسطيني ) |
|---|---|
| ١٩٣٠ | ٢٥٩ر٢٠٦ |
| ١٩٣١ | ٩٤١ر١١٩ |
| ١٩٣٢ | ١٠١ر١٠٨ |
| ١٩٣٣ | ٣٤٢ر٧٩ |
| ١٩٣٤ | ٥٣٢ر٧١ |

وهكذا ، يوضح الجدول رقم (٤) مدى التدهور الذي اصاب صناعة الصابون العربية . ففي خمسة اعوام انحدر المصدر من هذه الصناعة الى نحو الثلث . وربما عاد هذا الانحدار ، ايضا ، الى الكساد العالمي ، انئذ ، والى فرض الحكومة المصرية رسوما جمركية ، منذ العام ١٩٣٠ ، على الصابون الوارد اليها (٢٨) . ومعروف ان مصر كانت السوق الرئيسية للصابون الفلسطيني .

وفي هذا الصدد ، لاحظ مدير الجمارك والمكوس والتجارة في فلسطين ـ بحق ـ انه « حتى يقيض لاي معمل النجاح الثابت يجب ان يوجه انظاره الى الاسواق المصرية والسورية ، لاستهلاك القسم الاكبر من منتوجاته ، لا الى الاسواق الفلسطينية » . (٢٩)

وخلال العام ١٩٣٤ ، بلغ عدد الشركات ( عربية ويهودية ) التي تسجلت ، ٢٢٧ شركة ، لا يقل مجمل رؤوس اموالها عن ٢٫١٨٠٫٠٠٠ جنيه فلسطيني، يقابل ذلك ٨٩ شركة تسجلت في العام ١٩٣٣ ، لم تزد رؤوس اموالها عن ٥٤٠و٠٠٠ جنيه فلسطيني . يضاف الى ذلك ان ٣٥ شركة زادت رأس مالها من ١٫٧٣٧٫٠٠٠ جنيه فلسطيني الى ٤٫١٤١٫٠٠٠ جنيه . وما حصل في هذا الصدد ، في العام المذكور ، كان ان زادت ١٥ شركة فقط رأسمالها من ٨٧٫٠٠٠ الى ٨٠٫٠٠٠ جنيه فلسطيني . وعليه زادت ، في العام ١٩٣٤ ، قيمة البضائع المصنوعة محليا ( عربية ويهودية ) ١٠٪ على مثلها في العام السابق . حتى بلغت نحو ستة ملايين ونصف مليون جنيه فلسطيني . واتسعت حركة البناء لدرجة ان الاسمنت المستخرج محليا ، مع ازدياد مقاديره ، لم يكف لسد حاجة البلاد ، واقتضى الامر زيادة الوارد منه من الخارج الى أربعة أمثال . (٣٠)

وفي نهاية العام ١٩٣٤ ، أصدرت « **شركة مناجم الكبريت المحدودة في غزة** » ميزانيتها عن ذلك العام ، وفيها اعلنت ان رأسمالها المسجل والمدفوع بلغ ٢٥٫٣٠٠ جنيه فلسطيني ، وبلغ ما صرفته الشركة لنهاية العام ١٩٣٤ ، على الامتياز وحقوق المناجم والماكينات والعمارات والطرق واجهزة توريد الماء ومصاريف التجارب وغيرها ، ٢٨٫٩٨٠ جنيها فلسطينيا . (٣١)

وشهد العام ١٩٣٥ نشاطا ملموسا في تشكيل الشركات العربية الفلسطينية . فشكلت ، في كانون الثاني ( يناير ) ١٩٣٥ ، « **شركة باصات الرملة ـ اللد المحدودة** » ، كنتيجة لدمج خطي الرملة ـ يافا ، واللد ـ يافا . وكان رأس مال الشركة ١٤٫٠٠٠ جنيه فلسطيني ، قسم الى ١٤٫٠٠٠ سهم (٣٢) . وفي شباط ( فبراير ) من العام نفسه زادت « **الشركة العربية للسجاير والتبغ** » رأسمالها من ١٠٫٠٠٠ جنيه فلسطيني الى ١٥٫٠٠٠ جنيه . كما تألفت « **شركة استيراد الافلام السينمائية** » ، **من مصطفى محي الدين الحسيني** ( القدس ) ، **ممدوح النابلسي** ( يافا ) ، **نافذ محي الدين الحسيني** ( القدس ) ، **الدكتور داوود**

**الحسيني** ( يافا ) ، **على محي الدين الحسيني** ( القدس ) ، **وزين الدين طاهر الحسيني** ( القدس ) (٣٣) ٠ وفي أيار ( مايو ) من العام نفسه ألف بمدينة **يافا** ، كل من **فرح ونقولا وسمعان وخليل واندراوس شامية** شركة عادية باسم « **شركة مصنع الشمنتو** » ، غايتها صنع البلاط والاغراض الاخرى التي تصنع من الاسمنت (٣٤) ٠ وفي تموز ( يوليو ) أسس ، في نابلس ، كل من **حمدي النابلسي وتركي كنعان** معملا للحرير ٠ كما تكونت « **شركة المعامل العربية** » لبيع واصلاح وسكب وتركيب كافة انواع الموتورات والماكينات والمواسير ، والقيام بجميع الاشغال الحديدية والخشبية ، برأس مال قدره عشرون الف جنيه فلسطيني ، مقسما الى عشرة الاف سهم (٣٥) ٠ وفي ايلول ( سبتمبر ) ، تسجلت **شركة السيارات لنقل الركاب والمشحونات العادية والتجارية** ، بين عكا والبصة ، وخول كل من **حسني العاصي ، وميخائيل جبور منصور ، وروبين الشاطر** ، بالتوقيع عن الشركة مع اثنين من شركائهم الاخرين ٠ كما سجلت **الجمعيات التعاونية للتسليف والتوفير : ١ ــ جمعية الجورة** ( قضاء غزة ) ، ٢ ــ **جمعية بربرة** ( قضاء غزة ) ، ٣ ــ **جمعية سليوة** ( قضاء يافا ) ، ٤ ــ **جمعية عصيرة** الشمالية ( قضاء نابلس ) ، ٥ ــ **جمعية دير غسانة** ( قضاء رام الله ) ، ٦ ــ **جمعية بزيغ** ( قضاء رام الله ) ، ٧ ــ **جمعية بيت لقيا** ( قضاء رام الله ) ، ٨ ــ **جمعية ريما** ( قضاء رام الله ) (٣٦) ٠

وفي نهاية العام ١٩٣٦ ، كان في فلسطين نحو ستة الاف مشروع صناعي ، منها ٤٥٠٠ مشروع صناعة يدوية ، يشتغل في كل منها ما يقل عن خمسة اشخاص ، بما فيهم اصحاب المشروع ، و ١٥٠٠ مؤسسة صناعية ٠ وقد ربا مجمل رؤوس الاموال المستثمرة في هذه الصناعات على عشرة ملايين جنيه فلسطيني ، وبلغ عدد العمال الذين يشتغلون فيها حوالي اربعين الف عامل ٠ واحتل المستوطنون اليهود ومؤسساتهم ٤١٥٧ مشروعا من المشاريع الالاف الستة المذكورة ، منها ١٢٤٦ مؤسسة صناعية و ٢٩١١ حرفة ، وبلغ مجمل رأس المال المستثمر في هذه المشاريع الصناعية ٨ر١١٦ر٠٠٠ جنيه فلسطيني (٣٧) ٠

وما ان اندلعت ثورة ١٩٣٦ العربية الفلسطينية ، في ٢٠ نيسان ( ابريل ) من العام المذكور ، حتى أصابت بتأثيرها الصناعات العربية واليهودية على السواء : العربية بفعل توقف الاعمال ، واليهودية بسبب اغلاق الاسواق العربية الفلسطينية في وجهها من جهة ، ولانخفاض معدل الهجرة اليهودية الوافدة الى فلسطين من جهة ثانية ، ولهبوط حجم رؤوس الاموال اليهودية الوافدة بالتالي ، هذا بالاضافة الى تعطل عمال البناء ، وما ترتب على ذلك من ضعف القوة الشرائية ٠ وتضررت محلات كثيرة من جراء الخلل في جهازها المالي ٠ فالصعوبة الاولى أدت الى العجز واعادة تنظيم رأس المال او الاغراق في

الدين · وكانت نتيجة الصعوبة الثانية ان منيت صناعات عديدة بالخسائر التي سددت في بعض الاحيان من رأس المال نفسه · وكثيرا ما كان البطء الشديد في حركة رأس المال يزيد حالات العجز والخسائر ·

ويوضح الجدول رقم (٥) حجم الانتاج الاقتصادي اليهودي والعربي في العام ١٩٣٦ ·

**جدول رقم (٥)**

**جدول الانتاج الاقتصادي في العام ١٩٣٦ (٣٩)**

| | الزراعة | الصناعة | البناء | الخدمات | المجموع |
|---|---|---|---|---|---|
| اليهود | ٢١١ | ٤٢٩ | ـ | ـ | ٧٥٠ |
| غير اليهود | ٧٦ | ـ | ٢٠٠ | ٨٧٤ | ١٫١٥٠ |

ومن الملاحظ في هذا الجدول ، لجوء الباحثين الاسرائيليين الى ما يلجأون اليه عادة ، اذ يركزون على القطاعات اليهودية ، ويجملون كل ما عداها في « خانة » واحدة ، تحت اسم « غير اليهود » ، ليعطوا انطباعا للقراء بان المستوطنين اليهود هم الاصل ، وما عداهم ـ بما فيهم السكان الاصليون ـ دخلاء · وبعد هذه الملاحظة الشكلية ـ الجوهرية ، نلحظ ان قطاعي البناء والخدمات في القطاع اليهودي اضيرا ، في حين اضيرت الصناعة العربية ، التي توقف عمالها عن العمل بسبب الاضراب العام الذي شمل فلسطين حوالي ستة أشهر ( من ١٠ نيسان ـ ١١ تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٩٣٦ ) ·

وفي نهاية الثلاثينات كانت أوضاع الصناعتين المتنافستين ـ العربية واليهودية ـ على الشكل الذي يبينه الجدول رقم (٦) ·

**جدول رقم (٦)**

**حجم الصناعات العربية واليهودية والامتيازات في العام ١٩٣٩ (٤٠)**

| | الصناعة اليهودية | الصناعة العربية | الامتيازات |
|---|---|---|---|
| الاشخاص العاملون | ١٣٫٦٧٨ | ٤٫١١٧ | ٢٫٦١٩ |
| الانتاج القائم | ٦٫٠٤٦ | ١٫٥٤٥ | ١٫٢٥١ |
| الانتاج الصافي | ٢٫٤٤٥ | ٣١٣ | ١٫١٠٦ |
| رأس المال المستثمر ( ألف جنيه ) | ٤٫٣٩١ | ٧٠٣ | ٥٫٧٩٩ |
| قوة الماكينات ( حصان ) | ٤٠٫٦٩٤ | ٣٫٩١٤ | ١٣٣٫١٢٨ |
| الرواتب والاجور ( ألف جنيه ) | ١٫٠٠٨ | ١٢٢ | ٠٫٢٧٤ |

ويتضح من الجدول رقم (٦) مدى التدهور الذي أصاب الصناعة العربية ، والهبوط الشديد في حجم العاملين فيها · بينما نجحت الصناعة اليهودية في التركيز على القطاع الصناعي في سني الثورة ، فتوسعت في استيراد الماكينات ، حتى بلغت قيمة ما استورد منها في النصف الثاني من العام ١٩٣٧ ـ حسب الاحصاء الحكومي ـ ٣٤٦ر٠٠٠ جنيه فلسطيني بينما بلغ في النصف الثاني من العام ١٩٣٦ ، زهاء ١٩٣ر٠٠٠ جنيه فلسطيني فقط ·

على ان مشكلات واجهت الصناعة الفلسطينية ، أبان الثلاثينات ، لعل اهمها ( ٤١ ) :

١ ـ **سوق محدودة** ، في الداخل والخارج ،

٢ ـ **منافسة شديدة** ، نظرا لوجود عدد كبير من المحلات المتماثلة ، وما ترتب على ذلك من هبوط في الاسعار ، وجرت محاولة لعقد اتفاقات اسعار وتحديد انتاج ، الا انها لم تدم طويلا ، هذا بالاضافة الى منافسة السلع الاجنبية ،

٣ ـ **اعتماد قسم كبير من الصناعة على حركة البناء وعلى زراعة الاشجار الحمضية** ·

٤ ـ **ضعف الجهاز المالي** ، نتيجة بطء حركة رؤوس الاموال وزيادة النفقات الادارية ، خاصة في الصناعة اليهودية ·

٥ ـ **العلاقات السياسية المتوترة** بين العرب واليهود ، وما ترتب على ذلك من مقاطعة البلدان العربية المجاورة للمنتجات اليهودية في فلسطين ·

٦ ـ **العقبات العديدة المتنوعة التي نثرها الاستعمار البريطاني** في طريق الصناعة العربية الفلسطينية ·

ويعتبر **تضييق التعليم الصناعي** ضمن هذه العقبات ، حيث لم ينشىء الاستعمار البريطاني في فلسطين سوى مدرسة صناعية واحدة في الاربعينات ، هي « **مدرسة المعارف للصناعة في حيفا** » ولم تكن تخرج في السنة الواحدة أكثر من عشرين طالبا ، بتعليم صناعي يفتقر الى الحداثة (٤٢) · أما حتى اواخر الثلاثينات فلم يكن في القطاع العربي اثر لتعليم صناعي فني ، بل ان وظيفة مراقب التعليم الصناعي الذي انتدبته ، **دائرة المعارف** في حكومة الانتداب عام ١٩٣٠ ، لم تتعد « اسداء النصح للحكومة في المسائل المتعلقة بالصناعة او الفنون » على حد تعبير تقرير حكومة فلسطين عن المعارف لسنة ١٩٣٥ (٤٣) · وعادت حكومة الانتداب فأرسلت ، في صيف ١٩٣٥ ، بعثة صناعية من الطلبة العرب الفلسطينيين الى مدرسة الصنائع والفنون بالقاهرة (٤٤) ·

على ان الاستعمار البريطاني اضطر الى الاعتماد على الصناعة الفلسطينية ،

طوال سني الحرب العالمية الثانية ( ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ) ، لسد احتياجات قواتــه المرابطة في فلسطين ٠ خاصة بعد ان تضخم عدد السفن البريطانية التي اغرقتها الغواصات والسفن الحربية الالمانية ، وبعد ان ضعف الانتاج الصناعي البريطاني، بفعل الحرب ، مما حال دون امكانية مد القوات البريطانية المتناثرة في ارجــاء العالم باحتياجاتها من بريطانيا ٠ وتسبب اعتماد الاستعمار البريطاني هذا على الصناعة المحلية الفلسطينية في نمو البرجوازية الفلسطينية من جهة ، وفي نمو الطبقة العاملة العربية الفلسطينية من جهة اخرى ٠ وان كانت الصناعة اليهودية افادت ، من ظرف الحرب ، أكثر من مثيلتها العربية ، بسبب تقدم الصناعــــة الاولى ، وضخامة رؤوس الاموال التي تدعمها ، وبتأثير الاستعمار البريطاني الذي يعززها ويحميها باجراءاته وتشريعاته ٠

وزاد عدد المصانع والمعامل العربية الفلسطينية ، في العام ١٩٤٢ ، اكثر من اربعة اضعاف ونصف ، عما كان عليه عند نشوب الحرب العالمية الثانية فـــي صيف العام ١٩٣٩ ، وارتفع حجم الانتاج العام الى النسبة نفسها ، فـــي حيــن زادت اثمان المواد الصناعية الى نحو ثلاثة اضعاف ، ومجمل الانتاج الى نحو خمسة اضعاف ٠ اما عدد العاملين فزادت نسبته الى اكثر من الضعف ٠ وهو الامر الذي يبينه الجدول رقم (٧) ٠

**جدول رقم (٧) حجم الصناعة ومفرداتها في العامين ١٩٣٩ و ١٩٤٢ (٤٥)**

| السنة | عدد المؤسسات | الانتاج العام | ثمن المواد الصناعية | الانتاج الصافي | عدد العاملــــين: العدد الكلي | عدد العاملــــين: عدد اصحاب الوحدات الصناعية والعاملين فيها من افراد عائلته |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | | ج٠ف | ج٠ف٠ | ج ف٠ | | |
| ١٩٣٩ | ٣٣٩ | ١ر٥٤٥ر٤١٣ | ١ر٢٣٢ر٢٦٤ | ٣١٣ر١٤٩ | ٤ر١١٧ | ٧٥٤ |
| ١٩٤٢ | ١ر٥٥٨ | ٥ر٦٥٨ر٢٢ | ٣ر٩٣٣ر٤٥٩ | ١ر٧٢٤ر٧٩٣ | ٨ر٨٠٤ | ٢ر٥٩٥ |

والتفاوت بين الصناعتين العربية واليهودية يكشفه الجدول رقم (٨)

**جدول رقم (٨) المنشآت الصناعية العربية واليهودية في العام ١٩٤٥ (٤٦)**

| | العدد | رأس المال ( مليون ج٠ف٠ ) | حجم الانتاج ( مليون ج٠ف٠ ) |
|---|---|---|---|
| منشآت عربية | ١٥٥٨ | ٢ | ٦ر٥ |
| منشآت يهودية | ١٩٠٧ | ١٢ | ٠٠ر٢٩ |
| المجموع | ٣ر٤٦٥ | ١٤ | ٦ر٣٤ |

ويكشف الجدول رقم (٨) عن مدى ضعف الوحدات الصناعية العربية وصغر حجمها ، وفقرها المالي ، وبالتالي تدني انتاجها ، قياسا الى مثيلاتها في القطاع اليهودي ٠

وفي خريف العام ١٩٤٧ قدم احد الخبراء الصهيونيين تقريرا ، رصد فيـــه التقدم الاقتصادي في القطاع الغربي من فلسطين ، فذكر ان الصناعة الفلسطينية اصبحت منظمة ، وقفز عدد المصانع العربية الى ٢٧٤١ ، باستثناء معامل عصر الزيتون ، والسيرج ، والثلج ، والمطابع ، وغيرها · ودرت هذه المصانع ارباحا سنوية قدرها زهاء عشرة ملايين جنيه فلسطيني ، واشتغـل فيهـا حوالــي ٥،٨٠٠ عامل عربي (٤٧) ·

هذا ، في الوقت الذي اخذت احوال الاقتصاد اليهودي في فلسطين تتجه الى الأسوأ ، حيث ادت المقاطعة العربية للبضائع اليهودية ـ حتى شباط (فبراير) ١٩٤٧ ـ الى تصفية نشاط ٣٣ شركة يهودية ، كما اضطر عدد آخر من المصانع اليهودية الى تخفيض انتاجه ، مما زاد عدد العاطلين من العمال اليهود ، حتى بلغ حوالي ( اثني عشر ألف عامل ) كما ان عشرين الف عامل اخرين كانوا لا يشتغلون الا اياما محدودة في الاسبوع (٤٨) ·

ويبين الجدول رقم (٩) مدى تطور الصناعة ، وتوزيعها ما بين العرب واليهود والاجانب ، في العام ١٩٤٧ ·

**جـــــدول رقـــــم (٩)**

**تطور الصناعة وتوزيعها بين العرب واليهود والاجانب في العام ١٩٤٧ (٤٩)**

| | الامتيازات الاجنبية | الصناعة اليهودية | الصناعة غير اليهودية |
|---|---|---|---|
| عدد المؤسسات | ٥ | ١٩٠٣ | ١٥٥٨ |
| عدد العمال | ٣٤٢٠ | ٣٧ر٧٧٣ | ٨٨٠٤ |
| الانتاج ( بآلاف الجنيهات ) | ١٦٣١ | ١١ر٤٨٨ | ١ر٧٢٥ |
| رأس المال ( بآلاف الجنيهات ) | ٦ر٢٩٤ | ١٢ر٠٩٤ | ٢ر١٣١ |
| القوى المستهلكة | ١٣٣ر٦٧٣ | ٥٦ر٤١٠ | ٣ر٨١٢ |
| أجور ( بآلاف الجنيهات ) | ٦١١ | ٥ر٦٤١ | ٥١١ |

وما صنف تحت باب « الصناعة غير اليهودية » لا يعني دائما انه « صناعــة عربية » ، بل ان عددا كبيرا من هذه الصناعات « غير اليهودية » هو ـ فـــي الواقع ـ اعمال مهنية يقوم بها رجل واحد ·

وعلى الرغم من هذا النمو في الصناعة العربية ، ظل البون واسعا بينها وبين نظيرتها اليهودية ، وهو الامر الذي يوضحه الجدول رقم (١٠) ·

## الجـــــدول رقـــم (١٠)

### مقارنة بين اوضاع الاقتصاد العربي والاقتصاد اليهودي في العام ١٩٤٧ (٥٠)

| الفرع | العرب ( عدد السكان ٠٠٠ر٢٠٠ر١٠ ) | اليهود ( عدد السكان ٠٠٠ر٦٦٠ ) |
|---|---|---|
| أموال مودعة | ٠٠٠ر٣٠٠ر٣٩ ج٠ف٠ | ٠٠٠ر٧٠٠ر٦١ ج٠ف٠ |
| اراض زراعية | ٠٠٠ر٨٠٠ر٥٧ ج٠ف٠ | ٠٠٠ر٣٠٠ر٢٤ ج٠ف٠ |
| صناعات | ٠٠٠ر١٠٠ر٢ ج٠ف٠ | ٠٠٠ر١٠٠ر١٢ ج٠ف٠ |
| اموال مستثمرة | ٠٠٠ر١٠٠ر١٣ ج٠ف٠ | ٠٠٠ر٥٠٠ر١٦ ج٠ف٠ |
| رأس مال تجاري | ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ ج٠ف٠ | ٠٠٠ر٢٠٠ر٩ ج٠ف٠ |
| **المجموع** | ٠٠٠ر٣٠٠ر١١٤ج٠ف٠ | ٠٠٠ر٨٠٠ر١٢٣ ج٠ف٠ |

وبعد ، فقد انعكس ذلك التطور الصناعي على اوضاع مجمل الطبقات العربية الفلسطينية ، ولعب دورا غير هين في بلورة مواقعها في المجالين الاجتماعي والسياسي ٠

### الحواشي :

✱ **الحرفة** ، محل يستخدم اقل من خمسة اشخاص ، بما فيهم أصحاب المحل٠

(١) سعيد حماده ، **النظام الاقتصادي في فلسطين** ، بيروت ، ١٩٣٩ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ٠

(٢) جون هوب سمبسون ، **فلسطين ، تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران** ، القدس ، مطبعة دار الايتام السورية ، ١٩٣٠ ، ص ١٦٣ ٠

(٣) حمادة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥ ٠

(4) Nathan , Report , Cass, Oscar, Creamer, Daniel, **Palestine Problem and Promise** . Washington , 1941 , P. 311 .

(٥) صادق سعد ، **فلسطين بين مخالب الاستعمار** ، القاهرة ، لجنة القاهرة للتأليف والنشر ، ١٩٤٧ ، ص ٦٧ ٠

(٦) أ ٠ بونيه ٠ الدولة والنظم الاقتصادية في الشرق الاوسط ، ترجمة راشد البراوي ، القاهرة . مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ص ٢٨٥ ٠

✱ يساوي الجنيه الفلسطيني ٩٧٥ مليما مصريا٠ ومعروف ان العمل بالجنيه المصري ظل قائما في فلسطين حتى العام ١٩٢٧ ، حين حل محله الجنيه الفلسطيني ٠ وكان الجنيه الفلسطيني مرادفا للجنيه الانكليزي : **تقرير سمبسون**، ص ١٨ ٠

(٧) سعد ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٦٣ ٠

(٨) بونيه ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ٠

(٩) **المصدر نفسه** ، ص ٣١١ ـ ٣١٢٠

(١٠) **المصدر نفسه** ، ص ٣١٤ ٠

(١١) حمادة ، مصدر سبق ذكره . ص ٢٨٦ ـ ٢٩١ ٠

(١٢) **تقرير اللجنة الملكية** ، القدس ، ١٩٣٧ ، ص ٢٧٨ ٠

(١٣) حمادة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٩٧

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠٥ ·

(١٥) تقرير اللجنة الملكية ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٨٣ ـ ٨٤ ·

(١٦) **المصدر نفسه** ، ص ١٠٦ ·

(١٧) **المصدر نفسه** ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩·

(١٨) **المصدر نفسه** ، ص ٢٧٩ + **تقرير سمبسون** · ص ١٦٨ ·

(١٩) تقرير سمبسون، ص ١٥٨ـ١٦٨·

(٢٠) حمادة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢١٤ ·

(٢١) برنيه ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٢٧ ·

(٢٢) **الكوكب** (القاهرة) ١٤ـ١ـ١٩١٩·

(٢٣) **الكوكب** ، ٢١ـ١ـ١٩١٩ ·

(٢٤) **الاخاء** ( القاهرة ) ، العدد السادس ، السنة الثانية ، أيلول ( سبتمبر ) ١٩٢٥ ·

(٢٥) **السياسة الاسبوعية** ( القاهرة ) ١١ـ٨ـ١٩٢٨ ·

(٢٦) تقرير اللجنة الملكية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ·

**(27) Parliamentary Debates** , House of Commons , Vol. 155 , P. 531 .

(٢٨) مشكلة زيت الزيتون في فلسطين، **الاقتصاديات العربية** ( القدس ) ، العدد الثامن ، ١٥ـ٤ـ١٩٣٥ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ·

(٢٩) تقرير سمبسون ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٦ ·

(٣٠) **الاقتصاديات العربية**. العدد ١٣، ١ـ٧ـ١٩٣٥ ·

(٣١) **الاقتصاديات العربية** ، العدد ١١ ، ١ـ٦ـ١٩٣٥ ·

(٣٢) **الاقتصاديات العربية** ، العدد الثاني ، ١٥ـ١ـ١٩٣٥ ·

(٣٣) **الاقتصاديات العربية** ، العدد الخامس ، ١ـ٣ـ١٩٣٥ ·

(٣٤) **الاقتصاديات العربية** ، العدد الحادي عشر ، ١ـ٦ـ١٩٣٥ ·

(٣٥) **الاقتصاديات العربية** ، العدد الخامس عشر ، ١ـ٨ـ١٩٣٥ ·

(٣٦) **الاقتصاديات العربية** ، العدد التاسع عشر، ١ـ١٠ـ١٩٣٥ ·

(٣٨) تقرير اللجنة الملكية ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٧٩ ·

(٣٨) حمادة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ص ٣١٤ ـ ٣١٦ ·

(39) Szereszwski, Rebort ; **Essays on the Structure of Jewish Economy in Palestine and Israel** . Jerusalem , 1968 , P. 7.

(40) Government of Palestine ; **A Survey of Palestine** , Jerusalem , 1946 , Vol . 1, P. 499 .

(٤١) حمادة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٨٨ ـ ٣٩١ ·

(٤٢) عصبة التحرر الوطني ، **طريق فلسطين الى الحرية** ، يافا ١٩٤٧ ، ص ٤٤ ـ ٤٥ ·

(٤٣) **الاقتصاديات العربية** ، العدد السادس عشر ، ١٥ـ٨ـ١٩٣٥ ، ص ٣١·

(٤٤) **الاقتصاديات العربية** ، العدد الخامس عشر ، ١ـ٨ـ١٩٣٥ ، ص ٣٥·

(45) Government of Palestine ; **Statiscal Abstract of Palestine 1944/1945** , P.P. 53-58 .

(٤٦) اميل توما ، **جذور القضية الفلسطينية** ، بيروت منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، ١٩٧٣ ، ص ٢٨٤ + محمد يونس الحسيني · **التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية** · يافا ، مكتبة الطاهر ، ١٩٤٦ ، ص ١٢٦ ·

(٤٧) **صوت الامة** ( القاهرة ) لعدد ٣٦٧ ، السنة الثانية ، ٢٨ـ٩ـ١٩٤٧ ·

(٤٨) **صوت الامة** ، العدد ٣٨٨ ، ٢٢ـ١٠ـ١٩٤٧ ·

(٤٩) عصبة التحرر الوطني بفلسطين، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٣ ·

(٥٠) **المصدر نفسه** ، ص ٤٥ ·

ماهر الشريف

# محاولة أولية للتعرف على حيثيات العملية التاريخية لولادة الحزب الشيوعي في فلسطين "١"

## مدخل

عملية ولادة الحركة الشيوعية في فلسطين كانت جزءا من عملية تاريخية شمولية نتج عنها ولادة الحركة الشيوعية العالمية · ومن هنا ، ومع ان العملية التاريخية التي عرفتها فلسطين كانت ذات خصوصيات معينة ، سيكون من الخطأ ان نعزلها عن ظروف العملية التاريخية الشمولية التي عرفتها عشرات البلدان في العالم والتي ادت الى ولادة الحركة الشيوعية العالمية ممثلة بالاممية الشيوعية ·

لقد ارتبطت عملية التمايز السياسي والايديولوجي التي حصلت داخل صفوف الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية العالمية والتي ادت الى انقسام هذه الحركة وولادة الحركة الشيوعية العالمية ارتباطا وثيقا بعاملين اثنين : العامل الاول تجسد بالموقف من الحرب

---

* هذه « المحاولة الاولية » ، للاقتراب من حقيقة الواقعة التاريخية التي نحن بصدد تحليلها ، تبقى محكومة بمحدودية المادة الوثائقية التي تم الاعتماد عليها · فالوثائق العلمية الخاصة بفترة تأسيس الحزب الشيوعي في فلسطين ، والموثوق بها تاريخيا ، معدومة تقريبا ، واغلبها قد كتب من وجهة نظر صهيونية ·

حاولنا خلال هذا البحث ان ندع جانبا مؤلف « والتر لاكور » عن الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط لقناعتنا بأنه قد اعتمد اكثر مما يجب من قبل بعض الباحثين العرب المختصين بدراسة الحركة الشيوعية في فلسطين ، علما بأنه قد نشر في العام ١٩٥٦ ، وان كاتبه يتعاطف مع الاطروحات الصهيونية الرامية الى تشويه تاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين · وقد اعتمدنا من جهتنا ، لانجاز هذا البحث ، على مادتين رئيسيتين : الاولى هي المحاضرة التي قدمها « ماير فلنر » السكرتير العام للحزب الشيوعي الاسرائيلي ( راكاح ) تحت عنوان « خمسون سنة من نضال حزبنا الشيوعي » ، والثانية هي رسالة الدكتوراه التي قدمها الكاتب التقدمي الاسرائيلي ←

العالمية الاولى والعامل الثاني تجسد بالموقف من انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا · فالموقف من الحرب العالمية كان بمثابة نقطة البداية لعملية التمايز التي بدأت تحصل داخل صفوف الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية الاوروبية وداخل صفوف الاممية الثانية (١) · وقد نتج عن عملية التمايز هذه ظهور تيارين متناقضين (٢) : تيار ثوري ـ اممي بقيادة لينين والبلاشفة ادان الحرب ووصفها بانها حرب امبريالية لخدمة مصالح البرجوازية الاوروبية ، ودعا الطبقة العاملة في كل بلد من البلدان المتحاربة للنضال في سبيل اسقاط سلطة ( برجوازيتها ) من خلال تحويل الحرب الامبريالية الى حرب اهلية ضد البرجوازية ، وتيار اصلاحي ـ شوفيني عبرت عنه مواقف معظم قادة الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية الاوروبية الذين دعوا الطبقة العاملة للوقوف الى جانب حكومات بلادها البرجوازية والالتزام بموقف « الدفاع عن الوطن » وصوتوا في البرلمانات لصالح قروض ونفقات الحرب ، فخانوا بذلك مبادىء الاشتراكية واسس الاممية البروليتارية · وضربوا عرض الحائط بالقرارات التي أقروها بانفسهم للنضال ضد الحرب الامبريالية في حال اندلاعها ، وذلك خلال المؤتمر العالمي الذي عقدته الاممية الثانية في « شتوتغارت » في اب ١٩٧٠ ، وفي المؤتمر الاستثنائي الذي انعقد في مدينة « بال » في تشرين الثاني ١٩١٢ ··· تجاه هذا الموقف الشوفيني اعلن لينين القطيعة التامة مع الاممية الثانية وبدأ سعيه اعتبارا من خريف العام ١٩١٤ لتجميع الاتجاهات الثورية الاممية داخل صفوف الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية في سبيل اقامة الاممية الثالثة ، الشيوعية ·

العامل الثاني الذي كان له التأثير الاكبر في حسم عملية التمايز وفي ولادة الحركة الشيوعية العالمية تمثل بانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية ، اهم حدث عرفه تاريخ الحركة العمالية العالمية منذ ولادتها وحتى يومنا هذا · فاستلام السلطة في روسيا من قبل البلاشفة غير بصورة كاملة موازين القوى ، ليس فقط داخل الحركة العمالية في روسيا ، وانما ايضا داخل الحركة العمالية في العالم أجمع · فبانتصار ثورة اكتوبر وولادة السلطة السوفياتية انتقلت الهيمنة داخل الحركة العمالية العالمية الى ايدي البلاشفة بعد ان كانت في أيدي الالمان ومن قبلهم الانكليز والفرنسيين · لقد كان انتصار ثورة اكتوبر

---



**« ماريو اوفينبرغ » تحت عنوان « الشيوعية في فلسطين ، الامة والطبقة في الثورة المعادية للاستعمار » · مادتان علميتان تم وضعهما حديثا بهدف الكشف عن ماضي الحركة الشيوعية في فلسطين ليكون ذخرا في ايدي القوى التقدمية العربية واليهودية تستفيد منه في نضالها ضد المعسكر الامبريالي ـ الصهيوني الرجعي ، خاصة وان هذه الحركة قد سجلت في تاريخها ، على الرغم من الاخطاء والانحرافات التي وقعت فيها ، وعلى الرغم من مظاهر الضعف التي انتابتها ، صفحات رائعة في النضال ضد الامبريالية وضد الصهيونية ، في سبيل الاستقلال القومي وتحقيق اخوة الكادحين العرب واليهود ، في سبيل اقامة صرح شامخ لافكار الاشتراكية العلمية في بلدنا ، فلسطين ···**

**اخيرا ، يجب اعتبار هذا البحث بمثابة تكملة ، ولو غير مباشرة ، للبحث الذي انجزناه حول قضية فلسطين ومناقشات المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، والذي نشر على صفحات « شؤون فلسطينية » ·**

مستبعدا من دون اندلاع الحرب العالمية ، مثلما كان مستبعدا اندفاع التيار الثوري الاممي داخل الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية للانشقاق نهائيا عن هذه الحركة وتشكيل الحركة الشيوعية من دون انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا ٠

ضمن هذا الاطار التاريخي العالمي علينا ان نضع العملية التاريخية التي عرفتها فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، والتي نتج عنها ولادة الحركة الشيوعية ليسهل علينا التعرف على حيثيات ومراحل هذه العملية ، وعلى الظروف الخاصة التي جرت في اطارها ٠٠٠ ولكن ما هو اسلوب البحث الذي سنتبعه للوصول الى ذلك ؟ ٠٠٠

في الحقيقة هناك عدة افتراضات يمكن الانطلاق منها والسعي لاثبات صحتها ٠٠٠ بامكان الباحث الانطلاق مثلا من الرأي القائل بان الحركة الشيوعية في فلسطين قد تشكلت في أوائل العشرينات بعد أن أرسلت قيادة الاممية الشيوعية ببعض مبعوثيها الى هذا البلد لتأسيس حزب بلشفي (٣) ٠٠ اننا من جهتنا نعارض هذا الرأي ليس فقط لانه ينطلق من دوافع مغرضة ، وانما اساسا لانه ينظر للعملية التاريخية نظرة مثالية وكأنها نتاج نشاط خارق قام به بعض موفدي موسكو ٠ وانطلاقا من هنا فاننا نرفض النهج الذي ينتهجه بعض الباحثين الذين يدرسون بدايات تشكل النواة الشيوعية الاولى في فلسطين في العام ١٩١٩ ، دون ان يروا الضرورة لدراسة الجذور التاريخية لهذه النواة ، والارضية التاريخية التي قامت عليها ٠

من المعروف بأن النواة الاولى للحركة الشيوعية في فلسطين قد ظهرت بين أوساط المهاجرين من العمال اليهود ، ولذلك فمن الضروري لدراسة الجذور التاريخية لهذه النواة الرجوع الى تاريخ نشوء وتطور الحركة العمالية اليهودية في فلسطين ٠ وهكذا بامكاننا تحديد الافتراض الذي سننطلق منه على الوجه التالي : تشكلت النواة الشيوعية الاولى في فلسطين كنتاج لعملية تمايز سياسي وايديولوجي حصلت داخل الحركة العمالية اليهودية وحسمت في ظروف تاريخية ملائمة عالميا ومحليا ٠٠

**أولا : نشوء وتطور الحركة العمالية اليهودية في فلسطين :**

ترافق ظهور المنظمات العمالية اليهودية في فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر مع تصاعد حركة الاستيطان الصهيوني ٠ فمنذ العام ١٨٨٧ تشكلت جمعية عمالية لقيادة تحرك عمال مستوطنة « ريشون تسيون » ضد ادارة البارون روتشيلد عرفت تحت اسم « منظمة العمال » ٠ وفي العام ١٨٩١ ظهرت منظمة عمالية يهودية جديدة تحت اسم « الوطن والعمل » ٠ وبعد عدة سنوات من ذلك ، اقام العمال الزراعيون اليهود منظمتهم النقابية الاولى في العام ١٨٩٩ ٠ وفي تلك الفترة كان عدد العائلات العمالية اليهودية يقدر بحوالي ( ٥٣٢ ) عائلة (٤) ٠

ولكن ، وبما أن جميع هذه المنظمات العمالية التي ظهرت في أواخر القرن الماضي لم تكن بالحقيقة سوى منظمات عابرة ووقتية ، فان تاريخ الحركة العمالية اليهودية في فلسطين لا يبدأ فعلا الا مع وصول « الرواد الاوائل » من مجموعة « هومل » ( HOMEL ) الذين فتحوا ، بوصولهم الى فلسطين في كانون الثاني ١٩٠٤ ، عهدا جديدا في تاريخ الاستيطان الصهيوني عرف تحت اسم الموجة الثانية من الهجرة ، التي انطلقت من روسيا القيصرية في ظل ظروف خاصة تميزت بالحرب الروسية ـ اليابانية ، وبالثورة الروسية الاولى ، وباندلاع موجة جديدة من معاداة السامية ترافقت مع مذابح همجية نظمتها

الرجعية الروسية ضد اليهود بهدف صرف غضب وسخط الجماهير الكادحة على نظام القيصر · وهكذا غادر أوديسا الى فلسطين خلال العام ١٩٠٥ ( ١٢٣٠ ) مهاجرا ، وخلال العام ١٩٠٦ ( ٣٤٥٩ ) مهاجرا · وتراوح عدد المهاجرين الجدد الذين وصلوا الى فلسطين بين بداية العام ١٩٠٤ وبداية الحرب العالمية الاولى بين ( ٣٥ ) الف و ( ٤٠ ) الف مهاجر (٥) ·

كانت الموجة الثانية من الهجرة اليهودية الى فلسطين تعتمد اساسا على منظمتين : الاولى تدعى « شبيبة صهيون » (Zeiri zion) والثانية « بوعالي تسيون » ، (Poalei Zion) او « عمال صهيون » (٦) ·

كانت منظمة « شبيبة صهيون » تجمع الطلاب والشباب والمثقفين الصهيونيين المستائين من عجز المنظمة الصهيونية العالمية عن انجاز مشروعها الاستيطاني في فلسطين · فكان انصار هذه المنظمة يدعون لزيادة وتائر الهجرة الى فلسطين وزيادة النشاط العملي الرامي الى انجاز المشروع الصهيوني فيها ، حيث كانوا يحلمون بتشييد « اسس مجتمع عمالي يهودي ، ديمقراطي تقدمي ويتكلم العبرية » · وكانت منطلقاتهم الاجتماعية متأثرة الى حد كبير بمنطلقات الفكر الشعبي ( Populiste) الروسي ، وتتميز بطابعها المثالي والرومانسي ·

اما أعضاء البوعالي تسيون الذين هاجروا الى فلسطين فكانوا اساسا من كوادر البوعالي تسيون الروسي بقيادة « بوروشوف » (٧) الذين قرروا الانتقال الى فلسطين بشكل افرادي للمساهمة في « عملية التجميع الاقليمي للشعب اليهودي » وخوض « النضال الطبقي والقومي الحقيقيين » · وبالاختلاف عن « شبيبة صهيون » كانت مجموعة البوعالي تسيون تتمسك باللغة اليديشية وتسعى لتطوير « ثقافة يديشية ، علمانية وتقدمية » في فلسطين ·

كانت الظروف المعاشية في فلسطين قاسية جدا بالنسبة للمهاجرين القادمين ضمن الموجة الثانية من الهجرة اليهودية · فالعمل كان معدوما تقريبا في البلاد ، خاصة وان اصحاب المزارع الصهيونية كانوا يفضلون انذاك اليد العاملة العربية الاقل كلفة والاكثر تجربة على اليد العاملة اليهودية · وامام هذا الواقع الصعب ، اضطر عدد كبير من القادمين الجدد ( حوالي ٨٠٪ من الذين وصلوا الى فلسطين بين أعوام ١٩٠٤ ــ ١٩٠٦ ) الى مغادرة البلاد ، فعاد قسم منهم الى روسيا ، وتوجه القسم الاخر الى الولايات المتحدة الاميركية · وقد تشكلت النواة الاولى للحركة العمالية الصهيونية في فلسطين بين اوساط المهاجرين الذين قرروا مجابهة الظروف المعاشية الصعبة والبقاء في فلسطين ·

خلال العام ١٩٠٥ عقد اعضاء البوعالي تسيون اجتماعا عاما في مستوطنة « بتاح تكفا » لتوحيد جميع العمال اليهود في فلسطين واقامة منظمة عمالية يهودية موحدة · غير ان محاولتهم هذه باءت بالفشل بعد ظهور اختلافات حول طبيعة البرنامج السياسي والايديولوجي وحول اسم المنظمة العمالية ، خاصة بعد ان رفضت اغلبية المشاركين في هذا الاجتماع الاقتراح الذي تقدم به اعضاء البوعالي تسيون والقاضي باعطاء اسم منظمتهم للمنظمة العمالية الموحدة المزمع تأسيسها (٨) ·

وهكذا ، وبعد فشل هذه المحاولة التوحيدية ، تأسست منظمتان عماليتان مختلفتان : البوعالي تسيون الفلسطيني في اكتوبر ١٩٠٥ من جهة ، و«Hapoel Hatzair» او « العامل الفتي » في نوفمبر ١٩٠٥ من جهة اخرى · وكانت المنظمة الاولى تضم ستين

عضوا ، اما المنظمة الثانية فكانت تضم تسعين عضوا (٩) ٠

لم يكن لمنظمة « العمل الفتي » خط سياسي واضح ومحدد ، بل كانت تستند علـى التجريبية وترفض بصورة مبدئية الخوض في النقاش الايديولوجي ·وكانت تعطي اهميه كبرى للعمل اليدوي لقيمته المثالية ولدوره في عملية « التحرر القومي للشعب اليهودي » ٠ وكان مبدأ « احتلال العمل لصالح العمال اليهود » احد المبادىء الرئيسية لسياسة هذه المنظمة. فكان الشعار التالي يتصدر دوما الجريدة التي تصدرها : « ان الشرط الضروري لتحقيق الصهيونية يتمثل باحتلال جميع أماكن العمل في فلسطين لصالـح اليـد العاملـة اليهودية » (١٠) ٠ وكانت منظمة « العامل الفتي » تعارض الماركسية وترفض الارتباط باي منظمة اشتراكية صهيونية ٠

أما منظمة البوعالي تسيون فكانت تتميز على العكس بطابعها الايديولوجي الواضح وكانت المنظمة على ارتباط وثيق بالبوعالي تسيون الروسي ، وتنتمي الى الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون (١١) ٠ وكان اول تحرك سياسي للبوعالي تسيون في فلسطين في الاول من أيار ١٩٠٦ ، حيث جرى تنظيم مسيرة جماهيرية ، للاحتفال بعيد العمال العالمـي ، سار فيها بضعة عشرات من العمال اليهود خلف رايات الحزب (١٢) ٠

جابه اعضاء البوعالي تسيون في البداية صعوبات عديدة للتأقلم مع الوضع الجديـد السائد في فلسطين ، واضطروا في النهاية الى القبول باللغة العبرية وقرروا المشاركـة في مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية ٠

انعقد المؤتمر التأسيسي لحزب البوعالي تسيون الفلسطيني في فندق « سبيكتور » بمدينة يافا في اكتوبر ١٩٠٦ ٠ وقد ساهم في أعمال هذا المؤتمر ( ١٥٠ ) عضوا ٠ وقد انتخب « دافيد بن غوريون » الذي وصل الى فلسطين قبل شهر واحد من انعقاد هذا المؤتمـر ، رئيسا للمؤتمر التأسيسي للبوعالي تسيون (١٣) ٠ ويذكـر « اسرائيـل شوهـات » (Israel Shohat) ، أحد الذين ساهموا في اعمال المؤتمر ، بان نقاشات حامية جـدا قد دارت بين المندوبين للاختيار بين عبارة « العمال اليهود » وبين عبارة « عمال ارض اسرائيل ـ فلسطين » ٠ وبنتيجة هذه النقاشات وافق المؤتمر على اقامة « منظمة عامـة للعمال اليهود في فلسطين » ورفض فكرة اقامة منظمة مشتركة تجمع العمال العرب واليهود جنبا الى جنب (١٤) ٠

انتخب المؤتمر التأسيسي للبوعالي تسيون الفلسطيني في نهاية اعماله لجنة مركزيـة مؤلفة من خمسة اعضاء ، وقرر تكليف لجنة خاصة مؤلفة من عشرة اعضاء بصياغـة القاعدة الايديولوجية والسياسية للحزب ٠ وخلال الاجتماع السري الذي عقدته هـذه اللجنة بمدينة الرملة ظهر اتجاهان : اتجاه « يساري » اطلق عليـه اسـم اتجـاه « روستوف » ( Rostov ) كان يدعو لصياغة قاعدة ماركسية واضحة المعالم ، واتجـاه « يميني » بقيادة « بن غوريون » كان يدعو لصياغة قاعدة سياسية تؤكد على « العامـل القومي والضرورات الصهيونية » ٠ (١٥) وفي نهاية هذا الاجتماع تم الاتفاق على مشروع قاعدة سياسية لاقرارها من قبل المؤتمر الاول للحزب الذي تقرر عقده ، بعد اسابيع قليلة من انتهاء اعمال اللجنة ، بمدينة يافا ٠

كانت القاعدة السياسية للبوعالي تسيون الفلسطيني تنطلق من الفكرة القائلة بان تاريخ الانسانية هو « سلسلة متواصلة من نضالات طبقية ونضالات قومية » ٠ ثم تشير الـى الموضوعة التي كان « بوروشوف » قد أشار اليها والقائلة « بان الطبقة العاملة اليهودية

ستتشكل في فلسطين بعد ان يستثمر الرأسماليون اليهود اموالهم في هذا البلد » · وقد اكدت القاعدة السياسية على ان البوعالي تسيون يناضل « في سبيل الاستقلال السياسي لليهود في فلسطين وفي سبيل اقامة مجتمع اشتراكي » ، كما أقرت مبدأ المساهمة بمؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية ومبدأ الانضمام الى الاممية الثانية (١٦) ·

خلال تلك الفترة كانت قيادة البوعالي تسيون تبحث اذن عن « طريق فلسطيني » للجمع بين الصهيونية والاشتراكية · فأضيف الى مبدأ « الصراع الطبقي » بمفهومه البورشوفي طبعا ، مبدأ « احتلال العمل » الصهيوني ، الذي كان يؤكد على ضرورة احتلال جميع أماكن العمل في فلسطين لصالح اليد العاملة اليهودية ومقاطعة المنتوجات العربية · فالقيادة العمالية الصهيونية كانت تهدف الى تهويد كافة المرافق الاقتصادية في فلسطين ، وكان شعار « احتلال العمل » و « احتلال الارض » اداة تحقيق ذلك · ومن الطبيعي ان تشكل هذه السياسة الصهيونية الشوفينية عائقا كبيرا امام تطوير علاقات نضالية مشتركة بين العمال العرب واليهود ·

في المؤتمر الاول للبوعالي تسيون الفلسطيني دارت نقاشات حامية جدا حول قضية العلاقة بين الحزب وبين العمال العرب خاصة في المجال النقابي · وقد طالب انصار « اتجاه روستوف » بتوسيع نشاطات الحزب النقابية والسعي لاقامة نقابات مشتركة يهودية ـ عربية · ولكن اغلبية المندوبين بقيادة « بن غوريون » عارضت بصورة قاطعة فكرة القيام بأي نشاط نقابي داخل الوسط العربي ورفضت فكرة اقامة نقابات مشتركة ·

وقد علق احد الدين ساهموا في أعمال المؤتمر على هذه النقاشات فكتب : « ان القياديين الدين كانوا يتحدثون بازدراء عن قضية تنظيم العمال العرب قد هوجموا بشدة اثناء النقاشات ··· وكان بن غوريون الصاعد قد رفض بصورة قاطعة فكرة انضمام العمال العرب لنقابة العمال الزراعيين ··· وقد تفاقمت الخلافات الى حد بات يهدد بالانشقاق · واخيرا تم تجاوز خطر الانشقاق بعد ان تقدمت الاغلبية باقتراح ينص على تحريم اي نشاط نقابي رسمي للحزب داخل الوسط العربي ، على شرط ان يكون لاعضاء الحزب الحق بالاهتمام بهذه القضية بصورة افرادية ·· » (١٧) ·

وقد ثبت فيما بعد بان الموقف التوفيقي الذي اتخذه مؤتمر يافا بخصوص قضية تنظيم العمال العرب عير قابل للتطبيق عمليا · فأثيرت هده القضية من جديد في العام التالي ، وتابع انصار « اتجاه روستوف » اصرارهم على ضرورة اقامة منظمات نقابية مشتركة يهودية ـ عربية · وقد كتب « ابراهام سافرانسكي » احد ممثلي هذا الاتجاه انذاك بانه « عوضا عن طرح شعار احتلال العمل الذي يعني طرد العرب من اعمالهم ، يجب على العامل اليهودي ان يسعى لتنظيم العامل العربي والحد من تأثير الافندية عليه » (١٨) ·

وبالفعل ساهم أنصار « اتجاه روستوف » بتنظيم اول اضراب للعمال الزراعيين العرب من قرية « يهوديا » العاملين في مزارع الحمضيات بمستوطنة « بتاح تكفا » ، وذلك احتجاجا على تدني اجورهم · غير ان هذا الاضراب قد اجهض بعد ان تحالفت الادارة العثمانية مع المستوطنين اليهود ومع القادة العماليين الصهاينة · ومع ان العمال المضربين العرب قد تعرضوا لتعذيب وحشي للافشاء عن اسماء منظمي الاضراب ، الا انهم تحملوا التحقيقات البوليسية ولم يخونوا رفاقهم اليهود (١٩) ·

لم يستمر قادة البوعالي تسيون طويلا في بحثهم عن « طريق فلسطيني » للجمع بين الصهيونية والاشتراكية · فبالتدريج اتخذ البوعالي تسيون الفلسطيني تحت قيادة « بن

عوريون » و « بن زفي » (٢٠) سلسلة من المواقف « التي كانت تضعه اكثـــر فأكثـــر في تناقض مع معلميه الايديولوجيين في روسيا » (٢١) ، خاصة بعد ان شعر قادة الحــزب في فلسطين بان اهتمامات البوعالي تسيون الروسي باتت تتعدى قضية الهجـــرة الـــى فلسطين ·

فعندما قررت قيادة الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ، التي كانت احزابها مستاءة مـن تعاونها مع العناصر « البرجوازية الصهيونية » ، مقاطعة مؤتمرات المنظمة الصهيونيـــة العالمية ، رفض البوعالي تسيون الفلسطيني اتخاذ نفس الموقف · وفي الوقت الذي كانـت فيه فروع الاتحاد العالمي تتابع تنظيم اجتماعاتها وطباعة منشوراتها باللغة اليديشيـــة « لغة الجماهير العمالية اليهودية » ، قرر الفرع الفلسطيني التخلي نهائيا عن اليديشيــة واستعمال اللغة العبرية · وعندما بدأ اعضاء البوعالي تسيون الفلسطينـــي باقامـــة المستوطنات الزراعية جوبهوا بمعارضة شديدة من جانب الاتحاد العالمي وخاصة مـــن جانب البوعالي تسيون الروسي الذي كان يصر على ان اقامة مثل هذه المستوطنـــات الزراعية تعارض تعاليم بوروشوف « فواجب العمال اليهود ان يناضلوا فـــي سبيـــل مصالحهم الطبقية فقط ، وليس من واجبهم اقامة مؤسسات اقتصادية في اطار النظـــام الرأسمالي » (٢٢) ·

لقد حاولت الحركة العمالية الصهيونية في فلسطين ، التي كانت تتعرض لمنافسة اليـد العاملة العربية ، ان تتجاوز هذه المنافسة من خلال اقامة « اقتصاد يهودي مستقل » · وكانت عملية تشكل طبقة عاملة يهودية في فلسطين تتم عبر طرد العمال العـــرب مـــن المستوطنات اليهودية واقامة اقتصاد صهيوني جديد يقوم على قاعدة الاستيطـان العمالي · ففي العام ١٩٠٨ ظهرت اولى المزارع التعاونية اليهودية « موشافيم » وبعد ذلك بعامين ، اقامت مجموعة من العمال اليهود في « ام جونيه » « دجانيا » اول مستوطنـــة جماعيـــة « كيبوتز » (٢٣) ·

في مؤتمر يافا المنعقد في العام ١٩١٠ بمساهمة عشرين مندوبا حدد البوعالي تسيـون الفلسطيني بوضوح توجهاته السياسية · فبعد يومين وليلة من النقاشات المستمرة اقـــر المؤتمر البرنامج السياسي التالي :

« ١ ـ الهدف القومي للحزب : اقامة تجمع يهودي في فلسطين قائم في بلده وسيـــد مصيره ·

٢ ـ برنامج الحد الاقصى : ان حزب العمال اليهود الاشتراكيين ـ الديمقراطيين فـــي فلسطين ( بوعالي تسيون ) يهدف الى ازالة الطبقات في المجتمع الانساني ، واعطاء وسائل الانتاج الى مجموع المجتمع ، واقامة نظام اشتراكي في العالم ·

٣ ـ برنامج الحد الادنى : تقوية مواقع العامل اليهودي في فلسطين ، والعمل عـــلى ازدهاره وزيادة عدده ·

٤ ـ اللغة : ان الحزب يعترف باللغة العبرية لغة قومية لليهود ·

٥ ـ سنساهم في المؤسسات الصهيونية التي تعمل على اقامة اليهود في فلسطين عـــلى شرط ان لا تعارض هذه المؤسسات بصورة اساسية القضية العمالية ··· » (٢٤) ·

وقد قرر مؤتمر يافا من جهة اخرى اصدار جريدة حزبية باللغة العبرية تحت اســـم

« احدوت » موجهة الى العامل اليهودي « والجماهير اليهودية في فلسطين وفي تركيا » (٢٥) ·

بامكاننا ان نلاحظ عند تفحص هذا البرنامج بأن فكرة الصراع الطبقي قد اختفت تماما ، ولو انه تضمن الاشارة باستحياء الى هدف ازالة الطبقات واقامة نظام اشتراكي في العالم ·

أشرنا فيما سبق الى ان البوعالي تسيون « الفلسطيني » كان على علاقة وثيقة عند تأسيسه بالبوعالي تسيون الروسي الذي كان له تأثيره الواضح على سياسات ومواقف الحزب في فلسطين · ولكن ، ومع الزمن بدأ تأثير البوعالي تسيون الروسي يضعف باستمرار ، خاصة بعد ان انقطعت هجرة اعضائه الى فلسطين نهائيا خلال الحرب العالمية الاولى · في هذه الظروف ، وصل قادة البوعالي تسيون الفلسطيني الى القناعة بأن المفاهيم « الماركسية » التي صاغها « بوروشوف » في روسيا ، لا تتوافق ابدا مع معطيات الواقع المحلي في فلسطين ·

واعتبارا من هذه المرحلة ، بدأت علاقات الحزب الفلسطيني تتوطد شيئا فشيئا مع الجناح الامريكي « الاصلاحي » للبوعالي تسيون · وقد وصلت هذه العلاقات الى ذروتها في العام ١٩١٤ بعد لجوء « بن غوريون » و « بن زفي » الى الولايات المتحدة الامريكية عندما أصدرت السلطات التركية قرارا بطردهما في اوائل الحرب العالمية · وقد كان لمساهمة عدد من المتطوعين الاميركيين في عداد « الفرقة اليهودية » التي اشتركت باحتلال فلسطين الى جانب القوات البريطانية دور مهم في تعزيز هذه العلاقات ·

في العام ١٩١٤ وصل عدد العمال اليهود في فلسطين الى حوالي ( ١٦٠٠ ) عامل (٢٦)· وفي ذلك الوقت تشكلت الى جانب البوعالي تسيون و « العامل الفتي » منظمة عمالية جديدة اطلق عليها اسم « منظمة غير الحزبيين » · وبالاختلاف عن عناصر « العامل الفتي » كان اعضاء هذه المنظمة الجديدة ينتمون الى الحركة الاشتراكية اليهودية في أوروبا الشرقية والوسطى ·

ولكنهم ، وبعد وصولهم الى فلسطين ، لم يجدوا مكانهم في صفوف اي من المنظمتين المتنافستين ، وفضلوا تسخير كافة جهودهم لتقوية اللجان الزراعية المحلية والسعي لخلق منظمة نقابية موحدة للعمال الزراعيين اليهود ·

وقد لعبت منظمة « غير الحزبيين » دورا تحريضيا هاما في عملية بلورة التغيرات العملية والنظرية التي كانت تحدث في صفوف البوعالي تسيون الفلسطيني ، والتي أدت به في النهاية في اطار « التخلص من التحجر العقائدي الذي يطبع الحركة العمالية اليهودية في المهجر » ، الى رفض النظرية والمفاهيم « البوروشوفية » والتخلي عن مبدأ الصراع الطبقي · وقد ساعد هذا التحول في مواقف البوعالي تسيون على خلق الظروف المؤاتية لطرح فكرة توحيد المجموعات العمالية الصهيونية في فلسطين · وبالفعل تصاعد النشاط التوحيدي بين صفوف العمال اليهود في أواخر الحرب العالمية الاولى ، خاصة بعد ان شعرت القيادة العمالية الصهيونية بالحاجة لاقامة منظمة عمالية موحدة قادرة على استيعاب الهجرة الجماعية المنتظرة في اعقاب الحرب · وقد ظهرت فكرة الوحدة العمالية لاول مرة في صفوف وحدات « الفرقة اليهودية » التي كانت تضم متطوعين منضمين لمختلف الاتجاهات داخل الحركة العمالية اليهودية (٢٧) ·

وهكذا طرح شعار « النضال في سبيل الوحدة العمالية » في أن واحد من قبل البوعالي تسيون ومجموعة « غير الحزبيين » · وكانت المجموعتان تهدفان الى تحقيق وحدة شاملة تشمل أيضا عناصر « العامل الفتي » · (٢٨)

ودعت المنظمات المختلفة حينئذ الى عقد مؤتمرات استثنائية لمناقشة قضية الوحدة · وفي المؤتمر الذي عقدته سريا منظمة « العامل الفتي » عارضت اغلبية المندوبين فكرة تصفية الوجود المستقل للحزب ورفضت مبدأ الوحدة ·

اما البوعالي تسيون فقد عقد مؤتمره الثالث عشر بمدينة يافا في ٢١ شباط ١٩١٩ وذلك لاقرار مشروع الوحدة المطروح من قبل قيادة الحزب (٢٩) · وخلال اعمال المؤتمر أثارت قضية اللغة مرة اخرى نقاشات حامية بين المندوبين · فطالبت مجموعة من المندوبين ، القادمين من الولايات المتحدة الاميركية ومن الارجنتين في عداد « الفرقة اليهودية » ، المؤتمر بتبني اللغة اليديشية بحجة انها اللغة الوحيدة القادرة على تسهيل استيعاب المهاجرين الجدد القادمين من اوروبا ، وتأمين الاتصال مع التجمعات اليهودية في المهجر · غير ان قيادة الحزب رفضت بصورة قاطعة مناقشة هذه القضية : « هنا في فلسطين ــ صرخ بن زفي ــ لا مكان للغة اليديشية ، ولن نناقش ابدا هذه القضية » (٣٠) · وفي الوقت الذي كان فيه انصار تبني اللغة اليديشية يغادرون قاعة المؤتمر احتجاجا على موقف قيادة الحزب ، كان عدد من مندوبي الجناح « اليساري » المعارض لمشروع الوحدة مع « الاشتراكيين اليمينيين » يقاطعون التصويت على المشروع الذي تم اقراره من قبل غالبية المندوبين (٣١) ·

وبعد اقرار مؤتمر البوعالي تسيون لمشروع الوحدة تمت الدعوة لعقد مؤتمر عام لمندوبي العمال الزراعيين اليهود في فلسطين · وقد عقد هذا المؤتمر في مستوطنة « بتاح تكفا » بمساهمة ( ١٩ ) مندوبا عن البوعالي تسيون و (١١) مندوبا عن « العامل الفتي » و ( ٢٨ ) مندوبا عن منظمة « غير الحزبيين » (٣٢) · وخلال انعقاد جلسات المؤتمر ، اجتمع مندوبو « العامل الفتي » ، الذين قاطعوا المناقشات ، بصورة مستقلة وقرروا معارضة مشروع الوحدة ورفض فكرة الاندماج ضمن منظمة عمالية موحدة · اما مؤتمر « بتاح تكفا » فقد اقر مبدأ الاندماج بعد أن حصل مشروع الوحدة على تأييد ( ٤٨ ) مندوبا (٣٣) · وعلى اثر ذلك اتفق على عقد مؤتمر عام لممثلي جميع العمال اليهود في فلسطين العاملين في المدن والارياف لتأسيس « احدوت هاعفودا » او « اتحاد العمل » ·

وقد انعقد هذا المؤتمر العام خلال شهر اذار ١٩١٩ بمساهمة ( ٨١ ) مندوبا موزعين على الشكل التالي : (٤٧) مندوبا عن العمال الزراعيين (١٥) مندوبا عن العمال الصناعيين و (١٩) مندوبا عن وحدات المتطوعين في صفوف « الفرقة اليهودية » · وكان مندوبو المؤتمر يمثلون ( ١٨٧١ ) من العمال اليهود في فلسطين (٣٤) ·

استمع مندوبو المؤتمر الى تقرير عام اعدته لجنة خاصة مؤلفة من ستة اعضاء : أربعة عن منظمة « غير الحزبيين » ، و « بن غوريون » و « بن زفي » عن البوعالي تسيون · وقد اعلنت اللجنة في تقريرها « بان« اتحاد العمل » منظمة تضم جميع العمال والكادحين اليهود في فلسطين ، بالاضافة الى الحرفيين الذين يعيشون من عملهم (···) وان هذه المنظمة ستتشكل من فروع مهنية مستقلة تجمع اعضاءها بحسب نشاطاتهم الاقتصادية المختلفة ، وان « اتحاد العمل » سيجمع العمال بهدف القيام بنشاط اقتصادي وثقافي

وسياسي » · وقد اقرت اللجنة في تقريرها مبدأ اشتراك « الاتحاد » في نشاطات المنظمة الصهيونية العالمية ومبدأ انضمامه الى الاممية الثانية (٣٥) ·

**ثانيا : تأسيس حزب العمال الاشتراكيين ( M.P.S. ) او تشكل النـواة الاولى للحركة الشيوعية في فلسطين :**

لقد حاولنا من خلال هذا الاستعراض السريع ــ المحكوم بمحدودية المادة الوثائقية المتوفرة لدينا ــ لمراحل نشوء وتطور الحركة العمالية اليهودية في فلسطين التعرف ــ قدر المستطاع ــ على الارضية التاريخية التي تشكلت فوقها النواة الاولى للحركة الشيوعية في هذا البلد · وقد ركزنا على مجموعة البوعالي تسيون لانها كانت اهم المجموعات داخل الحركة العمالية اليهودية في فلسطين ومن صفوفها ستنسلخ الاقلية اليسارية التي ستلعب الدور المركزي في عملية تشكل النواة الشيوعية الاولى · وقد لاحظنا من خلال استعراضنا لنشوء وتطور البوعالي تسيون الفلسطيني بان « اتجاهات » هذا الحزب قد اتخذت مواقف متباينة بل متناقضة تجاه عدة قضايا جوهرية مثل قضية العلاقة مع الكادحين العرب ، وقضية اللغة ، وقضية العلاقة مع مجموعات البوعالي تسيون في العالم، وقضية الوحدة مع المجموعات العمالية اليهودية الاخرى في فلسطين · ولكن هل كانت هذه المواقف المتناقضة بمثابة الدليل على وجود « اتجاهات » يمينية ويسارية داخل البوعالي تسيون ؟ ··

جوابنا هو النفي ، ولكن على شرط عدم التقليل من أهمية هذه التمايزات التي ظهرت في صفوف البوعالي تسيون الفلسطيني ، والتي ستتبلور اكثر فأكثر في فترة لاحقة في اعقاب الحرب العالمية الاولى وانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية (٣٦) ·

فقد شمل تأثير ثورة اكتوبر الاشتراكية فلسطين كغيرها من بلدان العالم وساعد على نشر افكار الاشتراكية العلمية فيها · وقد خلق انتصار ثورة اكتوبر ، واحتلال فلسطين من قبل القوات البريطانية ، والتعاون المكشوف بين المنظمات الصهيونية العمالية وبين الامبرياليين البريطانيين ، ومظاهر العداء الشوفيني للجماهير العربية ، لقد خلقت هذه العوامل مجتمعة الظروف الموضوعية الملائمة لبدء عملية تمايز حقيقي ايديولوجي وسياسي في صفوف الحركة العمالية اليهودية في فلسطين ، وبدأت الشكوك تراود اذهان بعض اعضاء هذه الحركة حول مستقبل سياسة وممارسة القادة العماليين الصهاينة ·

وفي ظل هذه الظروف ، وجد بعض الاشتراكيين اليهود في فلسطين انفسهم امام خيارين : البقاء الى جانب القادة « الاصلاحيين » لـ « اتحاد العمل » ، الى جانب النظام الاستعماري البريطاني والى جانب الاممية الثانية ، او اقامة منظمة سياسية مستقلة تقف الى جانب السلطة السوفياتية الجديدة والى جانب الاممية الثالثة الشيوعية ·

في العام ١٩١٩ ، رفضت اقلية يسارية من البوعالي تسيون الفلسطيني الانضمام الى « اتحاد العمل » وتابعت نشاطها المستقل · وقد كانت مدفوعة في ذلك بدافعين اثنين : من جهة كانت تأمل بان تبقى وفية لمبادىء الاتحاد العالمي ( اليساري فيما بعد ) للبوعالي تسيون وان تلتزم بموقف ايجابي تجاه ثورة اكتوبر وتجاه الاممية الثالثة ، ومن جهة اخرى كانت تسعى لترك الطريق التقليدي الذي سار عليه البوعالي تسيون في السابق وان تبحث عن طريق اخر يجمع بين مبادىء « الصهيونية البروليتارية » وبين المبادىء

المعادية للصهيونية التي يتبناها القسم اليهودي التابع للحزب الشيوعي الروسي (٣٧) ٠

وهكذا اسست هذه الاقلية اليسارية للبوعالي تسيون الفلسطيني بمساعدة مجموعات اشتراكية صغيرة اخرى ، حزب العمال الاشتراكيين (M.P.S.) ٠ ومع ان ايديولوجية هذا الحزب لم تكن قد تبلورت بعد من الناحية الماركسية فقد مثل تأسيسه « في الظروف التي سادت وقتها البلاد ، خطوة شجاعة وثورية » (٣٨) ومرحلة هامة على طريق ولادة الحركة الشيوعية في فلسطين ٠

لقد سبق تأسيس حزب العمال الاشتراكيين ولادة عدة مجموعات اشتراكية صغيرة في فلسطين ٠ فقد اسس بعض المتطوعين اليهود الاميركيين من اعضاء البوعالي تسيون ومن انصار اللغة اليديشية « الحلقة الادبية العمالية اليهودية الاشتراكية » ، وذلك بدعم من « لجنة الدفاع عن يهود فلسطين » في الولايات المتحدة الاميركية ٠ وبالحقيقة ، فان نشاط هذه المجموعة لم يكن يقتصر ابدا على النشاط الادبي ، بل كان اعضاؤها يعملون على تنظيم العمال اليهود ذوي الثقافة اليديشية الذين كانوا بعيدين عن اهتمامات قيادة الحركة العمالية الصهيونية في فلسطين (٣٩) ٠ وقد ساهم اعضاء هذه المجموعة مساهمة فعالة في عملية تأسيس النواة الاولى لنقابة عمال النجارة بمدينة يافا ، تلك النقابة التي اصبحت الى جانب نقابة عمال سكك الحديد والبريد ونقابة عمال البناء ، واحدة من المنظمات النقابية النادرة داخل الحركة العمالية اليهودية التي كانت تدعو العمال اليهود للتضامن الاممي مع رفاقهم العرب والسعي لانجاز مهام النضال الاجتماعي على حساب مهام النضال « القومي » ٠

في مدينة القدس ، تأسست مجموعات اشتراكية صغيرة اخرى اطلق عليها اسم « مجموعات العمال الاشتراكيين » ٠ وقد ضمت هذه المجموعات بعض العناصر التي تركت « اتحاد العمل » بالاضافة الى عدد من المستقلين « غير الحزبيين » ٠

في ٢٥ ايلول ١٩١٩ التقى ممثلو جميع هذه المنظمات الاشتراكية اليسارية ودعوا لعقد مؤتمر لتأسيس حزب بوعالي تسيون يساري في فلسطين ٠ وقد انعقد المؤتمر التأسيسي لحزب العمال الاشتراكيين ( M.P.S. ) بمدينة يافا في الفترة الواقعة بين ١٥ و ١٧ تشرين الاول ١٩١٩ بمساهمة بضعة عشرات من العمال اليهود (٤٠) ٠ ويعتبر هذا المؤتمر التأسيسي لحزب العمال الاشتراكيين بمثابة المؤتمر الاول للحزب الشيوعي في فلسطين ٠

اعلن « م٠ خالدي » (٤١) في كلمة افتتاح المؤتمر : « نفتتح الاجتماع في جو مخنوق ٠ فليس لدينا قادة حزبنا السابقون ، فهم مع الاكثرية العظمى تركوا الحزب ٠ بقيت فقط اقلية قليلة وضعيفة ولكنها مخلصة لمبادئنا وتطلعاتنا ٠٠ » (٤٢) ٠

واوضح الخطيب بان اولئك من حزب بوعالي تسيون الذين لم يوافقوا على انضمام الاكثرية الى « احدوت هعفوداه » ( اتحاد العمل ) التقوا مع عمال اشتراكيين اخرين « لم يرغبوا منذ البداية في الانضمام الى حزب بوعالي صهيون لانهم اعتبروه اشتراكيا اقل من اللزوم وحتى غير ديمقراطي بما فيه الكفاية » (٤٣) ، واتفقوا على اقامة حزب اشتراكي راديكالي في فلسطين ٠

خلال نقاشات المؤتمر قدم « ي٠ مايرزون » (٤٤) تقريرا عاما عن « مسألة اعادة تنظيم الحزب الاشتراكي في فلسطين » ٠ وقد اعلن الخطيب في بداية مداخلته بانه من انصار الثورة الاشتراكية و « الصهيونية البروليتارية الحقيقية » ، وشن هجوما عاصفا على

قادة البوعالي تسيون الراغبين في التخلص من « روح التحجر العقائدي للمهجر ـ الدياسبورا » : « اذا كانت الاشتراكية اليسارية هي قضية المهجر ـ اعلن مايرزون ـ فسنحافظ اذن على فكر المهجر » (٤٥) · وذكر « مايرزون » بان حزب العمال الاشتراكيين ( M.P.S. )ليس حزبا جديدا ، ولا يفعل سوى ان يأخذ بعين الاعتبار « الخيانة الطبقية » لمعظم اعضاء البوعالي تسيون الذين توحدوا مع « عناصر غير اشتراكية » · وخسر الانشقاق الذي حصل في صفوف البوعالي تسيون الفلسطيني بانه مماثل « للانقسام الدي طرأ في كل الاحزاب الاشتراكية في العالم بين يمين ويسار ، بين اصلاحيين يعتمدون على النظام الرأسمالي الراهن ويريدون ادخال بعض التحسينات عليه فقط ، وبين الاشتراكيين الذين يريدون تغيير النظام نفسه تغييرا ثوريا ويريدون الثورة الاشتراكية » · (٤٦)

خلال مداخلته حاول « مايرزون » ان يضع عملية ولادة حزب العمال الاشتراكيين في اطار الصراع الشامل الدائر على الصعيد العالمي بين معسكر القوى العمالية الثورية وبين معسكر القوى الاصلاحية ، واعلن بانه ثمة قضيتين يمتحن بهما كل حزب اشتراكي في العالم وهما : الموقف من الحرب العالمية والموقف من الثورة التي أتت بعدها أي الموقف من ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا · وقد انتقد المحاضر المواقف الشوفينية التي اتخذتها معظم احزاب الحركة الاشتراكية العالمية ، وحيا المواقف الاممية التي اتخذها الجناح الثوري داخل الحركة الاشتراكية خلال الحرب وقال : « في الوقت الذي اوشك فيه الشيطان المتربص للاشتراكية على الاحتفال بانتصاره (···) ، والبدء في رقصته الشيطانية على قبور الاشتراكية والاممية الندية ، هب منقذو ومخلصو الفكرة الاشتراكية الذين ضحوا بحياتهم من اجلها ومن اجل كمالها ونقاوتها · ولست اقصد بكلماتي هذه فقط الضحايا الكبيرة والخسائر التي لن تعود الى الحركة الاشتراكية والانسانية جمعاء من مثل جورس وليبنخت · فانا اتحدث عن عشرات المدافعين الذين هبوا في كل حزب اشتراكي في اي قطر ، اولئك المدافعين الذين بفضلهم امكن العفو والغفران عن كل الطائفة الاشتراكية · وهؤلاء ليسوا فقط عشرة رجال الكتلة الاشتراكية البرلمانية في ألمانيا (···) الذين تجرؤا في غمرة كل الحماس الوطني وسيطرة الشوفينية على ان يقولوا بكل وضوح كلمة نحن نتهم ولم يوافقوا على ميزانية الحرب · الان عرفنا ان ثمة يمينا وثمة يسارا في الحزب الاشتراكي ايضا » (٤٧) ·

ثم انتقل « مايرزون » للحديث عن المحك الثاني للتمييز بين الاشتراكيين الثوريين وبين الاشتراكيين الاصلاحيين والمتجسد بالموقف من ثورة اكتوبر · فشن هجوما عاصفا على قادة « اتحاد العمل » وجميع الاشتراكيين الاصلاحيين في العالم الذين بحجة الدفاع عن الديمقراطية يدعون لاسقاط نظام البلاشفة في روسيا ويزعمون بأن هذا النظام يكبت الديمقراطية · وقد فسر المحاضر الفرق بين الديمقراطية البرجوازية التي يتباكى على ضياعها في روسيا الاشتراكيون الاصلاحيون وبين الديمقراطية البروليتارية التي يطبقها النظام السوفياتي وقال : « من الواضح للجميع الان ان كل الصراخ حول الديمقراطية في خطر هو امر مفتعل ومزيف ، ولم يأت الا للتستر على الخيانة الدنيئة للفكرة البروليتارية · فمن الواضح ان بالنسبة للاشتراكيين هناك ( في روسيا .م·ش ) نوعا اخر تماما من الديمقراطية وسياسة ديمقراطية اخرى بالمرة ، وشكل حكم ودولة ديمقراطية اخرى ، ديمقراطية تبتدىء بكلمة من اجل الشعب » · (٤٨) ثم انتقد « مايرزون » اللعبة البرلمانية « الديمقراطية » التي يلعبها قادة « اتحاد العمل » في فلسطين في ظل الاحتلال

البريطاني ، ووصفها بانها مهزلة ، وقال : « كارهو صهيون ، هذا هو الاسم الذي سيطلقونه علينا بعد ان يسمعوا كل هذا الكلام (٠٠٠) ولكن اذا كان حب صهيون يستلزم جعل فلسطين ملجأ أمينا للسماسرة اليهود ، واذا كان اصدقاء صهيون هم من هذا الطراز الذين يدعون الى بنائها ولكنهم يهدمون كل بناء هؤلاء « المواطنون » في المستوطنات ، الذين ان عاجلا او اجلا او في نهاية الامر سيجلبون باعمالهم الكارثة لجميعنا ، فاننا سنختار بزهو ان نسمع من افواههم ايضا هذا الاسم شريطة ان يتضح ويتأكد الخط الفاصل بيننا » (٤٩) ٠ وقد أعرب الخطيب عن شكوكه بالنسبة لنجاح المشروع الصهيوني في فلسطين ، وحذر باسم حزبه جميع العمال اليهود من مغبة الانقياد وراء السياسة الشوفينية المعادية للعرب التي ينتهجها القادة الصهاينة ، واعلن عن قناعته بأن كل المشاريع التي تنوي الصهيونية انجازها في فلسطين ستتداعى لانها مقامة بالاساس فوق مخزون من المواد المتفجرة التي من الممكن ان تنفجر في اي لحظة ، في حال استمرار الصهيونية بانتهاج سياسة معاداة العرب واعتمادها على القوى الامبريالية العالمية : « عودوا الى الموقف العقلاني ـ صاح مايرزون مخاطبا العمال اليهود ـ ابحثوا عن طريق سليم للعيش المشترك مع الشعب الاخر الموجود هنا ، واعلموا بان نجاح كل مهاجر صهيوني باحتلال البلاد واستثمار سكانها العرب سيؤدي الى زيادة المادة المتفجرة تحت اسس بنائنا ٠ ( ومن هنا ) فان هدفنا لا يجب ان يقتصر على بناء مجتمع يهودي ، بل يجب ان يتعداه لبناء مجتمع اسمى ، مجتمع عمالي حر (٠٠٠) ، قائم على قاعدة الثروة والسلام ( ٠٠٠ ) ٠ السلام ليس فقط مع الحكومات ، بل ايضا مع الشعوب ٠٠ » ٠ (٥٠)

اعلن « مايرزون » في نهاية مداخلته بان حزب العمال الاشتراكيين في فلسطين يعلن بصراحة « بان الصهيونية البروليتارية تربط تحقيق المثال الصهيوني بانتصار الثورة الاشتراكية ٠ ففي هذا الانتصار فقط ترى الضمان الوحيد لتحقيق كل المثل التقدمية والصهيونية ايضا بمدى ما هي تقدمية » ، واعرب عن ثقته بان الصهيونية « ستتحقق كاشتراكية والا فانها لن تتحقق ابدا ٠ ولهذا فهي ستناضل ضد كل صهيونية اخرى ، البرجوازية منها او البروليتارية المتهادنة ، فهي ترى فيها لا امرا غير مفيد وحسب بل ضارا ايضا » (٥١) ٠

أقر المؤتمر التأسيسي لحزب العمال الاشتراكيين (M.P.S.) في نهاية اعماله عدة قرارات جاء فيها ما يلي : « يلقي الاجتماع على المركز واجب اعلام الاتحاد العالمي ـ لبوعالي صهيون ـ حول تجديد نشاط الحزب ، وانه يعارض الاممية الثانية وانه لا يوكل اي شخص لتمثيله فيها ٠ وثانيا وطوال الوقت الذي يرسل الاتحاد العالمي ممثليه الى الاممية الثانية فان الحزب لا يعترف ايضا بالاتحاد العالمي » ٠ كما دعا المؤتمر جماهير العمال اليهود في فلسطين بالسير « سوية مع كل جماهير العمال في البلاد دون فرق في القومية » ، وطالب الحزب بالعمل على ايجاد طريق التقارب والتفاهم بين العمال اليهود وبين الكادحين العرب (٥٢) ٠

من خلال تحليل المداخلات التي القيت في المؤتمر التأسيسي لحزب العمال الاشتراكيين والقرارات التي صدرت عنه بامكاننا الاستنتاج بان قادة هذا الحزب قد حاولوا القيام بخطوات حاسمة نحو تشكيل وجهة نظر ماركسية ثورية عن العالم ، وبذلوا جهودهم لوضع عملية تشكيل حزبهم في اطار الصراع السياسي والايديولوجي الدائر انذاك في صفوف الحركة الاشتراكية العالمية بين معسكر القوى الثورية والاممية ، وبين معسكر القوى

الاصلاحية والشوفينية . وقد التزم قادة حزب العمال الاشتراكيين في فلسطين وبكل وضوح جانب المعسكر الاول . ففصلوا انفسهم عن الاممية الثانية ودافعوا بحماس عن ثورة اكتوبر الاشتراكية وعن السلطة السوفياتية الجديدة ، واتخذوا موقفا امميا من الحرب العالمية باعتبارها حربا امبريالية لخدمة مصالح البرجوازية ، وادانوا السياسة « الاصلاحية والشوفينية » التي ينتهجها قادة الحركة العمالية الصهيونية في فلسطين ، ودعوا العمال اليهود للتضامن والتآخي مع رفاقهم العرب في النضال ضد الاستعمار البريطاني . ولكن ، جميع هذه المواقف الثورية التي تبناها قادة حزب العمال الاشتراكيين في فلسطين كانت تنطلق من مواقع « الصهيونية البروليتارية » . وهنا كان يكمن بالتحديد التناقض الاساسي الداخلي في ايديولوجية النواة الشيوعية الاولى في فلسطين لحظة ولادتها . وكانت الاطروحات النظرية التي دافع عنها « مايرزون » في المؤتمر التأسيسي للحزب التعبير الواضح عن طبيعة هذا التناقض الاساسي الايديولوجي .

ولكن هل كانت اطروحات « مايرزون » المتناقضة بمثابة الدليل على وجود « فوضى فكرية » داخل حزب تجذب قادته من ناحية افكار الاشتراكية الثورية وانتصاراتها وتعترضهم من ناحية اخرى افكار الايديولوجية الصهيونية ؟ ام ان « مايرزون » ــ وكما يقول اوفينبرغ ــ كان يشعر بعقم اطروحاته النظرية ويعترف شيئا فشيئا بالتناقض القائم بين الصهيونية والاشتراكية ، ولكنه كان يهدف ، ولاسباب تكتيكية ، الى تحقيق هدفين . عدم صدم غالبية اعضاء الحزب الذين اتخذوا مواقف راديكالية نسبيا بتقرير معاد للصهيونية تماما من جهة ، والسعي لتوجيه نشاط هؤلاء الاعضاء من النشاط الصهيوني نحو النشاط الاشتراكي من خلال ربط نجاح الصهيونية بالانتصار المسبق للثورة الاشتراكية (٥٣) ، من جهة اخرى .

اننا نعتقد من جهتنا ــ مع ماير فلنر ــ بأن اعضاء حزب العمال الاشتراكيين عند تأسيسه قد استطاعوا التحرر من عدة مفاهيم صهيونية وعبروا عن تضامنهم مع القوى الثورية في العالم وخاصة مع ثورة اكتوبر ونادوا بضرورة التآخي مع جماهير الكادحين العرب ، غير انهم لم يتحرروا كليا من الاوهام الصهيونية « ولم يفهموا ان هناك تناقضا جذريا بين الصهيونية والاشتراكية ، وانه لا يمكن ان تكون اشتراكية صهيونية كما انه لا يمكن ان تكون صهيونية اشتراكية ، وان الصهيونية في مضمونها وفي ايديولوجيتها حركة رجعية موالية للاستعمار وللبرجوازية اليهودية .. » . (٥٤)

ان التناقض الداخلي في ايديولوجية النواة الشيوعية الاولى في فلسطين كان يكمن في خصوصية الارضية التاريخية التي قامت عليها هذه النواة . فبفعل الطابع « القومي ــ الصهيوني » الذي طبع الحركة العمالية اليهودية في فلسطين ، لم تتمكن العناصر الاشتراكية اليسارية داخلها من حسم عملية التمايز السياسي والايديولوجي بشكل جذري في الاتجاه الثوري ــ الاممي لحظة انسلاخها عن مجموع هذه الحركة وتشكيلها لمنظمتها السياسية المستقلة ( كما حدث انذاك في العديد من بلدان العالم ) ، وانما اضطرت لاجتياز مرحلة جديدة من مراحل عملية التمايز هذه ، استطاعت على اثرها بعد عدة سنوات من تأسيس النواة الشيوعية الاولى الانتقال نهائيا من مواقع « الصهيونية البروليتارية » الى مواقع الماركسية ــ اللينينية والاممية البروليتارية . وقد لعبت قيادة الاممية الشيوعية دورا هاما في تسريع عملية الانتقال هذه .

وهكذا وصل عدد من اعضاء حزب العمال الاشتراكيين في فلسطين الى القناعة الاكيدة بان التناقض بين الاشتراكية من جهة وبين الصهيونية من جهة اخرى هو تناقض عدائي لا يمكن حسمه الا بانتصار احداهما على الاخرى ، وان محاولة التوفيق بينهما تعني عمليا الوقوف الى جانب الصهيونية في صراعها ضد الاشتراكية · ولكن للوصول الى هنا كان لا بد من الانتظار عدة سنوات اخرى ·

**( يتبع )**

## الحواشي

١ ـ لن يتسع مجال هذا البحث للتعرض لقضية النضال السياسي والايديولوجي الذي خاضه لينين ، قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى ، ضد ممثلي الانتهازية والاصلاحية داخل الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية العالمية ·

٢ ـ في الحقيقة كان هناك تيار ثالث « وسطي » عبرت عنه مواقف بعض احزاب الاشتراكية « المحايدة » كالحزب الايطالي والسويسري ، التي كانت تسعى في سبيل احياء دور المنظمات القيادية للاممية الثانية ، وتدعو في غمرة الحرب لاستيقاظ روح السلام ، وفي غمرة الشوفينية الى الحفاظ على روح الاممية البروليتارية ·

٣ ـ يتبنى بعض الباحثين هذا الرأي المأخوذ عن احد تقارير سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين ، انظر ،

Report on Palestine Administration, July 1920 - Déc 1922 , H.M.S.O. , London, 1922, P. 36.

٤ ـ لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر :

ناتان فاينشتوك : الصهيونية ضد اسرائيل ، منشورات ماسبيرو ، باريس ، ١٩٦٩ . ص ٨٤ ـ ص ٨٥ ·

٥ ـ انظر والتر لاكور : تاريخ الصهيونية ، منشورات Calmann - Lévy باريس ، ١٩٧٣ ، ص ٣٠٧ ·

٦ ـ انظر بيريتز مرحاف · اليسار الاسرائيلي . تاريخ وقضايا واتجاهات الحركة العمالية الاسرائيلية . منشورات Antropos باريس ، ص ٤٦ ـ ص ٤٧ ·

٧ ـ المصدر ذاته · للتعرف على افكار « بوروشوف » وعلى ظروف ولادة حزب البوعالي تسيون الروسي انظر : ماهر الشريف : « قضية فلسطين ومناقشات المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية » · في شؤون فلسطينية ، رقم ٧٠ ، ايلول ١٩٧٧ . ص ١١٩ ـ ص ١٤٢ ·

٨ ـ انظر ب · مرحاف ، المصادر المذكور ، ص ٤٧ ·

٩ ـ كان مجموع العمال اليهود في فلسطين انذاك ( ٥٥٠ ) عاملا · انظر والتر لاكور . تاريخ الصهيونية . المصدر المذكور ، ص ٣١١ ·

١٠ ـ أورده و · بروس ( W. Preuss ) في الحركة العمالية في اسرائيل . منشورات Rubin Mass ، القدس ، ١٩٦٥ ، ص ٢٨ · ( بالانكليزية ) ·

١١ ـ تشكل الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون بمدينة لاهاي في العام ١٩٠٧ ·

انظر ماهر الشريف ، قضية فلسطين ومناقشات ··· ، البحث المذكور ، ص ١٣١ ـ ص ١٣٢ ·

١٢ ـ انظر ناتان فاينشتوك ، الصهيونية ضد اسرائيل ، المصدر المذكور ، ص ٨٤ ·

١٣ ـ انظر دافيد بن غوريون : مذكرات ، اسرائيل قبل اسرائيل ، منشورات Grasset ، باريس ، ١٩٧٤ ، ص ٢١ ·

يقول ب· مرحاف ان بن غوريون لم يكن ابدا « ماركسيا » ولا حتى « بوروشوفيا » ·

١٤ ـ اورده بن غوريون ، مذكرات ، المصدر السابق ، ص ٢٢ ·

١٥ ـ المصدر ذاته ·

١٦ ـ انظر والتر لاكور ، تاريخ الصهيونية ، المصدر المذكور ، ص ٣١٢ · لمزيد من التفاصيل حول برنامج البوعالي تسيون الفلسطيني راجع و· بروس ، الحركة العمالية في اسرائيل ، المصدر المذكور ، ص ٢٨ ـ ص ٢٩ ·

١٧ ـ انظر ماريو اوفينبرغ ( M. Offenberg ) : الشيوعية في فلسطين · الامة والطبقة في الثورة المعادية للاستعمار ، منشورات Meisenheim am Glan - Verlag Anton Hain ١٩٧٥ ، ص ١٤٧ · ( بالالمانية ) ·

١٨ ـ اورده · اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ ·

١٩ ـ المصدر ذاته ، ص ١٨٤ ·

٢٠ ـ اسحق بن زفي : عضو سابق في حزب البوعالي تسيون الروسي ، وواحد من ابرز قادة البوعالي تسيون الفلسطيني اعتبارا من العام ١٩٠٧ ·

٢١ ـ انظر و · لاكور ، تاريخ الصهيونية ، المصدر المذكور ، ص ٣١٣ ·

٢٢ ـ المصدر ذاته ·

٢٣ ـ انظر ن · فاينشتوك ، الصهيونية ضد اسرائيل ، المصدر المذكور ، ص ٨٥ ·

٢٤ ـ انظر بن غوريون ، مذكرات ، المصدر المذكور ، ص ٤٣ ـ ٤٤ ·

٢٥ ـ المصدر السابق ، ص ٤٤ ·

٢٦ ـ انظر و · لاكور ، تاريخ الصهيونية ، المصدر المذكور ، ص ٣١٦ ·

٢٧ ـ انظر بن غوريون ، مذكرات ، المصدر المذكور ، ص ١٠٢ ·

٢٨ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٢ ·

٢٩ ـ انظر م· اوفينبرغ ، الشيوعية في فلسطين ، المصدر المذكور ، ص ١٥٠ ـ ص ١٥١ ·

٣٠ ـ اورده اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ ·

٣١ ـ المصدر ذاته ، ص ١٥٢ ·

٣٢ ـ انظر بن غوريون ، مذكرات ، المصدر المذكور ، ص ١٠٥ ·

٣٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٥ ·

٣٤ ـ المصدر ذاته ، ص ١٠٦ ·

٣٥ ـ المصدر ذاته ، ص ١٠٥ ـ ص ١٠٦ ·

٣٦ ـ ان الجواب النهائي على هذا السؤال يتطلب من الباحث الاطلاع على مادة وثائقية اغنى واشمل من تلك التي استطعنا الاطلاع عليها · ومع ذلك بامكاننا القول ـ حاليا ـ بانه لم تكن توجد داخل البوعالي تسيون الفلسطيني

اتجاهات يسارية واضحة ومتماسكة سياسيا وتنظيميا · كان هناك مواقف أممية عبرت عنها مثلا مواقف « اتجاه روستوف » تجاه قضية تنظيم العمال العرب . وكان هناك مواقف يسارية عبرت عنها ، من منطلقات مختلفة ، بعض المجموعات التي رفضت فكرة الاتحاد مع « الاشتراكيين اليمينيين » ·· ولكن هل كان هناك قاسم مشترك يجمع بين هذه المواقف ؟ هل ظهرت داخل البوعالي تسيون الفلسطيني ، خلال الحرب العالمية الاولى ، « اتجاهات اممية » ادانت الحرب الامبريالية كما فعل البوعالي تسيون الروسي ، ام ان مجموع اعضاء الحزب الفلسطيني قد وقفوا الى جانب قادتهم الذين دعموا الامبريالية الانكليزية وساهموا ضمن « الفرقة اليهودية » الى جانب قواتها في احتلال فلسطين ؟ ·· اسئلة عديدة ، كما نلاحظ ، لا تزال بحاجة للاجابة عليها قبل حسم هذا الموضوع ·

٣٧ ــ تشكل هذا القسم في تشرين الاول ١٩١٨ بهدف نشر الدعاية والتحريض بين صفوف العمال اليهود في روسيا · لمزيد من التفاصيل انظر ماهر الشريف ، قضية فلسطين ومناقشات ··· ، البحث المذكور ، ص ١٣٤ ·

٣٨ ــ انظر ماير فلنر : « خمسون سنة من نضال حزبنا الشيوعي » ، منشورات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسرائيلي ( راكاح ) ، حيفا ، ١٩٧٠ ، ص ٢١ ·

٣٩ ــ انظر م· اوفينبرغ ، الشيوعية في فلسطين ، المصدر المذكور ، ص ١٥٤ ــ ص ١٥٥ · لقد بقيت قضية اللغة حتى أواسط العشرينات في مركز النقاشات الدائرة داخل الحركة العمالية اليهودية في فلسطين · في البداية ، تبنى الشيوعيون اللغة اليديشية وحاربوا بحزم استعمال اللغة العبرية لانها كانت تمثل بنظرهم احدى ادوات تحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين ·

٤٠ ــ انظر م· اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٥٦ · يعتقد ماير فلنر بأن هذا المؤتمر قد انعقد في الفترة الواقعة بين ١٧ و ١٩ تشرين الاول ١٩١٩ · انظر م· فلنر ، خمسون سنة من نضال ··· ، المصدر المذكور ، ص ٢٥ ·

٤١ ــ ولد « مردخاي خالدي » في العام ١٨٨٧ بمنطقة القوقاز في روسيا · هاجر الى فلسطين خلال العام ١٩٠٨ حيث عمل كعامل زراعي في احدى المستوطنات لسنوات عديدة قبل ان ينتقل للعمل في احد البنوك بمدينة حيفا · نفته سلطات الانتداب البريطاني الى الاتحاد السوفياتي في أعقاب احداث ايار ١٩٢١ ، حيث انقطعت اخباره نهائيا · انظر م · اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٥٣ ·

٤٢ ــ انظر م· فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٢٥ ــ ص ٢٦ ·

٤٣ ــ المصدر السابق ، ص ٢٥ ·

٤٤ ــ ولد « ياكو مايرزون » في العام ١٨٨٨ بجنوب اوكرانيا · تابع دراسته المتوسطة بمدرسة دينية قبل ان ينتقل الى مدرسة علمانية في كييف · اشتغل بالتعليم ونشر عدة كتب باللغة اليديشية حول تاريخ اليهود · سافر الى فلسطين في ربيع العام ١٩١٢ بهدف جمع بعض المراجع الضرورية لاصدار كتاب مدرسي كان يحضره تحت عنوان « البلد والسكان » · سفره الى فلسطين لم يكن اذن لدوافع سياسية صهيونية · امضى سنوات الحرب العالمية الاولى في ظروف قاسية يعاني من البؤس والجوع ، حيث عمل في البداية في كيبوتز جن شموئيل ، قبل ان ينتقل الى منطقة الجليل للعمل سكرتيرا لمنظمة العمال الزراعيين · كان

قريبا من « الحركة السامية » التي كانت تدعو لاقامة مركز اجتماعي ـ ثقافي خاص باليهود في فلسطين ، وكانت تلتزم الحياد على الصعيد السياسي بخصوص المشروع الصهيوني الرامي الى اقامة دولة يهودية في فلسطين · وكان انصار هذه الحركة قليلين جدا في فلسطين ·

لعب مايرزون دورا هاما في عملية تأسيس حزب العمال الاشتراكي في فلسطين ، حيث خاض نضالا عنيدا لضمان انضمام هذا الحزب الى صفوف الاممية الشيوعية ومقاطعة مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية · بعد عودته الى فلسطين من فيينا ، حيث ساهم في اعمال المؤتمر الخامس للاتحاد العالمي بوعالي تسيون ، انتخب مايرزون عضوا في المجلس البلدي لمدينة يافا ، حيث كان تأثيره كبيرا بين المجموعات العمالية اليهودية اليسارية المتواجدة فيها ، وذلك على الرغم من ان بعض قيادات حزب العمال الاشتراكي بدأت تبتعد عنه لتخوفها منا لاتجاه « التصفوي » الذي كان يمثله ومن الافكار المعادية للصهيونية التي كان يشيعها · خلال العام ١٩٢٢ ، غادر مايرزون فلسطين متوجها الى « فارصوفيا » حيث نشر كتابا باليديشية تحت عنوان « العرب والاستيطان اليهودي في فلسطين » · ثم انتقل الى الاتحاد السوفياتي حيث استقر في البداية بمدينة « موسكو » قبل ان ينتقل منها الى « اوديا » خلال العام ١٩٢٨ ، حيث عمل في جامعتها مدرسا للادب والتاريخ اليديشي · انتقل مايرزون الى « المآتا » خلال العام ١٩٤١ وتوفي في موسكو في العام ١٩٤٧ ·

سيرة حياة « مايرزون » اقتبسناها عن م· اوفينبرغ ، الشيوعية في فلسطين ، المصدر المذكور ، ص ٧٤ ـ ص ٧٨ ·

٤٥ ـ اورده اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ ·

٤٦ ـ اورده م· فلنر ، خمسون سنة من نضال ··· ، المصدر المذكور ، ص ٢٦ ·

٤٧ ـ انظر م· فلنر ، المصدر السابق، ص ٢٦ ـ ص ٢٧ ·

٤٨ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٧ ·

٤٩ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٧ ـ ص ٢٨ ·

٥٠ ـ اورده م · اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٦١ · انظر ايضا م· فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٢٩ ·

٥١ ـ اورده م· فلنر ، المصدر السابق، ص ٢٨ ·

٥٢ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٩ ـ ص ٣٠ ·

٥٣ ـ انظر م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور، ص ١٦٠ ـ ص ١٦١ ·

٥٤ ـ انظر م· فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٠ ·

# سيرة عرب التعامرة

قام قنصل فرنسا العام في القدس السيد نوفيل بجمع هـذه النصوص ★ من افراد قبيلة التعامرة ، وهم من البدو الذين في طريق التحضر ، شرقي بيت لحم ·

اهمية هذه النصوص ، ليست في لغتها ، وقد جرى الاكتفاء بتدوين السرد كما جاء في اللغة المحكية . ولا في مضمونها ، رغم اهمية هذه النبذة من التاريخ الحديث ، بل تكمن في هذا النوع الادبي ·

تضع هذه الوثائق امامنا ، ما نقله افراد قبيلة التعامرة من جيل الى جيل ، منذ عام ١٥٧٢ ·

هذه النصوص ، هي التمرير الاولي لتراث شفهي يعود الى ٤٠٠ سنة · وبعض الاجزاء التاريخية من التوراة ، ولدت بالطريقة نفسها ·
الى اي حد يمكننا الاستناد الى هذه النصوص ؟

لا شك بأن كاتبها هو احد افراد عشيرة الحجاحجة · فلا عجب اذا وجدنا ان الدور الرئيسي في الحرب والسلم كان لهذه العشيرة · وفي معظم الاحيان تأتي التواريخ غامضة : مرحلة القوس ، مرحلة البندقية التي تقذف الحجارة ، مرحلة الحكم العثماني · اما فيما يتعلق بالدقة الجغرافية ، فالهوامش التي وضعناها ، تبرهن على مدى دقتها ·

I ـ تاريخ التعامرة العام

بعون الله ، وبعد ابحاث دقيقة ، استطعنا ان نثبت المراحل الرئيسية والحقيقية ، التي

---

★ Histoire D'une Tribu Semi-Nomade De Palestine, in *Revue Biblique* 1951

تسمح لنا بتلاوة نسب التعامرة على النسق التالي :

تنحدر هذه العشيرة (١) من بني حارث ، في مدن صالح (٢) في الحجاز · ابتعد بنو حارث فيما بعد عن مدن صالح ، وقصدوا تبوك في الحجاز ايضا ، على الحدود الغربية للاردن الحالية · واثر قحط اصاب بلادهم ، رحلوا الى معان (٣) ·

في الاردن · نشبت حرب بين عائلات واهالي وادي موسى (٤) وعائلات معان التي انتصرت على اهالي وادي موسى · فاحتلت الوادي وقطنت فيه بعض الوقت · هنا ايضا ، حلت موجة من القحط اجبرتهم على الرحيل والتبعثر في المناطق المجاورة سعيا وراء الكلاء والماء · اتجه الى فلسطين سبعة من رجال العشيرة واستقروا في خربة تدعى بيت عامر (٥) نسبة الى عمر بن الخطاب ، على بعد ستة كيلومترات شرقي بيت لحم ، وجعلوا منها مسكنهم · كانت تسكن هذه الخربة ست عائلات لكل منها كنيتها · وعندما استقرت عائلات بني حارث السبع في الخربة ، بلغ مجموع سكانها ثلاث عشرة عائلة فقط · في ذلك الوقت ، كانت الاراضي المجاورة خالية من السكان حتى حدود بيت لحم · تداخل الفريقان وتزاوجوا فيما بينهم · واخذوا يحرثون الاراضي وينتشرون عليها · كان في الخربة ثلاثة عشر بيتا مبنيا من الحجر ، كانت الساحة الملتصقة بالمسجد تدعى ساحة بني عمر باسم عمر بن الخطاب صاحب هذا المسجد واملاك الوقف المجاورة · ولهذا السبب ، اطلق فيما بعد على افراد بني حارث ـ اي العائلات السبع التي استقرت في الخربة ـ نتيجة اختلاطهم واندماجهم بالسكان الاوائل لهذا المكان ، اسم اهالي بيت عامر · ومع الوقت عرف الفريقان تحت اسم التعامرة · تعود هذه الاحداث الى سنة ٩٨٠هـ ، اي منذ ٣٨٩ عاما ( ٣٧٧ سنة ميلادية ) ، وبقيت لهم هذه الكنية حتى ايامنا هذه ·

وعندما اصبحوا يملكون القطعان ويستخدمون الخيام ، اخذوا يتنقلون مع القطعان والماشية ويزرعون الحقول ·

قبل مجيئهم كانت اربع عائلات عرفت باسم فاطمة ووداد تسكن خربة خريطون (٧) ويرعون قطعانهم في وعر خريطون (٨) · فأخذ التعامرة يغزون قطعانهم · وهاجموا في احد الليالي كهف الراعي · وقد لقب هذا المكان باسم كهف الراعي نتيجة الحدث التالي : هجم التعامرة فجأة بينما كان الراعي يحرس ماشيته ، فطلب منهم مهلة ليعزف فيها اغنية على شبابته · واخذ يعزف اغنية تقول : قتلوا كبش القطيع يا وداد ، وحرقوا السداد (٩) ·

وكان منزل وداد يقابل الكهف تماما ، سمعت وداد الشبابة وفهمت ما يود الراعي قوله ، اي انه يطلب النجدة · فبعثت من ينجده · ولكنهم وجدوا الراعي مقتولا والقطيع مسروقا عندما وصلوا · لذلك اطلق على هذا الكهف اسم كهف الراعي ·

[ بداية الحروب ضد التعامرة ] ·

ونشبت حرب للمرة الاولى ، شنها القيسيون (١٠) على التعامرة · كان التعامرة قليلي العدد ، وهاجمهم القيسيون ليلا نهارا بهدف ابعادهم عن الاراضي التي يسكنونها كانت جبال الخليل والسعير والشيوخ وبني نعيم وحلحول وبيت امر ويطة والسموع والظاهرية ودورا (١١) ، كلها لبني قيس · كان في نيتهم طرد التعامرة من البلد · والنصر في يد الله · هزم التعامرة امام تفوق القيسيين العددي وهربوا الى وادي القصير ، غربي البحر الميت ، ومنه الى الفشخة والفارعة · وينعم التعامرة بحقوق في الفشخة والفارعة

والبقيعة ، منذ ذلك الحين · وازداد عددهم كما ازداد عدد سكان بيت لحم وبيت ساحور وابو ديس ·

لم يكن في هذه المنطقة عبيديون (١٢) في ذلك الوقت ، لان ادارة الدير اليوناني كانت تستخدمهم حرسا حول دير ابن عبيد لحمايته من مسلمي القوقاز ، وهم مثل جيرانهم ، من المسلمين · ارسل التعامرة بعض المستطلعين للكشف على هذه الاراضي وجوارها· فتأكدوا ان اتباع اليمنيين اقوياء في المنطقة واتصلوا بهم قائلين انهم كانوا يحتلون هذه الاراضي قبل اربعين سنة مضت · اجاب اليمنيون : « ارجعوا ، حاربوا في صفوفنا والارض لكم » · كانت الاسلحة المستخدمة في ذلك الوقت هي القوس والرمح والسيف · تشجع المستطلعون عند سماع هذا الكلام · فرجعوا الى ذويهم واخبروهم بما حصل · اتفق التعامرة على الرحيل والانضمام الى صفوف الحزب اليمني · بعد ذلك ، لم يبق منهم الا عائلة واحدة استقرت فيما بعد في وادي الحوارث · وقد لقب الوادي بهذا الاسم نسبة لهذه السلالة من حارث ، فدعي منذ ذلك الحين : « وادي الحوارث » ·

[ رجوع التعامرة الى بلدهم ] ·

انتقل التعامرة اذن عائدين ليستقروا في خربة بيت تعامر · كان الوفاق سائدا بينهم وبين اخوانهم في الحزب اليمني واخذت قطعانهم ترعى في نفس المرعى وهم يتنقلون ويلهون سويا ·

عندما علم بنو قيس بنبأ رجوع التعامرة الى ديارهم ، راحوا يضايقونهم · لذا اتفق التعامرة مع حلفائهم على اشارة تقضي باشعال النار فوق رؤوس بعض الجبال المعينة اذا احتاجوا نجدة الحزب اليمني ·

قبل ان يغادر التعامرة منطقة الفارعة ، تزوجت امرأة من العشيرة احد القيسيين في سعير · وعندما رجع التعامرة الى قريتهم ، اخذ القيسيون يشنون عليهم هجمات محدودة · وفيما كان احد ابناء هذه المرأة التعامرية جالسا في ساحة سعير ، انعقد مجلس حربي ، فهم منه الشباب انهم قرروا بالاجماع شن حملة على التعامرة وقتلهم جميعا والانتهاء من امرهم · وما ان فهم ذلك حتى ذهب فورا الى والدته واخبرها حقيقة الامر · قالت له والدته : « اذهب يا بني عند اخوالك وقل لهم ما سمعت » · سألها : « كيف اذهب ؟ » اجابت : « ارتد ملابسي واحمل جرة ماء واذهب وانت في زي النساء حتى لا ينكشف مشروعك » · وهكذا كان : ذهب واخبرهم بما سمع · فاعترف اخواله بنبل اصله واتصلوا فورا باخوانهم في الحزب اليمني واستعدوا وتوجهوا مرة اخرى شمالي بيت ساحور · لكن احدى عائلات العشيرة ــ وتدعى العبيات ــ لم تدر بما حصل ، فبقيت مكانها · في هذه الاثناء ، توجه القيسيون نحو بيت تعامر ، وحين لم يجدوا احدا ، تابعوا سيرهم نحو الشمال فالتقوا التعامرة في وادي الحلوة · كانت المعركة عنيفة وقتل الكثيرون · وكان النصر مكتوبا للتعامرة وهزم القيسيون · هزمهم التعامرة واليمنيون وظلوا يلاحقونهم حتى سعير · تكبد القيسيون خسائر جسيمة حتى انهم لم يتورعوا عن شن حرب جديدة على التعامرة · ولكنهم ، في تقهقرهم ، هاجموا التعامرة الذين بقوا في الخربة مع ماشيتهم ــ اي عائلة العبيات ــ فقتلوا معظم افرادها ، ولم يبق منها الا القليل القليل » ·

[ توطيد علاقات الصداقة بين التعامرة ومسيحيي بيت لحم ]

كان في بيت لحم قبيلة من المسلمين تدعى : الخمس · وقد اطلق عليها هذا الاسم لانها تنحدر من خمسة اخوة قصدوا بيت لحم من السويداء في جبل الدروز · سكنوا الدير اليوناني بوصفهم عمالا · تكاثرت سلالتهم في بيت لحم · وقضت العادة بان يقدم لهم بطريرك الدير اليوناني ، يوم عيد الميلاد ، مبلغا من المال بمثابة هدية العيد ومساعدة في آن واحد · ومع الوقت ، اعتبر الخمس هذه الهدية ، خوة المسيحيين لهم · وفي عيد ميلاد عام ١١٥١ هـ· (١٧٣٨م) ارسل البطرك كالمعتاد ، قفة مليئة بالريالات الفضية لرئيسهم المدعو الديري الساكن في الدير الارمني ، من اجل ان يوزعها على افراد قبيلته · ولكن الديري ، بدافع من التكبر والوقاحة ، ضرب القفة برجله وتبعثرت الريالات · وكان قواس السفير الروسي بصحبة حامل الهدية ، فأخبر معلمه بما حصل حال رجوعه · فغضب السفير الروسي بشكل حاد وطلب من البطرك التوقف عن هذه العادة · وهكذا كان · لذلك ، ومنذ هذا التاريخ ، اخذ الخمس يعتدون على اراضي ومواشي وممتلكات مسيحيي بيت لحم · فاجتمعت عائلات بيت لحم وقررت القضاء على الخمس وابعادهم عن المدينة · فقتلوا رئيسهم واعدموا معظمهم · وانتقل ما تبقى منهم الى بيت فجار واتخذوه منطلقا لغزواتهم على بيت لحم · امام هذا الواقع ، اتفق اهالي بيت لحم مع رؤساء التعامرة للقضاء على الغزاة وصد هجماتهم المتتالية · وهكذا كان · فتوقفت الاضطرابات التي كانوا يسببونها نهائيا · وفي المقابل . اعطيت املاك الخمس للتعامرة ·

« منذ ذلك الحين ، ووجهاء التعامرة يمتطون افراسهم ويصحبون مسيحيي بيت لحم لمقابلة بطريرك الدير اليوناني ومواكبته حتى دير مار الياس على طريق القدس · وقد تمتنت روابط الاخوة والصداقة بين الفريقين حتى ايامنا هذه » ·

[ طريقة الحياة واللبس وطريقة الطحن ]

« ترتدي النساء ملابس سوداء مصنوعة في الشام · اما احذية الرجال ، فهي من جلد الجمل · وينسجون عباءاتهم بايديهم من اصواف قطعانهم · بعضهم كان يضع العمامة على رأسه والبعض الاخر يرتدي الحطة والعقال · ومع الزمن ، اهملت العمامة وعمم ارتداء الحطة · والجميع يستخدم الحطة اليوم ·

اما بما يختص بطريقة الطحن ، فكانوا في الاصل يسحقون القمح والشعير على قطع من الصخر ، ثم استخدموا مطاحن من الحجارة يديرونها بانفسهم · فيما بعد ، ومع اقترابهم من المدن ، اكتشفوا الطواحين الحجرية التي تديرها الحمير او البغال ، ونجد هذا النمط حتى الان ·

« يأتون بالملح الضروري لاستهلاكهم ويتاجرون به في المدن · يأتون به من بركة الخليل ابو ابراهيم · ويقال ان الله بارك هذه البركة الواقعة قرب البحر الميت · في الشتاء ، يعلو مستوى البحر الميت فيملؤها ، وفي الصيف ، تجف المياه وتتحول الى ملح · فينقلون هذا الملح الى الاردن ، الى جبل عجلون وقراه ويقايضونه بالقمح · ينقلونه ايضا الى مرج ابن عامر في الناصرة وقراها · عندما علم بدو المنطقة الجنوبية ( بدو التجاهة والقديرات ) وبنو عتيج في الاردن بمرور قوافل التعامرة المحملة بالملح ، اخذوا يهاجمونها · كان الفريقان يتبادلان الهجوم ويبقى العديد من القتلى في ساحة المعركة ، وكانت الاسلحة المستعملة في تلك الايام هي البنادق التي تقذف الحجارة ، والمسدس النداف الذي يعتمد على حجر الصوان للاشعال بدل الكبسولة ·

« هذا ما حصل تحت الحكم التركي » ·

**II – شجرة النسب للسكان والعائلات المختلفة**

يحمل اسم التعامرة العائلات الست التي كانت تسكن بيت تعامر ، الى جانب العائلات السبع الاخرى المنحدرة من بني حارث والتي انضمت الى السكان الاوائل ·

١ ـ **احمد** · احمد ولد علي · علي ولد محمد · محمد ولد سليم · سليم ولد خمسة ابناء : سليمان ، محمد ، سلامة ، سويلم وصباح · هؤلاء هم ابناء احد الرجال السبعة · ثم اسس كل من الابناء الخمسة قبيلته · بعضهم استقر على اراضي التقوع وخريطون وجنوبي بيت تعامر ، والبعض الاخر استقر في نفس بيت لحم ·

سليمان ، ابن سليم ولد ثلاثة ابناء · احدهم مغنم الذي شنق في عكا تحت الحكم التركي اثر مقتل ممثل الحكومة العثمانية على طريق قريبة من عين حمده في وادي الغول (١٣) · فالقي القبض على مغنم وصافي مصطفى الذير بصفتهما وجهاء عشيرتهما · وحكم عليهما بالاعدام شنقا · دفنا في عكا ولا تزال مقبرتهما مشهورة حتى اليوم · ولم ينقل جثمانهما الى بيت تعامر بسبب طول الطريق ووعورته ·

مغنم ولد غنائم · غنائم ولد مغنم · مغنم ولد سليم · سليم ولد مغنم · « تنمو كل هذه السلالة من احد مؤسسي العائلات السبع » ·

٢ـ **صلاح الدين** · صلاح الدين ولد عبد النبي · عبد النبي ولد محمد ومسلم وسلامة ومغنم وعبد الرحمن · **هؤلاء** هم سلالة عبد النبي · اسس كل منهم قبيلته · يسكنون خربة ابو نجيم جنوبي بيت لحم وايضا وادي خريطون · ويعيشون في الوقت الحاضر تارة تحت الخيم ، طورا في البيوت المبنية من الحجارة ·

٣ ـ **عسكر** · عسكر ولد محمد · محمد ولد ثلاثة ابناء : عيسى ، عوضلله ومعطي · معطي ولد اربعة ابناء من بينهم عوضلله · عوضلله ولد معطي · معطي ولد سعيد · سعيد ولد محمد·ويسكن جب من الـعيسى حالياـفي الاردن·· (١٤) تسكن جنوبي بيت تعامر·كانوا يعيشون في الخيام ، ولكن منذ عام ١٩٤١ م ، بدأوا يسكنون في بيوت من حجارة · وتدعى قريتهم اليوم فرحات وام النتشة · اسم القبيلة العساكرة ويبلغ عددها ٣٤٢ شخصا يسكن بعضهم في بيت لحم والبعض الاخر في اميركا ـ اي بلاد المهجر ·

٤ ـ **حسين** · حسين ولد ستة ابناء : محمد ، سلطان ، حمدان ، ابو غلفيف ، صبح ومحسن · احدهم ، محمد ، ولد عبد الهادي · عبد الهادي ولد عبد المحسن وهو شيخ عشيرة العبيات التي تسكن الان الخيام في وادي عبيان ووادي حساسة · يجاورهم من الناحية الجنوبية ، عرب رشايدة والقيسين ، اي سكان قرية سعير · بعضهم يسكن بيت لحم وهم متملكون فيها ·

٥ ـ **محارب** · محارب ولد سلمان ، حمدان وابراهيم · سلمان ولد حمدان · حمدان ولد سلمان · سلمان ولد سليم · وسليم الوحش هو حاليا شيخ عشيرته وكل ما يتعلق بها · يقيم افراد هذه العشيرة حاليا على اراضي بيت تعامر في بيوت من الحجارة او في الخيام ، وبعضهم يسكن بيت لحم ·

لقب الشيخ سليم بالوحش كنية لجده حمدان الذي كان مولعا بصيد الوحوش ، يطاردها حتى عرينها · لذا لقب بالوحش ولا يزال هذا اللقب ساريا على سلالته حتى اليوم ·

٦ ـ **سليم** · سليم ولد حمدان · حمدان ولد اسماعيل · اسماعيل ولد سليمان · سليمان ولد سلامة وهو اليوم رئيس عشيرته ، عشيرة الشواورة · وهو احد اعضاء وفد الوجهاء الذي يذهب لملاقاة البطريرك ويتمتع بالتالي باعتبار خاص ·

تقيم هذه العشيرة حاليا في وادي التعامرة وام الطلعة ، جنوبي دير ابن عبيد ، شرقي بيت ساحور ، جنوبي صور باهر · وهناك البعض من افرادها في بيت لحم وبيت ساحور وفي الكرك في الاردن ·

٧ ـ **عبد الرحمن** · عبد الرحمن ولد التنح · التنح ولد ثلاثة ابناء · محمد ، حمد والزير · الزير ولد مصطفى · مصطفى ولد صافي الذي شنق في عكا مع مغنم ، انتقاما لقتل جابي ضرائب للادارة العثمانية ·

صافي ولد محمد · محمد ولد حسن · وحسن هو شيخ العشيرة المعروفة باسم الحجاحجة · وقد لقبت بهذا الاسم لشهرة وجهائها فياتخاذ القرارات القانونية وامعانهم في قوانين القبيلة وقوة حججهم · فكان لها هذا اللقب ·

وحسن هذا ، هو شيخ العشيرة التي كان الاخوة الثلاثة ، احمد وصلاح الدين وعسكر ، من اسلافها · اجتمع الاخوة الثلاثة في الماضي واقاموا سويا مع عائلاتهم ودافعوا عن انفسهم ضد الاعداء · ظلت مجموعتهم متحدة وسادالوفاق والمودة · اختاروا شيخا يمثلهم جميعا ويحكم بالعدل في خلافاتهم · عينوا الزير لهذه المهمة · ويتمتع الزير بهيبة خاصة لانه عضو في وفد وجهاء التعامرة الذي يذهب لملاقاة البطاركة · وقد اشتهر بعدل احكامه مما جعل الوفود تتدفق اليه من كل مكان · وصل مرتبة الشيخ نظرا لقوة عشيرته والوفاق السائد بين ابنائها · وقد لقب باسم الزير ·

يسكن حاليا ابناء هذه المجموعة في بيوت من حجر بدل الخيام ، في اول وادي خريطون ويدعى ايضا خربة حرملة وعين حمدة · بعضهم يسكن في الدويحة ، شرقي كهف ام قطافه والبعض الاخر يسكن بيت لحم · ويشتهر كهف ام قطافة بالاثارات القديمة جدا التي يحتويها وهي من حجر الصوان ·

ولنعد الان الى العائلات الستة التي كانت تقيم في بيت تعامر قبل أن يقدم اليه بنو حارث الذين ينحدر منهم التعامرة الحاليون · ونذكر :

١ ـ **عمر** · عمر ولد عمرو · عمرو ولد محمد · محمد ولد رزق وعمرو · عمرو ولد رزق · رزق ولد ديب · ديب ولد ابراهيم المقيم على اراضي خربة بيت تعامر ·

٢ ـ **محمد** · محمد عطا الله ولد محمد · محمد ولد عوضلله · عوضلله ولد محمد · ويقيمون حاليا في بيوت من حجر في حرملة ·

٣ ـ **ابو هنية** · ابو هنية ولد خليل · خليل ولد ابرهيم ولد علي · علي ولد خليل · خليل ولد خميس · يقيم البعض في مأدبة ما وراء نهر الاردن ، والبعض الاخر يسكن بيت لحم ·

٤ ـ **ابو الحور** · ابو الحور ولد عزة · عزة ولد موسى · موسى ولد علي · علي ولد حمدان · حمدان ولد عودة · يقيمون في بيت لحم وبعضهم يعيش مع التعامرة ·

٥ ـ **ابو فريجة** · ابو فريجة ولد ابراهيم · ابراهيم ولد خليل · خليل ولد موسى ·

موسى ولد ثلاثة ابناء : خليل ، محمد وابراهيم · ابراهيم ولد خليل · خليل ولد عوض · عوض ولد محمود · يقيم بعضهم في بيت لحم والاردن · عددهم قليل جدا ·

٦ ـ **شمس الدين** · شمس الدين ولد يوسف · يوسف ولد محمد · محمد ولد سليمان· سليمان ولد يوسف ، انقرض هذا الجب ، لم يبق منه احد ·

اما العائلات الخمس الباقية · فقد اندمجت مع عشائر التعامرة المنحدرة من بنـــي حارث · وكل منها يرجع اصله الى العشيرة التي انضم اليها ·

ونرى ان مجموع التعامرة الحوارث ، انقسم الى ثلاث مجموعات عرفت بالاســماء التالية : الشواورة ومن ارتبط بهم ، الحجاجحة ، المحاربة واتباعهم ·

هذه هي النتيجة التي توصلنا اليها باذن الله · وقد تمكنا من معرفة كافية لشجرة نسب التعامرة خلفاء بني حارث وغيرهم ، اي العائلات الثلاث عشرة التي استقرت في فلسطين ومناطق اخرى ·

[ اسباب تحالف الاجبة وانقسامها الى ثلاث قبائل ]

كما سبق وذكرنا ، اصطدم التعامرة بالقيسيين في معارك عديدة · وكان النصر حليفهم بينما تبعثر القيسيون وضعفت قواهم · ولكن القيسيين ظلوا يضمرون الشر للتعامرة فـي اعماقهم · فادخلوا تعديلا على طريقة مواجهتهم ·· وكانت الخطة الجديدة هي بث روح التفرقة واثارة الكره المتبادل في صفوف التعامرة · نجحوا في ذلك · وانتشرت هــــذه الروحية بحيث اخذ التعامرة يغزون بعضهم البعض · ومع ازدياد الخلاف عنفا ، انشقوا الى حزبين : الحزب الجنوبي والحزب الشمالي · كان الحجاجحة والعبيات والمحاربة من الحزب الجنوبي بينما شكل الشواورة والمساعدة والكسابة ، الحزب الشمالي ·

التقى الجيشان على اراضي مزيويس قرب جبل مزيويس ، شرقي بيت تعامر · واستخدم السيف والرمح والبنادق التي تقذف الحجارة ـ اي اسلحة ابراهيم باشا المصري ـ والزرد والهراوة والمقلاع · وكانوا يمتطون الافراس ·

واصطحبت النسوة الرجال الى ساحة المعركة وساعدتهم ، تبعا للتقاليد القديمة · في تامين حجارة المقالع والمياه · وشجعتهم بالاغاني والزغاريد ·

وفي اوج المعركة ، تقدم الشماليون وصعدوا على قمة جبل مزيويس بغية الاستيلاء على الاراضي المجاورة وتحدي الحزب الجنوبي · فوقف الجنوبيون فـورا في مواجهـــة الخصم وبدأت المعركة · تغلب الحزب الجنوبي على الشماليين واجبرهم على التقهقـــــر وبات يطاردهم حتى مشارف دير ابن عبيد ·

اعترف الشماليون بالهزيمة على يد الجنوبيين ، وناشدوا اليمنيين الموجودين في الجوار لمساعدتهم · عندها تدخل الحزب اليمني والسلطة التركية وفرضوا على المتخاصمين هدنة توصلوا خلالها الى النتيجة التالية : يعود كل حزب او عشيرة الى حيث كان يقطن وكـأن شيئا لم يكن · وصالحوهم واصلحوهم وفرقوا بني تعمر الى ثلاث قبائل ، تماما كما هــم الان · وجزأوا اراضي التعامرة ، اساس الخلافات ، الى ثلاثة اقسام وزعت نسبة لعــدد رجال كل قبيلة · واذا مات احدهم لا وريث له ، مات معه الحق في هذه الحصة من الارض · اما في حال وجود ورثة ذكور ،فتصبح الارض ملكا للورثة ويدعون باسم المعاديد·

وحدد العثمانيون هذه الاراضي وفرضوا الضرائب عليها · وبقي هذا القانون ســــاري المفعول في صفوف التعامرة حتى نهاية عام ١٩٣٧ م ، حين الغاه الانتداب البريطاني ووزع الارض ع'ى عدد الاشخاص واخضعها للقوانين المتعلقة بالملكية العقارية ، على غرار باقي اراضي فلسطين ·

**حيث يدفنون موتاهم**

كان التعامرة جميعا يدفنون موتاهم في المدفن المجاور لجبانة راحيل (١٥) شمالي بيت لحم ، على طريق القدس · عندما كثرت سلتهم وازداد عددهم ، تنوعت مقابرهم · فأخــذ ثلثهم ـ ومن بينهم الحجاجحة ـ يدفن موتاه في وادي معلق ، في المكان الذي يدعى اليــوم قبور الدواعدة (١٦) · ومنذ فترة وجيزة ، انتقلوا الى بيت تعامر ، بالقرب من مسجد عمر ابن الخطاب ·

اما الثلث الثاني ، المحاربة · فيدفن موتاه في خربة بيت تعامر ، في معصرة (١٧) وفي وادي عبيان ·

والشواورة ، الثلث الاخير ، يدفنون موتاهم في الشيخ غنام قرب ام الطلعة ، جنوبــي دير ابن عبيد · وبعضهم يقبر موتاه على اراضي حجار العصبح ((١٨) وبيت تعامر ·

جميع التعامرة المقيمين في بيت لحم حاليا ، يقبرون موتاهم في مدفن جبانة راحيل ·

يقع ضريح الحاج محمد الزير بالقرب من مسجد عمر بن الخطاب في بيت تعامر ·

ومن التعامرة الذين اعلنوا الجهاد منذ فترة قصيرة ، على الحكومة البريطانية في سبيل فلسطين ، يجب ان نشير في اول الامر الى احمد السالم من عشيرة المحاربة · فقد ترأس مجموعة من المتطوعين التعامرة وقاوم الحكومة البريطانية ووقف عائقا امام جميــــــع مشاريعها في مقاطعة بيت لحم ·

ثم عين فخامة الحاج امين افندي الحسيني ، مفتي القدس والقائد الاعلى ، عين عيسى حسين ابو قدوم الذي قام باعمال خارقة تستحق العرفان والتي ضاعفت نشاط التعامــرة الملتزمين في الجهاد · استشهد في معركة بني نعيم التي اشترك بها الطيران وقوات البــر البريطانية · وقد ووري الثرى في وادي عبيان · حصل ذلك عام ١٩٣٧ م ·

**III ـ الاحصاء العام للتعامرة مع اسم الوجهاء · عام ١٩٤٨م·**

| الاسم | العدد | العشيرة |
|---|---|---|
| الحاج حسن محمد الزير | ١٩٤٣ | حجاحجة |
| سليم الوحش واتباعه | ١٢٦٦ | محاربة |
| سلامة سليمان الحمدان | ١٢٤٤ | شواورة |
| ابرهيم الدرعاوي | ٢٠٢ | شواورة |
| عبد المحسن ابو ديه | ١٠٥٠ | محاربة |
| نمر العودة | ٩٦ | محاربة |
| عويدة العرجا | ٨١ | حجاحجة |

| | | |
|---|---|---|
| محمد ابو عمرية | ١٢٥٥ | شواورة |
| حسين حمدان الوحش | ٣١٣ | محاربة |
| محمود مسلم البريفية | ١٦٥ | محاربة |
| التعامرة المقيمون في بيت لحم | | |
| من مختلف العشائر | ٧٣٦ | |
| مجموع عدد الاشخاص | ٨٣٥١ | |

| | |
|---|---|
| الثلث الاول : سليم الوحش : محاربة | ٢٨٩٠ |
| الثلث الثاني : حسن الزير : حجاجة | ٢٠٢٤ |
| الثلث الثالث : سليمان اسماعيل : شواورة | ٢٧٠١ |
| المقيمون في بيت لحم | ٧٣٦ |
| المجموع | ٨٣٥١ |

القدس ·

ب· كورويبه

نقلت النص عن الفرنسية

جاكلين فرهود

## الحواشي :

١ ـ يستخدم الراوي تسمية العشيرة احيانا وتسمية القبيلة احيانا اخرى ·

٢ ـ **مدن صالح** ، او مدائن النبي صالح ، لا تزال اثارها فيمنطقة الهجر التي تقع على خط السكة الحديدية ، دمشق ـ المدينة المنورة· كان يسكنها الثموديون، الذين بعث الله اليهم النبي صالح كي يدخلوا في الاسلام · ·وعندما لم يستجيبوا لاوامر النبي ، حل بهم زلزال ابادهم · وفي سنة ٩هـ· ( ٦٣٠م) رفض الرسول السماح لرجاله ، وهو في طريقه الى بلاد الشام ، بالاقتراب من هذا المكان والشرب من ينابيعه ·

٣ ـ **معان** : احدى محطات القطار ، على خط دمشق ـ المدينة المنورة · مركز اداري وتجاري للمنطقة ·

٤ ـ **وادي موسى** : الاسم الحديث للبتراء ، عاصمة الانباط ·

٥ ـ بيت عامر او بيت تعامر او بيتعامر كما وردت في نصوص اخرى ·

٦ ـ اي ١٥٧٢ ميلادية ·

٧ ـ يعود هذا الاسم الى القديس شاريتون الذي اسس مسجدا في هذا المكان عام ٣٤٥ او ٣٥٠ تقريبا ·

٨ ـ **وعر خريطون** يعلو ٩٠٠ متر عن الوادي ، يقع شمالي غربي خربة خريطون·

٩ ـ **السواد** هي القطعة الخشبية التي يستعملها الراعي لاغلاق الكهف منعـــا لخروج الخرفان ٠

١٠ ـ لا يوجد معلومات حول كيفية انتشار الصراع يمني/قيسي في فلسطين او كيفية انضواء البدو والحضر فيها لاحد الحزبين ٠ يمكننا فقط تسجيل الانقسام الواقع دون الدخول في التفاصيل٠ فالعائلة قيسية او يمنية ٠ لماذا ؟ نســـي الناس السبب ٠ هذا لو علموا به يوما ' فجبال الخليل قيسية وجبال نابلس يمنية ٠ ولا بد ان هذه الانتماءات تلعب دورا هاما في النفور المتبادل بين هذين المركزين الدينيين٠ اما بيت لحم . فينتمي اكثرية سكانها الى الحزب اليمني بينما ينتمي اهالي بيت جالة الى الحزب القيسي ٠ في المدن مثل القدس يتعايش الحزبان ٠ ال خالدي على رأس الحزب القيسي وال حسيني علـــى رأس الحزب اليمني ، في الوقت الحاضر . لا تنشب اشتباكات تذكر بين الحزبين٠ ولكن، وحتى فترة قصيرة ، كان لا يزال واجبا على العروس المتوجهة نحو دار عريسها ان تبدل منديلها الاحمر ( العلم القيسي ) بمنديل ابيض ( العلم اليمني ) اذا مرت في منطقة مؤيدة للحزب اليمني . والعكس بالعكس . والا نشبت معركة ٠

١١ ـ وادي البقيعة ، ويعرف ايضـا بـ ( دورا ) ينبثق من جبل طمون الـــى الشمال الشرقي من مدينة نابلس ٠ ثــم يسير باتجاه جنوبي شرقي الى ان ينتهي في الضفة الغربية من نهر الاردن ٠ حيث يعرف بوادي ابو سدرة (خمار ق، موسوعة فلسطين الجغرافية ، مركز الابحاث ) ٠

١٢ ـ نسبة الى عرب ابن عبيد المنتشرين

غربي مار سابا حتى البحر الميت مرورا بالبقيعة ٠

١٣ ـ **وادي الغول** هو الوادي نفسه الذي يقع قرب خربة خريطون والـــذي سيدعى باسم وادي خريطون فيما بعد ٠

١٤ ـ هناك نقص في النص الاصلي ٠

١٥ ـ وهي القبة الاسلامية التي تبعـد ٧٥ كلم عن القدس ، حيث شيدت المقبرة التذكارية لزوجة يعقوب المفضلة ٠

١٦ ـ تحدد جميع الخرائط ، مواقع قبور الدواعدة في وادي عليا وليس في وادي معلق الواقع في الجنوب ٠ اما مقبرة وادي معلق فتدعى : مقبرة الغنامة ٠

١٧ ـ جنوبي غربي ابو نجم ٠

١٨ ـ منطقة مجاورة للبحر الميت ، ولكنها بعيدة جدا عن مناطق تواجـــد التعامرة ولا يشار في الخرائط المفصلة الى وجود اي مدفن فيها ٠

# تقارير

## الاحصاء الفلسطيني وآفاقه

ترتبط التنمية الاقتصادية وقضايا التخطيط الاجتماعي المبرمج بمدى دقة الاحصاءات والمعلومات والبيانات المتوفرة · ان المعرفة العلمية بالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والتربوية تمكن من تعبئة طاقات المجتمع الراهنة والتخطيط للمستقبل ·

ومن المعروف انه ، بعد نكبة ١٩٤٨ ، برز قصور حاد في المعلومات الديمغرافية والاحصائية المتعلقة بالشعب الفلسطيني · فالاردن لا يميز في الاحصاءات الرسمية بين الفلسطيني والاردني ، ولبنان لا يجري اي احصاء لسكانه وللمقيمين ، بالتالي ، على أرضه · أما بعض الدول العربية اخرى ، فانها لا تولي الاحصاء الاهمية التي يستحقها · وارقام وكالة الغوث الدولية بصدد الفلسطينيين تفتقد الى كثير من الدقة ، لا سيما لجهة المعلومات الديمغرافية ·

ان التناقض قائم في معلومات المعنيين بشؤون الفلسطينيين حول اعداد المعتقلين من الفلسطينيين وحجم توزيعهم في البلاد العربية والاجنبية · وتلعب الاهداف السياسية دورها في هذا المجال ·

وعليه ، تنبع الحاجة الماسة الى مبادرة الفلسطينيين بقيادة م·ت·ف· للتوجه والمساهمة في حل مشاكل الاحصاء الفلسطيني ·

### اهم العقبات التي تواجه الاحصاء الفلسطيني :

نحن نواجه ثلاث مستويات من الصعوبات في اعداد احصاء فلسطيني وخاصة في اعداد مسح شامل للفلسطينيين : الاول ، اننا نشارك البلدان النامية صعوباتها العامة · والثاني ، اننا نشارك البلدان المضيفة للفلسطينيين الصعوبات الخاصة بكل منها لاننا لا بد من ان نحصى ضمن احصائها · والثالث، الصعوبات الخاصة بوضع الشتات الفلسطيني ونخص بالذكر منها ما يلي :

١ ـ رفض سلطات العدو الاسرائيلي السماح لاية هيئة دولية محايدة اجراء احصاء للفلسطينيين المقتلعين من محيطهم الطبيعي داخل وطنهم ، الرازحين تحت حكم الاحتلال الصهيوني منذ العام ١٩٤٨ وحتى الان · الامر الذي يفرض علينا الاعتماد

ولو بتحفظ على احصاءات تلك السلطات، وهذا يحرم منظمة التحرير الفلسطينية من تحقيق الاهداف المنشودة من الاحصاء وذلك لتحكم العدو بالاستمارة وبما يستخرج منها من معلومات ٠

٢ ـ هناك صعوبة او شبه استحالة في مقارنة بعض الارقام الموجودة بين الدول المختلفة نظرا لاختلاف المفاهيم ودرجة الدقه واختلاف المصادر التي تلجأ اليها الاجهزة الاحصائية في الدول المختلفة ، وخاصة تلك الدول الحديثة العهد بالتعدادات ٠

٣ ـ توقيت تنفيذ مسح شامل للفلسطينيين يختلف من دولة الى اخرى في العالم ٠ فقد يتلاءم تنفيذه في بعض الدول مع برامج مقررات او بحوث تجريها هذه الدول ٠ وقد لا يتلاءم تنفيذه في بعض الدول الاخرى مع برامجها وبحوثها ٠

٤ ـ الاسباب السياسية التي تجعل بعض الحكومات تمانع في اجراء مسح شامل للفلسطينيين عندها واحيانا اخرى تتحكم في نوعية المعلومات التي يمكن جمعها ٠

٥ ـ اسباب قانونية ، ففي بعض الاقطار لا تساعد القوانين المرعية الاجراء على التمييز بين المواطن الاصيل وبين الفلسطيني المتجنس بجنسيتها ٠

٦ ـ الانتشار الجغرافي الواسع للفلسطينيين في العالم ٠

٧ ـ عدم وجود جهاز فلسطيني مركزي قادر على توفير البيانات الاحصائية بالصورة المطلوبة ٠

٨ ـ قلة الكوادر الاحصائية الفلسطينية المؤهلة واستمرار تسرب الموجود منها الى خارج العمل الاحصائي او الى خارج الوطن العربي او الى اجهزة الاحصاء العربية ٠

٩ ـ محدودية التعاون والتنسيق بين النويات الاحصائية الفلسطينية المختلفة وغيرها من الاجهزة العربية والدولية فيما يتعلق بمستلزمات العمل الاحصائي ونتائجه ٠

١٠ ـ نظرة الريب والقلق عند الفلسطينيين تجاه عمليات الاحصاء لارتباطها تاريخيا بمشاريع مشبوهة مضادة لمصالحهم سياسيا كمشاريع التوطين مثلا ٠

**هيئة مركزية للاحصاء :**

لا شك بأن هناك عقبات لا يمكن تلافيها قبل تحرير فلسطين وعودة الفلسطينيين الى وطنهم واقامة دولتهم الديمقراطية ٠ لذا ، ضمن الظروف الراهنة ونظرا لبعض الصعوبات ومراعاة للواقعية والبساطة ، نرى ضرورة اتخاذ الترتيبات المبكرة والملائمة لضمان تأسيس جهاز مركزي للاحصاء الفلسطيني وفقا للموارد البشرية الفلسطينية المتوفرة على غرار مركزي الابحاث والتخطيط التابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية ، خاصة بعد ان تطورت العملية الاحصائية الى عملية معقدة تتطلب التعاون الوثيق بين مجموعة متنوعة واسعة من الاخصائيين في مجالات مختلفة ٠ ونتوقع من جهاز احصائي فلسطيني مركزي جيد التأسيس ان ينظم الاشتراك الفعال لاختصاصات متعددة تحت سقف واحد ٠ وهي عملية شاقة تحتاج لوقت وجهد كبيرين الى ان تتسع النواة وتأخذ ابعادها الكاملة والمتواصلة وفقا لاحتياجات فلسطين ثورة وكيانا ومجتمعا ٠ وادراكا منا للمشاكل المتصلة بالواقع الراهن وتلبية للاحتياجات المرحلية والمستقبلية نقترح كقواسم مشتركة للمشاكل واحتياجات التأسيس والطموحات المستقبلية وأفضليات منظمة التحرير الفلسطينية ، المراحل التالية لتأسيس هذا

الجهاز الاحصائي نوفق من خلالها بين هذه القواسم :

**المرحلة الاولى :**

· تاسيس هذه النواة المركزية والحاقها منذ البدء برئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية على ان تكون مستقلة عن غيرها من المؤسسات الملحقة برئيس اللجنة التنفيذية لتتمكن من النمو المستقل والقوي المستمر باتجاه تلبية الاحتياجات المستقبلية بكفاءة عالية · وتكون مهمة هذه النواة في هذه المرحلة مهمة مكتبية تتلخص كالتالي :

١ ـ تجميع البيانات والابحاث والدراسات الاحصائية المتوفرة والتي لها علاقة بالفلسطينيين سواء قبل النكبة او بعدها ·

٢ ـ تقييم هذه البيانات وتصويبها ثم تحليلها ·

**المرحلة الثانية :**

على ضوء نتائج المرحلة الاولى نقترح تحديد مهمات المرحلة الثانية بالتالي :

١ ـ زيادة مجالات التعاون والتنسيق بين الاجهزة الفلسطينية الموجودة والمعنية بالاحصاء الفلسطيني تلافيا للازدواجية ·

٢ ـ التعاون مع المؤسسات العربية والدولية المعنية بالاحصاء من اجل التنسيق الزمني معها وتبادل المعلومات والبيانات والدراسات الاحصائية عن الفلسطينيين · وخاصة فيما يتعلق بالاشراف على احصاء الفلسطينيين في العالم الذي ستنفذه اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا ·

٣ ـ اعداد برنامج متعدد المراحل من اجل الاستفادة من الخبرات العربية والدولية في تدريب كوادر احصائية ذات مستوى عال ومتوسط في كل المجالات الاحصائية ·

٤ ـ حصر الكفاءات الاحصائية الفلسطينية والعمل على امتصاصها في هذا الجهاز المقترح ·

٥ ـ توفير المساعدات المادية والفنية من اجل تنفيذ المرحلة الثالثة ·

**المرحلة الثالثة :**

١ ـ تدريب اكبر عدد ممكن من كوادر المؤسسات الفلسطينية المختلفة احصائيا في المؤسسات العربية والدولية ·

٢ ـ تنفيذ بعض المشروعات الاحصائية الميدانية المتخصصة ·

٣ ـ نشر الوعي الاحصائي بين الفلسطينيين ·

٤ ـ التحضير الاحصائي لمرحلة ما بعد التحرير ·

**المرحلة الرابعة :**

وفي هذه المرحلة تكون النواة قد اكتست بالمعالم المحددة لها ونضجت كهيئة مستقلة تتولى استخراج انماط مختلفة من الاحصاءات المختلفة واللازمة لبناء وطن حر مستقل متطور ·

**الهيكل التنظيمي للجهاز المقترح :**

ان المحصلة الواقعية والمحتملة للظروف الحالية للفلسطينيين تفرض علينا اقتراح الهيكل التنظيمي التالي كخطوط عامة لجهاز الاحصاء الفلسطيني المقترح :

١ ـ مجلس امناء مختلط من اخصائيين وسياسيين يعينهم رئيس منظمة التحرير الفلسطينية تكون مهمته وضع السياسة العامة وتحديد الاولويات في برامج جهاز

الاحصاء ويكون مدير الجهاز عضوا اصيلا في هذا المجلس ٠

٢ ـ مدير عام للمركز يكون مسؤولا عن اعداد البرامج التفصيلية بما يتفق وتوجيهات مجلس الامناء ويكون مسؤولا مسؤولية مباشرة امام رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠ وقيادة دفة العمل التنفيذي اليومي للجهاز من خلال الاقسام التالية :

أ ) قسم الاحصاءات السكانية ٠

ب ) قسم الاحصاءات الاجتماعية ٠

ج ) قسم الاحصاءات الاقتصادية ٠

د ) قسم الشؤون الادارية والمالية ٠

هـ ) قسم التدريب واعداد الكوادر ٠

**جهات التمويل من اجل التاسيس :**

بالفعل هناك اكثر من جهة عربية ودولية رسمية بامكانها تقديم معونات فنية ومالية وبشرية وقد سبق لبعضها ان التزم رسميا بتقديم معونات من اجل تأسيس وتطوير جهاز مركزي للاحصاء الفلسطيني ٠ ولعل ابرز هذه الجهات المعنية ما يلي : ـ

١ ـ مجلس الوحدة الاقتصادية العربية وقد سبق ان أقر ما مجموعه ١٧٥٫٠٠٠ دولار من ميزانيته من اجل تحقيق هذا الغرض ٠

٢ ـ ادارة الاحصاء في الامانة العامة لجامعة الدول العربية ٠

٣ ـ المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم ( اليونسكو ) ٠

٤ ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ٠

٥ ـ اللجنة الاقتصادية لدول غرب أسيا ( الاكوا ) ٠

٦ ـ الصندوق الخاص للانشطة السكانية التابع للامم المتحدة ٠

٧ ـ الحكومات العربية ٠

٨ ـ المركز الديمغرافي لشمال افريقيا في القاهرة ٠

٩ ـ معهد الدراسات والبحوث الاحصائية بالقاهرة ٠

١٠ ـ المركز العربي للتدريب والبحوث الاحصائية في بغداد ٠

١١ ـ المعهد العربي للتخطيط في الكويت ٠

**مصادر الاحصاءات المتوفرة عن الفلسطينيين :**

أ ) مرحلة ما قبل الاحتلال ١٩٤٨ :

١ ـ تعداد ٢٣ـ١٠ـ١٩٢٢ الذي اجرته سلطات الانتداب البريطاني اثر احتلالها لفلسطين ٠ وهو اول تعداد جرى في فلسطين بحدودها السياسية المعروفة ولم تكن نتائجه مرضية لعدم تجاوب الاهلين ٠

٢ ـ تعداد ١٨ـ١١ـ١٩٣١ وقد اجرته سلطات الانتداب البريطاني وهو اكثر دقة من الاحصاء السابق ٠

٣ ـ احصاء السجل المدني على الرغم من صدور تشريعات السجل المدني في فلسطين منذ عام ١٩٢٠ نجد قصورا في تسجيل واقعات الولادة والوفيات كما هي الحال في معظم الدول النامية ٠

٤ ـ تعداد البدو في عام ١٩٣١ وعام ١٩٤٦ وقد اقتصر على بدو صحراء النقب فقط ٠ وكان تحقيقا بالعينة لدراسة بعض الخصائص الديمغرافية للبدو ٠

٥ ـ كتاب سعيد حمادة ( محررا ) ، النظام الاقتصادي في فلسطين والصادر عن الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٣٩ ٠

**ب ) مرحلة ما بعد الاحتلال ١٩٤٨ :**

لا توجد تعدادات شاملة دقيقة عن الفلسطينيين في الشتات ، ولكن هناك تحقيقات احصائية بالعينة خاصة ببعض جوانب حياة الفلسطينيين هنا او هناك ، وثمة بعض التقديرات والافتراضات التي تظهر على صفحات الكتب والمطبوعات دون ان يصحبها عرض كاف للطرق المستخدمة في الوصول اليها · فحسب المعلومات المتوفرة لدينا ، فان احصاءات جمعية الصليب الاحمر الدولي التي تمت في اول ايار ١٩٥٠ هيَ اول احصاءات عن اللاجئين الفلسطينيين · الى جانب ذلك ، هناك بعض المعلومات الاحصائية العامة والمتفاوتة والتي ترد فيكتب الاحصاءات الرسمية الصادرة عن الدول التي يقيم فيها الفلسطينيون حاليا · ولعل ابرز هذه المصادر الحكومية والدولية ما يلي :

١ ـ التقرير السنوي لمدير وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين ابتداء من عام ١٩٥١ ·

٢ ـ الاحصاء السنوي لدائرة التعليم في الاونروا ابتداء من عام ١٩٦٣ ·

٣ ـ التقرير السنوي لدائرة الصحة في الاونروا ابتداء من عام ١٩٦٤ ·

٤ ـ احصاءات شاملة وخاصة منها ما هو معلن ومنها ما هو مكتوم قامت به الاونروا ابتداء من عام ١٩٥١ ·

٥ ـ احصاءات الحكومة الاردنية عام ١٩٥٠ ·

٦ ـ التقرير السنوي للحاكم العام لقطاع غزة ·

٧ ـ احصاءات الحكومة السورية منذ عام ١٩٦٠ ·

٨ ـ احصاءات الحكومة الكويتية ابتداء من عام ١٩٥٥ ·

٩ ـ احصاءات العدو الصهيوني منذ عام ١٩٥٠ ·

١٠ ـ التقرير السنوي لكل من حكومتي مصر والعراق عن الفلسطينيين المسجلين لديها ·

١١ ـ احصاءات الحكومة السعودية ·

١٢ ـ احصاءات الحكومة القطرية ·

١٣ ـ احصاءات جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للثقافة والعلوم ·

١٤ ـ احصاءات ومعلومات مؤسسة الشؤون الاجتماعية وجمعية اسر الشهداء التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ·

١٥ ـ احصاءات الاتحادات الشعبية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ·

١٦ ـ احصائيات جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني ·

١٧ ـ احصاءات مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في العالم ·

هذا من جهة الاحصاءات الواردة من مصادر حكومية او دولية رسمية ، اما عن الدراسات الميدانية والتحقيقات الاحصائية عن الفلسطينيين فأهمها ما يلي :

١ ـ الهيئة العربية العليا الفلسطينية : تقرير بشأن وجود اللاجئين في لبنان ، صدر في بيروت بتاريخ ١٨ـ١٢ـ١٩٥٩ ·

٢ ـ وزارة الانشاء والتعمير في الاردن : تقرير عن عدد اهالي عرب فلسطين اللاجئين والنازحين في الدول العربية وبقية انحاء العالم حتى ١٥ـ٦ـ١٩٦٨ ·

٣ ـ اميرة حبيبي : النزوح الثاني صادر عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٠ ·

٤ ـ ليلى الحر : الفلسطينيون في لبنان ، صادر عن دار النهار في بيروت عام ١٩٧٠ ·

٥ ـ مديرية الاحصاء المركزي في وزارة

التصميم اللبنانية : تحقيق احصائي خاص بالقوى العاملة في المخيمات الفلسطينية في لبنان عام ١٩٧١ ٠

٦ ـ القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق بالتعاون مع مكتب فلسطين والكفاح المسلح بالاضافة الى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في العراق ومركز الدراسات الفلسطينية في جامعة بغداد : احصاء شامل للفلسطينيين في العراق لم تعلن نتائجه في اواخر عام ١٩٧١ ٠

٧ ـ كامل الداوودي : تقرير احصائي عن عرب فلسطين في الدول المضيفة وفلسطين المحتلة حتى تاريخ ١ـ١ـ١٩٧٢٠

٨ ـ عصام سخنيني : الفلسطينيون في العراق ٠ مقالة منشورة في مجلة شؤون فلسطينية بتاريخ ايلول ـ ١٩٧٢ ٠

٩ ـ مركز الابحاث الفلسطيني : دراسة بعنوان الوضع الديمغرافي للفلسطينيين في لبنان صادرة عام ١٩٧٢ ٠

١٠ ـ نادرة السراج : الفلسطينيون في مصر ، بحث مقدم للجامعة الاميركية في القاهرة عام ١٩٧٢ ٠

١١ ـ معين حمود : الفلسطينيون في لبنان ، كتاب صادر عن دار ابن خلدون في بيروت عام ١٩٧٣ ٠

١٢ ـ نبيل شعث : بحث عن الطاقة البشرية الفلسطينية العالية صادر عن مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٣ ٠

١٣ ـ محمد السيد غلاب : تطور سكان فلسطين من سنة ١٩١٨ الى ١٩٦٥ ، مقالة منشورة في مجلة معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة في حزيران ١٩٧٣ ٠

١٤ ـ شحادة يوسف : الواقع الفلسطيني والحركة النقابية ، كتاب صادر عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في العام ١٩٧٣ ٠

١٥ ـ هاني مندس : العمل والعمال في المخيم الفلسطيني ، كتاب صادر عن مركز الابحاث الفلسطيني بتاريخ ١٩٧٤ ٠

١٦ ـ الياس خوري : احصاءات فلسطينية ، كتاب صادر عن مركز الابحاث الفلسطيني عام ١٩٧٤ ٠

١٧ ـ سمير ايوب : مصادر الدخل عند الفلسطينيين في لبنان ، بحث جامعي اعد عام ١٩٧٤ قيد النشر ٠

١٨ ـ بلال الحسن : الفلسطينيون في الكويت ، كتاب صادر عن مركز الابحاث الفلسطيني عام ١٩٧٤ ٠

١٩ ـ عنان العامري : احصاءات زراعية عن فلسطين ١٩١٩ ـ ١٩٧٠ صادر عن مركز الابحاث الفلسطيني عام ١٩٧٤ ٠

٢٠ ـ جميل هلال : الضفة الغربية ، كتاب صادر عن مركز الابحاث الفلسطيني في عام ١٩٧٥ ٠

٢١ ـ جورج قصيفي : مساهمة في دراسة ديمغرافية الشعب الفلسطيني ، بحث جامعي قيد النشر مقدم الى جامعة باريس الاولى عام ١٩٧٦ ٠

٢٢ ـ حسين ابو النمل : غزة ، دراسة سوف تصدر عن مركز الابحاث ، اعدت عام ١٩٧٧ ٠

٢٣ ـ رسالة ماجستير مقدم للقسم الاجتماعي بكلية الاداب بجامعة بغداد في نهاية العام ١٩٧٧ عن الفلسطينيين في العراق ٠

٢٤ ـ سمير ايوب : البنية الطبقية للفلسطينيين في لبنان ، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الاداب بجامعة بيروت العربية عام ١٩٧٧ قيد الطبع ٠

٢٥ ـ عصام سخنيني : الفلسطينيون في الضفة الشرقية ، مؤشرات عددية ،

مقالات منشورة في مجلة شؤون فلسطينية بتاريخ اب ـ ١٩٧٧ ·

٢٦ ـ حسين ابو النمل : الضفة والقطاع ٦٧ـ٧٨ ، كتاب صادر عن مركز الابحاث الفلسطيني بالاشتراك مع مؤسسة صامد بتاريخ ١٩٧٨ ·

في الحقيقة ، قد لا يكون ما ذكرنا من مصادر تحتوي احصاءات فلسطينية هي كل ما صدر في هذا الشأن ، وانما يؤمل ان تشكل هذه القائمة التي لا بد من ان تستكمل قاعدة اساسية في ارشيف المرحلة الاولى المقترحة من اجل تأسيس مركز احصائي في فلسطين ·

سمير ايوب

# مـراجعات

ياسين الحافظ . **التجربة التاريخية الفيتنامية ـ تقييم مقارن مع التجربـــة التاريخية العربية** . ( دار الطليعة ، بيروت : اذار ١٩٧٦ ) .

للكاتب التقدمي ياسين الحافظ عـــدة ابحاث ودراسات جمعها في مؤلفات لهـا قيمة سياسية نظرا للموضوعات التـــي تطرقت لها والجرأة الفكرية التي تميـزت بها عن غيرها من المحاولات ، ولقد صدر للمفكر الماركسي ياسين الحافظ حتـــى الان ثلاثة كتب الاول « حول بعض قضايا الثورة العربية ( ١٩٦٥ ) » و « اللاعقلانية في السياسة ( ١٩٧٥ ) » و « التجربـــة التاريخية الفيتنامية ( ١٩٧٦ ) » وله قيد الاعداد كتابان « الهزيمة والايديولوجيـا المهزومة » و « نمط منظورات وحدويـــة جديدة » .

ونحن هنا لا نريد ان نتناول بالعرضـ والتقييم كافة كتابات ياسين الحافظ وانما سنكتفي باستعراض ما ورد في كتابـــه الهام الاخير « التجربـــة التاريخيـــة الفيتنامية ـ تقييم نقدي مقارن مع التجربة التاريخية العربية » الذي صدر فـي اذار ١٩٧٦ دون ان يصدر بالمقابل اهتمام نقدي جدي به ، رغم طروحاته الهامة والتـــي لها علاقة مباشرة بطبيعة تكون الوطـــن العربي وتركيبته الديموغرافية ، ومستـوى نضاله القومي والوطني والتقدمي فـــي العلاقة مع مستوى نمو وتطـــور فكـــر الامة العربية وثقافتهـــــا وسياستهـــا وايديولوجيتها .

**النقطة المركزية**

تناول الكثير من الباحثين قضية نضال الشعب الفيتنامي ولكن لم يحاول اي منهم تناول القضايا الاساسية التي طرحهـــا هذا النضال ، فاكتفى البعض بترجمـــة الدراسات والبعض الاخر استند الى الكتب ليصدر احكاما عامة تبقى في حدود تقديم بعض المعلومات والمسلسلات العسكريـــة والسياسية .

اما كتاب ياسين الحافظ ، فقد حـاول منذ البداية ، الدخول في العمق الـــى التجربة الفيتنامية ، محاولا اكتشـــاف قوانينها الخاصة التي كانت اساســ انتصارها . ولم يكتف الحافظ بعرضـ قوانين التجربة الفيتنامية وانما عاد الـى اصولها وحركتها الزمنيـــة وتطورهـــا التاريخي وذلك عبر اقامة نوع من المقارنة مع التجربة التاريخية العربية التي تتماثل معها في بعض النقاط وتختلف عنها فـي نقاط اخرى .

ان النقطة المركزية التي يدور حولهـا

كتاب الحافظ هي هذا السؤال : لماذا انتصر الشعب الفيتنامي ولماذا انهزم الشعب العربي ، رغم ان التطور الاجتماعي والاقتصادي والتقني للشعب الفيتنامي متخلف كما هي الحالة عند العرب ؟ ·

هذا السؤال ترد عليه مختلف اجابات الحافظ على امتداد صفحات الكتاب الذي يشمل عدة فصول ، منها دروس التجربة وتطور الحركة القومية الفيتنامية والوعي التاريخي الفيتنامي والوعي التاريخي العربي ·

**التجربة الفيتنامية**

يخلص ياسين الحافظ في مقدمة كتابة الى مسألة جريئة ، وهي اعتباره ان « الخطوة الاولى ، او البدوة اللازمة للتقدم نحو تذليل هذه المشكلات وتكنيس هذه البلايا هي عقلنة الانتجلنتسيا العربية » ( ص : ١٥ ) ·

هذه الخلاصة تشكل نقطة الارتكاز عند الحافظ لحل المشكلات الكثيرة والمعقدة لان تشديد العقلية العربية يسهل لنا عملية استيعاب التجارب والتقاط الحلقة المركزية في نضالنا القومي الراهن وكل ما عدا ذلك ليس سوى خبط عشواء في النظريات والايديولوجيات ·

يبدأ الحافظ كتابه في تعريف التجربة التاريخية لشعب من الشعوب بالقول انها « اجماع حركة كل الشعب على كل المستويات والاصعدة » ( ص : ٥ ) · لذلك لم يتوقف بحثه عند النقاط المعروفة بل ذهب في تحليله التاريخي الى ابعد من السطح · فالاحداث السياسية عند الحافظ تشكل سطح الاشياء اما « الجوهري والاساسي فهو الايديولوجي والثقافي ، الذي يفرز السياسي ويحكمه » ( ص : ٦ ) ·

وهكذا يؤسس الحافظ منذ البدء قاعدة تحليله ونقاشه ، اذ انه ينطلق من مقولة « الاستقلال النسبي » التي تكلم عنهما ماركس في علاقة الثقافي والايديولوجي والسياسي بالاقتصادي · ويعقد الكاتب من هنا هذا الاختلاف في التجربتين الفيتنامية والعربية ، فالاقتصاد العربي متخلف والفكر العربي متخلف بينما الاقتصاد الفيتنامي متخلف والفكر الفيتنامي متقدم ·

هذه المفارقة بين المسألتين ــ التجربتين حكمت مجمل الافرازات والنتائج والانتصارات والهزائم التي حملتها قضايا النضال في الوطن العربي والوطن الفيتنامي ·

وينطلق الحافظ ايضا من مقولة اخرى وهي « التأثيرات البرانية » على البلدان التابعة للامبريالية التي تصاب اما بانكماش كما العرب والهند او بانفتاح كما الصين وفيتنام · انطلاقا من هذا المفهوم يعقد الكاتب مقارنة اخرى بين التجربة الفيتنامية التي انفتحت على ثقافة الغرب واستفادت منها لمقاتلة الغرب الامبريالي وبين التجربة العربية التي انغلقت على ثقافة الغرب بداعي المحافظة على الاصالة فكانت النتيجة اننا فشلنا في مقاتلة الغرب الامبريالي ·

ووفق هذا الاطار يعرف ياسين الحافظ كتابه بالقول انه « محاولة لالقاء ضوء على الاسباب والعوامل التي سهلت التطور الايديولوجي الفيتنامي ، كما يحوي تنويهات باسباب وظروف تظاهرات الانضماء الايديولوجي العربي » ( ص : ٧ ) ·

وهكذا يتحرك الكاتب على امتداد

الصفحات والفصول لتحديد اهمية الوعي ودوره في حياة البشر وفي تحريك المواطنين البسطاء · فالنتائج التي حققتها التجربة الفيتنامية « ما كان ممكنا بلوغها لو ان القرارات كانت فحسب قرارات الفوق وليست قرارات الناس البسطاء » ( ص : ١٠ ) · لان « التطور الفكري للشعوب يتلخص في انتقالها الطويل البطيء المتلاحق من الاسطورة والايديولوجيا الى الحقيقة الواقعية » ( ص : ٣٠ ) · واول مواجهة عقلانية ناجعة للتحدي الاسرائيلي هو انه « ينبغي ان نخرج رؤوسنا من الواقع لا ان نخرج الواقع من رؤوسنا » ( ص : ٣٠ )·

ويتابع الحافظ تحليله للتجربة الفيتنامية بالمقارنة مع التجربة العربية قائلا ان الماركسية الفيتنامية جاءت « وكأنها مرحلة امتداد ونضج عضويين للحركة القومية الفيتنامية الحديثة » (ص : ٣٢ ) ورغم فقر الشعب الفيتنامي وتأخره الاقتصادي استطاع « ان يخوض اشكال نضال عصرية وحديثة ضد الاستعمار الفرنسي ثم ضد الامبريالية الاميركية : لقد هيأ مقدمة ثقافية وايديولوجية وسياسية حديثة » ( ص : ٣٣ ) · اما التخلف الفكري والايديولوجي العربي على مستوى حركته القومية او حركاته الماركسية ، فكان سببا في تخلفنا وتقليديتنا في حربنا النظامية وغير النظامية ضد اسرائيل · فالحرب عند الحافظ تقسم الى تقليدية وحديثة وليس الى نظامية وشعبية لان التقسيم الاول جوهري اما الثاني فشكلي ( ص : ٣٦ ) والسلاح عنده ليس معيارا للحداثة او التخلف وانما ايديولوجيا البشر الذين يستخدمون هذا السلاح لان « الايديولوجيا هي التي تقرر نوع الحرب » ( ص : ٣٦ ) ·

## الحروب الفيتنامية ودروسها

يحدد ياسين الحافظ مراحل تطور الحركة القومية الفيتنامية بثلاث حقبات تاريخية : الاولى ، مرحلة الحركية القومية التقليدوية ، وتمتد منذ الاحتلال وحتى اواخر القرن التاسع عشر · الثانية ، مرحلة الحركة القومية الحديثة ، وتمتد منذ بدايات هذا القرن حتى العام ١٩٣٠ · الثالثة ، مرحلة الحركة القومية ـ الشيوعية ، وتبدأ بتأسيس الحزب الشيوعي الفيتنامي عام ١٩٣٠ · ( ص : ٤٨ ) ·

ويرى الكاتب ان الحرب ومجابهة القوى الاستعمارية ليست بين طبقتين من مجتمعين فقط وانما مواجهة بين مجتمعين ايضا او كما يقول ماركس « الجانب المثير في الحرب هو انها تمتحن الامة · وكما ان المومياءات تنحل فور تعرضها للهواء ، كذلك تلفظ الحرب حكمها بالموت على جميع المؤسسات الاجتماعية التي لم تعد تملك قوة الحياة » ( ص : ٦٣ ) · لذلك فان « مقاومة هذا الشكل الحديث في التسلط ، كان يتطلب أسلحة ايديولوجية حديثة ، قبل الاسلحة المادية التقنية » ( ص : ٦٧ ) ·

وهكذا يرى الحافظ ان هناك سببان وراء فشل الحركة القومية الفيتنامية التقليدية وظاهرتان ادتا الى انتصار الاستعمار الفرنسي · فالسبب الاول بالنسبة للفشل هو انعدام الديمقراطية اما الثاني فهو انعدام العلم والايديولوجية العقلانية الحديثة ( ص : ٦٥ ـ ٦٧ ) · والظاهرة الاولى بالنسبة لانتصار الاستعمار هي افتقار هذه الحركة التقليدية الى وعي قومي عام اما الظاهرة الثانية فهي عجزها عن حل مشكلة

الانقسام الطائفي للامة الفيتنامية ( الكاثوليك ) ومشكلة الاقليات القومية ( ص : ٦٨ ـ ٦٩ ) ٠

بعد سقوط الحركة القومية الفيتنامية التقليدية بدأت الحركة القومية الجديدة بالنمو والتقدم ولم « تكن ذات طابع تقليدوي جديد ، شأن الحركات القومية التي ولدت في الوطن العربي بعد استسلام الحركات القومية التقليدوية ، بل كانت ، من حيث الاساس ، حركة قومية غير تقليدوية ، حديثة ، متقدمة ، تقدمية » ٠ ولقد شهدت فيتنام « الى جانب الطبقة البورجوازية والطبقة العاملة ، اللتين افرزهما التحديث الكولونيالي » ولادة « انتلجنتسيا جديدة وحديثة ، تختلف اختلافا جذريا عن سلفها الانتلجنتسيا الفيتنامية التقليدية ، التي تصدت لقيادة النضال القومي في المرحلة السابقة » ( ص : ٧٠ ـ ٧٣ ) ٠ وساهم عاملان في انتصار الانتجلنتسيا الحديثة على التقليدية هما نهضة اليابان ونمو المد التقدمي في الصين مع غلبة الاتجاه الصيني ، كعامل مؤثر رئيسي فيما بعد ، على النموذج الياباني بسبب تشابه الظروف والمهام مع حركة النضال القومي الفيتنامي ٠ ( ص : ٧٦ ) ٠

ولكن الحركة القومية الفيتنامية الحديثة فشلت بدورها في تحرير البلاد رغم نضالاتها الجماهيرية والمسلحة العريقة وذلك بسبب ضيق افقها القومي وعدم وعيها الكوني لنضالها التحرري ، مما أدى الى نشوء عدة تيارات في داخلها منها معتدل ليبرالي دستوري ومنها ثوري قومي بقيادة الكومنتانغ الفيتنامي ( الحزب القومي ) في البداية ثم التيار الماركسي ـ اللينيني بعد ذلك ، حيث انحاز بعض عناصر الحزب القومي الى الحزب الشيوعي امثال الجنرال جياب والقائد تريونغ شينه فاعطى اندفاعة جديدة للحركة الثورية الفيتنامية ومكنها من الانتصار فيما بعد ٠

ويرى الحافظ ان هناك عاملان ساهما في انتشار الحركة الشيوعية وقيادتها للنضال القومي الفيتنامي : الاول ، التغييرات البنيانية في قلب المجتمع الكولونيالي الفيتنامي التي تمثلت في نمو متفاوت للاقتصاد الوطني والثاني ، ازمة الحركة القومية الفيتنامية الحديثة في جناحيها المعتدل والثوري ( ص : ٩٩ ـ ١٠٠ ) ٠

بالاضافة الى هذين العاملين يستنتج الكاتب عدة عوامل اساسية اخرى ساهمت في انتشار الماركسية وسط المثقفين الثوريين والمناضلين الوطنيين ، منها الاصول الليبرالية للحزب الشيوعي وموقعه القومي الاصيل في التقاط الحلقة المركزية وقيادتها في مواجهة الامبريالية ٠

يرى ياسين الحافظ « ان الثقافة الليبرالية ليست الجذل الذي لا بد منه للماركسية بل رافقها ايضا ، فضلا عن انها ملحها وسداتها ٠ هذا الجذل الثقافي الحديث والتقدمي لم يتوفر للماركسية العربية ، وهنا مصدر رئيسي لمأساتها وعقباتها بل وفقرها ايضا » ( ص : ١٠٢ ـ ١٠٣ ) ٠ ويرى ايضا ان سبب انتشار الماركسية في فيتنام يعود الى « نفسها القومي الرسالي هذا ، المقترن بالطبع بوعي كوني يسدده ويعقلنه ويضبط خطاه ، هو الذي اعطى انتشارها هذا الشكل الاكتساحي وجعلها تصبح محور الحركة القومية الفيتنامية وتوحد القضية القومية بالشيوعية » (ص : ١٠٥ ـ ١٠٦)٠

ويعقد الحافظ هنا مقارنة بين الماركسية الفيتنامية والماركسية العربية حيث الاولى بدأت من منطلق قومي وانتشرت في بيئة اكثروية ، بينما الثانيه بدأت من منطلق « طبقي » وانتشرت في بيئة اقلوية · ويعدد بعد ذلك عوامل نمو الماركسية الفيتنامية وتخلف الماركسية العربية حيث يرى ان الاولى قومية تؤدي الى اممية واقعية بينما الثانية قطرية ــ اممية تجديدية تؤدي الى عدمية قومية ، وان الاولى لم تنتظر الثورة في بلاد المتروبول بينما الثانية انتظرت تلك الثورة ، وان الاولى توحيدية لا تقر التجزئة الاستعمارية بينما الثانية تجزيئية تقر بالتقسيمات ، وان الاولى ربطت الوحدة بالاستقلال بينما الثانية فصلت الوحدة القومية عن الاستقلال الوطني ، وان في الاولى المسألة القومية ليست مضافة من الخارج الى المسألة الاشتراكية بينما في الثانية فهي كذلك في احسن الاحوال ، وفي الاولى توحدت القومية بالشيوعية اما في الثانية فقد انفصلت القضيتان ، وفي الاولى كانت الحركة الشيوعية منفتحة ــ جبهوية اما في الثانية فكانت عصوبية ــ انغلاقية ، وفي الاولى لم تخلط بين المبدأ والتكتيك بينما الثانية خلطت ، وان زعامة الاولى تكونت في العصر اللينيني بينما زعامة الثانية تكونت في العصر الستاليني ·

هذه المقارنة القاطعة والواضحة تحدد بالضبط موقع ياسين الحافظ وخطه الماركسي العربي في مواجهة الحركة القومية العربية التقليدية والحركة الشيوعية العربية التقليدية · فاذا كان الكاتب له جملة مواقف نقدية من التيارات الماركسية العربية في معالجتها لمشكلات التأخر العربي والاقليات الطائفية القومية فان له ايضا بعض المواقف النقدية للفكر القومي العربي ونزعته الرومانسية الثورية من جهة واتجاهه الواقعي المحافظ من جهة اخرى · لذلك يعتبر الحافظ ان للوعي الفكري والايديولوجي دوره الاساسي في بلورة المفاهيم وفهم الواقع اذ « في فيتنام امتلكت الانتلجنتسيا الفيتنامية فكرا عصريا وتقدميا ، اما الانتلجنتسيا العربية فبقيت مخندقة في وعي مفوت وتقليدي » ( ص : ١٥٥ ) بينما « اثبتت الانتلجنتسيا الفيتنامية الحديثة ان الممارسة الثورية الناجعة هي الممارسة العالمة ، العارفة ، الواعية : الاستعمال الحصيف لسلاح النقد يسبق ويحضر للاستعمال المجدي لنقد السلاح » ( ص : ١٦١ ) · واذ في حين كان العقلاني « ينمو وينضج ثم يغلب في الوعي التاريخي للشعب الفيتنامي فيمنحه رؤية مناسبة ، اي مطابقة للواقع ولحاجات تقدمه ، بقي الايديولوجي مهيمنا على الوعي التاريخي للشعب العربي » ( ص : ١٦٢ ) · والكاتب يرى ان اساس قصورنا وتناثرنا القومي يعود الى مرحلة ما قبل المرحلة الكولونيالية ، وبان الاستعمار نتيجة لا سبب ، وبان الغرب ليس تكنولوجيا فقط بل انه ثقافة حديثة وميزات المجتمع الصناعي وسيرورة التطور التاريخي ( ص : ١٨٠ ــ ١٨٤ ) ·

لذلك فان هشاشة التجربة العربية وعجزها ليس سببها ضربات خارجية فقط وانما تتمثل في واقع « ان التطور الفكري والثقافي كان اكثر تأخرا وحركته اكثر بطئا من التطور التقني والاقتصادي ، على تواضعه » ( ص : ١٨٥ ) ·

ويخلص الحافظ في كتابه القيم وتقييمه النقدي المقارن للتجربتين العربية والفيتنامية الى القول : « ان الاتساق

بين الثورية السياسية من جهة والثورية الثقافية والاجتماعية من جهة اخرى يكمن في اساس نجاح التجربة الثورية الفيتنامية . بالمقابل ، التفارق ، بل قل التناقض ، في التجربة الثورية العربية ، بين الثورية السياسية من جهة والمحافظة الثقافية والاجتماعية من جهة اخرى ، يكمن في اساس الاخفاقات التي لحقت بحركة الثورة العربية » ( ص : ١٨٦ ) .

ان مختلف الاراء والتحليلات التي يقدمها لنا ياسين الحافظ تدل على عمق فهمه للتجربة العربية وعمق استيعابه للتجربة التاريخية الفيتنامية ومدلولاتها ودروسها . وهي دون شك نظرا لاهميتها وشموليتها بحاجة الى اكثر من قراءة ونقاش علمي عقلاني .

**وليد نويهض**

---

محمود سويد ، **الصراع على أرض التسوية الاسرائيلية : ١٩٧٣ ـ ١٩٧٨** ، ( دار الطليعة ، بيروت ، نيسان ١٩٧٨ ) .

يضم هذا الكتاب مقالات « كتبت بين اواخر ١٩٧٤ واوائل ١٩٧٨ ، تعالج تطور الصراع العربي ـ الاسرائيلي عموما ، وتطور الموقف الاسرائيلي في هذا الصراع خصوصا ، وتغطي مرحلة متكاملة تقريبا : من نتائج حرب تشرين ١٩٧٣ ، الى زيارة السادات اسرائيل في ١٩ـ١١ـ١٩٧٧ » . ( ص ١٠ ) .

وهذه المرحلة التي يحاول الكاتب ان يغطيها ، استنادا الى تحليل الموقف الاسرائيلي من الصراع والتسوية والمسالة الفلسطينية ، تميزت سياسيا وفكريا بانقسام المثقفين العرب ، « بشكل عام، الى محورين رئيسيين : يحمل الاول راية التضامن العربي ، كما تجلى في حرب تشرين ، مبشرا بقدرة هذا التضامن على تحقيق :

١ ـ انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة سنة ١٩٦٧ .

٢ ـ اقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة . ويرفض الثاني هذا الموقف ، مؤكدا « ان حرب ٧٣ لم تنته الى ميزان جديد للقوى يسمح بتحقيق الانجازين المشار اليهما اعلاه » . ( ص ١٠ )

ويرى الكاتب انه « بانتهاء زيارة السادات لاسرائيل بما انتهت اليه ، تختتم

مرحلة المراهنة على ان بامكان قوة المال والنفط العربيين على الساحة الدولية ، بمعزل عن عناصر القوة الاخرى ، تحقيق تسوية مرحلية للصراع العربي – الاسرائيلي ، قوامها استعادة الارض المحتلة ، واقامة الدولة الفلسطينية » . ( ص ١٢ )

فما « لم يتغير ميزان القوى في المنطقة، فان اسرائيل مستمرة في رسم الخريطة المنبثقة عن حرب ١٩٦٧ ، دون توقف ، وأن جنوبي لبنان والجولان والضفة الغربية وغزة وسيناء ، ليست وحدها الخاضعة للهيمنة الاسرائيلية » . (ص٩)

هكذا يحدد الكاتب في المقدمة موضوع الكتاب وبالتالي الموقف السياسي الذي يتبناه ازاء انصراع الراهن ، مبرهنا على صحة هذا الموقف من خلال دراسة عناصر ومرتكزات السياسة الاسرائيلية وصلتها العضوية بالامبريالية .

ان اهم ميزات الكتاب ان كاتبه يتابع الموقف الاسرائيلي في مختلف تطوراته ، متابعة الباحث المطلع على معطيات وحيثيات السياسة الاسرائيلية من مصادرها العبرية . لذا ، فالكتاب له قيمة اكاديمية عالية من هذه الناحية . فهو يقدم مادة مكثفة وغنية لكل من يريد ان يطلع على طبيعة الموقف الاسرائيلي منذ ١٩٧٣ وحتى نهاية ١٩٧٧ .

تستند البنية الداخلية للكتاب الى متابعة الموقف الاسرائيلي ، عبر سلسلة من المقالات المتفاوتة زمنيا ، وليس انطلاقا من معالجة موضوع الكتاب كوحدة لها بناؤها الداخلي الخاص وتسلسلها المنطقي التحليلي الاكثر ترابطا ، والذي يختلف عن التسلسل القائم على المتابعة .

لكن ، للطريقة التي اتبعها الكاتب ، ايضا ، جوانب ايجابية سياسية وعلمية ، منظورا الى المسألة من زاوية الصراع السياسي الدائر بين خط يراهن على امكان تسوية « وطنية » وبين خط اخر لا يراهن، على حدوث هذه التسوية ، بل يرى انها تستهدف تصفية النضال التحرري والوطني العربي وفي القلب منه القضية والكفاح المسلح الفلسطيني .

فلقد لعبت هذه المقالات ، في زمن نشرها ، دورا وظيفيا سياسيا ، كما ان جمعها على هذه الطريقة انما يعني التشديد ، ايضا ، على هذا الدور في مواجهة الخط الاخر المتخبط والمراهن على حصول تسوية « وطنية » ضمن موازين القوى السياسية القائمة في المنطقة العربية . وذلك بهدف تبيان مدى تهافت الخط الاخير .

الا ان اتباع هذه الطريقة ، بالمقابل ، افقد ، الى حد ما ، موضوع الكتاب وحدة وتماسك البناء الداخلي . فالمقالات الاخيرة ، سيما « استراتيجية التسوية » و « مبادرة السادات والصراع على ارض التسوية الاسرائيلية » اكثر نضجا من الناحية السياسية . وهذا يعني ان الانطلاق من المفاهيم السياسية الناضجة اكثر في هذين المقالين بصدد طبيعة التسوية ودور اسرائيل في المنطقة ، كان من شأنه ان يضفي على الكتاب وحدة اكثر تماسكا ، ونضجا سياسيا أرقى يشمل الكتاب ككل ، ويجنب بالتالي ، تكرار بعض التوكيدات والافكار والتفاصيل السياسية التي كانت في مرحلة سابقة ضرورية وحاسمة للبرهان على الموقف ، لكنها لم تعد تحظى بنفس الوزن السياسي والعلمي بعد سلسلة التطورات الاخيرة . وبذلك كان بالامكان استبدال التسلسل الزمني للموضوعات بتسلسل المعالجة

الوافية انطلاقا من اخر ما توصل اليه نضج المسألة المطروحة للنقاش ، والبحث من مستوى أرقى ٠

الا ان للطريقة التي اتبعها الكاتب مبرراتها وشجاعتها الخاصة في مواجهة المواقف الاخرى في اوقاتها ، والتي لم تكن تقترب من الحقيقة العلمية والسياسية، بل كانت تتيه في ضباب التخبط والاوهام واللهاث خلف الاحداث والتصريحات السياسية ٠

يميل الكاتب في عدد من الاحيان ، الى مزيد من الاستناد على المنهج الوصفي لا التحليلي ، في قضايا ومسائل تتطلب التفسير لا مجرد الوصف والتقرير ٠

فالكاتب لا يشرح لنا لماذا بعد « الزلزال » وموجة النقد التي اعترت اسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ ، عادت القيادة الاسرائيلية الى التماسك على « نفس القواعد التي ارسيت خلال ست سنوات من الاحتلال لكامل التراب الفلسطيني ولمناطق عربية عام ١٩٦٧ » ( ص ٢٨ ) « وهكذا عادت اسرائيل الى التمركز في اطار مفاهيمها التي هزتها حرب تشرين ، سياسيا وعسكريا ، لارتباط هذه المفاهيم بطبيعة الوجود الصهيوني ، وظروفه الجغرافية - السياسية - السكانية » ٠ ( ص ٣٢ )

هل يكفي ان نفسر هذه العودة الى المفاهيم التي « هزتها حرب تشرين سياسيا وعسكريا » بطبيعة الوجود الصهيوني وظروفه ؟ الم تلعب سياسة الانظمة العربية الاستسلامية دورا اساسيا في هذا المجال ٠ هذه السياسة التي لم تكن حرب تشرين بالنسبة لها سوى « حرب تحريك » وحيث زاد بعد هذه الحرب معدل سير الانظمة العربية في اتجاه الارتباط التبعي بالامبريالية ٠ « بعد سنة من حرب اكتوبر ، يستقر ميزان الصراع العربي - الاسرائيلي ، على : تفريط عربي بمكاسب الحرب ، يقابله تماسك اسرائيلي في مواجهة نتائجها السلبية » ٠٠٠ (ص ٥٧ )

فلماذا حدث هذا التفريط ؟ هل هو مجرد هفوة او سوء تقدير سياسي ، ام انه تعبير عن المنحى التاريخي السياسي الذي تسير فيه الانظمة : منحى التهادن والتحالف مع الامبريالية وليس التصادم معها ؟

وهكذا يتركنا الكاتب ، في عدد من الاحيان ، امام تقرير ووصف ما استقر عليه الوضع او المواقف السياسية دون التحليل العلمي للاسباب الحقيقية ، لا سيما تجاه اوضاع ومواقف جوهرية تتطلب مثل هذا التحليل والتفسير ٠

كيف تنظر اسرائيل الى نفسها بعد حرب تشرين ؟ يعالج الكاتب في هذا المقال وضع وموقف اسرائيل عشية هذه الحرب من التسوية وهو « الصمود في خطوط القتال ، دون ضغوط دولية شديدة ، وتضاؤل فرص الحرب والحل المفروض ، وتوسيع افاق الاتصال والتقارب والتعاون بين اسرائيل والجماهير العربية عن طريق الجسور والحدود المفتوحة ٠٠ » ( ص ١٦) وقد عبر دايان عن الموقف الاسرائيلي ( الذي ما زال ثابتا حتى الان ) « حتى بعد التسوية الدائمة ، سنبقى في معظم المناطق : في هضبة الجولان ، والضفة الغربية ، وعلى هذا ، لا بد من تكريس جهد كبير للمناطق ، وربط العرب في الضفة وغزة باسرائيل ليسهل فصلهم عن الدول العربية » ٠ ( ص ١٦ ) وقد كان شعار دايان : « اسرائيل ، حكومة دائمة في المناطق » ٠ ( ص ٢٠ ) ٠ « نستطيع اليوم ان نقول ان ايا من المطاليب العربية لن ينفذ ولن يكون ٠ لن تكون هناك دولة فلسطينية ، ولا جولان سورية ، ولا غزة مصرية ولا قدس أردنية » ٠ ( ص ٢١ )

وقد هزت حرب تشرين ، لفترة قصيرة

من الوقت ، الكثير من المفاهيم الامنية والسياسية الاسرائيلية ، لكن سرعان ما عادت اسرائيل الى مواقفها الثابتة ٠ وقد عبرت غولدا مئير بعد الانتخابات العامة ١٩٧٤ عن الموقف الاسرائيلي قائلة : « في اعقاب التجربة التي اكتسبناها في السنوات الاربع الاخيرة ، زاد وعينا لصدق موقفنا من عدم العودة الى الاوضاع التي كانت سائدة قبل حرب حزيران ١٩٦٧ ٠٠ » ( ص ٢٣ )

يقول الكاتب « بعد قمع الفدائيين في الاردن ، وخروج السوفيات من مصر ، بدا ان اسرائيل ترغب في استمرار الوضع القائم ، وان اصرارها على المفاوضات المباشرة ينطوي على رغبة بان يكون موقف العرب الرفض » ٠ ( ص ٣٦ ) وبعد ان يعرض الكاتب للاتجاهات السياسية المختلفة داخل اسرائيل بصدد التسوية ، يرى انها لا تمثل في الحقيقة « اتجاهات سلام فعلية ، بقدر ما تمثل اتجاهات مراوغة لكسب الوقت » ٠ (ص ٤١)

أما مقال « من اكتوبر الى اكتوبر » ، فانه يتابع معاينة نتائج الحرب على الوضع الداخلي في اسرائيل ٠ ويرى الكاتب « ان « الهزة » لم تبلغ العمق ٠٠ وان المؤسسة الحاكمة عملت لاستيعاب الظاهرات المحدودة التي نشأت نتيجة الحرب ، وفي اعقابها ، كما حاولت الافادة من دروس الحرب لتصحيح اوضاعها ٠٠ وفي كل الاحوال ، ظل الطريق مسدودا امام اسرائيل مستقلة ومتحررة من اطماعها وتحالفاتها الامبريالية العالمية ، لان مثل هذا التيار ينطوي بحد ذاته على هدم المشروع الصهيوني والغائه ٠ وهكذا تؤكد حرب تشرين مرة أخرى ، أن المشروع الصهيوني يكون امبرياليا او لا يكون ، وان اسرائيل تقوم بالتحالف مع الامبريالية الاعظم في عصرنا ، أولا تقوم ٠٠ اما الحديث عن « الارض » مقابل « السلام » فهو مجرد خدعة ، لا تصدقها اسرائيل نفسها ولا تعنيها ، الا بمقدار ما تعني بالسلام « السلام الاسرائيلي » ٠٠ » ( ص ٥٠ ، ٥١ )٠ اما موقف اسرائيل من الكيان الفلسطيني والشخصية الوطنية الفلسطينية فهو موقف الرفض المطلق ، لما يعنيه من « نفي لوجود اسرائيل » ٠ ( ص ٥٣ )

يتعرض الكاتب لعلاقة التسوية الاسرائيلية بحرب السنتين في لبنان ٠ ويرى ان « مشروع الجبهة اللبنانية مرهون بالتسوية الاسرائيلية وامكان فرض شروطها على العرب » ٠ ( ص ٦١ ) وهو يتناول ، انطلاقا من المصادر الاسرائيلية نفسها ، تاريخ الصلة السياسية والتنسيقية العملية بين اسرائيل والفاشيين في لبنان ٠ ويخلص الى القول: « لم يعد سرا الدعم الذي قدمته اسرائيل ، ولا تزال ، للقوى الانفصالية ، سواء في الجنوب ام في الداخل ٠ وقد اتاح الدعم الاسرائيلي لتلك القوى ، ولا يزال ٠٠٠ موقع قوة رئيسي يمكنها من رفض اي حل للمسألة اللبنانية ، قبل تنفيذ مطالبها » ٠ ( ص ٦٩ ) ويبسط الكاتب استراتيجية الجبهة اللبنانية التي تعتمد على الدعم الاسرائيلي المباشر وغير المباشر ، وعلى الرجعية العربية والانظمة المستسلمة ٠ هذه الاستراتيجية التي تستهدف السيطرة الفاشية على لبنان وفرض الصيغة التي تلائم هذه السيطرة ٠

اما دور « الانفصالية الجديدة » ( الفاشية ) في جنوب لبنان فهو دور المتواطىء والحليف مع العدو الصهيوني ، والذي يستهدف ضرب النواة الشعبية الفلسطينية واللبنانية الوطنية هناك ، وفي عموم لبنان ٠ ففي « مواجهة هذه النواة التي بدأت تتشكل في جنوبي لبنان ، التقى اسرائيليون وعرب ٠ الاولون يريدون قتل البديل ، قتل فلسطين قبل ان تنتقل من

القوة الى الفعل ، والاخرون يريدون قتل بذور الثورة ، قتل الحرية والديمقراطية والعلمانية ، قبل أن تتحول الى نظام عربي ينفي سواه ويقوم على انقاضه » . ( ص ٨٨ ) ولكن « بقدر ما تلتحم الحقيقتان الفلسطينية واللبنانية في الجنوب وتصمدان ، بقدر ما تتوهج الحقيقة العربية وتتألق ، وسط هذا الليل العربي البالغ الظلمة والظلام » . ( ص ٩٢ )

يربط الكاتب انتصار الليكود في الانتخابات الاسرائيلية بمحاولة الكيان الصهيوني حل المشكلات التي واجهتها اسرائيل داخليا وخارجيا بعد حرب ١٩٧٣ ، سيما بعد فشل ( المعراخ ) في حلها .

« فالليكود بزعامة بيغن ... ما فتىء يعد الاسرائيليين بان بامكانه تصحيح المسار ، والعودة بهم الى طريق تحقيق الحلم الامبراطوري ، اي الشريك القوي .. » ( ص ٩٧ ) فبيغن المتصلب يرى انه « لا يمكن ان نفصل بين الامن القومي وبين السلام .. » ( ص ١٠٥ ) وهو يرى السلام الحقيقي في استسلام العرب للشروط التي يمليها .

يقول بيغن « ان تسليم يهودا والسامرة الى اجنبي سيدمر اي احتمال للسلام . وسيبدأ العرب في التفكير الجدي باقامة سلام حقيقي معنا ، فقط عندما يتوصلون الى استنتاج قاطع بانه ليس بامكانهم تدمير اسرائيل لا دفعة واحدة ولا على مراحل .. » وان المصلحة المشتركة بين اسرائيل والولايات المتحدة هي في « منع انتشار الشيوعية في الشرق الاوسط » . ( ص ١٠٥ ) . اما ديان فيرى ان « بامكان حكم اسرائيلي قوي ، ودبلوماسية نشيطة ومتحركة وفعالة ، ان يبعدا خطر الضغوط الخارجية عن اسرائيل ، والمفاوضة من مركز قوة ، ضمن اهداف ثلاثة ثابتة : عدم الانسحاب من الضفة الغربية ، عدم القبول بقيام دولة فلسطينية ، عدم القبول بتمثيل منظمة التحرير الفلسطينية للفلسطينيين » . ( ص ١٠٦ ) .

وهكذا تتضح طبيعة التسوية المعروضة، فهي « واحدة في جوهرها ، وهي لا تتعدى ادخال تعديلات بسيطة على « الحدود » الاسرائيلية الحالية : انسحاب تجميلي في الجولان ، والبقاء في معظم الضفة الغربية ، وفي كل غزة ، وفي بعض سيناء ، مقابل معاهدة سلام تشتمل على علاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية وغيرها . اما القدس ، فخارج نطاق البحث . وتمثيل منظمة التحرير الفلسطينية .. في جنيف مرفوض . ولا مجال للبحث ، على الاطلاق ، في انشاء دولة فلسطينية مستقلة على جزء من التراب الوطني الفلسطيني » . ( ص ١١٠، ١١١ )

اما التأييد المطلق الذي تمحضه الولايات المتحدة اسرائيل فانه « لا يلغي الفروق في النظرة الى بعض عناصر التسوية والصراع . فاسرائيل مصلحة قومية اميركية ، لا ترقى اليها مصلحتها في كسب محور مصر ـ السعودية ـ ايران ، على اهميته البالغة . ولا تستطيع الولايات المتحدة حماية مصالحها في المنطقة ( بما فيها اسرائيل ) دون استمرار المسار الحالي للانظمة العربية ، وتثبيته وتعزيزه في الوجهة نفسها » . (ص ١٢٣)

ان « الخلل في ميزان القوى ، هو الذي يعين « حدود » الانسحاب ، وهو الذي يحول الدولة الفلسطينية المستقلة ، الى « كيان » مرتبط بالاردن ، ثم الى جزء من المملكة الهاشمية ، ثم الى الرضوخ للاملاءات الاسرائيلية في الضفة الغربية . ولقد كان هذا دائما العنصر الرئيسي في الخلاف مع منظري التسوية بعد ١٩٧٣ . فليس العرب هم الذين

يرفضون الحل ، بل الولايات المتحدة واسرائيل هما اللذان لا يعرضان سوى الاستسلام » · ( ص ١٢٤ ) ·

وعليه ، فاننا « امام استراتيجية واحدة للتسوية ، اسمها الحقيقي : الاستسلام ·· الى ان تقلب الجماهير الصفحة » · ( ص ١٣٥ )

ويرى الكاتب انه حتى لو تمكنت الولايات المتحدة من حمل اسرائيل على ادخال التعديلات الطفيفة على مشروعها « للسلام » ، « فان المشروع يظل في جوهره لمصلحة اسرائيل والدور الذي تضطلع به في المنطقة ، ولمصلحة ارساء وتدعيم النظام الامبريالي المعادي لوحدة العرب وتقدمهم وتحررهم » · ( ص ١٥٦ )

ولا بديل هناك لمقاومة التسوية الاستسلامية الا بنهوض الجماهير العربية التي ليس لها الان علاقة « بصنع القرار » السياسي · كما ان « نهوض حركة التحرر العربي متعلق الى حد كبير بقدرة حركة المقاومة الفلسطينية على ان تحقق الثورة في الثورة » · ( ص ١٥٨ ) وينتهي الكتاب بملحق يضم الرسائل المتبادلة بين بن غوريون وموشيه شاريت والياهو ساسون بخصوص الموقف الاسرائيلي الذي يشجع قيام دولة سياسية يسيطر عليها الموارنة في لبنان ·

تبقى كلمة اخيرة ، نقولها في كتاب محمود سويد · انه محاولة علمية جادة خارج هذا الركام من الكتب السياسية الكثيرة التي تملأ الاسواق ولا تكلف نفسها عناء بذل اي جهد علمي ، فلا ترشد الراغبين في الاطلاع ، ولا تنير طريق المناضلين ·

**هاني مندس**

---

## الياهو ايلات ، **شيفات تسيون فيعراف** (العودة الى صهيون والعرب) ( بالعبرية ) دفير ، تل ابيب ، ١٩٧٤

مؤلف هذا الكتاب ، الياهو ايلات ، هو شخصية صهيونية بارزة · فقد كان اول سفير لاسرائيل في الولايات المتحدة ، كما كان سفيرا لاسرائيل في بريطانيا ، ورئيسا للجامعة العبرية في القدس · ومسؤولا ، خلال السنوات ١٩٣٤ ـ ١٩٤٥، عن علاقات الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية في القدس مع البلدان المجاورة · وفي هذا الاطار قام بجولات داخل هذه البلاد واقام علاقات وثيقة مع بعض زعمائها العرب · وكان قد تلقى دراسته الجامعية في الجامعة الاميركية في بيروت خلال السنوات ١٩٣١ ـ١٩٣٤ ، وقد ساعده هذا ، على عقد صداقات واتصالات مع رؤساء السلطة هناك ، وكذلك مع الطوائف والكنائس والاحزاب

والمؤسسات المختلفة ، كما سمح له بعقد اتصالات مع بعض الشخصيات السورية بمساعدة اصدقائه في لبنان سواء من المدرسين ام الطلاب · وقد بدأت اتصالاته للمرة الاولى مع العرب في معان في شرقي الاردن ، حيث كان يعمل هناك كعامل بناء ، ومن ثم اصبح منظما للعمال اليهود في عمان والسلط ، وذلك بهدف اقامة موطىء قدم للتواجد اليهودي والعمل العبري في « شرقي ارض اسرائيل » ·

يتحدث المؤلف في كتابه عن البدو في النقب ، الدروز في اسرائيل ، المحاولات اليهودية للاستيطان في منطقة حوران ، اتصالاته مع مثقال الفايز وشراء الاراضي في مؤاب ، المسالة الكردية ، الحاج أمين الحسيني والحكم الاسلامي في فلسطين خلال فترة الانتداب ، الاتصالات مع الحسين بن علي ، مشروع لجنة بيل للتقسيم والبطريرك الماروني ، اميل اده والصهيونية ، محاضر جلسات المحادثات التي تمت في سوريا بين ممثلي الوكالة اليهودية وممثلي الكتلة الوطنية السورية·

**محاولات الاستيطان اليهودي في حوران**

يقول المؤلف ، انه لوحظ في بداية التسعينات من القرن الماضي ، ان هناك نشاطا ورغبة لدى يهود روسيا ورومانيا وبلغاريا والولايات المتحدة وكندا وانجلترا لتأسيس مستوطنات زراعية جديدة في « ارض اسرائيل » · وقد تم في عدد من هذه البلدان تأسيس شركات لشراء الاراضي هناك وتوطين اعضائها · واجروا اتصالات مع البارون روتشيلد حيث اسسوا سوية « لجنة اسرائيلية » مقرها في باريس للمساعدة في عملية شراء الاراضي · وقامت هذه اللجنة عام ١٨٩٤ بشراء مائة الف دونم في الجزء الغربي – الجنوبي من حوران وذلك في قرى الجولان التالية . سحم الجولان وجيلين ونفعه وبوسطاس ، وكانت غالبية هذه الاراضي تعود لاحمد باشا ابو الهدى احد اغنياء دمشق · وفي عام ١٨٩٥ بدأت عملية مسح الاراضي واعدادها للزراعة ، كما تمت الاعدادات لاقامة مستوطنة تحمل اسم البارون بنيامين في اراضي سحم الجولان · وفي صيف تلك السنة وصلت عائلات من رومانيا وروسيا وبريطانيا ، ولكنها لم تكن تعرف الزراعة ، فتعرضت لاضطهاد من قبل البدو في المنطقة ومن قبل والي دمشق كاظم باشا ، الذي أصدر امرا بطردهم من هناك · فسلمت الاراضي الى مزارعين عرب ، ولكن بعد سيطرة فرنسا على الحكم في سوريا ، عاد اليهود الى المنطقة ، ورفعوا شكوى الى الملك فيصل الذي كان لا يزال ملكا في دمشق فاصدر فيصل امرا باعادة الاراضي الى شركة يكا

( Jewish Colonisation Association )

فاستعادت الشركة الارض ، واعادت تسجيلها بواسطة كواشين رسمية باسمها · وعام ١٩٢٩ ، اقيمت مزرعة في سحم الجولان كان فيها منازل ومخزن واسطبل ، وقد تم زرع حوالي خمسة الاف دونم باشجار اليوكلبتوس ( الكينا ) في جيلين · وفي عام ١٩٣٥ زارت بعثة مؤلفة من عدة اشخاص من قبل البارون والوكالة ومن بينهم المؤلف نفسه ، منطقة حوران ، حيث قدموا في النهاية تقريرا الى موشيه شرتوك ( شاريت ) رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية ·

ولكن شركة بيكا ( Palestine Jewish Colonisation Association ) رفضت مقترحاتهم ، ومن ثم ما لبثت ان

نشبت الحرب العالمية الثانية ، وكانت تلك اخر محاولة لتجديد الييشوف اليهودي في حوران • ويذكر المؤلف ان الاراضي التي اشترتها شركة بيكا في حوران تتوزع كالتالي ، في جيلين ١٣٫٠٠٠ دونم ، سحم الجولان ٣٣٫٠٠٠ دونم ، بوسطاس ١٢٫٠٠٠ دونم ، نفعة ٢٠٫٠٠٠ اي ما مجموعه ٧٨٫٠٠٠ دونم • ولدى قيام الدولة اليهودية صادرت الحكومة السورية كافة هذه الاراضي ، ولكن ادارة بيكا لم تستسلم بل اتخذت اجراءات قانونية ضد الحكومة السورية •

## جماعة عمان

في اطار محاولات الصهيونية لشراء الاراضي في شرقي الاردن والبدء بعملية الاستيطان هناك ، ارسلت الحركة جماعة يهودية للعمل في البناء وكذلك لدراسة حياة البدو والمنطقة • وكان المؤلف احد هؤلاء . حيث تعلم في البداية عملية صنع حجارة الطوب ، وثم سافر هو ومجموعة اخرى الى معان وعملوا في البناء ، ومن ثم انتقلوا الى السلط واقاموا علاقات وثيقة مع الشباب المثقف هناك حيث تحول مسكنهم الى منتدى للشباب • وقد استطاعوا اخذ مقاولات هناك بسبب الهزة الارضية التي اصابت المنطقة في تلك الفترة • وانتقلوا بعدها الى عمان حيث تعرفوا الى سعيد المفتي ، الذي اصبح فيما بعد رئيسا للحكومة وكذلك هاشم بك الخير احد الشخصيات المعروفة•

وفي تلك الفترة انتقل المؤلف للعيش مع قبيلة بني صخر جنوبي عمان حيث حل ضيفا على زعيمها مثقال الفايز ، وذلك بحجة دراسة حياة البدو • وقد استمرت زيارته هذه مدة شهرين • وكانت مهمته حسب اقواله دراسة امكانية شراء الاراضي هناك ودراسة امكانية الاستيطان اليهودي في المنطقة ، وكذلك العمل على ايجاد موطيء قدم للعمل العبري في شرقي الاردن ، التي تعتبرها الحركة الصهيونية جزءا لا يتجزأ من ارض اسرائيل •

## مشروع لجنة بيل والبطريرك الماروني

يقول المؤلف أن الحركة الصهيونية اجرت اتصالات مع الطائفة المارونية في لبنان ، حيث رأت هذه الطائفة ورؤساء كنيستها ورئيسها اميل اده ، في اقامة دولة يهودية في فلسطين تدعيما لامن لبنان واستقلاله • وكانت للحركة الصهيونية علاقات وثيقة مع رئيس الكنيسة المارونية ، البطريرك انطوان عريضة • وقد زادت اهمية هذه اللقاءات كلما لاحت في الافق احتمالات ان توصي لجنة بيل بتقسيم فلسطين ، وذلك « ليساعدنا اللبنانيون في رسم حدود الدولة اليهودية المقبلة » • يقول المؤلف انه زار بكركي في بداية اذار ١٩٣٧ واخبره البطريرك بأنه سيسافر الى باريس للاجتماع برئيس الحكومة الفرنسية ، فاقترح عليه ( المؤلف ) الاجتماع بوايزمن • وقد سافر المؤلف ودوف هوز والبطريرك على نفس الباخرة ، وقاموا ببحث مسألة التقسيم ، حيث شددوا أمامه على المحاولات التي يجب ان يبذلها الطرفان للحيلولة دون فصل البلدين • اي يجب ان تكون الحدود بينهما مشتركة ، وطلبوا اليه ان يسعى الى تأكيد ذلك لدى اجتماعاته مع البابا ومع كافة المسؤولين الاوروبيين • ولدى وصوله الى باريس زاره وايزمن والمؤلف في فندقه ، وأكد البطريرك في الاجتماع انه

سيعمل كل جهد لايجاد حدود مشتركة مع الدولة اليهودية اذا ما قسمت البلاد ٠ وطلب البطريرك من وايزمن أن يضغط على رئيس الحكومة الفرنسي ليون بلوم ، لدعمه الاستقلال اللبناني والمحافظة عليه من المحيط العربي ٠

**اميل اده والصهيونية**

يقول المؤلف انه بالرغم من تزايد الاعمال العدوانية من قبل لبنان بعد فترة طويلة من الهدوء النسبي ، فان ذلك لا يثنيه عن ذكر اسماء بعض الشخصيات والسياسيين ، الذين تمتعوا بمناصب محترمة في الحياة الروحية والاجتماعية والسياسية في لبنان ، الذين تطلعوا الى علاقات وثيقة ، وعملوا من اجل التفاهم والتعاون بين دولتهم والييشوف اليهودي في فلسطين ٠ وكان اميل اده احد البارزين منهم ، والذي تطلع الى اليوم الذي تستطيع فيه لبنان اقامة علاقات ودية مع الدولة اليهودية عندما تقوم ، وكان مؤيدا للصهيونية واهدافها ٠

يقول المؤلف انه تعرف الى أميل اده اثناء دراسته في بيروت في السنوات ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ ، عندما عمل المؤلف ايضا مراسلا لكل من « دافار » و«فلسطين بوست» ووكالة رويتر في سوريا ولبنان ٠

وفي تلك الايام كان أده عضوا في البرلمان اللبناني وكان يترأس الكتلة الوطنية اللبنانية الموالية لفرنسا ٠ وقد قابله للمرة الاولى في بيت البرت نقاش ، وهو مهندس ماروني ، وابن عم الفرد نقاش رئيس لبنان ما بين ١٩٤١ ـ ١٩٤٣ ٠

وكان البرت نقاش من مؤسسي « رابطة الفينيقيين الشبان » في لبنان التي كان هدفها الاستقلال الروحي والثقافي عن المحيط العربي ٠ وعندما زار الدكتور فيكتور يعقوبسون بيروت عام ١٩٣٣ ، بمهمة من قبل الوكالة اليهودية ، أجرت رابطة الفينيقيين الشبان استقبالا حارا له ، وقد القى الضيف خطابا اشار فيه الى العلاقات التاريخية بين الملك سليمان والملك حيرام ، ودعا الرابطة للعمل من اجل تجديد الصداقة القديمة عن طريق توثيق العلاقات بين الييشوف اليهودي وبين احفاد الفينيقيين ٠

ثم يصف المؤلف اللقاء الاول مع أده ، حيث عرف الكثير عن ارائه السياسية وعن نظرته بالنسبة لمشاكل المنطقة بما فيها مشكلة فلسطين ٠ وكان اده يعتبر لبنان بمثابة « الغرب الموجود في الشرق » ، وان الحضارة الغربية تنتهي بمجرد انتهاء حدوده ٠ هو اي اده ، لم يكن يؤمن « بالعروبة » ، وكان اده يطلق على الفينيقيين الشبان اسم « صهيونيو لبنان » ٠

كان اده ، حسب رواية المؤلف ، يعتبر الصهيونية وارض اسرائيل حليفان للبنان المسيحي والمحمي من الارتباط بالعروبة او بسوريا الكبرى ٠ وقد عبر اده عن ذلك للمؤلف قبل انتخابه للرئاسة عام ١٩٣٦، حيث أشار الى سروره نتيجة لانتشار الرأي بين الطائفة المارونية حول المصالح المشتركة لكل من المسيحيين في الدول العربية واليهود في ارض اسرائيل ، حيث كلاهما يواجه خطرا روحيا وماديا من قبل الاغلبية المسلمة ٠ وكان لاده نصيب لا يستهان به في تقريب كل من البطريرك انطوان عريضة واغنطيوس مبارك ، مطران الكنيسة المارونية في بيروت الى وجهة النظر هذه ٠ كما ايد اده كافة المقترحات التي قدمت اليه لدعم العلاقات

التربوية والاقتصادية بين اليشوف اليهودي في ارض اسرائيل ولبنان . فعندما عرض البرت نقاش عام ١٩٣٨ على « الشركة الاقتصادية الفلسطينية » في الولايات المتحدة اقتراحا بشأن اقامة مشروع لبناني - يهودي مشترك لاستغلال مياه الليطاني لفائدة الدولتين ، ايد اده هذا الاقتراح ورأى فيه فرصة جديدة لتوسيع المشاركة في مجالات اخرى .

وخلال فترة رئاسته اعطى اده موافقته على اقامة « جمعية الصداقة اللبنانية - الاسرائيلية » من اجل التعاون الثقافي بين البلدين ( اي المؤسسات الثقافية اليهودية في فلسطين ومؤسسات لبنانية ). وقد أعد موشيه شاريت انظمة هذه الجمعية ، ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ اعاق تنفيذها .

يقول المؤلف ، لقد عبر اده عن تأييده للاماني الصهيونية بصورة جلية عندما اجتمع مع وايزمن في باريس في يوليو ١٩٣٧ ، وانه منذ انتخابه ١٩٣٦ اقام علاقات شجاعة مع الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية . وقد طلب من المؤلف ، ان يحافظ على هذه العلاقة ، حيث كان يزوره بين الفترة والاخرى في بيروت ويطلعه على ما يحدث في الحلبة السياسية المتعلقة بارض اسرائيل ،

واشراكه في القضايا التي اشغلت الحركة الصهيونية والاستماع اليه بالنسبة لما يحدث في المعسكر العربي . ويقول ان اده رأى في قيام دولة يهودية مجاورة للبنان دعما لاستقلاله والوقوف بثبات في وجه تطلعات زعماء سوريا الوطنيين الذين يرفعون شعار « سوريا الكبرى » ودعما لكافة الاقليات التي ترفض السيطرة الاسلامية . وكانت احدى اهتمامات اده هو ان يؤمن مشروع التقسيم حدودا مشتركة بين الدولة اليهودية ولبنان . ويضيف المؤلف ، انه اشار على اده الاجتماع مع حاييم وايزمن لدى زيارته لباريس في نهاية يونيو ١٩٣٧ ، وقد وافق اده على الفور على هذا الاقتراح ، وقد تم اللقاء في ٢٢ حزيران ، وخلال اللقاء ، قال وايزمن ان تقرير لجنة بيل بشأن التقسيم سيصادق عليه بعد نصف ساعة ، وبعد انتهاء هذه الفترة نهض اده من على كرسيه وتقدم من وايزمن وقال له : « الان بعد ان اصبح تقرير لجنة بيل وثيقة رسمية . يشرفني أن اهنىء الرئيس الاول للدولة اليهودية التي ستقوم » .

واضاف ، حيث أنه اول المهنئين لوايزمن بشأن هذا القرار التاريخي الذي أعاد البلاد الى اصحابها . اطلب ممن سيقف على رأس الدولة الجديدة ، عقد اول اتفاقية للصداقة بينها وبين لبنان . وعلق وايزمن على هذه المقابلة بقوله : لقد وجدت في اده صديقا حقيقيا لنا ، فهو لا يرى في الصداقة بين لبنان والدولة اليهودية ، مجرد فائدة مشتركة للطرفين، بل فائدة للثقافة الغربية واستقرارها في الشرق الاوسط .

## الملك عبد العزيز بن سعود والحركة الصهيونية

يقول المؤلف ان الدولة العربية الوحيدة التي لم يكن للوكالة اليهودية اية علاقات معها ، هي السعودية . فقد رفض الملك عبد العزيز بن سعود بصورة مطلقة اية اتصالات من جانبه او رجاله مع ممثلي المؤسسات اليهودية والصهيونية، ومنع دخول اليهود الى السعودية . ولكن الصهيونية وجدت مفتاحا لذلك ، بواسطة

فؤاد حمزة وهو من الدروز اللبنانيين ، تعرف عليه المؤلف اثناء دراسته في الجامعة الاميركية في بيروت · حيث ساعده في البحث الذي اعده عن اوضاع البدو المتجولين في الصحراء السورية · وفي عام ١٩٢٥ عين حمزة مربيا لابناء الملك عبد العزيز ، وهما سعود وفيصل حيث نجح في كسب ثقة الملك فأصبح مستشارا للامير فيصل · وقد اجتمع به المؤلف في تلك الفترة وطلب منه أن يسهل دخوله الى منطقة خيبر بحجة دراسة المنطقة ووعده·بان يفعل ذلك لدى عودته الى السعودية · وقد تقابل المؤلف مع حمزة في ٨ ابريل ١٩٣٧ في بيروت في بيته ، حيث قال له : جئتك الان بصفتي مسؤولا عن قسم البلاد المجاورة في الدائرة السياسية ، من اجل التحدث معك حول قضية ارض اسرائيل · حيث اننا مهتمون بمعرفة اراء الملك عبد العزيز حول هذه القضية ، واننا نود شرح وجهة النظر الصهيونية له بصورة مباشرة · وجرى في تلك الفترة أيضا في ١٣ ابريل من السنة نفسها ، عقد اجتماع بين حمزة وبين بن غوريون وشرح له اهداف الصهيونية وطلب اليه نقلها الى الملك عبد العزيز ·

وأشار حمزة على بن غوريون ان يقوم رجال الوكالة اليهودية بالاجتماع الى الامير سعود الذي سيسافر الى لندن لحضور الاحتفالات لتتويج الملك جورج السادس · وقد حاول الوفد اليهودي الاجتماع بالامير سعود ولكنه رفض ذلك رفضا قاطعا ، ومن يومها انقطعت اخبار حمزة ، الا ما ورد منها على لسان احد الاصدقاء في بيروت الذي بعث برسالة الى القدس شرح فيها الوضع السيء الذي تعرض له حمزة ، عندما أخبر الامير سعود بانه قابل اعضاء من الوكالة اليهودية · ويختتم المؤلف الحديث عن ذلك بقوله : ان اللقاءات مع فؤاد حمزة كانت اول اتصال وربما الوحيد من قبل الوكالة اليهودية مع ممثل الحكومة العربية السعودية ·

**ثم يختتم الكتاب بنشر محاضر اللقاءات بين مندوبي الوكالة اليهودية وممثلي الكتلة الوطنية السورية** ، والتي سنستعرض الان نقاطها الاساسية :

**١ ) اللقاء مع فخري بك البارودي في رومـا في ١٧ يوليو ١٩٣٦** ، وقد حضر عن الجانب السوري فخري بك البارودي ، عضو اللجنة المركزية « للكتلة الوطنية السورية » ، وعن الجانب اليهودي الياهو افتشاين ( ايلات ) يرافقه عاموس لندمان ودافيد لوزيه · فقد تحدث البارودي عن الاحداث الدموية التي حدثت في فلسطين ، فأبدى الياهو ايلات نفيه القاطع من ان يكون اليهود مسؤولين عنها · ثم تطرق الحديث الى استقلال سوريا حين اكد الياهو ايلات تأييد الصهيونية للاماني الوطنية للشعب العربي بأسره وخاصة السوري · وفي النهاية سأل ايلات ، البارودي هل يعتقد ان هناك مجالا للتفاهم بين العرب واليهود وكيفية تحقيقه ؟ فأجاب البارودي ، انه يوافق على الفائدة التي سيجنيها الشعب العربي كله من التعاون مع الشعب اليهودي ، واشار الى النقص في القدرة والكفاءة السياسية لدى الزعماء العرب لفهم هذه القضية · واضاف البارودي : لا تنسوا انتم اليهود انكم تحملون الفكرة الصهيونية منذ ألفي سنة ولهذا لا عجب من وجود برنامج بعيد المدى وان الطريق واضح امامكم · وبالمقابل فنحن مبتدئون وبحاجة الى وقت طويل لنثقف شعبنا كي يرى الامور بأعين مفتوحة · ومن اجل

الحصول على ثقة الشعب العربي تجاهكم فان ذلك يتطلب ليس فقط الثقافة والدعاية وانما وجود دلائل واضحة من طرفكم تبين صدق نواياكم ، واننا نعرف انكم تسيطرون على نصف وربما ثلثي الصحافة العالمية ، لذا نرجوكم ان تحاولوا خدمة مصالحنا كما تفعلون لمصالحكم ، وان تؤثروا باستخدام نفوذكم على اوساط مختلفة في اوروبا وامريكا لصالحنا . وحول التعاون تحدث البارودي قائلا « لا أرى سببا يحول دون عملنا سوية » ، انتم تملكون الكفاءة والاموال ونحن نملك الارض والقوى .

وبالنسبة للاحداث في فلسطين يقول البارودي : قمت بكل ما استطيع فعله كيلا يزداد الوضع خطورة وسوءا ، منعنا الاف الشبان السوريين الذين ارادوا الذهاب لمساعدة أخوانهم ، وكذلك عطلنا عمليات تهريب الاسلحة . وطالب بايقاف الهجرة اليهودية ريثما تهدأ الاوضاع ، ولكن ايلات رفض ذلك رفضا قاطعا . وفي نهاية اللقاء طلب البارودي من ايلات ان يقوم بالاتصال مع الوفد السوري في باريس لدى وصوله الى هناك ، وان يقدم لهم التوصيات والمعونة ، وسأله ان يقوم بالضغط على الحكومة الفرنسية كيلا يعود الوفد السوري بخفي حنين . وعندما نهض ايلات للذهاب وقف البارودي وقال له : اذا ساعدت الوكالة اليهودية الوفد السوري في باريس ، فسيكون ذلك دليلا على شعور الصداقة التي يكنها الشعب اليهودي للشعب العربي ، وان مثل هذا العمل من قبلكم سيعطي « الكتلة الوطنية » سلاحا قويا للمبادرة في عمل ما بروح محادثتنا .

**٢ ) محضر الجلسة بين ممثلي الوكالة اليهودية والكتلة الوطنية السورية في بلودان ، ١ اب ١٩٣٦**

وقد مثل الجانب السوري فيها شكري القوتلي وفخري البارودي ولطفي الحفار ، وحضر عن الوكالة اليهودية الياهو ايلات وعاموس لندمان . تحدث ايلات في هذه الجلسة شارحا نشوء الحركة الصهيونية ومكانة فلسطين في حياة الشعب اليهودي وأشار الى امكانية التعاون مع العرب وخاصة الكتلة الوطنية السورية . وختم قوله ، انه من اجل التوصل الى اتفاق عربي ـ يهودي يجب على الكتلة الوطنية السورية ، ان تتفهم وتعترف بالاماني القومية للشعب اليهودي والموافقة على حقه التاريخي في اقامة وطنه القومي في فلسطين . وتحدث القوتلي فشكر ايلات على محاضرته وقال انه يشرفه الالتقاء بمندوب رسمي عن الوكالة اليهودية ، وقال ايضا ان فكرة التفاهم بين العرب واليهود ليست جديدة فقد تقابلنا مع شخصيات يهودية ذات مكانة عالية ولكن هذه المرة بصورة رسمية . وعبر القوتلي عن رغبته الحقيقية في التوصل الى اتفاق مع الوكالة اليهودية ، عبر التفاوض ، بعد ان يتم تحديد وتوضيح كافة القضايا . وتم الاتفاق على عقد لقاء اخر يتم فيه بحث (١) مسألة العلاقات بين العرب واليهود في فلسطين (٢) مسألة اتفاقية عربية ـ يهودية .

**٣ ) محضر الجلسة التي عقدت في دمشق ، ٩ـ٨ـ١٩٣٦**

حضر عن الجانب السوري ، كل من شكري القوتلي وفايز الخوري ولطفي الحفار ، وعن الجانب اليهودي دوف هوز والياهو افشتاين ودافيد هكوهين ويوسف نحماني . وكان على جدول الاعمال مسالتين ، اولهما العلاقات بين اليهود والعرب في فلسطين وثانيهما بين العرب واليهود بصورة عامة . واشار القوتلي الى انه لاحظ ان الوفد اليهودي يسجل نص محضر هذه الجلسة والتي سبقتها ، ولهذا طلب عدم نشر اي شيء عن الجلسة

دون موافقة الطرفين · وتحـــدث دوف هوز فأشار الى ان خوف عرب فلسطيــن من المشروع الصهيوني مزعـــوم ، وان المفاوضات ستنجح اذا ما رأى كل طرف على حدة والطرفان معا ان لهما مصلحـة بذلك ، حيث أن باستطاعة اليهود رفـع مستوى الفلاح العربي ، وتحدث بقيـة اعضاء الوفد اليهودي عن المشكلـة اليهودية والصهيونية ، مؤكدين ان ذلـك لن يتم على حساب العرب ·

**٤ ) محضر الجلسة التي عقدت فـي دمشق بتاريخ ٢ـ١ـ١٩٣٧**

اشترك فيها عن الجانـب السـوري شكري القوتلي ، وعن الجانب اليهـودي الياهو ايلات والياهو ساسـون وتـم الاجتماع في بيت القوتلي ، الذي كان قد اصبح وزيرا للمالية · وقد سلمه الوفد اليهودي محاضر الجلسات في بلـودان ودمشق بين ممثلي الوكالة والكتلـة الوطنية ، وطلب اليه قراءتها والمصادقة على ما جاء فيها · ولكن اتضـح لنـا ( المؤلف ) ، ان القوتلي لم يسلمنـا النصوص موقعة لانه لا يريد ان يتـرك بأيدينا وثيقة موقعة بشأن المحادثـات معنا · وكانت الكتلة قد تسلمت السلطـة مؤخرا ، وعندما طلب اليه الـرد حول المحاضر قال بأنه سيسلمها لرفاقـه ، وانه سيهتم بالحصول على استعدادهـم لمواصلة المفاوضات هنا · وهنا فهمنا مـن ملاحظته الاخيرة ان تغيرا ما قد حـدث على موقفه وعلى موقف حكومته ، فيمـا يتعلق بالاتصالات مع الوكالة اليهودية ·

**٥ ـ محضر الجلسة التي عقـدت فـي دمشق في ٣ـ١ـ١٩٣٧**

حضر عن الجانب السوري جميـل مردم رئيس الحكومة السورية ، وعـن الجانب اليهودي الياهو ايلات · وقـد سلمه ايلات رسالة تهنئة من وايزمـن بمناسبة تعيينه رئيسا للحكومة ورد مردم قائلا : طالما يوجد لديكم سياسي مثـل الدكتور وايزمن ورجل خبير بقضايا الشرق مثل شرتوك ، فانني متفائل بان مسالـة العلاقات بين اليهود والعرب ستجد حلها المناسب · وقال انه يعرف كافة التفاصيل عن المفاوضات التي جرت مع « الكتلـة الوطنية » وابدى اسفه لعدم تمكنه مـن الاشتراك فيها · وقال انه مشغـول الان بقضايا سورية الحيوية ، وانه سيتفـرغ بعدها لمسألة المفاوضات معنا ( الوكالة ) · وأشار الى ان الخلاف بيننا هو خـلاف اقرباء لان مصالحنا مشتركة ، وعبـر عن أمله في ان تتكرر الزيارة ·

**٦ ) محضر الجلسة المعقودة في دمشـق بتاريخ ٢٦ـ٢ـ١٩٣٧**

مثل الجانب السوري جميل مردم ، كما مثل دوف هوز والياهو ايلات الجانـب اليهودي · وتحدث دوف هوز في هـذه الجلسة عن الاشاعات التي تدور حـول تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية· فأشار الى انه اذا تحقق ذلك فسيصيـب الضرر المصالح اليهودية والعربية فـي فلسطين وان سوريا ستتضرر نتيجـة لذلك · وتوجه بسؤال الى رئيس الحكومة سورية حول استعداده هو ورفاقه للتأثير على الزعماء الفلسطينيين للتوصل الـى اتفاق مع اليهود قبل فوات الاوان · ورد مردم قائلا بأنه سيتصل بالحاج اميـن الحسيني بهدف التأثير عليه وعلى بقيـة الزعماء الفلسطينين ليقوموا باجـراء مفاوضات معنا · ووعد بأنه سيقـوم هو ورفاقه ببذل كل ما لديهم من قوة لكي تثمر اتصالاتهم هذه ·

**٧ ) محضر الجلسة المعقودة في باريس بتاريخ ١٠ـ٦ـ١٩٣٧**

حضر عن الجانب السوري جميل مردم واحسان الجابري ، وعن الجانب اليهودي الياهو ايلات • وتحدث مردم عن التوسط بين الحركة الصهيونية وعرب فلسطين ، فقال انه لم ينجح في ذلك • وقال بان الحل الوحيد هو المفاوضات المباشرة بين اليهود وعرب فلسطين ، ووعد بعد الانتهاء من حل مشاكل سوريا ، ان يتفرغ للتوصل الى اتفاق بينهما • وقال ان تقسيم فلسطين لا يشكل حلا ، وانه سيسبب ضررا لليهود والعرب على السواء • وذكر بأنه يعرف من مصادر موثوقة ان الجزء العربي من فلسطين سيضم الى شرقي الاردن وان الامير عبد الله سيقف على رأس الدولة العربية الجديدة •

وأشار مردم خلال المحادثة الى انه لم يعارض الصهيونية أبدا ، وانه قدر دائما قدرات ومواهب القائمين عليها وانه نصير اتفاق عربي ـ يهودي • وذكر ايضا انه أرسل كتابا مطولا الى الملك عبد العزيز حول العلاقات بين اليهود والعرب ، وانه اشار عليه وجوب اشراك جميع ذوي النفوذ في العالم العربي بشأن المفاوضات بين عرب ارض اسرائيل وبيننا ( اليهود ) •

**حمدان بدر**

---

# شهريات

## المقاومة الفلسطينية

بانتظار المرحلة الثالثة من الانسحاب الاسرائيلي من الجنوب ، ارتبط موضوع اتفاق القاهرة مع موضوع الانسحاب ارتباطا وثيقا لاسباب عديدة ابرزها :

اولا : ان اسرائيل اشترطت لاتمام الانسحاب ان لا تعود القوات الفدائية الى المناطق التي ستنسحب منها ·

ثانيا : ان السلطة اللبنانية تريد مد سلطتها الى الجنوب عبر ارسال مجموعات من الجيش اللبناني ، ويقتضي ذلك اتفاقا مع قوات المقاومة الفلسطينية ·

ثالثا : ان المليشيات اليمينية في الجنوب تضع وجودها شرطا لازما ما دامت السلطة تعترف باتفاق القاهرة ، وبالتالي بالوجود الفلسطيني المسلح ·

وبسبب هذه العوامل الثلاثة المتشابكة، تداخلت العوامل الفلسطينية واللبنانية والاسرائيلية مع بعضها البعض ، وتداخلت من جهة اخرى كل هذه العوامل مع مهمة قوات الطوارىء الدولية في لبنان وتفسيرها لقرار مجلس الامن رقم ٤٢٥ الذي تعمل على اساسه : وكانت هذه القضايا محور اتصالات ومباحثات واسعة على امتداد الفترة من ١٥ ايار الى ١٥ حزيران ·

**العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية :**

كان من الواضح أن بلورة موقف رسمي لبناني لا يتم الا على قاعدة من التفاهم مع المقاومة الفلسطينية ، خاصة وان المقاومة اظهرت استعدادها الدائم لاتخاذ كل ما من شانه ان يسهل عملية الانسحاب الاسرائيلي · وقد بادر الدكتور سليم الحص (٢١ـ٥) الى اعلان موقف باسم حكومته قال فيه ردا على جدل السياسيين اللبنانيين المطالبين بالغاء اتفاق القاهرة « لا اعتقد ان من المجدي التعرض لاتفاق القاهرة اليوم ··· والوجود الفلسطيني واقع لا يمكن اغفاله···· ونسعى للوصول الى تفاهم مشترك مع منظمة التحرير الفلسطينية حول الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان ···· وندعو الجميع من اليسار واليمين ، ومن الفلسطينيين واللبنانيين الى وقف التحرك المسلح في

منطقة القوات الدولية باستثناء قوات الامن اللبنانية » . وكان هذا التصريح تمهيدا لموقف اخر اعلنه الرئيس الياس سركيس في اجتماع مجلس الوزراء ( ٢٤ـ٥ ) وقال فيه انه يجب « عدم الربط بين تنفيذ اتفاق القاهرة ، وتنفيذ القرار ٤٢٥ » وكانت هذه التصريحات اللبنانية مقدمة لانجاح اللقاء المنتظر بين المقاومة والسلطة اللبنانية في اليوم نفسه ، حيث اجتمع الوفدان برئاسة عرفات والحص ، واسفر اللقاء سريعا عن بيان اصدرته المقاومة اثناء الاجتماع واعلنت التزامها فيه بالنقاط التالية :

١ ـ حرص المنظمة على تسهيل مهمة القوات الدولية لتحقيق الانسحاب الاسرائيلي وعودة السيادة اللبنانية الى الجنوب .

٢ ـ شجب التجاوزات والممارسات السلبية في الجنوب والاستعداد الكامل لبذل كافة الجهود لمنع التجاوزات .

٣ ـ العزم على انهاء المظاهر المسلحة لمساعدة السلطة الشرعية .

٤ ـ السعي لتأمين عودة المتطوعين الذين جاؤوا الى لبنان في فترة الغزو الاسرائيلي .

وذكر ناطق باسم المنظمة ( طلال ناجي) ان اتفاقية القاهرة لم تكن في هذا اللقاء موضع جدل او نقاش . وبعد ايام ، وردا على ما أشيع من ان ما جرى في اللقاء المشترك ادى الى وضع اتفاق جديد بديل لاتفاق القاهرة ، اعلن الحص واعلنت منظمة التحرير ( ٢٧ـ٥ ) ان « ما صدر عن لقاء الدوحة لم يكن اتفاقا جديدا » .

وساهم صلاح خلف ( ابو اياد ) في توضيح ابعاد الموقف الفلسطيني بحديث واسع ومفصل ( المونداي مورننغ ـ ٢٨ـ٥) ذكر فيه ان المقاومة وافقت على وقف العمليات من الجنوب ، ووضع حد للتجاوزات ، وازالة المظاهر المسلحة ، مقابل التمسك باتفاق القاهرة ، ورفض « تجريدنا من السلاح » . واوضح ابو اياد انه ليس هناك تضارب بين اتفاق القاهرة وعودة سيادة الدولة اللبنانية للجنوب .

وفي ٣ـ٦ جرى اجتماع ثان متكتم بين عرفات والحص لم يعلن عن نتائجه اي شيء رسمي ، وان كان قد رشح ان البحث تركز فيه على ارسال الجيش اللبناني للجنوب ، ثم عقد اجتماع ثالث ( ٨ـ٦ ) جرى فيه بحث ومتابعة تنفيذ ما اتفق عليه في الاجتماع الاول من اجراءات وعدت المقاومة بتنفيذها .

ورافق هذه الاجتماعات وتلاها عدوانان اسرائيليان ، الاول على منطقة النبطية وجوارها (٣٠ـ٥ ) وادى الى مقتل واصابة ٢٢ شخصا من جراء عمليات القصف المدفعي الكثيف ، والثاني في منطقة العقبية ، حيث قامت اسرائيل بانزال قوة بحرية كبيرة هاجمت قاعدة لحركة فتح ودار حول القاعدة وداخلها قتال عنيف اعترفت بعنفه اسرائيل ، وادى هذا العدوان الى استشهاد ٤ وجرح ٦ من الفدائيين ، والى استشهاد ٩ من المدنيين اللبنانيين ، والى اعتراف اسرائيل بمقتل ضابطين وجرح ٨ جنود من المهاجمين .

### الانسحاب

في ٢١ـ٥ اعلنت اسرائيل ببيان رسمي انها ستتم انسحابها من جنوب لبنان يوم ١٣ حزيران . ويذكر ناطق اسرائيلي بعد ذلك ان الانسحاب مشروط بـ « ترتيبات مناسبة » تكفل عدم عودة الفدائيين . ومنذ هذا الاعلان بدأ البحث اللبناني الجدي بقضية ارسال الجيش الى الجنوب ، وكان ذلك موضوع بحث اساسي في قمة اللاذقية ( ٣١ـ٥ ) بين الرئيسين الياس سركيس وحافظ الاسد ، حيث أسفرت المباحثات عن اتفاق الطرفين على

ضرورة انجاز هذه الخطوة · وفور انتهاء القمة التقى عبد الحليم خدام وزير الخارجية السوري مع عرفات بدمشق لابلاغه نتائج قمة اللاذقية وما يتعلق منها بالجانب الفلسطيني ، ثم اجتمع مجلس الوزراء اللبناني ( ٣ـ٦ ) واقر مبدأ ارسال الجيش الى الجنوب ، مع تأجيل البت بتوقيت ذلك ، ثم تولى الرئيس سركيس بحث الامر مع كميل شمعون وبيار الجميل ، ولكن شمعون بادر فور ذلك الى وضع العراقيل حسب طريقته المعهودة فأعلن ( ٤ـ٦ ) عن « ضرورة تأمين طريق الدامور قبل ارسال الجيش للجنوب » ، ورد وليد جنبلاط على موقف شمعون بقوله « ان قضية الدامور هي جزء من قضية المهجرين من تل الزعتر والكرنتينا » · (٦ـ٦ ) ·

وكان طبيعيا ان يتشعب هذا البحث ليشمل القوات الدولية ، وفي هذا الاطار التقى الجنرال امانويل ارسكين قائد القوات الدولية مع عرفات (٢ـ٦) ، واعلن أرسكين بعد اللقاء ان عرفات يوافق على :

١ ـ تجميد العمليات العسكرية ·

٢ ـ منع التسلل ·

٣ ـ يصر على حق العودة الى القواعد بعد الانسحاب الاسرائيلي · وذكر ارسكين ان عرفات وافق على السماح لضباط مراقبة دوليين بالتمركز في قلعة الشقيف ، وتم تنفيذ ذلك فعلا يوم ١١ـ٦ ·

ومن جهتها اعلنت المقاومة عن اللقاء انه تمت فيه ازالة سوء التفاهم الذي سببته تصريحات أرسكين السابقة عن تناقض اتفاق القاهرة مع قرار ٤٢٥ ، وذكرت انه تم الاتفاق على اعتبار كل ما يتعلق بالعلاقات اللبنانية الفلسطينية خارج اطار تدخل القوات الدولية ·

وأعلن عرفات بعد اللقاء في خطاب امام فريق من المقاتلين ان « لا احد يستطيع ان يلغي تواجدنا ، ونحن موجودن حيث توجد البندقية الفلسطينية ، ونلتزم بعدم القصف الا اذا هوجمنا لاننا لا نريد تحميل جبهة الحدود اكثر مما تحمل الان » ·

أما على الصعيد اللبناني فقد حضر الى بيروت ( ٥ـ٦ ) الجنرال سيلاسفيو منسق قوات الطوارىء الدولية في الشرق الاوسط ، واجتمع الى المسؤولين ، حيث اطلع منهم على ترتيبات ارسال الجيش اللبناني للجنوب ، وابلغهم شروطا اسرائيلية للانسحاب تقضي بالاحتفاظ بأربع مواقع ، مما دفع وزير الخارجية فؤاد بطرس لان يعلن انه غير متفائل بالانسحاب الاسرائيلي الكامل يوم ١٣ حزيران ، ثم عاد بطرس واعترف رسميا ( ٨ـ٦ ) بان اسرائيل طلبت البقاء في النقاط الاربعة بعد الانسحاب ·

وفي اليوم التالي ( ٩ـ٦ ) اعلن أرسكين شرطا جديدا للانسحاب الاسرائيلي ، يقضي بان اسرائيل ستسلم المناطق التي ستجلو عنها الى الميليشيات اليمينية المتواجدة في الجنوب بقيادة الرائد سعد حداد · وانتقد ارسكين اسرائيل لموقفها هذا الذي يتناقض مع مضمون القرار ٤٢٥ واشاد بتعاون منظمة التحرير معه · وقد نفذت اسرائيل شرطها هذا مباشرة ، وبدأت منذ يوم ١٠ـ٦ بعمليات تسلم وتسليم بين قواتها وقوات سعد حداد ، بعد ان أمدته بعدد من الاليات والمدافع ·

وقد ادخل هذا الموقف الاسرائيلي تعقيدا شديدا على الموقف ، وخلق أزمة سياسية داخل لبنان حول الموقف من سعد حداد ، ووضع القوات الدولية في مأزق حول كيفية التصرف بعد الانسحاب الاسرائيلي · وحين اعلن مصدر عسكري لبناني كبير ( المونداي مورننغ ١٢ـ٦ ) قبل الانسحاب بيوم واحد ان « سعد حداد ضابط في الجيش مكلف بمهمة من القيادة السابقة ، ولكن لا توجد اتصالات

بينه وبين القيادة الحالية » زاد في غموض الموضوع بدل ان يوضحه ، خاصة وان ارسكين اعلن في يوم الانسحاب بالذات ( ١٣ـ٦ ) ان لديه تعليمات بأن « حداد يمثل الحكومة اللبنانية » وهو ما رد عليه مصدر رسمي لبناني بالقول ان « التصريح المنسوب لارسكين عار عن الصحة » ، وابرز ذلك خلافا داخل السلطة اللبنانية نفسها ، وربما وجود تعليمات ومواقف متناقضة · واستمر هذا التناقض بينما كانت اسرائيل تنسحب على طريقتها وتسلم ٢٢ موقعا لقوات سعد حداد ، و ١٤ موقعا فقط للقوات الدولية ·

وفي اليوم التالي للانسحاب ( ١٤ـ٦ ) اعلن كورت فالدهايم الامين العام للامم المتحدة ان « الحكومة اللبنانية اعترفت بصورة مؤقتة بالرائد سعد حداد كقائد الامر الواقع للقوات اللبنانية في منطقته»، بينما كان الرئيس الحص يصر على موقف رسمي لبناني اخر يدعو فيه القوات الدولية للسيطرة على كل الجنوب ، قائلا ان « اي تصرف يتعارض مع هذا الموقف يعتبر خروجا على ارادة الدولة ولا بد من مواجهته » ، واكد الحص موقفه في اليوم التالي بتصريح قال فيه انه « ليس للمجموعات العسكرية في الجنوب اي صفة تمثيلية للسلطة » · وبالرغم من هذا الخلاف ، وبسبب عدم تمكن السلطة من ارسال قوات من الجيش الى الجنوب ، فرض الامر الواقع نفسه ، وبقي سعد حداد رغم الحملة عليه في موقعه ، الامر الذي دفع عرفات لان يعلن ( ١٤ـ٦ ) ان ما جرى في الجنوب هو « عملية تسلم وتسليم بين صهاينة الخارج وصهاينة الداخل » ·

**العلاقات الفلسطينية الداخلية :**

بعد البيان السياسي الذي اصدرته حركة فتح ( الشهر الماضي ) ، والذي حددت فيه مواقفها من التسوية ،والتضامن العربي ، والسياسة الاميركية ،واستمرارية النضال المسلح ، دعا ابو أياد ( ١٦ـ٥ ) « لوحدة عسكرية وتنظيمية وسياسية بين فصائل المقاومة الفلسطينية تكون منطلقا لوحدة مع الحركة الوطنية اللبنانية ، وتعتمد على البيان السياسي الاخير لحركة فتح » ·

وبعد ايام من هذه الدعوة اجتمع المجلس المركزي الفلسطيني في دمشق ( ٢٠ـ٥ ) واتفق فيه على دعوة المجلس الوطني الفلسطيني للاجتماع يوم ١٥ اب . على ان يجري تحديد مكان انعقاد المجلس في وقت لاحق ، اما المواقف السياسية التي حددها بيان رسمي فدعت الى :

١ ـ التمسك والالتزام باتفاق القاهرة في لبنان ·

٢ ـ التنبه لمخطط تفجير الوضع في لبنان من جديد ·

٣ ـ رفض اي قمة عربية في ظل مبادرة السادات ·

٤ ـ تجاوز العقبات التي تقف فيطريق الوحدة الوطنية الفلسطينية وتجاوز الخلافات الهامشية ·

وما اشار اليه ابو اياد من دعوة لوحدة شاملة ، وما دعا اليه بيان المجلس المركزي من « تجاوز للعقبات » كان فيما يبدو نوعا من الرد الايجابي على مذكرة اعدتها خمس منظمات فدائية ( منظمات جبهة الرفض الاربعة ، والجبهة الديمقراطية ) وقدمتها رسميا الى قيادة حركة فتح ، وقد تسربت هذه المذكرة الى الصحف ونشرت يوم ٢٥ـ٥ ، وتسجل المذكرة نقدا لسياسة منظمة التحرير في مجالات : التسوية السياسية ، العلاقات مع الدول الرجعية العربية ، العلاقات مع الحركة الوطنية اللبنانية ، ثم تطالب بتشكيل هيئة قيادية تضم الامناء العامين

للمنظمات ، وعدد من قيادة حركة فتح ، مع عدد من الشخصيات الوطنية ، وتكون مهمة هذه الهيئة مناقشة واتخاذ القرار السياسي الفلسطيني ، منعا لاي انفراد في هذا الشأن ·

وقد أدت هذه المذكرة الى اشاعة جو من الحيوية في الحوار الفلسطيني الداخلي ، وعقدت على اثرها سلسلة من اللقاءات الفلسطينية الداخلية بين المنظمات من جهة، وبين المنظمات وحركة فتح من جهة اخرى، جرت فيها مناقشة مضمون المذكرة واتفق على ان يضع كل تنظيم تصوره لاجراءات الوحدة الوطنية المطلوبة ، تمهيدا لحوار اوسع يكون مقدمة لاجتماع المجلس الوطني ، حيث يجري اقرار ما اتفق عليه ·

ورغم حرارة الحوار الداخلي فان انعكاساته المباشرة على الاعلام كانت ضئيلة ، ومن هذا الضئيل ما اعلنه بسام ابو شريف باسم الجبهة الشعبية (٣٠ـ٥) بقوله « اذا اقر المجلس الوطني برنامجنا فسنشترك في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ، وفي المجلس المركزي » ، وذكر ان الجبهة « تكثف حوارها مع المنظمات لوضع برنامج عمل لوحدة وطنية متينة »· ومنه ايضا ما اعلنه خالد الحسن باسم حركة فتح في اليوم نفسه من انه « لا مانع من دخول امناء المنظمات في عضوية اللجنة التنفيذية اذا وافق المجلس الوطني الفلسطيني » ·

اضافة الى ذلك سجل الوضع الفلسطيني حدثين :

اولا : قيام وفد من الجبهة الديمقراطية برئاسة الامين العام نايف حواتمة ، بزيارة مفاجئة الى موسكو ( ٢٩ـ٥ ) ، حيث اجرى مباحثات مع بوريس بونامريوف ( ٢ـ٦ ) ، وصدر عن المباحثات بيان ( ٨ـ٦ ) ، اكد فيما أكد دعم موسكو « للتحالف داخل اطار منظمة التحرير الفلسطينية » ·

ثانيا : قيام خليل الوزير ( ابو جهاد ) بزيارتين لدمشق عقد خلالهما اكثر من اجتماع عسكري مع اللواء مصطفى طلاس ( ٦ـ٦ ) ، ومع اللواء حكمت الشهابي ( ٧ـ٦ ) · وعلم ان البحث تركز في هذه الاجتماعات على بحث عمليات المقاومة العسكرية والتنسيق في ذلك بين المقاومة وسوريا · ولوحظ ان المقاومة قامت بعد هذه الاجتماعات بعملية ضد مستعمرة محولا في غور الاردن ، وذلك للمرة الاولى منذ عام ١٩٧١ ·

وقام قادة المقاومة خلال هذه الفترة بزيارات عربية كان ابرزها زيارات قادة المقاومة لليبيا لمشاركتها باعياد جلاء القوات الاميركية ( عرفات ، ابو اياد ، حواتمة ، حبش ، جبريل ) ، وقيام ابو اياد بزيارة للجزائر اثناء مباحثات بومدين والقذافي ، حيث اجرى معهما مباحثات منفصلة ·

بلال الحسن

# المناطق المحتلة

من بين الموضوعات التي ظهرت مؤخرا في المناطق المحتلة ثلاث موضوعات : محاولة مصادرة مزيد من الاراضي العربية عن طريق الغاء التوكيلات واعداد خطة استيطانية جديدة تستهدف اقامة ست مدن رئيسية في الضفة الغربية ، ومواصلة نهب ثروات سيناء البترولية ·

**قضية التوكيلات**

في اواسط شهر نيسان الماضي ، اخذ موضوع « التوكيلات » يطرح نفسه كقضية في الضفة الغربية · ولكي نحيط بهذه القضية التي اثارتها بالاساس شهوة المصادرة المتحكمة بسلطات الاحتلال ، سنقف قليلا عند القانون الاسرائيلي الخاص بـ « ممتلكات اللاجئين » · لقد صدر هذا القانون على شكل انظمة عقب قيام اسرائيل ، لتنظيم الاستيلاء «القانوني» على ملايين الدونمات التي خلفها اللاجئون الفلسطينيون · وعينت سلطات الاحتلال في حينه « قيما » على « ممتلكات الغائبين » · الا ان هذا « القيم » او « المؤتمن » الذي يفترض فيه حماية الممتلكات الى ان تجد قضية اللاجئين حلا لها ، منح الاراضي للكيرن كييمت لتقوم بدورها باعمال تمهيدها لاقامة المستوطنات اليهودية عليها ·

وفي العام ١٩٦٧ عندما سقط ما تبقى من الاراضي الفلسطينية ، واجهت سلطات الاحتلال وضعا مشابها ، واصدرت قانونا خاصا في عام ١٩٦٧ يعرف باسم « امر بخصوص الممتلكات المتروكة ، ممتلكات الفرد » ينص على ان يحق للقيم الاستيلاء على اية ممتلكات متروكة ، هجرها اصحابها عند مغادرتهم الضفة الغربية · ويقسم اصحاب الممتلكات الى فئتين ، الفئة التي تعيش في دول عدوة ( الدول العربية ) ويعتبر افرادها بمثابة «غائبين»، والفئة الثانية التي تعيش في دول اجنبية، ولا ينظر الى افرادها كغائبين · الا ان سلطات الاحتلال اخذت مؤخرا تنظر اليهم كغائبين · ومن الجدير بالذكر ان سلطات الاحتلال التي عينت قيما او « حارسا » على هذه الممتلكات لم تضع يدها من خلال القيم على ممتلكات الغائبين من الضفة الغربية الا فيما ندر ، وذلك لاسباب عدة من بينها التخوف من التبعات السياسية التي يمكن ان تنجم عن مثل هذا العمل · وقد عثر على مخرج يسمح بموجبه لاصحاب الممتلكات التصرف بممتلكاتهم ، وذلك عن طريق «التوكيلات» ، حيث يوكل صاحب الملك الى شخص ما في الضفة الغربية ، التصرف بممتلكاته ·

الا ان سلطات الاحتلال غيرت هذا الوضع عند منتصف شهر نيسان الماضي عندما اخذت تعلن انها لا تعترف بالتوكيلات متذرعة بحماية حقوق اصحاب الممتلكات

**عقب تكاثر اعمال الغش في التوكيلات ! واعلنت ان القيم على ممتلكات الغائبين سيستخدم صلاحياته وفق القانون ٠**

**لم يكن الهدف من وراء السياسة الجديدة حماية ممتلكات الغائبين من اعمال الغش ، حتى عودة هؤلاء الغائبين ، وانما مصادرتها لحساب المستوطنات التي تظهر في اماكن مختلفة من الضفة**

الغربية ، خاصة وان هذا التوجه الجديد رافق اعمال المصادرة القائمة ليس ضد « الغائبين » وانما ضد « الحاضرين » وزامن ظهور مخطط لاقامة ست مدن في الضفة الغربية للمستوطنين اليهود ٠ هذا فضلا عن ان المصادر الاسرائيلية نفسها اعترفت بان السياسة الجديدة تعني مصادرة ربع مليون دونم من الاراضي بالاضافة الى الممتلكات الاخرى كالبيوت والحوانيت ٠

وقد تصدى المواطنون العرب من اصحاب الاراضي سواء « الغائبون » منهم او حاملوا التوكيلات او «الحاضرون» للسياسة الجديدة ٠ ففي منطقة حارس حيث اقدمت سلطات الاحتلال على مصادرة مساحات واسعة من الاراضي ـ تضاربت المعلومات حول حجمها ـ ارسل رئيس المجلس القروي لحارس عبد الجليل صالح مذكرة الى الحاكم العسكري في نابلس احتج فيها على مصادرة « عشرة الاف دونم من اراضي القرية » وفق ما ذكرته هآرتس ( ١٩ـ٥ـ٧٨ ) والتي نقلت عن جهات وصفتها بالامنية انه جرى مصادرة حوالي الف دونم لصالح المستوطنة الاسرائيلية التي تحمل اسم « حارس » ٠ وقد اعترفت سلطات الاحتلال بعد ذلك وكرد على صحيفة هآرتس ان مساحة الاراضي المصادرة هناك ٢١٢ دونما فقط ٠

كما وتحرك سكان بلديتي النبي صالح ودير نظام بواسطة المحامي الياس خوري للدفاع عن اراضيهم واعادتها اليهم ٠ وتوجه المحامي الى القضاء الاسرائيلي طالبا « امتثال وزير الدفاع الاسرائيلي والحاكم العسكري العام للضفة الغربية والحاكم العسكري لمنطقة رام الله امام محكمة العدل العليا في القدس » وابداء الاسباب التي تدفع بجنود الجيش الاسرائيلي لمنع موكليه من دخول اراضيهم ٠ وطالب ايضا بازالة الاسلاك الشائكة التي طوقوا بها منطقة تبلغ مساحتها ٢٠٠ دونم ، وعدم مضايقة اصحاب الارض ومصادرة اراضيهم لاقامة المستوطنات عليها ٠ واستند المحامي في مذكرته على نصوص من القوانين الدولية القاضية بمنع اية سلطة محتلة اجراء تغييرات على الوضع القانوني وعلى طبيعة المناطق التي تحتلها ٠

ويعتبر هذا الطلب الموجه الى «القضاء» الاسرائيلي الاول من نوعه في المناطق المحتلة ٠ ومن الجدير بالذكر ان « محكمة العدل العليا » استجابت لطلب المحامي ٠

لم يكتف اصحاب الاراضي بالتوجه الى القضاء الاسرائيلي بل بعثوا ايضا بمذكرات الى قناصل الدول الاجنبية في القدس ٠

الى جانب ذلك ،ظهرت حركة احتجاجات واسعة في الضفة الغربية وخاصة في مناطق القدس ورام الله وبيت لحم ضد القرار الخاص بالغاء التوكيلات ٠ ففي بيت لحم عقد اجتماع شعبي كبير خلال النصف الثاني من ايار الماضي ، قرر فيه المجتمعون مطالبة سلطات الاحتلال بالتراجع عن القرار المذكور ٠ كما ونظم اصحاب الممتلكات الموجودون في اوروبا الغربية وامريكا اللاتينية حملة احتجاجات

واسعة · وفي مدينة نيويورك قام اصحاب المتلكات بتظاهرة احتجاجية امام مباني الامم المتحدة ·

وكان من نتيجة تصاعد موجة الاحتجاجات ان تراجعت سلطات الاحتلال عن السياسة الجديدة تجاه ممتلكات الغائبين كما اعلن عن ذلك وزير الدفاع عيزر فايتسمان ، كما واشارت الصحف الاسرائيلية نقلا عن اوساط وزارة الدفاع الى ان سلطات الاحتلال عدلت عن اعتزامها مصادرة مساحات واسعة من اراضي الضفة الغربية تخص الغائبين · بيد ان وزير الزراعة ارئيل شارون اكد ــ وفق ما جاء في معاريف ٣١ــ٥ــ٧٨ ــ على ان قرار محكمة العدل العليا الخاص بمصادرة الاراضي لن يؤثر على النشاط الاستيطاني لان « هنالك مساحات كافية من الارض لتحقيق هذا الهدف » ·

**مخطط لاقامة ست مدن في الضفة**

في الوقت نفسه الذي اثيرت فيه قضية التوكيلات ، طرحت اوساط وزارة الدفاع خطة استيطانية جديدة تحمل اسم « خطة فايتسمان » ، تعتمد على اقامة ست مدن رئيسية ، ثلاث منها في منطقة نابلس وثلاث في منطقة القدس ، تستهدف تثبيت الاستيطان القروي القائم في الضفة الغربية وتعزيزه تمهيدا لتهويد الضفة الغربية وتكريس احتلالها · وقد جاء في حيثيات الخطة التي اعدها فرع البرمجة في قيادة الجيش الاسرائيلي برئاسة العميد ابراهام تمير ان هذه « المراكز الكبيرة تستجيب للصعوبات السياسية خاصة منذ المفاوضات مع مصر » ( هآرتس ١٩ــ٥ــ٧٨ ) · واكد العميد تمير على ان المراكز الدينية في منطقة نابلس تقع في الجزء الغربي من المنطقة ، وبذلك تتوفر « امكانية المفاوضات حول مستقبل المنطقة الشرقية من السامرة » ، كما واكد على ان المراكز الثلاث الاخرى تستهدف « تعزيز الاستيطان في منطقة القدس » ·

وهذه المدن هي :

**منطقة القدس**

١ ــ جعبون ، من المقرر مصادرة ٢٥٠٠ دونم واستيعاب ٥٠٠٠ عائلة ·

٢ ــ معاليه ادوميم ( ٤٠٠٠ دونم ) و ( ٧٠٠٠ عائلة ) ·

٣ ــ افرات ( ١٤٠٠٠ دونم ) و (٧٠٠٠ عائلة ) ·

**منطقة نابلس**

١ ــ حارس ( معظمها اراض صخرية ) ( ١٤٠٠٠ عائلة ) ·

٢ ــ قرني شومرون ( ٣٠٠٠ دونم ) ( ٢٠٠٠ عائلة ) ·

٣ ــ النبي صالح ( بعضها اراضي صخرية ) ( ٢٠٠٠ عائلة ) ·

يبلغ مجموع العائلات في هذه المدن الست وفق الخطة ٣٨ الف عائلة ·

ومن الجدير بالذكر ان الاعمال الاستيطانية تجري على قدم وساق في بعض هذه المراكز قبل ظهور الخطة آنفة الذكر ، ففي مستوطنة حارس تنشط وزارة الاسكان في اقامة المباني ، وفي مستوطنة معاليه ادوميم تجري اعمال البناء واقامة المنشآت الصناعية «باندفاعة قوية » · وتقرر مؤخرا اقامة ١٤ مصنعا وورشة في هذه المستوطنة بالاضافة الى المصانع الـ ١٤ القائمة هناك ، والتي يعمل فيها الان ١٢٧ مستوطنا · ومن المقرر زيادة عدد العمال خلال نصف عام

الى ٧٠٠ عامل · وتضم المستوطنة في الوقت الحاضر ٢٥٠ مستوطنا ·

اما على صعيد الاستيطان القروي فقد اعلن في السادس والعشرين من ايار الماضي عن انتقال اعضاء مستوطنة « تومار » في غور الاردن من النقطة المؤقتة الى النقطة الدائمة ، بعد ان استكملت وزارة الاسكان بناء ٤٠ وحدة سكنية · كما وشرع بتمهيد الارض لمستوطنة جديدة تحمل اسم « يفيت » التي من المقرر استكمالها خلال عامين ، وهي مخصصة لنواة استيطانية لمهاجرين من فرنسا · كما واقيمت في غور الاردن اول محطة بنزين مع مطعم يملكهما يهود · وتم تدشين مكاتب لتقديم الخدمات لمستوطني الاغوار ·

وفيما يتعلق بنشاط حركة جوش ايمونيم فان الحركة تسعى الان لتثبيت اقدامها في النقاط ال ١٨ التي اقامتها حتى الان في الضفة الغربية وذلك بمحاولة تزويد كل مستوطنة بقطع من الاراضي مساحة كل منها تتراوح ما بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ دونم · ووعد مساعد وزير الدفاع الحركة « بدراسة الاستيلاء على مساحات واسعة من الاراضي بهذا الحجم » ·

**« تحرشات » العرب :**

في الوقت الذي تقوم فيه حركة جوش ايمونيم باقامة الوقائع الجديدة فوق الاراضي العربية ، اخذت بعض الصحف الاسرائيلية ( انظر معاريف ٥ـ٦ـ٧٨ ) تتحدث عن « تحرشات » سكان القرى العربية في منطقة النبي صالح بالمستوطنين اليهود في مستوطنة « نفيه تسوف » ·

وقالت ان القرويين هناك « يتحرشون » و « يغرقون » المستوطنة بقطعانهم عقب قرار محكمة العدل العليا ازالة الاسيجة التي كان المستوطنون قد اقاموها · وافادت أن المستوطنين يحتجون على دخول قطعان الاغنام الى منطقة تبلغ مساحتها ٩٠ دونما تم « الاستيلاء عليها وفق القانون » تحتوي على بركة للمياه · ونقلت عن المستوطنين ادعاءهم بأن قرار المحكمة « رفع معنويات » العرب وشجعهم على جلب قطعانهم الى بركة المياه ·

وهنالك شكوى اخرى للمستوطنين ، ومن نوع اخر ، تتلخص في اتهام القرويين العرب وخاصة في ضواحي قرية عبود بغلق الطريق المؤدية الى المستوطنة «سواء بواسطة قطعان الغنم او على يد سكان القرية انفسهم · فالسيارات الاسرائيلية التي تسلك الطريق تجد نفسها مضطرة للتوقف والانتظار مدة طويلة حتى يخلي القرويون الطريق · وهم يفعلون ذلك ببطء شديد لاثارة الغضب » وقدم المستوطنون شكوى بهذا الخصوص الى الحاكم العسكري يعربون فيها عن استغرابهم من استمرار هذه « التحرشات » ·

ومن ناحية اخرى قدم عدد من اعضاء الكنيست اقتراحا مستعجلا لاستيطان منطقة النبي صالح ومصادرة مساحات من الاراضي لتعزيز الاستيطان في المنطقة ·

**اسرائيل تستمر في نهب الثروة البترولية في سيناء**

منذ عام ونيف وسلطات الاحتلال تقوم باعمال التنقيب عن البترول ، بواسطة شركات اسرائيلية واجنبية ، في ثلاث مناطق من سيناء ـ منطقة الغور في خليج السويس ، والمنطقة البحرية المقابلة للعريش ومنطقة مشارف رفح في شمال سيناء · ومن غريب الصدف حقا ان

تتكلل اعمال التنقيب عن البترول في المنطقة البحرية المقابلة للطور ، بتفجر البترول في نفس اليوم الذي قام به السادات بزيارته للكيان الاسرائيلي · وقد استمرت اعمال التنقيب عقب الزيارة ، وتم حتى الان حفر ثلاث آبار هي « علما ١ » و « علما ٢ » و « علما ٣ » · ومن المقرر ان تقوم شركة نبتون الاميركية صاحبة الامتياز بحفر ١٠ ــ ١٢ بئرا اخر في نفس المنطقة وفق الخطة المقررة ·

واشارت الصحف الاسرائيلية الى وجود مخزون ضخم من البترول في المنطقة ، والى ان الابار الثلاث تنتج في الوقت الحاضر ١٦ الف برميل يوميا ، وتقوم السفن الراسية هناك بنقله الى ايلات حيث يجري نقله بواسطة الانبوب الى عسقلان على البحر المتوسط ·

وفيما يتعلق باعمال التنقيب في مياه العريش ، فانها لم تسفر حتى الان عن اكتشافات تذكر · اما اعمال التنقيب الجارية منذ اكثر من عام في منطقة مشارف رفح فقد اسفرت عن اكتشاف حقلين كبيرين للغاز في « سدوت ١ » و « سدوت ٢ » · ويقدر احتياطي الغاز هناك بـ ٢٤٫٥ مليار قدم مكعب من الغاز · وتعتزم الشركة الاسرائيلية التي تحمل اسم « التنقيب عن البترول ، استثمارات محدودة الضمان » بالتعاون مع شركة « باز » وشركة « وسترن ديزت » ومستثمر يهودي من الولايات المتحدة ، القيام بحفر ابار اخرى بحثا عن مزيد من الحقول ، ومد انبوب بين الحقول المكتشفة ومنطقةعراد في النقب لاستثمار الغاز ·

ع·م

---

# اســرائيليات

## I

### الموقف الاسرائيلي : لا جديد حول مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة

توصلت الحكومة الاسرائيلية الى قرار في شأن الرد على الاسئلة الاميركية المتعلقة بمستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة بعد مرور ٥ سنوات من الحكم الذاتي · وقد اعلن سكرتير الحكومة ارييه ناؤور صيغة القرار ــ الرد على النحو التالي : « تعتبر حكومة اسرائيل ان استمرار مجرى التفاهم بينها وبين جاراتها ، بهدف الوصول الى سلام ، هو امر حيوي · كذلك تعرب عن موافقتها للبحث والاتفاق حول ماهية العلاقات العتيدة بين الاطراف، بعد ٥ سنوات من الحكم الذاتي الاداري، الذي سيبدأ تطبيقه مع حلول السلام ، اذا طلب اي طرف اجراء مثل هذا البحث· ويشمل اطار اجراء مثل هذا البحث ، اشراك هيئة ممثلة لسكان [الضفة الغربية] وغزة ، تنتخب حسب نظام الحكم الذاتي، في المفاوضات بين الاطراف ، بهدف الوصول الى اتفاق فيما بينها » ( رأ ــ ١٨ــ٦ــ٧٨ ) · وقد بادر الى تقديم صيغة

القرار هذه رئيس الحكومة بيغن ، حيث نال تأييد ١٣ وزيرا مع معارضة وزير الدفاع عيزر وايزمان · وكان ويزمان قد عارض ايضا اقتراحا تقدمت به كتلة داش يقضي بان تعلن الحكومة عن موافقتها على اجراء مفاوضات بين الاطراف ، بهدف حسم قضية المركز الدائم للضفة الغربية وقطاع غزة ، بعد مرور ٥ سنوات من الحكم الذاتي ، وذلك من خلال اشراك ممثلين ملائمين من سكان المناطق· وقد نال اقتراح داش هذا تأييد ٤ وزراء فقط ـ وهم وزراء داش ـ بينما اعلن نائب رئيس الحكومة وزعيم داش يغئال يدين، ان كتلته ستمتنع كما يبدو عن تأييد القرار في الكنيست ، ولن تؤيد موقف الائتلاف الحكومي ( المصدر نفسه ) ·

كانت الحكومة الاميركية قد تقدمت بطلب الى الحكومة الاسرائيلية ، قبل هذا ، وقد جاء هذا الطلب على شكل سؤالين وجها الى رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن ووزير خارجيته موشيه دايان ، خلال زيارتهما الاخيرة لواشنطن ، حيث ينص السؤال الاول على « ما سيحدث في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بعد مرور المرحلة الانتقالية المتمثلة بخمس سنوات من الحكم الذاتي للسكان · والسؤال الثاني حول الوسيلة التي ستتبع في نهاية هذه الفترة ، لمعرفة وجهة اختيار السكان ، اي ، بمعنى اخر ، اي حكم سيختارون ، وما هو شكل الارتباط الذي يفضلونه ، اذا رغبوا حقا في ارتباط ما ؟ ويفضل الاميركيون في هذا الخصوص اجراء استفتاء ، ليستطيع السكان الفلسطينيون ان يختاروا بواسطته الابقاء على الوضع الراهن ، او تفضيل علاقات اوثق مع اسرائيل او مع الاردن · بينما تعارض اسرائيل استفتاء كهذا ، وتفضل حل المسالة في مجلس [اداري] للضفة والقطاع ، يتمثل فيه مندوبون عن الفلسطينيين ، والاردن واسرائيل ومصر، مع احتفاظ كل واحد من هذه الاطراف بحق الفيتو » عند البحث في المسائل المتعلقة بهذه المناطق ( اريئيل غيناي ـ يديعوت احرونوت ، ٥ـ٥ـ٧٨ ) · وكان بيغن قد اعلن ان اسرائيل اخذت على عاتقها مهمة اقتراح بديل لمسالة الاستفتاء التي يقترحها الحكم الاميركي ، وذلك خلال بضعة اسابيع ( دافار ، ٣ـ٥ـ٧٨) · ( لمزيد من التفاصيل حول الاقتراحات الاميركية ، انظر شؤون فلسطينية ـ العدد ٧٩ ص ٢٠٩ ـ ٢١٤ ) ·

يلاحظ من خلال النقاش السياسي داخل الحكومة ، ان هناك ثلاثة اتجاهات رئيسية بين الوزراء ، حول كيفية الرد على الاسئلة الاميركية المذكورة · وتتمثل هذه الاتجاهات في ثلاثة اقتراحات تقدم بها كل من دايان وفايتسمان وحاييم لانداو ( وزير بلا وزارة ) · « فبينما تقوم وتؤكد هذه الاقتراحات الثلاثة على ضرورة مشروع السلام الاسرائيلي ومشروع الحكم الذاتي الاداري كأساس لكل تسوية ، وعلى ضرورة الرد بصيغ ايجابية على الاسئلة الاميركية ··· فأن هناك اختلافات في مضامين الصيغ التي تقترحها ، وهنا يبرز الاختلاف بين مواقف كل من دايان وفايتسمان ولانداو ، وينعكس التباين في اراء الوزراء الاخرين » ( رأأ ، ١٢ـ٦ـ٧٨ ) ·

يقول الوزير لانداو ، وهو احد المقربين من رئيس الحكومة بيغن ، وأحد المتصلبين البارزين في الحكومة ، « ان مشروع الحكم الذاتي الذي اقترحته اسرائيل ، ينص ، على اعادة بحث أسسه بعد مرور خمس سنوات ، ولذا، يجب اقامة الحكم الذاتي من أجل السلام ، وبعد مرور

السنوات الخمس يمكن العودة الى فحص ودراسة الاسس على ضوء التجربة المتراكمة » ( المصدر نفسه ) • اي ان لانداو يعارض التقيد بأي نص بشأن ما سيحدث بعد مرور السنوات الخمس ، وترك الامور مفتوحة حتى ذلك الوقت والهدف هو ، بالطبع ، محاولة استغلال الوقت لخلق حقائق جديدة في تلك المناطق ، تمكن اسرائيل من احكام سيطرتها عليها • ويلاحظ ان هذا الموقف قريب جدا من موقف بيغن الذي يدعي انه في حال امتناع اسرائيل عن الاعلان سلفا حول استعدادها ، مثلا ، لتحديد السيادة على الضفة الغربية وغزة ، بعد انقضاء فترة السنوات الخمس « فان هناك احتمالا لخلق واقع يضمن استمرار الارتباط الاسرائيلي بهذه المناطق • وعلى المدى المنظور ، فان اهتمام [بيغن] ينصب على اعمال تطويرية واستثمارات اسرائيلية واسعة في الضفة الغربية ، مع اقامة مشاريع مشتركة مع سكانها ، بحيث تخلق مصلحة مشتركة لاستمرار التعايش بين العرب واليهود في هذه المنطقة • وحسب تقريره ، فان الاستجابة للطلبات الاميركية ـ المصرية ، ستقضي على هذا الاحتمال » ( عوزي بنزيمان ـ هآرتس ، ١٩ـ٥ـ٧٨ ) • لذلك يمكن القول ان بيغن يتبنى الخط المتشدد داخل الحكومة ، الامر الذي سيترك اثره بالطبع على نتيجة البحث الجاري في حكومته الان ، وعلى مسار الجهود لاعادة عجلة المفاوضات السياسية المتوقفة •

اما فايتسمان ، فيقترح العودة الى المفاوضات المباشرة مع مصر ، بصفتها الشريك الحقيقي للمفاوضات ، وليس الولايات المتحدة ، التي يمكنها الاكتفاء بتقديم خدماتها الحميدة • وقد جاء اقتراح فايتسمان هذا على شكل ورقة عمل ، اعدت في وزارة الدفاع ، وجرى تقديمها الى الحكومة في جلستها الخاصة في تاريخ ١٢ـ٦ـ٧٨ • « ويقترح فايتسمان في تلك الورقة انشاء صمامات امنية تضمن امن اسرائيل واحباط كل محاولة للمساس بأمنها بعد التوصل الى تسوية • كذلك تتضمن الورقة اقتراحا للتعاون الاقتصادي بين اسرائيل وسكان الضفة الغربية بعد التسوية • اما القدس فالسيادة فيها لاسرائيل ، ويجب تمكين اليهود من العيش في الضفة الغربية مع قدر قليل من الاحتكاك مع العرب • وكما يبدو فأن فايتسمان ، يقصد هنا التجمعات السكنية اليهودية التي اقترحها ، في المناطق غير المأهولة بكثافة من العرب » ( رأأ ، ١٢ـ٦ـ٧٨ ) • وفي هذا الصدد اعدت وزارة الدفاع ، مشروعا استيطانيا واسعا في الضفة الغربية تم تقديمه الى اللجنة الاستيطانية المشتركة للحكومة والمنظمة الصهيونية ، من قبل رئيس قسم التخطيط في الاركان العامة العميد ابراهام تمير • وحسب المشروع ، ستقام ستة مراكز مدينية في الضفة الغربية تتسع لـ ٤٠ الف عائلة ، وذلك من اجل تجنب العراقيل السياسية في عملية الاستيطان في هذه المنطقة ( هآرتس ، ١٩ـ٥ـ٧٨ ) • وقد جاء اقتراح فايتسمان امام الحكومة بشأن الضفة الغربية متلائما مع هذا المشروع •

اما اقتراح دايان فينص على عدم تأجيل الحسم في القضايا المطروحة وانما « علينا ان نبذل كل ما نستطيع للتوصل الى تسويات دائمة منذ الان • وفي نهاية السنوات الخمس ، يملك كل جانب الحق في تحديد السيادة ، التي ستبقى مفتوحة خلال الفترة الانتقالية ، الا انه يجب ان ندخل في مفاوضات تفصيلية تحدد شبكة العلاقات في الضفة الغربية وقطاع غزة بين ثلاث جهات : اسرائيل والاردن وعرب

المناطق · ومن بين الامور التي يقترحها دايان ، البدء بمفاوضات الان حول شراء الاراضي ووضع ترتيبات التنقل من منطقة الى اخرى ، اي من الضفة الغربية وغزة الى اسرائيل ، وبالعكس ، ومسألة المستوطنات والترتيبات الامنية وتحركات الجيش » · ( رأا ، ١٢ ـ ٦ ـ ٧٨ ) ·

وكان دايان قد قدم وثيقة خطية لبيغن بشأن اجراء بعض التعديلات في مشروع الحكم الذاتي ، اهمها اعطاء دور اكبر للاردن في تنفيذ المشروع وفي الاشراف على الادارة الذاتية ( يديعوت احرونوت ، ١ـ٦ـ٧٨ ) · واقتراح دايان الحالي ، الذي يهدف الى انقاذ اسرائيل من الضائقة السياسية التي وصلت اليها ، ليس جديدا « فهو في الحقيقة ليس سوى تلك الفكرة القديمة : « الحل الوظيفي » ـ اي اشراك الاردن في المهام الادارية المتعلقة بشؤون الضفة ، مع انفراد اسرائيل بالاهتمام بقضايا الامن وحدها ، بالاضافة الى حقها في الحفاظ على المستوطنات التي اقامتها في الضفة الغربية ، وحتى شراء أراض والاستيطان فيها مستقبلا · وبالنسبة للفلسطينيين ، يريد دايان ان توافق اسرائيل على اعطاء تفسير عملي لبعض بنود مشروع الحكم الذاتي بهدف تجسيد تعبير الشخصية الفلسطينية، وليس الاستقلال الفلسطيني بوجه خاص · اما بيغن فيعتقد ان المشروع الاسرائيلي معقول ، ويمكن ان يحقق رغبات الفلسطينيين · وبالنسبة الى الاردن ، فان حقيقة منحه مركزا معينا في اطار الحكم الذاتي ، وحقيقة التزام اسرائيل بعدم فرض سيادتها على الضفة الغربية ، وابقاء مسألة السيادة مفتوحة ، يجب ان يكون كافيا للاردن مدى خمس سنين على الاقل » ( يوسف حاريف ـ معاريف ، ٥ـ٦ـ٧٨ ) · ورغم هذا الاختلاف في وجهات النظر ، فان الامر المتفق عليه بين الاشخاص الرئيسيين الثلاثة داخل الحكومة الاسرائيلية ـ بيغن ، دايان ، فايتسمان ـ هو « ان الاردن ليس له في الحقيقة اية حقوق ، اذ انه احتل أرض اسرائيل الغربية في حرب ١٩٤٨ ، من خلال عمل عدواني ، لذلك فان غزوه لهذه المنطقة لم يكن شرعيا · وبيغن يضيف : اما اسرائيل فقد احتلت المنطقة في سنة ١٩٦٧ ، من خلال عملية دفاعية بارزة » ( المصدر نفسه ) ·

هذه هي الاتجاهات الرئيسية التي توجه النقاش السياسي الدائر الان في الحكومة الاسرائيلية · لذلك ليس هناك اي جديد على صعيد الاجوبة الاسرائيلية وبشكل يتلاءم على الاقل مع التراجع في الموقف الاميركي ، الذي تشير اليه الدوائر الاسرائيلية بصراحة ووضوح· فقد اشار وزير خارجية اسرائيل السابق ابا ايبن ، الى ان « المواقف الاميركية تحسنت جدا خلال الفترة الاخيرة · فمثلا ، معارضة الانسحاب من جميع المناطق [من جانب الولايات المتحدة] ، معارضة دولة فلسطينية مستقلة خاضعة لـ م·ت·ف ، قبول المبدأ بانه يحق لاسرائيل الاحتفاظ بوحدات من جيشها في انحاء الضفة الغربية ، التي ستنتقل الى سيادة عربية ، الاستعداد لعدم استخدام عبارة تقرير مصير · انه لامر يثير الاستياء حقا ، اذ مع وجود موقف اميركي كهذا ، تسلم حكومة اسرائيل بحالة التجميد ، ليس في المفاوضات مع مصر فحسب ، وانما في التفاهم مع الولايات المتحدة ايضا · اعتقد ان سياستنا يجب ان ترتكز الان على الجبهة الاميركية وليس المصرية · فالسادات لن يقيم سلاما مع اسرائيل ،

**اذا كانت هذه تفتقر الى دعم اميركي ودولي » ( من مقابلة معه ـ دافار ، ٢ـ٦ـ٧٨ ) ·**

**المعارضة تنشط**

على صعيد المعارضة ، بادر المعراخ الى تقديم مشروع جديد للتسوية ، في الوقت الذي كانت الحكومة تتخبط فيه بشأن كيفية الرد على الاميركيين · ولا يختلف مشروع المعراخ الجديد عن مشاريعه السابقة ، اذ يعتمد على الحل الاقليمي الوسط على كافة الجبهات ، بما في ذلك الضفه الغربية وقطاع غزة ، الامر الذي ترفضه حكومة الليكود · وفي مقابلة اذاعية تحدث شمعون بيريس احد زعماء المعراخ ، حول المشروع الجديد بقوله : « نحن على استعداد لحل اقليمي وسط على كافة الجبهات ، ولكن دون العودة الى حدود ١٩٦٧ · وكذلك فنحن نرفض اقامة دولة ثالثة بين الاردن والبحر ، ونؤيد حل القضية الفلسطينية في اطار اردني ـ فلسطيني · ونحن لا نرفض التوصل الى اتفاقات مرحلية ، الى حين التوصل الى حل اقليمي وسط ·

وبالطبع فاننا نقول بالحفاظ على وحدة القدس وتكاملها » ( رأأ ، ١٢ـ٦ـ٧٨ ) · واضاف بيريس « بالنسبة للقضية الفلسطينية ، يجب اعطاء حق المشاركة للفلسطينيين انفسهم في تحديد مستقبلهم· [وبالنسبة ل م·ت·ف] فأنا أرفض التعامل معها بكل ثمن وكل شرط » ( المصدر نفسه ) · ولخص بريس اسس المشروع الجديد بقوله ، انه ينص على اخلاء سيناء مع ضمان مستقبل المستوطنات والمطارات ، مقابل سلام كامل وتعاقدي ، ثم تجريد الضفة من السلاح ، وتركز الجيش الاسرائيلي فيها لضمان امن اسرائيل بين البحر والاردن · واشار بيريس الى ان الاميركيين مستعدون للقبول بهذا المشروع « وفي اسوأ الحالات ، نحقق تنسيقا اميركيا ـ اسرائيليا · وهكذا يصبح في المثلث اسرائيل ـ اميركا ـ مصر ، تقارب بين الموقفين الاسرائيلي والاميركي ، بدل ان يكون هناك تقارب بين الموقفين الاميركي والمصري » ( المصدر نفسه ) ·

وكان رئيس الحكومة السابق رابين ، قد كشف النقاب عن مشروع للسلام خاص به ، يرتكز ايضا على الحل الاقليمي الذي يتبناه المعراخ ، مع بعض التعديلات البسيطة ، خاصة في سيناء · وبعدما يذكر رابين أن الهدف الاساسي في السياسة الاسرائيلية ، يجب ان يتمثل الان في السعي الى تحقيق سلام مع مصر ، يعلن انه ينبغي على حزب العمل اعادة البحث من جديد في مشروعه على ضوء الظروف المتغيرة · « فبالنسبة للقضية المصرية ، يجب ان يتبنى الحزب المبدأ الذي وافقت عليه حكومة اسرائيل الحالية : اعادة السيادة المصرية على سيناء · علينا ان نبادر الى الاقتراح على مصر اجراء تعديلات متبادلة في الحدود ، تطالب اسرائيل بموجبها بمشارف رفح ومنطقة عتسيون القريبة من ايلات ، ونقترح على مصر بالمقابل ، مناطق كانت ضمن حدود ارض اسرائيل الانتدابية ، بالقرب من حدود مصر ·

كذلك تطالب اسرائيل بتمديد الفترة الزمنية ، التي ستحتفظ بها بالمطار [العسكري] في اوفيرا ·

« اما في القطاع الشرقي ، فمن اجل تحقيق سلام مع مصر ، من الضروري وجود مرحلة انتقالية ، حتى تحقيق حل

دائم لقضية الضفة الغربية وقطاع غزة ، وحل القضية الفلسطينية ، وتوقيع معاهدة سلام مع الاردن · وتستمــر المرحلــة الانتقالية حتى خمس سنوات ، حيث يتـم الاتفاق خلالها على حكم مشترك ،اسرائيلي ـ اردني في الضفة الغربية وغـــزة · ويتحمل الاردن مسؤوليـة ادارة حيـــاة السكان في جميع المجالات المدنية ، بينما تحافظ اسرائيل على الامن فـــي هـــذه المناطق ، وتحتفظ لنفسها بحق الاستيطان اليهودي في المناطق ، التي حددها المعراخ، وكانت لها الافضلية الاولى في مجـــال الاستيطان · واقصد هنا ، بوضـــوح ، عدم الاستيطان في مناطق ذات كثافـــة سكانية عربية عالية ، كمنطقة نابلــس مثلا » ( في مقابلة معه ـ معاريف ، ٥ـ٦ـ ٧٨ ) · ويضيف رابين قائلا ، « ان الحل الدائم الذي سيتحقق في نهاية الفتـــرة الانتقالية ،سيعتمد على انسحاب اسرائيلي حسب القرار ٢٤٢ ، اي « انسحاب من « مناطق » الى حدود قابلة للدفاع ، وليس من « المناطق » ، حسب الصيغة المقبولة لدى العرب والسوفييـــت » ( المصـــدر نفسه ) ·

وكان رابين قد اعلن قبل ذلـــك ان مشروع السلام الذي قدمته حكومة ليكود، اكثر سهولة بالنسبة للادارة الاميركيـــة من مشروع المعراخ ، كنقطة انطلاق في المفاوضات على الاقل ، وذلك لسببين ، اولا لانه يعتمد على حدود الرابع مـــن حزيران بالنسبة للضفة الغربية وقطـاع غزة ، ثانيا ، لانه يتضمن استعـــدادا اسرائيليا للانسحاب الى الحدود الدولية في سيناء ( هآرتس ، ١ـ٦ـ٧٨ ) ·

واذا كان تطور العلاقات الاميركيـة ـ الاسرائيلية ، يتوقف الى حد بعيد عـــلى مدى التنسيق الاميركي ـ الاسرائيلـي ، فيما يتعلق بمشاريع التسوية المطروحـة ، ومدى التجاوب الاسرائيلي مع الافكـــار الاميركية في هذا الشأن ، فان هنـــاك قضايا اخرى يمكن ان تؤثر على العلاقات بين الطرفين ، حاضرا ومستقبلا ، واهمها قضية التسليح العربي في الولايات المتحدة، ثم علاقات الولايات المتحدة مع الـــدول العربية الموالية للغرب ، ثم التنسيق القائم بينها وبين دول حلف الاطلسي فيمـــا يتعلق بالنظرة المشتركة تجاه الصـــراع العربي ـ الاسرائيلي · وهنا يبرز رد الفعل الاسرائيلي على قضية التصديق عـــلى صفقة الطائرات الاميركية لكل من مصـر والسعودية واسرائيل ، وعلـى القـــرار الذي صدر عن اجتماع وزراء خارجيـــة دول حلف شمالي الاطلسي خلال اجتماعهم في واشنطن في الشهر الماضي ، بخصوص النظرة المشتركة الى مشاريع التسويـــة المطروحة في المنطقة ·

### صفقة الطائرات : ضربة لمكانة اسرائيـل الخاصة في الولايات المتحدة

تلقت اسرائيل نبأ التصديق على صفقة الطائرات في الكونغرس الاميركي فـــي منتصف اذار ( مارس ) الماضي ، باستياء وانفعال شديدين ، معتبرة الامر بمثابـة ضربة لمكانتها الخاصة ولنفوذهـــا فـــي الولايات المتحدة · وقد عقـــب رئيـــس الحكومة بيغن على هذه القضية بقوله : « انهم يحاولون [بهذه الصفقة] امـــلاء شروط السلام علينا ، ودفعنا الى وضـــع ، ليس في غاية الصعوبة فقط ، وانمـــا يستحيل معه الدفاع عن السكان المدنيين» ( يديعوت احرونـوت ، ١٧ـ٥ـ٧٨ ) ·

واشار بيغن الى « خطورة خرق الالتزام الكامل وغير المشروط من جانب الادارة الاميركية ، فيما يتعلق بتزويد الطائرات، والذي اعطي لاسرائيل قبل سنتين ، والان تحول ، الى التزام مشروط ايضا بتزويد طائرات لدول هي في حالة الحرب مع اسرائيل » ( المصدر نفسه ) · كذلك علق وزير الخارجية دايان على صفقة الطائرات بقوله : « برأيي ، لا يجوز اعطاء طائرات للدول العربية ، طالما لم توقع بعد على اتفاق سلام مع اسرائيل · ليس مهما ابدا بأية طائرات سنهاجم ، فالامر لا يختلف ، سواء كانت هذه طائرات هجومية اميركية ام روسية » ( معاريف ، ١٧ـ٥ـ٧٨ ) · اما رئيس الحكومة السابق رابين ، فقد اعتبر صفقة الطائرات بمثابة اخلال بوعد اميركي اعطي له في الماضي · «ان خرق وعد رئاسي بتصديق من الكونغرس، هو ظاهرة خطيرة جدا ، ولا سابقة لها تقريبا ، في العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة ··· وهذا [الخرق] يضع علامة استفهام واسعة على كل وعد نحصل عليه من رئيس اميركي في المستقبل » ( المصدر نفسه ) ·

ويلاحظ ان الاستياء الذي عكسه رد الفعل الاسرائيلي الرسمي ، قد جاء مقرونا بطلبات عسكرية كثيرة من جانب اسرائيل « للتعويض عليها » ، مما دفع الادارة الاميركية الى « تأخير التصديق على طلبات اسرائيلية للسلاح ، حتى تعود اسرائيل وتفحص من جديد مفهومها القائم وراء هذه الطلبات ، وتلائمه مع فترة الهدوء والتسويات في المنطقة » ( يوئيل ماركوس ـ هآرتس ، ٢٨ـ٥ـ ٧٨ ) ·

**« تغيير جوهري في العلاقات الاسرائيلية ـ الاميركية »** : اقتصرت ردود الفعل الاسرائيلية على صفقة الطائرات على ابراز النتائج السياسية والعسكرية ، واثرها على العلاقات بين الولايات المتحدة واسرائيل · ويلاحظ من خلال ردود الفعل هذه ، ان هناك شبه اتفاق بين الاسرائيليين ، على ان تغييرا ما لغير صالح اسرائيل قد حدث على الصعيد الاميركي ، اساسه علاقات الولايات المتحدة مع الدول العربية الموالية للغرب، وتعلقها بالنفط والمال العربي ، خاصة السعودي · « لقد اصبحنا بعيدين عن تلك الايام ، التي وقع فيها ٧٦ نائبا في الكونغرس على وثيقة احتجاج ضد سياسة كيسنجر · لقد مرت ثلاث سنوات تقريبا منذ ذلك الوقت ، وليس مركزنا في الكونغرس هو الذي تضعضع فقط ، وبصورة مقلقة ، وانما اخذ مركز اللوبي العربي يزداد قوة · وثمة اسباب عديدة لهذا الانقلاب ، اهمها : اولا ، الاهمية المتزايدة للسعودية في الولايات المتحدة ، كمصدرة للنفط وحليفة ذات قوة كبيرة في السوق المالي العالمي : ان الاموال التي تستثمرها السعودية في الولايات المتحدة ، تساعد على الحفاظ على اسعار النفط في مستواها الحالي ، وبالاضافة الى ذلك تشكل حماية للدولار ، الذي بدأ يظهر علامات ضعف في الآونة الاخيرة···

ثانيا ، ان شعبية السادات القوية منذ زيارته الاخيرة لواشنطن ـ بالاضافة الى زيارته التاريخية للقدس ـ قد اثرت ايضا · فالنواب الاميركيون يترددون جدا قبل القيام بأية خطوة من شأنها المس بمركز الرئيس المصري الدولي والعربي · ثالثا، ينبغي الا نتناسى الحقيقة ، وهي ان هبوط شعبية اسرائيل ناتج ايضا عن سياسة

حكومة بيغن في عدة مجالات ، خاصة فيما يتعلق بالاستيطان » ( اريئيل غيناي ـ يديعوت احرونوت ، ١٤ـ٥ـ ٧٨ ) ·

على اي حال ، فان الاعتقاد السائد هو ان ادارة كارتر ارادت ان تجعل من هذه الصفقة « محكا لسياستها في الشرق الاوسط ، ولزعامة الرئيس كارتر» ( عيدو ديسنتسيك ـ معاريف ، ١٤ـ٥ـ ٧٨ ) · لذلك وجدت من المناسب التغلب على اللوبي اليهودي ، الذي يمثل قوة اسرائيل ونفوذها في الولايات المتحدة ، وقد نجحت في ذلك بواسطة تقرير صفقة الطائرات في الكونغرس ·

ان النتيجة السياسية الهامة التي توصل اليها المعلقون الاسرائيليون ، ان هذه الصفقة تعبر عن تغيير جوهري في العلاقات بين الولايات المتحدة وأسرائيل ، وتفوح منها رائحة التخلي وعدم الثقة · انها خطوة أخرى في الجهد المنهجي والموجه الذي تقوم به الادارة الاميركية الحالية لتقزيم اسرائيل ، سواء في الوسط الشرق ـ اوسطي او في الوسط الاميركي ·

« لقد اوضحت الادارة الاميركية لاسرائيل ولاصدقائها ، ان عليها ان تعود الى مقاساتها الطبيعية » ـ التي تصغر جدا عن مقاساتها الحالية ، الاقليمية ، العسكرية والسياسية ـ وعليها ان تتكيف على العيش كدولة اقلية صغيرة في الشرق الاوسط ، برعاية الولايات المتحدة، ورضى الدول العربية الكبيرة والغنية بالمناطق والنفط والسكان » ( حجاي ايشد ـ دافار ، ١٨ـ٥ـ٧٨ ) · ويدعي اصحاب هذا الرأي ان صفقة الطائرات ليست سوى مؤشر لمزيد من التراجعات في السياسة الاميركية امام المطالب العربية ، على حساب مصالح اسرائيل في اميركا ·

ويبدو ان هذا الرأي مبالغ فيه جدا ، خاصة وأن اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة ، ما زال قويا يمتلك مجالات عمل واسعة · « وليست هناك اية حاجة للافتراض بأن [الصفقة] هي فشل ذريع للمسألة الاسرائيلية ، او انها سحب البساط من تحت اقدام اسرائيل في الولايات المتحدة ··· فالتأكيد الاساسي لاسرائيل ما زال على حاله ، ولكن ليس كأحتكار ، وليس على حساب المصالح الاميركية · وعلى اسرائيل ان تكون حساسة تجاه هذا الامر ، تماما كما تطالب واشنطن بان تظهر حساسية تجاه قضاياها · فالنفط وثبات الدولار لا يقلان اهمية بالنسبة للولايات المتحدة ، من الحدود الآمنة لاسرائيل · وعلى اسرائيل ان تظهر حساسية تجاه المصالح الاميركية لاعتبار اخر : فقد رأينا بأية سهولة يمكن ان يتطور الحديث حول اللاسامية الى افعال ، وبأية سهولة يمكن ان يجد اليهود الاميركيون انفسهم في وضع صعب · فاللوبي اليهودي غير قادر على كل شيء · وقوته متعلقة بعدالة قضيتنا ··· وعندما نطالب بتأييد شعبي علينا ان نبرهن على ان طلباتنا اخلاقية، وقد اثيرت خلال الاشهر الاخيرة ـ بفضل عمليات الاستيطان ، والتغيير الفجائي في موقفنا التقليدي من القرار ٢٤٢ ، والادعاءات حول حقوقنا التاريخية في الضفة ـ شكوك كثيرة حول عدالة موقفنا ·

« ان الدرس الاهم [لصفقة الطائرات] ··· هو ان الكونغرس منح تأييده لسياسة كارتر الشرق اوسطية ، ووافق على المفهوم القائل أن من الواجب انشاء معسكر معتدل في المنطقة بسبب اوضاع عالمية · اي انه ينبغي وضع

حد للحرب ، وتشجيع اقامة خط معاد للاتحاد السوفييتي وحليفاته في المنطقة ٠ والحكم الاميركي يريد ان يضمنا الى هذا المعسكر ، وليست هناك دلائل تشير الى رغبته بالتضحية باسرائيل من اجل الاسراع في انشاء هذا المعسكر » ( يوئيل ماركوس – هآرتس ، ١٩–٥–٧٨)

اضافة الى النتائج السياسية لصفقة الطائرات ، انصب الاهتمام الاسرائيلي ، على النتائج العسكرية ايضا ، حيث اعلن وزير الدفاع الاسرائيلي عيزر فايتسمان ، ان على اسرائيل الاهتمام بكيفية معالجة قضية الطائرات عسكريا ، في حال اضطرارها لذلك في المستقبل ( معاريف ، ١٧–٥–٧٨ ) ٠ كذلك تطرق وزير الدفاع السابق بيريس الى الخطر العسكري لصفقة الطائرات بقوله : « أن الخطر على تل ابيب لا يتوقع فقط من عمليات القصف المدفعي من الضفة الغربية ، وانما من قصف الطائرات طويلة المدى ايضا ، التي تستطيع قطع كل المجال الجوي في منطقتنا خلال بضعة دقائق ٠ اضف الى ذلك ، فان المفهوم الامني في اسرائيل ، ارتكز دائما على قيام تفوق جوي اسرائيلي ، سواء من اجل حماية اجواء اسرائيل ، او ردع العدوان من الخارج ٠ وما حدث ، بعد التصديق على صفقة الطائرات ، هو تجاهل الحاجة الى الحفاظ على التفوق الجوي في اسرائيل ، وذلك من اجل المحافظة على ميزان القوى في الشرق الاوسط ٠ والمشكلة لا تتمثل في تزويد مصر والسعودية باعداد كثيرة من الطائرات ، وانما في حصول السعودية على طائرات مقاتلة طويلة المدى ، سريعة ، ودقيقة – وهي احدث طائرة تعمل في اجواء الشرق الاوسط ، وهناك من يقول – في العالم كله » ( شمعون بيريس – يديعوت احرونوت ، ١٩–٥–٧٨ ) ٠

**مؤتمر وزراء خارجية حلف الاطلسي تراجع عن اتخاذ قرار « معاد » لاسرائيل :**

نجحت اسرائيل في منع اتخاذ قرار لغير صالحها في مؤتمر وزراء خارجية بلدان حلف شمال الاطلسي ، الذي عقد في واشنطن في اواخر شهر ايار الماضي ٠ وقد جندت اسرائيل لهذه المهمة جميع ممثليها في عواصم تلك البلدان ، لبذل جهد دبيلوماسي واعلامي ، لمنع اتخاذ قرار ينص على وجوب انسحابها على جميع الجبهات حسب قرار مجلس الامن ٢٤٢ ٠ » وقد علم ايضا ان القرار الذي كان سيصدر عن المؤتمر ، يتحدث حول الحاجة الى حل المشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها ، بشكل يضمن اعترافا بالحقوق الشرعية للفلسطينيين ، ويمكنهم من المشاركة في تقرير مستقبلهم » (يديعوت احرونوت ، ٢٩–٥–٧٨ ) ٠ وبفضل الضغط الاسرائيلي ، أصدر المؤتمرون في النهاية قرارا يكتفي بدعوة دول الشرق الاوسط ، الى بذل المزيد من الجهود ، من اجل الوصول الى سلام عادل ودائم في المنطقة ٠ » فكما كان متوقعا ، جاءت الفقرة المتعلقة بقضية الشرق الاوسط في القرار ، عامة جدا في صياغتها – حسب الاتفاق الذي تم بين وزير الخارجية الاميركي والسفير الاسرائيلي سيمحا دينيتس »٠( يديعوت احرونوت ، ١–٦–٧٨ ) ٠

**حنه شاهين**

# II

# التدهور في العلاقات الاسرائيلية ـ الاوروبيـة

## العلاقات السياسية

ان التدهور في العلاقات الاسرائيلية ـ الغرب أوروبية ، وخاصة دول السوق الاوروبية المشتركة السائد الآن ، كان قد بدأ بالفتور الذي ساد علاقات هذه الدول باسرائيل ، ابان وفي اعقاب حرب تشرين عام ١٩٧٣ والحظر النفطي الذي رافق هذه الحرب ، لما جره على اوروبا الغربية من ضرر اقتصادي كاد يصل الى حد الكارثة لو استمر بضعة أشهر اخرى .

وقد تجلى هذا الفتور اول ما تجلى في البيان الذي أصدرته المجموعة الاوروبية آنذاك ، والذي دعت فيه لاول مرة لاحترام الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، اذ كان قد ورد في هذا البيان انه « للوصول الى سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط، لا بد من احترام الحقوق المشروعة للفلسطينيين » ( معاريف ٧ـ٧ـ١٩٧٧ ودافار ٢٢ـ٨ـ١٩٧٧ ) .

أما الخطوة الثانية في عملية التدهور هذه ، فقد تجلت في كلمة سفير ايطاليا لدى الامم المتحدة بييرو فينتشي ، الذي تحدث باسم دول السوق الاوروبية في الجمعية العمومية لعام ١٩٧٥ ، حيث جاء في كلمته التي القاها آنذاك انه « لا بد من الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني بالتعبير عن هويته القومية » ( دافار ٢٢ـ٨ـ٧٧ ) .

ثم تلاه ماكس فان دراستول وزير خارجية هولندا في كلمته عن الشرق الاوسط أمام الجمعية العمومية لعام ١٩٧٦ ، اذ اكد على ان « الحل للنزاع في الشرق الاوسط يكون ممكنا فقط ، اذا ما ترجمت الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في التعبير العملي عن هويته القومية للغة الواقع » ( المصدر نفسه ) .

وعلاوة على ذلك ، فقد كان مندوبو المانيا الغربية وبريطانيا وفرنسا ـ وهي الدول الرئيسية في المجموعة الاوروبية ـ اكثر وضوحا في تحديد موقف دول السوق الاوروبية من قضية الشرق الاوسط ، في كلماتهم امام الجمعية العمومية لنفس العام . فوزير الخارجية الالماني الغربي ، تحدث عن « الاخذ بعين الاعتبار حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني » بالاضافة الى « حقه في اقامة سلطة وطنية » (المصدر نفسه ) ، ثم تلاه الوزير البريطاني انتوني كروسلاند فتحدث عن « مساحة من الارض للفلسطينيين ، ليست بالضرورة دولة مستقلة ، وانما مكان يستطيعون فيه الاهتمام بمشاكلهم » ( المصدر نفسه ) .

اما لوي دي ـ غرينغو ، وزير الخارجية الفرنسي ، فقد تحدث عن « الحتمية في

حق الشعب الفلسطيني في وطن لـــه » مضيفا أنه « لا يمكن ان يكون ثمة حــل للنزاع في الشرق الاوسط ، بدون ترجمة حق الشعب الفلسطيني في التعبير عـــن هويته القومية الى لغة الواقع » ثم تساءل « ولكن كيف يمكن لنا ان نطبق هذا الحق دون قاعدة اقليمية ، تستطيع مع الوقـت ان تتخذ قالب الدولـــــة ؟ » ( دافـــار ٢٢ـ٨ـ٧٧ ) ·

وقد شكلت هذه المواقف المنسجمة لدول المجموعة الاوروبية في الجمعية العمومية ، اساسا للبيان الذي نشرته دول الســوق المشتركة التسع كجسم سياسي واحد ، في كانون أول عام ١٩٧٦ ، والذي جاء فيــه ان « تجسيد حق الشعب الفلسطيني فـــي التعبير الفعلي عن هويته القومية ، قــد يشتمل على قاعدة اقليمية في اطار الحل الذي ستحققه المفاوضات » ( المصـــدر نفسه ) ·

وفي المؤتمر التالي الذي عقده وزراء خارجية الدول التسع في كانون ثانـــي عام ١٩٧٧ في لندن ، في اطار اللقـاءات النصف سنوية لرؤساء دول السوق ، وفي اطار المباحثات الدورية لوزراء الخارجية الغرب اوروبيين ، كانـــت المبـــادىء الاساسية التي وضعت للبيان النهائـــي ، تقضي ضمن ما قضت انه « يتوجب عــدم الموافقة على امتلاك مناطق بالقوة » وانه « يتوجب على اسرائيل الانسحاب مـــن مناطق احتلت في حرب عــــام ١٩٦٧ » ( معاريف ٢٩ـ٦ـ٧٧ ) · كما واعتــرف البيان « بحق الوجود لكل دول المنطقـــة داخل حدود آمنة ومعترف بها ، من خلال اعطاء ضمانات ملائمـــــة » ( المصـدر نفسه ) · أما في الموضوع الفلسطينـــي نفسه ، فقد جاء في البيان بأنه « يجـب تأمين تمثيل فلسطيني في مؤتمر جنيڤ » وتحدث عن « اعطاء وطن للفلسطينييـــن بشكل عام وغامض » ( معاريف ٢٩ـ٦ـ٧٧ ) ·

وكان هذا البيان الـــذي منـــع نشره الرسمي بسبب التدخل الاميركي ، بعـــد تسرب المعلومات المسبقة من لندن عـــن النية في أصداره ، « بمثابة القاســـم المشترك الادنى للدول التسع الاعضـــاء في المجموعة الاوروبية · اذ ان هذه الدول كانت قد تحدثت بشكل منفرد عن تغييرات سياسة اكثر حدة ـ مثل التعريف الالماني بشأن الحاجة الى اقامة كيان فلسطيني » ( معاريف ٢٩ـ٦ـ٧٧ ) · أو مثل الوثيقة المشتركة التي وقع عليهـــا الايطاليـــون والسوفييت والتي تتحدث عن « الحقـــوق المشروعة للشعب الفلسطيني » ( المصدر نفسه ) ، ولكنهم عندما اجتمعوا لـــم يكونوا مستعدين للموافقة الا على هـــذه الصيغة ·

وقد علل التدخل الاميركـــي الذي أدى الى تجميد البيان في حينه « بالرغبـــة لخلق جو سياسي مريح ـ ســواء فـــي الولايات المتحدة أو في اوروبا الغربية ـ استعـــدادا لزيـــارة رئيس الحكومـة الاسرائيلية السابق اسحق رابين الـــى واشنطن » ( المصدر نفسه ) ، عشيـــة الانتخابات الاسرائيلية ، والحقيقـــة ان الاميركيين كانوا قد تخوفوا من نشر هذا البيان ، الذي كان « يتضمن تغييرا فـــي الاسلوب السياسي الذي تتكلم بـــه دول غرب اوروبا ، بالنسبة لموضوع الشـــرق الاوسط » ( المصدر نفسه ) ·

وكانت اسرائيل قد « حاولت مـــن ناحيتها اقناع الدول التسع بأن تبقـــى خارج الصورة » (المصدر نفسه) ، بطرحها عدة اسباب بينها ان : اوروبا « لا تستطيع ان تكون مشاركة في عمليـــة الصراع الشرق اوسطي كالولايات المتحدة » ، بل

وغير قادرة على تقديم « خدمات كتاسك التي تقدمها الولايات المتحدة للاطـــراف المتنازعة ، عند المحادثات حول حلـــول ـ جزئية » . وان « البيانات الاوروبيـــة تعزز موقف المتطرفين في العالم العربي فقط » · ( المصدر نفسه ) · كما وادعت اسرائيل أيضا ، بأن ليس في اقـــوال الاوروبيين أي « تجسيد لتسوية الخط مـع الولايات المتحدة ، على صعيد البيانـات السياسية ، لان أوروبا تتناسق معها فـي الموضوع الفلسطيني فقط · ولكنهـــا لا تتبنى الصيغة الاميركية بالنسبة لماهيـــة السلام ، أو التمييز بين حدود أمنية وبين حدود سياسية » ( معاريف ٢٩ـ٦ـ٧٧ ) ·

ولكن محاولات الاقناع التي قامت بهـا اسرائيل ، لم تنجح ، والتدهـــور فـــي العلاقات الاسرائيلية ـ الغرب أوروبيـــه ازداد حدة ، وحصل على دفعـــة اخرى بارزة خلال نصف السنة التي مرت بيـن مجلس رؤساء الحكومات الاوروبية فـــي نهاية كانون ثاني ١٩٧٧ وبين المجلـــس الذي تلاه في ٢٩ـ٦ـ٧٧ ، وذلك لعـــدة اسباب أهمها :

١ ـ انتقال الحكم من حزب العمـــل « الاشتراكي » الى حزب الليكود اليميني ·

٢ ـ صورة بيغن كسياسي متطـــرف لدى الوعي الشعبي والسياسي الاوروبي ·

٣ ـ البيانات التي صدرت عن الحكومة الاسرائيلية الجديدة ·

٤ ـ الازمة الاقتصادية في أوروبا ·

٥ ـ التغيرات في موقف أميركا مـــن منظمة التحرير الفلسطينية ·

فبعد الوهلة الاولى لانتصار الليكـود في الانتخابات الاسرائيلية . أفاقت اوروبا من ذهولها قليلا نظرا لنتائج هذا الانتصار على الوضع في الشـــرق الاوســـط ، و « الخوف من تجدد القتال ظهر ثانيـة بكل ثقله وقد اطل من خلفه كابوس دمار الاقتصاد الاوروبي المنهار تحت وطـــأة حظر نفط جديد ، اذا لم يكن تحت وطـأة حرب ينجر اليها العالم مـــع نشـــوب الاعمال العدوانية في الشرق الاوســـط » ( هآرتس ١٢ـ٩ـ٧٧ ) وخاصة بعـد ذلك التصريحات المتطرفة ، التي صدرت عـن مناحيم بيغن اثر فوزه في الانتخابـات مباشرة ، وعن حكومته الجديدة منذ اليوم الاول لتشكيلها ·

ولذلك ، فقد عاد وزير الخارجيـــة الفرنسي لوي دي ـ غرينغو وطالب فـــي مؤتمر وزراء الخارجية الاوروبيين الذي انعقد في لندن في ٢١ـ٦ـ٧٧ ـ فـــــي اليوم التالي تماما لتقديم مناحيم بيغـــن حكومته الجديـــــدة امــــام الكنيست الاسرائيلـــــي في ٢٠ـ٦ـ٧٧ ـ ببحـــث الوثيقة الشرق أوسطية التي جمدت بفعل الضغط الاميركي · وكانت الصيغة التـي اقترحتها فرنسا اكثر حدة من تلك التي اقترحت في المؤتمر الذي انعقد في كانون ثاني ١٩٧٧ ، اذ لم تعد المسألـــة هـــي « التأييد لمبدأ الكيان الفلسطيني فقـط ، وانما التأييد الصريح لحق الفلسطينييـن في وطن » ( يديعوت احرونوت ٤ـ٧ـ٧٧)·

وكان أحد المتحمسين جدا للصيغـــة الفرنسية وزير خارجية المانيا الغربيـــة ديتريش غينشار ، الذي كان قد عاد لتوه من جولة في الدول العربية برأي مبلـور بأنه « لا يمكن الوصل الى اي حل فـــي الشرق الاوسط دون حـــل المشكلــــة الفلسطينية » ( المصدر نفسه ) وهذا بحـد ذاته « يعد تبنيا للخط العربي القائل : ان الحل يجب ان يكون في أطار المناطـــق المحتلة التي في يد اسرائيل » ( يديعوت احرونوت ٤ـ٧ـ٧٧ ) ·

أما بريطانيا فكانت قد ضمت صوتـــا اخر للفرنسيين ، في القرار الذي كـــان

آخذا في التبلور ضد اسرائيل ، بعد ان وجد رئيس الحكومة البريطانية جيمس كالاهان ـ الذي كان يتحدث في الماضي وفي كل مناسبة عن صداقته الشخصية لاسرائيل ، النابعة من العلاقات الوثيقة مع حزب العمل الاسرائيلي ـ نفسه « أقل التزاما تجاه مناحيم بيغن وحكمه ، ناهيك عن تصريحات بيغن ضد الصحافة البريطانية التي هاجمته ، مما زاد من الاحساس بالمرارة في لندن تجاه الحكم الاسرائيلي الجديد » ( المصدر نفسه ) مما دعا بريطانيا الى « التأخر في ارسال برقية التهنئة لبيغن لفوزه في الانتخابات ، وتأجيل زيارة وزير الخارجية البريطانية ديفيد أوين التي كانت مقررة لاسرائيل » ( المصدر نفسه ) ٠

بل واكثر من التغيير في الخط البريطاني ، فوجيء الدبلوماسيون الاسرائيليون ، بالاصوات الاخرى التي سمعت في « هيج » ، عاصمة هولندا صديقة اسرائيل التقليدية ، اذ عبر رئيس حكومتها الاشتراكي يوف دان ـ أويل ، عن « تأييده هو الاخر لحقوق الفلسطينيين في تقرير المصير » ٠ ( المصدر نفسه )

وهكذا ففي نهاية المحادثات التي تمت في اطار المجلس الاوروبي في لندن ٢٩ـ٦ـ٧٧ ، اصدر رؤساء دول السوق الاوروبية المشتركة ، بيانا سياسيا مشتركا في موضوع الشرق الاوسط ، اكثر حدة من البيان السابق الذي لم ينشر ، اذ انه يشتمل على « التأييد لمبدأ الوطن للفلسطينيين » الذي يشكل في رأيهم « شرطا اساسيا لكل حل في الشرق الاوسط ، ورفضا للاحتفاظ بمناطق محتلة » ( يديعوت احرونوت ٤ـ٧ـ٧٧ ، ومعاريف ٧ـ٧ـ٧٧ ) ٠

فهذه الصيغة الحادة لقرار «التسع» ، كانت قد أثارت « رؤى قاسية بالنسبة لمستقبل علاقات اسرائيل مع دول غرب اوروبا » ( المصدران نفسهما ) ٠ اذ انها لا تشتمل على السياسة الاميركية الجديدة « وتتبنى عناصرها الثلاث بالنسبة لماهية السلام ، وحدود المستقبل ، والمشكلة الفلسطينية » ( معاريف ٧ـ٧ـ٧٨ ) ، وحسب ، وانما تتعداها بموقفها الذي لا يقبل التأويل ، فالاميركيون تحدثوا في بيان وزارة الخارجية الاميركية ، الذي صدر في ٢٦ـ٦ـ٧٧ ، عن القرار ٢٤٢ بمفهوم « مناطق محتلة » ، وليس « المناطق المحتلة » ، الا ان بيان السوق الاوروبية ينص صراحة على « وضع حد لاحتلال المناطق ( بأل التعريف ) » ( المصدر نفسه ) ، كما ان الاميركيين لم « يقرنوا فكرة الوطن مع الشعب الفلسطيني وانما اكتفوا في التعبير ـ فلسطينيون ـ » ، بينما تحدثت دول السوق عن « الشعب الفلسطيني وعن هوية قومية » ( يديعوت احرونوت ٤ـ٧ـ٧٧ معاريف ٧ـ٧ـ٧٧ ) ٠

وتفسر صحيفة « يديعوت احرونوت » هذه المواقف بقولها « لولا الضوء الاخضر من واشنطن ، لما كان غينشار ، ودان ـ أويل ، واندريوتي ،وحتى ديستان يخرجون بمثل هذا التصريح المتطرف ضد اسرائيل » ( ٤ـ٧ـ٧٧ ) ، وهكذا تكون اسرائيل قد وقفت « ولاول مرة منذ عهد ديغول ، امام جبهة أميركية ـ أوروبية مشتركة ومنسقة ، تحد الى حد كبير من حرية المناورة للدول الصغيرة في العالم الغربي » ( معاريف ٧ـ٧ـ٧٧) ٠

ثم جاءت مبادرة السادات وزيارته لاسرائيل بعد أربعة اشهر من بيان دول السوق الاوروبية ، لتزيد من الانجراف الاوروبي ضد اسرائيل ، ففي المؤتمر الدوري الذي عقده وزراء الخارجية للدول الاوروبية التسع في كوبنهاجن في نهاية عام ١٩٧٧ ، اظهروا ما كان « قد أصبح حقيقة سياسية صعبة ، وهي كل

دول غرب أوروبا تؤيد الان المطالب والمواقف العربية في المواضيع الثلاثة المركزية ، التي تختلف عليها اسرائيل مع السادات ، ومع سائر الدول العربية المعتدلة » ( دافار ١٦ـ٢ـ٧٨ ) . فقد أعرب المؤتمر عن « معارضته لسياسة الاستيطان التي تتبعها حكومة اسرائيل » ( المصدر نفسه ) .

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل تلا هذا المؤتمر بعد ذلك ، اجتماع زعماء دول السوق الاوروبية في بروكسل في ٥ـ٢ـ٧٧ ، للبحث في مبادرة السادات « السلمية » ، الا ان تطورا مفاجئا أجل البحث في بند الشرق بناء على طلب من رئيس حكومة بريطانيا جيمس كالاهان الذي « طالب رفاقه بأن لا يجروا البحث » ( يديعوت احرونوت ٤ـ٤ـ٧٨ ) . وكان كالاهان قد أطلع زعماء غرب اوروبا على التطورات الاخيرة في المفاوضات الاسرائيلية ـ المصرية . وكشف النقاب عن جزء من الاسرار السياسية التي اطلعه عليها مناحيم بيغن ابان زيارته الرسمية لبريطانيا في ٢ـ١٢ـ٧٧ قبل يومين من انعقاد المؤتمر ، حيث طالب كالاهان « التدخل لدى رفاقه الاوروبيين للوقوف على الحياد » ( يديعوت احرونوت ٢١ـ١٢ـ٧٧ ) . وقد كشف كالاهان عن تفاصيل أولية من مخطط السلام الذي طرحه بيغن ، ومن ضمنها « نية اسرائيل الانسحاب من سيناء ومخططها في اعطاء حكم ذاتي لسكان الضفة الغربية والقطاع » ( دافار ١٦ـ٢ـ٧٨ ) ، مما دعا الى استجابة زعماء السوق الاوروبية بالاجماع لدعوته ، في ان « لا تتدخل السوق في عملية السلام في الشرق الاوسط » ( يديعوت احرونوت ٢١ـ١٢ـ٧٧ ، دافار ١٦ـ٢ـ٧٨ ) .

الا ان اوروبا الغربية ، سرعان ما رأت نفسها محررة من الوقوف على الحياد ، اثر اصطدام عملية السلام بطريق مسدود ، بعد فشل قمة الاسماعيلية المصرية الاسرائيلية في ٢٥ـ١٢ـ٧٨ ، مما دعا رئيس الحكومة البريطانية جيمس كالاهان نفسه للتصريح : « نحن نفهم مشاكل اسرائيل الامنية ، ولن نكون مستعدين لتأييد أية اتفاقية لا تضمن أمنها . ولكننا لا يمكن ان نفهم ان حفنة من المستوطنات المدنية سوف تضمن الحدود الجنوبية ، في الوقت الذي فيه لمصر نوايا صادقة في السلام . بل والسادات يقترح برنامج الست نقاط لتنظيم الامن » ( معاريف ٤ـ٤ـ٧٨ ) .

اما الدفعة الجديدة لعملية التدهور في العلاقات بين اسرائيل واوروبا الغربية ، فقد كانت اثر الغزو الاسرائيلي لجنوب لبنان اذ « بعد أيام قليلة من عملية الطريق الساحلي فقط ، جفف الزعماء الغربيون دموع التماسيح التي سكبوها على ضحايا الكارثة في اسرائيل ، وانتقلوا لمهاجمة عمليتها في جنوب لبنان ، وانهالت التنديدات العنيفة من معظم العواصم الاوروبية » ( يديعوت احرونوت ٤ـ٤ـ٧٨ ) . واكثر من ذلك فقد وجد هذا التدهور « التعبير عنه في ردود فعل الحكومات الاوروبية على طلب اسرائيل اغلاق مكاتب م.ت.ف » ، وخاصة ما جاء في رد وزير الخارجية البلجيكي ، ورئيس مجلس وزراء خارجية أوروبا ، سيمونا ، الذي « أجاب بفظاظة » بأن « ليست هذه هي الطريقة التي نحل بها المشكلة الفلسطينية » ( المصدر نفسه ) .

## العلاقات الاقتصادية

اما بالنسبة للعلاقات الاقتصادية مع دول السوق الاوروبية ، فقد تأثرت تأثرا مباشرا بهذا التدهور في العلاقات

السياسية . اذ ان « كل من هو على اطلاع على شبكة علاقات اسرائيل مع السوق ، يعرف ان المسافة بين السياسة والاقتصاد قصيرة جدا » ( دافار ١٢ـ٢ـ ٧٨ ) . وقد عبر عن ذلك مدير قسم الاعلام في مندوبية السوق المشتركة، كلاوس هلدروف ، حين ذكر للصحافيين الاسرائيليين « في بروكسل في أوائل عام ١٩٧٨ » بان « القرارات في الشؤون الاقتصادية ، يتخذها الاشخاص الذين يأخذون بعين الاعتبار من يقرر مستقبلهم السياسي » ( دافار ١٢ـ٢ـ٧٨ ) . وهذا هو « الموقف الرسمي للسوق ، وعلينا ان لا ننتظر اي تقدم في المستقبل ، وخاصة في مجال الزراعة ، التي لا يزال المصدرون الاسرائيليون يدفعون الجمرك الكامل على الكثير من منتجاتها » ( المصدر نفسه ) .

ولذلك فان « النتيجة العملية لكل الاتفاقات التي وقعتها اسرائيل مع دول السوق الاوروبية في بروكسل في ٨ـ٢ـ ٧٧ ، للتعاون العلمي والاقتصادي والصناعي والمالي ، كانت حتى اليوم ضئيلة جدا » ( المصدر نفسه ) .

وتعزو اسرائيل هذا التدهور في المجال الاقتصادي مع دول السوق الاوروبية ، الى الضغوط التي يمارسها العرب على دول السوق ، « للضغط على اسرائيل في الحقل الاقتصادي » ( يديعوت احرونوت ٤ـ٤ـ٧٨ ) ، مستغلين في ذلك موضوع النفط ، الذي « يبعث القشعريرة في جسم الاوروبيين بمجرد ذكره » ( المصدر نفسه ) . مما يضطرها لارضاء العرب « والمحافظة على علاقات طيبة معهم ومساعدتهم » ( هآرتس ١٢ـ٢ـ٧٨ ) ، بل وأجرت « التسهيلات الكريمة ، وخاصة لدول المشرق مصر وسوريا والاردن ولبنان » ( المصدر نفسه ) ، في الاتفاقات التي وقعتها مع الدول العربية قبل عام ، والتي « ساو ت فيها بينها وبين اسرائيل » ( دافار ١٢ـ٢ـ٧٨ ) .

وكانت دول السوق قد منحت الدول العربية بموجب هذه الاتفاقيات ، « تخفيضا جمركيا بنسبة ١٠٠٪ على منتجاتها الصناعية للمجموعة الاوروبية » ، اما الصادرات الزراعية ، فقد حظيت « بتخفيض جمركي بنسبة ٤٠٪ ـ ٨٠٪ » ، كما « لم تلزم الدول العربية بالغاء الجمارك على المستوردات من دول المجموعة الاوروبية بالتدريج ... وذلك خلافا لاسرائيل التي الزمت بذلك » ( المصدر نفسه ) .

اما في المجال المالي فثمة « تفريق اكثر بروزا .... فمقابل قرض بمبلغ ٣٧ مليون دولار لاسرائيل منحت المجموعة الاوروبية ٢٢٠ مليون دولار للدول العربية، وهبة أخرى بمبلغ ١٢٥ مليون دولار » ( هآرتس ١٢ـ٢ـ٧٨ ) .

**توفيق فياض**

# قضايـا دوليـة

ربما لم يكن الموقف على المسرح العالمي مشحونا بالتوتر منذ حرب تشرين الاول ( اكتوبر ) ١٩٧٣ كما هو خلال الاسابيع الاخيرة ·

فعلى الرغم من اختلاف معطيات الموقف على مسرح العلاقات الدولية اختلافا كبيرا عما كانت عليه في ذلك الوقت من عـام ١٩٧٣ ، وخاصة فيما يتعلق بأولويـات المشكلات العالمية المطروحـة كمجـال للتحركات الدولية ، الا ان حدة التوتـر العالمي في الاسابيع القليلة الاخيرة تكاد تصل الى الحد الذي سبق ان بلغتـه ، عندما ارتفعت حرارة الاحتكـاك بيـن الكتلتين المتصارعتين في العالـم ذروة خاصة أدت بالولايات المتحدة في اثنـاء حرب الشرق الاوسط «الاخيرة » الى اعلان حالة التأهب القصوى في جميع قواعدها داخل الولايات المتحدة وفيما وراء البحار ( بما في ذلك القواعد النووية ) ·

وفي الظروف الراهنة ، وعلى الرغـم مما قد يبدو من تراجع ازمة الصـراع العربي ـ الاسرائيلي في الشرق الاوسط امام أزمات اخرى في الاهتمامات الدولية ـ مثل أزمة القرن الافريقي او الصـراع الدائر في شابا ( زائير ) ـ الا ان مؤثرات ازمة الشرق الاوسط تبدو كامنة وراء كثير من مظاهر التوتر القائمة · وبتعبيـر اوضح فان كثيرا من الاطراف المتصارعـة على المسرح العالمي ـ تخوض صراعـات متعددة في مناطق من العالم قـد تبـدو جغرافيا بعيدة عن الشرق الاوسـط · ولكنها في الحقيقة قريبة منها للغايـة استراتيجيا : اي اقتصاديا وامنيـا بالدرجة الاولى ·

ولا يعني هذا بطبيعة الحال ، انـه لا توجد في الاساس على مسرح الصراعات الدولية غير أزمة الشرق الاوسط وان كل الصراعات الاخرى هي فروع وروافـد لها · انما الذي نعنيه هو ضرورة التنبـه الى حضور أزمة الشرق الاوسـط فـي التحركات العالمية المختلفة ·· سـواء كان هذا الحضور بالسلب او بالايجاب ·

وعلى سبيل المثال فـان الصـراع المتجدد في « شابا » ـ الذي قد لا يكـون في نواته الاساسية غير صراع داخلـي يفجره فساد وانحطاط نظام موبوتو فـي زائير ، صراع طرفاه الرئيسيان زائيريان بالدرجة الاولى والاخيـرة ـ يتحـول مع التدخلات الخارجية ( حقيقية ومزعومة) الى صراع عالمي توظفه الاطراف العالميـة الغربية لما يتجاوز اهداف الحفاظ عـلى مناجم شابا ونظام موبوتو الذي يكفـل استمرار الشركات الغربية في استغلالها·

فان ادخال اطراف من الشرق الاوسـط ( العربي ) في هذا الصراع يؤكد وجود اتصال ـ لا انفصال ـ بين ما يجري في شابا وما يخطط بالنسبة للشرق الاوسط·

كذلك ـ وعلى سبيل المثال أيضا ـ فان ما تكشفه الصراعات العديدة ( التي تتمركز في الفترة الاخيرة في أفريقيا اكثر من غيرها ) عن اعادة تشكيل للتحالفات الكبرى والصغرى في العالم ، ينبه بدوره الى ضرورة اعتبار معايير جديدة في قياس مواقف اطراف كبرى وصغرى ازاء القضايا العالمية ، بصفة خاصة قضية الشرق الاوسط ، وبصفة عامة قضايا التحرر الوطني والاجتماعي · فان ظهور الصين الشعبية على مسرح الاحداث الافريقية حليفا لنظام موبوتو ، منسقا للنشاط العسكري والسياسي والدبلوماسي والاقتصادي مع دول الغرب ـ مع دول حلف الاطلسي على وجه التحديد ـ يشكل تصعيدا جديدا في تحول اتجاهات السياسة الخارجية الصينية من مستوى المساواة بين « الامبريالية الاشتراكية » ( الاتحاد السوفياتي ) والامبريالية الرأسمالية ( الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان ) الى مستوى التأييد للامبريالية الغربية والتنسيق معها ضد الاتحاد السوفياتي · وبطبيعة الحال فان مراقبة هذا التصعيد في تحولات السياسة الخارجية الصينية تظهر انها ليست وليدة احداث افريقيا الاخير ، وانما هي ظاهرة نامية ومتطورة على مدى السنوات العشر الماضية ( على الاقل ) · وتظهر أيضا ـ وهو الاهم ـ ان مؤشر هذه التحولات لا يمكن ان يقف عند حدود افريقيا دون ان يشمل بتأثيراته سياسات الصين الشعبية ازاء حركة التحرر العربية وقضيتها الاولى : فلسطين · وبالمثل لا يمكن فهم دلالات الصراع الجديد في شرق اسيا بين الصين وفيتنام ـ رفاق السلاح السابقين ( وبعد الصراع الذي سبقه بين كمبوديا وفيتنام ) بمعزل عن التحولات الجديدة المتصاعدة للسياسة الصينية ازاء افريقيا والشرق الاوسط واوروبا الغربية وأميركا اللاتينية ·

ويمكن ان نقول ان السبب الرئيسي وراء حدة التوتر التي تميز الوضع الدولي منذ فترة ، والتي بلغت مستوى لم تبلغه منذ خمس سنوات وربما اكثر ، هو ما يبدو من وجود عملية اعادة تشكيل للتحالفات، ليس فقط بما يبدو من انضمام الصين الى مؤيدي المعسكر الغربي بدرجة لم يسبق لها مثيل · انما بما يبدو ايضا من تجديد التحالف العسكري بين الولايات المتحدة وفرنسا · ذلك التحالف الذي كان قد مر بمرحلة توقف مع مدى الاعوام العشرة الماضية منذ انسحاب فرنسا من القيادة العسكرية لحلف شمال الاطلسي، وقبلها بفعل السياسة الاوروبية الاستقلالية الديغولية · كما يبدو في تشديد وتصعيد التحالف بين الاتحاد السوفياتي وكوبا الى المستوى الذي ظهر في دور كوبا الاممي في أفريقيا ، وخاصة منذ وقوفها الى جانب الحركة الشعبية لتحرير أنغولا ضد الحركتين المدعومتين من الغرب في الحرب الاهلية الانغولية · وتجلى ـ في وقت اقرب ـ في المساعدات الفعالة التي قدمتها كوبا للنظام الثوري الاثيوبي في حرب صحراء « أوغادين » ضد الصومال ·

يضاف الى هذا عودة النظام الايراني الى انتهاج سياسة تنسيق عسكري مكشوف مع الغرب بعد سنوات حاول فيها نظام الشاه اصطناع « التوازن » عن طريق تدعيم علاقات اقتصادية مع الاتحاد السوفياتي ذهب فيها الى حد شراء الاسلحة منه · اذ يبدو الان ان سنوات الهدنة في العلاقات الايرانية ـ السوفياتية قد انتهت · وعادت ايران تمارس دورها كقاعدة متقدمة للعسكرية الاميركية ضد الاتحاد السوفياتي · وهو دور لا ينفصل

عن مسعى نظام الشاه لان يقوم بـدور دولة كبرى مصغرة في الشرق الاوسط ضد الحركات الوطنية والثورة على امتداد الخليج العربي وغرب اسيا كله وحتى شرق افريقيا ·

وفي اطار اعادة تشكيل التحالفات على مسرح الصراعات العالمية لا بد من وضع التغير الذي طرأ على سياسة الهند بسقوط انديرا غاندي الانتخابي وصعود حزب « جاناتا » اليميني الى الحكم ، والتغير الاحدث الذي وقع في افغانستان، وهو تغير أخل بتوازنات غربية تعتمد على استقرار منطقة غرب اسيا وجنوب اسيا باعتبارها – من الناحية الاستراتيجية – المعبر العريض عن الشرق الاوسط الى الشرق الاقصى ، والعكس ، وهي المنطقة المحيطة بالنفط العربي والايراني ·

واذا كانت الاحداث الاخيرة – من افغانستان الى شابا ، والفاعلون في هذه الاحداث من كوبا واميركا في نصف الكرة الغربي الى ايران في الشرق الاوسط حتى الصين في الشرق الاقصى – قد برهنت على نتيجة اساسية فهي سقوط « الوفاق الدولي » بالمفهوم الغربي · فقد بنى الغرب – بزعامة الولايات المتحدة – علاقات « الوفاق » مع الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية على أساس ان هذا الوفاق وسيلة لتجميد الاوضاع حيث هي ملائمة للغرب ، ان لم يمكن تحريك الاوضاع العالمية والاقليمية باتجاه المصالح الغربية – الاستراتيجية والاقتصادية اساسا – حيث لا تكون ملائمة للغرب ، دون ان تسمح قواعد « الوفاق » بتدخل مضاد او بفعل عكسي من جانب المعسكر الاخر · ولا يعني هذا ان الولايات المتحدة « اكتشفت فجأة » خطأ مفهومها من « الوفاق » مع الاتحاد السوفياتي · انما يعني انها بدأت محاولات جديدة لفرض هذا المفهوم على خلفية من واقع عالمي لا سبيل الى التصرف ازاءه كما لو كانت كل الخيوط بأيدي الغرب · ولهذا يتضح – كلما ازداد توتر العلاقات بين واشنطن وموسكو – ان واشنطن تنفذ ما يمكن اعتباره سياسة « ما بعد الوفاق » ، وهي السياسة المتمثلة على المستوى النظري بأطروحات زبغينو بيرجنسكي مستشار الرئيس الاميركي كارتر لشؤون الامن القومي . الذي يمكن اعتباره « كيسنجر ادارة كارتر » · وبعبارة اخرى فان اشتداد حركة الصراع وانعكاسها بالتوتر الشديد على العلاقات الدولية ، وخاصة بين « الدولتين الاعظم » خلال الشهر الاخير هي في المكان الاول انعكاس لوضع نظريات بيرجنسكي موضع التطبيق عن طريق « ربط اوروبا الغربية واليابان والصين بنظام تنسيق موحد في مواجهة الاتحاد السوفياتي » ، باعتباره النقيض الاساسي لمصالح الغرب ، والمقصود هو ، بطبيعة الحال ، مصالح الولايات المتحدة على وجه التحديد ·

وهكذا فان الاحداث الدولية التي واكبت حركة الصراع على مدى فترة الشهر المنقضية ( حتى الاسبوع الثالث من حزيران ) تفرض بطبيعتها زاوية الرؤية التي ينبغي النظر منها الى تلك الاحداث لفهمها مترابطة ومتداخلة ومتفاعلة فيما بينها · ولعل كلمة « الحرب الباردة » ، التي عادت تتردد في الاسابيع الاخيرة بأكثر مما ترددت في اي وقت منذ بداية فترة « الانفراج الدولي » في السياسة العالمية – تصف بدقة هذه الزاوية للنظر · فقد احتدمت الاتهامات والاتهامات المضادة ليس فقط بين « الدولتين الاعظم » ، انما بين كافة الاطراف الكبرى والصغرى على المسرح الدولي · وليس من قبيل التبسيط المخل ابدا ان نقول ان اجواء « الحرب

الباردة » قد سيطرت على احداث الاسابيع الاخيرة ، ولا نعني بتلك الاجواء مجرد تبادل « الاتهامات » ، انما الصراعات الاقليمية التي التهبت بشكل خاص في أفريقيا وشرق اسيا ، وكذلك الانتفاضات الداخلية التي وجدت طريقها الى بعض الدول الاطراف في صراعات اقليمية ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ٠ بل يمكن حتى ان نضيف الى ما نعنيه بأجواء الحرب الباردة عددا من الزيارات الرسمية وغير الرسمية والاجتماعات والمؤتمرات التي تمت خلال الاسابيع الماضية ٠ مثل زيارة زبغنيو بيرجنسكي مستشار الرئيس الاميركي كارتر لشؤون الامن القومي الى الصين الشعبية ، وجولة وزير الخارجية الصيني هوانغ هوا التي شملت زائير ( وقد زار خلالها مدينة كولويزي مسرح القتال الاخير في شابا ) وايران ، واجتماع ممثلي دول حلف الاطلسي الذي افتتحه الرئيس الفرنسي ديستان في باريس في حزيران ( يونيو ) الماضي ٠

بل ان مناخ « الحرب الباردة » قد بدا بصورة مكثفة ومفسرة – من وجهتي نظر متصارعتين – في وثيقتين اساسيتين سلطت الاضواء عليهما دوليا خلال الاسابيع الماضية ٠ اولاهما خطاب القاه الرئيس الاميركي كارتر في قاعدة « انابوليس » يوم ٧ حزيران الماضي بمناسبة تخريج دفعة من ضباط البحرية الاميركية ٠ والثانية بيان رسمي سوفياتي حول الازمة الراهنة للعلاقات السوفياتية – الاميركية اذاعته وكالة « تاس » يوم ١٧ حزيران ٠

واذا ما أخذنا بالمقدمة القائلة بأن « الحرب الباردة » هي مفتاح فهم الاحداث التي جرت خلال الشهر المنقضي، فان استعراض هذه الاحداث ينبغي ان يبدأ بقراءة لهاتين الوثيقتين ٠

● خطاب كارتر في « انابوليس » تضمن اساسا النقاط التالية :

– يستطيع الاتحاد السوفياتي الاختيار بين المواجهة او التعاون ، والولايات المتحدة مستعدة لمواجهة اي من هذين البديلين ٠

– ان الوفاق يجب ان يكون متبادلا بصورة حقيقية ، وان على كل من البلدين ممارسة بعض التحفظ في المناطق التي يسودها الاضطراب وخلال الفترات العسيرة ٠

– ان الولايات المتحدة « قلقة للغاية » بسبب « المبادرات السوفياتية – الكوبية » في افريقيا ، ولهذا فانها « ستساند الجهود التي يبذلها الافارقة لوقف هذا التدخل مثلما فعلوا بالنسبة لزائير » ٠

– ان الولايات المتحدة لم تقرر تجميد مفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتيجية ( سالت ) مع الاتحاد السوفياتي بسبب « مسلك السوفيات في أفريقيا » ٠

وقد اعتبر خطاب كارتر هذا علامة مهمة على طريق الحرب الباردة بين العملاقين ، ولكنه اعتبر – مع ذلك وفي الوقت نفسه – خطابا متعقلا متسما بضبط النفس ، وذلك بالمقارنة بتصريحات صدرت قبله بأيام عن بيرجنسكي اتهم فيها موسكو بـ «انتهاك الوفاق » ، وألمح الى تجميد محادثات « سالت » بسبب السياسة السوفياتية والكوبية في أفريقيا وغيرها ٠

● البيان السوفياتي الذي اذاعته وكالة « تاس » كان بمثابة رد شامل على التصريحات الاميركية ، وخاصة على

خطاب كارتر في انابوليس ، وتضمن اساسا النقاط التالية :

ـ ان تغييرات خطرة على السلام تجري في الوقت الحاضر في سياسة الولايات المتحدة ، « قد تؤدي الى بعث الحرب الباردة » ٠

ـ ان الولايات المتحدة تحاول التدخل في الشؤون الداخلية السوفياتية « تحت ستار الدفاع عن حقوق الانسان » ٠

ـ ان المسؤولين الاميركيين يتصلبون في سياستهم الخارجية « للتهرب من أزمات البطالة والتضخم من الجرائم والتمييز العنصري ضد السود » ، وان هناك ملامح عودة الى « الماكارثية » داخل الولايات المتحدة ٠

ـ ان في داخل الاوساط الاميركية الحاكمة صراعا حادا حول قضايا الانفراج والعلاقات مع الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية بين خصوم الانفراج ومؤيديه ٠

ـ ان من شأن « التحالف الاميركي ـ الصيني على اساس معاداة السوفيات ان يغلق امكانية التعاون مع الاتحاد السوفياتي » ٠

ـ ان الاتحاد السوفياتي وكوبا قد ساعدا انغولا واثيوبيا بطلب من حكومتيهما الشرعيتين ، بينما لم يقوما بأي دور في احداث شابا ٠

وهكذا فان البيان السوفياتي يضع نقاطا عديدة على حروف تركتها التصريحات الاميركية ، وخاصة خطاب كارتر المذكور ، دون اي ايضاح ٠ واهم ما تضمنه البيان السوفياتي تقريره القاطع بان « التحالف الاميركي ـ الصيني » يغلق الباب امام امكانية التعاون بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ٠٠ اي انه ينهي عهد الانفراج ٠ الامر الذي يوضح مدى الخطورة التي ينطوي عليها تحرك الولايات المتحدة ـ الذي يقابل باستعداد واستجابة واضحين من جانب بكين ـ نحو تصعيد استغلالها لتصدع العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية ٠

ولعل من الامور التي لها دلالتها ان الاتحاد السوفياتي اوضح في بيانه ان استخدام الولايات المتحدة « الورقة الصينية » في اللعبة العالمية لا يعتبر بحد ذاته امرا جديدا ، « انما كان يبدو حتى الان ان قادة الولايات المتحدة قد ادركوا جيدا انه لا يجوز لعب هذه الورقة دون اثارة الخطر على قضية السلام وعلى انفسهم ، وعلى المصالح الوطنية للولايات المتحدة » ٠ فقد عكس هذا الجزء من البيان مدى القلق الذي تشعر به موسكو بعد زيارة بيرجنسكي الاخيرة لبكين ٠ وهي الزيارة التي كانت موضوعا لمناقشة طويلة جرت في واشنطن بين الرئيس الاميركي كارتر ووزير الخارجية السوفياتي اندريه جروميكو ، حيث من المعتقد ان جروميكو اعرب عن شكوك بلاده وتحذيرها لواشنطن من ممارسة هذه اللعبة المزدوجة ٠ لعبة تحريض الصين ضد الاتحاد السوفياتي ، والاستجابة لتحريضات الصين لها ولاوروبا الغربية ضده ٠ وقد خلفت هذه الزيارة وراءها انباء عديدة عن : صفقات اسلحة غربية متطورة للصين ـ تعاون نووي غربي ـ صيني ـ استعداد الولايات المتحدة لاقامة علاقات كاملة مع بكين ( وهذا معناه فض يدها تماما من نظام تايوان ) كثمن لتحالف كامل بين الصين والغرب ٠ ولكن بغض النظر عن مدى نصيب هذه الانباء من الصحة ، فقد اعقبت زيارة بيرجنسكي لبكين تحركات صينية واسعة الى زائير وايران والمغرب وباكستان وبعض دول اوروبا الغربية ٠

وقد ذكرت مجلة « نيوزويك » الاميركية ( ٥ـ٦ـ١٩٧٨ ) ان المحللين السياسيين دهشوا بشكل خاص لطول جلسات المحادثات التي اجراها بيرجنسكي مع الزعماء الصينيين ، وقالت ان تفصيلات

تلك المحادثات بقيت سرية ، وقد اكتفى بيرجنسكي بوصفها بانها كانت محادثات « مفيدة ومهمة وبناءة » . واعرب مسؤولون صينيون عن ارتياحهم لمحادثاتهم معه بالمقارنة للمحادثات التي كان قد اجراها في بكين قبله وزير الخارجية الاميركي سايروس فانس . « اننا نعرف اين يقف بيرجنسكي من الاتحاد السوفياتي والصين واليابان . اما مع فانس فلم نعرف ذلك ابدا » . وقد عبرت مجلة « تايم » الاميركية ( ٥ـ٦ـ١٩٧٨ ) عن مغزى هذا الود بقولها ان « الزعماء الصينيين يرحبون برسالة بيرجنسكي المعادية للسوفيات » . وذكرت انه وصف السياسة السوفياتية في افريقيا بانها غبية، وبذل جهدا كبيرا لاقناع محاوريه الصينيين بان الولايات المتحدة تزداد قوة وان القيادات السياسية والاجتماعية في العالم تسير ضد السوفيات « بل انه أطلع مضيفه على نظم الاسلحة الاميركية الجديدة ،وكان هدفه اقناعهم بان محادثات « سالت » الجديدة بين واشنطن وموسكو لا تشير الى ضعف من جانب الولايات المتحدة كما يعتقد الصينيون » .

وقد علمت « التايم » ان بيرجنسكي « طلب من الزعماء الصينيين ان يستخدموا نفوذهم لمساعدة الحركات المعادية للسوفيات في افريقيا » ... « وقد ناقش بيرجنسكي مع الزعماء الصينيين ايضا اهتمام الحكومتين المتبادل بمجابهة عدم الاستقرار السياسي في كل من باكستان وافغانستان » .

والامر المؤكد ان تطورات بالغة الاهمية فيما يتعلق بمصير الانفراج الدولي يمكن ان تنشأ عن بلوغ التقارب الاميركي ـ الصيني حد التنسيق او « التحالف » ضد الاتحاد السوفياتي وضد القوى التي يؤيدها الاتحاد السوفياتي في مناطق العالم المختلفة .

ويمكن النظر من هذه الزاوية نفسها الى التطورات التي طرأت خلال الشهر المنقضي بين فيتنام والصين . اذ لم يعد من المستبعد تماما النظر اليها على انها نتيجة لتوثق العلاقات بين فيتنام والاتحاد السوفياتي الى حد غير مريح للصين ، على ملاحظة ان فيتنام تربطها حدود جغرافية مشتركة مع الصين ، ولا تربطها اية حدود مماثلة مع الاتحاد السوفياتي ، وهو امر له دلالاته وانعكاساته الاستراتيجية ، فضلا عن بعده التاريخي الذي تميز على مدى مئات السنين بصراع القوميتين الفيتنامية والصينية .

لقد جاءت احداث « هروب » عشرات الالوف من ذوي الاصل الصيني من فيتنام ، اثر تطبيق اجراءات اشتراكية عديدة في فيتنام شملتهم كما شملت الفيتناميين ، ولكنها جاءت ايضا على اثر توقيع اتفاق لمساعدات سوفياتية ضخمة ـ بقيمة ٢٦٠٠ مليون دولار من الاتحاد السوفياتي لفيتنام لدعم جهود اعادة بناء ما هدمته الحرب الاميركية . كما جاءت على اثر وقف الصين هبتها من الارز لفيتنام ـ بما مقداره ٥٠٠ الف طن سنويا، وخفضها امداداتها من السلع الاستهلاكية الصينية الرخيصة الى فيتنام .

مع ذلك فان الدور الابرز في تنفيذ سياسة الغرب التصعيدية الجديدة كان لفرنسا . والرأي الذي ذهب ـ منذ تولي الرئيس جيسكار ديستان الرئاسة ـ الى ان فرنسا ما بعد المرحلة الديغولية هي فرنسا ـ اميركية السياسة والتحالف ، قد وجد اكبر تأكيد له في الدور الذي ادته فرنسا في زائير ( بمشاركة شابتها بعض شوائب الحذر والتردد من جانب بلجيكا ) بتوجيه عسكري وسياسي اطلسي ـ اميركي . وقد كشف اجتماع دول الاطلسي الذي عقد في باريس ( ٥ـ٦ـ١٩٧٨ ) عن رغبة فرنسا في تحويل الدور الاخير الذي اداه الف وسبعماية من المظليين الفرنسيين في زائير الى دور دائم

يشمل افريقيا . اتضح ذلك من الاقتراح الفرنسي بتشكيل « قوة امنية افريقية » من الدول التي لا تزال ترتبط بفرنسا بعلاقات وثيقة ( مثل السنغال وتوغو وأفريقيا الوسطى وساحل العاج والغابون والمغرب ) . ومن الواضح ان المقصود بهذه القوة الفرنسية القيادة والسلاح والمساندة ان تكون قوة تدخل ضد حركات التحرر الافريقية وضد اي حركة تحرر للثورة الاجتماعية ، وذلك ضمانا لمصالح الشركات الرأسمالية الغربية التي لا تزال تمارس نهب ثروات بلدان القارة على أوسع نطاق .

وقد تكشف لفرنسا خلال احداث الشهر المنقضي أنها بدورها في زائير وتشاد وموريتانيا وغيرها ربما تلتقي مع بعض النظم الافريقية والعربية التي تحرص على « ابعاد النفوذ السوفياتي » عن القارة وتطالب الغرب بتدخل اكثر صراحة وفاعلية ، ولكنها تصطدم في الوقت نفسه بنظم افريقية وعربية اخرى ترى في التدخل الغربي محاولة لعودة سيطرة الاستعمار الجديد وتهديدا للنظم التقدمية ولحركات التحرر الوطني الافريقية ، بل تهديدا للمصالح العربية المباشرة . ويتصادف ان الصدام الفرنسي هو مع بلدان حرصت فرنسا طوال السنوات الماضية على المنافسة على صداقتها من اجل تجارتها ونفطها في الدرجة الاولى ، وخاصة ليبيا والجزائر .. ومن خارج القارة الافريقية العراق ، والى حد ما سوريا . ولهذا سيتعين على فرنسا خلال الفترة القصيرة القادمة ان تحاول ان تحل هذا التناقض ، لانها لا تستطيع ان تحتفظ بأسواق السلاح واسواق النفط وان تمارس — في الوقت نفسه — سياسة البديل عن التدخل الاميركي المباشر في افريقيا ، خاصة ان بعض المشكلات الافريقية هي مشكلات عربية في الوقت نفسه .

واذا كانت فرنسا قد لعبت دورها في تصاعد الموقف نحو « الحرب الباردة » من مواقع هجومية ، فان حليفا — هو ايران — اخر للولايات المتحدة لعب دوره من مواقع دفاعية ، على الرغم من ان ايران ظلت طوال السنوات العشر الماضية تتهيأ لدور هجومي في المنطقة المحيطة بها . ولكن العوامل الداخلية المتمثلة في اشتداد قوة المعارضة ضد نظام الشاه هي التي الزمته مواقع الدفاع ، حيث فشلت تراكمات الاسلحة المتطورة في منع انفجار الوضع الاجتماعي داخل ايران وفي الحيلولة دون وقوع اكبر صدام بين نظام الشاه والمعارضة الشعبية منذ احداث العام ١٩٥٣ التي شهدت فرار الشاه امام شعبية محمد مصدق ثم عودته على حراب العسكريين محروسا بأجهزة وكالة الاستخبارات الاميركية التي تولت تخطيط وتنفيذ انقلاب الثورة المضادة لصالحه ضد حكومة مصدق .

ويبدو ان الدرس الوحيد الذي يريد الشاه ان يخرج به من احداث الصدام بين نظامه من ناحية وبين رجال الدين والماركسيين الايرانيين من ناحية اخرى هو ضرورة « تقوية النظام الامني الغربي لمواجهة خطر الشيوعية في منطقة الخليج النفطية » . وفيما عدا ذلك فانه لم يحاول على المستوى الداخلي شيئا الا تغيير بعض قيادات اجهزته الامنية وقيادات حزبه الرسمي الواحد . ولا يخفي اي من هذه الاجراءات — انما بالاحرى يكشف — حقيقة ان الشاه لم يبد مهزوزا طوال العشرين سنة الماضية كما يبدو الان . ومع ذلك فان الشاه يريد ان يستغل هذا الاضطراب لدعم الفكرة عن دور قيادي مسيطر لايران في الخليج باسم جماعة مصادر النفط التي يحرص عليها الغرب ضد الخطر الشيوعي ، الخارجي

والداخلي . ولم يفت شاه ايران في هذا الصدد ان يزيد من فزع الغرب من التغيير الذي وقع في افغانستان ، والذي كان موضوعا لاتصالات ومحادثات عديدة شملت ايران وباكستان والهند وبعض دول الخليج والصين الشعبية .

وبين مواقع الهجوم ومواقع الدفاع في تحركات القوى الامبريالية على المسرح العالمي لا بد ان تبرز تناقضات مضاعفة اكثر حدة بين مقتضيات « الاستقرار » الذي تحاول القوى العالمية المحافظة الابقاء عليه في مواقع نفوذها وسيطرتها، ومقتضيات التغيير والثورة التي تفاجئها على فترات متقاربة داخل تلك المواقع . فلا امن نظام الشاه استقر في ايران .. ولا انتفاضات اقليم شابا انتهت بالتدخل الفرنسي ـ الاطلسي ـ الافريقي . وفيما وراء الاستقرار المفقود داخليا ، والتدخل العسكري خارجيا تبدو عملية اعادة نظر شاملة في اسس « الوفاق الدولي » ، كي يدرك الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي ان قبول الولايات المتحدة والمعسكر الامبريالي بالدخول في اتفاقات وفاقية ليست قبولا شاملا وابديا . وكي تدرك الولايات المتحدة والمعسكر الغربي ان اهتمام الاتحاد السوفياتي و « المعسكر السوفياتي » بدعم « الانفراج الدولي » ليس لمصلحة تجميد العملية الثورية عالميا كما أنه ليس لمصلحة « تسيب » يسمح بتسلل غربي الى هذا المعسكر تحت اي شعار .

س.ك.

---

# قضايا عسكرية

## الولايات المتحدة تعوض اسرائيل عسكريا مقابل صفقة الطائرات

عقب موافقة الكونغرس الاميركي على صفقة الطائرات الثلاثية الى كل من اسرائيل ومصر والسعودية ، التي تمت في ١٦ـ٥ـ٧٨ ، والتي تضمنت بيع اسرائيل ٧٥ طائرة من طراز « ف ـ ١٦ » و ١٥ طائرة من طراز « ف ـ ١٥ » ، اضافة للطائرات الـ ٢٥ الاخرى التي سبق بيعها لاسرائيل من الطراز المذكور ، نقل السفير الاميركي لدى اسرائيل ، « صمويل لويس » رسالة من الرئيس « كارتر » الى « بيغن » يوم ١٨ـ٥ـ٧٨ تحمل تأكيداً على الالتزام الاميركي بالحفاظ على أمن اسرائيل ، وتلميحا بأن الولايات المتحدة قد تمنح اسرائيل تعويضات بما يضمن الابقاء على قوتها الرادعة .

وبخصوص الموضوع ذاته اوضحت الاوساط السياسية الاسرائيلية ان المسؤولين الاميركيين ابدوا استعدادهم ، في اتصالات حديثة جرت مع اسرائيل ، للدخول في مفاوضات حول تعويضات للصفقة الثلاثية في مجال تسليح اسرائيل . وذكرت هذه المصادر أن

« فايتسمان » وزير الدفاع الاسرائيلي قد يتوجه الى واشنطن لاجراء تقويم شامل للوضع على صعيد حاجات اسرائيل الامنية والتفاوض حول طلبات اسلحة جديدة ٠

وفي اليوم ذاته ، ١٨ـ٥ ، نشرت صحيفة « هآرتس » أن الولايات المتحدة ستزود اسرائيل بـ ٥٠ طائرة اضافية من طراز « ف ـ ١٦ » ( النهار ١٩ـ٥ـ٧٨ ) وفي ٢٢ـ٥ـ٧٨ اعلنت اسرائيل انها ستتخذ خطوات لمواجهة تزويد مصر والسعودية بطائرات اميركية متطورة ، وذلك دون أن تحدد اية تفاصيل عن هذه الخطوات التي تنوي القيام بها ٠ وقد أعلن « ارييه ناور » ، الناطق الرسمي باسم الحكومة الاسرائيلية ، بأن رئيس الوزراء « بيغن » وجه رسالة شخصية الى « كارتر » ، ردا على رسالة الاخير اليه ، تناولت مضاعفات صفقة الطائرات على امن اسرائيل ٠ وقالت مصادر مطلعة في القدس ، في اليوم ذاته ، ان « بيغن » سيطلب تزويد اسرائيل بطائرات متطورة اضافية تكون بمثابة تعويض لها ( النهار ٢٣ـ٥ـ٧٨ ) ٠ كما ذكرت المصادر نفسها بأن فايتسمان يستعد للسفر خلال اسبوعين ( لم تتم الزيارة بعد ) لاجراء محادثات ذكر انها تتعلق ببرنامج اسرائيل لشراء اسلحة تبلغ قيمتها ١٠ مليارات دولار في العقد المقبل ٠ وفي ٢٦ـ٥ـ٧٨ نشرت صحيفة « القبس » الكويتية في نبأ لمراسلها في واشنطن ، ان وزير الدفاع الاسرائيلي ، سيبحث مع المسؤولين الاميركيين خلال زيارته المقبلة لواشنطن في موضوع الاسراع بتنفيذ مشروع سري خاص لتسليح اسرائيل يقضي بتزويدها بما قيمته مليارا دولار من الاسلحة سنويا على مدى ١٠ سنوات ٠ واوضحت الصحيفة المذكورة ان هذا المشروع يتضمن زيادة عدد الدبابات الاسرائيلية بنسبة ١٠٠٪ والطائرات بنسبة ٥٠٪ والصواريخ الموجهة المضادة للدبابات بنسبة ٩٠٠٪ ٠ ويقضي المشروع ايضا بتزويد اسرائيل بالتكنولوجيا العسكرية الاميركية المتطورة الى جانب السماح لها بانتاج صاروخ « مافريك » جو ـ ارض وصاروخ « اي ـ م ٩ ال » المتطور وشبكات الكترونية للمراقبة وصفائح للدبابات مماثلة لتلك المستخدمة في المدرعات الاميركية ٠ ( النهار ، ٢٧ـ٥ـ٧٨ )

وفي ٧ـ٦ـ٧٨ صرح السفير الاسرائيلي في واشنطن « سيمحا دينيتز » للصحفيين بأنه بحث مع وزير الخارجية الاميركي « سايروس فانس » في موضوع الاسلحه وقضية مفاوضات السلام في الشرق الاوسط ، وذلك في اجتماع استغرق ساعة عقداه في اليوم المذكور ٠ واوضح مسؤولون اميركيون أن السفير الاسرائيلي والوزير الاميركي بحثا في مسائل ما تزال مفتوحة منذ زيارة وزير الدفاع الاسرائيلي لواشنطن في اذار ( مارس ) الماضي ٠ ( النهار ٨ـ٦ـ٧٨ ) ٠

وتجدر الاشارة الى ان صحيفة « عال همشمار » كانت قد ذكرت في ٩ـ٣ـ٧٨ ، ابان زيارة « فايتسمان » لواشنطن ، انه اصر ، خلال اجتماعه بوزير الدفاع الاميركي « هارولد براون » وعدد من المسؤولين في وزارة الدفاع الاميركية ، على جميع طلبات اسرائيل من الاسلحة الاميركية لفترة عشرة اعوام ، التي وردت في برنامج « ماتمون ـ ٣ » الذي قدمته اسرائيل الى الولايات المتحدة في تشرين الاول ( اكتوبر ) ١٩٧٦ ٠ واوضحت الصحيفة المذكورة أن التقارير الصحفية تشير الى ان الحجم المالي لمشروع « ماتمون ـ ٣ » ( وهو برنامج اسرائيلي

اخر ، او معدل ، للبرنامج « ماتمـون ـ ب » المقدم منها للولايات المتحدة خلال عام ١٩٧٤ ) يبلغ ١٣ مليـــار دولار ، وان الهدف من ( نشرة م٠د٠ف ايــار ٧٨ ) الحصول على الاسلحة التي تتضمنه هو ضمان قدرة اسرائيل على الدفاع ضـد أي هجوم عربي ٠

كما ذكرت « يديعوت احرونوت » ، في ٩ـ٣ـ٧٨ ايضا ، نقلا عـن صحيفـة « واشنطن بوسـت » الاميركيـة ، ان « فايتسمان » اثار في محادثاته مـع المسؤولين الاميركيين ، طلبات اسرائيـل للاسلحة . ومن بينها طائرات صهريج مـن نوع « ك٠سي ـ ١٣٥ » ( وهي نوع من طائرات « البوينغ ٧٠٧ » مخصص لتزويد الطائرات بالوقود في الجو ) ، والحصول على الاف الدبابات وناقـلات الجنـود المصفحة ، وانواع اخرى من الاسلحـة المتطورة ، وكميات ضخمة من الذخيرة ، لضمان عدم اعتماد اسرائيل على جسر جوي اميركي في حال نشوب حـرب جديدة ٠ كما طلب « فايتسمان » مساعدات مالية لمشروع انتاج دبابات « مركفـاد » الاسرائيلية ( ما زالت قيد الاختبـار والتطوير ) ٠ ويبدو ان الولايات المتحـدة لا توافق ، حتى الان ، الا على نصف ما تطلبه اسرائيل من الاسلحـة والمعـدات في برنامج « ماتمون ـ ٣ » . فقد ذكـرت « يديعوت احرونوت » في ١٤ـ٣ـ٧٨ ان مجلة « افياشن ويك » الاميركية اجـرت مقابلة مع « فايتسمان » ، كتبت بعدها ان اسرائيل تطلب من الولايات المتحـدة مضاعفة كمية المعدات العسكرية التـي يقترحها الاميركيون في المفاوضات الحالية. وذلك بهدف تحديث الجيش الاسرائيلي على نطاق واسع ٠ ومن هذه الزيادات طلب اسرائيل ان يصبح لديها ما مجموعـه ١٥٠ طائرة « ف ـ ١٦ » و ٧٥ طائرة « ف ـ ١٥ » ٠ واضافت مجلة « افياشن ويك » قائلة ان برنامج « ماتمون ـ ٣ » يعكس تغييرا في التكتيك الاسرائيلـي لمواجهة الدبابات ، اذ طلبت اسرائيـل الحصول على ٣٠ طائرة هليكوبتر هجومية من نوع « هيوز ٥٠٠ م ٠ د » ، كما انها ترغب في شراء طائرات هليكوبتر مسلحة من نوع « كوبرا» ٠

وتجدر الاشارة الى ان اسرائيل قـد تسلمت بالفعل ١٨ طائرة « كوبـرا » ، ويبدو أنها تريد الحصول على مزيد منها . الى جانب الـ ٣٠ طائرة الجديدة مـن طراز « هيوز ٥٠٠ م٠د » المشار اليهـا ، وهي طائرة هليكوبتر خفيفة غير مصفحـة او ذات تجهيزات قتالية خاصـة مثـل « الكوبرا » ، ولذلك فهي اقل كلفة منها . ولكنها لا تستطيع ان تحمل ٨ صواريـخ مضادة للدبابات من طراز « تاو » ، وتبلغ سرعتها الملاحية القصوى على ارتفـاع سطح البحر ( وهو الارتفاع الذي تعمـل عليه عادة ضد الدبابات ) ٢٣٢ كلم فـي الساعة ، ومدى عملها على ارتفاع ١٢٢٠ مترا يصل لنحو ٥٩٠ كلم ٠

ونقلت « يديعوت احرونـوت » عـن « فايتسمان » قوله في المقابلـة مـع « افياشن ويك » ان برنامج « ماتمـون ـ ٣ » يتضمن طائرات « ف ـ ١٥ » و « ف ـ ١٦ » وطائرات هليكوبتر وزوارق هوفـر كرافت ومدفعية ومعدات اخـرى ٠ وان الولايات المتحدة ادرجت في المقترحـات التي قدمتها نصف ما تضمنه البرنامـج تقريبا ٠

ونشرت الصحيفة ذاتها في ٢١ـ٣ـ٧٨ ان وزارة الدفاع الاميركيـة ابلغـت الكونغرس انها تنوي بيع اسرائيـل ٦٠ صاروخا مضادا للطائرات من نوع «هوك» المحسن ، وشبكتي رادار متطورتين ، بقيمة

٩ ملايين دولار ، وقالت الصحيفة المذكورة ان هذه الصفقة تعتبر تنفيذا لاحد بنود برنامج « ماتمون ــ ٣ » ٠

وتجدر الاشارة الى ان الكاتب الاميركي « انتوني هـ٠ كوردسمان » ، الذي نشر مقالا في « مجلة القوات المسلحة الاميركية » في تشرين الاول ( اكتوبر ) ١٩٧٧ حول « ميزان القوى العربي ــ الاسرائيلي » انتقد فيه السياسة الاميركية بالنسبة للمساعدات العسكرية لاسرائيل ، كان قد قدر حجم القوة العسكرية الاسرائيلية المستهدف بناءها في الفترة من ١٩٧٦ حتى ١٩٨٦ ( وهي فترة برنامج « ماتمون ــ ٣ »)لتواجه الدول ، العربية عامة ، بنحو ٥٠٠ دبابة وحوالي ١١٠٠٠ ناقلة جنود مدرعة ونحو ٧٥٠ طائرة قتال ، و ٨٠ طائرة هليكوبتر هجومية ، و ٩٠٠ قاذف صواريخ م/د ، و ٥٠ كتيبة مدفعية ، و ٥٠ بطارية صواريخ م/ط ، و ٦ كتائب صواريخ ارض ــ ارض « لانس » ٠ ثم اوضح الكاتب المذكور ان الولايات المتحدة الاميركية لم تقبل بكل هذه المتطلبات العسكرية الاسرائيلية ، واختارت بدلا من ذلك ان تحدد متطلبات الدعم استنادا لتقديرها لمستقبل القوة العسكرية لدول المواجهة العربية فحسب ، والتي تشكل التهديد الرئيسي لاسرائيل ٠

هذا وكانت الحكومة الاميركية قد تقدمت للكونغرس في اواخر شباط (فبراير) طلبا يقضي بمنح اسرائيل معونة عسكرية بقيمة مليار دولار ، ومعونة مالية بقيمة ٧٨٥ مليون دولار ٠ وذلك ضمن برنامج المساعدات الخارجية للسنة المالية الاميركية ١٩٧٩ ، وذلك وفقا لما ذكرته صحيفة « يديعوت احرونوت » في ١ــ٢ــ ٧٨ ، والتي ذكرت ايضا انه عند بحث هذا الطلب في لجنة شؤون الشرق الاوسط واوروبا ، التابعة للجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس ، تحدث « نيكولاس ديليوتس » ، مساعد وزير الخارجية الاميركي ، امام اللجنة ، فقال ان خطة توسيع وتحديث الجيش الاسرائيلي ، التي بدأت في سنة ١٩٧٤ ، ثم قطعت بعد ذلك شوطا بعيدا ، تمول من خلال المعونة الاميركية ، واضاف قائلا ان الحكومة الاميركية توصلت ، بعد دراسة عميقة ، الى استنتاج انه سيكون في مقدور اسرائيل عند منحها المعونة الجديدة المقترحة ، معالجة اي تهديد عسكري من جانب الدول العربية حتى اواخر الثمانينات ٠ وان مبلغ المليار دولار المقترح يعكس حقيقة انه سيتم الحفاظ على تفوق اسرائيل النسبي ، وسيتم تعزيزه بعد استيعاب معدات الكترونية متطورة، في مقدورها الغاء التفوق العددي لاي تجمع محتمل للقوى العربية ٠ وفي هذا الصدد ايضا ، تجدر الاشارة الى ان وزير الدفاع الاميركي ، « هارولد براون » ، كان قد صرح في ١٧ــ٤ــ٧٨ ، اثناء مؤتمر صحفي عقده في لندن ، بأن اسرائيل ، استنادا الى معلومات وكالة المخابرات الاميركية المركزية ، ستظل قادرة على مواجهة اي هجوم عربي مشترك بنجاح حتى السنة ١٩٨٣ ٠

ورغم ان الولايات المتحدة تؤجل حاليا اعلان موافقتها على برنامج « ماتمون ــ ٣ » بالحجم الذي تراه ، حتى تتلقى الاجابات الاسرائيلية المطلوبة حول كيفية تنفيذ القرار ٢٤٢ ، فان ذلك ليس معناه انها لن تنفذ نسبة ٥٠٪ على الاقل من هذا البرنامج الضخم ، ان لم يكن اكثر وفقا لما ستكشف عنه الاحداث ، وسوف يتم ذلك الامداد الهائل بالاسلحة والمعدات تحت شعار تعويض اسرائيل عن صفقة الطائرات الاميركية للسعودية ومصر !

**عمليات « القدس » « العقبية » « محولا »**

في ٢ـ٦ـ٧٨ نفذت المقاومة الفلسطينية عملية فدائية في قلب مدينة القدس المحتلة، اذ فجرت عبوة ناسفة في اتوبيس مكتظ بالركاب في احدى ضواحي القدس ، اسفرت عن قتل ٦ اشخاص وجرح ٥ اخرين ، مثبتة بذلك قدرتها على العمل في عمق الارض المحتلة ٠

وفي ٩ـ٦ـ٧٨ شنت اسرائيل اغارة بواسطة وحدة من «الكوماندوس» البحريين ضد ما وصفته بقاعدة بحرية للمقاومة في شاطىء العقبية بمنطقة الصرفند جنوبي صيدا بلبنان ٠ وذلك في حوالي الساعة الثانية وخمس عشرة دقيقة بعد منتصف الليل ، ووصل المغيرون الى الشاطىء بزوارق مطاط تدعمهم زوارق طوربيد وزورق صواريخ وعدد من طائرات الهليكوبتر ، واسفرت الاغارة عن استشهاد ٤ من رجال المقاومة ونسف بعض المنازل وجرح ٦ اخرين ، واعترفت مصادر العدو الاسرائيلي بفقد قتيلين من الضباط و ٨ جرحى ٠ وهذه الاغارة ، يمكن اعتبارها نوعا من الرد على عملية « القدس » ، او نوعا من اخذ المبادرة الهجومية ضد قواعد الثورة الفلسطينية ، ضمن الاطار العام للاستراتيجية المضادة لحرب العصابات ، التي تنتهجها القيادة العسكرية الاسرائيلية منذ عملية الهجوم الشامل على جنوب لبنان في ١٥ـ٣ـ٧٨ ٠

وفي ١٢ـ٦ـ٧٨ شنت وحدة من رجال المقاومة الفلسطينية اغارة خاطفة على منشآت عسكرية في مستوطنة « محولا » في غور الاردن الشمالي ، القوا خلالها قنابل يدوية على المنشآت والمنازل في المستوطنة ، واستشهد واحد من المجموعة المهاجمة ، التي كانت تضم ٤ من الفدائيين ٠ وجاءت هذه الاغارة ، بعد ثلاثة ايام فقط من عملية « العقيبة » الاسرائيلية ، لتثبت قدرة الثورة الفلسطينية على الاستمرار في النضال ، وعدم جدوى عمليات الردع المباشر ضدها ، ولتؤكد ايضا قدرتها المجددة على مهاجمة الارض المحتلة من كل مكان ، سواء عن طريق البر او عن طريق البحر، وانه لا جدوى من كافة اجراءات الامن الاسرائيلية في الحيلولة دون استمرار النضال ضد الكيان الصهيوني ٠ ومما يجدر ذكره ان المستوطنة المذكورة تبعد نحو ٨٠٠ متر عن خط حدود ١٩٦٧ ، ونحو ٨ كلم من نهر الاردن وحوالي ١٥ كلم جنوبي « بيسان » ، والهجوم عليها يطرح مجددا امكانية استخدام الجبهة الشرقية ضد اسرائيل ، تلك الجبهة التي سادها هدوء نسبي منذ العام ١٩٧٠ ٠

**المغزى الاستراتيجي لزيارة الغواصة النووية الاميركية لحيفا**

بعد أن قامت حاملة الطائرات الاميركية « نيميتز » ، التي تسير بالطاقة النووية ، بزيارة ميناء « حيفا » يوم ٦ـ٤ـ١٩٧٨ ، وصلت الغواصة النووية الاميركية « لابون » هي الاخرى الى « حيفا » يوم ١٤ـ٦ـ٧٨ ، في زيارة رسمية تستمر ٤ ايام ، وهي الزيارة الاولى التي تقوم بها غواصة نووية لاسرائيل ٠ والغواصة « لابون » هي احدى غواصات فئة « ستورجون » ، التي توجد منها ٢٧ غواصة لدى البحرية الاميركية ، وهو اكبر عدد من الغواصات العاملة بالطاقة النووية من طراز واحد لدى البحرية المذكورة ٠ وقد دخلت « لابون » الخدمة العملية في ١٤ـ١٢ـ٦٧ ، ويبلغ وزنها القياسي ٣٦٤٠ طنا ، ووزنها وهي غاطسة اثناء العمل ٤٦٤٠ طنا ٠ ويبلغ طولها

٨٩ مترا ، واقصى عرض لهيكلهـــا ٩ر٥ امتار ، ويصل غاطسها وهي طافية عـــلى سطح الماء الى ٩ر٧ امتار · وهي مـزودة بمفاعل نووي مـــن صنـــع شركـــة « ونستينغهاوس » يوفر الطاقة اللازمـــة لتشغيل محركيها التوربينيين ، اللذيـــن تبلغ قوتهما الدافعة ١٥ الف حصـــان ، وتبلغ اقصى سرعة لها على سطح المـاء ٢٠ عقدة ( نحو ٣٩ كلم في الساعـــة ) و ٣٠ عقدة وهي غاطسة تحت سطـــح الماء ( نحو ٥٥ كلم في الساعة ) · ويتألف طاقمها من ١٠٧ افراد ( من بينهـــم ٣٢ ضابطا ) ، ولكن وكالة « رويتر » للانباء تقول ان طاقمها يتألف من ١٢٠ رجلا ·

وهي مسلحة باربعة انابيب لاطـــلاق الطوربيدات التقليدية من عيار ٢١ بوصـــة ( ٥٣٣ مم ) ، فضلا عن ٤ـ٦ صواريخ موجهة ضد الغواصات من نوع « سبروك » Subroc التي تطلق من داخل انابيـب الطوربيدات العادية وهي غاطسة تحـت الماء ، ثم توجه نحو الهدف بعد ان تنطلق فوق سطح الماء بسرعه تفوق سرعـــــه الصوت ، ويمكن ان تصل الى هدف يبعد نحو ٥٦ كلم ، ثم تنفصل عن الصاروخ . عند وصوله لنقطة محددة من قبل ، قنبلـة اعماق نووية تندفع الى داخل سطح الماء بسرعة مخففة تحول دون اشتعال الصاعق. حتى تصل الى عمق معين من قبل حيـث تنفجر وتدمر الغواصة المعادية · كما أنها مسلحة ايضا بطوربيـــدات مضـــادة للغواصات ( لا يعرف نوعها بالضبط ) ذات رؤوس متفجرة تقليدية توجـــه نحـــو الغواصات من تحت سطح الماء · ( هنـاك انواع منها يصل مداها الى ١١ كلـــم واخرى يبلغ اقصى مدى لها ٤٦ كلم ) ·

ولا شك ان زيارة الغواصة النوويـــة « لابون » لميناء « حيفا » ، والتي تمت بعد شهرين تقريبا من زيارة حاملة الطائرات النووية « نيميتز » للميناء ذاته ، انمـــا تشكل جزءا من السياسة الاميركية العاملة من اجل اقامة قواعد عسكرية اميركيـــة في فلسطين المحتلة « اسرائيل » وفـــي سيناء ، وستكون « حيفا » هي القاعـدة البحرية الاساسية ضمن هذه القواعـد · كما أن هذه الزيارات ، التي تقوم بها قطع اساسية من الاسطول السادس ، تهـدف الى تأكيد مصداقية الالتزام الاميركـــي بحماية اسرائيل تجاه القوى العربيـــة الرافضة للتسوية الاميركية ، والى اقناع القوى السياسية الاسرائيلية المترددة فـي قبول العرض الاميركي بعقد معاهـــدة دفاع اميركية ـ اسرائيلية ، كضمان وبديل أمني عن ذلك الجزء من الاراضي المحتلة عام ٦٧ التي ستضطر اسرائيل الى الجلاء عنها في حال التوصل الى التسويـــــة المذكورة · ذلك لان القوى الصهيونيـــة ، الاكثر تطرفا ، ترى في مثل هذه الضمانة الامنية قيدا على طموحاتها التوسعيـــة الخاصة · وقد عبر عن اصحاب هـــذا الاتجاه « موشيه شميـــر » ، عضـــو الكنيست » ( ليكود ) في مقال نشرته معاريف » يوم ١٤ـ٤ـ٧٨ قال فيه « انني افضل انسحابا كاملا الى خطوط ١٩٦٧ ، حتى من دون سلام ··· على اية تسويـة تقوم على حماية اميركية ستكون مرهونة بوجود عسكري اجنبي على ارضنا ··· فالتوجه المكشوف والمتفق عليـــه نحـــو الاستظلال بمظلة الحماية ، هو بمثابـة اعتراف اختياري بافلاس الصهيونية ··· ان التحرر من الاعتماد على الولايـــات المتحدة ضروري لنا في حد ذاتـــه ··· فاعتمادنا على الولايات المتحدة هو الـذي يضغط علينا من اجل مقايضة اراضـــي حيوية بوهم السلام ، وهـو الذي يكبـــل ايدينا في الحرب مع « المخربين » ، وهـو

الذي يشل معارضتنا السيطرة السوريـه على لبنان » ( نشرة م·د·ف · ايـــار ٧٨ ) وفي الوقت ذاته نشرت « معاريف » في اليوم ذاته ، ١٤ـ٤ـ٧٨ ، مقالا كتبـه « دافيد افشير » ، رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية والدولية في معهد جورجتاون بواشنطن ، دافع فيه عن فكرة اقامـــة قواعد عسكرية اميركية في اسرائيل كجزء من المعاهدة الدفاعية المقترحة ، جاء فيه « ان معاهدة امنية كهذه لا بد ان تكـون على غرار حلف شمال الاطلسي بالضبط . مع وضع قوة اميركية معينـــة لتوفيــر المصداقية الكاملة لها · ويجب الا ننسى ان هناك عسكريين اميركيين موجـــودون اليوم في سيناء · ان وضع قوات ، تعزز مصداقية الالتزام الاميركي ، سيــؤدي الى زيادة مقدرة الرئيس ـ بصفته القائد الاعلى ، على العمل ، الى الحد الاقصى دون تأخير · ومن دون ذلك لـــن يتـــم التوصل الى ردع حقيقي وفعال · وهـذا الردع لـــه تأثيـــــر استراتيجـــي وتأثيــر دبلوماســـي فـــي أن معا · فكونه ضمانة لسيادة اسرائيل ، سيؤدي في نهاية الامر الى تغيير دوافع العـرب ، اعضاء جبهة الرفض ، الذين لا يزالـــون يعتقدون بامكانية تدمير اسرائيل » ·

وفي ٢ـ٦ـ٧٨ قالت صحيفة « يديعوت احرونوت » ، نقلا عن مراسلها فـــي واشنطن ان حكومة « كارتر » تدرس حاليا اقامة حلف عسكري بين الولايات المتحدة واسرائيل ، وان « كارتر » طلب مـــن مجلس الامن القومي قبل اسبوعين اعـداد « وثيقة عمل » في هذا الموضوع ، سوف تتضمن المبادىء التالية :

١ ـ أن تنال معاهدة التحالف الرسمية والعلنية موافقة الكونغرس الاميركـــي والكنيست الاسرائيلي بحيث تكتســب الصفة القانونية ·

٢ ـ ان تضم اسرائيل الى الجهـــاز الدفاعي لحلف شمال الاطلسي ·

٣ ـ ان تتلقى اسرائيل اسلحة وفقـا لبرنامج طويل الاجل يمتد سنوات عدة ·

واوضحت الصحيفـــة ان المشـــروع الاميركي المذكور يهدف الى تهدئة مخـاوف اسرائيل بعد قرار واشنطـــن تسليـــح السعودية ومصر ، وجعـــل التنـازلات الجغرافية ، التي يفترض في اسرائيل ان توافق عليها في اطار تسوية سلميـــة ، امرا مقبولا ·

وضمن هذه الخطـــوات السياسيـة الاميركية ، والمناقشات التي تثيرها فـــي اسرائيل ، تتضح لنا ابعـــاد زيـــارات « نيميتز » و « لابون » لميناء « حيفا » ، وما تحمله في طياتها من نيات اميركيـة ضد القضية الفلسطينية ، والنضـــال القومي العربي ضد الكيان الصهيوني ·

**محمود عزمي**

أحمد عبد المعطي حجازي

# طيور المخيّم

خيمةٌ، وعمودٌ من النارِ ،
تلك فلسطينُ .
تطلع ثانيةً في الجليلْ .

عبثا !
تقتلونَ الاجنّةَ في باطنِ الارضِ ،
أو تتبعون الغزالة في لُجَجِ الضوءِ ،
او تنصتون الى ما يُسِرُّ به الرملُ
من دمها السَّلْسَبيلُ .

ما الذي قالت البئرُ للريحِ ،
والنارُ للشيحِ ،
والناقةُ المستحمةُ في قمر الغور للسنديانِ ؟
ومن ألِّفَ الغيمَ والآلَ في سدرةٍ
وسقى من آغاني الرعاة وقهوتهم حبقا ونجوماً ،
وأرهف في الليل ما بين عوسجةٍ ورفيف قطاةٍ ؟
ومن حمل الروح شهوة مُقْثاةٍ
تتململ غبَّ الظهيرة نافثةً عطرها الشبقيَّ العليلْ
ومن يغزل الماءَ والضوءَ تحت الرمالِ
وينسجُ في الغيب سجادةً لفلسطينَ

منْ مُهَجِ الكائنات الخفيةِ؟
كيف تركنا المواسمَ في الارضِ ؟
كيف تشبث فلذٌ بفلذٍ
وجرثومةٌ بشعاعٍ
وملْنا الى الشرقِ ،
حتى فقدنا مواقعَ اقدامنا في مدار الفصولْ !٠

آه
ما أكثرَ البرتقالُ الذي يحمل اسمَ فلسطينَ
في طرقات المهاجرِ ،
لكنه ليس يحمل ما حفظته الطفولةُ من عطرها الحيِّ !
هل تمنح الارضُ احشاءَها للغزاةِ ؟
وهل يحمل القاتل المتجهِّمُ وجهَ القتيلْ !

خيمةٌ ، وعمودٌ من النارِ ،
تلك فلسطينُ
تطلع ثانية بعد أيلولَ ،
تطلع بعد حزيرانَ
تطلع من زمن الشهداءِ
وتمتدُّ
حتى تلامس من دمها صِبْيةً في المخيمِ .
لم يشهدوا من فلسطينَ الاّ الحنينَ اليها
وها هم
يمدون أجسادهم لترابِ فلسطينَ قنطرةً
يملأون بأشلائهم هوةً
تتحدَّرُ بين مخيَّمهم وسماءِ الجليلْ !

آه !
يا خَجلا طائراً خارج الارضِ والوقتِ
يفرخ ما بين منفى ومذبحةٍ
ويريد فلسطينَ ،
لكنه لا يرى من فلسطينَ
الا بمقدار ما تخرجُ النارُ من فوّهاتِ البنادقِ
حتى تعود به زغبًا ناعماً ،
يتطاير فوق اخضرارِ السهولْ !

لا أبشّرُ بالموتِ ،
لكنه سيكون حضارتكم ،
أيها القادمون لنا بالتوابيتِ ،
محشوّةً بالبنادقِ !
لست أبشرُ بالموتِ
لكنه سيكون حصيد محاريثكم
ورفيق مواليدكم
وضجيع نسائكمُ
الموتُ !
كيف يصيرِ الضحيةُ قاتلُ اخوتهِ
وتحل محلّ الفيولينةِ البندقيةُ
تلك فلسطينُ ما بيننا ،
وحدودُ فلسطينَ ليست هي النهرُ ،
ان حدود فلسطين آخرُ قطرةٍ دمٍّ تسيلْ !

غابةٌ من هوادجَ في الليلِ
والانجم البيض اجراسُها
شجرُ اللهِ ،
اشرعةٌ من عصورٍ خَلَتْ
تلتقي ، والنجوم مصابيحها
ثم ترسم مفترقا ،
وتواصلُ في الحلمِ هذا الرحيلْ !

وفلسطينُ واقفةٌ وحدها
خيمةً في العراءِ ،
تردّ الجحافل عن ملكوت التشرّدِ
من بعد ما فتحت لهم المدنُ السبعُ ابوابها
ودعاهم ملوكُ الطوائفِ للصيدِ والقَنْصِ
في الجسد العربي الجميلْ
لِمَ لا يدخلون ؟
وقد وشَموا ذلك الجسدَ المستباحَ
بأسمائهم وعناوينهم ،
رشقوهُ براياتهم ،
رسموا فوقه مدنا ومواخيرَ
واقتسموها ،

وولّوا عليها المماليكَ
من كلّ عبدٍ خصيٍّ ذليلْ
وأنا ،
وطيورُ المخيمِ
ليس لنا عَلَمٌ .
مثلنا مثلُ رملِ الصحاري ،
ومثلُ النخيل ،
ومثل فلسطين ليس لنا عَلَمٌ ،
ولنا ملكوت التشرّدِ ،
ليس لنا غير هذا الطريق الطويلْ !

**باريس ٦/٤/١٩٧٨**

اليــاس خــوري

# في نقـــد الشعـــر

**[ ملاحظات انطلاقا من كتاب احسان عباس :**
**« اتجاهات الشعر العربـي المعاصـر » ★ ]**

مع الشعر المعاصر ، والذي اختلف الجميع على تسميته : الشعر الحـــر ، الشعـــر الحديث ، الشعر الجديد ، الشعر المنطلق واخيرا الشعر المغصن ، تبدأ مرحلة جديدة فـــي الشعر العربي · انها الانعطاف بمفهوم الشعر : احلال القصيدة مكان البيت ، والايقـاع مكان الوزن والقافية ، والاشارات مكان المعاني المطابقة ·

تبدو الدلالات التي نشير اليها بالغة الغموض ، رغم مرور حوالي ثلاثين سنة عـــلى ولادة الشعر المعاصر · ولكنه غموض البديهيات · اي أن الامور البديهية ، والتـي يتفـق الجميع على كونها كذلك ، هي في الآن نفسه ، مسائل غامضة وغير محددة · وغموضـــ البديهيات هذا ، في ظل المدرسة « الحديثة » والجامعة « الحديثة » ، يحمل معنى انقطاعيا خطيرا داخل الواقع الثقافي العربي المعاصر ·

انها المرة الاولى ، التي لا يهتز فيها النموذج الشعري العربي ، بل يتساقط · ولا تقف حدود الثورة الشعرية عند محاولة احداث تعديلات على الشعر ، بل تمتد الى محاولـــة الغاء مجموعة المفاهيم القديمة والاطر القديمة ، لتؤسس على انقاضها تجربة جديدة فـــي الشعر العربي ·

الشعر يدخل افق تجربته ، عبر معاناة طويلة ومعقدة · والقصيدة الجديدة ، الشاملة ، الغامضة ، الملينة باسرار الكشف والاكتشاف ، والتي يتدرج مرجعها الاصطلاحي مـــن اليوت الى السرياليين والواقعية الاشتراكية ، مرورا ووقوفا عند التصوف العربي ، لـــم

---

★ عالم المعرفة (٢) الكويت ـ شباط ( فبراير ) ١٩٧٨ ·

تنبت فجاة · انها محصلة تحولات طويلة · انها محصلة معاناة ما يسمى بعصر « النهضة » ·

ومعاناة عصر « النهضة » بالغة التعقيد · انها معاناة رفض وقبول · رفض الغزو الاجنبي ، والاندراج في سياق قبوله · فكما كان « الاحياء » رفضا للنموذج القادم دون تمييز تياراته ، ودون القدرة على قراءة مقدماته ، كان القبول قبولا للمنطق الاستعماري الغربي ومحاولة انتماء الى الغرب · وبين حدي الرفض والقبول ، اخضعت المنطقة العربية لغزو لم تشهد له مثيلا · والى بداية تجزئة وتفتيت ·

بانهيار النموذج « الدولة الاسلامية » بالشكل المفجع الذي انتهت اليه الدولة العثمانية ، عبر احتضار طويل ، وتأسيس داخلي ـ خارجي لعملية التفتت · وجدت الثقافة العربية نفسها امام المأزق · فانفتحت على مأزقها · وتحولاتها ، بهذا المعنى ، ليست مجرد انعكاس للانهيار ، بل هي ايضا محاولة للخروج منه ·

وليس صدفة ، ان يكون الشعر العربي هو ارضية هذا الصراع · وهو المكان الذي عبر بانفجاره وباشكاليته الجديدة ، عن المأزق والمعاناة ومحاولات الخروج · لذلك ، وانطلاقا من واقع الثقافة العربية ، لم يتدرج الشعر في الخروج الى « الحداثة » او الى القيم الجديدة · انفجر انفجارا · وليس مصادفة ان يكون انفجاره انقطاعيا ، وكأن لا علاقة لمراحله المختلفة بعضها ببعض · هناك خيط من الوحدة يمكن اكتشافه عبر مرحلة الشعر ، لكنه خيط من التطور الانقطاعي · وكان الشعر هو المؤشر الاول والاساسي لواقع الثقافة العربية ·

على ارض الشعر خيضت اكثر الاشكال تجريبية ، وتمت اجرا محاولات تغيير مفاهيم الثقافة العربية · الشعر ديوان العرب ، وداخل هذا الديوان تم الانفجار ، واخضعت اللغة العربية ، والقيم الشعرية العربية لمراجعة صارمة وبالغة الجرأة · لكن هذه المراجعة ، كانت تنطلق دائما من قناعتها بمسؤوليتها الثقافية · فرغم كل التطرف التجديدي ، احتفظ هذا الشعر بنبرة تراثية ، وكأنه يريد عبر ثورته اثبات هويته · فليس صدفة ان تأخذ اللغة الصوفية والرموز الصوفية هذا الحجم في الشعر المعاصر · فهي ، الى جانب ظواهر اخرى : الاسطورة ، الرمز التاريخي ، الرمز الواقعي ، تحمل في جانب منها محاولة تأكيد الذات لحظة الخروج من ماضيها ، محاولة اثبات الجدارة عبر انتماء الى وجود حضاري متميز ، في لحظة كسر عمود الشعر كسرا لا عودة اليه · فالشعر الحديث والمعاصر ، انطلاقا من جماعة الديوان وحتى الان ، ليس مجرد تأثر سلبي بالثقافة الغربية واستعارة لاشكالها · بل هو كذلك محاولة لصياغة لغة الثورة على الغرب · هكذا تتداخل لحظتا التفتت في الاخضاع الاستعماري ، والوحدة في النضال ضد هذا الاخضاع ·

هنا يبرز سؤال بالغ الدلالة ·

عندما نقرأ النتاج النظري لبدايات التحول الشعري ، نفاجأ بحقيقة تبدو غير منطقية : تقدم نظري ، يصل مع جماعة ابوللو الى حد القبول بالشعر المنثور · وتخلف تطبيقي ،

يبقي القصيدة العربية داخل اطار عمود الشعر مع احداث تعديل رومانسي على بنيتها ، ومحاولة الوصول الى صيغة لوحدة القصيدة · (١)

في المقابل ، تأتي التجربة الجبرانية الموغلة في « الحداثة » لتقدم لنا نتاجا اشكاليا · انها تجربة لا تنضبط في الشكل · ادب لا شكل له · يضم جميع الاشكال ، لكنه لا يطور شكله الخاص · فتأتي الاندفاعة الجبرانية ، وكأنها اندفاعة بداية واندفاعة مأزق في آن معا · لذلك تقول التجربة الجبرانية وجهة وترسم افقا ، دون ان تستطيع تحديد ملامح هذا الافق ·

من الواضح ، انه بعد انهيار النموذج القديم ، سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، كان الفكر العربي الحديث والمعاصر ، اكثر قدرة للاستجابة للعلاقة بالفكر الغربي · وكانت استجابته التحديثية تلفيقية في جوهرها · لكنها واقعيا ، قبلت بانهيار النموذج القديم دون أن تقوم بعملية توفيق بين العقل والنقل ، كما حدث في العصر العباسي · بل قبلت نتائج العقل داخل قبولها الضمني والعلني للفكر السلفي · لذلك انصبت المعركة في المستوى الثقافي الادبي · وهنا ، كانت قدرة الاشكال الموروثة على المقاومة هائلة · فالشعر العربي ، وهو المصدر الثاني للغة والموروث ، استطاع أن يقاوم طويلا · هكذا حدث الاختراق اولا وكأنه من خارجه ، في المستوى النظري من جهة ، وفي التجربة الجبرانية من جهة ثانية · لذلك تقدم المستوى النظري ، كما لم تستطع التجربة الجبرانية ، بوصفها تجربة قادمة من خارج الموروث ، على التشكل ·

من الاحياء ، ميزة وعلامة النهضة ، الى الشعر المعاصر الذي يكسر العمود الشعري ، مسافة طويلة تتلون بعنصرين :

- الثقافة الحديثة ، بوصفها نموذجا للحياة الحديثة في المجتمع التابع ·
- مزج الماضي التاريخي بالحياة اليومية ، داخل نسق جديد لبنية القصيدة ·

يأتلف هذان العنصران في الذاكرة ـ اللغة · ويجدان قعرهما الحقيقي في التأكيد الدائم للذات ، عبر البحث عنها وتجسيمها ، في محاولة للخروج من رومانسية البدايات ·

**النقد المرآة**

كيف ندرس نقد الشعر الحديث والمعاصر ؟

النقد هو تصنيف وتنظير للتجربة الابداعية ، عبر ادراجها في كل ادبي وثقافي · لذلك يأتي النقد بعد الابداع ، يقرأ النص او يقدم قراءات مختلفة له ، ثم يصنفه داخل الحركة الادبية العامة · لكن النقد ، لا يقوم بهذاالدور دائما · فمن خلال قراءة تجربة الشعر الحديث والمعاصر ، نكتشف ان النقد النظري او الطرح النقدي كان اكثر تقدما او جرأة من التطبيق العملي · هذا ما تشير اليه تجربة الديوان وابوللو ، وتجربة مجلة شعر · هكذا يصبح النقد مرآة · وهو مرآة للحركة الثقافية العامة ، وليس فقط للنتاج الادبي · انه لحظة تؤشر للطموح الثقافي الادبي · فاذا قرأنا النتاج النقدي الذي ارتبط بالتحول

---

(١) في الجزء الثالث من كتابه الثابت والمتحول ، صدمة الحداثة ، دار العودة بيروت ١٩٧٨ · يقدم ادونيس عرضا تفصيليا لهذه الناحية ، الحداثة النظرية · ص ١٠٩ ·

في الشعر العربي المعاصر ( خالدة سعيد ، يوسف الخال ، جبرا ابراهيم جبرا ، ادونيس ، انسي الحاج ، غالي شكري ، رجاء النقاش ··· ) نكتشف ان هذا النقد ، هو اساساً محاولة مواكبة ، ينغرس في التجربة الشعرية ، ليس من اجل تصنيفها ، بل من اجل ان يقول لغتها · يحاول ان لا يعكس واقع التجربة الشعرية فقط ، بل يعكس طموحاتها ايضا · هل هذا هو سبب اختلاط المصطلح النقدي وعدم انضباطه بشكل علمي ؟ · هل يعني هذا ، ان المرآة النقدية هي اشارات داخل مسار الشعر ، ولكنها لا تلعب الدور المفترض بالنقد ؟ الاجابة على هذا التساؤل بالغة الصعوبة · فالكثير من النقاد هم شعراء في الوقت نفسه · وهم حين ينظرون ، لا ينظرون لتجربتهم الشعرية فقط ، بل لمستقبلها ايضا · وربما لم نصل بعد ، في ظل الوضعية الثقافية الراهنة ، الى القدرة على صياغة نقد يصنف ويدرج في التاريخ الادبي · وهذا ما تشير اليه جميع المحاولات الاكاديمية او الجامعية في نقد الشعر المعاصر ، من نازك الملائكة الى احسان عباس ·

نقد التجربة من داخلها ، هو نقد يواكب ويدفع ويحاول ان يرسم الاتجاه · لذلك ، وعلى المستوى الشعري والابداعي ، لا معنى لتقدمه احيانا على التجربة الابداعية · فاذا كان النقد هو مرآة الثقافة ، فالشعر هو مؤشرها · لان في معاناته يكمن التحدي الحقيقي ، تحدي الواقع الجديد للذاكرة ــ اللغة ، وتحدي الثورة للغتها ·

هذا النقد الذي يواكب ، هو جزء لا يتجزأ من التجربة الشعرية المعاصرة · وهو يقع بين لحظتين : لحظة البحث عن لغته العلمية المفهومية ، ولحظة الكتابة على هامش الشعر او من خلاله ، او من مستقبله · ودراسة هذا النقد وتصنيفه ، سوف يكون مؤشرا بالغ الدلالة لمرحلة ثقافية كاملة · لانها تكشف عن جدل الولادة واشكالياتها ·

## النقد الجامعي

الى جانب هذا النقد ، برزت محاولات جامعية او شبه جامعية لدراسة الشعر المعاصر · والملاحظ ان النقاد هنا ، ليسوا شعراء باستثناء نازك الملائكة · كما ان كتاباتهم النقدية تندرج في محاولة التنظير والتصنيف والنمذجة · محاولة لكتابة تاريخ الشعر المعاصر ·

ربما كان كتاب احسان عباس « اتجاهات الشعر العربي المعاصر » هو اكثرها اهمية ، واكثرها قدرة على طرح الاسئلة حول النقد وانطلاقا منه · ولكن قبل مناقشة كتاب عباس ، فاننا سنتوقف عند الافكار الرئيسية في ابرز المحاولات الجامعية أو شبه الجامعية في النقد ·

## نازك الملائكة : الشعر ظاهرة عروضية

في كتابها « قضايا الشعر المعاصر (٢) » ، تنطلق الملائكة من فرضية كون « الشعر الحر » ظاهرة عروضية · « نلح مع ذلك على التذكير ، بان الشعر الحر ظاهرة عروضية قبل كل شيء · وذلك انه يتناول الشكل الموسيقي للقصيدة ويتعلق بعدد التفعيلات في الشطر ، ويعنى بترتيب الاشطر والقوافي ، واسلوب استعمال التدوير والزحاف والوتد وغير ذلك مما هو قضايا عروضية بحتة» · في محاولتها وضع قواعد ثابتة لما تسميه الشعر الحر ،

---

(٢) نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر دار الآداب بيروت · تشرين الاول ١٩٦٢ ·

تقوم نازك الملائكة عبر لجوئها الى سيف الدراسة العروضية ، بالغاء جميع مبررات وجود شعر جديد يختلف عن الشعر الذي سبقه · فالشعر ، قديمه وجديده ، لم يكن في اي لحظة ظاهرة عروضية كما تزعم المؤلفة · وعندما تحشر الملائكة نفسها في الزاوية العروضية ، فانها تعبر خلف قناع النقد العلمي والعروضي عن تجربتها الشعرية الخاصة · اي انها اجرأ الشعراء المعاصرين في الباس تجربتها الشعرية ثوبا علميا · لكن هذا الثوب يكشف التجربة ولا يحجبها · فهي ، ومن اجل الهجوم على قصيدة النثر ، تقوم باستعارة تعريف قدامة بن جعفر للشعر « الشعر هو قول موزون مقفى يدل على معنى » · لكنها تعبيء المعنى ، بالمعاني الرومانسية ، رغم تأكيدها في مكان اخر من كتابها بأن الاوزان الحرة « تتيح الهرب من الاجواء الرومانتيكية » · تقول في تعريفها للشعر : « للشعر ركنان ضروريان لا بد منهما في كل شعر : ١ ـ النظم الجيد ( الشكل ) او الوزن · ٢ ـ المحتوى الجميل الموحي ، المتموج بالظلال الخافتة والاشعاع الغامض ، الذي تنتشي له النفس دون ان تشخص سر النشوة » ·

سوف يقود هذا الفهم العروضي للشعر الى الغاء التجربة الشعرية الجديدة · فتصبح الاوزان الحرة اكثر صلاحية للشعر الدرامي والقصصي منها لغيره ، وعلى الشعر الحر « ان لا يطغى على شعرنا المعاصر كل الطغيان » ·

في هذا الكتاب ، يقع الشعر العربي المعاصر في أولى مآسيه النقدية · الفصل الصارم بين الشكل والمضمون · محاولة بتر وسحق افاق التجربة التي بدأت · تقنين الشعر في قوالب شبه جاهزة · استخدام العروض الخليلي ، ليس من اجل استنباط قيم موسيقية جديدة انطلاقا من الجديد الذي في القصيدة ، بل بالعودة الى مقاييس الاذن العربية « السليمة » ، وحشر الشعر في الزاوية الرومانسية البليدة والغائه كتجربة · هكذا تتابع الملائكة تراث الفصل بين المعنى والمبنى ، من اجل تأكيد مقولة قديمة · فالمبنى جاهز ، او شبه جاهز ، او قامت الشاعرة ـ الناقدة بتجهيزه ، وما على الشعراء سوى تعبئته بالمعاني الجميلة المليئة بالظلال ·

**محمد النويهي : الشعر المنطلق**

ينهي محمد النويهي كتابه « قضية الشعر الجديد (٣) » ، بالدعوة الى اعتماد مصطلح الشعر المنطلق · والكتاب يبدأ بمقالة اليوت « موسيقى الشعر » ، ليخلص منها الى هذا الاستنتاج : « انها [مقالة اليوت] تحمل دعوتين كبيرتين : اولاهما الدعوة الى اقتراب لغة الشعر من لغة الحديث ، وثانيها الدعوة الى تغيير الاشكال الشعرية تغييرا مستمرا ، وهذه الثانية تنبع من الاولى » · الاقتراب من لغة الحديث ، هي نقطة المنطلق في كتاب النويهي · وعلى هذا الاساس ، يحاول البحث عن تطبيق لنظريته في نماذج من الشعر المعاصر ، فلا يجد امامه سوى نماذج من شعر صلاح عبد الصبور دون سواه تقريبا · وهو في تفسيره لظاهرة انطلاق الشعر الجديد ، ينسى مقدمته الاليوتية ليؤكد على الاسباب الداخلية : « فالشكل التقليدي لم يعد قادرا على النهوض بمضمون جديد · لقد صار شديد الارتباط بالمعاني التقليدية والطرق التقليدية في التعبير ··· حتى لم يعد

---

(٣) محمد النويهي : **قضية الشعر الجديد** جامعة الدول العربية · معهد الدراسات العربية العالية · ١٩٦٤ ·

يستطيع ان يحمل معنى جديدا او موقفا جديدا او طريقة جديدة في التعبير » ·

ثم يفرد المؤلف فصلا خاصا لدعوته الى تطبيق النبر ( المأخوذ عن اوزان الشعر الغربي) كقاعدة ايقاعية للقصيدة الجديدة · ثم ينتهي الى مناقشة تفصيلية لكتاب نازك الملائكة ·

الملاحظة الرئيسية التي نخرج بها من قراءة كتاب النويهي ، هي ان الناقد ينطلق من نموذج خارجي ، تجري محاولة صياغته تطبيقيا في كتاب هو مجموعة من المقالات المتفرقة ، تدور حول فرضية اساسية : تحديث الشعر باللجوء الى المفهوم الاليوتي ، ثم استخدام النبر · هنا ايضا ، لا نجد انعكاسا لهموم الممارسة الشعرية نفسها ، ونظل عند مصطلح نقدي لم يتبلور ·

**عز الدين اسماعيل : الظواهر الفنية والظواهر المعنوية**

ربما كان كتاب عز الدين اسماعيل · « الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية » (٤) ، هو اكثر التجارب النقدية الجامعية محاولة للانطلاق من روحية التجربة الشعرية الجديدة · فهو ينطلق من ضرورة فهم روح العصر ، « فليس المهم بالنسبة للتجديد هو ملاحظة شواهد العصر ، ولكن المهم هو فهم روح العصر » · لكن الكتاب يقع في مأزق تقسيم دراسة الشعر الى دراسة للظواهر الفنية واخرى للظواهر المعنوية · أي يقع ايضا في الفصل بين المعنى والمبنى ، رغم أنه يحاول تدارك مشكلة هذا الفصل عبر اللجوء الى دراسة معمارية القصيدة الجديدة ·

هكذا تبقى مسألة النقد ، في صعوبة التصنيف الاكاديمي للتجربة الجديدة · فالتجربة لا تزال في مراحل تحولاتها ، وهي بذلك لا يمكن ان تدرس الا عبر اكتشاف ادوات نقدية من داخلها ·

تقودنا هذه الملاحظات الاولية ، على بعض محاولات النقد الجامعي لدراسة الشعر المعاصر الى استنتاجين رئيسيين :

١ ـ يقوم النقد الجامعي في دراسته للشعر المعاصر بفصل الشكل عن المضمون · تم التركيز على احدهما · وهذا الفصل التعسفي ، هو خارج طموح التجربة الشعرية الجديدة · فالمسألة المركزية التي تحاولها هذه التجربة هي الغاء هذا الفصل · المبنى هو المعنى · ان أن اساس التجربة الشعرية هو محاولتها الغاء مفهوم مطابقة اللفظ للمعنى · فاللفظ هو احتمالات معان · وبنية القصيدة هي حركة مضمونها · هكذا يقود الفصل التعسفي بين المسألتين الى تحطيم مفهوم القصيدة الجديدة ، وتقنينها داخل مصطلح نقدي من خارجها ·

٢ ـ محاولة تقنين التجربة الشعرية على المستوى النقدي في مفاهيم تسقط من خارجها · اما بالعودة الى الماضي الثقافي ، او باللجوء الى الثقافة الغربية · في الحالة الاولى ، يكتشف النقد كما مع نازك الملائكة عدم ضرورة القصيدة الجديدة ، ويجري التعامل مع الشعر على اساس اغراضه · فالشعر القصصي والمسرحي هو ميدان العروض

---

(٤) عز الدين اسماعيل : **الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ·** دار العودة ودار الثقافة بيروت · الطبعة الثانية ١٩٧٢ ·

الجديد ، اما بقية اغراض الشعر فيجب « نظمها » على الطريقة الخليلية · اما في الحالة الثانية ، فيقوم النقد باهمال كامل لمسالة اللغه ـ الذاكرة ، ودورها وامكانياتها في التحول وفرض مجموعة من قيمها · هكذا يتحول النقد الى كتابة من خارج الشعر · ولا تجد التجربة الشعرية الجديدة امامها وحولها سوى النقد المرآة ، الذي هو جزء من تجربتها هي ·

## البحث عن المضمون

هل تصلح هذه المقدمة اساسا لقراءة كتاب احسان عباس « اتجاهات الشعر العربي المعاصر » ؟ نتوقف طويلا عند هذا الكتاب لسببين رئيسيين :

فهو أولا ، اكثر الكتب النقدية الجامعية شمولية ، رغم انه ينحو منحى تبسيطيا مقصودا ·

وهو ثانيا ، جزء من تجربة نقدية هامة · فعباس هو من النقاد والدارسين القلائل الذين درسوا شعرنا ونقدنا القديمين ، ثم درسوا الشعر المعاصر ، وكتابه هذا هو الثالث في دراسة الشعر المعاصر بعد كتابين عن البياتي والسياب (٥) ·

يبحث عباس في كتابه عن المضمون في الشعر المعاصر · وهو يقدم في بحثه هذا دراسة انطباعية تتصف بالشمولية ومحاولتها الاحاطة بالكثير من مسائل الشعر المعاصر ·

سوف نقرأ الكتاب كما يقدم نفسه ، ثم سنحاول ان نطرح عليه اسئلة من خارج منهجه · وبهذا نكون قد درسنا محاولة عباس النقدية من داخل منطقها ، ثم نعرضها لمنطق من خارجها ·

### ١ ـ المضمون والكتابة الانطباعية

منذ الصفحة الاولى في الكتاب ، نشعر ان عباس يحاول التهرب من صياغة منهج محدد لبحثه ، عبر اللجوء الى النظرة الشمولية ، او الاشارة الى صعوبة عمله : « فالتبسيط والايجاز اللذين قد يقعان في تعارض احيانا » · ثم ينتقل الى شرح مقتربه : « اني رضيت بالحد الادنى من دور الناقد التشريحي التحليلي » · ثم يقدم تحديدا للشعر : « اذ لم يعد الشعر صورة من صور الادب بل اصبح شيئا مستقلا ، والفرق بينهما ان الادب نتاج فعل الموهبة داخل حدود مرسومة ، وان الشعر كشف ذو مهمتين ، تحويل العالم وتفسير العالم » · ثم يقدم تفسيرا لفصله دراسة المضمون عن دراسة الشكل : « لقد كان من المتوقع أن اخصص فيها فصلا للحديث عن الاتجاهات التي سلكها الشعر المعاصر في الشكل ، ولكن حال دون ذلك امور منها ان الدراسة تعز على التبسيط جملة ··· كما ان تفاوت هذه الوسائل [الكلمة ، الصورة ، الوان المبنى] واهدافها في الشعر المعاصر يكاد لا ينضبط · وهو حقل جدير بدراسة مستقلة او بعدد من الدراسات » ·

---

(٥) **عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث** · دار بيروت ١٩٥٥ · **بدر شاكر السياب ، دراسة في حياته وشعره** · دار الثقافة بيروت ١٩٦٩ ·

بعد هذه المقدمة ، يقسم عباس كتابه الى قسمين · حيث يعالج اولا بدايات الثورة في الشعر المعاصر ، ثم ينتقل الى دراسة « مواقف » الشعر المعاصر من مجموعة من القضايا ، الزمن ، المدنية ، التراث ، الحب ، المجتمع ·

يبدأ **القسم الاول** بنظرة تاريخية موجزة ، تتوقف عند قصيدة محمود حسن اسماعيل « خريف الربيع » حيث يطرح عباس ، بشكل سريع ، مسألة الصراع بين الفهم والايحاء · وهو ينسب ، وان بشكل غير مباشر ، انفجار الشكل الشعري الى هذا الصراع الذي دخل الشعر العربي عبم القيم الرومانسية · ثم يشير الى ثلاثة عوامل ساهمت في الثورة الشعرية التي بدأت في الشكل : تأثير الشعر الانكليزي ، التخلص من رتابة القافية ، التنويع في عدد التفعيلات · ثم يعطي الريادة الشعرية لنازك : « ظهور هذه الانطلاقة الشعرية وسندها بالقواعد المؤيدة على يد شاعرة » · ثم ينتقل الى التفسير · ويتوقف في تفسيره عند ظاهرة كون امرأة هي رائدة هذا اللون الجديد من الشعر : « محاولة التغلغل الى اعماق النفس في مجتمع لم يتعود صراحة المرأة في التعبير عن مشاعرها » · و «للمرأة في تقبل البدعة حظ كبير · اضف الى ذلك ان البدعة الجديدة تبعث لديها شعورا بالتفوق » ·

هنا لا بد من طرح الاسئلة التالية :

لماذا في النظرة التاريخية هذه لم يجر التوقف عند تجربة ابوللو بأسرها وعند الاندفاعة الجبرانية ؟ وهل يمكن فعلا ان نفهم الثورة الشعرية دون ان نفهم مقدماتها الحقيقية ؟

ثم حين يشير عباس الى عوامل هذه الثورة ، يمر سريعا على التأثر بالشعر الانكليزي ، ولا يتوقف عند الدلالات الثقافية البالغة الاهمية الكامنة خلف هذا التأثر · فالشعر الاجنبي يصبح هو النموذج ، وانطلاقا منه تجري محاكمة الواقع الشعري العربي · اما حين يحاول الكتاب التفسير ، فانه يقع في الهاوية السيكولوجية · فيصبح الشعر الجديد انجازا نسائيا ! ـ وهذا انصاف متطرف للمرأة ، وتعويض لها عن القمع الاجتماعي الذي تتعرض له ـ · وعباس حين يقبل افتراض البواكير الاولى ، وهي قصائد رومانسية لا تضيف جديدا سوى كونها تحمل تاريخ محاولة التفلت من العروض الشعري القديم ، لا يجد تفسيرا لافتراضه الا في العودة الى مفاهيم سيكولوجية لا يمكن اسنادها · هنا ، وامام هذا المأزق النقدي ، يحاول الكتاب الالتفاف عبر تحليل ثلاث قصائد من هذه البواكير : « الخيط المشدود في شجرة السرو » لنازك ، « السوق القديم » للسياب ، و « سوق القرية » للبياتي · ويكتشف النقد ، بعد تحليل مستفيض لهذه القصائد ، ان هذه البواكير قد لا تكون هي بداية الشعر الجديد · او أن هذا الشعر تأسس في مرحلة لاحقة · فيصوغ عباس استنتاجه حول قصيدة نازك كسؤال : « ومع ذلك يحس القارىء لهذه القصيدة انها تنفرد بسمات مميزة : ومن ابرز تلك السمات طريقة خلق التوازي ، وخلق الجو شبه الديني ، والالتفات الى العناصر الصغيرة التي بها يكتمل نظام المبنى ، فهل هذا كله من اثر انتحال شكل جديد ؟ مهما يكن الجواب على ذلك ، فان هذا الشكل قد يسر الجانب التحليلي ، وقوى العنصر الدرامي ، وجعل للتوازي مجالا واسعا » ·

الخلل الرئيسي في هذا المدخل ، هو طابعه الشمولي · فهو يريد ان يقول كل شيء دفعة واحدة · فاذا كان الشعر هو محاولة لتغيير العالم وتفسيره ، فما هي علاقة البواكير الاولى بهذه المسألة · ولماذا لا تدرس هذه البواكير في افقها · اي في التحول الجذري الذي سيطرأ على بنية القصيدة العربية ابتداء من « انشودة المطر » للسياب ؟ · فانطلاقا

من تحرر القصيدة المعاصرة من الآثار الرومانسية ، سوف يمتد خط شعري من المحاولات والاخفاقات · وما الظاهرة التي يتوقف عباس عندها ، من اجل ان يبرر استمرار الرومانسية ( ظاهرة الشعر في الارض المحتلة ) الا دليلا جديدا على عدم قدرة الرومانسية على تبرير وجودها · فالشعر الفلسطيني الذي يتمثل بأصوات درويش والقاسم وزياد ، كان في رومانسيته ، يحمل تاريخا خاصا · لم تلبث التجارب والنضج الفني والتقني ان قادته الى كتابات مختلفة ·

قبل ان ينتقل الناقد الى القسم الثاني من كتابه ، يقوم باستعراض سريع وغير منهجي للعوامل التي تحدد الاتجاهات الشعرية · فيشير الى فلسطين ، غابة الحقوق ، موقف الشاعر من فكر عصره ، دور المجلة والصحيفة ووسائل الاعلام ، نمو المدن ، شخصية الشاعر ، ثم يستدرك : « وعلينا ان نتذكر ان ما عددناه من عوامل لم يوضع بحسب قسمة منطقية دقيقة ، وانما هو وليد خواطر مرسلة ، وان بعضه قد يصلح ان يكون سببا ، وبعضه يصلح ان يكون نتيجة » · لكن هذا الاستدراك الاستباقي لن ينقذ القسم الثاني من الكتاب من الخلل المنهجي · فالانطباعية التي تحدد عرض العوامل سوف تعكس نفسها على « المواقف » · فنقف امام لوحة متكسرة ، لسياق لا نستطيع اكتشاف لحمته ، ولتركيب لا نستطيع فهم علاقات عناصره ، وكيف جرى الانتقال من موقف الى موقف ، ومن شاعر الى شاعر ، ومن مقطع في قصيدة الى مقطع في قصيدة اخرى ·

**القسم الثاني** من الكتاب ، هو دراسة تفصيلية لمواقف الشعر المعاصر من القضايا الكبرى · هنا ، سوف تفتت التجربة الشعرية ، وتحشر في انساق جاهزة ·

### أ ـ الموقف من الزمن

في دراسته للموقف من الزمن ، يتوقف عباس عند مواقف حاوي ، السياب ، نازك ، أدونيس ودرويش من الزمن · ويحاول عبر هذا التوقف ان يلتقط مفاصل الزمن في مضامين بعض القصائد من اجل ان يخرج الى استنتاجات عامة ، والى نمذجة سريعة تقسم الزمن الى ثلاثة ازمنة · الزمن المتجمد ( حاوي والسياب بشكل جزئي ، رغم ان السياب ينفرد بمحاولة احياء الطفولة ومواجهته لموته الخاص ) · الزمن الرومانسي ( نازك ودرويش ، رغم ان درويش يحاول الاقتراب في قصائده الاخيرة من الزمن القائم على الصيرورة ) · وزمن الصيرورة ( ادونيس ، الذي لا يبحث عن زمن ضائع كما فعل بروست ، وانما يلاحق زمنا لم يولد بعد ) · ويصل في نهاية هذا الفصل الى استنتاج وصفي ، يقسم فيه الزمن الى زمن رومانسي وزمن قائم على الصيرورة ، دون ان يشرح العلاقة بين هذين الزمنين ، أو يربط مسألة الموقف من الزمن بالمواقف الاخرى التي يعالجها في كتابه ·

هنا ، وامام مسألة الزمن ، نتوقف عند ظاهرة خاصة بالكتاب ، وهي بروز الطابع الانتقائي والعام في التصنيف · اي ان الناقد ، وامام انسداد منهجه بالتصنيفات المسبقة وبالتوقف عند الموضوعات فقط ، يجد نفسه مضطرا الى القيام بعملية كسر وبتر للقصيدة · يتوقف عند المقاطع الشعرية ولا يكشف علاقاتها بالقصيدة او بالقصائد التي تجتزأ هذه المقاطع منها · ثم لا تربط القصيدة الواحدة بمجمل التجربة الشعرية للشاعر الا بشكل خارجي · فيتقولب الشعر بشكل جاهز داخل منطق انطباعي يستدعي الذاكرة ، ولا يكتشف او يكشف · وقبل أن نناقش مسألة النقد الموضوعاتي وامكانياتها ، نتساءل

لماذا لا يقدم الكتاب صفات الزمن كما وردت في الشعر المعاصر · فالشعر المعاصر مليء في تعامله مع الزمن بالصفات المختلفة التي تعطى للزمن · فلو بدأ الكتاب بالوصف ، لاستطاع ان يقدم ، على الاقل ، نمذجة للصفات تسمح له بالانتقال الى نمذجة الحركة · هنا ، في الحركة ، لا يستطيع النقد ان يتساءل حول زمن موضوع القصيدة دون ان يتساءل حول **زمن القصيدة** · والفرق كبير بين المسألتين · انه الفرق بين نثر النص الشعري ، اي افقاده ما يبرره كشعر واخضاعه لنقد من خارج التجربة الفنية ، حيث نبقى داخل النسق النقدي الذي يفصل المبنى عن المعنى ، ويحاول ان يكتشف في المعنى الدلالات المباشرة لمطابقة المعاني ، وبين اعتبار العمل الفني وحدة داخلية ، لا يمكن فهمها الا انطلاقا من وحدتها · زمن القصيدة هو الذي يكشف ابنية « ازمنتها الموضوعاتية »· فالموضوع هو جزء من بناء زمن شعري · وداخل هذا الزمن نستطيع ان نصنف أزمنة الافعال ، وعلاقات صفات الزمن ، والموروث الشعري ـ الذاكرة · هل نستطيع ان نجد تفسيرا لمنحى عباس النقدي في توقفه عند تجارب الستينات في الشعر المعاصر ؟ · لماذا لا يعالج قصائد ادونيس ابتداء من « هذا هو اسمي » ، أو قصائد درويش ابتداء من « سرحان » · ام أن عدم دراسة هذه القصائد يكشف نظرة تقليدية جديدة الى الشعر المعاصر !

واخيرا ، ما هي علاقة زمن القصيدة بالزمن في القصيدة · فعلى ضوء التجربة الشعرية الجديدة ، كيف ندرس علاقة المبنى بالمعنى ؟ وهل هناك مبرر لمثل هذه الدراسة ؟ وهل نستطيع ان نكتشف من خلالها علاقة بين زمن الواقع ، زمن التحول والثورة والتراجع ، وزمن القصيدة ؟ لا تطرح هذه الاسئلة ضمن اشكالية دراسة عباس للموقف من الزمن · **فالزمن معطى خارجي · انه موضوع للشعر** · فتتوقف الدراسة عند النقاط علامات بارزة ، ولا تبحث عن علاقاتها بالتجربة الجديدة · هكذا نبقى ، امام نقد يحاول استعجال التصنيف والتأريخ قبل اكتمال عناصرهما ·

**ب ـ الموقف من المدينة**

بعد مقدمة عامة تطرح اسئلة دون ان تجيب عليها · ولا تتوغل في التساؤل عن معنى المدينة العربية الحديثة ، وعلاقتها بالمدينة القديمة · عن معنى مدن الصفيح التي تحيط بالمدن العربية ، وعن علاقة تفتت الريف بنمو المدينة في زمن هيمنة الرأسمالية التابعة · ينتقل عباس الى تصنيفاته السريعة لمواقف الشعراء من المدينة · فيتوقف عند السياب ، حجازي ، محمد عفيفي مطر ، البياتي ، قاسم حداد ، سميح القاسم ، خليل حاوي وادونيس · ويصل في نهاية الفصل الى استنتاجات عامة ، حيث يسجل اربعة اتجاهات لموقف الشاعر من المدينة ·

١ ـ رد فعل رومانسي خالص ·

٢ ـ تشكل المدينة بحسب الانتماء العقائدي او الوضع النفسي الفردي ، فالمدينة وعاء لا يتغير ·

٣ ـ اعتبار المدينة واقعا مسطحا ينعكس على وجهه تمزق الشاعر أو التوتر الوجودي بينه وبين المدينة ·

٤ ـ اعتبار المدينة الغربية رمزا للحضارة الحديثة ·

في هذا التحليل التفصيلي ، الذي يقدمه الكتاب ، للموقف من المدينة ، نكتشف قصور المنهج الوصفي الذي يحكم بنية النص النقدي · فهذا الاستعراض السريع لمواقف الشعراء من المدينة ، يفكك المواقف ولا يوحدها · اي لا يكشف في النهاية عن نسق او انساق مختلفة · ثم حين يصل الى الاستنتاج النهائي ، نكتشف ان الموقف من المدينة يصبح موقفا من كل شيء · فهي وعاء ورمز ووجه · تصبح دراسة المدينة اطارا لدراسة جملة من المواقف · هنا يطرح السؤال الرئيسي الذي يواجهنا في هذا الكتاب · لماذا سلسلة المواقف هذه ؟ والى اين تقود ؟ نستطيع ان نفهم دراسة اثر المدنية في الشعر : العلاقة بين تطور المدينة العربية المعاصرة وتطور القصيدة المعاصرة · انهيار الريف وولادة اشكال شعرية جديدة · التغريب الثقافي والفكري ومسألة المدينة في الشعر المعاصر · طبعا يمكن التوقف هنا عند استثناءات محددة ، حيث يمكن ان تشكل دراسة تجربة حجازي من المدينة والتي كرس لها ديوانه « مدينة بلا قلب » نموذجا لدراسة الاسئلة التي طرحناها والتي لم يطرحها الكتاب · او يمكن ان تشكل قصيدة « قبر من اجل نيويورك » مدخلا لدراسة مجموعة من الاسئلة الاخرى ·

### ج ـ الموقف من التراث

ربما كان الموقف من التراث ، احد اكثر اقسام الكتاب اشكالية · فهو يطرح مجموعة من المسائل للنقاش ، ويشير الى اسئلة محددة ، ويتهم احيانا « بموضوعيته » الاكاديمية ، كمثل اشارته الى انتماء بعض الشعراء المحدثين الى الاقليات العرقية والمذهبية والطائفية ؟

ينطلق هذا الفصل من نص للناقد الفرنسي رولان بارت يشير فيه الى الذاكرة الثانية التي تملكها الكلمات · ثم يصنف الناقد الموقف من التراث في اربعة مواقف : التراث الشعبي ، الاقنعة ، المرايا ، التراث الاسطوري · ويقدم انطلاقا من هذا التصنيف مجموعة نماذج مختلفة ، لمواقف الشعراء المعاصرين من التراث · فالتراث الشعبي ، هو جسر يمتد بين الشاعر والناس · والاقنعة ، هي شخصيات تاريخية يختبىء الشاعر خلفها · والمرايا ، هي صورة ذاتية تنعكس عليها الرموز · والتراث الاسطوري ، هو تحويل التاريخ الى لون من الاسطورة لتتم للاسطورة سيطرتها الكاملة ·

السؤال الاساسي الذي يطرحه هذا الفصل هو سؤال منهجي · فكيف يتم الربط بين العناصر « التراثية » المختلفة في التجربة الشعرية المعاصرة ؟ ثم ما هي دلالات هذا الاستخدام المكثف للرموز ؟

يتوقف عباس عند مجموعة من النقاط التي تحاول الاجابة على هذا السؤال ، والتي يمكن وضعها في نسقين :

ـ نسق شعري ، حيث يتكلم عن محاولة الوصول الى الدرامية عبر استخدام الاقنعة التاريخية · رغم ان « رقة الحاجز بين الاصل والقناع تضع هذه الدرامية في ابسط حالاتها » ·

ـ نسق ايديولوجي ، حين يفسر اللجوء الى التراث الاسطوري بالتعبير عن القلق او البعث او العذاب ·

لكن لا وجود للربط بين النسقين · ولا وجود لمحاولة تحديد دقيق للفروق بين التعابير

المستخدمة · فما هو الفرق بين القناع والمرايا التاريخية ؟ وما هي علاقة الرمز الاسطوري بالرمز التاريخي ؟ ولماذا وجد الشعر المعاصر نفسه مندفعا ، في لحظة تاريخية محددة ، الى الرمز الاسطوري والتاريخي ، ثم اخيرا كيف نفهم استخدام الموروث الشعبي في الشعر المعاصر ؟

تبدو الاجابة على هذه الاسئلة بالغة التعقيد · لكنها لا يمكن ان تتم خارج اكتشاف انسان الشعر المعاصر ، ومحاولاته الخروج من الرخاوة الرومانسية ، واضطراره في غمرة بحثه عن ثورته الكاملة على النموذج القديم ، الى اكتشاف ادوات ربط بالماضي · فالربط لا يتم فقط عبر ذاكرة الكلمات التائية ، لكنه يتم بشكل ايديولوجي شبه قصدي · وكان الشعر بوصفه مؤشرا ثقافيا عاما ، وجد نفسه مضطرا الى تأكيد الذات لحظة الثورة عليها · والى تقديم تفسير جديد للماضي عبر وضعه داخل سياق الثورة القادمة ·

تبقى اخيرا ، مسألة اعتبار استخدام التراث في القصيدة وكأنه موقف من التراث · هنا ، يتم حجب جملة من التجارب الشعرية التي تستعير الرمز او ترمز الواقع ، في مسار يستكمل اتكاء الشعر على الرمز الاسطوري والتاريخي ، مع احداث تعديلات داخل هذا المسار · هنا يجب التوقف عند لحظتين متميزتين :

**اللحظة الاولى** والتي يمكن تسميتها بالرمز الواقعي ، حيث تؤخذ شخصية واقعية اطارا لبناء درامية القصيدة · شخصية سرحان التي تمتد على مساحة تجربة درويش انطلاقا من « احبك او لا احبك » · او تفاصيل الحياة اليومية القادمة من الذاكرة والتي تشكل عامل ترابط مستويي التجربة الشعرية : التحول الثوري واللغة الصوفية ، كما في قصيدة ادونيس « مفرد بصيغة الجمع » ·

**اللحظة الثانية** هي اشعال الواقع بالحلم · والانطلاق من التفاصيل ومن عناصرها التي تترابط في زمن القصيدة ، لتشكل عالما رؤيويا خاصا كما في تجربة سعدي يوسف ·

ان اعتبار مسألة التراث ، موقفا شعريا من مسألة خارج القصيدة ، يقود الى عدم القدرة على الاحاطة باهم مناحي التجربة الشعرية المعاصرة · فالشعر المعاصر كان منذ البداية محكوما بهاجس التجديد والثورة · وكان كذلك يحاول عدم احداث قطيعة مع الماضي ، بل كان يريد اعادة فهمه وتفسيره على ضوء الواقع الشعري الجديد · ثم واخيرا ، وفي ظل القمع السياسي ، كان الشعر يستعير بعض الاشكال الرمزية كي يختبىء خلفها · وهذا هو التفسير الحقيقي لملاحظة عباس بأن الاقنعة تضع الدرامية في ابسط حالاتها ·

### د ـ الموقف من الحب

في دراسة الموقف من الحب يتوقف عباس طويلا عند تجربة قباني ليقدم ربطا بين مستويي الجنس والابداع · ثم يتوقف عند عبد الصبور والبياتي ( الحب قوة كونية ) وادونيس ( الحب الجسدي ) ودرويش ( وحدة الشاعر والام والحبيبة والارض ) · ثم يتوقف عند شعر المرأة : فدوى طوقان وسلمى الخضراء الجيوسي ، ليعود بنا الى المنحى السيكولوجي « والمرأة اكثر اخلاصا في الحب من الرجل ··· انها لا تتفلسف كثيرا حول الحب كما يفعل الرجل ، وهي اكثر التصاقا بالواقعية في الحب منه » · هنا تبرز تقليدية هذا النقد امام تجربة جديدة تصبح مستعصية على التفسير بالادوات النقدية المتداولة ·

هل نستطيع فعلا ان ندرس الموقف من الحب ؟ · الا يختلط الحب بمفاهيم وحالات اخرى بحيث يصبح اطارا للتحولات ، او رمزا للعلاقة الصراعية بالثورة ، او شكلا من اشكال الرمز · واخيرا ، وفي تحليل شعر قباني يجري اهمال جميع جوانب بنية قصيدته ، وعلاقة المرأة ـ في هذا الشعر ـ بالكل الاجتماعي ·

هـ ـ الموقف من المجتمع

لا ينكشف عجز المنهج النقدي بشكل صارخ الا في الفصل الاخير من الكتاب · حيث لا يجري التوقف عند الشعر ، بل عند نظرات عامة في علاقة الشعر بالمجتمع · اما حين يطرح مسألة علاقة الصوفية في الشعر بالماركسية ، فهو يطرح السؤال دون ان يقدم الاجابة ، لانه لا يحلل ظاهرة اللغة الصوفية في التجربة الشعرية المعاصرة الا بشكل وصفي وخارجي ·

٢ ـ اسئلة النقد

« وهذا يلفتنا الى شيء هام يتناول اكثر الشعر المعاصر ، وهو ان الشاعر رغم كل المحاولات التجديدية اذا استثنينا قلة من الشعراء ، لا يحفل كثيرا بخلق المبنى الشعري الملائم وبتطويره ، وانما هو أسير لحظة انفعالية تتخلق فيها القصيدة على ما هجس في نفسه من شكل مألوف ، ولهذا كثر النتاج الشعري دون ان يحمل سمات مميزة في البناء » ·

هكذا ينتهي كتاب عباس حيث كان يجب ان يبدأ · وهنا تطرح على الممارسة النقدية مجموعة من الاسئلة ·

أ ـ كيف نؤرخ لبدايات الشعر المعاصر ؟ هل نبدأ بشكل تاريخي ، اي هل نقبل المنطق الداخلي للشعر المعاصر ، او بالتحديد لبدايات قصيدةالتفعيلة ؟ قبل الجواب على هذا السؤال ، يبرز امامنا سؤال اخر اشد خطورة واكثر تعقيدا : هل هناك حركة شعرية جديدة ؟ في الجواب الذي يقدمه كتاب عباس مجموعة من المسائل التي تحتاج الى نقاش · فالكتاب يتعامل مع تاريخ الشعر ، يتحايل على الجواب عبر اللجوء الى الزمن ، لكن الزمن لا يقدم اجابة · فيكشف الكتاب ، عبر تعامله مع المضامين الشعرية عن وجود تمايزات حادة بين التجارب الشعرية المختلفة ، لا تسمح لنا بوضعها في سياق حركة واحدة ·

ان دراسة التجربة الشعرية الجديدة يجب ان تبدأ من الازمة · ازمة الثقافة العربية التي بشكل الشعر ، تاريخيا ، اطارها المرجعي الاساسي · وعبر دراسة هذه الازمة سوف نكتشف مجموعة مفاهيم للقصيدة ، انطلاقا من بداية التمرد على الشكل الشعري القديم · هنا ، سوف نكتشف اولا ان الشعر ليس ظاهرة عروضية · وانطلاقا من هنا ، نستطيع ان نعيد النبرة الرومانسية ، التي لا تضيف جديدا الى اصولها التاريخية · كما نكتشف ثانيا ان البحث عن درامية الشعر ، اي عن تعدد الاصوات داخل القصيدة ، حيث تصبح القصيدة تجربة متكاملة ، هو الخط التاريخي في الشعر المعاصر · وهو بهذا المعنى ، يعيش الازمة · أزمة البحث عن لغة جديدة ، سوف تكون لغة الصراعات والانفجارات الثقافية والاجتماعية ·

لا يبدأ الشعر المعاصر بقصيدة « الكوليرا » · ولا تنتمي التجربة الجديدة الى البدايات الرومانسية الرخوة · ولا يمكن تفسير الثورة الشعرية بشكل سيكولوجي نسائي · بل تصبح المسألة الحقيقية ، هي لحظة انفجار الشعر كمؤشر لانفجار الثقافة العربية بكل قيمها وموروثاتها امام التحدي الحقيقي · ويصبح الشعر في بحثه عن ثورته ، احد الاشكال التي بحثت فيها الثقافة عن لغتها الجديدة · هنا تكون البدايات ، عبر ارتباطها بمجمل عناصر الحركة الثقافية العامة ، هي الخط الذي يمتد داخل الشعر من اجل الوصول الى لغة جديدة ، تتجسد عمليا في بنية القصيدة العربية الجديدة ·

ب ـ يقود السؤال حول وحدة الحركة الشعرية ، الى تساؤلات حول تياراتها المختلفة ، واشكالية انقطاعاتها · فالشعر المعاصر يبدو رغم اشارته الى وجهة ، وكأنه يتطور بشكل انقطاعي · او كأن الانفتاح ـ التأثر بالثقافة الغربية المعاصرة ، يدفع الى وضع مسار الشعر في خارجه · اي في قدرته على استيعاب النموذج ووضعه في سياقات جديدة · هل يفسر هذا اندفاع الشعر الى اللغة التراثية والرموز التاريخية : وهل نستطيع ان نقول ، انه بعد نهاية مرحلة البدايات ، وترسخ التجربة الجديدة ، ان التطور الشعري المقبل هو تطور من داخل الانجاز الفني الذي تحقق ، ام ان الثورة المقبلة هي التي ستحدد في مسارها ، اشكالياتها الثقافية والشعرية الجديدة ؟

ج ـ ان الخط الرئيسي للتجربة الشعرية المعاصرة ، هو خط البحث عن القصيدة · عن التجربة الشاملة داخل الجسد الفني · هنا تأخذ مسألة علاقة المبنى بالمعنى مفهوما جديدا · فالمبنى ( الشكل ) هو المعنى ( المضمون ) والتحول في الشكل هو تحول جذري لرؤية العالم ، لا يمكن ان يحدث شعريا الا في الشكل اساسا ، والا فقد مبرره شعريا · هنا يقف كتاب عباس في منهجه الوصفي المضموني ، عاجزا عن التقاط الجديد في التجربة الشعرية · فهو لا يزال امام اغراض الشعر · لكن « الاغراض » هنا جديدة وغير مألوفة · لذلك ، وعوض الوضوح النقدي الذي يضع مقاييس صارمة لدراسة الشعر، نكتشف ان النقد لا يستطيع ان يتلمس مقاييس ثابتة · فيلجأ الى التقسيم الانتقائي للمواقف من جهة ، والى الانطباعية في معالجة هذه المواقف من جهة ثانية · فتقسيم المواقف : موقف من الريف والمدينة والتراث الخ · ، لا يفتت التجربة الشعرية لكل شاعر على حدة فحسب ، بل يفتت ايضا امكانية اكتشاف اتجاهات داخل الشعر المعاصر · الزمن ليس غرضا شعريا · ليس مدحا ولا هجاء ولا ·· انه مسألة اخرى لا يمكن فهمها عبر وضعية التقابل بين الشاعر وموضوعه ، او عبر تجزئتها الى مقاطع شعرية تتحدث عن ـ او تشير الى الزمن ، وعزل هذه المقاطع عن القصيدة او عن زمن القصيدة · هنا لا يكتفي النقد بالوقوع في انتقائية لا مبرر لها ، بل يقدم كذلك فهما خاطئا للتجربة الشعرية · فالزمن في القصيدة هو القصيدة بأسرها · انه بنيتها · اما مسألة التراث ، فهي مسألة تحتاج الى نقاش نظري · والطريقة الافضل لفهم موقف الفكر العربي من التراث ، هو دراسة هذا الفكر ، وليس القيام بعملية اسقاط لهذه الدراسة على الشعر · فالشعر لا يستطيع حل مسألة التراث العربي · لكنه ، عبر استخدامه للتراث والرمز التاريخي ، يقوم عمليا باعادة انتاج المسألة في اشكالية جديدة · وهذه الاشكالية هي التي يجب ان تدرس ·

و ـ ثم هناك مسألة تداخل المواقف ، وهي مسألة يلمح اليها عباس بشكل دائم ، رغم انه يحاول اقامة حواجز شكلية لمنعه ، وهي احدى المسائل المركزية التي كان يجب ان تدرس · لماذا تنتفي الاغراض في الشعر المعاصر ؟ هنا تصبح المسألة هي القصيدة وليس الشعر · ومن خلال دراسة القصيدة ، وفهم اوالية تركيبها الداخلي ، وتوازنها ، وعلاقتها

بالمستوى الايديولوجي ، نستطيع ان نعمم وندرس علاقة الشعر بالهموم الثقافية ، وكيف تنعكس هذه الهموم في الشعر ، او كيف تطرح فيه ·

هـ ـ لكن النقد المضموني يجد نفسه مضطرا ، عبر تفتيته للقصيدة الى مقاطع ، وللشاعر الى مواقف ، الى الانطلاق من افتراض مسبق · فنحن لا نزال امام « طبقات » جديدة « لفحول الشعراء » · والطبقات هذه ، طالما كان المنطلق في فهم الشعر المعاصر وتياراته تأريخيا في جوهره ، يقبل البدايات كما وردت تاريخيا ، سوف تقسم تاريخيا · ففي الطبقة الاولى هناك « الرواد » ، هنا يتصرف عباس ويقوم بحذف بعضمن اصطلح على تسميتهم « بالرواد » من هذه الطبقة · وفي الطبقة الثانية هناك بعض الشعراء البارزين من الجيل الثاني · وفي الطبقة الثالثة تأتي جمهرة الشعراء · وهناك ، يجري تغييب جميع شعراء الجيل الجديد ، فاضل عزاوي ، احمد دحبور ، سليم بركات ؟··

و ـ ثم هناك التردد في حسم مجموعة من المسائل البالغة الاهمية · فالمسألة العروضية والخلاف حولها الذي يبدأ مع كتاب نازك الملائكة ولا ينتهي ، لا تجري الاشارة اليها الا بشكل سريع · ومسائل قصيدة النثر والشعر المرسل يجري تجاهلها بشكل كامل او التهرب منها · فهو مثلا يضع هذا الهامش لاستشهاده باحد مزامير درويش من ديوان « احبك او لا احبك » : « هذه القطعة لا تعتمد ايقاعا منتظما ، لكنها ذات قيمة في الدلالة على نظرة الشاعر الى الزمن » · القطعة ، اي انها ليست قصيدة ، لكنها معتمدة لانها ذات دلالة ، اي تحمل معنى خاصا في غمرة بحث النقد عن المعاني · من اجل هذا ، يجري تجاهل جميع الشعراء الذين كتبوا قصيدة النثر او الشعر المرسل من محمد الماغوط الى انسي الحاج ، وكأن لا وجود لمواقف للذين كتبوا على غير ايقاع التفعيلة · والغيابات لا تقتصر فقط على شعراء القصيدة النثرية او المرسلة ، بل تمتد وبشكل غير مفهوم ، لتشمل مجموعة كبيرة من الشعراء من سعدي يوسف الى يوسف الخال ·

ز ـ هناك موقف تصنيفي في اختيار النماذج وفي اختيار الشعراء · والكتاب لا يقدم اية مقاييس تساعد على فهم هذا الموقف · لكن هناك بعض التلميحات ، فهو حين يعالج مسألة موقف احمد عبد المعطي حجازي من المدينة ، يستطرد الى موقف تقييمي في جملة اعتراضية « ان السؤال هل استطاع حجازي ان يتجاوز ذلك المستوى [الشاعر الناشىء] هو امر خارج حدود هذا الفصل » · اذا كان هذا التلميح ذا دلالة ، فلماذا ندرس موقف شاعر ناشىء لا مستقبل له ؟ ثم لماذا لم يستطرد الناقد في حديثه عن شعراء اخرين ؟ وهذه مسألة بالغة الاهمية لانها تضعنا في اطار فهم نقدي تقليدي ، النقد التلميحي الذي لا يقدم مقاييس حقيقية ·

ح ـ ان اصرار الكتاب على مسألة النقد المضموني ، يقود الى الغاء مسألة علاقة الذاتي بالموضوعي ، التي هي العلاقة التي تحكم كل فن ، والتي تشكل علاقة المبنى بالمعنى احد اوجهها البارزة · ما هو موضوع الشعر ؟ هل نستطيع ان نطرح هذا السؤال ؟ السؤال يحمل قيمة تاريخية ، اي انه يسجل مراحل تطور نظرية الشعر · لكنه لا يجيب على وجهة تطرح الشعر كتجربة متكاملة · كمؤشر ثقافي ، وكبنية درامية تتجاوز ثنائية الشاعر ـ النص ، او ثنائية النص ـ المتلقي ·

ط ـ واخيرا تبقى ملاحظة حول بنية الكتاب النقدي · فهذا الكتاب الذي يعالج اتجاهات

الشعر المعاصر ، لا يعالج سوى لحظات متقطعة · وهو في محاولته تبسيط الموضوع ، يزيد في تعقيده · فالمسألة ليست في القدرة على تفتيت الشعر الى مضامين · بل هي في القدرة على الوصول الى استنتاجات ، اي على توحيده في اتجاهات · هنا لا يزال امام النقد الجامعي ، الذي يريد أن يصنف ويدرج التجربة الشعرية في تاريخ الادب ، الكثير من العمل · فالوصول الى دراسة الشعر المعاصر تفترض اولا الوصول الى منهج لدراسة بنية القصيدة · هنا يقع الخلل الاساسي في النقد المضموني الذي لا يعير بنية القصيدة ولغتها الاهتمام الرئيسي · لذلك يتحول النقد من تصنيف ونمذجة الى ملاحظات · والملاحظات النقدية لا تحتاج الى تصنيف كيفي · انها تكتفي بمحاولة المواكبة ، ومحاولة فهم التجربة من الداخل ·

نقد الشعر وتصنيفه يطرحان سؤالا كبيرا : لماذا لا يزال النقد المنهجي عاجزا عن صياغة منهج متماسك لنقد الشعر المعاصر ؟ وهل يستطيع النقد صياغة هذا المنهج في الوضعية الثقافية الراهنة ؟

ان المنهج الذي يستهلك ولا ينتج ، وهذا بارز في النقد ، سوف يبقى عاجزا عن صياغة لغة نقدية تنطلق من التجربة الفعلية · من هنا، فليست الجامعات التابعة هي التي تستطيع انتاج ثقافة غير متكسرة وليست صدى للثقافات الاخرى · يحتاج النقد الجديد الى اشكالية جديدة · واشكاليته الجديدة لن تكون سوى جزء من عملية تغيير شاملة · فعبر علاقته بالممارسة الشعرية ، وعبر تعامله مع ثقافة تتفلت من اسار الماضي ، ومن اسار الاستلاب العبودي امام الثقافات الاخرى ، يستطيع النقد ان يصبح اداة اضاءة وكشف ·

هنا يلتحم النقد بالابداع ، بوصفه ابداعا في المستوى الثاني · وهنا ايضا يكتشف الابداعان لغة جديدة ، لغة التغيير الحقيقي ، لغة اكتشاف نموذج بناء الحياة العربية على المستوى الثقافي ·

# مناقشات

## فلسطين ليست طيفاً

جرى ، ذات يوم من اوائل شهر آذار ( مارس ) ، عرض خاص في بيروت لفيلم « النضال من اجل الارض او فلسطين في اسرائيل » . وقد حضر العرض عدد من العاملين في الاعلام وسينما الثورة الفلسطينية . واعقب ذلك نقاش بين الحاضرين تناول الجوانب السياسية والسينمائية للفيلم . وقد طرحت فيه عدة اسئلة :

- من هي الجهة المنتجة للفيلم ؟
- ما هو مغزاه السياسي ؟
- ما هي قيمة الوثائق التاريخية فيه وكيف تم استخدامها ؟
- وهل يستحق هذا الفيلم فعلا ،جائزة منظمة التحرير الفلسطينية ؟

وكان الفيلم قد اثار ردود فعل وتقييمات سياسية متباينة ، بين متحمس له مثل سعيد مراد الذي يرى ان « كل ما في الفيلم من مضمون ومادة هو دقة في التعبير الواعي في عدائه للصهيونية وآلتها اسرائيل » ( راجع شؤون فلسطينية عدد ٧٦ آذار ( مارس ) ١٩٧٨ ) وبين معاد يرى فيه فيلما صهيونيا مدروسا بدهاء شيطاني .

ان الحافز الذي دفعني لاجراء هذه الدراسة التحليلية السياسية والسينمائية على هذا الفيلم تنبع من كونه منتوجا سينمائيا آخر يضاف الى عدد من الافلام التسجيلية التي تعالج قضية فلسطين شعبا وارضا ونتائجها من وجهة نظر بعض الليبراليين او الماركسيين الاسرائيليين او من وجهة نظر « الصهيونية الجديدة » . فقد شهد الغرب وبشكل خاص اوروبا الغربية ولادة ونمو تيار سياسي عند بعض المثقفين الاسرائيليين واليهود يعالج سينمائيا القضية الفلسطينية بمنحى يخالف وجهة النظر الصهيونية الكلاسيكية التي يزعم مبدؤها الرئيسي بان فلسطين هي « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » . ومن هذه الافلام « من اجل الفلسطينيين اسرائيلية تشهد » لـ دينابوليتي ، « حتى نعيش بحرية » لشيمون لوفيتش ، « والحوار العربي الاسرائيلي » للامريكي ليونيل روغوزين وغيرها .

وقد نشرت باللغتين الفرنسية والانكليزية بعض الدراسات عن هذه الافلام الا ان النقاد السينمائيين الملتزمين بالثورة الفلسطينية لم يدرسوا بعد هذه الظاهرة بشكل شامل لتحديد آفاق هذه الافلام السياسية ونتائجها الاعلامية · ولا يزعم هذا المقال الاجابة على هذا النقص، بل يهدف الى الاجابة على الاسئلة التي اثيرت سابقا والى الرغبة في محاولة « تبديد الدخان العكر الذي يكدر صفو ايام جو العرب » في مهرجان دولي للافلام التسجيلية والتلفزيونية ، دون ضوضاء او مماحكة ·

« النضال من اجل الارض او فلسطين في اسرائيل » فيلم تسجيلي يبلغ طوله ٤٦ دقيقة صدر بالالوان ومقاسه ١٦ ملم وقد سجل الصوت مغناطيسيا على النسخة الموجودة في بيروت · وتدل المعلومات المتوفرة على ان مخرج الفيلم هو ماريو

اوفنبرغ ، ٣٠ سنة ، يحمل الجنسية الاسرائيلية ، حاصل على الدكتوراه في العلوم السياسية ويقيم منذ اكثر من سبع سنوات في برلين الغربية حيث يدرس التاريخ في جامعتها ·

وسبق لهذا الفيلم ان عرض في مهرجان دولي للافلام التسجيلية في اسبانيا بقرية بينا لمادينا خريف ١٩٧٧

الا ان عرضه في المهرجان العشرين للافلام التسجيلية والتلفزيونية في لايبزغ في تشرين الثاني ( نوفمبر ) ١٩٧٧ قد اثار « حوار الطرشان بين قلة من العرب المشتركين في المهرجان وكثرة ـ الباقين» على حد تعبير سعيد مراد · وقد سبب عرضه « احراجات وارباكات لادارة المهرجان الصديقة » · وتناول الجدل القائم حوله مسالتين اساسيتين : ـ اولاهما هوية الفيلم وثانيتهما جوهرة السياسي ·

لنبحث اذن في المسألة الاولى :

ـ ورد اسم ماريو اوفنبرغ اسرائيلي الجنسية ، في الكتيب الذي اصدرته ادارة المهرجان المتضمن اسماء وجنسيات الضيوف والمشتركين والصحفيين وذكر سعيد مراد بأن « ادارة مهرجان لايبزغ قد نوهت بهوية الفيلم وصاحبه ومسحت كلمة اسرائيل من على اللوحة التي تتضمن عروض كل يوم من ايام المهرجان·

وفي نسخة بيروت لا يوجد اي ذكر للجهة المنتجة · وقد افاد الفنان الفلسطيني اسماعيل شموط عضو وفد م·ت·ف· الى مهرجان لايبزغ ، ابان العرض الخاص للفيلم في بيروت ، بانه قد اطلع على الاستمارة التي تقدم بها ماريو افينبرغ الى ادارة المهرجان وقال بان « م· اوفينبرغ قد ترك مكانا فارغا في جنسية الفيلم » ·

ونقل مشتركون في مهرجان اسبانيا بان نسخة الفيلم المعروضة هناك نصت بصراحة على ان انتاج الفيلم قد تم بفضل منحه مادية من جامعة برلين الغربية · وقد تأكدت من ذلك من مراجعة الكتيب الذي اصدرته ادارة الاسبوع التاسع الدولي لسينما المؤلف (بينا لمادينا، ١٤ ـ ٢٣ تشرين اول ( اكتوبر ) ١٩٧٧) وقد نشر فيه بان الفيلم من انتاج المعهد العالي للافلام التوثيقية في برلين ·

( Hochschulfilmreferat der FU : Berlin )

اذن الفيلم من انتاج الماني غربي وليس من انتاج اسرائيلي وم· اوفينبرغ الذي تجاهل هذا الامر فضل ، لسبب ما ، اغفال ذكر جنسية الفيلم في مهرجان لايبزغ · والسؤال الذي يفرض نفسه مباشرة : لماذا

هذا الابهام ؟ ويمكننا ان نستنتج بان في تصرف م· اوفنبرغ مؤشر ما على نية سنعمل على ايضاحه في حينه · ونصل بذلك الى المحتوى السياسي للفيلم ·

لنتحمس قليلا في عرض محتوى الفيلم وفي شرح العلاقة التي لا تنفصم بين الصوت والصورة ·

يبدأ الفيلم بمشهد فلاح فلسطيني مسن ينظر عبر نافذة غرفته الى جنات فلسطين ويعرف بنفسه قائلا : « انا فلاح ابن فلاح منذ آلاف السنين · لا اقدر ان اعيش الا بالارض والزراعة » · ويتناول هيكل الفيلم دراسة ثلاث حالات :

قرية صفورية في الجليل ·

– قرية عرعرة في المثلث ·

– مدينة تل ابيب ( المدينة الحية ! ) ·

شخصيات الفيلم اربعة من العرب الفلسطينيين واسرائيليان · ولكن عم يتكلم هؤلاء جميعا ؟ لنستعرضهم واحدا واحد · المثل العربي يقول: احترموا النساء والشيوخ · وباعتبار ان الفيلم يقتصر على الرجال – فلنعط المسنين منهم افضلية الكلام ·

الفلاح المسن مصطفى سليم معاد ، صادر الصهاينة منه ١٢٠ دونما من الارض ثم عرضوا عليه تبادلها مع اراض اخرى وعندما قبل تنكروا لعرضهم ، هو يشتكي بان « هناك تمييزا ضدنا · ليس لدينا حقوق كاليهود · الحل ! ينبغي ان يتمتع اليهود والعرب بحقوق متساوية · نريد العدل والمساواة لان العدل هو السلام والسلام هو حياة الانسان » ·

اما الفلاح المسن الاخر عبد المجيد الرشيد فيروي كيف هدد الصهاينة قريتا وهاجموها واجبروا اهلها على الرحيل ·

ورغبة منا في الحفاظ على انسجام عرض المواقف الفلسطينية سنعطي حق الكلام للشابين العربيين دونما اي نية في التمييز ضد اليهود ·

يؤكد علي الازهري المولود في صفورية عام ١٩٤٨ بان قريته المصادرة مثلها مثل مئات من القرى الفلسطينية · ويضيف وهو ينظر الى بيت والديه الذي سلبهم اياه الصهاينة بان هناك شعبان يهودي من طرف وفلسطيني هضمت حقوقه القومية والانسانية من الطرف الاخر ·

اما احمد مصاروة – الذي اغاظ الحاضرين في العرض الخاص لتكلمه بالعبرية – فيوافق على مقولة الازهري ويضيف بان قريته عرعرة هي في نفس وضع كل القرى العربية · فقد صادر الصهاينة ٢٥٠٠٠ – ٣٦٠٠٠ دونما من اصل اراضيها البالغة ٤٠ر٠٠٠ دونم · ويضيف « بأن فلاحي القرية تحولوا الى عمال في تل أبيب » ·

والاسرائيليان هما الشاب يهود عين جيل ويتكلم عن بناء تل ابيب على انقاض « كروم جبالي » العربية وعن « عودة اللاجئين » · واودد بلوفسكي من تل ابيب · وبدون اي تردد استطيع ان اؤكد بانه يعبر عن المحتوى السياسي الفعلي للفيلم · لقد اعطاه م· اوفنبرغ الفرصة ليستعرض ما يحلو له من جوانب القضية وهو الذي يملي ايضا الحلول في نهاية الفيلم · واذا ما افترضنا بان ماريو اوفنبرغ لم « يراقب » كلام اودد بلوفسكي فانه بوسعنا ان نضيف بان بلوفسكي قد لعب دور « البطل السياسي » في الفيلم ·

لنستعرض معا ما يقول : – « في الوقت الذي يواصل فيه الجميع هنا في اسرائيل التحدث عن الفضائح ، يستمر سلب الاراضي من العرب · لقد اراد الصهاينة

بناء الكيبوتزات كمثل للمساواة في المجتمع · وقد كان بناء تل ابيب في هذا المجال جزءا من استعمار البلاد » · وقد تطورت المدينة ولكنها لم تبن في الاساس على الكثبان الرملية كما تقول النظرية الصهيونية · فالصهاينة يعتقدون بان هذه الارض تنتظر الخلاص فهي ارض بدون شعب · [ واذا كان هناك من حل ] فلن ينجح اي حل لا يأخذ بعين الاعتبار جميع حقوق الفلسطينيين شريطة الايعني هذا طرد من سلبوهم ارضهم ·

« ان معظم الاسرائيليين يرغبون في استمرار نفس السياسة الاسرائيلية (مصادرة الاراضي) لتوفير امنهم ·ويبرز الصهاينة استقدام اليهود الى اسرائيل برغبتهم في خلق دولة يهودية بحتة · وتدعى الصهيونية بان المكان الوحيد الامن لسلام اليهود هو أسرائيل ·

« وفي الوقت الذي تقول فيه الدعاية الصهيونية لليهود ( تعالوا الى اسرائيل لانقاذ اليهود ) فان الحقيقة اصبحت في الشعار التالي : ( تعالوا الى اسرائيل لانقاذ اسرائيل ) ·

ويصيح اودد بلوفسكي بحرارة بالاستنتاج الاساسي للفيلم قائلا : « يجب ان يكون هناك نضال مشترك لليهود والعرب على هذه الارض · هذه الارض جزء منها هو اسرائيل وجزء آخر تحتله اسرائيل ويعيش عليه فلسطينيون · والحل الوحيد هو التعايش بين سالبي الارض ومسلوبيها » ·

كـذا !

الفلسطينيون في فيلم ماريو اوفنبرغ يندون ، ضمن الحدود التي يسمح بها الاحتلال الصهيوني ، بالسياسة الصهيونية ومصادرة الاراضي العربية ، ويفضحون التمييز القائم ضدهم ويؤكدون على وجودهم الوطني ويرون الحل في اقامة العدل والمساواة واحلال السلام ·

اما الاسرائيليون فيعترفون بان الحركة الصهيونية واسرائيل تقومان بمصادرةهذه الاراضي وبأنه لا يوجد حل للمشكلة الا بتعايش العرب واليهود معا على هذه الارض :

« فلسطين في اسرائيل » اي التي جزء منها هو اسرائيل والجزء الاخر ما تحتله اسرائيل ·

ترى هل ينطق بطل الفيلم الاسرائيلي اودد بلوفسكي المقيم في تل ابيب باسم المخرج الاسرائيلي ماريو اوفنبرغ المقيم في برلين الغربية ؟

اذا تحمسنا بشكل ارعن لنطقنا بدون تفكير : طبعا · واذا ضبطنا اعصابنا وفكرنا قليلا فاننا نستطيع أن نجزم بدون ان نخشى ان يكذبنا احد بما يلي :

تجاهل فيلم « النضال من اجل الارض او فلسطين في اسرائيل » تجاهلا مطلقا الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني وخاصة حقه في السيادة وفي اقامة دولة مستقلة على تراب وطنه · كما انه لم يذكر ابدا بان م·ت·ف· موجودة وهي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني·

هناك حتما من سوف يتسرع ويعترض علينا عاتبا : ــ

«ماريو اوفنبرغ واودد بلوفسكي اسرائيليان · وانت لا تتصور بانهما لا يستطيعان تبني موقف العرب · ان مجرد ادانتهما لمصادرة الاراضي العربية لهو تطور ايجابي في حد ذاته داخل المجتمع الاسرائيلي » ·

وحتى لا نتسرع نحن ونتحمس دوغماتيكيا ، فلنترو قليلا ··· طيب !لماذا

لم يذكر الفيلم ولو لمرة واحدة على الاقل. ضرورة انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية الفلسطينية المحتلة ؟.

ان اودد بلوفسكي يدعو في نهاية الفيلم للنضال المشترك للعرب واليهود بغية التعايش علىهذه الارض (حسب تعريفه = اسرائيل + الجزء المحتل من قبل اسرائيل ) الا يعني هذا ، بكل صراحة ومندون مواربة منه، سيادة دولة اسرائيل على كل فلسطين وانكار حق الشعب الفلسطيني في السيادة على وطنه ؟ ثم انه تكلم بشكل غامض عن النضال المشترك. بأية وسيلة ؟ فلا اثر في الفيلم لوجود الثورة الفلسطينية المسلحة منذ ١٢ سنة.

ان الفيلم ينتقد سياسة مصادرة الاراضي من العرب . ولكنه لا يفسرها بوضوح . ربما يعتقد ماريو اوفنبرغ ، كالامم المتحدة مثلا ، بان خطأ تاريخيا قد ارتكب بحق شعب فلسطين . وانا هنا احسن الظن به . ولكن الفيلم هو ابعد ما يكون عن ادانة ( الجريمة المنكرة )التي ارتكبت بحق شعبنا .

باعتبار ان ماريو اوفنبرغ يطرح نفسه كماركسي تقدمي ، فلنقارن بين موقفه السياسي في الفيلم وبين موقفين آخرين.

الاول موقف الحكومة الاسرائيلية . يجيب برنامج تحالف الليكود بان « اسرائيل الكبرى جزء لا يتجزأ من التراث الابدي للشعب اليهودي » .ويضيف الارهابي مناحيم بيغن مرتكب مجزرة دير ياسين بانه لا يوجد شعب فلسطيني . ويقترح على « نزلاء السامرة واليهودية وغزة » من غير اليهود حق الادارة ـ الذاتية ضمن السيادة الاسرائيلية ،وتؤكد بيانات الحكومة الاسرائيلية والحركة الصهيونية كل يوم بانهما ضد قيام دولة فلسطينية مستقلة وضد الاعتراف بـ م.ت. ف.وضد عودة اللاجئين الفلسطينيين الى وطنهم .

والموقف الثاني هو موقف الحزب الشيوعي الاسرائيلي . يدعو راكاح الى تعايش دولة اسرائيل مع دولة فلسطينية على الضفة الغربية وغزة ، والى عودة اللاجئين الفلسطينيين وانسحاب اسرائيل من كافة الاراضي العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ .

فما هو الفرق بين موقف م. اوفنبرغ « الماركسي والتقدمي » الاسرائيلي الذي لا ينتمي الى الى اي حزب وموقف الحكومة الاسرائيلية وراكاح ؟

لا شك بان هناك فرقا . فالموقف الصهيوني الرسمي هو مع الاستمرار في مصادرة الاراضي العربية وتهويد فلسطين وموقف م. افنبرغ او اودد بلوفسكي هو في انتقاد هذه السياسة نظرا للتحسس الذي بدأ بعض الاسرائيليين بالشعور به ولادراك خطورة الاستمرار في هذه السياسة على امن اسرائيل . وبينما تنفي الصهيونية الكلاسيكية اي وجود وطني للشعب الفلسطيني وترفض حقه في اقامة دولة مستقلة والاعتراف بمنظمته الشرعية م.ت.ف فان فيلم م. اوفنبرغ يتجاهل هذه القضايا ويتحدث بحياء عن عودة اللاجئين ( الى اين ! ) وبضرورة التعايش بين اليهود والعرب . برنامج بيغن عن الادارة الذاتية في الضفة الغربية وقطاع غزة يعني اسباغ الصفة الشرعية والقانونية على تكريس الاحتلال الاسرائيلي . أما فيلم م. اوفنبرغ فيدعو اهلنا في ارض الـ ٤٨الى التعايش مع سالبي أرضهم في « اسرائيل وما تحتله اسرائيل من اراضي » . ولا أدري ما هو موقف اودد بلوفسكي من اطروحات الصهيوني مناحيم بيغن الذي ينادي بدولة اسرائيل الكبرى التي تضم كل فلسطين واجزاء من سيناء والجولان وجنوبي لبنان !

ومن الواضح بعد هذا ان نشير الى ان

موقف م٠ اوفنبرغ يتقدم قليلا على موقف الليكود ولكنه يتأخر كثيرا عن موقف راكاح ٠

ومع ذلك فقد تعجبنا كثيرا عندما قرأنا سعيد مراد وهو مقتنع بان « ماريو يشاطر رأي العرب والجماهير العربية وقواها المناضلة وحركاتها التقدمية في تصوره حقيقة اسرائيل والصهيونية وفي فهمه للقضية الفلسطينية وابعادها من حيث هي مشكلة شعب تآمرت عليه الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية مفتعلة دولة اسرائيل التي قامت على تشريد هذا الشعب من ارضه واغتصاب حقه الوطني التاريخي في فلسطين ٠ وبناء على ما رأيناه في الفيلم نحن نشك بذلك ٠ ربما تحدث سعيد مراد عن فلم اخر لماريو اوفنبرغ غير فيلمه الذي نحن بصدده ٠ وربما كان ماريو اوفنبرغ يشاطر ( سرا او على جنب ) رأي الجماهير العربية٠٠ الخ ٠

ولكن لنتكلم قليلا عن الفيلم فهو موضوع بحثنا ، بدلا من التكلم عن مخرج الفيلم ، وكما رأينا فهو لا يشاطر حتى راكاح موقفه السياسي ٠ ان الحق الوطني الوحيد للشعب الفلسطيني الذي يتكلم عنه الفيلم بشكل هامشي هو حق عودة اللاجئين الى « اسرائيل والجزء من الارض التي تحتلها اسرائيل » ٠

وربما كان مفيدا اكثر للجميع انننتقل الان من التنفيذ السياسي الى العمل السينمائي للوصول الى قناعة ارسخ في هذه المعطيات ٠

في البدء ، كانت السينما صورة ٠ واليوم ، وبعد رحلة طويلة ، لا تزال الصورة تلعب دورها الرئيسي في الافلام٠ والمضمون السياسي لفيلم اوفنبرغ كان سيبدو نسبيا دون قيمة تذكر لولا مشاهد الفيلم الحديثة ووثائقه التاريخية ٠ ان احساس المتفرج مرتبط بالمشاعر التي تثيرها ( الصورة او تخلقها العلاقة بين الصوت والصورة في الفيلم ) واذا ٠٠٠ ما كان المشاهد يجهل لغة الفيلم ، فان الصورة ستكون آنذاك الحكم الفصل في الرأي والانطباع ٠

يعتقد سعيد مراد بان « المعالجة فيفيلم ماريو تعتمد على لغة الوثيقة والارقام والوقائع الحية لازاحة ركام التضليل الصهيوني ٠٠٠ الذي حاول ان يطمس حقيقة عروبة . اي فلسطينية ، كل ما في فلسطين من قرى ونواح واماكن ومدن ٠ بل ان المعالجة هدفت الى تبيان ان كل حجر في اسرائيل اصله عربي وان علاقة الصهيونية به انما هي علاقة تزييف واغتصاب ٠ حتى ان مدينة تل ابيب ليس فيها من « الاصالة » اليهودية سوى الاسماء التي اطلقتها الدولة الاسرائيلية على شوارع واماكن اشادتها بعد قيامها بعد ان هدمت اصولها وبدلت اسماءها العربية باسماء صهيونية » ٠

ونحن نعرف الآن بان ماريو اوفنبرغ هو استاذ في التاريخ ٠ وان كنا نجهل في اي تاريخ ٠ بيد ان فيلمه يحتوي على وثائق تسجيلية تاريخية ٠ والقاصي والداني في عالم السينما يعرفان بان التعليق على هذه الوثائق والمونتاج الذي يستخدمها ليسا ابدا حياديين ٠

ففي الفيلم ما يزيد عن ١٠ وثائق تاريخية تتراوح مدة عرضها بين عدة ثوان الى ما يربو على العشرين ثانية على التقريب ٠ وماريو اوفنبرغ الذي وجد في السينما التسجيلية اداة فعالة للتعبير عن رايه في القضية الفلسطينية لم يتردد لحظة واحدة عن استخدام هذه الوثائق على النحو الذي يروق له ٠ واستخدمها فعلا ليبين التناقض القائم بين الماضي والحاضر على ارض فلسطين وبين «العرب واليهود » ٠ وكرر استخدام ( الوثائق نفسها مثنى وثلاثا عند الحاجة ٠ هذا

الاختيار وهذا الاستخدام للوثائق همـــا اللـــذان ... سعـرا الغضب وأثـــارا الحماسة في جدال مهرجان لايبزغ حـول الفيلم . )

وحول احدى هذه الوثائق ، يقـــــول احد العرب المحتجين على عرض الفيلـــم في المهرجان المذكور « هذا الفيلم نوع من الدعاية الصهيونية اذ يظهـر العرب مع دوابهم وامتعتهم في هيئة زرية ».

اما سعيد مراد فيصرخ باعلى صوته : « لا تلتقطوا هذه المشاهد على نحو تجزيئي ابتر . فالوثيقة نادرة الاهمية عن تشريد الفلسطينيين عام ١٩٤٨ » .

وقبل ان نحلل دون صخب هده الوثيقة التاريخية وكيف استخدمها ماريو اوفنبرغ في الفيلم ليسمح لنا القارىء بان نقـــول رأينا بصراحة . ان ماريو اوفنبرغ استاذ التاريخ ، لم يلتزم على صعيد الصـــورة بالحقائق التاريخية . اكثر من هذا لقــــد اساء استخدام الوثائق التاريخيـــــــة سينمائيا ، كما اساء استخدامها سياسيا وهذا مؤشر جديد على نيته . لو كنـــــا ساذجين لا لتمسنا العذر لماريو اوفنبـــرغ في الاستخدام السيء للوثائق ولنسبنـــاه الى جهله في الفن السينمائي ولكــــــن تعمده هذا الاستخدام السيء وتكراره ذلك مرارا يدفعنا الى القول : استاذ التاريخ يزيف التاريخ .

التفاصيل : يظهر المشهد الذي وصفـــه سعيد مراد بوثيقة نادرة الاهمية عــــن تشريد الفلسطينيين عام ١٩٤٨ مجموعـــة من « البدو والفلاحين » الرحل مع دوابهم وامتعتهم في هيئة زرية وبنمط من الثياب يعود الى العقدين الاولين من هذا القرن، ورغبة منا في التأكد من الانطباعات رأينا الفيلم اكثر من مرة وامعنا النظر في هذه الوثيقة . ولدهشتنا اكتشفنا فيالمجموعة من يركب منهم على البقر ! نعم علــــى البقر .

سألت والدي وآخرين وكلهم مسن مـــن فلسطين عمـــــا اذا كان الفلاحــــــون الفلسطينيون يركبون البقر في عام ١٩٤٨. فنفوا ذلك نفيا قاطعا . واكدوا لي بـــأن « الغوارنة » فقط وهم قلة فــي فلسطين ـ ويسكنون المناطق المسماة تارة جفتلــــك وتارة اخــــرى البص كانوا يركبـــون الجواميس فقط في المستنقعـــات ( علــى حوافي نهر المفجر غربــــي الخضيرة ، بالقرب من الطنطورة وفي سهل الحولـــة مثلا ) حيث ينبت السمــــــار والحلفـــا المستخدم في صناعة الحصير وشجرالطرفا المستخدم في بناء البيوت في مطلــــــع القرن بفلسطين اما الفلاحون في فلسطين فقد كانوا يستخدمون ( العمال ) وصغيره يدعى « العلول » في الحراثة . ولكنهــم لم يستخدموا البقر ابدا ، للركوب . وقد ضعفت ظاهرة استخدام البقر في الحراثة في فلسطين كظاهرة اقتصادية رئيسيةفيما بعد نظرا لانتشار المكننة في الزراعة . ولم يكتف ماريو اوفنبرغ في استخدام هـــذه الوثيقة ضمن اطار « رحيل اللاجئين عام ١٩٤٨ » فقط وانما كررها ثلاث مرات فـــي الثلث الاول من الفيلم . وعرضها في المرة الاولى عندما كان الفلاح المسن عبد المجيد الرشيد يتحدث عن رفضه بيع الاراضـــي وفي المرة الثانية عندما كان الفلاح المسن الاخر مصطفى سليم معاد ينادي بحقــوق متساوية بين العرب واليهود وكان ســوء النية فاضحا عندما استخدمها ماريــــو اوفنبرغ للمرة الثالثة . فقد مررها فـــي الفيلم في الوقت الــــــذي كان فيه اودد بلوفسكي يتحدث عن سلب اراضي العرب واتبعها مباشرة بمشاهدة صهاينةيرقصون في حلبة رقص في كيبوتز وكهول وشبــاب منهم حسنو المنظر يفلحون الارض بجــــد وسعادة وختم المقطع كلـــه بمشهد لارض شديد الخضرة .

ان استخدام هذه الوثيقة التي لا تمت الى هجرة عام ١٩٤٨ بصلة وتكــــــرار

الاستخدام على النحو المبين اعلاه بعيد عن حسن النية · بل هو تزوير على التاريخ وايحاء سينمائي اقوى من التعليق المرافق له : فالناظر يسمع التعليق / سرقوا الارض / والصورة تؤكد له دونما اي تردد / منيح اللي سرقوها / ·

كان بودنا ان نقول ببساطة لقد اخطأ م· اوفنبرغ سينمائيا ، فهذا اول افلامه لولا ان هذا الاستخدام السيء للوثائق قد تكرر اكثر من مرة · لنأخذ مثلا آخر مشهد الفلاحات الفلسطينيات حافيات الاقدام يدسن بارجلهن الوسخة ماء البركة الذي يعبئنه في جرار الشرب ( العسليات) لقد استخدم م· اوفنبرغ هذا المشهدمرتين· وقد اردف المرة الاولى بمشهد لام اسرائيلية يرافقها صبيها وتدفع عربة طفل صغير ـ وكلهم حسنو المظهر ـ بهدوء في احد شوارع تل ابيب · ان التناقض بين المشهدين ، بين الاسود والابيض في الوثيقة والملون / الحديث في تل ابيب ، بين « الوسخ والتخلف » وبين « النظافة والمدنية » ليدفع اي مشاهد اجنبي لان يقول: الاسرائيليون يستحقون الحياة اما الفلسطينيون فلا ·

وهكذا ، واذا تكلم ماريو اوفنبرغ فعلا عن الاصول العربية في فلسطين فقد تكلم عنها التاريخ فقط · ان تكريسه عدة دقائق متواصلة لشوارع تل ابيب ودكاكينها ومقاهيها ، المصورة بشكل جميل وجذاب ينم عن اكثر من حب للمدينة · ان كلمات اودد بلوفسكي :

« ان الارض تنتظر الخلاص لانها ارض بدون شعب · هذا ما يشعر به الصهاينة،· تمر دون ان يصغي اليها احد وتبقى السيرانادا التي يغنيها م· اوفنبرغ لتل ابيب · ماريو افنبرغ الذي يعرف نفسه كـ « ماركسي تقدمي » لا يتذكر على الاطلاق آنذاك ان الشاب الفلسطيني احمد مصاروة قد قال له قبل دقائق ـوبالعبريةـ بأن فلاحي قريته عرعرة اصبحوا عمالا في تل ابيب · ومن الواضح تماما ان اوضاع العمال الفلسطينيين المضطهدين قوميا والمستغلين طبقيا في تل ابيب لا تهم ماريو اوفنبرغ المشغول بافتتانه بهذه « المدينة الحية » ·

ان فيلم « النضال من اجل الارض او فلسطين في اسرائيل » يهدف على المستويين السياسي والسينمائي الى الدعوة لتعايش اللاجئين الفلسطينيين مع دولة اسرائيل · يكرس ما هو قائم · ورغم انتقاده الاستمرار في سياسة مصادرة الاراضي العربية ( التي لم يبق منها الا القليل في ارض ١٩٤٨ ) ورغم مطالبته بتحسين اوضاع القرى العربية ( مد الكهرباء مثلا ) ، فانه يظهر الوجود الوطني الفلسطيني عبر الوثائق التسجيلية القديمة كوجود هامشي ، مهلهل تاريخيا، لشعب لا يستحق الحياة · ولا ينبس الفيلم ببنت شفة عن نضالات الشعب الفلسطيني والجماهير العربية ضد الاستعمار البريطاني وضد الحركة الصهيونية · والعجيب ان ماريو اوفنبرغ استاذ التاريخ فضل شراء وثائق تسجيلية عن شيوخ بدو وخيامهم وقهوتهم ووثائق اجتماعية عن «الغوارنة » فقط ، بدلا من شراء وثائق تتكلم عن مجمل الشعب الفلسطيني ونضالاته ومظاهراته في اعوام ١٩١٩ و ١٩٢٠ و ١٩٢١ او عن انتفاضة ١٩٢٩ او عن ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ او عن جهاد ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ · اكثر من هذا . لا يوجد اي اثر في الفيلم ايضا عن التواطؤ القائم منذ البدء بين الحركة الصهيونية والاستعمار والامبريالية · فالمقارنة بين مدينة تل ابيب اليوم وبين بدو الفلسطينيين في اوائل القرن تستلزم من اي شخص صادق مع نفسه ـ سواء كان ، ماركسيا ام لا ان يقول بان هذا التطور قد تم بمساعدة الامبريالية الامريكية التي تؤمن منذ خلق دولة اسرائيل ما يقارب من ٥٠٠ مليون دولار

سنويا للكيان الصهيوني · كما ان العجب يأخذنا عندما نرى هذا الماركسي وهو يلخص النشاطات الاقتصادية للشعب الفلسطيني خلال النصف الاول من هذا القرن ( كتلقيط الزيتون وعصر الزيت وقطف البرتقال ودرس القمح ) في ٢٥ ثانية من اصل ٤٦ دقيقة للفيلم ·

هل يمكن بعد هذا كله ان نستنتج بان ماريو اوفنبرغ صهيوني ؟

من الصعب الاجابة على هذا السؤال اذا كان فعلا ينوي القيام باخراج سلسلة من الافلام للاحاطة بالقضية الفلسطينية · ولكننا نستطيع ان نقول بان فيلمه هذا لا يخرج سياسيا عن اطار « الصهيونية الحديثة » او الصهيونية « الليبرالية » التي بدأت تطالب تحت ضغط تطور النضالات المختلفة للشعب الفلسطيني وللمنجزات التي حققتها ثورته في داخل الوطن المحتل وفي خارجه ، بتحسين اوضاع العرب تحت « سيادة اسرائيل الكبرى » · ومثل هذه الافلام تلقى رواجا في الغرب ولكن من المبالغة التصور بانها ستعرض مرارا سواء في الوطن العربي او في اسرائيل · أن الغرب المتعطش لحل الصراع العربي — الصهيوني بغية تأمين النفط لصناعته والامن لدوله ، سيرى في هذا الفيلم اولا وقبل كل شيء حسن نية الاسرائيليين ازاء الفلسطينيين « دون ان يقدم الفيلم اي تنازل جوهري عن الاهداف الصهيونية » ( استمرار الاحتلال نفي الوجود الوطني للشعب الفلسطيني·· الخ ) ·

— فقط نشير الى ان ماريو اوفنبرغ درس في كتابه « الشيوعية في فلسطين ، الامة والطبقة مع الثورة المعادية للاستعمار » افكار الصهيوني الاشتراكي ، بوروشوف ، منظر حركة البوعالي تسيون ، وربما تأثر بها :

« كان بير بوروشوف يسمي مواطني فلسطين العرب بالسكان المولودين في فلسطين وقد اكد على انهم لا يمتلكون اية ثقافة قومية خاصة بهم وليس عندهم اية صفات قومية مميزة · ومن هنا فانهم سيقبلون بأية ثقافة مستوردة تكون على مستوى اعلى من ثقافتهم وسيكونون عاجزين عن ابداء اية مقاومة منظمة ضد التأثيرات الخارجية ولن يستطيعوا الدخول في منافسة قومية ( على العمل ) ·· »

وقد استنتج بوروشوف بان السكان العرب في فلسطين « سيندمجون اقتصاديا وثقافيا مع من يضمن النظام في البلاد ويعمل على تطوير القوى الانتاجية » ·

( راجع شؤون فلسطينية عدد ٧٠ ، ايلول ( سبتمبر ) ١٩٧٧ ) ·

لقد افرحتني رؤية الخضرة الزمردية لجنان فلسطين التي صورها الفيلم بجمالية عالية · وقد ذكرني سور الصبر امام قرية صفورية ، وهو علامة مميزة لقرى فلسطين بلوحات الفنانة الفلسطينية جمانة الحسيني ، وكنت اسعد ما اكون عندما رأيت الاجتماع الحاشد بمناسبة يوم الارض ( ٣٠-٣-١٩٧٧ ) والجماهير تفد اليه هاتفة : « بالروح بالدم نفديك يا جليل » ·

وتذكرت مظاهرات شعبنا في الضفة الغربية ، وفي قطاع غزة ، وفي لبنان وغيره وهي تقسم : « بالروح بالدم نفديك يا فلسطين » أن الوحدة الوطنية لشعب فلسطين فيداخل الارض المحتلة وخارجها هي اهم منجز حققته الثورة الفلسطينية منذ انطلاقتها · وهذا ما تجاهله كلية فيلم ماريو اوفنبرغ ·

وفي هذا الفيلم وعلى الطريق بين يافا وتل ابيب يهيم عربيان ، تماما كما يهيم هندي احمر في مدن الكاوبوي الامريكية· وبدا هذان العربيان امام أحد جوامع يافا المتداعية وامام شجرة نخيل كرمز للذاكرة وللماضي الذي مهما تحسر عليه

الانسان يبقى ماضيا لن يعود ٠

ان فلسطين ليست طيفا ٠ ولن تكون ، كما زعم عنوان الفيلم « في اسرائيل ، » فلسطين ماض وحاضر ومستقبل ٠ وابلغ رد على زعم ماريو اوفنبرغ هو ما قاله الفلاح الفلسطيني المسن عبد المجيد الرشيد وقد عبر عنه بكلمات بسيطة ثابتة مليئة بارادة النضال : « منذ ٣٠ سنة وهذه الحالة مستمرة ، لا اريد ان ابيع ارضي ٠٠ وهياني » ٠

بعد كل هذا لا بد من السؤال : هل يستحق فيلم ماريو اوفنبرغ جائزة م٠ت٠ف ؟

فيلم م٠ اوفنبرغ سيغيظالصهاينة ـالكلاسيكيين وبعض الإسرائيليين لتركيزه الاضواء على الاصول العربية لفلسطين ولتنديده بالاستمرار في سياسة سلب الاراضي العربية ٠ ولكنه في ذات الوقت سيغيظ كثيرا من العرب والفلسطينيين لانه تكلم عن القضية الفلسطينية كقضية لاجئين سلبوا منإراضيهم ولانه طرحلا (سياسيا لمشكلتهم ضمن اطار السيادة الاسرائيلية على فلسطين ولانه تناسى ٠٠٠ ) او اغفل عمدا الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني٠

ربما يستحق الفيلم جائزة لجراءته على اغاظة الصهاينة الكلاسيكيين ٠ وان كنت لا ادري من هي الجهة المخولة بمنحه هذه الجائزة ؟ اما موقف الوفد السينمائي الفلسطيني لمهرجان لايبزغ فهو موقف خاطيء في رأيي ٠

وكان اعطاء جائزة م٠ت٠ف٠ لفيلم ماريو أوفنبرغ المرة السادسة التي تعطى فيها هذه الجائزة لفيلم ، على حد علمي٠ ونظرا لانه لا يوجد حتى الان اي توثيق لهذا الامر فمن المفيد ادراج قائمة الافلام الممنوحة حتى اليوم ( رغم احتياج هذه المعلومات الى تدقيق أوفر ) كما يلي :

١ ـ فيلم « اغنية على الممر » للمخرج علي عبد الخالق ـ مصري ، المناسبة : المهرجان الدولي الاول (والاخير حتى الان) لسينما الشباب، دمشق ١٩٧٢٠

٢ ـ فيلم « حتى آخر رجل » ، انتاج سوري ، المناسبة ٠ المهرجان الدولي الاول ( والاخير حتى الان ) لسينما الشباب ، دمشق ١٩٧٢ ٠

٣ ـ فيلم « بلادي » للمخرج فرانسيس روسر ، سويسري ، المناسبة : المهرجان الدولي الاول لافلام وبرامج فلسطين ـ بغداد ـ ١٩٧٣ ٠

٤ ـ فيلم « ميلاد امة » عن نضال غينيا ـ بيساو ، اخراج مجموعة من السويديين ، المناسبة : الايام السينمائية لقرطاج ، المكان والزمان تونس ـ ١٩٧٤٠

٥ ـ فيلم « كفرقاسم » الايام السينمائية لقرطاج ، تونس ـ ١٩٧٤ ٠

٦ ـ فيلم « النضال من اجل الارض او فلسطين في اسرائيل » ، المخرج ماريو اوفنبرغ ـ اسرائيلي ، المناسبة المهرجان العشرين للافلام التسجيلية والتلفزيونية لايبزيغ ـ ١٩٧٧ ٠

٧ ـ فيلم « الفلسطيني » ، المخرج رؤي باترزياي ـ بريطاني ، فانيسا ريدغريف ـ بريطانية ، المناسبة المهرجان الدولي الثالث لافلام وبرامج فلسطين ، بغداد ـ ١٩٧٨ ٠

وقد اصبح اسم جائزة م٠ت٠ف٠ السينمائية « جائزة هاني جوهرية » منذ استشهاده في يوم ١١ـ٤ـ١٩٧٦ ٠

ومن المفترض منح هذه الجائزة للفيلم الذي تنطبق عليه الاهداف التي ناضل واستشهد من اجلها هاني جوهرية ورفاق له : ان يعبر الفيلم بشكل فني عن النضال ضد الصهيونية والامبريالية والرجعية ، ضد العنصرية والفاشية ، من اجل

الدفاع عن حرية الشعوب ودعم حركات التحرر وتأييد الكفاح المسلح الذي يخوضه الشعب الفلسطيني بغية استعادة حقوقه الوطنية الثابتة ومن اجل ان تكون فلسطين ديمقراطية ·

وحتى لا تتكرر الاجتهادات الفردية، لتجنب اخطاء سياسية فادحة فقد آن الاوان لـ م·ت·ف· ان تقوم بالتعاون مع مؤسسة السينما الفلسطينية ( التي بادرت بخلق هذه الجائزة وبمنحها منذ عام ١٩٧٢ ) باعداد قواعد ومبادىء لمنح هذه الجائزة وتعيين لجنة مسؤولة عن ذلك حتى نكرم الافلام التي تستحق فعلا التكريم ونوفر لاصدقائنا جوا يسمح لهم بتفهم موقفنا تفهما واضحا ·

عز الدين القلق

# جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ١٦/٤ - ١٢/٦/١٩٧٨

| الرقم | تاريخ العملية: اليوم | الساعة | موقعها | نوع العملية | السلاح المستعمل | خسائر العدو البشرية: قتيل | جريح | خسائر العدو المادية | خسائر المقاومة: شهيد | جريح | مفقود | المصدر – البلاغ العسكري: رقم | تاريخ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ١ | ١٦ـ٤ـ٧٨ | ١٠ر١٥ صباحا | عنديا – شمال القدس سيارة باص تابعة لشركة « دان » | هجوم | عامل حارقة | – | غير محدد | – اصابة الباص اصابة مباشرة . – اصابة عدد غير محدد من العسكريين | – | – | – | ٣٥ـ٧٨ | ١٦ـ٤ـ٧٨ |
| ٢ | ١٧ـ٤ـ٧٨ | ١٤ر٣٠ | القدس – الحي التجاري | تفجير | عبوة ناسفة موقوتة | – | غير محدد | – تدمير اجزاء كبيرة من المحل التجاري واتلاف معظم محتوياته . – اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بجراح | – | – | – | ٣٦ـ٧٨ | ١٨ـ٤ـ٧٨ |
| ٣ | ٢٣ـ٤ـ٧٨ ٢٤ـ٤ـ٧٨ | ٧ر١٥ صباحا | القدس ونابلس | تفجير وهجوم | عبوات ناسفة وقنابل حارقة | – | غير محدد | – تدمير السيارة وتحطيم معظم الزجاج في الابنية المجاورة . – اصابة جميع افراد العدو المتواجدين في داخلها – احراق باص وجرح السائق ومعاونه . | – | – | – | ٣٧ـ٧٨ | ٢٥ـ٤ـ٧٨ |
| ٤ | ٢٨ـ٤ـ٧٨ | ٧ر٣٠ صباحا | جلعتايم – شمال شرق تل ابيب مبنى مخابرات العدو | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة شديدة الانفجار | غير محدد | غير محدد | – تدمير مدخل المبنى تدميرا تاما وتصدع جدرانه – تدمير واعطاب عدد من سيارات العدو . – قتل وجرح عدد من افراد العدو . | – | – | – | ٣٨ـ٧٨ | ٢٩ـ٤ـ٧٨ |
| ٥ | ٢٦ـ٤ـ٧٨ | صباحا | نابلس – ميدان الساعة | هجوم | قنابل يدوية | ٢ | ٦ | – مقتل اثنين واصابة ستة اخرين . – اصابة الباص وتحطم مقدمته . | – | – | – | ٣٩ـ٧٨ | ٢٨ـ٤ـ٧٨ |
| ٦ | ٤ـ٥ـ٧٨ | ١٤ر٤٥ | حيفا – المحطة المركزية للباصات | تفجير | عبوات ناسفة مشركة | | ٦ | – اكتشفت العبوات ثم انفجرت اثناء تفكيكها – اصابة (٦) افراد من شرطة العدو . – اصابة الباص باضرار بالغة . | – | – | – | ٤٠ـ٧٨ | ٥ـ٥ـ٧٨ |
| ٧ | ٤ـ٥ـ٧٨ | ١٦ر٠٠ | القدس – المحطة المركزية للباصات | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | – | غير محدد | – تفجير الباص اثناء توقفه – تضرر نتيجة الانفجار عدد من الباصات الصهيونية المتواجدة داخل المحطة . | – | – | – | ٤١ـ٧٨ | ٥ـ٥ـ٧٨ |
| ٨ | ٦ـ٥ـ٧٨ | ٢٢ر٠٠ | القدس – المنشآت الحكومية | هجوم | صواريخ ثقيلة | غير محدد | غير محدد | – قتل وجرح عدد من افراد العدو . – تدمير وتصدع عدد من المنشآت – تدمير عدد من سيارات العدو . – تعطيل التيار الكهربائي في مدينة القدس . | – | – | – | ٤٢ـ٧٨ | ٧ـ٥ـ٧٨ |
| ٩ | ٨ـ٥ـ٧٨ | ١٦ر٣٠ | القدس – احد باصات العدو | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | غير محدد | غير محدد | – قتل وجرح عدد من افراد العدو . – تدمير اجزاء كبيرة من الباص وتحطيم معظم محتويات المطعم . | – | – | – | ٤٣ـ٧٨ | ٩ـ٥ـ٧٨ |
| ١٠ | ٨ـ٥ـ٧٨ | ١٧ر٠٠ | طريق البحر الميت – القدس احد باصات العدو | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | غير محدد | غير محدد | – قتل وجرح عدد من افراد العدو . – تدمير جزء كبير من الباص واتلاف محتويات الاستراحة . | – | – | – | ٤٤ـ٧٨ | ٩ـ٦ـ٧٨ |
| ١١ | ٨ـ٥ـ٧٨ | ١٧ر٣٠ | نابلس – مكتب العمل الصهيوني | تفجير | عبوات ناسفة مشركة | ١ | – | – مقتل خبير المتفجرات الصهيوني . – اصابة مكتب العمل الصهيوني باضرار بالغة | – | – | – | ٤٥ـ٧٨ | ٩ـ٥ـ٧٨ |
| ١٢ | ٨ـ٥ـ٧٨ | ٢ر٠٠ صباحا | مجدال هعميك – غربي طبريا | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | – | – | – تدمير السيارتين تدميرا تاما . – تحطيم زجاج مركز الشرطة ومعظم الابنية | – | – | – | ٤٦ـ٧٨ | ٩ـ٥ـ٧٨ |

احــراج

| | | | | | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ١٤ | ٧٨_٥_١١ | ١٦٫٠٠ نابلس ـ الميدان الرئيسي | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | ١ | غير محدد | ـ مقتل خبير المتفجرات ٠<br>ـ اصابة عدد من جنود العدو المتواجدين هناك | – | – | – | ٨٧_٤٨ | ٧٨_٥_١٣ |
| ١٥ | ٧٨_٥_١٢ | ٧٫٤٥ صباحا تل ابيب ـ شارع اوياح | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | غير محدد | غير محدد | ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بين قتيل وجريح<br>ـ اتلاف معظم محتويات المحل التجاري | – | – | – | ٧٨_٤٩ | ١٨_٥_١٢ |
| ١٦ | ٧٨_٥_١٥ | ٢٢٫٥ المرانس ـ ميناء حيفا | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | ـ | ٧ | ـ احراق مناجر الكيشون ٠<br>ـ تدمير واحراق مخازن التموين ٠<br>ـ اتلاف مستودعات شبكة الكهرباء ٠<br>ـ احراق مستودعات الالات الزراعية ٠ | – | – | – | ٧٨_٥٠ | ٧٨_٥_١٨ |
| ١٧ | ٧٨_٥_١٧ | ظهرا ايلات ـ شركة مياه « ميكروت » | تفجير | الغام مضادة للافراد | ـ | ٣ | ـ اصابة ثلاثة من مهندسي الشركة بجراح ٠ | – | – | – | ٧٨_٥١ | ٧٨_٥_١٨ |
| ١٨ | ٧٨_٥_١٧ | ٧٫٣٠ صباحا بني براك ـ شارع مكبشورمصنعلفالورق | تفجير | عبوات ناسفة حارقة | ـ | غير محدد | ـ تدمير احد المستودعات تدميرا كاملا ٠<br>ـ اصابة عدد من افراد العدو ٠<br>ـ اعطاب شاحنتين تعملان في نقل الورق ٠<br>ـ تصدع عدد من جدران مباني المستودعـــات والمصنع ٠ | – | – | – | ٧٨_٥٢ | ٧٨_٥_١٨ |
| ١٩ | ٧٨_٥_٢ | ٢٫٠٠ بني براك/شمال تل ابيب | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | غير محدد | غير محدد | ـ تدمير اربع شقق من المبنى تدميرا تاما ٠<br>ـ تصدع جدران المبنى<br>ـ تحطيم نوافذ وزجاج الابنية المجاورة<br>ـ تدمير عدد من السيارات القريبة ٠ | – | – | – | ٧٨_٥٣ | ٧٨_٥_٢٠ |
| ٢٠ | ٧٨_٥_١٩ | ٢٫٠٠ برديس كات / تل ابيب | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | غير محدد | غير محدد | ـ تدمير طابقين من المبنى وتحطم زجاج البنايات<br>ـ قتل وجرح عدد من افراد العدو | – | – | – | ٧٨_٥٤ | ٧٨_٥_٢٠ |
| ٢١ | ٧٨_٥_٢ | ٢٢٫١٥ معسكر عسكر / نابلس | هجوم | قنابل حارقة | غير محدد | غير محدد | ـ ايقاع خسائر فادحة في صفوف القوات الصهيونية التي طلبت النجدة ٠ | – | – | – | ٧٨_٥٥ | ٧٨_٥_٢١ |
| ٢٢ | ٧٨_٥_٢٣ | ١٩٫١٥ اوريهودا / تل ابيب | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | غير محدد | غير محدد | ـ اصابة عدد غير محدد من افراد شرطة العدو<br>ـ تدمير جزء كبير من المبنى<br>ـ اصابة عدد من سيارات الشرطة المتواجدة امام المبنى | – | – | – | ٧٨_٥٦ | ٧٨_٥_٢٤ |
| ٢٣ | ٧٨_٥_٢٣ | ٢١٫٢٥ كريات اونو/جنوب شرق بتاح تكفا | تفجير | عبوات ناسفة حارقة | غير محدد | غير محدد | ـ اصابة عدد من حراس مركز الشرطة<br>ـ تدمير عدد من سيارات الشرطة | – | – | – | ٧٨_٥٧ | ٧٨_٥_٢٤ |
| ٢٤ | ٧٨_٦_٢ | ١٢٫٠٠ القدس/ احد باصات شركة ايجد | تفجير | عبوات ناسفة لاصقة | ٦ | ٤١ | ـ مقتل اكثر من (٦) افراد من العدو<br>ـ جرح حوالي (٤١) من افراد العدو<br>ـ تدمير الباص تدميرا تاما<br>ـ اعطاب عدد من السيارات المجاورة<br>ـ اعطاب شركة الكهرباء | – | – | – | ٧٨_٥٨ | ٧٨_٦_٣ |
| ٢٥ | ٧٨_٦_٢ | ٧٫٣ القدس/ حديقة ماميلا | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | غير محدد | غير محدد | ـ قتل وجرح عدد من افراد العدو | – | – | – | ٧٨_٥٩ | ٧٨_٦_٣ |
| ٢٦ | ٧٨_٦_٢ | منتصف الليل حيفا/السوق المركزي | تفجير | عبوات حارقة موقوتة | غير محدد | غير محدد | ـ نشوب حريق كبير داخل السوق<br>ـ اصابة عدد من افراد العدو<br>ـ التهمت النيران جميع المحتويات | – | – | – | ٧٨_٦٠ | ٧٨_٦_٣ |

| الرقم | تاريخ العملية اليوم | الساعة | موقعهـــا | نوع العمليه | السلاح المستعمل | خسائر العدو البشرية قتيل | جريح | خسائر العدو المادية | خسائــر المقاومـه شهيد | جريح | مفقود | المصدر ـ البلاغ العسكري رقم | تاريخ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ٢٧ | ٧٨_٦_٦ | ١٠ر٧ | طريق رام الله/الباص تابع لشركة دان | هجوم | قنابل حارقة | ـ | ـ | ـ تدمير الباص واحراقه بالكامل | ـ | ـ | ـ | ٧٨_٦١ | ٧٨_٦_٧ |
| ٢٨ | ٧٨_٦_١٢ | ر٢ | محولا/الاغوار الشمالية | اقتحام | قذائف صاروخية قنابل يدوية اسلحة خفيفة ورشاشات | ـ | ـ | ـ اصابة اهداف العدو العسكرية والمنشـــات الحيوية في المستعمرة . | ١ | ـ | ـ | ٧٨_٦٢ | ٧٨_٦_١٢ |
| ٢٩ | ٧٨_٦_١١ | ١٥ر٢٠ | نابلس/مكتب العمل الصهيوني | هجوم | قنابل حارقة | ـ | ـ | ـ اصابة المكتب اصابات مباشرة<br>ـ اتت النيران على جميع محتوياته | ـ | ـ | ـ | ٧٨_٦٣ | ٧٨_٦_١٢ |
| ٣ | ٧٨_٦_١١ | ١٧ر٣ | القدس/غابات كنيدي | تفجير | عبوات حارقة موقوتة | ـ | غير محدد | ـ نشوب حريق هائل داخل الغابات<br>ـ تدمير معظم التجهيزات العسكرية المبنية<br>ـ اصابة عدد من جنود العدو | ـ | ـ | ـ | ٧٨_٦٤ | ٧٨_٦_١٢ |
| ٢١ | ٧٨_٦_١١ | ١٨ر٤٥ | حيفا/شركة « اتا » | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | ـ | ـ | ـ نشوب حريق هائل امتد الى بقية المعامـــل واتى على معظم محتوياتها من آلات ومواد خام<br>ـ تدمير اجزاء كبيرة من القسم | ـ | ـ | ـ | ٧٨_٦٥ | ٧٨_٦_١٢ |
| ٢٢ | ٧٨_٦_١٢ | ١٢ر٥ | الباص رقم (٢٥) التابع لشركة ايجد والعامل على خطوط القدس الداخلية والخارجية | تفجير | عبوات ناسفة موقوتة | ـ | ـ | ـ اصابة الباص باضرار بالغة . | ـ | ـ | ـ | ٧٨_٦٦ | ٧٨_٦_١٢ |

١ ـ اعترف العدو بالعملية في نشرته الاخبارية بقوله : « عند الظهر اصيب اربعة جنود بجروح ، من جراء القاء زجاجة حارقة الى داخل سيارة باص كانت تمر على مقربة من مخيم اللاجئين قلنديه » .
( رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ١٤٦٢، ص ١١٨ ، الساعة ١٩ر الاحد ١٦ـ٤ـ١٩٧٨ ) .

٦ ) في برنامج الظهيرة ، اعترف العدو بالعملية حيث قال : « وصلت الشرطة وبدأت بفحص الرزمة ، فانفجرت وادى الانفجار الى الحاق اضرار بحانوتين واصيب ثلاثة اشخاص بجروح ، من بينهم خبير الشرطة الذي عالج الرزمة ، وجروحه خفيفة » .
( رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ١٤٧٨، ص ٥٠ ، برنامج الظهيرة ، الخميس ٤ـ٥ـ١٩٧٨ ) .

١٦ ) اعترف العدو في نشرته الاخبارية بالحريق الذي نشب من جراء العملية اذ قال : « شب حريق هائل استمر طوال الليل في المعارض الصناعية ، في منطقة خليج حيفا وتقدر الخسائر بملايين الليرات واصيب اربعة من رجال الاطفاء بجروح تتراوح بين الخفيفة والمتوسطة ، واضاف يقول : حصل حريق المنجرة ، اشتعلت النيران في منجرة نتشون ، وفي صالون حلاقة مجاور ، ( .... ) ، وفي مستودع للانابيب الكهربائية » .
( رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ١٤٨٦، ص ١٧٤ ـ ١٧٥، الساعة ٠٠ر٧، الثلاثاء ١٦ـ٥ـ١٩٧٨ ) .

٢٢ ) اعترف العدو بالعملية في نشرته الاخبارية حيث قال : « القيت الليلة قنبلة يدوية على مركز الشرطة في اور يهودا لم تقع اصابات وكان الانفجار لاسباب اجرامية » .
( رصد اذاعة اسرائيل ، الاربعاء ٢٤ـ٥ـ١٩٧٨ ، الساعة ٠٠ر٧ ، ص٢٩٤، العدد رقم ١٤٩٣ ) .

٢٤ ) ورد نبأ العملية في « شريط الاسبوع » : قالت الاذاعة : « قتل في حادث انفجار الباص في « حي » بايت وجان » في القدس ستة اشخاص، واصيب حوالي العشرين بجراح ، اربعة منهم جراحهم خطيرة » .
( رصد اذاعة اسرائيل ، الجمعة ٢ـ٦ـ١٩٧٨ ، ص ٣ ، العدد رقم ١٥٠٢ )

٢٨ ) تصدرت عملية « محولا » انباء الصباح في نشرة العدو العبرية بقوله : « تم فجر اليوم احباط محاولة قام بها مجموعة « مخربين » للتسلل الى مستوطنة محولا ، شمالي غور الاردن ، وهي مجموعة من اربعة افراد ، وقع الحادث في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وخلال تبادل اطلاق النار بين حراس المستوطنة وبين «المخربين» ، قتل احد المخربين ، ولاذ الثلاثة الباقون بالفرار » .
( رصد اذاعة اسرائيل ، الاثنين ١٢ـ٦ـ١٩٧٨ ، ص ١٥٣ ، العدد ١٥٠٨).

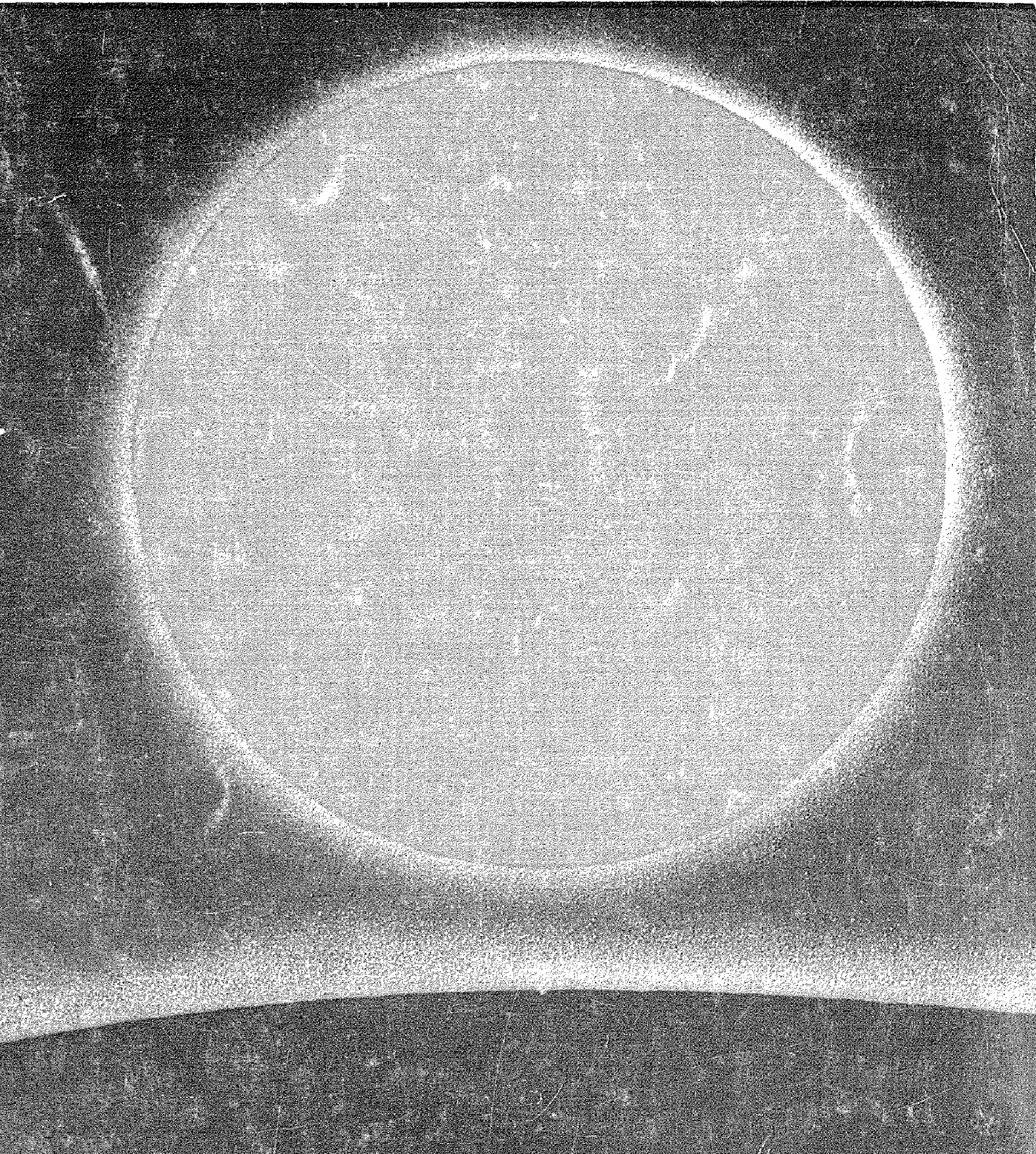
# Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Mahmoud Darwish; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 60. other Arab countries L L 75 or equivalent. Europe L L 100 elsewhere L L 125; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 65. *Address*: P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351261; Cables: MARABHATH.

السعـــر: ٥ ل.ل. في لبـــنان
٦ ل.س. في سوريـــا
٦٥٠ فلســاً في الكويـت والعـراق
١٠ دراهم في دولـة الامارات العربيـة
٦ ل.ل. في سـائر الاقطـار العربيـة
٨٥٠ درهــماً في ج.ع.ل.

# شؤون فلسطينية

٨٢/٨١ آب ( أغسطس ) ايلول ( سبتمبر ) ١٩٧٨



# شؤون فلسطينية

رئيس التحرير: محمود درويش
سكرتير التحرير: الياس خوري

آب (أغسطس) ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ — ٨٢/٨١

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية


جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين ٠


**العنوان** : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني ( متفرع من السادات ) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص٠ب ١٦٩١ ٠ **تلفون** : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت ٠

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي ( بريد جوي ) ، ٦٠ ل٠ل٠ في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل٠ل٠ في اوروبا ، ١٢٥ ل٠ل٠ في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي ( بريد عادي ) ٠ ٦٥ ل٠ل٠ في جميع الدول غير العربية ٠

الغلاف : للفنان الايطالي ماريو سامونا

# القفص

واخيرا ، محاكمة ·

سالنا : هل يحضر المتهم ؟ فابتسمت قافلة المسافرين الى دمشق · وقال ضابط على الحدود : ماذا ستفعلون به ؟ قلنا : سنتلو او نستمع الى تلاوة لائحة الاتهام ·

وكنا نتساءل في صمت : هل تاخرنا قليلا ام كثيرا ؟ لقد دق جرس الانذار مبكرا ، وكان على النيل ان يعرف ان مجرد تحول هذا الفرد ـ هذا النوع من الافراد ـ الى احتمال حكم ، يعني ان نواطير مصر نامت عن ثعالبها · ويعني ان في العالم الثالث كله خللا · ويعني ان المحاكمة ستشمل البناء ، والمرحلة ، وشروط الطاعة ·

ولكن النيل لا يصب في نهر آخر · وكان واضحا لمن اكتوى بالرمل ان اقامة الجندي في هذه الرمضاء ستحوله الى يد فولاذية لاقتحام الماء الازرق المغسول بالدم ، ليس من أجل الوطن وحده ، بل من اجل الخلاص من مقبرة الرمل · ولكن القناة على الارض شيء ، وعلى خارطة الحاكم شيء آخر ، فهي ليست اكثر من خيط رفيع من الماء يفضي الى رمل آخر · ان مثل هؤلاء الحكام غير قادرين على التمييز بين حبة الرمل وبين التاريخ الانساني الذي يحمله قلب فلاح من الصعيد ، لان له طريقة خاصة في تحديد اعدائه · فاعداؤه هم اولئك الحفاة الذين يمرون بالقصر على مهل دون ان يسالوا : لماذا نطيع ؟ واعداؤه هم اولئك الطلبة الذين يتدربون على صياغة السؤال : لماذا نطيع ؟ أما الغزاة الذين يذلون مصر والامة فهم اصدقاء المستقبل ، هم الشهوة المكبوتة ، والوعد الاميركي الجميل ·

الى اين تتجه المدافع اذن ؟ واية حرب نخوض ؟ لذلك كان على الذين لم يعرفوا حقيقة انقلاب الخامس عشر من أيار ان يعرفوا ان هذه النهاية لم تات من زاوية

الانعطاف ، بل من نقطة البداية · وان زيارة القدس ، كانت حتمية المسار دون ان تحتاج الى ارتداء هذا الشكل من الطقوس والتفاصيل · وان الحاكم المصري لم يعلن الحرب على مصر من مطار اللد عندما كان يعانق جنرالات اسرائيل ، وانما اعلن عليها الحرب حين منع جنود مصر العظيمة من اجتياز الرمال ·

ولنا تقاليد · نحن دائما ناتي الى السؤال متاخرين · لذلك نسأل : هل حضر المتهم ؟ تصمت قافلة المسافرين الى وقت الاعلان عن المحاكمة · ولكن رئيس وزراء الغزو الصهيوني السابق يجيب عن السؤال ، ومصر ذاهبة الى ذكرى ٢٣ يوليو : « ان هدف السادات البعيد المدى هو ان يضم اسرائيل الى مجموعة دول الشرق الاوسط التي ستتصدى للمد السوفياتي · وان الخطر السوفياتي يقوم مقام الصراع العربي ـ الاسرائيلي في نظر المصريين · والسادات مشغول البال من التغلغل السوفياتي في البحر الاحمر وفي القارة الافريقية » ·

انه ذاهب حتى آخر التسوط ، متفائل حتى الجنون · ولا احد يوقفه · لا احد يوقف هذا التدهور · ونحن نقرأ لائحة الاتهام التي يغذيها كل يوم بجريمة جديدة ، لان الحاكم العربي لا يحاكم · الهذا السبب يبتسم الجميع ؟· ولا تكفي اصابع اليدين لاحصاء عدد المتهمين ؟ ولماذا لا يسقط الساقط وحده ، ولا ينهار المنهار ؟ وهل تعوض قوة القانون عجز السياسة الذي جعل من مسار النظام المصري انعطافا لاتجاه المنطقة في غياب الفاعلية الثورية المضادة ؟

لن نحزن على رجال القانون والباحثين الذين يسهرون الليل ليبرهنوا لنا على ان الحاكم المصري قد خالف القانون ·

ان كلمة ما يجب ان تقال ، لكي لا نكون جميعا موتى · لا احد يرجو من الحاكم شيئا ، لا احد يتوقع منه غير المزيد من الخيانة ، ولا احد يوقف التدهور · ولكن كلمة ما يجب ان تقال ، لكي لا يكون المناخ كله فاسدا ، ولكي لا يصدق مزيد من الابرياء الذين يأتيهم الوعي الوحيد من اذاعة القاهرة ان الخبز ياتي من فرن الاستسلام ·

وهذا هو حزني الوحيد : كيف تخرج قرية في الصعيد ، بنقرها وقبرها ، بأهلها ورملها ، لتهتف : يحيا بيغن !· اية عملية بناء نفساني استطاعت ان تضع جائعي مصر امام رجاء نبوي بان يأتيهم هذا الحاكم بصحن فول من قبر الجندي الاسرائيلي المجهول ، الذي دفن الافا من بنيهم في رمال سيناء ، وعلى امتداد مدن السويس ، فحمل اليه حاكمهم باقة ورد ؟·

من أجل حماية هذا الوعي تكون المحاكمة · واخيرا محاكمة · ولا احد يتوقع شيئا ، لان الجميع يسألون عن الجدوى والفاعلية ، وعن السبب الذي حول الرد على اخراج مصر من المعركة ومن السياسة الى مسألة قانونية لا تغطي العجز عن بناء الجبهة المضادة ، وعن اعادة الصراع العربي ـ الاسرائيلي الى محور العلاقات العربية وتحديات الامة · فمنذ الزيارة حتى الآن تفككت مقولة الصراع ، وصارت اكثرية الانظمة العربية تحارب على جبهات اخرى ، وصار الاستقلال الوطني يعني التوغل في الغاء التناقض بين حركة التحرر العربية وبين الامبريالية من جهة ، والتلخص الاحمق من علاقات الصداقة والتحالف مع القوى الثورية

العالميـة مـن جهـة ثانية · واسـتبدل عدو الامة الصهيوني بابتكار الخطـر السوفياتي ·

·· فوضى في المفاهيم واللغة والتحالفات ، ولم يعد التحدي الصهيونـــي يوحدنا · وتتم الوحدة على مستوى آخر : اقرأوا قرار الجامعة العربية ضد اليمن الديموقراطي جيدا · وراقبوا ما تحت سطح التحركات العربية ، بعد احــــداث افغانستان ، مليا · واقرأوا الخطب الرسمية بقليل من سوء النية · فليس التضامن العربي مستحيلا اذا كان محتواه الجديد ادعاء الخوف من الخطر الشيوعي الـذي اصبح اسما مستعارا للتخلي عن المهام الحقيقية· ولا تسالوا : من هم اعداء العرب؟ فكل الارض حررت ، وعاد اللاجئون الى اوطانهم ، وعم الرخاء القارة الممتدة من البحر الى البحر ، ولم يبق في السجون معتقل سياسي واحد ، ولم تعد الكوكا كولا حلما ، ولم يعد شرطي عربي واحد يشكو البرد بعدما استقر في عظم المواطن · ولا ينقص الاستقلال العربي الآن الا مواجهة الزحف السوفياتي الاحمر !! الهذا السبب عم الارهاب الاسود الارض ؟ وهل انتصر السادات اذن ؟ ان مصيــــره مرتبـط بقابلية هذا الخداع على الشيوع ، وبمدى ما سيظل الصراع العربي ـ الاسرائيلي ضائعا في عمى الالوان السياسي · فمن سنحاكم اذن ؟ والحـاكم يملـك النفـط والقاضي وهيئة الادعاء والشهود والمتفرجين · هل تمر الجريمة بلا محاكمة اذن ؟ ان الشعوب لا تحاكم جلاديها بقوانين جلاديها · انها تحرر نفسها فتكون حريتهـا هي عقوبة الجلاد · ومع ذلك ، فان محاكمة السادات ، باسم الآخرين ، تتحول الى امكانية لوقاية المناخ من التردي والتردد · انها لحظة الكلمـة التي يجـب ان تقال ، لحظة السؤال عن سبب الطاعة ، لحظة حرية في زمن القمع وعلى مرأى مــــن العبودية · سنسمع صوتنا ، سنفضح اكذوبة ، وسنعي من جديد ان المحكمة تشمـل زمنا ، وان قارة باكملها تجلس في قفص الاتهام ·

وفي طريق العودة سالنا ضابطُ الحدود : ماذا فعلتم بالسادات ؟

قلنا : سنحاكمه في بغداد ·

قال : متى ؟

قلنا : في اوائل آب ، والحر شديد ·

تساءل : باية تهمة ؟

اجبنا : الخيانة العظمى ·

سال : ومن سينفذ القرار ؟

قلنـا : مصر ·

قال : وانتم ، ماذا ستفعلون ؟

قلنا : سنحاول العودة الى بيروت ·

محمود درويش

٧

ياسين الحافظ

"من وعد بلفور إلى قيام الدولة"

# دور التأخر العربي في تأسيس اسرائيل

عندما نواجه كلا من وعد بلفور ودولة اسرائيل بنظرة تاريخية ، يتبدى لنا ، منذ الوهلة الاولى ، ان حجم الاول حصاة ، اما حجم الثانية فجبل · هـذا الانتقال من موطن الى دولة ، اي الانتقال من حصاة الى جبل ، هل كان حتميا ؟ أما كان ممكنا ، لو ان عمارة المجتمع العربي اقل فواتا ، ان يبقى الوطن موطنا فلا يتحول الى دولة ؟ بل ، اما كان ممكنا للعـرب ان يلغوا ، بنضالهم خـلال فترة الانتداب ، هذا الوعد ويحيلوه الى قصاصة ورق ؟ وبعبارة صريحة : أليس التأخر العربي هو الذي سهل قيام اسرائيل اكثر بكثير من الانتداب البريطاني ؟

من النائل القول ان العناصر المكونة لدولة اسرائيل قد تكونت فـي ظـل الانتداب البريطاني على فلسطين · لكن هذا لا يعادل او لا يعني ان الاستعمار البريطاني هو الذي أقام اسرائيل · بيد أن الاشكالية في الوعي العربي محلولة بشكل اخر ، على هذا النحو : الاستعمار هو الذي اقام اسرائيل · كما انهـا في الوعي الفلسطيني محلولة على هذا النحو ايضا : الاستعمار ، مضافا اليـه تخاذل العرب تارة وخيانتهم تارة اخرى ، هو الذي أقام دولـة اسرائيـل · وبالطبع ، في كلا الوعيين ، بقيـت عمـارة المجتمـع العربي وايديولوجيـاه وقيمه بمنجاه من التشكيك ·

ولكن ، كيف هي الاشكالية في الواقع ، لا في الايديولوجيا ؟

سنحاول الاجابة على هذا السؤال عبر ملاحظات تتناول مفاصل الاحداث ، دون الدخول في عرض تاريخي يتناول تفاصيل الصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي

ـ الانكليزي ، الذي نفترض ان القارىء مطلع عليه ٠

ولكن ، قبل ذلك ، لا بد من التنويه : ١) ان التحدي الصهيوني أكبر واعنف من التحدي الاستعماري ، اذ ان الاول هيمنة واقتلاع ، في حين ان الثاني هيمنة فقط ٠ ٢) ما اصاب الشعب الفلسطيني كان ممكنا ان يصيب اي شعب عربي اخر ، اذ أن التأخر الفلسطيني عينة فحسب من التأخر العربي العام ٠

I

**في فلسطين ، ماذا واجهت الحركة الصهيونية ؟ ماذا واجه الانتداب البريطاني ؟ اي ، كيف كانت عمارة المجتمع الفلسطيني في سائر حيزاتها وجوانبها ؟ ماذا كان في وسع هذا المجتمع ان يفعل لمواجهة غزو جماعات اخرى حديثة او شبه حديثة ؟**

من الزاوية الاقتصادية ، واجهت اقتصادا شبه طبيعي ، اي اقتصادا ذا تقنيات متأخرة جدا وعلاقات انتاج اقطاعية شرقية ، اي ان الاراضي كانت في حيازة اقطاعيين غائبين ، الامر الذي لعب دورا كبيرا في تسهيل انتقال اراضي عربية الى اليهود (١) ٠ في العام ١٨٩٥ لم يكن اكثر من ١٠٪ من الاراضي الصالحة للزراعة مستثمرا ، والعربة بدولابين لم تكن قد ظهرت الا قبل ذلك بعقدين (٢)٠

من الزاوية المجتمعية ، نظام القرابة هو السائد ٠ كان الفرد من الاسر الاسلامية لا يقول كلمة او يخطو خطوة الا وهو مراع تقاليده قبل كل شيء ، مصلحة أسرته قبل كل مصلحة ونفوذ اسرته قبل كل نفوذ (٠٠٠) الفلسطينيون منقسمون بعضهم على بعض ، كل واحد منهم يمثل اسرته لا وطنه (٣) ٠ وبعبارة اخرى ، كان المجتمع الاسلامي الفلسطيني مفتتا او مزررا بواسطة نزعة انعزالية ، خصوصية ، عشائرية (٤) ، اي اننا كنا ازاء **جماعة** ( ما قبل قومية ) **لا مجتمع** ( اي بنيان قومي حديث ) ٠ من هنا ، عندما تكونت ، بعد الانتداب ، اطر سياسية حديثة ( الاحزاب ) ، بقيت قشرة متموضعة فوق الانقسامات العائلية والطائفية ، التي تميز المجتمع العربي التقليدي ٠

والواقع ان نظام القرابة العربي قد لعب ، وما يزال ، اشد الادوار كؤدا وشؤما في عرقلة الاندماج القومي العربي ومحاربة عملية تسييس المجتمع العربي ، ذلك لان نظام القرابة هذا يعارض الانصهار المجتمعي ويقف حائلا دون أن تصبح القومية نسيجا سوسيولوجيا للجماعات العربية ٠ لذا فان استمرار نظام القرابة لدى جماعة ما يشكل مؤشرا على انها ما تزال في مرحلة تاريخية ما قبل قومية ٠ والقومية بالنسبة لجماعة كهذه لا تعني علاقة مجتمعية ـ سياسية ، بل مجرد موقف تمايزي ازاء جماعة اخرى ، وهذا ما يجعلها عاجزة عن بناء دولة قومية عقلانية حديثة ٠

الى جانب ذلك ، ثمة الانقسام التاريخي المعروف بين المدينة والريف والعلاقة غير المتوازنة بينهما ، ناهيك عن تشرذم السكان الزراعيين الى كثرة من القرى المعزولة ( حوالي ٨٥٠ قرية ، تشكل ٧٠٪ من مجموع السكان ) ، القائمة بذاتها والمكتفية نسبيا • هذا الانقسام والتشرذم ، مضافا اليها تركز الحياة الثقافية والسياسية في المدينة ، جعلت الريف الفلسطيني ، شأن الارياف العربية الاخرى ، يستمر في كونه لا شيء Néant من الناحية السياسية ، طيلة فترة الصراع مع الصهيونية • نقطة ضعف المجتمع العربي ، لا الفلسطيني فقط • بل مقتله تتركز في ريفه • في ١٩١٨ ، كان ، كما يقول « اوردمسي غور » ، المسلمون القرويون والمسلمون الملاكون موالون لبريطانيا (٥) •

المدينة الفلسطينية هي أيضا ، بدورها ، كانت مفتتة ومنقسمة عشائريا أو عائليا • والمنافسات العائلية التقليدية الموغلة في القدم ( وبخاصة الخصومة بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي ) بقيت بوجه عام عنصرا مهيمنا في السياسات الفلسطينية ، حتى في أشد الفترات توترا واحتداما ، سواء مع الحركة الصهيونية او مع الانتداب البريطاني •

ان مجتمعا كهذا ، غير مسيس او ما قبل سياسي Pré - Politique ، لم يستطع ان يواجه الغزو الاستعماري البريطاني بمقاومة ( ١٧ ـ ١٩١٨ ) • « طبقة الافندية كانت منقسمة وعاجزة » (٦) ، « ولم يكن ثمة مؤشر لدى السكان الاصليين على وجود تطلعات قومية لاجل الاستقلال ، والشعور القومي العربي ضعيف جدا » • وفيمابعد ، اي في أواخر العشرينات ، ومع تصاعد النشاط الصهيوني وكرد فعل عليه ،يولد شعور وطني فلسطيني ـ اسلامي ملتبس، شعور تضامن ازاء الغزو القادم من الخارج •

في هذا السياق ، كان طبيعيا ان تكون الحركة الوطنية الفلسطينية ، في كافة اطوارها ، حركة وطنية تقليدية خالصة أو تكاد • وتجلى هذا واضحا في هذا التمفصل او الاندماج بين الديني والعشائري في قيادتها التاريخية (٧) • من هنا كانت قواعدها المجتمعية تتمثل بالوجاهات المحلية وبرجال الدين المسلمين في آن ، ووعيها كان مشيخيا • القوى السياسية شبه الحديثة ( حزب الاستقلال ) حوصرت من قبل القوى التقليدية وبقيت هامشية • بسبب هذه البنية السياسية المفوتة ، المماتة ، تكشفت عن عجز واضح عن بناء احزاب سياسية بالمعنى الحديث للكلمة ، فبقيت السياسات الفلسطينية • انعكاسا للمنافسات التقليدية ، الخسيسة ، الحقيرة ، التي قامت منذ اجيال واستمرت بين العشيرتين الرئيسيتين ، الحسيني والنشاشيبي ، فاستنفدت طاقات النضال الوطني الفلسطيني وسهلت انتصار الصهيونية •

وعلى هذا كان الجسم السياسي الفلسطيني ( فعليا : طبقة « الافندية » المستندة على قاعدة مجتمعية عشائرية ومدينية ) صغيرا ، لا لان طبقة «الافندية»

محدودة جدا في الاصل فحسب ، بل ايضا لانه مقطوع عن الريف الفلسطيني ، الامر الذي جعله ضعيفا ، وبالتالي معتدلا ومتعاونا ومستندا في حدود واسعة على « الخارج » العربي · فاذا أضفنا الى هذا كون وعيه مشيخيا ، يتبدى لنا كم كان مغلولا السلاح العربي ، سواء ضد الانتداب ام ضد الصهيونية ، وذلك لان الوعي المشيخي عاجز ، لفواته ، عن صياغة استراتيجية وتكتيكات قادرة على مواجهة عدوين عصريين من جهة ، ومن جهة ثانية لانه كان قد فقد ، مع الحقبتين المملوكية والعثمانية بخاصة ، كل روح مقاومة للحاكم وقنن الفرار طريقا للخلاص · وفي كل الاحوال ، فان الوعي المشيخي للحركة الوطنية الفلسطينية وسم نضالها بثلاث سمات : ١) جعل طابع نضالها ومحرضه دينيا بالاحرى · ٢ ) اعطى هذا النضال طابع رد الفعل لا طابع الفعل ، وبالتالي افقده كل منظور مستقبلي ، استباقي · ٣ ) وجه حد النضال ضد الصهيونية بالاحرى لا ضد الانتداب البريطاني ، بل جعله موسوما بروح متعاونة معه خلال فترة جد مديدة ·

II

**كيف فكرت ، وماذا فعلت الحركة الصهيونية لتحويل مشروعها الخاص باقامة دولة يهودية الى امر واقع Fait accompli ؟ وما هي الفروق بين اليشوف ( اليهود المقيمون في فلسطين ) وعرب فلسطين ، على الاصعدة السياسية ، الايديولوجية والمجتمعية ؟ وكيف اخذت تؤثر هذه الفروق على ميزان القوى اليهودي ـ الفلسطيني ، وصولا الى انقلابه لصالح اليشوف ؟**

منذ البداية ، كانت الحركة الصهيونية تعتبر مشروعها في اقامة دولة يهودية شيئا واقعيا ، استنادا الى واقعة التأخر العربي ، التي جعلتها تتجاهل الشعب العربي في فلسطين : أرض بلا شعب لشعب بلا أرض · وبالتالي لو ان شعبا حديثايقطن فلسطين ما كان ليخطر ببال الحركة الصهيونية ان بامكانها السيطرة على فلسطين او على جزء منها · ومنذ البداية ايضا كان واضحا ان الاستراتيجية الصهيونية للسيطرة على فلسطين كانت مرتكزة على تصورات سياسية حديثة : ( أ ) العمل تحت المظلة الاستعمارية وكجزء من المد الاستعماري على العالم غير الاوروبي · ب ) الاستناد الى دولة او اكثر لتحقيق المشروع الصهيوني · ج ) عدم الاعلان عن الهدف الاخير ( اقامة دولة يهودية ) ، ولكن السير بتدرج وبثبات اليه : فكر بدولة اسرائيل دوما ، ولا تتحدث عنها ابدا · د ) الوصول بالتدريج الى ميزان قوى محلي ، يهودي ـ فلسطيني ، يمكن من اقامة الدولة الصهيونية ·

اذا تأملنا الحلقة المركزية في الاستراتيجية الصهيونية ، المتمثلة بفتح ابواب الهجرة دوما وبدون قيود امام اليهود ، نراها متصلة اتصالا حميما بالهدف

الصهيوني الاخير ، دولة اسرائيل ، ذلك ان استمرار الهجرة وصولا الى تحول اليشوف الى اكثرية ( في كل او بعض فلسطين ) يضمن تحول ميزان القوى لصالحه ، الامر الذي يوازي من الناحية العملية قيام دولة اسرائيل ٠

الحلقة المركزية في الاستراتيجية الفلسطينية ( اذا غامرنا باطلاق مصطلح حديث على سياسات تقليدية ) هي الاستراتيجية الصهيونية نفسها ولكن مقلوبة : ايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين ٠ هنا كانت نقطة الضعف القاتلة في السياسات الفلسطينية ، النقطة التي سهلت قيام اسرائيل ، ذلك انه لم يكن بوسع السياسات الكولونيالية الانكليزية الا ان تتعرض لضغوط وتأثيرات ، قد تصمد لها تارة ، ولكن قد تخضع لها تارة اخرى ، كما اثبت تاريخ ثلاثين عاما من الانتداب على فلسطين ٠ لقد كان مطلب استقلال فلسطين ، ما دامت اكثريتها عربية ، في حال تحقيقه ، وحده الكفيل باغلاق نهائي لابواب الهجرة ، وبالتالي وقف تحول ميزان القوى لصالح اليشوف ٠ لا يمكننا الجزم ، بالطبع ، ان طرح مطلب الاستقلال والنضال في سبيله كان سينتهي الى نجاح اكيد ، لكنه يبقى الموقف الاكثر سدادا والاكثر عقلانية والاكثر انسجاما مع المصلحة القومية العربية ، كما انه يحل في طريقه مسألة الهجرة ٠ وفي كل الاحوال ، فان طي مطلب الاستقلال تارة وعدم التركيز عليه تارة اخرى من قبل الحركة الوطنية الفلسطينية ( عدا حزب الاستقلال ، الذي بقي هامشي التأثير ) انما يعكس النهج المتعاون مع الانتداب الذي سلكته هذه الحركة ، لا خوفا من قوة بريطانيا فحسب ، بل ايضا املا في سياسة انكليزية محابية اكثر فأكثر للعرب ، تقطع الطريق امام المشروع الصهيوني ٠

بالنسبة لليشوف ، يبدو لافتا ، منذ الوهلة الاولى ، تعلقه بيوتوبيا تتمثل في عملية بناء الدولة اليهودية ٠ هذه اليوتوبيا ، التي لم تضعف التصاقه بالواقعي، بل جعلته يتشرب جملة من القيم والمثل منحته بسيكولوجيا ذات طابع ارادوي وكفاحي ورسالي ( رغم تناقض هذا مع الاستهانة بالغير ، العرب ، ومع محاولة اغتصاب وطن الاخرين ) ، عملت لاستبدال النمط النموذجي القديم لليهودي ، « العايش من الهواية ، بنمط نموذجي جديد يعيش على الشغل اليهودي ويرتبط بالارض ولقد نهض ثوريون روس يهود ، ممن ساهموا في ثورة ١٩٠٥ المخفقة ثم تحولوا الى الصهيونية وهاجروا الى فلسطين ، بهذه المهمة[٧]

اضف الى ذلك ان اليشوف منظم على عدة اصعدة : على الصعيد السياسي ، كان ثمة نوع من البرلمان المنتخب ومجلس تنفيذي يلعب دور حكومة تقريبا ٠ على صعيد المدن ، الهستدروت ، الذي يشكل العمود الفقري للحركة الصهيونية، ينظم ويؤطر شغيلة المدن ٠ في الريف ، الكيبوتزات تؤطر وتعبىء الشغيلة المزارعين ٠ يسيج كل ذلك « الهاغاناه » ( قوة الدفاع اليهودية ) ، التي تشكلت بشكل نصف سري في ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ، واستمرت تنمو كما وكيفا ، وقامت

بدور حاسم في حرب ١٩٤٨ ، ثم تحولت الى ( جيش الدفاع الاسرائيلي ) ٠ في العـام ١٩٤٢ ، كان ٤٣٠٠٠ من البيشوف ، رجالا ونسـاء ، يحملون السـلاح كمتطوعين في جيوش الحلفاء ٠ هذه القوة العسكرية ، التي كانت تشرف عليها سياسيا « الهاغاناه » ، والتي استفادت من تاهيل عسكري جيد ، كانت احـدى انجازات البيشوف التي حسمت المعركة مع العرب ٠ يقينا ان البيشوف كـان مقسمـا الى احزاب متنافسة وتخترقه خصومات داخلية وصراعات سياسيـة وتناقضات مجتمعية ، الا انه يبقى صفا واحدا ازاء الخارج ، وهو يملك الاجهزة التي تصون وحدته هذه وتعبر عنها (٨) ٠

هذه الصورة توضح دون لبس ان البيشوف كان كله ( عـدا الاطفـال والشيوخ ) معبئا ومهيئا للمعركة القادمة ، بل كان كله في المعركة ، سواء كانت ساخنة أو باردة ، على هذه الجبهة او تلك ، في هذا الصعيد او ذاك ٠ وبكلمة : كان البيشوف مجتمعا سياسيا او مسيسا ، قائما على مرتكزات مجتمعيـة وايديولوجية حديثة بوجه عام ٠

بالمقابل ، لا نجد شيئا من هذا القبيل في الجانب الفلسطيني ٠ جماعـة غير سياسية يجبر القسم الاكثر وعيا والاكثر نفوذا منها ( اي افندياتها ) ، تحـت ضغط تهديد خارجي ، على دخول ميدان السياسة ٠ والى هذا الميدان حملت ، بالطبع ، قيمها وايديولوجياها ووعيها ومصالحها ٠ لذا فالاطر السياسيـة التي زعم انها حديثة ، الاحزاب ، لم تستطع ان تسيس او تؤطر الشعب تسيسا وتأطيرا حديثين ٠ وكان من الطبيعي ان يوجد بين هذه الاحزاب خلافات برنامجية ( عدا حزب الاستقلال ) ، لانها كانت امتدادا للانقسامات العشائرية والعائليـة التي تخترق المجتمع التقليدي الفلسطيني ، بل ان هذه الاحزاب « الحديثـة » توضعت فوق تلك الانقسامات وعبرت عنها « وحدثتها » ٠ كذلك لم تكن الجماعة الفلسطينية تملك تنظيما عماليا يذكر بالهستدروت ، بل على العكس فقد عملـت الاحزاب الاكثر تقليدية على محاصرة وخنق النويات العمالية العربية الاخـذة في التكون انذاك ٠ كما لم تكن تملك تنظيمات فلاحية تذكر بالكيبوتزات ، الامر الذي فاقم عجز وضعف الجسم السياسي الفلسطيني ٠ ناهيك عن ان الاخيـر لم يقم ، بشكل منهجي ودائم ، بانشاء منظمات عسكرية تذكر بالهاغاناه ٠

هذه الصورة التي للبنية السياسية الفلسطينية ، ومقارنتها بالبنية السياسية التي للبيشوف ، تفسر بوضوح كاف الانتصارات السهلة والسريعة التـي أحرزها البيشوف في حرب ١٩٤٨ ، انتصارات كشفت القصور والتفسـخ العربيين ٠ لا التفوق والقوة اليهوديين ٠ كما تفسر بوضوح كاف لم كانت مدن وقرى عربية تسقط ، في العام ١٩٤٨ ، بسهولة بيد البيشوف والاف المسلحيـن العرب قابعين في قراهم (٩) ٠

III

**كيف كانت سياسات الانتداب البريطاني ؟ هل كانت متذبذبة ام ثابتة ومصممة ؟ ما مغزى تذبذبها وتناقضها ؟ هل كان العامل الدولي ( الانتداب الانكليزي + الموقف السوفياتي + قرارات هيئة الامم المتحدة) هو الذي مكن الييشو فمن اقامة دولة ، ام ان العامل المحلي ، اي ميزان القوى العربي ــ الاسرائيلي ، هو الذي حسم مصير النزاع ؟ واذا افترضنا ان العامل الدولي لعب لصالح الييشوف ، فما صلة ذلك بالامر الواقع الذي صنعه الييشوف في فلسطين وجابهوا به العالم ؟ واذا افترضنا ان الفلسطينيين ، ومن ورائهم العرب ، وضعوا العالم امام امر واقع وسيطروا بالقوة على كل فلسطين ، هل كان العامل الدولي سيغير هذا الامر الواقع ويسلم فلسطين للييشوف ؟**

لا شك ان وعد بلفور ، الذي ثبت في صك الانتداب الذي اقرته « عصبة الامم » ، كان حجر الاساس الذي بنيت عليه وحوله المرتكزات والهياكل التي قامت عليها دولة اسرائيل · بيد أن صك الانتداب نفسه نص على انه لن تمس حقوق واوضاع الفئات الاخرى من السكان· لذا فان معاينة السياسات الانكليزية خلال فترة الانتداب تبين بوضوح لا مثيل له ان وعد بلفور ، شأن اي قرار سياسي لدولة حديثة ، كان يشكل لحظة فحسب في مسار السياسة الكولونيالية الانكليزية ، طويل ، متعرج ، متذبذب ، متناقض ، تلعب به موازين القوى والضغوط المتبادلة · والواقع ان صك الانتداب بالذات ما كان ممكنا ، كما قال حاييم وايزمن (١٠) ، ان يأخذ هذا المنحى المحابي للطرف الصهيوني ويلعب هذا الدور الكبير في تحديد موقف الدول الكبرى الايجابي من المطامع الصهيونية ، لولا اتفاق فيصل ــ وايزمن ، اي لولا هذا التنازل العربي غير المبرر ·

من هنا ، ومع بروز وتنامي المعارضة العربية بادرت انكلترا الى اصدار كتاب ابيض في العام ١٩٢٢ يفسر وعد بلفور على نحو اقل محاباة بكثير لليهود ، معلنا ان المقصود من وعد بلفور ليس تحويل فلسطين الى وطن قومي يهودي ، بل فقط اقامة موطن قومي يهودي في فلسطين فارضا قيودا على الهجرة اليهودية تتناسب مع « قابلية الاستيعاب الاقتصادية للبلد » ، كما وضع عددا من القواعد الاقل محاباة بخصوص التعامل مع « الوكالة اليهودية » · هنا ، في هذا الكتاب الابيض ، أرادت بريطانيا ان تعطي نفسها دور الحكم بين العرب واليهود ·

بعد ذلك ، وبوجه عام ، مضت فترة هدوء في فلسطين ( ١٩٢٤ ــ ١٩٢٩ ) ، نجمت بالدرجة الاولى عن عدم فاعلية الحركة الصهيونية ، حيث توقف ، في العام ١٩٢٧ مثلا ، دفق الهجرة الى فلسطين واصبح مغادرو فلسطين اكثر من القادمين اليها ، فتوقف او تلاشى النشاط السياسي الفلسطيني ، نظرا لانه بقي حتى ذلك الحين مجرد رد فعل وليس فعلا · وجاءت حادثة البراق او حائط

المبكي لتفجر تحركا فلسطينيا ما قبل سياسي او دون سياسي Pré - Politique ( كما قال ، بحق ، فانشتوك ) ضد اليهود · وكانت مناسبة اقتنصتها الحكومة الانكليزية ، فعينت « لجنة شو » لاستقصاء الاسباب البعيدة والقريبة للتوتر الذي ساد فلسطين · وقد انتهت اللجنة الى اقرار عدد من التوصيات ، ما لبثت ان اصدرتها الحكومة الانكليزية في كتاب أبيض جديد في العام ١٩٣٠ ، اعتبره البيشوف محابيا للعرب ، وبخاصة في ما يتعلق بالقيود التي وضعها على الهجرة اليهودية الى فلسطين ·

هذا التحول البريطاني لم يلبث ان اثار احتجاجات صاخبة وضغوطا قوية ، سواء في فلسطين ام في انكلترا ، لدرجة ان حاييم وايزمن ، الحليف التاريخي لبريطانيا ، قدم استقالته من رئاسة المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية · اثر ذلك ، في ١٣ شباط ١٩٣١ ، أرسل « رمزي مكدونالد » ، رئيس الوزراء البريطاني ، رسالة الى وايزمن تلغي عمليا الكتاب الابيض المذكور ، بل ذهبت الى ابعد من ذلك وقدمت للوكالة اليهودية تنازلات تتعلق بالهجرة ، ووفرت تسهيلات جديدة لعملية فصل الجماعتين اقتصاديا عن بعضهما · لذا سمى العرب رسالة مكدونالد هذه بـ « الرسالة السوداء » ·

بيد ان مجيء النازية الى الحكم فيالمانيا في العام ١٩٣٣ انقذ المشروع الصهيوني في اقامة الدولة اليهودية · فبعد توقف الهجرة الى فلسطين ، اخذ المشروع الصهيوني يغدو يوتوبيا فقدت صلتها بالواقع ، اذا لم تبلغ ، في العام ١٩٣١ ،نسبة البيشوف الى مجموع سكان فلسطين سوى ١٧ر٧٪ فقط (١٧٥٠٠٠ ييشوف ، ١٠٣٦٠٠٠ عرب ) · وهكذا اخذ المشروع الصهيوني يذبل وينحدر · غير ان الاضطهاد النازي لليهود لم يلبث ان اطلق موجات هجرة متلاحقة لا سابق لها الى فلسطين · وما ان حل العام ١٩٣٩ حتى بلغ عدد اليهود ٤٢٩٦٠٥ من مجموع سكان فلسطين البالغ ١٥٠٠٠٠٠ نسمة ، اي حوالي ٢٨٪ · هنا فقط اصبح مشروع الدولة اليهودية ، على جزء من فلسطين على الاقل ، مشروعا واقعيا ، حيث حلت ، كما سنرى ، مسألة ميزان القوى المحلي ، الفلسطيني ــ اليهودي ·

فى هذه الحقبة ايضا ، تابعت السياسة الكولونيالية الانكليزية سيرها التناقضي ، المتخبط ، المتذبذب ، بفعل جماعة من الضغوط المتعارضة التي تؤثر في ــ او تتنازع عملية صنع القرار الكولونيالي الانكليزي · ولعبت جملة عوامل لصالح اعادة نظر بريطانيا ، بدت في ذلك الحين جدية ، في موقفها من النزاع القائم في فلسطين ·النضال الفلسطيني ــ العربي المسلح وغير المسلح في فترة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ وتوجهه مباشرة ضد الاستعمار الانكليزي ، حاجة بريطانيا الى استعادة ثقة العرب في وقت بدا واضحا ان العالم يقترب من حرب عالمية ثانية ، الاختلافات داخل النخبة السياسية الانكليزية حول السياسة

الواجب اتخاذها ازاء الصراع الفلسطيني ــ اليهودي وعلاقة ذلك بحماية قناة السويس والمحافظة على طريق الهند ، ــ هذه العوامل كلها كانت تدفع ببريطانيا الى ايفاد لجنة تحقيق الواحدة تلو الاخرى الى فلسطين بحثا عن أسباب الصعوبات والاضطرابات والتفتيش عن الحلول الممكنة · في العام ١٩٣٧ ، ولاول مرة ، يقترح تقرير « لجنة بيل » تقسيم فلسطين الى دولتين عربية واسرائيلية ودولة ثالثة تبقى تحت الحماية البريطانية وتضم القدس وشريطا يوصلها بالبحر · غير ان رفض العرب واليهود معا اقتراحات « لجنة بيل » ، دعى لجنة اخرى « لجنة هيد » ، للاستنتاج بعدم امكانية تطبيق مشروع بيل ، فطوي ·

الا ان بريطانيا لم تلبث ، وقد اقلقتها المشاعر العربية المعادية لها والمتعاطفة مع الالمان والاقتراب المتزايد لشبح الحرب ، ان حزمت أمرها ، فأصدرت في ايار ١٩٣٩ كتابا ابيض جديدا ارادت به حسم المشكلة · وبموجبه ، تبقى فلسطين محكومة من قبل الانكليز ، وتناقش مع الاطراف المعنية مسألة اصدار دستور خلال خمس سنوات ، ثم تنال فلسطين استقلالها خلال عشر سنوات · وسمح لـ ٧٥٠٠٠ يهودي بالهجرة الى فلسطين في السنوات الخمس القادمة ، وبعد ذلك تتوقف الهجرة على موافقة الاغلبية العربية · بيع الاراضي لليهود حد في بعض القطاعات ومنع في اخرى · وفلسطين لن تصبح ، كما يقول هذا الكتاب الابيض ، لا دولة عربية ولا دولة يهودية ·

والواقع ان هذه الدولة ثنائية القومية ، التي أرادتها بريطانيا ، لن يشكل الييشوف فيها سوى حوالي الثلث ، الامر الذي اثاره الى أقصى حد · وفي الوقت الذي انخرط فيه اليهود الى اقصى الحدود ، في الجيوش الحليفة ، في الصراع ضد النازية ، كانوا يعدون للمعركة مع بريطانيا · وما ان قاربت الحرب العالمية الثانية نهايتها ، حتى بدأت المنظمات الصهيونية اليمينية ، مثل « الارغون » و «ليحي » ، مدعومة بالرأ يالعام اليهودي في فلسطين ، اعمال الارهاب والاغتيال والانتقام ضد الانكليز · واخذت اعمال الارهاب هذه حجما اكبر بكثير عندما نزلت الهاغاناه الى الساحة عند انتهاء الحرب ، في نهاية ١٩٤٥ · وبالطبع ، بقي الفلسطينيون في موقف المتفرج والمنتظر ، مع ان الكتاب الابيض ، موضوع الصراع ، كان لصالحهم اجمالا ، وبخاصة في ظل ميزان القوى المحلي ، الفلسطيني ــ اليهودي ·

في هذه الاثناء ، كان ثمة عوامل عديدة اخرى تدفع بريطانيا الى مراجعة سياستها في فلسطين ، عوامل كانت هامة ولا شك ، ولكن تبقى الحرب اليهودية ضدها العامل الاكثر اهمية · في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، انطلقت موجة نزع استعمار واسعة ومتلاحقة في العالم ، فانسحبت بريطانيا من اليونان وبورما والهند ، واخذت سياساتها تستلهم بشكل خاص اعتبارات الحرب

الباردة وعلاقتها مع الولايات المتحدة ، فضلا عن ان ازمة اقتصادية كانت تطحنها · في هذا السياق ، وتحت ضغط هذه العوامل ، تتخذ الحكومة البريطانية قرارا بـ « التخلص من المرحلة الفلسطينية » · وفي ١٤ شباط ١٩٤٧ ، يعلن بيفان ، الوزير العمالي للشؤون الخارجية ، ان بريطانيا ستنسحب من فلسطين وتضع مسؤولية اتخاذ قرار حول مستقبل فلسطين على عاتق هيئة الامم المتحدة ·

عندما نقل امر البت بمصير فلسطين الى المجتمع الدولي ، ممثلا بهيئة الامم المتحدة ، كان الييشوف قد حقق انجازين ، الاول يتمثل في استبدال الدولة الحليفة ـ الحامية ، فأصبحت الولايات المتحدة ( بدلا من بريطانيا ) ، التي برزت بوصفها الدولة الاقوى ، اقتصاديا وعسكريا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث تكون فيها لوبي ( جماعة ضغط ) صهيوني يملك قدرا ملحوظا من النفوذ والتأثير على النخبة السياسية الاميركية · ولقد انبثق هذا اللوبي من مؤتمر بلتيمور المنعقد في ١١ـ٥ـ١٩٤٢ في نيويورك ، حيث أعلنت فيه الحركة الصهيونية لاول مرة اهدافها الحقيقية ، المتمثّلة اولا في اقامة دولة يهودية في فلسطين ، بعد ان آنس الييشوف ، كما ذكرنا قبلا ، ثقة كافية بالنفس ، من جراء تحول ميزان القوى المحلي لصالحه · الثاني يتمثل في ان الييشوف استطاع ، بافعاله ، ان يقنع المجتمع الدولي بقوة مواقعه في فلسطين ، وبالقوة التي يملكها وبفعاليته في حرب العصابات التي يشنها على الانكليز ، وارادته الراسخة في الاستقلال ، وباستحالة تعايشه في دولة واحدة مع عرب فلسطين · الا يفسر هذا ، جزئيا على الاقل ، كيف التقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، على ما بينهما من تناقضات ، على تأييد قرار تقسيم فلسطين !

على هذه الارضية ، لا في فراغ ، ولد قرار هيئة الامم المتحدة في ٢٩ـ١١ـ١٩٤٧ الخاص بتقسيم فلسطين · لقد وضع الييشوف العالم ، وعلى رأسه اميركا والاتحاد السوفياتي ، امام امر واقع ، ليس فيه خيارات بل خيار واحد · لا شك في ان الاتحاد السوفياتي واميركا ، وبخاصة اميركا ، قد لعبا دورا في دفع عدد من الدول الى تأييد قرار تقسيم فلسطين ، لكن حتى هذا جاء مبررا بـ ـ ومستندا الى ـ فعل الييشوف ·

حتى السياسة الاميركية لم تخل ، هي ايضا ، من تذبذب · فبعد ان ايدت قرار التقسيم ، بل بعد ان ألقت بثقلها السياسي لاقراره وكسب المؤيدين له من الدول المترددة ، عاد مندوبها في هيئة الامم المتحدة ، أوستن ، ليعلن في ١٩ـ٣ـ١٩٤٨ في مجلس الامن عن تبدل في السياسة الاميركية ، فاقترح وقف قرار التقسيم وعقد هدنة في فلسطين ودعوة الجمعية العمومية للموافقة على مشروع وصاية على فلسطين ·

**هذا التبدل في الموقف الاميركي يبين ، لكل من لم تسيطر عليه الرؤية المؤامراوية ، كيف ان قرارات الدول الكبرى ليست نهائية ولا « مخططة منذ زمن بعيد » من قبل « عقول كلية الوعي » ، بل هي ، ايضا ، قرارات عادية تصنع يوما فيوما احيانا · يقينا انها قرارات دولة حديثة ، ولكن من قال ان القرارات الحديثة لا تنطوي على تقلبات وتذبذبات ، بل اخطاء ايضا ، من قال انها لا تتأثر بوجه خاص بميزان القوى وبالامر الواقع ·**

عوامل عديدة لعبت لتعديل الموقف الاميركي ، لعل منها وعد روزفلت ثم ترومن للملك عبد العزيز السعود « بان لا يتخذ اي قرار يتعلق بفلسطين دون استشارة كاملة للعرب واليهود ، والا يقرر اي شيء يكون ضد المصالح العربية » ( ٥-٤-١٩٤٥ و ٢٨-١٠-١٩٤٦ ) ، ثم بروز الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية بوصفها الدولة الاقوى التي ستلعب دورا متزايد الاهمية في الشرق الاوسط ، واخيرا توسع المصالح البترولية الاميركية في البلدان العربية · بيد ان العامل الاكثر اهمية في تعديل الموقف الاميركي انما كان شك السياسة الاميركية في قدرة الييشوف على الصمود في وجه الثقل العربي ، وبالتالي لو ان العرب ثبتوا ، في الحرب ، الشكوك الاميركية ، وسيطروابالقوة على كامل الارض الفلسطينية ، لانتهت اميركا ، على الارجح، الى الاعتراف بالامر الواقع الذي يخلقه العرب · هذه الحقيقة تفضح بالتالي الوهم العربي الرائج القائل ان قرار هيئة الامم المتحدة الخاص بالتقسيم هو الذي يخلقه العرب · هذه الحقيقة تفضح بالتالي الوهم العربي الرائج القائل ان قرار هيئة الامم المتحدة الخاص بالتقسيم هو الذي أقام دولة اسرائيل · بالحرب قامت الاخيرة ، وبالحرب توسعت ، لا بقرارات من الهيئات الدولية ، صدر العشرات منها لصالح العرب دون ان تنفذ ، لانهم يفتقرون الى القوة اللازمة لتنفيذها ·

ازاء التردد والتقلب الذي واجهه القرار الدولي حول مستقبل فلسطين ، وبخاصة بسبب الموقف الاميركي الجديد ، وازاء افتقار هيئة الامم المتحدة الى القوة اللازمة لفرض قرار التقسيم الصادر في تشرين الثاني ١٩٤٧ ، ونظرا لاقترابموعد انسحاب بريطانيا من فلسطين ( حوالي شهرين فقط كانت تفصل بين تبدل الموقف الاميركي وانسحاب بريطانيا ) ، يتجه الييشوف الى خلق امر واقع يضعه امام المجتمع الدولي كخيار وحيد · ويخاطب حاييم وايزمن اميركا قائلا : « ان قوة العرب خرافة لا صحة لها » ، ويضيف : « اذا كان قرار التقسيم سيثير مصاعب ، فان العدول عنه سيثير مصاعب اشد وأبعد أثرا » ·

هنا ، أصبح الييشوف وعرب فلسطين وجها لوجه · واصبحت الحرب وسيلة حسم النزاع ·

رقميا ، كان الييشوف يشكل حوالي ثلث سكان فلسطين · مع ذلك فان

الحرب حسمت لصالحهم بسهولة وسرعة ، كما سنرى بعد قليل · لماذا لم يلعب قانون العدد لعبته لصالح عرب فلسطين ؟ لماذا لم يكن ميزان القوى لصالحهم ؟ ولكن ، اذا تأملنا الواقع بمزيد من التدقيق ، سنتساءل : حتى العدد الفعلي ، هل كان لصالحهم ؟ ان العدد ، عندما نكون ازاء حرب ، هو العدد المعبأ في المجهود الحربي ومقتضياته فقط · فلنقم ببعض حسابات تعطينا فكرة عامة وتقريبية فقط عن هذه المسألة ، مسألة العدد ، ولصالح من لعب قانون العدد بالنتيجة ·

من المعروف ، لاسباب تاريخية عديدة ، منها اقتصار الثقافة والحضارة على المدينة الاسلامية ، ومنها ايضا العلاقة الطفيلية بين المدينة والريف الاسلاميين، ان الريف الفلسطيني ، بما هو ريف عربي ـ اسلامي ، لا شيء سياسيا · وهذا يعني اننا يجب ان نستبعد حوالي ٧٠٪ من العدد الفلسطيني ، واذا افترضنا ( والامر ليس كذلك ، بالطبع ) ان جميع سكان المدن الفلسطينية ، التي يزيد سكانها عن ١٥٠٠٠ نسمة ، احرزوا قدرا مناسبا من الوعي السياسي فجرت تعبئتهم عسكريا ، واذا استبقينا رقميا لدى كل من الطرفين الاطفال والشيوخ، وبالمقابل اذا عرفنا ان الريف اليهودي ( ونسبته ٦ر٢٠٪ من عدد اليهود ، في العام ١٩٤١ ـ مسيس ومنظم عسكريا في الكيبوتزات بخاصة ، وان المرأة اليهودية هي ايضا معبأة في المجهود الحربي والاعمال المرتبطة به ـ اذا اخذنا هذا كله بعين الاعتبار نتبين ان اليشوف كانوا قادرين على تعبئة وحشد ما يتعدى ثلاثة اضعاف ما يمكن ، نظريا ، لعرب فلسطين حشده وتعبئته في الحرب والمجهود الحربي وما يرتبط بهما ·

اذا ، فقانون العدد لم يكف عن لعب لعبته · ولكن ، بالنسبة لمجتمع شرقي ـ اسلامي ، ينبغي ان تؤخذ العطالة بالاعتبار ، وبالتالي استخراج العدد المؤهل لدخول اللعبة فقط وتشغيل قانون العدد ، ناهيك عن الخبرة العسكرية التي حصل عليها اليشوف في الحرب العالمية الثانية وقدرته على استيعاب التقنيات العسكرية الاوروبية ، بسبب الايديولوجيا الحديثة التي يملك ·

وكان من الطبيعي في ظل ميزان للقوى كهذا ( الراجح عدديا لصالح اليشوف ، ناهيك عن تفوقه على صعيدي الثقافة والوعي والتنظيم ) ان يخسر عرب فلسطين معركة احباط مشروع فلسطين خلال اقل من اسبوع ( وبالتحديد بين ٦ و ١١ نيسان ) ، بل سيطر اليشوف على اكثر من الرقعة التي خصصت له بموجب قرار التقسيم · ولولا العامل الدولي لكان بامكان اليشوف السيطرة على كل فلسطين · كما تمضي السكين في قطعة زبدة ، كانت قوة اليشوف العسكرية تتقدم بسهولة محتلة اراضي فلسطين ، « فهزمت المقاومة الشعبية الممثلة بتشكيلات الجهاد المقدس العسكرية وباللجان القومية ، وهزمت جيش الانقاذ الذي كانت جامعة الدول العربية تنفق عليه » (١١) · وهكذا ، بعد ايام

من تصريحات وايزمن وطبقا لها ، خلق البيشوف امرا واقعا ووضعوا العالـم امامه ·

فيهذه الاثناء ، كانت الدول العربية تعقد المؤتمر تلو الاخر · وفي ١٥ أيار ١٩٤٨ ، اثر انتهاء الانسحاب البريطاني ، تجتاز جيوش عدد من الدول العربية حدود فلسطين حاملة مخططات هجومية واسعة المرامي ، بيد انها لم تستطع ، في النهاية ، ان تحتل ، عدا استثناءات نادرة ، سوى جزء من المناطق المتروكة للعرب بموجب قرار التقسيم ، اذ ردتها قوى البيشوف العسكرية على سائـــر الجبهات ·

هنا ايضا كانت الهزيمة شيئا عقلانيا : ١) كان استعداد تلك الدول العربيــة للانخراط بعمق في القضية ضعيفا ، فضلا عن انها كانت مغرورة اذ توهمــت ان عرضا بسيطا للعضلات ، سيكفي لحمل اليهود على الاستسلام ، ثم يلي ذلك اتفاق يترك لليشوف من الارض اقل مما خصتهم به هيئة الامم المتحــــدة · ٢ ) دوافع قرار التدخل كانت متناقضة ، ولم تكن متمحورة حول انقاذ فلسطين : الاردن كان يريد توسيع رقعة دولته بضمه الضفة الغربية ، ودول عربية اخرى كان همها معاكسته او تقليص مكتسباته · ومن هنا لم تحارب الجيوش العربية بقيادة واحدة ، بل حارب كل جيش على حدة وتبعا لاهداف دولته واغراضهـا السياسية · ٣ ) الجيوش العربية كانت انذاك بقايا جيوش كولونيالية ، تفتقر الى خبرة قتالية مناسبة ، فضلا عن ان معنوياتها لم تكن عالية ، وفساد ضباطها كان ظاهرة ملفتة ، ناهيك عن ارتهانها للغرب ، بخاصة انكلترا ، في ما يتعلق بالسلاح والذخيرة · ٤ ) حتى من الناحية العددية ، كان قوام الجيوش العربية المحاربة مجتمعة مساو تقريبا لجيش البيشوف ( ٢٥٠٠٠ لكل من الطرفين ) ، الذي كانت خطوط مواصلاته اقصر بكثيرمن خطوط مواصــــلات الجيوشـــن العربية · ولكن في تموز ١٩٤٨ أصبح قوام جيش البيشوف ٦٠٠٠٠ جنديـا ، مقابل ٤٠٠٠٠ جندي عربي (١٢) ·

## IV

هذاالعرض المكثف لخطوط القوة في السياسات الاستعمارية الانكليزية في فترة ١٩١٧ ــ ١٩٤٨ ، ثم التطورات التي أصابت المسألة الفلسطينية في هيئـة الامم المتحدة وصولا الى حرب ١٩٤٨ ، لن يعجب الذين اعتـــادوا المنهـــج المؤامراوي في التفسير ( ومن الواضح انه منهج امتثالي ورجعي ) ، وسيرونه « جد سطحي » ، لانه لم يغص في « اعماق » السياسات الاستعمارية بوجه عام

والسياسات الاستعمارية الانكليزية والامبريالية الاميركية بوجه خاص ، ولم « يحللها نظريا » ٠

بالضبط هذا ما أردت : أردت لرؤيتي ان تبقى عالقة في المباشر والعياني ( دون ان اهمل بالطبع النظرية العامة ) ، ما دمت لم أقبض على « الاعماق الخبيثة » ٠ ذلك ان المادية التاريخية تعلم ان الصلة بين العياني والمباشر من جهة والجوهر من جهة اخرى صلة صحيحة ٠ حتى الزبد العائم على السطح ينبغي ان يفحص قبل ان يرمي ( كما يقول لوفيفر ) ٠ كما تعلم ان العالم ليس ابيض أسود ، وان التطورات السياسية هي بالاحرى ميول Tendances تلعب بها وتحكمها جملة عوامل قد تدفعها في هذا المنحى او تردها الى ذاك ، وان في السياسة دائما ما هو متحرك وغير متوقع ما دام من الممكن ان يفلت من التحليل هذا العنصر او ذاك ، هذا العامل او ذاك ٠ وتعلم أيضا ، ما دامت تؤكد على « التحليل الملموس لوضع ملموس » ، ان السياسات الاستعمارية ( وسياسات الدول الكبرى اجمالا ) ليست دوما كلية الوعي ولا كلية القدرة ، وانها تخطىء وتصيب ، تنجح وتخفق ، كما أنها سياسات واقعية تخضع لجملة من القواعد والمؤثرات والمصالح ، وان عملية صنع القرار السياسي في الدول الحديثة عملية معقدة نظرا لضخامة الجسم السياسي في هذه الدول ودوره في صنعه او التاثير عليه ٠

والواقع ان تأمل النقطة التي بدأ منها الغزو الاستيطاني الصهيوني ( وعد بلفور ) والنقطة التي وصلت اليها سيرورة الانتداب ( دولة اسرائيل ) ، تدل بوضوح كيف يمكن للضغوط والصراعات ونسب القوى ان تفعل بالواقع وتدفعه بعيدا عن السياسة التي قيل أنها « نهائية » و « مرسومة سلفا » ، ذلك ان حجم وعد بلفور جد بسيط وجد صغير اذا قيس بدولة اسرائيل ٠ فلماذا انزلقت بريطانيا ( وهنا ، نحن نحاجج افتراضا فقط ) الى مواقع اخرى تضخمت فيها مكاسب الحركة الصهيونية هذا التضخم الكبير ؟! ترى لو ان ضغوط وقوى الحركة الصهيونية كانت أضعف فأضعف ، اما كانت مكاسب الييشوف اقل فأقل ؟! او لو ان ضغوط وقوى الحركة الوطنية الفلسطينية والعربية كانت اكثر فاعلية ، اما كان باستطاعتها ان تضع نهاية اخرى لوعد بلفوروتحوله الى قصاصة ورق ، وتفعل باليهود والانكليز ما فعل الاتراك باليونان والقوى الاستعمارية الفرنسية ـ الانكليزية بعد الحرب العالمية الاولى ؟! ولكن ، اين وعي اتاتورك من وعي أمين الحسيني ، اين وعي الحركة القومية التركية من وعي الحركة القومية العربية ! يكفي ان نطلع على النقد الذي وجهه عدد من « مفكري » الحركة القومية العربية وقادتها في ذلك الحين الى اتجاهات اتاتورك الديمقراطية حتى نقبض على أسباب الهزيمة العربية الطويلة ٠

ثم لنتأمل ظاهرة اخرى شديدة الاهمية ، ظاهرة اعتدال الحركة الوطنية الفلسطينية الطويل ، بل نهجها المتعاون مع الانتداب الانكليزي · ينبغي ، بادىء بدء ، استبعاد التفسير الاخلاقوي المؤامراوي لظاهرة الاعتدال هذه ، لا لانه تفسير ساذج ويمس ، دون ان يقدم وقائع ملموسة ، نزاهة مواطنين يملكون اعتبارا لدى شعبهم فحسب ، بل ايضا لان مثل هذا التفسير يدين ، في النتيجة، كامل الحركة الوطنية الفلسطينية ، اذ يعتبر القيادات خونة والقواعد ماشية بشرية · والا كيف نفسر سير الحركة الوطنية هذه وراء عملاء او متعاونين مع الاستعمار ! واخيرا ، لان مجتمعا لا يمنع زعاماته من ان تخون هو مجتمع مهزوم بالقوة · والواقع ان اعتدالها انماينبع من سببين رئيسيين : الاول هو ضعف او ضآلة الجسم السياسي الفلسطيني وانقسامه ، والثاني هو الوعي المشيخي الزائف المفوت الذي يملك وعيا جعله يخطيء الحلقة المركزية في احباط المشروع الصهيوني ، حلقة تتمثل في النضال لنقل مركز القرار في المسائل الحاسمة ، مسألة الهجرة مثلا ، الى اليد العربية ، اي بشكل عام اعتبار مطلب استقلال فلسطين المقدمة التي لا بد منها لاحباط المشروع الصهيوني · والواقع ان الذبذبات والتعرجات والتناقضات التي وسمت السياسات الانكليزية في فلسطين قد شجعت ميول الاعتدال لدى الحركة الوطنية الفلسطينية ، ناهيك عن دور الدول العربية الموالية لبريطانيا او المسايرة لها ( الاردن والعراق الهاشميين ، السعودية ) ، حيث توهمت ان الروح الايجابية المتعاونة مع سلطة الانتداب قد تدفعها الى مواقف تجهض المشروع الصهيوني · بيد ان السياسة الانكليزية ، بما هي سياسة حديثة ، سياسة واقعية ، ويحكمها بالتالي ميزان القوى · وهذا ما فات الحركة الوطنية الفلسطينية ان تفهمه ·

وقولنا ان اعتدال الحركة الوطنية الفلسطينية ووعيها المشيخي هما اللذان جعلاها تخطىء الحلقة المركزية في احباط المشروع الصهيوني لا يعني ان العكس صحيح ، اي ان التطرف كان سيحبط المشروع الصهيوني ، ذلك ان العرب كانوا يخسرون وهم في مواقف الاعتدال ، فكيف الامر لو انهم اصبحوا في مواقف التطرف دون ان تسندها قوة تجعلها تعبيرا صادقا عن ميزان القوى الفعلي ( ناهيك عن ان امين الحسيني انتقل الى مواقع التطرف عندما اصبحت مشاريع التقسيم مطروحة بصورة جدية ) · قيل بحق : الزائد اخ الناقص · والتطرف والاعتدال ليسا موقفين قابلين للتقييم بشكل منفصل عن الواقع العياني ، وبالتحديد عن نسبة القوى الفلسطينية ـ اليهودية · الاعتدال قد يكون في حالة ما حماقة وفي حالة اخرى حصافة · والتطرف قد يكون في حالة ما في منتهى الواقعية الثورية ، وقد يصبح في حالة اخرى هبلا ثوراويا · المهم تحليل وتقييم كل حالة على حدة ومعرفة نسبة القوى بالضبط ، ثم اتخاذ الموقف المناسب ·

لقد حمل الوعي العربي ، بما هو وعي امتثالي ومحافظ ، العامل الدولي

كل مسؤولية البلايا والهزائم التي منيت بها الامة العربية ( على الساحـــــــة الفلسطينية بالتحديد ) ، التي وقعت ضحية مؤامرة شيطانية محبوكة منذ زمن طويل ونهائية وحتمية لا مفر منها · هنا ، يحجب هذا الوعي الامتثالي الواقع العياني ويعدم فكرة التجربة التاريخية لدى الانتلجنتسيا العربية ، ويجعلهـا ، بالتالي ، غير قادرة على التعلم من الممارسة ( ممارستها تبقى تكرارية ،وبالتالي غير ابداعية ) والاعتراف بالتقصير الذاتي · انتلجنتسيانا هذه لا تراكم ، رأسها برميل بلا قعر · وتجارب العقود الثلاثة الماضية من الصـــــراع العربـــي – الاسرائيلي تشهد على ذلك ، بل تؤكده ·

كتب المؤرخ الفلسطيني ، وليد الخالدي ، ما يلي : « ان مؤرخ المستقبـــل سيشير بأصبعه الى هذه الايام القليلة من شهر نيسان ١٩٤٨ قائلا : ان فلسطين سقطت عمليا بين ٦ و ١١ نيسان » ·

نحن العرب لم نفقه بعد وحدة الزمان ، اي ترابط وتواصل وحداتـــه او لحظاته ، كما اننا لم نفقه بعد ان هذا الترابط ذا طابع سببي وتراكمي · لذلـك نخدع انفسنا بالحديث عن « لحظات تاريخية » و « ايام مصيرية » ( لنتأمل هذه الفخفخة اللفظية وكيف تلعب لتمويه الواقع او حجبه ) غلبنا فيها وقررت ، هي وحدها ، نتيجة الصراع · فقط عندما نرى ان الزمان مؤلف من وحدات تنبثق كل واحدة من جوف الاخرى ، وحدات مترابطة ترابطا ذا طابع سببي وتراكمي، يمكننا ، من جهة ، ان نكتشف عقلانية التاريخ ، وبالتالي استحقاقنا الجزاء الذي فرضه علينا ( ونعني الهزيمة امام الصهيونية ) ، ومن جهة ثانية ان نعي ان فلسطين لم تسقط في أيام ، كما لم تسقط في شهور ، بل انها كانت تسقط كل يوم كسرة بعد كسرة وحجرا بعد حجر ، منذ صدور وعد بلفور وحتى اعـــلان دولة اسرائيل · سقطت فلسطين خلال الثلاثين سنة هذه ، وكل يوم في هـذه الفترة ( هذا اذا اغمضنا العين عن القعود التاريخي العربي الطويل ) كـــان معركة ننهزم فيها امام الصهيونية ، وكل يوم من هذه الفترة كان لحظة حاسمة، لحظة مصيرية ، قررت مع اللحظات الاخرى الوضع الذي انتهت اليه فلسطيـن في العام ١٩٤٨ · ولاننا لم ندرك وحدة الزمان ، بدت كارثة فلسطين ، فـــي كتب التاريخ العربية ، حدثا لا عقلانيا ، صدفة ، شيئا ما جاء به الغيـــب او فرضه القدر ، لا نتيجة متوقعة لقعودنا التاريخي الطويل وحصيلة عقلانيـــة لمواجهة استمرت نصف قرن تقريبا بين **جماعة ومجتمع** ، اي بين جماعة مفوتة ومجتمع حديث ، وبعبارة محددة اكثر : بين جماعة ما قبل بورجوازية ومجتمع بورجوازي ·

والواقع ان هذه النظرة العربية الى الزمان هي التي تفسر لم كانت سياسات الحركة الوطنية الفلسطينية والدول العربية عموما انتظارية تارة ورد فعـــل تارة اخرى ، ونادرا جدا ما كانت فعلا ( ناهيك عن كونها ضعيفة الامكانيـــات

والوسائل ) ، في حين كانت الحركة الصهيونية ترى الزمان بوصفه عاملا حاسما في المعركة وتستخدمه ، بملء قوتها وقدرتها ، للوصول الى نقطة يميل فيها ميزان القوى المحلي لصالح البيشوف ، باعتباره عتلة الدولة اليهودية المنشودة · ولقد لعبت النظرة اللااخلاقية الرومنسية العربية الى الحق دورا في تشكيل نظرتهم الى الزمان ، باعتباره يحوي غيبا ما او قدرا ما يسند الحق التاريخي العربي في فلسطين ·

اذا ، عندما نعي ان وحدات الزمان مترابطة على نحو تراكمي وسببي ، وبالتالي عندما نعي ان عقلانية ما تربط وتنظم احداثا تتدافع في مسار تاريخي ما، وبكلمة عندما نقر بعقلانية التاريخ ، لا يعود في الوسع سوى الاقرار ان قيام اسرائيل كان امرا متوقعا · بل يمكن القول ان قيام اسرائيل اصبح مؤكدا عندما مال ميزان القوى المحلي الى جانب البيشوف في العام ١٩٣٩ · بفعل هذا العامل او ذاك ، كان ممكنا ان يتأخر قيام اسرائيل سنة او سنوات ، او كان ممكنا لاسرائيل ان تكون أصغر أو اكبر مساحة ، الا ان قيام دولة لليهود كان امرامؤكدا بفضل ميزان القوى المحلي ، الذي حوله البيشوف لصالحه ، والذي لم يلبث ان صنع امرا واقعا ، سرعان ما فرض نفسه وشرعيته على العالم ·

لقد كان تكون اسرائيل سيرورة متصلة من المواجهات والمعارك على مختلف الاصعدة ، السياسية ، الثقافية ، الاقتصادية ، الحربية ، سيرورة بقيت دائرة مدة ثلاثين عاما ونيف · وبالتالي لم يكن قيامها شيئا من قبيل الضربة القاصمة الخاطفة التي حسمت في أسابيع او شهور · حتى المعارك العسكرية ، التي نشبت بين العرب واليهود ، قبيل الانسحاب الانكليزي وبعيده ، للسيطرة على الارض الفلسطينية هي مجرد حلقة في سيرورة صراع طويلة ، ونتيجتها كانت حصيلة تراكم استمر طوال هذه الحقبة ، وكانت محكومة بالتالي بالعوامل نفسهاالتي حكمت الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، منذ وعد بلفور وحتى اعلان دولة اسرائيل · الا ان هؤلاء الذين ينكرون عقلانية التاريخ، وينظرون اليه بوصفه كوما من الاحداث التي تحكمها الصدف ، غير القادرين ، بسبب وعيهم المحافظ، على استيعاب التجربة التاريخية العربية ونقدها والامساك بدور التقصير والقصور الذاتيين العربيين في الهزيمة في فلسطين ، لا بد منزلقين الى نزعة قدرية ، حيث تبدو الهزيمة زلة قدر سيء لا مفر منها ، او يبدو وكأنه ـ اي التاريخ ـ اخذ مسارا غير عقلاني ، الامر الذي يضاعف عجزنا امام اسرائيل، لانه يمنعنا من الامساك بالاسباب الحقيقية التي فرخت الهزيمة ·

لو ان اسرائيل قامت نتيجة حظ عربي عاثر ، لو انها قامت في غفلة عن التاريخ ، لو انها كانت غلطة لا عقلانية من غلطات التاريخ ،لو انها قامت بسبب « اخطاء » عربية غامضة او غير بنيانية ، لما امكنها ان تستمر حتى اليوم ، لان العرب سيكونون قادرين حتما وبلا تأخير على ان يعيدوا للتاريخ عقلانيته ويجعلونه يصحح هفوته بتكنيس اسرائيل من الوجود ·

بعد توقيع اخر اتفاقية للهدنة بين الدول العربية واسرائيل في شهر نيسان ١٩٤٩ ، قال بن غوريون في خطاب القاه امام ضباط الهاغاناه ، التي تحولت الى ( جيش الدفاع الاسرائيلي ) ما يلي :

« ان ما تحقق لنا هو نصر تاريخي عظيم للشعب اليهودي كله ، كان اكبر مما تصورناه وتوقعناه · ولكن اذا كنتم تعتقدون ان هذا النصر قد تحقق بفضل عبقرياتكم وذكائكم فانكم على خطأ كبير · اني احذركم من مخادعة انفسكم · لقدتم لنا ذلك لان اعداءنا يعيشون حالة مزرية من التفسخ والفساد والانحلال » ·

لقد لخص بن غوريون البلايا العربية باحكام · هنا ولدت الهزيمة ، ومن هنا تبدأ عملية تصفية الهزيمة ·

---

**الحواشي :**

(١) لو ان ثمة فيدرالية ، او شيء من نمط اقطاعي غربي ، حيث يعيش الاقطاعيون في الارض التي يملكون ، لما حدث مثل هذا الانتقال ، الذي سهله اقطاعيون فلسطينيون وغير فلسطينيين ·

(٢) ن· فانشتوك : **الصهيونية ضد اسرائيل** · ص ٦٨ ـ ٦٩ ·

(٣) عبد القادر ياسين : **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨** ، ص ٣٦ · نقلا عن خليل سكاكيني ·

(٤) فانشتوك ، ص ١٦٥ ·

(٥) عبد الوهاب الكيالي : **تاريخ فلسطين الحديث** ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ·

(٦) تقرير اورسبي غور ١٩١٨ اوردها الكيالي ، ص ١٢٤ ·

(٧) تطور الحركة الوطنية السورية كان اخر ، حيث مرت في مرحلتين · الاولى التي استمرت حتى نهاية الثلاثينات ، كانت تقليدية · اما الثانية فلعب فيها مثقفون متنورون دورا بارزا ، ناهيك عن دور العناصر شبه البورجوازية وشبه الحديثة ·

(٨) مكسيم رودنسون : **اسرائيل والرفض العربي** · ص ٣٢ ـ ٣٣ ، ٣٧ ·

(٩) ناجي علوش : **المقاومة العربية في فلسطين (١٩١٧ـ١٩٤٨)** ، ص ١١٣ ·

(١٠) مكسيم رودنسون : **اسرائيل واقع استعماري** ، ص ٥٠ ـ ٥٢ ·

(١١) هاني الهندي : **حول الصهيونية واسرائيل** ، ص ١٠٩ ·

(١٢) رودنسون : « **اسرائيل واقع استعماري ؟** » ، ص ٨٢ ـ ٨٤ · **وايضا** « **اسرائيل والرفض العربي** » ، ص ٣٩ ·

كلوفيس مقصود

# الثورة الفلسطينية وحركة التحرر العربي
# أولويات والتزامات

بين الحين والاخر ، لا بد من وقفة مراجعة ، فالاحداث المتتالية تبقي كل واحد منا مشدودا اليها ، ولا نستطيع دائما ان ننفذ الى ترابطها وتداخلها بما فيه الكفاية · يبقى السؤال امام الملتزمين بحركة التحرر العربي هو : كيف نؤمن لانفسنا المسافة الكافية التي تتيح لنا نظرة اكثر شمولية لمجمل ما تواجهه قضايانا المصيرية من تحديات ، وتتيح لنا تقييما اكثر دقة وموضوعية للمسؤوليات المترتبة على الذين اؤتمنوا على التراث الثوري والتغييري في ارجاء الوطن العربي باسره ·

واذا انصب اهتمامنا مرحليا على دور الثورة الفلسطينية ، فهذا لا يعود لكونها ثورة فلسطينية ، تقع مسؤولية معالجة شؤونها على المنتسبين تاريخيا الى الشعب الفلسطيني ، بل لكونها جزءا عضويا متفاعلا مع حركة التحرر العربي ومنفعلة بدورها بها · لكن هذه الحقيقة البديهية بالنسبة الينا قد حامت حولها شكوك نظرا الى التردي الذي اصاب حركة التحرر العربي ، مما اضطر الثورة الى تأكيد خصوصية دورها ومقتضيات تعاملها مع الانظمة العربية بالاضافة الى حتمية تداخلها مع حركة التحرر العربي نفسها ·

ومن جهة اخرى ، فان حركة التحرر العربي لم تبرز بدورها على الخريطة السياسية العربية بما هو اكثر تماسكا ووضوحا من كونها « حركة » · لذلك بقيت في السنوات الاخيرة تشيع مناخا فكريا معنا اكثر مما تثبت فعالية سياسية منتجة · لكن ، ومن حيث انها اشاعت مناخا فكريا اكد وحدة المصير العربي وعضوية الترابط بين شعوب الاقطار العربية ، فقد حالت دون ان تتمكن

بعض النخب الحاكمة من ان تحقق لذاتها تفردا مطلقا بالقرارات التي من شأنها التأثير على الاهداف القومية · اكثر من ذلك ، فان المناخ الفكري المشار اليه أمن للثورة الفلسطينية درجة كافية من الاحتضان الجماهيري ، مما ساهم في ابقاء القضية الفلسطينية في صلب الاهتمامات المركزية للامة العربية ولشعوبها·

غير ان ابقاء القضية الفلسطينية محور الالتزام القومي لم يكن ، ولن يكون بحد ذاته عنصرا كافيا لمجابهة ما تحوكه المحاور الامبريالية والصهيونية لهذه القضية من مؤامرات ومخططات من اجل تصفيتها بالتدرج . ومن خلال عمليات الانقضاض المباشر عليها وعلى الثورة المسؤولة مباشرة عنها · من هنا يتبين لنا ان الثورة الفلسطينية هي الى جانب كونها مسؤولة مباشرة عن تنظيم نضال الشعب الفلسطيني وتمثيله لانجاز حقوقه التاريخية والوطنية والقانونية في انشاء دولة مستقلة له في وطنه ، هي ايضا الشريحة الرئيسية والطليعية لحركة التحرر العربي · هذا يعني ان على حركة التحرر العربي ان تنضبط باولويات هذه الثورة وان تساهم بدورها في قراراتها · فاذا كانت الثورة الفلسطينية طليعة حركة التحرر العربي فان هذا يعني ان العلاقة القائمة بينهما هي عضوية ومصيرية ، لذا فلا مفر من المشاركة في القرار الفلسطيني مثل ما هو مطلوب من حركة التحرر الانضباط به ·

اننا بتأكيدنا على هذه الناحية من العلاقة نرجع موضوع الترابط الى اصوله · فالثورة الفلسطينية هي خميرة الثورة العربية التي اصابها العديد من الانتكاسات السياسية والعسكرية ، مما دفع الثورة الفلسطينية الى التأكيد على خصوصيتها الفلسطينية دون فك الارتباط عن الحركة العربية او الانسلاخ عن الواقع القومي الذي تنتمي اليه كيانيا ومصيريا · لكن الثورة العربية تقلصت ـ خاصة بعد عام ١٩٦٧ ـ الى دور الضامن لاستمرارية المناخ القومي الذي يمكن الثورة العربية المحتملة من استعادة حيويتها وبناها الهيكلية ·

جاءت الثورة الفلسطينية تستجمع ما توفر لدى الشعب الفلسطيني من تجارب نضالية وثورية وتنظمها في الاطار الفلسطيني ، لان اي تنظيم ثوري موحد على الساحة القومية سوف يؤدي بطبيعة الحال الى انفلاش غير مؤهل للانطلاق ، ويعطل على الشعب الفلسطيني فرصة انطلاقة في ثورته المتجددة · الا ان التردي في الواقع القومي لا يعني مطلقا انعداما لوجود واقع قومي عربي · واذا كان هذا الواقع فاقدا عناصر التثوير مرحليا ، فذلك لا يعني ايضا انه لا يستطيع القيام بوظائف ثورية محددة ، بدليل الضغوط التي مارسها دوليا لصالح منظمة التحرير الفلسطينية ، ومحليا من حيث مساهمة الجماهير في عدد من الدول العربية في تفويت الفرص على المتربصين بالثورة واهدافها بمعنى اخر فان الواقع القومي هو المجال الحيوي للثورة الفلسطينية ، والثورة

الفلسطينية تبقى قادرة على النمو والفعالية ما دامت ترى نفسها على ما هـي عليه ـ من تنشيط احتمالات الثورة في الواقع العربي ككل ٠

ان الثورة الفلسطينية من حيث هي احتمال تثوير للواقع العربي تحصـن نفسها ضد محاولات الانظمة لتطويقها ، او الحد من فعاليتها ٠ كما انها باستمرار نمو نفوذها ، ونشاطها ، تنمي امام الثورة العربيـة مجالات الصيـرورة والجدوى ٠ لكن هذا التداخل المحتوم يجب ان لا يتحول الى تدخل الاطراف فـي شؤون بعضها الداخلية ، لان هذا التدخل من شأنه ان يقلل ويبهت مستلزمات التعامل المطلوبة بنسب متفاوتة للثورة الفلسطينية عند مختلف الاقطار العربية٠ فالتردي في الواقع القومي يفرض على حركة التحرر العربي ان تعتبر نفسهـا حلقة وصل بين ما هو قائم وما يجب ان يتم التحول اليه ، بمعنى اخر ، حركة التحرر العربي هي حركة الفترة الانتقالية ، وهي تفترض ان عدم انضاجهـا الى تنظيم ثوري موحد يعود الى تباين الظروف الموضوعية الراهنة ، والـى تعددية التركيبات الاجتماعية والاقتصادية في الواقع القومي ٠ فحركة التحرر هي بالتالي اقل من تنظيم قومي ثوري للجماهير العربية ، وهي في الوقت ذاته اكثر من التسليم او القبول بمعطيات الواقع القومي كما هي وحركة التحـرر قد تقترب من كونها تنظيما ، او من حالة التسليم ، بمقدار ما تكون الثـورة الفلسطينية نفسها واضحة في توجهها وفي استراتيجيتها ٠ لكن حركة التحرر يمكن ان تستفيد من ظروف اقليمية او قطرية خاصة لتصب مردودها في اطـار دفع حركة التحرر نحو مزيد من الانجاز ومن التوقعات ٠

والثورة الفلسطينية بدورها تستطيع من خلال انجازاتها ونضالاتهـا ان تمنح حركة التحرر ، او ايا من قطاعاتها ، مزيدا من قوة الدفع اذا ما ابدت استعدادا لتوظيف مكاسب الثورة الفلسطينية في سبيل رفع مستوى التنظيم او التحـرك لديهـا ٠

ورغم ان هذا التداخل بين حركة التحرر العربي وبين الثورة الفلسطينيـة هو تداخل عضوي ، حتمي ، ومستمر ، الا ان هذا التداخـل يعتريه ـ وقـد اعتراه بالفعل ـ الكثير من الارتباك والتقطع ، مما اسهم في عـدد مـن الانتكاسات والهزائم التي كان بالامكان تجنبها في عدد من الساحات العربية ٠ لكن الذي نحن بصدده هنا هو اعادة تأكيد الوقائع التالية :

**اولا ـ** ان حركة التحرر العربي هي المناخ الفكـري والسياسي المطلـوب اشاعته حتى لا يتحول التردي الحاصل في الواقع القومي الى واقع جديـد يترسخ فيه التردي ٠

**ثانيا ـ** حركة التحرر العربي هي الاطار الذي تنضوي داخله كل التيارات ، والقوى الحزبية ، والفكرية ، والنقابية ، والجماهيرية ، التـي تنطلـق مـن

مفهوم كون الاقطار العربية تنتمي الى امة عربية واحدة ، وبالتالي تربطهــــا مع بعضها البعض وحدة المصير ٠

**ثالثا** ــ ان حركة التحرر تسلم بالواقع القومي كما هو في ترديه وتمزقـــه لكنها لا تستسلم له بل على العكس ، فانها تعتبر نفسها مسؤولة عن مهمـــة التصدي لهذا الواقع بغية تغييره الى ما يجب ان يكون ٠

**رابعا** ــ ان حركة التحرر العربي مسؤولة فكريا وسياسيا عن تحديد مراحل الى جانب تحديدها اوليات النضال العربي بمعنى اخر ، ان حركـة التحـــرر مكلفة ــ لا بصك تكليف ــ بل بما اؤتمنت عليه من تراث ومن رصيد ، ان تمنع عن الجماهير العربية الامال المغلوطة دون ان تنزع عنها طموحاتها المشروعة ٠ فالمناخ الفكري المطلوب من حركة التحرر تأمينه واشاعته هو بمثابة عمليـــة تثقيف سياسي مطلوب منها القيام بهــا ٠

**خامسا** ــ ان حركة التحرر العربي مسؤولة عن تنشيط الالتزام القومي كلما وصلت الجماهير الى حافة اليأس ، من جراء السلبيات التي نشهدها ونعيشهــا كل يوم ، في مواجهة التحديات المتكاثرة التي تعانيها امتدا وجماهيريا ٠ وهذا بدوره يستلزم ، لا تأكيد الالتزام فحسب ، وانما وضوحا في الرؤيا وابتعــادا عن التزمت واستيعابا للمتغييرات في مسيرة نضالنا ٠

**سادسا** ــ ان حركة التحرر ، وهي ما يعادل المفهوم الحالي للجبهة العريضة، لا بد ان تكون واعية للتباينات الحاصلة بين ما تتشكل منه ، الا ان مهمتها في هذا المضمار هو ان تحول دون تحول التباين الى تناقض ، فيحصل نفس النزيف داخلها مثل الذي يحصل داخل الواقع القومي نفسه ٠ عندئذ تكون حركـــة التحرر حافزا لمزيد من التردي بدلا من ان تكون رادعا لتماديـــه في الوقت الحاضر ، وحافزا لمزيد من التغيير في الواقع العربي الراهن ٠

**سابعا** ــ وحيث ان المرحلة الراهنة تشكل مانعا لتحول حركة التحرر مــن حركة الى تنظيم لثورة ، فان هذا يعطيها من حرية التحرك في عدد من الاقطار العربية ما يمكنها من ممارسة ضغوط مشروعة في سبيل الاهداف الانية والمرحلية لحركة التحرر نفسها ٠ واذا ما استعملت هذه الحرية بحكمة فانها تؤدي خدمات جمة في مجال تأمين المساعدات اللازمة للثورة الفلسطينية نفسها وللقضايـــا المطلبية الملحة داخل العديد من الاقطار العربية ٠ الا ان حرية الحركة تفتـرض مرونة فيالتعامل مع من هم من خارج اطار حركة التحرر دون ان تعني هـــذه المرونة استعدادا لتمييع اهداف الحركة نفسها او المقاييس التي بها تقـــاس القضايا القومية التي نلتزم بهـــا ٠

يستتبع هذا بالضرورة عملية تمييز جوهرية بين المرونة والميوعـــة مـن جهـة

وبين الصلابة المطلوبة والتشنج المرفوض · ولمزيد من الايضاح ، كثيرا ما عانت فصائل حركة التحرر العربية ـ والثورة الفلسطينية ـ من جــــراء الخلــــط المقصود ، او الخلط البريء ، بين صلابة الموقف والتشنج ، في حين ان مــــا من عامل يضر الموقف الصلب اكثر من وقوعه في التشنج · فالموقف المبــدئي الصلب هو الموقف المبني على الالتزام المدروس · بينما الموقف المتشنج هو في احسن حالاته التزام اهوج مرشح بالتالي لان يتلاعب به الخصم ، لضـــــرب الموقف الصلب او لجعله يتآكل من جراء الضربـــــات التي يسددها اليــــه المتشنجون ·

كثيرا ما اثبتت التجارب كيف ان المزايدة وجو التشنج الذي يخلقه ، كـــان يعطل قرارات مصيرية ويجعلها غير قابلة للتنفيذ ، كم وجدنا كيـــف ينتحـــل التشنج صورة المتصلب ويزور الموقف من اجل ان يسلبه فرص الانجـــــاز والجـــــدوى ·

من جهة اخرى فان التجارب النضالية التي عاشتها جماهيرنـــــا اثبتت ان الكثيرين قد دعوا حركة التحرر والثـــــورة الفلسطينية للتحلي « بالرويـــة » و « الواقعية » ، وان مقومات المرونة تستوجب انجاز الممكن والتخلي عـــــن المستحيل · وعلى الرغم من صحة هذا التوجه الا ان البعض ممـــن نـــــادوا بالمرونة ، ظلوا يتخلون عن مسلمات قضايانا حتى اوصلوها الى نقطة الانفجار، بحيث صارت الدعوة للمرونة مدخلا لتمييع المواقف تمهيدا للتخلي عنها ·

لذا كان هناك دوما تحد امام قيادات حركة التحرر العربي وقيادات الثـــورة الفلسطينية · وهذا التحدي يكمن في ابقاء مسيرة التحرر ـ والثورة ـ بمنأى عن الانجرار الى مواقع المتشنجين ·· وهذا التحدي والمقدرة على مواجهته هو محك القيادة السليمة والمؤهلة · الا ان المفروض على قيادات حركة التحـــرر والثورة الفلسطينية من اجل حماية المسيرة النضالية من المهاوي والمزالـــــق المشار اليها ، هو ان تستلهم في توجيهها وتنظيمها لمسار الحركة والثورة النهـج الذي يضمن الانضباط ضمن معطيات الانسجام المبدئي واستمرارية الجـــدوى والفعالية ، وهذا يقتضي دوما استيعابا للمتغييرات من جهة ومقدرة على ربطها مع الثوابت من جهة اخرى ·

يبقى ان تحدد الثوابت ويكون الالتزام بها واضحا . فالالتـــزام بالثوابـت يؤدي الى ايجاد الرصيد الكافي من الثقة لدى الجماهير بالقيادة . مما يتيـــح لها التكيف مع المستجد من المتغييرات في كل الاحوال ، على قيادة حركة التحرر العربي والثورة الفلسطينية ان تجعل من الثوابت العامل المرجـــح في كـــل القرارات ، الا ان الثوابت التي لا تلائم نفسها مع المتغييرات تصبح مبـــادىء جامدة ، والى حد كبير متحجرة ·

وبالقدر نفسه ، من الخطورة على القيادات الملتزمة بحركة التحرر العربي ان تمتنع عن ان ترتهن للمتغييرات لدرجة التصرف وكأن المتغيرات هي بالضرورة مناقضة للثوابت ، في هذا المضمار هناك دوما احتمال ان تصبح قيادات حركات التحرر سجينة المغييرات ، وبالتالي بعيدة عن الثوابت المبدئية · يترتب على قيادات حركة التحرر العربي اذن جعل الثوابت المبدئية متحكمة بالمتغيرات ، من حيث استيعابها والتكيف بمقتضياتها · لكن الثوابت يجب ان تكون بدورها محكومة بما تفرضها هذه المتغييرات من موازين قوى وتحديات جديدة في الساحات الوطنية والقومية والدولية ·

ان التنسيق المستمر بين ما اسميناه بالثوابت المبدئية والمتغيرات الجديدة يفرض على قيادة حركة التحرر ، الى جانب الالتزامات المبدئية بالثوابت ، اداة التقاط قادرة على رصد المعلومات وتحليلها حتى تجيء قراراتها متمتعة بالمناعة الكافية التي تجعلها مستوعبة لاحتمالات ما تنطوي عليه القرارات من اوجه اجرائية وتنفيذية ، وما يمكن للقرارات المتخذة ان تستجلب من مخاطر ، المهم في القرار ان يحتوي على عنصر المغامرة في حده الادنى ، وعنصر الفعالية في حده الاقصى · وحتى يتمكن قرار قيادة حركة التحرر العربي من ان يكون مستوفيا هذه المواصفات لا بد ان يكون حصيلة منهج ديمقراطي سليم · فالديمقراطية من هذا المنظور لا تشكل التزاما اخلاقيا او نزعة طوباوية بمقدار ما تصبح الديمقراطية في اسلوب اتخاذ القرارات حاجة ملحة لحركة التحرر وللثورة الفلسطينية ·

لذا فان اصرارنا على المنهج الديمقراطي في اتخاذ القرارات الثورية ومن جانب حركة التحرر العربي هو نتيجة قناعتنا وتجاربنا المريرة التي وجدنا كيف ان كثيرا من توقعاتنا المنطقية خابت ، لان القرارات لم تتضمن الاراء المخالفة او بالاحرى لم تتعرض لها · في هذا المضمار وجدنا كيف ان قيادات حركة التحرر العربي ، اتخذت بعض قراراتها مستندة على معلومات المخبرين بدلا من تحاليل ومعلومات الملتزمين ، فالقيادة عندما تمتلك سلطة القرار ، كثيرا ما تتكون لديها قابلية الاستماع لما تحب ان تسمع اكثر من قابلية الاستماع الى ما يجب ان تسمع · هذا الضعف الذي انساق الكثير من قيادات حركة التحرر العربي بشتى فصائلها وراءه ، جذب الى دائرة المقربين من القيادات عددا من الطفيليين ، الذين اسهموا في اقفال قنوات الحوار والمناقشة · الا ان الجدير بالذكر في هذا المضمار ان قيادة الثورة الفلسطينية تمكنت نتيجة طبيعة التحديات الشرسة التي تجابهها ان تجعل الدورة الدموية نشطة في عقل الثورة لابقائها قنوات الاتصال مفتوحة مع الرأي الشجاع الذي وان خالف القرار يبقى منضبطا بمقتضياته ·

ان تشديدنا على ضرورة اتباع المنهج الديمقراطي في قرارات حركة التحرر

العربي ، وفي قرارات الثورة الفلسطينية يعود ، كما اشرنا ، الى التجارب المرة التي كثيرا ما ارهقت الجماهير وابطلت مفعول الكثير من تطلعاتها · وقيادة حركة التحرر مسؤولة الى حد كبير عن المستقبل العربي ككل · فهي ليست مطالبة بان تتصرف كسلطات قائمة · فالسلطة في واقع الامة المجزأ تتحول بحكم الارضية القومية المتردية الى هدف بحد ذاته · اي ان بقاء السلطة يصبح هو الاهم من الاهداف التي جاءت السلطة لانجازها · وعلى الرغم من ان كل عمل سياسي وثوري يجب ان يستهدف الاستيلاء على السلطة ، الا ان السلطة تستنفد ذاتها اذا هي اصبحت هدفا بحد ذاتها · ولعل الكثير من المشاكل التي اعترت سبيل حركة التحرر العربي انها تعاملت مع عدد من الانظمة التقدمية والوطنية على اساس ان السلطة التي تتمتع بها هذه الانظمة في بعض الاقطار العربية هي مواقع صلبة لمزيد من الانطلاق لحركة التحرر ، واذا بها تصطدم بحقيقة انْ معظم هذه الانظمة تريد توظيف التزام فصائل حركة التحرر بالاهداف المشتركة ، او بالشعارات المشتركة ، لخدمة مآرب استمرارية السلطة في هذه الاقطار ·

ان المعاناة الحقيقية التي تعيشها حركة التحرر العربي يمكن ان تصبح اقل حدة اذا تمكنت الثورة الفلسطينية ان تستبقي لنفسها استقلالية الحركة وحرية التعامل · فالعلاقة العضوية بين حركة التحرر العربي والثورة الفلسطينية تفرض على حركة التحرر العربي تقيدا باولويات الثورة الفلسطينية هذا بالطبع لا يعني اي تخل عن الاولويات القطرية الطارئة على فصائل حركة التحرر ، ولا عن التوجه الدائم والدؤوب لمعالجة المشكلات اليومية التي تواجه اطراف حركة التحرر ، كما ان من الضروري جعل الاهداف القومية في الوحدة والتغيير والتنمية والتقدم ماثلة باستمرار امام الجماهير لئلا تغرق في الهموم المتبعثرة والحادة التي تخلقها حالة التمزق والتجزئة فـي الوطن العربي ، ولا تستطيع حركة التحرر العربي ان تجعل من تداخلها الفعلي العضوي المستمر وسيلة تعطل استقلالية الثورة الفلسطينية · ان هذه الاستقلالية شرط لتمكين الثورة الفلسطينية من التصدي للعدو الصهيوني بكل ما تستطيع ان تستقطبه من ادوات ضاربة وضاغطة · وهذه الاستقلالية التي تمارس في المنطق الجدلي القومي هي نقيض التفرد ، في حين ان الاستقلالية في المنطق الانعزالي والرجعي مدخل الى شرعية التفرد والانسلاخ ·

يتضح اذن ان حركة التحرر العربي تسلم بالدور القيادي والطليعي للثورة الفلسطينية ، لا لان حركة التحرر تتصور دورها ملحقا بالثورة ، بل لان الثورة الفلسطينية والاهداف المرحلية التي تعبر عنها وتعمل من اجلها ، تشكل الاولوية المطلقة لحركة التحرر نفسها · ومن حيث ان حركة التحرر العربي غير مؤهلة ، جهازيا وعمليا ، ان توجه مسيرة التحرر والثورة ، وانما مهامها

تقتصر ـ نظرا للظروف الموضوعية الراهنة ـ على حماية الثورة واحتضانها ، فان مسؤولية توجيه حركة التحرر العربي بشكل مباشر تقـــع على الثـــورة الفلسطينية نفسها · لكن قولنا هذا يريد ان يعني ان حركة التحرر العربي هي في المنظور التاريخي الحركة الام للثورة العربيـــة ، في حين ان الثـــورة الفلسطينية ، ازاء التردي في الواقع القومي ، تختزن طاقات ثورية تتعـــدى مجرد التصدي للكيان الصهيوني ومشاريعه العدوانية والتوسعية الى كونها كما قلنا خميرة الثورة العربية المحتملة ·

يترتب على ادراكنا للمحاذير التي اشرنا اليها ان تكون حركـــة التحـــرر العربي واعية لدورها المساند ولحقها في الاسهام في قرارات الثورة الفلسطينية الا ان الظروف التي تجتازها المنطقة وخطورة المؤامرات على الثورة الفلسطينية قد تستوجب احيانا ان لا تعامل الثورة حركة التحرر او بعض فصائلها بالمثـل فالثورة محقة ان تنتظر من حركة التحرر كل عون ، في حين ان حركة التحـرر العربي لا يمكن ان تتوقع المستوى نفسه من العون او المساندة ، فحركـة التحرر هي المستفيدة في نهاية الامر من كل انجازات الثورة الفلسطينية · فنضـالات حركة التحرر العربي في كافة ارجاء الوطن العربي لا يمكن ان تكون اولويات الثورة الفلسطينية ، لكن اولويات الثورة الفلسطينية هي بالضرورة اولويـــات حركة التحرر العربي · قد يبدو ذلك مفارقة ، لكن المنظور القومي لواقعنـــا الراهن يجعل ، ما يبدو وكأنه مفارقة ، المسؤولية التاريخية لحركة التحـــرر العربـــي ·

صبري جريس

# الرفض الاسرائيلي

تبلورت خلال السنة الاخيرة ، وخصوصا منذ زيارة السادات الى القدس ، مواقف معظم اطراف الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، واتضحت بقدر لا مثيل له في السابق · كما انكشفت ، في الوقت نفسه ، وجهات نظر الانظمة العربية تجاه المشاريع المطروحة لتسوية ما يتعارف على تسميته بأزمة الشرق الاوسط · وخلاصة هذه المواقف ووجهات النظر هي ان « الاعتدال » هو الذي يسيطر على الموقف العربي عامة ـ ان صح التعبير ـ بينما الرفض هو الذي يتحكم في موقف اسرائيل ، وكلما امعن العرب في السير على طريق الاعتدال ، او تقديم التنازلات المختلفة ، تصلب الموقف الاسرائيلي وتعمق رفضا ·

ان نظرة سريعة على المواقف العربية ، الفردية او شبه الجماعية او الجماعية، من ناحية ، والاسرائيلية من ناحية اخرى ، تكفي للوصول الى هذه النتيجة · فالموقف العربي العام تجاه التسوية مع اسرائيل قد تغير بصورة ملحوظة خلال العقد الاخير ، واتجه اكثر فاكثر نحو ما يمكن ان يسمى اعتدالا · وعدا عن بعض الانظمة ، الرافضة قولا والمتخاذلة ـ او المتآمرة ـ فعلا ، هنالك استعداد عربي يكاد يكون شبه شامل للمشاركة في عملية التسوية في الشرق الاوسط او للموافقة عليها و « مباركتها » ، على طريق الايجاب او السلب ، ولاعتبارات خاصة بهذا الطرف او ذلك النظام او تلك الدولة · فالسادات ، مثلا ، وهو زعيم « الايجابيين » ، لم يكتف فقط ، بمجرد زيارته للقدس في تشرين الثاني الماضي ، بتقديم تنازلات للاسرائيليين لم يحلموا بها ، ولم يظهر فقط استعداده للقبول بالمطالب الاسرائيلية الجوهرية ، وعلى رأسها ابداء الاستعداد العلني من قبل رئيس اكبر دولة عربية للاعتراف باسرائيل ، ثم سعيه الى كسر

« الحواجز النفسية » بين العرب واسرائيل ، في ما يوضح عمليا استعدادا نفسيا من قبله للرقص على انغام الدعاية الصهيونية ، بل وقف امام الكنيست( البرلمان) الاسرائيلي ، ليعلن على مرأى ومسمع من العالم اجمع « ان اسرائيل اصبحت حقيقة واقعة اعترف بها العالم وحملت القوتان العظميان مسؤولية امنها وحماية وجودها » ، وليضف الى ذلك ايضا انه « لما كنا نريد السلام فعلا وحقا فاننا نرحب بأن تعيشوا بيننا في امن وسلام فعلا وحقا » · وفي المقابل ، طالب السادات بـ « الانسحاب الكامل من الارض العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ » باعتبار ذلك « امرا بديهيا لا نقبل فيه الجدل ولا رجاء فيه لاحد او من احد » ، موضحا للاسرائيليين « ان قضية شعب فلسطين وحقوق شعب فلسطين المشروعة لم تعد اليوم موضع تجاهل او انكار من احد ··· واذا كنتم قد وجدتم المبرر القانوني الاخلاقي لاقامة وطن قومي على ارض لم تكن كلها ملكا لكم ، فأولى لكم ان تتفهموا اصرار شعب فلسطين على اقامة دولته من جديد في وطنه » · ولكي يسهل على الاسرائيليين ابتلاع هذا القرص ، دعا السادات ايضا الى تحويل القدس الى « مدينة حرة مفتوحة لجميع المؤمنين » ، متنازلا عن المطالب العربية القديمة بشأنها · كما حث على الاعتراف بـ « حق كل دول المنطقة في العيش في سلام داخل حدودها الامنة والمضمونة عن طريق اجراءات يتفق عليها ، لتحقيق الامن المناسب للحدود الدولية اضافة الى الضمانات الدولية المناسبة »، وعلى « ان تنسجم كل دول المنطقة بادارة العلاقات في ما بينها طبقا لاهداف ميثاق الامم المتحدة ومبادئه وبصفة خاصة عدم الالتجاء الى القوة وحل الخلافات بينهم بالوسائل السلمية » ، في ما يشكل مقدمة لـ « انهاء حالة الحرب القائمة في المنطقة » ·

ولم يكتف السادات بهذا القدر من التنازلات · فمع احجام الاسرائيليين عن الاستجابة لاقتراحاته ، ثم اتضاح حقيقة موقفهم الرافض له ، بعد اجتماعه برئيس حكومة اسرائيل ووزير دفاعها على الاقل ، عاد الرئيس المصري ـ وكما يبدو في محاولة للضغط « وديا » على اسرائيل ـ واوضح مفهومه للضمانات والترتيبات الامنية التي يمكن ان ترافق اتفاق تسوية مصري ـ اسرائيلي باعلانه، في منتصف كانون الثاني الماضي ، انه يوافق على « مناطق منزوعة السلاح على الجانبين » ، و « وجود محطات انذار مبكر [ في مصر واسرائيل ] كالموجودة الان [ في سيناء ] » ، « وان تكون هناك مناطق محدودة التسليح » ، و « تحديد للقوات [ العسكرية ] الموجودة [ في سيناء ] » ، و « قوات طوارىء دولية على الحدود حتى في شرم الشيخ » ، و « ان ينص في اي اتفاق للسلام على ان خليج العقبة ··· مياه دولية مفتوحة للملاحة » و « ان تكون لجنة مشتركة من مصر واسرائيل تحت اشراف الامم المتحدة او من دون [ ذلك ] » · ولازالة الاثر « السلبي » الذي تركه كلام السادات في الكنيست حول « ادارة العلاقات »

بين دول المنطقة وفقا لـ « ميثاق الامم المتحدة » ، الذي لا يعني بالضرورة قيام علاقات دبلوماسية او تجارية او سياحية وما شابهها بين الدول الاعضاء في المنطقة الدولية ، اضاف الرئيس المصري « شيئا جديدا » ـ على حد تعبيره ـ الى ما حدده اعلاه ، موضحا ـ متسائلا انه « اذا لم تكف كل هذه الضمانات٠٠ الا يكفي اعلان الاتفاق على التعايش في سلام وفتح الحدود وتطبيع العلاقات ، اي جعلها طبيعية ؟» ٠

وهذه المواقف ، على التنازلات الجوهرية التي تتضمنها ، وان جاءت على لسان السادات بالذات ، لا تمثل سياسته فقط ، اذ ان الرجل حظي بتأييد اكثر من نظام عربي ، ضمنا او صراحة ، علنا او سرا ، لاتجاهاته تلك ٠ ولكن ، على الرغم من ذلك ، كان رد الفعل الاسرائيلي على تلك الاقتراحات مخيبا للامال ، بالنسبة للسادات ومؤيديه ٠ فحكومة بيغن لم تكتف بتجاهل تلك العروض او الضرب بها عرض الحائط فقط ، وانما تقدمت بـ « مشروع سلام » لا يمكن اعتباره الا استفزازا لدعاة الصلح معها واستخفافا بهم جميعا ، وبكل من يتحدث عن تسوية ، من دول عربية او كبرى ٠ ومشروع السلام ذلك يقلب كل مفاهيم التسوية في المنطقة ، التي كانت سائدة حتى تقديمه ، ولا يستند فقط على التنكر لحقوق الفلسطينيين ورفض الانسحاب من معظم الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ ، بل يدعو الى الاحتفاظ بالسيطرة الاسرائيلية على كافة الاراضي الفلسطينية ، واقامة « حكم اداري ذاتي » لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، جوهره انشاء بانتوستان فلسطيني في تلك المناطق ، وهدفه تسهيل عملية تهويدها حتى يسهل ابتلاعها صهيونيا بصورة نهائية ، من خلال انكار وجود شعب فلسطيني ٠ كذلك يدعو المشروع الى الاحتفاظ بالسيطرة العسكرية الاسرائيلية حتى على اجزاء كبيرة من سيناء نفسها ، والابقاء على المستوطنات الاسرائيلية هناك في اماكنها، ولفترة غير قصيرة ، لا يبدو معها انه يمكن ان يكون حل نهائي لتلك المشكلات دون ضم أجزاء من سيناء ، عمليا او قانونيا ، الى اسرائيل بشكل نهائي ٠ اما بالنسبة لهضبة الجولان ، فلم يكلف واضعو مشروع السلام الاسرائيلي انفسهم عناء الحديث عنها ، او حتى ذكر اسمها في مشروعهم ، على اعتبار ان تلك المنطقة ينبغي ان تضم الى اسرائيل نهائيا ٠

ومنذ الاعلان عن مشروع السلام الاسرائيلي هذا ، في نهاية السنة الماضية ، وحتى اليوم ، لم يطرأ عليه اي تغيير او تعديل ، رغم « الضغوط » و « النداءات» و « المناشدات » التي وجهت الى اسرائيل لحثها على الاعتدال واظهار شيء من المرونة ٠ ومن الخطأ ، على كل حال ، توقع حدوث شيء من هذا القبيل ٠

**من لاءات الخرطوم الى نعم الكنيست**

ان السادات ومؤيديه ، لا يمثلون ، بأية حال ، كل العرب ، ولا ينطقون

باسمهم ، كما ان تصريحات الرئيس المصري ووعوده وتنازلاته لا يمكن ان تلزمهم جميعا · فقد شجب عدد من الاطراف العربية مبادرة السادات ، وحذر من مخاطرها ثم تكتل في « جبهة الصمود والتصدي » ، التي ضمت كلا من سوريا والجزائر وليبيا واليمن الجنوبية ومنظمة التحرير الفلسطينية ، لمواجهة نتائجها · غير انه مهما كانت الظروف التي دفعت الى انشاء تلك الجبهة او العوامل التي حركتها ، فمن الخطأ وصفها بانها جبهة « غير معتدلة » او معادية للتسوية في المنطقة ، وان كان لها مفهومها الخاص بها للتسوية · فبيان قمة اطراف جبهة الصمود والتصدي ، الصادر في اوائل كانون الاول الماضي في طرابلس ، يدين زيارة السادات الى القدس لانها ادت ـ من بين ما ادت اليه ـ الى « تخريب امكانية اقامة سلام عادل ومشرف يحفظ للامة العربية حقوقها القومية ويضمن لها تحرير اراضيها المحتلة وفي مقدمتها القدس ، ولشعب فلسطين حقوقه الوطنية الثابتة » · وعبارة « سلام عادل » ليست الا احدى مصطلحات شيفرة التسوية · اما البيان الثاني ، الصادر عن الاطراف ذاتها بعد قمة الجزائر ، في اوائل شباط الماضي ، فانه يلوم « الرئيس السادات » لانه بمبادرته ، « يعمل ضمن المخطط الاسرائيلي الاميركي الهادف الى تقويض امكانات تحقيق سلام عادل يرتكز على الانسحاب الشامل من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني »·

وخلال انعقاد مؤتمر جبهة الصمود والتصدي الاول في طرابلس وقع ممثلو فصائل المقاومة بيانا ، سماه بعضهم حتى « ميثاقا » ، بينما سارع اخرون الى المطالبة بعقد المجلس الوطني الفلسطيني لتبنيه · غير ان ذلك البيان ايضا ، ورغم الظرف الذي صدر فيه ، لم يأت بجديد ولا ينم عن اي « رفض » متزمت ، اذ انه يعلن عن رفض قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ ـ وليس في هذا اي جديد ـ ويطالب بالعمل على احقاق حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة ، « بما فيه حقه في اقامة دولته الفلسطينية المستقلة على اي جزء يتم تحريره من الارض الفلسطينية في هذه المرحلة دون صلح ولا تفاوض ولا اعتراف » ، وليس في هذا ، ايضا ، اي جديد ·

والمواقف والقرارات والبيانات التي اشرنا اليها تجد دعما لها ، من حيث الاستعداد للسير على طريق التسوية ، في قرارات مؤتمر القمة العربي الاخير ، السابع ، المنعقد في الرباط خلال تشرين الثاني ١٩٧٤ ، التي حظيت بالموافقة من قبل كل الدول العربية ( عدا نظام واحد اعلن تحفظه تجاهها ) · وقد نصت تلك القرارات ، التي اكدت قرارات مؤتمر القمة العربي السادس ، على ان « الهدف المرحلي للامة العربية » يتمثل في « التحرير الكامل لجميع الاراضي العربية المحتلة في عدوان يونيو ( حزيران ) ١٩٦٧ ، وعدم التنازل او التفريط

في اي جزء من الاراضي او المساس بالسيادة الوطنية عليها » • كذلك دعـت القرارات الى العمل على « تحرير مدينة القدس العربية وعدم القبول باي وضع من شأنه المساس بسيادة العرب الكاملة على المدينة المقدسة » و « الالتـزام باستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وفق ما تقرره منظمة التحريـر [ الفلسطينية ] بوصفها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني » • وكانت منظمـة التحرير الفلسطينية قد قررت ، قبيل اتخاذ قرارات مؤتمر القمة تلك ، خـلال الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني ( حزيران ١٩٧٤ ) ان الحقوق الفلسطينية تجد تعبيرا عنها ، مرحليا ، في اقامة « السلطة الوطنية » على اي جزء يتم تحريره من الارض الفلسطينية ، ثم استبدل هذا الهدف بآخر ـ اقامة « الدولة الفلسطينية المستقلة » ـ وأقر خلال الدورة الاخيرة للمجلس الوطنـي الفلسطيني ( اذار ١٩٧٧ ) •

والفرق بين هذه المواقف ، على الاختلاف فيما بينها ، مـن حيث ابـداء الاستعداد للسير على طريق التسوية لاسترجاع الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ حتى وان ادى ذلك الى الاعتراف باسرائيل ، قانونيا او واقعيا ، او التسليم بالامر الواقع من ناحية ، وبين لاءات الخرطوم الشهيرة من ناحية ثانية واضح للغاية• فمما لا شك فيه ان تغييرا ملحوظا طرأ على الموقف العربي من اسرائيل خـلال العقد الاخير ، حجمه كالفرق بين نعم الكنيست ولاءات الخرطوم • ولسنا هنا في صدد محاولة دراسة ابعاد هذا التغيير او دوافعه ، بقدر ما يعنينا اثباتـه لمقارنته بالتغيير المعاكس الذي طرأ على الموقف الاسرائيلي من العرب خـلال الفترة نفسها • فبينما كان موقف العرب يتجه تدريجيا نحو الاعتدال ، ويمعـن بعضهم في تقديم التنازل تلو الاخر للاسرائيليين ، كانت اسرائيل تتجه نحـو التصلب وتتشبث بمواقف الرفض ، الاخذ في الاتساع • وللدلالـة على ذلـك ، يكفينا ان نشير ، مثلا ، الى ان في الوقت الذي كان بعض العرب يعلنون عن استعدادهم علنا للاعتراف باسرائيل و « العيش معها في امن وسلام حقا وفعلا»، مقابل انسحابها من الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ ، كانت حكومة بيغـن تحظـى بثقة الكنيست ، في حزيران ١٩٧٧ ، على اساس برنامـج سياسي يعلن « ان للشعب اليهودي حقا تاريخيا ابديا ، غير قابل للطعن ، في ارض ـ اسرائيل ، ميراث ابائنا » ، اي انه لا « يحق » لاسرائيل فقط ، بصفتها « ممثلة الشعـب اليهودي » ، السيطرة على ارض فلسطين بكاملها ، بل ان لها ايضا « حقوقا » في اراضي كل الدول العربية المجاورة لها ، اذ ان ذلك هو المفهوم الصهيونـي لعبارة « ارض ـ اسرائيل » •

والنتيجة الواضحة والبارزة ، المترتبة على هذه المواقف ، هي ان اسرائيـل ترفض ، ببساطة [illegible] ، [illegible] بمعادلة التسوية المطروحة فـي المنطقة، اي : انسحاب مقابل سلام وامن ، استنادا الى مواقف واعتبارات اخرى•

وهذا الرفض الاسرائيلي ملموس جدا ، وهو الذي يتحكم الان ، عمليا ، في مجرى التسوية السياسية في المنطقة ، ويمنع تحقيقها · وبهذا الرفض ، لا تكتفي اسرائيل فقط باتباع سياسة قد تفوت عليها فرصة الوصول الى سلام مع العرب، او مع بعضهم على الاقل ــ وهذا ، على حد زعمها ، حلمها القديم ــ بل انها تتخذ مواقف لا تحظى بتأييد اية دولة في العالم تقريبا ، بما في ذلك اكبر مؤيديها ومتعهدي وجودها ، وعلى رأسهم الولايات المتحدة · ورفض كهذا ، في اوضاع كهذه ، لا بد ان يكون جديا وعميقا للغاية ، كما ان دوافعه واسبابه عديدة ومتنوعة ، منها العقائدي و « التاريخي » والمستقبلي وغيرها ·

## العقيدة الرافضة

لعل اولى اسباب الرفض الاسرائيلي لمعادلة التسوية المطروحة في المنطقة ، على اساس الانسحاب مقابل السلام ، كامن في العقيدة الصهيونية نفسها ، والاهداف التي تتطلع اليها و « الاماني » التي يصبو الصهيونيون والاسرائيليون الى تحقيقها ، كما تعبر عنها تلك العقيدة ، بالتغييرات التي ادخلت عليها من حين الى اخر ·

فالعقيدة الصهيونية لم تكن يوما ما ثابتة او « متحجرة » ، بل على العكس كانت دائما وابدا « مرنة » و « فضفاضة » · وعلى عكس الرأي السائد القائل ، مثلا ، ان هدف الصهيونية هو اقامة دولة يهودية في فلسطين ، لم يكن هذا دائما هو الهدف الصهيوني الرسمي المعلن بالضبط ، بل انه مر في مراحل عدة ، لم يكن خلال بعضها متجانسا بالضرورة مع الدعوة الى اقامة دولة يهودية او التطلع لذلك · والسبب ناجم ، اساسا ، عن حرص الصهيونيين على تجنب الالتزام باهداف ليس من السهل تحقيقها ، او الاعلان عن نيات قد تثير نفورا او استهجانا لدى الاخرين ، مما قد يعرقل تنفيذها ، او الكشف عن مطامع قبل حلول موعدها ، مما قد يدفع الى مقاومتها · ولذلك تطورت العقيدة الصهيونية واتضحت معالمها اكثر فأكثر بشكل تدريجي ، مع ازدياد الصهيونيين صلابة في عودهم واتساع قواعدهم ونمو قوتهم ، وكلما انتهت ، او انهيت ، مرحلة ، حققت خلالها مكاسب معينة ، تغيرت العقيدة ، رسميا على الاقل ، واصبحت اكثر وضوحا في سعيها وراء اهداف اخرى موسعة ــ « والشهية تأتي مع الاكل » ·

وهذا الوصف لكيفية تطور العقيدة الصهيونية ، وبالتالي اتضاح اهدافها ، يكاد يواكبها منذ نشأة الحركة الصهيونية المنظمة وحتى اليوم · ففكرة اقامة دولة يهودية في فلسطين ، مثلا ، طرحت من قبل اكثر من مفكر او زعيم صهيوني، ومن بينهم هرتسل نفسه ، خلال النصف الاخير من القرن الماضي ( وطرحت ايضا قبل ذلك ) · الا ان هرتسل اياه ، عندما اتجه سنة ١٨٩٧ الى عقد المؤتمر

الصهيوني الاول الذي اعلن فيه تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية ، تناسى ما كان قد اعلنه قبل سنة فقط من ذلك التاريخ ، في كتابه « دولة اليهود » ، بشأن ضرورة انشاء دولة يهودية ، وأيد قرارا يعرف هدف الصهيونية على انه سعي الى « اقامة وطن لليهود في ارض ـ اسرائيل ، معترف به وفقا للقانون العام » . وبقي هذا التعريف لاهداف الصهيونية ساري المفعول ، رسميا على الاقل ، قرابة ٤٠ سنة ، لم يطرأ عليه خلالها اي تعديل ـ عدا ، ربما ، عن ذلك الكامن في وعد بلفور ، بدعوته الى اقامة « وطن قومي » لليهود في فلسطين ، لا « وطن » فقط ، او في صك الانتداب ، بـ«اعترافه » بـ « العلاقة التاريخية بين اليهود وارض ـ اسرائيل » . وهذه ، على كل حال ، ليست وثائق او اعلانات صهيونية رسمية بحتة . بل يمكن الاشارة ، في هذا الصدد ، الى ان المؤتمر الصهيوني السابع عشر ( ١٩٣١ ) رفض صراحة تبني مشروع قرار يدعو الى تعريف « الهدف النهائي » للصهيونية بانه اقامة دولة يهودية ، كان قد تقدم به الصهيونيون الاصلاحيون ، لاعتقاد اكثرية اعضاء المؤتمر ان الوقت انذاك لم يكن ملائما لذلك ، مما دفع جابوتينسكي الى تمزيق بطاقة عضويته في المؤتمر والانسحاب ، مع مؤيديه ، منه .

غير ان اهداف الصهيونية راحت تتغير ، وتزداد وضوحا ، تدريجيا ، مع نمو القوة الصهيونية من ناحية ، ونشوء الظروف الدولية الملائمة من ناحية اخرى . فالمؤتمر الصهيوني العشرون ( ١٩٣٧ ) رفض ، مثلا ، اقتراح تقسيم فلسطين الذي تقدمت به بريطانيا ، في محاولة للتوفيق بين العرب واليهود ، اثر انتهاء المرحلة الاولى من الثورة العربية الكبرى في فلسطين ( ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ) . ولكنه فوض الزعامة الصهيونية اجراء مفاوضات مع بريطانيا « لتوضيح محتويات اقتراح ... تأسيس دولة يهودية في ارض ـ اسرائيل » . ومع سقوط اقتراح التقسيم ، باستمرار الثورة العربية ، ثم اضطرار بريطانيا الى اصدار الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ ، الذي فرض قيودا على هجرة اليهود الى فلسطين وشرائهم الاراضي فيها ، ثم نشوب الحرب العالمية الثانية ، « عدل » الصهيونيون طلباتهم ، فدعوا في اجتماع عقدوه في فندق بلتيمور في نيويورك ، سنة ١٩٤٢ ، الى اقامة « كومنولث يهودي » في فلسطين ، وذلك من خلال تحويل حق المراقبة على الهجرة الى البلد واستغلال الاراضي فيه الى الوكالة اليهودية . وقد حظيت قرارات اجتماع بلتيمور ، فيما بعد ، بتأييد مختلف المؤسسات والاجهزة الصهيونية . غير ان الصهيونيين تجاوزوا ذلك المطلب مع انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين . وعندما صدر عن الامم المتحدة سنة ١٩٤٧ قرار تقسيم فلسطين ، واقامة دولتين فيها ، عربية ويهودية ، رحب الصهيونيون به ، وراحوا يستعدون للاعلان عن اقامة دولتهم ، الى ان تم لهم ذلك في منتصف ايار ١٩٤٨ .

ومع اقامة اسرائيل وتثبيت قواعدها ، بالحصول على الاعتراف الدولي بها ، واحكام سيطرتها على ذلك الجزء من فلسطين الذي احتل سنة ١٩٤٨ ، ثم توقيع اتفاقيات الهدنة مع الدول العربية ، طرأ تغيير ملحوظ ، نحو الاسوأ ، على وضع المنظمة الصهيونية العالمية خاصة ، والموقف من الصهيونية عامة · فقد ادت اقامة الدولة اليهودية الى ظهور اراء وتبلور وجهات نظر جديدة بين الصهيونيين والاسرائيليين ، مفادها ان مع انشاء اسرائيل لم تعد هنالك ضرورة لحركة صهيونية ، وما على الصهيوني المخلص الا الهجرة الى الدولة اليهودية ، باعتبار ان هذا هو واجبه الرئيسي · ولم تحظ وجهات النظر هذه ، على كل حال ، بتأييد الكثيرين ، الا ان التمسك بها من قبل مجموعة من الزعماء الاسرائيليين البارزين ، كان على رأسهم بن ـ غوريون نفسه ، لم يساهم في الاعلاء من شأن الحركة الصهيونية عامة · كما ساعد على تقوية هذا الاتجاه انتقال معظم صلاحيات الاجهزة الصهيونية ، ومعها مركز الثقل الصهيوني ، الى اسرائيل نفسها ، بوزاراتها ومؤسساتها واجهزتها المختلفة ، وظهر كأن الحركة الصهيونية باسرها تحولت الى مجرد هيئة تابعة لاسرائيل ، التي تشرف عليها وتتحكم في نشاطها · ووجد هذا الاتجاه تعبيرا واضحا عنه في قرارات المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين ( ١٩٥١ ) ، وهو اول مؤتمر صهيوني يعقد بعد اقامة اسرائيل في القدس ، التي نصت على « ان مهمة الصهيونية هي : تدعيم دولة اسرائيل ، جمع الشتات في ارض ـ اسرائيل وتأمين وحدة الشعب اليهودي » ·

غير ان هذه النظرة تجاه الصهيونية لم تدم طويلا · فمع تراكم المشكلات المختلفة ، الداخلية والخارجية ، في وجه اسرائيل ، سواء كانت تلك التي نجمت عن الحاجة الى بناء مرافقها المختلفة واستيعاب المهاجرين فيها ، او الاخرى التي سببها الحصار العربي للدولة اليهودية ، برزت ضرورة الاستعانة بعوامل خارجية ، وفي مقدمتها يهود العالم ، لايجاد الحلول المناسبة · ولذلك عادت اهمية الحركة الصهيونية الى الظهور مجددا ، باعتبارها حلقة الوصل بين اسرائيل ويهود العالم وغيرهم من القوى التي يمكن ان تؤيد اسرائيل ، او التي تحتاج تلك الى مساعدتها · ومع تعمق العداء العربي لاسرائيل ، وازدياد المخاطر التي تواجهها حدة ، برزت ايضا الحاجة الماسة الى المساعدات الخارجية الدائمة ، وتقوى شعور الاعتماد على القوى الخارجية ، اليهودية وغيرها · وفي الوقت نفسه ، تبلور كذلك ما يمكن وصفه بانه اسس « عقيدة » صهيونية متجددة ، مفادها ان لا بد لاسرائيل ، لكي تستطيع العيش في منطقة معادية لها ، من دعم قوتها على كافة الاصعدة ، وخصوصا البشرية ، من خلال الاتجاه الى تهجير اكبر عدد ممكن من يهود العالم اليها ·

كانت هذه هي الاسس النظرية او الاتجاهات الفكرية ، في ما يتعلق بتأمين

مستقبل اسرائيل وضمان وجودها ، التي سادت يهوديا وصهيونيا واسرائيليا ، عشية حرب حزيران ١٩٦٧ · اما نتائج تلك الحرب ، التي اسفرت عن احتلال اسرائيل لمناطق عربية شاسعة ، فقد جاءت ايضا بمثابة دعم لا مثيل له لوجهة النظر القائلة ان الوقت قد حان لبناء اسرائيل الكبرى القوية ، التي لن يستطيع جيرانها التعرض لها بعد اليوم ، وبحيث لن يمر وقت طويل الا ويضطرون للاعتراف بها · ولتحقيق ذلك لا بد ، بالطبع ، من الاستمرار في تقوية العلاقة بين اليهود والصهيونية واسرائيل ، كان الثلاثة وحدة لا تتجزأ ، تواجه المصير نفسه ، والعمل على بعث الصهيونية ودعمها مجددا ، بواسطة تقوية الاستيطان في المناطق المحتلة حديثا · ووجدت هذه الاتجاهات تعبيرا واضحا عنها في قرارات المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين ، المنعقد في القدس سنة ١٩٦٨ ، والذي صاغ « اهدافا » جديدة ، اكثر وضوحا ، للحركة الصهيونية ، بعد ان كان الحديث في السابق يدور عن « مهمات » لها · وتحدد تلك الاهداف ـ التي نشرت كـ « برنامج القدس لسنة ١٩٦٨ » ، على وزن برنامج بازل لسنة ١٨٩٧ ـ مهام الصهيونية بالعمل على « تدعيم دولة اسرائيل القائمة على نبوءة الانبياء في العدل والسلام » ، من خلال الايمان بـ « وحدة الشعب اليهودي ومركزية دولة اسرائيل في حياة الشعب » · ولاجل هذا ينبغي ايضا العمل على «المحافظة على خاصية الشعب بتطوير التربية اليهودية والعبرية وبث القيم الروحية والتربوية اليهودية » و « الدفاع عن حقوق اليهود في الاماكن التي يقيمون فيها» وذلك كله ليس الا نوعا من المقدمات ، او الاستعداد ، لتحقيق الهدف الاكبر والاسمى ، وهو « تجميع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي ارض ـ اسرائيل بالهجرة من جميع البلاد » ·

وبغض النظر عما اذا كان تحقيق ذلك الهدف النهائي ، اي تهجير كل يهود العالم الى اسرائيل واستيعابهم فيها ، ممكنا او غير ممكن ، من الواضح ان السعي لتحقيقه ، او الالتزام العلني به على الاقل ، لا يترك لدى الصهيونيين مجالا كبيرا للتفكير في امكانية الانسحاب من الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ ، او من معظمها على الاقل ، مهما قدم العرب من عروض مغرية في هذا الصدد · فتلك المناطق ضرورية ومطلوبة لتحقيق هدف صهيوني كبير ومهم : «تجميع» المزيد من ابناء « الشعب اليهودي » ـ ورسميا : كلهم ـ فيها ، وان لم يكن ذلك ممكنا الان ينبغي ابقاء هذه الامكانية مفتوحة بالنسبة للمستقبل او ، على الاقل ، استغلالها لاثارة حماسة الصهيونيين واستقطابهم ، وذلك للاحتفاظ بالسيطرة الاسرائيلية على تلك المناطق · وبلغة اكثر وضوحا ، يمكن القول ان الحركة الصهيونية كانت قد اتخذت قرارها الرسمي والعلني بعدم ارجاع المناطق المحتلة خلال حرب ١٩٦٧ ، او معظمها على الاقل ، الى العرب ، بعد مرور بضعة اشهر فقط على انتهاء تلك الحرب · وهذا الموقف يؤدي ، ببساطة ، الى رفض

اسرائيلي لمعادلة الانسحاب ـ وخصوصا الانسحاب الشامل ـ مقابل السلام ، المطروحة كأساس للتسوية السياسية في الشرق الاوسط ٠

## بين اليهـــود والصهيونية

ان صياغة اهداف الصهيونية على الشكل الذي اوردناه ، وخصوصا تلـك النواحي منها التي تكاد توحي كأن لا فرق هنالك بين الصهيونية واليهودية ، او كأن الاولى ليست الا امتدادا للثانية وتجسيدا عصريا وحديثا لها ، لم تتم صدفة، بل جاءت نتيجة لمعارك عديدة ومستمرة ، على مختلف الاصعدة ، شنتهـــا الصهيونية بهدف السيطرة على اليهود واليهودية ، وربطهم بعجلتها ، ثـــم اخضاعهم لمشيئتها ٠ وعلى الرغم من ان هذه المعركة لم تحسم نهائيا حتى الان ، لا بد من القول ان الصهيونية احرزت فيها انتصارات لا بأس بها ، مما يقوي من صلف الصهيونيين وغرورهم ، ويعمق رفضهم ٠

والمعركة الداخلية بين الصهيونية واليهود ، المخفية حينا والظاهرة احيانا ، لم تكن سهلة او هادئة ، والانتصارات الصهيونية فيها لم تسجل خلال ليلـــة وضحاها ، بل انها على العكس كانت معركة طويلة ومتشعبة ، وعمليا عبـــارة عن معارك صغيرة متعددة على اصعدة مختلفة ، تدخلت فيها عوامل خارجيـة عدة لمصلحة الصهيونيين ، وساعدتهم على كسب معظمها ، فانطلقوا من تلك المكاسب للتدليل على « اهمية » الصهيونية و « ضرورتها » بالنسبة لليهود ٠

كانت « الحرب » بين الصهيونية واليهود ، التي نشبت اساسا نتيجة لاعراض قطاعات يهودية واسعة عن القبول بالفكرة الصهيونية او الانخراط في سلك اتباعها او التطوع لمساعدتها ، قد بدأت في مرحلة مبكرة من تاريخ النشاط الصهيوني المنظم ٠ فهرتسل ، مثلا ، اضطر الى عقد المؤتمر الصهيوني الاول في بازل ، بدلا من ميونيخ ، كما كان مقررا اصلا ، لان الحاخامين اليهود هناك ابدوا معارضة شديدة لعقد مثل ذلك المؤتمر في مدينتهم ٠ كمـــا ان الرجـل ومنظمته لم يستطيعوا ، خلال مراحل نشاطهم الاولى ، حمل الكثيرين من زعماء اليهود ووجهائهم ، في اكثر من بلد اوروبي ، على تأييدهم ، رغم الجهود المضنية التي بذلت في سبيل ذلك ٠ بل ان هرتسل اضطر حتى الى الاعلان في المؤتمـر الصهيوني الثاني ، بناء على نصيحة ساعده الايمن الدكتور ماكس نورداو ، ان لا بد للصهيونية من العمل على « احتلال الطوائف اليهودية » ، وذلك ردا على المعارضة التي ابدتها تلك الطوائف وزعماؤها للصهيونيين وفكرتهم ٠ كما منيت بفشل ذريع ، بشكل خاص ، معظم محاولات القيادة الصهيونية الهادفة الـى حمل اثرياء اليهود على دعم النشاط الصهيوني ماليا ٠ ويمكـــن القول ان الصهيونية ، منذ بداية نشاطها المنظم في مطلع الثمانينات من القرن الماضـــي

وحتى الحرب العالمية الاولى ، لم تكن عمليا الا حركة هامشية من حيث وزنها بين اليهود ، بدلالة انعدام تأثيرها ، على الاقل ، على التغييرات السكانيـــة اليهودية المهمة التي وقعت انذاك · فخلال تلك الفترة ، ولاسباب لا مجال لشرحها هنا ، هاجر من روسيا القيصرية وبولونيا الخاضعة للحكم القيصري ـ وهما البلدان اللذان ضما انذاك اكبر التجمعات السكانية اليهودية في العالم ـ نحو مليونين ونصف مليون يهودي ، اتجهوا جميعا الى اميركا ( وارسوا بذلـــك الاسس لتجمع يهودي اخر هناك ، نما وكبر حتى اصبح اليوم اكبر التجمعـات اليهودية في العالم، بعد ان وصل عدد افراده الى حوالي ٦ ملايين نسمة، يشكلون قرابة ٤٠٪ من اليهود في العالم ) ، بينما توجه نحو ٥٠ الف مهاجر فقـط الى فلسطين · وقد عادت اكثرية اولئك المهاجرين الذين دخلوا فلسطين ونزحت ، على كل حال ، عن البلد فيما بعد ، خصوصا خلال الحرب العالمية الاولى ·كذلك ينبغي التنويه ان الصهيونية ، كعقيدة ، لم تكن منتشرة بين اليهود انذاك ، اذ ان الافكار الدينية الورعة ، المعادية حكما للصهيونية ، او الثورية او الاشتراكية ، خصوصا باتجاهاتها البوندية ، كانت هي الطاغية لدى الشباب اليهودي ، على الاقل داخل التجمع اليهودي الكبير في روسيا القيصرية وبولونيا ·

الا ان تغييرا ما طرأ على مركز الصهيونية بين اليهود مع نهاية الحرب العالمية الاولى ، بصدور وعد بلفور والتزام بريطانيا بموجبه بانشاء « وطـــن قومي » لليهود في فلسطين ، ثم اقرار الانتداب البريطاني على البلد ، واساسه التعهـد بالمساعدة على تنفيذ المشروع الصهيوني ، من قبل عصبة الامم ، مما ساعـد الصهيونيين على الادعاء ، امام اليهود قبل غيرهم ، ان حركتهم « محترمـة » وتحظى بتأييد عالمي · ولكن حتى ذلك لم يجد الصهيونية نفعا كبيرا ، ولـــم يساهم في اقناع الجماهير اليهودية بتأييدها او دفعهم الى المشاركة في عملية بناء « الوطن القومي » ،الذي كان يمنى بالفشل ، في مراحله الاولى ، لاعراض اليهود عن دعمه ، بشريا وماديا · وكان احجام اليهود عن دعم المشـــروع الصهيوني ، حتى بعد « تبنيه » من قبل الهيئة الدولية الرئيسية انذاك ، عصبة الامم ، قد وصل حدا ظهر معه كأن على التاريخ اليهودي ان يتخذ مسارا اخر، لكي يكتب لذلك المشروع النجاح · وهذا ما تم فعلا ، وذلك بتكاتف عدد مـــن العوامل المختلفة ، في بلدان عدة ، وعلى اكثر من صعيد ، ساهمت بمجموعها في الاساءة الى اوضاع اليهود عامة ، وفتحت بذلك الطريق امام الصهيونيـة للافادة منها من جهة اخرى ·

فخلال النصف الاول من العشرينات مثلا ، فرضت قيود شديدة على الهجرة من اوروبا الى اميركا ـ وهي انذاك محط انظار المهاجرين اليهود ، خصوصا من اوروبا الشرقية ـ بينما بقيت فلسطين البلد الرئيسي المفتوح لاستيعاب مثـــل اولئك المهاجرين ، ضمن سياسة انشاء « الوطن القومي » اليهودي · ولذلك ،

وعلى الرغم من سوء اوضاع « الوطن القومي » الاقتصادية ، وقلة المــــوارد المالية الصهيونية ، لم تجد اعداد من المهاجرين اليهود مناصا من الاتجاه الى فلسطين · وحتى اواخر العشرينات كانت ايضا ـ على صعيد اخر ـ قــــد « افلست » معظم الحركات الليبرالية او « الوطنية المحلية » اليهودية ، غيـــر المتجانسة مع الصهيونية او المناوئة لها احيانا ، التي كانت قد نشأت بين يهود اوروبا الشرقية ، خصوصا بعد ان انهار نظام ضمانات الدفاع عن الاقليــات ، ومن بينها اليهود ، في تلك الدول ، كما نصت عليه اتفاقيات السلام المختلفــة التي وقعت بعد الحرب العالمية الاولى ، اثر تفشي الروح القومية بمنحاها الشوفيني في تلك الدول ، لاسباب عديدة · وقد سهل ذلك على الصهيونية مقارعة التيارات المهجرية اليهودية والادعاء بانها الحركة الوحيدة « الاصيلة » التـــي ينبغي على اليهود التشبث بها · وكانت قد تمت ، خلال الوقت نفسه ايضــا ، عملية تصفية البوند في الاتحاد السوفييتي ، بينما فشل ، من ناحيـــة ثانية ، مشروع توطين اليهود في بيروبيجان ·

كذلك ازدادت اوضاع اليهود سوءا في اوروبا عامة ، منذ مطلع الثلاثينات ، نتيجة لصعود النازية في المانيا ، والتي سرعان ما امتد تأثيرها العنصــــري الضار الى اكثر من بلد اوروبي · صحيح ان الصهيونية استفادت من النازيــة في حياتها ومماتها ، وذلك بعقد اتفاقية الـ « هعفراه » مع النازيين اثنـــاء حكمهم ، في الثلاثينات ، ثم اتفاقية التعويضات مع المانيـــا الغربية فـــي الخمسينات ، ولكن الفائدة السياسية والدعائية و « العقائدية » كانت اعــم واشمل · فعمليات الابادة النازية لليهود اثارت عطفا عليهــم لدى شعـــوب وحكومات عدة ، سرعان ما استغلته الصهيونية لخدمة اهدافها ، بالتشديد على ضرورة اقامة دولة يهودية في فلسطين لحل المسألة اليهودية ، وطلب مساعدة دول العالم لذلك · ولقد لعبت عبرة تجربة اليهود مع النازية دورا مهما فـــي اقامة الدولة اليهودية ، لدرجة يمكن معها القول انه لولا النازية لمـــا قامـــت اسرائيل · غير ان عبرة تلك التجربة ، من حيث تدعيمها لمركز الصهيونية بيـــن اليهود ، كانت اهم واعمق ، اذ قدمت مثالا كلاسيكيا دائما يضرب للتدليل على صحة ادعاءات الصهيونيين بضرورة اقامة دولة يهودية ، ولو على الاقل مـــن باب الحاجة الى وجود ملجأ لليهود ، يمكنهم الهرب اليه ان تعرضوا للاضطهاد في اي بلد من العالم ، ولذلك لا يحق لاي يهودي معارضة قيام مثل تلك الدولة ، حتى وان كان لا ينوي العيش فيها ·

ومنذ قيام اسرائيل ، قدم العرب « البعبع » الذي استغلته الصهيونيـــــة واسرائيل ، لكسب عطف العالم واليهود عليها ، وجذبهم اليها · فاسرائيـــل ، مثلا ، لم تكن عمليا ، منذ انشائها وحتى اليوم ، عرضة لخطر جدي من قبـــل العرب ، قد يؤدي الى القضاء عليها ، نتيجة لميزان القوى ، المحلي والعالمي ،

الذي كان مختلا لصالحها في اغلب الاوقات · الا ان بعض السياسات العربية، بفجاجتها وغطرستها وضيق افقها وتصريحاتها العنترية ، ذات الطعم الابادي احيانا ـ والكل طبعا كلام في كلام ـ قدمت ذخيرة لا غنى عنهـــا للدعايـــة الاسرائيلية، مكنتها من تحويل التهديد العربي الموهوم الى تهديد واقعي، في اذهان الرأي العام العالمي ، مما ساعدها بالتالي على كسب العطف والتأييد والدعــم لسياساتها ، وجذب المزيد من اليهود الى الالتفاف حولها · وساعد في ذلـــك ايضا عرض الدعاية الصهيونية والاسرائيلية للصدامات العسكرية مع العــرب كأنهـــا اعتداءات وحشية وحاقدة ، من قبل قوى متفوقة عدديا بشكـــل هائل ، استطاع الاسرائيليون احباطها بواسطة « عبقريتهم » الفائقة فقط ، بينما الحقيقة كانت عكس ذلك ، اذ ان اسرائيل هي التي كانت تبادر الى القيام بمعظم تلـــك الاعتداءات ، وعلى الاقل الكبيرة منها ، كما ان قواتها في الميدان فاقت ، عدديا، قوات العرب في اكثر من معركة · وعلى صعيد اخر ، ساهمت ايضا في دعــم مركز اسرائيل يهوديا ، المبالغة في عرض مكاسبها وانجازاتها ، بشكل بـــدت معها كأنها « خارقة » ، لا يمكن الا لدولة « مثالية » القيام بها ، مما خلق شعورا بالفخر والاعتزاز لدى العديد من اليهود بـ «دولتهم»، واعتبروها برهانا على انهم، « مثل باقي الشعوب » ، قادرون على اقامة كيان سياسي مستقل خاص بهم ·

والواضح ان تلك العوامل ، وغيرها ، ادت الى تعزيز مركـــز اسرائيل ، وبالتالي الصهيونية ، بين يهود العالم بشكل لا سابق له ، مما انعكس في دعم مادي وسياسي لا بأس به ، قدمه اولئك لاسرائيل · ونتيجة لذلك ، ضعف بالطبع شأن الحركات المناوئة للصهيونية بين اليهود ، واضمحلت تدريجيا ، بعد ان كاد النشاط المعادي للصهيونية يصبح وقفا على افراد فقط · ويظهر هذا الاتجـــاه واضحا بشكل خاص بين اليهود الاميركيين ، الذين تعول اسرائيل كثيرا علـــى تأييدهم ، ويهبون عادة كرجل واحد لنصرتها ، عندما يدخل في روعهم ان ذلك ضروري · وهؤلاء لا يكتفون فقط ، من اجل تأييد اسرائيل باستغلال كل ما لديهم من نفوذ وامكانات ، وهي ليست قليلة ، بل انهم لا يتورعون ايضا عن شـــن حملات التشهير ضد اي يهودي قد يعرب عن اراء لا تتجانس مع المواقـــف الاسرائيلية ، باعتبار ان « واجب » اليهودي هو تأييد « الحكومات الشرعية » لاسرائيل ، مهما كانت سياستها ، لا « التفلسف عليها » · وعند الضرورة ،يوسع ايضا اولئك اليهود ، او بعضهم على الاقل ، حملات التشهير لتطال حتى اكبــر المسؤولين في بلادهم ، اذا اعتقدوا ان اولئك المسؤولين « مقصرون » في دعمهم لاسرائيل ، حتى يكاد يبدو احيانا كأنهم يتصرفون من خلال الاعتقاد ان الولايات المتحدة وسكانها ملك لهم ، وما على اولئك الا التصرف وفق مشيئتهم في مساندة اسرائيل وتقديم العون لها · وقد استطاع اليهود الاميركيون ، بواسطة استغلال نفوذهم ، على ارضية تجانس السياسة الاسرائيلية مع المصالح الامبرياليـــة

الاميركية في المنطقة ، تأمين دعم الولايات المتحدة لاسرائيل ، كما لم تدعم اية دولة اخرى · صحيح أن بعض عقلاء القوم بين اولئك اليهود يخشون عواقب هذا التصرف ، ويتحسبون من المخاطر التي قد تواجههم ،في ذلك اليوم الذي قد يبدو فيه ان مصالح اميركا لم تعد متجانسة مع مصالح اسرائيل ، ان تشبثوا بمواقفهم تلك · كما يتخوف بعضهم من ظهور اللاسامية ، اذا نشأ وضع يمكن ان يدفع اليهود الى التصرف بشكل يعتبر برهانا على تفضيل اولئك اليهود المصالح الاسرائيلية على مصالح بلدهم ، اميركا · ولكن هذا كله متعلق ، الى حد كبير ، بمدى ما يسمى « الضغط العربي » على اميركا وفعاليته · وليس هناك مبرر للاعتماد على ذلك كثيرا ، اذ يبدو ان بعض العرب يخشى من نتائج الضغط على اميركا ، بواسطة قطع امدادات النفط عنها او سحب الودائع من بنوكها ، مثلا ، اكثر مما يقلق الاميركيون من امكانية ايقاف تلك الامدادات او سحب تلك الودائع ·

واسرائيل ، وحكومتها الحالية بشكل خاص ، تعول كثيرا على يهود العالم ، وعلى رأسهم الاميركيين ، لمنع اي ضغوط قد تمارس عليها لحملها على اتباع سياسة لا تريدها ، لدرجة دفعت بيغن الى التصريح مرة بما معناه انه اذا وقف يهود العالم الى جانب اسرائيل ، لن تستطيع اية قوة فرض ارادتها عليها — ولا على بيغن · وليس لدى بيغن ، على كل حال ، مبرر للتخوف من امكانية تصرف اليهود على عكس ما يبتغيه ، نظرا لاحكام السيطرة الصهيونية عليهم ، مما يضمن استمرار تاييدهم ، مع امتداداتهم المختلفة ، للـ « حكومات الشرعية» لاسرائيل ·

وهذا عنصر آخر في مركب الرفض الاسرائيلي ·

**التصلب سيد الاحكام**

رافق تبلور العوامل التي قدمناها تطور اخر ، لا يقل اهمية عنها في دعمه للرفض الاسرائيلي ، تمثل في سيطرة العناصر الاكثر تصلبا ، تدريجيا ، على الصهيونية واسرائيل · وهذا العامل الثالث تغذى من العاملين السابقين واثر فيهما وتبلور بمحاذاتهما ، من خلال تفاعل تلك العوامل الثلاثة مع بعضها البعض ·

وسيطرة التصلب والمتصلبين على الصهيونية عموما لم تتم صدفة ، بل جاءت ايضا تدريجيا ، نتيجة لمعارك صهيونية — يهودية داخلية او سياسية خارجية اضطر الصهيونيون الى خوضها ، على اصعدة عدة ، والاستعانة لكسبها بخدمات مجموعات متصلبة النظرة اصلا ، اشتد عودها خلال خوض تلك الصراعات حتى استطاعت فرض وجهة نظرها ، او نواح مهمة منها على الاقل،

على الصهيونية باسرها · كما ان بعض تلك المجموعات المتصلبة تبلورت ، على صعيد اخر ، من خلال معارضتها للسياسات الصهيونية الرسمية ، وتجريحها للزعماء الصهيونيين واحيانا التشكيك بهم ، مما دفع هؤلاء ، في اكثر من حالة، الى تغيير وجهات نظرهم ، او تعديلها على الاقل باضفاء شيء من التصلب عليها ، في ضوء تلك الانتقادات · وكان ذلك قد تم ، الى حد ما ، على ارضية الصعوبات التي جابهت بناء الكيان الصهيوني في فلسطين ، خلال مراحله المختلفة ، والتي ظهر معها ، اكثر من مرة ، كأن وجهات النظر المتصلبة لم تكن دائما على غير حق · ويلاحظ في هذا الصدد وجود تيارين ــ مصدرين للتصلب الصهيوني ، احدهما متدين والاخر علماني ، والاول اعمق واشمل ·

لم تكن الصهيونية ، في اساسها ، الا حركة علمانية ، فاليهود الذين تبنوا فكرة اقامة دولة يهودية او روجوا لها ، في بداية طريقها ، كانوا باكثريتهم من العلمانيين · كما ان بعض اباء الصهيونية ، وعلى رأسهم بينسكر وهرتسل ، كانوا على استعداد لاقامة تلك الدولة ، ان استطاعوا ، في اي مكان اخر غير فلسطين ( او « ارض ــ اسرائيل » ، حسب التعريف الصهيوني ) · اما المتدينون فقد كانوا اصلا من المعادين لتلك الفكرة ، انطلاقا ــ على الاقل ــ من الاجتهادات الدينية اليهودية المختلفة ، السائدة حتى ذلك الوقت ، والقائلة ان اقامة دولة يهودية بقوى بشرية ليست الا كفرا ، باعتبار ذلك العمل تدخلا في مشيئة الله ، فهو وحده الذي يقرر متى ينبغي انقاذ اليهود ، فيرسل المسيح ــ المخلص لجمع شتاتهم ، واقامة كيان خاص بهم ، قبيل اقتراب العالم من نهايته · ولكن الفكرة الصهيونية حظيت ، على الرغم من ذلك ، بتأييد بعض دوائر اليهود المتدينين ، وان تم ذلك من خلال اصدار « فتاوى » جديدة مكملة للسابقة ، مفادها ان على الرغم من صحة تلك الاجتهادات ، لا بأس من « مساهمة » دنيوية في عملية الخلاص تلك ، ولا مانع من « مساعدة » الله على ارسال مسيحه ، بواسطة البدء بتجميع اليهود في « ارض ــ اسرائيل » ، استعدادا لعملية الخلاص تلك ·

ومع قبول بعض دوائر المتدينين اليهود بالفكرة الصهيونية ، احتدم الخلاف بينهم وبين المتدينين غير الصهيونيين من ناحية ، والصهيونيين العلمانيين من ناحية اخرى ، وذلك منذ بداية النشاط الصهيوني المنظم في فلسطين ، نتيجة لسعيهم الدؤوب ، والمتجدد دائما وابدا ، الى فرض وجهات نظرهم على الاخرين · فالتيار الصهيوني المتدين بلور ، مع ارساء اسسه التنظيمية ( على شكل منظمة المزراحي العالمية ، ثم الحزب الديني القومي ــ المفدال ــ في اسرائيل ) ، عقيدة خاصة به ، خلاصتها ان اليهود والتوراة وارض ــ اسرائيل هي وحدة لا يمكن تجزئتها ، بل تكاد تكون الشيء نفسه · وقدر اليهود هو التمسك بالتوراة وتعاليمها ، والسعي الى المحافظة عليها وتعميقها ثم نشرها وتطبيقها ، والاحسن ان يتم ذلك في دولة يهودية تقام في « ارض ــ اسرائيل » ،

استعدادا ليوم الخلاص ومجيء المسيح · والوجه الاول من هذه التعاليم ، المتعلق بالمفهوم الديني لليهودية ، كان عمليا عاملا مشتركا بين اليهود المتدينين باسرهم ، ولذلك لم تنجم عنه اية اشكالات ، اما الثاني ذو المنحى الصهيوني المؤيد لاقامة دولة يهودية ، فقد اثار بينهم خلافات شديدة ، فرقتهم وشطرت معسكرهم الى ثلاثة تيارات متناحرة · ولذلك ظهرت ، الى جانب المزراحي ، منظمتان ــ تياران متدينان جديدان ، معاديان في منطلقاتهما للصهيونية ، هما اغودات يسرائيل وناتوري كارتا · ومنذ مطلع هذا القرن لا يزال الصراع محتدما بين هذه التيارات الثلاثة ، على الرغم من ان الحسم تم تدريجيا لمصلحة المفهوم الصهيوني، على حساب الديني · فقد انضمت المزراحي، مع تأسيسها، الى المنظمة الصهيونية العالمية، معتبرة نفسها جزءا من القوى الساعية الى اقامة دولة يهودية، بينما خففت اغودات يسرائيل ، مع مرور الزمن ، من عدائها للصهيونية ، وكانت ــ بعد اقامة اسرائيل ــ على استعداد ، في اكثر من مناسبة ، لتأييد الحكومات الاسرائيلية المختلفة ، التي وافقت على تقديم تنازلات لها في المجال الديني ، او منحها منافع اقتصادية مختلفة · اما ناتوري كارتا فلا يزالون عند عدائهم الشرس للصهيونية ، معتبرين اياها حركة كافرة ، كما يرفضون الاعتراف باسرائيل كدولة ويتحاشون التعامل معها بهذه الصفة · الا ان هذه المجموعة تكاد تكون عديمة التأثير على اليهود عامة او اسرائيل ، واذا كان النظام الاسرائيلي خاصة ، والاسرائيليون عامة ، لا يبدون عداء تجاهها ولا يتخذون اجراءات بحقها، فان ذلك نابع ، الى حد كبير ، من الشعور ان اتباعها هم يهود من الطراز القديم ، لا يزالون يعيشون في القرون الغابرة ، ولذلك لا يجوز القاء اللوم عليهم في ما يفعلونه ·

ولم يكتف الصهيونيون المتدينون ، على كل حال ، بذلك الصراع الذي خاضوه داخل المعسكر اليهودي المتدين ، بهدف تطويعه للصهيونية ، ولا بالمكاسب التي حققوها في هذا المجال ، وهي التي دعمت ايضا مركزهم داخل الحركة الصهيونية نفسها ، وانما دخلوا كذلك في نزاع مع زملائهم الصهيونيين العلمانيين · فبالنسبة للصهيونيين المتدينين لا يمكن ان تقام دولة يهودية وتحافظ على بقائها الا وفقا لتعاليم التوراة ــ كما يفسرونها هم بالطبع ــ التي ينبغي ان تسيطر على كافة نواحي الحياة في تلك الدولة ، من احوال شخصية او تعليم او ثقافة او حتى حياة الفرد الخاصة · وللمتدينين مبرراتهم في ما يطرحونه : لقد حافظت تعاليم التوراة على بقاء اليهود اكثر مما حافظوا هم عليها ، ولن تكون هنالك دولة يهودية حقيقية دون الاستمرار في التمسك بتلك التعاليم وتطبيقها · ولم يكن العلمانيون ، على كل حال ، على استعداد للقبول بوجهة النظر تلك ، او على الاقل بكل الطلبات النابعة منها ، ومنهم حتى من قاومها بشراسة · الا ان التركيبة السياسية للمنظمة الصهيونية العالمية ، ثم اسرائيل،

التي عرف المتدينون كيف يستغلونها لتقوية نفوذهم ، ساعدتهم على تحقيق الكثير من طلباتهم وحمل الغير على القبول بوجهات نظرهم او ، على الاقل ، محاولة التعايش معها ٠ فالمنظمة الصهيونية العالمية واسرائيل تتميزان ، لاسباب لا مجال لعرضها هنا ، بكثرة عدد الاحزاب والقوى السياسية العاملة في اطاريهما ، بحيث ان اللجان التنفيذية الصهيونية والحكومات الاسرائيلية المختلفة كانت دائما عبارة عن ائتلاف بين قوى مختلفة ٠ وعند تشكيل تلك الائتلافات كان المتدينون على استعداد ، دائما ، لمؤازرة اي فريق والائتلاف معه اذا ابدى استعدادا لتقديم تنازلات لهم في مجال الدين ، فحققوا بذلك انتشارا متزايدا لمفاهيمهم الدينية ، وبعضها متزمت للغاية ٠

صحيح ان الصهيونيين المتدينين لم يستطيعوا ، في نهاية الامر ، خلق دولة يهودية متدينة ، بدلالة ان اكثرية سكان اسرائيل هي من العلمانيين ، ولكنهم من خلال امتداد نفوذهم الى مجالي التعليم والثقافة على الاقل ، استطاعوا تثبيت بعض مفاهيمهم في وعي كافة الصهيونيين والاسرائيليين ، حتى وان كانوا من اكبر العلمانيين ليبرالية ٠ ومن ابرز هذه المفاهيم ــ التي تهمنا هنا ــ ذلك الذي ينص على « العلاقة التاريخية بين اليهود وارض ــ اسرائيل » الذي اصبح، لكثرة التركيز عليه ، جزءا لا يتجزأ من الوعي الصهيوني ، متدينا كان ام علمانيا ، ونقطة الانطلاق العقائدي الصهيوني الاساسية التي لا تجوز مناقشتها ، حتى بالنسبة لاولئك الذين ليسوا يهودا ، من الناحية الدينية على الاقل ، الا بالاسم ٠ والواضح ان ترسيخ مثل هذه المفاهيم يلعب دورا بالغ الاهمية ، بل يكاد يكون اساسيا ، في دعم التصلب والرفض الاسرائيليين ٠ فاذا كانت « ارض ــ اسرائيل » « ملكا » لليهود ، وعلاقتهم بها « تاريخية » و « ازلية » و « ربانية » ، مستمدة من الله والتوراة ، لا يجوز مطالبتهم بالانسحاب من اجزاء منها ، كانت قد اعيدت الى سيطرتهم ، بل ان تلك المطالب ، من قبل العرب او غيرهم ، هي عمل « غير اخلاقي » ٠ ومثل هذا الرفض ، المستند الى عقيدة كهذه ، لا يمكن بالطبع ان يكون تكتيكيا فقط ، بل انه اعمق بكثير ٠

اما تيار ــ مصدر التصلب الصهيوني الاخر فانه علماني اساسا ، ويتمثل تنظيميا في منظمة الصهيونيين الاصلاحيين اليمينيين ، وهم اباء حزب حيروت، الشريك الاكبر في ليكود الحاكم حاليا في اسرائيل ٠ فقد بلور هؤلاء من خلال نشاطهم في المعارضة ، منذ منتصف العشرينات وحتى وصولهم الى الحكم في اسرائيل السنة الماضية ، اي خلال ما يزيد على نصف قرن ، نظرية صهيونية خاصة بهم لا تشجع كثيرا على الوصول الى تسوية مع العرب ، بل لا يبدو انها تسعى اليها ، لعدم ايمانها بها ٠ وقد جاءت تلك النظرية ، الى حد ما ، كنوع من الرد ايضا على السياسات التي اتبعتها المنظمة الصهيونية العالمية خلال الانتداب البريطاني على فلسطين او الحكومات الاسرائيلية فيما بعد ٠ اما

خلاصة تلك النظرية فهي ان العرب عموما ، والفلسطينيين منهم خصوصا ، لم ولن يوافقوا على اقامة دولة يهودية في فلسطين وجوارها ، بل انهم على الرغم من الخلافات فيما بينهم متحدون ، على الاقل ، في معارضتهم لتلك الفكرة ٠ ولذلك لا فائدة من المحاولات الهادفة الى الحصول على موافقتهم تلك ، ولا ضرورة من ناحية ثانية ، لاخفاء حقيقة اهداف الصهيونية عنهم ٠ فـ « حقوق اليهود في ارض ـ اسرائيل » قد حظيت بالاعتراف بها من قبل عدد لا بأس به من دول العالم ، ولم يبق هنالك الا العمل لتحقيقها ، وذلك بالسعي الى اقامة دولة يهودية في « ارض ـ اسرائيل التاريخية » بكاملها ، وعلى كلتا ضفتي الاردن ٠ وليس في هذا ، على كل حال ، ما قد يسيء الى العرب كثيرا ، اذ ان لديهم اراض شاسعة اخرى وعددا من الدول العربية ، التي يمكن ان تستوعب الفلسطينيين والاردنيين منهم ٠ وفي ضوء مقاومة العرب للصهيونية ، لا سبيل لتحقيقها الا باقامة الدولة اليهودية عنوة وتقويتها ، من خلال خلق « جدار حديدي » لا يقوى العرب على اختراقه ، فلا يجدون مناصا ، في نهاية الامر ، من الاعتراف بتلك الدولة ، شاءوا ام ابوا ٠

ولم تحظ وجهات النظر هذه ، على كل حال ، بتأييد اكثرية الصهيونيين في الماضي ، فبقي المنادون بها اقلية داخل الحركة الصهيونية ، ثم داخل اسرائيل، لفترة طويلة ٠ الا ان صراع الصهيونية واسرائيل مع العرب ، المستمر منذ عدة اجيال ، على ما تخلله من صعوبات ، ساهم في تفشي وجهات النظر تلك وازدياد اعداد المؤمنين بها او ببعض نواحيها ، خصوصا بعد ان ظهر ، من خلال تجارب عدة ، ان تلك المواقف هي الاكثر ملاءمة لتحقيق الصهيونية والتعامل مع العرب ٠ وخلال المراحل المختلفة لبناء الكيان الصهيوني في فلسطين ، ثم اسرائيل ، اضطرت القيادة الصهيونية ، اكثر من مرة ، الى تغيير مواقفها فعلا والاخذ بنصائح المتصلبين ، لدرجة دفعت البعض الى القول مرة ان سر كره بن ـ غوريون الشديد لليمينيين وزعيمهم جابوتينسكي كامن في حقيقة ان جابوتينسكي ومؤيديه هم الذين كانوا يطلقون الافكار العملية الصهيونية ، وبن ـ غوريون واتباعه هم الذين كانوا ينفذونها ٠ ومع مرور الوقت اصبح المتطرفون هم المقبولين والزعماء الطبيعيين للمستوطنين الصهيونيين ، لدرجة ان بيغن ، زعيم اتسل ( الارغون ) ، ويتسحاق شامير ، احد زعماء ليحي ( جماعة شتيرن ) ، اللذين ما كان زعيم صهيوني يحترم نفسه على استعداد ، مثلا ، للاجتماع بهما سنة ١٩٤٧ ، علنا على الاقل ، نظرا لتشنجهما وتصلبهما وضيق افقهما ، وبالتالي سوء سمعتهما بين اكثرية المستوطنين الصهيونيين ، احتلا سنة ١٩٧٧ ارفع منصبين في اسرائيل واكثرهما تأثيرا : الاول ، رئاسة الحكومة ، والثاني ، رئاسة الكنيست ( البرلمان ) ٠ ولعل هذه الواقعة وحدها كافية للدلالة على مدى تحول مفاهيم المستوطنين الاسرائيليين ، خلال تلك الفترة

نحو التصلب والرفض ·

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد · فالتصلب يدفع ، في اكثر من حالة ، نحو مزيد من التصلب ، تصعب السيطرة عليه · وهذا ما اكتشفه بيغن وصحبه ،عند وصولهم الى السلطة ، اذ عندما اضطروا ، مثلا ، الى تقديم مشروع سلام ، اثر مبادرة السادات ، وجدوا هنالك من بين اتباعهم من يتهمهم بانهم « خانوا» الصهيونية ، لانهم تجرأوا على اقتراح اقامة « حكم اداري ذاتي » ـ بانتوستان فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ولم يقوموا بالاعلان عن ضم تلك المناطق الى اسرائيل نهائيا ·

ان ممثلي التيارين المتصلبين الرئيسيين ، العلماني والمتدين ، هم الذين يحكمون الان اسرائيل ويديرون دفتها ويقررون سياستها · واذا ظهر ان هنالك « مرونة » احيانا في تصريحات بعضهم ، نتيجة لظروف دولية طارئة ، فليس في ذلك ما يشير الى انهم غيروا منطلقاتهم الاساسية، التي لا تدفع الا نحو الرفض ·

### قلة مذعورة ، عنصرية ومستعلية

مع بلورة الاسس والنظريات ، التي مر ذكرها ، بذل الصهيونيون ايضا جهودا كبيرة لاعادة بناء الانسان اليهودي وتكوينه ، بما يتلاءم مع تطلعات الصهيونية ويساعد على تحقيق اهدافها · وكانت حصيلة ذلك النشاط خلق انسان « جديد » ذي مفاهيم غريبة ومقلوبة رأسا على عقب في اغلب الاحيان ·

ولعل اول ما يلفت النظر ، في هذا الصدد ، هو قيام الصهيونيين باعادة كتابة التاريخ اليهودي وعرضه ، لليهود وغيرهم ، كأنه لم يكن منذ اقدم العصور وحتى اليوم الا سلسلة متواصلة من المآسي التي لا نهاية لها من جهة ، وسعيا حثيثا من قبل اليهود انفسهم الى اقامة كيان سياسي لهم في فلسطين من جهة اخرى · والادعاءان غير صحيحين ، على كل حال · فتاريخ اليهود عرف فترات من الرخاء والازدهار لا سابق لها ، لعل ابرزها هي تلك التي عاشوا فيها تحت حكم العرب في اسبانيا خلال العصور الوسطى ، حيث وصلت اليهودية الى قمة تطورها الروحي والثقافي · كما ان سعي اليهود ، او بعضهم على الاصح ، الى اقامة كيان سياسي لهم في فلسطين لا يعود الى اكثر من قرن مضى ، وبرز فقط مع تبلور فكرة الدول القومية ، ثم امتداد نفوذ الاستعمار الاوروبي وتعاظمه في النصف الثاني من القرن الماضي · ولكن ذلك لم يمنع الصهيونيين من التشبث بهذين الادعائين ، وبذل كل ما في وسعهما لترسيخهما ·

ولتثبيت تلك المفاهيم ، تم التركيز ايضا بشكل خاص على نواح او نقاط معينة

في التاريخ اليهودي ، وعرضت بصورة لا يمكن ان يفهم منهـا الا ان « شعبا مختارا » ، ذا قوة « خارقة » فقط قادر على تحمل تلك الشدائد · فالنكبة النازية ، مثلا ، عرضت بشكل يكاد يبدو معه كأن اليهود لوحدهم هم الذين قاسوا على ايدي النازيين ، وذلك على الرغم من ان دولا وشعوبا اوروبية عدة فقدت الملايين من ابنائها خلال الحرب العالمية الثانية ، نتيجة للعدوان النازي · اما حادثة المسادة ، كمثال ايضا ، التي فضلت فيها قلة محاصرة من اليهود الموت حتى اخر رجل ، على الاستسلام للرومان ، فقد عرضت بشكل لا يمكن ان يؤدي الا الى تقوية الروح الانتحارية لدى الشباب اليهودي · وفي الوقت نفسه ، ومن ناحية اخرى ، عرضت الانجازات التي حققها الافراد اليهود ، من ابناء الشعوب المختلفة ، في حقول العلوم والاد ب والفنون والثقافة وغيرها من اوجه التقدم الانساني ، وكأنها جاءت نتيجة لكون محققيها يهودا فقط ، دون ان تكون لها علاقة بحضارات وانجازات الشعوب التي عاشوا بينها ، او انها لم تكن نتاجا لها ·

وكانت النتيجة الواضحة التي ترتبت على تلك المفاهيم ، بالنظرة الصهيونية اليها ، خلق نفسية صهيونية مشوشة وغير متزنة ، لها منطقها الخاص بها ، المحكوم بقواعد غير متجانسة بالضرورة مع تلك السائدة لدى الاخرين · ولهذا المنطق استنتاجاته الخاصة به ايضا : فاذا كان اليهود قد تعرضوا لكل تلك المآسي وحافظوا على وجودهم على الرغم منها ، لا بد ان يكونوا فعلا « شعبا مختارا » ، تميزه عن باقي الشعوب في العالم صفات حميدة عديدة · وان كان الامر كذلك، لا بد ان يتعمق شعور الصهيونيين بـ «وحدانيتهم» و « اهميتهم » ، وبالتالي لا يمكن الا ان يصبحوا « مدللين » لا يستطيعون التعامل مع الاخرين على قدم المساواة ــ وهذا ما حدث فعلا · اما الوجه الاخر لهذه النفسية فيتمثل في بروز شعور الانغلاق على النفس والخوف من الاخرين وعدم الثقة بهم ·

وتجد هذه النفسية تعبيرا واضحا عنها ، عند التنفيذ ، في موقف الصهيونيين والاسرائيليين من الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، ونظرتهم وشروطهم المتعلقة بمشاريع التسوية السياسية المطروحة في المنطقة · فالاسرائيليون يريدون ، مثلا ، « سلاما » ولكنهم يخشون من عواقبه ، وعلى استعداد لابداء ثقتهم ببعض العرب ولكنهم يشكون بهم في الوقت نفسه · وبعضهم على استعداد للانسحاب من المناطق المحتلة ، ولكنه في الوقت نفسه يريد « ضمها » بواسطة « الحدود الامنة » · وتبدو الدوامة التي يعيشون فيها شاملة ودائمة ، كأنها تسيطر عليهم كليا ، ولا قدرة لديهم على الخروج منها ، خصوصا عندما يضعون على المحك ويطالبون بمواقف محددة ردا على اقتراحات محددة ·

ومن كان في مثل هذه الحالة ، لا يستطيع الا اتخاذ القرار الاسهل الملائم لوضعه : الرفض ·

## بين النظرية والواقع

· لم تتبلور النظريات والاسس والمفاهيم الرفضية الصهيونية ـ الاسرائيلية ، بنواحيها الفكرية او « الفلسفية » او « النفسية » في فراغ ، بل تم ذلك من خلال تفاعل دائم وشبه يومي مع الواقع ، الذي افرز نتائج دعمت وجهات النظر تلك· فالتجربة الصهيونية حققت نجاحا واضحا وملموسا على الصعيد العملي ، لا يمكن تجاهله · وقد طغى هذا النجاح على ابصار الصهيونيين وجعلهم يعتقدون انهم قادرون بـ « شطارتهم » على تحقيق المكسب تلو الاخر ، وتأمين مصالحهم، مهما كانت الصعوبات ، وهذا اعتقاد لا يدفع الا نحو التشبث بالرفض ·

لقد حقق المشروع الصهيوني ما حققه من نجاح نتيجة لتكاتف عوامل عديدة ، لا تتعلق بقدرات الصهيونيين وحدهم · واول ما يظهر واضحا للعيان ، في هذا المجال ، الدور المهم الذي لعبته القوى الخارجية ، الممثلة في الدول الاستعمارية الغربية الرئيسية ، الساعية الى السيطرة على العالم العربي وخيراته ، في تبني المشروع الصهيوني ودعمه · ولعل ذلك العامل الخارجي هو الاكثر اهمية، ان لم يكن الاول ، من حيث تأثيره على تحقيق المشروع الصهيوني ، اذ لولاه لما قامت لذلك المشروع قائمة ، على الرغم من ادعاءات الصهيونيين واليهود التي قد تشير الى عكس ذلك · فالصهيونيون لم يستطيعوا تحقيق اية مكاسب تذكر في فلسطين خلال العقود الاربعة الاولى من نشاطهم المنظم في البلد وخارجه ، رغم الجهود المضنية التي بذلوها في سبيل ذلك ، ولم يتغير وضعهم الا بعد ان قررت بريطانيا تبنيهم ، مع نهاية الحرب العالمية الاولى ، باصدار وعد بلفور · وخلال الثلاثين سنة التالية ( ١٩١٧ ـ ١٩٤٧ ) ، وعلى الرغم من الخلافات والمشاحنات التي كانت تحتدم ، من حين الى اخر ، بين الصهيونيين والبريطانيين ، نما المشروع الصهيوني في فلسطين وتطور وقوي عوده تحت حماية الحراب البريطانية اساسا ، الى ان اعلن دولة سنة ١٩٤٨ · كما ان تلك الدولة تمتعت ، منذ قيامها وحتى اليوم ، بحماية ودعم القوى الاجنبية : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ( التصريح الثلاثي ) في اوائل الخمسينات، فرنسا في اواخر الخمسينات واوائل الستينات ، والولايات المتحدة منذ منتصف الستينات على الاقل · واهمية هذه الحماية واضحة للغاية ، لا تحتاج الى براهين كثيرة ، وهي التي تلعب دورا كبيرا في تقوية الصلف الاسرائيلي · فلولا الدعم الاميركي الحالي ، السياسي والعسكري والاقتصادي لاسرائيل ، المتزايد سنة بعد اخرى لما كان باستطاعتها التمسك بالسياسة التوسعية المتشنجة التي تتبعها ، وتحدي العالم العربي بأسره ·

وهذا الدعم القوي الدائم من قبل الدول الغربية الاستعمارية الرئيسية لاسرائيل ، دفع العديد من المفكرين والسياسيين والزعماء العرب الى اعتبارها مجرد اداة في ايدي الاستعمار ، تقوى بقوته وتزول بزواله · الا ان هذه النظرة ليست الا تبسيطا مبالغا به ، ولا تخلو من سذاجة ، وهي بالتالي غير صحيحة تماما وليست شاملة ، من حيث اسقاطها لديناميكية العامل الذاتي الصهيوني ـ اليهودي وتأثيره على الاقل · ونظرة اعمق واشمل قليلا على طبيعة العلاقة بين الاستعمار الغربي والصهيوني واسرائيل تظهر انه بقدر ما كان الاستعمار يسعى الى استغلال الصهيونيين كأداة لتحقيق اهدافه ، كان اولئك يعملون على الافادة من المخططات الاستعمارية لتقوية انفسهم اولا · ومع مرور الزمن ، اضاف الصهيونيون مكسبا الى مكسب ، واحتلوا الموقع تلو الاخر ؛ وبنوا مؤسساتهم ووسعوا نفوذهم ، وراحوا يطرحون انفسهم كـ « حليف »، لا تابع، للاستعماريين او ـ احيانا ـ لغيرهم ، باعتبارهم انفسهم كيانا مستقلا ، قائما بحد ذاته ، له مصالحه ، وبالتالي مواقفه ، الخاصة به · وعرض سريع لبعض مفاصل الاستراتيجية الصهيونية يوضح ذلك · فالبريطانيون ، من ناحيتهم ، باصدارهم وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، هدفوا الى استعمال الصهيونيين كأداة ، خلال المرحلة الاخيرة من الحرب العالمية الاولى والسنوات التي تلتها ، ضد حلفائهم الاستعماريين الاخرين ، وعلى رأسهم فرنسا ، لتوسيع منطقة الوطن القومي اليهودي ، المفهوم ضمنا انها ستكون خاضعة للسيطرة البريطانية . وبالتالي تحسين وضع بريطانيا من حيث سيطرتها على مساحات اكبر عند تقسيم المشرق العربي الى مناطق نفوذ امبريالية · وهذا ما تم فعلا ، على حساب مطامع فرنسا ، التي كان من المفروض ان تسيطر ، وفق اتفاقية سايكس ـ بيكو ، على منطقة اوسع من تلك التي كانت من نصيبها لو لم تبرز مشكلة الوطن القومي · كذلك هدفت بريطانيا ، بالطبع ، من وراء تبني الوطن القومي اليهودي ، الى خلق كيان مؤيد للبريطانيين في الشرق ، يساعدهم على تثبيت سيطرتهم على المنطقة· ولذلك سعوا ايضا ، مع الصهيونيين ، الى الحصول على اعتراف دولي بذلك الوطن ، وهو ما حققوه باقرار الانتداب البريطاني على فلسطين من قبل عصبة الامم · غير ان ذلك « الاتفاق » البريطاني ـ الصهيوني لم يبق نافذ المفعول الا نحو ٢٠ سنة فقط ، اذ ما ان نشبت الحرب العالمية الثانية حتى راح الصهيونيون يعيدون حساباتهم ويستعدون لمجابهة احتمالات المستقبل · ومع نهاية الحرب ، التي حولت بريطانيا الى قوة عالمية من الدرجة الثانية ، دخل الصهيونيون في صراع سياسي وعسكري واسع معها ( في الوقت الذي كان العرب لا يزالون يتمسكون فيه بـ « الحليفة » بريطانيا ) ، كان من بين الاسباب التي ادت الى انهاء الانتداب البريطاني على فلسطين · اي ان « التعاون » البريطاني ـ الصهيوني انتهى بانحسار الاستعمار البريطاني عن فلسطين ، وبقاء الوطن القومي اليهودي الذي تحول الى دولة ·

وفي الوقت نفسه ، وبموازاة ذلك الموقف المعـــادي لبريطانيا ، ركـــز الصهيونيون جهودهم على الدولتين الكبريين ، اللتين برزتا بعد الحرب العالمية الثانية ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . لاقناعهما بتأييد مساعيهم لاقامة الدولة اليهودية · وقد تم لهم ما ارادوا ، اذ دعمت هاتان الدولتان ، في المحافل الدولية ، مشروع اقامة الدولة اليهودية وكانتا اول من اعترف باسرائيل ، بعد اقل من مرور يومين فقط على اعلان اقامتها · ولم يتوقف الامر عند هذا الحد، بل ان اسرائيل حظيت ايضا ، خلال مراحل تأسيسها الاولى ، بتشجيع ودعم من قبل هاتين الدولتين ، وذلك بتزويدها بالسلاح الشرقي ( التشيكي ) من ناحية ، والقروض الاميركية من ناحية اخرى · ولم يتغير هذا الموقف الا عندما قرر بن ـ غوريون التخلي عن « الحياد » الاسرائيلي والتوجه نحو الغرب . وبالتالي معاداة المجموعة الاشتراكية ، بعد شعوره ان تأييدها لم يعد ضروريا لضمان المصالـح الاسرائيلية ·

وكانت احدى المشكلات البارزة التي جابهت اسرائيل بعد قيامها . حاجتها الى القوى البشرية اليهودية لتقوية نفسها ، خصوصا بعد ان ضاع يهود اوروبا الشرقية ، الذين زودوا المشروع الصهيوني في الماضي بأكثرية قواه البشرية ، في الدوامة النازية خلال الحرب العالمية الثانية . وبعد ان امتنع يهود اوروبا الغربية واميركا ـ كعادتهم في الماضي ـ عن الهجرة اليها · ولكن سرعان ما جاء الفرج ··· من الدول العربية والاشتراكية ، اذ تمكنت اسرائيل ، بوسائل عديدة ، والتآمر مع هذا الطرف او ذاك ، واتباع اساليب لا حاجة لشرحها هنا ، من تهجير ما يزيد على ١٫١٠٠٫٠٠٠ نسمة من يهود تلك الدول ونقلهم اليها · وخلال الربع الاول لقيام اسرائيل ( ١٩٤٨ ـ ١٩٧٢ ) ، كان قد هاجر اليها ، وفق احصاءاتها الرسمية ، من الدول العربية ٥٨١٫٢١٢ يهوديا ( منهـــم ٣٢٦٫٦٢٢ نسمة من ٣ دول مجاورة بعضها لبعض، تقع في « آخر » العالم العربي. و ٣٥٫٦١٢ نسمة من دولة رابعة مجاورة لهم و ٢٩٫٣٨٣ من دولتين اخريين مجاورتين لها و ١٠٫١١٩ من دولتين مشـــرقيتين متجـــاورتين و ١٢٨٫٩٣٣ من دولة مشرقية اخرى مجاورة لهما و ٥٠٫٥٤٣ من دولة تقع في نهاية الطرف الاخر من العالم العربي ) · اما عدد المهاجرين اليهود من الدول الشرقية ، خلال الفترة نفسها فقد بلغ ٥٧٤٫٢٧١ نسمة ( منهم ٢٣٩٫٦٧٦ نسمة من رومانيا و ١٦٢٫٢٧٠ من بولونيا و ٨٢٫٩٣١ من الاتحاد السوفيتي و ٣٩٫٦٧٨ من بلغاريا و ٢٧٫٠١٣ من هنغاريا و ٢٢٫٦١٣ من تشيكوسلوفاكيا ) · والواضح ان هذه القوى البشرية كانت احسن دعم يمكن ان تحلم به اسرائيل · بل يمكن القول ان بعض الدول العربية والاشتراكية « ساهمت » في اقامة اســرائيل ـ مهما كانت الظروف التي ادت الى ذلك ، فالعبرة فيما يتعلق بهذه الناحية هي في النتيجة ـ اكثر مما ساهم الامبرياليون بأسرهم مجتمعين ·

والقاعدة نفسها تنطبق على « التعاون الاستراتيجي » الاسرائيلي ـ الفرنسي خلال الخمسينات والستينات ، الذي بدأ بسعي الطرفين الى اسقاط عـــدو مشترك ، هو عبد الناصر ، بما كان يرمز اليه ، وانتهى بعد حرب ١٩٦٧ ، لاسباب تتعلق اساسا بتغيير في السياسة الفرنسية · غير انه على الرغم من تلك النهاية لم تكن اسرائيل هي الخاسرة ، على المدى الطويل ، نتيجة لذلك التعاون · فحرب السويس ١٩٥٦ وفرت لها عشر سنوات من الهدوء ، مكنتها من اعادة بناء نفسها ، على اكثر من صعيد داخلي وخارجي استعدادا لتحديات المستقبل · كما ان المساعدات الفرنسية ، وخصوصا العسكرية ، التي تلقتها خلال حرب السويس وبعدها هي التي مكنتها من الانتصار في حرب ١٩٦٧ ·

ويبدو ان خلاصة هذه التجربة البراغماتية في بناء اسرائيل هي التي تدفع الصهيونيين الى ابداء الاستخفاف او احيانا الشفقة ، تجاه اولئك الذيـن يدعون ان اسرائيل ليست الا اداة في ايدي الاستعمار ومصيرها مرتبـــط بمصيره ، ويبنون « استراتيجيتهم » على هذا الاساس · فبالنسبة للاسرائيليين ليس في تلك الاقوال ما قد يسيء اليهم كثيرا ، وليست القضية هي وجود استعمار او عدم وجوده · ان الامر بالنسبة لهم ليس الا « سياسة » او « شطارة » · انه سعي الى تحقيق الهدف بكافة الوسائل المتاحة · وقد نجحت هذه الطريقة اكثر من مرة في الماضي ، ليس مع الامبرياليين فقط ، بل مع العرب والاشتراكيين ايضا · وليس هنالك ما يدل ، وفق المنطق الاسرائيلي ، على انها لن تنجح في المستقبل مع دول العالم الثالث ، مثلا · والعبـــرة واضحة للغاية : لا ينبغي الخوف كثيرا من المآزق « السلمية » او العدائية · لقد جابه الصهيونيون في الماضي مآزق كثيرة وخرجوا منها ، والشعـــور السائد هو انهم سيعرفون كيف يواجهون مشكلات المستقبل ايضا · ولا يترتب على منطق الاسرائيليين هذا الا تشبثهم بعنادهم والتمسك برفض ما يعتقدون انه لا يناسبهم ، حتى ولو اعتقد الاخرون كلهم عكس ذلك ·

## -الكلام الكبير ـ والاعمال الصغيرة

تلعب التجربة الصهيونية مع العرب ايضا دورا مهما في تغذية الرفـض الاسرائيلي · والعامل العربي عنصر مهم في مركب ذلك الرفض ، ان لم يكن احيانا اهمها على الاطلاق ·

ان التجربة الصهيونية ـ العربية طويلة ومتشعبة ومريرة ، بالنسبة للطرفين ، ولا تذكر الاسرائيليين الا بقصة داوود الذي هزم جوليات الجبار بمقلاعه · فالعرب اعلنوا عداءهم للصهيونية منذ ظهورها على ارض فلسطين ، وقارعوها بشتى الطرق ، كل حسب مفاهيمه ، بينما حاول بعضهم في اكثر من مرة ،

التعاون معها سرا ، ولكنهم لم يمنوا الا بالفشل · ومنذ قيام اسرائيل وحتى اليوم ، دخلوا معها في اربع حروب كبيرة وعشرات الهجومات والصدامات المتبادلة عبر الحدود ، وكانت الغلبة في اكثر الاحيان لها · كما انهم ، منذ ذلك الوقت وحتى اليوم ، يستعدون دائما وابدا للمعركة الفاصلة ، ولكن عندما تقع معركة من هذا النوع ، يظهر عمليا انهم كانوا دائما مستعدين للحرب الماضية ، لا الاخيرة ·

واسباب هذا الفشل العربي ، على كل حال عديدة ، منها الضعف الناجم عن السياسات العربية الاقليمية المتناحرة ، والتخلف وانعدام التخطيط والجدية في الاستعداد للقتال ، وتدخل القوى الاجنبية لصالح الطرف الاخر ، وغيره · الا ان الاهم من ذلك كله ــ وهذا ما يعنينا هنا ــ هو تأثير الموقف العربي من القضية الفلسطينية على اسرائيل وسياساتها ، والعبر التي استخلصتها من ذلك · وفي هذا المجال يمكن القول ان التأييد العربي للفلسطينيين وقضيتهم لم يكن ، في احيان كثيرة ، الا لفظيا وغير فعال ؛ كما ان الموقف الحقيقي لاكثر من طرف عربي ، في اكثر من حالة ، كان تآمريا · ونظرة خاطفة على ذلك الموقف ــ او المواقف ــ تثبت ذلك · فخلال الحرب العالمية الاولى وبعدها ، اعلن عرب المشرق التزامهم بقضية فلسطين وسعيهم للمحافظة على عروبتها اكثر من مرة ، باعتبار ان البلد هو سوريا الجنوبية · لكن ما ان اقر الانتدابان البريطاني والفرنسي على المشرق وقسمت بلدانه ، في مطلع العشرينات، حتى نسي العرب الاخرون فلسطين ورزحوا تحت عبء المشكلات التي واجهتهم · ولم يطرأ تغيير ملحوظ على ذلك الموقف العربي الا مع نهاية الثلاثينات ، نتيجة لنشوب الثورة الكبرى في فلسطين ، التي اتجه العرب رسميا للعمل على نصرة الفلسطينيين فيها ، بينما لم تؤد « مساعدتهم » الا الى انهائها دون اية نتيجة · ومع اقامة الجامعة العربية في الاربعينات ، « حولت » القضية الفلسطينية اليها ، فكانت النتيجة ، بسبب المواقف العربية المختلفة والمشاحنات والتآمر المتبادل ، ان « طارت » فلسطين واختفت قضيتها ، فتحولت الى قضية لاجئين ·

وحتى بعد ان طرأ تغيير ما ، رسميا على الاقل ، على موقف العرب من القضية الفلسطينية ، مع موافقتهم على اقامة منظمة التحرير الفلسطينية ، لم تسلم المنظمة من اذى بعضهم · فالضربات القوية لمنظمة التحرير ، ومن ابرزها ما حدث في الاردن سنة ١٩٧٠ ولبنان سنة ١٩٧٦ ، نفذت بأيد عربية · بل ان تلك الضربات كانت شرسة لدرجة دفعت الاسرائيليين الى ابداء « استغرابهم » ، في حين اعلن وزير دفاعهم مرة ان « الاشقاء » العرب قتلوا من الفدائيين الفلسطينيين خلال يومين فقط عددا يفوق ذلك الذي قتله الجيش الاسرائيلي خلال عامين · ومن آخر « المآثر » في هذا المجال ايضا موقف السادات ، اكبر « الملتزمين » سابقا بالحقوق الفلسطينية الذي ما ان وصل الى القدس لزيارة

بيغن حتى نسي ، بناء على نصيحة دايان ، اسم منظمة التحرير الفلسطينية ، باعتبارها الممثل الشرعي للفلسطينيين ، وامتنع عن ذكره لكي لا يزعج مضيفيه • ثم راح يقدم اقتراحات « سلمية » جديدة لا تنم الا عن تنكر لكل التزامات مصر السابقة بشأن القضية الفلسطينية •

وخلاصة العبرة الاسرائيلية ، من هذا الموقف العربي تجاه الفلسطينيين ، هي ان اكثرية العرب غير ملتزمة فعلا بالقضية الفلسطينية ، وسياساتهم تجاهها متذبذبة ، ومنهم من هو على استعداد لـ « بيعها » لقاء مصالحه الاقليمية الخاصة به ، او انه يسعى الى السيطرة على الفلسطينيين وضمهم تحت كنفه • ومن هنا ينبع الرفض الاسرائيلي للاقتراحات العربية ، عديمة المصداقية ، بشأن القضية الفلسطينية •

ومن ناحية ثانية ، واستمرارا ـ تأييدا لذلك الاستنتاج لا بد من القول ايضا ان الفلسطينيين انفسهم لم يساهموا كثيرا في تغيير هذا الموقف الاسرائيلي • صحيح ان الفلسطينيين نظموا انفسهم وحشدوا جزءا من قواتهم وبنوا كيانا سياسيا خاصا بهم ، ولا يزالون يخوضون الصراع مع اسرائيل • الا ان مجمل انجازاتهم ، في هذا المجال ، لم تكن كافية لحمل الاسرائيليين على اعتبارهم عاملا جديا ومؤثرا في تقرير مستقبل المنطقة ، ولذلك لا ضرورة للاستجابة لطلباتهم ، او اخذ رغباتهم بالاعتبار •

صحيح ان العرب ( ومن ضمنهم الفلسطينيين ) لا يزالون ، منذ راحوا يقارعون الصهيونية حتى اليوم ، يطلقون التصريحات والكلام الكبير ، وينذرون بالويل والثبور وعظائم الامور ، الا ان اعمالهم ، في هذا المجال ، كانت دائما صغيرة • وليس في مجمل العبرة ، المستمدة من مثل هذا التصرف ، الا ما يدفع نحو الرفض •

## القلق على المستقبل

اذا كانت عبرة التجربة الصهيونية مع الفلسطينيين والعرب في الماضي ، لا تدفع الاسرائيليين الا الى رفض المقترحات والمساعي السلمية العربية ، ان تم ذلك نتيجة لعدم ثقتهم بالعرب او خوفهم منهم او الاستخفاف بهم ، فان جوهر المقترحات العربية الداعية كلها الى الانسحاب ، بشكل او بآخر ، من الاراضي العربية المحتلة وايجاد حل للقضية الفلسطينية ، مقابل صلح او سلام مع العرب ، لا تدفع ايضا الا الى تقوية ذلك الرفض ، نتيجة لقلق الاسرائيليين على مستقبلهم ، كما يحلو لهم تصوره ، في حال قبولهم بتلك المقترحات •

ولعل ابرز ما يقلق الاسرائيليين من مقترحات التسوية السياسية في الشرق

الاوسط ، هي تلك النواحي منها المتعلقة بالقضية الفلسطينية • فالاسرائيليون يدركون ، مثل غيرهم ، ان القضية الفلسطينية هي جوهر الصراع العربي ــ الاسرائيلي واساسه ، الا انهم بنوا سياساتهم على مغالطة الاخرين والزعم ان اساس الصراع هو رفض العرب قبول اسرائيل والعيش في سلام معها • وانكار الاسرائيليين لاهمية القضية الفلسطينية ، واحيانا حتى لمجرد وجودها ، « طبيعي » وواضح ومفهوم ، اذ ان النظرية الصهيونية بأسرها ، وبالتالي الوجود الاسرائيلي ، قائم على اساس انه لا يوجد شعب فلسطيني ، وحتى وان وجد ، لا حقوق له في « ارض ــ اسرائيل » ، واي موقف مخالف لذلك ، ينم عن شبه اعتراف بحقوق الفلسطينيين ، وخصوصا القومية منها ، قد يفتح ثغرة لاعادة حسابات كثيرة ، تجر مخاطر عديدة على الكيان الصهيوني • وبما ان معظم اقتراحات التسوية في الشرق الاوسط تدعو الى اخذ العنصر الفلسطيني بالاعتبار ، بشكل او بآخر ، فانها جميعها مرفوضة من قبل اسرائيل ، لما تثيره من قلق لديها ، باحتمالات تطورها المستقبلية •

ولا بد من الاشارة في هذا الصدد ، على كل حال ، الى ان هنالك ما يقلق الاسرائيليين فعلا ، من وجهة نظرهم الصهيونية ، ويدفعهم الى التمسك بمواقف الرفض تجاه الفلسطينيين وحقوقهم • فقد حارب الصهيونيون الفلسطينيين بشراسة ، وبذلوا كل ما في وسعهم لشطبهم من خارطة المنطقة ، جغرافيا وسياسيا ، للحلول محلهم • كما قد ظهر احيانا ان مساعيهم تلك حظيت بنجاح ملحوظ ، فمع منتصف الخمسينات ، مثلا ، كانت القضية الفلسطينية قد تحولت الى مجرد قضية لاجئين ، قد يكون من المناسب ايجاد حل لها على هذا الاساس • غير انه ما ان اختل الميزان في المنطقة قليلا ، حتى وان تم الى حد كبير نتيجة لنصر اسرائيلي ، وتغيرت الاوضاع نوعا ما ، حتى عادت الحال الى سابق عهدها ، ورجعت القضية الفلسطينية تدق على ابواب الدول والشعوب المعنية ، تطلب حلا لها • واذا باسرائيل تكتشف ان انتصارها على الفلسطينيين لم يكن كاملا ، وان هناك نواح مهمة في الصراع الفلسطيني ــ الصهيوني لم تحسم حتى الان • وتبرز هذه النواحي ، بشكل خاص ، على ارضية مشاريع التسوية الداعية الى اقامة كيان فلسطيني ، مهما كان هزيلا ، ناهيك عن دولة فلسطينية مستقلة • فتفكير الصهيونيين في مثل هذه المشاريع يعيد الى ذاكرتهم كل نقاط ضعفهم ، ويثير خوفا لديهم من ان لا يكون اي كيان فلسطيني الا مقدمة لحسم الصراع لصالح الفلسطينيين على المدى الطويل ، من خلال استغلال نقاط الضعف تلك ، وهي عديدة • فالصهيونيون ، مثلا ، في مساعيهم لتقوية كيانهم في فلسطين بذلوا كل ما في وسعهم لزيادة عددهم في البلد ، بواسطة تهجير اليهود اليه من كافة انحاء العالم ، وبمختلف الوسائل والطرق ، حتى وصل عددهم هنالك حاليا الى ما يزيد على ٣ ملايين نسمة • ولكن خلال الوقت

نفسه ، وصل عدد الفلسطينيين كذلك الى ما يزيد ايضا على ٣ ملايين نسمة ، بواسطة تكاثرهم الطبيعي فقط ، ونصفهم لا يزال يعيش على ارض فلسطين ٠ كذلك كان الصهيونيون قد بذلوا جهودا مختلفة ومضنية لتحويل اليهود الى اكثرية سكانية في كافة انحاء فلسطين ، بعد تفريغها من العرب ، ولكنهم لم يوفقوا في ذلك ٠ فالعرب لا يزالون يشكلون اكثرية سكانية في ثلاث مناطق رئيسية في فلسطين : الجليل والضفة الغربية وقطاع غزة ، اي ، عمليا ، ما يساوي نصف مساحة فلسطين الصالحة للعيش والسكن ٠ كما ان حالة من النهوض القومي والتمسك بالهوية القومية تسيطر على الفلسطينيين في كافة اماكن تواجدهم ٠ ثم ان الشعب الفلسطيني يتمتع بطاقات لا بأس بها ، يمكن ان تتحول ، اذا نظمت ونسقت في اطار مستقل ، الى قوة فعالة في المنطقة ٠ ولذلك فان اي حل قد يرتكز على اساس الاعتراف بحقوق قومية للفلسطينيين ، او قيام كيان لهم ، مهما كان هزيلا ، لا يخلو من خطورة من وجهة النظر الاسرائيلية ، اذ قد ينمو ويكبر ويصبح خطرا على الدولة الصهيونية ٠ وعليه ، لا مجال الا لرفضه ٠

ويوازي قلق الاسرائيليين من المستقبل ، على الصعيد الفلسطيني ، قلق مماثل لجهة موقفهم من العرب عامة ٠ صحيح ان العرب منقسمون على انفسهم حاليا ، كما كان الحال في معظم الاوقات في السابق ، ويكاد يكون لكل منهم سياسته الخاصة به ، مما يساهم في اضعافهم ، وصحيح ايضا ان التخلف يسيطر على نواح كثيرة من حياتهم ونشاطهم ٠ الا ان العالم العربي ، من ناحية ثانية ، واسع وكبير ، ولديه طاقات اقتصادية وبشرية ضخمة ، وهو ينمو ويتطور بسرعة ، ولا بد ان يصل يوما ما ، رغم العوائق المختلفة ، الى احتلال المركز الذي يليق به في العالم ٠ وفي هذا المجال ليس لدى اسرائيل ما تفعله ، عدا ربما عن محاولة اعاقة ذلك النمو بواسطة اجبار العرب على توجيه جزء من طاقاتهم نحو التبذير العسكري ، كما انه ليس لديها ما تقدمه لهم ، عدا ربما عن محاولة استغلال ثرواتهم لصالحها ، ومن المشكوك فيه حتى اذا كانت قادرة على ذلك ، نظرا ، على الاقل ، لضخامة تلك الثروات ٠ فمن الواضح ، مثلا ، ان الحديث عن « مساعدات » يمكن ان تقدمها اسرائيل الى العرب ليس الا نوعا من المزاح ، فليس هنالك من شيء تستطيع تلك « الامبراطورية » ـ المحتاجة للمساعدات الدائمة ـ تقديمه الى العرب ، الا وباستطاعتهم الحصول عليه من بلدان العالم الواسع ، وبجودة احسن وبكلفة اقل ، دون الحاجة لاسرائيل ٠ كما ان اكبر « الايجابيين » العرب الذين يسعون الى الصلح مع اسرائيل ينطلقون في موقفهم هذا ، الى حد ما ، من سعيهم الى اتقاء شرها وشرور مؤيديها من الامبرياليين ، وتحويل مواردهم نحو تنمية بلدانهم ٠

والاسرائيليون يدركون ، بالطبع ، هذه المواقف والاتجاهات جيدا ، ويحارون في كيفية التعامل معها ، ويزداد قلقهم على مستقبلهم · ويغذي القلق هذا شعورهم بعدم الثقة بالعرب والخوف منهم ، ويدفعهم الى التمسك بمواقفهم التقليدية السابقة ، والنظر بريبة الى اي اقتراح جديد قد يقدم اليهم · ولعل هذه الاوضاع النفسية هي التي تفسر ، ولو الى حد ما ، سر اصرار الاسرائيليين على السعي الى عقد « سلام » مع العرب وفق شروطهم ، حتى وان ظهر ان تلك الشروط لن تؤدي الى اي سلام ، في نهاية الامر ·

**مخاطر السلام**

ان تشبث الاسرائيليين بمواقف الرفض ، على الرغم من تبجحهم الدائم بـ « حبهم » للسلام وسعيهم اليه ، لا ينجم فقط عن قلقهم من المستقبل ، بل قد يعود ايضا الى خوفهم من تأثير السلام عليهم ، على المدى الطويل · ونظرة هادئة على تركيب الكيان الصهيوني في فلسطين قد تقدم اكثر من دليل على ان السلام لا ينبغي ان يكون مفيدا بالضرورة لاسرائيل ، بل قد يجابهها بتحديات لا قدرة لها ، في مرحلة نموها الحالية ، على مواجهتها ، او قد يعرضها للخطر على اكثر من صعيد ، وبالتالي فان السلام الحقيقي ، في حقيقة الامر ، قد يكون مرفوضا ·

واول ما يلفت النظر ، في هذا المجال ، هو امكانية تأثير وضع السلام والهدوء على تركيب المجتمع الاسرائيلي ، ومن ثم الكيان الصهيوني بأسره · فالخطر الخارجي كان ، ولا يزال ، واحدا من العوامل الرئيسية التي استغلت لتوحيد المهاجرين اليهود القادمين الى فلسطين من عشرات البلدان ، ومحاولة صهرهم في بوتقة واحدة ، وخلق مجتمع متماسك منهم · وقد احرز الصهيونيون تقدما ما في هذا المجال ، ولكن على الرغم من ذلك لا تزال الطريق طويلة امامهم ، اذ ان المجتمع الاسرائيلي لا يزال حتى الان عبارة عن مجتمعين كبيرين منفصلين ، احدهما اشكنازي يضم اليهود الغربيين والاخر سفارادي يضم الشرقيين منهم ( وهناك ايضا مجتمع ثالث عربي ) · وفي داخل هذين المجتمعين « مجتمعات » صغيرة اخرى ، تقوم عادة على اساس البلدان او المناطق التي قدم المهاجرون منها · وزوال الخطر الخارجي ، مع حلول السلام ، قد يؤدي على الاقل الى ابقاء الوضع الحالي على ما هو عليه ، بل قد يزيد تلك المجتمعات تفسخا · وليس في ذلك ما قد يساهم في تقوية الكيان الصهيوني ، بل قد يعرضه ، على المدى الطويل ، الى مخاطر كبيرة ، اخفها زعزعة اركانه ، وبالتالي اضعافه ·

اما الناحية الاخرى التي قد يعرض فيها السلام اسرائيل للمخاطر ، فهي الهجرة اليهودية اليها ، وهي ركن مهم من اركان العقيدة الصهيونية ، وعامل لا غنى عنه لتقوية اسرائيل · ولاول وهلة يبدو ان السلام والهدوء والشعور بالامن وزوال الخطر الخارجي لا بد الا ان يؤدوا الى تقوية الهجرة الى اسرائيل · الا ان التجربة الصهيونية الطويلة ، في هذا المجال ، تثبت عكس ذلك تماما · فنظرة سريعة على اسباب موجات الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، ثم اسرائيل ، تظهر بما لا يدع مجالا للشك انها جاءت كلها بحكم اضطرار الاكثرية الساحقة لاولئك المهاجرين الى الهجرة ، بسبب الاوضاع الصعبة او الشاذة التي جابهتهم في بلدانهم الاصلية ، لا نتيجة لايمانهم بالعقيدة الصهيونية · وهذا العامل واضح لدرجة دفعت بعضهم الى تسمية الصهيونية باسم « صهيونية المصائب » ، اي ان تلك الحركة لم تحقق مكاسب تذكر الا عندما كانت تحل المصائب باليهود ، فتستفيد منها ·

يضاف الى ذلك ، من ناحية اخرى ، ان فتح الحدود بصورة طبيعية بين اسرائيل والعرب ، نتيجة لحلول السلام ، قد يؤدي ايضا الى هجرة الكثيرين من اصحاب الكفاءات والمهارات المهنية من بين الاسرائيليين ، خصوصا الى عالم عربي يتطور وينمو بسرعة وذي امكانيات لاستيعاب المهارات المختلفة ، ولو تم ذلك من باب السعي وراء الرزق فقط · ولا ينبغي ان يخدع احد بحديث اسرائيل عن رغبتها في حدود مفتوحة بينها وبين العرب ، اذ ان هدفها هو عمليا حدود مفتوحة بالنسبة لاسرائيل فقط ، لا لغيرها ، بحيث تستطيع وحدها التحكم في حركة مرور الاشخاص والبضائع فيها ، كتلك القائمة على جسور نهر الاردن منذ ١٩٦٧ · ففتح الحدود كاملا قد يؤدي ، مثلا ، الى تدفق اموال عربية غير مرغوب فيها ، خصوصا اذا اتجهت نحو العمل على السيطرة على بعض قطاعات الاقتصاد الاسرائيلي ·

كذلك لا بد ان يؤدي السلم ايضا الى حالة من الاسترخاء لدى الاسرائيليين ، ومن ثم لدى يهود العالم بأسرهم ، مما قد ينجم عنه تخفيف زخم دعمهم لاسرائيل · فـ « القواعد » التي تحكم تصرف يهود العالم تجاه اسرائيل واضحة للغاية ، وخلاصتها ان دعم اولئك للكيان الصهيوني ، ماليا اولا وبشريا ثانيا ، يتصاعد ويقوى عندما يبدو ان الدولة اليهودية تتعرض للمخاطر ، ثم يخف بعد ذلك ، عندما تعود الاوضاع الى حالتها الطبيعية ، وليس مثل السلم حالة طبيعية ·

وتجدر الاشارة ايضا الى ان اي اتفاق سلام لا بد الا ان يؤدي الى تحديد المشروع الصهيوني ، جغرافيا ، ثم بشريا ، وبالتالي لا بد ان تكون له انعكاساته على العقيدة الصهيونية والكيان الصهيوني ككل · ومن المشكوك فيه ان يكون

الصهيونيون مستعدين حقيقة لمجابهة مثل هذا الوضع · فمنذ نشوئهم وحتى اليوم كان التوسع و « احتلال الارض » ثم « احتلال العمل » اهدافا رئيسية عملت على تحريك الصهيونيين واخصاب خيالهم ودفعهم الى مواجهة التحديات · ولذلك فان موافقتهم على تحديد مطامعهم بأنفسهم ، اخيرا ، قد تؤدي الى عكس ذلك تماما ·

ولا بد من لفت النظر ايضا الى خوف الاسرائيليين الواضح من ان اي اتفاق سلم يمكن ان يوقع مع العرب قد لا يدوم طويلا ، مهما كانت الضمانات التي قد ترافقه · فامكانات تغيير الحكم او الحكام ، في هذه الدولة العربية او تلك ، قائمة · ولا ينبغي ، بالضرورة ، ان يعمر الحاكم العربي الذي يعقد سلما مع اسرائيل طويلا ، بل قد يستبدل بحاكم اخر له نظرة مختلفة تماما · كما قد يكون للاجيال العربية القادمة موقفا اخر مختلفا من اسرائيل · ولذلك لا يجوز الاسراع في الوقوع في « شرك » السلام ، مهما رافقته من « مغريات » · واذا لم يكن بد من السلام ، ما دام الكثيرون يتحدثون عنه ، وفي ذلك الحديث شيء من « الحرج » لاسرائيل ، فينبغي ان يتم ذلك وفق المخططات والمصالح الاسرائيلية ، وفي الوقت الذي تراه اسرائيل مناسبا ·

## مفاوضات ، لا اتفاق

ان الرفض الاسرائيلي ، كما يتضح من عرض اسمه ودوافعه ومفاهيمه المختلفة ، ليس عرضيا ولا تكتيكيا ، بل انه ، على العكس من ذلك ، عميق للغاية ومتأصل في نفوس الصهيونيين ، لدرجة يمكن معها اعتباره استراتيجية · ومثل هذا الرفض لا يترك مجالا كبيرا للوهم بأن اسرائيل تسعى فعلا الى السلام مع العرب ، او تريده ·

واذا كان الامر كذلك ، فما الذي تسعى اليه اسرائيل ؟ ــ يبدو الجواب واضحا : مفاوضات ، ثم مفاوضات مع العرب ، او مع بعضهم ، دون الوصول الى اتفاق معهم · وتكاد تكون المفاوضات بحد ذاتها هي الهدف الرئيسي ·

ان استمرار المفاوضات الاسرائيلية مع العرب ، ومن المفضل مع مصر بالذات ، يعود بفوائد جمة على اسرائيل ، من وجهة نظر حكامها · فاستمرار المفاوضات ، اولا ، حتى وان تعثرت من حين الى اخر ، يبقي اجواء التفاؤل قائمة ويبعد شبح الحرب ، كما انه يريح النظام الاسرائيلي ، ثانيا ، من الضغوط الداخلية والخارجية التي يتعرض لها ، ويؤدي الى ان يعتاد العرب تدريجيا ، ثالثا ، على وجود اسرائيل وكونها عاملا ثابتا في المنطقة · ويبدو لنا انه لو انيطت مسؤولية ادارة تلك المفاوضات بالاسرائيليين وحدهم ، لعملوا على استمرارها حتى نهاية القرن ، من خلال اتباع سياسة لا حرب ولا سلم ، لا ضم

ولا انسحاب · ومن المفضل ايضا ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، ان ترافق عملية المفاوضات الطويلة تلك ، من حين الى اخر ، بعض التصريحات العربية العنترية الابادية الجوفاء الموجهة ضد اسرائيل ( ويفضل اليهود ايضا ) ، من هنا او هناك ، يمكن ايرادها كاثبات على وجود « خطر » ( شرط ان لا يكون حقيقيا ) يتهدد الكيان الصهيوني ، ومن ثم استغلالها لتغذية العقد الصهيونية ـ الاسرائيلية ، وشد انظار العالم واليهود الى الدولة اليهودية وكسب العطف عليها والتأييد المادي والمعنوي لها · ويؤمل ان يستطيع الاسرائيليون ، خلال فترة المفاوضات الطويلة تلك ، خلق عوامل قوة اخرى وتثبيت كيانهم بشكل يصبح معه حقيقة واقعة ، لا يخطر على بال احد التعرض لها ، وربما تمكنوا كذلك ، خلال هذا الوقت ، من اتخاذ قرارهم حول ما يريدونه من انفسهم ومن العرب اخيرا ·

ولا ينبغي ان يثير هذا الوصف للموقف الاسرائيلي استهجانا ، او ينظر اليه على انه مبالغ فيه · فليس في اسرائيل ، عمليا ، اية قوة سياسية يبدو انها قد بلورت موقفا محددا من السلم مع العرب ، يمكن ان يكون مقبولا ، ولو بتحفظات كثيرة ، من قبل اكثرهم اعتدالا · كما ان ، وهذا هو الاهم ، ليست هنالك اية قوة مماثلة يمكنها ان تنفذ اتفاقا مع العرب ، وتحمل اكثرية الاسرائيليين على القبول به ، في حالة الوصول اليه · لقد فقد الاسرائيليون اخر زعاماتهم التاريخية البراغماتية ، التي كان باستطاعتها حسم مسألة الوصول الى اتفاق مع العرب ، حتى ولو كان مؤلما لاسرائيل في بعض جوانبه ، بغياب بن ـ غوريون · وكل الزعامات الحالية ، دون استثناء ، هي من ذلك النوع الذي لا طعم له ولا لون ولا رائحة ، ولا تملك قوة اتخاذ القرارات المصيرية ، حتى وان بدا ان « بريقها » قد يوحي بعكس ذلك · كما ان النظام الاسرائيلي لا يضم ، في الحكومة او المعارضة ، الا « شللا » متناحرة ، لكل منها موقفه الخاص به ، ولا تستطيع في احسن الاحوال انتهاج اية سياسة متماسكة ، بل ان القوة الفعالة لكل منها تنحصر في معارضة الاخرين وشل قدرتهم على اتخاذ اي قرار او تنفيذه · وفي مثل هذا الوضع ، لا يبدو ان هنالك امكانية لاتفاق ما بين الاسرائيليين ، لجهة موقفهم من العرب ، عدا عن ذلك المتعلق بضرورة استمرار المفاوضات معهم · وحتى بالنسبة لذلك ، هنالك اعتراضات كثيرة على طريقة ادارة تلك المفاوضات ·

وخطأ العرب الذين اتجهوا للتعامل بأسلوب جديد مع الاسرائيليين ، من خلال محاولة تهديدهم بالعصا واغرائهم بالجزرة ، هو انهم حين قدموا الجزرة لاسرائيل كانت عصاهم وهمية · ومن دون العصا العربية سيبقى الرفض الاسرائيلي ، قطعا ، هو السائد والمتحكم في التحركات السياسية ، وغيرها ، في المنطقة · ومن الافضل لمن لا يملك تلك العصا تأجيل تنفيذ اي خطط « فخمة » ، قد تطرأ على باله ، حتى صنعها ·

حنه شاهين

# مفاهيم السلم والتسوية الاسرائيلية

زيارة السادات لاسرائيل ، التي لم تؤد الى اية نتائج ملموسة حتى الان ، فجرت على الاقل نقاشا واسعا حول دوافعها ونتاجها بين فئات اسرائيلية مختلفة ، من زعامات سياسية وحزبية ورجال فكر وكتاب وعسكريين سابقين وصحفيين وغيرهم · وعلى الرغم من ان هذا النقاش لم ينته بعد ، وان مصير الزيارة او ما قد تسفر عنه من نتائج لم يتضحا . فان ذلك الحدث الفريد من نوعه في تاريخ الصراع العربي- الاسرائيلي . قد ادى الى طرح آراء عديدة ومتشعبة . بعضها جديد والاخر معاد ، بشأن المفاهيم الاسرائيلية للسلم والتسوية ، ضمن قدر من الصراحة والشمولية احيانا لم نعهده في السابق · وسنحاول فيما يلي رصد اهم ما طرح من اراء في هذا الصدد ، مع ضرورة الاشارة الى ان تلك المواقف ، جديدة كانت ام قديمة . مرنة ام متشددة ، تنطلق ـ بشهادة اصحابها انفسهم ـ من حرصهم على « مصلحة اسرائيل »وسعيهم الى ايجاد افضل السبل ل « ضمان مستقبلها » ·

## دوافع الزيارة ومعناها بالنسبة لاسرائيل

كتب الكثير في اسرائيل ، منذ اعلن السادات عن نيته في زيارة القدس ، عن دوافع تلك الزيارة ومعناها بالنسبة للاسرائيليين · ويكاد يكون هنالك شبه أجماع على ان عوامل القوة الاسرائيلية هي التي دفعت السادات الى القيام بتلك الزيارة · وقد عبر احدهم عن هذا الرأي بقوله انه « لا ينبغي ان ننسى ان السادات حضر الى القدس فقط بعد فشل مصر في اربع حروب ، وفي حرب الاستنزاف ايضا، ثم فشل المقاطعة العربية ، وكذلك بعد توطين مشارف رفح واقامة [مدينة] يميت [على الاراضي المصرية في شمال غرب سيناء ] وبعد صمودنا العنيد امام الضغط الاميركي خلال عشر سنوات ··· سنتذكر دائما ان زيارة السادات للقدس سببها محاربو النقب وسيناء ، ومستوطنات المهاجرين التي صمدت امام هجمات الفدائيين ، في قطاع غزة ، وعابرو القناة ومستوطنو النقب وبئر السبع وايلات ··· ان السلام سيحل نتيجة لتعاظم قوتنا . لا تقزيمنا » (١)

وسواء كانت دوافع السادات استسلامية او متعلقة بشخصه « كداعية سلام » ، كما يصف نفسه ، فأن معنى الزيارة واهميتها بالنسبة لاسرائيل ، يبقيان مدار نقاش واسع ، يتأرجح بين « التفاؤل خيرا » بنتائجها ، وبين التشاؤم والتحذير منها · فالبعض يرى ، مثلا ، ان تلك الزيارة قد أدت ، اولا ، الى « نسف » السياسة الاسرائيلية القديمة ، التي اعتمدت على « عدم وجود احد على استعداد للتفاوض معنا ··· وان المشكلة الاساسية هي ان العرب غير مستعدين للاعتراف بوجودنا » ، وهي العبارات التي كانت تتسلح بها اسرائيل لدى الرأي العام الدولي ، لتبرير تصلبها ورفضها لمشاريع التسوية المختلفة . خلال السنين العشر الاخيرة · فقد اعلن يتسحاق رابين ، رئيس الحكومة الاسرائيلية السابق ، عقب زيارة السادات : « انني اؤمن ان خطوة السادات هي ذات اهمية كبيرة ، وستؤدي الى تغيير بعض المفاهيم التي كانت قائمة عندنا · فالتعبير العلني عن الاعتراف باسرائيل والاستعداد للقبول بها كدولة مستقلة كما هي في جوهرها ، في الشرق الاوسط ، ثم البدء بالتفاوض المباشر معها ، يشكلان تغييرا يصعب التراجع عنه من وجهة النظر المصرية · انني اؤمن ان هذا الامر يعكس الاتجاهات الحقيقية التي تطورت لدى الشعب المصري منذ حرب يوم الغفران » (٢) · أما دافيد هكوهين ، رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست سابقا ، واحد السياسيين القدامى في أسرائيل ، فقد اشار الى انه « ينبغي النظر الى هذه الزيارة ، والى تصريحات السادات وشروطه ، كنقطة تحول تاريخية في علاقاتنامع العرب » (٣) · ويعتقد البعض أيضا ان تلك الزيارة قد أدت الى تحول في اوضاع اسرائيل ، فنقلتها من حالة « الهدوء » التي عاشتها طيلة عشر سنين ـ « حيث لم يكن هنالك احد نتحدث اليه · وتنازلنا طوعا حتى عن مفاوضات مباشرة ، وكنا على استعداد لان يقوم يارينغ ··· او كيسنجر ، بجولات متكررة في المنطقة من اجل الوصول الى وثيقة ما ، ربما تؤدي الى « محادثات جوار » (٤) ـ ولقاءات على اعلى المستويات بين اسرائيل ومصر · « والسادات يتحدث علنا عن سلام كامل بجميع عناصره ، وعن تفهمه لمتطلبات امننا · ولو حدثت امور كهذه قبل سنة لاعتبرت خيالية جدا » (٥) ·

ويرى اخرون في زيارة السادات دلالات اخرى ، لعل أهمها هو ان تلك الزيارة « ربما تحمل بوادر تحطيم الاسطورة العربية » بأمكانية القضاء على اسرائيل · فيعقوب حزان ، احد قدامى زعماء حزب مبام ، يعتقد « ان لكل شعب اسطورة خاصة به · وهي عبارة عن خرافة تعود جذورها الى الواقع التاريخي ، ولكن خلال نشوئها تحطم حدود الواقع وتتحول الى قوة حية وفعالة والى جزء من روح الشعب ··· فالسادة كانت من اختراع قلة ، ولكنها ولدت اسطورة بائسة حول شعب يقاتل في سبيل حريته وشرفه ، حتى من دون اي امل في النصر ··· وهكذا تولدت [أيضا] الاسطورة الكبيرة المتمثلة في انتصار العرب على الصليبيين · لقد قضي على المملكة الصليبية ، التي صمدت بأشكال مختلفة ما يقارب من مائتي سنة ، بسبب فسادها الداخلي وعقمها القومي ، وانفصالها عن مصدر نشوئها ـ اوروبا المسيحية ـ ثم عدم تأصلها ، بواسطة العمل الانتاجي ، في الارض المقدسة التي حررتها ـ حسب مفهومها ـ من حكم الاسلام · واخيرا ، هزمت امام جيوش صلاح الدين ··· ان اسطورة انهزام هذا العدد الكبير ، وانه كان باستطاعة العالم العربي الانتظار أجيالا حتى اسقاطه ، هي الامر الاهم · والاسطورة هي : كل جسم غريب يدخل الى المنطقة العربية ـ الاسلامية ، نهايته الاندثار · فالعالم العربي هو الازلي· والغازي من الخارج ، هو الذاهب مع الريح ···

« وربما تكون زيارة السادات بداية تدمير ركائز هذه الاسطورة ، وبداية التسليم

بوجود اسرائيل كدولة يهودية مستقلة داخل البحر العربي ... » (٦) ·

اما زميل حزان ، الوزير المبامي السابق مردخاي بنطوف ، فقد اكد على اهمية الزيارة في كسر عامل العداء العربي لاسرائيل ، وما قد تؤول اليه من تحييد ثلث العرب تقريبا ، اي سكان مصر ، من دائرة العداء تلك ، بقوله : عندما انظر الى هذا العداء العميق تجاهنا من جانب دول الرفض ،مثل ليبيا والجزائر واليمن الجنوبية والعراق وغيرها ... وهي دول ليست لنا اية علاقة بها ، ولم نتعرض لها ابداً ، وليست لها أية معرفة بنا ـ يتملكني الخوف من ان ينتصر خطها بين المائة مليون عربي ، ويسود العداء على مر الايام ، خصوصا بعدما يزداد التعاون بينها ، وتمتلك المزيد من مخازن الاسلحة الفتاكة ، التي ستضاف اليها ايضا « اسلحة اميركية ، لان اميركا مضطرة الى الصراع من اجل نفوذها في هذا الجزء من العالم · كما ان الاتحاد السوفييتي ، الذي ما زال يعترف بدولة اسرائيل في حدود ١٩٤٨ ، يتوقف عن التعامل معنا ، وينضم مع حلفائه الى معسكر العداء العربي ـ فما هو المستقبل الذي نتوقعه على هذا الاساس بعد ٢٠ـ٣٠ سنة ، حتى في حدود يغئال الون « القابلة للدفاع » ، او حدود موشي دايان ؟

« وفجأة فتحت ابواب السماء ، واطلت علينا زيارة السادات ، وساد الامل بأن ذلك ربما يؤدي الى خروج اكثر من نصف المائة مليون عربي ... من دائرة العداء والحرب ضدنا · اليس لهذا الامر اية قيمة امنية لمستقبلنا ؟ » (٧)

كذلك يعتقد رجل ليكود ، موشي آرنس ، رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست حاليا « ان زيارة السادات هي بالتأكيد حدث مهم ، ليس في تاريخ [اسرائيل] فقط ، وانما في تاريخ الحركة الصهيونية · فللمرة الاولى طرأ تغيير على الموقف العربي ، الذي تمثل في عدم الاعتراف بنا ، ورفض الجلوس معنا وجها لوجه ... ان زيارة السادات هي اذن ـ بدرجة معينة ـ انتصار لنا ... لان زعيما عربيا ادرك اخيرا ان القضية لا تحل بالقوة » (٨) · وبمعنى اخر ، ان السادات أستسلم لعامل القوة الاسرائيلي ، وهذا ما دفعه الى زيارة القدس ·

الا ان هنالك نقاشا واسعا حول صحة هذه النقطة بالذات · فرئيس الاركان الاسرائيلي السابق ، مردخاي غور ، يعتقد « ان الخيار العسكري بقي قائما لدى المصريين ، كما كان سابقا · وليس لدي ادنى شك في ان المصريين لم يتنازلوا عنه ابدا · واذا تبلور وضع سياسي ، يقتنع العالم معه ان العرب صادقون مائة في المائة ، وان اسرائيل هي المذنبة في افشال جميع الاتصالات بشأن السلام ، سيظهر الخيار العسكري من جديد » (٩) · وعلى ضوء الازمة الحالية في المفاوضات السياسية بين مصر واسرائيل ، والخلافات بين اسرائيل والولايات المتحدة ، يضيف غور : « استطيع فقط القول اننا خدعنا تجاه العالم الكبير على الاقل ، من الناحية السياسية · اقول : خدعنا · ومن المهم جدا ان نتذكر : مثلما توجد حيل في الاستراتيجية ، كذلك في السياسة أيضا الشبه ذاته » (١٠) ·

ويبدو ان غور ليس الوحيد الذي وصل الى هذه النتيجة · فقد اعلن ايضا مئير يعري ، زعيم مبام العجوز ، أن « ليست [لديه] ثقة كبيرة بنوايا السادات · واعتقد انه يسعى الى خداعنا ، ويحاول ان يتسلح اكثر منا · فاذا نشبت حرب خدعنا من الشمال والشرق ، ليس هنالك اي ضمان لعدم انضمامه ، مع جيشه ، اليها » (١١) ·

الا ان هناك من يفند هذا الرأي ، خاصة بين صفوف المعارضين لسياسة الحكومة

الاسرائيلية ، وتصرفاتها اثناء سير المفاوضات مع مصر · فقد اعرب يتسحاق بن ـ اهرون، احد زعماء الجناح العمالي ، وسكرتير عام الهستدروت سابقا ، ( ومن اشد الزعماء العماليين كرها لليكود ) عن اقتناعه وايمانه « بوجود دافع عربي ، خصوصا مصري ، لتحقيق سلام مع اسرائيل · ومن الغباء اعتبار ذلك خداعا مكشوفا · ان مصر ليست في حاجة الى مبرر لكي تتبع سياسة حربية ، اذا كان هذا قصدها · فعندما اقتنعت بوجود مصلحة لها في السلام ، ونضج لديها الادراك بأنه لا يمكنها الحصول على شيء عن طريق الحرب ، نشأ الاساس للمفاوضات » · (١٢)

وعلى كل حال ، فان النقاش حول معنى زيارة السادات واهدافها واهميتها لم ينته بعد ، وهو آخذ في التشعب كلما جد جديد على المفاوضات السياسية بين مصر واسرائيل ·

## مشروع السلام الاسرائيلي

كانت احدى النتائج التي ترتبت على زيارة السادات للقدس · قيام مناحيم بيغن ، رئيس حكومة اسرائيل ، بتقديم مشروع سلام اسرائيلي · وقد عرض بيغن مشروعه هذا على السادات ، خلال لقائهما في الاسماعيلية يومي ٢٥ و ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) الماضي ، ثم عرضه على الكنيست في الثامن والعشرين من الشهر نفسه ، فنال موافقة الاكثرية فيها عليه · وكان بيغن قد حمل ذلك المشروع معه الى واشنطن ، خلال زيارته لها في منتصف ذلك الشهر ، حيث عرضه على الادارة الاميركية وزعم فيما بعد انه نال موافقتها عليه ·

ويتلخص مشروع بيغن ـ كما عرضه امام الكنيست (١٣) ـ في اقتراح انشاء « حكم ذاتي اداري » في الضفة الغربية وقطاع ( الذي سماه بيغن « اقليم » ) غزة ، من قبل سكان تلك المناطق ولصالحهم ، اي استبعاد الفلسطينيين في المهاجر ، على اساس الغاء الحكم العسكري الاسرائيلي في تلك المناطق · وسيقوم المجلس الاداري ، الذي سينتخب من قبل السكان المحليين ، بالاهتمام بمعالجة جميع القضايا الادارية ، في مجالات التعليم والشؤون الدينية والمواصلات والبناء والاسكان ، والصناعة والتجارة والسياحة ، والزراعة والصحة والعمل والانعاش · كذلك سيكون ضمن مجال صلاحياته العمل على اعادة تأهيل اللاجئين ، والاشراف على الادارة القضائية ، وعلى قوة شرطة محلية · ويحق له اصدار الانظمة المتعلقة بسير العمل في جميع تلك الدوائر والاجهزة · اما شؤون الامن والنظام العام في الضفة الغربية وقطاع غزة ، فسيعهد بها الى الجيش الاسرائيلي ·

وفيما يتعلق بالجنسية ، فان مشروع بيغن يخير السكان الفلسطينيين في هذه المناطق، بين الحصول على الجنسية الاردنية ـ بعد الاتفاق مع الاردن في هذا الشأن ـ او الجنسية الاسرائيلية ·

كذلك يتطرق المشروع الى الاعتراف بما يسميه الحق المتبادل في امتلاك الاراضي ، اي انه يحق لسكان اسرائيل أمتلاك الاراضي والاستيطان في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما يحق للعرب من سكان هذه المناطق شراء الاراضي والسكن في اسرائيل ·

وفيما يتعلق بالقدس ، فانها ستبقى ـ حسب المشروع ـ عاصمة لاسرائيل ، مع ضمان

حرية وصول ابناء جميع الديانات الى الاماكن المقدسة الخاصة بهم ·

ويقترح بيغن أيضا ابقاء مسألة السيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة مفتوحة ، « مع تمسك اسرائيل بحقها ومطلبها في السيادة » على تلك المناطق ·

اما الجزء الثاني من مشروع بيغن للسلام فيتعلق بمعاهدة سلام بين مصر وأسرائيل ، تعتمد على تجريد مناطق واسعة في سيناء من السلاح ، وعدم اجتياز الجيش المصري خط المتلا والجدي ، وتخفيض القوات العسكرية المصرية بين قناة السويس وبين هذا الخط · وفيما يتعلق بالمستوطنات الاسرائيلية في الاراضي المصرية ، فان المشروع يقترح بقاءها في اماكنها في وضعها القائم ، حيث تكون مرتبطة بالادارة والقضاء الاسرائيليين ، وتدافع عنها قوة اسرائيلية · كذلك ينبغي ان تكون هنالك فترة انتقالية ، تستمر سنوات عديدة ، يرابط خلالها الجيش الاسرائيلي على خط دفاعي في وسط سيناء ، مع ابقاء مطارات واجهزة انذار اسرائيلية ، الى ان يتم الانسحاب الاسرائيلي الى الحدود الدولية · وينص ايضا على ضرورة ضمان حرية الملاحة في مضائق تيران ، مع الاعتراف بأن هذه المناطق هي ممر مائي دولي يجب ان يكون مفتوحا للملاحة ، لاية سفينة ، وتحت اي علم ·

وتجدر الاشارة ، الى ان مشروع بيغن ، لم يتطرق ابدا الى هضبة الجولان ، باعتبار ان ليس هنالك « من هو على استعداد للتفاوض بشأنها » ، وان الهضبة ستضم الى اسرائيل ، كما يبدو ، بعد حل المشكلات المعلقة مع مصر والاردن ·

وبعد انتهاء بيغن من تقديم مشروعه ، دار حوله نقاش واسع في الكنيست ، استمر ساعات طويلة · ويمكن تلخيص التحفظات والاعتراضات على المشروع ، التي طرحت خلال ذلك النقاش، في نقطتين اساسيتين : الاولى اعتبار مقترحات بيغن « مبالغا فيها » و «سخية» بالنسبة لسيناء ، وعدم الوضوح بشأن مستقبل المستوطنات في مشارف رفح ، والثانية ، التركيز على « مخاطر » الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وما قد يسببه من اضرار لاسرائيل في المستقبل ·

الا ان مجمل ردود الفعل من جانب مختلف الكتل السياسية في الكنيست ، على مقترحات بيغن لم يكن قاسيا ، خصوصا بعد ان اتخذت المعارضة الرئيسية ، المتمثلة في التجمع العمالي ، موقفا « معتدلا » ، ظهر بوضوح في خطاب زعيم المعارضة شمعون بيريس ، الذي ألقي كرد ، وكتعليق على مشروع سلام بيغن · وقد « أشاد » بيريس في خطابه بحكومة بيغن لاستعدادها لتقديم تنازلات في سبيل الوصول الى تسوية ــ « فنحن ··· كمعارضة مسؤولة ، لن ننتقد الحكومة بسبب حقيقة استعدادها للسير في طريق التسوية وتقديم التنازلات ، ولن ننقد بها بسبب استعدادها للتنازل عن منطقة [ما] والتخلي عن مواقف سابقة ··· » (١٤) ــ ولكنه حرص ، من ناحية ثانية على التأكيد على الخلافات في المنطلقات بين حزبه وحكومة بيغن · وعرض بيريس هذا الخلاف بقوله : « اننا نعارض مواقف الحكومة ، لان منطلقاتنا بالنسبة لبعض البنود الاساسية مختلفة · كذلك فقد علمتنا تجربة المفاوضات انه يجب اتباع طريقة مختلفة عن تلك التي اتبعتها الحكومة · واود هنا ان اشير الى الاختلاف في المنطلقات · أولا ، رغم ارتباطنا بميراث ابائنا ، علينا ان نميزبين الميراث وبين الدولة · فالارض يمكن ان تبقى دائما بمثابة ميراث تاريخي ، ولكن طابع الدولة يقرر غالبا حسب الوضع الديمغرافي القائم فيها ، في الحاضر او المستقبل ··· ثانيا ، ان كل تسوية سياسية ، يجب ان تضمن ليس فقط استقلال اسرائيل [السياسي] وانما استقلالها الدفاعي ايضا · وسواء كانت هنالك

معاهدة دفاع مع [الولايات المتحدة] ام لا ، فاننا لا نستطيع ان نسلب الاجيال المقبلة الحد الادنى المطلوب من الاراضي للدفاع عن انفسنا ، ومن هنا سياستنا بشأن الحدود القابلة للدفاع ، وبشأن المستوطنات والمناطق ··· ثالثا ، ليست لدينا اية نوايا في السيطرة على السكان العرب الذين لا يعيشون داخل حدود اسرائيل ··· ولا اضطهاد السكان العرب الذين يعيشون في اسرائيل · رابعا ، اننا نعتقد ان طريق السلام هي طريق الحل الوسط فيما يتعلق بالسلطة والزمن والمناطق ، انما لا يستلزم السلام حلولا وسطا · ومن هنا معارضتنا لاقامة دولة فلسطينية اضافية بيننا وبين المملكة الاردنية · ان دولة كهذه ستكون سببا للعدوان الدائم [بسبب] الضيق الجغرافي ، اكثر من كونها اطارا للاستقلال » (١٥) ·

وجاء خطاب بيريس هذا بمثابة فاتحة لحملة من ردود الفعل المختلفة ، على اصعدة عدة ، حول مشروع السلام الذي قدمته حكومة بيغن ، تمثلت في نقاش واسع ، اتسع وتشعب حتى شمل معظم نواحي سياسة التسوية الاسرائيلية · ويمكن حصر اهم المواضيع، التي دار النقاش حولها ، في النقاط التالية : اولا ، معنى السلام مع مصر وطبيعته وانعكاساته · ثانيا ، الموقف من القضية الفلسطينية والحلول المطروحة لها ، سواء من جانب الحكومة الاسرائيلية ، او من جانب العرب ، ثالثا ،مستقبل سياسة الاستيطان والتوسع الاسرائيلية ، وعلاقاتها بالاراضي المحتلة ، رابعا ، هل يخدم السلام مصالح اسرائيل ام لا ، وهل هو مفيد ام مضر لها · خامسا ، هل اسرائيل مجبرة على الوصول الى سلام مع العرب ، في ضوء علاقاتها الخارجية واوضاعها الداخلية ؟ ، سادسا ، واخيرا ، ما هي نوعية السلام الذي يتطلع اليه الاسرائيليون ، وما علاقته بمفاهيمهم الامنية ومصالحهم المستقبلية ·

## الهدف : عزل مصر عن المشرق العربي

تركز الاهتمام في اسرائيل ، منذ زيارة السادات الى القدس ، على الدعوة الى عقد سلام منفرد مع مصر ، بهدف عزلها عن دول المشرق العربي وتحييدها في الصراع العربي – الاسرائيلي · ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الاسرائيليين ، نظرا الى الاستراتيجية الاسرائيلية القديمة الساعية الى عزل مصر عن المشرق العربي من ناحية ، والى التأثير الذي خلفته زيارة السادات لدى الرأي العام الاسرائيلي على المستويين الرسمي والشعبي ، من ناحية ثانية · حتى ان التساؤل ، حول ماذا يمكن ان يكون هدف السادات من وراء زيارته المفاجئة الى القدس ، اذا لم تكن الرغبة في عقد سلام منفرد مع اسرائيل ، بات امرا بديهيا · ورغم ان السادات حرص على الدعوة الى حل شامل لجميع القضايا المتعلقة بالصراع العربي – الاسرائيلي ، فان الرسميين الاسرائيليين ، كانوا – ولا يزالون – يتطلعون منذ الزيارة ، الى صلح منفرد مع مصر · ووجد ذلك الاتجاه تعبيرا عنه في مقترحات الحكومة الاسرائيلية الاولية بشأن سيناء ، المتمثلة في الاعلان عن الحدود الدولية ، بين مصر وفلسطين ، مع الابقاء على المستوطنات الاسرائيلية في مشارف رفح ، تحت الحماية العسكرية لاسرائيل ·

وقد اثارت هذه المقترحات ، في حينه ، ردود فعل معارضة شديدة داخل اسرائيل ، سواء من جانب الاحزاب المعارضة ، او من جانب مجموعات من احزاب الائتلاف الحكومي ايضا · وتركزت تلك المعارضة على ان هذه المقترحات مبالغ فيها و « سخية » جدا · خصوصا بالنسبة للاعتراف بالسيادة المصرية على شبه الجزيرة ، مما قد يؤدي الى

انهاء وجود المستوطنات الاسرائيلية في هذه المنطقة · لكن اتضح ان الحكومة الاسرائيلية هدفت من وراء مقترحاتها تلك ، بشأن سيناء ، الى اغراء الرئيس المصري بالقبول بحل منفرد مع اسرائيل ، مقابل تنازله عن الالتزام بالحقوق الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهو ما باء بالفشل ، لان السادات تصرف على عكس ذلك · ووصف احد المعلقين في اسرائيل حفاي اشد ( وهو احد المقربين من بن غوريون في الماضي ) مقترحات اسرائيل بشأن سيناء ، بأنها عبارة عن « صفقة رزمة : ابتعاد اسرائيل عن سيناء مقابل بقائها في ارض اسرائيل · الا ان السادات رفض مشروع الصفقة من اساسه · ولو وافق عليه لامكن الوصول بسهولة الى اتفاق حول جميع التفاصيل المعقدة في حد ذاتها التي يشملها هذا المشروع ··· لقد عمل السادات على حل صفقة الرزمة ، فقد حصل على سيناء ، وبالمقابل لم يتنازل عن ارض ـ اسرائيل · انه يطالب الان بالحصول على التزام مبدئي من جانب اسرائيل لانسحاب كامل من الضفة والقطاع في المستقبل ، وهو مستعد فقط للمساومة على تأجيل تنفيذ هذا الالتزام المبدئي ، بينما يصر على الحصول على « اخر سنتيمتر مربع » من سيناء حسب تعبيره · ويعني بذلك تنازلا اسرائيليا عن قطاع الامن الضيق على الحدود الاسرائيلية الذي يشمل سلسلة من المستوطنات ، ومطارات وطرقا ومنشآت امنية مختلفة » (١٦) ·

وانطلاقا من هذا الفهم لموقف الحكومة من التسوية في سيناء واستعدادها « للاعتراف » بالسيادة المصرية على شبه الجزيرة ، وجهت انتقادات شديدة لمشروع السلم الاسرائيلي · ووصلت تلك الانتقادات درجة من الحدة ، يكاد يبدو معها بيغن كأنه « حمامة » ، اذا قورنت مواقفه بمواقف المعارضة ، او بمواقف جماعات واسعة داخل كتلته · فقد تساءل ، مثلا ، يغئال الون ، وزير خارجية اسرائيل السابق « عما دعا رئيس الحكومة الى التسرع في التنازل عن مواقف المساومة ومصالحنا المعقولة في سيناء ، دون النجاح في الحصول على مقابل لذلك ، اي موافقة مصرية على مشروعاته الجديدة في اليهودية والسامرة وغزة · لم تكن تطلعاتنا في سيناء تاريخية ، بل استراتيجية فقط · وبحسب حسن معرفتي ، فان بالامكان توفير حاجات اسرائيل الامنية ، عن طريق السيطرة الاستيطانية العسكرية في الجبهة الجنوبية ، مع تعديلات غير اساسية على الحدود ، لا تنطوي على مساس حتمي بكرامة مصر » ( ١٧) ·

كذلك اعلن شمعون بيريس ، وزير الدفاع السابق ، ان الحكومة اخطأت باعتقادها « ان بواسطة البدء بالمفاوضات من النهاية ، يمكن الانتهاء منها بسرعة · كما اخطأت في التأكيد كثيرا على [اهمية] موضوع سيناء ، دون ان تبقى في حوزتنا مواقف تراجع سياسية · وهذا بالاضافة الى تقييم خاطىء كأن بواسطة تنازلات مبالغ بها في سيناء ، [سنعفى] من الحاجة الى مفاوضات متقدمة اكثر في قضية اليهودية والسامرة · ان هذا ليس خطأ تكتيكيا فقط ، بل انه نابع من دوافع ايديولوجية أيضا · اما الخطأ الاخير فيتعلق بقضية المستوطنات · لقد اعتقدت الحكومة أن سيكون اسهل على المصريين قبول [تنازلات] بشأن المناطق المأهولة ، بدلا من المناطق العسكرية · لكن اتضح ان من الاسهل لمصر عقد اتفاقيات تحت عنوان « الدفاع » بدل ان يكون العنوان استيطانيا » (١٨) ·

اما حاييم بار ـ ليف وزير التجارة والصناعة سابقا ، والسكرتير التنظيمي لحزب العمل حاليا ، فيرى ان بيغن اخطأ « عندما وافق على انسحاب جيش اسرائيل الى الحدود الدولية في سيناء ، فقد تنازل عن مناطق حيوية لامننا ، ولكنه لم « يشتر » السادات بهذا التنازل ، وفقد قدرته على اقتراح تنازل اخر خلال المفاوضات حول التسوية في سيناء · وفي الحقيقة ، فان المشروع الاسرائيلي بشأن سيناء هو بمثابة

الكلمة الاخيرة ··· وكل من له خبرة في ادارة مفاوضات من اي نوع كان ، يعرف ان الموقف الاولي اذا كان هو نفسه الموقف النهائي ،فان أحتمالات نجاح المفاوضات قليلة جدا » (١٩) ·

ولم تقتصر ردود الفعل على المعارضة فقط ، كما ذكرنا ، وانما شملت أيضا مجموعات مقربة من رئيس الحكومة بيغن · فموشي شامير احد الاعضاء القياديين في كتلة ليكود ، يرى – في معرض معارضته لمشروع بيغن حول سيناء – ان مصر ليست في حاجة الى سيناء ابدا · « وليست لشبه الجزيرة الصحراوية هذه اية قيمة او وزن بالنسبة لمصر ، عدا عن كونها منفذا للنفوذ والسيطرة على المنطقة الاسيوية في الشرق الاوسط · ان مصر لم تستوطن ابدا ولم تطور سيناء ، وليس لشبه الجزيرة اي دور في حل مشكلات مصر الكثيرة · ان كل ما هو موجود في سيناء – له مثيل في مصر نفسها اضعافا مضاعفة ، وهذا يشمل كل شيء – من الهضاب الرملية وحتى صخور الجبال او الينابيع المالحة او النفط » (٢٠) · اما شموئيل كاتس ، المستشار الاعلامي السابق لبيغن · فينكر على مصر حقها في المطالبة باسترجاع سيناء ، لان شبه الجزيرة ، « لم تكن ضمن السيادة المصرية ، وحتى ان مواطنيها لم يغنموا الجنسية المصرية » · (٢١) وكان شامير وكاتس – بالاضافة الى النائبة غيؤلاه كوهين – من بين مجموعة تكتل داخل ليكود بهدف العمل ضد مشروع سلام بيغن ، ويبدو انها حملته على التراجع عن بعض مواقفه السابقة ، نحو مزيد من التصلب ·

## المطالبة بضم جزء من سيناء الى اسرائيل

لم تقتصر ردود الفعل على مشروع سلام بيغن ، على مهاجمة اقتراحات الحكومة وتصرفها اثناء المفاوضات مع مصر ، وانما اتسعت ايضا لتشمل عرض حلول بديلة ، تعكس وجهات نظر مختلفة بشأن سيناء والمستوطنات فيها وطبيعة السلام مع مصر ·

واهم هذه الحلول البديلة هي ما يقترحه بعض زعماء المعراخ بشأن المطالبة بتعديل الحدود في سيناء ، بحيث تبقى اسرائيل مسيطرة على قطاع مشارف رفح ومنطقة المستوطنات في سيناء · ويبدو ان هذا الحل يتمتع بتأييد لا بأس به لدى فئات اسرائيلية مختلفة ، لانه يرتكز ، على حد زعم الداعين اليه ، على « متطلبات اسرائيل الامنية » · وحسب هذه المتطلبات يجب ان يكون لاسرائيل وجود عسكري وبشري في منطقة مشارف رفح في سيناء ، المحاذية لقطاع غزة ، بهدف عزل شبه الجزيرة في القطاع ، وبالتالي عن الجبهة الشرقية · ويرى يغئال الون ان السيطرة الاستيطانية العسكرية في الجبهة الجنوبية يمكن ان تلبي حاجات اسرائيل الامنية ، « لان مشارف رفح تسيطر على ممر الغزو التاريخي من افريقيا الى اسيا منذ العصور الغابرة والى يومنا هذا · وهي تشكل في الحقيقة المدخل الجنوبي [لفلسطين] · « ولذلك اقمنا فيها مستوطنات وقاعدة جوية ، مما هو ضروري جدا من الناحية الامنية ، دون تعريض امن مصر للخطر · وكان وضعنا في خليج ايلات [العقبة] واهيا جدا بموجب الحدود السابقة · ولذلك وجدنا ضرورة لتعزيز مواقعنا العسكرية غربي ايلات · وهذا ينطبق ايضا على مشارف نتسانا [العوجه] ، ناهيك عن ضمان حرية الملاحة عن طريق السيطرة الثابتة على شرم الشيخ ، التي توافق عليها مصر · واذا ما تقرر ، معاذ الله ، تسليم شرم الشيخ لقوات الطوارىء الدولية كضمانة لحرية الملاحة ، فسأعتبر ذلك ترتيبا غير كاف » · (٢٢)

اما حاييم بار – ليف ( وهو رئيس اركان سابق ) ، فيعتقد ان مشارف رفح ومنطقة

ايـلات ومنطقـة شـرم الشيـخ هي مناطـق ذات اهميـة استراتيجية مـن الدرجـة الاولـى » • فالسيطـرة الاسرائيليـة « علـى مشارف رفح تقطع الامتداد الاقليمي العربي من مصر حتى جنوب اشكلون [عسقلان ، الواقعـة الى الشمال من غزة] ، وتسمح بانتشار افضل لسلاح الجو [الاسرائيلي] ، وتضمـن مجال مناورة معين بين منشآتنا [العسكرية] الامامية وبين التجمعات السكنية فـي النقب » • كما ان الانسحاب الى الحدود الدولية في منطقة ايلات ، سيضع « المدينـة ، بموانئها البحرية والجوية ، في رأس زاوية ضيق بين الاردن ومصر ، ويبقيها في الخـط الامامي ، مقابل الاردن ، مصر والسعودية ، من دون مؤخرة ، وحتى من دون قدرة على الاستعانة بسلاح الجو في ظروف جوية معينة • كما سيؤدي ذلك الى تقليص مجـال انتشار سلاح الجو [الاسرائيلي] وتدريبه • [اما] اهمية شرم الشيخ الاستراتيجيـة فانها نابعة ، قبل كل شيء ، من حقيقة أن كل من يتواجد في ذلك المكان ويسيطر عليه ، بامكانه التأثير اكثر من اي عامل اخر على حرية الملاحة ، سواء في ايلات او فـي السويس ••• كذلك يجب ان نذكر ان اسرائيل تستطيع تأمين مرور سفنها في مضائـق باب المندب ، اذا كانت تملك قاعدة بحرية ومطارا عسكريا في منطقة شرم الشيخ » • (٢٣)

وانطلاقا من ذلك يقترح بار ـ ليف « ان تتراجع الحكومة ، من اجل أمن اسرائيـل ، عن اعلانها في صدد الاعتراف بالسيادة المصرية على كل منطقة سيناء ، والمطالبة بـأن تسرى السيادة الاسرائيلية بصورة كاملة على مشارف رفح وعلى منطقة اخرى تمتـد ٢٠ كم من ايلات ، الى عمق سيناء ، من اجل أمن ايلات ، ومن اجل الاستمـرار في الاحتفاظ بالقاعدة الجوية الحيوية [القريبة منها] ضمن السيادة الاسرائيلية • فقد ازدادت اهمية القواعد الجوية لامن اسرائيل خلال الفترة الاخيرة ، بسبب ازدياد القـوة العسكرية في كل من سوريا والعراق ، وفي ظروف كهذه محظور علينا ترك قواعدنـا الجوية في سيناء ورفح وقرب ايلات » (٢٤) •

ويبدو ان الدعوة الى ضم اجزاء من سيناء الى اسرائيل ، بهدف المحافظة عـلى «أمنها» تلقى تأييدا واضحا لدى عدد من عمداء الجيش الاسرائيلي ، ممن كانت لهـم مناصب في المؤسسة العسكرية الاسرائيلية في السابق • فقد اعلن مثلا العميد ( احتياط ) يشعياهو غافيش ، قائد المنطقة الجنوبية في حرب ١٩٦٧ ، ان ترتيبات الامن الضروريـة مع مصر يجب ان تتمثل في « تجريد شبه جزيرة سيناء من السلاح ، حيث يتمركـز المصريون الى الغرب ، والاسرائيليون في الشرق • وفي سيناء نفسها ينبغي وضـع ترتيبات لاعطاء انذار مسبق بكل وسيلة مفيدة ، بحيث تمنح الاطراف معلومات جديـدة ودقيقة • أما انسحاب الجيش الاسرائيلي من سيناء فيجب ان يتم تدريجيا وعلى مراحل، خلال عشر سنوات او اكثر، وذلك من اجل الاطلاع على نوايا مصر خلال هذه الفتـرة • كذلك يجب ان تسيطر اسرائيل على مناطق معينة [في سيناء] ، بواسطة استئجارها او بأية وسيلة اخرى متفق عليها • والحديث هنا حول ثلاثة مراكز حساسة في سينـاء : المنطقة الامامية بين العريش ورفح ، مساحة [بالقرب] من منطقة ايلات ••• ومساحـة اخرى في منطقة شرم الشيخ » (٢٥) •

كذلك اعلن العميد ( احتياط ) مئير زورياع ، رئيس شعبة العمليات سابقا ، وأحـد زعماء الحركة الديموقراطية للتغيير ( داش ) حاضرا ، انه ليس هنالك بديل للارضـ والجيش • « وفيما يتعلق بسيناء ، اعتقد ان الخط [الحدودي الجديد] لا يجب ان يكون

من الشمال الى الجنوب ، وانما على شكل شبه زاوية تمتد من العريش الى اسفل [الجنوب] ، وتتجه غربا حتى شاطىء خليج السويس ، شمالا قدر الامكان ٠ واسباب هذا الاقتراح هي عسكرية بحتة ٠ ان هذه المنطقة تشمل مجال انتشار ووسائل انذار للقتال الجوي ، ومطارات امامية ، مع الارض اللازمة لحمايتها من الغرب » (٢٦) ٠

اما العميد ( احتياط ) ابراهام يافيه ، قائد ( تشكيل ) سابقا ، فيرى ان « الحد الادنى الضروري هو قطاع من الارض بعرض ٣٠ ــ ٥٠ كم من الحدود الدولية الى الغرب ، يجب ان يكون تحت سيطرة اسرائيل الكاملة ٠ واقصد القطاع الذي يبدأ في يميت [على شاطىء البحر المتوسط] في الشمال وحتى رأس محمد [بالقرب من منطقة شرم الشيخ] في الجنوب ٠ وأذا لم يتوفر ذلك ، فان كل اتفاق هو بمثابة كارثة » (٢٧) ٠

كذلك يلقى مشروع الاحتفاظ بمنطقة مشارف رفح ، تأييدا واسعا بين الحركات الاستيطانية المختلفة ، التي تطالب بضمان « مستقبلها » في الاراضي العربية المحتلة ٠ وقد نظمت هذه الحركات اعمال احتجاج واسعة ضد سياسة الحكومة الاسرائيلية ، مما دفع الى مزيد من التصلب الاسرائيلي اثناء المفاوضات ، وبالتالي ظهور حركات مضادة تتهم المستوطنين بعرقلة السلام ( وهذا ما سنتطرق اليه فيما بعد ) ٠

## اقتراح سلام كامل مقابل انسحاب شامل

بالاضافة الى الاقتراحات البديلة بشأن سيناء ، التي اشرنا اليها ، هنالك ايضا اقتراحات اخرى تتمثل في المطالبة بانسحاب شامل للقوات الاسرائيلية من سيناء ومن المناطق المحتلة الاخرى مقابل الحصول على سلام كامل مع العرب ٠ واصحاب هذا الاقتراح معروفون بنظريتهم القائلة ان الاحتفاظ بالمناطق المحتلة واقامة المنشآت العسكرية فيها ، مهما كانت ضخمة ، لا يمكن ان تحقق السلام لاسرائيل ، وان العلاقات الطبيعية وحسن الجوار هي الضمانات الرئيسية التي يمكن ان تساعدها على العيش بسلام في هذه المنطقة ٠ واحد مؤيدي هذا الاتجاه هو غاد يعقوبي ، الوزير العمالي سابقا ، الذي يقلقه « السؤال حول ماهية السلام الذي ينشده السادات ٠ شفويا ، تحدث [ السادات ] عن سلام كامل ، مع علاقات ديبلوماسية وكل ما رافقها ٠ الا ان المقترحات المصرية لا تتضمن اشارة الى ذلك ٠ وفي انظمة الحكم السائدة في الشرق الاوسط ، حيث يمكن بواسطة طلقة واحدة تغيير سياسة بأكملها ، فان طابع العلاقات التي ستسود [في المستقبل] هو الذي سيحدد فترة حياة السلام الذي سيتحقق ٠واذا كانت هنالك حدود مفتوحة ، وعلاقات تجارية وسياحية وديبلوماسية ، فستكون للشعوب مصلحة حقيقية في الحفاظ على السلام ٠ ان السلام على الورق في الشرق الاوسط ، لا يساوي الورق المكتوب عليه » (٢٨) ٠ ولذلك يرى يعقوبي انه على اسرائيل ، في سبيل الوصول الى سلام مع العرب ، « ان تقبل بالمخاطرة بتسليم كل سيناء تقريبا ، وعلى الاغلب تجريدها ، ثم اخلاء كل مناطق اليهودية والسامرة وغزة ، وتجريدها من السلاح ، بالاضافة الى ترتيبات امن وانذار فيها ٠ واذا كان المقصود سلاما يغير الواقع حقا ، وليس سلاما كلاميا او تعاقديا ، وانما تغيير علاقات الشعوب والدول ، وديناميكية جديدة في المنطقة ، فمن الافضل المخاطرة من اجله ٠٠٠ والتنازل » (٢٩) ٠

ويؤيد هذه الفكرة كذلك السياسي الاسرائيلي القديم ، دافيد هكوهين ، الذي رئس لجنة الخارجية والامن في الكنيست لسنين طويلة ٠ ويعتقد هكوهين انه ينبغي على اسرائيل

« تقديم ورقة عمل الى السادات لتحقيق [اهداف] زيارته الى القدس · علينا ان نؤكد ـ من خلال الاعتراف بأن « حدود الامن » بين دولتين ليست عبارة محددة تعتمد على الجيوش والتحصينات ، والاسلحة فقط ـ اهمية شروط السلام كاختبار لحسن الجوار · علينا ان نطالب باقامة علاقات ديبلوماسية كاملة مع مصر ، تشمل علاقات ثقافية ، ووقف الدعاية والشتائم في الصحف ، ثم علاقات تجارية ، وسياحية ، وبحوثا علمية من اجل السلام ، وتحسين الوضع الاقتصادي ومستوى المعيشة · وكهدف بعيد المدى ، ينبغي الاشارة ايضا الى اتفاق على غرار السوق المشتركة ، وحتى الى حلف عسكري اذا كانت هناك حاجة لذلك ، بحيث تكون هذه الامور العامل الاول والاهم لعبارة « الحدود الآمنة » ومنع اغراءات الحرب » (٣٠) · الا ان هكوهين يطالب ، على الرغم من ذلك ، بالاحتفاظ بمنطقة رفح والمستوطنات الاسرائيلية فيها ، ولكن وفق منطق خاص به ، داعيا الى اجراء مفاوضات مع مصر حول هذه المسألة ، « دون المس ، قدر الامكان ، بمبدأ الانسحاب [من مشارف رفح] · لقد عاش في مصر ما يقارب مائة الف يهودي ، من اصل مصري واجنبي· ولقد بقي هناك بضعة عشرات فقط · يحتمل ان تكون هنالك ضرورة للموافقة على ان مشارف رفح تخص مصر ، ولكن على مصر ان توافق على بقاء عشرة الاف يهودي داخلها كمواطنين اسرائيليين ، لكنهم يدفعون ، في الوقت نفسه ، الضرائب لمصر لانهم يعيشون على ارضها · وسيحظى المصريون بمحطة زراعية ممتازة ، لاستغلال الارض الصحراوية ، وبمستوطنات ترتكز ايضا على صناعات غنية بالخبرات العلمية ، وربما [تدار في المستقبل] حتى بالتعاون مع مواطنين مصريين ··· ينبغي التوضيح ان الاستيطان في رفح ويميت ، مثلا ، ليس سوى جسر حي بيننا وبين مصر لتحقيق السلام » (٣١) ·

ويبدو ان اقتراح هكوهين هذا ، حول تحويل الوجود الاسرائيلي في مشارف رفح الى « جسر للسلام » مع مصر ، يلقى تأييدا من قبل بعض الشخصيات الاخرى ، التي ترى ان من الواجب التفتيش عن حل وسط لمشكلة الاستيطان في رفح ، وبالتالي عدم نسف المفاوضات مع مصر بسبب هذه المستوطنات · وفي هذا الصدد ، يعرب الوزير المبامي السابق مردخاي بنطوف عن تأييده لاقتراح « اقامة مشاريع صناعية مشتركة على امتداد الحدود ، تعود بالفائدة على الطرفين ، وتشكل حزام امن ممتاز · لذلك اقترحت على الحكومة بأن تحاول اقناع المصريين باقامة شركة مشتركة مصرية ـ اسرائيلية ، تحصل على حقوق امتياز واسعة على قطاع من الارض يمتد من ايلات وحتى شرم الشيخ ، على البحر الاحمر ، وذلك لتحويله الى ريفييرا شتوية على مستوى عالمي · وكذلك تخصيص قطاع مشابه بين ايلات ورفح والبحر ، من اجل اقامة مشاريع صناعية مشتركة ، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية وتحلية ماء البحر ، والاعلان عنها كمنطقة تجارة حرة · ان ترتيبا من هذا النوع سيؤدي الى جذب رؤوس اموال كثيرة من اميركا واوروبا والدول العربية ، الامر الذي يبدي الرئيس السادات حساسية بالغة تجاهه » (٣٢) ·

ويبدو ان هذا الاتجاه هو الذي دفع بعض زعماء مبام الى التقدم باقتراحات بديلة ايضا ، بهدف ضمان الوجود الاسرائيلي في مشارف رفح حتى نهاية هذا القرن · وتحدث احد زعماء مبام ، يعقوب حزان ، عن هذا الاقتراح بقوله : « لقد انتشرت شائعة تقول اننا اقترحنا بقاء السيطرة الاسرائيلية على مشارف رفح حتى سنة ٢٠٠١ ، وعندئذ يتقرر مصيرها · لقد وافقت على هذا الامر كمخرج سياسي ايجابي للمشكلة التي تورطنا فيها بسبب تسرع بيغن في اتخاذ قراره غير العاقل · وخلال حديث لي مع زملائي ، في مبام

وفي حزب العمل ، اعلنت انه يمكن بهذه الطريقة ان تتوفر لنا ٢٥ سنة · واذا عـرف الشعب اليهودي كيف يستغل هذه الفترة ، ويدفع خلالها ما بين مائة ، ومائة وخمسين الف مستوطن يهودي الى المنطقة ، فان هذا الواقع هو الذي سيقرر مصيرها · وبعد ٢٥ سنة من السلام مع مصر ، فان كل مشكلة ستلقى حلا لها بسلام · لن تحارب مصر من اجل استعادة هذه المنطقة المأهولة بالمستوطنات اليهودية الكثيفة ، خصوصا وانه ليس لها اية اهمية امنية ـ دفاعية بالنسبة لها » (٣٣) ·

## الطلبات الاسرائيلية من مصر : صلح منفرد ، والاعتراف باسرائيل صهيونية

يتضح من ردود الفعل الاسرائيلية على زيارة السادات ، ومن مواقف الحكومة الاسرائيلية الرسمية واقتراحاتها واجراءاتها المختلفة ، ان الهدف الاسرائيلي الاساسي ، الذي تسعى اليه كل من الحكومة والمعارضة ، والذي يحظى بتأييد اكثرية الاسرائيليين ، هو عقد صلح منفرد مع مصر · والاهم من ذلك ، ان الصلح ذاك ينبغي أن يعقد وفق شروط اسرائيلية ، لا يبدو انها قابلة للنقاش كثيرا ، وما على السادات الا ان يقبل بها · واهم هذه الشروط هي :

اولا : الموافقة على بقاء الجيش والمستوطنات الاسرائيلية في مناطق واسعة من سيناء ، وخصوصا مشارف رفح ·

ثانيا : الاعتراف بصهيونية اسرائيل ، ضمنا او صراحة · وكان بيغن قد كشف موقفه هذا ، عندما رد بعنف في احدى خطبه على قول السادات بأن اسرائيل هي التي تطلب الاعتراف بها ، باعلانه : « اننا لا نطلب اعترافا بوجودنا ، بل اعترافا بحقنا في بلادنا وسيادتنا ، وحقنا في السلم وفي اتفاقية سلم » (٣٤) اي ما معناه ، بلغة اوضح ، الاعتراف بصحة الادعاءات الصهيونية بشأن العلاقة « التاريخية » بين اليهود وما يسمى ارض ـ اسرائيل و « حقوقهم » فيها ، وبالتالي الاعتراف بالعقيدة الصهيونية بأسرها وكل ما يترتب عليها ·

وكان الكاتب الاسرائيلي المعروف يزهار سميلانسكي ( وهو صاحب قصة « خربة خزعة » التي تصف عملية طرد سكان احدى القرى العربية خلال حرب ١٩٤٨ ) ، قد طالب بذلك بوضوح ، في معرض رده حول التنازلات التي يجب ان يقدمها العرب لاسرائيل من اجل تحقيق السلام ، بقوله : « ··· يجب ان يتنازل العرب عن امرين في غاية الاهمية ··· اولا ، عن المطالبة بالحصول على كل شيء ، مائة بالمائة ··· ثانيا ، الاعلان بوضوح ان اسرائيل هي دولة صهيونية » (٣٥) ·

ثالثا ، موافقة السادات على سلام كامل مع اسرائيل بما في ذلك اقامة علاقات سياسية وتجارية واقتصادية وسياحية ( الخ ) معها · وتعلق اسرائيل آمالا واسعة على المجال الاقتصادي ، ويبدو ان بعضهم بدأ باعداد برامج اقتصادية لتنفيذها مع مصر · وتتمثل تلك البرامج في اقتراح تقديم ما يسمى « خبرات » علمية في الحقول الاقتصادية المختلفة الى مصر ، مقابل الاستفادة من السوق المصرية في تصريف البضائع الاسرائيلية ، ومن الطاقة البشرية العاملة والرخيصة هناك ·

رابعا ، تراجع السادات عن طلباته بشأن هضبة الجولان والضفة الغربية وغزة · وفي هذا المجال اعلن بيغن انه اذا اصر السادات على طلباته بالانسحاب الاسرائيلي من

هذه المناطق ، « فسنضطر الى تفسير اقواله وكأنه لا يريد اسرائيل مع السلام ، وانما يريد سلاما من دون اسرائيل · ان سلاما كهذا لن يمنح لاحد » (٣٦) · كذلك اعلن دايان ان اساس المشكلة في المفاوضات مع مصر هو انها لا تريد التوصل الى حل منفرد مع اسرائيل ، وتسعى للحصول على التزامات تكون اساسا للمفاوضات مع دول اخرى (٣٧)·

ويبدو كأن هناك شبه اقتناع في اسرائيل حول امكان الوصول الى سلام مع مصر ، اذا امكن الوصول الى اتفاق حول مبادىء معينة بشأن الضفة الغربية وقطاع غزة · الا ان هذه هي المشكلة الكبرى بالنسبة لاسرائيل ·

## القضية الفلسطينية ـ جوهر الصراع واساسه

لم تستطع زيارة السادات للقدس ان تخفي حقيقة ان القضية الفلسطينية هي جوهر الصراع العربي ـ الاسرائيلي واساسه ، اذ على الرغم من الخلافات التي ظهرت بين موقفي السادات وبيغن بالنسبة للتسوية في سيناء ، تبقى الخلافات بالنسبة للقضية الفلسطينية والحلول المقترحة لها اعمق واشمل · ويتضح ذلك ايضا من الاهتمام الاسرائيلي الشديد ، على كافة الاصعدة تقريبا ، بالمقترحات التي قدمت بشأن القضية الفلسطينية · كما ان التعليقات والاراء التي طرحت في هذا الصدد اكثر شمولا من تلك التي تركزت حول مشكلات التسوية مع مصر ·

ولعل احدى « محاسن » زيارة السادات كامنة في دفعها الحكومة الاسرائيلية ، ربما لاول مرة منذ فترة طويلة ، الى التقدم بمشروع محدد وواضح لحل القضية الفلسطينية ، وبالتالي كشف اوراقها ، ودفعها الغير ايضا ، من معارضين او متحفظين الى كشف اوراقهم كذلك ، فيما يتعلق بتلك القضية · وكان بيغن قد اقترح في مشروع سلامه انشاء « حكم ذاتي اداري » في الضفة الغربية وقطاع غزة · ويعتبر هذا المشروع حلقة جديدة في سلسلة من المشاريع الاسرائيلية السابقة ، وان كانت غير معلنة « رسميا » ، لحل القضية الفلسطينية · وتعتمد كل تلك المشاريع على مبدأ التنكر للحقوق القومية للشعب الفلسطيني والتعامل مع قضيته باعتبارها مشكلة لاجئين ، من المناسب توطينهم خارج الاراضي التي تسيطر عليها اسرائيل ، او سكان تابعين لبلد اخر ينبغي تجديد سيطرته عليهم ، او البحث عن اي حل اخر يكون بعيدا عن التطرق الى الاماني القومية للشعب الفلسطيني · ومشروع بيغن بشأن الحكم الذاتي يهدف ، عمليا وباختصار شديد ، الى الاحتفاظ بالسيطرة الدائمة على الضفة الغربية وقطاع غزة ، من خلال اقامة بانتوستان فلسطيني فيها · وقد حظي هذا المشروع بتأييد الاكثرية في الكنيست ولكن ، على الرغم من ذلك ، كان الموقف منه مختلفا على صعيد المعارضة والرأي العام ، حيث ما زالت الاراء المعارضة للمشروع تتوارد باستمرار ، منذرة بالمخاطر التي قد تجابه اسرائيل ، في حال تنفيذه ، حاضرا ومستقبلا ·

## الحكم الذاتي : اقامة « فلسطين الكبرى » بواسطة « مستشفيات الولادة »

تركزت ردود الفعل على مشروع الحكم الذاتي ، على ابراز مخاطره على الاصعدة السكانية والسياسية والعسكرية والتحذير من نتائجها « الضارة » · واولى هذه المخاطر هو الخطر السكاني الذي تطرق اليه الجميع تقريبا · فقد نشر مكتب الاحصاء المركزي

في اسرائيل توقعا حول نمو السكان اليهود بالمقارنة مع السكان العرب في اسرائيل خلال السنين المقبلة ، افاد ان عدد السكان اليهود سيصل سنة ١٩٨٣ ( اي بعد خمس سنين ) الى ٣٫٤٧٣٫٠٠٠ نسمة (على اعتبار ان معدل الهجرة سيكون ٢٥٫٠٠٠ شخص في السنة) ، بينما سيصل عدد العرب الى ٢٫٣١٦٫٠٠٠ ، أي ٤٠٪ من سائر السكان · وفي سنة ١٩٨٨ ( بعد عشر سنين ) ، وحسب المقاييس نفسها ، سيصل عدد اليهود الى ٣٫٧٩٠٫٠٠٠ شخص ، والعرب الى ٢٫٨٥٥٫٠٠٠ ، او ٤٣٪ من سائر السكان · وفي سنة ١٩٩٣ ( بعد ١٥ سنة ) : اليهود : ٤٫١١٠٫٠٠٠ ، والعرب : ٣٫٥١١٫٠٠٠ ، اي ٤٦٪ من سائر السكان · اما اذا ازدادت الهجرة ووصل معدلها الى ٥٠٫٠٠٠ شخص في السنة ( وهذا ليس مضمونا ) فستصل نسبة السكان اليهود بعد ١٥ سنة الى ٥٧٪ من السكان ، والعرب ٤٣٪ (٣٨) ·

ان وجود ٣٫٥ مليون عربي داخل اسرائيل ، « سيخلق مشكلة كبيرة ، خصوصا وان هذه الكمية ستتحول الى نوعية مختلفة تماما · [وبذلك] ، ستتحول اسرائيل الى دولة ثنائية القومية لا مثيل لها ، لان السكان العرب داخلها لهم ارتباط ثقافي وديني ولغوي وحضاري مع اكثر من مائة مليون عربي حول اسرائيل · اضف الى ذلك : ان الـ ٣٫٥ مليون عربي سيخلقون واقعا سياسيا جديدا ، شخصية مختلفة تماما اجتماعيا وثقافيا وسياسيا · ولن تكون الطريق الى مؤسسات التعليم العالي والكنيست والاقتصاد والجيش والثقافة والصحافة والاحزاب مقفلة امامهم · ويقينا ، ان الكمية يجب ان تؤدي الى تغيير راديكالي في النوعية · ان دولة اسرائيل ثنائية القومية تستطيع العيش ، اما دولة اليهود ، فثمة شك في ذلك » (٣٩) ·

وتحدث كذلك ناثان يلين ــ مور ، احد زعماء ليحي سابقا ، حول هذه المشكلة الديموغرافية موضحا ان الاكثرية اليهودية الحالية في اسرائيل ستتحول الى اكثرية عديمة الاهمية في سنة ٢٠٠٠ ، وربما تنخفض الى مرتبة الاقلية · ويعتمد يلين ــ مور في تقديره هذا على بحث اجراه الدكتور موشي هرتمان من جامعة تل ابيب ، مفاده انه في حال وصول معدل الهجرة الى ٢٥ الف شخص في السنة ، ستصل نسبة السكان اليهود في سنة ٢٠٠٠ الى ٥٢٪ · وفي حال توقف الهجرة ستنخفض النسبة الى ٤٧٫٥٪ · ومعنى ذلك « انتقال الحكم تدريجيا في دولة اسرائيل الى الاغلبية الجديدة ، وهم العرب · ستكون لهم الاكثرية في الكنيست · ولا اعرف اذا كانت هذه الاكثرية ستبقي على صورة هرتسل [هناك] في مكانها ، وربما نزعتها ··· لتعلق مكانها ، في احسن الاحوال ، صورا جديدة ، ابرزها : الحاخام تسفي يهودا ــ كوك ، الحاخام الاكبر شلومو غورن ، حنان بورات واريك شارون [وهؤلاء من ابرز العناصر التوسعية الاستيطانية] ومن كان على شاكلتهم ، وذلك تقديرا لهم ، لانهم بفضل نشاطهم الفعال واصرارهم العنيد ساهموا في تحقيق امل فلسطين الكبرى من البحر وحتى النهر ، كما هو مكتوب في ميثاق م·ت·ف · رغم ان قصدهم كان مختلفا » (٤٠) ·

ويضيف يلين ــ مور قائلا : « ان السيدة غولدا مائير ورفاقها سيضطرون ، اذن ، الى الاستمرار في القلق والتساؤل في كل صباح : كم من طفل عربي ولد اليوم ، وكم من اليهود ؟ فليس هناك اي احتمال بان تنخفض الولادة لدى العرب » · ولذلك « فمع الحكم الذاتي او من دونه ، تكون نتيجة عمل ابطال ارض ــ اسرائيل الكاملة واضحة : تحقيق الميثاق الفلسطيني لـ م·ت·ف بواسطة مستشفيات الولادة · ان كل من يحب شعبه عليه ان يعارض ذلك ، لاسباب قومية واخلاقية وثقافية » (٤١) ·

ويلاحظ ان التخوف من المشكلة الديموغرافية كبير للغاية ، وينم عن قلق عميق لدى الاسرائيليين ، نابع من صلب عقيدتهم الصهيونية حول وجوب « نقاء » الدولة اليهودية ، بشريا وثقافيا واجتماعيا ، ويذكرنا بالتالي بمعارضتهم الشديدة لمشروع الدولة العلمانية الذي طرحته م٠ت٠ف كحل للمشكلة الفلسطينية ٠

## تقويض اسرائيل « من الداخل »

ليس القلق من الخطر الديموغرافي هو الناحية الوحيدة التي تقلق بال الاسرائيليين في ظل الحكم الذاتي ٠ بل ان هنالك تخوفا ايضا من خطر النضال السياسي والعسكري الذي يمكن ان يمارسه الفلسطينيون في ظل الادارة الذاتية ، مما قد يؤدي الى بروز احتمالين : قيام دولة ثنائية القومية بكل معنى الكلمة ، كما يفرض الواقع الديموغرافي ، او دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهما احتمالان مرفوضان لدى معظم الاسرائيليين حاليا ٠ ويراهن اصحاب مشروع الحكم الذاتي على استخدام « قوة الجيش الاسرائيلي الضاربة » ضد الفلسطينيين في الداخل وقمع اي تمرد من جانبهم ، خصوصا اذا حاولوا اعلان دولتهم المستقلة ، كما ان الجيش الاسرائيلي ، على حد تعبير دايان ، سيمنع « الالاف من اللاجئين من العودة الى تلك المناطق » (٤٣) ٠ ويبدو ان هذا بالذات ما بات يخشاه معظم الاسرائيليين ، اي ان تتحول الضفة الغربية وغزة الى « بانتوستان » حقيقي ، ومسرح لاعمال القمع السياسي والعسكري ، مما قد يضطر الفلسطينيين الى ابداء مقاومة شرسة قد تضر بمصالح اسرائيل ، خصوصا على صعيد الراي العام الدولي ٠ وقد تؤثر تلك المقاومة ، ان اشتدت وتشعبت ، على معنويات الاسرائيليين ايضا ، بحيث تؤدي الى تحول في نظرتهم الى الفلسطينيين ، والتفكير بحلول اخرى يمكن ان ترضي هؤلاء ، حتى وان كان المطلب اقامة دولة فلسطينية ٠ ورغم ان هذا الامر يبدو من قبيل التوقعات ، وحدوثه يتعلق بمدى كبير بحجم النشاط الفلسطيني في الداخل على مختلف الاصعدة ، وليس على الصعيد العسكري والسياسي فقط ، فان قطاعات من الاسرائيليين تخشى وقوعه ، ان نفذ مشروع الحكم الذاتي ٠

ان مشروع الحكم الذاتي يمنح سكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، مثلا ، حق الحصول على الجنسية الاسرائيلية او الاردنية ٠ ويعتقد الاسرائيليون ان اعدادا كبيرة من اولئك السكان ستفضل الجنسية الاسرائيلية ، فربما يحق لهم عندئذ المطالبة بممتلكاتهم في فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨ ، او شراء ارض داخل اسرائيل نفسها ٠ « ومن السهل التقدير ماذا سيحدث في اسرائيل عندما ينتقل ما بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠ الف عربي من المناطق للسكن فيها ، بعد عشر او خمس عشرة سنة ، في حال حصولهم على الجنسية الاسرائيلية ٠ ليس هنالك ادنى شك في ان زعماء م٠ت٠ف ، بعدما ايقنوا ان ليس ثمة احتمال لان يحظى الفلسطينيون بالاستقلال ، سيحاولون خرق التوازن السياسي في اسرائيل من الداخل ٠ وليست هذه فكرة جديدة ، فقد كتب حولها الكثير من الخبراء الايديولوجيين وحتى زعماء عرب ٠٠٠ ان من يرغب ، بواسطة الحكم الذاتي ، بالاحتفاظ بالضفة الغربية بأي ثمن ، سيجابه مع مر السنين دولة ثنائية القومية » (٤٤) ٠

وعلق شمعون بيريس على هذه النقطة بقوله : « ان منح امكانية الاختيار بين الجنسية الاسرائيلية وبين الجنسية الاردنية ، سيؤدي الى عدم اصدار الجواز الاردني ابدا في قطاع غزة على الاقل ٠ وسيكون هذا بمثابة تلميح للاجئين بأنه ( بواسطة اختيار

الجواز الاسرائيلي ) ستتوفر لهم امكانية المطالبة بأراضيهم وممتلكاتهم داخل اسرائيل ٠ كذلك فان اقتراح منح حق الاستيطان المتبادل ، وعلى الرغم من انه يمكن سكان المناطق من شراء اراض داخل اسرائيل ، فانه لا يوفر عمليا امكانية مماثلة للاسرائيليين ، لان اراضي الوقف واراضي الحكومة [في الضفة الغربية وقطاع غزة] ستكون تحت سيطرة المجلس الاداري الذي سيتم تشكيله ٠٠٠ بينما سيقع اصحاب الاراضي الخاصة في الضفة الغربية بالطبع تحت تهديد القانون الاردني الذي يفرض عقوبة الموت على كل انسان يبيع ارضا لليهود » (٤٥) ٠

اما وزير الخارجية السابق يغئال الون فقد اعلن انه « يعارض بشدة مقترحات بيغن بشان اتاحة الحصول على جنسية اسرائيلية لسكان قطاع غزة والضفة الغربية ٠ واذا اتيح لمئات الالوف ممارسة هذا الحق ، فان ذلك سيقضي على اخر احتمالات المحافظة على الطابع اليهودي لدولة اسرائيل ، بتحويلها الى دولة ثنائية القومية ٠ وكذلك فانني اعارض بشدة اقتراح منح حق الاستيطان المتبادل ٠٠٠ فمثل هذا الحق قد يشكل حافزا للسكان وللاجئين العرب لتفضيل الجنسية الاسرائيلية على الجنسية الاردنية ٠ وانا واثق من انه لن يكون هنالك استيطان متبادل ٠ فاليهود الذين سيطلبون الاستيطان في الضفة الغربية ، سيكون عددهم ضئيلا ، بينما تغمر اسرائيل بالعرب ، بفعل قوة الجذب الاقتصادية ، وربما لدوافع سياسية ايضا ٠ ان بيغن يحاول اكل الكعكة والاحتفاظ بها في آن واحد . وهذا امر لا يستطيع تحقيقه ٠ والرغبة بتحقيق فريضة ارض ــ اسرائيل الكاملة ، ولو بحراب الجيش الاسرائيلي ، ستقسم الدولة من ناحية طابعها الديموغرافي القومي » (٤٦) ٠

ويرد دايان على هذه الادعاءات بقوله انه « لاحظ من شراء السكان العرب اراض في اسرائيل ، حيث ان ٩٢٪ من تلك الاراضي هي ملكية عامة وتحت سيطرة مديرية العقارات٠ بينما الباقي . اي ٨٪ هي املاك خاصة . اصحابها جميعا مستقرون في البلد » (٤٧) ٠

الا ان امين منظمة مزارعي المستوطنات ش٠ غوتليف يعارض قول دايان هذا ، « لان عرض الامور على هذا الشكل ٠٠٠ كذر الرمال في العيون ٠ فاذا اختصرنا من المساحة الشاملة للدولة منطقة النقب ، والجليل المأهول بالعرب ، وبعض المناطق المعينة ، فان الـ ٨٠٪ من المساحة المتبقية ٠٠٠ تشكل نحو ٣٠ــ٤٠٪ ٠ وهذه مساحة تبلغ مئات الالاف من الدونمات . ويكمن التساؤل بشأنها : هل يمكن شراؤها ؟ ماذا سنفعل اذا اقدم شيوخ عرب اغنياء على شراء هذه الاراضي ، باقتراحهم مبالغ كبيرة ثمنا لها ؟ لقد تحدثنا دائما عن دولة يهودية . ولم نرغب بدولة ثنائية القومية ٠ لذلك ينبغي عدم التقليل من اهمية حق الاستيطان المتبادل من خلال الادعاء بان ٨٪ من الاراضي فقط معروضة للبيع » (٤٨) ٠

اما زعيم حزب الاحرار المستقلين والوزير السابق موشي كول ، فيخشى ان تنجم عن الحكم الذاتي « اضطرابات غير قليلة في المناطق ، حيث سيطالب المتطرفون العرب و ــ م٠ت٠ف باستقلال كامل ٠ وهل سيطلب من الجيش الاسرائيلي في كل مرة ، التدخل لفرض النظام والقانون ؟ اى حكم ذاتي هو ذلك ؟ كما ان الحديث حول استمرار الاستيطان اليهودى فى منطقة الحكم الذاتى غير جدي . اذ من هم اليهود الذين سيوافقون على الاستيطان فى منطقة تحكمها ادارة عربية . وربما تصبح غدا دولة عربية ؟» (٤٩) ٠

ويضيف كول قائلا : « اننا ندفع الان ثمنا غاليا مقابل تجاهلنا للقضية الفلسطينية · اننا مضطرون الى اظهار انفتاح واستعداد لتحمل المخاطر من اجل السلام ··· فنحن نريد العيش في دولة يهودية ( وليس في دولة ثنائية القومية ) وبسلام ، ومن خلال تأمين مساواة كاملة في الحقوق ودمج اقتصادي واجتماعي للعرب الذين يعيشون داخل اسرائيل » (٥٠) ·

وحذر اخرون ايضا من محاولة تكرار « التجربة السوداء » في اسرائيل ، « خصوصا وان العربي ليس من السود ، ونحن نعيش في القرن العشرين وليس في القرن السابع عشر · كذلك فان نسب القوى مختلفة ، كما ان المحيط لا يفصل بين اولئك المعدين لاعمال التحطيب والسقاية ، وبين اخوتهم من حولهم » (٥١) ·

اما الزعيم المبامي يعقوب حزان فقد حذر من خطر الحكم الذاتي على « تشويه الجوهر الاجتماعي والاخلاقي لدولة اسرائيل · فالجوهر القومي والاجتماعي لدولتنا هو مركب لا يقل اهمية لامنها وقدرتها على الدفاع من الحدود الامنة ، وربما اكثر منها · ان الاقلية العربية الكبيرة ، المحكومة من جانب الاكثرية اليهودية القليلة ، ستتحول الى طلائع مقاتلة – داخل الدولة – من جانب اشقائها وراء الحدود · وستكون هذه اقلية معادية ومقاتلة · ان التطور السياسي للطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية – التطور الذي عبر عنه في الانتخابات الاخيرة للجان الطلاب – هو اشارة تحذير خطيرة ومهددة · فهؤلاء هم ابناء الاقلية العربية التي تعيش معنا بسلام منذ ثلاثين سنة ، وتتمتع ببركة التطور في بلدنا ، رغم جميع الاخطاء التي رافقت هذا التطور · ان تطبيق النظام الديموقراطي في اسرائيل تجاه الاقلية العربية الكبيرة التي ستتواجد في اسرائيل بعد ضم الضفة الغربية اليها ، سيحولها الى عامل حاسم في القضايا الداخلية في الدولة · فالتوتر القومي سيصبح عميقا الى درجة لا يمكن تحملها · وعدم تطبيق النظام الديمقراطي على هذه الاقلية ، سيشوه نظام الحكم هذا حتى تجاه الاكثرية اليهودية ، لان الديموقراطية غير قابلة للتقسيم · ان هذا كله سيمس في قدرة الصمود داخل اسرائيل ، ومع نشوب حرب جديدة ، ستضطر اسرائيل الضعيفة للقتال على جبهتين : ضد العدو الخارجي وضد العدو الداخلي » (٥٢)·

ولا حاجة للتأكيد ان مشروع الحكم الذاتي ينطلق من دوافع عقائدية وامنية تتحكم بعنف في عقلية بيغن وسياسة حزبه ، حيروت ، في آن واحد · عقائديا ، يرى بيغن ان الضفة الغربية جزء من « ارض – اسرائيل » لا يجوز التنازل عنه ، والحكم الذاتي ، في نظره ، افضل السبل لضمان السيطرة الاسرائيلية على هذه المنطقة · وهذا نابع من صلب ايديولوجية اليمين الصهيوني ، التي تتبنى مبدأ بناء الدولة اليهودية على « ارض – اسرائيل الكاملة » · وامنيا ، يعتبر بيغن السيطرة على الضفة الغربية وغزة ستوفر الامن لاسرائيل · ولتبرير موقفه هذا ، راح يكثر من الحديث مؤخرا « حول القناصة الذين يمكن ان يطلقوا النار على مكتب رئيس الحكومة ، وحول المدافع التي يمكن ان تقصف تل ابيب من طولكرم » (٥٣) · وقد اثارت هذه الاقوال سخرية العديد من المعلقين الاسرائيليين ، فرد احدهم عليها بقوله : « استطيع القول هنا ان العدو الخارجي يتم ابعاده عن قلب الدولة بثمن ادخاله اليها · ويمكن الادعاء – في ضوء الخيار الذري الاسرائيلي الذي كثر الحديث حوله في الصحف والمجلات العلمية – انه من الغباء مهاجمة اسرائيل وجها لوجه · ان افضل الطرق لتدميرها هي حرب عصابات من الداخل ، التي يمكن ان تتطور الى حرب اهلية · اذا اخذنا بالاعتبار نسب القوى الحسابية –

مليون عربي مقابل ٣ ملايين يهودي ـ تكون هذه استراتيجية مأمونة ٠

« خلال النقاش الدائر في اسرائيل منذ حرب الايام الستة ــ المؤيد لضم الضفة الغربية وقطاع غزة ، او المعارض لذلك ــ جرى الحديث كثيرا حول الموضوع الديموغرافي ، ولكن بشكل غريب ٠٠٠ تحدثوا حول الموضوع بعبارات سياسية ، اي من ناحية تاثيره على نتائج الانتخابات والتركيب الحزبي وما شابه ذلك ٠ ولكن لم يجر الحديث ، علانية على الاقل ، حول الطاقة العربية لشن حرب اهلية على مراحل : حرب عصابات في البداية ، ثم تمرد عام بعد ذلك ٠ انه لمن الغباء الافتراض ، ان الـ ٥ر١ مليون عربي ـ في وضع كهذا ، مع اضافة عرب اسرائيل الى القوى المتوقع ان تكون معادية ــ سيعيشون بهدوء تحت حكم غريب ٠٠٠

« ان الضفة الغربية وقطاع غزة هي حصان طروادة ٠ فاستمرار الاحتفاظ بها معناه تصعيد الحرب مع العرب ٠ وخلافا للحروب التي دارت بيننا وبين العرب [حتى الان] ، يمكننا ان نخسر هذه الحرب فقط ٠٠٠ لذلك ، فان سياسة رئيس الحكومة ٠٠٠ هي وصفة لتدمير الدولة بحرب اهلية مؤكدة » (٥٤) ٠

وفي اطار المعارضة لمشروع الحكم الذاتي ــ وعلى صعيد اخر ــ تلفت النظر مواقف اصدقاء بيغن من غلاة التوسعيين اليمينيين ، الذين اعتبروا مشروعه نوعا من « الهرطقة » واعربوا عن معارضتهم الشديدة له ، وبعضهم استقال من ادارة ليكود احتجاجا عليه ٠ ويقترح هؤلاء ، باختصار ، فرض السيادة الاسرائيلية على الضفة الغربية وقطاع غزة ، وضمهما الى اسرائيل ٠ وفي هذا الصدد كتب شموئيل كاتس ، مستشار بيغن سابقا : « محظور علينا بأي شكل من الاشكال ابقاء مسألة السيادة في الضفة الغربية مفتوحة ٠ ثم لماذا وافقنا على مجلس اداري مشترك بين اسرائيل والاردن [وممثلين عن سكان الضفة الغربية وقطاع غزة] يحدد قوانين هجرة اللاجئين العرب الى الضفة الغربية وقطاع غزة ؟ ان اشتراك الاردن في الامر معناه ، بعبارة بسيطة ، منح الملك حسين نصيبا في الحكم في الضفة الغربية ٠ واتوقع ، اذا ما تحققت السيادة المفتوحة ، وصول عشرات الالاف من الطلبات من قبل العرب الذين يعيشون خارج ارض ــ اسرائيل مطالبين بالعودة ٠٠٠ وفي مشروع بيغن عدة عناصر خطيرة جدا ، وانا مقتنع بأنها ستؤدي بفعل الديناميكية التي ستحظى بتشجيع بالطبع من سائر الدول العربية ، الى القضاء على اخر بقايا الحكم الاسرائيلي في الضفة الغربية » (٥٥) ٠

اما النائبة غيؤلاه كوهين ، فقد وصفت مشروع الحكم الذاتي بأنه « خطير » معربة عن املها « بأن يكون مجرد زلة لسان ٠ ان الحكم الذاتي لعرب الضفة الغربية لا يعجبني ٠ فأنا اعارض الاعتراف بالشخصية الفلسطينية ، والحكم الذاتي يمنحهم فرصة كهذه ٠ انني اؤيد سيادة اسرائيلية في الضفة الغربية مع كانتون عربي داخل الدولة ، بحيث تكون لسكانه حقوق مدنية مختلفة ٠ ان الحل المقترح الان ، يمس بسيادتنا ، التي لم تفرض حتى الان على الضفة الغربية ، ويشكل قنبلة موقوتة ٠ فاذا منحنا عرب الضفة الغربية الحق بعد سنين في اختيار الجهة التي سينضمون اليها ، بامكانهم عندئذ اختيار السيادة الاردنية او سيادة مستقلة » (٥٦) ٠

كذلك اعلن تسفي شيلواح رئيس حركة ارض اسرائيل الكاملة ، ( وهو من كبار المنظرين للتوسع الاستيطاني ، وصاحب كتاب « بلاد كبيرة لشعب كبير » ) ، ان « الحكم الذاتي هو جنين لدولة جديدة ٠ ينبغي فرض سيادتنا على الضفة الغربية ، فالسيادة

هي اكبر ضمانة بالنسبة لنا · ان [مشروع الحكم الذاتي] ليس الا انهيارا لمفاهيم ليكود كلها ، بما في ذلك مفاهيم بيغن نفسه ودعاة ارض ـ اسرائيل · فالحكم الذاتي لـــه ديناميكية خاصة به ، وهو في الحقيقة تقسيم لارض ـ اسرائيل » (٥٧) · اما الدكتور يسرائيل الداد ( شايب ) ، وهو واحد من الثلاثي الذي قاد ليحي سابقا ، فيصـــف مشروع الحكم الذاتي بانه « جريمة » ، لانه يناقض كل مواقف ليكود الاساسية · وهو « لا يشك في ان منح الحكم الذاتي للضفة الغربية سيؤدي بالضرورة الى دولـــة فلسطينية ، [لانه] اذا منحنا العرب هنالك حق الاختيار ، فسيصوتون لصالح م·ت·ف » (٥٨) · كذلك يتهم الداد بيغن بانه تخلى عن الصهيونية السياسية ، « وبموجبها كان من الواجب فرض السيادة الاسرائيلية على الضفة الغربية · [كما ان بيغن] لم يتبع من جهة اخرى اسلوب الصهيونية العملي على غرار مباي سابقا ، ولم يوطن الاف اليهود في المناطق [المحتلة] ··· ان اقتراح بيغن بشأن الحق المتبادل في الاستيطان معــــاد للصهيونية ، وبالتالي معاد لاسرائيل » (٥٩) ·

وتنادي هذه العناصر ، كما هو واضح ، بضم المناطق الفلسطينية المحتلة ( وغيرها ) الى اسرائيل بشكل نهائي ، وتطالب بالعمل على توطين مئات الالاف من اليهود فيهـا بأسرع ما يمكن ، بهدف تحويلهم الى اكثرية سكانية هناك ، وبالتالي ابتلاع تلك المناطق نهائيا · غير انه لا بد من الاشارة الى ان مثل هذه الاراء لا تعبر عن مواقف قطاعات واسعة من الاسرائيليين ، الذين يشكون في امكانية استقدام اعداد كبيرة من المهاجرين اليهود وتوطينهم في تلك المناطق ، بحيث ان طابعها العام سيبقى في نهاية الامـــر عربيـا ·

## « لا » للدولة الفلسطينية ولـ م·ت·ف

ان الخوف من الاكثرية السكانية العربية في المناطق المحتلة ، وما قد تجره من خطـــر على الكيان الصهيوني ، من حيث امكانية تحول العرب الى اكثرية تؤثر على طابـع اسرائيل اليهودي ، اذا ضمت المناطق المحتلة اليها من ناحية ، او حصول تلك المناطق على استقلالها ، بشكل او بآخر ، وبالتالي اقامة دولة فلسطينية ، من ناحية ثانية ، يكاد يكون عاملا مشتركا يوحد اكثرية الاسرائيليين ، مع الحكومـــة والمعارضة فـي آن واحد · وهذا التخوف هو واحد من العوامل الرئيسية التي تسيطر على كافـة مشاريـع التسوية الاسرائيلية ، بينما تعود الفروق بينها الى بعض المواقف العقائدية الصهيونية ، او الى اجتهادات مختلفة بشأن الاسلوب الامثل لتأمين مصالح اسرائيل في المناطـــق المحتلة ، مع محاولة المخاطرة بأقل مدى ممكن · وهذا هو سر الخلافات ، في الماضـي والحاضر ، بين مواقف ليكود الحاكم الان وحلفائه والتجمع العمالي المعارض ·

لقد وصف مشروع بيغن بشأن الحكم الذاتي ـ وعن حق ـ بأنه محاولة « لاكل الكعكة والاحتفاظ بها في آن واحد » ، اي ان بيغن يريد الاحتفاظ بالسيطرة الاسرائيلية عـلى المناطق المحتلة من ناحية ، ولكنه لا يريد ضمها الى اسرائيل من ناحية ثانية ، نتيجة للاعتبارات التي اشرنا اليها · ولذلك يرى ان الحكم الذاتي تحت السيطرة الاسرائيلية الفعلية والاردنية الاسمية هو الحل الامثل في الظروف الراهنة · الا ان التجمع العمالي ، وهو القوة الرئيسية المعارضة الان في اسرائيل ، يرى عكس ذلك · وكانت اللجنـــة السياسية لحزب العمل قد اعربت عن معارضتها لمشروع الحكم الذاتي ، كحل دائم لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة ، بينما لم تمانع في قبوله كحل مؤقت · وقد ايد هذا الموقف

كل من النواب والوزراء السابقين بيريس والون ورابين ويعقوبي ، بينما عارضته غولدا مئير بشدة ، حتى كحل مؤقت ، اذ ربما تحول الى حل دائم ، يمكن ان يؤثر سلبا بحسب رأيها على مستقبل اسرائيل (٦٠) ·

والواضح ان معارضة مئير لمشروع الحكم الذاتي ، وتحفظ زملائها في حزب العمل تجاهه ، ناجم عن تخوفها من ان تتبلور في ظل ذلك النظام نواة دولة فلسطينية مستقلة · والتجمع العمالي ، مثل ليكود ، يعارض هذا الاتجاه بشدة منذ فترة طويلة ، وقام مؤخرا بعض زعمائه بتأكيد موقفهم هذا مجددا · فقد اعلن شمعون بيريس ، مثلا ، انه « من المسلم به لدينا جميعا اننا لا نريد دولة فلسطينية اخرى على نهر الاردن » (٦١) · كما برر يتسحاق رابين معارضته للحكم الذاتي بقوله « انه تكمن فيه ··· نواة لشخصية فلسطينية ، بل ربما دولة فلسطينية » (٦٢) · أما حاييم بارليف فقد اعلن « ان المشروع الحكم الذاتي يحمل بين طياته اخطارا كبيرة لاسرائيل – قيام دولة فلسطينية مستقلة ، وغمر اسرائيل بمواطنين عرب اخرين ، وخطر العودة الى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ في الشرق ايضا » (٦٣) ·

ومعارضة اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، او الاعتراف بحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم ، تتبعها ايضا معارضة لمنظمة التحرير الفلسطينية وعداء واضح تجاهها ، ورفض للتعامل معها ، حتى ، كما يبدو ، بين اولئك الذين يدعون الى منح الفلسطينيين حق تقرير مصيرهم · وفي هذا المجال كتب ، مثلا ، يهوشفاط هركابي ، احد المستشرقين الاسرائيليين ورئيس الاستخبارات الاسرائيلية سابقا ، انه « ينظر الى منظمة التحرير كعامل سلبي جدا · انني ارفض محاولات التجميل التي تبذل من اجل اظهار المنظمة بغير مظهرها المتطرف · ولكن بالامكان مع ذلك ان يتواجد حكم عربي اخر في الضفة · اعرف ان الحكومة تنظر بتخوف الى اي حكم كهذا . لكن لا بد من الاخذ بالاعتبار التبريرات المنطقية لحتمية وجود مثل هذا الحكم » (٦٤)·

اما السكرتير السياسي لمبام سابقا ، النائب نفتالي فيدر ، فقد زعم انه « لا يوجد تماثل بين الفلسطينيين و– م·ت·ف اليوم · ففي حين لم يمنح الفلسطينيون اي سبيل اخر للتعبير سياسيا عن ذاتهم ، فان م·ت·ف هي ممثلهم · ان سياسة الحكومة السابقة هي بين العوامل التي ادت الى هذا الوضع ، حيث لم تسمح بأي نشاط سياسي في المناطق · والحكومة الحالية تسير في خطها · وعندما ينشأ في المناطق حكم ذاتي كمرحلة اولى ، ستتبلور عناصر قيادية غير م·ت·ف » (٦٥) ·

ويرى احدهم ان منظمة التحرير الفلسطينية « ليست الا مخلوقا تمرد على خالقيه · فالدول العربية هي التي اقامتها ، وهي الملزمة بحلها وتجاهلها وسلبها الاعتراف بها كممثل للشعب الفلسطيني ··· ان الدول العربية ، وعلى رأسها مصر والاردن ، يجب ان تنتزع لنفسها من جديد تاج الزعامة وصلاحية ادارة المفاوضات ، واتخاذ القرارات حول مصير الشعب الفلسطيني ومستقبله ، وذلك بعد ان كشفت قيادة م·ت·ف عن نفسها ، مرة تلو الاخرى ، كهيئة عقيمة ، يملؤها الحقد وعدم القدرة على الحسم ، وقوتها الوحيدة في الحاق الضرر والتشويش » (٦٦) ·

ومن خلال المعارضة لقيام دولة فلسطينية ، او للتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، تقترح المعارضة الاسرائيلية – على لسان شمعون بيريس – « الربط بين حل القضية الفلسطينية وبين الاردن » (٦٧) · والسبب بسيط : « سواء نحن او الاردن – الطرفان

مهتمان بوجود بديل لـ م٠ت٠ف في الضفة الغربية ٠ ولكن من هي الجهة الاكثر كفؤا للتصدي لـ م٠ت٠ف ، الاردن ام اسرائيل ؟ ان التاريخ يعلمنا ان الاردن كان مستعدا وقادرا على وقف توغل م٠ت٠ف في بلده ، وبشكل انجع حتى من اسرائيل نفسها » (٦٨)٠

## التسوية الاقليمية ـ الوظيفية كبديل للحكم الذاتي

لتحقيق الاهداف التي تحدث عنها بيريس وغيره ، يقترح التجمع العمالي المعارض . حل مشكلة الضفة الغربية ، بواسطة ما يسميه « تسوية اقليمية ـ وظيفية » ، التي تعتمد اساسا على مشروع الون ٠ وفحوى هذا المشروع هو الابقاء على السيطرة العسكرية الاسرائيلية على الضفة الغربية ( وخصوصا على امتداد نهر الاردن ) وقطاع غزة ، وابقاء تلك الاماكن مفتوحة امام الاستيطان اليهودي من ناحية ، مع تحويل صلاحيات ادارية للاردن بشأن الاماكن المأهولة في تلك المناطق من ناحية ثانية ٠ وبذلك تحاول اسرائيل الاحتفاظ لنفسها بالمنافع التي يجرها الاحتلال لتلك المناطق ، بينما تعمل على تصدير المشكلات الناجمة عنه الى الاردن ٠

ويبدو ان عددا من كبار ضباط الجيش الاسرائيلي لا يعارض هذا المشروع ، من خلال موافقتهم على نواحيه العسكرية على الاقل ٠ ففي مقابلة صحفية (٦٩) مع عدد من اولئك الضباط اعلن ، مثلا ، العميد ( احتياط ) ابراهام بوتسار قائد سلاح البحرية سابقا ، ان اسرائيل يجب ان تتواجد في وضع تستطيع معه منع دخول اية قوات عسكرية الى الضفة الغربية ، ثم مراقبة العبور على نهر الاردن ، لكي لا تعبره اية قوات عسكرية غريبة ٠ وان هذه المهمة يجب ان يتولاها الجيش الاسرائيلي ، وليس غيره ٠ كذلك اعلن العميد ( احتياط ) يشعياهو غافيش ، قائد المنطقة الجنوبية في حرب ١٩٦٧ ، انه يجب ان يبقى [نهر] الاردن ، ومواقع ثابتة في الضفة الغربية ، تحت سيطرة الجيش الاسرائيلي ٠ ويرى العميد ( احتياط ) مردخاي هود قائد سلاح الجو سابقا ، ان الجيش الاسرائيلي يجب ان يسيطر على قمم الجبال في الضفة الغربية وان اي اتفاقية امن اخرى ستكون ناقصة ٠ « كذلك فأنا شريك في الرأي بأن [نهر] الاردن هو الحد الامني لاسرائيل ٠ ولكن يجب على اسرائيل ان تتمركز [ايضا] على قمم الجبال ، على امتداد الخط كله من الشمال الى الجنوب ، من اجل ضمان امنها » (٧٠) ٠ وتحدث في تلك المقابلة ايضا النائب والعميد ( احتياط ) مئير زورياع ، رئيس شعبة العمليات سابقا . فأعلن ان « المطلوب هو السيطرة العسكرية الكاملة للجيش الاسرائيلي على كل الضفة الغربية حتى نهر الاردن ، وليس كحل مؤقت ٠ واذا لم يكن للجيش الاسرائيلي تحكم عملياتي دائم في الضفة بأكملها ، فان كل اتفاق سلام سيحمل في طياته بذور الحرب المقبلة ٠ وعندما اتحدث حول سيطرة الجيش الاسرائيلي حتى نهر الاردن ، لا اعني تواجده في غور الاردن فقط ، وانما السيطرة على قمم الجبال ايضا ، لانني اتحدث عن مفاهيم عملياتية ، وليس بعبارات تكتيكية بسيطة ٠ فمن اجل احباط اية امكانية لاحتلال الضفة ، هناك حاجة لتحكم عملياتي بها من دون اية قيود » (٧١) ٠ اما العميد ( احتياط ) اهرون ياريف ، رئيس الاستخبارات العسكرية سابقا ، فقد اعلن عن موافقته على مشروع الون بالنسبة للضفة الغربية ، « ولكن يجب ان يكون هنالك من يقبل به من الجانب الآخر ايضا ٠ وعلى كل حال ، فأن وجود الجيش الاسرائيلي في الضفة هو امر حيوي جدا ٠ انني اوافق على سيادة اردنية على الضفة ، شرط أن يبقى الوجود العسكري الاسرائيلي لفترة طويلة ، حتى تستتب العلاقات بيننا وبين العرب ، ولا تكون عرضة لاي

خلل · وحتى في الضفة الغربية ايضا ، كما هو الامر في سيناء ، يمكن ان تكون المشاريع الاقتصادية المشتركة ـ مثل حفر قناة من البحر المتوسط حتى غور الاردن ، واستخراج المياه وتوليد الكهرباء ـ ترتيبات امنية » · ويرى ايضا العميد ابراهام يافيه، قائد تشكيلة سابقاً ، ان الاردن يجب ان يكون حد اسرائيل « ويجب عدم الانسحاب منه شبرا واحدا ··· وانا اصر على ذلك » ·

وكان رئيس الاركان الاسرائيلي الجديد رفائيل ايتان قد اعلن مؤخرا ، بعد تسلمه مهام منصبه ، انه لا يمكن الدفاع عن اسرائيل من دون الضفة الغربية وهضبة الجولان ، مشددا على اهمية الاستيطان في هاتين المنطقتين في اطار ما سماه استراتيجية الدفاع القطري ( ٧٢ ) ·

واذا اخذنا بالاعتبار نوعية تأثير العسكريين على تقرير السياسة الاسرائيلية ، يمكننا ان نفهم مدى اصرار اسرائيل على عدم العودة الى حدود سنة ٦٧ في الضفة الغربية وقطاع غزة ، تماما كأصرارها بالنسبة للمناطق المحتلة الاخرى ، وربما بصورة اقوى · ويلاحظ ان هذا الاصرار مشترك بين دعاة الحكم الذاتي ، وبين دعاة التسوية الاقليمية التي نحن بصددها · كذلك يلاحظ ان مفهوم السيطرة العسكرية الاسرائيلية على الضفة الغربية، خاصة التمركز على ضفة نهر الاردن وقمم الجبال ، هو امر بديهي لدى معظم الاسرائيليين وعلى هذه الارضية يطرح السؤال حول ماهية الدور الاردني في المنظور الاسرائيلي ، بالنسبة لاي حل في الضفة الغربية وقطاع غزة ·

## الدور الاردني بين المشاركة الاسمية والفعلية

يلاحظ ان هنالك خلافا رئيسيا بين الاسرائيليين حول الدور الذي يجب ان يعطى للاردن في اية مفاوضات سياسية حول الضفة الغربية وقطاع غزة · فدعاة الحكم الذاتي من اعضاء الائتلاف الحكومي الحالي وانصاره يعتبرون ان دور الاردن يجب ان يقتصر فقط على المشاركة في حل بعض القضايا الادارية ضمن مشروع الحكم الذاتي ، مثل منح الجنسية الاردنية لمن يرغب من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، والمشاركة في لجنة مشتركة لكل من اسرائيل والاردن والمجلس الاداري للنظر في القوانين المعمول بها في المناطق المحتلة ، وتحديد انظمة الهجرة للضفة الغربية وقطاع غزة ، بحيث تكون هجرة اللاجئين الى هذه المناطق بأعداد « معقولة » توافق عليها جميع الاطراف المشتركة في اللجنة · كذلك يعين المجلس الاداري احد اعضائه لدى الحكومة الاردنية للبحث في المسائل المشتركة · اما مسألة السيادة على الضفة الغربية ، فستبقى ، حسب مشروع الحكم الذاتي ، مفتوحة الى أجل غير مسمى ، مع التأكيد بأن ليس للاردن الحق في المطالبة بالسيادة على هذه المناطق « لانها جزء من ارض ـ اسرائيل ، وقد احتلها الاردن بالقوة في حرب ١٩٤٨ ، ولم يعترف ابدا بسيادته عليها » · وتسعى الحكومة الاسرائيلية الى اشراك الاردن في المفاوضات السياسية الدائرة وفقهذه المبادىء، مما يثير جدلاواسعا بين الاسرائيليين ، على اعتبار ان هذه المبادىء غير كافية ابدا ولن تشجع الاردن على المشاركة في عملية المفاوضات ·

ولذلك يطالب دعاة التسوية الاقليمية ، في مقابل ذلك ، باشراك فعلي للاردن في عملية المفاوضات السياسية حول الضفة الغربية وغزة ، على اساس تقسيم الضفة الغربية وظيفيا ما بين الاردن واسرائيل ، وربما منح الاردن ايضا « صلاحيات » بالنسبة لقطاع غزة ،

ثم حل المشكلة الفلسطينية معه ، بأعتباره الممثل للفلسطينيين ·

ان هذا الاتجاه ، كما هو معروف من بنات افكار الزعامة العمالية الصهيونية ، التي عادت الى الحديث عن محاسنه مؤخرا · وفي هذا الصدد اعلن يتسحاق رابين ، مثلا ، انه « من الضروري ربط حل القضية الفلسطينية مع المملكة الاردنية ، اي مع سكان ارض اسرائيل ـ الشرقية ، في اطار اتفاقية سلام مع هذه الدولة » (٧٣) · واضاف رابين ايضا ·انه لا يؤمن « بامكانية الوصول الى حل دائم في هذه المرحلة ، يضمن تحقيق معاهدة سلام مع الاردن ورسم حدود قابلة للدفاع ، تكون مختلفة عن حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ · لذلك يجب السعي الى حكم اسرائيلي ـ اردني مشترك لفترة زمنية طويلة في الضفة الغربية وقطاع غزة · وبعبارة اخرى : يأخذ الاردن على عاتقه مسؤولية الجانب الاداري من حياة السكان في هذه المناطق ، وتأخذ اسرائيل مسؤولية الامن [ وتخطيط ] الاستيطان اليهودي بشكل متفق عليه سلفا ، وذلك من دون الالتزام سلفا بأي حل دائم بعد الفترة الانتقالية ، التي يجب ان تستمر من ١٠ ـ ١٥ سنة» (٧٤) ·

اما شمعون بيريس فيدعو الى مشاركة الاردن في المفاوضات ، لانه لا يعتقد « ان مصر تستطيع القيام بدوره · ان من يستطيع القيام بهذا الدور هو م·ت·ف ، وهذا ما نريد منعه تماماً » (٧٥) · كذلك اعلن رئيس اللجنة الاقتصادية في الكنيست ان اي حل يتم التوصل اليه بشأن الضفة الغربية وغزة يجب ربطه بالاردن ، وذلك بعد اعادة جميع مناطق الضفة الغربية اليه باستثناء القدس الشرقية · « ان تسليم القدس الشرقية الى دولة عربية سيؤدي مع الوقت الى الاعلان عنها كعاصمة لدولة فلسطينية ، ومعنى ذلك صراع مستمر ومفتوح ، ودلالة على ان الموضوع الفلسطيني سيبقى من دون حل على مر الايام · واعتقد ان هذا هو اسبب الذي يجب من اجله ربط اي حل بشأن الضفة الغربية مع الاردن ، لكي تكون عمان عاصمة الدولة الواقعة شرقي اسرائيل » (٧٦) · وبهذه الطريقة ، يعتقد يعقوبي ان بالامكان حل القضية الفلسطينية « لان معظم سكان هذه الدولة من الفلسطينيين · وستكون لهم اغلبية في البرلمان ، ويستطيعون انتخاب رئيس حكومتهم · وليس هنالك اي سبب لعدم منح استقلال اداري معين لليهودية والسامرة وغزة ، اي ثلاثة اقضية تكون مرتبطة بتلك الدولة · ان ما يمنع الاردن من الموافقة على حل كهذا هو ليس عدم موافقته على قضية القدس الشرقية ، وانما عدم رغبته في ان يكون اول من يصل الى اتفاق مع اسرائيل ، وعدم توفر ظروف ملائمة لذلك ، لان ليس له مركز شرعي كشريك · واعتقد أن بالامكان الوصول الى حل لهذه المشكلة » (٧٧) ·

كذلك تحدث النائب نفتالي فيدر ( مبام ) حول التسوية الاقليمية مع الاردن بقوله : « ان ربط الضفة الغربية وقطاع غزة مع الاردن ، قد يمكن الشعب الفلسطيني من ان يجد في هذا الحل تعبيرا عن حقه في تقرير مصيره · ومع دولة كهذه ، يمكن الوصول الى تسوية حول تعديلات امنية في الحدود · وهذا هو الحل الوحيد ـ اذا كانت التعديلات في الحدود لاسباب امنية فقط ـ الذي لم يرفضه محاورونا من الطرف الاخر » (٧٨) · ويعتقد فيدر انالحل الشامل يجب ان يتم على مرحلتين، حيث ينضم الملك حسين الى المرحلة الثانية منه · « انني لا اوافق على الحل ··· الذي يقترحه بيغن ، لان عدم التنازل عن الحق في اي جزء من ارض ـ اسرائيل ، سيؤدي الى بانتوستان ، على غرار جنوب افريقيا ··· ان الحل الوظيفي ليس مرفوضا من اساسه ، اذا كان واضحا منذ البداية . انه مرحلة وسطى فقط ، ومبني كله على الارتباط مع الاردن · فالمرحلة الاولى من الحل يجب ان تكون اقامة حكم مدني ذاتي ، يهتم بجميع قضايا الضفة والقطاع ، باستثناء

قضايا الامن والسياسة الخارجية · وسيرتبط هذا الحكم مع الاردن او مع اسرائيل والاردن ، ولكن ليس مع اسرائيل وحدها · ومع ذلك يجب ان يكون واضحا ان ذلك ليس سوى مرحلة اولى في تسوية على مرحلتين ، حيث تشمل المرحلة الثانية انسحاب الجيش الاسرائيلي من معظم المناطق المحتفظ بها بأستثناء بعض التعديلات في الحدود المطلوبة امنيا فقط » (٧٩) · ويضيف فيدر موضحا : « ان امكانية تحقيق مثل هذا الاتفاق ··· ستدفع الملك حسين الى المشاركة في صياغته حتى منذ البداية · فهو لم يستطع المشاركة في حل حسب صيغة مشروع الون ، الذي كان سيسلبه ثلث الضفة الغربية في المستقبل· كذلك فانه لا يستطيع المشاركة في مشروع بيغن ، الذي يمنحه الاشتراك فقط في لجنة قضائية وفي منح جنسية لسكان الضفة الراغبين في ذلك » (٨٠) · ويبدو ان مبدأ المطالبة بالحل الوظيفي كحل وسط من جانب المعارضة ، له ما يبرره في الوقت الحاضر على الاقل · فزعماء المعراخ يدركون جيدا ان مشروع التسوية الاقليمية الذي عرض على الاردن خلال اتصالات سرية سابقة مع الملك حسين ، قد رفض اكثر من مرة من جانبه · لذلك طرحوا مبدأ القبول بالحل الوظيفي المقترح كحل وسط ، لعله يؤدي في النهاية الى مرحلة التقسيم التي يدعون اليها ·

ان احجام الملك حسين عن الموافقة على مشروع التسوية الاقليمية ، او مشروع الون، وتردده في الحاضر عن الانضمام الى المفاوضات الاسرائيلية المصرية ، يثير القلق لدى بعض الدوائر الاسرائيلية ، التي تعتبر ذلك « فشلا » للحلف التاريخي بين اسرائيل والاردن الذي « أبرمه » بن غوريون مع الملك عبد الله ، بهدف حل القضية الفلسطينية عن طريق اقتسام فلسطين بين اسرائيل والاردن · وقد تحدث حول هذا الموضوع الكاتب الاسرائيلي حفاي اشد ــ وهو احد المقربين من بن غوريون سابقا ــ بقوله : « ان وجود الاردن وامنه ارتكز طوال السنين على حلف خفي ، ولكن حقيقي ، بين الاردن واسرائيل · وبداية هذا الحلف في حرب ١٩٤٨ ومشروع السلام الذي وضعه بن غوريون مع الملك عبد الله ، الذي كان من المفروض ان يكون تتويجا لحرب الاستقلال [ اي حرب ١٩٤٨ ] ، وبموجبه كانت اسرائيل ستحصل ليس على الاستقلال فقط وانما على السلام والامن وحل عادل للمشكلة الفلسطينية في مجال المملكة الاردنية ·

« كانت هذه هي الاستراتيجية العسكرية والسياسية لادارة الحرب من قبل بن غوريون. من جهة اولى ، اخراج مصر من دائرة الحرب وتجريدها من معظم الاراضي التي احتلتها [ في فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ ] بواسطة الحسم العسكري · ومن جهة ثانية ، التوقيع على اتفاقية سلام مع الاردن ، من دون الانتصار عليه عسكريا ومن دون تجريده من الاراضي التي احتلها ··· ولكن لم يحدث هذا · وكما يذكر الجميع ، وقع اتفاق سلام بين اسرائيل والاردن برؤوس اقلام ، ولكن مقتل عبد الله منع التصديق عليه وتنفيذه · وبذلك منعت تسوية النزاع الاسرائيلي ــ العربي وبقيت جميع الجروح مفتوحة » (٨١) ·

ويضيف اشد انه « يمكن اعتبار مشروع الون وكأنه استمرار لمشروع بن غوريون ومحاولة لملاءمته لنتائج حرب ١٩٦٧ ولتأزم المشكلة الفلسطينية · ان الهدف من مشروع الون ، هو انهاء الحرب غير المنتهية ــ حرب الاستقلال ــ والوصول الى اتفاق سلام وامن مع الاردن ( وحكم ذاتي للفلسطينيين كأحدى المراحل لتحقيق مثل هذا الاتفاق ) حسب المفهوم الاساسي لبن غوريون · وعندما رفض الملك حسين مشروع الون ، كأساس لاتفاق سلام اسرائيلي ــ اردني ( فلسطيني ) ، وضع بذلك نهاية لحلف اسرائيلي ــ اردني كانت بدايته في اتفاق بن غوريون ــ عبد الله ، وقضى على فرص احيائه » (٨٢) ·

ومن هذا المنطلق ، واستنادا الى تلك الحقائق وغيرها ، انتقد بعضهم بشدة تركيز بيغن على معارضة « السيادة » الاردنية على الضفة الغربية ، باعتبار انها احتلت ولم «يعترف» احد « بالحقوق » الاردنية المترتبة على ذلك الاحتلال · وفي هذا الصدد كتب رئيس تحرير هآرتس : « من المستحسن ان يسأل بيغن نفسه اذا كانت اية دولة قد اعترفت بمناطق [ فلسطين ] الانتدابية ، التي احتلتها اسرائيل في حرب الاستقلال ، خارج حدود الدولة كما عينت في مشروع التقسيم الذي صدر عن الامم المتحدة ·

« ان اغلبية الدول الغربية اقامت هيئاتها الديبلوماسية في تل ابيب ، لانها حتى الان لم « تعترف » حتى بالقدس الغربية عاصمة لاسرائيل · والحقيقة هي ان اسرائيل قبلت كعضو في الامم المتحدة ، رغم انه لم تكن لها حدود دائمة وانما خطوط وقف النار فقط حسب اتفاقات الهدنة لعام ١٩٤٩ · ولكننا اعتبرنا عضويتنا في الامم المتحدة «كاعتراف». وخلال ١٩ سنة اعتبرنا هذه الخطوط وكأنها حدودنا · واذا كنا قد فسرنا عضويتنا في الامم المتحدة كاضافة شرعية على ما احتللناه سنة ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ( ايلات ) ، من المستحسن الا نتنكر لما احتله الاردن · وفي الحقيقة ، لقد قسمت [ فلسطين ] بين اسرائيل والاردن ، ولذلك ليس هناك اي طعم للتنديد بضم الضفة الغربية الى الاردن · واذا كنا عقلاء ، علينا ان نتوقف عن النظر الى حدودنا الشرقية وكأنها مسألة قانونية ، ونبدأ بالنظر اليها كمشكلة سياسية · هذا هو الاساس الوحيد الذي يمكننا الاعتماد عليه من اجل الحصول على تنازلات اقليمية من الاردن والفلسطينيين، وهي ضرورية لنا لسد حاجاتنا الامنية الحيوية » (٨٣ ) ·

## بين الاعتراف بحقوق الفلسطينيين والتنكر لها

ان المميز لمشروعي الحكم الذاتي والتسوية الاقليمية ـ الوظيفية هو رفض اية حقوق سياسية مستقلة للسكان الفلسطينيين في الضفة العربية وقطاع غزة · فحسب مشروع الحكم الذاتي يستطيع سكان تلك المناطق التعبير عن هويتهم ، حسب المفهوم الاسرائيلي لهذا التعبير ، في اطار المجلس الاداري المقترح اقامته ، اما السياسة الخارجية والامن فهي مسؤولية اسرائيلية بحتة · وحسب مشروع التسوية الاقليمية ـ الوظيفية ، يجب ان يرتبط هؤلاء السكان سياسيا بالاردن او بدولة « اردنية ـ فلسطينية » ، « ليستطيعوا ان يجدوا فيها تعبيرا عن هويتهم » · ويعتقد رابين ، مثلا ، انه بواسطة اشراك زعماء الضفة الغربية وقطاع غزة في المفاوضات مع الاردن ، وتخصيص وظائف ادارية لهم، تحت الاشراف السياسي الاردني ، يمكن منح سكان الضفة الغربية وغزة فرصة التعبير عن الذات (٨٤) · أي ان اقصى ما هو معروض على السكان الفلسطينيين في المناطق المحتلة هو اشراكهم في المفاوضات مع الاردن لربطهم سياسيا به ، حسب مشروع التسوية الاقليمية ، او التفاوض معهم بشأن تنظيم « الحياة المشتركة » مع اسرائيل ، مع تجنب اي بحث في مستقبلهم السياسي ، حسب مشروع الحكم الذاتي ·

غير ان هناك ، على الرغم من ذلك ، دوائر اسرائيلية معينة ، تعارض كلا من الحلين المقترحين لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة ، سواء كان الحكم الذاتي او كان الحل الاقليمي ـ الوظيفي ، لاعتقادها بعدم امكانية تحقيقهما ، بسبب عدم الرضا العالمي والعربي والفلسطيني على تلك المشاريع · فقد اعرب ، مثلا ، يهوشفاط هركابي عن رأيه في ان اسرائيل « لم تنجح في شرح خصوصية رفضنا الاعتراف بحق تقرير المصير

للفلسطينيين على انه رفض نابع من خطورة الموقف العربي تجاه اسرائيل . فقد تأخرنا في العمل على تغيير المناخ الدولي . لذلك فمن الواضح ان العالم اليوم لا يقبل بمطالب اسرائيل ... لذلك فأنني لا ارى الا ان تنسحب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ ، واذا استطاعت فلتتوصل الى شروط افضل في منطقة القدس » (٨٥) . اما الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة فلا يمكن الا ان يتحول مع مرور الوقت الى حكم عربي ، اذ لا يوجد اي بند في المعاهدة الدولية يمنع ذلك . « ان بيغن يقول أن قيام حكم عربي في الضفة يعني كارثة . لكن الضفة ستبقى عربية ، وسيقوم فيها حكم عربي ان آجلا او عاجلا . فالمبدأ الذي يسود الاجواء السياسية في هذا العصر هو انه لا يحق لاي شعب ان يحكم شعبا آخر ، ولا يجوز حرمان جمهور كبير من حق تقرير المصير . والضفة الغربية لن تكون شاذة عن القاعدة المذكورة ، الا اذا افرغت من سكانها العرب ، واستبدلوا بيهود يسكنون بيوتهم ، وهذا عمل لا نستطيع القيام به . ومن دون ذلك فأن الاستيطان اليهودي في الضفة لا جدوى منه ، وهو بالشكل الحالي ، كأنه غير قائم » (٨٦) .

ويشارك حركابي في رأيه هذا الدكتور تسفي هدار ، بقوله : « يعيش في الضفة الغربية منذ اجيال طويلة سكان عرب ، يعتبروننا محتلا غريبا ، ولا يرغبون في سيطرتنا عليهم . ان حقوقنا في المناطق التي يعيش فيها اولئك السكان ، مهما كانت عادلة حسب رأينا ، يجب ان تنبع من مبدأ اساسي بسيط ... وهو انه لا يمكن تبرير سيطرة شعب واحد على آخرين خلافا لرغبتهم ، ولا يمكن تبرير اضطهادهم وسلبهم . وفي هذا المجال ، ليست هنالك اهمية اذا كنا سنعيد الضفة الغربية الى المملكة الاردنية ، او اذا قامت فيها دولة جديدة ، وليس هنالك مكان للادعاء بأن للعرب دولا كثيرا ،ولدينا واحدة فقط ، او ان الشعب الفلسطيني ليس له وجود . كذلك ليس هنالك اهمية للرأي القائل بأن المملكة الاردنية ليس لها اي حق في الضفة الغربية وانها خرقت القانون الدولي في حكمها لهذه المناطق . وان الانتداب الذي منحته عصبة الامم لبريطانيا من اجل اقامة وطن قومي لليهود، يشمل هذه المناطق ايضا . وحتى اذا لم يكن للمملكة الاردنية اي حق في الضفة الغربية. فأن حقنا ليس افضل من حقها ، لانه يعارض رغبة السكان المحليين ، ويمكن ممارسته بالارغام فقط . كذلك فأن قرارات عصبة الامم التي منحت لصالح الشعب اليهودي ، بعد الحرب العالمية الاولى ، ليست أساسا قويا لتبرير حق اسرائيل في هذه المناطق . لان القرارات اللاحقة التي صدرت عن الامم المتحدة ، تناقض ذلك » (٨٧) .

انطلاقا من هذه الاراء ، بدأت تطلق ايضا بعض الدعوات المحدودة ، الداعية للقبول بدولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع عزة ، شرط « ان تعيش بسلام مع اسرائيل » . والواضح ان هذه الجهات لا تهمها المصلحة الفلسطينية بقدر ما يحركها الخوف من تطور القضية الفلسطينية في المستقبل بشكل قد يسيء لاسرائيل ، بسبب تجاهلها للواقع السياسي المتغير في العالم . وفي هذا الصدد كتب ، مثلا ، دافيد هكوهين : « اذا كان بيغن يؤمن حقا بتسوية سلمية في حدود ارض ـ اسرائيل كما كانت خلال حكم الملك سليمان قبل ثلاثة آلاف سنة ، بواسطة استيطان هذه المناطق ، فمن الواضح انه لا يعيش الواقع السياسي العالمي الذي نعتبر جزءا صغيرا منه . كيف يستطيع رئيس الحكومة ان يكون اعمى واصم بالنسبة لما يحدث في قارتي آسيا وافريقيا التي يفوق عدد سكانها نصف البشرية ، بينهم مئات الملايين من المسلمين ، وضمن هؤلاء مائة مليون عربي . تحولت قوتهم العسكرية ، ووزنهم السياسي وقوتهم الاقتصادية ، خلال الثلاثين سنة الاخيرة ، الى حقيقة لم يتوقعها واضعو اسس الحركة الصهيونية مقيمو دولة اسرائيل .

ولو بكرت قوة العرب هذه في التبلور خمسا وثلاثين سنة فقط ، لكان هناك شك كبير حول احتمال قيام الدولة اليهودية » (٨٨) · وعاد هكوهين وكرر ما كان قد اعلنه سابقا : « لسنا نحن الذين يجب ان نقرر اذا كانت هناك شخصية فلسطينية ام لا · ان العرب الذين يعيشون في المناطق ، هم اصحاب الحق في ان يقرروا من هم وماذا يريدون، سواء بالنسبة لشخصيتهم او لانتخاب زعمائهم · ينبغي عدم الاعتقاد باننا سنفرض عليهم الى الابد الملك حسين وحكومته ، ونتجاهل رغبتهم واختيارهم الديموقراطي للتغييرات في انظمة الحكم فيدولتهم · ان هذه الدولة ··· ستقوم بالطبع ، بعد ضمان كل شروط السلام بيننا وبينها · وكمن يعارض دولة ثنائية القومية ، ويتطلع الى ارض ـ اسرائيل يهودية في طابعها ، حتى وان كان ذلك لاسباب ديموغرافية ملموسة وخطيرة ، فانني افضل دولة عربية مجاورة ونابلس داخلها ، على اسرائيل الواسعة والعرب داخلها » (٨٩) ·

كذلك تطرق الدكتور رفائيل براكان الى مسألة حق تقرير المصير للفلسطينيين ، حتى وان ادى ذلك الى قيام دولة فلسطينية ، مؤكدا : « ان الفلسطينيين يشكلون اكثرية سواء في الضفة الغربية او في الضفة الشرقية من الاردن ، لذلك ، فان حق تقرير المصير للفلسطينيين يجب ان يمنح في الضفتين · الا ان هذا الامر مرتبط بمشكلتين : اولا ـ ماذا سيحل بالعنصر البدوي في شرقي الاردن ، وهل يمكن تحقيق العدل للشعب الفلسطيني على حساب الشق الاخر من السكان هنالك ( تقريبا كما ندعي ذلك لانفسنا ) ؟ ثانيا ـ من الاسهل على المنظمات الفلسطينية قيام نظام حكم غير فلسطيني في شرقي الاردن ··· اذ انه بهذه الطريقة يسهل عليها الادعاء ان الفلسطينيين لا يملكون قطعة ارض خارج فلسطين ، وبذلك يمكن التهرب من المسؤولية السياسية والاختباء في ظل ظروف سهلة · عمليا ، تتمثل في حركة تحرير لشعب محروم من الاستقلال والسيادة ·

« كذلك فان الجهات السياسية الاساسية القائمة اليوم في اسرائيل تفضل وجود الاردن ، اذ انها بذلك تستطيع البحث مع دولة قائمة ··· الا انها بهذه الطريقة لا تستطيع حل المشكلة الفلسطينية ··· ان حقيقة الوضع القائم اليوم ، هو ان الاغلبية الساحقة من الشعب الفلسطيني ترغب في اقامة دولة ثالثة · ورغم الصعوبات التي يمكن ان تنجم عن ذلك ، لن يكون هناك خيار آخر سوى احترام هذه الرغبة ···» (٩٠)

غير انه لا بد من التشديد على ان هذه الاراء ، التي تطالب بقيام دولة فلسطينية مستقلة ، ما زالت محدودة جدا في اسرائيل ، وتكاد تكون مقتصرة على افراد او بعض المجموعات الصغيرة للغاية · كما ان تطورها يتوقف على مستقبل النضال الفلسطيني من جهة ، وتمسك الفلسطينيين برفض اية حلول اخرى بعيدة عن الاعتراف بحقهم في تقرير مصيرهم ، واقامة دولتهم المستقلة من جهة اخرى ·

## الجبهة الشرقية هي الاخطر

رغم التصريحات والتلميحات التي صدرت عن السادات ، منذ زيارته للقدس ، او غيره بهدف الايحاء صراحة وضمنا ، كأنه ليس لدى العالم العربي عامة والمشرق خاصة ، في نهاية الامر ، الا اتباع الطريق الذي تختاره مصر ، حتى عندما يتعلق الامر بالتسوية في المنطقة ، تشير مواقف الاسرائيليين وردود فعلهم الى انهم ليسوا على استعداد للاتكال على هذه الفرضية ، ويحسبون للجبهة الشرقية حسابها ، ان لم يكن حاضرا ، ففي المستقبل على الاقل · وتؤثر اعتبارات الاسرائيليين هذه ، على موقفهم من التسوية مع

مصر ، ان قبل السادات بذلك او لم يقبل به ٠

تبدي اسرائيل الان اهتماما كبيرا بالجبهة الشرقية ، باعتبارها الجبهة الوحيدة التي لا تزال واقفة في وجهها ، بعدما اقدم السادات على « تجميد » الجبهة الجنوبية ، اثر زيارته للقدس واعلانه الشهير « لا حروب بعد الآن » ٠ وان كانت اسرائيل لا تبدي ثقة كبيرة بتصريحات السادات هذه ، معتبرة ان سببها الرئيسي ليس الرغبة في السلام ، بل ضعف الجيش المصري ، وعدم استعادته قوته كاملة بعد حرب تشرين « بسبب الحظر السوفييتي على الاسلحة » فانها لا تزال تبدي اهتماما بالجبهة المصرية ، وخصوصا احتمالات تأثيرها على اية حرب قد تنشب في المستقبل على الجبهة الشرقية ٠ « ان التهديد الحقيقي لاسرائيل موجه اليوم من قبل الدول التي تحدنا من الشرق ٠ لذلك حتى اذا تحقق اتفاق مع مصر ، على اسرائيل الاستمرار بتجهيز نفسها لمواجهة ممكنة على الجبهة الشرقية ٠ وتملك هذه الجبهة التي تضم اليوم العراق والاردن وسوريا ، وربما السعودية ايضا ، قوة عسكرية تزيد على ضعفي قوة مصر ، وتشمل حسب المعلومات الغربية ، اكثر من ٢٠ فرقة ٠

« وثمة من يعتقد ، ان في حال تحرك هذه الجبهة نحو المواجهة مع اسرائيل ، سيصعب كثيرا على مصر الوقوف موقف المتفرج ٠ ولكن حتى اذا اكتفت [ مصر ] بالقيام بتحرك [ عسكري ] « رمزي » ، مثل تسميك خطوطها والقيام بمناورات مختلفة ، فانها ستضطر اسرائيل الى توجيه قوات كبيرة نحو القطاع الجنوبي ، وبذلك تقلل بمدى كبير من قدرتها على الحسم في الجبهة الشرقية ، بشكل سريع وواضح » (٩١) ٠

وكان رئيس الاركان الاسرائيلي الجديد رفائيل ايتان قد اعلن ، اثر تعيينه ، « ان الجبهة الشرقية تحولت الى اخطر جبهة منذ حرب يوم الغفران ، وذلك لسببين ٠٠ اولهما القوة العسكرية التي تملكها ، وثانيهما ، عدم وجود مجالات [ للمناورة ] امام اسرائيل، كما هو الوضع بالنسبة لسيناء ٠

« وينبغي ان تضاف السعودية ايضا الى الاطراف الاساسية في تلك الجبهة ، نظرا للجهد العسكري غير المحدود الذي تستطيع بذله ٠ فالسعودية تستطيع اليوم شراء واقامة وانتاج كل ما ترغب فيه ، دون حدود ، حتى الطاقة البشرية ٠٠٠ وينبغي اعتبار العراق [ ايضا ] دولة مواجهة يسرها الانضمام الى أي حرب ضد اسرائيل ، كما فعلت ذلك في الماضي ٠ كذلك فأن الاردن « لا يقف في الظل » كما يعتقد البعض ، ولديه جيش حديث مزود باسلحة غربية جديدة ، ويزيد من قوته بسرعة هائلة » (٩٢) ٠

ان احتمالات المواجهة على الجبهة الشرقية بين اسرئيل ودول المشرق العربي ما زالت قائمة ، وليس هناك اي دليل على حدوث تغيير في هذا الوضع خلال المستقبل القريب ٠ فحكومة اسرائيل لم تقدم ية مقترحات بشأن مصير هضبة الجولان ، ومشروع بيغن للسلام خال من اية اشارة الى تلك المنطقة ، مما قد يدل على الرغبة في ضمها نهائيا الى اسرائيل ، حينما تشعر ان الوقت ملائم لذلك ٠ وفي هده الاثناء تقوم السلطات الاسرائيلية بتنشيط الاستيطان في هضبة الجولان حيث انشأت حتى الان ٢٥ مستوطنة هناك ، يسكنها نحو ٤ آلاف اسرائيلي ٠ كما تم استصلاح ١٦٠ الف دونم من مجموع مليون ونصف المليون دونم في الهضبة ، من أجل فلاحتها ٠ وقد استثمرت اسرائيل خلال السنوات العشر الماضية نحو ملياري ليرة في مشاريع التطوير بواسطة دائرة الاستيطان في المنظمة الصهيونية ، والاجهزة الاسرائيلية المختلفة ، ودائرة البناء القروي ، والمستوطنات

الجديدة (٩٣) · وتخطط اسرائيل الآن لتطوير مستوطنة « كنسرين » في الهضبة وتحويلها الى مدينة كبيرة ، حيث « سيتم حتى عام ١٩٧٨ استثمار مائة مليون ليرة من ميزانية وزارة الاسكان » (٩٤) لتلك الغاية ·

وتعتبر اسرائيل هضبة الجولان بمثابة خط امامي للدفاع عن مستوطنات الجليل والحولة وتأمين السيطرة على مصادر مياه الاردن · الا ان ذلك لا يبرر عملية تنشيط الاستيطان في الهضبة ، اذ ، ما هو الخط الامامي الذي سيدافع عن مستوطنات الجولان في حال نشوب حرب على هذه الجبهة ، خصوصا وان حرب ١٩٧٣ برهنت عدم جدوى هذه المستوطنات في مواجهة اي هجوم عسكري كبير ؟· ويبدو ان أسرائيل تعلمت هذا الدرس جيدا ، وعملت على تحويل مستوطناتها في الهضبة الى قلاع عسكرية ، وهو ما اشار اليه رئيس الاركان الاسرائيلي ايتان بقوله : « لو كانت مستوطنات الجولان [ سنة ١٩٧٣ ] ، كما هي اليوم مدربة ومسلحة جيدا ، لما كانت هناك حاجة الى اخلاء سكانها »(٩٥) الا انه يبدو ان هذا الادعاء لا يقنع كثيرين داخل اسرائيل « فمستوطنات هضبة الجولان ، مثلا ، تضررت من حرب [ الفدائيين ] ، اكثر مما قاومتهم ، وكانت هناك حاجة للدفاع عنها امامهم» (٩٦) · وما دامت هذه المستوطنات لا تستطيع التصدي للفدائيين ، فكيف يمكنها التصدي لهجوم عسكري شامل · ان ضم الهضبة هو ، اذن ، الهدف الاساسي من وراء عملية تنشيط الاستيطان ، وليس « المساهمة في حفظ الامن الجاري » او « الدفاع عن الهضبة في حالة هجوم عسكري » . وفقا للمزاعم الاسرائيلية · وعلى اي حال ، لم تستأثر قضية الاستيطان في الهضبة بأي اهتمام او بحث خاص ، اثناء المفاوضات السياسية مع مصر ، حيث تركز النقاش حول مستوطنات سيناء والضفة الغربية · الا ان النتيجة العملية التي يمكن استخلاصها من هذا النقاش ، هو : اذا كانت اسرائيل تبدي كل ذلك الاصرار بشأن الاحتفاظ بمستوطنات سيناء البعيدة كل البعد عن المراكز السكنية، في اسرائيل ، فماذا سيكون موقفها بشأن مستوطنات الجولان في أية مفاوضات محتملة قد تجري في المستقبل حول هذه المنطقة ؟

ويلاحظ ، من خلال النقاش الدائر حول مفاهيم التسوية الاسرائيلية ، ان الاهتمام الاسرائيلي بشأن الاحتفالات المتوقعة في أية حرب قد تنشب على الجبهة الشرقية ، ينصب على بعض النواحي الاساسية التي تعتبرها اسرائيل نقاط ضعف في موقفها عامة على هذه الجبهة ، واولها في المجال العسكري البحت · فليس لدى اسرائيل ، على الجبهة الشرقية، مجالات مناورة واسعة ، بعيدة عن تجمعاتها السكنية ، كما هي الحال في سيناء ، وأية مجابهة عسكرية في المستقبل ، ستؤدي الى تعرض سكانها بصورة كثيفة لعمليات القصف والتدمير · وينطبق هذا الامر على الضفة الغربية ، كما على هضبة الجولان . « فالمستوطنات اليهودية مكشوفة والحرب تندلع رأسا في داخلها ··· والمسألة ليست مصير المستوطنات في الهضبة ، وانما قبل كل شيء مستوطنات سهل الحولة والجليل ومصادر المياه الاسرائيلية · وقد زادت هذه المشكلة تأزما بعد دخول الجيش السوري الى لبنان وفتح جبهة جديدة ··· على طول هذه الحدود ، وكذلك بسبب ازدياد قوة الجيش العراقي الذي ينبغي اعتباره احتياطا للسوريين في حالة الحرب » (٩٧) ·

وربما يكون الحل الوحيد لنقطة الضعف هذه هو استخدام اسلوب الحرب الخاطفة · وكان احد « المنظرين » العسكريين الاسرائيليين ، العميد ( احتياط ) يسرائيل كال ، قد علق على هذه الناحية بقوله : « في ظروف منطقتنا ، باستطاعة كل من يتمتع بتفوق كمي السماح لنفسه بخوض معركة دفاعية · ومن لا يتمتع [ بذلك ] ، لا يستطيع ان يسمح

لنفسه بهذا الشيء الفخم : على القلة التي تتبنى لنفسها مبدأ توجيه الضربة الاولى وادارة حرب هجومية ، لا دفاعية ··· [ وفي مجابهة ] بين القلة مقابل الكثرة ··· قد تكون الظروف غير مواتية لنا على جميع الجبهات لادارة دفاع مرن · لذلك يحتمل ان نصل الى اوضاع لن يكون امامنا بديل آخر سوى الهجوم » (٩٨) ·

ومهما تكن نتائج الحرب الخاطفة او امكانات شنها ، فمن الواضح ان من يفكر في هذا الاتجاه لا يوافق على تسوية تدعو الى الانسحاب من المناطق المحتلة · وفي هذا الصدد يصر الخبراء العسكريون في اسرائيل على مفهومهم ــ رغم ظهور عدة تفسيرات تناقض ذلك ــ بأن الاسلحة الحديثة التي يملكها العرب واسرائيل ، في آن واحد ، لا تغني عن الاحتفاظ بالمناطق المحتلة ، او تبرر التخلي عن سياسة الحدود الآمنة ، وقد اعلن رئيس الاركان الاسرائيلي السابق مردخاي غور « انه كلما كانت الاسلحة اكثر تطورا ، تزداد قيمة الارض · ان الذين يدعون العكس يفترضون انه بالامكان حسم الحرب بواسطة الصواريخ العابرة للقارات او الصواريخ بعيدة المدى ، وبواسطة القصف الجوي من طائرات ذات قدرة توغل عالية · ان هذا الافتراض خاطىء لان الحسم في المعركة يمكن تحقيقه فقط بواسطة حركة نشيطة للاسلحة البرية ، واحتلال منطقة او توجيه ضربة قاضية لجيش العدو · أن هذين الامرين يظهران اهمية الارض كافضلية عليا ··· ومقابل تضخم الجيوش العربية بالمعدات المتطورة ، ثمة اهمية كبيرة جدا لعمق استراتيجي بري لاسرائيل يمكنها بواسطته صد اي هجوم من دون تعريض مركز البلد للخطر » (٩٩) ·

اما المعلق العسكري زئيف شيف ، فقد اوضح اصرار اسرائيل على موقفها بقوله : « من ناحية اسرائيل ، اذا نظرنا الى الامر من الوجهة الدفاعية ، فان دور المناطق [ المحتلة ] هو منع العرب ، المزودين اليوم بكميات ضخمة من الاسلحة الحديثة ، من امكانية دحر اسرائيل بسرعة ، او امكانية تحقيق اهداف استراتيجية في المرحلة الاولى من الحرب · ان هذا الهدف لا يتغير حتى عندما يكون في حوزة احد الاطراف ، او الطرفين ، صواريخ بعيدة المدى ، وحتى اذا كانوا مزودين بأسلحة ذرية ايضا · ان صواريخ ارض ــ ارض ذات الرؤوس التقليدية ، لا تحسم الحرب ، حتى اذا سقطت مئات منها ·· على المدن الاسرائيلية : كما ان عمليات قصف سلاح الجو الاسرائيلي لا تحسم الحرب ، حتى اذا افرغت مئات الاطنان من القنابل على المدن العربية ·

« وكما شاهدنا في حرب الايام الستة ، وحروب كثيرة اخرى ، فأن الكتل المدرعة هي التي تحسم الحرب ··· وبعبارة اخرى ، ان الاندفاع السريع لكتل المدرعات العربية عندما يكون البعد بينه وبين المراكز الاستراتيجية ومراكز السكان صغيرا جدا ، هو ما يشكل خطرا على اسرائيل· وصواريخ ارض ــ ارض ···لا تقلل من قيمة الارض في هذه الحالة·· وانما على العكس ، تزيد من اهميتها ( في هضبة الجولان وكل مكان آخر )» (١٠٠) · والواضح على كل حال ، ان الاحتفاظ بالمناطق المحتلة ، في مفاهيم الرأي العام « الامني » الاسرائيلي ــ ان صح التعبير ــ هام جدا بالنسبة لاسرائيل ، لانه يمنحها في الدرجة الاولى الوقت الكافي لتجنيد احتياطها ، الذي يشكل العمود الفقري لجيشها · فالمناطق المحتلة تمكن اسرائيل من امتصاص الضربة الاولى ، ثم نقل المعركة الى مناطق العرب · وكانت هذه هي استراتيجيتها على اي حال ، خلال الحروب الماضية · وعبر احدهم عن هذا الرأي بقوله : « ان الارض ·· ليست من غير اهمية · على العكس يجب ان تتوفر الارض، من اجل ان نحظى بالوقت ، لتمكين قوات احتياط الجيش الاسرائيلي من تجنيد نفسها والاستعداد للدفاع · يمكن كسب الوقت احيانا مقابل الارض ، وهذا الوقت مفيد ايضا

للحليف من اجل تقديم المساعدة بأية وسيلة كانت · صحيح ان الوقت لا يترجم دائما بالكيلومترات ولكن من دون ارض ومن دون عمق استراتيجي ، لن يكون للمدافع وقت لاي شيء ··· ومن يقترح على اسرائيل كسب الوقت بواسطة الاستخبارات ، فمن الافضل توجيهه الى الدرس الاساسي الذي استخلصناه من حرب [ تشرين ] حول مصداقية الانذار » (١٠١) ·

وباختصار ، ما دامت اسرائيل تفكر في مزيد من الحروب مع العرب ، وتستعد لها ، لا يبدو ان هناك فائدة كبيرة من محاولة اقناعها بالانسحاب من المناطق المحتلة في سنة ١٩٦٧ ، لان استراتيجيتها العسكرية في اية حرب مقبلة ، مبنية اساسا على الانطلاق من هذه المناطق ·

## لا حلف مع اميركا

منذ ان قام السادات بمبادرته ، ازدادت حدة النقاش ــ الذي كان قد بدأ ، على كل حال ، قبل ذلك ــ في اسرائيل ، حول«الازمة » في العلاقات الاسرائيلية ــ الاميركية اثر الاختلاف الذي ظهر في وجهات النظر بين الطرفين بشأن بعض القضايا المتعلقة بالتسوية السياسية ، التي تدور المفاوضات حولها بين اسرائيل ومصر والولايات المتحدة· ويلاحظ ان هذا الاختلاف ظهر حول مسألتين اساسيتين : الانسحاب الاسرائيلي من الضفة الغربية ، الذي ترفضه حكومة بيغن كليا ، معتبرة اياه بمثابة تنازل عن جزء من « ارض ــ اسرائيل التاريخية » ، ثم مسألة الاستيطان ومصير المستوطنات الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، التي تعتبرها الولايات المتحدة « ضارة » بمجرى المفاوضات « وعقبة » في طريق السلام ، بينما تستمر حكومة بيغن في تعزيزها واقامة المزيد منها · ومع تشعب الحديث عن « الازمة » ، طرحت ايضا مسألة حلف دفاعي بين اسرائيل والولايات المتحدة ، للاسراع في تنفيذ عملية التسوية وتشجيع اسرائيل على الانسحاب من « مناطق محتلة » ، ومنذ ذلك الوقت اختلط الحديث عن « الازمة » والحلف بعضه بالبعض الآخر ·

يتحدث رئيس الحكومة السابق يتسحاق رابين ــ ورابين يتحدث من خلال اعتباره نفسه « خبيرا » في الشؤون الاميركية ، وموقف أميركا من اسرائيل ، منذ ان شغل منصب السفير الاسرائيلي في واشنطن لمدة ٥ سنوات بعد حرب ١٩٦٧ ــ حول اسباب « الازمة » الحالية بقوله : « ليس لدي شك ان السبب الاساسي للتغيير في الاجواء ، ناجم عن موقف ادارة كارتر · لقد ادى موقف رئيس الولايات المتحدة هذا الى تغيير السياسة الاميركية تجاه الشرق الاوسط ، مقابل المواقف التي اتخذت في عهود الرؤساء السابقين ، جونسون ونيكسون وفورد · لقد ظهر الانحراف الاساسي في مواقف الادارة الحالية ، حتى قبل مجيء حكومة بيغن ·

« فالرئيس جونسون ، في خطابه في تاريخ ١٩ حزيران ١٩٦٧ ··· وضع مبدأ موجها في السياسة الاميركية تجاه هذا الجزء من العالم ··· بقوله ··· « يجب ان تكون اطراف النزاع هي التي تصنع السلام » · ونتيجة لذلك ، امتنعت الادارات الاميركية في الماضي عن وضع مشروع اميركي مفصل لحل النزاع · ورغم انه ــ ويجب عدم تجاهل ذلك ــ وضع ، في سنة ١٩٦٩ ، المشروع المعروف باسم مشروع روجرز ، لم يأخذ الرئيس الاميركي نيكسون على عاتقه في ذلك الوقت ، اي التزام شخصي تجاهه ، وبذلك سهل على اسرائيل ، محاربته وتجميده ·

« ومنذ سنة ١٩٦٩ . لم تتخذ الولايات المتحدة ، في ولايتي نيكسون وفورد ، اي موقف رئاسي علني بشأن التفاصيل الاساسية في مشروع سلام اسرائيلي ـ عربي ، ولقد انحرف الرئيس كارتر عن هذا المبدأ الذي وجه اسلافه ، فاعلن شخصيا ، وعلنا ، انه يجب على اسرائيل الانسحاب الى الخطوط التي كانت قائمة قبل حرب الايام الستة ، مع تغييرات طفيفة ··· واذا لم يكن هذا كافيا ، فقد أعلن كارتر أيضا في ١٨ اذار ١٩٧٧ ··· عن « وطن للفلسطينيين » · وهذا انحراف ذو مدلول خطير جدا ، عن اي موقف اتبعه الحكم الاميركي حتى الآن حول هذا الموضوع » (١٠٢) ·

واذا كان رابين يعتبر ان التغيير في السياسة الاميركية تجاه اسرائيل ، ناتج في الاساس عن تغيير موقف الادارة الاميركية ، وانحرافها عن المواقف السابقة ، فأن بيريس يرى ان هذا امر لا يمكن ان يتم بمعزل عن التطورات لدى الرأي العام الاميركي ،والمصالح الاميركية الاسرائيليةالمشتركة · يقول بيريس : « ينبغي ان نميز ، في شبكة علاقاتنا مع الولايات المتحدة ، بين ثلاثة مستويات مختلفة : الاول يتعلق بشبكة العلاقات بين الادارة الاميركية وحكومة اسرائيل . والثاني بين مجمل الانتماءات لدى الرأي العام الاميركي والرأي العام الاسرائيلي . اما الثالث فيشمل مجمل المصالح المشتركة للولايات المتحدة واسرائيل وقد طرأ تشويش على هذه المجالات الثلاثة ···

« وقد بدأ التدهور مع موضوع الاستيطان ، حيث اتخذت حكومة اسرائيل موقف الدفاع عن النفس ··· ولا يقل خطورة ايضا موضوع نظرتنا الى قرار مجلس الامن ٢٤٢ ··· والحقيقة هي ، كما سمعتها من اصحاب مناصب عليا في الادارة الاميركية ، ان الموضوع ليس فقط القرار ٢٤٢ ، وانما استعداد اسرائيل المبدئي ، لتقديم تنازلات اقليمية في الضفة الغربية · وهذا ، من خلال التفهم والموافقة على اننا لسنا ملزمين ، بالضرورة ، للعودة الى حدود ١٩٦٧ ، لانه يحق لنا المطالبة بحدود قابلة للدفاع ، ويعترف بحق اسرائيل في التواجد العسكري في الضفة الغربية ··· وخلال المناقشات التي دارت بيننا وبين الادارة ، تمتعت اسرائيل دوما بتأييد واسع وعميق من جانب الرأي العام الاميركي · الا انه في الفترة الاخيرة ، حدث تحول خطير في الرأي العام ، حيث بدأ السادات يتقدم ، واسرائيل تجني الخسارة ، ونتائج استفتاءات الرأي العام تبين ذلك بوضوح ·· »

ويضيف رابين : « اما بالنسبة للمستوى الثالث ·· فقد تقرر هو ايضا بسببنا ··· حتى ان احد كبار الناطقين في الولايات المتحدة اعلن امامي ، انه ليس متأكدا ابدا اذا كانت مصالح اميركا مرتبطة بالضرورة بمصالح اسرائيل · والحقيقة معكوسة بالطبع : ان مركز الولايات المتحدة قوي في الشرق الاوسط نتيجة علاقاتها مع اسرئيل · ومن بين اسباب ضعف مركز الاتحاد السوفييتي في الشرق الاوسط ، ايقاف علاقاتها مع اسرائيل ايضا ··· ان مركز الولايات المتحدة في الشرق الاوسط ، هو في الحقيقة ، أقوى من مركزها في « القرن الافريقي » او في جنوب شرق آسيا · والسبب ، بوجه خاص ، هو وجود اسرائيل في منطقتنا ···

« ان هذه المجالات الثلاث تتحد في قناع واحد : فالمصلحة الاميركية تشمل ايضا موقف الرأي العام الاميركي ، والادارة تستغل صلاحيتها وتبلور مواقفها بعد اخذها بالاعتبار هذين المجالين ··· » (١٠٣) الا ان بيريس لم يتطرق في حديثه هذا الى دور الانظمة العربية الموالية للغرب ، في دعم مركز الولايات المتحدة في الشرق الاوسط ، وهو الدور الذي يبدو انه ادى ايضا الى تغيير ما في المفاهيم الاميركية ازاء مصالحها في المنطقة .

مما ينعكس على اسرائيل بوجه خاص · وعلى كل حال ، لا زالت اسرائيل متمسكة بمقولاتها السابقة حول ترابط مصالحها مع المصلحة الاميركية في المنطقة ، باعتبارها « صرح الديمقراطية » والقوة الوحيدة التي تستطيع منع « التوغل الشيوعي» في المنطقة · وقد اعلن ، مثلا ، رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست موشي ارنس ( ليكود ) ان المصالح الاميركية في المنطقة « لا تتناقض ابدا مع مصالحنا الاساسية · ما هي هذه المصالح ؟ ان الولايات المتحدة مهتمة بوجود اسرائيل قوية ، لان دولة اسرائيل عضوة في مجموعة الدول الغربية الديمقراطية ، وهي المجموعة الآخذة بالتقلص ، خاصة بسبب الخوف من صعود الشيوعية في اوروبا الغربية · ومساهمة اسرائيل في المصالح الاميركية مهمة جدا ، لانها تملك القوة ـ من ناحية عسكرية وثقافية وحضارية ـ في هذا الجزء من العالم ، وايضا ، زيادة نفوذها في العالم العربي ، اثر تعلقها المتزايد بالنفط · وهذه هي مصالحنا تماما · ان النقاش بيننا وبين الولايات المتحدة لا يرتكز اذن على تناقض في المصالح ، وانما مع الاجراءات التكتيكية التي ستؤدي الى تحقيقها · وهكذا فأن بعض الاجراءات التي تبدو مفيدة من اجل تحقيق مصلحة ما ، ··· تؤدي الى تحقيق مصلحة اخرى · ويبرز هذا الامر ، بشكل خاص ، في مجال علاقات الولايات المتحدة مع الدول العربية : بما ان الولايات المتحدة لا تستطيع منح العرب الاموال ، لانهم يملكون الكثير منها ··· فأن ما تستطيع صنعه من اجل استمالتهم هو البرهنة لهم ، انها تستطيع الحصول على تنازلات من اسرائيل ، خلافا للاتحاد السوفييتي ··· ان النقاش بيننا وبين الولايات المتحدة ، يدور اذن في الاساس ، حول مستوى الاخطار المحتملة · وليس عجيبا انهم مستعدون للمخاطرة كثيرا على حسابنا : فامكانية سقوط اعداد من القتلى الاسرائيليين في الحرب القادمة ، لا تؤثر عليهم ، كما تؤثر علينا · وتزويد الطائرات لمصر والسعودية هو ايضا جزء من الخلاف حول مستوى الاخطار المحدقة باسرائيل ، فالطائرات والخبرة التقنية الاميركية الممنوحة لمصر تحدث تغييرا في معادلة ميزان القوى في المنطقة · ويشكل هذا الامر حافزا سلبيا لاستمرار المفاوضات المباشرة، لان احد دوافع خطوة السادات هو ادراكه ، انه لا يملك خيارا عسكريا ضدنا » (١٠٤)· ويلاحظ ان اصحاب مفهوم « المصالح المشتركة » « والخلافات التكتيكية » لا يبالون بالقيام بأي مواجهة مع الولايات المتحدة ، حفاظا على « مصالح اسرائيل واميركا » حسب مفهومهم الخاص بهم · « والحقيقة هي ان اصحاب هذا المفهوم غير متأكدين تماما فيما اذا كان مستقبل اسرائيل مضمونا الى الابد ، في حال تخلي الولايات المتحدة عن تأييدنا· الا انهم مقتنعون ان الولايات المتحدة في حاجة الينا اكثر من حاجتنا اليها · انهم يخصصون لاسرائيل مكانا هاما في الجبهة المعادية للسوفييت ويعتقدون انه لو تجرأنا فقط واطلعنا الجمهور الاميركي على قيمة اسرائيل الجغرافية ووزنها العسكري ، فسنحقق في النهاية استمرار تأييد الحكم الاميركي · واذا لم نحصل على تأييد « لارض اسرائيل الكاملة » ، فسنحصل على الاقل على تأييد لدولة اسرائيل التي تعترف صراحة انها ترغب في السلام من دون التخلي عن اليهودية والسامرة وغزة ·

« ان رئيس الحكومة الحالي يريد السير بنا على هذه الطريق ، وهذا هو معنى سياسته · كما ان حركته [ حيروت ] تتماثل معه · كذلك تؤيده عناصر معروفة داخل حزب الاحرار وجزء من الجمهور المتدين » (١٠٥) ·

وعلى هذه الارضية يدور النقاش حول عقد حلف دفاعي بين اسرائيل والولايات المتحدة

من خلال اتجاه عام مؤيد لرفض مثل ذلك الحلف · فقد علق رابين ، مثلا ، على ذلك الاقتراح بقوله : « انه يمكن عرض هذاالموضوع من نواح كثيرة ـ سياسية وعسكرية واخلاقية · انني ارى فيه نواح سلبية فقط · وما هي اهمية حلف دفاعي كهذا ؟ للولايات المتحدة احلاف دفاعية مع دول كثيرة في انحاء العالم · وما يميز هذه الاحلاف المشتركة هو الوقوف مقابل تهديد عسكري سوفييتي او صيني مباشر ··· ان الشرط الاساسي لقيام حلف دفاعي كهذا من جانب الولايات المتحدة هو واحد فقط : رفض حرية العمل العسكري والسياسي للدولة الحليفة · ومن ناحية الولايات المتحدة ، عليها ان ترسل قوات عسكرية للدفاع عن حليفتها ، اثناء اي هجوم عليها ··· واذا حدث حقا حلف دفاعي بين اسرائيل والولايات المتحدة ، سيؤدي هذا الى منعنا من حرية العمل السياسي او العسكري · وكل رد فعل اسرائيلي على ما يتعرض لنا ولمصالحنا الحيوية ووجودنا ، يلزم الحكومة الاسرائيلية بعدم تحريك ساكن قبل الحصول على تصديق من البيت الابيض . فهل نحن في حاجة الى ذلك ؟» (١٠٦) ·

اما شمعون بيريس فيرى « ان فكرة الحلف الدفاعي مع اسرائيل طرحت للتسهيل عليها في اتخاذ قرار بشأن التنازل عن مناطق ، وضمان تعويض دفاعي لها حول خسارتها (لتلك المناطق ) من ناحية استراتيجية ·· ان الدافع لهذه الفكرة هو ايجابي : مساعدة اسرائيل على اقامة نظام دفاعي جديد ، وزيادة احتمالات اتفاق السلام بواسطة « تليين » الجانب الاقليمي لدى اسرائيل » (١٠٧ ) ·

الا ان بيريس يرى اخطارا عديدة في مثل ذلك الحلف ، وبالتالي يعارضه : « هناك امكانات مختلفة لطابع هذا الحلف · يمكن ان يكون حلفا اسرائيليا اميركيا بحتا ، ويمكن ان يكون حلفا اميركيا ـ اقليميا ( اي : ضمان اميركي لجميع الدول الموقعة على اتفاقات سلام بينها . في منظور معين بمثابة « حلف اطلسي » ··· ليس موجها بالضرورة تجاه اي اعتداء من الخارج . وانما اعتداء من الداخل ايضا ، من بين الاعضاء الموقعين ) . ويبدو لي من النظرة الاولى ان حلفا اقليميا افضل من حلف ثنائي . ولاسباب عديدة · اولا ، ربما يؤدي حلف ثنائي الى تقوية قوة اسرائيل الرادعة ، ولكنه سيضعف اهمية استقلال اسرائيل ·· ان حلفا كهذا ـ بين اطراف غير متساوية ـ لن يظهر الولايات المتحدة كأمتداد لاسرائيل · ولكنه سيظهر اسرائيل ، بالضرورة ، امام العالم كله كأمتداد للولايات المتحدة ·

« واذا كانت اسرائيل قد بدت حتى الآن كصديقة للولايات المتحدة ( وعلى العكس ) فأنه بعد حلف كهذا ستبدو كتابعة لها ··· سترغب الولايات المتحدة في ان تعرف سلفا ، ليس فقط ما هو تركيب جيشنا او مفهومنا الاستراتيجي ، وانما ايضا جوهر كل عملية ، صغيرة ام كبيرة ، قبل تنفيذها · ولن تكتفي ايضا بالحصول على المعلومات وانما ستقدم لنا النصائح ·· ان حلفا ثنائيا يجب ان يوقع ( او يكون متفقا عليه ) قبل انتهاء المفاوضات بيننا وبين مصر ···وسيكون له ثمن ( وبالطبع ثمنه الارض ) بعبارة اخرى ، يصعب الافتراض ان حلفا كهذا سيقترح علينا نظريا وتطبيقيا ، الا اذا وافقنا على الانسحاب الى حدود ١٩٦٧ ، وحتى بتعديلات بسيطة » (١٠٨) ·

ويطعن بيريس ايضا في « فعالية هذا الحلف من الناحية العملية : ففي حالة هجوم مفاجىء ، ثمة شك اذا كانت اجهزة اتخاذ القرار وتنفيذه في الولايات المتحدة ، ستعمل بالسرعة المطلوبة ، وفي حالة هجمات ارهابية ، فأن الحلف غير مهم ، لانه لا يهدف من

الاساس الى التغلب عليها ، وفي حالة حرب استنزاف ايضا ، ثمة شك كبير اذا كان باستطاعة ذلك الحلف ان يؤدي دورا حقيقيا · ان قيمة الحلف هو في قوته الرادعة · ولكن مع الوقت ، تمر هذه القوة في مجرى من الانهاك ، ويصبح مشكوكا في فعاليتها على مر الايام ، [ كما ] ، ان حلفا كهذا سيفتح خيارات جديدة امام الاتحاد السوفيتي ايضا ، ومن غير المستبعد ان يقترح احلافا موازية مع بعض الدول العربية · ومعنى ذلك ، تعميق الحرب الباردة في الشرق الاوسط من جهة اولى ، وخطر تحول اي حرب محلية الى حرب على المستوى العالمي من جهة اخرى ··· ان حلفا كهذا يمكن ان يشوش ايضا على احد الاتجاهات الاساسية في اسرائيل · وهو المعيش في حسن جوار مع جيرانها من دون حواجز مبنية على قوات اجنبية » (١٠٩) ·

أما بالنسبة للحكومة الاسرائيلية ، فالواضح ان موقفها من الحلف المقترح لا يختلف اساسا عن موقف زعماء المعارضة ، وهي تؤكد ان هدف سياستها هو تأمين « استقلال دفاعي » لاسرائيل ، اي رفض سياسة الاحلاف ، بما في ذلك الحلف مع الولايات المتحدة· ويرى البعض في هذا الموقف دليلا اخر على ان حكومة اسرائيل « لا تريد [عمليا] الوصول الى اي اتفاق ، وانما هدفها هو اجراء مفاوضات فقط » (١١٠) ، ربما لكسب الوقت او لمحاولة نسف اية مقترحات جديدة ، ريثما تتبدل الاوضاع في المنطقة ، او تتغير المواقف الدولية ، وتجد اسرائيل مخرجا من « ورطة المفاوضات » التي غرقت فيها ·

## هل السلام مطلب اسرائيلي ؟

راهن السادات ، بزيارته للقدس ، على كسب تأييد الرأي العام الاسرائيلي الى جانب « مبادرته السلمية » ، وقد تحدث صراحة عن هذا الموضوع اكثر من مرة · والحقيقة هي ان هناك نقاشا واسعا بين الاسرائيليين حول ماهية السلام وأهميته ، خصوصا بين اولئك الذين يدعون الى « ارض ـ اسرائيل الكاملة » من مؤيدي سياسة الحكومة والمحسوبين عليها من الجماعات المتطرفة على غرار غوش ايمونيم وغيرها من ناحية ، وبين اولئك الذين يفضلون « سلاما حقيقيا » مع العرب ، على اساس التسويات الاقليمية، والوصول الى حل « عادل » لكافة القضايا المعلقة ، خصوصا القضية الفلسطينية من ناحية أخرى ·

وكان من بين النتائج ، الملفتة للنظر ، التي ترتبت على زيارة السادات نشوء ما يمكن ان يسمى حركات احتجاج معارضة للحكومة ، تطالب باتخاذ مواقف اسرائيلية اكثر ليونة تجاه العرب ، ومحاولة الوصول الى اتفاق مع مصر · ومن ابرز هذه الفئات ، حركة « السلام الان » ، وهي مجموعة من ضباط الاحتياط في الجيش ، الذين بعثوا برسالة مفتوحة الى رئيس الحكومة ، اعتبرت فيما بعد الشعار الرئيسي لحركتهم · واهم ما ورد في هذه الرسالة « ان الحكومة التي تفضل وجود دولة أسرائيل داخل ارض ـ اسرائيل الكبرى ، على وجودها في سلام وعلاقات حسن جوار ، تثير لدينا تساؤلات قاسية · والحكومة التي تفضل قيام مستوطنات خارج الخط الاخضر على تصفية النزاع التاريخي والتوصل الى ترتيب شبكة علاقات عادية في منطقتنا تثير لدينا تساؤلات بشأن عدالة طريقنا · ان سياسة حكومة تتسبب في بقاء السيطرة على حوالي مليون عربي ، قد تلحق الضرر بالطابع اليهودي ـ الديموقراطي للدولة وتجعل من الصعب علينا ان نتضامن مع [السياسة] التي تتبعها اسرائيل ··· اننا ندرك الحاجات الامنية لدولة اسرائيل ، والصعوبات التي تقف في طريق السلام ، ولكننا نعرف ايضا ان الامن الحقيقي يتم تحقيقه

فقط عند تحقيق السلام ··· » · (١١١) وقد اثارت هذه الرسالة موجة من التأييد بين صفوف الاسرائيليين ، مما شجع الموقعين عليها الى المضي في نشاطهم المعارض ، فنظموا مظاهرة كبيرة في تل ابيب اشترك فيها اكثر من ثلاثين الف شخص للتعبير عن التضامن مع هذه المجموعة · وقد اعتبر البعض حركة الاحتجاج هذه بمثابة رد ملائم على حركة غوش ايمونيم المتعصبة · « فالسلام الان » ليست حركة شرعية فقط ، بل جاءت في وقتها · فمقابل حركة تمثل النخبة ـ وغوش ايمونيم هي كذلك ـ قامت مجموعة اخرى تمثل النخبة ، بعد ٧ ـ ٨ سنين ، لتسبغ على النقاش المهم الدائر منذ سنة ١٩٦٧ ، طابع نقاش جماهيري ، حيوي وديمقراطي » (١١٢) ·

ويلاحظ ان حركة « السلام الان » ليس لها طابع حزبي ، اذ انها تضم اناسا ينتمون الى احزاب مختلفة · ويقال ان بين الموقعين على رسالة الضباط من صوت في الانتخابات الاخيرة الى جانب ليكود · وسبقت رسالة الضباط هذه الى رئيس الحكومة ، رسالة اخرى بعثت بها مجموعة من الطلاب الثانويين ، يقولون فيها « ان اسرائيل تقف امام امكانين · اولا اعادة المناطق التي احتلت في حرب ١٩٦٧ ، وتوقيع اتفاق سلام مع العرب · ثانيا ، الاستمرار في احتلال المناطق المحتلة ، واضطهاد سكانها واستمرار حالة الحرب · وأن حكومة اسرائيل تتجه نحو الطريق الثاني ··· طريق الحرب ··· اننا ندعو رئيس الحكومة للسير في الطريق الصحيح ، طريق السلام ، وان يبدي استعداده للتوقيع على اتفاق سلام شامل يؤمن ضمان الحقوق القومية لكل شعوب المنطقة بما فيها الشعب العربي الفلسطيني ، ويعترف بحقه في تقرير مصيره · واذا لم يسر رئيس الحكومة على هذه الطريق ، فستكون يداه ملطختين بدمائنا ، دم الذين سيسقطون في الحرب » · (١١٣) الا ان رسالة الضباط كسبت تأييدا اوسع بين الاسرائيليين ، نظرا لتوقيتها ، اذ جاءت بعد ان اتضح تصلب الحكومة الاسرائيلية في المفاوضات السياسية·

وقد اعلن احد ضباط الاحتياط الموقعين على الرسالة ، عمير بار ـ اور ان « الهدف الاساسي للرسالة كان الاظهار ان هناك اشخاصا يفكرون بطريقة مختلفة · وتولد لدينا شعور ، بأن هناك كثيرين يشاركوننا التفكير ، وقد اتضح ، لسرورنا الكبير ، ان هذا صحيح · فرغم مشكلات الاتصال والتنظيم حصلنا على الاف التواقيع ··· هناك رغبة في أعتبار حركتنا ، حركة مضادة لغوش ايمونيم ··· لا اعرف ماذا سيحدث لنا مع الوقت ، وواضح لي اننا لا نستطيع وحدنا مواجهة التحدي » · (١١٤) ·

كذلك تحدث ضابط اخر يدعى يفتاح يعقوب ، موضحا « اردنا في المرحلة الاولى كسر الاجماع القومي ، الذي كان وليد تضليل الرأي العام ··· فكرنا بواجب ان نقول ما لدينا ··· من الخطأ التوقع اننا سنعطي جوابا لغوش ايمونيم ، فلن ننجر الى اساليبهم · نحن نؤمن بالديموقراطية وبالقدرة على العمل والتأثير في اطارها ··· » (١١٥) واضاف ضابط ثالث : « لن نتحدث بلغة غوش ايمونيم · فالاشخاص المتطرفون يمكن ان يجيبهم اشخاص متطرفون مثلهم من الطرف الاخر ··· ونحن لسنا من هذا النوع · ان جوابنا ··· سيكون بواسطة العمل اليومي ، في تركيز مجموعة كبيرة من الاشخاص يوحدهم الاعتدال ··· » (١١٦) ·

غير انه لم يمض وقت طويل على بدء نشاط حركة « السلام الان » ، حتى ظهرت فئات مضادة تقودها في الاساس حركتا حروت وغوش ايمونيم وغيرها من الحركات المتطرفة الاخرى ، تدعو الى تأييد سياسة الحكومة ، وعدم التنازل عن « ارض اسرائيل » لان السلام

بعيد . ولا يمكن تحقيقه بسرعة · وقامت هذه الفئات بتنظيم مظاهرة واسعة في تل ابيب، ردا على حركة الاحتجاج الاولى ·

يلاحظ من خلال الطروحات المختلفة ، او الشعارات التي ترفعها حركات الاحتجاج هذه . انه رغم ابتعاد الحركة الاولى ـ حركة « السلام الان » ـ عن اي اطار حزبي وعدم وضوح خطها السياسي تماما ، فأن ما تطرحه قريب جدا من مشروع التسوية الاقليمية الذي ينادي به المعراخ ، خصوصا فيما يتعلق بالضفة الغربية وحل المشكلة الفلسطينية · فقد اعلن احد الضباط في الحركة انه « لا يمكن تجاهل المشكلة الفلسطينية، ويجب الاهتمام بمنظمات الارهاب ، كما يجري الاهتمام بالاجرام · واضح ان دويلة اخرى بيننا وبين الاردن ، او حكما ذاتيا ليس حلا حقيقيا · يجب منح الفلسطينيين فرصة ليقرروا طابع العلاقة التي ستنشأ بينهم وبين الاردن » (١١٧) · وتجدر الاشارة هنا ان بعض زعماء المعراخ مثل ابا ايبن والون وبار ـ ليف وغيرهم ، ايدوا رسالة الضباط، مما يبرهن على قرابة طروحاتهم من طروحات المعراخ (١١٨) ·

اما بالنسبة للحركات الاخرى ، فهي تثبت عمليا خط الحكومة وسياستها الى درجة اصبح معها التساؤل الحقيقي هو · « اليس التزام حركة حروت ، وغوش ايمونيم وحركة ارض ـ اسرائيل الكاملة ، بعدم القيام بأي تنازل في الضفة الغربية ، لا يعبر الا عن رأي الاقلية في اسرائيل ؟ ان كل اسرائيلي عاقل وشريف يعرف الحقيقة : وهي ان اكثرية الاحداث اعطيت [في الانتخابات الاخيرة] لاحزاب تؤيد التسوية الاقليمية ··· وان اي تظاهر بالحكمة لا يبدل الحقيقة بأن زيارة السادات قد فتحت منفذا للحل لم يكن قائما من قبل · ان اي تفلسف لا يخفي حقيقة اننا نعيش الان في عزلة دولية ، لم نعرف مثيلا لها في خطورتها ، وهناك مصلحة قومية عليا في شق سور هذه العزلة » (١١٩) ·

على كل حال ، لم يمر وقت طويل حتى الان على بدء نشاط حركات الاحتجاج هذه ، ولا زال الوقت مبكرا لمعرفة مدى تاثيرها على احداث اي تغيير في سياسة الحكومة · الا ان المؤشرات غير مشجعة ابدا ، خصوصا ان الفئات المتطرفة تعمل جاهدة لشل اي نشاط يعرقل اهدافها . بعد ان بات لها الكثير من المؤيدين داخل الائتلاف الحكومي نفسه · لذلك فان مراهنة السادات على كسب الراي العام الاسرائيلي لم تنجح حتى الان · فالاحتجاج على سياسة الحكومة لم يصل بعد الى مرحلة التاثير وبالتالي القدرة على تغيير هذه السياسة · كذلك فان الطروحات التي تقدمها تلك الفئات المعارضة ، لا تتماثل بأي شكل من الاشكال مع المطالب العربية ، خصوصا بالنسبة للقضية الفلسطينية ·

ان حركة « السلام الان » او غيرها من « حركات الاحتجاج » المؤيدة لها او المعارضة ليست ، على كل حال ، الا نوعا من التعبير عن النقاش الدائر حول مفاهيم السلام الاسرائيلية وامتدادا لها · وتطرح خلال هذا النقاش وجهات نظر واراء من نوع اخر ، يختلف عن ذلك الذي اعتاد الاسرائيليون على اسماعه للعالم · فرغم المزاعم الاسرائيلية المتكررة ، مثلا ، بأن السلام هو قبل كل شيء مطلب اسرائيلي ، تشير الاتجاهات النفسية لدى فئات واسعة بين الاسرائيليين الى استنتاجات مختلفة · ويبدو ان هنالك خوفا كبيرا ، لدى فئات غير قليلة ، ومن بينها الفئات المتطرفة بالطبع ، من امكانية نجاح مساعي السلام في نهاية الامر . والبعض يبدي قلقا واضحا في هذا الشأن · والدوافع عديدة ، منها السياسية والنفسية والعقائدية وغيرها ·

فالنائب والكاتب امنون روبينشتاين حلل ، مثلا ، بعض نواحي هذه الظاهرة بقوله ان الحصار الذي عاشه الاسرائيليون منذ قيام اسرائيل قد أثر كثيرا عليهم ، الى درجة

اصبحوا يحتقرون معها كل ما هو شرقي ٠ » يحتمل ان يكون النقاش الدائر بيننا الان حول مواقفنا الخارجية . بين اولئك الذين يدعون الى ارض ـ اسرائيل الكاملة ، وبين الذين يفضلون سلاما حقيقيا على تراث الاجداد ، قد جاء ليغطي على نقاش اعمق واهم ٠ ان فرصة السلام الحقيقي ـ ليس ذلك المكتوب على الورق ـ تثير داخلنا انتفاضات داخلية ، لم نلمس قوتها بعد ٠٠٠ فالامر [بالنسبة للاسرائيليين] لا يتعلق بأتفاق سياسي فقط ، وانما بتغيير جذري [في الموقف العربي] ٠ تجاه طائفة اعتبرت حتى الان جسما غريبا ، ونموا سرطانيا في الشرق العربي ـ الاسلامي ٠٠٠ ان الحصار [العربي] هو الذي اعاد اسرائيل الى الشعور التقليدي بالعزلة ، تلك العزلة التي عارضتها الصهيونية وثارت ضدها ٠٠٠ وهو الذي ادخل الى القاموس النفسي لدى الاسرائيلي العادي عبارات حول « المصير اليهودي المتكرر » ، « والعالم كله ضدنا » ، وكون اسرائيل « غيتو » يلعب العرب فيه دور الاغيار المهددين » (١٢٠) ٠

يقول روبينشتاين : « ان المشروع الصهيوني لا يمكن ان يتطور كأمتداد غريب للعالم الذي هرب منه اليهود ، من دون ان يفتح منافذ ثقافية وروحية على العالم العربي الذي يحيط به ٠ ان هذا الدمج بين الخصوصية والانفتاح هو الذي ميز بداية البيشوف اليهودي في ارض ـ اسرائيل ٠٠٠ ولكن تناقضا وقع : فبعد ان قدم نصف يهود اسرائيل من دول عربية ، حيث استوعب الكثير من عاداتهم وطعامهم من قبل السكان ، اهملت محاولة التفاهم ـ نفسيا ـ مع العالم الذي قدموا منه ٠ هذا ما حدث ـ وليس لاي شخص ذنب في ذلك وانما بسبب الحصار ـ حيث اصبحت ثقافة الشرق تعتبر غاية في الانحطاط ٠٠٠ ونشأ اهمال واستخفاف بكل شيء تفوح منه رائحة شرقية ٠ ان لطخة « شرق اوسطية » التصقت بكل ما هو غير مستقى من اوروبا ٠٠٠

« ان الحقيقة هي اننا صمدنا ببطولة في الحرب والحصار ، وحافظنا على نظام حكم ديموقراطي وعلى حريات المواطن في ظروف لم يجربها شعب اخر ، الا ان هناك شيئا عميقا تحطم داخلنا : سلمنا ـ في البداية قسرا وبعد ذلك بلا خيار ـ بعزلتنا في الشرق الاوسط ٠ حتى ان كثيرين بدأوا يرون ميزات في هذه العزلة ٠٠٠ وأصبحت مخاوف الخروج منها والتكيف مع التغيير الثوري المرتبط بالسلام ، تفصح عن نفسها في تعبير علني » ٠ (١٢١) ٠

اي ان الحصار ، الذي اعتادت اسرائيل عليه ، اصبح ميزة في نظر الكثيرين هناك : ولهؤلاء نظرة خاصة تجاه الصراع العربي ، تبلورت وفق مفاهيم معينة يمكن وصفها ـ على حد تعبير احدهم ـ « بثقافة النزاع » ٠ ويحمل هؤلاء ، مثلا ، مشاعر سلبية تجاه الاغيار ٠ « اصبحت النظرة تجاههم [اي الاغيار] كأنهم جهلة ، عنيفون وخطيرون ، بينما نحن ٠٠٠ مثقفون ، غير عنيفين ، ومحبون للسلام ٠٠٠ ان كثيرين بيننا فقدوا حتى القدرة على الاعتراف بأن الغرباء او الاغيار يمكن ان يكونوا مختلفين عن الصفات السلبية التي اعتدنا على الصاقها بهم ٠ وهكذا وصلنا الى وضع ، يتمسك بـه كثيرون بيننا ، ويستند الى وجهة نظر مبنية على الايمان القوي بأن « جميع العرب يريدون القضاء على اسرائيل » ٠ وما يزال من الصعب على هؤلاء استيعاب الحقيقة ، بأن هذه القاعدة لم تعد تنطبق على جميع الدول العربية ، وبالطبع ليس على كل زعيم عربي ٠ ومن الاسهل على هؤلاء التمسك بوجهة النظر السلبية تماما تجاه نوايا العرب ، لان النتيجة العملية من وراء ذلك ، هو عدم وجود اي حاجة لاحداث اي تغيير عندنا ، بحيث يمكن الاستمرار

في الحفاظ على ثقافة النزاع بمفاهيمها المختلفة ٠

« ان استمرار النزاع تحول على ما يبدو الى حاجة نفسية لدى اولئك الذين تتعلق هويتهم الشخصية ، وتتغذى ، بوجود نزاع غير محلول ٠ ان المفاهيم الاساسية لدى هؤلاء هي نفس مفاهيم حالة النزاع : تقسيم العالم بين اولئك الذين يستحقون اكثر ، والذين يستحقون اقل ، تركيز قوة بشكل غير منقطع ، المناورة في اتجاه نقاط الضعف لدى الخصم ، تعريف انفسهم كابطال ومقدسين ، وتعريف الباقين كمنحطين واغبياء ، اخضاع كل ما هو اخلاقي الى ما هو عملي ، واستعداد دائم لتقديم ضحايا ، منهم ومن غيرهم ٠

« ان امكانية تقليص النزاع او حله ـ لا سمح الله ـ تخلق لدى اولئك شعورا بالخوف ٠ ففي حالة النزاع غير المحلول ، يقومون باعمالهم بشكل حسن ، يبنون قوات ، ويدربونها ، يستخفون بكل ما هو غير شبيه بهم او شريك لهم ، واحيانا يقدمون ضحايا ، ويعرفون كيف يؤبنونها بكفاءة فائقة ٠٠٠ هذا هو كما يبدو المغزى الخفي لاستمرار الاستيطان منذ زيارة السادات ، حتى لا نواجه السؤال الخطير : في حالة اللا ـ نزاع من نحن ؟ ما هي هويتنا ؟ ما هو نمط حياتنا ؟ ٠٠٠ اننا لا نتجرأ ابدا على محاولة تجريب مفاهيم جديدة ومختلفة عن تلك التي عرفناها » ٠ (١٢٢)

والسؤال الاساسي الذي يتبادر الى الذهن هو : من هي تلك الفئات التي ليس لها مصلحة في السلام داخل اسرائيل ، والتي نمت ونشأت على « ثقافة النزاع » ؟ والجواب بسيط ومقلق في آن واحد ٠ ان زعامة هذه الفئات هي التي تحكم اسرائيل اليوم ٠ ويلاحظ ايضا ان بعض تلك الفئات هي التي تؤمن « بتكامل ارض اسرائيل » بصورة مطلقة ، تعتنق فلسفة دينية معينة ، تستمد منها مزيدا من التطرف في ارائها ونشاطها ٠ وقد تحدث البروفيسور اوريئيل سيمون ( وهو أيضا من مؤسسي حركة احتجاج سلمية تدعى « الجرأة لاجل السلام » ، واستاذ علوم التوراة في جامعة بار ـ ايلان ) حول مفاهيم احدى **الجماعات الاساسية بين تلك الفئات ، وهي** حركة غوش ايمونيم ، بقوله : « عهدي بهذه الجماعة ، ان مبادئها متماسكة جدا ، وافرادها يؤمنون بأن سياستهم واقعية واكثر حكمة من سياسة اولئك الذين يسعون الى التفاهم والسلام مع العرب ٠ من جهة ثانية ، لديهم استعداد قوي لتقبل المخاطر ، التي عبر عنها زعيمهم الروحي الحاخام تسفي كوك ، بصورة متطرفة بقوله ، ان الايمان بتكامل البلد [ اي « ارض ـ اسرائيل »] هو بمثابة مبدأ دونه الموت ٠ يحتمل جدا ان يكون هذا الاستعداد [لتقبل المخاطرة] حتى وان ادى ذلك الى الدمار ، بدلا من التنازل عن جزء من ارض أسرائيل ، نابعا ليس من الثقة المبالغ فيها بعدالة طريقهم فقط ، وانما من شعور قوي ، رغم انه غير واضح ، بأن ايام المسيح قريبة جدا ٠ انهم ينظرون الى النكبة [النازية] والعودة الى ارض صهيون وبناء [اسرائيل] ، وفي الاساس توحيد القدس والعودة الى اليهودية والسامرة ، كأنها علامات متتابعة وواضحة تشهد على اقتراب الخلاص النهائي [اي ظهور المسيح ـ المخلص وفق التقاليد اليهودية ، واقتراب العالم من نهايته] ٠٠٠ ونحن اعضاء « الجرأة لاجل السلام » واخرين ننظر الى هذا الاسلوب كأنه بمثابة « قصر طوباوي » ٠

٠٠٠ ان هذا المفهوم ينطلق من الايمان ، بان من المضمون بالنسبة لنا عدم دمار « البيت الثالث » [عبارة تطلق على اسرائيل الحالية ، باعتبارها جاءت بعد مملكتي اسرائيل الاولى والثانية] ابدا ٠ وحسب رأيهم نستطيع التعجيل في مجرى الخلاص او تأخيره ، الا ان حقيقة هذا المجرى هي في بلوغ الذروة ، ولا يمكن الغاؤه ٠ بينما اؤمن انا ان

« البيت الثالث » شبيه بالبيت الاول والثاني ، طالما ان ايام المسيح لم تأت ··· ان الدرس الذي اتعلمه من التوراة هو درس العقاب والثواب الالهي على اعمال شعب اسرائيل · فالانبياء يكررون تحذيرهم من الدماء ، التي ستريقها اخطاء شعب اسرائيل وزعماؤه · واخشى ان تكون عقلية غوش ايمونيم هي التي تمنعهم من سماع هذا الصوت الاتي من تعاليم التوراة ، وواضح ، ان هذا الامر يشمل اخطارا سياسية ، كما تتاتى عنه اخطار اخلاقية ودينية شديدة جدا » (١٢٣) ·

وبالاضافة الى هذه المخاوف التي تنطلق من أسس نفسية ودينية وعقائدية ، هناك ايضا اسباب أخرى تدفعهم الى ابداء تخوفهم من السلام ، خصوصا مع مصر · فالكاتب العسكري المعروف في اسرائيل زئيف شيف ، الذي زار مصر اثناء اجتماعات اللجنة العسكرية ، المصرية ـ الاسرائيلية ، واطلع على ما يسميها بالاوضاع النفسية لدى الشعب المصري ، عاد يقول : « ان الحديث هو حول سلام مع مجتمع عاطفي جدا ، بدائي في جزء منه ، ويسهل دائما تحويله من اتجاه واحد الى اخر · بعبارة اخرى ، ان ما يميز هذا المجتمع هو عدم الثبات بالنسبة لارائه ، ووجهات نظره وعواطفه · والشيء الملفت للنظر هو ان مثقفين مصريين يوافقون على هذا الرأي · كثيرون منهم أخبروني ، ان هؤلاء الاشخاص الذين تظاهروا البارحة من اجل السلام ، يمكن اقناعهم من دون اية صعوبة ، للتظاهر غدا ، من اجل الحرب ضد اسرائيل ··· والنتيجة ، هي انه اذا تحقق سلام مع مصر ، علينا ان نأخذ بالحسبان دائما ان العلاقات مع مجتمع كهذا لن تكون ثابتة ··· كما نراها نحن · لذلك لن يكون هناك سلام عادي وطبيعي» (١٢٤) · ويصف شيف هذه التقلبات في « العواطف » المصرية بقوله : « ليوم واحد ، يكون السوريون اشقاء ، وفي الغد يصفهم السادات بأنهم فئران واقزام · اليوم يعتبر الملك حسين اخا ، ولكنه البارحة كان عميل المخابرات المركزية والامبريالية · ولماذا يظهرون نظرة مختلفة الى الاسرائيليين ، الذين يرغب الكثير من المصريين في رؤيتهم داخل « العائلة » ، مندمجين في منطقة الشرق الاوسط ؟ لماذا يجب على بيغن ان يتأثر اكثر من الاسد ؟ الأن المصريين وصفوه البارحة بأنه زعيم عظيم ، ومحب للسلام ، لا يمكن وصفه الان بالكاذب والمتغطرس وشايلوك ؟ » · (١٢٥)

وعلى صعيد اخر ، تبدي بعض الدوائر الاسرائيلية تخوفا من ان يؤثر السلام في حال تحقيقه ، على مجمل العلاقات القائمة بين اسرائيل ويهود العالم ، خصوصا بالنسبة للمساعدات المالية · ويرى ، مثلا ، مدير عام دائرة الهجرة والاستيطان في الوكالة اليهودية عوزي نركيس « ان التسوية السلمية ربما تؤثر على شبكة العلاقات القائمة بيننا وبين الجاليات اليهودية في العالم · ويمكن ان يتبلور شعور ··· اننا يجب ان نكون كائنا يعتمد على نفسه ، ولسنا في حاجة بعد اليوم الى تلك المساعدات التي اعتدنا عليها خلال جيل كامل ··· انني اعتبر تطورا كهذا خطيرا جدا على اسرائيل كدولة لليهود ، وعلى الجاليات اليهودية ايضا، المرتبطة بنا بصورة مركزية ··· لذلك من الافضل ان نبدأ من الان النظر الى هذا الموضوع بجدية · علينا ان نوضح لانفسنا اننا لا زلنا محاطين بمحيط عربي يمكن ان يحاول تحقيق اهدافه ـ التي فشل في تحقيقها حتى الان بواسطة الحرب ـ عن طريق السلم · فاذا لم ينجح [العرب] في اغراقنا في البحر ، ربما يحاولون الان امتصاصنا في المنطقة · ويجب ان نوضح لاخوتنا في العالم ان وجودهم متعلق بدولة اسرائيل ، وبعلاقاتهم معها ، وبضرورة ارتباطهم ومساعدتهم الكبيرة في كل مجال : الهجرة ، جمع الاموال وتثقيف الشباب ··· [علينا ان نوضح لهم] أن من دون اسرائيل مصيرهم الانصهار » (١٢٦) ·

على ان هناك ايضا الوجه الاخر للعملة ، الا وهو خوف فئات اخرى داخل اسرائيل من عدم تحقيق السلام ، والنتائج التي قد تترتب على ذلك ، وقد علق مثلا الكاتب الاسرائيلي بوعز عفرون على عواقب عدم تحقيق السلام بقوله : « هناك امر واحد واضح: وهو ان الوضع السابق لن يعود ... وستتقدم المنطقة ، دونما مهرب ، نحو الحرب . ويعتقد الجميع ان هذه الحرب ستكون الاكثر هولا بين ما عرفه الجمهور حتى الان ، ستكون حربا لا نستطيع الانتصار فيها مهما كانت نتائجها العسكرية ( وقد اثبتت حرب يوم الغفران ان النتائج العسكرية ليست هي الحاسمة في الحرب ، وانما النتائج السياسية والاقتصادية ) . ان الجمهور كله يدرك ذلك ، باستثناء بعض المجانين ، الذين يعتقدون ان نصرا عسكريا اخر سيعيد « ايام المجد » التي عرفناها بعد ١٩٦٧ . ان الجميع يدركون عدم الفائدة المطلق من حرب اخرى ... ان الشعور بنشوب حرب اكيدة ، وهو الشعور الذي سيسود في حال فشل المفاوضات ، سيكون صدمة نفسية كبيرة للجمهور ... » (١٢٧) . ويتحدث عفرون ايضا عن النتائج المتوقعة في وضع كهذا بقوله « ان النزوح سيزداد ... وسيقوى الشعور ويتعمق بأن ليس من مستقبل في هذا البلد . والمستقبل المتوقع للشباب بوجه خاص ، من الذين انهوا خدمتهم العسكرية ، هو الاشد ظلاما . واعتقد ان اريك شارون هو نفسه الذي تحدث قائلا ، انه عندما كان في احد زياراته للولايات المتحدة ، وجد نصف فرقته هناك ... اما بالنسبة لرؤوس الاموال ، فأننا لن نحصل على استثمارات من الخارج فقط ، وانما ستستغل ايضا التسهيلات الاقتصادية ... حتى من قبل اولئك الذين يعلنون عن وطنيتهم بشدة لتهريب مبالغ كبيرة من الاموال الى الخارج ، وبدرجة لم نعرفها حتى الان ...

« واذا ما نشبت الحرب ، فأن هذه لن تدور رحاها على اساس الشعور الصلب « بعدم وجود خيار » ، الذي رافق جيش اسرائيل حتى الان في حروبه . ان الشعور المر الذي سيتولد لدى المقاتلين هو انه كان هناك خيار ، ولم يستغل قصدا . وهذا سيؤدي للمرة الاولى في تاريخ الدولة ، الى ظواهر واسعة جدا من رفض التجنيد ، والهرب من الخدمة . فالاشخاص لن يدركوا لماذا عليهم ان يقاتلوا من اجل بضعة كيلومترات في مشارف رفح ، او بسبب عدم موافقتنا على « تقرير المصير » لسكان الضفة بدلا من حكم ذاتي » (١٢٨) .

ويرى اخرون ايضا أن هناك علاقة ما بين استمرار الصراع وازدياد الجرائم في اسرائيل ، خصوصا بعد الاعلان عن وجود جريمة منظمة تعمل على نطاق واسع . وفي هذا المجال يقول احدهم : « ان تأثير النزاع الخارجي على الظروف المؤاتية لاتساع الجرائم هو قبل كل شيء في مجال سلم الاولويات ... ان قضية الامن تمثل المكانة الاولى في سلم الافضليات في أسرائيل منذ قيامها ، خاصة بعد حرب ١٩٦٧ ، من ناحية توزيع الموارد القومية . فمنذ السنين الاولى للدولة ، يتزايد الاعتماد النسبي للامن في مجمل الدخل القومي ، ... وذلك على حساب الاعتمادات النسبية للقضايا الاخرى ... ان المعنى الاساسي لذلك هو ان مزيدا من الاشخاص ومزيدا من الامكانات ( كل شخص خامس في اسرائيل يعمل في جهاز الامن ) يوجه للاجهزة العاملة في نطاق النزاع الخارجي ، وبمدى يفوق ما هو مخصص للاجهزة العاملة في مجال القضايا الداخلية ... وهكذا يحدث وضع تحتل فيه القضايا الداخلية مثل التعليم ، والشؤون الاجتماعية والشرطة مرتبة ثانية ، بالمقارنة مع الجهد الاكبر المخصص للنزاع الخارجي » (١٢٩) .

وأما استمرار تفشي الجريمة فسيؤدي الى « فقدان اسرائيل لهويتها اليهودية · لان تلك الهوية لا تعني فقط القتال ببطولة ضد المخرب من الخارج ، بل تعني ايضا انه لا يمكن ، في دولة يهودية ، نشوء ظروف يحدث بسببها اكثر من عشرين الف عملية تخريب من جانب يهود ضد يهود ··· ان الهوية اليهودية معناها قبل كل شيء ، السلوك ··· يقول حكماؤنا ، طيب الله ذكرهم : على ثلاثة اسس يقوم العالم : القانون والحقيقة والسلام · بالنسبة للقانون ، عاقبنا المخرب الخارجي بانتقام ، ولكننا تسامحنا مع المخرب الداخلي ، بالنسبة للحقيقة ، فقد سخرناها ، بمدى كبير ، لمفاهيم النزاع الداخلي والخارجي في آن واحد ، وبالنسبة للسلام ، اصابنا الخوف من ان نحصل عليه او نفقده· لذلك فأن حياتنا ليست كما ينبغي ، وما زلنا ننتظر الزعيم الذي سيخرجنا من حالة الخوف الى حالة الاختيار » (١٣٠) ·

وانطلاقا من وجهة النظر هذه ، يتوقع البعض ان يؤدي السلام الى « تحقيق الصهيونية » ، التي قامت عليها اسرائيل ، لان « السلام معناه ليس فقط كل تلك الامور الواضحة والمفهومة تلقائيا ـ تحويل الموارد الى متطلبات اجتماعية ، تخفيف التوتر والضغط الذي يؤثر على حياتنا ، وتقليص أخطار الحرب ـ وانما امر اخر اساسي : ان اسرائيل التي تعيش بسلام مع جيرانها تستطيع تحقيق املها الصهيوني · فالسلام سيحقق عهدا جديدا لاسرائيل : ستكون مركز جذب للمهاجرين ، وسيدور الحديث فيها بجدية حول حياة مشتركة بين العرب واليهود حتى داخل بلدنا ، سيتم دمج الخبرة وتكنولوجيا الغرب مع التقاليد والثقافة المشتركة للشعبين الساميين ··· » (١٣١) ·

ويرى اخرون ايضا ان السلام سيعود بفوائد جمة على اسرائيل ، خصوصا في المجال الاقتصادي ، اذ أنه سيعني « اندماج الاقتصاد الاسرائيلي في مجال اقتصادي ضخم وغني ، يمتد من المغرب حتى الكويت ، ومن سوريا حتى اليمن : سوق مشتركة ، مشاريع انمائية مشتركة ، دمج ما بين النفط والتكنولوجيا ، والعلم والكمية · لن يؤدي السلام الى تقليص قوتنا السياسية ، وانما الى بناء دولة عالمية كبرى جديدة ، نكون فيها شريكا مهما ، دولة كبرى تجمع ما بين قوة العالم العربي الضخمة وبين قوة العالم اليهودي · ولن يخلق السلام مشكلات جديدة لجيش اسرائيل · وانما سيؤدي الى وضع تخفض معه نسبة كبيرة من نفقات الامن من الدخل القومي المتزايد ، وتمويل الموارد من اجل تحقيق ثورة في نوعية حياتنا ، في المجتمع وفي السكن والتعليم · ولن يؤدي السلام الى الانصهار وتحولنا الى « دولة شرق اوسطية » ، و انما الى ازدياد قوتنا ، واثرائنا حضاريا »·(١٣٢) ·

وقد برز عقب زيارة السادات الى القدس اهتمام ما في اسرائيل باحتمالات التعاون الاقتصادي بينها وبين العرب ، خصوصا مصر ، اذا تحقق السلام · واقدمت بعض المؤسسات الاقتصادية على وضع خطط للتعاون الاقتصادي مع العرب ، لعل ابرزها هي تلك التي وضعها اليعيزر شيفر ، المدير العام لمصرف اسرائيل المتخصص باقتصاد الدول العربية · وحسب خطط شيفر هذه « فان ميزانيات الدفاع هي المشكلة الاقتصادية الرئيسية لدول المنطقة ، اذ انها تشكل ٢٥ ـ ٣٠٪ من الانتاج القومي لكل من مصر واسرائيل · وبعد اقامة علاقات طبيعية بينهما ، يمكن توجيه موارد تقدر بمليار دولار الى التنمية الاقتصادية ··· واذا امكن خفض النفقات الامنية لكل من مصر واسرائيل الى الثلث فقط ، سيصبح ممكنا زيادة التوظيفات في التنميه الاقتصادية ، في كلتا الدولتين ، بنسبة ٥٠٪ ، ومضاعفة ميزانية الانعاش الاجتماعي دفعة واحدة · كذلك فان انشاء

علاقات تجارية مع اسرائيل سيساهم في تحسين الميزان التجاري للدول العربية ··· خاصة وان مركز اسرائيل التجاري يكسبها موقعا خاصا كبلد مرور للتجارة العربية ( تجارة الترانزيت ) ، أذ ان مينائي حيفا واشدود قد يستخدمان منفذا الى البحر الابيض المتوسط ، خصوصا بالنسبة للاردن · كما ان الاتصال البري بين مصر والدول العربية الاربع الاخرى غير متاح الا عبر اسرائيل ، ويعتبر ذا اهمية قصوى لنجاح السوق العربية المشتركة ، التي تسعى الدول العربية لانشائها » (١٣٣) ·

ولخص عوزي نركيس الفوائد التي قد تجنيها اسرائيل من حالة السلم بقوله : « ان اتفاق السلام · في حال تحقيقه ، سيؤدي الى شعور مفاجيء بالارتياح ، وربما يسبب تحللا من المسؤولية اليومية تجاه مشكلات الامن ··· وفي المقابل ستضطر الدولة الى تغيير سلم افضلياتها ، وتحويل مواردها من مجال الامن الى مجالات المجتمع والاقتصاد التي سترتفع الى رأس السلم · فالحدود المفتوحة ستؤدي الى تدفق عمال عرب الى اسرائيل ، يعملون بأجر رخيص ، ومستعدون لمزاولة العمل اليدوي ، حيث سينضم هؤلاء الى عشرات الالاف من عمال الضفة ، الذين يعملون الان في اسرائيل · وربما نصل الى وضع يشكل معه العمال العرب المستوردون الطبقة الدنيا في الصناعة وفرع البناء ، والعمل في الارض ، وفي المطاعم والفنادق والمستشفيات ، وفي اعمال التنظيف وباقي الاعمال اليدوية الاخرى » (١٣٤) ·

من جهة اخرى حذر يحزكيئيل بلومين ، نائب وزير المالية ، من الاغراق في التفاؤل ، ولفت النظر الى مشكلات التعاون الاقتصادي في زمن السلم ، « كطاقة العمل العربية الرخيصة ، والانخفاض في المساعدات الخارجية لاسرائيل وغير ذلك » · لكنه اضاف انه « ستتبلور قريبا خطة عمل في مجال التعاون الاقتصادي ستقدم الى الحكومة لاقرارها » · واشار بلومين الى امكان التعاون مع مصر لاستغلال طاقة مياه السري ومد خط سكة حديد الى ايلات « نظرا الى توفر امكانات تطور العلاقات التجارية مع افريقيا واسيا » (١٣٥) · وكان بلومين قد اعلن انه كلف فريقا من الخبراء في وزارته ، لدرس امكان حفر قناة مياه طولها ١٨٠ كم ، تربط البحر الميت بالبحر الاحمر ، لحل « مشكلة النقل الى ايلات ، خصوصا نقل البوتاس والفوسفات وشحنه بالقوارب » (١٣٦)·

وعلم ان الدراسات التي تجريها وزارة المالية الاسرائيلية حول تأثير السلام على الاقتصاد ، تعالج مسألة انشاء مشاريع محددة قد تنفذ بتعاون مشترك بين اسرائيل والعرب ، ومن ثم تأثير السلام في الاقتصاد الاسرائيلي بكامله (١٣٧) ·

الا ان هذه الخطط والدراسات جميعها ، تبقى ، على كل حال ، حبرا على ورق ، طالما لم يتحقق السلام ، وتبقى أمال الاسرائيليين معلقة ما بين « الرغبة » في تحقيق السلام ، وبين الخوف من « عواقبه » ·

خلاصة القول ، ان زيارة السادات لاسرائيل قد اثبتت ان السلام ، الذي قد يكون مطلبا لدى فئات معينة من الاسرائيليين ، انما يثير ايضا مخاوف وشكوكا كثيرة لدى فريق اخر منهم · واذا اخذنا بالاعتبار المواقف المتصلبة المسيطرة على السياسة الاسرائيلية ، قولا وفعلا ، كما اتضح ذلك في اكثر من مناسبة ، واستنادا الى موازين القوى السياسية داخل اسرائيل ، نرى ان السلام ليس مطلبا كبيرا لدى الاسرائيليين ، وهو ليس كذلك قطعا ، بالقدر الذي يحلم به السادات على كل حال ·

## الحواشي

(١) يهودا هرئيل ـ **معاريف** ، ١ـ١٢ـ١٩٧٧ .

(٢) مقابلة مع يتسحاق رابين ـ **دافار**، ٢ـ١٢ـ١٩٧٧ .

(٣) مقال لدافيد هكوهين ـ **دافار** ، ٢١ـ٤ـ١٩٧٨ .

(٤) مارك غيفن ـ **عل همشمار** ، ١٠ـ٢ـ١٩٧٨ .

(٥) **المصدر نفسه** .

(٦) يعقوب حزان ـ **عل همشمار** ، ٣ـ٢ـ١٩٧٨ .

(٧) مردخاي بنطوف ـ **حوتام** ، ١٧ ـ ٢ـ١٩٧٨ .

(٨) مقابلة مع موشي ارنس ـ **ملحق هآرتس** ، ٧ـ٤ـ١٩٧٨ .

(٩) مقابلة مع مردخاي غور ـ **دافار**، ٢١ـ٤ـ١٩٧٨ .

(١٠) **المصدر نفسه** .

(١١) مقال لمئير يعري ـ **عل همشمار**، ١٠ـ٢ـ١٩٧٨ .

(١٢) مقابلة مع يتسحاق بن ـ أهرون ـ **عل همشمار** ، ٢١ـ٤ـ١٩٧٨ .

(١٣) نشر نص مشروع السلام الاسرائيلي في **هآرتس** و **دافار** ، ٢٩ـ١٢ـ١٩٧٧ .

(١٤) من كلمة شمعون بيريس في الكنيست ، تعليقا على مشروع سلام بيغن ، كما نقلتها **دافار** ، ٢٩ـ١٢ـ١٩٧٧ .

(١٥) **المصدر نفسه** .

(١٦) حفاي اشد ـ **دافار** ، ٢٤ـ١ـ١٩٧٨ .

(١٧) من مقابلة مع يغئال الون ـ **دافار**، ٣٠ـ١٢ـ١٩٧٧ .

(١٨) من حديث لشمعون بيريس ـ **دافار** ، ١٧ـ٢ـ١٩٧٨ .

(١٩) من مقال لحاييم بار ـ **ليف** ـ دافار ، ٢٤ـ٢ـ١٩٧٨ .

(٢٠) من مقال لموشي شامير ـ **معاريف** ، ١٨ـ١١ـ١٩٧٧ .

(٢١) شموئيل كاتس ـ **معاريف** ، ١٤ـ٤ـ١٩٧٨ .

(٢٢) مقابلة مع يغئال الون ـ **دافار** ، ٢٤ـ١ـ١٩٧٨ .

(٢٣) انظر الملاحظة (١٩) اعلاه .

(٢٤) **المصدر نفسه** .

(٢٥) من استفتاء لبعض الضباط السابقين ـ **دافار** ، ٦ـ١ـ١٩٧٨ .

(٢٦) **المصدر نفسه** .

(٢٧) **المصدر نفسه** .

(٢٨) من مقابلة مع غاد **يعقوبي** ـ **ملحق دافار** ، ١٠ـ٢ـ١٩٧٨ .

(٢٩) **المصدر نفسه** .

(٣٠) انظر الملاحظة (٣) أعلاه .

(٣١) **المصدر نفسه** .

(٣٢) من مقال لمردخاي بنطوف ـ **حوتام** ، ١٧ـ٢ـ١٩٧٨ .

(٣٣) انظر الملاحظة (٦) اعلاه .

(٣٤) من نص خطاب بيغن ، كما نقلته **معاريف** ، ٢٤ـ١ـ١٩٧٨ .

(٣٥) من مقابلة مع يزهار سميلانسكي ـ **حوتام** ، ١٧ـ٢ـ١٩٧٨ .

(٣٦) **دافار** ، ٢٤ـ١ـ١٩٧٨ .

(٣٧) **المصدر نفسه** .

(٣٨) كما أوردها يسرائيل كرغمان ـ **يديعوت احرونوت** ، ١٥ـ٢ـ١٩٧٨ .

(٣٩) **المصدر نفسه** .

(٤٠) من مقال لناتان بلين — مور — هآرتس ، ١٠—٣—١٩٧٨ ·

(٤١) **المصدر نفسه** ·

(٤٢) **هآرتس** ، ٢٩—١٢—١٩٧٧ ·

(٤٣) **المصدر نفسه** ·

(٤٤) يهوشواع تدمور — **دافار** ، ٢٩—١٢—١٩٧٧ ·

(٤٥) من خطاب بيريس في الكنيست عند بحث مشروع السلام ، كما نقلته **دافار** ، ٢٨—١٢—١٩٧٧ ·

(٤٦) من مقابلة مع شمعون بيريس — **دافار** ، ٣٠—١٢—١٩٧٧ ·

(٤٧) **هآرتس** ، ٢٩—١٢—١٩٧٧ ·

(٤٨) من ندوة مع رؤساء حركات الاستيطان — **دافار** ، ٦—١—١٩٧٨ ·

(٤٩) من مقال لوشي كول في **هآرتس** ، ٢٩—١٢—١٩٧٨ ·

(٥٠) **المصدر نفسه** ·

(٥١) أنظر الملاحظة (٤٠) اعلاه ·

(٥٢) يعقوب حزان — **عل همشمار** ، ٧—٢—١٩٧٨ ·

(٥٣) ي· شفايتسر — **هآرتس** ، ٢٧—١—١٩٧٨ ·

(٥٤) **المصدر نفسه** ·

(٥٥) من مقال لشموئيل كاتس — **يديعوت احرونوت** ، ١٣—١—١٩٧٨ ·

(٥٦) **معاريف** ، ٢١—١٢—١٩٧٧ ·

(٥٧) **المصدر نفسه** ·

(٥٨) **المصدر نفسه** ·

(٥٩) **المصدر نفسه** ·

(٦٠) **دافار** ، ١٦—١٢—١٩٧٧ ·

(٦١) من مقابلة مع **شمعون بيريس** — **دافار** ، ٣٠—١٢—١٩٧٧ ·

(٦٢) من مقابلة لرابين مع التلفزيون الاسرائيلي ، كما نقلتها **دافار** ، ٨—١—١٩٧٨ ·

(٦٣) من مقال لحاييم بار — **ليف** — **دافار** ، ٢٤—٢—١٩٧٨ ·

(٦٤) مقابلة مع **يهوشفاط هركابي** — **عل همشمار** ، ١٢—٥—١٩٧٨ ·

(٦٥) حديث للنائب نفتالي فيدر — **معاريف** ، ١٦—٤—١٩٧٨ ·

(٦٦) حفاي اشد — **دافار** ، ٢—١٢—١٩٧٧ ·

(٦٧) انظر الملاحظة (٦١) اعلاه ·

(٦٨) مقال لشمعون بيريس — **يديعوت احرونوت** ، ٦—١—١٩٧٨ ·

(٦٩) **دافار** ، ٦—١—١٩٧٨ ·

(٧٠) **المصدر نفسه** ·

(٧١) **المصدر نفسه** ·

(٧٢) **هآرتس** ، ١٢—٥—١٩٧٨ ·

(٧٣) مقال ليتسحاق رابين — **يديعوت احرونوت** ، ١٣—١—١٩٧٨ ·

(٧٤) **المصدر نفسه** ·

(٧٥) مقال لشمعون بيريس — **يديعوت احرونوت** ، ٦—١—١٩٧٨ ·

(٧٦) مقابلة مع غاد يعقوبي — **ملحق دافار** ، ١٠—٢—١٩٧٨ ·

(٧٧) **المصدر نفسه** ·

(٧٨) **مقال للنائب نفتالي فيدر** — **معاريف** ، ١٦—٤—١٩٧٨ ·

(٧٩) **المصدر نفسه** ·

(٨٠) **المصدر نفسه** ·

(٨١) مقال لحفاي اشد ـ **دافـــار** ، ٨ـ٢ـ١٩٧٨ .

(٨٢) **المصدر نفسه** .

(٨٣) فولص ـ **هآرتس** ، ٣ـ٣ـ١٩٧٨ .

(٨٤) انظر الملاحظة (٧٣) اعلاه .

(٨٥) حديث مع يهوشفاط هركابي ـ **عل همشمار** ، ١٦ـ٥ـ١٩٧٨ .

(٨٦) **المصدر نفسه** .

(٨٧) مقال لتسفي هدار ـ **يديعــوت احرونوت** ، ١٢ـ٤ـ١٩٧٨ .

(٨٨) انظر الملاحظة (٣) أعلاه .

(٨٩) **المصدر نفسه** .

(٩٠) مقال لرفائيل براكان ـ **عـــل همشمار** ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ .

(٩١) يسرائيل هرئيــل ـ **يديعــوت احرونوت** ، ١٣ـ١ـ١٩٧٨ .

(٩٢) **دافار** ، ٧ـ٥ـ١٩٧٨ .

(٩٣) للاطلاع على معطيات شبه كاملة عن الاستيطان في هضبة الجولان ، انظر **عل همشمار** ، ٢٣ـ١٢ـ١٩٧٧ .

(٩٤) **المصدر نفسه** ، ١٢ـ١٢ـ١٩٧٧ .

(٩٥) **دافار** ، ٧ـ٥ـ١٩٧٨ .

(٩٦) زئيف شيف ـ **هآرتس** ، ١٢ـ٢ـ١٩٧٨ .

(٩٧) **المصدر نفسه** ـ ١٢ـ٢ـ١٩٧٨ .

(٩٨) من مقال ليسرائيــل طــال ـ **معرخوت** ، كانون الاول ١٩٧٦ ، كمــا اورده زئيف شيف في **المصدر نفسه** .

(٩٩) مقابلة مع مردخاي غور ـ **عل همشمار** ، ٢١ـ٤ـ١٩٧٨ .

(١٠٠) زئيف شيف ـ **هآرتس** ، ١٠ـ٣ـ١٩٧٨ .

(١٠١) **المصدر نفسه** .

(١٠٢) مقال ليتسحاق رابين ـ **يديعوت احرونوت** ، ١٦ـ٤ـ١٩٧٨ .

(١٠٣) مقال لشمعون بيريس ـ **يديعوت أحرونوت** ، ٢١ـ٤ـ١٩٧٨ .

(١٠٤) مقابلة مع موشي ارنس ـ **ملحق هآرتس** ، ٧ـ٤ـ١٩٧٨ .

(١٠٥) فولص ـ **هآرتســس** ، ٢١ـ٣ـ١٩٧٨ .

(١٠٦) مقال ليتسحاق رابين ـ **يديعوت احرونوت** ، ١٢ـ٥ـ١٩٧٨ .

(١٠٧) مقال لشمعــون بيريســس ـ **معاريف** ، ٥ـ٥ـ١٩٧٨ .

(١٠٨) **المصدر نفسه** .

(١٠٩) **المصدر نفسه** .

(١١٠) حانه زيمــر ـ **دافار** ، ٥ـ٥ـ١٩٧٨ .

(١١١) **معاريف** ، ٨ـ٣ـ١٩٧٨ .

(١١٢) دان مرغليت ـ **هآرتس** ، ٥ـ٥ـ١٩٧٨ .

(١١٣) **هآرتس** ، ٢٩ـ١ـ١٩٧٨ .

(١١٤) في مقابلة مع بعض الموقعين على رسالة الضباط ـ **حوتام** ، ١٧ـ٣ـ١٩٧٨ .

(١١٥) **المصدر نفسه** .

(١١٦) **المصدر نفسه** .

(١١٧) **المصدر نفسه** .

(١١٨) **دافار** ، ٢٠ـ٤ـ١٩٧٨ .

(١١٩) حانوخ بارطوف ـ **معاريــف** ، ١٤ـ٤ـ١٩٧٨ .

(١٢٠) امنون روبينشتاين ـ **هآرتس** ، ٢١ـ٤ـ١٩٧٨ .

(١٢١) **المصدر نفسه** ٠

(١٢٢) الوف هار أيبن ـ **معاريف** ، ١٠ـ٥ـ١٩٧٨ ٠

(١٢٣) بروفيسور اوريئيل سيمون ـ **حوتام** ، ٢١ـ٥ـ١٩٧٨ ٠

(١٢٤) زئيف شيف ـ **هآرتس** ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(١٢٥) **المصدر نفسه** ٠

(١٢٦) عوزي نركيس ـ **معاريف** ، ٥ـ٢ـ١٩٧٨ ٠

(١٢٧) بوعز عفرون ـ **يديعوت احرونوت** ، ٢٠ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(١٢٨) **المصدر نفسه** ٠

(١٢٩) الوف هار أيبن ـ **معاريف** ، ١٥ـ٥ـ١٩٧٨ ٠

(١٣٠) **المصدر نفسه** ٠

(١٣١) انظر الملاحظة (١٢٠) اعلاه ٠

(١٣٢) اوري افنيري ـ **هاعولام هازيه**، ٢٢ـ٢ـ١٩٧٨ ٠

(١٣٣) كما اوردها يسرائيل تومار ـ **يديعوت احرونوت** ، ٢ـ١٢ـ١٩٧٧ ٠

(١٣٤) انظر الملاحظة (١٢٦) اعلاه ٠

(١٣٥) **معاريف** ، ٢٨ـ١٢ـ١٩٧٧ ٠

(١٣٦) **المصدر نفسه** ، ٢ـ١٢ـ١٩٧٧ ٠

(١٣٧) **يديعوت احرونوت** ، ١٩ـ١٢ـ١٩٧٧ ٠

حمدان بدر

# الجريمة المنظمة في اسرائيل

نشر في شهر شباط ( فبراير ) الماضي في اسرائيل تقرير لجنة شيمرون حول اوضاع الجريمة والعنف في اسرائيل · وكانت هذه اللجنة قد تشكلت في شهر ايلول ( سبتمبر ) من العام الماضي في اعقاب ازدياد اعمال العنف والقتل والجريمة ووصولها الى حد لا يمكن التغاضي عنه ، خاصة وان وسائل الاعلام الاسرائيلية كانت قد كشفت الكثير عن مجالات الجريمة وبعض قادتها وارتباطهم بالمؤسسات الحكومية والشخصيات المسؤولة · وكانت لجنة شيمرون قد شكلت، بقرار من الحكومة الاسرائيلية ، من قبل وزير الداخلية يوسف بورغ ، واوكلت اليها مهمة تقصي الامور التالية :

١ ـ الاعمال الاجرامية في اسرائيل : مدى خطورة هذه الاعمال وعمقها، خصوصا الجريمة الخطرة والعنيفة ، ووسائل تنظيمها وخصائصها ·

٢ ـ التأهب الرسمي لمكافحة الاجرام على انواعه ، خصوصا الجريمة الخطرة والعنيفة ، ووسائل اكتشافها ومنعها وضمان تقديم المتهمين الى المحاكمة ، وكذلك تنظيم وتدعيم وزيادة كفاءة الهيئات والاجهزة التي تتولى فرض القانون وسيادته ، وتنسيق العمل بين تلك الاجهزة والهيئات (١) ·

وقد قام الوزير يوسف بورغ بالتشاور مع رئيس الحكومة ، والمستشار القضائي للحكومة بصدد تشكيل لجنة التحقيق ، التي عرفت باسم « لجنة شيمرون » بسبب اسم رئيسها المحامي ارفين شيمرون ، المدعي العام في جهاز امن الدولة سابقا وعين في اللجنة ايضا ، كاعضاء ، مراقب الحسابات

يتسحاق مان ، وهو مفوض ضريبة الدخل سابقا ، ويوسف هارملين ، المدير العام لشركة « الخدمات النفطية » ورئيس الشين بيت ، جهـــاز المخابـرات الداخلية سابقا ، والدكتور متتياهو سيبع المحاضر في علم الجريمة ومفوضـــس سابق في الشرطة ، ورجل القانون الياهو لانكين ، الذي كان قائدا لسفينـة السلاح « التالينا » التابعة للاتسل ( والتي نسفتها الهاغاناه في صيف ١٩٤٨ بأمر من بن غوريون ) والدكتور يعقوب الياف من دائرة علم الجريمة في جامعة بارايلان (٢) ٠

ولقد عملت هذه اللجنة طيلة اربعة شهور متتالية استمعت خلالها الى مئات الاشخاص وراجعت كذلك الاف الوثائق ، ومن ثم قدمت تقريرها المؤلف مـن جزئين ـ علني وسري ـ الى الحكومة ، وقد وضع ذلك التقرير حدا للنقاش وللجدل السائدين في اسرائيل منذ عام ١٩٧١ ، في اعقاب نشر الصحفي ران كسليف سلسلة مقالات في صحيفة « هآرتس » اشار من خلالهـــا الى وجود جريمة منظمة في اسرائيل ٠ فقد اكدت اللجنة فيتقريرها وجود جريمة منظمة في اسرائيل ، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، مكذبة بذلك اقوال الشرطة ، وخاصة وزير الشرطة السابق شلومو هيلل ، واستماتتهم في النفي القاطـــع لوجود جريمة منظمة في اسرائيل ٠ ولقد استغربت اللجنة عدم اقرار الشرطة واعترافها بوجود الجريمة المنظمة ، بالرغم من النتائج التي كانت قد توصلت اليها لجنة بوخنر ، التي كانت قد شكلتها الشرطة نفسها في العام الماضي ، والتي أشارت في تقريرها بوضوح الى وجود عدد كبير من الادلة التي تشير الى وجود الجريمة المنظمة ٠ فقد اكدت لجنة بوخنر في تقريرها وجود تنظيم للجريمة وزعامة ، هدفها الحصول على ارباح اقتصادية بوسائل غير قانونية ، وكذلك وجود علاقات مع السلطات والمؤسسة الحاكمة ٠ وبهذا تكون لجنة بوخنر قد أقرت بوجود كافة مركبات الجريمة المنظمة ، ولكنها لم تتجرأ على اعلان الحقيقة (٣) ٠

### اسباب الجريمة

هناك أسباب عديدة للجريمة والعنف في اسرائيل ، كما يراها الاسرائيليون في مختلف اوساطهم ٠ وتشابه هذه الاسباب ، كما وردت في تقرير لجنـــة شيمرون المذكور ، مع تلك القائمة في مجتمع الرخاء في البلدان الغربية الا ان اللجنة أشارت أيضا الى وجود أسباب اخرى خاصة باسرائيل ، سببهـا اهتمام سلطات اسرائيل منذ قيامها بمشكلتين رئيسيتين ، هما الامن واستيعاب الهجرة ، مما ادى بالتالي الى اهمال معالجة القضايا الاخرى ٠

ويتضح من تقرير لجنة شيمرون ان بعض الاسباب الاساسية للجريمة المنظمة

في اسرائيل نابع من طبيعة تكوين « المجتمع » الاسرائيلي · فقد أدى ، مثلا ، وصول موجات الهجرة الكبيرة ، من يهود الدول الاسيوية والافريقية ، الى اسرائيل خلال السنين الاولى لقيامها ، تم محاولة استيعاب اولئك المهاجرين وفق التقاليد والمفاهيم العربية الى تحطيم القيم والعادات ، التي جلبها المهاجرون من مجتمعاتهم المحافظة · ونجم عن ذلك بروز شعور بالغربة لدى الجيل الشاب بالنسبة للعائلة وتقاليدها (٤) ·

واعتبرت لجنة شيمرون نظام التعليم في اسرائيل مسؤولا ، الى حد ما ، عن ظهور الجريمة وتفاقمها ، حيث انه لم ينجح في اعطاء هؤلاء المهاجرين ايه قيم ايجابيه بدلا من تلك التي جلبوها معهم ، والتي كانت أساسا صلبا في البلدان التي قدموا منها · وقد كان من نتيجة هذه العملية حدوث أزمة عدم وجود القيم ، التي شكلت في كثير من الاحيان عاملا للجريمة ، وخاصة لدى اوساط الجيل الشاب (٥) · كما اعتبرت اللجنة طريقة التدريس عاملا في بروز الجريمة ، اذ انها تهتم بالتعليم وتهمل التربية ، فتتشدد في انجاز البرامج واكمالها وليس في تلقين الطلاب القيم · ومن هنا فانه ليس باستطاعة كافة الشبيبة ، وخاصة ابناء الاحياء الفقيرة ، الصمود في مواجهة العوامل التي تحطم القيم الاخلاقية · كما ان المدرسة لا تنجح في تشجيع الدافع للتعلم لدى الطلاب ، الذين يتجهون الى رفض اوامر المعلمين ، ومن ثم ينمو لديهم الشعور بالعداء تجاه المدرسة ، ثم ينتقل الى المجتمع المحيط بالمدرسة ، واخيرا الى المجتمع بأسره · وقد اوصت لجنة شيمرون السلطات بأن تبذل جهدا متواصلا ومركزا لتحسين اوضاع المدارس ، من اجل تلقين القيم واحترام القانون والعمل ، ومن ثم تنفيذ خطة للاصلاح الاجتماعي من اجل القضاء على أسباب الشعور بالظلم · كما طالبت اللجنة باعداد مناهج دراسية تهتم بالفرد وتعطي مضمونا لحياته ، حيث ان آلاف الطلاب يتركون المدارس ويجوبون الشوارع بدون معلم او مرشد ، وبسبب ذلك يقعون ضحية للبطالة والتسكع اللذين يقودانهما الى الجريمة (٦) ·

وتشير الارقام غير الرسمية الى وجود ما بين ١٥ ــ ٢٠ الف من ابناء الشبيبة في سن التعليم الالزامي ، ولا يتعلمون في المدارس كما ينص القانون · وتشكل هذه الشبيبة المستودع الرئيسي الذي ينبت فيه الجناة الصغار · وهناك شبيبة اكبر منها سنا ، تعمل في النهار وترتكب المخالفات في ساعات الليل · وفسر السبب الرئيسي لجنوح هذه الشبيبة في اسرائيل كأنه ناجم عن تأثير الهجرة التي أدت الى بروز صراع تربوي بين مجموعات المهاجرين وبين جهاز التقاليد والقيم في المجتمع الذي انتقلوا اليه ، مما ساعد على تفكك العائلة وتضعضع الصلاحية داخلها (٧) ·

وقد وجدت لجنة شيمرون ان احد الاسباب التي تشجع على ارتكاب اعمال

العنف والجريمة يعود الى النقص في الطاقة البشرية والوسائل لدى مختلف الدوائر المكلفة بمكافحة الجريمة ، وخاصة لدى المحاكم ودائرة ضريبة الدخل والشرطة • فعدد المحاكم والقضاة في اسرائيل قليل ولا يكفي للاهتمام بالاعداد الكبيرة والمتكدسة من القضايا ، التي يؤجل النظر فيها لفترات طويلة ، مما يؤدي الى عدم محاسبة المتهمين وردعهم ، لانهم يدركون ان الشكاوي ضدهم ستوضع في ملفات لمدة طويلة (٨) • وتبرز في هذا المجال مسالة عجز الشرطة عن مواجهه زعماء الاجرام المنظم ، على الرغم من ان لديها معلومات وافرة عن نشاطهم • ويعترف قائد منطقه تل ابيب ، العميد موشيه تيومكين ، بهذا العجز ، مشيرا الى النقص في الطاقة البشريه ، خصوصا لدى استخبارات الشرطة وعدم مساهمة بعض الجهات الحكوميه ( ضريبة الدخل مثلا ) في مساعدة الشرطة والابطاء الشديد في الاجراءات القانونية في المحاكم ، كاسباب رئيسية لهذا العجز • وذكر تيومكين ، على سبيل المثال ، ان هنالك ١٦٣٥ قضية في المحكمة المركزية في تل ابيب و ٧٧٥ قضية في النيابة العامة و ١٨٣٢ قضية في محكمة الصلح ، ما زالت تنتظر استكمال الاجراءات القانونية ، في حين يتمتع اكثر المتهمين في هذه القضايا بحريتهم خارج السجن الى حين صدور الحكم (٩) • اما مدير المحاكم موشيه نيخط فقد أعلن انه تم خلال عام ١٩٧٧ تقديم ٥٧٦ر٠٠٠ قضية الى المحاكم ( ما عدا المحاكم الدينية والعسكرية والتأديبية ) • اي ان كل رابع مواطن من الراشدين قدم الى المحاكمة ، معلنا انه بحسب معلوماته لا يوجد مثيل لهذه النسبة من المتهمين في العالم • وذكر ينخط ايضا ان هنالك ٢٢٨ قاضيا فقط للنظر في هذا العدد الهائل من القضايا ، وان ٥٠٪ منهم يعملون في محاكم منطقة تل ابيب ، بينما يبلغ سكانها ثلث سكان اسرائيل فقط • واشار مدير المحاكم ايضا الى ان ظاهرة تهديد القضاة آخذة في التزايد ، وانه تم خلال السنتين الاخيرتين تسجيل ١٨ حادثة تهديد ( خطيا وشفهيا ) للقضاة و ١٦ حادثة شغب في قاعات المحاكم واحراق ملفات قضائية (١٠) •

ولا تقتصر عمليات التهديد على القضاة والمحاكم فقط ، وانما تشمل الشهود ايضا ، الذين كثيرا ما يتعرضون للضغط وللتهديد بالقتل او احراق ممتلكاتهم اذا لم يغيروا افاداتهم • والكثيرون منهم يفعلون ذلك لان الشرطة لا تستطيع حمايتهم • ولذلك كثيرا ما تواجه المحاكم مشكلة عملية اثبات التهمة من جديد (١١) • كما ان التغاضي عن معالجة المشاكل الصغيرة من قبل الشرطة ، والتي تقدم اليها بالالاف من قبل المواطنين يساعد على ازدياد التوتر فانتشار الجريمة (١٢) •

ويرى البعض ان التوتر والحالة النفسية الصعبة اللذين يعاني منهما « المجتمع » الاسرائيلي ، وكذلك الاستمرار في التحريض على الحروب تشكل

عوامل رئيسية في ارتكاب أعمال العنف والجريمة · وتحدث الدكتور بنيامين يانوف ، المحاضر في جامعة بارايلان عن ، التوتر الذي يعيشه « المجتمع » الاسرائيلي بسبب الحروب ، وعن الازمات الحرجة التي خلقتها هذه الحروب قائلا : « من المؤكد اننا ندفع الثمن ، وان التوتر الامني الصعب يؤثر على سكان الدولة ··· انني اعتقد بان سلوك السائقين الاسرائيليين العنيف على الطرقات ، من خلال غياب الحذر وغياب التهذيب ، ليس صدفة · فالتوتر الامني الذي يسود البلاد يترك طابعه وله تأثير كبير على السلوك العنيف »(١٣)· وذكرت لجنة شيمرون في تقريرها ان الكثير من السائقين يتصرفون في الطرقات وكأنها ملكهم الشخصي ، فيخالفون كافة قوانين السير ، وحتى انهم يجبرون اصحاب السيارات الصغيرة على النزول على الشارع اذا ارادوا تجنب الوقوع ضحية حادثة سير (١٤) ·

وتحدث وزير الشرطة السابق شلومو هيلل عن تأثير الحروب على الوضع داخل اسرائيل بقوله : « لا يمكن التغاضي عن حقيقة انه منذ الفترة التي اعقبت حرب يوم الغفران [١٩٧٣] ، حدثت زيادة كبيرة في عدد الجرائم المقترنة بالتهديدات ، وهي تعبر عن عدوانية وعنف ، يستلزم توضيحا وتفكيرا ··· يضاف الى ذلك أننا نعيش في حالة توتر وكأننا على ابواب حرب جديدة » (١٥)·

ومن جهة اخرى اتجه البعض الى المقارنة بين ما حدث من اعمال عنف وجريمة في الولايات المتحدة في اعقاب التوقيع على اتفاق انهاء القتال في فيتنام ، وما حدث في اسرائيل في اعقاب التوقيع على اتفاقية فصل القوات بينها وبين الدول العربية في نهاية ١٩٧٣ · واشار احدهم الى هذا الموضوع قائلا · « يبدو انه لم تكن هنالك فترة حدثت فيها أعمال قتل وسرقة وتصفية حسابات بواسطة مواد متفجرة ، كالفترة التي مرت منذ حرب يوم الغفران · وان من يفسر الامر بوفرة السلاح بين ايدي الجمهور فقط ، يريح نفسه من عناء البحث · ويبدو انه لا مناص من اجراء مقابلة بين الوضع الناشيء عندنا ، وبين موجة العنف التي عمت المجتمع الاميركي عقب انتهاء حرب فيتنام ، عندما اخذ التأثير المتراكم لاستخدام العنف تجاه الخارج ينعكس اكثر فأكثر تجاه الداخل ··· وسبب ذلك يعود الى مطالبة اليمين في اسرائيل بضرورة محاربة العرب وقتلهم » (١٦) · وكمثال على ذلك ، فقد جاء في صحيفة الكلية التي اصدرتها جماعة « ليكود » في جامعة حيفا انه « ينبغي الاستمرار في ضرب العرب بدون رحمة » (١٧) · كما ان تربية الجمهور الاسرائيلي وتثقيفه على العنف تجاه الخارج ، اي تجاه العرب ، لا بد وان يرتد ايضا نحو الداخل ، خصوصا وان هناك شريحة كبيرة في اسرائيل تحس بالغبن اللاحق بها ، ولا تجد متنفسا عن وضعها الا باستخدام ما كانت قد تلقنته (١٨) ·

ويعزو الدكتور عوزي شيلو ، الاستاذ في علم الاجتماع اسباب ظاهرة العنف الى احساس المواطن الاسرائيلي بانه ليس شريكا في صنع القرارات ، والى كون « المجتمع » الاسرائيلي مجتمعا في طور التبلور ، فيقول : « لدى المواطن في دولة اسرائيل اليوم احساس بان ليس له ، او لاعماله ، اي تأثير في معظم نواحي الحياة ، باستثناء الامور الشخصية · فهو بمثابة لولب صغير ، ودائما هنالك من يقرر من اجله ··· والواقع هو ان احساس المواطن بعدم السيطرة على ما يجري حوله ، يؤدي في احيان كثيرة الى تفجرات عنيفة » (١٩) ·

وهنالك ايضا نصيب كبير ، في دفع عجلة اعمال العنف والجريمة الى الامام ، للاصول الحضارية المختلفة « للمجتمع » الاسرائيلي ، الامر الذي يسبب في كثير من الاحيان صدامات بين الجيران · كما ان الفجوة الاجتماعية والطائفية قد ساعدت على انتشار العنف والجريمة ، اذ ان تركيب « المجتمع » الاسرائيلي ، نفسه يحتوي في طياته على عوامل تساعد على خلق مثل هذه الظواهر · فالتغير الكبير في تركيب « المجتمع » الاسرائيلي ، الذي كان صغيرا قبل قيام الدولة ، واصبح الان على ما هو عليه ، ثم انتقاله الى مجتمع حديث ، تكنولوجي وصناعي ، قد ادى الى حدوث تخبطات كثيرة في مجالات مختلفة · كما ان عدم وجود ايديولوجية واحدة مشتركة لدى الاسرائيليين قد ادى الى ظواهر سلبية منها العنف (٢٠) ·

ويعتقد الدكتور عوزي شيلو ، الاستاذ في علم الاجتماع ، انه عند قيام الدولة كان « المجتمع » الاسرائيلي يعيش باحساس ان جميع الاسرائيليين اعضاء في حركة شبيبة واحدة · كنا جميعا نتحلى بالمثل · كان هنالك شعور بالاخوة والوحدة الاجتماعية ··· اما اليوم فقد تبدد هذا الاحساس ، في الوقت الذي لا نزال نفتقر فيه الى شبكة من الانماط وقواعد السلوك الرسمي ، كدول اقدم منا · وهذا الوضع الذي يتسم بالبلبلة وعدم الوضوح يؤدي في احيان عديدة الى ظواهر من التفجرات العنيفة » (٢١) ·

ويبدو ايضا ان العامل الاقتصادي والتفاوت بين الطبقات والفئات يعتبران سببا لا يستهان به في انتشار ظواهر العنف والجريمة · واحد الادلة على ذلك هو أن الفئات والطبقات الغنية ، التي تعيش في المنطقة الشمالية من تل ابيب حياة البذخ والرفاهية تثير حفيظة ونقمة ابناء الاحياء والفئات الفقيرة ، مما يؤدي الى ارتكابهم الجرائم ضد هؤلاء · « وهكذا مثلا ، يمكن تفسير الحادث الذي وقع قبل عدة أيام في تل أبيب ، عندما تم تدمير مجموعة من السيارات دون ان يسرق من داخلها شيء · وهذا هو احتجاج الشبان الذين يعيشون على هامش المجتمع ويعرفون بان التعليم الجيد والمهن المحترمة مغلقة امامهم » (٢٢) · وقد تحدث عن هذا الموضوع احد افراد عالم الاجرام ، الذي

بدأ وهو في الصف السادس الابتدائي يمارس السرقات ، وخاصة في المنطقة الشمالية من تل ابيب حيث يسكن الاغنياء والاشكناز ، فقال : « انني اكرههم ، فهم يعتبرون انفسهم « مجتمعا راقيا » ولهذا السبب اقوم بسرقتهم · كل ما يطلبونه يحصلون عليه فورا · وهنا في الجنوب [ الاحياء الفقيرة ] حتى المظاهرات عديمة الفائدة ··· اذا بقيت ٨ سنوات في السجن فلن اذهب للخدمة في الجيش · انهم يعطون لجماعة الشمال كل شيء ، واذا كان الجيش للدولة ، فليذهب اليها من يأخذ من الدولة · انني لن اذهب لانني لا آخذ شيئا » (٢٣) ·

## الجريمة في اسرائيل وتشعباتها

بدأ الحديث ، كما ذكرنا سابقا ، عن الجريمة المنظمة في اسرائيل بصورة علنية عام ١٩٧١ . وذلك في سلسلة مقالات ، نشرها الصحافي ران كسليف في صحيفة « هآرتس » · وحدث ذلك في اعقاب الجرائم التي كثرت في تلك الفترة ، وشملت القتل والسرقات والتهريب · ولكن منفذي هذه العمليات ، المعروفين جيدا من قبل الاهالي والشرطة والذين سرعان ما كان يلقى القبض عليهم ، لم يلقوا جزاءهم ، اذ كان يطلق سراحهم بالرغم من ان كافة الدلائل تشير الى ارتكابهم الجرائم · كذلك ازداد الاهتمام بهذه الظاهرة بعد مبالغة كبار ضباط الشرطة ، وخاصة وزير الشرطة وغيره من المسؤولين ، في نفي وجود الجريمة المنظمة ، لدرجة دفعت البعض الى القول « ان اكثر شيء ينفى في الدولة هو وجود الجريمة المنظمة · » ولكن تسلسل الاحداث ، وازدياد اعمال العنف لم يقنع الكثيرين بصحة هذه الاقوال · وجاء ران كسليف ، عبر تحقيقاته الطويلة عن هذا الموضوع ورسم الصورة التالية ، رغم التهديدات التي وصلت اليه :« ان الصورة التي ارتسمت في نهاية تحقيقي قد اخافتني ايضا. ليس بسبب « النصائح الطيبة » التي وصلتني عبر مختلف المصادر من اجل ايقاف اهتمامي بهذا الموضوع ، وانما بسبب الصورة نفسها · وان المدهش جدا هو انه بالرغم من الفوارق الكبيرة في الخلفية وفي الظروف ، فقد ذكرتني الصورة بالمافيا الاميركية المشهورة · ان المافيا في اميركا كبيرة جدا وتملك قوة عظيمة ، واما في اسرائيل فالمنظمة في بداية طريقها » (٢٤) ·

ولا يعني هذا ان الجريمة المنظمة في اسرائيل قد بدأت في بداية السبعينات، وان كان الحديث عنها قد بدأ انذاك فقط ، اذ ان هنالك من يؤكد ان الاسس الاولية لتكوين شبكة الجريمة المنظمة في اسرائيل قد تكونت خلال ايامها الاولى ، خلال فترة التقشف التي فرض فيها حظر على بعض المواد الغذائية ، مما ادى الى نشاط عمليات التهريب وبيع المواد الغذائية المهربة ، مع كل ما

يتطلبه ذلك من تجنيد اعداد كبيرة للعمل لهذه الغاية · ومع انتهاء فترة التقشف ، تحولت هذه الجماعات الى اعمال الاجرام المتعددة ، وتطورت اساليبها وازدادت قوتها تنظيميا ، في حين بقيت امكانات الشرطة على وضعها القديم ، فاتبعت سياسة ملاحقة صغار المخالفين بدلا من القبض على كبار المسؤولين عن شبكات الاجرام (٢٥) ·

ومن خلال النفي التام لوجود الجريمة المنظمة في اسرائيل ، كانت الشرطة مستعدة للاعتراف بمحاولة واحدة لتنظيم الجريمة هناك ، الا وهي دخول « المنظمة الفرنسية » الى اسرائيل ( وهي التي تعرف ايضا باسم « العصابة الفرنسية » او « المافيا الفرنسية » ) · وكان رجال « المافيا الفرنسية » قد جاءوا من جنوب فرنسا واستقروا في ديمونة وبئر السبع واشدود ، ومن ثم انتقلوا في نهاية الستينات الى تل ابيب بعد ان شعروا بالامان والاستقرار · وادعى بعض مسؤولي الشرطة ان هذه العصابة قد صفيت ، ولكن المحققين يعتقدون بانها ليست قائمة فحسب ، بل أنها مستمرة في العمل أيضا ، وان نوعية تنظيمها ومواردها المالية الكبيرة وعلاقاتها مع الخارج وامكانية تبديل الاشخاص وجلبهم الى اسرائيل واخراجهم منها ، ثم علاقاتها مع مراكز الجريمة في اوروبا ـ كل هذا يمكن « المافيا الفرنسية » من التكيف التام مع الظروف والنشاط الهادىء (٢٦) ·

الا انه يبدو واضحا ، نتيجة للاعمال الاجرامية التي ترتكب في اسرائيل ، ان هناك عدة منظمات ، كبيرة وصغيرة ، تمتهن الجريمة في اماكن مختلفة ويبدو ان اخطر هذه المنظمات هي ثلاث عصابات تعمل في تل ابيب وضواحيها ، وهي « مافيا » تل ابيب وعصابة كيرم هاتيمنيم ( من اليهود اليمنيين ) و « المافيا الفرنسية » (٢٧) ·

ووصفت لجنة شيمرون الجريمة المنظمة في اسرائيل بانها « صيغة اسرائيلية»، مما اثار حفيظة وانتقاد الكثيرين ، وعلى رأسهم وزير العدل السابق ، حاييم تسادوك ، فقال ان لجنة شيمرون عندما وصفت الجريمة في اسرائيل بانها «صيغة اسرائيلية وليست اميركية لم تقم بتحديد الفرق بينهما · وان كل من يحاول الادعاء انه لا توجد جريمة منظمة في اسرائيل ، لانه لا يوجد شبه بين المافيا فى الولايات المتحدة والوضع في اسرائيل ، فانما هو مخطىء · فقد توصل العلماء الذين يبحثون عما يجري في الولايات المتحدة ، ان الجريمة هناك ليست متناسقة ، اذ يوجد في البلد عدة انواع من الجريمة المنظمة ، واشهرها المافيا الايطالية والمافيا الزنجية · والفارق البارز بينهما هو ان المافيا الايطالية تعتمد على العائلة واما الزنوج فيعتمدون على الحي · وفي هذه النقطة يوجد شبه كبير جدا بين المافيا الزنجية وبين الجريمة المنظمة في اسرائيل · حيث ان قوة

زعماء الجريمة هنا تعتمد على الحي ، ومن ثم ـ عندما يثبتون انفسهم ـ يستطيعون التقرب من القمة (٢٨) ٠

**قادة الجريمة**

كشف النقاب مؤخرا عن وثيقة من قبل الشرطة ، تحتوي على اسماء قادة وزعماء الجريمة المنظمة في اسرائيل ، البالغ عددهم احد عشر زعيما ٠ وقد قدمت هذه الوثيقة الى قاض الصلح عزريئيل شافي ، من قبل الضابط عاموس عزري ، احد الضباط في قيادة الشرطة وهؤلاء هم :

١ ) مردخاي تسرفتي ( منتش ) ، الذي قام بتمويل صفقات من المخدرات لكل من رحاميم اهروني وبتساليل مزراحي ٠ ويقوم تسرفتي بجباية الاموال من نوادي القمار ، وهو ايضا شريك سري في فنادق بتساليل مزراحي ولديه كثير من الاتباع الذين ينفذون اوامره ٠

٢ ) بتساليل مزراحي ٠ وهو من ابرز وجوه الجريمة المنظمة ، مليونير يملك شركة مقاولات كبيرة ، قامت بتنفيذ مبان لوزارة الدفاع والاسكان وغيرهما ٠ ويملك ايضا شبكة فنادق في مختلف انحاء اسرائيل ، اطلق عليها اسم زوجته « غاني شرلاميت » ٠ وقد كان وزير السياحة السابق ، موشيه كول ، من ابرز ضيوفه الدائمين ٠ ويتحدد نشاطه في تمويل عمليات الاجرام المنظم ، خصوصا سرقة الماس وتهريب المخدرات الى اسرائيل ٠ ويفاخر مزراحي بان احد كبار ضباط الشرطة يشاركه في اعماله ، ويقدم اليه المعلومات عن نوايا الشرطة ضده ٠ كما انه لا يتردد في استخدام العنف ضد رجال الشرطة ، الذين يعتزمون التحقيق في اعماله وفي مصادر امواله ٠ وقد حصل ذلك فعلاً مع اليعزر شيلوني ـ مفوض ضريبة الدخل حاليا ـ الذي كان يرئس دائرة التحقيقات في الشرطة سابقا ٠

٣ ) رحاميم اهروني ، وهو شريك سري في مصنع اللحوم « فيمبي » ، ويملك ايضا مطعم « داكار » ، ويعمل ايضا في مجال الابتزاز والمتاجرة بالماس المسروق ٠ واهروني من كبار ممولي صفقات المخدرات في اسرائيل ، ويترأس شبكة لتهريب الذهب ، وواحد من رؤساء الشبكة التي تقوم بتهريب اموال اليهود من جنوب افريقيا الى سويسرا ٠ وقد بنى بيتا كلفه اربعة ملايين ليرة ٠ كما انه يلعب القمار ، ولا يهتم لخسارة مئات الالاف من الليرات ٠

٤ ) طوفيا اوشري ، وهو شريك في كل اعمال اهروني ٠

٥ ) ايلي تيسونا ، وهو شريك لاهروني في صفقات المخدرات ، ومسجل على انه صاحب مصنع « فيمبي » المذكور ٠

٦ ) عزرا تيسونا الذي يصف نفسه بانه لاعب طاولة نرد محترف ، ويستغل ذلك كتغطية لتنقلاته في العالم ، ويتعامل بالمخدرات · وهو « متخصص » بالتهريب وباجراء المعاملات في الجمارك ·

٧ ) يحزكيئيل اسلام ، ويعمل في النسيج وقد تسلم مساعدات من وزارة التجارة والصناعة لفتح معمل للنسيج في كريات شمونة · ولكن المصنع لم يفتح · ويعمل في تل ابيب في حقل المخدرات ، ويحاول السيطرة على قسم من تصريفها في ايلات ·

٨ ) يعقوب ابشتاين ، وهو صاحب مرآب للسيارات ، ويقوم بتمويل تهريب المخدرات وبيع الاملاك المسروقة ، ويبدو انه يملك مصنعا في افريقيا يستخدمه كغطاء للتهريب ·

٩ ) رافي شاؤولي ، وهو صاحب مجموعة من المطاعم يستورد المخدرات ويعمل بالتهريب ونقل الاموال الى الخارج بواسطة شبكة تهريب ، وذلك بمساعدة مضيفي شركة « ال عال » ·

١٠ ) مونيا شابيرا ، شريك في كازينو « كانتري كلوب » في رامات هشارون، ويعمل في مجال بيع السيارات المسروقة التي يتم تغيير شكلها · وقد خسر قبل ثلاث سنوات ثلاثة ملايين ليرة اسرائيلية في لعب القمار · وعلاقته وثيقة مع بتساليل مزراحي ، وقد يكون شريكا في بيع المخدرات ·

١١ ) دافيد درنشفيلي – ليس لديه عمل رسمي يعتاش منه ، ولكنه معروف كمزيف للعملات وخاصة الدولارات ، ويقوم بفرض رسوم الخوة والحماية على بعض المحلات (٢٩) ·

ومن جهة اخرى ، طرح ايضا اسم بلاتو شارون – عضو الكنيست حاليا – كمرشح لرئاسة الجريمة المنظمة في اسرائيل ، في اعقاب غياب احد زعمائها البارزين يعقوب كوهين ( يعقوبي ) · ويؤكد الصحافي آفي فالنتين ان رجال منتش قدموا الى بلاتو شارون مساعدات كبيرة في حملته الانتخابية · وشارون هو محتال دولي معروف ، ومطلوب من قبل فرنسا بتهم عديدة · ولكنه منذ انتخابه عضو كنيست ، يتمتع بالحصانة النيابية · وفي الوقت نفسه يحافظ علنا على علاقاته بزعماء الجريمة في اسرائيل (٣٠) ·

**مجالات الجريمة**

يؤكد تقرير لجنة شيمرون ان رجال الجريمة المنظمة يعملون في مختلف فروع الاقتصاد الاسرائيلي ، كالمجوهرات والبناء واستيراد البضائع وكذلك المخدرات،

حيث وصلت الاموال المستعملة في هذه التجارة سنويا من قبل رجال الجريمة المنظمة الى حوالي ثلاثة مليارات ليرة اسرائيلية (٣١) · وتشير الاحصائيات الى وجود نحو ١٠٠ الف شخص يتعاطون المخدرات في اسرائيل ، بينما يصل عدد المدمنين على المخدرات الخطرة الى ١٠ الاف شخص ، معظمهم في منطقة تل أبيب · وتتسع عادة تعاطي المخدرات بين الشبيبة وطلاب المدارس الثانوية والشبيبة العاملة وافراد الجيش الاسرائيلي (٣٢) ·

وأشارت لجنة شيمرون أيضا الى خطورة الاموال السوداء التي تعمل في الاقتصاد باحجام كبيرة ، والتي لا يعرف اصحابها ولذلك فانها غير خاضعة لضريبة الدخل · كما كشفت اللجنة عن وجود الجريمة المنظمة في قطاع تصريف الانتاج الزراعي ، حيث ان الاسواق ، سواء تلك التي تتعامل بالجملة او بالمفرق، تستخدم بؤرة لهذه الاموال ولتراكمها · فتصريف المنتوجات الزراعية يتم ، مثلا ، من خلال عملية غير قانونية ، اذ ان تاجر الجملة لا يبيع بضاعته بصورة مباشرة الى تاجر المفرق ، كما ينص القانون ، وانما هناك تاجر اخر وسيط هو الذي يقوم بهذه العملية · وهذا ما يؤدي بدوره الى ارتفاع اسعار المنتوجات للمستهلك بنسب كبيرة · كما ان عملية نقل الخضروات والفواكه من المنتج الى السوق خاضعة لسيطرة عدد محدود من كبار تجار الجملة ، الذين يقومون بتصريف المنتوجات الى الاسواق بناء على حسابات الارباح الخاصة بهم · ونتيجة لذلك يصل ، مثلا ، القسم الاكبر من المنتوجات الزراعية من كافة انحاء اسرائيل الى السوق الرئيسي في تل ابيب ، ثم يعاد قسم من هذه المنتوجات الى الاسواق الاخرى الموجودة بالقرب من المكان الذي كانت قد ارسلت منه الى تل ابيب · ولا تتوقف اعمال الجريمة في المجال الزراعي عن هذا الحد ، فقد علمت لجنة شيمرون ان السرقات والاضرار التي تحدث في هذا المجال تقدر بربع مليار ليرة اسرائيلية سنويا (٣٣) ·

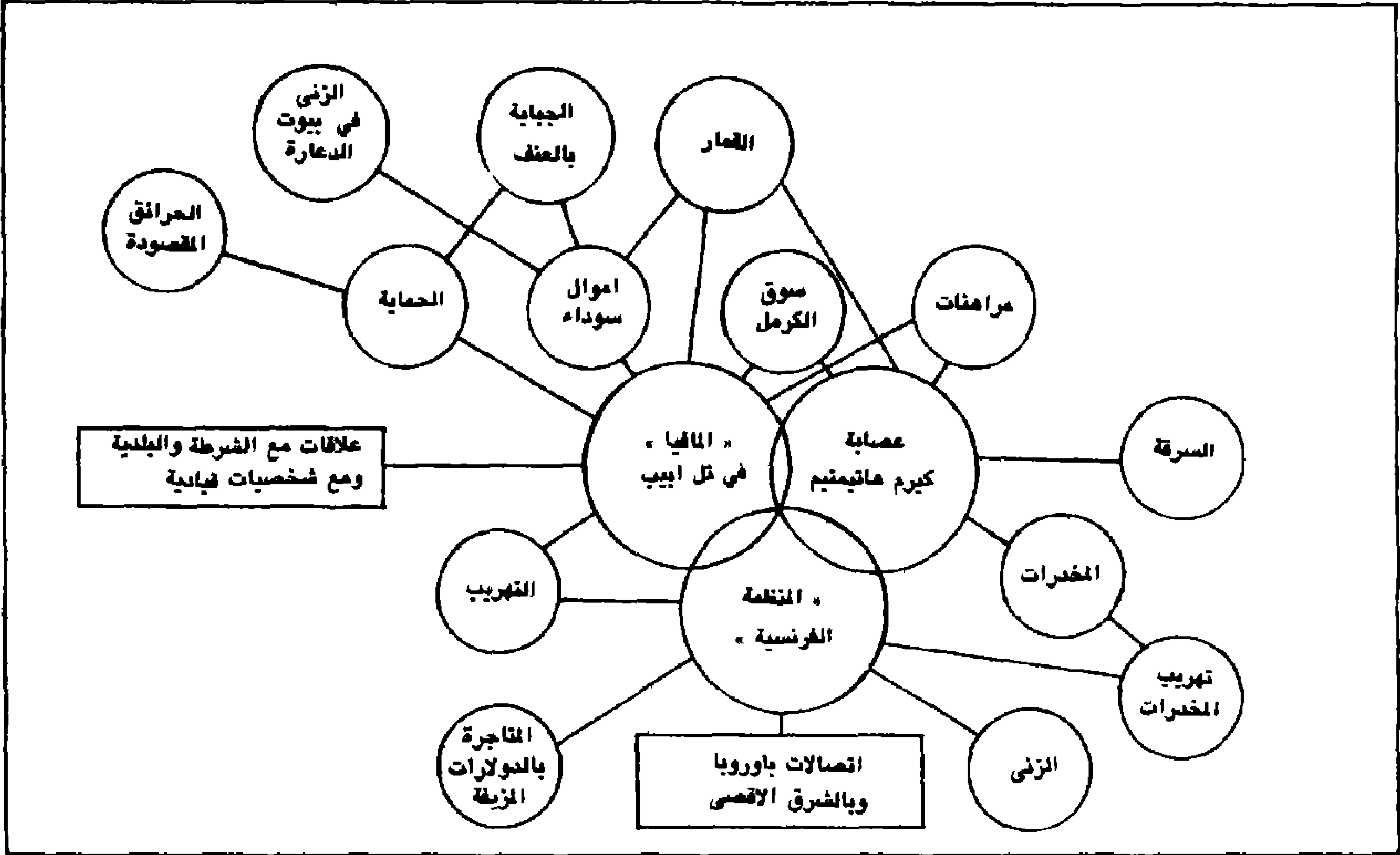
كما ان هناك مجالات اخرى كثيرة للجريمة منها الماس والمقاولات الترابية ومقاولات البناء وكذلك استيراد وتصدير الادوات الكهربائية والمنزلية · يضاف الى ذلك عمليات السرقة والتهريب في الموانىء ، التي تتم بواسطة وثائق مزورة او تغيير الوثائق · وقد تبين للجنة شيمرون ان البضائع الكثيرة المعروضة في المحلات التجارية على امتداد شارع الاستقلال في حيفا ، وكذلك في مدن اخرى ، مصدرها التهريب · وتتم عمليات التهريب هذه بواسطة سفن تتنقل بين موانىء البحر المتوسط ومن ثم تعود الى موانىء اسرائيل بعد ١٠ ــ ١٤ يوما من مغادرتها · وعند وصولها الى مارسيليا تنتظرها هناك سيارات النقل المعبئة بالبضائع ، المعدة للتهريب الى اسرائيل · كما ان قسما كبيرا من البحارة الذين يعملون على خطوط البحر المتوسط يشتغلون بالتهريب بصورة دائمة · وهنالك سرقات ضخمة تتم من المخازن في مطار بن غوريون ، وخاصة فيما يتعلق

بالماس (٣٤) · وتعمل الجريمة المنظمة ايضا في مجال سرقة السيارات · ـ وقد وصلت قيمة السيارات المسروقة عام ١٩٧٦ الى ١٥٠ ـ ٢٠٠ مليـــون ليـــرة اسرائيلية ـ وكذلك سرقة المحلات والسطو عليها · وقد اوردت الاحصائيـــات الرسمية ان عمليات السطو بلغت عام ١٩٤٩ نحو ٣٣٣٠ حادثة ، بينما ارتفعت الى حوالي ٥٠ ألف حادثة عام ١٩٧٦ · وتعزو لجنة شيمرون هذه الزيادة الكبيرة الى ان الشرطة لا تستطيع التوصل الى معرفة مسببي هذه الجرائم ، حيث انها توصلت في أحسن الاحوال الى حل ٨ر٥٪ من هذه المشاكل ، ممـــــا يشجع على مثل هذه الاعمال ، لان نسبة احتمال اعتقال مرتكب الجريمة ضئيلة للغاية (٣٥) · وقد وصل الامر ببعض العائلات الى حد انها لا تجرؤ على مغادرة بيوتها ، لان السرقات تتم في وضح النهار ·

وتنشط الجريمة المنظمة في مجال فرض رسوم الخوة والحماية والابتزاز من المحلات التجارية والاسواق · فقد اكد النائب اهود اولمرط انه هنالك على الاقل حوالي ١٥٠ مصنعا ومشغلا ، في القدس ، تدفع رسوم الحماية شهريا لاشخاص معروفين لديهم ولدى رجال الشرطة الاسرائيلية (٣٦) · واشار النائب دوف شيلانسكي الى انه قام برفقة احد كبار ضباط الشرطة بجولة في شارع اللنبـــي في تل ابيب · وقام هذا الضابط بالتوقف لدى كل حانوت يتعامل بمصنوعـــات النسيج ، وقال ان هذا يدفع رسوم حماية لهذا وذاك يدفع لذاك ، وكل شيء منظم بحيث لا يدفع احدهم مرتين · وكشف الضابط عن انه اذا ما اريد فتح حانوت للنسيج « فلا حاجة للحصول على رخصة من الحكومة ولا من البلدية وانمــــا منهم » [اي رجال الجريمة] (٣٧) · كما كشف النائب تامير عن مجال جديـــد دخله مؤخرا رجال الجريمة المنظمة ، الا وهو الاستيلاء على الاراضي الحكومية، ثم مطالبة الدولة بدفع تعويضات كبيرة لهم مقابل اخلائها · ويؤكد ذلك النائـــب مئير زوريع ، الذي عمل في السابق مديرا لادارة عقارات اسرائيل بقوله : «كانت هناك بعض الحالات التي دفعت فيها الدولة تعويضات لهؤلاء الاشخاص » (٣٨) ·

وتلخص بعض المصادر الصورة الحالية للجريمة المنظمة في اسرائيل فتقول : « لقد تحولت خلال السنوات الاخيرة الى مملكة كبيرة ، تشتمل مجالات مختلفة ومتنوعة ، تهريب المخدرات دوليا ، الجباية غير القانونية وعمليات السطـــــو والسرقة وكذلك عمليات الزنى والابتزاز والتهديدات وفرض الخوة ، وفوق ذلك كله عمليات الحرق والقتل · وكذلك استثمار الاموال السوداء في المشاريـــــع الاقتصادية والمتاجرة بالمجوهرات والماس المسروقة · وتزييف العملة والمراهنات والقمار ، اي باختصار لقد دخلت [الجريمة] جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اسرائيل » (٣٩) ·

وفيما يلي رسم « لاجهزة » الجريمة المنظمة في اسرائيل ، ومجالات نشاطها المختلفة ، وتداخلها ببعضها البعض (٤٠) :




## الجريمة المنظمة في القطاع العسكري

لا يقتصر نشاط الجريمة المنظمة على القطاع المدني ، بل يتعداه ايضا الى القطاع العسكري في اسرائيل ، حيث ازدادت بشكل ملحوظ المخالفات في صفوف الجيش ، وخاصة تعاطي المخدرات · وهناك من يرجع ذلك (٤١) الى قرار كان قد اتخذ في اعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، بالسماح بتجنيد الشباب من اصحاب السوابق في صفوف الجيش ، بعد ان كان ذلك ممنوعا في السابق · وقد ظهر فيما بعد مدى خطورة النتائج المترتبة على هذا القرار ، حيث تفشت في صفوف الجيش ، من مختلف الرتب ، ظاهرة تعاطي المخدرات والسرقة والعنف نتيجة انتشار اعداد كبيرة من ذوي السوابق في مختلف القطاعات العسكرية · ويعتبر تعاطي المخدرات من اهم المواضيع الثابتة على جدول اعمال شرطة التحقيق العسكرية ، حيث تشكل معسكرات الجيش في سيناء والسجون العسكرية ، البؤر الرئيسية لانتشار المخدرات · ويتعرض المسؤولون في السجون العسكرية لتهديدات خطرة ومباشرة من السجناء اصحاب السوابق ، لحملهم على عدم كشف امرهم ، ولمساعدتهم ايضا على تهريب المخدرات الى السجن · ويبدو انه في حالات عديدة يكون الضباط على علم بانتشار المخدرات بين افراد وحداتهم ، لكنهم يمتنعون عن التبليغ ، ويبررون ذلك بقولهم انه ما

دام الجندي يقوم بعمله ، فليدخن ما يشاء في وقت فراغه ، لانه في حال القاء القبض على هؤلاء الجنود ، فستمر اسابيع طويلة قبل استبدالهم باخرين ، مما يؤثر في الطاقة البشرية في الوحدة · ومع تفشي المخدرات في صفوف الجيش الاسرائيلي ، تزايدت ايضا إعداد الفارين من الخدمة العسكرية ، « الذين لا يتورعون عن السرقة والاعتداء ، مستغلين الزي العسكري لتنفيذ اعمالهم الاجرامية ، الامر الذي لم يسبق ان حصل في الماضي » (٤٢) ·

## الصراع على النفوذ بين رجال الجريمة

لا تقتصر اعمال العنف والجريمة على المواطنين فقط ، وانما تشمل عصابات الجريمة نفسها ، حيث انها كثيرا ما تلجأ الى التشويه او التصفية ضد بعضها البعض ، وذلك في اطار الصراع الدائر بينها على النفوذ · واشار احد الصحافيين الى ان عددا من اعمال العنف التي شهدها حي هاتكفاه في تل ابيب ، تشكل تعبيرا عن الصراع الدائر على السلطة في عالم الجريمة ، بين القيادات القديمة والشابة · ومن مظاهر هذا الصراع ، مثلا ، القاء زجاجة مولوتوف حارقة على مدخل بيت شموئيل اهرون ، الذي عمل سنوات طويلة في مجال المراهنات والقمار · وعائلة اهرون معروفة بصلاتها الجيدة مع حزب مباي ، منذ ان كان افراد العائلة يعملون لجمع الاصوات لصالح الحزب في الانتخابات (٤٣) · وفي حالات اخرى ، يتم الاتفاق بين عصابات الاجرام على « اقتسام العمل » ، كما حدث في بلدة مجدال ها عيمك · فقد كانت تسيطر على عالم الجريمة هناك طوال سنوات ، « عصابة المغاربة » · وفي الفترة الاخيرة بدأت تنافسها « عصابة الروس » . من المهاجرين الجدد من يهود روسيا ، الى ان تم الاتفاق على ان تتولى « عصابة المغاربة » ، العريقة في عالم الاجرام ، عمليات تجارة المخدرات ، بينما تولت « عصابة الروس » الاعمال الاخرى كالسرقة والاتجار بالمسروقات (٤٤) ·

## علاقة رجال الجريمة مع السلطة

ان اول سؤال يتبادر الى الذهن هو هل تنطبق قواعد الجريمة المنظمة السائدة في بعض الدول الغربية على تلك القائمة في اسرائيل ؟ وهل يعني ذلك وجود جماعات منظمة تمارس هذا النشاط بفضل علاقاتها وارتباطاتها مع شخصيات ومؤسسات لها نفوذها ومركزها في السلطة ؟ لقد حاولت السلطات الاسرائيلية ، وخاصة دوائر الشرطة ، نفى ذلك نفيا قاطعا ، الا ان الدلائل والوقائع تشير الى عكس ذلك ، ويبدو ان هنالك علاقات دائمة ومنتظمة بين رجال العالم السفلي وبين العديد من رجال الدولة ، سواء كانوا وزراء ام ضباطا في الجيش

والشرطة وفي مختلف الدوائر الحكومية ٠

لقد أشار تقرير لجنة شيمرون الى وجود علاقات بين رجال الجريمة والعديد من رجال الدولة ، مؤكدا ان رجال الجريمة يقومون بتنفيذ اعمالهم وصفقاتهم عن طريق استغلالهم لمثل هذه العلاقات ٠ ولكن اللجنة بررت هذه العلاقة بكونها « اجتماعية » فقط ، حيث درجت العادة على ان يدعى احد المسؤولين الكبار الى احدى المناسبات الاجتماعية ، وهكذا يتم التقرب منه من قبل زعماء الجريمة ، الامر الذي يوحي للجميع بان رجال الجريمة انما ينفذون اعمالهم بفضل هذه العلاقات ، وقد حذرت لجنة شيمرون من الوقوع في مثل هذا الفخ ، ولكنها اعترفت من ناحية اخرى انه لولا مثل هذه العلاقات مع بعض رجال السلطة وبعض موظفي الدولة لما تمكن رجال الجريمة المنظمة من تنفيذ بعض الاعمال التي تتطلب تعاونا من قبل موظفي الدولة (٤٥) ٠ وأشار احد الصحافيين ، الذي قام بدراسة الجريمة المنظمة في اسرائيل الى ان « ابرز الشخصيات في المؤسسة الحاكمة والجيش والاحزاب والهستدروت وكبار رجال الاعمال يلتقي في مناسبات اجتماعية مع زعماء العصابات ورؤساء الجريمة المنظمة ، الذين اخذوا يتغلغلون في مجالات الاعمال ويعززون قوتهم الاقتصادية » (٤٦) ٠

واذا ما تتبعنا بعض العلاقات القائمة بين رجال الجريمة المنظمة وبين رجال المؤسسة فسيتضح لنا وجود علاقات حميمة تتعدى العلاقات الاجتماعية ، وتكذب الزعم القائل ان رجل المؤسسة قد وقع من حيث لا يدري في الفخ ، كما تدعي لجنة شيمرون ٠ فهناك عدة ادلة تثبت ، مثلا ، وجود علاقات وثيقة حميمة بين زعيم الاجرام في منطقة تل ابيب المدعو منتش مع وزير الدفاع السابق موشي دايان ، وكذلك مع كبار ضباط الجيش والشرطة والقضاة والوزراء ، الذين يتناولون الطعام على مائدته ، وقد نشرت له صور مع عدد من هؤلاء المسؤولين٠ ومن الناحية الرسمية والمهنية والاجتماعية يعمل منتش رئيس مجموعة حمالين ، « ولكنه بدون شك حمال فريد من نوعه ، اذ انه ليس باستطاعة كل حمال ان يجند خلال بضعة ساعات ٥٠٠ ــ ٨٠٠ شخص من المستعدين لتنفيذ اوامره » (٤٧) ٠

ويذكر ان زعيم الحمالين هذا كان قد تلقى رسائل شكر من عدد من الشخصيات المعروفة ، مثل اريبه الياف ، سكرتير حزب العمل سابقا ، اريبه نير مفوض السجون ووزير الشرطة الراحل ، بيخور شطريت ، وذلك لقاء قيامه ببعض الخدمات ٠ واما تلك الخدمات التي قام بها منتش والتي لم تذكر في كتب الشكر ، فتنحصر في اعمال قام بها لمصلحة الحزب الحاكم في معركته على النفوذ في الاحياء الفقيرة من تل ابيب ٠ فعندما قام مسؤول حزب مباي في تل ابيب ، شراغا نيشر في بداية الخمسينات بهجومه ضد سيطرة حزبي حيروت والاحرار في تل ابيب ، كان منتش احد الاشخاص الاوائل الذين توجه اليهم ٠

وكانت مهمته محددة ، وهي تنظيم جماعات قوة لتقف ضد جماعات القـــوة التابعة لحركة حيروت · ومن الملفت للنظر ان منتش هذا هو الذي حقـــق اول اجتماع انتخابي لحزب مباي في حي هاتكفاه ، وهو من اكثر الاحياء فقرا فـي تل ابيب ، باشتراك دافيد بن غوريون · وعندما كانت قضية لافون على اوجها تم عقد اجتماع في تل ابيب ، الا ان بعض الشبان هدد بنسفه ، وعندهـا قام منتش خلال وقت قصير بحشد مئات « المنظمين » ، الذين قاموا « بتهدئة » الجـو الساخن · كما ساهم بقسط كبير في الحملة من اجل اعادة انتخاب اشكـول . وحقق له عقد الاجتماع الكبير في حي شابيرا (٤٨) · كما ان وضع النائـــب مناحيم كوهين ، ممثل الاحياء الفقيرة كان متعلقا بمنتش ، ثم ان مردخــــاي نامير مدين له في رئاسة بلدية تل ابيب ، وهذا ما يعترف به حتى اليوم الكثيرون من نشيطي حزب العمل · ومن جهة اخرى كشف النقاب ايضا عن ان لزعيـــم الاجرام في حيفا ، دافيد رويمي الملقب سفينغا ، علاقات مع سكرتير بلديـــة حيفا ، موشيه روفيه ، الذي نجح في التقرب اليه ، وكذلك تعرف رويمي الى عدد من ضباط الشرطة والى رئيس بلدية حيفا الراحل ، ابا حوشي ، الذي حصـل بواسطته على رخصة دكان ، اشغله لبيع المخدرات والمشروبات المهربة · وكـان سفينغا نفسه قد ساعد حزب مباي في الحصول عـلى الاصوات والمحافظة على صناديق الاقتراع اثناء الانتخابات (٤٩) ·

وكان احد زعماء عالم الجريمة قد أقام حفلة في منزله الفخم في هرتسليـا ، بمناسبة بلوغ ابنه الثالثة عشرة من عمره · ويدعى هذا الشخص تسيـــــون ليفي · وقد فوجىء الجميع ان اعدادا كبيرة من رجال الشرطة كانت توجـــه السير وتنظمه الى البيت · ويذكر « انه كان من الصعب التمييز في هذا الاحتفال بين زعماء الجريمة المنظمة وبين شخصيات رئيسية في السلطة والجيشـــ وبلدية تل ابيب والهستدروت » (٥٠) · وقد حضر هذا الحفل وزير الخارجيـة موشي دايان وكذلك رئيس بلدية تل ابيب شلومو لاهط ونائبه · وقد مثـــل الليكود الدكتور روم ، واما المعراخ فقد تمثل بأمين صنــــدوق الهستــدروت يسرائيل كسبار · واما الجيش فقد تمثل بأميـــــن صنــدوق الهستــدروت ليفي والجنرال اورلي ، منسق العمليات في المناطق وكذلك الجنرال ( احتياط ) رحبعام زئيفي والجنرال افرايم بوران المستشار العسكري لرئيس الحكومـة · وشارك عن الشرطة ضابط عمليات منطقة اليركون ويعقوب كينر قائد شرطة تل ابيب سابقا · وقد انضم اليهم رؤساء الجريمة المنظمة الذين كانوا يصافحـون بحرارة كبار الشخصيات ، وكذلك بعض الاشخاص من ذوي الماضي المعـروف في دوائر الشرطة الذين تزخر ملفاتهم بالجرائم والمخالفات ابتداء من التعاطي بالمخدرات والتهريب والابتزاز وانتهاءا بالقتل (٥١) ·

وكان النائب اهود اولمرط قد اتهم خلال مؤتمر صحفي في تل ابيب ، الجنرال

( احتياط ) رحبعام زئيفي باقامة علاقة وثيقة بأشخاص من قـادة الجريمـة المنظمة · وقد قدم تقريرا بذلك للكنيست ، كشف فيه بعض قادة الجريمة وعلى رأسهم بتساليل مزراحي ، الذي قال عنه بان له علاقات مع بعض كبار ضبـاط الجيش · وما لبث ان اتصل زئيفي بالنائب اولمرط وقال له « هل تعرف من هو مزراحي ؟ له اصدقاء كثيرون في السلطة ، وله صـداقة مع خمسة جنرالات في الجيش على الاقل ، وهؤلاء سيفعلون من اجله كل ما يريد ، ولهذا عليك ان تتنصل من اقوالك المنشورة » (٥٢) · وعاد اولمرط مرة اخرى وهاجم بشـدة الجنرال زئيفي واعتبره مثالا للفساد الاجتماعي في اسرائيل ، بسبب عقـده صداقات مع رجال الجريمة والقيام بحمايتهم والدفاع عنهم · واورد ، مثـالا على ذلك ، محاولة زئيفي الدفاع عن بتساليل مزراحي عندما قال عنه بانه جندي ممتاز خدم في الجيش ، وقد عرض نفسه للموت في الكثير من المعارك ، ثـم عرض بعض الوثائق التي تشير الى ان مزراحي لم يخدم في الجيش ، وانه كان فارا وقد ادخل السجون العسكرية عدة مرات وبعدها سرح من الجيش لعـدم « لياقته » · ويؤكد اولمرط ، ان مزراحي لم يخدم في الجيش بتدخل من زئيفـي نفسه ، وانه لم يخدم في الاحتياط طيلة السنوات الطويلة ، لم يشارك في حـرب يوم الغفران · وختم اولمرط اقواله بالاشارة الى انه جرى تحقيق في هذا الشأن من قبل الشرطة العسكرية ، وعند الانتهاء من التحقيق قام رئيس الاركان بتوبيخ زئيفي (٥٣) ·

ومن جهة اخرى ، انكر المفتش العام للشرطة حاييم تابوري وجود اية علاقة لرجال الجريمة مع اجهزة القضاء والشرطة والسلطة · ولكن ضابط المخابرات في شرطة اسرائيل شموئيل نحمياس ، يؤكد انه يعرف قادة الجريمة ويعرف ان لهم علاقات مع شخصيات كبيرة في الدولة تقوم بحمايتهم وتغطيتهـم (٥٤) · واشار تقرير لجنة بوخنر الى وجود دلائل مثيرة « تثبت تدخـل رجال الشرطة والجمارك وموظفي الشركات الكبيرة والمحامين في مساعدة رجـال الجريمـة وتقديم المشورة لهم » (٥٥) ·

ومما يؤكد مدى تغلغل الجريمة المنظمة في صفوف الشرطة الاسرائيليـة ، وعلى اعلى المستويات الحادثتين اللتين اوردهما الصحافي آفي فالنتيـن · وتتعلق الحادثة الاولى بتخطيط وضعته الشرطة ، يقضي بتشغيل احد رجالـها كعميل مزدوج مع افراد الجريمة المنظمة ، لكي يتوصل الى معرفة زعمائهـا والقبض عليهم ، مقابل تسريب معلومات « محددة » لهم · وكان هذا المخطـط معروفا لثمانية فقط من كبار ضباط الشرطة ، بمن فيهم المفتش العام · الا ان المخطط وصل فورا الى علم زعماء الاجرام مما أدى الى الغائه ، وارسـال الشخص المقترح كعميل مزدوج في اجازة طويلة · ولم يجر التحقيق مع احد من الضباط الثمانية (٥٦) · وتتعلق الحادثة الثانية باكتشاف اجهزة تنصت

وبث مثبتة في غرفة التحقيقات المركزية في قيادة الشرطة في القدس ، لكي يتمكن زعماء الجريمة من معرفة كل ما تعتزم الشرطة القيام به ضدهم · ولم يعرف ايضا المسؤول عن هذا العمل (٥٧) ·

## علاقات الجريمة دوليا

تؤكد المصادر الاسرائيلية وجود علاقات وثيقة بين زعماء الجريمة المنظمة في اسرائيل وزعماء الاجرام في المانيا وانجلترا والولايات المتحدة وجنوب افريقيا وغيرها ، حيث يتم تبادل « الخدمات » بين زعماء العصابات الدوليين والزعماء المحليين في اسرائيل ، وذلك بهدف استخدام الاموال المسروقة في صفقات قانونية · وتعتبر تجارة المجوهرات احدى القنوات النشيطة في هذا المجال ، اذ يتم تهريب المجوهرات المسروقة في الخارج الى اسرائيل حيث تباع بصورة مشروعة ، وتستثمر اموالها في مشاريع محلية · ويرئس هذا الفرع من الجريمة المنظمة ، تاجر مجوهرات يهودي ، هاجر قبل سنوات من اسرائيل ويقيم حاليا في لندن · وهناك ايضا قناة اخرى للجريمة المنظمة وذلك من خلال تهريب اموال الاجرام من اسرائيل الى الخارج ، ثم ادخالها ثانية بصورة قانونية بواسطة احد المستثمرين الذي يكون في الواقع مرتبطا بشبكة الالتزامات المتبادلة بين منظمات الجريمة الدولية والزعماء المحليين في اسرائيل (٥٨) ·

ومن الواضح ان العلاقات مع المنظمات الاخرى في الخارج تمكن رجال الجريمة المنظمة من الحصول على تغطية قانونية بحجة التمويل الذي حصلت عليه بفضل علاقاتها مع الدول الاخرى ، اي ان هذه العلاقات تساعد رجال الجريمة المنظمة في اسرائيل على القول بان اموالهم تأتي من شركائهم في الخارج · والشيء نفسه يحدث لرجال الجريمة في الخارج ، عندما يوضحون ان اموالهم تأتي من شركائهم في اسرائيل · ومن الجدير بالذكر ان البعض من رؤساء الجريمة المنظمة في اسرائيل قد سافر مؤخرا الى ايطاليا للاجتماع سرا مع بعض رؤساء الجريمة في اوروبا للتخطيط وللتعاون في تنفيذ العمليات · فقد وصلت الى الشرطة الاسرائيلية معلومات حول اللقاء المرتقب ، فأرسلت رجالها الذين قاموا بتصوير كل تلك الاجتماعات (٥٩) · وتقيم اجهزة الجريمة المنظمة في اسرائيل علاقات وثيقة مع المافيا في البرازيل ، التي يتزعمها ايضا يهود ، والتي لجأ اليها يعقوب كوهين احد زعماء الجريمة الاسرائيليين ، اثر تورطه في صفقات مالية خاسرة في اسرائيل (٦٠) ·

## الشرطة والجريمة

تم توجيه مختلف الانتقادات الى اجهزة الشرطة ، لانها تعامت عن وجود

الجريمة المنظمة ، مما ادى الى تفاقمها وتنظيمها دون اي رادع ، بينما اكتفت الشرطة بالقول انه لا توجد جريمة منظمة في اسرائيل على غرار الولايات المتحدة ـ وهذا ما جعل العالم السفلي يستغل الوقت ويرص الصفوف · واشار البعض الى ان حبوب التهدئة التي اعطيت للجمهور الاسرائيلي طيلة السنوات الماضية ، بان الجريمة لم تتغلغل في صفوف الادارة ولم تتمكن من افسادها ، قد أدى الى اضعاف اليقظة من اجل اتخاذ وسائل شاملة لمحاربة الظواهر التي اصبحت مألوفة · ومما يؤكد تقصير الشرطة في عدم معالجتها لموضوع الجريمة ، وربما محاولة منها لتغطية على هذا الموضوع ، ما ورد في القسم السري من تقرير لجنة شيمرون الذي وجه انتقادا عنيفا لعدد من المفتشين العامين السابقين للشرطة ، وخاصة بنحاس كوبل وشاؤول روزليو ، والى حد ما المفتش الحالي حاييم تابوري · وقد تركز الاتهام على المفتش العام الثالث للشرطة بنحاس كوبل الذي تسلم قيادة الشرطة طيلة سبع سنوات ، فقد أشارت اللجنة الى « انه خلال فترة ولايته لبست الجريمة في البلاد المزايا الخاصة بالجريمة المنظمة بصبغة اسرائيلية » (٦١) · كما نال المفتش العام التالي للشرطة الذي تسلم الولاية بعده ، شاؤول روزليو ، قسطا « وافرا » من الانتقاد والمسؤولية اذ ان الشرطة خلال ولايته ، ما بين ١٩٧٢ ـ ١٩٧٦ ، « لم تعمل شيئا لمحاربة الجريمة » · وقد توصلت اللجنة الى قرار ، « انه في حين كان عالم الجريمة يتطور بخطى جبارة ، حتى انه اصبح يضاهي في أساليبه مراكز الجريمة المنظمة في انحاء العالم ، فان شرطة اسرائيل قد تجمدت ، وليس هذا فحسب ، بل حدث تراجع في نجاعتها وفعاليتها » (٦٢) ·

ومن جهة أخرى نال وزير الشرطة السابق شلومو هيلل ، نصيبا كبيرا من الانتقاد ، وحملته بعض الجهات مسؤولية الخوف من عدم اعلان الحقيقة للجمهور ، حيث انه كان يعرف وجود الجريمة وحجمها ، ولكنه « خاف من حدوث هلع بين الجمهور اذا وصفت بأنها منظمة » (٦٣) · وتؤكد بعض المصادر الى انه في اعقاب نشر تقرير لجنة شيمرون ، سيضطر عدد من كبار ضباط الشرطة الى الاستقالة · ويتوقع ان يضطر ثمانية منهم على الاقل الى ترك الخدمة ، وذلك في اعقاب التحقيق في وجود علاقات بينهم وبين رجال الجريمة المنظمة · كذلك يؤكد مصدر كبير في الشرطة ان تقرير شيمرون سيؤدي خلال الاشهر القادمة الى « هزة ارضية » ، قد تؤدي الى تغيير العديد من ضباط الشرطة · وقد جاء ذلك في اعقاب القناعة بان رجال الجريمة لا يمكن ان يقوموا بعملياتهم ، بكل هذا النجاح ، دون مساعدة فعلية من قبل رجال الشرطة (٦٤) ·

## الحواشي :

(١) دافار ، ١٢ـ٩ـ١٩٧٧ .
(٢) معاريف ، ٢٥ـ٩ـ١٩٧٧ .
(٣) يديعوت احرونوت ، ٢٤ـ٢ـ١٩٧٨ .
(٤) تقرير لجنة شيمرون ، كما نشرته معاريف ، ٢٠ـ٢ـ١٩٧٨ .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) المصدر نفسه .
(٧) المصدر نفسه .
(٨) المصدر نفسه .
(٩) هآرتس ، ٢٩ـ٦ـ١٩٧٧ .
(١٠) دافار ، ٢٤ـ٨ـ١٩٧٧ .
(١١) معاريف ، ٢٠ـ٢ـ١٩٧٨ .
(١٢) المصدر نفسه .
(١٣) هاتسوفيه ، ١٤ـ٢ـ١٩٧٥ .
(١٤) معاريف ، ٢٠ـ٢ـ١٩٧٨ .
(١٥) يديعوت احرونوت ، ٢٣ـ٢ـ١٩٧٥ .
(١٦) يهوشواع سوبول في حوتام ، ٢٨ـ٢ـ١٩٧٥ .
(١٧) المصدر نفسه .
(١٨) المصدر نفسه .
(١٩) بمحانيه ، ١٢ـ٢ـ١٩٧٥ .
(٢٠) هاتسوفيه ، ١٤ـ٢ـ١٩٧٥ .
(٢١) بمحانيه ، ١٢ـ٢ـ١٩٧٥ .
(٢٢) دافار ، ٢١ـ٢ـ١٩٧٥ .
(٢٣) ملحق يديعوت احرونوت ، ٢٩ـ٢ـ١٩٧٥ .
(٢٤) هآرتس ، ١٥ـ٤ـ١٩٧١ .
(٢٥) آفي فالنتين ، المصدر نفسه ، ١٦ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٢٦) المصدر نفسه ، ٢٢ـ٩ـ١٩٧٢ .
(٢٧) المصدر نفسه ٢٩ـ٩ـ١٩٧٢ .
(٢٨) المصدر نفسه ، ١٦ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٢٩) دافار ، ١٧ـ٣ـ١٩٧٨ .
(٣٠) هآرتس ، ٥ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٣١) معاريف ، ٢٠ـ٢ـ١٩٧٨ .
(٣٢) يديعوت احرونوت ، ٥ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٣٣) المصدر نفسه .
(٣٤) تقرير لجنة شيمرون ، معاريف ، ٢٠ـ٢ـ١٩٧٨ .
(٣٥) يديعوت احرونوت ، ٢٤ـ٢ـ١٩٧٨ .
(٣٦) معاريف ، ٢ـ٩ـ١٩٧٧ .
(٣٧) يديعوت احرونوت ، ١٠ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٣٨) المصدر نفسه ، ٥ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٣٩) المصدر نفسه .
(٤٠) هآرتس ، ٢٩ـ٩ـ١٩٧٢ .
(٤١) زئيف يافت ، المصدر نفسه ، ١١ـ٧ـ١٩٧٧ .
(٤٢) المصدر نفسه ، ١٥ـ٧ـ١٩٧٧ .
(٤٣) المصدر نفسه ، ٧ـ٦ـ١٩٧٧ .
(٤٤) المصدر نفسه ، ٣٠ـ٦ـ١٩٧٧ .
(٤٥) معاريف ، ٢٠ـ٢ـ١٩٧٨ .
(٤٦) افي فالنتين ، هارتس ، ١٥ـ٧ـ١٩٧٧ .
(٤٧) المصدر نفسه ، ٢٠ـ٤ـ١٩٧١ .
(٤٨) المصدر نفسه .
(٤٩) المصدر نفسه ، ١٢ـ٣ـ١٩٧٣ .
(٥٠) المصدر نفسه ، ١٥ـ٧ـ١٩٧٧ .
(٥١) المصدر نفسه .
(٥٢) المصدر نفسه ، ٥ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٥٣) معاريف ، ١ـ٣ـ١٩٧٨ .
(٥٤) يديعوت احرونوت ، ٥ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٥٥) هآرتس ، ٥ـ٩ـ١٩٧٧ .
(٥٦) المصدر نفسه ، ١٠ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٥٧) المصدر نفسه ، ١٥ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٥٨) المصدر نفسه ، ١٥ـ٧ـ١٩٧٧ .
(٥٩) المصدر نفسه ، ٥ـ٣ـ١٩٧٨ .
(٦٠) المصدر نفسه ، ٥ـ٨ـ١٩٧٧ .
(٦١) هاعولام هازيه ، ٢٢ـ٢ـ١٩٧٨ .
(٦٢) المصدر نفسه .
(٦٣) المصدر نفسه .
(٦٤) هآرتس ، ١٥ـ٧ـ١٩٧٧ .

عبد الجواد صالح

# التحديات والمجابهة في الوطن المحتل

كان احتلال عام ١٩٦٧ لمجموع الارض الفلسطينية مدخلا للحركة الصهيونية في بدء تنفيذ حملة استيطانية واسعة تشمل المناطق التي كانت مخصصة للدولة العربية في مشروع التقسيم ، والتي بقيت طوال العشرين عاما ما بين عامي ١٩٤٧و١٩٦٧ شبه متروكة ومن دون استيطان،تحفظا لامكانية تحرير تلك المناطق، وذلك نتيجة للمناخ الايجابي الذي استطاع الرئيس الراحل عبد الناصر وبعض الانظمة العربية الاخرى التي استطاعت باستعدادها العسكري وتوجهها السياسي والذي كان من شأنه شل الارادة الصهيونية في تنفيذ مخططاتها الاستيطانية على ارض تحتلها فعلا · ولقد ازداد شعور المواطن الفلسطيني مرارة عندما اكتشف هذه الحقيقة بعد ان اتيح له زيارة بعض المدن والمناطق الفلسطينية بعد نكبة ١٩٦٧ ، التي ازالت مخاوف الكيان الصهيوني وتحسبها من نتائج الاستعدادات العسكرية العربية · فانطلق هذا الكيان من عقال هذا الخوف فامتدت مشاريعه الاستيطانية لتشمل مناطق ١٩٦٧ ومناطق ١٩٤٨ المخصصة للدولة العربية التي زالت امكانية تحقيقها بعد الهزيمة النكراء ·

ولقد كانت مبادرة السادات ونهجه الاستسلامي ، وارتماؤه في احضان الامبريالية الاميركية مدخلا جديدا للحركة الصهيونية ، لتنفيذ مخططاتها التوسعية بشراهة لم يسبق لها مثيل منذ اعلان قيام الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي · اذ ان المبادرة والنهج قد تضمنا صك استسلام غير مشروط ولا مبرر له ·

ولقد ادرك الاسرائيليون ، اكثر من غيرهم ، ابعاد هذه المبادرة وخلفيتها

---

عبد الجواد صالح : عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ·

ومعناها ، فكانت لهم بمثابة فرصة العمر التي لم يكن احد من زعمائهم يحلم بها ، فقاموا باستغلالها في تصعيد تنفيذ مخططاتهم التوسعية وشن حملة ارهاب واسعة النطاق ، بقصد كسر عنفوان المقاومة الشعبية التي تتخذ اشكالا نضالية متعددة ٠

لقد مهد نهج اللهاث وراء الاوراق التسع والتسعين الاميركية وفك الارتباط بالقضية الوطنية والقومية ، ووضع الجيوش العربية تحت رحمة التسلح من معسكر الاعداء ، وزج المقاومة في حرب ، دفاعا عن وجودها ، لاكثر من سنتين. لتنفيذ مشروع الضفة والقطاع تحت ستار مشروع توسيع الخدمات ، يضمن هذا المشروع نتائج سياسية واقتصادية لصالح كيان العدو ، وبعقبة من النتائج الامنية والديمقراطية التي تشكل تهديد له ، فبدأ بالفعل باستيفاء ضريبة القيمة الاضافية بعد نضال مرير من قبل كافة الجماهير الفلسطينية في الداخل ٠ وقد استكمل بهذا المشروع بناء القاعدة الاساسية لاعتبار الضفة والقطاع جزءا من «ارض اسرائيل الكبرى» بدون زيادة مخاطر الاخلال بمبدأ الصفاء العبري للكيان الصهيوني ٠

ولتنفيذ مشروع الحل الاسرائيلي بشأن مستقبل الاراضي التي احتلت عام ١٩٦٧ والذي لا يختلف عن المشروع الاميركي في جوهره . قام الكيان الصهيوني بسلسلة من الاجراءات التشريعية والتنفيذية ، ضمن اجراءات قمع جماعية لجماهير الارض المحتلة ومن خلال سلسلة اجراءات ارهابية ضد المؤسسات التمثيلية والوطنية . بهدف وضع مشروع الادارة الذاتية والمدنية موضع التنفيذ٠

ومن اخطر الاجراءات الاشتراعية التي قامت سلطات الاحتلال بوضعها موضع التنفيذ قانون النقابات المهنية الذي جرد النقابات الطبية والهندسية والحقوقية وغيرها من صلاحياتها ،واصبح الحاكم العسكري الصهيوني لا يمتلك صلاحياتها فحسب ، وانما بمقدوره ايضا سحب ترخيص اي طبيب او مهندس او محام ومنح رخص العمل في هذه المهن ٠ ويهدف هذا القانون الجديد الغاء القوانين المعمول بها في الارض المحتلة ووضع التشريعات البديلة . بالاضافة الى استخدامها سيفا مسلطا على الشخصيات الوطنية التي تعمل في هذه المهن ٠

كما قامت سلطات الاحتلال بتغيير في الجهاز القضائي . واحداث محاكم اقليمية . وتعيين قضاة في المراكز المستحدثة على الرغم من رفض بعضهم قبولها حتى الان . ويمكن اعتبار هذه الخطوة مكملة للخطوات التي بدأتها سلطات الاحتلال بعد سلخ القدس وضمها كعاصمة لدولة الكيان العنصري ٠ وتكون هذه الخطوة احدى الشروط الرئيسية لاستكمال شروط الادارة المدنية اذا ما اخذت بعين الاعتبار الدوائر الاقليمية التي أنشئت منذ سنوات . والتي تضم الخدمات الطبية والتربوية والتي ترأسها منذ تشكيلها بعض العملاء ٠ وقد قدم الدكتور حسين عبيد مدير الخدمات الطبية للضفة استقالته من منصبه اثر تصفية بعض العملاء ثم عاد عنها بعد زيارة لعمان ٠ ويشيع المذكور والمعروف بعلاقاته الوطيدة مع الحكم العسكري ان عمان قد اوصته بالبقاء في منصبه ٠ وقد

صاحب هذه الاشتراعات الخطيرة اجراءات قمعية ذات طابع سياسي اخطرهـا منع رؤساء المجالس البلدية من عقد اية اجتماعات للتنسيق فيما بينها ، ومنع بعض المجالس البلدية حتى من السفر الى مدن فلسطينية اخرى ، الا بعد اخذ موافقة الحاكم العسكري للمنطقة ٠

وقد رافق ذلك حملة قمع جماعية ، وحملات تفتيش من بيت الى بيت كمـا حدث في نابلس ، واعتقال المئات من الرجال كما جرى في مخيم الامعري حيـث افرز جميع الرجال وسيقوا الى مركز الحاكم العسكري حيث كانوا يصلبـون تحت الشمس المحرقة ، كما قاموا بتنظيف الارض المحيطة بمقر الحاكم العسكري، وصاحب كل ذلك الشتم والضرب ٠ وطالبوا الرجال الذين كانوا متواجدين في السوق التجاري لمدينة البيرة يوم ٢٣ـ٣ بخلع احذيتهم والوقوف برجل واحدة بينما قام الجنود بخلط الاحذية ونشرها في شوارع السوق ٠ كما جابه الطلبة حقد جنود الاحتلال الذين كانوا يغلقون الصفوف عليهم ، ويلقون القنابـل المسيلة للدموع وقنابل من انواع اخرى تسبب الحك والحرقان بعد اغـلاق المخارج والادراج ، مما دفع الطالبات والطلبة ، الى القفز من الطوابق العليا كما حدث في مدارس في بيت ساحور والبيرة ٠

وحتى يستكمل مخطط الضم وتسعير عمليات الاستيطان ونهب الامـلاك الفلسطينية ، تقوم سلطات الاحتلال باقامة احصاء لكافة الاراضي الاميريـة بهدف سلبها ٠ ويمكن لهذه السلطات ان تعتبر كافة الاراضي غير المطوبـة اراض اميرية مع العلم ان كثيرا من المناطق في الضفة والقطاع غير مطوبـة لعدم قيام النظام الاردني في الضفة والنظام المصري في القطاع بانهاء عمليـة المسح، وتسجيل وتطويب الارض بأسماء اصحابها، مما يشكل خطرا حقيقيا يمس عروبة الارض الفلسطينية ٠

وقد لجأت سلطات الاحتلال في محاولة خطيرة الى التعرض لاملاك عشرات الالوف من المواطنين الفلسطينيين الذين يعيشون خارج الوطن العربي ، والذين لم تكن تعتبرهم غائبين لانهم يعيشون في بلاد غير معادية وخاصة اولئك الذين يعيشون في الامريكتين واوروبا ويحمل البعض منهم جنسيات تلك البلاد ، وذلك بالغاء قانونية الوكالات لادارة هذه الاملاك ، كمقدمة لاعتبارهـم فـي عـداد الغائبين بهدف الاستيلاء على املاكهم ٠ لكنها ، عادت وتراجعت عن هـذا القرار ، وقد يكون هذا التراجع مؤقتا بهدف امتصاص ردود الفعل القويـة ٠ ويجب ان لا يغيب عن اذهاننا موضوع املاك المواطنين الذين صدف تواجدهم في البلاد العربية اثناء وقوع عدوان عام ١٩٦٧ ، اذ ان سلطات الاحتـلال تتصرف بهذه الاملاك حسب اهوائها ، ففي القدس الموسعة مثلا سلمت بيـوت الغائبين الى ضباط من جيش الاحتلال باجر زهيد لا يتعدى الدينارين ، بينمـا اجرة المثيل تزيد عن خمسة وسبعين دينارا ٠

يشكل رفض الجماهير للحلول الاستسلامية عقبة في وجه تنفيذ كامل المخطط الصهيوني الامريكي · كما ترفض المجالس البلدية المشاركة باية تغطية شرعية لتمرير حل الادارة الذاتية والمدنية بالاشتراك في المجلس التاسيسي المقترح · كما ان الغالبية العظمى من اعضاء ورؤساء هذه المجالس البلدية واعضاء ورؤساء كافة النقابات العمالية والمهنية والجمعيات والنوادي والمؤسسات ، يعلنون عن ارتباطهم بالثورة الفلسطينية ، وان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد لكافة ابناء الشعب الفلسطيني ·

لذلك بدأت سلطات الاحتلال تجس النبض في امكانية حل بعض المجالس البلدية بهدف تفكيك وحدة الموقف الفلسطيني في الداخل · وبدأت بمحاولة القيام بمثل هذه الممارسات في بعض المجالس البلدية الصغيرة · ففي قباطية التي قامت سلطات الاحتلال بحل مجلس بلديتها ، عقب افتعال مشاكل عائلية فى البلدة بتاريخ ٢٤ــ٨ــ٧٧ ، لم تدع هذه السلطات الى انتخابات جديدة لتحل محل اللجنة التي عينهاالحاكم العسكري من حفنة من العملاء حملة المسدسات · اما لجنة بلدية يرويوان فقد استبدلت بلجنة اخرى عينها الحاكم العسكري مما يخالف القوانين المعمول بها · وتقوم حاليا سلطات الاحتلال ، بمحاكمة رئيس مجلس بلدية بيت جالا السيد بشارة داهود وبعض اعضاء المجلس البلدي ، بحجة الاعتداء على افراد الشرطة · كما حكم الدكتور عزمي الشعيبي عضو مجلس بلدية البيرة بالسجن لعدة اشهر مع وقف التنفيذ ، وتغريمه غرامة باهظة بنفس التهمة بالرغم من ان الشرطة هي التي اعتدت عليه بالضرب ·

ان حل المجالس البلدية وتعيين لجان محلها هو الاختيار الوحيد امام سلطات الاحتلال ، في حالة شعورها بضرورة تنفيذ مخططها قبل انتهاء المدة القانونية لهذه المجالس وهو عام ١٩٨٠ · على انه من المتوقع ان تنتظر هذه السلطات ، وهي التي تحاول اعطاء مسحة ديمقراطية لاحتلالها حتى انتهاء مدد المجالس البلدية لتقوم بترتيب الانتخابات القادمة حسب ما تقتضيه مخططاتها · ان النهوض الثوري الجامح لجماهير شعبنا في داخل الوطن المحتل يشكل الدعامة الاساسية في منع سلطات الاحتلال من تنفيذ كافة مشاريعها ، بالسرعة التي تتطلبها مصالحها ، وبشكل يسبب ردود فعل عنيفة من قبل جماهيرنا ·

وفي المقابل ، يتصاعد النضال الجماهيري ، وتأثيره في الرأي العام العالمي · فقد زالت نهائيا ، عوامل الخوف والرهبة · كما تطورت النضالات الجماهيرية ، وتصاعدت بازدياد وسائل القمع والاضطهاد · بالاضافة الى العوامل الايجابية التي تتركها بصمات انتصارات الثورة الفلسطينية في الخارج ، فلقد الهب انتصار الثورة ومنظمة التحرير الفلسطينية في حرب الجنوب مشاعر المواطنين في الداخل · ففي نابلس على الرغم من فرض منع التجول ، والتفتيش من بيت الى بيت ، والاعتقالات الجماعية ، فأن عمليات

ضرب دوريات جيش العدو لم تتوقف يوما واحدا ، وقد كان المناضلون يتحدون فرض منع التجول بشكل جعل جيش الاحتلال يشعر بعجزه عن وضع حد لهـذا النهوض الثوري واستمرارية الكفاح الباسل لجماهيرنا · وقد أدى ذلك الى اقالة الحاكم العسكري العام بحجة ممارساته اللاانسانية ضد المتظاهرين من الطلبة والطالبات ، اما السبب الحقيقي لاقالته ، فيعود الى فشله في قمع الانتفاضات وازدياد العمل المسلح ·

والاهم من كل ذلك هو ازدياد العمليات العسكرية في فلسطين بأسرهـا ، والتي تشعر المستوطن الصهيوني ان الاحتلال ليس مجرد عملية مكلفة للارواح والممتلكات ، بل ان كل مفاهيم الامن الاسرائيلي واجراءاته تصبح عديمـة الجدوى والفائدة امام حرمان الشعب الفلسطيني من ابسط الحقوق التي نص عليها ميثاق حقوق الانسان ·

ان المؤامرة السياسية والعسكرية تديرها قوى المحور الجديد مجتمعـة : الامبريالية الامريكية وادواتها في المنطقة بدءا من الكيان الصهيوني وانتهـاء بالقوى الانعزالية ، لا تدع مجالا للشك في اننا نخوض معركة مصيرية بهـدف الحفاظ على ثورتنا وقضيتنا ، ووجودنا في داخل الوطن المحتل وخارجـه · ان بقاء البندقية واستمرارية الثورة الفلسطينية في الخارج تشكل دعامـة اساسية في استمرار نضال شعبنا وثورته في الداخل · ويجب التأكيد الدائم على ان الحفاظ على قواعد الثورة في الداخل وتطويرها ورفدها بعناصر القوة والاستمرارية ، هي الضمانة الاساسية من اجل استمرارية الثورة · اننا فـي زمن الانحطاط الاسود هذا والمس بالحرمات والتفريط بالقضايا الوطنية والقومية، مطالبون كثورة فلسطينية ، بالحفاظ على الامانة · وهذا يفترض الارتفاع الـى مستوى التحديات والتصدي لها وتحمل هذه المسؤولية التاريخية ·

١ ــ ان الثورة الفلسطينية ، على الرغم من تواجدها في المنفى ، هي الدعامة الاساسية للداخل ، وبالتالي فان الحفاظ على بندقيتها هو الضمانة الوحيدة من اجل استمرار التفاف جماهير شعبنا عامة وفي الداخل بشكل خاص ، وعـدم تمكين الاحتلال الصهيوني من فرض مخططاته التصفوية ، ويتطلب ذلك تنظيـم وتطوير مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية لتستطيع ان تقوم بمهماتها ·

٢ ــ ان وضوح الخط السياسي للثورة الفلسطينية ، وبرامجها المرحليـة والاستراتيجية ، بدهية لا يمكن تجاهل فعاليتها في تحقيق الانتصارات عن طريق تعبئة جماهير الشعب حول خط سياسي واضح ·

٣ ــ ان الجبهة الوطنية الفلسطينية في الداخل ، على الرغم من الضربات القاسية التي وجهت اليها ، استطاعت ان تحقق انجازات وطنية على رأسهـا وجود المجالس البلدية الحالية ، التي لولاها لاصبح الطريق شبه مفتوح امام

تنفيذ المشاريع التصفوية ٠ان تطوير الجبهة الوطنية لتضم جميع القوى والفصائل المتواجدة في الداخل ، من اجل قيادة النضال اليومي للجماهير باعتبارها ذراع منظمة التحرير الفلسطينية ، ليس مجرد امنية او مسؤولية تاريخية على قيادة المنظمة تنفيذها ، بل ان العمل على الاخذ بيد الجبهة الوطنية وتطويرها هو مقياس جدية ووطنية اي قيادي في منظمة التحرير ومدى اخلاصه لهذه الثورة ٠ ان وجود ذراع سياسي منظم للثورة الفلسطينية في داخل الوطن المحتل ، يعمل على التنسيق الدائم بين الداخل والخارج ، هو الضمانة الاساسية في استمرارية الكفاح المسلح وضمان دحر الاحتلال وابعاد شبح ايجاد القيادة البديلة ٠

٤ ـ ان طبيعة الكيان الصهيوني الاستيطاني ، وما يخططه لشعبنا ، يفرض علينا مهمات اضافية ، تختلف عن الوسائل التقليدية في مقاومة الاستعمار ، التي اتبعتها شعوب شقيقة او صديقة ٠ ان دعم مؤسسات شعبنا في الداخل وتطوير فعالياته الاقتصادية من شأنها ان تساعد عكسيا على تدمير مؤسسات العدو وشل اقتصاده ٠ ان ايجاد فرص العمل لالاف العمال العرب المجبرين على العمل في مختلف القطاعات الانتاجية للكيان الصهيوني ، سيجبر الاحتلال على سحب جزء من جنوده للعمل لتغطية النقص العمالي الذي يحصل من جراء ذلك ٠ فقد حدث ذلك اثر حرب تشرين عندما امتنع العمال العرب طوعا عن العمل في المؤسسات الصهيونية مما ادى الى نفق الابقار لعدم وجود من يحلبها ، وخراب التمر على امه لعدم وجود من يقطفه ، وتوقفت بعض الات المصانع لعدم وجود من يديرها ٠ ولو وجد من يخصص ثمن بضع طائرات لتشغيل العمال العرب ، لضمان عدم لجوئهم الاجباري للعمل لدى مؤسسات الكيان الصهيوني ، لانزلت في هذا الكيان خسائر لا تقل عن تلك التي انزلتها الحرب ٠ اما في حالات الركود الاقتصادي ، كما هي الحال في ايامنا هذه ، فان ايجاد فرص العمل لهؤلاء العمال العرب سيضمن صمودهم في الارض ومنعهم من الهجرة ٠ ان من يطالع الفرق بين ميزان المدفوعات التجاري بين الضفة والكيان الصهيوني ، والذي يبلغ خمسماية مليون ليرة اسرائيلية لصالح كيان العدو في عام ٧٦ ـ ٧٧ ، يستطيع ان يدرك اهمية بناء مؤسسات انتاجية عربية تمكن المواطن العربي من الاستغناء عن شراء حاجياته ومستلزماته من السوق الاسرائيلية ٠ ان بعض الصناعات العربية التي انشئت في الوطن المحتل، كانت قادرة على تغطية السوق العربية ، كما في صناعة الادوية ، والتي ادت الى منافسة الصناعات الاسرائيلية ٠ ولو قدر لهذه الصناعة شيء من الدعم لاستطاعت ضرب تصدير مثيلتها لدى العدو في الاسواق الخارجية ٠

٥ ـ ان التوجه الطبيعي للنضال والكفاح بين جماهير شعبنا ، يجب ان يستمر الى ابعد الحدود ٠ ويجب البحث عن اجدى السبل للوصول الى هذه الجماهير،

ولا بد من القيام بمحاولات بين الحين والاخر من اجل غرس كوادر في الداخل، لتمكين هذه الجماهير الباسلة التي تتحدى الدبابة بالحجارة وقنابل المولوتوف من استبدالها بقنبلة الميلز والرشاش ٠

ان على كافة فصائل المقاومة ان تنظر الى الكادر ، الذي ربط مصيره بالثورة وانضوى تحت لوائها ، بمنتهى التثمين والتقدير ، وبالتالي فان ذلك يفرض على هذه الفصائل التنسيق فيما بينها للاستفادة من تجاربها ونكسات بعض عناصرها ووقوعهم في يد عدو لا يرحم ٠ ولتكن هناك عمليات تقييم مشتركة او منفردة لكل النشاطات التنظيمية وغيرها ، لضمان استمرارية حربنا الطويلة الامد مع الكيان الصهيوني ٠

## تراث الجماهير النضالي

هناك تراث نضالي كبير ، ولد وسط المبادرات الشعبية في مقاومة الاحتلال ٠ وعلينا دراسة هذا النضال وتطويره وتعميقه بكافة الوسائل ٠ فلقد جابهت **دير ابو مشعل** في ربيع عام ١٩٧٧ هجمة من نوع جديد ٠ اذ بدأ مجهولون اقتحام بيوت القرية بعد منتصف الليل ، يحطمون زجاجها وابوابها ويطلبون من أهلها الخروج واللجوء الى بلاد العرب الواسعة ٠ وبعد تكرار العملية ذهب مخاتير القرية الى رئيس بلدية البيرة ، يطلبون منها مساعدتهم لدى الحاكم العسكري من اجل ايقاف هذه العمليات التي لا بد ان تكون من صنعه وتخطيطه ٠ فأخذ لهم رئيس البلدية موعدا مع الحاكم العسكري للمنطقة ٠ وقد اجاب الحاكم العسكري بأن « هؤلاء » لا بد وان يكونوا من « المخربين » ٠ عاد المخاتير الى رئيس بلدية البيرة وهم اكثر قلقا ٠ فاستنفر رئيس بلدية البيرة زملاءه رؤساء بلديات المنطقة ، فجاء كل من رئيس بلدية رام الله ، وبني زيد وبتونيا ، وسلوان وبيرزيت ، وبحثوا في الامر ، وقرروا الذهاب الى القرية والنوم فيها عدة ايام ، مع حشد اكبر عدد من الشباب بالاضافة الى دعوة رؤساء المجالس البلدية من مختلف المناطق ٠ فتوجهوا الى القرية ، واذا بالدوريات الصهيونية تعترض طريقهم وتمنعهم من الدخول الى القرية بأمر من الحاكم العسكري ٠ عاد رؤساء البلديات الى رام الله ، حيث اتصل بهم الحاكم العسكري ، وكرر اوامره بعدم الذهاب وتقبل دعوة المختار للعشاء كما بينوا له ٠ ولكنهم قرروا العودة مرة اخرى ولكن عن طريق التسلل عبر طريق وعرة بين الجبال ٠ وفي اثناء سيرهم ادركوا اهمية هذه القرية التي تحتل اعلى قمة بين قمم الجبال المحيطة بالقدس ٠ وتحيطها اشجار الزيتون القديمة حيث المصدر الاساسي للزيتون ٠

وكان قد جاء الى القرية حوالي الف شاب من مختلف انحاء الضفة

الغربية . لقد تحولوا الى جيش شعبي سلاحه الحجارة والهراوات . وعلى الرغم من برد الربيع القارس فقد كان دفء النضال يعمر القلوب . وزعوا انفسهم على حزامين ، خط اول وخط ثان ، زنرتّ بهم القرية ، اعتلت النسوة والاطفال اسطح البيوت المغطاة بالتراب والتي بدأ العشب الاخضر يكسوها . احتل رؤساء المجالس البلدية ميدان القرية الصغير ، وبدأ الجميع يراقب ويترقب .

فجأة اطلت قافلة من السيارات ، تقدر بحوالي عشر سيارات . وعندما اقتربت على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات ،اطفأت الانوار وتوقف هدير محركاتها .

وقع الغزاة في الكمين الذي نصبه الشباب ، وعندما احكموا عليهم الطوق، وباشارة من احدهم بدأ الشباب بضرب حجارة الصوانة التي كانوا يحملونها بين اكفهم في بعضها البعض ، لتبعث صوتا كأنه زخات رصاص الرشاشات ، وكان الصوت يزداد بازدياد حدة الضرب كلما ضيق الشباب دائرة الطوق . بدأ الغزاة في اطلاق الرصاص في الهواء للارهاب ثم التحم الغزاة مع الشباب الذين حولوا الجبل الى عاصفة في وجه الغزاة ، حجارته تتكلم واغصان الاشجار تضرب بعنف ، والريح تعصف بغضب . لقد تحول الجبل الى ثورة . وتبين ان قائد حرس الحدود الاسرائيلي في المنطقة هو نفسه قائد حملة الارهاب . ولم يعد الغزاة حتى اليوم الى دير ابو مشعل ، واحتفظ رؤساء البلديات بغنائم المعركة ، فالبعض ما زال يحتفظ بخوذة جندي ، واخر بمخزن رشاش .

هذه التجربة التي نقلت باختصار ، لا بد من دراستها وتعميقها ونشرها كأحد الاساليب التي يمكن لجماهيرنا استخدامها ، كرديف للكفاح المسلح ، فان عملية الحشد الجماهيري التي تمت وعلى رأسها رؤساء المجالس البلدية ومؤسسات وطنية اخرى ، لها بالاضافة الى معناها العظيم ، نتائج ترعب سلطات الاحتلال .

٦ ـ لقد كان من نتائج اثبات الثورة لوجودها امام مؤامرات التصفية المتتالية والانجازات التي حققتها في مختلف الميادين والاصعدة ، ونضالات شعبنا في الضفة والقطاع وانتفاضاته المتكررة ، ان تحققت الوحدة النضالية بين جماهير شعبنا التي تعيش القهر والاحتلال الصهيوني منذ عام ١٩٤٨ وبقية جماهير شعبنا حيثما كان . وقد وصلت هذه الوحدة الذروة بمناسبات يوم الارض . وبدأت قطاعات واسعة من جماهير الشعب الفلسطيني في مناطق ١٩٤٨ تعلن ارتباطها بالثورة الفلسطينية وتصرح ان منظمة التحرير الفلسطينية هي ممثلة لها . ان هذا التطور والتعبير عنه هو أمر بالغ الاهمية والخطورة .

يتطلب هذا التطور تجاوبا سريعا وجهدا موازيا من كافة اجهزة الثورة وعلى رأسها منظمة التحرير الفلسطينية ، بتصعيد وتنظيم نضالات شعبنا في الداخل والاهتمام بالمؤسسات العربية وخاصة المجالس البلدية ودعم صمودها ماديا ،

مع مراعاة ظروفها الدقيقة ، اذ لا يمكن للكيان الصهيوني ان يتساهل حول اي نوع من الاتصال معها . ولكنه يجب عدم الفصل بين مناطق ١٩٤٨ وبين الضفة والقطاع بالنسبة لكل نشاطات واهتمامات الثورة .

وهذا يستدعي التنسيق والنضال المشترك مع الحزب الشيوعي « الاسرائيلي» ( راكاح ) الذي يعتبره الصهاينة حزب القومية العربية . بالرغم من ان المجلس الوطني الاخير قد قرر اجراء الحوار مع القوى الديمقراطية اليهودية المناهضة للكيان الصهيوني ، والحزب الشيوعي على رأسها ، فان البعض يستنكر اجراء مثل هذا الحوار على اساس انه يفتح المجال امام حوار مع قوى صهيونية ، او باعتباره مقدمة لاجراء مفاوضات مع الكيان الصهيوني نفسه . ان حزب راكاح يشكل طليعة النضال العربي والقوى الديمقراطية اليهودية في « المجتمع » الصهيوني . ان راكاح كان في طليعة ، ان لم يكن المسؤول الرئيسي ، توحيد الاقلية العربية وكافة قواها الوطنية والتقدمية وراء يوم الارض ، والتصدي لكافة مشاريع التهويد والصهينة ، بما فيها التلاعب بمصير اراضي الوقف الاسلامية وضد القمع والارهاب الصهيوني في مناطق ١٩٤٨ ومدن وقرى الضفة والقطاع . ان ادبيات ادباء هذا الحزب لا تدع مجالا للشك في ارتباطهم بالثورة والكفاح المسلح بغض النظر عن بعض المواقف التي يجبرون عليها نتيجة كونهم حزبا معترفا به . ولكننا يجب ان لا نغفل حقيقة وجهة نظره حول الحركة الصهيونية واعتبارها نموذجا جديدا للنازية والعنصرية ، آخذا على عاتقه تقويضها من الداخل . ان وضع هذا الحزب كوضع الحزب الشيوعي الامريكي الذي يدين المجتمع الرأسمالي الامريكي ويندد بسياسته الامبريالية ويأخذ على عاتقه تقويض وتغيير النظام الامريكي . ان احدا لا يمكن ان يعتبر هذا الحزب ، لانه معترف به من قبل النظام الامريكي ، جزءا من الامبريالية الامريكية .

٧ ـ ان احد اهداف سلطات الاحتلال الاساسية تحويل شعبنا الى اقلية قومية من العمال غير المهرة تعمل في خدمة بناء الكيان الصهيوني ، وخاصة في المجالات التي يستنكف العامل العبري العمل فيها . ولذلك فان الاهتمام يجب ان يوجه لمعالجة التربية والتعليم في كل مراحله وخاصة في مرحلته الجامعية . ان شعبنا في الداخل يجابه سنويا مشكلة حوالي خمسة عشر الف خريج ثانوي يحاول معظمهم الالتحاق بالجامعات ، ولكن معظمهم يصاب بخيبة امل بعد ان يجبر على ترك بلده مدة لا تقل عن ستة اشهر يفرضها عليه الحكم العسكري ، بتكبد مصاريف باهظة وهو يبحث عن مقعد جامعي من بلد الى اخر وينتهي به المطاف راجعا بخفي حنين .

ان هذه القضية في منتهى الخطورة ، ويجب معالجتها بتوسيع ودعم

الجامعات في الداخل ، وايجاد البعثات وامكانيات القبول في الجامعات العربية والاجنبية ٠

٩ ـ لقد فشلت سلطات الاحتلال ، بالرغم من مرور اكثر من عشرة اعـوام على احتلالها للضفة والقطاع ، في ان تجد مجموعة من الشخصيات التي لهـا وزن سياسي كي تعمل في خدمتها ، كما نجحت المانية النازية مثـلا اثنـاء احتلالها لدول أوروبية عريقة ٠ ولكن هذا لا يخفي وجود قلة رهنت نفسـها لخدمة الغزاة ٠ وعلى الثورة ان تستخدم كافة وسائل ردعها ٠

١٠ ـ ان عملية بناء الشعوب ومؤسساتها لم تعد قائمة على اسس عشوائية، تمليها بعض الامزجة او ردود الفعل ، وانما على اسس من الدراسة والبحـث والتخطيط ٠ وعملية بناء شعبنا ليس استثناء ٠ فشعبنا يجابه كيانا تدعمـه الامبريالية باحدث اجهزتها التقنية والالكترونية والخبراء في دراسة وتخطيـط ليس مستقبل الكيان الصهيوني فحسب ، وانما مستقبل شعبنا لضمان صياغتـه بشكل يخدم اهدافهم ومصالحهم ٠ ولذلك فانه يفترض ان نبحث وندرس ونخطط لشعبنا بكافة الوسائل المتاحة ، او خلق وتكوين وسائل جديدة للتخطيط في كافة المجالات ، ودراسة كافة الظواهر والسياسات التي يتبعها العدو لوضع مخطـط مضاد الهدف منه صياغة مستقبلنا بأنفسنا ٠ ان لدى شعبنا من الطاقـات والامكانات والخبرات التي تشجع على ممارسة هذا النمط من العمل الـذي سيحقق نتائج لا يمكن لاحد ان يتصور ابعادها ، الا اذا نفذ مثل هـذا النهـج العلمي ٠

تلك بعض ملامح وابعاد التحديات التي تجابه الثورة الفلسطينية في داخل الوطن المحتل ، والتي تهدف الى تصفية القضية الفلسطينية ومسحها عن خارطة العمل السياسي ٠ ولقد وضعت بعض المؤشرات للمجابهة والتصدي والتـي يجب ان تخضع لمزيد من البحث والدراسة من قبل كافة اجهزة الثورة العاملـة في هذا القطاع ، الذي لم تبذل فيه كل الجهود والاهتمامات المطلوبة بالرغـم من خطورته على مستقبل مسيرة القضية وثورتها ٠ على ان وعي جماهيرنا ، وقدرتها على البذل والعطاء ضمن اجواء المناخ النضالي ، وغياب الخوف مـن مجابهة العدو الذي تعيشه هذه الجماهير ، تشكل قاعدة للتفاؤل في استحالـة قهر شعبنا ، وتصفية قضيته ، بل تمنحنا الثقة بحتمية انتصار الشعوب ٠

هشام شرابي

## ذكريات فلسطينية
# عكا: جمر ورماد

**خص الدكتور هشام شرابي « شؤون فلسطينية » بهذا الفصل من كتابه « الجمر والرماد : ذكريات مثقف عربي » الذي سيصدر قريبا عن دار الطليعة في بيروت ·**

( ١ )

كنت في كل صيف ، منذ ان الحقني ابي في السابعة من عمري طالبا داخليا بمدرسة الفرندز برام الله حتى تخرجي من الجامعة الاميركية وسفري الى الولايات المتحدة في سنة ١٩٤٧ ، أمضي عطلتي الصيفية ، او الجزء الاكبر منها . في عكا عند بيت جدي ·

عكا بالنسبة الي كانت ( ولا تزال ) اجمل مدينة في العالم ··

فيها أمضيت القسم الاكبر من طفولتي واجمل ايام صباي ·

تقع عكا في الرأس الشمالي من خليج حيفا · اسمها تعريب الاسم الفرنسي St. Jean d'Acre المستعمل منذ أن احتلها الصليبيون في القرن الحادي عشر· ولا يزال اثر الصليبيين واضحا في المدينة القديمة ، وخاصة في السور المنيع الذي يحيط بها · والى الان تبدو عكا من البحر او من البر ( من جهة تل نابليون ، الهضبة الاصطناعية التي بناها نابليون سنة ١٧٩٩ لقذفها بالمدفعية )، وكأنها مدينة صليبية نسيها الزمن ، وما زال السور حولها قائما على حاله ولم يتغير فيه شيء · وقد شجع العثمانيون بناء المنازل خارج السور لتوسيع

البلدة ، فأقاموا « جنينة البلدية » في مطلع القرن ، وهي حديقة كبيرة على طراز الحدائق العامة الاوروبية ، في وسطها مقصف لفرقة الموسيقى التي كانت تعزف كل يوم جمعة بعد الظهر الاناشيد والمارشات العسكرية · وبنى العثمانيون محطة السكة الحديدية مقابل جنينة البلدية بمحاذاة الشاطيء خارج البوابة الشرقية · وكثيرا ما ركبنا القطار العثماني الصغير في رحلاتنا الى حيفا التي كانت تستغرق خمسا واربعين دقيقة · والى جنوب المحطة يقع الشاطيء الرملي حيث كنا نسبح ايام الجمعة والاحد · لقد زرت انحاء مختلفة من العالم ، وشاهدت شواطيء رملية عديدة ، الا اني لم ارى شاطئا يضاهي شاطيء عكا بجماله ورونقه · الرمل فيه أبيض ناصع ومياه خليجه نقية زرقاء وامواجه هادئة عريضة تتكسر برفق ونعومة · وكان الشاطيء دائما خلوا من الناس ، فاهل عكا لا يحبون السباحة ، ويفضلون تمضية فترة الراحة في الجلوس على الشرفات او في المقاهي او في التمشي ساعة الغروب · وهكذا ترك لنا الشاطيء نستمتع به كما نشاء ، لا يشاركنا به الا عدد ضئيل من الزائرين يأتون من حيفا ، وجنود المعسكر البريطاني بالقرب من المدينة الذين كانوا يسبحون ساعة واحدة بعد ظهر كل يوم ·

وكان في المدينة داران للسينما ، احداهما تقع في البلدة القديمة وهي سينما البرج ، والاخرى في المدينة الجديدة وهي سينما الاهلي · كانت سينما البرج مجرد قاعة كبيرة بنيت فوق السور المطل على الخليج بالقرب من بوابة السور الشرقية · كنا نشاهد فيها الافلام الاميركية لرعاة البقر ( كاوبوي ) او البوليسية فنخرج من عالم الخيال الاميركي لنجد انفسنا فجأة في القرون الوسطى تحيط بنا الاسوار والتحصينات الصليبية والاسلامية · كنا نسمع وقع اقدامنا في الازقة القديمة الخالية من المارة عندما نرجع الى بيوتنا فنصل اليها في منتصف الليل والجميع نيام ·

كانت حجرتي تطل على البحر مباشرة ، وكان فراشي يقع بالقرب من النافذة، فكنت اغفو واستيقظ على هدير الامواج · في الصباح كنت اتبين من صوت وقع الامواج على الشاطيء الصخري ما اذا كان البحر هائجا او هادئا ، يصلح لصيد الاسماك او للسباحة ·

كنا نصطاد الاسماك في عطلة نهاية الاسبوع ، فكان رفيقاي في الصيد ، كامل واكرم ، لا يعودان من عملهما الا بعد الظهر عندما لا ينفع الصيد · وفي عطلتهما الاسبوعية كنا نستيقظ باكرا ونهرع الى الشاطيء فنستمر في الصيد حتى مطلع الشمس ، ثم نتناول الفطور ، ونذهب الى الشاطيء الرملي بالقرب من المحطة للسباحة ونركب الحسكة حتى اخر النهار · وكان كامل ، اذا كان الطقس خلال الاسبوع مناسبا لصيد الاسماك ، يتغيب عن عمله بحجة المرض ، ونمضي

ساعات في الصيد نتنقل من مكان الى اخر حتى الظهيرة · تلك كانت اسعد ايام حياتي بلا منازع · كنا احيانا نتصيد سمكا كثيرا من نوع القراص او البوري واحيانا لا نصطاد شيئا · وكنا اذا وفقنا في الصيد نتمتع في المساء بعشـــاء فخم من السمك المقلي مع سلطة الطحينة والبقدونس والخبز المقلي والحمــص والبابا غنوج تعده ام كامل ونتناوله فوق سطح بيتهم · وبعد العشاء كنا نذهب الى السينما او نجلس في مقهى حبيبو ، نشرب الكازوز ونلعب طاولة الزهــر ونتبادل النكت ونراقب الفتيات يتمشين متشابكات الاذرع يتضاحكن ويسترقــن النظر بغنج ·

كانت جدتي ــ رحمها الله ــ تحبني كثيرا · فهي لم تنجب صبيانا ، وكنت بعد جدي ــ رحمه الله ــ الرجل الوحيد في حياتها ·كان يساورها القلق عندمــا تراني اعزل نفسي كل يوم لاقرأ واكتب ساعات متواصلة ، فقد كان ذلك فــي نظرها شيئا غير طبيعي · وكان يقلقها على الاخص جلوسي في الشرفة منفردا انظر الى البحر مفكرا لا ابدي حراكا · وكانت تأتي الي في الشرفة وتسألنــي بحنــو :

ــ ليش قاعد هيك لوحدك يا حبيبي · رأسك بيوجعك · حاسس بسخونة ·

كان علاجها الوحيد لكل الامراض ــ النفسي منها والجسدي ــ هو البابونج ، وكانت تفرضه على كل افراد العائلة ، وخصوصا علي وعلى جدي · والبابونج عشب بري يغلى بالماء ويصبح لونه كلون الشاي الا انه شديد المرارة · وكــان نصيبي منه في اليوم على الاقل ثلاثة او اربعة فناجين ، اتناولها غصبا عنــي نزولا عند الحاح جدتي · وكانت جدتي تنتظر قدومي ، فاذا رأتني نازلا مــن السطح او عائدا الى البيت ، تسكب فنجانا من البابونج وتجابهني به قائلة :

ــ اشرب هالفنجان يا حبيبي ، اشرب شراب العافية ·

ــ لكني مش مريض يا تيتا ·· لا بطني بيوجعني ولا رأسي ما له شي ··

ــ اشرب فنجان كرمال ستك ·· نص فنجان ··

وعندما اقول لها ان كثرة البابونج تسبب لي أمساكا في المعدة ، تجيب دون تــردد :

ــ شو هالحكي · مين عمره قال انه البابونج بيعمــل امساك ! بالعكس ، البابونج بمشي المعدة وبيحمي من كل الامراض ·

وعندما اشكو من جريان المعدة ، كانت تأتيني بالبابونج معلنة :

ــ ما في مثل البابونج بيوقف المعدة !

وبالاضافة الى الحماية الطبية الشاملة التي كانت توفرها لي بواسطة البابونج ، كانت جدتي تسبغ علي حماية روحية قوية بواسطة الصلاة والدعاء المستمرين · كانت تعتقد اعتقادا راسخا بأني مدين بحياتي ، لدعاءاتها وصلواتها ، واني لم اكن لانجو من مخاطر العالم الخارجي ـ الذي لم تكن تعرفه الا من نافذة بيتها او من « الزيارات » القليلة التي كانت تقوم بها الى بيوت العائلات التي هي ، بنظرها ، في منزلتها الاجتماعية ـ الا بفضلها · وكان يؤلمها تقاعسي في القيام بالفرائض الدينية ، فكانت تحاول التعويض عن ذلك بمضاعفة عباداتها من أجلي · وحاولت مرة ، عندما كنت في العاشرة او الحادية عشرة ، اصلاح اموري الدينية بالاسلوب المباشر ( كانت تلك المحاولة الاولى والاخيرة ! ) · فأرسلتني الى الشيخ في الجامع الصغير المجاور لبيتنا لاتعلم اصول الدين · ولسبب لا اعرفه حتى اليوم ، جعل الشيخ موعد درسنا عند الفجر من كل يوم · فكنت استيقظ كل يوم في الساعة ـ اراحك الله ـ الرابعة او ما يقارب ، وظلام الليل ما يزال مخيما ، فارتدي ثيابي بسرعة واركض الى الجامع فأجد الشيخ ينتظرني وهو يسوك اسنانه · فيجعلني اقرأ في كتاب ـ نسيت عنوانه ـ يتناول العبادات والفرائض مثل الوضوء والصلاة والصيام ، وعندما انتهي من قراءة الدرس يأخذ في تفسير ما قرأت ·

لم تدم دراستي الدينية طويلا · وكان سبب انقطاعها رفضي التيمم · ( وهو الوضوء بالتراب بدلا عن الماء ) · فقد وصلنا فجر أحد الايام الى موضوع التيمم ، وكنت لا اعرف ما هو التيمم ولم اسمع به قط ، فأخذ الشيخ يشرح لي الظروف التي يصح فيها اللجوء اليه بدل الوضوء بالماء ·

ـ هذا الرسم يبين الظرف الذي ينبغي علينا الا نعرض فيه انفسنا للتهلكة · فيه يصح التيمم ·

يقول ذلك وهو يدل باصبعه على رسم في الكتاب يمثل اسدا اشعث الرأس يقف غاضبا امام بركة ماء في الصحراء ·

ـ هذا الرسم يبين الطريقة الصحيحة للتيمم ·

ويشير الى رسم آخر يمثل رجلا يعفر وجهه بغبار يضاهي عاصفة رملية صغيرة ، ويقف بعيدا عن الاسد وبركة الماء · وامضينا بقية الدرس في معالجة التيمم والظروف التي يسمح فيها باستعماله · وهكذا اذا كنت مسافرا في الصحراء وحان موعد الصلاة ووجدت ان اسدا اشعث الرأس يقف بينك وبين ماء الوضوء ، تعلم ما يجب عمله ··· لم تلح علي جدتي بالعودة الى الشيخ بعد أن اخبرتها عن الاسد والغبار والظروف التي تسمح او لا تسمح بالتيمم ، وخافت ، ان استمر الشيخ في تلقيني ، ان افقد ما تبقى في نفسي من ايمان ·

كانت جدتي نحيلة الجسم ، ذات بشرة بيضاء وشعر يميل الى اللون الاحمر وعينين بلون بني فاتح · ولا شك انها كانت في غاية الجمال في صباها · كانت شخصيتها قوية وكان جدي لا يعارضها بشيء ويرضخ لاوامرها ، بالرغم من معاندته لها احيانا في موضوع التدخين والقهوة ـ فقد كانت تسمح له بتدخين نصف سيجارة وارتشاف نصف فنجان قهوة باوقات معينة وحسب برنامج يومي دقيق · وكان يحاول دائما الفوز بامتيازات اكبر ، كتدخين سيجارة بكاملها او شرب فنجان قهوة بكامله · كانت حياتهما هادئة سعيدة ، خصوصا بعد انتقالهما الى بيتهما الجديد ·

كانت جدتي دائما تحلم بامتلاك بيت خاص بها · وتحقق حلمها في منتصف الثلاثينات بعد ان وفرت من المال ما يكفي لبناء بيت كبير ، عهدت ببنائه الى مهندس ناشيء اسمه اميل بستاني ـ الذي اصبح بعد الحرب العالمية الثانية اكبر مقاولي البناء في العالم العربي · وبنى البيت على احدث طراز ، بالرغم من ان الحمام لم يكن يشتغل على ما يرام ·

كان نزوح جدي وجدتي عن بيتهما في سنة ١٩٤٨ اقسى تجربة مرت بهما في حياتهما ، وكانت السنوات الاخيرة من حياتهما ملأى بالحزن واليأس والضياع · ففقدت جدتي مرحها وحيويتها وفقد جدي رشده ، ولم يعد يتعرف الى الذين حوله · في بيروت اقاما مع خالاتي ووالدتي واخي الاصغر في بيت مؤلف من حجرتين تملكه سيدة تقرب جدتي قرابة بعيدة ·

توفي جدي في سنة ١٩٥٠ · قبل وفاته كان يحاول بين آن واخر التسلل من البيت في غفلة عن اهله ليرجع الى عكا · وكان عندما يمسكون به في الشارع يقول :

ـ انا بس راجع لبيتي ·· انا بيتي في عكا ·· ليش ما بتخلوني ارجع لبيتي ؟ ويأخذ مفتاحا من جيبه ويقول :

ـ ما بتصدقوني ·· هذا مفتاح بيتي ··

وعندما يعودون به الى البيت يجلس صامتا والدموع تسيل من عينيه وتبلل لحيته التي لم تعد جدتي تقصها له كما كانت تفعل في عكا ، ويرفض الكلام زمنا طويلا ·

وتوفيت جدتي بعده بثماني سنوات ·

( ٢ )

قبل سفري الى الولايات المتحدة ببضعة ايام توقفت في عكا لاودع بيت جدي ووالدتي وكامل واكرم ·

سافرت من بيروت بالسيارة في يوم شديد البرودة من شهر كانـون الاول · توقفنا قبل المغيب في نقطة التفتيش البريطانية في رأس الناقورة · وبعـــد التفتيش انحدرت بنا السيارة نحو قرية الزيب ، وكانت الشمس على وشـك الغياب · وتبينت في ضوء الغسق سور عكا ومئذنة جامع الجزار ترتفـــع فوق المدينة في السماء الرمادية ، ومن ورائها حيفا ، وجبل الكرمل يمتـــد الى عرض البحر · فتحت نافذة السيارة قليلا واحسست بالريح الباردة تلفـح وجهي ، وجعلت اراقب امواج البحر القلقة التي ذكرتني بايام الصيـف والصيد والسباحة والمرح · رأيت مركبا شراعيا تملأ الريح شراعيه ويشق العبـاب تاركا وراءه رذاذا ابيض طويلا ، في طريقه من صيدا او طرابلس الى عكـا ·

كانت الطريق خالية ، الا من باص او باصين من باصات شركة « ايجـد » اليهودية يسرعان في طريقهما الى نهاريا ، المستعمرة اليهودية الوحيدة فـي الجليل الغربي · قبل هبوط الظلام ، وعندما بدأت الاضواء تتلألأ فـي البيـوت دخلنا شارع عكا الرئيسي · في قهوة حبيبو لم يكن هناك الا بضعة اشخـاص يلعبون الطاولة ، وفي مدخل سينما الاهلي لم ار احدا ، ربما لان موعد الفيلم لم يحن بعد او لان الطقس كان باردا ·

في البيت كان جدي قد آوى الى فراشه ، فجلست مـع جدتي وخالاتـي ووالدتي ، وكانوا جزعين حزينين لفراقي · وتناولت عشاء خفيفا من اللبنـة والجبنة والزيتون ـ كعادتي منذ الصغر في عكا · وبعـد العشاء ـ وكانت الساعة قد قاربت السابعة ـ ارتديت معطفي وخرجت للقاء كامل واكرم فـي بيتهما بالقرب من المقهى ·

كانا بانتظاري خلف الباب ، ليفاجئاني باستعداداتهما العسكرية ، فقد ارتدى كل منهما خوذة عسكرية ، مثل التي كان يستعملها الجنود البريطانيون ،وامسك بندقية صيد قديمـة ·

وقال كامل بعد ان جلسنا :

ـ هل سمعت بالحادثة ·

ـ ايـة حادثـة ·

واخبرني عن مهاجمة اهل عكا لقافلة يهودية كانت في طريقها من حيفا الى نهاريـا ·

اقام عدد من الشباب المسلحين كمينا عند مفترق شارع بيروت ـ صفـد وانتظروا حتى وصلت ، وكانت مؤلفة من خمس مصفحات وبضع شاحنـات وانهالوا عليها بالرصاص · كان هدفهم تعطيل السيارة الاولى التي كانت تتقدم القافلة ثم مهاجمة باقي السيارات التي تكون قد اضطرت عندئذ الى الوقوف ·

ولكن الرصاص لم يخترق الدرع الفولاذي للمصفحة الاولى ، فاستمرت في التقدم بالرغم من اختراق الرصاص دواليبها الكاوتشوك · وكان السائق ـ او رفيقه ـ يطلق النار على الخنادق الى جانبي الطريق بين الحين والاخر · وهنا صاح احد الشبان في احد الخنادق :

ـ سمعان الغفري ، اين هو · ابعثوا وراء سمعان الغفري ·

وكان سمعان الغفري يقتني البندقية الوحيدة في عكا الحديثة والسريعة الطلقات · ووجدوه جالسا في كمين يقع في الناحية الاخرى من مفترق الطريق· فقام في الحال وقطع الشارع الى حيث كانت المصفحة بازاء جنينة بيت حبايب· وقفز الغفري فوق سور الجنينة وسار بمحاذاته منحني الظهر حتى وصل الى حيث كانت تسير المصفحة ببطء ، فاسند بندقيته الى حافة السور واطلق عليها النار · وما هي الا لحظات حتى انبعثت منها النيران وقفز سائقها ورفيقه الى الشارع رافعين ايديهما مستسلمين · واخذ المسلحون يطلقون النار من جميع الجهات على السيارات الاخرى التي توقفت · وما هي الا دقائق حتى اخذ اليهود يقفزون من السيارات رافعين ايديهم فوق رؤوسهم · واستسلمت جميع سيارات القافلة ما عدا المصفحة الاخيرة التي استمرت باطلاق النار ، فاحاط بها المسلحون وركزوا عليها نيران بنادقهم · وبعد قليل توقف اطلاق النار من المصفحة واخذ سائقها يلوح بمحرمة بيضاء · فقام الجميع من خنادقهم مهللين، ولكنهم ما كادوا يخطون بضع خطوات حتى انصب عليهم الرصاص من المصفحة فقتل وجرح عدد منهم وهرع الباقون الى خنادقهم · واخذوا يطلقون النار ثانية على المصفحة حتى اشعلوا فيها النار وقتلوا من فيها ·

( ٣ )

غادرت عكا الى القدس في الصباح الباكر من اليوم التالي · وكان كامل واكرم قد غادرا الى عملهما في حيفا ·

لا انسى ما قاله لي كامل وهو يودعني في الليلة السابقة :

ـ عندما ترجع من اميركا تكون فلسطين قد تحررت ·· الدول العربية كلها معنا ·· جيش الانقاذ قادر على احتلال فلسطين بمفرده ·

بعد وصولي الى شيكاغو بحوالي شهرين استلمت من كامل رسالة كان في داخلها صور فوتوغرافية له ولاكرم على سطح بيتهما ، وقد لبسا خوذتيهما وحملا بندقيتيهما ووقفا ينظران الى الكاميرا بثقة واعتزاز · لكن الرسالة المرفقة لم تعكس الثقة التي ظهرت في الصور : معظم السكان قد رحلوا عن المدينة ( ريثما تنتهي الاضطرابات ، كما قال كامل ) فيما شدد اليهود هجماتهم

على حيفا والقرى المجاورة ، وحصنوا نهاريا ومستعمراتهم على الحدود · لم يكن في الرسالة اي اثر للمرح وروح النكتة اللذين عهدتهما في كامل ·

وفي نيسان ١٩٤٨ حدث المستحيل ·· احتل اليهود عكا وطردوا ما تبقى من سكانها ، الا الذين التجأوا الى المدينة القديمة ··

عائلة جدي نزحت عند بدء الهجوم اليهودي ، أما كامل واكرم فبقيا في عكا الى اخر دقيقة ، ولم يتركاها الا بعد ان دخلت القوات اليهودية الى ضواحيها· فحملا ما يمكن حمله وغادرا مع امهما واخويهما الصغيرين الى اقرب بلدة عبر الحدود اللبنانية ·

ماذا حدث ؟ في ايار كانت المعنويات ما زالت قوية ، فقد قدمت للدفاع عن عكا فرقة من جيش الانقاذ بقيادة اديب الشيشكلي ، فتحمس الناس واخذ اللاجئون اليها من حيفا يأملون في العودة الى بيوتهم · ولكن سرعان ما انسحب الشيشكلي بفرقته ، بناء على اوامر القيادة ، فعم الناس اليأس والقنوط ثانية· وكان الغذاء قد بدأ ينفذ كما قاربت ذخيرة المسلحين على النفاذ · اما الخبز ورصاص البنادق فكان يباع في السوق السوداء باسعار باهظة · وكل وعود الشيشكلي بارسال العون والامدادات لم تحقق · وفي هذه الاثناء وقعت معركة بين قوات الشيشكلي والقوات اليهودية بالقرب من صفد ، فارسل الشيشكلي الى عكا يطلب العون ، فهرع الى نجدته مسلحو البلدة في السيارات المتبقية · ولما عادوا ، بعد بضعة ايام ، نقل الجرحى الى جامع الجزار ، حيث توفي بعضهم لعدم توفر الادوية واسر بعضهم الاخر الذي لم يتمكن من الفرار عند سقوط المدينة · اما الشيشكلي فقد انسحب بما تبقى من فرقته عبر الحدود اللبنانية تاركا الجليل الغربي بكامله تحت رحمة اليهود ·

في اول الامر التجأ كامل واكرم وعائلتهما الى قرية رميش ، عبر الحدود اللبنانية ، حيث استأجرا بمبلغ باهظ ، غرفة صغيرة في بيت قديم · وامتلأت القرية باللاجئين ، فامتنع أهلها بعد قليل عن تقديم المأكل والمشرب اليهم · ثم انقطعت المياه كليا عن القرية وصارت صفيحة الماء تباع بجنيهين · عندئذ قرر كامل واكرم العودة الى عكا واستطلاع الوضع فيها · فتسللا عبر الحدود الى ان وصلا اليها قبل المغيب · فلم يجدا احدا في الطرقات ، فذهبا مباشرة الى بيت جدي ، الذي اقامت فيه عائلة تمت بصلة القربى الى كامل واكرم · ودخلا البيت ، وكان في ظلام دامس ، اذ ان الكهرباء والماء قد انقطعتا عن البلدة ·

واخبرهما قريبهما عادل عن الوضع :

ـ كل الناس هربت · والذين بقوا خارج السور اجبرهم اليهود على مغادرة البلدة او الالتجاء الى المدينة القديمة ·

وسأله كامل عن حالة الغذاء ٠

ـ لا يوجد اكل ٠ الناس كلها جائعة ٠

فقال كامل :

ـ وانتم : هل ستبقون ٠

ـ أين يمكننا الذهاب ومعنا اطفال ؟ لا يوجد عندنا اهل لا في الاردن ولا في سوريا ولا في لبنان ٠ سنبقى ٠

ثم تجول كامل واكرم بصحبة عادل في الطريق المجاورة ، فلم يروا الا قططا تموء جوعا ٠ و«اقترب كامل من احدى القطط مداعبـــــا ، فقوصت ظهرها ، وكشرت عن أنيابها ، كأنها تبغي مهاجمته ٠

وبدا واضحا ان العودة الى عكا امر مستحيل ٠ فودع كامل واكرم اقاربهما وعادا الى رميش ٠

( ٤ )

قبل سقوط عكا ببضعة ايام احتل عدد صغير من المسلحين ، ومن بينهـــم ســـمعان الغفـــري ، قلعـــة البوليـــس البريطـــاني ( Tiggert Buiding ) خارج السور ، واستمروا في مقاومة اليهود عدة ايام وكبدوهم خسائر كبيرة ، ولم يتوقفوا عن القتال الا بعد ان نفذت ذخيرتهم ، وقتل بعضهم وتمكن بعضهم الاخر من التسلل الى داخل السور ثم الهرب الى لبنان عن طريق البحر ٠ وقرأت خبر سقوط عكا في اليوم التالي ، في جريدة النيويورك تايمس ، وكنت جالســا على مقعد في الميدواي في شيكاغو اراقب الاولاد يلعبون البيسبول ٠

يقول الذين زاروا عكا مؤخرا انها اليوم مدينة كبيرة تمتد اميالا خـــارج السور ٠ اما بيت جدي فلا يزال قائما وتسكنه عائلة يهودية ٠ وقد ارسل الـى مؤخرا صديقي اليهودي اوري ديفز صورا فوتوغرافية عنه ، ولم اتعرف اليه في بادىء الامر ، فقد اختفت الاشجار من حوله واغلقت نوافذه بالحجارة من جهة الشارع ، وظهر لي كما تظهر الاشياء في الاحلام ، معهودة ، لكنها في الوقـت نفسه غريبة اتية من عالم آخر ٠ ولا يزال الجامع المجاور ، الذي اخذت فيه اول دروسي القرآنية ، قائما كما هو الا ان الشيخ قد غادره وامسى مهجورا ٠ وقد حرم على من تبقى من السكان العرب السكن في المدينة الجديدة ( خارج السور) واجبروا على الاقامة في المدينة القديمة ( داخل السور ) التي اصبحت بالنسبة لليهود « كازبا » يزورها السواح الاجانب ليشتروا منها الحاجات المصنوعـــة محليا ويتفرجوا فيها على « سكان اسرائيل العرب » ٠

فيصل دراج
الكسندر فلورس

# القومية في آسيا وافريقيا

القومية نتاج معقد لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية · ظهرت في أوربا في القرن التاسع عشر مع الثورة الصناعية ، ثم امتدت الى قارات اخرى بعد ان اخذت سمات جديدة ·

قدمت القومية الاوربية نموذجا تاريخيا ، لكن « تاريخية » هذا النموذج لا تجعل منه نموذجا كونيا ، فلـ « قوميات العالم الثالث » سيرورتها التي لا تطابق ولن تطابق سيرورة القومية الاوروبية · فقد نشأت القومية الاوربية مصارعة الاقطاع ، في حين استيقظت القومية في آسيا وافريقيا ونمت خلال عملية الصراع الطويلة التي خاضتها وتخوضها شعوب هذه البلدان ضد الاستعمار · وقومية هذه البلدان في شكلها الراهن نتاج لديالكتيك مفتوح يربط بين تاريخها الموضوعي وصراعها مع الاستعمار · واذا كان تاريخ القومية الموضوعي يحددها **ايجابا** بشروطها المادية القائمة ، فان صراعها مع الاستعمار يحددها **نفيا** ، وفي وحدة ديالكتيك الايجاب والنفي تتشكل القومية في آسيا وافريقيا ·

**تحديد الذات ايجابا :**

القومية ظاهرة تاريخية . لا تناقش كوجود مطلق او كغياب مطلق ، بل كعملية تنمو وتتكشف في مسار متناقض يراوح او يرتقي بمراوحة او ارتقاء الشروط المادية للبشر · والقومية الافرو ــ آسيوية لا تشذ عن هذا المنطق بل تطاوعه كقومية خام لا تصل الى الغياب ولا تشارف الحضور الكامل · فهذه القومية في هشاشتها ومحدوديتها ذات جذور ومركبات تتفاوت في تكونها وتبلورها من بلد الى آخر (١) ·

لشعوب آسيا وافريقيا لغاتها ، او لكل شعب منها لغاته ، ربما لا نستطيع ان

نلمس لديها دائماً **لغات قومية** ، لكن ذلك لا يمنع وجود لغة او لغات قديمة ، ويختلف دور **كل** لغة من بلد الى آخر ، فبعض البلدان احادي اللغة وبعضها ثنائي اللغة ، بل يمكن ان نجد جملة لغات ذات وظائف مختلفة في بلد واحد ، فقد وجد في نيجيريا الشمالية مثلا لغة خاصة بالمؤسسات الادارية وبالبحث العلمي ( اللغة الانجليزية ) ولغة خاصة بالدين ( اللغة العربية ) وثالثة ( هاوسا haoussa ) خاصة بالمعاملات اليومية · وتعتمد بعض البلدان على لغتين : اللغة المحلية واللغة التي فرضها المستعمر وثبت وجودها ( كامبوديا ـ الهند ) ، وقد تتراجع اللغة المحلية تاركة كل المكان تقريبا للغة المستعمر . كما هو الحال في المستعمرات الفرنسية والانجليزية في افريقيا · بالاضافة الى الحالات السابقة نجد لغات قومية بالمعنى التاريخي للكلمة : اللغة العربية ، الفيتنامية ، الصينية · بالاضافة الى اللغة وهي الصفة الاكثر قدما وثباتا في تركيب الامة . نجد عنصرا آخرا من مقومات الامة : الارض · الارض عنصر هام ، وهي ليست مجرد التعبير الجغرافي لانتشار اللغة القومية بل حقيقة مستقلة أنتجت تاريخيا · وتأخذ الارض الاقليمية في آسيا وافريقيا شكلين : أرض مستقرة راسخة الحدود احتفظت بمعالمها قبل التدخل الاستعماري وبعده : مصر، فيتنام ··· ، وأخرى خضعت لتغيير وتعديل فرضه الاستعمار بعد ان اقتسم آسيا وافريقيا اثر معاهدة فرساي ومؤتمر برلين ١٨٨٥ ـ ١٨٨٤ · وهذا حال معظم البلدان وخاصة الافريقية منها ·

نصل بعد ذلك الى ما يسمى « الحياة الاقتصادية المشتركة » ، « السوق القومية » ، « نمط الانتاج المشترك » ، وهذا العنصر هو اكثر العناصر غموضا وتعقيدا ، فهناك صعوبة اولى تعود الى الوضع النظري لمفهوم نمط الانتاج ولمفهوم التشكيلة الاجتماعية ، وصعوبة ثانية تعود الى محدودية الدراسات التي عالجت « التاريخ الاقتصادي » للبلدان الافرو ـ آسيوية · وتربط « الحياة الاقتصادية المشتركة » في هذه البلدان ، **بشكل عام** ، بـ « نمط الانتاج الاسيوي » الذي أنتج شكلا من التلاحم الاقتصادي ومنح الدولة مركزية مطلقة · وبمجيء الاستعمار خضعت الحياة الاقتصادية لحركة جديدة واكتسبت ملامحا خاصة بها ، فقد كسر الاستعمار الاطر الضيقة للانتاج الفردي ، وطور قانون الضرائب ، وسرع في تسويق المنتوجات الزراعية ، واقام شبكة من المواصلات تتناسب مع حاجياته ، وحرك اليد العاملة بأشكال مختلفة الزراعة ، البناء ، وحتى بعض المشاريع الاقتصادية ·

نعثر لدى هذه الشعوب على « الشخصية المحلية المتميزة » بعاداتها وطباعها وأعرافها ، فالهندي لا يساوي الباكستاني ، والعربي يختلف عن الايراني ، كما نجد لديها « الشخصية الثقافية » المرتبطة بجملة تقاليد متمايزة : الفولكلور ، الاديان ، الادب الشعبي ، الادب المكتوب ، الطبخ ، الموسيقى ·· تتلاحم كل هذه

العناصر لتنتج شخصية تاريخية ذات اصول وحاضر ومستقبل ٠٠ يختلف ثبات وتبلور كل عنصر من العناصر السابقة من بلد الى اخر ويبقى مرهونا بدينامية الصراع الاجتماعي ونزوعاته ٠

ان تراكم هذه العناصر لا ينتج قومية ، فلكل من هذه العناصر تاريخه وشكل تطوره ، وتضافر هذه العناصر « الخام » يدفع باتجاه قومية وينزع الى الانتقال من ما قبل ـ القومية الى القومية ، فليس وجود « عناصر القومية » هو الـذي يشكل القومية بل هو شكل تلاحمها في **وحدة عضوية** ٠

**تحديد الذات ونفي الاخر** : عندما دخل الاستعمار الاوروبي آسيا وافريقيا ، دفع شعوب هاتين القارتين الى عصر تاريخي جديد ٠ هز أركان هذه الشعوب الضاربة عميقا في فضاء التاريخ ، ووضعها أمام مواجهة وتهديد حضارة بيضاء صاعدة ٠ نقلها من حركتها التاريخية الطبيعية الى حركة قسرية جديدة تنزع الى حفظ البقاء والوجه والارض ، وتهدف الى حماية الثروة الوطنيـــة والثقافـة الوطنية النازفتين أمام آلة « الحضارة البيضاء » ٠ كان على هذه الشعـــوب « الملونة » ان تجابه ممارسة استعمارية واعية تهدد كليتها الاجتماعية وتعمـل على تحويلها الى كيان تابع مضيع المعالم فاقد الحركة ٠

بدأ الانسان الافرو ـ آسيوي يتلمس ملامحه وملامح الآخر الغازي في حقل صراعي متعدد الابعاد والمناحي ، وكلما نما الصراع رافقه نمو في تحديد الذات والاخر وعملت الذات على حماية ملامحها ورفض الآخر ، فتحمل راية الديـن وتتمرس خلف اللغة وتتحصن وراء الزي والتقاليد ٠ ويأخذ الصراع في مواجهة العسف والنهب « الابيضين » كل أشكاله السلمية والعنيفة ، وتظهـــر حـدود القارات واللغة ، وفواصل الدين واللون ، فترفض البوذية المسيحية وتصـــد اللغة الفيتنامية اللغة الفرنسية ، ويتابع الانسان الصيني الاصفر تقـــديس كونفوشيوس ، ويستمر انسان افريقيا الاسود في مناجاة الاشجـــار والانهار وارواح الاجداد الهائمـة ٠

استمر الصراع الوطني في عمليته الطويلة والمعقدة ، واعادت عملية الصراع انتاج المستعمر ( بفتح الميم ) والمستعمر ( بكسر الميم ) معا ، ومنحت المسافـة الزمنية الفاصلة بين دخول الجيوش البيضاء وخروجها انسان آسيا وافريقيـا ملامحا جديدة او « شيئا جديدا » ، فتلمس حدود ذاته الوطنية ، وخرج من عبق التاريخ الراكد الى ساحة الصراع الذي يغذيه جشع رأس المال والاحتكارات ، وفقد عالمه القديم ليدخل بلا ارادة في عالم الاستعمار والامبريالية ٠ وهكذا نقلت الممارسة الصراعية والقوانين الامبريالية الانسان المستعمر من حالة الركود الى حالة الحركة ، ومن مرتبة تاريخية الى مرتبة تاريخية اخرى ، فاكتسب شيئـــا جديدا ، وعرف حضارة رأس المال وحدود زمانه التاريخي ، اي حدد ذاتـــه

كنقيض للاخر وعرف ذاته نفيا : أنا كل ما لا ينتمي اليه الآخر طالما يقف علــى أرضــي ٠

لم يكن الصراع طوليا ، عرف السوط والدم والمدفعية ومــــر بالتخيـلات والاساطير والانتربولوجيا العنصرية ايضا ٠ فاستعادت الذاكرة الافرو ـ آسيوية « الوجه الابيض » واطنقته رديفا للشر وبرودة الروح وقتامة الحيوانية ، فهــو « شارب الدم » وحليف الارواح الدنسة وحليف ابليس وعدو الرحمن ٠ وأمسكت الايدولوجيا الكولونيالية انسان الصحراء والغابات والمعابد الشرقية ، فوحدت الاول مع الجمل والثاني مع القرد والثالث مع الشيطان ، اصبح الانســـــان الصيني شرا مرجوما ، وامسى الانسان الاسود « الزنجي » نظيرا لليل وعدوا للمسيح ، وكما انتجت الذاكرة الكولونيالية اسطورة الاله الابيض انتجت ايضا أسطورة الشيطان الاسود ، واصبح البولوني « الطيب » ينعت الانسان السويدي « السيء » بـ « هذا السويدي الاسود » ثم يعمم القول فيصبـح : « اسود مثل السويدي » (٢) ٠

دار الصراع في شرطه التاريخي : **الشرط الاستعماري** المحدد اقتصاديـــــا بالنهب وسياسيا بالقمع وايدولوجيا بالعنصرية ، واستمر في وحدته التناقضية القائمة على ثنائية المستعمر / (٣) ٠ كل ينفي الآخر بأسلحة لا متكافئة فــي ديالكتيك يستدعي وجود الطرفين : وجود المستعمر ( فتح الميم ) في بؤســـــه المستمر ضرورة ، شرط أساسي لوجود المستعمر ( كسر الميــم ) في نعيمــــه المستمر ٠ لكن البؤس لا يعايش الرخاء الا مكبلا وفي شروط تنتج القمع وتعيــد انتاجه أبدا ٠ وفي تعايش نسيجه القمع ولحمته النهب تطور النقيضــان علــى ارضية الشرط الاستعماري . وعندما نقول شرطا استعماريا نقـــول عمليـــة صراعية تهدم النقيضين وتخلقهما في الوقت ذاته ، يتمركز كل منهما حول ذاته وصفاته ثم يخرج محاولا استئصال الآخر وازالته وتدميره ، يصل المستعمـر والمستعمر الى عالم حدوده اللون والمناجم والقمع ، يأخذ التمايز صفة الاطلاق، وينسحب المستعمر الى « اوروبيته المركزية » والآسيوي الى « آسيويته » والافريقي الى «كهفه» التاريخي الخاص ٠

لا تستند هذه المواجهة التدميرية الى اعتبارات نفسيــــة او اختلافــــات أيدولوجية او لاهوتية بل الى **أساس مادي** محكوم بالنهب والتدمير والقمــع ، مارسه ويمارسه الغزاة الامبرياليون في « العالم الثالث » لذلك ينبغي التمييـز بين النضال الوطني التحرري الذي يعمل لتحرير ارض وحماية ثقافة وصيانـة ثروات وطنية وبين مركب كره الغرباء Xenophobia ، فنحن لسنا في مجــال « عنصرية تطرد اخرى » كما يذهب بعض المستشرقين الاستعماريين بل في مجال: الاستعمار وحركات التحرر الوطني (٤) ٠

شكل الاستعمار الاوربي للانسان الافرو ـ آسيوي تهديدا وتحديا : تجلى التهديد في فعله المستمر لتشويه التطور الطبيعي للمجتمع وتدمير كل خصائصه التاريخية ، وتحد عبر عن نفسه في وعي الانسان المستعمر للهوة التاريخية التي تفصل بين عجزه وتخلفه وجبروت و « تقدم » الانسان المستعمر · ومن ديالكتيك التهديد والتحدي والحضور المباشر للمستعمر انطلق النضال الوطني في وتائر تختلف من بلد الى آخر ، وشاركت قوى اجتماعية مختلفة في هذا النضال رافعة راية الدين والتراث والاساطير ، واصبح هذا النضال تيارا مكونا من قوى اجتماعية مختلفة هدفها النهائي هو الاستقلال الوطني المدفوع بايدولوجيا قومية·

اذا رجعنا الى منطق صراع المستعمر / المستعمر ودرسناه في شكل بدايته ومساره ونهايته نستطيع الوصول الى الاطروحات التالية :

١ ـ تبلورت النزعات والايدولوجيات القومية غالبا نفيا ، فهي لم تنطلق من خط قومي واضح ، بل نمت عبر منطق النفي والتمايز عن الآخر وظلت لذلك تابعة في نموها وتصاعدها وخمودها الى الآخر ( المستعمر ) وحضوره المباشر وشكل ممارسته · لذلك نقول ان كل تحديد بالنفي هو تحديد زائف او ناقص ·

٢ ـ وكما انتجت الرأسمالية البروليتاريا ، فان الاستعمار حرض النزعة القومية وشارك في حركة تشكلها خالقا قوة تواجهه وتثور عليه (٥) · لذا يلاحظ ان وتائر نمو القومية تختلف من بلد الى آخر معبرة عن مدى الصراع مع الاستعمار وحدوده ·

٣ ـ اذا كانت الطبقة البرجوازية رفعت وحيدة راية القومية الاوروبية لخلق ( السوق القومية ) ، فان الامر لم يكن كذلك في آسيا وافريقيا ، فقد شارك ( ويشارك ) في الحركة القومية طبقات وزمر اجتماعية مختلفة كان شعارها « تحرير الوطن » لا « السوق القومية » ·

٤ ـ القومية الافرو ـ آسيوية ظاهرة لا متجانسة ، بلا قوانين ، تتباين في مستوى تطورها ، وما هو مشترك فيها يعود الى الاثر التاريخي الناتج عن ديالكتيك الاستعمار والتحرر ·

**الاشكال اللامباشرة للوعي القومي :** ظهر الوعي القومي الاوروبي في مجتمع متمايز طبقيا ، واضح الحدود ايدولوجيا وسياسيا · دفع هذا التمايز الوعي الى حدود الوضوح ، ونأى به عن حدود السديم واللا تحديد ، فاقترب الوعي القومي من مفهومه النظري ، اما الوعي القومي في افريقيا واسيا فقد عرف قدرا آخر مرتبطا بتاريخه وشروطه الاجتماعية ، عكس هذا الوعي شروطه وترجم تاريخه ·

خاض الانسان المستعمر معركته « القومية » بوعي قومي لا مباشر ، وعي

الحفاظ على الشخصية الوطنية ، الدفاع عن الخصوصية المحلية ، الافتراق عن المستعمر والتمايز عنه ، وفي هذه المعركة رفع الانسان الافرو ـ آسيوي راية الاسلام والبوذية والفيدانتا وتحصن بالمثيولوجيا البدائية ، اي ان الصراع القومي سار على ارضية دينية غالبا ، وتحرك مزودا بالشعور الديني الذي يستحيل في شروط معينة الى قوة جماعية وتوحيدية تؤطر المضطهدين لمواجهة المضطهدين ·

ساعدت الشروط الاجتماعية ـ التاريخية في آسيا وافريقيا على انتشار نفوذ الايدولوجية الدينية ، فديانات هذه البلدان لا تخضع لمركز ديني اساسي كما هو حال المسيحية في الغرب ، بل هي ايدولوجيا يومية تعيشها الجماهير وتعيش فيها ، ايدولوجيا نظرية وعملية ، وقناة اساسية لنقل الافكار الاجتماعية والسياسية ، يضاف الى ذلك قلة عدد الطبقة العاملة وضعف تنظيمها في هذه البلدان ، وحداثة الاحزاب الماركسية فيها ، ومحدودية التقاليد العقلانية · وهكذا نرى ان ظاهرة التدين في ايدولوجيا حركة التحرر الوطني في بلدان آسيا وافريقيا ، نتيجة للشرط الاقتصادي ـ الاجتماعي وشاهد عليه ، وفي هذا الشرط يغيب التمايز بين العلاقات الطائفية ـ الدينية والعلاقات الطبقية والقومية ، الى درجة تصل فيها هذه العلاقات الى حدود التطابق احيانا ·

ادت الممارسة الاستعمارية الى بعث الماضي والتشوق الى « الاصول الاولى » فغدا الدين موئلا وحصنا ، واصبح التراث الروحي رمزا للعزة القومية ، والاصالة القومية ، ووسيلة للتعبير عن المشاعر الوطنية ، ولعب هذا الموقف من التراث الروحي دورا ايجابيا معينا في معركة التحرر الوطني ضد الظلم الاستعماري ، أضحى « الاجلال الاعمى للماضي جزءا فعالا من الوطنية » (٦)·

عاش الدين دوره في معركة التحرر الوطني ، وعاش ايضا تناقضه مع التطور الاجتماعي والسياسي ، واذا كان قد بلغ احيانا حدود الاظلامية والتعميم والتواطؤ ، فانه قد شارف في احيان اخرى حدود العقلانية والانارة · وبشكل عام عاش الدين تناقض الواقع وتناقضه الخاص من حيث هو جزء عضوي من هذا الواقع · لعب الدين الاسلامي دورا قوميا في نضال الشعب الجزائري والمصري والباكستاني ، وكان للدين البوذي دوره كذلك ، حيث « شكل الباندبت داياناند في الهند رابطة لحماية البقر ، واعطى شعار « الديانة الهندية للهنود والسيادة على الهند للهنود » الحركة القومية الجديدة دفعة من التطرف الديني الذي لا يقبل المهادنة ، وكان من بين ردود الفعل التي نجمت عن هذه الحركة طغيان موجة من الانبعاث الديني القومي لدى المسلمين (٧) · كما قام الدين بدور هام في النضال القومي لدى الجمعيات البوذية في بورما وسيلان وكمبوديا حيث شاركت الجماعات البوذية بشكل نشيط وريادي في النضال التحرري منذ بداية القرن العشرين ·

سبب **السياق الكولونيالي** للشعوب المستعمرة **عصابا كولونياليا** ، رفضت كل ما يتعلق به حتى « الهه الابيض » دافعة بذلك حدود التمايز الى آماده القصوى ، مؤكدة بذلك وجود عالمين متمايزين بلا جسور : عالم المستعمر وعالم المستعمر ، فماثل المسيحي الافرو ــ آسيوي بين المستعمر الاوروبي ودينه المسيحي ــ الاوروبي، ورفض المستعمر « الابيض » ودينه ، ورجع الى مسيحيته فأعاد صياغتها ومايزها • بشكل آخر ، رأى الانسان المستعمر انسانا مضطهدا ودينا مضطهدا فصنع دينه المسيحي الخاص الوحيد في نقائه ومسيحيته• فظهرت نتيجة لذلك حركة « الكارجو » في ماليزيا وصنعت مسيحية محلية ، وظهر « المسيح الاسود » في افريقيا الممثل الحقيقي لتعاليم المسيح التي خانها الانسان الابيض ، وحركة تاي ــ بن في الصين التي مزجت بين الديانة المسيحية والتقاليد الفلاحية الصينية • وتمثل حركة Pako التي ظهرت في جزيرة باكو Baku نموذجا نمطيا للشكل القومي للدين • أسس هذه الحركة انسان بسيط اسمه Pako ، كان قد اعتنق المسيحية في شبابه ، وبعد ان عاش الممارسات الاستعمارية ، بدأ في تطوير مسيحية محلية مختلفة عن مسيحية الانسان الابيض، ومن افكاره الرئيسية ان البعثات المسيحية الاوروبية لم تنقل الى « المسيحي المحلي » الا جزءا من أفكار الديانة المسيحية ، واحتفظت لنفسها بالافكار « الهامة » التي تسمح للمسيحي الاوروبي باختراع الآلات واستعمالها ، والتي تسمح له ايضا ان يكون قويا وسعيدا • ويعتقد أنصار « باكو » انه من الواجب النضال المستمر لكشف ومعرفة الجزء الخفي من الديانة المسيحية التي ستمكنهم من مجاراة « المسيحي الابيض » وامتلاك قوة افكاره وعيشه الرغيد (٨) •

يشير انتشار **الشكل الديني للوعي القومي** الى « حدود وضبابية القومية الافرو ــ آسيوية » • والى افتقارها الى الاسس المادية الكفيلة بتحريكها كـ « قومية » اولا • فقد كانت ولم تزل **وحدة متناقضة** من الافكار والمعتقدات والعواطف ، تتحور بين **شكل ثقافي للقومية** ( الدفاع عن اللغة ) **وشكل ديني** لها ، وتصل ايضا الى شعار **الدفاع عن الارض** ، فتمارس **الوطنية لا القومية** • ان السمة **القومية** المميزة لـ « هذه القومية » **هي ولاؤها للعادات المتوارثة** وللمثل العليا والقيم التقليدية المرتبطة بتاريخها وحضارتها ، والتي تقوم الاديان بالحفاظ عليها والدفاع عنها ، فحضارات شعوب آسيا وافريقيا مرتبطة بأديانها : الاسلام والهندوسية والبوذية والكونفوشية ومعتقدات القبائل الزنجية، حيث يتقدم الدين كمفهوم للعالم واطار للحياة اليومية واساس لحضارة كاملة ( حالة الدين الاسلامي مثلا ) •

**الشرط التاريخي للقومية في آسيا وافريقيا :** القومية الافرو ــ اسيوية ظاهرة حديثة تاريخيا ، تتقدم وتتكشف في علاقتها بالشرط التاريخي الذي **ساهم في سيرورتها** ، أي بتاريخها الموسوم بـ « **ديالكتيك الاستعمار والتحرر** » • ان ربط

ديالكتيك القومية بديالكتيك الاستعمار والتحرر يعطي جوابا ناقصا لا يغـــادر « نقصه » الا بالرجوع قليلا الى السمات التاريخية للتشكيلات الاجتماعية فـــي آسيا وافريقيــــا ٠

عانت بلدان آسيا وافريقيا لمدة طويلة من الهيمنة السياسية الاجنبية التـــي حرمتها من حركتها السياسية المستقلة وحرمتها بالتالي من تقاليــــد دولوية étatiqne راسخة ، سواء كانت هذه الهيمنة اوروبية او غير اوروبية ( فارسية صينية ، عثمانية ) ، يضاف الى ذلك ان هـــذه البلدان لم تعـــرف الا نـــادرا التشكيلات « القومية » الواسعة ، اي السلطة السياسية المركزية القادرة اداريا على تحريك قطاعات واسعة من المجتمع ، فقد حكمت علاقاتهـــا الاجتماعيـــة غالبا بالقوانين القبلية والعشائرية والعائلية والدينية والاقوامية ، ربما يشـــذ عن ذلك بعض البلدان التي عرفت تقاليد مركزية مثل الصين ومصر ٠

لم تعرف هذه البلدان النظام السياسي القادر على كسر « **الولاءات البدائية** » وتحويلها الى ولاء واحد: الولاء القومي ٠فطبيعة النظام السياسية وحدود تطوره التاريخي لم تسمح للفرد أن يتعرف على ذاته علاقة من أمة او وجها في شعب ، بل تركته ودفعته يبحث عن امانه الاجتماعي وعن صورته الاجتماعية في احضان قبيلته او طائفته ٠٠٠ ، اي ان الشكل البدائي للسلطة السياسية المحدد بشرط اجتماعي متخلف انتج دائما ولاء بدائيا ٠ وهذا ما جعل هذه « السلطة » عاجزة غالبا عن القيام بتعبئة جماعية لكل قطاعات المجتمع ضد الغزو الخارجي ٠

ويجب ان نشير هنا الى ان بعض البدان الافرو ـ آسيوية قد عرفت تقاليد مركزية مرتبطة بنمط الانتاج الآسيوي أي بسلطة مركزية للدولة على الاقتصاد ، ومن الطبيعي ان ينتج عن ذلك بعض « السمات القومية » ٠ وهذا ما يدفع سمير أمين للحديث عن تشكيلات قومية سبقت تاريخيا نمط الانتـــــاج الرأسمالي ، ويضرب مثالا على ذلك مجال اليونان القديمة والدولة العربية في عصرهـــــا الذهبي (٩) ٠ مع ذلك فان السمات القومية المرتبطة بنمط الانتاج الآسيوي لا تدين بوجودها لممارسة دولوية étatiqne توحيدية بالمعنى المادي للكلمة ، بل تعود الى الممارسة الاستبدادية المميزة لهذا النمط من الانتاج ومرهونة بــــه تاريخيا ٠

دفع الغزو الاستعماري السمات القومية في شكلها التاريخي ( محدوديتها ) من حالة « الكمون » الى حالة « اليقظة » منتجا بذلك **الايدولوجيا القومية** ٠

**القومية** في آسيا وافريقيا تطلع وطموح اي أنها ايدولوجيا قوميـــــة تبشر لمستقبل وتناضل ـ بشكل متفاوت ـ لخلق الاساس المـــادي لها ولمقدماتهـــــا الاساسية ٠ تقوم هذه القومية في **مستوى البنيان الفوقي** عقيدة تبشيرية وفكرا مناضلا لا يعكس واقعا بل يطمح اليه (١٠) ٠ لذلك نقول ان العلاقة التي تحكم

الايدولوجيا القومية بالواقع التي تعبر عنه لا تتميز بالتوافق بل باللاتوافق ، فالايدولوجيا القومية لا تعبر عن « قومية » منجزة بل تدعي اليها ، يسبق « النظر » القومي التحقق المادي للقومية ، وهذه المسافة بين المنظر والتحقق هي التي تدفع الاول الى عوالم مثالية متعددة ، فبعض المنظرين القوميين يربطون بين القومية و « الملأ الاعلى » او بينها وبين « روح الزنوجة » او « الروح الابدية الصافية » ٠

في مسار البحث عنالذات وتحديد الهوية وتلمس الاصول ، يصل بعض مثقفي العالم الثالث الى مشارف الفكر القومي الاوروبي يترجمونه ويستلهمونه عبر موقف ثنائي البعد : يعي البعد الاول الدور التدميري للهيمنة الاستعمارية، ويبحث البعد الثاني عن اسباب « القوة » الاوروبية ٠ ولقد لعبت الافكار القومية الالمانية الرومانسية دورا كبيرا في تشكيل الافكار القومية في آسيا وافريقيا ، وظهر هذا التأثير واضحا في أفكار التركي زياجو كلب Ziago Kalp والعربي ساطع الحصري ٠

تتسم الايدولوجيا القومية بطبيعة مزدوجة متناقضة داخليا ، فهي تلعب من جهة دورا ايجابيا تاريخيا ابان صراعها المباشر مع الاستعمار ، وتلعب من جهة ثانية دورا سلبيا بعد الاستقلال ، عندما ترفع راية « التقدم القومي » و « التفرد القومي » ، وهذا يعني أنه لا يمكن معالجة الايدولوجيا القومية ككيان سماوي مجرد ، بل ينبغي ربطها بالطبقات الاجتماعية التي ترفع رأيتها وبمهماتها التاريخية في شرط تاريخي محدد ٠ يسود كل بلد في مراحل مختلفة من تطور حركته القومية ، هذا الجانب او ذاك من الايدولوجيا القومية ٠ بيد أن واقع هذه الحركة يدل على انه بمقدار ما تتطور هذه الحركة تطورا ايجابيا ، وبمقدار ما تنتقل من مرحلة الحصول على الاستقلال السياسي الى مرحلة التحولات الاقتصادية ـ السياسية والاجتماعية والثقافية ، تتعرض الايدولوجيا القومية الى تغيرات هامة (١١) ٠

ان تحقيق القومية ماديا لا يتحقق بنشر النظريات القومية بل بتحول اجتماعي يشمل المجتمع بكليته ٠ وهذا الواقع يدفع بالمسألة الى وضع جديد : القومية في « البلدان المتخلفة » او الوعي القومي « والتخلف » ٠ اذا ربطنا سيرورة الظاهرة القومية بالشرط الاقتصادي في آسيا وافريقيا ، امكننا ملاحظة ما يلي:

أ ـ لا تستطيع العلاقات الاقتصادية في البلدان المستقلة ان تتطور بشكل طبيعي بسبب بنيانها المشوه وآفاقها المغلقة المحكومة بتبعية بنيانية للاستعمار الكلاسيكي والجديد ، وهذا يعني انها لن تصل في شكلها الحالي مهما بلغ تطوره الى نمط الانتاج الرأسمالي الذي يشكل مرحلة متقدمة في تطور الظاهرة القومية ٠

ب ـ انتج الطغيان التجاري الخارجي لنمط الانتــــاج الرأسمالي علـــى التشكيلات ما قبل الرأسمالية آثارا اقتصادية مدمرة ، فتراجعت الصناعـــات اليدوية دون ان يحل مكانها صناعة حديثة محليـــــة ، وتقدمت الاستثمارات الكولونيالية لتخلق توابع اقتصادية تتحرك في علاقة تابعة تمنعها من التحــول الى كيان اقتصادي محلي مستقل (١٢) ٠

جـ ـ لا يتجلى « التخلف » في انخفاض انتاجية الفرد ، بل في صفات بنيانية خاصة تمنعنا من الاقدام على مقارنات هجينة ، كمقارنة الوضع الراهن فـــي البلدان « المتخلفة » مع المراحل الاولى لبدايات نمط الانتاج الرأسمالي فـــي اوروبـــا ٠

ان ربط التحقق المادي للقومية بنمط الانتاج الرأسمالي لا يصدر عن تقديــس للمفاهيم النظرية بل عن معاينة دور البرجوازية التاريخـــي في تثوير العلاقات الاجتماعية وتوحيد المجتمع ماديا ٠ يقـــول البيان الشيوعـــي : « تقضـــي البرجوازية باستمرار على تفتت وسائل الانتاج وتبعثر السكان والملكية ٠ فقـد كدست السكان ومركزت وسائل الانتاج وركزت الملكية في ايد قليلة ٠ وجاءت المركزية السياسية نتيجة محتومة لهذه التغيرات ٠ فالاقاليم المستقلة ، المتحــدة بالكاد فيما بينها ، والتي كان لكل منها مصالح ، وقوانين ، وحكومات ، وتعرفات جمركية مختلفة ، وحدت في أمة واحدة ، ذات حكومة واحدة ، وقانون واحد ، ومصلحة قومية طبقية واحدة خلف حدود جمركية واحدة » (١٣) ٠ فتوحيـــد المجتمع اذن وارتقائه الى مستوى الامة يتأتى من فعل تاريخـــي يثــور ادوات الانتاج ، علاقات الانتاج ، ومجموع العلاقات الاجتماعية ، لا من « قوة الافكار » و « سرمدية الروح القومية » ٠ والحقيقة ان شعوب آسيا وافريقيا عندمـــا تناضل من أجل استقلالها السياسي والاقتصادي الحقيقيين تفرز في الوقت ذاته ذاتيا وموضوعيا الاسس المادية لقومياتها ، وتنتج الشروط الموضوعية لدفـع « الولاء البدائي » الى مرحلة اكثر رقيا ٠

لا ينبغي ان يدفعنا ، مع ذلك ، الربط النظري بين القومية ونمط الانتـــاج الرأسمالي ، الى استنتاج ميكانيكي تبسيطي : تحقق القوميـــات في آسيـــا وافريقيا مشروط بوصولها الى نمط الانتاج الرأسمالي ٠ فمثل هذا الاستنتـــاج مرفوض للاعتبارات الثلاث الآتية :

أ ـ القومية سيرورة تاريخية ، وليست معطى جاهزا ٠

ب ـ يستحيل على البلدان الافرو ـ آسيوية بلوغ نمط الانتـــاج الرأسمالي بسبب التبعية الاقتصادية التي تربطها بالامبريالية والتي تجعل نمط انتاجهـــا « الكولونيالي » يحور في دائرية مغلقة بلا افق ٠ (١٤)

جـ ـ ان تطور القومية في هذه البلدان مرتبط بنضالها من أجل استقلال سياسي واقتصادي حقيقيين وحدود هذا النضال وشكله ٠

**القومية والدولة :** ظهرت الى الوجود بعد الحرب العالمية الثانية مجموعة الدول الافرو ـ آسيوية بعد أن رزحت ردحا طويلا من الزمن تحت سوط الاستعمار الاوربي ، ودفع « انتصار » حركات التحرر الوطني المشكلة القومية الى شروط جديدة ، فوجدت الوعاء السياسي لها ، وأصبحت تعبيرا عن كيان سياسي موجود ٠ اقترنت السيرورة القومية في مرحلة ما قبل الاستقلال بسيرورة النضال الوطني ، أما في مرحلة ما بعد الاستقلال فقد اقترنت السيرورة الاولى بسيرورة الدولة المتشكلة حديثا ٠ وهكذا اعاد هذا التحول طرح السؤال بشكل جديد ، وهو علاقة القومية بالدولة . وشكل هذه العلاقة في سكونيتها ودنياميتها ٠

حل تشكل الدولة المسألة الكولونيالية ف « طرد » المستعمر واقام دولة كانت غاية نضاله ، لكن هذا الحل لا ينسحب اوتوماتيكيا على المسألة القومية ، فقيام الكيان السياسي لا ينتج مباشرة قومية « منجزة » بل يشكل مرحلة ايجابية في تطور هذه القومية ٠ وبالتالي لا يمكن ان نطابق بين الدولة والقومية او نماثل بين « التحرر السياسي » و « التحقق القومي » ٠ ويكفي ان ننظر الى حجم « اللاتجانس » اللغوي والديني والاقوامي في اندونوسيا والهند وكينيا واثيوبيا ٠٠٠ حتى نلمس بشكل مشخص « الوضع التاريخي » لقوميات آسيا وافريقيا ، فالدولة في هذه البلدان ليست « تتويجا رحمانيا » للروح القومية بل محصلة للتناقضات المعاشة او علاقة تناقضية في مجمل التناقضات التي تحكم هذه البلدان ، والحديث عن التناقض يعني الحديث عن القمع والاستبداد والتعصب القومي وهيمنة « القومية الكبيرة » على « القومية الصغيرة » وسيطرة « الطائفة الكبيرة » على « الطائفة الصغيرة » ، ولا تزال حرب القبائل والطوائف تجد مكانا رحبا في ربوع القارتين ٠

ناضلت شعوب آسيا وافريقيا مدفوعة بـ « خصوصيتها الاقليمية » وبطموحاتها القومية ايضا من أجل الوصول الى كيانات سياسية ، وكان التماثل بين القومية والصراع الوطني مفهومها ابان النضال المباشر ضد الاستعمار ، كان يقوم بدور وظيفي نضالي ، يربط بين العامل الداخلي والخارجي ، ويوظف « الوعي القومي العفوي » في معركة مباشرة ٠ لقد نما هذا الوعي مدفوعا بتناقض العامل الذاتي والموضوعي ( طرد **المستعمر** من **الارض** ) وتطور خطيا وبشكل متسارع ، وعندما قام الكيان السياسي وتوارى العامل الموضوعي ( الحضور المباشر للمحتل ) غير هذا الوعي من تسارعه وانتقل من حركة خطية الى حركة معقدة ومتناقضة ٠ قد يقول قائل بأن على هذه الحركة أن تزداد تسارعا ونموا بسبب وجود الدولة التي تقوم بـ « هندسة » الشعب

وتنظيم نموه باتجاه غايات واحدة وموحدة · لكن الامر ليس بهذه البساطة ·

يستدعي الحيث عن القومية ديالكتيكيا الحديث عن الدولة من حيث هي أداة لا غنى عنها للتأثير في جميع مستويات المجتمع وانتاجه كلية متميزة : أمة· والدولة في أثرها التاريخي هذا لا تنطلق من السديم بل من الشعور القومي والذي هو قوة موحدة تنزع الى التشخص في كيان سياسي ، بل يمكن القول ان الامة تتكون في ديالكتيك الدولة والوعي القومي (١٥) ·

تنزع الدولة بواسطة اجهزتها ومؤسساتها الى صهر المجموعات المختلفة لغويا ودينيا واقواميا في بوتقة واحدة ، وتعمل من حيث هي نواة مركزية على جذب كل مجموعات المجتمع باتجاه التلاقي والتوحيد وخلق ثقافة واحدة ولغة واحدة ·

لا يتسم ، مع ذلك ، دور الدولة في بناء القومية بصفة الاطلاق والتجريد ، فالدولة اولا سيرورة يتحدد دورها بشرط تاريخي يتميز بتبلور وتمايز الطبقات الاجتماعية ودورها في عملية الانتاج · واذا كانت الدولة تعريفا هي : جملة المؤسسات والمعايير التي تعمل لضبط حركة المجتمع بطريقة تسمح باعادة انتاج مستمر للشروط الاقتصادية والايدولوجية والحقوقية ـ السياسية التي تضمن اعادة انتاج علاقات سيطرة طبقة معينة ضد اخرى · يشير وعي هذا التعريف الى أن **نمط** الدولة يرتبط بمستوى معين من التطور الاجتماعي « الامر الذي يفرض ضرورة التمييز بين **الدولة** كمفهوم نظري مجرد **ونموذج الدولة** : Le type d'Etat الذي يتحدد بالبنيان الاقتصادي الذي تقوم عليه الدولة من حيث هي بنيان فوقي سياسي ·

لا ترتبط اذن القومية بالدولة بشكل مجرد بل بنموذج الدولة الذي يحقق معتمدا على خصائصه المادية **بنيانا قوميا** يتسم بما يلي :

أ ـ وجود **وحدة اقتصادية** تخدم كاطار اساسي للتبادل القائم بين **الطبقات الاجتماعية** المرتبطة بسيرورة الانتاج ·

ب ـ وجود وحدة **اقليمية** ، **حقوقية** ، **سياسية** ، تترابط مركباتها بشكل وثيق ينهض عليه الجهاز الاساسي للسلطة السياسية المركزية للدولة القومية ·

ج ـ وجود **وحدة لغوية وتجانس ثقافي** نسبي يربط كل المجموعات المندمجة في علاقات الانتاج ·

د ـ وجود ، قبول ، وانتشار **تصور وتمثل ايدولوجي** لهذه **الوحدة** يتجلى في معايير «المصلحة القومية» ، «الحياة القومية» ، و «الارادة القومية» (١٦)·

تتجلى القومية ، اذن ، كاثر متميز لدرجة تطور تاريخي محدد ينتج ويعيد

انتاج جملة عناصر تتحدد كوحدة عضوية ، واذا حاولنا تطبيق مفهوم « الوحدة العضوية » على القوميات الحديثة التكون في آسيا وافريقيا لوجدنا ان امكانية هذا التطبيق لم تزل محدودة · اذ اننا لا نجد « قوميات » وانما شكلا تاريخيا لها قوميات ذات درجة تاريخية محددة : قوميات في طور التكوين ، تضم بشرا لهم ولاءات مركبة وثقافات مختلفة ، يحتفظون بولائهم لقريتهم وحيهم وقبيلتهم ، يتكلمون لغات مشتركة ومختلفة ومتقاربة ، وقد يعيشون في حدود متداخلة ، مجزأة ، فرضها الاستعمار ، فبعض القبائل تنتشر – مثلا – في أكثر من دولة فيتحدد موقعها الجغرافي دون ان يتحدد ولاؤها ·

ان ارتقاء هذه القوميات من درجتها الراهنة الى درجة اخرى يستلزم تحولات اجتماعية بنيوية تمس الاقتصاد والفكر ، اي تنتج التقدم والحرية والعقلانية والديمقراطية ·

---

**الحواشي :**

1 — La Pensée No. 119 Fevrier 1965

2 — I. Sachs : La decouverte du tiersmonde : Flammarion .

3 — Frantz Fanan . Sociologie d'une revolution Maspero 1968 .

4 — Problemes du monde Contem - porain 1975 : evolution du national lisme en Asie et en Afrique.

5 — De L'imperialisme a la Décolonisation .
Ed : De minuit — 1965

6 — la naissance des Dieux Eds : L'union Rationaliste — 1966 .

٧ – بيتر ورسلي : العالم الثالث – وزارة الثقافة دمشق – ١٩٦٨ ·

8 — La naissance des Dieux .

9 — S. Amin : Le developpement inégal Minuit 1973.

١٠ – حول الصراع الايدولوجي في البلدان النامية : دار الجماهير العربية – ١٩٧٤ ·

11 — Races and peoples Moscow — 1974.

12 — S. Amin : L'accumulation à l'échelle mondiale. Anthropos - 1971

١٣ – البيان الشيوعي – دار ابن خلدون ص ٥٩ ·

١٤ – انظر مهدي عامل في نمط الانتاج الكولونيالي – دار الفارابي – بيروت ١٩٧٦ ·

15 — L'homme et la Société No. 24 — 25 .

16 — ibid .

اليـاس خوري

# الديـمقراطيــة والاسـتبـداد الحديث

ما هو النفط ؟

يبدو السؤال بسيطا ومحيرا في عالم عربي محاصر بالنفط ومليء بالكبرياء · فالمادة الاولية ، التي اسمها النفط ، تصبح اليوم عصب الحضارة الغربية الرأسمالية · والحضارة في الغرب ، ونحن في الشرق · وبمقدار ما يزداد الغرب « تحضرا » نزداد « توحشا » · وكأننا نعيش دوامة وحصارا ·

عوض ان نحاصر النفط ، يحاصرنا النفط ·

لا نستطيع ان نسأل لماذا النفط . ولماذا نحن في النفط ؟ فهذا سؤال غيبي يبقينا في الغياب · ولكن حين نسأل ما هو النفط . نسأل لماذا يحاصرنا النفط ولا نحاصره ؟

النفط مادة اولية تستخرج من باطن الصحراء · اقتصاديا ، هو ريع عقاري · اي ملك للطبيعة · اي ملكية حقوقية سياسية · حين نسأل ما هو النفط ، نكون قد بدأنا السؤال حول من يملك النفط ، هنا يجب ان نسأل من يملك السياسة · وفي السياسة تتعقد الاسئلة ، وتضيع الاجوبة في الشعارات ·

ولكن لماذا لا نعالج مسألة النفط في الفكر العربي ؟

ان اكثرية الدراسات والبحوث التي تناولت وتتناول النفط ، تبدأ بالارقام

وتنتهي بالارقام · وجميعها لا تلاحظ الصحراء ، ولا تلاحظ الفرق بين الناس وحبات الرمل · تتحدث عن الاستعمار والامبريالية والتبادل اللامتكافىء ونهب العالم الثالث الخ ، تناقش السياسة من خلال الاقتصاد · هكذا يصبح النفط اقتصادا ، مشاريع ورساميل وبنى تحتية وفوقية الخ · يصبح جزءا من المعركة ، يضيع من السياسة حين يهرب الى السياسة · فتزدهر الدويلات · وتبنى مدن وهمية · يهرب النفط من مصيره فيستولي على مصيرنا · يصبح هو الاقتصاد العربي · وتصبح السياسة العربية بنيته الفوقية · هكذا نتعامل مع البنى الفوقية ، وننسى الاسئلة · وقيل ان حرب حزيران بدأت في اليمن ، لكن الحرب القادمة تبدأ في لبنان · وقيل ان المارينز الاميركيين جاءوا الى شواطىء بيروت ، حين هدد النفط ، ولكن القرارات الدولية تأتي اليوم لتؤكد ان النفط لم يعد مهددا · وقيل عن الوحدة العربية انها حين تلغي التجزئة تضع الثروة في خدمة السياسة · لكننا اليوم نعيش في سياسة الثروة وثروة السياسة · هكذا لا ينتصر النفط الا حين تهزم الامة ، ولا يؤكد النفط انتصاره الا بتصفية الامة · هل دخلنا العصر الكوسموبوليتي ونحن ملايين من الحفاة والجياع ؟ هل دخلنا عصر الجغرافيا السياسية لاننا لم نستطع دخول التاريخ السياسي ؟ واين هي الكتابة ؟ حين نقتنع ان النفط هو بنية تحتية ، تصبح الكتابة بنية فوقية لهذا التحت المائع السائل · وبين البنيتين ، يقع حذاء مطاطي ( المطاط اليوم هو احد مشتقات النفط ) الحذاء يضغط والرأس يغرق في النفط ·

حين ننظر الى الخريطة العربية ، نرى الى جانب الدول العربية الكبيرة والصغيرة ، الملونة وغير الملونة ، الكثيرة العدد ، والتي تتكاثر او تريد ان تتكاثر ، خيطا طويلا ، كأنه شريان او مجموعة شرايين لجسد مقطع الاوصال ، يربط من شرايينه · نرى انابيب النفط ، تصب في البحار ، حيث ناقلات النفط الضخمة ، تتحرك في بحار الشرق الملونة ، خريطة من الانابيب · جثة من الشرايين المقطوعة الموصولة · نرى بين البشر والبشر صحارى من النفط · الصحراء تفصل العرب عن العرب ، والنفط يوحد العرب بمصيرهم · والناقلات الضخمة ، التي تدور من بحر الى بحر ، ومن قارة الى قارة ، تأخذ النفط والسياسة ، الى حيث يصنعون الاحذية التي تسحق ملايين الحفاة · وحين يأتي الخو فمن الحفاة ، وسط معركة او حرب ، وحين تتغير موازين القوى الى درجة ينقطع فيها النفط للحظات عن مصانع الحضارة ، تعلو الاصوات ، وتستنفر الجيوش ، ويأتي الحواة والسحرة ، ويبدأ الحديث عن الحضارة · ثم يعود كل شيء الى مجراه الطبيعي بدلا من ان تسيطر السياسة العربية على النفط ، يصبح النفط هو سياسة العرب ، وتلغى الفروق الطفيفة التي كانت ، ويبقى العراة عراة ·

الخريطة لم تزل ناقصة ، والمعالم غير واضحة بشكل كاف · الى جانب

الانابيب ـ الشرايين ، هناك الاوراق · الورق الجميل اللامع المستورد · الورق الصقيل الذي تكتب عليه الابجدية العربية · الورق الذي يمتص الحبر · الورق الذي لا معنى له · هكذا تتكامل الخريطة من الخارج · صحراء وكتابة تشبه السائل الاسود ، لزجة وغير مفهومة ولا معنى لها ·

تبقى بعض التفاصيل التي لم يعد احد يهتم بها · تفاصيل كبيرة توضع في علب صغيرة · تفاصيل تحذف خارج الزمن السائد ، فلا مكان لها داخل هذه الخريطة الملونة · فتل الزعتر يصبح « حربا قذرة » ، وفلسطين تصبح اسرائيل ، وموتنا الذي يتداعى في ساحات المدن واقبية التعذيب يصبح لا شيء · تتكامل الخريطة العربية وتبقى مثقوبة · والثقب يتسع · والموت الكثير يشمل الاحياء الصغيرة والمنعطفات الضيقة ·

لماذا لا يطرح سؤال النفط ؟

لماذا نضيع في لعبة الارقام والحسابات والشركات المتعددة الجنسية ، والكتابة التي لا هدف لها سوى حشو الصفحات باللون الاسود ؟

تبدو الازمة التي يعانيها الفكر العربي ، وكأنها قد وصلت الى نهايتها المنطقية · فازدواجية السلفي الحديث ، اثبتت في النهاية ، انها تصل بنا الى نهاية الفكر · الى الفكر الذي يبرر دون خجل ، لا يراجع نفسه الا ليتراجع الى الخلف ، يعيش انحطاطه بمتعة وادعاء · ففي زمن انهيار الامبريالية ، تنهار رموزها وادوات حجبها · نصل الى الديكتاتورية الشاملة ، التي لا تحتاج الى قناع · نصل الى نهاية الفكر ، حيث لا حاجة الى فكر ·

لا يمكن فهم هذه الازمة ، الا عبر دراستها في علاقاتها المباشرة بالسلطة · فهذا الفكر ، الذي يأخذ نماذجه من خارج الانتاج الاجتماعي ، ( بل ويدعو الى تدمير هذا الانتاج في بعض اتجاهاته ) هو فكر السلطة · فكر بناء سلطات قمعية ، تسحق الجماهير فيما هي تدعي تمثيلها · والمشروع البرجوازي العربي لبناء سلطة قوية مستقلة ، سقط وهزم · لذلك يدعو اليوم الى الاستسلام الكامل للعدو والاميركي ، الذي لم يعد قادرا على فرض « سلامه » في العالم · ولذلك ايضا يبدو المشرق ، وكأنه عاد الى الوراء ، ليصبح مسرحا للمسألة الشرقية القديمة ، حيث لا وجود « للدول السبع » التي تفرض هيمنتها · ولذلك ايضا ، ينقلب الحديث البرجوازي الى طوائف ، ويبدو الجسد العربي ، غير قادر على الاستفادة من هزائم اعدائه ، بل يبدو وكأن هزائم اعدائه هي هزائمه !

الى جانب هذا الفكر ، الذي يعاني ازمته الطاحنة ، تعيش ثقافة شعبية فلاحية ، ثقافة الكفاف ، ثقافة تقليدية لها وظيفة اجتماعية محددة ، هي المحافظة على الوجود · لكن هذه الثقافة تعاني هي الاخرى مأزقها · فلقد حولها « التقدم » الرأسمالي البرجوازي ، الى ثقافة فولكلورية · تحول الشعب الى فولكلور وسياحة · خربت من الخارج والداخل · ولم تعد ، في الزمن الراهن ، قادرة على الفعل · فتم تنحيتها الى الهامش · وفي الهامش الواسع ، الذي تعيشه جماهير غفيرة ، كدس التأخر ، واكد التسلط · فأصبحت الناس ، خارج الفعل وخارج الواقع ·

ان الاساس الفعلي لهذه الازمة الفكرية ، هو انهيار علاقة الفكر بالانتاج · فلقد همش الانتاج ، ليصبح انتاجا استهلاكيا ، او انتاجا بهدف التصدير · وفقدت الدورة الاقتصادية استقلاليتها وحيويتها الداخلية · وصار الفكر هو مبرر هذا التحول نحو دخول العصر الحديث ، او هو الملفق الاساسي بين هذا الدخول وبين السلف الصالح · فقد الفكر مبرر وجوده ، اي فقد وظيفته الاساسية ، كانتاج للمعرفة القائمة على الممارسة الاجتماعية · ضاع الفكر في الشعارات الجاهزة ، وانهارت الثقافة وتحولت الى صدى ·

وحين تصل الازمة الى ذروتها ، فانها تكشف عن حقيقتها · هنا ، وفي ذروة الازمة ، لم يعد هناك حاجة الى الثقافة او الفكر · لم يعد هناك حاجة الى ادوات الحجب التقليدية · لم يعد هناك حاجة الى المثقفين · ولعل انهيار الثقافة في مصر هو مؤشر لانهيارات اكبر · حيث يصبح التوحش المطلق ، والديكتاتورية المكشوفة ، والسجون هي الاداة الرئيسية لتعامل النظام مع جماهيره · لقد ولد نمط ثقافي جديد · وصل الفكر الى قمة ازمته فانكشفت الازمة الحقيقية · انها ليست ازمة مثقفين ولا ازمة ثقافة · انها ازمة فكرية ـ اجتماعية ـ سياسية كاملة · ازمة الوجود العربي · وهذه الازمة لم تكن ممكنة ، لو لم يكن هذا الوجود ممكنا في الظرف التاريخي الراهن · لذلك تعلن الازمة عن نفسها بحدة ، وتكشف احتمالاتها بأسرها · ولذلك ايضا لم يعد النظام يخفي اهدافه · فهو معني اساسا بسحق الجماهير عبر اخراجها من السياسة · انه لا يريد تأييدا كان يحتاجه في فترة صعوده من اجل تأسيس الدولة · يريد الحياد · حياد الناس المطلق والشامل ، الحياد السلبي ، حيث يصبح هم الفرد ان لا يموت وان لا يجوع وان لا ينام في العراء · لم يعد هناك اعداء ، ولا حاجة لاختراعهم · العدو الوحيد هو الرأس الذي يفكر ، او اللسان الذي يتحرك · الهدف هو تحرير السلطة من كل واجب وكل رقابة · تتحالف مع من تشاء وتعادي من تشاء · الهدف هو تحويل المدن العربية الى مدن صفيح ، يعيش فيها الانسان الى جانب امراضه وكأمراضه ·

ولكن ما هو النفط ؟

يبدو النفط وكأنه الحاجز ، او هكذا يقال . نه يقظة التوازن الدقيق الجديدة التي تجعل من الشرق مسألة شرقية · لذلك فهو ليس اقتصادا · ليس مدنــــا ولا حضارة · انه سياسة العرب · ولذلك ايضا يبدو وكأن الشرق العربي هو ساحة الصدام الرئيسية بين القوى الفاعلة في العالم · ولكن العرب ليســـوا ارضا تنبع نفطا فقط · لذلك تحالف الجميع على سحق التمرد الـــذي يسمى فلسطين · ولذلك ايضا . لن يستطيع الجميع سحق هذا التمرد ، لانه بشـــارد للذي سوف يقلب الخريطة ويعيد ترتيب الوانها · ولذلك ايضا كانت الازمة الراهنة ازمة تزدحم بهذه الحرب الاهلية التي لا تنتهي ·

الازمة في جوهرها هي ازمة الديمقراطيـــة · اي ازمـــة الوصول الـــى الديمقراطية · لذلك فهي اساسا ازمة الاستبداد الحديث · هذا الاستبداد الذي يصل بالمجتمع الى الانسداد المطلق · فيكشف عن نفسه ويكشف عن امكانيـــة تجاوزه · فالازمة لا تعالج في ظواهرها ، بل يجب العودة بها الى الجـــذور · محاولة رسم خط بياني لتطور الفكر العربي ، وعلاقته بتطور السلطة · محاولة اكتشاف او الية هذا التطور وعلاقاته . من اجل اكتشاف اشكالية الخروج الى فكر جديـــد ·

يطرح برهان غليون في كتابه « **بيان من اجل الديمقراطية** » ★ · محاولــــة جديدة بشكل كامل لدراسة تطور الفكر منذ ما يسمى بعصر « النهضة » · وهذا الكتاب الصغير ، الذي صيغ بلهجة بيان ، يقدم منهجا جديدا متماسكا ، مـــن اجل الخروج من الاجترار الفكري ، الذي يقدس ويبرر ويفسر حركة الغـــزو والاستعباد الذى تعرض له الشرق العربي ، منذ ان اصبح ساحـــة المسألـــة الشرقية · يبد من بدايات « النهضة » ، ولا يكتفي بنمذجة فكر هذه « النهضة » . بل يقدم خطا بيانيا ، يفسر ويحلل مسار هذا الفكر ، عن ربطه جدليا ، بقاعـدة التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، الذي طرأ على المنطقة العربية ·

ان المدخل الاساسي لمناقشة فكر « النهضة » ، هو مناقشة الاهداف والوسائل التي صاغها هذا الفكر ·

والمسألة المركزية ، كانت دائما هي مسألة الوحدة العربية ، التي يبدو ان احد معالم تاريخنا الحديث ، هو الابتعاد التدريجي عن تحقيق هذا الهدف ، وحذفه من سلم الاولويات · ومناقشة هذه المسألة تبدأ من نقـــاش موضوعة الامـــة

★ برهان غليون : **بيان من اجل الديمقراطية** · البنى السياسية الفكريـة للتبعيـــة والتخلف ، ومأساة الامة العربية · دار ابن رشد . بيروت · الطبعة الاولى . حزيـــران ( يونيو ) ١٩٧٨ ·

وتكونها • فالامة لا تتكون بالاضطهاد والقهر الذي تمارسه الطبقة القائدة • وفشل تجربة الوحدة المصرية السورية يقدم درسا على العجز عن تحقيق الوحدة ، اي تحقيق الدولة الامة • « الذي ينقل الشعب من حالة التشتت والتفتت الى الوحدة القومية ، ليس الطبقة القائدة الموحدة • انه الحلف الشعبي الطبقي بين كل الفئات التي كانت تسمى العامة ، وهي الاغلبية المنتجة المضطهدة النهضة ، اثبتت عجزها عن تكوين الوحدة القومية • بل زادت في التفتت بقيادة البرجوازية دائما ، كانت بالاساس ثورة شعبية » •

ان الفشل الساحق في الوصول الى الدولة ـ الامة العربية لا يكشف فقط ، ضراوة المواجهة التي قادتها الامبريالية الغربية ضد الشعب العربي ، بل يكشف اساسا ، طبيعة التكوين الاجتماعي والسياسي والايديولوجي للنخبة التي قادت التحديث العقلي والسياسي والديني ، بالتحالف مع الغرب • فالبرجوازية الطفيلية الريعية ، بمختلف فئاتها ، قادت الامة الى الهزيمة الشاملة • وما تاريخها البائس ، الا التعبير المباشر والملموس عن عجزها واستبداديتها • فباسم رفض السيطرة العثمانية ، قادت الامة في حرب خاسرة ضد نفسها • اي قادت عبر اصلاحها واصلاحيتها ، الى تهميش الجماهير ، عبر بناء دولة « حديثة » اكثر استبدادية • وقادت بالتالي الى عودة الاشكال القديمة للتضامن الاجتماعي الى البروز ، او الى استحداث اشكال تأخذ بعدا جديدا ( الطائفية السياسية ) ، كقاعدة لنمو التفتت ، بالتحالف مع الغرب • هكذا يصبح تاريخ الحركة القومية هو تاريخ تكون النخبة العربية الحديثة • ولا يمكن فهم هذا التكون ، بمعزل عن عاملين اساسين : التكون في التجارة والغزو الاقتصادي والفكري والسياسي • والتكون داخل اجهزة الدولة • وفي التكونين كان الانهيار العثماني الشامل ، هو بداية التحول التدريجي والبطيء من تراجيدية الافغاني ، الى اصلاحية محمد عبده ، الى تنصيب الشريف حسين زعيما « للثورة العربية الكبرى » •

لكن الى جانب هذا التاريخ الرسمي هناك تاريخ اخر ، تاريخ المقاومة العنيدة في انتفاضات متلاحقة ، قامت بها جماهير الفلاحين ضد السيطرة الغربية ، التي كانت تعني اخراجها الرسمي من الواقع التاريخي • هذا التاريخ ، الذي لم يكتب ، هو الاخر تاريخ هزائم متتالية • لكنه يشكل مجموعة من اللحظات المضيئة ، التي تقدم مؤشرا على قدرة الجماهير على المقاومة الطويلة النفس •

ان فشل الاصلاح في تحقيق اهدافه المعلنة ، يكشف الاهداف غير المعلنة التي نجح في تحقيقها • فينكشف عجز الانماط الثلاثة التي رفع الاصلاح لواءها • فالاصلاح الديني اوصل الى ادخال الرأسمالية الطفيلية وتبريرها • ان النقد

الذي يوجه لهذا الاصلاح ينبع اساسا من عدم الجذرية التي عولجت بها المسألة الدينية · اذ انه حين يتم بمعزل عن الاغلبية الشعبية وضد مصالحها وانماط حياتها ، وحين ينجز في ظل حراب الاحتلال ، يقود الى « انشقاق بين رجال الثقافة والفكر والفقه المرتبطين بالدولة ، وبين القاعدة الشعبية التي فقدت الثقة بهم » · اي انه لم يكن ، في لاجذريته وابتعاده عن الجماهير ، الا مرحلة استطاعت عبرها الفئات الطفيلية القفز الى السلطة ، واقامة الدول ـ الاقطار والكيانات ·

هنا ، يبرز السؤال الخاص بالمرحلة الليبرالية · فلقد مرت معظم الاقطار والكيانات العربية بأنظمة حكم برلمانية ، قبل ان تبدأ سلسلة الانقلابات العسكرية· فلماذا لم تصمد التجربة الليبرالية العربية ؟

وهل هناك ليبرالية عربية ؟

ان الشرط الاولي ، لوجود ديمقراطية برجوازية ، هو وجود ،لافراد الاحرار· تعميم الحرية البرجوازية ، التي تسمح ولو مكرهة ، للطبقات الاجتماعية الاخرى بالتعبير عن نفسها · ومن شروطه الاساسية تعميم التعليم ونمو الفكر النقدي · لكن ليبرالية السماسرة وكبار الملاكين العقاريين ، لم تكن لتقبل هذا التعريف لليبرالية · فكانت اولى المحاولات لتحويل التجزئة الى واقع دائم · لذلك تميز الفكر الذي انتج فيظلها ، رغم الحرية الكبيرة نسبيا التي وفرتها بكونه يستكمل مشروع « الرأسمالية التابعة » · « بقي النظام السياسي نيابيا ديمقراطيا ، طالما لم يكن هناك سياسة · انما حرب كامنة ودائمة ، وهزيمة عسكرية للاغلبية » ·

ان تصفية الديمقراطية ، هي تصفية الاغلبية · وحين تستبعد الاغلبية عن السياسة ، ويجري تهميشها عقليا وسياسيا وفكريا ، فان الديمقراطية تصبح شكلية ، وهي رغم شكليتها ستشكل عائقا في وجه نمو النمط الرأسمالي التابع· لذلك يجري استبدالها بالانقلاب · هنا تصل هزيمة الاغلبية الشعبية الى ذروتها ويحدد الاستهلاك نموذج الانتاج ·

ان الموضوعة الرئيسية التي يكشفها كتاب برهان غليون ، هي مسالة كون الاستهلاك هو الذي يحدد نموذج الانتاج · اي ان الاقتصاد القومي يتحدد من خارجه · اما البنية الطبقية ، فانها تشهد توسعا استهلاكيا في القمة ، واقتصاد كفاف في القاعدة · هذا النموذج الاستهلاكي ، هو الــذي سيحدد طبيعة « التنمية » من جهة ، سيؤكد على الطابع القمعي الذي للسلطة من جهة اخرى، فتصبح التنمية نهبا متزايدا للاكثرية الشعبية ، وتصبح السلطة هي اداة حماية هذا النهب · ضمن هذا الواقع ، سوف يصاب الهيكل الاجتماعي برمته بالجمود وستكون التحولات ، هي اساسا ، تحولات في الطبقة الوسيطة ، من اجل مزيد

من الاقتراب من السلطة ، وهذا يؤمن قاعدة اجتماعية للسلطة · كما سينعكس داخل موازين القوى في السلطة ، عبر صراعات اجنحتها المختلفة · ان تعميم الاستهلاك « الغربي » ، واحتقار نموذج الاستهلاك المحلي ، يعني ان المجتمع قد فقد سيطرته على نفسه · وهو يقود الى تعميم العبودية · هنا يصبح النفط وثرواته عاملا اساسيا في اشاعة جو من الرخاء الكاذب في المدن ، حيث يسود التضخم ، وتتحول الجماهير الى ركام لا يجد قوت يومه ·

داخل دوامة التبعية هذه ، تعيش معظم شعوب العالم الثالث · ونحن لا نخرج عن هذا القانون · هكذا تكون جميع المحاولات من اجل بناء الامة قد فشلت والفشل يعود اساسا الى الغياب الكامل للديمقراطية الشعبية ، الى القهر العام والمعمم ، الذي يقوم به نظام كامل من العلاقات الداخلية والخارجية ·

« وفشل تكون الامة العربية ، لا يعود الى فشل الطبقة العربية القائدة والمهيمنة ، هنا ( الاقطاعية ثم الكمبرادورية ثم برجوازية الدولة والبرجوازية البيروقراطية ) في التحول الى طبقة رأسمالية قومية ومستقلة عن النظام الرأسمالي العالمي · وانما فشل هذا التحول ذاته ، يرجع الى فشل الثورة الديمقراطية الشعبية والتحرر السياسي » ·

ليست الهزيمة ، اذن ، هزيمة عسكرية جزئية او كاملة · انها نهاية مجموعة من الطروحات السياسية والفكرية · فالمبادىء الثلاثة ، التي قام عليها عصر النهضة ، اثبتت عجزها عن تكوين الوحدة القومية · بل زادت في التفتت والتشرذم · **فالمبدأ الاول** : التحرر العقلي لم يقد الى تحرير الفكر وتعميم الثقافة، بل زاد في بؤس الاكثرية وعزلها عن كل ثقافة · فهو حين قام بتدمير الحياة الثقافية التقليدية ، لم يستبدلها بثقافة جديدة شعبية وديمقراطية · وهذا يبدو واضحا في نظام التعليم « المتمحور حول خلق اطارات تصدر الى الخارج ، لا حول تحرير الشعب من الامية الهجائية والفكرية » · ان فشل التحرر العقلي ، واللجوء الى توفيقية مستحيلة ، لم يقد الا الى مزيد من الاندراج في الحركة الكولونيالية الزاحفة ·

اما **المبدأ الثاني** : القائم على ربط التحرر السياسي ببناء الدولة العربية ، فقد اثبت عجز البرجوازية عن تحقيقه ، استحالته خارج بناء حلف شعبي يضم جميع الطبقات المنتجة · « اذا كانت الوحدة العربية لم تتحقق ، ولم تتحقق بشكل خاص بين البلدان العربية التي سيطرت عليها الفكرة القومية ، ووصلت الى السلطة فيها الطبقة والنخبة التي كانت تبدو وكأنها ملاك التضحية القومية· فليس ذلك بسبب الاخطاء التكتيكية ، او المقاومة العنيدة الاجنبية · ولكن لان هذه الايديولوجية بالذات ، لم تكن الا غطاء لمصالح اجتماعية ضيقة يتعارض تحققها مع تحقق الوحدة ، بقدر ما يقوم على توسيع قاعدة الطبقة الاجتماعية البرجوازية . وتعميق الخط الراسمالي التابع ، وتهميش وقمع واستعباد

الشعب » · ان هذا الفشل هو المؤشر الفعلي على فشل شامل · فالمسألة ليست في عدم القدرة على تنظيم الجماهير ، او على استيعاب النظرية العلمية · فهذه الطبقة ، لا تسيطر الا بتهميش الجماهير وابعادها بشكل كامل عن السياسة والثقافة · فمن سيقيم الوحدة اذن ؟

اما **المبدأ الثالث** : القائم على التنمية ، وعلى الشعارات الاجتماعية ، فهو يؤكد على عبادة التقنية ·

ويعد الاقتصاد للتصدير الخارجي ، الذي يؤمن امكانيات استيراد السلع الكمالية · اي ان هذه التنمية حين تقبل نموذج الاستهلاك الخارجي ــ الغربي ــ الذي لا يستطيع مجتمعها تأمينه ، تقوم عمليا برهن الاقتصاد الوطني للخارج . وتنتج سلعا وسيطة · فالتنمية هي افقار للاغلبية ، وزيادة في قدرة الاقلية المتسلطة على الاستهلاك ، والاندماج في السوق الرأسمالية العالمية · هكذا يؤكد على الرأسمال بدل العمل · ويجري تخريب الاقتصادي الوطني ·

ان هذا الفشل المثلث ، والذي يعبر عن ثلاث مراحل في الفكر العربي السائد، يؤكد فشل طبقة كاملة ، باجنحتها الموالية والمعارضة · وهو الذي يقود الى عدم قدرة الامة ، على تحقيق النصر وعلى تأكيد وجودها · كما يقود المجتمع الى انقسام خطير : « ان فشل السياسة الثقافية للنهضة ، يجسده اليوم ، هذا الانشقاق المطلق بين ثقافتين وعصرين ثقافيين وحضارتين وامتين : امة تقليدية تعيش على الماضي ، وامة حديثة تعيش على حاضر هش قلق ولا افاق له ، يدفعها الى الالتحاق اكثر فاكثر بالغرب والشعور بمشاعره ، والتحول الى اداة سيطرته في وجه الاغلبية المتجمدة والمتراجعة اكثر فأكثر الى مواقع تقليدية » ·

وتقودنا مناقشة فكر وسياسات « النهضة » ، الى نقاش الواقع العربي الراهن · والنقطة الاساسية ، التي يطرحها هذا الكتاب ، هي مراجعة شاملة واولية لفكر « النهضة » ولفكرنا · وتتوقف هذه المراجعة ، عند نقطة محورية : انهيار الثقافة وولادة ثقافة جديدة هي ثقافة السلطة · لكن هذه الثقافة الجديدة كانت ثقافة انهيار ، لانها عبرت عن سلطة متراجعة وعاجزة عن تحقيق الاهداف التي رسمتها · هل كانت هذه الاهداف مجرد غطاء لصعود فئات اجتماعية ؟ اما ان هذا الصعود هو الذي كان يدخل تعديلات دائمة على هذه الاهداف حتى اوصلها الى فقدان معناها ؟

ان الفشل الاساسي « للنهضة » الفكرية والسياسية ، هو الفشل في صياغة الاستقلال الوطني · اي الفشل في خلق نموذج محلي للاستهلاك والانتاج · اي الفشل في الوصول الى الديمقراطية الشعبية ، التي تربط المعرفة بالممارسة الاجتماعية والانتاج ، وتعزل العناصر الطفيلية والسمسارية · يسمح لنا هذا

الفشل بدراسة فكر النهضة دراسة تفصيلية وبرؤية جديدة . فحين يوضع هذا الفكر داخل الممارسة التاريخية فانه يكشف عن تناقضاته ، التي تعكس التناقضات الاجتماعية داخل سياق بناء مشروع السلطات القطرية .

يكشف هذا « البيان » انسداد الفكر البرجوازي وعجزه وهزيمته . لكنه ، في بحثه عن رسم خط بياني لتطور فكر وسياسات « النهضة » ، يهمل دراسة بعض التناقضات الهامة في هذا الفكر . والتي تعكس محاولة اجزاء من النخبة العربية االبحث عن قاعدة شعبية للاستقلال الوطني . ولعل التيار الذي يمثله شكيب ارسلان ، في اصراره على اولوية الصراع مع الغرب الامبريالي على كل صراع اخر ، كان الصيحة التي تستكمل رؤية الافغاني ، وتضعها في افق الممارسة السياسية .

« ان نظامنا الحديث ، منذ النهضة الى اليوم ، لا يقوم الا بثلاثة مبادىء : النهب وحصيلته الافقار ، والقهر وحصيلته الاسترقاق والاستعباد السياسي ، والترجمة والتقليد وحصيلتهما الجهل وقصور نشاطات الحياة على النشاط الاولي والبدائي البيولوجي » .

ان نهاية قدرة الايديولوجية المسيطرة ، بمختلف تياراتها واتجاهاتها ، على الفعل ، لا تبشر فقط بولادة الديكتاتورية المكشوفة ، لكنها تشير ايضا الى ولادات متعددة لنسق فكري وسياسي جديد . فالممارسة الدموية التي خاضتها الجماهير ، من رمال سيناء الى الشاطىء الفلسطيني ـ اللبناني ، هي مؤشر لولادة جديدة . فدراسة فكر « النهضة » خارج اشكالية « الاصلاح » بتياراته الثلاثة : الاصلاح الديني ، والاصلاح السياسي والاصلاح الاقتصادي ، يقود الى تأسيس فهم جديد للديمقراطية . فالديمقراطية الشعبية وحدها ، ديمقراطية المنتجين ، هي التي تستطيع انتشال الامة من هاوية التشرذم التي تقاد اليها .

هل اجبنا على سؤالنا الاساسي : ما هو النفط ؟

ام ان العقم والصحراء التي تحاول ابتلاع المدن ، تحتاج الى دراسات تفصيلية ، ليس هذا البيان الا مقدمتها ؟

ربيع الأسير

# القوات المسلحة الاميركية في اواخر السبعينات
# دور "جديد" ومعضلات مستعصية

تبدو القوات المسلحة الاميركية في اواخر السبعينات وكأنها في مرحلة انتقالية · ولئن كانت تلك القوات ، وحتى الامس القريب ، القوة العسكرية الاولى في العالم ـ كما اظهرت ازمة الصواريخ الكوبية في العام ١٩٦٢ ، وغيرها من الازمات وعمليات التدخل في خمسينات وستينات هذا القرن ـ فانها تبدو اليوم وكأنها تبذل جهودا كبيرة للحفاظ على التوازن مع قوات الكتلة الاشتراكية واستعادة مصداقيتها وفاعليتها · كما وانها تبذل جهودا كبيرة لتقليص الثغرات التي تعاني منها ، والتي تضع حدودا على قدراتها القتالية · وتحاول تلك القوات ، في الوقت نفسه ان تتكيف مع المهام الجديدة التي اسندت اليها مع تطور الاستراتيجية الاميركية نتيجة للمتغيرات العديدة التي شهدها العالم في السنوات الماضية ·

ولئن كانت الصعوبات التي تعاني منها القوات المسلحة الاميركية تعكس والى حد بعيد الازمة المتنامية التي يعاني منها المعسكر الامبريالي برمته ، فان التدهور النسبي لاوضاع تلك القوات يساهم مساهمة جدية في تعميق تلك الازمة ، كما يشكل عاملا اساسيا في التعديلات التي طرأت على الميزان الاستراتيجي بين المعسكر الامبريالي وقوى التغيير والتحرر في انحاء العالم ·

وفي حين يمكن القول ان حرب فيتنام ـ وهي الحرب الاولى التي منيت فيها القوات الاميركية بهزيمة عسكرية ـ كانت العامل المباشر وراء كشف الثغرات التي تعاني منها المؤسسة العسكرية الاميركية ، فأنها لم تكن في حقيقة الامر ـ

رغم اهميتها ـ سوى احدى العوامل التي ساهمت بمجموعها في تضعضع القوات المسلحة الاميركية ٠

**الدور « الجديد » للقوات المسلحة الاميركية**

في خطاب القاه الرئيس الاميركي السابق ريتشارد نيكسون في العام ١٩٧٠ حول « وضع العالم » ، تم تحديد دور « جديد » للولايات المتحدة في النزاعات الدولية ، حيث اكد نيكسون انه في حالة وقوع نزاع غير نووي ، تقوم الولايات المتحده بتزويد حلفائها بمساعدات عسكرية واقتصادية بناء على طلبهم ، على ان تأخذ « الامة المهددة والمراد مساعدتها » على عاتقها مسؤولية تأمين ما تحتاجه من القوات العاملة (١) ٠

ولقد ساهمت سياسة « الفتنمة » في بلورة ما عرف في وقت لاحق « بمبدأ نيكسون » ٠ وكانت تلك السياسة نتيجة الصمود البطولي الذي ابدته الثورة الفيتنامية في مواجهة القوة العسكرية الاميركية ، بالاضافة الى التفاعلات السياسية التي قاد اليها ذلك الصمود ، ان على الصعيد الدولي ، او في داخل الولايات المتحدة نفسها ، حيث برزت نزعة جديدة الى « العزلة » ، وانتشرت قيم جديدة ـ بين الشبيبة بشكل خاص ـ معادية للحرب ، وتحمل روحا نقدية للدور البشع الذي يقوم به التحالف « العسكري ـ الصناعي » على الصعيدين الدولي والمحلي ٠ كما كانت تلك السياسة تعبيرا عن بدء تفاقم الازمة الاقتصادية في الولايات المتحدة نفسها ٠

وفي السابع من تشرين الثاني ( نوفمبر ) ، ١٩٧٣ . اقر الكونغرس الاميركي قرارا يفرض على الرئيس ابلاغ الكونغرس خلال فترة لا تقل عن ٤٨ ساعة عن عزمه على عدم زج اي قوات عسكرية اميركية في نزاع خارجي، او على زيادةحجم القوات الاميركية الموجودة مسبقا في بلد اجنبي ٠ كما يفرض القرار انهاء زج تلك القوات خلال فترة لا تتعدى ٦٠ يوما الا اذا اقر الكونغرس ضرورة استمرار تلك القوات في القيام بالمهمة التي اوكلت اليها (٢) ٠ ولقد جاء ذلك القرار بعد مضي عدة اشهر على توقيع اتفاقية وقف اطلاق النار بين هنري كيسنجر ولي دوك ثو في ٢٧ـ١ـ١٩٧٣ ، وبعد خروج اخر جندي اميركي من فيتنام في ٢٩ـ٣ـ١٩٧٣ ٠

وكان ذلك كله تعبيرا واضحا عن بدء افول عصر الهيمنة الاميركية على العالم ٠ الا ان تلك الاحداث وعلى الرغم من ضخامة المعاني التي حملتها ـ لم تصرف الامبريالية الاميركية عن محاولة الاستمرار في لعب دور «شرطي العالم» على ان يفيد ذلك « الشرطي » من قوات حلفائه المحليين ، بالاضافة الى خلق

احلاف جديدة تأخذ على عاتقها سد الثغرات التي يمكن ان تبرز في بلد من البلدان ·

ومع تجدد الاحداث في اقليم « شابا » خلال شهر ايار « مايو » الماضي ، اتخذ الرئيس الاميركي جيمي كارتر اجراءات عديدة ، من ضمنها وضع الفرقة « ٨٢ المحمولة جوا » في حالة تأهب ، بالاضافة الى تقديم طائرات نقل للقوات البلجيكية التي اندفعت الى قلب القارة السوداء لدعم نظام موبوتو وحماية المصالح الغربية الضخمة في « زائير » · وكانت تلك الاجراءات اكبر عملية عسكرية تقدم عليها ادارة الرئيس الاميركي الحالي ، الذي ركز على ان « الولايات المتحدة تقدم الدعم فقط في منطقة غير قتالية » (٣) ·

ولقد عكست احداث « شابا » تقسيما جديدا للادوار بين مختلف اطراف المعسكر الغربي ، وتطويرا لمبدأ « نيكسون » · كما اعادت الى الازهان جانبا من الدور الذي يمكن ان تضطلع به القوات المسلحة الاميركية خلال عصر ما بعد فيتنام · وهو جانب لا يستبعد امكانية زج القوات الاميركية حيث يوجد تهديد حقيقي للمصالح الاستراتيجية الاميركية ، رغم التفضيل الواضح للقتال بواسطة جنود الغير ·

وكان تقرير يحمل عنوان « مذكرة المراجعة الرئاسية ـ ١٠ » قد قدم الى اجتماع لكبار مسؤولي البيت الابيض في تموز ( يوليو ) ١٩٧٧ ، ليحدد ملامح الاستراتيجيات العسكرية المختلفة المحتملة ، وحجم القوات والمعدات والاسلحة الضرورية لتنفيذها (٤) · كما عدد التقرير « حالات الطوارىء » المحتملة والقوات الضرورية لمواجهتها · وتقع على رأس تلك الحالات احتمال قيام حلف وارسو بشن هجوم على دول حلف شمالي الاطلسي في اوروبا الوسطى ، وهو احتمال كثر الحديث عنه في السنوات الاخيرة ، حيث تبارى المحللون الاستراتيجيون في وضع سيناريو للحرب الخاطفة التي قد تشنها قوات حلف وارسو ، ويكون مسرحها الرئيسي بلدان اوروبا الغربية · ولقد حدد الفريق اول جورج س· براون ، رئيس هيئة رؤساء الاركان المشتركة استراتيجية الولايات المتحدة في هذا المجال على انها « القتال قدر الامكان بالمستوى غير النووي ، ثم اللجوء الى الاسلحة النووية التكتيكية ، ومن ثم الاسلحة الاستراتيجية اذا دعت الضرورة » · ويضيف براون : « اذا كان هدفنا الرئيسي خوض الحرب بدل ان نردع الحرب ، كنا سنفعل اشياء كثيرة بصورة مختلفة · ما نحاول ان نفعله ـ وبنجاح حتى الان ـ هو ردع الحرب بواسطة رادع نووي استراتيجي بشكل اساسي » · كما لا ينسى ان يؤكد انه « ليس متشائما جدا حول قدرتنا على التعامل مع التهديد السوفياتي ، الا انني لا اعتقد ان هناك مجالا للتفاؤل » (٥) ·

واذا كان « الدفاع عن اوروبا » من اولويات المؤسسة العسكرية الاميركية ، فان « حالة الطوارىء » الثانية التي تشير اليها « مذكرة المراجعة الرئاسية ــ ١٠ » تتعلق بحرب بين الشرق والغرب خارج اوروبا · ومما لا شـــك فيه ان ابرز المناطق « المرشحة » لان تكون مسرحا لمواجهة اميركية ــ سوفياتية حسب تقدير واضعي الاستراتيجية الاميركية هي منطقة الشرق الاوسط والمحيط الهندي، وافريقيا ، وشرقي آسيا الى حـــد مــا ·

فمنطقة الشرق الاوسط ، بموقعها الاستراتيجي ، ومخزونها الضخم مـــن النفط ــ وهو المصدر الاساسي للطاقة حتى اشعار آخر ــ تعتبر في قمة اولويات المؤسسة العسكرية الاميركية · ولقد ابدى المسؤولون الاميركيون مرارا « قلقهم » من قرب موقع الاتحاد السوفياتي من ايران ودول الخليج العربي المنتجة للنفط، الامر الذي يمنح الاتحاد السوفياتي ميزة استراتيجية يجب ان « تمنح ثقـــلا هاما في وضع تقييم صاف للقوى » (٦) · ويعتبر المسؤولون الاميركيون ان من اولى مهامهم ضمان استمرار تدفق النفط الى دول العالم الرأسمالي · وهـــذا ما دفع المؤسسة العسكرية الاميركية الى وضع خطة لغزو منابع النفط ، كمـــا دفعتها الى تدريب جزء من القوات ــ وبشكل خاص سلاح مشاة البحرية ــ على القتال في المناطق الصحراوية وفي ظروف شبيهة بالظروف السائدة في مناطــق حقول النفط في الخليج العربي · كما وان الحرص على استمرارية تدفق النفط دفع كلية الحرب البحرية الاميركية في نيوبورت ان تركز في تدريباتها على معركة « كاذبة » مع السوفيات على خطوط مواصلات ناقلات النفط في المحيط الهندي ، في سيناريو خلاصته توتر العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحـــدة بسبب « الحشود العسكرية السوفياتية » في اليمن الجنوبي والعراق · ويتـــم ارسال قوة مهمة الى المحيط الهندي بسبب تخوف الولايات المتحدة من اقـــدام السوفيات على وقف تدفق النفط · وتدور « المعركة » التي غالبا ما « تنتصر » فيها الولايات المتحدة (٧) ·

واذا كان المحيط الهندي يكتسب اهمية متزايدة نتيجة تنامي اهمية النفط في منطقة الشرق الاوسط ، فانه يوفر كذلك مسرحا مناسبـــــا لتوجيه ضربــــات الصواريخ البالستيكية التي تطلق من الغواصات النووية الى اهداف عديدة في الاتحاد السوفياتي ، كما وانه يشكل حلقة هامة في شبكة الاتصالات العالميـــة التي تمتلكها الولايات المتحدة · ومما لا شك فيه ان التطورات الاخيرة في كل من افغانستان واثيوبيا قد زادت من هموم الولايات المتحدة فيمـــا يتعلــق بمنطقتي الشرق الاوسط والمحيط الهنـــدي ·

كما وان الاحداث التي تشهدها القارة الافريقية تشكل مصدر « قلق » آخـــر بالنسبة الى واضعي الاستراتيجية الاميركية · اذ تجمع تلك الاحداث بين سمات

حالتين من « حـــالات الطوارىء » التي اشارت اليهـــا « مذكرة المراجعـــة الرئاسية ـ ١٠ » ٠ فبالاضافة الى احتمال حدوث مواجهة بين « الشرق والغرب خارج اوروبا » نتيجة للوجود الكوبي والسوفياتي في القارة الافريقية ، تبـرز في تلك القارة « حالة الطوارىء » الثالثة وهي ما اسمتـــــه المذكرة بحـروب « قومية » مثل فيتنام ٠

وتندرج ضمن هذه الحالة ايضا النضالات التي تخوضها الامة العربية مـن اجل الوحدة والتحرير ٠ وبذا تبرز في المنطقة العربية كذلـك سمـــات حالتي الطوارىء السابقتين ٠ وتأخذ الاستراتيجية الاميركية في هذا المجال وجـــود دولة العدو الصهيوني بعين الاعتبار ، والميزات الاستراتيجية الهامة التــــي يوفرها ذلـك الوجود ٠

وتحدد المذكرة « حالة الطوارىء » الرابعة على انها « النزاعات في شرقــي آسيا » ٠ ومما لا شك فيه ان الولايات المتحدة تنظر بعين الرضى الى النزاع الصيني ـ السوفياتي ، وانعكاساته على الوضع الاستراتيجي في العالم ٠

اما الحالة الخامسة ، فهي حرب نووية شاملة مـــع الاتحاد السوفياتي ٠ ويشكل تنامي قوة الاتحاد السوفياتي على صعيد الاسلحة الاستراتيجية مركـز قلق جدي ، حيث اصبح الهدف « المعلن » لواضعي السياسة الاميركية الحفاظ على التوازن الاستراتيجي ، بعد ان كانت الولايات المتحدة تتمتع باحتكار القوة النووية قبل ما لا يزيد عن ثلاثين عاما ٠

واذا كانت تلك هي « حالات الطوارىء » التي يجري اعداد القوات المسلحة الاميركية في اواخر السبعينات لمواجهتها ، فان عملية الاعداد تلـك تتطلـــب معالجة جدية للمعضلات الرئيسية التي تعاني منها القوات المسلحة الاميركية ٠ فلقد بدأ العمل على عملية اعادة بناء فعلية لتلك القوات خلال السبعينات ٠ الا ان عملية اعادة البناء قد رافقها بروز معضلات جديدة ٠ كما يبدو اليوم انه لا يوجد حلول ضمن المدى المنظور للعديد من المعضلات التي تعاني منها تلـــك القـوات ٠

## الضغوطات الاقتصادية والماليـة

تفرض الازمة الاقتصادية التي تعاني منها الولايات المتحدة ، والتي تتمثـل في جانب منها في تنامي معدلات التضخم والبطالة في آن واحد ، قيودا كبيرة على المؤسسة العسكرية الاميركية ٠ ومن البديهي القول انه لو لم يكن هنـاك « ندرة » في الموارد ، لكانت العديد من المشاكل التي تواجه تلك المؤسسة ابسط بكثيـــر ٠

فلقد ساهم التضخم ، بالاضافة الى انتشار شعور لدى الاميركيين بضرورة تخصيص الموارد لمعالجة مشكلات اخرى تمس حياتهم اليومية ، وتنامي الشعور « بعدم جدوى » سباق التسلح ، في فرض قيود جديدة نسبيا على موازنات الدفاع ، وعلى مشاريع التسلح ٠

٠ ولقد اقرت موازنة الدفاع للسنة المالية ٧٨ في الكونغرس في اواخر ايلول ( سبتمبر ) ، ١٩٧٧ ٠ وتمنح تلك الموازنة الادارة صلاحية انفاق ١١٠ بليون دولار خلال السنة المالية ٠ وهذا الرقم هو اقل من الرقم الذي طالب به كارتر بنسبة ٤٥ر٣٪ ، كما وانه اقل من الرقم الذي توقعه فورد بحوالي ٩ر٥٪ ٠ ويجدر الاشارة الى انه قد تم تعديل مستويات التمويل للعديد من البرامج الرئيسية ثماني مرات قبل ان تقر في قيمتها النهائية ٠ وكان سلاح الجو الاميركي المعاني الاكبر من هجمات الكونغرس ، حيث تم تخفيض موازنته المقترحة بنسبة ١٨ر٦٪ ، في حين تم تخفيض موازنة الجيش المقترحة بنسبة ١٧ر٣٪ ٠ وكانت البحرية الاوفر حظا ، حيث لم تخفض موازنتها المقترحة بأكثر من ٤٤ر١٪ (٨) ٠ وكان كارتر قد اتخذ قرارا بالغ الاهمية قبل اقرار تلك الموازنة ، وهو الغاء القاذفة الاستراتيجية الجديدة « ب ــ ١ » ٠ ومما لا شك فيه أن العوامل الاقتصادية والضغوطات على الموازنة كانت عاملا رئيسيا وراء ذلك القرار ٠

ولقد حاول ريتشارد ايكورد ، عضو لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب، ورئيس اللجنة الفرعية للابحاث والتطوير ، ان يبرر التدخل والتدقيق الشديد من قبل الكونغرس في شؤون القوات المسلحة ، حيث اشار الى ان السبب وراء ذلك « هو الشعور العام لدى اعضاء اللجنة الفرعية للابحاث والتطوير اننا نصبح ــ وبخطوات متسارعة ــ وراء السوفيات في قدرات الدفاع ٠ وفي الوقت نفسه ، يقر الاعضاء بأن الموارد المتوفرة للدفاع هي محدودة الى حد بعيد ، وانه يجب ان نعمل بجهد وعناية لنضمن ان هذه الموارد تنفق بحكمة اذا كان علينا الحفاظ على وضع دفاعي مناسب » (٩) ٠

ولقد قدمت موازنة الدفاع للسنة المالية ٧٩ الى الكونغرس الاميركي في ٢٣ــ١ــ١٩٧٨ ٠ وستكون تلك الموازنة ، في حال اقرارها ، اعلى من موازنة السنة المالية ٧٨ بنسبة ٣ر٢٪ بعد ان يتم حساب التضخم ٠ وابرز ما في الموازنة الجديدة الغاء برنامج طائرة النقل المتوسطة القادرة على الاقلاع والهبوط من مسافة قصيرة ، وتأخير برنامج الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات ( امــ اكس ) ذات المنصات المتحركة التي يفترض ان تحل محل صواريخ « مينوتمان » التي يتوقع ان تصبح غير قادرة على مواجهة ضربة سوفياتية في اواسط الثمانينات ، بالاضافة الى تجاهل مسألة تجهيز حاملات

الطائرات التي ترغب البحرية في بنائها بمحركات تعمل على الطاقة النووية (١٠) ٠

ولقد ابدى قادة البحرية بشكل خاص اعتراضات جدية على الموازنة الجديدة المقترحة ٠ اذ يصر هؤلاء على ان التضخم سيحول الزيادة « البسيطة » في حصتهم من الموازنة الى تخفيض فعلي ٠ كما يعترض هؤلاء على تخفيض الاموال المخصصة لبناء السفن من ٨ر٥ بليون دولار في السنة المالية ٧٨ الى ٧ر٤ بليون دولار في السنة المالية المقبلة ، مما سيسمح ببناء ١٥ سفينة جديدة فقط ، في حين كانت مخططات ادارة فورد للموازنة ترمي الى تمكين البحرية من بناء ٢٩ سفينة خلال الفترة نفسها (١١) ٠

ومما لا شك فيه ان ارتفاع كلفة انظمة الاسلحة الحديثة ، والتعقيدات المتزايدة التي يتطلبها بناؤها ــ عبر التركيز على « النوعية » ، وهذه مسألة محببة جدا بالنسبة الى شركات الاسلحة الاميركية ــ تساهم الى حد بعيد في تفاقم الضغوطات المالية على القوات المسلحة الاميركية ٠ وتكفي بعض الامثلة للدلالة على مدى ارتفاع كلفة انظمة الاسلحة ٠ ففي حين تبلغ كلفة المدمرة من فئة « سبراونس » ٢ر١٣٤ مليون دولار ، لم تكن كلفة المدمرة خلال الحرب العالمية الثانية تتجاوز ٥ مليون دولار ٠ كما ارتفعت كلفة غواصة الهجوم من ٩ر٣ مليون دولار في العام ١٩٤٦ الى ٢٨٤ مليون دولار في الوقت الراهن (١٢) ٠

ولقد ادت الضغوطات على الموازنة الى اتخاذ قرار في تموز ( يوليو ) ١٩٧٧ بتخفيض عدد العاملين في وكالات الدفاع الملحقة بوزارة الدفاع الاميركية بنسبة ٢٢٪ ، على ان يتم تخفيض القوة البشرية في وكالات مشابهة خارج البنتاغون بنسبة ٤ر٢٢٪ (١٣) ٠

## الثغرات في التجهيز وفي المعدات

تساهم الضغوطات الاقتصادية والمالية التي تتعرض لها القوات المسلحة الاميركية في تفاقم الازمة التي تعاني منها تلك القوات على صعيد الثغرات في التجهيز وفي المعدات ، وذلك الى جانب اصرار القادة العسكريين الاميركيين على الحفاظ على « النوعية » على حساب الكمية ٠

ويشير القادة العسكريون الاميركيون الى ثغرات في التجهيز في جميع المجالات ٠ فعلى صعيد القوات الاستراتيجية النووية ، ساهم قرار الرئيس كارتر القاضي بالغاء برنامج القاذفة الاستراتيجية « ب ــ ١ » في أرباك جانب من المثلث الذي تعتمد عليه القوة النووية الاميركية ( قاذفات استراتيجية ــ

صواريخ بالستيكية عابرة للقارات ذات قواعد برية ــ صواريخ بالستيكية تطلق من الغواصات النووية ) · ولقد ركز معارضو ذلك القرار على عدم قدرة القاذفة « ب ــ ٥٢ » على الاستمرار في اداء المهام التي قد تطلب منها لفترة طويلة من الزمن ، حيث ان احدث تلك الطائرات دخل الخدمة منذ حوالي ١٥ سنة · كما وانها تعاني من مصاعب تنجم عن تعطل الصمامات المفرغة التي تشكل اساس الكترونيات الطيران المزودة بها · وكنا قد اشرنا سابقا الى توقع عدم فاعلية صواريخ مينوتمان البالستيكية العابرة للقارات في اواسط الثمانينات ، وعدم قدرتها على تحمل ضربة سوفياتية ·

هذا وتعاني مختلف صفوف القوات التقليدية من ثغرات جدية كذلك · اذ تعاني القيادة الجوية التكتيكية من نقص في الطائرات لن يغطى حتى العام ١٩٨١ ، ومن نقص عام في الذخيرة وخاصة فيما يتعلق بالصواريخ المتطورة عالية الكلفة · كما تؤكد القيادة الجوية التكتيكية انها تعاني من مشكلات في محركات الطائرتين « ف ــ ١٥ » و « ف ــ ١٦ » ( وهما احدث ما في الترسانة الاميركية ، ويفترض بهما ان تكونا « افضل طائرتين مقاتلتين » في العالم ) ، بالاضافة الى نقص في قطع غيار الطائرة « ف ــ ١٥ » (١٤) ·

من جهة ثانية ، يؤكد الفريق اول برنارد روجرز ، رئيس اركان الجيش الاميركي ، ان الجيش يعاني من نقص في مخزون الذخيرة ، وفي الدبابات الحديثة ، والمدفعية ، وطائرات هليكوبتر هجومية متطورة ، بالاضافة الى غيرها من المعدات الحديثة (١٥) ·

اما سلاح البحرية ، فلقد انخفض عدد سفنه من ٩٧٦ سفينة في العام ١٩٦٨ الى ٤٥٩ سفينة في الوقت الراهن ، وتشير التوقعات الى ان حجم اسطول القتال سيستمر في الانكماش · ويشير الفريق اول بحري « جيمس هولواي » الى ان الاميركيين كانوا دائما يفخرون في اننا نملك ( بحرية محيطين ) ، الا ان تخفيض اعداد السفن حد بالتأكيد من قدرتنا على القتال في اكثر من محيط في الوقت نفسه · كما يشير « هولواي » الى ان « ميزان التفوق البحري قد يميل بقوة لصالح السوفيات خلال عشر سنوات » (١٦) ·

هذا وتبدو هذه المعضلات وآثارها شديدة الوضوح ضمن السيناريو الذي يفترض قيام قوات حلف وارسو بشن حرب خاطفة في اوروبا الغربية · وتكون مهمة الاسطول الاميركي الاولية في تلك الحالة العمل على تأمين ايصال الامدادات والتعزيزات الى اوروبا الغربية ، وضمان استمرار تدفق الوقود والمواد الغذائية على كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ، ذلك ان وسائل النقل الجوية اعجز من ان تقوم بمثل هذه المهمة ·

ومما لا شك فيه ان تلك ليست بمهمة سهلة ، حيث ستتعرض خطوط

المواصلات البحرية الى هجمات جدية تقوم بها الغواصات السوفياتية المنطلقة من قواعدها الى شمالي الاطلسي · ويقدر الاميركيون انهم يحتاجون الى ارسال قوتين ضاربتين من حاملات الطائرات لتحاولا ابقاء الغواصات السوفياتية بعيدا عن خطوط المواصلات البحرية ، واغراق الغواصات الموجودة بمحاذاة تلك الخطوط ، او منعها من العودة الى قواعدها · ويؤكد الفريق اول بحري « ايزاك كيد ، القائد الاعلى للحلفاء في المحيط الاطلسي انه يجب ـ في حال بروز وضع كذلك ـ تعبئة حوالي ٦٠٠٠ سفينة من اساطيل بلدان الناتو التجارية ، على ان تحمل تلك السفن وترسل عبر المحيط بأقصى سرعة ، حيث قد يضطر بعضها الى القيام بالرحلة دون حراسة · ويقدر « كيد » ان من المحتمل فقدان سفينتين من كل ٣ سفن خلال الايام الاولى ، مشيرا الى ان الحلفاء سيحصلون على « انف مدمى جيدا ··· » (١٧) ·

وفي حين يمكن ان يكمن احد الحلول لمشكلة كتلك في تركيز كميات كبيرة من المعدات الاضافية بشكل مسبق على الاراضي الاوروبية ، فان تلك العملية عالية الكلفة ·

ومن المشكلات الاخرى التي تعاني منها القوات المسلحة الاميركية بالاضافة الى قوات حلف « الناتو » بشكل عام ، هي غياب التوحيد في المعدات التي تستخدمها قوات « الحلفاء » · ولقد قدر الفريق اول « اندرو غودباستر » ، القائد الاعلى السابق لقوات الحلفاء في اوروبا ان غياب توحيد المعدات وانتشار معدات وانظمة متعددة ادى الى تخفيض فاعلية قوات الحلفاء في اوروبا بحوالي ٣٠٪ (١٨) · وتعكس هذه المشكلة المنافسة بين احتكارات صناعة الاسلحة في الولايات المتحدة ، ومنافساتها في بلدان اوروبا الغربية ، الامر الذي يظهر مدى صعوبة ايجاد حلول شاملة وجدية لمشكلة التوحيد ·

وتظهر هذه المشكلات كافة عدم جدية استعداد القوات المسلحة الاميركية لخوض حرب طويلة ضد قوات بمستوى قوات حلف « وارسو » · ويبقى الاعتماد الرئيسي في هذا المجال على الرادع النووي ·

## الثغرات في القوة البشرية

في السابع والعشرين من كانون الثاني ( يناير ) ، ١٩٧٣ ، اعلن وزير الدفاع الاميركي السابق « ملفين ليرد » انتهاء التجنيد الالزامي في الولايات المتحدة الاميركية ، وعاد التطوع ليشكل اساس بناء القوات المسلحة الاميركية·

وكانت حرب فيتنام قد ساهمت في احداث ثغرات رئيسية وخطيرة في القوة البشرية للمؤسسة العسكرية الاميركية · فلقد تدهورت معنويات القوات القتالية ، كما تدهور الانضباط العسكري ، مما ساهم في التأثير على السلطة

العسكرية داخل القوات المسلحة · وانتشرت التيارات المعارضة للحرب في صفوف المجندين ، وعدد كبير منهم من خريجي الجامعات والثانويات العامة ، كما ارتفعت نسبة الحوادث ذات الدلالات الهامة في صفوف القوات ·

وفي حين ارتفع معدل السرقات والاعتداءات ، ارتفعت كذلك نسبة الفرار من الخدمة والغياب بدون اذن ، الى جانب انتشار المخدرات · وتزايدت من جهة ثانية حوادث التمرد وعصيان الاوامر ، كما ظهرت « تصفيات » للمتحمسين للحرب ان مباشرة اثناء القتال ، او على مراحل حيث يتم تهديد المتحمس على نحو تصعيدي حتى يصل الامر الى اغتياله ان لم يرتدع ·

وفي حين يؤكد معظم القادة العسكريين الاميركيين ان المشكلات التي ظهرت مع حرب فيتنام قد انتهت ، وان قوات « المتطوعين » قد تجاوزتها ، فان القوات المسلحة الاميركية لا تزال تعاني من ثغرات جدية على صعيد القوة البشرية · فلقد اظهرت عملية تقصي قامت بها وزارة الدفاع الاميركية في العام ١٩٧٤ ان ٦٠٪ من الشبيبة الاميركية لا ترغب بأي نوع من الارتباط بالمؤسسة العسكرية (١٩) · وفي حين يمكن اعتبار ذلك بمثابة رد فعل مباشر وفوري على الحرب الفيتنامية ، يجدر التأكيد بأنه ليس من السهل على جيل فيتنام الاميركي ان يتجاوز القيم التي غرست في عقله الباطني خلال التجارب المريرة التي مر بها · وفي حين ستظل عقدة فيتنام كامنة في اذهان افراد المجتمع الاميركي ، فان تلك العقدة تساهم بدون شك في عدم اندفاع الشبيبة الاميركية للتطوع في صفوف القوات المسلحة بعد مضي اكثر من خمس سنوات على انتهاء التدخل العسكري الاميركي المباشر في تلك الحرب · ولقد كشفت الصحف الاميركية في صيف العام ١٩٧٧ ان احد مراكز التطويع في « الباني » ( ولاية نيويورك ) قد لجأ الى وضع اسماء لاشخاص وهميين لاستكمال عدد المتطوعين الذي يفترض به ادخالهم الى القوات المسلحة· واطلقت على العملية اسم «تجنيدالاشباح»(٢٠)·

وفي حين يؤكد الفريق « فولني ف· وارنر » ، قائد الفيلق ١٨ المحمول جوا ( الذي يضم الفرقة ٨٢ المحمولة جوا ) ان الفيلق في مستوى استعداد قتالي يفوق اقصى ما حاول الجيش ان يبلغه في الماضي ، يشير الى ان الفيلق يفشل في الحفاظ على افضل ضباط صفه نتيجة لعدم حماستهم لاعادة التطوع ، ويقول « اذا استمر هذا ، سترى في خلال سنتين بعض الضباط الكبار والعديد من الجنود يقودون جنودا » ·

وتحاول القوات المسلحة سد الثغرة في هذا المجال عن طريق جذب المزيد من النساء للعمل في مختلف المجالات · ولقد اشارت الصحف الاميركية الى ان القوات المسلحة لجأت الى تجنيد المرأة نتيجة لضغوطات المنظمات النسائية ، بالاضافة الى النقص المحتمل في المتطوعين من الذكور · ولقد بلغ عدد النساء

العاملات في صفوف القوات المسلحة الاميركية في العام ١٩٧٧ ١٠٨ الاف امرأة، او ٥٪ من مجموع تلك القوات (٢١) ٠

ومن جهة ثانية ، فلقد ارتفعت نسبة السود والملونين في القوات المسلحة بشكل ملحوظ بعد اعتماد نظام التطوع ٠ ومما لا شك فيه ان العديد من الشبان الزنوج يجدون في القوات المسلحة مهربا من اوضاع البطالة والفقر التي يعانون منها ٠ الا ان تلك الظاهرة ادت الى قلق بعض واضعي السياسة الاميركية ، نظرا لما قد يعنيه استمرار تناميها في حال وقوع صدامات عنصرية جدية في داخل المجتمع الاميركي ٠ ولقد برزت مع قوات المتطوعين تفشي مشكلة الامية في صفوف الجنود ، وجلهم من الطبقات الاجتماعية الدنيا في المجتمع الاميركي ٠ ويشير احد ضباط التدريب التابعين لسلاح البحرية الاميركي الى ان « مستوى القراءة لدى متطوعينا لا يتجاوز في كثير من الاحيان مستوى الصف الثالث ٠ وهذا يعني ان البحار لا يمكنه ان يقرأ حتى لافتة الانذار على حجرة مرجل السفينة » (٢٢) ٠ ومما لا شك فيه ان هذه معضلة جدية بالنسبة الى قوات تفتخر باعتمادها على « النوعية » ٠

كما برزت مع قوات المتطوعين تيارات تنادي بضرورة خلق « نقابة » للعاملين في المؤسسة العسكرية ٠ وتدل الاستفتاءات التي اجريت لتحديد مدى تفشي هذا التيار ان ٣٥٪ من الجنود و ١٦٪ من الضباط في سلاح الجو الاميركي يحبذون انشاء نقابة للعسكريين ٠ كما اظهرت الاستفتاءات ان نسبة الذين لم يبدوا اي رأي كافية لتشكيل اغلبية فيما لو انحازوا الى صفوف انصار « النقابة » ٠ ولم تتعد نسبة الموافقين على ضرورة بقاء النقابات العسكرية بعيدة عن المسائل العملياتية ٦٥٪ ، في حين اعتبر ٧٥٪ فقط ان الاضراب سلاح غير شرعي للمطالبة بانصاف العسكريين (٢٣) ٠

وتعكس هذه الظاهرة خللا جديا في القوات المسلحة الاميركية، واضطرار تلك القوات الى جذب المتطوعين عبر ابراز الامتيازات التي يحصل عليها المتطوع بالمقارنة مع الاعمال المدنية الاخرى ٠ ويطالب بعض القادة العسكريين بالعودة الى التركيز على مفاهيم « الواجب » و « الدفاع عن الوطن » كقيم اساسية يتم بناء القوات المسلحة على اساسها ٠

## مستقبل القوات المسلحة الاميركية

اذا كنا قد حاولنا في دراستنا الراهنة ان نركز على الدور « الجديد » للقوات المسلحة الاميركية ، وعلى المعضلات المستعصية التي تعاني منها تلك القوات ، فان ذلك لا يعني ان تلك القوات لا تملك نقاط قوة هامة ـ لم يكن من مجال

لبحثها في دراستنا هذه ـ او انها على شفير الانهيار · الا ان نقاط القوة هذه لا تتناقض مع حقيقة ان سبعينات هذا القرن تشهد تحولات استراتيجية هامة لصالح قوى التحرر والتغيير والتقدم في العالم · ومما لا شك فيه ان معالم الشيخوخة التي بدأت بالبروز على ملامح القوات المسلحة الاميركية ، والمعضلات المستعصية التي تعاني منها تلك القوات تشكل ظواهر ايجابية في الصراع ضد اعتى قلعة للمعسكر الامبريالي في العالم ·

---

**الحواشي :**

(1) Nixon, Richard . « **US Foreign Policy In The 1970's** » . Washington , 1970 .

(2) Dupuy & Dupuy . **The Encyclopedia of Milita'y History** . Macdonald & Jane's , London , 1977 . P. 1336 .

(3) **Newsweek** . May 29 , 1978 P. 15 .

(4) **International Herald Tribune** . July 11 , 1977 . P 3 .

(5) **U.S. News & World Report** . October 10 , 1977 . P 38 .

(6) **International Herald Tribune** . July 11 , 1977 . P 3 .

(7) **Time** . May 8 , 1978 P 14 .

(8) **Armed Forces Journal International** . October . 1977 . P 6 .

(9) **Armed Forces Journal International** . October , 1977 . P 21 .

(10) **Flight International** . February 4 . 1978 . P 290 .

(11) **Time** . May 8 . 1978 PP 14 — 16 .

(12) **Time** . May , 1978 . P 20 .

(13) **International Herald Tribune** . July 21 , 1977 . P 5 .

(14) **U.S. News & World Report** . October 10 , 1977 . P 40 .

(15) **U.S. News & World Report** . October 10 , 1977 . P 38 .

(16) **Time** . May 8 , 1978 . P 16 .

(17) **U.S. News & World Report** . October 10 , 1977 . P 41 .

(18) **International Defense Review.** 2/1975 . P 156 .

(19) **Military Review** . July , 1975. P 30

(20) **International Herald Tribune.** August 2 , 1977 . P 3 .

(21) **International Herald Tribune.** August 1 , 1977 . P 3 .

(22) **Time** . May 8 , 1978 . P 17

(23) **The Guardian Weekly** . March 6 , 1977 . P 17 .

محمود عزمي

# القوة العسكرية الاسرائيلية في أربع سنوات
## ١٩٧٣ - ١٩٧٧

اثناء مرحلة حرب الاستنزاف التي جرت على الجبهة السورية في اعقاب حرب ١٩٧٣ ، والتي اسفرت عن توقيع اتفاقية الفصل بين القوات على الجبهة المذكورة في ٣١ـ٥ـ٧٤ ، كتب المعلق العسكري لصحيفة « يديعوت احرونوت » مقالا بعنوان « الجيش الاسرائيلي الى اين ؟ » يوم ٢٤ـ٤ـ٧٤ قال فيه « حبذا لو يمنح الجيش الاسرائيلي بضع سنوات هادئة كي يستريح ويعيد تنظيم نفسه ··· وحبذا لو كانت المؤسسة العسكرية بأسرها تمر في مرحلة مراجعة » ·

كما كتب « زئيف شيف » ، خلال الفترة ذاتها ، مقالا في صحيفة « هآرتس » في ١٢ـ٥ـ٧٤ قال فيه « ان الجيش الاسرائيلي بحاجة الان الى فترة من الهدوء ، بعد ان خاض حربا قاسية ، ومرت قياداته باهتزازات شديدة · والجيش بحاجة الى هدوء من اجل الانتعاش والبناء والترميم · ويجري الان تغيير في القيادة لا في الدولة فحسب ، بل ايضا في القيادة العسكرية · والقادة الجدد بحاجة الى فترة لترسيخ اقدامهم · وعملية الترميم هذه في ذروتها ، وقد اصبحت هناك دلائل واضحة للاستقرار · وفصل القوات سيمكن من استمرار هذه العملية بهدوء واعداد الجيش الاسرائيلي للمستقبل » · وفي العام ١٩٧٥ انهى مؤلفا كتاب « الجيش الاسرائيلي » الصادر في لندن ، وهما « ادوارد لوتواك » و « دان هورويتز » بعبارة قالا فيها انه « اذا ما اخفقت مبادرة السلام الاميركية التي انطلقت في اعقاب حرب اكتوبر ، واذا ما اضطرت اسرائيل للقتال مرة اخرى ، فان جيشا جديدا او مختلفا سوف يخوض القتال،

جيشا يختلف عن ذلك الجيش الذي قاتل في العام ١٩٧٣ ، بالقدر الذي كـــان عليه جيش ١٩٦٧ مختلفا فيه عن جيش ١٩٤٨ » ٠ (١)

وفي ١ــ٥ــ٧٨ نشرت مجلة « نيوزويك » حديثا للجنرال « موردخاي غور » ، عقب احالته للتقاعد من منصب رئاسة الاركان قال فيه « ان اكثر ما انجـزت اهمية هو مشاركتي في التفاوض مع مصر وسوريا عقب حرب ١٩٧٣ ٠ وانجازي الثاني الاكثر اهمية هو اعادة تسليح القوات الاسرائيلية الى الحد الذي اصبح فيه معظم العرب يدركون الان ان المخاطرة ببدء حرب هي اكبر من الامل في تحقيق نتيجة مؤاتية » ٠ (٢)

وبغض النظر عما قد تضمنه بعض الاقوال المشار اليها آنفا من مبالغـــة تدخل ضمن اساليب الحرب النفسية الاسرائيلية المضادة للمعنويات العربية ، فان من الضروري بحث التطورات التي طرأت على القوة العسكرية الاسرائيلية خلال السنوات الاربع الاخيرة ، التي تمتعت فيها اسرائيل بدرجة كبيرة مـــن الهدوء والاستقرار ، بفضل اتفاقيات الفصل بين القوات ، واجراء تقييـــم موضوعي لها قدر الامكان ، وضمن المعطيات المعروفة عنها ٠ تقييم يجنـــب الادراك العربي مخاطر التقليل من القوة المذكورة ، ومنزلقات المبالغـــة فـــي تقديرها ، التي تؤدي الى خلق وترسيخ رادع ذاتي لـــــلارادة النضاليـــــة العربية ، يزيد من فاعلية القوة الاسرائيلية ، ويضعف من حقيقة الامكانـات الكامنة للقوة العربية ٠

هذا ، وتتضمن التطورات التي لحقت القوة العسكريـة الاسرائيلية عـــــدة عناصر ، او نواحـــي ، يتصل بعضهـا بحجـــم القـــــوة البشريـــة . وبعضها بحجـــم التشكيـلات والوحـــــدات العسكريـــــة ، وبعضهــــا بحجم ونوعية الاسلحة والمعدات ورفع كفاءة الاداء التقني والاداري ، والبعض الاخر بنوعية التكتيكات وادارة العمليات ، والبعض بنوعية التنظيم القتالـــي والقيادة والتدريب ٠

وسوف نقصر بحثنا في هذه الدراسة على التطورات التي لحقت القـــوة العسكرية الاسرائيلية ، خلال السنوات الاربع الاخيرة ، من حيث حجم القوى البشرية والتشكيلات وحجم ونوعية التسليح والمعدات ورفع كفاءة الاداء ، امـــا بقية النواحي المتعلقة بالمذهب القتالي والعقائد التكتيكية والتنظيم ، فهي فـــي حاجة الى دراسات اخرى خاصة بها ٠

## زيادة حجم القوى البشرية :

رغم ان العرب كانوا ، وما زالوا ، يتمتعون بتفوق كمي ضخم في القـــوى

البشرية بالنسبة لاسرائيل ، فقد استطاعت الاخيرة في حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ان تعبىء وتحشد قوى بشرية تفوق في عددها ، وتشكيلاتها ، القوى المماثلة التي حشدتها قوى المواجهة العربية ، وتلك التي قدمتها دول العمق عمليا في ساحات القتال ، وذلك سواء بالنسبة لاجمالي القوات المتجابهة ، او بالنسبة للحشد على محاور الجهد الرئيسي اثناء العمليات ٠

ففي بداية حرب ١٩٤٨ ، اي في ١٥ــ٥ــ٤٨ ، قدر الجنرال « غلوب » ، قائد الجيش الاردني ، إجمالي القوات العربية النظامية بنحو ٥٠٠ر٢١ جندي ، موزعين على النحو التالي :

١٠ آلاف في الجيش المصري ، و ٤٥٠٠ في الجيش الاردني ( وكان يسمى الفيلق العربي ) و ٣٠٠٠ في الجيش السوري و ٣٠٠٠ في الجيش العراقي و ١٠٠٠ في الجيش اللبناني ٠

وذلك مقابل نحو ٦٥ الف مقاتل لدى تشكيلات الكيان الصهيوني ٠ (٣) ولكن اللواء « حسن البدري » ، يقرر في كتابه « الحرب في أرض السلام » ، (٤) بعد دراسة في وثائق الحرب ، خاصة المتعلقة بالجيش المصري ، ان اجمالي القوات العربية النظامية يوم ١٥ــ٥ــ٤٨ كان يقدر بنحو ١٥ الف جندي ، موزعين على النحو التالي :

٥٠٠٠ جندي على الجبهة المصرية ( مصر والسعودية والسودان واليمن ) ، و ٤٥٥٠ جنديا اردنيا ، و ٢٥٠٠ جندي عراقي ، و ١٨٧٦ جنديا سوريا . و ١٠٠٠ جندي لبناني ٠ موزعين جميعا على ١٤ كتيبة مشاة ٠ وذلك مقابل نحو ٦٧ الف جندي صهيوني ، موزعين على ٣٢ كتيبة مشاة ٠ اي ان نسبة التفوق البشري الاسرائيلي كانت في الافراد ٤ر٤ الى ١ ، وفي التشكيلات ٣ر٢ الى ١ ٠

وفي بداية المرحلة التي أعقبت الهدنة الاولى ، اي في ٩ــ٧ــ٤٨ ، بلغ اجمالي افراد الجيوش العربية نحو ٣١ الف جندي ، تضمهم ٢٤ كتيبة مشاة ٠ موزعين على النحو التالي :

١٥ الف جندي مصري ( ٩ كتائب مشاة ) ، و ٥٠٠٠ جندي اردني ( ٥ كتائب ) ، و ٧٠٠٠ جندي عراقي ( ٦ كتائب ) ، و ٣٠٠٠ جندي سوري ( ٣ كتائب ) ، و ١٠٠٠ جندي لبناني ( كتيبة واحدة ) ٠

مقابل نحو ١٠٦ الف جندي اسرائيلي موزعين على ٤٢ كتيبة مشاة ٠ اي ان نسبة التفوق الاسرائيلي كانت ٤ر٣ الى ١ في اجمالي الافراد ، و ٧ر١ الى ١ في التشكيلات القتالية ٠ (٥)

وفي حرب ١٩٥٦ ، التي انفردت فيها مصر بمواجهة كـل من اسرائيـل وبريطانيا وفرنسا ، كان لدى الجيش الاسرائيلي عند التعبئة العامة نحو ١٩٠ الف جندي ، مقابل نحو ٩٠ الف جندي لدى الجيش المصري (٦) ، لم يتـح له عمليا امكانية حشدهم في الجبهة بسيناء على نحو يعادل القوة الاسرائيلية المحتشدة على محاور العمليات الرئيسية على اي نحو · اذ كان لدى القيـادة المصرية ، عند بدء العدوان الاسرائيلي يوم ٢٩ـ١٠ـ٥٦ في سيناء وقطـاع غزة ، ٨ كتائب مشاة و ٢ كتيبة مدرعات و ٥ر٣ كتيبة مدفعية ، مقابـل ٣٥ كتيبة مشاة و ١٠ كتائب مدرعات و ٣٥ كتيبة مدفعية ، كانت لدى القيادة الاسرائيلية الجنوبية ، الامر الذي حقق للاسرائيليين نسبة تفوق بلغت ٥ر٤ الى ١ في المشاة و ٥ الى ١ في المدرعات و ١٠ الى ١ في المدفعية (٧) ! ولم يتوفر الوقت او الظروف الملائمة لتدخل القوات الاحتياطية المصرية التي ارسلـت الى سيناء لمواجهة العدوان ، والتي ضمت لوائي مدرعات ولوائي مشاة ، ومن ثم بقيت نسبة ميزان القوى البرية عمليا كما هي · ويضاف الى ذلك التفـوق الجوي الساحق ، الناتج عن التدخل البريطاني ـ الفرنسي وتأثيره على مجرى القتال ·

وفي حرب ١٩٦٧ كان لدى الجيش الاسرائيلي ، عند التعبئة العامة ، نحـو ٢٦٥ الف جندي ، مقابل نحو ١٦٠ الف جندي مقاتل كان يتألف منهم اجمالي الجيش المصري ، حشد منهم نحو ١٣٠ الف جندي في سيناء عشية ٥ حزيران ( يونيو ) ٦٧ ، وكان هناك نحو ٣٠ ألفا اخرين في اليمن · ونحـو ٦٥ الـف جندي سوري ، وحوالي ٥٠ الف جندي اردني · اي ان مجموع القـوات العربية المتاحة عمليا ، من الناحية النظرية ، كان يبلغ نحو ٢٤٥ الف جندي ، ومعنى هذا ان الجيش الاسرائيلي كان لديه تفوق عام في الافراد يبلغ نحـو ٢٠ الف جندي ·

واذا انتقلنا الى جانب توزيع هذه القوة البشرية البرية على التشكيـلات المقاتلة سنجد ان الجيش الاسرائيلي كان لديه ٢٤ لواء مشاة و ٣ ألويـة مظليين و ١١ لواء مدرعا ، بخلاف بعض كتائب الدبابات المستقلة ووحـدات المدفعية ، اي ما جملته نحو ٣٨ لواء · (٨) على حين ان الجيش المصري كان لديه في سيناء ١٨ لواء مشاة وما يوازي نحو ٧ ألوية مدرعة ، اي ما جملته نحو ٢٥ لواء ·

والجيش السوري كان لديه في الجولان ٧ الوية مشاة ، ولواءان مدرعان ، اي ما مجموعه ٩ ألوية (٩) · والجيش الاردني كان لديه في الضفة الغربية لنهر الاردن ٦ أوية مشاة ولواءان مدرعان ، اي ما مجموعه ٨ ألوية · (١٠) اي أن الجيوش العربية الثلاثة كان لديها في الجبهات القتالية ( وهذا ليـس

معناه ضرورة وامكانية اشتراك كافة التشكيلات في القتال الفعلي ) بنحو ٤٢ لواء . مقابل ٣٨ لواء اسرائيليا ٠ ولكن نسبة التفوق العربي الضئيلة هـذه ( ٤ ألوية ) حرم العرب من الاستفادة منها بسبب افتقادهم وحدة القيـــــادة العسكرية ، التي تكفل لهم الاستفادة من ميزة الحركة على الخطوط الخارجية، تلك التي توفرها لهم الظروف الجغرافية لاحاطة دول المواجهـــة بالكيـــان الصهيوني من فلسطين المحتلة ، عن طريق تنسيق الضغط العسكري العربي من كل الجبهات لاحباط مخططات العدو الاسرائيلي في المناورة على الخطـــوط الداخلية ، والتركيز على كل جبهة عربية على حدة تباعا ، وفقا لاولويات الخطة الاستراتيجية العامة الموضوعة للحرب ٠

وفي الوقت نفسه نجح العدو الاسرائيلي في تحقيق التفوق الكمي في نقاط الخرق الرئيسية . نتيجة لاخذه المبادرة الهجومية ، وعزله لقوات النســـق الاول العربية عن قوات النسق الثاني والاحتياطي الاستراتيجي ، من خـــلال السيطرة الجوية على طرق المواصلات ، وهي السيطرة التي حققها نتيجـــة للضربة الجوية المفاجئة للاسلحة الجوية العربية على الارض ٠ وفاقم مـــن نتائج هذه العوامل الاضطراب المعنوي الذي لحق القيادات العسكرية العربية، اثر الضربة الجوية الاولى ، وجعلها تسرع بالتفكير في الانسحاب الاستراتيجي وترك قوات النسق الاول تواجه مصيرها ، فضلا عن عجز هذه القيادات فـــي ادارة العمليات وتحريك الاحتياطيات في الوقت والمكان المناسبين وبالكفـــاءة اللازمة ، ضمن ظروف الحرب القصيرة ٠ ولذلك حقق العدو الاسرائيلي تفوقا كميا واضحا في الجبهة المصرية . اذ ضمت الفرق الثلاثية ( الاوغدات ) ، التي حققت الخرق الرئيسي الاول فيما بين قطاع غزة ــ رفح » و « ابو عجيلـــة » بشمال سيناء ، نحو ٧ ألوية مدرعة ( ٥ منها في شكل ألوية متكاملة والباقـي كتائب دبابات ومشاة ميكانيكية مستقلة ) ، و نحو ٤ ألوية مشاة ومظلييـــن أو اكثر قليلا ( بخلاف نحو ٣ ألوية مشاة اخرى كانت مكلفة بمهام دفاعية في المستعمرات وطرق المواصلات ) ٠ مقابل نحو ٥ الوية مشاة ( ٤ مصرية وواحد جيش تحرير فلسطيني ) وما يوازي لواء مدرعا او اكثر قليلا ، كانت موزعـــة في قطاع « غزة » و « رفح » و « الشيخ زويد » و « ابو عجيلة » والمواقع القريبة منها ٠ وهكذا توازت تقريبا قوات المشاة لدى الطرفين ، وفقد الجيش المصري ميزة التوازي في اجمالي تشكيلاته المدرعة وعدد دباباته المحتشـــدة في سيناء ، وحقق الجيش الاسرائيلي نسبة تفوق في المرحلة الاولى والحاسمة في القتال بلغت نحو ٧ الى ١ في المدرعات ٠

وفي حرب ١٩٧٣ تغيرت الصورة بعض الشيء لصالح العرب ٠ فقد كـــان لدى الجيش الاسرائيلي ، بعد ٧٢ ساعة من التعبئة ، نحو ٢٧٥ الف جنـــدي مقاتل ، موزعين على ١٨ ــ ٢٠ لواء مدرعا و ١٠ ألوية ميكانيكية و ٩ ألويـــة

مشاة و ٥ ألوية مظليين ، عدا تشكيلات المدفعية (١١) · اي ما مجموعه نحو ٤٤ لواء ، بالقياس الى نحو ٣٨ لواء عام ٦٧ ، ومن الواضح ان الفارق الرئيسي بين الحربين هو في زيادة عدد الالوية المدرعة والمظليين على حساب نقص ألوية المشاة العادية · وذلك في مقابل نحو ٢٦٠ الف جندي مقاتل مصري موزعين على نحو ٩ ألوية مدرعة و ٨ ألوية مشاة ميكانيكية و ١٢ لواء مشاة ولوائي مظليين ونحو ٨ـ٩ ألوية مغاوير ( صاعقة ) ، ولواء انزال بحري ، (١٢) عدا تشكيلات المدفعية ، اي ما مجموعه نحو ٣٩ لواء ، ولواء فلسطيني واخر كويتي ·وكان لدى الجيش السوري حوالي ١٢٠ الف جندي مقاتل ، موزعين على نحو ٩ ألوية مدرعة و ٦ ألوية ميكانيكية و ٧ ألوية مشاة ولوائي مغاوير، عدا المدفعية ، اي ما مجموعه ٢٤ لواء (١٣) ·

وقد ارسلت العراق اثناء القتال قوة ضمت ٤ ألوية مدرعة ولوائين ميكانيكيين ولواء مشاة ولواء مغاوير ، اي ما مجموعه ٨ الوية · كما ارسلت الاردن لواء مدرعا ، وكان هنالك لواء مشاة مغربي · اي ان الجبهة السورية اشترك فيها من الجانب العربي ١٤ لواء مدرعا و ٨ ألوية ميكانيكية و ٩ ألوية مشاة و ٣ ألوية مغاوير ، عدا المدفعية · اي ما مجموعه ٣٤ لواء ، وبهذا يكون العرب قد شاركوا في حرب ١٩٧٣ بنحو ٧٥ لواء مقابل نحو ٤٤ لواء اسرائيليا ·

وبطبيعة الحال لو تجمعت كل هذه القوى في وقت مناسب ، وحشدت وحركت بطريقة افضل طوال مراحل القتال ، لكان تأثيرها افضل بكثير على نتائج الحرب الاخيرة · ولكن هذه التجربة العربية ، رغم ما شابها من نواقص ، جسدت لاسرائيل خطر حرب عربية جديدة في المستقبل تتم على مختلف الجبهات في وقت واحد ، ومن ثم جسدت خطر « الكم » العربي المتفوق مقابل ما تسميه اسرائيل « بالكيف » المتفوق · ولذلك عملت القيادة العسكرية الاسرائيلية بصورة محمومة على زيادة حجم القوات البرية ، من حيث عدد الافراد ، ومن حيث عدد التشكيلات المقاتلة ، الى اقصى حد تسمح به طاقتها البشرية ، وقدرتها على استيعاب الاسلحة والمعدات · ولذلك اصبح عدد الجيش الاسرائيلي القابل للتعبئة خلال ٤٨ ـ ٧٢ ساعة ، عام ١٩٧٧ نحو ٣٧٥ الف جندي (١٤) ، ويرتفع العدد عند استكمال التعبئة تماما الى نحو ٥٨٩ الفا ، يضمون الوحدات الادارية وكل الاحتياطي · اي ان قوات الصف الاول بالجيش زادت عدديا بنسبة ٣٦ر٣٦٪ عما كانت عليه عام ١٩٧٣ ·

وتقدر التشكيلات المقاتلة الاسرائيلية في اواخر العام ١٩٧٧ بنحو ٢٤ لواء مدرعا و ١٢ لواء ميكانيكيا و ٩ الوية مشاة و ٦ الوية مظليين ( عدا الوية المدفعية التسعة ) ، اي ما مجموعه نحو ٥١ لواء ، بخلاف المدفعية · (١٥)

وتأتي هذه الزيادة في الطاقة البشرية الاسرائيلية ، من الغاء اعفاء نحـو ١٤٧ الف شخص من الخدمة العسكرية ، وتجنيد نحو ٢٥ الفا من اليهـود المقيمين في الولايات المتحدة وكندا ، الذين كانوا قد خدموا في الماضي في الجيش الاسرائيلي ، وزيادة مدة الخدمة العسكرية للنساء من ٢٠ الى ٢٤ شهرا ٠

وبطبيعة الحال فان هذه الزيادة في القوة البشرية انما تمت على حساب النوعية ، التي ستتدنى نسبيا بالضرورة ، نظرا للتخفيف الشديد في شروط اللياقة الصحية والنفسية المطلوبة للمجندين وارتفاع سن المجندين الاحتياطيين٠ وقد اشار « زئيف شيف » الى هذه المسألة فقال في « هآرتس » يوم ٢٨ـ١٠ـ٧٤ « تقرر الان العودة الى التدقيق في وضع عشرات الالاف من المعفيين من الخدمة ، كما تقرر زيادة التشديد في عملية التصفية ٠٠٠ ومن بين الوسائل التي ستتخذ بهذا الصدد ، تغيير نظام اللياقة الطبية في الجيش ٠ فحتى الفترة الاخيرة ، كانت هناك ثلاث مجموعات من اللياقة الطبية : المجموعة العليا ، وهي ما فوق ٨٢ ، وجهت كلها الى الوحدات الميدانية ٠ والمجموعة الثانية ، وكانت توجه الى الخطوط الخلفية ٠ والمجموعة الثالثة المنخفضة ، وكانت توجه الى الخدمات ٠ وستكون هناك الان مجموعتان فقط ، بحيث يوجه كل الذين تزيد لياقتهم على ٦٥ الى الوحدات الميدانية » (١٦) واشار الى المسألة ذاتها الكاتب البريطاني « مارتن فان غريفيلد » في مقاله عن « القوات الاسرائيلية ١٩٧٣ ـ ١٩٧٥ » المنشور في مجلة « روسي » انه « كان من الضروري ، في جميع تشكيلات الجيش ، تخفيض مستوى الكفاءة المطلوبة في المجندين حتى يمكن تجنيد مزيد من الرجال ٠ وحتى في سلاح النخبة ، اي طياري القوة الجوية ، اضطر السلاح الى تخفيض مستوى اللياقة ، على الاقل لفترة مؤقتة » ٠ (١٧) وستكون لهذه الزيادة في القوة البشرية ، والتشكيلات المقاتلة ، الاسرائيلية تأثيرها الفعال على ميزان القوى بين اسرائيل وأي من دول المواجهة العربية على حدة ، من حيث ضمان تفوق كمي له اهميته ٠ ولكن هذا التفوق سيفقد جانبا كبيرا من اهميته في حال وجود تعاون عسكري فعال بين دول المواجهة الثلاث ، وتقل اهميته اكثر اذا ما نجحت جميع الدول العربية في حشد طاقتها العسكرية بصورة ملائمة من حيث الزمان والمكان ووحدة القيادة ٠ وهو أمر بعيد الاحتمال ضمن الاوضاع السياسية العربية الحالية ، بل ان تعاون دول المواجهة ذاتها اصبح مسألة غير واردة عمليا حتى الان ، ولذلك فان مسألة زيادة القوة البشرية العسكرية الاسرائيلية يجب ان تحتل جانبا هاما من حسابات التخطيط الاستراتيجي لكل دولة من دول المواجهة العربية ، وتؤخذ بجدية كاملة في حساب ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي ، وفي السعي لايجاد توازن استراتيجي فعال لصالح

الجانب العربي الراغب في الاستمرار في المواجهة ٠

## زيادة حجم التسليح ورفع نوعيته :

ولم تقتصر جهود القيادة العسكرية الاسرائيلية منذ نهاية حرب ١٩٧٣ على زيادة حجم القوى البشرية ، وانما كان لا بد لها ايضا كنتيجة منطقية لزيادة حجم الجيش والطيران والبحرية ، من أن تزيد حجم الاسلحة والمعدات وترفع من نوعيتها قدر الامكان ، كي تزيد من قوة النيران والقدرة الحركية لقواتها . بالقدر الذي يسد ، الى حد ما ، من الثغرة القائمة بين القوة المسلحة الاسرائيلية وقوات دول المواجهة العربية على الاقل من حيث الكم ٠ ولرفع كفاءة اداء هذه القوة بما يتلاءم والنواقص والخبرات التي كشفت عنها حرب « يوم الغفران »٠ وتم للقيادة الاسرائيلية تنفيذ الجزء الاكبر من مخططاتها في اعادة بناء وتطوير قواتها المسلحة بفضل المساعدات العسكرية ،والمالية الضخمة التي وفرتها لها الولايات المتحدة الاميركية بصورة اساسية ، وبعض الدول الغربية الاخرى ٠ ولذلك أمكن لاسرائيل ان تنفق على قواتها المسلحة ومتطلباتها الدفاعية خلال عام ١٩٧٤ مبلغ ٣٫٨٦٩ مليون دولار ، و ٣٫٥٥٢ مليون دولار عام ١٩٧٥ ، و ٤٫٢١٤ مليون دولار عام ١٩٧٦ ، و ٤٫٢٦٨ مليون (١٨) دولار عام ١٩٧٧ ٠ وشكلت هذه المبالغ نسبة كبيرة من نفقات الحكومة الاسرائيلية قدرت بنحو ٥١٪ و ٥٠٫١٪ و ٥٦٫٧٪ و ٣٢٫٤٪ (١٩) على توالي السنوات ٧٤ ـ ١٩٧٧ ٠ وهذه النفقات تمثل نسبا عالية من اجمالي الناتج القومي لاسرائيل تقدر بنحو ٣١٫٨٪ عام ٧٤ و ٣٥٫٩٪ عام ٧٥ و ٣٥٫٣٪ عام ٧٦ ( ولا تزال نسبة عام ٧٧ غير معروفة ) ٠ واذا تذكرنا ان عدد سكان اسرائيل صغير ويقارب نحو ثلاثة ملايين ( من اليهود ) ، يتضح لنا مدى كثافة الانفاق العسكري بالنسبة للفرد الواحد ، والذي قدر بنحو ١٫١٧٣ دولارا عام ٧٤ و ١٫٠٤٥ عام ٧٥ و ١٫٢٠١ (٢١) عام ٧٦ و ١٫١٧٨ عام ٧٧ ، بالقياس لنسبة الانفاق المماثلة لدى دول المواجهة ٠ اذ أن نصيب الفرد الواحد من النفقات العسكرية في مصر بلغ في سنوات ٧٤ـ٧٧ نحو ١١١ و ١٦٣ و ١٢٨ و ١١٢ دولارا على التوالي ، وبلغ في سوريا خلال الفترة ذاتها نحو ٦٤ و ٩٦ و ١٣٢ و ١٣٧ دولارا على التوالي ، وبلغ في الاردن ٥٤ و ٥٧ و ٥٥ و ٦٩ دولارا على التوالي خلال السنوات المذكورة ٠ (٢٢) وفي الوقتنفسه فان صغر حجم الجيش العامل في اسرائيل ، بالقياس لحجم الجيش العامل في دول المواجهة ( خاصة مصر وسوريا ) ، يتيح للقيادة الاسرائيلية امكانية انفاق نسبة اكبر من نفقاتها العسكرية على التسلح والتدريب ، عن تلك التي تنفقها جيوش دول المواجهة ، الامر الذي يساعد اسرائيل على زيادة قوتها النارية وحركية قواتها

وارتفاع مستوى كفاءتها ، وان كانت هذه الميزة قد تأثرت الى حد ما حاليا بازدياد نسبة عدد الجيش العامل الى الجيش الاحتياطي ، عما كانت عليه الحال قبيل حرب ٧٣ ، وكذلك بازدياد فترات تدريب الاحتياطي الدورية ، لرفع كفاءته ومواجهة متطلبات استيعابه للاسلحة والمعدات المتطورة الحديثة ، وايضا نتيجة لزيادة نسبة الانفاق على صيانة الاسلحة والمعدات والمركبات ، عما كان عليه الحال قبل حرب ٧٣ ، لضمان كفاءة وسرعة استخدام قوات الاحتياطي بفاعلية ، منعا لتكرار نواقص الحرب المذكورة · ورغم ذلك كله يبقى لكثافة الانفاق العسكري الاسرائيلي على التسليح والتدريب اهميته الكبيرة ، خاصة وأن ضخامة المساعدات المالية والاقتصادية الاميركية عقب حرب ٧٣ تعوض الكثير من نتائج الاعباء الجديدة التي اشرنا اليها آنفا ·

١ ـ **القوة الجوية** : وفي النتيجة ، ودون الدخول في تفاصيل صفقات الاسلحة المختلفة التي حصلت عليها اسرائيل من الولايات المتحدة وبريطانيا وهولندا خلال حرب ٧٣ والسنوات الاربع التي تلتها ، ارتفع عدد طائرات القتال لدى السلاح الجوي الاسرائيلي عام ١٩٧٧ الى نحو ٦٨٠ طائرة ، (٢٣) منها ٢٥ « ف ـ ١٥ » و ٢٥٠ « فانتوم » و ١٠٠ « كفير » » و ٣٠ « ميراج ـ ٣ » ، مطورة في اسرائيل وتعرف باسم « نيشر » ، و ٢٧٥ « سكاي هوك » · وتستطيع هذه القوة تركيز قوة نيران تبلغ في مجموعها نحو ٢٩٨٨ طنا من القنابل في الطلعة الواحدة ، في حالة القصف الجوي بالحمولة القصوى ، و ١٩٦٠ صاروخ جو ـ جو في الطلعة الواحدة ، في حالة الاعتراض الجوي · ولما كان السلاح الجوي الاسرائيلي في ١٩٧٣ يمتلك نحو ٣٦٥ طائرة قتال تضم نحو ١٤٠ « فانتوم » وحوالي ١٦٥ « سكاي هوك » ونحو ٦٠ « ميراج ـ ٣ » ( عدا الطائرات القديمة من انواع « ميستير ـ ٤ » و « سوبر ميستير » و « فوتور ـ ٢ » و « اورغان » وعددها حوالي ٨٠ طائرة ، نظرا لانها كانت تستخدم في التدريب اساسا وتعتبر خارج الخدمة ) ، وكانت الطاقة النارية لهذه القوة الجوية تبلغ في حالة القصف الجوي بحمولة قصوى نحو ١٧١٨ طنا من القنابل في الطلعة الواحدة ، ونحو ٩٦٠ صاروخا جو ـ جو في حالة الاعتراض الجوي · وهذا يعني ان قوة الطيران الاسرائيلي قد زادت خلال السنوات ٧٣ ـ ٧٧ بنسبة ٣٠ر٨٦٪ في عدد طائرات القتال ، وبنسبة ٩٢ر٧٣٪ في قوة نيران القصف الجوي بالحمولة القصوى ، وبنسبة ١٦ر١٠٤٪ في حالة الاعتراض الجوي بصواريخ جو ـ جو · وفي الوقت ذاته تطور تسليح الطائرات الاسرائيلية من حيث القدرة على اصابة الاهداف من بعيد ، نظرا لحصولها على صواريخ جو ـ أرض يجري توجيهها من مسافة معينة تقلل نسبة اصابتها بالاسلحة الارضية المضادة للطائرات ، مثل صاروخ « مافريك » الموجه تلفزيونيا والذي يقدر مداه الاقصى بنحو ٢٢ كلم ، وصاروخ «ستاندارد

آرم » اللاحق للاشعاعات الرادارية والذي يبلغ مداه ٢٥ كلم ، وتستخـــــدام الصاروخين طائرات « الفانتوم » و « سكاي هوك » و « ف ــ ١٥ » ٠ كمـا أن الطيران الاسرائيلي حصل على قنابل موجهة من نوع « هوبو » الذي يتـــم توجيهه بواسطة اشعة ليزر ، واخرى من نوع « وول آي » الذي يتم توجيهـــه تلفزيونيا ، وكل هذه الصواريخ والقنابل الموجهة حصلت عليها اسرائيل اثنـاء وبعد حرب ١٩٧٣ لتواجه بها مشكلة الصواريخ ارض ــ جو العربية مـــن مسافات آمنة نسبيا ، ولتتوفر للطيران الاسرائيلي قدرة اكبر على الاصابـــة الدقيقة للاهداف الهامة ٠ كما تزايدت قدرة تسليح الطيران الاسرائيلي نوعيا في مجال الاسلحة المضادة للافراد ، بعد أن ضمت ترسانته انواعا مختلفـــة من القنابل العنقودية ، وكذلك على القنابل الارتجاجية ، التي تزيد من قدرتـه على قتل الافراد ، وشل فاعلية بطاريات الصواريخ أرض ــ جو ، والصواريخ المضادة للدبابات ، والتفوق الكمي للمدفعية العربية ٠ وكل ذلك التسليـــح الحديث ، الذي وفرته الولايات المتحدة ، يزيد كثيرا ، من الناحية النوعيـة ، من اهمية الزيادة الكمية في قوة نيران القصف الارضي التي لحقت الطيـران الاسرائيلي ، ويعطيها مدلولا اعمق من مجرد نسبة الزيادة المئوية التي اشرنا اليها ٠

وقد ارتفعت كفاءة الطيران الاسرائيليمن حيث سرعة تصديه للغـــارات العربية المحتملة نتيجة لتزوده بنظام حديث للانذار الجوي المبكر ، قائم عـلى ٤ طائرات من طراز « اي ــ ٢ هوك آي » المجهزة برادار طائر ، والقادرة عـلى رصد الطائرات المعادية من مراحل مبكرة حتى لو كانت تطير على ارتفاعـــات منخفضة ، وتبليغ مراكز قيادة الدفاع الجوي عنها ، ثم توجيه الطائـــــرات المعترضة اليها ، ولذلك تلعب دور غرفة العمليات الجوية ايضا ٠ وبهـــذا اصبح الطيران الاسرائيلي اكثر قدرة على التعامل مع اعداد كبيـــرة مـــن الطائرات العربية ، على خلاف ما كشفت عنه خبرة حرب ١٩٧٣ ، حيث ثبـت ان نظام الدفاع الجوي الاسرائيلي « كان معرضا بسهولة للوصول الى نقطـة يصبح بعدها يعمل بما يفوق طاقته القصـــوى ، نظرا لافتقـــار الطياريـــن الاسرائيليين الى القدر الكافي من التحكم والانذار اللازمين لهم » ٠ كما أدت زيادة طائرات الاستطلاع الالكتروني ، وطائرات التشويش الالكتروني ، وطائرات الاستطلاع والتشويش الالكتروني بدون طيار من نوعي « فايربي » و « تشوكار»، الى زيادة قدرة الطيران الاسرائيلي الهجومية الى حد كبير ، خاصة مـــع وجود طائرتي « بوينغ ــ ٧٠٧ » تعملان كمراكز قيادة جوية طائرة ، قـــادرة على استخدام معلومات الاستطلاع المختلفة بسرعة وفاعلية ، وتوفير مسانـدة للطيارين في الطيران الهجومي عبر ممرات اختراق آمنة نسبيا داخل شبكـــة الدفاع الجوي المعادية ٠ وهو درس هام اخر اكدته خبرة حرب ٧٣ المريـــرة

بالنسبة للطيران الاسرائيلي · ونتيجة لان الطيران المذكور اصبح يمتلك ١٠ طائرات تزويد جوي بالوقود ، من انواع مختلفة ، فقد تزايدت قدرة الهجوم الجوي الاسرائيلي في العمق الاستراتيجي العربي ، وخاصة فوق البحر الاحمر ، وضد تحركات قوات دول العمق العربي ، وكذلك ضد منابع النفط في عديد من الدول العربية عند الضرورة · وفي الوقت نفسه جرى ، ويجري تطوير مختلف انواع الاجهزة الالكترونية واجهزة الاتصال في الطائرات المقاتلة لرفع كفاءة ادائها · كما زادت قدرة النقل الجوي لدى الطيران الاسرائيلي ، بعد ان اصبح لديه نحو ١٠٥ طائرة (٢٤) نقل من مختلف الانواع ( ٤ منها «بوينغ ــ ٧٤٧ » و ٦ « بوينغ ــ ٧٠٧ » و ٢٤ «سي ــ ١٣٠ » هيركوليز الخ ) ، ويزيد ذلك التطور من قدرة الطيران المذكور على نقل الامدادات من الخارج اثناء الحرب ، ومن قدرة تنفيذ اغارات فدائية في العمق ، وتعزيز عمليات القوات المحمولة جوا بصفة عامة ، ودعم قدرة الدعم اللوجستيكي للقوات المدرعة والميكانيكية المتقدمة في العمق العملياتي ·

هذا فضلا عن زيادة عدد ونوعية طائرات الهليكوبتر الموجودة لدى الطيران الاسرائيلي بدرجة ملحوظة ، اذ انه يمتلك نحو ٢٦٠ (٢٥) طائرة هليكوبتر مقابل ٧٢ طائرة كانت لديه عشية حرب ١٩٧٣ · وتتضمن هذه القوة الحالية نحو ١٨ طائرة هليكوبتر مقاتلة « بل ــ ٢٠٩ » ( كوبرا ) المسلحة بصواريخ م/د من طراز « تاو » وبرشاشات ، الامر الذي يوفر قدرة فعالة للطيران الاسرائيلي في مهاجمة المدرعات العربية ، وذلك الى جانب طائرات « بل ــ ٢٠٥ و ٢٠٦ » و « الويت ــ ٢ و ٣ » المسلحة بصواريخ م/د « س س ــ ١١ » ·

وتوفر قوة الهليكوبتر هذه قدرة كبيرة للطيران الاسرائيلي على تنفيذ مختلف انواع العمليات المحمولة جوا ، وباحجام كبيرة نسبيا من القوات ، فضلا عن مختلف عمليات الدعم اللوجستيكي الميداني وعمليات اخلاء الجرحى ، وانقاذ الطيارين ، وملاحظة المدفعية ، خاصة وان قوة الهليكوبتر هذه تضم ٤٥ طائرة من نوع « س ــ ٦٥ » ( تحمل الواحدة ٦٤ جنديا او ٢٤ حمالة طبية او ١٠ اطنان معدات ) و ٢٤ طائرة « س ــ ٦١ » (٣٠ جنديا او ١٥ حمالة ) بالاضافة الى ١٢ طائرة « سوبر فريلون » ( ٢٨ جنديا او ١٥ حمالة ) و ٨ طائرات « شينوك » ( ٤٤ جنديا او ٢٤ حمالة او ١٠ اطنان ) ، والطائرات الاخيرة تستطيع ان تحمل صاروخ أرض ــ أرض من طراز « لانس » مع جهاز اطلاقه وطاقمه ، الامر الذي يوفر لسلاح المدفعية الاسرائيلي قدرة كبيرة على المناورة بهذه الصواريخ العملياتية ويمكنه من التسلل بها ، في بعض الحالات، لضرب اهداف تبعد عن مداها الاصلي في حالة اطلاقها من داخل الخطوط الاسرائيلية ·

بالاضافة الى ٧٥ طائرة « بل ـ ٢٠٥ » و ١٢ طائرة « بل ـ ٢١٢ » ( وكل منهما تستطيع ان تحمل ١٢ جنديا ) ، اي ان قوة الهليكوبتر الاسرائيلية تستطيع ان تنقل نحو ٥٣٣٢ جنديا في الطلعة الواحدة · على حين أن القوة المذكورة عشية حرب ١٩٧٣ ( ٢٤ طائرة « س ـ ٦١ر » » و ٣٠ « بل ـ ٢٠٥ » و ١٢ « سوبر فريلون » ، و ٢٠ « الويت ٢ و ٣ » لم ندخلها في حساب نقل الجنود ) كانت تستطيع نقل نحو ١٤١٦ جنديا فقط ! اي ان قوة النقل المذكورة باتت تفوق ٣ر٥ مرة عما كانت عليه !

٢ ـ **القوة المدرعة :** اما بالنسبة للقوات المدرعة ، التي تشكل الجزء الرئيسي والاكثر اهمية في القوات البرية الاسرائيلية ، فقد زاد عدد دباباتها في العام ٧٧ ـ ٧٨ الى نحو ٣٦٠٠ دبابة (٢٦) ، بعد ان كان حوالي ٢٤٠٠ دبابة عشية حرب ١٩٧٣ ، وذلك رغم خسائر الحرب التي قدرت بنحو ٨٤٠ دبابة ( وفقا لتقدير وزارة الدفاع الاميركية ، التي عادت وقالت ان خسائر الدبابات الفعلية ٤٢٠ دبابة نتيجة لاصلاح بعض الدبابات المعطوبة ) · وهذا معناه زيادة بنسبة نحو ٥٠٪ في عدد الدبابات عما كان عليه الوضع عام ١٩٧٣ ·

وفي الوقت نفسه زاد عدد ناقلات الجنود المدرعة من نحو ٣٠٠٠ عربة عام ٧٣ الى نحو ٤٥٠٠ عربة عام ٧٧ـ٧٨ وهذا معناه زيادة بنسبة ٥٠٪ ايضا · وزيادة القدرة الحركية القتالية للجيش الاسرائيلي المتمثلة في الدبابات والمشاة الميكانيكية المرافقة لها ·

كما زاد عدد المدافع ذاتية الحركة ، المصاحبة للالوية المدرعة والميكانيكية، من نحو ٤٠٠ مدفع عام ٧٣ الى حوالي ٧٠٠ مدفع عام ٧٧ـ٧٨ ، اي ان نسبة الزيادة بلغت نحو ٧٥٪ ، وهذا يؤكد مقولة زيادة القدرة النارية والحركية للقوات المدرعة والميكانيكية الاسرائيلية ، أي زيادة القدرة الهجومية للجيش الاسرائيلي ·

وفي الوقت نفسه اجريت تطويرات وتعديلات في الاجهزة والمعدات والمحركات الخاصة بالدبابات ، وناقلات الجنود القديمة من نوع « م ـ ٣ » نصف المجنزرة، لتجنب العيوب التي كشفت عنها حرب ٧٣ ، ولتوحيد معظم قطع الغيار بالنسبة للدبابات من نوعي « باتون » و « سنتوريون » · كما طورت وسائل الصيانة الخاصة بها ، ورفعت جاهزيتها للقتال من خلال تنظيم الصيانة الدورية لاسلحة ومعدات الوحدات الاحتياطية · وطورت معدات هندسية اخرى ، يجري تركيبها على الدبابات ، بعضها لتسهل اجتيازها لحقول الالغام ، وبعضها لتسهيل الحركة في الارض الوعرة · وكذلك جهزت الدبابات بمعدات الرؤية الليلية ، ومعدات احدث للتصويب الدقيق الخ ، مما يزيد من كفاءة استخدام المدرعات ويرفع من قدراتها القتالية ·

**٣ ـ سلاح المدفعية والاسلحة الاخرى :** وقد لقــي سلاح المدفعية الاسرائيلي اهتماما متزايدا عقب حرب ٧٣ ، التي كشفت عن خطورة الاعتماد على الطيران كمدفعية جوية في مساندة المدرعات والمشاة في الميدان ، نظرا لتطور الدفــاع الجوي العربي ونجاحه ، الى حد كبير ، في عزل ثنائي « الطائرة ـ الدبابة » عن بعضها البعض في كثير من الحالات • ولذلك عمدت قيادة الجيش الاسرائيلي على تطوير سلاح المدفعية ، كما ونوعا وتنظيما وتدريبا وتجهيزا بالمعــــدات والذخيرة ، وشكل ذلك التطوير احد اسباب زيادة عدد افراد الجيش ، فقــد ارتفع عدد المدافع ذاتية الحركة من نحو ٤٠٠ مدفع الى ٧٠٠ مدفع ، وعــدد المدافع المقطورة من نحو ٢٥٠ مدفعا الى حوالي ٥٠٠ مدفع ، وعدد الهاونــات الثقيلة عيار ١٢٠ مم و ١٦٠ مم من نحو ٥٥٠ مدفعا الــــى حوالــــي ١٠٠٠ مدفع ، (٢٨) فضلا عن راجمات الصواريخ ، ومئات من المدافع م/د و م/ط • اي ان اجمالي مدافع الميدان والهاوتزر والهاونات الثقيلة قد ارتفع عددها مــن نحو ١٢٠٠ قطعة في العام ٧٣ الى حوالى ٢٢٠٠ قطعة في العام ٧٧ ــ ٧٨ ( عدا راجمات الصواريخ غير المعروف عددها لان معظمها من غنائم حرب ٦٧ ) ، اي بنسبة نحو ٨٣٫٣٪ ، وانعكس ذلك النمو الكبير في عدد قطع المدفعية عــلى عدد تشكيلات المدفعية المستقلة عن الالوية والوحدات الاخرى ، اذ ارتفع عــدد الوية المدفعية من ٣ ألوية عام ٧٣ الى ٩ ألوية عام ١٩٧٧ •

وفي الوقت نفسه دخلت على سلاح المدفعية انواع جديدة من الاسلحـــــة مثل الطراز المعدل من المدفع « م ــ ١٠٩ » عيار ١٥٥ مم ذاتي الحركـــــة ذي السبطانة الطويلة والمدى الابعد من النوع الاصلي ( وهو مدفع اميركي زود به الجيش الاسرائيلي عقب حرب ٧٣ وظهرت صور له في عدوان جنوب لبنـــان عام ٧٨ ) ، ومثل صواريخ ارض ــ ارض من طراز « لانس » المتوسطة المدى ( نحو ١١٠ كلم ) ، والتي يوجد منها حاليا نحو ١٠٩ صواريخ ، فضلا عن احتمال زيادتها حتى ٤٠٠ صاروخ موزعة على ٤ كتائب صواريخ حتــــى العــــام ١٩٨٠ (٢٩) ، وقد يتم تزويدها برؤوس حربية « عنقودية » من طراز « اكســ م ــ ٢٥١ (٣٠) » ، ويمكن تسليحها برؤوس نووية عند الضرورة • وفي الوقت ذاته طورت اسلحة الدفاع المضاد للطائرات في السلاح المذكور ، فأدخلـــت ضمنها مدافع « فولكان » الرشاشة سداسية السبطانة والموجهـــة بالـــرادار ( المقابل الاميركي للرشاش الرباعي « شيلكا » الموجه بالرادار الذي اثبـــت فاعليته في حرب ٧٣ ) ، وصواريخ « تشابارال » المضادة للطائرات الموجهـة بالاشعة تحت الحمراء والقصيرة المدى ، وصواريخ ، « ردآي » التي تطلق من فوق الكتف ضد الطائرات ، وكلها اسلحة لتطوير الدفاع الميداني م/ط ، جرى الحصول عليها من الولايات المتحدة الاميركية بعد أن ثبتت فاعلية رشاشــات « شيلكا » وصواريخ « سام ٧ » في حرب ٧٣ كما حصل الدفاع الجوي عــلى

صواريخ « هوك » المطورة ، وشكلت جزءا من ١٥ بطارية صواريخ لديه · (٣١) كما زادت الاسلحة م/د وتطورت نوعيتها ، فادخلت صواريخ « تاو » و « دراعون » المضادة للدروع ، وكثرت طائرات الهليكوبتر المسلحة بالصواريخ م/د وتطورت نوعيتها ( مثل الطائرة « كوبرا » والطائرة هيوز ٥٠٠٠ التي ستحصل عليها اسرائيل قريبا لانها اقل كلفة من « كوبرا » بحكم انها اقل نوعية ) · وقد القى قائد المدفعية الاسرائيلية عام ٧٥ ، العميد ثاني « ناتان شاروني » بعض الاضواء على تطور المدفعية ، في حديث نشرته « دافار » في ٢-٥-٧٥ قال فيه « لقد كان معدل زيادة سلاح المدفعية اسرع مما كان مقررا له سابقا ·· ·ووفقا لهذا ازداد حجم القوات في هذا السلاح ، واضيفت اليه معدات ووسائل جديدة · كما تضاعف مخزون الذخيرة ، وادخلت كميات كبيرة من الاسلحة التي اخذت كغنائم في سلاح المدفعية ··· كما ادخلت على هذا السلاح تغييرات تتعلق بالشؤون الادارية ، بهدف تأمين وصول الذخيرة ، والصيانة الجيدة للمعدات · كما ادخلت وسائل مساعدة حديثة للغاية في الخدمة ، وذلك مثل الحاسبات الالكترونية التي تستعملها الوحدات في الميدان وعلى ارض المعركة ذاتها ·

اما بالنسبة لوسائل الاتصال الخاصة بالوحدات ، فقد ادخلت عليها تعديلات وتحسينات · وكذلك الحال بالنسبة للآليات التي تنقل وحدات اسناد سلاح المدفعية ، فقد جهزت كلها بحيث تلبي متطلبات الحركة في مختلف الظروف الارضية التي تصادفها على الجبهة · وسلح جنود المدفعية بأسلحة تصلح للدفاع عن موقع وبطاريات مدافعهم » · كما تم تدريب عدد كبير من الضباط والجنود المسؤولين عن تهديف المدفعية وادارة النيران ، بعد ان كشفت حرب ٧٣ عن وجود نقص في هؤلاء الفنيين ، وضعف مستوى تدريب العديد منهم ·

هذا وقد جرى تطوير قدرات سلاح الهندسة الميدانية ، بحيث اصبح اكثر قدرة وسرعة على ازالة الموانع الهندسية ، وفتح ممرات واسعة في حقول الالغام ، والتغلب على التحصينات القوية ، وشق الطرق والممرات ، وتجهيز وسائل عبور الموانع المائية ، فقد ثبت خلال حرب ٧٣ ان قدرات الهندسة القتالية للقوات الاسرائيلية « كانت سيئة التنظيم ، والعناصر الرئيسية فيها لم تختبر مطلقا على نحو جيد في الميدان ، والمعدات الاساسية ، مثل المعدات الخاصة بعبور القناة . فشلت في أوقات حرجة من القتال » ·

وبذلك تزايدت القدرة الهجومية للجيش الاسرائيلي ، نظرا لزيادة قدرته على اختراق التحصينات ، والموانع الهندسية والمائية ، واجتياز الارض الوعرة، وتوفر المعدات والخبرات اللازمة لانجاز هذه المهام في اسرع وقت ممكن · وفي الوقت ذاته جرى ، ويجري ، تطوير معدات ووسائل الاتصال ، من لاسلكي ،

وتليفونات ميدانية ، واجهزة مد خطوط الهاتف ( اصبحت هناك اجهزة مد خطوط للهاتف الميداني بواسطة طائرات هليكوبتر ) ، وبذلك تتوفر للقيادات العسكرية قدرات افضل على ادارة العمليات وسرعة تحريك القوات ، مما يزيد قدرتها الهجومية · ومن ابرز التطورات التي لحقت القوات المسلحة الاسرائيلية، بصفة عامة ، عقب حرب ٧٣ ، تزايد مخزون الذخيرة لديها ، بحيث اصبح يكفيها لمدة ٣٠ يوما على الاقل في ظروف حرب شاملة جديدة · وتوفر حد ادنى من الاسلحة والمعدات الاحتياطية ، لمواجهة الخسائر المتوسطة دون الحاجة الى استيراد اسلحة ومعدات من الخارج ، او مد جسر جوي خارجي ، في وقت قصير اثر نشوب القتال ، كما حدث عام ٧٣ ، وذلك بهدف توسيع هامش حرية الحركة السياسية والعسكرية الاسرائيلية ، الى حد ما ، ودعم استقلاليتها نسبيا · وتوضح ارقام الدبابات ، مثلا ، التي يملكها الجيش الاسرائيلي ، هذه الحقيقة ، ذلك ان كمية الـ ٣٦٠٠ دبابة الموجودة لديه تسمح له بتوفر احتياطي من الدبابات قدره نحو ١٢٤٨ دبابة وذلك على اساس تسليح كل من الالوية المدرعة الـ ٢٥ بنحو ٨٠ دبابة ، وكل من الالوية الميكانيكية بنحو ٣٦ دبابة ، اذ يصبح مجموع الدبابات اللازمة لتسليح الالوية الـ ٣٦ المذكورة هو ٢٣٥٢ دبابة · اما في حالة تسليح الالوية المدرعة بنحو ١٠٠ دبابة والالوية الميكانيكية بـ ٤٠ دبابة ، فان اجمالي الدبابات اللازمة لتسليح الالوية المذكورة يصبح ٢٨٨٠ دبابة ، ومن ثم يكون الاحتياطي المتبقي هو ٧٢٠ دبابة ، وهو رقم مقارب لخسائر حرب ١٩٧٣ ·

وتحاول اسرائيل ايضا زيادة قدرات صناعتها العسكرية ، بحيث تلبي الجزء الاكبر من متطلبات ذخيرة قواتها ، والكثير من قطع الغيار ، وبعض الاسلحة الجوية ( طائرات « كفير » وطائرات النقل الخفيفة « عرفا » الخ ) ، وبعض الاسلحة البرية ( الهاونات والمدافع عيار ١٥٥ مم ودبابات « ميركفاه » الخ ) وبعض الاسلحة البحرية ( زوارق الصواريخ « ريشيف » وزوارق الدورية « دبور » والصواريخ « غبريئل » الخ ) والمعدات الهندسية والالكترونية ، وذلك بهدف تقليل اعتمادها على الخارج قدر الامكان ، ولكن ذلك لا يعني امكان تخلي اسرائيل عن الدعم العسكري الاميركي ، الذي كان وما يزال ، وسيظل يمثل حتى مستقبل بعيد المصدر الرئيسي لتسليح وتجهيز القوات المسلحة الاسرائيلية ( موضوع الصناعة العسكرية الاسرائيلية في حاجة الى دراسة خاصة به ) ·

وقد لخص الكاتب الاميركي « انتوني هـ· كوردسمان » في مقاله عن « ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي » المنشور في « مجلة القوات المسلحة الاميركية » في تشرين الاول ( اكتوبر ) ١٩٧٧ ، اهداف التخطيط العسكري الاسرائيلي . والنتائج المحتملة للدعم العسكري الاميركي لاسرائيل ، بالنسبة لقدرات قواتها

المسلحة فقال « ان الولايات المتحدة ستخلق « اسرائيل » تتمتع بكل القـدرات اللازمة لشن حرب هجومية · فسوف يكون لاسرائيل الاسلحة الكافية لتغطيـة الجبهة الاردنية وفي الوقت ذاته شن هجوم على سوريا ومصر ··· وسـوف يكون لاسرائيل كل الحركية اللازمة للمشاة والمدفعية لاختراق الجيوش العربية او الالتفاف حولها وتطويقها ··· وان التطويرات التي جرت في قوة المدفعية الاسرائيلية والقوة الجوية الهجومية ستسمح « لقوات الدفاع الاسرائيليـة » باسكات الدفاعات العربية المضادة للدبابات وانظمة الدفاع الجوي العربية · وسوف تتيح التطويرات التي تمت في كل من المعدات والتخطيط الاسرائيلـي استخداما فعالا للوسائل الاميركية المضادة للالكترونيات والذخيرة الدقيقـة التوجيه ، والاسلحة المضادة للدبابات ، وغيرها من العديد من التطويـرات في التكنولوجيا العسكرية الاميركية ، التي جرت عقب ١٩٧٣ ، والتي لا تظهر في أي جداول لميزان القوى · وقد ازالت الحركية والانظمة اللوجستيكيـة ( الادارية ) الاسرائيلية نقاط الضعف التي كانت قائمة في قدرات الاسنـاد اللوجستيكي بعيدة المدى في العام ١٩٧٣ · ولدى اسرائيل حاليا ايضا معـدات الهندسة القتالية اللازمة للتحرك بسرعة عبر القناة والموانع البرية · وتمتلـك اسرائيل حاليا ما قدره ٣٠ يوما من الذخيرة على الاقل · ومن المرجح ان يكون لديها اكثر من ذلك بكثير · وان كل شحنة اسلحة اميركية جديدة تحرر اسرائيل من الاعتماد على اعادة الامداد الاميركي » · (٣٢) وبغض النظر عما قد يتضمن في هذه التقديرات من المبالغة التي تغفل نسبيا تطور القدرات العسكرية العربية او تقلل منها ، فان هذه الاقوال ، وكافة التقديرات والارقام والمعلومات التـي اوردناها ، بصورة موجزة للغاية ، في دراستنا هذه ، وحاولنا ان نوضـح مغزاها ، انما تكشف ، وبصورة موضوعية ، مدى التطور الذي لحق القـوة العسكرية الاسرائيلية من حيث الطاقة البشرية والتسليح والمعدات ( اقتصـر بحثنا على القوتين الجوية والبرية ، نظرا لاننا سبق ان عالجنا التطورات التي جرت في القوة البحرية الاسرائيلية في دراسة خاصة ) ، وحقيقـة استفادة اسرائيل من سنوات الهدوء النسبي ، التي حصلت عليها عقب حرب ١٩٧٣ ، والتي ساهم الدكتور « كيسينجر » مساهمة هامة في توفيرها لها من خـلال سياسته القائمة على كسب الوقت لاسرائيل ، دون التوصل لاسس تسوية سلمية عادلة ، اذا كان ثمة اسس ممكنة لمثل هذه التسوية ·

---

## الحواشي

(1) Luttwak, Edward and Horowitz, Dan , **The Israeli Army** . London , Allen Lane , 1975 , 397

٢ ـ مجلة **نيوزويك** ، عدد ١ـ٥ـ٧٨ ، صفحة ٦٤ ·

(3) Glubb . John Bagot . **A Sol-**

**dier with the Arabs** . London , Hodder , 1969 . P 94

٤ ـ البدري ، حسن · **الحرب في ارض السلام** ، القاهرة ـ بيروت ، دار الوطن العربي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٦ ، صفحة ١٧٢ ·

٥ ـ **المرجع السابق** ، صفحة ١٧٢ ·

(6) Lafran Nadar , **From War To war** . New York Pegasus . 1969 , P. 217 , 228

٧ ـ عزمي ، محمود · **القوات المدرعة الاسرائيلية عبر اربع حروب** · بيروت ، مركز الابحاث ، ١٩٧٥ ، صفحه ١٠٧ ·

٨ ـ **المرجع السابق** ، صفحة ٢٠٧ ، ٢٠٨ ·

٩ ـ **المرجع السابق** ، صفحة ٣٢٥ ·

١٠ ـ **المرجع السابق** ، صفحة ٢٩٥ ·

١١ ـ **المرجع السابق** ، صفحة ٢٦٤ ·

١٢ ـ **المرجع السابق** ، صفحة ٢٧٣ و ٢٧٤ ·

١٣ ـ **المرجع السابق** ، صفحة ٤٦٩ ـ ٤٧١ ·

١٤ ـ جعفر ، قاسم · عزمي ، محمود · الاسير ، ربيع ، **ميزان القوى العسكري في منطقة الشرق الاوسط ١٩٧٧ ١٩٧٨** ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٨ ، صفحة ١٩٨ ·

١٥ ـ **المرجع السابق** ، الهامش بصفحة ١٩٩ ·

١٦ ـ **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٤** ؛ بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٧ ، صفحة ٢٨٦ ·

(17) Rusi , London , 1976 , P. 31

**(18 - 22) The military Balance 1977 1978** , London , 1977 , P. 82 , 83

٢٣ ـ جعفر ، قاسم · **المرجع السابق** ، صفحة ٤٠ و ٤٤ ·

٢٤ ـ ٢٥ ـ **المرجع السابق** ، صفحة ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٥٩ ·

٢٦ ـ **المرجع السابق** ، صفحة ١٩٩ ·

٢٧ ـ **المرجع السابق** ، صفحة ٢٠٠ و ٢٠١ ·

٢٩ ـ كوردسمان ، انتوني ، ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي ـ ترجمة محمود عزمي ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٧٣ . كانون الاول ١٩٧٧ ، صفحة ١٩٨ و ١٩٩ ·

**(30) Armies and Weapons** . No . 21 . February , 1976 , P. 26

٣١ ـ نشرة الدراسات الفلسطينية ، التقرير الثالث . ايار ١٩٧٨ ، صفحة ٢٧٦ ·

٣٢ ـ كوردسمان ، انتوني ، **المرجع السابق** ، صفحات ١٨٥ و ١٨٩ ·

اسعد عبد الرحمن

# العلاقات السياسية القومية في العالم العربي ١٩٤٥ـ ١٩٧٧

تراوحت علاقات الكيانات السياسية في الوطن العربي ، منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، بين التضامن الجماعي او المتعدد الاطـراف ( الكونفدرالي او شبه الكونفدرالي ) والوحدة الثنائية الكاملة من جهة ، والحرب الباردة وحتى الساخنة بين دولتين او اكثر من جهة ثانية · ومن الجدير بالذكر في هذا المجال، ان التضامن أو التمحور بين الكيانات السياسية العربية اتخذ احد شكلين : فهو اما تحالفات جماعية ضمن اطار جامعة الدول العربية ، او تحالفات وخلافات ثنائية أو متعددة الاطراف خارج نطاق جامعة الدول العربية · هذا على صعيد الشكل العام ·

اما على صعيد المضمون ، ففي حين كان التضامن العربي نتيجة احساس جميع الكيانات السياسية او معظمها او بعضها بالخطر القومي وبالرغبة في العمل المشترك ، تركزت الخلافات بينها او بين بعضها على ثلاثة مستويات : فهي اما خلافات على اساليب مواجهة الخطر الذي تهددها قوميا بغض النظر عن المواقف الايديولوجية ، او نتيجة تنافر ايديولوجياتها وانعكاسات ذلك على صعيدي البناء الوطني والقومي الداخلي والعلاقات الخارجية مع دول العالم ، او بسبب النزاعات على الحدود الجغرافية الفاصلة بين بعض تلك الكيانات السياسية ·

وفيما يلي استعراض سريع لابرز التحالفات والنزاعات التي شهدتها المنطقة العربية منذ الاستقلال السياسي الذي حظيت به دولها في المراحل المختلفة وحتى الآن :

## اولا : التحالفات الجماعية ضمن اطار جامعة الدول العربيه

ميز العمل الجماعي العربي نفسه ، ضمن نطاق جامعة الدول العربية ، في ثلاث فترات زمنية واضحة المعالم :

١ ـ ففي الفترة التي أعقبت التوقيع على ميثاق جامعة الدول العربية في اذار ـ مارس ١٩٤٥ وحتى نهاية العام ١٩٤٨ ، عملت الدول العربية على نحو جماعي في مجال دعم الحق العربي في نطاق القضية الفلسطينية ومتفرعاتها . وقد تأطر ذلك العمل في قنوات تراوحت بين مؤتمرات قمة حضرها الملوك والرؤساء العرب ، او عبر مؤسسات وأجهزة جامعة الدول العربية العاملة دون مستوى القمة . ومن الامثلة البارزة على هذا وذاك : مؤتمر انشاص في ايار ـ مايو ١٩٤٦ الذي حضره ملوك ورؤساء العرب انذاك ، ومؤتمرات بلودان وبيروت وعاليه لمجلس جامعة الدول العربية في الفترة ما بين ايار ـ مايو ١٩٤٦ وتشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٧ ، ومؤتمرا صوفر الخاصان باللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في ايلول ـ سبتمبر وكانون الاول ـ ديسمبر ١٩٤٧ . واجتماعات اللجنة العسكرية ومكاتب المقاطعة الاقتصادية وغيرها من الهيئات التابعة للجامعة طوال الفترة الفاصلة ما بين مطلع ١٩٤٥ ونهاية ١٩٤٨ . وقد كان موضوع هذه الاجتماعات الغزو الصهيوني لفلسطين والتطورات التي واكبت ذلك الغزو محليا ودوليا .

٢ ـ وبدءا من العام ١٩٤٩ وحتى مطلع العام ١٩٦٤ ، اختفت مؤتمرات القمة باستثناء مؤتمر الملوك والرؤساء الذي انعقد في لبنان في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٥٦ تضامنامع مصر اثناء الغزو الثلاثي ( البريطاني ـ الفرنسي ـ الاسرائيلي ) لها . وقد تركز العمل الجماعي العربي في قنوات الاجهزة المختلفة التابعة لجامعة الدول العربية في كل مستويات ما دون القمة ، وبهدف تطوير أوجه التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري بين الدول الاعضاء في الجامعة .

٣ ـ وفي الفترة الفاصلة ما بين مطلع العام ١٩٦٤ ونهاية العام ١٩٧٦ ، عاد العمل الجماعي فعبر عن نفسه في ثماني مؤتمرات قمة عربية . هذا عدا المؤتمرات العديدة التي عقدها رؤساء الحكومات ، وممثلو الملوك والرؤساء ، والوزراء العرب او غير ذلك من المستويات المختلفة ضمن الاجهزة التابعة لجامعة الدول العربية . وقد شملت المواضيع التي عالجتها هذه المؤتمرات مختلف الهموم القومية ( النزاع العربي ـ الاسرائيلي أساسا ، والحرب الاهلية في لبنان ١٦٧٥ـ١٩٧٦ ، مثلا ) والنزاعات العربية الثنائية او المتعددة الاطراف ( الحرب الاهلية في اليمن ١٩٦٢ـ١٩٦٧ ، الصدامات الاردنية ـ الفلسطينية ١٩٧٠ـ١٩٧١ ، مثلا ) والمواجهة مع القوى الخارجية ( الازمة العربية ـ

الالمانية ١٩٦٥ ، والعلاقات السياسية والاقتصادية مع الدول الكبرى ودول اوروبا اساسا في اعقاب حرب ١٩٧٣ ، مثلا ) واسس ومجالات تطوير التعاون السياسي ـ الاقتصادي ـ العسكري بين الدول العربية ٠

**ثانيا : التحالفات والخلافات الثنائية متعددة الاطراف خارج جامعة الدول العربية**

والتحالفات الثنائية والمتعددة الاطراف هي احد وجهي العملة ذاتها ٠ اما الوجه الاخر فقد تمثل في خلافات اتخذت شكلا ثنائيا او متعدد الاطراف ٠ فما من قضية اختلف عليها كيانان سياسيان عربيان الا وتحولت ، فيما عدا النادر من الحالات ، الى مسألة يتمحور حولها عدد من الدول العربية ضد محور اخر٠ وعلى الرغم من كون التباين الايديولوجي ـ وانعكاسه في مجالات البناء الداخلي والقومي والعلاقات الدولية ـ قد شكل ، في معظم الحالات ، الخيط الفاصل في النزاعات الثنائية والمتعددة الاطراف التي انقسم العالم العربي حولها ، فان ثمة شواهد تؤكد على انه لم يكن الخيط الوحيد ٠ ففي بعض الحالات ، كان التمحور يتم على الرغم من الفروقات او التماثلات الايديولوجية داخل كل محور ٠وبعبارة أخرى ، كثيرا ما وجد طرف محافظ ( او اكثر ) نفسه في محور واحد مع نظام او نظم راديكالية ، تماما مثلما وجدت اطراف معسكر معين نفسها تخوض صراعات فيمابينها في وقت كانت فيه او لم تكن في حالة نزاع مع طرف ( او اكثر ) من المعسكر الاخر ٠ وهكذا ، تداخلت الخيوط وتشابكت اكثر من مرة بحيث كادت تضيع معها المعالم الواضحة لعلاقات التحالف والصدام بين الكيانات السياسية العربية ٠ ومما يجدر ذكره في هذا المجال ، ان معسكر الدول العربية المحافظة كان ـ على وجه الاجمال وان ليس دائما ـ اقرب ، وبما لا يقارن احيانا ، الى دول العالم الغربي منه الى اعضاء الكتلة الاشتراكية ٠ ومن ناحية اخرى ، كانت علاقات المعسكر الراديكالي ـ على نحو عام وغير مطلق ـ اشد توطدا مع بلدان المنظومة الاشتراكية منها مع دول « العالم الحر » ٠

وفيما يلي استعراض موجز لابرز صيغ ومضامين التحالفات ( وجانبها المتمم : الخلافات ) التي عصفت بعلاقات الكيانات السياسية العربية الاقليمية والدولية في المراحل الزمنية المختلفة :

١ ـ ففي فترة ما قبل الخمسينات ، شهدت المنطقة العربية خلافات محدودة على الحدود كان ابرزها النزاعات المختلفة بين السعودية من جهة ، وكل من الاردن ، واليمن ، والكويت ، وبريطانيا من جهة ثانية ٠ هذا علاوة على الخلاف السوري ـ التركي بخصوص لواء الاسكندرونة ، والنزاع العراقي ـ الايراني

حول كردستان · كما توترت علاقات دول المنطقة مع دول الاستعمار الغربي بسبب التطورات السياسية في عدد من الاقطار العربية الساعية الى الاستقلال السياسي · ومن الامثلة على ذلك ، ما حصل بين مصر وبريطانية حول السودان ، او بين عدد من الدول العربية وبريطانية بخصوص فلسطين ، او بين مصر وفرنسا حول تونس · كذلك ، عانت العلاقات الداخلية بين الكيانات السياسية العربية من جراء التنافس بين الانظمة الملكية في كل من الجزيرة العربية ( السعودية ) ، والعراق والاردن ( الهاشمية ) ، ومصر ( العلوية ) على النفوذ في الاقطار العربية الاخرى وبالذات في السنوات الاربع التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ·

٢ ـ ومع مجيء الخمسينات ، تعقدت صورة العلاقات الاقليمية والدولية في المنطقة العربية على نحو لم يسبق له مثيل · فما كاد انقلاب ١٩٥٢ العسكري يوطد حكمه في مصر ، حتى هزت مواقفه الراديكالية اصول العلاقات السياسية على امتداد الوطن العربي · فقد انقسم العرب حول تأييد ورفض حلف بغداد الذي تزعمت العراق الدعوة اليه ، وقادت مصر ( التي دخلت في احلاف واتفاقيات ثنائية مع السعودية وسورية والاردن ) الحملة المناوئة له ولمجمل الاحلاف الاجنبية · بل ان مصر تزعمت حتى العام ١٩٥٧ حركة عدد من الدول العربية التي سعت من اجل القضاء على الوجود الاستعماري في العالم العربي ( ضد اسرائيل في فلسطين ، وفرنسا في المغرب العربي ، وبريطانيا في المملكة الاردنية الهاشمية وشرق وجنوب شرق الجزيرة العربية ، وغيرها ) ·

غير أن النصف الثاني من الخمسينات حمل معه رياحا سياسية خلطت الاوراق على نحو جديد · ففي اعقاب الهزيمة السياسية التي منيت بها بريطانيا وفرنسا واسرائيل في مصر في العام ١٩٥٦ ، انقسمت الدول العربية بين اتجاهين رئيسيين هما : المحافظ والراديكالي · وفي الوقت الذي مضى فيه الاخير على طريق التحويل الاجتماعي الداخلي شبه الجذري والخارجي المعادي للغرب والمنفتح على الشرق ، مال الاتجاه الاول نحو التطوير المتدرج المتحفظ داخليا والمنفتح على الغرب والمعادي للشرق خارجيا · وقد اكتسب الصراع الاقليمي ابعاده الدولية في اعقاب كسر سورية ومصر لاحتكار السلاح الغربي والتوجه نحو الشرق في العامين ١٩٥٤ـ١٩٥٥ ، واعلان الولايات المتحدة مشروع ايزنهاور في العام ١٩٥٧ ، والانزال المظلي البريطاني والبحري الاميركي في الاردن ولبنان على التوالي في العام ١٩٥٨ · وفي هذه الفترة ، اقتربت مصر من سورية الى درجة اقامة « الجمهورية العربية المتحدة » ، تماما مثلما اتفقت الاردن مع العراق على تأسيس دولة « الاتحاد الهاشمي » في العام ١٩٥٨ ·وفي حين عاد العراق فسار في الركاب المصري ـ السوري ـ اليمني الشمالي ( المعبر عنه باتحاد الدول العربية ) في الاشهر الاولى التي تلت

ثورة ١٩٥٨ ، تحالفت السعودية ولبنان مع الاردن · وقد بقي الوضع على هذا النحو دون تغيير حتى شعر الجميع بازدياد النفوذ الشيوعي في العراق مع اخر سنة في الخمسينات ·

واخيرا ، لا بد من الاشارة هنا الى ان علاقات العديد من الدول العربية المحافظة المالئة للغرب لم تمنع وقوفها ضد مخططات الاستعمار الفرنسي في الجزائر طوال النصف الثاني من الخمسينات · فبالاضافة الى دعم دول المعسكرين (الراديكالي والمحافظ) في المشرق العربي للثورة الجزائرية ، حرصت ليبيا وتونس والمغرب على تقديم كل عون ممكن للثوار الجزائريين · وغني عن الذكر ان العلاقات بين الكتلة العربية الراديكالية وبلدان المنظومة الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي ، كانت في تحسن مضطرد ·

٣ ـ ما كاد التقارب بين ج·ع·م· ودول المعسكر المحافظ يزداد في ظل العداء للعراق المتجه شيوعيا وبخاصة اثناء أزمته مع الكويت في العام ١٩٦١ ، حتى انهار ذلك التقارب نتيجة دعم معظم دول المعسكر المحافظ لانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة في ايلول ـ سبتمبر ١٩٦١ · وعلى الرغم من ان الانفصال السوري أبقى مصر وحيدة تقريبا في اتجاهها الراديكالي ، الا ان تلك العزلة لم تطل · ذلك انه سرعان ما انضم الى معسكرها كل من الجزائر واليمن الجمهوري في العام ١٩٦٢ ، وسورية والعراق في العام ١٩٦٣ ·ومع نهاية العام الاخير هذا ، انقسم المعسكر الراديكالي على نفسه بين مؤيد لنظام ناصر ومؤيد للنظامين البعثيين في سورية والعراق حتى وقع انقلاب عبد السلام عارف في العراق في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٣ · وفي الوقت ذاته ، تأجج الصراع بين جناحي المعسكر الراديكالي من جهة ، ودول المعسكر المحافظ من جهة ثانية · وكان أخطر ما في هذا الصراع الحرب الاهلية في اليمن وما واكبها من ازدياد تدخل كل من السعودية والاردن الى جانب الملكيين ، ووقوف مصر وباقي دول المعسكر الراديكالي الى جانب الطرف الجمهوري ·

وعلى الرغم من الهدوء النسبي في « الحرب الباردة » العربية اثر تحسن العلاقات المغربية ـ التونسية ـ الموريتانية ـ الليبية وانعقاد مؤتمري القمة في القاهرة والاسكندرية في مطلع ونهاية العام ١٩٦٤ ، استمرت الحرب اليمنية بل وتفاقمت خلال العام ١٩٦٥ نتيجة تدويل الصراع في المنطقة على نحو واضح · ففي هذا العام ، تردت علاقات مصر وباقي دول المعسكر الثوري مع الولايات المتحدة في عهد الرئيس جونسون ، ومع بريطانيا بسبب ثورتي الجنوب اليمني المحتل وسلطنة عمان ، ومع المانية الغربية بسبب شحنات الاسلحة الغربية المرسلة الى الدولة الصهيونية عبر المانية واعتراف هذه الاخيرة باسرائيل · بل ان الصراع بين المعسكرين العربيين ( المحافظ والراديكالي ) عاد فتصاعد في العام ١٩٦٦ حول اليمن من جهة ، وحول علاقات لبنان والاردن

مع منظمة التحرير الفلسطينية والعمل الفدائي من جهة ثانية ٠وقد جرى ذلك التصاعد رغم الاجماع العربي المؤقت تجاه تصريحات الرئيس التونسي بخصوص فلسطين ، وتجاه قطع العلاقات الدبلوماسية مع المانية الغربية ( باستثناء تونس والمغرب وليبيا التي رفضت قطع العلاقات ) في العام ١٩٦٥

وفي السنوات الاخيرة من الستينات ، خفت حدة التوتر بين معظم الدول العربية ٠ وقد لعبت مقدمات ونتائج حرب ١٩٦٧ دورا بارزا في ذلك ٠ ففي أعقاب تلك الحرب ، انتهت المواجهة في اليمن الشمالي نتيجة مؤتمر القمة العربي الرابع في الخرطوم في العام ١٩٦٧ ، وانسحبت بريطانيا من جنوب اليمن في العام ذاته ، وازداد التعاون بين نظام عبد الناصر والنظام البعثي في سوريا في اعقاب اقصاء الجناح الحاكم هناك في العام ١٩٦٦ ، وتحسنت العلاقات المصرية ـ الجزائرية اثر الفتور الذي اعقب اقصاء بن بيلا واعوانه في العام ١٩٦٥ ، وانعقد كل من مؤتمر قمة دول المواجهة ( مصر وسورية والاردن والعراق والسودان ) في ايلول ـ سبتمبر ١٩٦٩ ، ومؤتمر القمة العربي الخامس في الرباط في كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٦٩ ، ومؤتمر دول «ميثاق طرابلس» ( ليبيا ومصر والسودان وسورية ) في الشهر ذاته ٠

الا ان تطورات اخرى ابقت على كثير من التوتر في العلاقات الداخلية العربية ٠ فانتصار « الجبهة القومية » في الجنوب اليمني المحتل غذى ذلك التوتر وبالذات مع السعودية في العام ١٩٦٧ ، تماما مثلما ازداد التوتر بين مصر والعراق اثر اقصاء عبد الرحمن عارف عن السلطة في العراق وسيطرة حزب البعث هناك في العام ١٩٦٨ ٠ كما أن وقوع انقلابين عسكريين في السودان وليبيا في العام ١٩٦٩ ، اسهم في توتير العلاقات بين العسكريين الراديكالي والمحافظ ٠ وعلى صعيد اخر ، أدت الصدامات بين السلطتين الاردنية واللبنانية وبين العمل الفدائي الفلسطيني في العامين ١٩٦٨ـ١٩٦٩ الى توتير علاقات هاتين السلطتين مع سوريا وليبيا والجزائر على نحو خاص ٠ هذا كله ، علاوة على التوتر الناجم عن النزاعات الحدودية بين عدد من الدول العربية سواء في المشرق او المغرب العربي ٠ ومن الامثلة البارزة على ذلك ، خلاف العراق والكويت في العام ١٩٦١ . والجزائر والمغرب والجزائر وتونس في العام ١٩٦٣ ، والسعودية وابو ظبي في العام ١٩٦٦، وموريتانيا والمغرب في العام ١٩٦٩ ٠

واخيرا ، يجدر التنويه بان النصف الثاني من الستينات شهد استقطابا واضحا في الصراع الدولي في المنطقة وبالذات بعد حرب ١٩٦٧ ٠ فمن جهة ، نجحت الولايات المتحدة الاميركية في الابقاء على علاقاتها الودية مع الدول

العربية المحافظة ، على الرغم من انحيازها شبه الكامل الى جانب اسرائيل ٠ ومن جهة ثانية ، عزز الاتحاد السوفياتي علاقاته بالدول الراديكالية ( باستثناء ليبيا ) وبالذات مع مصر وسورية والعراق والجزائر واليمن الجنوبية ٠

٤ ـ تميزت علاقات الكيانات السياسية العربية حتى مطلع العام ١٩٧٧ باختلاط الاوراق على نحو مذهل اثر تذويب الجدار الجليدي الفاصل منذ العام ١٩٥٧ بين المعسكرين المحافظ والراديكالي ٠ وقد تمت عملية التذويب تلك بفعل حرارة الهيمنة التدريجية للقوى المحافظة على القوى الراديكالية التي لم تخضع نتيجة الاتفاق او الاقناع او حتى الحرب الباردة بقدر ما رضخت تحت وطأة الضغوط الاقليمية والدولية والحروب المحلية الساخنة ٠ فمنذ ان وافقت مصر عبد الناصر ( والاردن ) على « بادرة روجرز » في النصف الثاني من العام ١٩٧٠ ، تلاحقت الاحداث على نحو ضمن سيطرة القوى المعتدلة :

ففي الاردن ، استطاعت السلطة ـ بتأييد من الولايات المتحدة ـ اخراج العمل الفدائي من الضفة الشرقية عبر المعارك الشهيرة في العامين ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ٠ وعلى الرغم من مواقف سورية وليبيا وجنوب اليمن والجزائر المنحازة للفدائيين، تميز الموقف العربي العام بالاعتدال ( الوساطة العربية شبه الجماعية بعد مؤتمر القمة الطارىء السادس في القاهرة والوساطة العراقية في ايلول ـ سبتمبر ١٩٧٠ وبعده ، والوساطة السورية في تموز ـ يوليو ١٩٧١ ، والوساطة المصرية ـ السعودية في ايلول ـ سبتمبر ١٩٧١ ) ٠

وفي جنوب اليمن ، تمكنت السعودية واليمن الشمالي ، بوسائل العمل الحربي في العامين ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ وبالضغط السياسي في الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٧ ، من كبح جماح جمهورية جنوب اليمن ٠

وفي سلطنة عمان ، مكنت مساعدات الاردن والامارات المتحدة ( وايران ) سلطان عمان من تصفية الحركة المناوئة له في ظفار في الفترة ١٩٧١ ـ ١٩٧٦ ٠

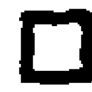
وفي مصر ، بالذات بعد وفاة الرئيس عبد الناصر في ٢٨ ايلول ـ سبتمبر ١٩٧٠ ، تميزت سياسة العهد الجديد بالانفتاح على الغرب اقتصاديا وسياسيا وعسكريا وبخاصة بعد طرد الخبراء والمستشارين السوفيات من مصر في حزيران ـ يونيو ١٩٧٢ ٠ وقد تم ذلك على الرغم من التقارب الشكلي الهش بين مصر وليبيا والسودان وسورية لتأسيس « اتحاد الجمهوريات العربية » في الاعوام ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣ ٠ وخلال هذه الفترة ، نمت علاقات مصر مع السودان داخل « الاتحاد » وبخاصة بعد ان رجحت كفة الاعتدال في السودان على أساس اقامة علاقات امتن مع السعودية والكويت عربيا ومع الغرب وضد الاتحاد السوفياتي دوليا ٠ كما توطدت العلاقات المصرية ـ السورية ، نتيجة تنسيقها من

اجل شن حرب ١٩٧٣ ضد اسرائيل التي انتهت بقبول سورية قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ٠

وفي العراق ، اتخذت السلطات البعثية الحاكمة مواقف اكثر اعتدالا تجاه الدول العربية ( باستثناء سورية ) وبخاصة بعد انهاء الحرب في المنطقة الكردية نتيجة الاتفاق مع ايران في العام ١٩٧٥ ٠ وقد اعقب ذلك انفراج في العلاقات مع السعودية ودول الخليج باستثناء الخلاف المستمر على الحدود مع الكويت ٠ ومن الجدير بالذكر في هذا المجال ، ان الخلافات السياسية المصرية ـ العراقية اتخذت طابعا هادئا بدء من العام ١٩٧٢ ٠

وفي دول المغرب العربي ، توصلت الاطراف المعنية الى سلسلة اتفاقات على الحدود المتنازع عليها ٠ ومن ابرز هذه الاتفاقات ، حل النزاع المغربي ـ الموريتاني والجزائري ـ التونسي في العام ١٩٧٠، والخلاف المغربي ـ الجزائري في العامين ١٩٧٠ و ١٩٧٢ ، ( على الرغم من توتر علاقتهما بعد ضم الصحراء الاسبانية الى المغرب في العام ١٩٧٥ ، وتوتر العلاقات الليبية ـ المغربية بعد محاولتي الانقلاب في المغرب في العام ١٩٧١ ) ٠ كذلك ، اعيدت العلاقات الدبلوماسية بين الاردن من جهة ، وتونس والجزائر وليبيا في اعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ من جهة ثانية ٠

واخيرا ، استطاعت السعودية ـ التي طالما دعت الى الانفتاح على الغرب والابتعاد عن الشرق ـ جمع معظم الدول العربية حول سياساتها ٠ وقد كان اخر الانتصارات الدبلوماسية السعودية نجاحها في عقد القمة المصغر في الرياض ومؤتمر القمة العربي الثامن في القاهرة في الاشهر الثلاثة الاخيرة من العام ١٩٧٦ ٠ وقد وضع المؤتمران نهاية للحرب الاهلية اللبنانية التي اندلعت نارها في نيسان ابريل ١٩٧٥ ودامت تسعة عشر شهرا ٠ ومع الايام الاولى من العام ١٩٧٧ ، بات واضحا ان محصلة الصراعات الداخلية والخارجية في العالم العربي كانت لصالح الدول العربية المحافظة المؤيدة للغرب والمعادية لبلدان الكتلة الاشتراكية ٠



**المعلومات الواردة في البحث مستقاة من المصادر التالية :**

١ ـ جورج لنشوفسكي ، **الشرق الاوسط في الشؤون العالمية** ، ترجمة جعفر خياط ( بغداد : دار الكشاف ومؤسسة فرانكلين ، ١٩٥٦ ، الجزء الثاني ) ، ص ص ٣٥٧ـ٣٦٢ ، ٣٨٢ـ٤١٣ ، ٤٢٥ـ٤٣٦ ، ٤٦٥ـ٤٧٧ ، ٤٨٢ـ٥٠٥ ، ٥١٣ـ٥١٩ ، و ٥٦٩ـ٥٩٧ ٠

٢ ـ مجموعة من الاساتذة المختصين ، **تاريخ الاقطار العربية المعاصر** ( موسكو : دار التقدم ، ١٩٧٥ ) ، الجزءان الاول والثاني ٠

٣ ـ اللواء محمد كمال عبد المجيد ، **الشرق الاوسط في الميزان الاستراتيجي** ( القاهرة : المطبعة الانجلو المصرية ٠ ١٩٧٢ ) ٠

٤ ـ واخيرا ، ما ورد عن السياسة الخارجية ( العربية والدولية ) للدول المختلفـــة المضمنة في :

**The Europa Year Book 1975 : A World Survey** , Vol. II ( London : Europa Publications Limited , 1975 ) ; and in T.Y. Ismael (ed.) **Governments** and **Politics of the Contemporary Middle East** ( Home Wood , Ill. : The Dorsey Press, 1970 ) .

ماهر الشريف

# محاولة أوليّة للتعرّف على حيثيات العمليّة التاريخية لولادة الحزب الشيوعي في فلسطين "٢"

**ثالثا : من حزب العمال الاشتراكيين الى الحزب الشيوعي في فلسطين ، او عملية الانتقال التاريخية من مواقع البوعالي تسيون اليساري الى مواقع الماركسية ـ اللينينية ، ومعاداة الصهيونية :**

بعد تأسيسه ، ركز حزب العمال الاشتراكيين نشاطاته على جبهة العمل النقابي ؛ وكانت سياسته النقابية تقوم على قاعدة مبدأ الفصل بين مهام النضال الاجتماعي وبين مهام النضال « القومي » داخل المنظمات النقابية اليهودية · وقد استطاع الحزب في وقت قصير كسب بعض النفوذ داخل عدد من هذه المنظمات · فتحت ضغط انصاره قررت نقابة عمال النجارة في يافا الانسحاب من « اتحاد العمل » في اوائل العام ١٩٢٠ للقيام بنشاط نقابي ثوري مستقل (٥٥) · ومن جهة اخرى ، كانت الاتحادات النقابية لعمال البناء والخياطة متأثرة بافكار الحزب ، الذي استطاع مد نفوذه حتى الى داخل « نقابة عاملي السكك الحديدية » التي اسستها القيادة العمالية الصهيونية لمنافسة « الاتحاد العام لعمال سكك الحديد والبريد والمواصلات » الذي كان يضم جنبا الى جنب العمال العرب واليهود ويقوم بنشاط نقابي موحد · (٥٦)

ومع ذلك ، لم يقتصر نشاط الحزب خلال هذه المرحلة الاولى من حياته على العمل النقابي وحده · فبهدف توسيع نفوذه بين صفوف الشبيبة العمالية اليهودية ، اسس الحزب خلال العام ١٩٢٠ بمدينة يافا ناديا للشباب ، اطلق عليه اسم « نادي بوروشوف »· وكان هذا النادي مكانا للنقاش ولمطالعة صحف البوعالي تسيون اليساري في الخارج و « ملتقى جميع الراديكاليين في البلاد ومكانا لكسب الانصار عن طريق استعمال وسائل خاصة للتسلية وعن طريق الندوات والحفلات الموسيقية » (٥٧) ·

في تموز ١٩٢٠ قرر الحزب ايفاد قائده « مايرزون » لتمثيله في المؤتمر الخامس للاتحاد العالمي بوعالي تسيون الذي انعقد بمدينة فيينا ·

وقد دارت النقاشات الخاصة بقبول او برفض اشتراك « مايرزون » في اعمال المؤتمر في الخامس من اب ١٩٢٠ ، اي قبل ثلاثة ايام فقط من انقسام الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون الى اتحادين : واحد « يميني » والاخر « يساري » · (٥٨) وقد وافق ممثل الاتجاه اليساري داخل الاتحاد العالمي « مكتب التنظيم » (٥٩) على قبول اشتراك « مايرزون » ، بينما طالب « بن زفي » ممثل « اتحاد العمل » ( احدوت هعفوداه ) باقصائه عن اعمال المؤتمر بحجة ان الحزب الذي يمثله « لا يدافع مطلقا عن الصهيونية » · وفي النهاية تمت الموافقة على اشتراك « مايرزون » بصوت استشاري في اعمال المؤتمر الخامس للاتحاد العالمي بوعالي تسيون ·

وفي الحادي عشر من اب ، القى « مايرزون » تقريره عن الاوضاع في فلسطين امام ممثلي الاتحاد العالمي ( اليساري ) · واثبت في كلمته بان البرامج الصهيونية حول انقاذ سريع وكامل في فلسطين هي برامج خيالية · وقال ايضا بان الارض الحرة ، غير المسكونة والصالحة للزراعة حالا ليست امرا سهلا بالمرة في فلسطين · واشار الى ان في البلاد سكانا قرويين عربا بدون ارض وعطاشا للارض وانهم سيظهرون مقاومة كبيرة لتسرب عناصر من المدينة وخصوصا من خارج البلاد الى القرية ·

ومع تحذيره من الاستيطان على حساب الفلاحين ، حذر « مايرزون » ايضا من النتائج الخطيرة التي من الممكن ان تنبع من السياسة الصهيونية ، سياسة التعاون مع الحكم الاستعماري ضد جماهير الشعب العربي في فلسطين · وفي نهاية كلمته طالب ممثل حزب العمال الاشتراكيين بالعمل على « اقامة مؤسسات اقتصادية وسياسية مشتركة لكافة العمال في البلاد ، ورص صفوف العمال اليهود مع العمال العرب في اتحاد نقابي وفي اتحاد اشتراكي ثابت والتدخل بشكل نشيط ، وتجميع قوى للقضاء على الحكم الاستعماري الاجنبي ولتحرير البلاد من العبء الاستعماري الثقيل » (٦٠) ·

صدمت الاتهامات التي وجهها « مايرزون » للحركة الصهيونية في فلسطين مشاعر مندوبي المؤتمر « اليساريين » الذين قرروا تشكيل لجنة تحقيق خاصة لبحث مسألة استمرار مساهمته في اعمال مؤتمرهم · وقد اتخذت هذه اللجنة بعد المداولات التي اجرتها قرارا يقضي باقصاء « مايرزون » عن جلسات المؤتمر بحجة انه « شهر بالجماهير اليهودية في فلسطين عندما حملها مسؤولية تفجير الصراع مع العرب » (٦١) ·

لقد كان هدف « مايرزون » في فيينا السعي لتغيير سياسة الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون والاتصال بالمجموعات اليسارية « الشيوعية » التي تشكلت داخل مشروع هذا الاتحاد ودعوتها لاقامة اتحاد شيوعي موحد · وفي الخامس والعشرين من شهر اب ، أرسل « مايرزون » من فيينا رسالة الى رفاقه في فلسطين يعلمهم فيها عن فشله في تحقيق اهدافه ، وكتب بانه « لم يتحقق اي شيء مما توقعناه (···) ، ولم يقم الاتحاد الشيوعي (···) · ولذا فمن المنطق ان حزبنا بقي ثانية خارج الاتحاد » · واشار « مايرزون » في رسالته ايضا الى « ان المكتب الجديد للاتحاد سيرسل الان اعضاء الى فلسطين لحل منظمتنا ولاقامة حزب بوعالي تسيون مقبول ، او كتلة يسارية في احدوت هعفوداه » (٦٢) ·

من المرجح بان « مايرزون » ، بعد مغادرته فيينا ، قد توجه مباشرة الى موسكو

للالتقاء بقيادة الاممية الشيوعية والتشاور معها في امكانية قبول انضمام حزب العمال الاشتراكي في فلسطين الى صفوف الاممية (٦٣) · فبعد اسابيع قليلة من انتهاء اعمال المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، عقدت اللجنة التنفيذية المنتخبة عنه في ٢١ ايلول ١٩٢٠ اجتماعا ناقشت خلاله « مسألة حزب العمال الاشتراكي في فلسطين » ، حيث استمعت الى تقرير قدمه احد ممثلي هذا الحزب الذي قدم خصيصا الى موسكو لمناقشة امكانية انضمام حزب العمال الاشتراكي الى صفوف الاممية الشيوعية · (٦٤)

ذكر ممثل الحزب الفلسطيني في التقرير الذي قدمه امام اعضاء اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية « بان الحزب الذي يمثله هو في الحقيقة الحزب الشيوعي في فلسطين ومصر ، وانه قد تبنى ، ولاسباب تكتيكية بحتة ، اسم الحزب الذي كان يوجد سابقا في فلسطين ، حزب « البوعالي تسيون » بعد ان تخلى عن كلمة « يهودي » · وان حزبه الحالي لا يجمعه اي قاسم مشترك مع الحزب القومي القديم ، حزب البوعالي تسيون » · واضاف بأن حزب العمال الاشتراكي « يعمل بين صفوف الجماهير الكادحة اليهودية والعربية في فلسطين (···) ، وعليه ان يناضل لتخطي صعوبات كبيرة تواجهه ، من اهمها قضية حذر المواطنين العرب من نشاطات العمال اليهود · ومع ذلك ـ تابع يقول ـ فان جماهير العمال العرب تشكل الاغلبية العظمى من الجماهير الواقعة تحت تأثير الحزب ، بينما غالبية منظمي الحزب ( كوادره ) تتشكل من العمال اليهود » (٦٥) ·

وفي اعقاب النقاشات التي دارت حول تقرير ممثل الحزب اعربت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية عن قناعتها بان حزب العمال الاشتراكي في فلسطين « قد انتهج في نشاطه الثوري بين صفوف الجماهير الكادحة في فلسطين ومصر طريقا صحيحا ، ولكنه لم يقطع بشكل جذري الروابط التي تربطه بالافكار البرجوازية القومية » · وفي هذا الاتجاه ، اتخذت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية القرار التالي : « ان اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، في الوقت الذي تؤكد فيه على قرارها السابق بخصوص حزب البوعالي تسيون ، لتحيي انبثاق فجر الحركة الثورية في فلسطين ، وتقترح على حزب العمال الاشتراكي ( بوعالي تسيون ) في فلسطين ما يلي : اولا ، وقبل كل شيء ، دراسة مقررات المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية والعمل على تطبيقها ، وخاصة ما يتعلق منها بشروط الانضمام الى الاممية الشيوعية ( الشروط الواحدة والعشرون ) · ثانيا : تغيير اسم الحزب ·

وبعد ذلك ، سيكون بالامكان مناقشة قضية انضمام الحزب الى صفوف الاممية الشيوعية » · (٦٦)

اثارت مداخلة « مايرزون » في فيينا واجتماعه بقادة الاممية الشيوعية في موسكو سخط وغضب الاحزاب العمالية الصهيونية في فلسطين التي نظمت حملة هجوم واسعة على حزب العمال الاشتراكي وعلى قائده · وامام حدة هذا الهجوم اكد اعضاء الحزب في فلسطين تحفظهم على بعض ما جاء في الكلمة التي القاها « مايرزون » في فيينا ، وبعثوا برسالة بهذا الخصوص الى رئاسة تحرير « كونترس » صحيفة « احدوت هعفوداه » ، اعلنوا فيها « بانه فقط اذا كانت الانباء صحيحة ، فان ممثلنا لم يعبر عن

رأي حزبنا في مؤتمر فيينا » · غير ان القيادة الصهيونية لم تقتنع بهذه الرسالة وتابعت حملتها ضد حزب العمال الاشتراكي واتهمته بان « كل اعماله في البلاد مشبعة بـــروح المعارضة التامة للصهيونية ولتحقيقها بأي شكل كان » (٦٧) ·

ساعدت هذه الحملة الصهيونية الواسعة التي شنت ضد حزب العمال الاشتراكي عـلى تعزيز مواقع اتجاه البوعالي تسيون داخله ، معيقة بذلك ، ولو لفترة ، عمليــة تجذر مواقفه الثورية · ففي صيف العام ١٩٢٠ ، قررت قيادة الاتحاد العالمـــي ( اليساري ) للبوعالي تسيون ، القلقة من امكانية تعزز مواقع الاتجاه « التصفوي » لمايرزون بيـــن صفوف اعضاء الحزب ، ايفاد مجموعة من كوادرها الى فلسطين لمراقبة سير نشـــاط حزب العمال الاشتراكي ومنعه من الانحراف عن « الطريق الصحيح » ، طريق النضال في سبيل تحقيق مبادىء « الصهيونية البروليتارية » · وفي فلسطين ، التف موفـــدو قيادة الاتحاد العالمي حول اطار تنظيمي مواز للحزب ، اطلق عليه اسم « مجموعة المبـادرة » ، وكان يقوده « ابراهام ريفوتسكي » ( A. Revutzky ) ·

في ظل هذه الظروف ، انعقد بمدينة حيفا في الفترة الواقعة بين ٢ و ٤ تشرين الاول ١٩٢٠ المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي في فلسطين · وقد ساهم في اعمال هـــذا المؤتمر (٢٢) مندوبا يمثلون (٣٠٠) عضو منظم ، بالاضافة الى ممثل عن قيادة الاتحـاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون (٦٨) ·

اكد المؤتمر الثاني للحزب في بداية اعماله تعلقه الوثيق بمبــــادىء « الصهيونيـــة البروليتارية » ، واعرب مندوبوه عن قناعتهم بأن اقامة الجماهير اليهودية في فلسطيـن « لا تتعارض مع مصالح العمال والفلاحين العرب ، بل على العكس ، فهي تتوافق تمامـــا مع مصالحهم » · (٦٩) وفي هذا الاتجاه ، ندد المؤتمر بالسياسة التي انتهجتهـا قيـادة الحركة العمالية الصهيونية في فلسطين ، تلك القيادة التي عارضت اقامة مؤسســـــات اقتصادية وسياسية مشتركة تجمع العمال اليهود والعرب ، وطالب المؤتمر قيادة الحــزب بالعمل على اقامة مثل هذه المؤسسات · وقد اعار المؤتمر اهمية خاصة لقضية اقامـــة حزب اشتراكي ثوري موحد في فلسطين قائم على قاعدة « فرعين قوميين » ، احدهمـــا يهودي والاخر عربي ، وذلك انطلاقا من القناعة « بان العرب وحدهم يقدرون على خلــق حركة ثورية بين الجماهير العمالية وشبه العمالية العربية في فلسطين » · (٧٠) وقد دعا المؤتمر الثاني الحزب للمساهمة في عملية اقامة « الفرع العربي » على ان يبقى ، لحيـــن قيامه ، بمثابة الممثل الوحيد لمجموع الحركة الثورية في فلسطين · وجاء في احد قرارات المؤتمر بهذا الصدد : « يعترف المؤتمر بضرورة اقامة حزب قطري ثوري قائم عـــــلى اسس كتائب قومية · ويفوض اللجنة المركزية باقامة هذا الحزب القطري ، في اول فرصة ، بعد اقامة الكتيبة العربية · وحتى ذلك الوقت ، يرى الحزب نفسه ( بمثابة ) القائم بدور حزب ثوري قطري » · (٧١)

اعتبر المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي في فلسطين بان الضمانـــة الوحيـــدة « لاقامة مركز عمالي يهودي – عربي في البلاد هي فقط بانتصار الثورة الاشتراكية فـــي فلسطين وخارجها » · وعلى طريق اقامة مثل هذا المركز دعا المؤتمر الحزب لتصعيــد

نضاله « ضد الادارة البريطانية ، ومحاربة الاوهام التي تنشرها احـــزاب العمـــال الاشتراكية الشوفينية حول هذه الادارة » · (٧٢) وأقر المؤتمر في ختام اعماله بـــأن الاشتراكية هي الهدف النهائي لنضال الحزب ، وان النضال الطبقي الثوري هو طريـــق الوصول الى الاشتراكية ، وان ديكتاتورية البروليتاريا المنظمة على شكل حكم المجالس ( السوفيتات ) هي الوسيلة لذلك · (٧٣)

بامكاننا ان نلاحظ بأن تأثير افكار ثورة اكتوبر الاشتراكية كان واضحا على بعض القرارات التي اقرها المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي · غير ان الحزب لم يتمكن، خلال مؤتمره هذا ، من تحديد موقف ثوري واضح تجاه قضية النضال الوطني التحرري العربي المعادي للامبريالية والصهيونية · والسبب الرئيسي في ذلك يعود الى حقيقة ان الحزب كان لا يزال ينطلق في تحديد مواقفه من مواقع « الصهيونية البروليتارية » · فالقرارات الثورية التي أقرها مؤتمره الثاني كانت لا تزال « تتحدث بلسان صهيوني وتتكلم عن الصفة العالمية لقضية العمال اليهود ، وانعدام الارض والبناء الاقتصادي غير العادي للشعب اليهودي ، وترى (···) ان الحل الجذري لذلك هو عن ( طريق ) انتقال جماهير اليهود في العالم الى الزراعة والعمل المنتج ، وعن طريق تجميعهـم الاقليمي فـي فلسطين » (٧٤) · ومن هنا ، فان برنامج الحزب لم يكن يمثل ، حتى ذلك الوقت ، الخيار الثوري المطروح امام جماهير الكادحين العرب في فلسطين ·

بعد فترة وجيزة من انتهاء اعمال المؤتمر الثاني للحزب ، وصل الى فلسطين ثلاثة موفدين من قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) بوعالي تسيون هم : « Rizsik Yaakow » ( سيكادور ) ، و « Schnior » من الاتحاد السوفياتي ، و « Gershon Dua » ( أدموني ) من بولونيا · وكانت المهمة التي اوكلت اليهم تتجسد ببحث امكانية الاعتراف بحزب العمال الاشتراكي في فلسطين كفرع رسمي محلي للاتحاد العالمي في هذا البلد ·

ومن فلسطين بعث موفدو قيادة الاتحاد العالمي برسالة الى مركز البوعالي تسيون فـي فيينا أكدوا فيها على ان الاتجاه « التصفوي » الذي كان يشكك بامكانية نجاح المشروع الاستيطاني الصهيوني قد تمت تصفيته داخل الحزب ، خاصة بعد ان انضمت الى صفوفه مجموعة جديدة من أعضاء البوعالي تسيون « المخلصين » ، الذين وصلوا حديثا الـى فلسطين في عداد الموجة الثالثة من الهجرة اليهودية · وانطلاقا من هنا ، دعت الرسالة قيادة الاتحاد العالمي الى الاعتراف الرسمي الفوري بالحزب ، فرعا للاتحاد العالمي ( اليساري ) بوعالي تسيون في فلسطين (٧٥) ·

وقد تم ذلك فعلا في ٢ تشرين الثاني ١٩٢٠ · وفي الوقت نفسه نصحت قيـــادة الاتحاد العالمي حزب العمال الاشتراكي في فلسطين باضافة كلمة «العبري» الى اسمه ، لاعتقادها بأن تحديد الحزب ، حتى في تسميته ، كمنظمة اشتراكية يهودية سيساعد على ضمان سيره على « الطريق الصحيح » ، طريق تحقيق مبادىء واهـــداف « الصهيونيـــة البروليتارية » ·

وفي ١٧ تشرين الثاني ١٩٢٠ ، انضمت « مجموعة المبادرة » بقيادة « ريفوتسكي » رسميا الى صفوف الحزب ، الذي صار يسمى اعتبارا من ذلك التاريخ : « حزب العمال الاشتراكي العبري في فلسطين » ( M.P.S.I ) (٧٦) · وطبعا ، لم تكن هذه التسمية

الجديدة للحزب متوافقة مع طموح بعض اعضائه لزيادة نشاطه الصعب ، والمعدوم تقريبا آنذاك ، بين جماهير الكادحين العرب ، ناهيك عن تناقضها الصريح مع قرار المؤتمر الثاني للحزب الداعي الى اقامة حزب ثوري قطري في فلسطين · ولكن ، وعلى الرغم من كافة مناورات قيادة الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ، وعلى الرغم من اقصاء «مايرزون» عن مسؤولياته القيادية داخل الحزب ، فان الصراع السياسي والايديولوجي قد استمر داخل حزب العمال الاشتراكي العبري بين الاتجاهين المتناقضين « التصفوي » من جهة ، و « البوعالي تسيون » من جهة اخرى · وقد ظهر ذلك بوضوح خلال المؤتمر التأسيسي للهستدروت ، حيث عبر ممثلو الاتجاهين عن وجهات نظر متباينة ·

في اواخر العام ١٩٢٠ ، شعرت القيادة العمالية الصهيونية بأن نشاطها الهادف الى « احتلال الارض » و « احتلال العمل » في فلسطين قد اصبح بحاجة الى اداة مركزية قادرة على فرض هيمنتها على كافة اوجه النشاط الاستيطاني الصهيوني · ومن هنا ، انطلقت دعوتها لاقامة كونفدرالية عامة للعمال اليهود في فلسطين ـ الهستدروت ـ ·

افتتح المؤتمر التأسيسي للهستدروت بمدينة حيفا يوم السبت الموافق ٤ كانون الاول ١٩٢٠ · وبنتيجة الحملة التي جرت لانتخاب مندوبي المؤتمر ، حصل حزب العمال الاشتراكي العبري على (٣٠٣) صوتا من مجموع ( ٤٤٢٣ ) منتخبا ، اي ما نسبته (٨ر٦٪) · وقد استطاع الحزب ايصال ستة من مندوبيه الى المؤتمر من مجموع (٨٧) مندوبا ساهموا بأعماله (٧٧) ·

طالب مندوبو الحزب أثناء المداخلات التي ألقوها أمام المؤتمر بقبول انضمام العمال العرب الى الهستدروت واقامة نقابة قطرية موحدة تجمع جميع عمال فلسطين ، واعلنوا بأنه « ما دام العامل العربي غير منظم فلن يتوفر الحل ايضا لقضية العامل اليهودي »(٧٨) · ودعوا العمال اليهود لتجاوز مرحلة « المنافسة الرخيصة » مع رفاقهم العرب وجعل العمل المهني في البلاد يقوم فقط على قاعدة الصراع الطبقي ·

قدم « سيكادور » امام مندوبي المؤتمر برنامجا نقابيا يحدد تصورات ومواقف حزب العمال الاشتراكي العبري تجاه قضايا العمل النقابي في فلسطين · وكان هذا البرنامج ينطلق من المبادىء الثلاث التالية :

« ١ ـ يجب أن تمثل الهستدروت تجمعا نقابيا مهنيا ، قائما فوق الاحزاب السياسية ، يجمع كافة عمال فلسطين بغض النظر عن انتمائهم القومي ·

٢ ـ يجب أن تمثل الهستدروت ، في الوقت نفسه ، المنظمة اليهودية القومية التي تأخذ على عاتقها مسؤولية اقامة المركز الاشتراكي اليهودي في فلسطين ·

٣ ـ يجب أن تكون الهستدروت بمثابة البرلمان الاممي والناطق السياسي باسم الطبقة العاملة اليهودية ـ العربية في فلسطين » (٧٩) ·

وهكذا ، كان البرنامج المقدم من الحزب يتمحور اذن حول ضرورة الفصل بين مهام النضال الاجتماعي للهستدروت كمنظمة نقابية قطرية « أممية » ، وبين مهام نضالها « القومي » كمنظمة للعمال اليهود تسعى في سبيل اقامة « المركز الاشتراكي اليهودي »

في فلسطين ، اي في سبيل انجاز برنامج « الصهيونية البروليتارية » ٠

يعتقد بأن مندوبي حزب العمال الاشتراكي العبري في مؤتمر الهستدروت ( او بعضهم ) قد قدموا ، خلال احدى مراحل المؤتمر ، بيانا استثنائيا القاه « حاييم كاتس » وجـاء فيه . « ان هوة عميقة بيننا وبين سائر الاحزاب ، نحن لا نريد أن نعتمد على اموال البرجوازية فنحن نربط مصيرنا بمصير البروليتاريا العالمية ٠٠٠ ان وجهتي نظر عالميتين أمامنا » (٨٠) ٠ وذكر في بروتوكول المؤتمر بأن بيان الحزب الاستثنائي لم يسجل حتى نهايته ، وكل الكلام السيء الذي جاء فيه قد حذف بقرار من المندوبين الذين طالبوا بانزال الخطيب من على منصة المؤتمر ٠ وقد ذكر في بروتوكول المؤتمر ايضا بأن بيان الحزب الاستثنائي قد تضمن اقوالا تشهر بالعمال اليهود في فلسطين وتتهمهم بانهم يعـززون آمالهم بحراب الاستعمار ويستعملون المقاطعة الشاملة ضد عمال معروفين (٨١) ٠

نفس « ادموني » ، أحد مندوبي حزب العمال الاشتراكي العبري ، الاتهامات التي وجهت الى حزبه ، وذكر بأن اتهام حزبه بمعاداة الصهيونية « هو كذب فاضح » واضاف قائلا : « لقد كنا قد كتبنا على راياتنا قبل عشرين عاما بأن الحل الجذري لمسألـة البروليتاريا اليهودية يكمن هنا في فلسطين ٠ ان هذا هو رأينا حتى اليوم ٠ ولكننا ، وهذا واضح ، نتبع طرقا مختلفة عن طرقكم (٠٠٠) ٠ ان العمال اليهود يهتمون وحدهم بمصلحة الصهيونية وليست البرجوازية اليهودية التي لا تهتم سوى بمصالحها ٠٠» (٨٢)٠

ولكن ، على الرغم من نفيهم للتهم التي وجهت اليهم بأنهم معادون للصهيونية ، وعلى الرغم من اعلانهم طرد « مايرزون » من حزبهم ، فان مندوبي حزب العمال الاشتراكي العبري لم يحصلوا على اعتراف الاحزاب الصهيونية العمالية الرسمي بشرعية نشاطهم داخل الهستدروت ٠ وعندما حاولوا الاحتجاج على مثل هذه المعاملة ، أعلن « اسحق بن زفي » باسم اللجنة الدائمة للمؤتمر : « لو واجهتنا مسألة الموقف من حزب العمال الاشتراكي حين عرفناه سابقا . لكنا آنذاك رددنا بسلبية دون اية قضايا ، لان هـذا الحزب لم يستبعده اتحاد اليمين لعمال صهيون فقط ، بل ايضا اتحاد اليسار ، ولا شك في اننا ما كنا لنسمح لهذا الحزب باحتلال مكان في المؤتمر ٠٠ ولكن قبل أيام معدودة ظهر حزب العمال الاشتراكي العبري الذي لا نعرف بعد ماهيته ٠٠ » (٨٣) ٠ وتابع « بن زفي » يقول : « لقد سمعنا من مندوبي حزب العمال الاشتراكي العبري قولهـم بأنهم يعارضون « مايرزون » ، في الوقت الذي يبعثون فيه ببرقية تهنئة ( بمناسبة ذكرى اكتوبر على الاغلب ) الى موسكو ٠٠ »(٨٤) ٠

انتخب المؤتمر التاسيسي للهستدروت في نهاية اعماله لجنة ادارية مؤلفة من (٢٣) عضوا . كان من بينهم ممثلان عن حزب العمال الاشتراكي العبري : سيكادور وأدوني (٨٥)٠ الا أن تعاون الحزب مع الهستدروت لم يستمر طويلا ٠ فبعد اسابيع قليلة من تأسيس الهستدروت ، قرر ممثلا الحزب الانسحاب من لجنتها الادارية نظرا للاسباب التالية :

« لاننا لا نريد تحمل جزء من المسؤولية في نشاطات الهستدروت ، التي بدلا من ان تهتـم بالنشاطات النقابية والحماعية فانها تمارس سياسة برجوازية صهيونية وتتحول بذلك الى منظمة صفراء متخاذلة تخون جذريا مصالح العمال ٠ ولهذا ، فقد قررنا بعد التشاور

داخل حزبنا ، الانسحاب من الهستدروت والقيام بنشاط نقابي مستقل على جميع الاصعدة ·· » (٨٦) ·

انعقد المؤتمر الثالث لحزب العمال الاشتراكي العبري بمدينة يافا خلال الفترة الواقعة بين ٢٢ و٢٥ نيسان ١٩٢١ بمساهمة (٢٦) مندوبا · وفي هذا المؤتمر تبنى الحزب اسما جديدا : « الحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون » ، معتبرا نفسه بمثابة « الفرع القومي اليهودي » ، الذي يجب أن يشكل مع « الفرع العربي » ، غير المتشكل حتى ذلك الوقت ، الحزب الشيوعي في فلسطين (٨٧) ·

ولتلمس الدوافع الكامنة وراء تبني هذا الاسم الجديد علينا وضع هذه العملية في اطار المفاوضات التي كانت تجري آنذاك بين قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون وبين قيادة الاممية الشيوعية · فلنتوقف قليلا عند هذا الموضوع ···

على الرغم من الفشل الذريع الذي مني به ممثله « كون » في المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، (٨٨) واصل الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون سعيه للانضمام الى صفوف الاممية الشيوعية · ودخلت قيادته في مفاوضات طويلة مع قيادة الاممية الشيوعية بهدف الحصول « على اعتراف الاممية الشيوعية المبدئي بحق اليهود في التجمع الاقليمي في فلسطين ، وحق الاتحاد العالمي بالتواجد المستقل وبممارسة تحريضه السياسي البوعالي تسيون بين صفوف الجماهير العمالية اليهودية في البلدان التي تتواجد فيها » (٨٩) ·

وفي أعقاب المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية قامت قيادة الاتحاد العالمي بتنظيم حملة دعائية واسعة هدفها تعريف فروع الاممية الشيوعية « بظروف التطور التاريخي للاتحاد العالمي ، وبمضمون برنامجه وبطبيعة المهام المطروحة امامه حاليا » · وتم تنظيم هذه الحملة الدعائية على قاعدة المذكرة التي أعدتها قيادة الاتحاد العالمي لتقديمها الى اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قبل انعقاد مؤتمرها الثالث العالمي · وقد تضمنت هذه المذكرة « تحليلا معمقا ومفصلا لطبيعة العوامل المحددة لاشكالية الشعب اليهودي كشعب لا يمتلك ارضا ولا وطنا ، يعيش مشتتا في ظل ظروف انتاج محددة ، يتمركز حول المرافق الهامشية للاقتصاد الرأسمالي لعجزه عن النفاذ الى قاعدة الانتاج او الى مرافق اقتصادية اكثر تطورا ، وذلك بسبب ظروف التمييز القومي الذي يعاني منه (···) ·

وتضيف المذكرة ، بان هذا الوضع غير الطبيعي للشعب اليهودي هو أصل جميع الظواهر الاقتصادية والاجتماعية المحددة لخصوصية العامل اليهودي : عدم انتاجيته ، غياب حسه الطبقي ، فقره المتزايد · وهذا كله يؤدي به الى الهجرة وعدم الاستقرار ·· » (٩٠) ·

ثم تقترح قيادة الاتحاد العالمي على اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية فكرة استيعاب فروع البوعالي تسيون اهتمامها « بالمهام الهادفة الى تلبية الحاجات الخصوصية للجماهير اليهودية كتأمين انتقالها الى المرافق الانتاجية ، وتنظيم هجرتها وتمركزها خصوصا في فلسطين ، وتلبية حاجاتها الثقافية » (٩١) ·

ويبدو بأن قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون قد ارادت ــ وكما يلاحظ

اوفينبرغ ــ الاستفادة من قيام حزب شيوعي في فلسطين قائم على قاعدة «فرعيين قوميين» احدهما يهودي والاخر عربي ، كسابقة تثبت من خلالها القيادة الاممية الشيوعية بأنه من الممكن انتساب فروع الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون الى الاحزاب الشيوعية كفروع يهودية ، تعمل على تحقيق المطامح « الخاصة » للجماهير اليهودية ·

وهكذا سيكون بامكاننا استيعاب الدوافع الكامنة وراء عملية تغيير اسم الحزب الفلسطيني في تلك الفترة بالتحديد · لنعد الان الى المؤتمر الثالث للحزب في فلسطين ··· اكد المؤتمر في بداية اعماله دعمه للاتحاد العالمي ( اليساري ) بوعالي تسيون باعتباره « المنظمة القيادية الوحيدة لجميع الشيوعيين اليهود » ، ودعا الى ضرورة الالتزام بمبدأ تشكيل الاحزاب الشيوعية في جميع البلدان المتعددة القوميات على قاعدة « الفروع القومية » · واقر المؤتمر التوصية التي رفعتها اللجنة المركزية للحزب والداعية الى الموافقة على شروط الانتساب الى الاممية الشيوعية التي حددها مؤتمرها العالمي الثاني، ولكن على شرط ان توافق قيادة الاممية الشيوعية على استمرار تواجد الاتحاد العالمي ( اليساري ) كممثل لجميع الشيوعيين اليهود في العالم · ودعا المؤتمر اعضاء البوعالي تسيون من الخارج باسم « الانضباط الشيوعي » للمجيء الى فلسطين بهدف تقوية الفرع الفلسطيني « الضعيف والملاحق » (٩٢) ·

تضمنت مقررات المؤتمر الثالث للحزب ، من جهة اخرى ، بعض الافكار التي يمكن اعتبارها بأنها « معادية للصهيونية » تماما · فقد جاء في احد القرارات بأن الهستدروت « منظمة نقابية غير مهمة بالنسبة لنضال العمال ، بل انها تمثل اطارا جديدا للمضي ضد مصالحهم » · ودعا قرار المؤتمر ، انطلاقا من هنا ، جماهير العمال في فلسطين للنضال دون هوادة في سبيل « تحطيم الاحزاب الخائنة وتحطيم الهستدروت ، واقامة منظمات عمالية حقيقية مكانها » · اما المنظمة الصهيونية التي تلعب دورا مماثلا لدور الحكومة داخل التجمع اليهودي في فلسطين ( فآد لئومي ) « Waad Leumi» ، فقد اكد قرار المؤتمر على ان هذه المنظمة هي في الحقيقة « المعبر عن المصالح الطبقية للبرجوازية الصغيرة اليهودية وللمستوطنين اليهود » ، واداة خاضعة « في ايدي المنظمات الصهيونية الرجعية » (٩٣) ·

ناقش مندوبو المؤتمر الثالث لحزب العمال الاشتراكي العبري نتائج المؤتمر العربي الثالث الذي انعقد قبل أشهر قليلة من انعقاد مؤتمرهم · وقد اكد مؤتمر الحزب بأن المؤتمر العربي هو في الحقيقة « المعبر السياسي عن الطبقات المستغلة ( بكسر الغين ) داخل المجتمع العربي » · وانطلاقا من هذا الاعتبار ، دعا المؤتمر الجماهير الشعبية العربية للعمل على خلق حركة عمالية وفلاحية قادرة على خوض النضال ضد « الحركة القومية الشوفينية » (٩٤) ·

لقد كانت مقررات المؤتمر الثالث للحزب بمثابة صورة معبرة عن حقيقة الصراع الايديولوجي والسياسي الدائر في صفوف الحزب وعن طبيعة موازين قوى التيارين المتعايشين داخله آنذاك : التيار « البوعالي تسيون » ، والتيار « المعادي للصهيونية » ·

فالتعايش بين هذين التيارين داخل الحزب سيبقى قائما طالما بقيت المفاوضات دائرة بين قيادة الاممية الشيوعية من جهة ، وبين قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي

تسيون من جهة اخرى · وبانتظار نتيجة هذه المفاوضات سيحاول كل تيار من هذين التيارين ان يفرض على التيار الاخر اكبر قدر ممكن من موضوعاته السياسية والايديولوجية الخاصة · وهذا ما يفسر وجود ملامح « بوعالي تسيون » من جهة ، وملامح « معادية للصهيونية » من جهة اخرى ، في مقررات المؤتمر الثالث لحزب العمال الاشتراكي العبري في فلسطين ·

بعد ايام قليلة من انتهاء اعمال مؤتمره الثالث ، جابه الحزب الذي اصبح يسمى انذاك « الحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون ، فرع الحزب الشيوعي في فلسطين » ظروفا حرجة جدا ··

ففي الاول من ايار ١٩٢١ ، قام اعضاء الحزب بنشاط مكثف للاحتفال بعيد العمال العالمي ، فنظموا مهرجانين في حيفا وحاولوا تسيير مظاهرة جماهيرية في يافا ، ووزعوا باللغات العبرية واليديشية والعربية مئات المناشير التي تدعو جماهير العمال اليهود والعرب في فلسطين للاعراب عن تضامنها مع الطبقة العاملة العالمية في يوم عيدها ·

ويظهر بأن البيان الذي وجهه الحزب بالعبرية واليديشية لجماهير العمال اليهود قد اختلف اختلافا ظاهرا عن البيان الذي وجهه بالعربية الى جماهير العمال العرب · فقد جاء في البيان الاول الموقع باسم : « الحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون » :

« لقد عقدت الرجعية اليهودية تحالفا مع زعيمة الرجعية العالمية (···) ، مع العدو الاكبر لروسيا السوفياتية وللبروليتاريا العالمية (···) · لقد استند الحكام الانكليز على دعم الرجعية اليهودية ، ولكنهم استطاعوا ايضا استخدام الافندية ( العرب ) لتحقيق مآربهم (···) · وقد استطاع المستغلون ( بكسر الغين ) اليهود وقطاع الطرق الامبرياليون الانكليز الحصول في « عملهم الحسن » على دعم عملائهم الخونة والمرتدين داخل الحركة العمالية اليهودية مثل احزاب «اتحاد العامل» و« العامل الفتي » ومثل الهستدروت (···)»· ثم دعا البيان جماهير العمال اليهود الى تصعيد نضالها في سبيل تحقيق مبادىء البوعالي تسيون الشيوعية » ، وفي سبيل الانخراط الى جانب الحزب في المعركة التي خوضها « مع البروليتاريا العالمية ومع الجماهير المضطهدة والمستغلة (بفتح الهاء والغين) لعربية » (٩٥) ·

اما البيان الثاني الموجه لجماهير العمال العرب والموقع باسم «اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي في فلسطين » ، فقد تجنب الاشارة الى مبادىء البوعالي تسيون او الى الاستيطان اليهودي واقامة المركز الاشتراكي اليهودي في فلسطين · وجاء فيه :

« يعيش معكم العمال اليهود الذين لم يأتوا لاضطهادكم بل كي يعيشوا معكم وهم مستعدون للجهاد بجانبكم ضد هؤلاء الاعداء الماليين من اليهود والعرب والانكليز (···) ·

ان هذا العامل اليهودي ، جندي الثورة ، جاء يمد يده الى ايديكم كزميل لكم لمقاومة الماليين الانكليز واليهود والعرب ومصيركم واحد في الحرية كان ام في الاضطهاد · ولا تنتهي عذابات العمال والفلاحين الا اذا تحرروا جميعا من هذه العبودية الضاغطة عليهم (···) · في هذا اليوم التاريخي ، يوم اول مايو ، نناديكم ان تنضموا الى الشيوعيين الروسيين للجهاد ضد قتلة باريس ولوندرا الذين يقررون مصيرنا كأننا

غير موجودين او كأن لا سلطة لنا لتقرير مصيرنا ·

نناديكم للجهاد ضد الاغنياء الذين يبيعون البلاد وأهاليها للاجانب · اتحدوا مع الشعب الروسي فهو يساعدكم لنوال حريتكم واستقلالكم الوطني (···) ·

فلتسقط الحراب الانكليزية والفرنسية · وليسقط اصحاب الثروات العرب والاجانب · وليحي المؤتمر الثالث الدولي الشيوعي ، ولتحي الثورة الاجتماعية في العالم · لتحي سلطة العمل · ولتحي فلسطين السوفياتية » (٩٦) ·

فجرت المظاهرة المحظورة التي نظمها الحزب في شوارع مدينة يافا ، بصورة غير مباشرة ، اشتباكات دموية عنيفة ، نتج على اثرها مصرع وجرح عدد كبير من العرب واليهود · وقد لعبت السلطات الامبريالية الانكليزية من خلال استفزازاتها ، دورا كبيرا في تأجيج هذه الصدامات الدامية التي انتشرت في مناطق اخرى من البلاد · وعلى الرغم من ان هذه الصدامات كانت تعبر عن القلق المتزايد في اوساط الجماهير الشعبية العربية المتخوفة من نتائج تزايد الهجرة اليهودية الى فلسطين ، الا ان السلطات الامبريالية قد استطاعت استغلال هذه الحوادث من اجل شن حملة قمعية واسعة ضد حزب العمال الاشتراكي ، اعتقلت على اثرها عشرات من كوادر الحزب ، كان على رأسهم «م· خالدي» احد ابرز قادته (٩٧) ·

كان من نتائج هذه الحملة الوحشية التي شنتها سلطات الانتداب بالتعاون مع الاحزاب الصهيونية ومع القوى الرجعية العربية ضد « الشيوعيين » ، القضاء على عدة منظمات من منظمات الحزب ، وزيادة عزلته السياسية خاصة بين صفوف العمال اليهود حين كان يحظى ببعض النفوذ · غير ان هذه الحملة ، وعلى الرغم من شراستها ، لم تستطع القضاء نهائيا على الحزب الذي تابع نشاطه ، بعد فترة وجيزة ، مستفيدا من انفضاح سياسة التعاون مع الامبريالية التي كانت تمارسها الاحزاب العمالية الصهيونية ، ومن تزايد تردي الظروف المعاشية بين صفوف العمال اليهود ، خاصة بعد تفاقم ظاهرة البطالة في البلاد ·

خلال تلك الفترة ، كانت الاتصالات مستمرة بين قيادة الحزب وبين قيادة الاممية الشيوعية ، كما يدل على ذلك الخبر الذي نشر في صحيفة اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية والذي اشار الى انعقاد المؤتمر « التأسيسي للحزب الشيوعي في فلسطين » في مدينة يافا · وقد اظهر هذا الخبر الحزب الشيوعي في فلسطين وكأنه « فرع الاممية الشيوعية » في هذا البلد ، مضيفا بأن « الحزب الشيوعي اليهودي ـ بوعالي تسيون » ، سيقبل « كفرع يهودي » لهذا الحزب (٩٨) ·

من ناحية اخرى ، دعت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ممثلي « الحزب الشيوعي في فلسطين » للمساهمة ، بصوت استشاري ، في اعمال المؤتمر العالمي الثالث الذي انعقد بمدينة موسكو خلال الفترة الواقعة بين ٢٢ حزيران و١٢ تموز ١٩٢١ (٩٩) ·

وبالفعل ساهم ممثلان عن الحزب الشيوعي في فلسطين في اعمال هذا المؤتمر (١٠٠) ·

وخلال الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر العالمي الثالث المنعقدة في يوم ٢٥ حزيران ،

اعلن « كارل راديك » باسم لجنة مراقبة العضوية بأنه وعلى الرغم من ان الصين ، وتركستان ، ومنغوليا وفلسطين لا تمتلك بعد احزابا شيوعية « فان التطور الكبير للحركة الثورية في هذه البلدان ، يتيح لنا الفرصة للسماح لممثلي الحركات الثورية في هذه البلدان بالاشتراك ، بصوت استشاري ، في اعمال هذا المؤتمر .. » (١٠١) ٠

غير ان ممثلا الحزب في اعمال المؤتمر العالمي الثالث لم يستطيعا الحصول على اعتراف قيادة الاممية الشيوعي الرسمي بحزبهم ٠ حيث طالب المندوب البولوني ممثلا الحزب الفلسطيني باعلان انفصال حزبهم عن الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون قبل ان تبحث قضية الاعتراف الرسمي به ، ثم رفعت القضية لتبحث في اجتماعات اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بعد انتهاء اعمال المؤتمر (١٠٢) العالمي الثالث الذي اقر بين قراراته ، قرارا خاصا عن الوضع في فلسطين (١٠٣) ٠

في اواخر العام ١٩٢١ ، قرر حزب العمال الاشتراكي ( او الحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون ) ، الذي كان يعارض دوما فكرة التعاون مع الهستدروت ، تشكيل لجنة نقابية خاصة اطلق عليها اسم « لجنة التنظيم » ، هدفها السعي لاقامة منظمة نقابية مستقلة ، منظمة « صراع طبقي » ٠ فأعضاء الحزب الذين كانوا يتابعون النقاشات الدائرة في اوساط الاممية الشيوعية حول تكتيك « الجبهة العمالية المتحدة » ، كانوا يعتقدون بأن هذا الشعار لا يتلاءم مع الظروف الموضوعية السائدة في فلسطين ، خاصة وان المنظمات العمالية الصهيونية المتواجدة في هذا البلد لم تكن تمثل في نظرهم منظمات « اشتراكية ـ ديمقراطية اصلاحية » فحسب ، بل ايضا منظمات « قومية » شوفينية تتعاون مع البرجوازية الرجعية اليهودية ومع الامبريالية الانكليزية ٠ ومن هنا ، انطلقت دعوتهم لاقامة منظمة نقابية مستقلة ٠

غير ان تجربة « لجنة التنظيم » لم تدم طويلا ، حيث اضطرت قيادة الحزب الى حلها بعد فترة وجيزة من تشكيلها ، وذلك بسبب « خيانة بعض العناصر المترددة ، وظروف المقاطعة الاقتصادية التي فرضتها على اللجنة المنظمات الصفراء ، والحملة القمعية التي شنت ضد اعضائها » (١٠٤) ٠ وحينئذ قررت قيادة الحزب السعي لنشر دعايتها السياسية داخل الهستدروت عن طريق تشكيل اقليات ثورية داخل كافة النقابات التابعة للاتحاد العام للعمال اليهود في فلسطين ٠ وخلال الاجتماع السري الذي عقده ممثلو هذه الاقليات النقابية الثورية ، تقرر تشكيل « كتلة عمالية » داخل الهستدروت ، وتم انتخاب مجلس مركزي على قاعدة البرنامج التالي :

« ١ ـ استقلال النقابات المهنية ، ٢ ـ فصل المهام النقابية عن المهام التعاونية ، ٣ ـ ضمان الطابع الاممي للنقابات ( اي فتح المجال امام العمال العرب للانتساب اليها) ، ٤ ـ تشكيل المنظمات النقابية على اساس طبقي ، وعزل الحرفيين وصغار ارباب العمل من صفوفها ، ٥ ـ الاعتراف بمبدأ الصراع الطبقي المتوافق مع مبادىء وتكتيك الاممية النقابية الحمراء » (١٠٥) ٠

خلال العام ١٩٢٢ ، احتدم الصراع الايديولوجي الدائر في صفوف الحزب احتداما شديدا ٠ وكانت النقاشات تدور بالاساس حول قضيتين رئيسيتين :

١ ـ الموقف من « الصهيونية البروليتارية » ، ومن الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون .

٢ ـ الانضمام الى الاممية الشيوعية .

وبالتأكيد كانت ثمة علاقة جدلية بين القضيتين . فانتساب الحزب رسميا الى الاممية الشيوعية كان مرهونا بتخلصه من بقايا الايديولوجية الصهيونية .

كان الاتجاه « البوعالي تسيون » داخل الحزب بقيادة « ايليشا » (١٠٦) (ELISCHA) يجاهد في سبيل الحفاظ على علاقات الحزب مع الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون . وقد استطاع هذا الاتجاه استقطاب غالبية اعضاء الحزب الى جانبه .

اما الاتجاه « التصفوي » المعادي للصهيونية بقيادة « برزيلاي » (١٠٧) (BARSILAI) فقد كان يدعو الى قطع كافة روابط الحزب مع الاتحاد العالمي والانضمام الفوري الى الاممية الشيوعية .

وكانت هذه النقاشات الايديولوجية الدائرة في صفوف الحزب تجري ، كما كنا قد ذكرنا ، في اطار المفاوضات الجارية بين قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون وبين قيادة الاممية الشيوعية . فالى اين كانت قد وصلت هذه المفاوضات خلال تلك الفترة ، وماذا كانت نتيجتها ؟... للاجابة على هذا السؤال علينا ان نعود الى الوراء قليلا ..

كلفت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية « كارل راديك » ، غشية افتتاح مؤتمرها العالمي ، بدراسة المذكرة التي رفعتها اليها قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون ، وتقديم تقرير مفصل بهذا الخصوص الى مندوبي المؤتمر الثالث للاممية الشيوعية .

وخلال الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر ، المنعقدة في ٢٥ حزيران ١٩٢١ ، اعلن « كارل راديك » باسم لجنة مراقبة العضوية بأن اللجنة قد وافقت على اشتراك وفد البوعالي تسيون بصورة استشارية في اعمال المؤتمر « نظرا لرغبته باجراء مفاوضات مع اللجنة التنفيذية بهدف الانضمام الى الاممية الشيوعية » (١٠٨) . غير ان «ك. راديك» رفض الموافقة على الشروط التي وضعتها قيادة الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون للانضمام الى صفوف الاممية الشيوعية ، وذلك لاسباب مبدئية وتنظيمية : « انني لا استطيع بصورة مبدئية ـ اعلن راديك ـ الموافقة على دعوة البوعالي تسيون الى هجرة الجماهير اليهودية الى فلسطين والاقامة فيها . صحيح ان الحزب يبرر موقفه هذا بالحديث عن الظروف الخصوصية التي يعيش في كنفها العمال اليهود (...) . ولكنه ، في المستقبل المرئي سيكون هناك عدة جمهوريات سوفياتية في بلدان متعددة ، وسيستطيع العمال اليهود حينئذ العمل في المرافق الانتاجية لهذه البلدان ، ولن يكونوا مجبرين بعد ذلك على الهجرة .

ولهذا ـ اضاف راديك ـ فان الدعوة الى الهجرة نحو فلسطين لا تبدو لي الا مظهرا من مظاهر آثار ايديولوجية قومية تم تجاوزها (...) . ومن ناحية تنظيمية ، لايظهر

لي بأنه يجب تأسيس اتحاد عالمي للعمال اليهود للعمل على ضمان المصالح الخصوصية للبروليتاريا اليهودية · الا نستطيع تكليف الاحزاب الشيوعية في البلدان المختلفة بالاهتمام بهذه المهمة ؟ (···) » (١٠٩) ·

وفي نهاية مداخلته ، طلب « كارل راديك » من اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية تشكيل لجنة خاصة لاجراء المفاوضات مع قيادة الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ، والسعي لتوضيح بعض القضايا المبهمة ·

في جلستها المنعقدة في ١٢ تموز ١٩٢١ ، ناقشت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قضية انضمام البوعالي تسيون الى صفوف الاممية،حيث قررت تشكيل لجنة خاصة مؤلفة من ثلاثة اعضاء لاجراء المفاوضات مع ممثلي الاتحاد العالمي (١١٠) · وقد اقترحت اللجنة التنفيذية ثلاثة شروط مسبقة لتكون القاعدة التي ترتكز عليها اللجنة خلال المفاوضات :

١ ـ يجب على البوعالي تسيون ان يحذف من برنامجه ، وقبل كل شيء ، البند المتعلق بهجرة اليهود الى فلسطين ·

٢ ـ يجب حل الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ·

٣ ـ يجب على فروع البوعالي تسيون الانضمام ، كوحدات يهودية ، الى فروع الاممية الشيوعية (١١١) ·

لم تسفر المفاوضات التي جرت بين ممثلي الاممية الشيوعية وبين ممثلي الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون عن اي نتائج عملية · ففي الوقت الذي كانت فيه قيادة البوعالي تسيون تأمل بمناقشة كافة القضايا ، بما فيها قضية الصهيونية ، مع ممثلي الاممية ، كانت شروط المفاوضات المسبقة التي وضعتها اللجنة التنفيذية لهذه الاخيرة تعني عمليا بأن على البوعالي تسيون ان يحل اتحاده العالمي وان يلغي برنامجه الصهيوني قبل ان يبدأ بمناقشة قضية انتسابه الى الاممية الشيوعية ·

وبعد فشل المفاوضات ، قررت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ارسال مذكرة الى قيادة الاتحاد العالمي ، تقترح عليها فيها الدعوة لعقد مؤتمر عام لفروع الاتحاد خلال فترة لا تتعدى الخمسة اشهر وذلك بهدف اقرار حل الاتحاد العالمي ، وانضمام اعضائه ، خلال مهلة لا تتعدى الشهرين ، الى فروع الاممية الشيوعية القطرية · كما طلبت اللجنة التنفيذية من قيادة الاتحاد ان توافق ، دون ، تحفظ على موضوعات المؤتمرين الثاني والثالث للاممية الشيوعية ، وان تقطع تماما كافة الروابط التي تربطها بالاتجاهات والاطروحات الصهيونية ، وان تعارض الاتجاهات الاستيطانية اليهودية في فلسطين المسخرة أساسا لخدمة مصالح الامبريالية الانكليزية (١١٢) ·

وقد أشادت اللجنة التنفيذية في مذكرتها بجهود اعضاء البوعالي تسيون في فلسطين، الذين استطاعوا وضع الاسس المناسبة لاقامة حركة شيوعية في هذا البلد ، سيكون بامكانها في حال موافقتها على جميع شروط اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، التحول الى فرع الاممية القطري في فلسطين · ومن جهة اخرى ، تعهدت اللجنة التنفيذية ، في حال موافقة الاتحاد العالمي على شروطها ، بأن تعمل على تشكيل اجهزة خاصة للاهتمام بالقضايا المتعلقة باليهود داخل الاحزاب الشيوعية ، وان تنشيء « مكتبا للقضايا اليهودية » مرتبطا بها مباشرة (١١٣) ·

في رسالتها الجوابية على مذكرة اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية اعلنت قيادة الاتحاد العالمي عن موافقتها على دعوة مؤتمر عام لممثلي فروعها وذلك لمناقشة شروط الانضمام الى الاممية الشيوعية · ولكنها طلبت قبل انعقاد المؤتمر اجراء لقاء اضافي مع ممثلي اللجنة التنفيذية للاممية بهدف « مناقشة الوضع المستجد » (١١٤) · غير ان هذا اللقاء ، الذي جرى بالفعل في موسكو ، لم يثمر اي نتيجـة خاصة وان مواقف الطرفيـن لم يحصل عليها اي تغيير ·

وبعد فشل هذا اللقاء ، شعرت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بضرورة عرض موقفها ، بكل وضوح ، بخصوص قضية انضمام الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون الى صفوفها ، لاعتقادها بأن توضيح مواقف كلا الطرفين خلال المفاوضات سيساعد على تدعيم مواقف اتجاه الاقلية داخل الاتحاد العالمي ، الممثل انذاك « بمكتب التنظيم » في فيينا ، والذي كان يعتقد بأنه سيكون على استعداد للتخلي عن النشاط الصهيوني في فلسطين والقبول بحل الاتحاد العالمي ·

وفي هذا الاتجاه ، اصدرت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بيانا مطولا ،اكدت فيه على انه قد انعقد ، بطلب من قيادة الاتحاد العالمي ، لقاء جديد بين ثلاثة مندوبين عـن البوعالي تسيون ( مندوبان عن الاغلبية ، ومندوب عن الاقلية ) ، وبين لجنة خاصة عن اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية مؤلفة من اربعة مندوبين (١١٥) ·

وخلال هذا اللقاء اقترح مندوبا اتجاه الاغلبية داخل البوعالي تسيون عـلى ممثلي اللجنة التنفيذية للاممية الاختيار بين حلين اثنين : اما ان يحـل الاتحـاد العالمي وتنضم فروعه الى فروع الاممية الشيوعية كأقسام يهودية يجمعها برنامج عمل موحد يتضمن اشارة واضحة الى المشروع الفلسطيني ، او ان يستمر الاتحاد العالمي بالتواجد المستقل وينضم الى الاممية الشيوعية « كحزب نصير » ، ولكن على شرط ان توافق قيادة الاممية على الغاء ادانتها للمشروع الاستيطاني اليهودي في فلسطين (١١٦) ·

رفضت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية رفضا قاطعا الحلول المقترحة من قيادة الاتحاد العالمي ، واعربت عن قناعتها بأن المواقف الاخيرة التي تبنتها هذه القيادة ، تعني عمليا رفضها النهائي للشروط الرئيسية التي وضعتها اللجنة التنفيذية للموافقة على انضمام البوعالي تسيون الى صفوفه الاممية · وانطلاقا من هنا ، اكدت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بأنها لن تماطل ، بعد ذلك ، في حسم هذا الموضوع ، خاصة بعد ان فشلت المفاوضات المستمرة منذ فترة طويلة · وقد لاحظت اللجنة التنفيدية بارتياح ، بأن اتجاها يمثل الاقلية داخل الاتحاد العالمي قد عبر عن دعمه المطلق لوجهة نظر اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، علما بأن « هؤلاء الرفاق ـ أضافت اللجنة التنفيذية ـ لم يدافعوا بحزم عن افكارهم خلال حملة التحضير للمؤتمر العام للبوعالي تسيون » (١١٧)·

وفي ختام بيانها ، طالبت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية جماهير العمال اليهود باتخاذ موقف ثوري واضح ، واعربت عن ثقتها « بأنه وعلى الرغم من معارضة قادة البوعالي تسيون ، الذين يدافعون ، كما في السابق ، عن برنامجهم الطوباوي الرجعي بخصوص فلسطين ، فان العمال المنضوين تحت لواء الاتحاد العالمي سيجدون طريقهم الى الاممية الشيوعية ، مهما كانت طبيعة القرارات التي ستتخذها اغلبية المندوبين خلال الكونفرس العالمي ··» (١١٨) ·

خلال الحملة التحضيرية التي سبقت انعقاد المؤتمر العام لفروع الاتحاد العالمي ، قامت قيادة البوعالي تسيون بشن حملة واسعة لطرد ممثلي الاقلية من صفوف الاتحاد · وبعد ان نجحت في تحقيق هدفها هذا ، دعت لعقد المؤتمر في مدينة « دانزيغ » ( Dantzig ) خلال شهر حزيران ١٩٢٢ ·

اكد مؤتمر الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون رفضه لشروط الانضمام الى الاممية الشيوعية التي وضعتها لجنتها المركزية ، واقر القرار التالي : « على الرغم من ارادة حركتنا القوية بالانضمام الى الاممية الشيوعية ، فانها ترفض بصورة قاطعة وبالاجماع متطلبات الاممية الشيوعية غير المشروعة ، وتعلن بأن الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون الشيوعي لن ينضم الى الاممية الشيوعية ، على الصعيد التنظيمي ، الا على قاعدة برنامج واضح يأخذ باعتباره شروط حياة وتواجد الجماهير العمالية اليهودية » (١١٩) ·

وبعد ان علمت بمضمون المقررات السلبية التي اقرها مؤتمر البوعالي تسيون ، اصدرت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، في ٢٥ تموز ١٩٢٢ ، بيانا عاجلا « الى جميع عمال العالم والى البروليتاريا اليهودية » (١٢٠) ، تعلمهم فيه عن قرار مؤتمر الاتحاد العالمي برفض شروط الانضمام الى الاممية الشيوعية « التي وضعتها لجنتها التنفيذية بالتنسيق مع ممثلي الاقلية داخل البوعالي تسيون » · وقد جاء في هذا البيان : « ان الفكرة الفلسطينية التي تهدف الى صرف انظار الجماهير العمالية اليهوديين عن الصراع الطبقي ، ليست سوى فكرة برجوازية ـ صغيرة ورجعية » ·

ودعت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية في بيانها كافة فروعها القطرية لخوض صراع حازم ضد العناصر البرجوازية الصغيرة اليهودية ، وطالبتها بدعم جناح الاقلية داخل الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ليتمكن من تطبيق شروط الانضمام الى الاممية الشيوعية · وفي هذا الاطار ، اعلنت اللجنة التنفيذية عن رغبتها بالدعوة لانعقاد اجتماع عام ، خلال جلسات المؤتمر العالمي الرابع للاممية الشيوعية ، يجمع ممثلي جميع المجموعات اليهودية المنتسبة الى صفوف الاممية ، او في طريقها للانتساب ، وذلك بهدف دراسة الخطوط العريضة لاقامة مكتب للدعاية يكون مرتبطا باللجنة التنفيذية ·

خلال نقاشات المؤتمر العالمي الرابع للاممية الشيوعية ، قدم المندوب البولوني «MARCHLEWSKI» تقريرا مقتضبا عن قضية البوعالي تسيون ، كان بمثابة التقرير الاخير الذي ناقشته الاممية الشيوعية حول هذه القضية ·

فبعد ان تعرض تعرضا سريعا لفشل كافة الجهود التي بذلتها قيادة الاممية الشيوعية لتأمين انتساب البوعالي تسيون الى صفوفها ، « وذلك نظرا للدور الذي لعبته الاتجاهات القومية داخل هذه المنظمة » ، واعلن المندوب البولوني بأن هيئة رئاسة الاممية الشيوعية قد تسلمت حديثا رسالة « من بعض الرفاق الذين كانوا ينتمون الى البوعالي تسيون ، يعلنون فيها بانهم قد عقدوا كونغرسا خاصا اقروا فيه انسحابهم من البوعالي تسيون (···) وموافقتهم على الانضمام الى صفوف الاحزاب الشيوعية » (١٢١) ·

كان لفشل المفاوضات بين قيادة الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون وبين اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية انعكاسات مباشرة على اوضاع الحزب في فلسطين · فبعد ان اعلنت قيادة الاممية الشيوعية قطيعتها التامة مع سياسة ومواقف البوعالي تسيون ، اصبحت امكانية التعايش بين الاتجاهين « البوعالي تسيون » من جهة « والمعادي للصهيونية »

من جهة اخرى ، شبه مستحيلة داخل حزب العمال الاشتراكي في فلسطين ، وتهاوت بذلك احدى اهم العقبات التي كانت تمنع الاتجاه « التصفوي » داخل الحزب من اعلان انشقاقه · وهذا ما حدث بالفعل ، بعد اسابيع قليلة من اعلان فشل المفاوضات بين قيادة الاممية الشيوعية وبين قيادة الاتحاد العالمي ·

ففي المؤتمر الرابع للحزب ، الذي انعقد في شهر ايلول ١٩٢٢ ، اعلن اتجاه الاقلية « المعادي للصهيونية » انسلاخه عن الحزب ، وتشكيله لمنظمته السياسية المستقلة ، تحت اسم « حزب الشيوعيين الفلسطينيين » (K.P.P.) (١٢٢) فاثناء نقاشات المؤتمر الرابع للحزب ، اقترح اتجاه الاقلية اليساري بقيادة « برزيلاي » الانسحاب الفوري من الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ، والانضمام غير المشروط الى صفوف الاممية الشيوعية · غير ان اغلبية المندوبين رفضت الموافقة على هذا الاقتراح ، ودعت الحزب لانتظار انسحاب اعضاء البوعالي تسيون البولوني من الاتحاد العالمي ، قبل اتخاذ قرار خاص بالانسحاب ·

غير ان اسباب الانشقاق لم تقتصر فقط على وجود خلافات بالنسبة لمستقبل العلاقات بين الحزب الفلسطيني وبين الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ، بل كان هناك نقطة اختلاف جوهرية اخرى بين مندوبي الاتجاهين ، تجسدت بالموقف من نضال الحركة القومية العربية المعادي للامبريالية والصهيونية ·فبينما كان ممثلو اتجاه الاغلبية يعارضون فكرة تقديم اي دعم كان لنضال الحركة القومية العربية بحجة « التركيب البرجوازي والاقطاعي لقياداتها » ، كان ممثلو الاتجاه اليساري المعادي للصهيونية يعتقدون بأن التعاون في النضال بين الشيوعيين وبين الحركة القومية العربية هو قضية مبدئية في استراتيجية النضال المعادي للاستعمار ، وذلك على الرغم من حقيقة ان قيادة هذه الحركة القومية توجد في ايدي العناصر البرجوازية والاقطاعية (١٢٣) ·

وقد اعتقد مؤسسو « حزب الشيوعيين الفلسطينيين » ، ورثة تعاليم « مايرزون » ، بأن انسلاخهم عن الحزب سيساعدهم في التخلص « من كافة العناصر البرجوازية الصغيرة، وسيمكنهم من التطور كنواة للمنظمة الثورية المستقبلية ( الممثلة لمصالح ) البروليتاريا الفلسطينية » ، وان انشقاقهم عن الحزب سيساعدهم على الانضمام الفوري الى صفوف الاممية الشيوعية (١٢٤) ·

وبعد انسحاب « التصفويين » من أعمال المؤتمر الرابع ، اقرت غالبية المندوبين توصية قدمها قائد الحزب « ايليشا » ، والذي يقترح فيها انضمام حزبه ، خلال فترة لا تتعدى الثلاثة اشهر ، الى صفوف الاممية الشيوعية ، في الوقت الذي يؤكد فيه على ضرورة اقامة المركز العمالي اليهودي في فلسطين ، وزيادة هجرة اليهود الجماعية الى هذا البلد (١٢٥) ·

اعتبارا من ذلك التاريخ ، وطوال فترة العشرة شهور التالية ، دخل الاتجاهان المستقلان ـ حاليا ـ في صراع ايديولوجي وسياسي عنيف ، بهدف تعزيز مواقعهما بين صفوف الطبقة العاملة اليهودية في فلسطين ·

فبينما نظمت الاغلبية في تشرين الثاني ١٩٢٢ « كتلة عمالية » داخل الهستدروت ، شكلت الاقلية منظمتها النقابية المستقلة داخل الهستدروت ، تحت اسم « الكتلة البروليتارية»·

اثارت عملية تبلور اتجاه معاد للصهيونية مستقل في فلسطين ، مخاوف قيادة الاتحاد

العالمي للبوعالي تسيون التي قررت ايفاد مجموعة جديدة من كوادرها الى هذا البلـــــد لمجابهة النتائج التي قد تنتج عن تعزز نشاط هذا الاتجاه المعادي للصهيونية ، ومنعه من التأثير على مواقف بقية اعضاء الحزب · وقد وصلت هذه المجموعة الجديدة في موفدي قيادة الاتحاد العالمي الى فلسطين في اواخر العام ١٩٢٢ ، وكان علـــــى رأسهـــــا « Wolg Auerbach » ، (١٢٦) « دانييل » ، « حيدر » ، « ابو زيام » ، الذي سيصبح اعتبارا من نهاية العام ١٩٢٣ السكرتير العام للحزب الشيوعي في فلسطين ·

كان وقع صدى هذه المبادرة الجديدة لقيادة الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ضعيفا بين صفوف اعضاء الحزب ( اتجاه الاغلبية ) ، خاصة في الوقت الذي كان فيه عدد متزايد من هؤلاء الاعضاء يطالبون قياداتهم باتخاذ مواقف مستقلة ، اكثر فأكثر ، عن مواقف الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ، ويقتربون بذلك ، شيئا فشيئا ، من مواقف الاقلية اليسارية المنضوية تحت لواء « حزب الشيوعيين الفلسطينيين » ·

استمرت عملية تجذر مواقف اعضاء اتجاه الاغلبية داخل الحزب ، وابتعادهم عن مواقف قيادة الاتحاد العالمي عدة اشهر ، وقد سهلت هذه العملية امكانيات اللقاء بين الاتجاهين ، وخلقت الظروف الموضوعية الملائمة لطرح قضية العمل على تحقيق وحدة الحزب من جديد · وخلال المفاوضات التي جرت حينئذ بين ممثلي الاتجاهين ، تأكد ممثلو اتجاه الاقلية المعادي للصهيونية بأن اوهام ممثلي الاتجاه الاخر قـــد تداعت بخصوص ايديولوجية « الصهيونية البروليتارية » ، وان الحزب قد قطع علاقاته نهائيا مع الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون · وأعرب ممثلو اتجاه الاغلبية من جهتهم ، عن استعدادهم لدعم الحركة القومية العربية والتعاون معها في النضال المشترك ضد الامبريالية الانكليزية وضد الحركة الصهيونية ·

ثم اقرار الوحدة خلال الكونغرس الحزبي الذي انعقد في ٩ تموز ١٩٢٣ ، والذي ساهم فيه ممثلو الاتجاهين : وفد الاقلية برئاسة « برزيلاي » ، ووفد الاغلبية برئاسة « دانييل » او « ابو زيام » · وقد اتفق ايضا على توحيد النشاط النقابي ، حيث تم دمج التكلتين النقابيتين للاتجاهين وتشكيل منظمة نقابية موحدة ، اطلق عليها اسم « الكلتة العمالية» ·

انتخب كونغرس تموز الحزبي لجنة مركزية موحدة مؤلفة من ثمانية اعضاء : خمسة عن اتجاه الاغلبية ، وثلاثة عن اتجاه الاقلية · واعتبارا من ذلك التاريخ تبنى الحزب نهائيا اسم « الحزب الشيوعي في فلسطين » ( PZP ) (١٢٧) ·

مثل كونغرس تموز ١٩٢٣ علامة بارزة في تاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين ، حيث ارتقت هذه الحركة ، خلال هذا الكونغرس ، على الطريق السوي ، طريق بلورة ايديولوجية ماركسية ـ لينينية واضحة ، مكنتها من اتخاذ مواقف سليمة تجاه الحركة القومية العربية المعادية للامبريالية من جهة ، وتجاه الحركة الصهيونية من جهة اخرى ·

فقد جاء في مقررات الكونغرس بخصوص الحركة القومية العربية :« نرى في الحركة القومية العربية احد العوامل الاساسية التي تقاوم الاستعمار البريطاني · ولذا فنحن نعتقد انه من واجبنا القيام بكل شيء من اجل مساندة هذه الحركة ، بمدى مقاومتهـــــا للاستعمار » (١٢٨) ·

ادان كونغرس تموز في مقرراته الحركة الصهيونية باعتبارها حركة « تتجسد فيها تطلعات البرجوازية اليهودية » ، واعلن بأن الصهيونية قد وقفت من الناحية السياسية

« في جبهة واحدة مع الاستعمار البريطاني ، حيث ربطت مصيرها مع المحتليين الامبرياليين ٠ » وانطلاقا من هنا ، دعا كونغرس تموز جماهير العمال اليهود للنضال ضد الحركة الصهيونية ، وخاصة ضد « اتجاهاتها البروليتارية » ، وجاء في تلخيص القرارات « الصهيونية بصفتها رسول الاستعمار البريطاني يجب مقاومتها بواسطة العمل الايضاحي بين العمال اليهود ، وخاصة يجب توجيه النضال ضد الصهيونية البروليتارية التي يضطلع بها اليمينيون ( احدوت هعفوداه ) والوسط ( الاشتراكيون الديمقراطيون ) واليساريون ( الحزب الشيوعي اليهودي ) ، وجميع الاخرين الذين سيظهرون ٠٠ » (١٢٩)٠

اقر كونغرس تموز ١٩٢٣ من جهة اخرى اقامة حركة للشبيبة الشيوعية في فلسطين ، ودعا لانعقاد مؤتمر عام لتأسيس منظمة الشبيبة الشيوعية ٠ ويصف « Chaim Davidovitz » ، أحد قادة هذه المنظمة عملية تأسيسها فيقول : « في صيف العام ١٩٢٣ ، وبناءا على قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين ، تم تنظيم حملة واسعة في يافا، وحيفا ، والقدس لاقامة النواة الاولى لحركة الشبيبة الشيوعية(٠٠٠) وفي اواخر شهر نيسان ١٩٢٤ ، انعقد بمدينة القدس المؤتمر التأسيسي لعصبة الشبيبة الشيوعية في فلسطين ٠٠٠ » (١٣٠) ٠

في ايلول ١٩٢٣ ، قررت قيادة الحزب الشيوعي في فلسطين ايفاد ممثلها « دانييل » (W. Auerbach) الى موسكو لاقناع قيادة الاممية الشيوعية بالاعتراف الرسمي بالحزب ٠ وبالفعل توجه ممثل الحزب الشيوعي في فلسطين الى موسكو ، عن طريق برلين ، في شهر تشرين الاول من العام نفسه ٠ غير انه لم يتمكن من الوصول الى موسكو قبل كانون الثاني ١٩٢٤،وذلك بسبب توقيفه خطأ من قبل البوليس في مدينة «ريفا» (١٣١)٠

كلفت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية لجنة خاصة برئاسة « كارل راديك » لاجراء المفاوضات مع ممثل الحزب الشيوعي في فلسطين ٠ وبعد عدة اسابيع من المفاوضات المستمرة ، اعترفت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية في اذار ١٩٢٤ بالحزب الشيوعي في فلسطين ، ووافقت على قبوله رسميا في صفوفها (١٣٢) ٠

ومن موسكو بعث « دانييل » برسالة الى رفاقه في فلسطين يعلمهم فيها باعتراف الاممية الشيوعية الرسمي بالحزب ، حيث جاء فيها : « لقد وافقت اللجنة التنفيذية البارحة على القرار ( يقصدر قرار الاعتراف بالحزب ٠ م٠ش ) ، وهكذا انحلت قضية الانضمام (الى صفوف الاممية ) ٠ لقد اضعت هنا وقتا كثيرا ، بسبب انشغال الجميع بوفاة لينين ٠ في شباط فقط بدأت تحركاتي حيث التقيت مع راديك ، وبوخارين ، وكالينين ، وزينوفييف ٠ في البداية ، كانوا يعتبرون فلسطين بلدا من دون اهمية ، غير انهم تيقنوا من شيوعيتنا الصافية ٠ ومن جهة اخرى ، كانوا يعتقدون بأن الاعتراف بنا كحزب شيوعي سيعني مصادقتهم على وعد بلفور الذي يعترف ايضا بوجود اقلية يهودية (٠٠٠)٠

وكانوا يتصورون كذلك ـ اضاف « دانييل » ـ بأن غياب عناصر شيوعية عربية بين صفوفنا سببه ضعف نشاطنا في هذا الاتجاه وتأثرنا بالمشاعر القومية ٠ لقد كلفتني عملية الحصول على الاعتراف خوض نقاشات مطولة واعطاء تاكيدات متعددة ، ولم يتم ذلك في النهاية الا بعد حصولنا على اصوات كاتاياما ، ومارينغ ، وممثلي الاممية النقابية الحمراء » (١٣٣) ٠

اكد « كارل راديك » لممثل الحزب الشيوعي في فلسطين بأن « توجه حزبه العام

وتكتيكه يتوافقان مع المهام الثورية » المطروحة امامه ، ولكنه اعرب له ، في الوقت نفسه، عن قناعته بأن مستقبل الحزب الشيوعي في فلسطين سيتعلق بمدى قدرته على التحول الى « حزب قطري » · وفي هذا الاتجاه أكدت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، في القرار الذي اتخذته بصدد قبول انضمام الحزب الشيوعي في فلسطين الى صفوفها ، بأن على الحزب الفتي ان يسعى لاقامة صلات وثيقة مع اوسع الجماهير العربية ، بغية تحويل الحزب من منظمة للعمال اليهود الى حزب قطري فعلي · ودعت اللجنة التنفيذية الشيوعيين في فلسطين لدعم نضال حركة التحرر الوطنية للسكان العرب ضد الاحتلال البريطاني ـ الصهيوني (١٣٤) ·

قبل ان يغادر العاصمة السوفياتية ، التقى « دانييل » بممثلي الاممية النقابية الحمراء لاقامة روابط رسمية معهم · ويبدو ، بهذا الصدد ، بأن قيادة الاممية النقابية الحمراء كانت تتابع ، منذ بدايات العام ١٩٢٣ ، مجرى النضال النقابي الثوري في فلسطين · فبعد ان يعرض « Heller » احد قادة هذه الاممية ، في مقال له عن الحركة النقابية في الشرق ، الصعوبات التي تعترض تطور الحركة النقابية الثورية في فلسطين ، يكتب (في آب ١٩٢٣ ) : « في المدة الاخيرة ، بدأ تأثير الشيوعيين يظهر بين العمال اليهود ، حيث تشكل اتجاه ثوري داخل النقابات اليهودية ، ولكنه ضعيف للان ··» (١٣٥) ·

وفي ٢٠ شباط ١٩٢٤ ، قبل ان يغادر « دانييل » موسكو ، وجه المكتب التنفيذي للاممية النقابية الحمراء نداء الى « العمال العرب في فلسطين » جاء فيه : « ايها العمال العرب ·· ان الاممية النقابية الحمراء التي تضم في صفوفها ( ١٥) مليون عامل ثوري من مختلف القوميات ، والتي تخوض نضالا حاسما ضد الاستغلال الرأسمالي ، وتدعم كل حركة ثورية معادية للاضطهاد القومي ، تتوجه اليكم بهذا النداء ، يا عمال فلسطين العرب ، وتدعوكم للنضال في سبيل تحرركم (···) ان اللاممية النقابية الحمراء انصارا في بلدكم فلسطين · انهم مناضلو الكتلة العمالية داخل الهستدروت ، يناضلون منذ وقت طويل ليس في سبيل المصلحة القومية اليهودية ، وانما في سبيل المصالح الطبقية، في سبيل مصالح العمال اليهود والعرب · ان الكتلة العمالية تسعى لاقامة تحالف بينكم وبين العمال الثوريين اليهود بهدف النضال على جبهة واحدة ضد المستعمرين والمستوطنين الاغنياء (···) ·

ايها العمال العرب ·· عليكم ان تجابهوا تحالف رأس المال الانكليزي ـ الصهيوني مع الشيوخ والافندية العرب بالتضامن الكفاحي لجميع العمال الثوريين في فلسطين (···) · » (١٣٦) ·

وبعد ان حصل « دانييل » على اعتراف قيادة الاممية الشيوعية بالحزب الشيوعي في فلسطين ، وتمت الموافقة على قبوله في صفوفها كتب الى رفاقه في فلسطين قائلا : « يجب عليكم ان تحتفلوا بانتسابنا ( الى صفوف الاممية ) ، فقد كلف تحقيق ذلك جهودا كثيرة ·· » (١٣٧) ·

وهكذا بدأت مرحلة نضالية جديدة في مسيرة الحركة الشيوعية في فلسطين ···

## استنتاجات وملاحظات عامة ···

العملية التاريخية التي حاولنا التعرف على حيثياتها ابتدأت اذن مع ولادة الحركة العمالية اليهودية في فلسطين وانتهت بموافقة قيادة الاممية الشيوعية على انضمام الحزب الشيوعي في فلسطين رسميا الى صفوفها ···

هل كان نهج البحث الذي اعتمدناه سليما ؟٠٠ هل كان من الضروري لدراسة تاريخ ولادة وتشكل الحركة الشيوعية في فلسطين الرجوع الى تاريخ نشوء الحركة العمالية اليهودية في فلسطين ؟٠٠ اجابتنا على هذا السؤال كانت نعم ٠٠٠ وقد انطلقنا في بداية البحث من الافتراض القائل بأن النواة الاولى للحركة الشيوعية في فلسطين لم تتشكل في العام ١٩١٩ كوليدة ساعتها ، ولم تكن حركة دخيلة على البلاد بمعنى انها تشكلت بعد ان ارسلت قيادة الاممية الشيوعية ببعض موفديها الى فلسطين لهذا الغرض ، وانما قامت على ارضية تاريخية محددة في ظل ظروف محلية وعالمية كانت قد نضجت لذلك ، وبارتباط وثيق مع عملية التمايز السياسي والايديولوجي التي عرفتها الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية العالمية ، وفي عدادها الحركة العمالية اليهودية ، والتي حسمت في اعقاب الحرب العالمية الاولى بانشقاق هذه الحركة الى جناحين : جناح اصلاحي عارض ثورة اكتوبر الاشتراكية وسعى لاحياء منظمات الاممية الثانية حتى بعد افلاسها التاريخي ، وجناح ثوري وقف الى جانب السلطة السوفياتية الجديدة ورفض المساهمة في اعادة احياء دور الاممية الثانية ، ودعا الى اقامة اممية عمالية ثالثة ، ثورية واممية ٠٠٠

يتفق عدد من الباحثين الذين تعرضوا لظروف ولادة الحركة الشيوعية في فلسطين مع الرأي القائل بأن النواة الاولى لهذه الحركة قد تشكلت بعد خروج الاقلية اليسارية من صفوف البوعالي تسيون الفلسطيني وتشكيلها لمنظمتها السياسية المستقلة ٠٠٠ ولكن كيف ومتى تشكلت مجموعة للبوعالي تسيون في فلسطين ؟ ما هي توجهاتها السياسية والايديولوجية ، وطبيعة ارتباطاتها العالمية ؟ ما هي العوامل الذاتية والموضوعية ، المحلية والعالمية ، التي أدت الى حدوث الانشقاق داخلها ؟٠٠٠ اسئلة عديدة رأينا بأنه من الضروري الاجابة عليها لنتمكن من رصد واستيعاب كافة خطوات ومراحل العملية التاريخية لولادة الحركة الشيوعية في فلسطين ٠٠

كانت الحركة العمالية اليهودية في فلسطين مرتبطة ارتباطا عضويا ، عند ولادتها ، بالحركة العمالية اليهودية في اوروبا الشرقية والوسطى ، وخاصة في روسيا القيصرية ٠ وقد رأينا بأن حزب البوعالي تسيون الفلسطيني قد تشكل على ايدي كوادر من البوعالي تسيون الروسي قرروا الانتقال الى فلسطين للمساهمة في عملية «التجميع الاقليمي للشعب اليهودي » وخوض « نضال طبقي حقيقي » ، وان الحزب الروسي قد ترك تأثيرا واضحا ، في البداية ، على سياسة وتوجهات البوعالي تسيون الفلسطيني ٠

كان البوعالي تسيون الروسي من اكثر الاحزاب راديكالية داخل الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ، وكان يجاهر علانية بانتماءاته الايديولوجية « الماركسية » ٠ وعند اندلاع الحرب العالمية الاولى ، ادان البوعالي تسيون الروسي هذه الحرب الامبريالية ودعم المواقف الاممية التي اتخذتها الاجنحة الثورية داخل الحركة الاشتراكية الديمقراطية العالمية بزعامة لينين ٠ وقد ساعد هذا الموقف على تعزيز مواقع الاتجاه اليساري داخل الحزب الذي كان يدعو ويسعى ، خاصة بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية ، للتوفيق بين مبادىء الحزب الصهيونية وبين مبادىء التيار الثوري داخل الحركة العمالية العالمية الملتف حول البلاشفة ٠ وعندما ثبت لممثلي هذا الاتجاه اليساري عجزهم عن فرض موضوعاتهم على مجمل اعضاء البوعالي تسيون الروسي ، قرروا الخروج عن الحزب وتشكيل منظمتهم السياسية المستقلة ممثلة بالحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون ٠ وقد كان لهذا الانشقاق ، الذي حصل داخل البوعالي تسيون الروسي في بداية العام

١٩١٩ ، نتائج مشابهة في بولونيا والنمسا ، حيث خرجت الاتجاهات اليسارية داخل البوعالي تسيون في كل من هذين البلدين عن احزابها وشكلت منظماتها المستقلة . ثم تشكل « مكتب التنظيم » في فيينا الذي اضطلع بمهمة توحيد كافة الاتجاهات اليسارية داخل الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون الراغبة في الانضمام الى صفوف الامية الشيوعية والرافضة لفكرة المساهمة في مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية . وقد تزعم ممثلو « مكتب التنظيم » الانشقاق الذي حصل داخل الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون في آب ١٩٢٠ ، والذي ادى الى قيام اتحادين عالميين : احدهما يميني والاخر يساري .

ضمن هذا الاطار التاريخي المحدد ، اطار عملية التمايز السياسي والايديولوجي التي بدأت تجري داخل حركة البوعالي تسيون في اوروبا الشرقية والوسطى والتي أدت في النهاية الى انقسام هذه الحركة ، علينا ان نضع العملية التاريخية التي أدت الى خروج الاقلية اليسارية داخل البوعالي تسيون الفلسطيني عن حزبها وتشكيلها ، بالتعاون مع بعض المجموعات الاشتراكية الراديكالية الاخرى ، لمنظمتها السياسية المستقلة .

غير ان هذه العملية التاريخية التي عرفتها فلسطين في اعقاب الحرب واحتلال الاستعمار البريطاني للبلاد ، كان لها ايضا اسبابها ودوافعها الخصوصية النابعة من حقيقة الواقع الملموس السائد في فلسطين آنذاك ... فانشقاق البوعالي تسيون الفلسطيني وتشكل حزب العمال الاشتراكي لم تكن اسبابه تقتصر فقط على طبيعة الموقف من السلطة السوفياتية الجديدة ، ولا على قضية الاختيار بين احدى الامميتين ، الثانية الاصلاحية أم الثالثة الثورية ، ولا حتى على قضية المساهمة او عدم المساهمة في مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية ، بل تعدت ذلك كله الى قضية الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه السياسة التي كانت تنتهجها قيادات الحركة العمالية الصهيونية في فلسطين ... ففي ظروف الاحتلال الاستعماري لفلسطين ، عارضت بعض العناصر الطليعية داخل هذه الحركة ، المتأثرة تأثرا عميقا بافكار ثورة اكتوبر ، السياسة الموالية للامبريالية والمعادية للعرب التي كانت تنتهجها الاحزاب الصهيونية ، واحست بغريزتها الثورية بأن مصالح العمال اليهود تتفق مع مصالح الكادحين العرب في النضال المشترك لتحرير البلاد من نير الحكم الاستعماري . وهكذا انشقت عن الحركة وسعت لقيام حزب بلشفي ثوري في فلسطين ، فكان تأسيس حزب العمال الاشتراكي الذي اعلن بقيامه ولادة النواة الاولى للحركة الشيوعية في فلسطين .. لقد مثل المؤتمر التأسيسي لحزب العمال الاشتراكي خطوة هامة على طريق بلورة نظرة ماركسية – لينينية وسياسة اممية ثورية في فلسطين ، خاصة في الاوضاع التي كانت قائمة آنذاك في البلاد وفي ظل واقع ان الحركة الشيوعية العالمية كانت لا تزال آنذاك في بداية طريقها ... ومن هنا ، يمكن اعتبار المؤتمر التأسيسي لهذا الحزب بمثابة المؤتمر الاول للحزب الشيوعي في فلسطين ..

ان ولادة النواة الاولى للحركة الشيوعية في فلسطين كنتاج للانشقاق اليساري الذي حصل داخل الحركة العمالية الصهيونية ، واقتصارها على العمال اليهود فقط ، قد صعب في البداية الفهم الكامل لمجموعة من المسائل النظرية والسياسية ، تجسدت أساسا في عدم فهم التناقض الجوهري والحتمي القائم بين الاشتراكية وبين الصهيونية .

وهكذا عرف حزب العمال الاشتراكي ، ومنذ لحظة ولادته ، صراعا ايديولوجيا حاميا تمحور حول هذا التناقض تحديدا ، وتجسد بظهور اتجاهين داخل الحزب : اتجاه توهم

بأن الصهيونية يمكن ان تكون اشتراكية وتقدمية ، واتجاه اخر احس سريعا بأن التناقض عدائي ، فعارض الاولى واختار الثانية ٠

استمر التعايش بين الاتجاهين داخل الحزب طوال فترة المفاوضات التي كانت تجري بين قيادة الاممية الشيوعية وبين قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون ٠ غير ان الصراع الايديولوجي المحتدم بينهما لم يضعف ، بل استمر وكأنه صراع حتمي تسيره قوانين موضوعية مستقلة عن ارادة البشر ، وعن ارادة قيادة الاتحاد العالمي التي كانت تتدخل مباشرة ، عن طريق ارسال موفديها الى فلسطين ، كلما كانت تشعر بأن الاتجاه المعادي للصهيونية داخل الحزب قد اوشك على كسب جولة جديدة في جولات هذا الصراع ٠ وحتى عندما كانت قيادة الاتحاد العالمي تنجح في اقصاء قائد هذا الاتجاه عن الحزب ، لا يلبث ان يظهر قائد جديد ليحل محله ٠٠ ( اقصي « مايرزون » فحل محله «برزيلاي» ) ٠٠ ونتيجة لتعايش وصراع هذين الاتجاهين ، كان الحزب يظهر بوجهين وكأنه يتكلم لغتين ، وذلك حسب موازين قوى كل من الاتجاهين في المرحلة المحددة من مراحل تطور هذا الصراع الايديولوجي المحتدم داخله ٠

بعد اسابيع قليلة فقط من اعلان فشل المفاوضات بين قيادة الاممية الشيوعية وبين قيادة الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون ، قرر الاتجاه المعادي للصهيونية الانشقاق عن الحزب وتشكيل منظمته السياسية المستقلة ٠

غير ان تأثير افكار الاممية الشيوعية كان عميقا جدا بين صفوف الحزب في ذلك الوقت ، لدرجة ان ممثلي الاتجاه المؤيد للصهيونية ، قد اقروا قرارا يؤكدون فيه رغبتهم بالانضمام الى صفوف الاممية الشيوعية خلال فترة لا تتجاوز الثلاثة اشهر ، وذلك حتى بعد ان اعلنت قيادة الاممية الشيوعية قطيعتها التامة مع الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون ومع توجهاته السياسية ٠ ومن هنا ، فان الانشقاق داخل الحزب لم يستمر اكثر من عشرة اشهر ، تمكن ممثلو واعضاء الاتجاه « البوعالي تسيون » خلالها من قطع كافة علاقاتهم مع قيادة الاتحاد العالمي ، ونفضوا عن كاهلهم بقية الاوهام العالقة حول « الصهيونية البروليتارية » ، واعربوا عن استعدادهم لدعم الحركة القومية العربية والتعاون معها في النضال ضد الامبريالية الانكليزية وضد الحركة الصهيونية ٠

وهكذا ، وبعد تقلبات مختلفة ، وبعد تقدم وتراجع ، تشكل في فلسطين حزب ماركسي ـ لينيني حقيقي ، ترسخ في النضال ضد تأثير الايديولوجية الصهيونية عبر تحرره من اوهام « الصهيونية البروليتارية » ٠

انتهت المرحلة الاولى من مراحل تاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين ، مرحلة عدم الوضوح الفكري ، ووافقت قيادة الاممية الشيوعية على انضمام الحزب الشيوعي في فلسطين الى صفوفها ٠ غير ان هذه الموافقة على قبول الحزب كانت مشروطة بعدة شروط ، تمحورت اساسا حول الشرطين التاليين المترابطين بصورة ديالكتيكية :

أولا ٠٠٠ يجب على الحزب ان لا يقصر نشاطه على الوسط اليهودي ، بل ان يوجهه اساسا باتجاه الوسط العربي ، بهدف اقامة روابط وثيقة مع جماهير العمال والفلاحين العرب تمكنه من دفع وتطوير النضال المعادي للامبريالية والمعادي للصهيونية في فلسطين ٠

ثانيا ٠٠٠ يجب على الحزب ، المقتصرة عضويته انذاك على اليهود ، ان يبذل كافة

جهوده ليتحول من منظمة للعمال اليهود الثوريين الى حزب قطري ثوري يمثل طليعة الكادحين العرب واليهود في فلسطين ·

هل سيتمكن الحزب الضعيف والمحارب من قبل سلطات الانتداب الامبريالية ، المتواطئة مع الاحزاب العمالية الصهيونية ومع بعض القيادات الرجعية العربية ، من انجاز هذا المشروع الطموح الذي وضعته امامه قيادة الاممية الشيوعية ، خاصة في ظل الظروف المتخلفة التي كانت سائدة في فلسطين في تلك الفترة ؟؟··· وفي اي اتجاه سيوجه نشاطه خلال المرحلة الجديدة من مراحل تطوره ؟؟··· هذا ما سنجيب عليه في بحث قادم ·

## الحواشي :

٥٥ ــ نظر م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٧٠ ·

٥٦ ــ للحد من تعاظم نفوذ حزب العمال الاشتراكي داخل نقابة عاملي السكك الحديدية الصهيونية ، تصدى ممثلو « اتحاد العمل » و « العامل الفتي» الثمانية ، خلال المؤتمر الثاني لهذه النقابة الذي انعقد في ٦ اذار ١٩٢٠ ، لممثلي حزب العمال الاشتراكي السبعة ودفعوهم لترك النقابة ·

انظر م· اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٧١ ·

٥٧ ــ ما جاء في احد تقارير اجهزة الاستخبارات البريطانية · اورده اوفينبرغ ، المصدر ذاته ، ص ١٧١ ــ ص ١٧٢ ·

٥٨ــ اسباب الانقسام الذي حصل داخل الاتحاد العالمي تجسدت اساسا بالموقف من قضية الانضمام الى صفوف الاممية الشيوعية وبالموقف من مسألة المساهمة بمؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية · وقد حدث الانقسام عندما صوت ( ١٧٩ ) مندوبا ضد ( ١٧٨ ) الى جانب مبدأ الانضمام الى صفوف الاممية الشيوعية ، ولم تتم عملية الاقتراع على مسألة المساهمة بالمؤتمرات الصهيونية ·

وهكذا انقسم الاتحاد العالمي للبوعالي تسيون الى اتحادين عالميين احدهما « يميني » والاخر « يساري » · وفي فلسطين ، وقف « اتحاد العمل » ( احدوت هعفوداه ) الى جانب الاتحاد العالمي « اليميني » بينما وقف حزب العمال الاشتراكي الى جانب الاتحاد العالمي « اليساري » ، الذي بدأ فعلا مفاوضاته مع قيادة الاممية الشيوعية بهدف بحث امكانية انضمامه الى صفوفها ··

٥٩ ــ للتعرف على ظروف تشكل هذا الاتجاه اليساري داخل البوعالي تسيون وعلى حقيقة مواقفه راجع ماهر الشريف ، قضية فلسطين ومناقشات ··· ، البحث المذكور ، ص ١٣٢ ــ ص ١٣٤ ·

٦٠ ــ اورده م· فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣١ ــ ص ٣٢ ·

٦١ ــ لمزيد من التفاصيل حول المداخلة التي القاها مايرزون في فيينا انظر م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٧٩ ــ ص ٨٧ ·

٦٢ ـ اورده م· فلنر ، المصدر المذكور، ص ٣١ ·

٦٣ ـ انظر « الاممية الشيوعية » ، رقم ١٤ ، تشرين الثاني ١٩٢٠ ، ص ٢٩١٩ ـ ص ٢٩٢٢· ( الطبعة الفرنسية )· لم يذكر التقرير المنشور عن اجتماع

اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية اسم ممثل حزب العمال الاشتراكي ولكننا نعتقد ، استنادا الى مضمون التقرير الذي قدمه ، بانه مايرزون بالتأكيد · فممثل الاتجاه اليساري للبوعالي تسيون « كون » الذي ربما كان يتواجد في تلك الفترة بموسكو بعد اشتراكه بأعمال المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية لا يمكنه ان يقدم تقريرا يتعارض تماما مع التقرير الذي قدمه امام مندوبي المؤتمر الثاني للاممية بعد اسابيع قليلة من انتهاء جلسات هذا المؤتمر ·

بخصوص مداخلة « كون » امام مندوبي المؤتمر الثاني للاممية انظر ماهر الشريف ، قضية فلسطين ومناقشات ··· ، البحث المذكور ، ص ١٣٦ ـ ص ١٣٩ ·

٦٤ ـ انظر « الاممية الشيوعية » ، رقم ١٤ ، تشرين الثاني ١٩٢٠ ، ص ٢٩١٩

٦٥ ـ المصدر السابق ، ص ٢٩٢١ ـ ص ٢٩٢٢ · ولكن لماذا الاشارة لمصر ؟ ربما اراد « مايرزون » هنا ان يشير للدور الذي لعبه في مصر « Yehiel Kossoi »

او « افيجدور » ، احد مؤسسي حزب العمال الاشتراكي في فلسطين ، الذي انتقل الى مدينة الاسكندرية حيث ساهم الى جانب والد زوجته « جوزيف روزنتال» في النشاطات الشيوعية الاولى · ومن جهة اخرى ، نلاحظ بان المعطيات التي عرضها « مايرزون » عن نشاط حزبه في

فلسطين مبالغ جدا فيها ··· فالهدف الوحيد من القول مثلا بان جماهير العمال العرب تشكل غالبية الجماهير الواقعة تحت تأثير الحزب هو دفع قيادة الاممية الشيوعية للاعتراف الرسمي بالحزب ·

٦٦ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٩٢٢ ·

٦٧ ـ اورده م· فلنر ، المصدر المذكور، ص ٣٢ ـ ص ٣٣ ·

٦٨ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٢٣ انظر ايضا م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٧٤ ·

٦٩ ـ اورده م· اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ ·

٧٠ ـ المصدر ذاته ، ص ١٧٤ ·

٧١ ـ اورده م· فلنر ، المصدر المذكور، ص ٣٣ ·

٧٢ ـ المصدر السابق ، ص ٣٤ ·

٧٣ ـ المصدر ذاته ، ص ٣٣ ·

٧٤ ـ المصدر ذاته ، ص ٣٤ ·

٧٥ ـ انظر م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٧٥ ·

٧٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٥ · انظر ايضا م· فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٥ ·

٧٧ ـ انظر م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٨١ · انظر ايضا م· فلنر، المصدر المذكور ، ص ٣٤ ·

٧٨ ـ انظر م· فلنر ، المصدر ذاته ، ص ٣٥ ·

٧٩ ـ اورده م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٨٧ ـ ص ١٩١ ·

٨٠ ـ انظر م· فلنر ، المصدر المذكور، ص ٣٥ ·

٨١ ـ المصدر السابق ، ص ٣٥ ـ ص ٣٦ ٠

٨٢ ـ اورده م ٠ اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٨٤ ـ ص ١٨٥ ٠

٨٣ ـ اورده م٠ فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٥ ٠

٨٤ ـ اورده م٠ اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ٠

٨٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٩١ ٠ يعرض م٠ فلنر ، من جهته ، رايا مختلفا بعض الشيء عن رأي اوفينبرغ ، فهو يعتقد بان ممثلي الحزب في مؤتمر الهستدروت قدموا بيانا يعلنون فيه بانهم سيتركون المؤتمر ، بعد ان رفضت جميع مقترحاتهم ٠ ولكنهم سيواصلون العمل النقابي والاقتصادي المشترك ٠ انظر م٠ فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٢٦ ٠

٨٦ ـ اورده م٠ اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٩٩ ـ ص ٢٠٠ ٠

٨٧ ـ المصدر السابق ، ص ٢٠١ ٠ انظر ايضا مجلة « الاممية الشيوعية » رقم ١٧ ، حزيران ١٩٢١ ( الطبعة الفرنسية ) ٠

٨٨ ـ راجع ماهر الشريف ، قضية فلسطين ومناقشات ٠٠٠ ، البحث المذكور ٠

٨٩ ـ انظر بيريتز مرحاف ، اليسار الاسرائيلي ، المصدر المذكور ، ص ٨٠ ٠

٩٠ ـ اورده م ٠ اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٢١ ٠

٩١ ـ المصدر السابق ، ص ١٢١ ـ ص ١٢٢ ٠

٩٢ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٠٢ ٠

٩٣ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٠٣ ٠

٩٤ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٠٣ ٠

٩٥ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٢ ـ ص ٢١٤ ٠

٩٦ ـ انظر النص الكامل لهذا البيان في وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ( ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ ) ، ( جمعها عبد الوهاب الكيالي ) ، مركز الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ٠

٩٧ ـ انظر لائحة باسماء اعضاء الحزب المبعدين في م٠ اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٥ ٠

٩٨ ـ انظر « الاممية الشيوعية » ، رقم ١٧ ، حزيران ١٩٢١ ، ص ٤٢٤٠ ٠

٩٩ ـ المصدر السابق ، ص ٤٢٠٦ ٠

١٠٠ ـ انظر « بيشيل » ( Pischel ) و « روبرتازي » ( Robertazzi ) الاممية الشيوعية والمسائل الكولونيالية (١٩١٩ ـ ١٩٣٥ ) ، منشورات Mouton باريس ـ لاهاي ، ١٩٦٨ ، ص ٦٠ ٠

١٠١ ـ انظر « موسكو » صحيفة المؤتمر العالمي الثالث للاممية الشيوعية ، رقم ٢٧ ، ٢٨ حزيران ١٩٢١ ، ص ١ ٠ ( الطبعة الفرنسية ) ٠

١٠٢ ـ انظر م٠ اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٢٨ ٠

١٠٣ ـ انظر « موسكو » ، رقم ٤٢ ، ١٥ تموز ١٩٢١ ، ص ٣ ٠ لم تشر صحيفة المؤتمر العالمي الثالث الى مضمون هذا البيان ، الذي تعرض على الاغلب ، الى احداث الاول من ايار في فلسطين ٠

١٠٤ ـ انظر ابوزيام ( Abouziam ) « فلسطين المعاصرة وحركتها العمالية » ، في « الاممية النقابية الحمراء » ، رقم

٣٧ ـ ٣٨ ، ١٩٢٤ ، ص ١٨٢ ( الطبعة الفرنسية ) ·

١٠٥ ـ المصدر السابق ·

١٠٦ ـ ايليشاهو « موشي ليفين » ( M. Lewin ) قدم الى فلسطين في العام ١٩١٩ قادما من روسيا ، حيث كان ينتسب الى صفوف الجناح اليساري داخل البوعالي تسيون الروسي « الحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون » · كان واحدا من ابرز ممثلي الاتجاه « البوعالي تسيون » داخل الحزب في فلسطين · ابعد من صفوف الحزب الشيوعي في فلسطين ، بعد إعتراف قيادة الاممية الشيوعية رسميا به ، بسبب معارضته لشعار « تعريب الحزب » · وفي العام ١٩٢٨ ، ابعدته سلطات الانتداب خارج فلسطين ، حيث استقر في بدايات الحرب العالمية الثانية في الاتحاد السوفياتي ، حيث لقي مصرعه في حادث خلال العام ١٩٤٣ ·

انظر م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٨١ ·

١٠٧ ـ برزيلاي هو « جوزيف برغر » : اسمه الحقيقي « جوزيف ميكاييل زيلسنيك » ( J.M. Zsilsnik ) وليس كما كنا قد دكرنا خطأ في بحثنا عن الحزب الشيوعي الفلسطيني وهبة البراق بان اسمه الحقيقي هو برزيلاي ( راجع شؤون فلسطينية . رقم ٦١ ، كانون الاول ١٩٧٦ . ص ٢٤٠ ) · ولد في بولونيا بمدينة Schlesien في العام (١٩٠٤ !!)· هاجر الى فلسطين في ٤ ايلول ١٩٢٠ ، وانتسب الى حزب العمال الاشتراكي العبري في الاول من ايار ١٩٢١ · كان واحدا من ابرز ممثلي الاتجاه « المعادي للصهيونية » داخل الحزب ، وتزعم الانشقاق الذي نتج عنه في ايلول ١٩٢٢ وولادة · « حزب الشيوعيين الفلسطينيين » ·

كان واحدا من ابرز قياديي الحزب الشيوعي في فلسطين حتى بدايات الثلاثينات · غادر فلسطين الى برلين للعمل مع عصبة مناهضة الامبريالية ، ثم توجه الى موسكو للعمل مع القسم الشرقي التابع للاممية الشيوعية · اعتقل في العام ١٩٣٥ ، وبعد ان افرج عنه في العام ١٩٥١ هاجر الى بولونيا ومنها الى اسرائيل ، حيث ساهم حاليا في تزييف الحقائق التاريخية التي ساهم في صنعها عندما كان على رأس الحزب الشيوعي في فلسطين ·

معلوماتنا عن سيرة حياة برزيلاي اقتبسناها عن م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٢٣٧ · انظر ايضا مجلة «Esprit»، تموز ـ اب ١٩٦٧ ، ص ٩٧ ·

١٠٨ ـ انظر « موسكو » ، رقم ٢٧ ، ٢٨ حزيران ١٩٢١ ، ص ١ ·

١٠٩ ـ اورده م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ١٢٧ ـ ص ١٢٨ ·

١١٠ ـ لمزيد من التفاصيل راجع اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٢٩ ـ ص ١٣٠ ·

تشكلت هذه اللجنة برئاسة « مايتاس راكوزي » ( M. Rakosy ) .

١١١ ـ انظر « المراسلات الصحفية الدولية » ، رقم ٢ ، ١٥ تشرين الاول ١٩٢١ ، ص ١٧ ـ ص ١٨ ( الطبعة الفرنسية ) · انظر ايضا م· اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٣٠ ·

١١٢ ـ انظر « الاممية الشيوعية » ، رقم ١٨ ، تشرين الاول ١٩٢١ ، ص ٤٦٥٢ ·

١١٣ ـ انظر م· اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ · انظر ايضا « المراسلات الصحفية الدولية » ، رقم ٢ ، ١٥ تشرين الاول ١٩٢١ ، ص ١٧ ـ ص ١٨ ·

١١٤ ـ م· اوفينبرغ ، المصدر السابق، ص ١٣٤ ·

١١٥ ـ المصدر ذاته ، ص ١٣٤ ـ ص ١٣٨ ·

١١٦ ـ المصدر ذاته ، ص ١٣٥ ـ ص ١٣٦ ·

١١٧ ـ المصدر ذاته ، ص ١٣٦ ·

١١٨ ـ المصدر ذاته ، ص ١٣٧ ـ ص ١٣٨ ·

١١٩ ـ انظر « نشرة المؤتمر الرابع للاممية الشيوعية » ، رقم ٢٧ ، ٩ كانون الاول ١٩٢٢ ، ص ١٥ · ( الطبعة الفرنسية ) ·

١٢٠ ـ انظر النص الكامل لهذا البيان في « المراسلات الصحفية الدولية » ، رقم ٥٧ ، ١٩٢٢ ، ص ٤٤١ ·

١٢١ ـ انظر « نشرة المؤتمر الرابع للاممية الشيوعية » ، المصدر المذكور ، ص ١٥ · الاحزاب التي انسحبت من الاتحاد العالمي ( اليساري ) للبوعالي تسيون هي : الحزب الشيوعي اليهودي في الاتحاد السوفياتي ، ومجموعات البوعالي تسيون في النمسا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا ·

١٢٢ ـ انظر م· أوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٢٣٩ · يذكر والتر لاكور في كتابه الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط بان اتجاه الاغلبية كان يضم ( ٣٠٠ ) عضو ، بينما يضم اتجاه الاقلية ( ١٥٠ ) عضوا · انظر و· لاكور ، المصدر المذكور ، ص ٧٧ · (بالانكليزية) ·

١٢٣ ـ م· اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٣٩ ·

١٢٤ ـ يذكر م· اوفينبرغ بان ممثلي « حزب الشيوعيين الفلسطينيين » اتصلوا فعلا بقيادة الاممية الشيوعية للانضمام الى صفوفها ، الا انه يعتقد بان اللجنة التنفيذية للاممية قد نصحتهم بالتريث قليلا على امل كسب العناصر الاكثر راديكالية بين انصار اتجاه الاغلبية · انظر م· اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤ ·

ويذكر م· غيلان من جهته ، حول نفس الموضوع ، بان ممثلي الاتجاهين داخل الحزب في فلسطين قد حاولوا ، بعد الانشقاق الذي حصل في ايلول ١٩٢٢ ، اقامة علاقات رسمية مع قيادة الاممية الشيوعية وذلك عن طريق زوجة قائد شيوعي نمساوي ، وعضو سابق في البوعالي تسيون يدعى هانز كافاني « Hans Kaphany» ويضيف غيلان بأن قيادة الاممية قد وافقت على ترشيح المجموعتين لعضويتها ، على شرط ان يفتحا ابوابهما لدخول العمال العرب ·

انظر :

M. Ghilan : How Israel Lost Its Soul, Penguin Books Ltd, England 1974, P. 140.

١٢٥ ـ انظر م· اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٤ ·

١٢٦ ـ ولد وولف اوبرباخ Wolf Auberbäch في روسيا في العام ١٨٨٠ ، وساهم في احداث الثورة الروسية الاولى · انتسب ، بدفع من اخيه الكسندر، الى صفوف حزب البوعالي تسيون

الروسي بقيادة بوروشوف ٠ خلال الحرب العالمية الاولى اعتقلته القوات النمساوية ، ولم يطلق سراحه الا في العام ١٩١٨ ٠ كان واحدا من ابرز قياديي البوعالي تسيون الروسي ، وتزعم جناحه اليساري الذي تبنى بعد الانشقاق اسم « الحزب الشيوعي اليهودي » ٠ في تشرين الثاني ١٩٢٢ ، اوفده حزبه الى فلسطين ، حيث احتل سريعا مكان « ايليشا » على رأس اتجاه الاغلبية ، الممثل انذاك « بالحزب الشيوعي اليهودي: بوعالي تسيون » فرع « الحزب الشيوعي في فلسطين » ٠ في شباط ١٩٢٣ ، قام « دانييل » بتمثيل « الكتلة العمالية » في اعمال المؤتمر الثاني للهستدروت حيث القى خطابا منهجيا هاما جاء فيه : « بأية صورة بدأوا هنا ينظمون الاشتراكية ( يقصد قادة الهستدروت م٠ ش ) ٠ لا بطرق مقاومة رأس المال ، بل بواسطة اقامة مخازن صغيرة تعاونية تنافس المخازن الاخرى ٠ وكل ايديولوجية الهستدروت قائمة على التنافس وشهوة الامتلاك ٠ والعمل الاحترافي « النقابي » اهمل تماما ٠ والتنافس يجمد الصراع الطبقي ٠ عمل قومي بدل عمل أممي ٠واذا كان هذا هو ـ القلب ـ الذي ذكرته ايها الرفيق بن غوريون فان الدم الذي يجري في هذا القلب هو ازرق وليس احمر » ٠ ( اورده م٠ فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٧ ـ ص ٣٨ ) ٠

بعد كونغرس الوحدة الذي انعقد في تموز ١٩٢٣ ، انتخب « دانييل » امينا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين ، وكان يمثل حزبه في « القسم الشرقي » التابع للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية في موسكو ، حيث كان موجودا خلال احداث هبة البراق في اب ١٩٢٩ ٠ قبل انجاز « تعريب » الحزب الشيوعي في فلسطين في بداية الثلاثينات ،استدعته قيادة الاممية الشيوعية الى موسكو حيث لقي مصرعه خلال حملة التصفيات التي جرت في اواسط الثلاثينات ٠

المعلومات الخاصة بسيرة حياة « ابو زيام » أو « دانييل » اقتبسناها عن م ٠ اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٢٤٨ ، وعن مجلة ( Nouveaux Cahiers ) رقم ١٣ ـ ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤ ـ ص ٣٨ ٠

١٢٧ ـ لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر م٠ اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٩٧ ـ ص ٣٠١ ٠

١٢٨ ـ أورده م٠ فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٣٩ ٠

١٢٩ ـ المصدر السابق ، ص ٣٩ ـ ص ٤٠ ٠

١٣٠ ـ انظر النشرة الاعلامية للحزب الشيوعي في اسرائيل ( راكاح ) ، رقم ١٢ ، كانون الاول ١٩٧٤ ، ص ٣٣ ـ ص ٣٤ ( الطبعة الانكليزية ) ٠

١٣١ ـ انظر م٠ اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٣١٥ ٠

١٣٢ ـ المصدر السابق ، ص ٣١٥ ٠ يعتقد م٠ فلنر ، من جهته ، بان الاعتراف بالحزب قد تم في شباط ١٩٢٤ ٠ انظر م٠ فلنر ، المصدر المذكور ، ص ٤٠ ٠

١٣٣ ـ اورده م٠ اوفينبرغ ، المصدر السابق ، ص ٣١٦ ٠

١٣٤ ـ المصدر ذاته ، ص ٣١٦ ـ ص ٣١٧ ٠ انظر ايضا : « بيشيل » و « روبرتازي » ، الاممية الشيوعية والمسائل الكولونيالية ، المصدر المذكور ، ص ١٠٩ ٠ انظر كذلك :

The Communist International, from the 4th To the 5th Congress, CPGB, London, 1942 , PP. 66 - 67 .

. اورده فواز طرابلسي في « الاممية الشيوعية وقضية فلسطين » ، بحث منشور في كتاب المقاومة الفلسطينية الواقع والتوقعات ، دار الطليعة ، بيروت، ١٩٧١ .

١٣٥ ـ انظر H. Heller : « الحركة النقابية في الشرق » ، في « الاممية النقابية الحمراء » ، رقم ٣١ ، اب ١٩٢٣، ص ٥٨ .

١٣٦ ـ المكتب التنفيذي للاممية النقابية الحمراء : « الى عمال فلسطين العرب » في « الاممية النقابية الحمراء » ، رقم ٣٧ ـ ٣٨ ، ١٩٢٤ ، ص ٢١٦ ـ ص ٢١٧ . راجع ماهر الشريف : « مؤتمر العمال العرب الاول » في شؤون فلسطينية ، رقم ٥٠ ـ ٥١ اكتوبر ـ نوفمبر ١٩٧٥ ، ص ٢٩٣ ـ ص ٣٠٢ .

١٣٧ ـ اورده م. اوفينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٣١٧ ـ ص ٣١٨ .

خليل بركات

# الجنوب والمخطط الصهيوني الجديد

كشفت مسرحية « الانسحاب » الصهيوني من قرى الجنوب ، التي جرى تمثيلها يوم ١٣ حزيران ١٩٧٨ ، حقيقة الاهداف التي تسعى اليها « اسرائيل » ، كما كشفت ايضا المدى الذي وصل اليه الانعزاليون في تحالفهم مع العدو الصهيوني ·

والواقع ان عملية الاستلام والتسليم التي جرت بين صهاينة الخارج وصهاينة الداخل · تهدف الى ابقاء الاحتلال الصهيوني غير المباشر لقرى الشريط الحدودي ، بواسطة القوى الانعزالية التي تم تسليمها اياها ، كما تهدف ايضا الى تمكين القوى الانعزالية من الاستمرار في استخدام الوضع في الجنوب ورقة ضاغطة على الاوضاع الداخلية في لبنان ، بغية الاستفادة منها لتحقيق الحلم الانعزالي في السيطرة الكاملة على كل لبنان ، وتحويله الى « اسرائيل » ثانية في المنطقة العربية ، مستندة اكثر فاكثر الى الدعم الصهيوني من اجل تحقيق هذا الحلم ·

وفي المقابل ، فان « اسرائيل » ، بسبب المدى الذي وصلت اليه العلاقات فيما بينها وبين الانعزاليين ، لم تعد تكتفي بالهيمنة على منطقة الشريط الحدودي ، ولا على الجنوب فقط ، وانما اصبحت تطمح الى بسط نفوذها السياسي على لبنان ككل ، تحت شعار « حماية المسيحيين » فيه ·

من هنا يبدو واضحا ان ما يجري في الجنوب ، هو جزء من مخطط يستهدف لبنان ككل ، وتمتد آثاره لتشمل المنطقة العربية المجاورة · كما يبدو واضحا ايضا وجود العديد من نقاط التشابه بين ما خطط له الصهاينة في فلسطين ونجحوا فيه ، وبين المخطط الذي ينفذ في لبنان ·

**الانسحاب ·· « المسرحية »**

من وحي هذا المخطط اعلنت « اسرائيل » عن عزمها على « الانسحاب الكامل » من الاراضي اللبنانية التي احتلتها في « حرب الليطاني » - كما تسميها - في ١٥ اذار ١٩٧٨ ، ونفذت تعهدها هذا في ١٣ حزيران ١٩٧٨ ، بتسليم المواقع التي كانت ما تزال في عهدتها ، الى القوات الانعزالية وقوات الطوارىء الدولية التي اتت الى لبنان بموجب قرار مجلس الامن الدولي رقم ٤٢٥ ·

لقد سلمت « اسرائيل » قوات الطوارئ الدولية ، اربعة عشر موقعا معظمها في القرى الخلفية ، مقابل ثلاثة وعشرين موقعا تم تسليمها الى القوات الانعزالية ، تقع جميعها على امتداد الشريط الحدودي · وعلى اثر ذلك صرح الضابط الانعزالي سامي الشدياق لمراسل وكالة الصحافة الفرنسية بقوله : « اننا نسيطر الان على مساحة من الاراضي طولها ٨٥ كلم وعرضها بين ٥ و ١٢ كلم » ( اقصى عرض للاراضي التي اصبحت في حوزة الانعزاليين لا يتجاوز الخمسة كيلومترات ) ·

لقد تمت عملية الاستلام والتسليم بين القوات الصهيونية والقوات الانعزالية في احتفال رسمي شهده مراسلو الصحف ووكالات الانباء العالمية ، ونقله التلفزيون الصهيوني ، تم فيه انزال العلم « الاسرائيلي » ، ورفع العلم اللبناني على المواقع التي تسلمتها القوات الانعزالية · وجرى تبادل القبلات والخطب بين سعد حداد قائد القوات الانعزالية في الجنوب ، والجنرال افيجدور بن جال قائد القطاع الشمالي « الاسرائيلي » الذي قال موجها كلامه الى سعد حداد : « من جهتنا سنفي بالتزاماتنا لحماية الاقلية المسيحية واتمنى كل الخير لاصدقائنا » ·

وقد شكر الرائد سعد حداد السلطات « الاسرائيلية » على المساعدات التي قدمتها لقواته ، كما صرح الرائد سامي الشدياق لمراسل وكالة الصحافة الفرنسية قائلا : « ان المساعدة « الادارية » التي تقدمها « اسرائيل » لنا ستتيح لنا ان نصمد »· بينما نقلت الوكالة ذاتها تصريحا لاحد رجال حداد واسمه ميشال زيتوني ، كان تعبيرا صريحا عن الحقيقة والواقع ، جاء فيه : « لولا اسرائيل لكنا قد متنا منذ امد طويل » ·

ولم تكتف « اسرائيل » بذلك ، وانما اعطت القوات الانعزالية قبل « انسحابها » خمسين دبابة وناقلة جنود مدرعة مع طواقمها الاسرائيلية ، وعشرين مدفع ميدان ، وذلك لتمكين القوات الانعزالية من احكام سيطرتها على المناطق التي تسلمتها من القوات الصهيونية المنسحبة ·

ولقد عبر الجنرال ارسكين قائد القوات الدولية في لبنان عن اسفه واستيائه من تسليم « جماعة سعد حداد » قطاع الحدود الحيوي بين « اسرائيل » و « لبنان » ، وعلق على عملية الاستلام والتسليم التي تمت ، قائلا : « ان الاسرائيليين يريدون مجرد غسل ايديهم وتسليم المنطقة الى جماعة حداد ·· وقد طلب منا التفاوض معهم ، والسؤال الكبير هو : بأية صفة نتفاوض معهم ؟ » ·

**- سعد حداد وتمثيله للسلطة الشرعية**

كان من الطبيعي ان تثير قضية استلام سعد حداد المواقع التي انسحب منها الجيش

الصهيوني ، موجة من التساؤلات والنقمة العارمة في الاوساط السياسية والشعبية ، خاصة وان تصريحات قد صدرت عن الجنرال ارسكين قائد قوات الامم المتحدة في لبنان ، وفالدهايم الامين العام للامم المتحدة ، وبيغان الناطق الرسمي باسم الامم المتحدة في جنوب لبنان ، وتوم رستون الناطق باسم وزارة الخارجية الاميركية ·· وكميل شمعون رئيس « الجبهة اللبنانية » ، تشير وتؤكد ان سعد حداد هو ممثل قيادة الجيش الشرعية في الجنوب ·

فقد اعلن الجنرال ارسكين للصحفيين : « ان التعليمات التي يملكها تقول ان حداد هو القائد الفعلي لسلطة الامر الواقع » ·· وقال : « ان معلوماتي انهم جزء من الجيش اللبناني » · وعندما سئل عما اذا كانت الحكومة اللبنانية قد ابلغته بان سعد حداد يمثلها ، أجاب : « عندنا تعليمات بهذا المعنى » ·

وصرح فالدهايم قائلا . « ان الحكومة اللبنانية اعترفت بصورة مؤقتة بالرائد سعد حداد كقائد الامر الواقع للقوات اللبنانية في منطقته » ·

كما صرح ويغان الى الصحافيين : « انه تبلغ في اجتماع ضم مندوبا عن قيادة الجيش – رفض ان يسميه – والرائدين الشدياق وحداد والجنرال ارسكين ، من قيادة الجيش ، موافقتها على تسليم المواقع في الجنوب الى الضابط حداد ، واعتباره ممثلا رسميا للسلطة الشرعية هناك . ويتمتع بصلاحيات قيادة القطاع الجنوبي » ·

أما توم رستون فقد صرح بأن الرائد سعد حداد « ما يزال ضابطا في الجيش النظامي اللبناني » · وفسر المراقبون في العاصمة الاميركية هذا التصريح بأنه « موافقة غير مباشرة على سيطرة « المسيحيين » – الانعزاليين – على منطقة الحدود اللبنانية الاسرائيلية » ·

أما كميل شمعون فقد استغرب « الضجة » المثارة حول سعد حداد . فانبرى كعادته للدفاع عنه ، في تصريح صحفي قال فيه « ما اعرفه ان هناك قوات لبنانية رسمية تتلقى مرتباتها وتعليماتها من الجيش . وهي قوات لبنانية بقيادة ضابطين في الجيش اللبناني·· وهما من خيرة الضباط ·· ان هذه القوات هي جزء لا يتجزأ من الجيش اللبناني ·· ان القوات الموجودة في منطقة الحدود بقيادة الضابطين حداد والشدياق هي قوات لبنانية شرعية مخلصة ، قامت بواجبها خير قيام عندما كانت الاعتداءات تقع على القرى المسيحية بوصفها قرى حدوديه » ·

لقد اربكت هذه التصريحات السلطات الشرعية اللبنانية . فحاولت مداورة نفي ان يكون سعد حداد قد مثلها في عملية الاستلام والتسليم . او انه كلف من قبلها باستلام المواقع التي اخلتها القوات الصهيونية ، « المنسحبة » ، فصدر عنها بيان يتضمن هذا النفي ، الا ان هذا البيان تضمن ايضا اعترافا بان سعد حداد وسامي الشدياق والجنود الذين هم بامرتهما . ما زالوا في عداد الجيش اللبناني على الرغم من خيانتهم المفضوحة وتعاملهم مع العدو الصهيوني ، اذ جاء في البيان الرسمي : « اصدرت قيادة الجيش تعليماتها الى جميع القوات العسكرية في الجنوب بالتزام ثكناتها ، والامتناع عن القيام بأية مهمات امنية ، حتى عند دخول القوات الدولية الى المنطقة » ·

وهكذا اوقعت السلطة اللبنانية ، نفسها في احراج اشد عندما حاولت التنصل من الدور الذي قام به سعد حداد · وانكشف بذلك الخط الانعزالي داخل السلطة المتواطئة

مع العدو الصهيوني ، كما انكشفت ايضا « القيادة الشرعية للجيش » بانها جزء من ذلك الخـــط ·

ولقد كشفت الحكومة السورية في بيان لها ، تعقيبا على هذه التصريحات ، عمليـــة التواطؤ هذه ، اذ تضمن البيان ما يلي :

« ان ما ورد في تقرير الامين العام للامم المتحدة ووزارة الخارجية الاميركية يتعــارض مع ما اتفقت عليه السلطات السورية واللبنانية حول الرائد حداد » ·

« ان الحكومة السورية تعتبر الرائد حداد الذي تعامل مع العدو الاسرائيلي ، خارجا عن القانون ، ولا يمكن التعامل معه على غير هذا الاساس » ·

ازاء عدلية الاحراج هذه ، كان لا بد من التفتيش عن مخرج · فتناقلت الانباء اخبار « التزام العسكريين التابعين لحداد والشدياق ثكناتهم » ، تنفيذا لاوامر قيــادة الجيش ، كما بثت اشاعة مفادها ان حداد اختلف مع « الميليشيا » الانعزالية لان هذه « رفضــت » اوامر قيادة الجيش ، وأصرت على البقاء في مواقعهــا ·

والواقع ان ذلك لم يكن الا من قبيل سياسة توزيع الادوار ، وبقصد التخفيف مـــن الاحراج الذي اصاب قيادة الجيش الشرعية ، وبالتالي فان ذلك لم يخرج عن كونـــه مجرد عملية اعلانية ترمي الى تحميل « الميليشيا » مسؤولية ما يجـــري في المنطقـــة الحدودية ، وتبرئة العسكريين بقيادة الرائدين حداد والشدياق مما يجري هناك ·

**قمــة اللاذقية بين الرئيسين الاسد وسركيس**

كان من ابرز النقاط التي تم الاتفاق عليها في مؤتمر قمة اللاذقية الذي عقد بتاريــخ ٢١ ايار ١٩٧٨ وضم الرئيسين حافظ الاسد والياس سركيس ، والمتعلقة بالجنوب ، دخول الجيش اللبناني الى المنطقة والتواجد فيها جنبا الى جنب مع قوات الامم المتحدة ، وانهاء التواجد المسلح للقوى الانعزالية على طول الشريط الحدودي ·

وعلى اثر انتهاء القمة ، بدأ الحديث في الاوساط السياسية الرسمية وغير الرسمية عن « عمليات التحضير » السريعة لارسال الجيش الى الجنوب · لكن ، سرعان ما بدأت عملية التحضير هذه تتبخر امام التساؤل المطروح : هل يتم ارسال الجيش الى المناطــق الحدودية في ظل بقاء التواجد الانعزالي المسلح فيها ، ام ترجأ عملية الارسال الى ما بعد حل هذا « الاشكال » وازالة ذاك التواجد ؟

لقد طرحت الجبهة الانعزالية رأيها في هذا الموضوع عبر التصريح الصحفــي الـــذي اذاعه كميل شمعون رئيس الجبهة ، والذي اعلن فيه انه « لا يمكن ان يوافق على ارسال الجيش الى الجنوب من دون تأمين خطوط مواصلاته » · وأضاف : « لا أتصور ان الجيش سيمر في الدامور مطأطيء الرأس تجاه مسلحين فلسطينيين يحتلون الدامور » ·

ثم ما لبثت الجبهة الانعزالية ان طرحت رأيها رسميا متبنيــة رأي كميـــل شمعون ، فاذاعت بيانا « رحبت » فيه « بتوجيه الجيش الى الجنوب بعد تأمين طرق المواصـــلات والتموين من بيروت الى الدامور وصيدا ، ومن صيدا الى سائر انحاء الجنوب » · كمــا تضمن البيان الدعوة الى ان « الوجود الفلسطيني المسلح يجب ان يزول ·· انطلاقا مـــن اعتبار كل الاتفاقات المعقودة مع الفلسطينيين ساقطة » ·

ومن جهة اخرى بدأت الاوساط الانعزالية تروج لمقولة الفراغ الامني في المنطقة الواقعة ما بين النهرين ـ نهر الزهراني ونهر الليطاني ـ وهي المنطقة التي لا تتواجد فيها قوات الردع العربية ، ولا قوات الطوارىء الدولية ، موحية بان اتفاق قمة اللاذقية قد تضمن دخول قوات الردع العربية اليها وذلك من أجل ضبط الوجود « الفلسطيني المسلح، ومنع تحركه باتجاه الحدود ، كي لا تعطي اسرائيل ذريعة للبقاء في المنطقة » ·

والواقع ان هذه الطروحات من الجانب الانعزالي تستهدف الامور التالية :

**اولا** ـ الاصرار على ازالة الوجود الفلسطيني المسلح كمقدمة لازالة الوجود الوطني والعربي من لبنان ، ومواصلة العمل لانجاح المشروع الانعزالي الصهيوني في السيطرة الانعزالية الكاملة على لبنان ، بحيث يصبح هذا البلد العربي « اسرائيل » ثانية متحالفة مع « اسرائيل » الاولى في قلب الوطن العربي ·

**ثانيا** ـ المحافظة على الوجود العسكري الانعزالي المتعامل مع العدو الصهيوني في المنطقة الحدودية ، وتعزيز هذا الوجود بقوات اخرى من التكتلات ذات الولاء الكامل للانعزاليين ، وان تكون جميعها بامرة الرائد حداد الذي تصر « اسرائيل » ، ومعها القوى الانعزالية على تعيينه قائدا عسكريا لمنطقة الجنوب · والملاحظ ان « اسرائيل » رفضت دخول قوات من الجيش كانت فيما مضى تشكل « طلائع جيش لبنان العربي » بحجة ان هذه القوات تعاونت في الماضي مع سورية · كما رفض الانعزاليون في بيان صادر عن الجبهة الانعزالية مبدأ قبول اي عسكري من الجيش ساهم في انتفاضة العسكريين التي أدت الى فرط تركيبة الجيش الانعزالية الطائفية ابان الحرب الاهلية · وهذا يعني ان الجبهة الانعزالية تعارض هي الاخرى ارسال جنود وضباط كانوا في « الطلائع » فيما مضى ·

**ثالثا** ـ الاصرار على انتزاع الاعتراف الكامل بشرعية جيش فكتور خوري ، وحسم الجدل حوله . وذلك بالابقاء على التركيبة الطائفية الانعزالية لذلك الجيش ، الامر الذي يتماشى مع سياسة التحالف الانعزالي ـ الصهيوني ·

**رابعا** ـ وضع قوات الردع العربية في مواجهة قوات الثورة الفلسطينية والاطراف الوطنية اللبنانية وجيش لبنان العربي ، من خلال الاصرار على دخول هذه القوات الى منطقة ما بين النهرين · وقد حسم الجدل حول هذا الموضوع عندما اعلن الرئيس حافظ الاسد ، في حديث له مع صحيفة « الفاينانشيال تايمز » البريطانية ، قائلا لم « نقرر ان تنتشر القوات السورية في غير المناطق التي تنتشر فيها الان » · وأضاف : « ان ما بحث في اجتماع اللاذقية هو دخول الجيش اللبناني جنوب لبنان » ·

**مستقبل الوضع في الجنوب ولبنان**

على ضوء ذلك كله يتضح ان القوى الانعزالية اصبحت الى حد كبير اسيرة التحالف مع الصهاينة بسبب اعتمادها المتزايد على الدعم المقدم من قبل « اسرائيل » ، ولذلك تجد نفسها اليوم محاصرة عربيا ، وغير قادرة على مخاطبة اي نظام عربي علانية · اذ ليس من السهل على اي حاكم عربي مساعدتها وهي موغلة في تعاملها مع العدو ضد الوجود العربي · كما أن هذه القوى تعاني من مازق على الصعيد المحلي ، لان تعنتها المتزايد كشف مسؤوليتها في الابقاء على الوضع المتوتر في لبنان ، واستمرارها في

التعاون مع العدو الصهيوني كشف مسؤوليتها اكثر في استمرار الاحتلال الصهيوني لقرى الشريط الحدودي بصورة غير مباشرة ، بحيث اصبحت اداة الاحتلال في تلك المنطقة ، الامر الذي يحرج كل القوى السياسية التقليدية التي كانت متواطئة معها في مراحل سابقة ، ويدفعها الى تجنب التعامل معها · وعلى الصعيد الدولي ، باتت القوى الانعزالية مسؤولة عن عدم تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٤٢٥ ، لانها ترفض تسليم المواقع التي تسلمتها من الصهاينة ، الى قوات الطوارىء الدولية ، وبالتالي مسؤولة عن تأزم الوضع في الجنوب ·

ومن جهة اخرى فان اساليب الارهاب التي تتبعها القوات الانعزالية ومعها العدو الصهيوني ، في قرى الشريط الحدودي ، المتمثلة في المداهمات ، وعمليات التفتيش ، والاعتقال ، وحرق المزروعات ، ونسف البيوت ، والضغط على الشبان لارغامهم على حمل السلاح والانخراط في جيش سعد حداد ، باءت بالفشل ، على الرغم من كل اشكال القهر والقمع ، بل على العكس ، اسهمت هذه الاساليب في التعبئة الوطنية في الجنوب ضد القوى الصهيونية · وليس ادل على ذلك من العريضة التي وقعها ستون من رؤساء بلديات ومخاتير قرى الجنوب ، وقدمها وفد منهم الى رئيس الحكومة ، والتي تضمنت المطالب التالية :

١ ـ « انتشار قوات الجيش اللبناني الشرعي المبني على اسس وطنية سليمة في كافة المناطق الجنوبية حتى الحدود الدولية ، او من يقوم مقامه حاليا ، ونعني بذلك قوات الامم المتحدة » ·

٢ ـ « العمل على اغلاق ما يسمي « بالجدار الطيب » لانه سيبقى مصدر شر وقلق لكافة ابناء الجنوب ، واسفينا في جسم الحل المعتمد فيه » ·

٣ ـ « الاسراع في اعادة اهالي القرى الحدودية الذين مضى على تهجيرهم ما يقارب السنتين ، والذين يحول دون عودتهم ما سبق واشرنا اليه من انفلات العصابات المجرمة في الجنوب » ·

٤ ـ « التعويض الكامل لكافة ابناء الجنوب ، واعتبار ما لحق بهم من اضرار ، سواء لجهة حرمانهم من استثمار اراضيهم وحقولهم ، او لجهة نسف وحرق منازلهم ، ناتجا عن عدوان اسرائيلي وتكليف مجلس الجنوب بتنفيذ ذلك فورا » ·

لقد اصبحت القوى الانعزالية غير قادرة على التراجع بسهولة عن مشروعها الذي انتقل منذ فترة الى مرحلة الهجوم ضد الوجود العربي في لبنان ·

كذلك ، فان الجانب الصهيوني ، يعمل كما سبق واشرنا ، على ابقاء التوتر قائما في لبنان ، ويسعى الى دفع الامور نحو الانفجار ، ونقله فيما بعد الى الاقطار العربية المجاورة ·

كل ذلك يعني ، ان الاوضاع في لبنان والجنوب ، سائرة نحو مزيد من التعقيد طالما ان المشروع الانعزالي لم توجه له ضربات موجعة في الصميم ·

وعلى هذا الاساس ، فان العمل على الحاق الهزيمة بالمشروع الانعزالي يشكل مفتاح الحل بالنسبة للمشكلة اللبنانية ، وذلك يقتضي أعتماد برنامج واضح للتصدي لهذا المشروع يستند الى المنطلقات التالية :

**اولا** ــ محاصرة وضرب القوى الانعزالية المتمثلة اساسا في حزب كميل شمعون وحزب الكتائب كركيزتين قويتين من ركائز الصهيونية في لبنان ·

**ثانيا** ــ دعم ومساندة جيش لبنان العربي في الجنوب باعتباره جيشا وطنيا ، وذلك من اجل الوصول الى صيغة التوازن الوطني الحقيقي داخل الجيش اللبناني ·

**ثالثا** ــ الضغط المتواصل لاسقاط الشرعية عن الرائدين سعد حداد وسامي الشدياق ومن معهما من العسكريين ، والمطالبة بمحاكمتهم جميعا ، وجاهيا او غيابيا ، بتهمة الخيانة العظمى ، ومحاكمة كل القيادات السياسية والعسكرية المتواطئة معهم في تعاملهم مع العدو الصهيوني ·

**رابعا** ــ التحضير الجاد لانهاء الاحتلال غير المباشر لقرى الحدود من ايدي عملاء الصهاينة ، كي لا يتكرس هذا الاحتلال كأمر واقع ، وكمقدمة لاحتلال اكبر ·

# السلاح والقوانين العلمية

قبل الحرب الاهلية في لبنان طرحت فكرة تطبيق برنامج للتدريب العسكري لطلاب المرحلة التكميلية في مدارس الاونروا ، على ان يكون هذا البرنامج جزءا من النشاط المدرسي المرافق للمنهاج ، وملزما لجميع الطلاب . وعندما طرحت الفكرة على القسم التربوي بمركز التخطيط من قبل بعض المربين والاساتذة ، ارتأى القسم ضرورة تجاوز الوضع القائم في معسكرات الاشبال ، بالنسبة للتدريب العسكري ، حيث يسود منهج معاملة الشبل كانسان بالغ تطبق عليه نفس البرامج العسكرية التي تطبق على المقاتلين . ويقوم هذا المنهج على حشو ذهن الشبل وتلقينه قدرا كبيرا من المعلومات ، دون ان يتمكن من حثه على التفكير في القوانين العلمية التي تحكم عمل السلاح . ولذا رأينا ان نربط هذه التجربة بالمنهاج المدرسي ، وتحديدا بمواد العلوم التي تدرس للطلاب في تلك المرحلة . فقمنا بوضع برنامج للعلوم يرافق التدريب العسكري . ويعطي هذا الاجابة على السؤال التالي : ما هو السلاح علميا ؟ ويقوم بشرح اهم المبادىء العلمية ( الرياضية والفيزيائية والكيميائية ) التي يعتمد عليها عمل السلاح . باعتبار السلاح آلة من الالات العديدة التي تنتجها تكنولوجيا البلدان المتقدمة ، ونقوم نحن في بلدان العالم الثالث باستخدامها في حياتنا اليومية ، دون ان نستوعب تماما القوانين العلمية التي تفسر صنعها وعملها .

**وقد بنينا برنامجنا على اساس دراستنا لمنهاج العلوم المدرسي منطلقين من مبدأ امكانية تبسيط اصعب المفاهيم العلمية واعقدها ، لجعلها في متناول فهم اي انسان مهما تدنت درجة ثقافته** . ويعتمد هذا بالطبع على قدرة الموجه او المدرس او المدرب على التبسيط .

ويهدف ربط البرنامج العلمي المرافق بمنهاج العلوم الى :

- تغطية بعض نواحي النقص في المنهاج المدرسي لجهة التطبيق العملي .

- تطوير منهاج العلوم من خلال نشاط علمي موافق للمنهاج . اذ ان المنهاج المدرسي الحالي في مدارس الاونروا ، متخلف في بعض نواحيه عن مستوى النمو الذهني للطالب . ولهذا لم نتقيد دائما بمستوى هذا المنهاج ، بل تجاوزناه في حالات كثيرة كما سيتضح ذلك فيما بعد .

- تقديم مادة علمية ( وان كانت بمستوى المنهاج ) بطريقة تختلف عن الطريقة المدرسية وخارج جدران الفصل المدرسي ، وذلك من خلال عنصر وسيط ومألوف من عناصر البيئة المحلية . وهذا العنصر هو السلاح ، مما يؤدي الى تحبيب الطالب بمادة العلوم التي يدرسها في المدرسة ، والى ارساء علاقة جديدة بين الطالب والاستاذ .

- **اشراك مدرسي العلوم في التجربة لجعلهم قادرين على تلمس نواحي**

النقص في المنهاج المدرسي ولزيادة التفاعل بينهم وبين الطلاب ٠

ويتكون برنامج العلوم من ثلاث فقرات رئيسية هي على التوالي :

١ ـ الاسلحة وعلم الرمي ٠ ٢ ـ البيئة في خدمة المقاتل ٠ ٣ ـ المبادىء العلمية للاسعاف واطفاء الحرائق ٠

وقد بني هذا التقسيم على اساس البرنامج العسكري المقترح بحيث تتقابل فقرات برنامج العلوم الثلاث مع ثلاث فقرات رئيسية يقسم اليها البرنامج العسكري ، وهي على التوالي :

١ ـ الاسلحة ٠ ٢ ـ مهارات الميدان ٠ ٣ ـ اعمال الدفاع المدني ٠

وقد قمنا في بداية عام ١٩٧٦ بتطبيق الفقرة الاولى من البرنامج العلمي ( فقرة الاسلحة وعلم الرمي في معسكر الاشبال بمخيم شاتيلا★) وتتكون هذه الفقرة من عشر وحدات مدرسية ( دروس ) ، تحتوي كل منها على تجارب عملية ، وتتكون من ٤ـ٥ صفحات ونود ان نشير الى مسألة هامة ادركناها منذ البداية ، تتعلق بتوجهنا عند كتابة فقرات البرنامج كلها٠ ان توجهنا في الاساس الى طلاب السنة الاولى من المرحلة التكميلية لا يعني حصر تطبيق البرنامج في المدارس فقط ، او لطلاب السنة الاولى من المرحلة التكميلية دون غيرها من سنوات المرحلة٠ بل يتعدى تطبيقه المدرسة ليشمل بعض المؤسسات والهيئات الاخرى كالكشاف ، والاشبال وقواعد المقاتلين ٠

ويمكن فهم هذه التوجه من خلال الملاحظات المنهجية التالية :

١ ـ وضع البرنامج العسكري بالاستناد الى مستوى العمر البنيوي ( العمر الزمني ) بينما ركز المضمون العلمي للبرنامج على المستوى الذهني للمتدرب، بمعنى امكانية استيعاب المعلومات وتطوير الذهن ، بغض النظر عن المستوى التعليمي او البرنامج الاكاديمي الذي يتبعه الطالب في المدرسة ٠

٢ ـ اعد هذا البرنامج اساسا لطلاب السنة الاولى من المرحلة التكميلية التي تقابل سن ١١ ـ ١٣ ، ولكن اختلافه عن البرامج المدرسية يجعله ذو فائدة لجميع السنوات التكميلية ، وبشكل اعم لجميع المتدربين الحاصلين على حد ادنى من المبادىء العلمية خلال المرحلة الابتدائية٠

٣ ـ بالامكان اجراء بعض التعديلات على مواد البرنامج ، وذلك حسب مقتضيات تطبيقه على صعيد المدارس ، او الكشافة او معسكرات الاشبال ٠

ان الاعتبارات السابقة دفعتنا الى البدء بتطبيق التجربة الاولى للبرنامج في معسكر الاشبال بمخيم شاتيلا ، وخصوصا ان المدارس قد تعطلت خلال الحرب الاهلية في لبنان ٠

**ظروف تطبيق البرنامج :**

استمر تطبيق البرنامج مدة ستة اسابيع بمعدل وحدتين اسبوعيا ٠ ودعونا للمشاركة في تطبيقه عددا من المراقبين من جهات مختلفة ( اللجنة العلمية في حركة فتح ، الكشاف الفلسطيني ، اتحاد المرأة ، مركز انعاش المخيم ـ شاتيلا ، متطوعون ) ، للاستفادة من وجودهم في التقييم ، من ناحية ، ومن ناحية اخرى لتوفير عدد اكبر من الكوادر القادرة في المستقبل على المساهمة في تطبيق البرنامج على نطاق اوسع ٠

من الناحية النظرية ينبغي توفر

★ تم وضع البرنامج وتطبيقه بمشاركة فريق اللجنة التربوية للعلوم في القسم التربوي ، بالاضافة الى كوادر من اللجنة العلمية ـ حركة فتح ٠

شرطين اساسيين في العينة التي يطبق عليها البرنامج ، هما :

ـ خضوع العينة لبرنامج تدريب عسكري في نفس الوقت ، وما يقتضيه ذلك من ربط لمواد البرنامجين وفق مضمون موادهما ·

ـ توفر المستوى التعليمي الذي وضع البرنامج من اجله ، وهو الصف الاول تكميلي ، او الصفوف التكميلية الاعلى·

فهل توفر هذان الشرطان ؟

ـ لم تسمح ظروف المعسكر بتطبيق برنامج عسكري على العينة ، واكتفينا بأن معظم الاشبال مدربين عسكريا ، وتربطهم بالسلاح علاقة مباشرة · غير ان غياب برنامج عسكري مرتبط مباشرة ببرنامج العلوم كانت له سلبياته التي انعكست على وجه الخصوص على الزهرات ، كما سيتضح ذلك فيما بعد ·

ـ جرى في البداية الاتفاق على تطبيق البرنامج ، على مجموعتين من الاشبال من طلاب المرحلة التكميلية · وتتكون كل مجموعة من (٢٥) شبلا · وفي اللقاء التمهيدي الذي تم لاختيار هاتين المجموعتين تواجد حوالي (٤٠) شبلا ينتسبون الى صفوف مدرسية متفاوتة ( من الخامس ابتدائي حتى الثالث تكميلي ) · وجرى في هذا اللقاء استبعاد من هم دون الاول تكميلي ، فتم بذلك انتقاء مجموعة من حوالي (٣٠) شبلا وزهرة ينتسب معظمهم الى الصف الاول تكميلي في العام ٧٥ـ٧٦ (اي ان مستواهم الدراسي الفعلي هو السادس ابتدائي نظرا لتعطل العام المدرسي ٧٥ـ٧٦ ) ·

وتشير جداول الحضور والغياب الى انه خلال الدرسين الاول والثاني تخلف عدد من اشبال وزهرات المجموعة عن الحضور وحتى نهاية البرنامج · وفي نفس الوقت التحق اعضاء جدد · ويمكن القول بأن عدد الذين تناوبوا على حضور البرنامج ( وحدة ـ وحدتين كحد ادنى ) هم (٤٠) شبلا · ولوحظ ان عدد الحضور اخذ في الثبات بعد الوحدات الاربع الاولى · ويستدل من جداول الحضور والغياب ايضا ان حوالي (٢٠) شبلا وزهرة داوموا على الحضور طوال فترة البرنامج تقريبا · ( حضر ١٤ منهم ٩٠٪ من الدروس ، ٣ ، من ٧٠٪ الى ٨٠٪ ،٣، من ٥٠٪ الى ٦٠٪ ) وينتسب اكثر من نصف اشبال وزهرات المجموعة الى الصف الاول تكميلي ( فعليا السادس ابتدائي ) وتتوزع البقية وهم (٧) على الصفوف الاولى والثانية والثالثة في صفوف المرحلة التكميلية ·

ـ وتجدر الاشارة الى ان معسكر الاشبال في شاتيلا هو من نوع **المعسكرات الدائمة** التي تختلف عن المعسكرات الصيفية الدورية ، التي تقام سنويا لفترة شهر او اكثر · اذ انه يمكن في المعسكرات الدورية ( اذا ما توفرت البرامج ) توزيع مجموعات الاشبال على النشاطات المختلفة ، وضبط اعدادها ، والشروط التي تتناسب مع كل نشاط · وهذا ما لا يمكن تحقيقه في المعسكرات الدائمة ( شاتيلا وغيره ) ضمن الظروف المعطاة ( واقع المخيم ، وواقع مؤسسة الاشبال والمعسكرات الدائمة التابعة لها ) ·

ولم يكن من السهل ضبط العينة التي طبق عليها البرنامج وتوفير بقية الشروط المطلوبة كاملة · ومن الاسباب التي ادت الى صعوبة ضبط العينة وجود نشاطات اخرى ( رسم ، غناء ، اشغال يدوية ) في نفس الوقت الذي كان يجري فيه تطبيق البرنامج والتحاق عدد من الاشبال ( وخاصة الزهرات ) ممن كان يفترض التحاقهم ببرنامج العلوم ، او ممن التحقوا فعلا في الدروس الاولى بهذه النشاطات·

**البرنامج**
**اولا : منهج عرض الافكار والاسلوب التربوي :**

١ ـ جاءت الوحدات حسب تسلسلها في البرنامج مترابطة ومتكاملة ، بحيث كانت كل وحدة منها تعالج فكرة رئيسية، وتمهد في نفس الوقت للفكرة التي تليها بشكل سلس ، مما امكن مع نهاية وحدات البرنامج من تمييز خط عام متماسك يتكون من عدد النقاط ( الافكار الرئيسية ) · ويجيب هذا الخط على السؤال المطروح سابقا : ما هو السلاح ؟ وما يتفرع عنه من اسئلة اخرى مثل : ما هو الخط العام الذي يحكم تطوره ؟ ويجيب الى ( حد ما ) على مدى ارتباط تطور تقنيات السلاح مع تطور المجتمع البشري وتعقد حاجاته · على اعتبار ان السلاح حاجة اجتماعية قبل كل شيء · وكانت تتقاطع مع هذا الخط العام باستمرار خطوط عرضية تتطلب شرح بعض الافكار والمفاهيم حول السلاح· ونعطي هنا بعض الامثلة فقط على مسألة الخطوط العرضية :

مثال (أ) : الوحدة الثالثة ( مسار المقذوف بواسطة مختلف انواع الاسلحة )·

مثال (ب) : الوحدة الرابعة ( شرح مفهوم الانفجار من خلال احتراق البنزين في صفيحة مغلقة الا من فتحة في اعلاها ) ·

وهناك عدة امثلة على ترابط وتكامل وحدات البرنامج ( ينبغي الرجوع للوحدات ) :

**مثال (أ) :**

جاءت الوحدة السابقة المتعلقة بالمتفجرات تتويجا للوحدات السابقة وخاصة الوحدات الرابعة ( المادة المتفجرة وتاثير الطاقة الناتجة عن اشتعالها : مثال البنزين ) ، **والخامسة** ( المادة المتفجرة كقوة دافعة : **احتراق البارود في حيز محصور** ) **والسادسة** ( القوة الدافعة الموجهة : المقارنة بين انفجار الطلقة داخل ماسورة البندقية وخارجها ) كما مهدت الوحدتان **الاولى** ( اجهزة الرمي وتحول الطاقة : بدءا من الطاقة العضلية المستخدمة في الاسلحة البدائية وحتى الطاقة الكيماوية من خلال مثل المفرقعات ( الفتيش ) **والثانية** ( تطور الاسلحة من زاوية الطاقة والتقنية : استخدام البارود بدءا من الاسلحة البدائية حتى الاسلحة الحديثة) للوحدات الرابعة والخامسة والسادسة·

ولذلك جاءت الوحدة السابعة لتمسك بالخيوط المتفرقة في الوحدات السابقة وتصوغها في نسيج واحد ، وتمكنت بذلك من اعطاء تعريف شامل ومبسط للمواد المتفجرة مبنيا على المعرفة الجزئية السابقة ·

**مثال (ب) :**

جاءت الوحدة العاشرة والاخيرة المتعلقة بالصاروخ لتوضح انه ( اي الصاروخ ) كان تتويجا لجهود الانسان في تطوير سلاح فعال ، اقتصادي ، عالي المناورة ، بعيد المدى · كما اوضحت ان تقنيات الصاروخ الحديث كانت نتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي الذي تم من خلال التوصل الى صنع الاسلحة الاقل تطورا · وقد مهدنا لهذا كله في المقدمة التي سبقت وحدات البرنامج العشرة ، وكذلك في الوحدة الثانية ( تطور الاسلحة من زاوية الطاقة والتقنية ) التي أرست المقياس الذي تم على اساسه الحكم على مدى تطور سلاح معين · حين حددت السلاح بثلاث عناصر رئيسية هي ( القاذف ، المقذوف ، الطاقة ) وربطت تطور السلاح بتطور هذه العناصر · وحين حصرت هدف القاذف والطاقة في

ايصال المقذوف الى الهدف ، على اعتبار انه اهم جزء في السلاح لان بقية اجزاء السلاح انما صنعت من اجل ايصال هذا المقذوف الى الهدف بكفاءة عالية . وعلى هذا الاساس الذي أرسي في الوحدة الثانية نظرنا الى الصاروخ في الوحدة الاخيرة . كما انه لم يكن من الصعب استيعاب وفهم تقنيات الصاروخ ومكوناته من قبل الاشبال والزهرات ، لان الوحدات السابقة وفرت الارضية الملائمة لذلك ( حركة المقذوف الداخلية ، حركة المقذوف في الهواء ، حركة المقذوف النهائية ، المتفجرات بانواعها وخلاصة المادة الدافعة ، مبدأ الفعل ورد الفعل ، قذائف المدفعية والطائرات ، القذائف الخارقة للدروع ... الخ ) .

٢ ـ في الفقرة السابقة تعرضنا للمنهج الذي اتبع في تسلسل وحدات البرنامج . وفي هذه الفترة سنتعرض لمنهج عرض الافكار ضمن الوحدة الواحدة . وهل ادت كما هي مكتوبة الى ايصال الفكرة الرئيسية التي تعالجها الى ذهن الشبل . كما ذكرنا في المقدمة ، فقد كان منطلقنا هو تبسيط المفاهيم العلمية المعقدة بواسطة تجارب تمهيدية وبسيطة من الحياة اليومية ما امكن . لذلك فانه عند معالجتنا لاي مفهوم علمي ، نمهد لذلك بواسطة تجارب بسيطة وملموسة .

مثال (أ) : كمية الحركة ( الوحدة الثامنة ) .

قد يبدو هذا المفهوم معقدا ويصعب استيعابه من قبل تلاميذ الصف الاول تكميلي ، ولكن طريقة المعالجة تثبت عكس ذلك .

**تجارب بسيطة :**

ـ اصطدام سيارتين من نفس النوع ( نفس الكتلة ) تسيران بسرعة مختلفة، بجدار .

ـ اصطدام سيارتين من نوعين مختلفين ( ولهما كتلتان مختلفتان ) وتسيران بسرعة واحدة ، بجدار ثم نراقب النتائج .

ونخرج من هذه الامثلة باستنتاجات معينة ، ننتهي منها الى تعريف لمفهوم كمية الحركة ، من حيث هو حاصل ضرب الكتلة في السرعة . ثم نعود ونربط هذا المفهوم بموضوع حركة المقذوف النهائية ، حيث انه الموضوع الذي يعالج في الاساس .

**مثال (ب) :**

ظاهرة الحشوة الجوفاء ( الوحدة التاسعة ) .

ـ الحشوة الجوفاء هي مادة متفجرة يحدث فيها تجويف على شكل مخروط ، او اشكال مشابهة ، ويؤدي تفجيرها بملاصقة جسم صلب ما الى احداث خرق في هذا الجسم . ولشرح هذه الظاهرة المعقدة ، بحثنا عن ظاهرة اخرى مشابهة وسهلة الفهم والاستيعاب ، وهي قدرة العدسة على تجميع اشعة الشمس وتركيزها في نقطة واحدة هي بؤرة العدسة بهدف اشعال النار . وبعد شرح ظاهرة تركيز الضوء ، نعود لنجري بعض التجارب البسيطة :

ـ تفجير مادة متفجرة بملاصقة جسم صلب وملاحظة النتائج ( لا يحدث خرق للجسم ) .

ـ تفجير مادة متفجرة من نفس النوع بعد احداث تجويف فيها على شكل مخروط ، بملاصقة جسم مشابه ، وملاحظة النتائج ( يحدث خرق ) ثم تربط ظاهرة تركيز الضوء في نقطة واحدة ، بظاهرة تركيز طاقة الانفجار في نقطة واحدة ايضا بسبب وجود التجويف المخروطي . ثم نعود لشرح القذائف الخارقة للدروع والقنابل اليدوية المضادة للدروع ، وغيرها ، في ضوء هذه الظاهرة

باعتبارها المبدأ العلمي الذي يقوم عليه عمل هذه القذائف ·

**مثال (ج) :**

مبدأ الفعل ورد الفعل ( الوحدة العاشرة ) ·

لشرح هذا المبدأ الذي يعمل وفقه الصاروخ نقوم بتجارب على البالونات ، وعلى الاسهم النارية وهي ليست اكثر من لعب بيد الاشبال · ان السهم الناري هو نموذج بسيط للصاروخ وطريقة عمله ·

وهناك امثلة كثيرة يمكن ان نسوقها للاستدلال على هذا المنهج ، يمكن اكتشافها بالرجوع الى البرنامج ·

٣ ـ يلاحظ في وحدات البرنامج العشرة تكرار لبعض الافكار الجزئية والمصطلحات · ولكن هذا التكرار لم يكن تكرارا عفويا ودون مبرر ·

**مثال (أ) :**

لقد تناولنا البارود في المقدمة حول نشوء السلاح ( اكتشاف البارود وتأثيره على تطور السلاح ) وفي الوحدات **الاولى** ( عند الحديث عن الطاقة الكيماوية ) و **الثانية** ( البارود كمحطة رئيسية في تطور السلاح ، والاسلحة البدائية التي تستخدم البارود) و **الثالثة** ( عند الحديث عن مسار المقذوف وعلاقة السرعة الابتدائية للمقذوف بكمية الحشوة الدافعة ) و **الخامسة** ( تركيب البارود وتحضيره ) **والسادسة** ( البارود مكون من مكونات الطلقة عند الحديث عن القوة الدافعة الموجهة ) **والسابعة** ( المتفجرات وتصنيف البارود كمادة متفجرة دافعة ) **والعاشرة** ( الصورايخ الاولى التي تدفع بواسطة البارود ) وبهذا نلاحظ ان البارود يرد ذكره تقريبا في جميع الوحدات · ولكنه كان يعالج في كل مرة من زاوية معينة تخدم الفكرة الجزئية او الرئيسية التي نتحدث عنها ، بحيث يؤدي هذا في النهاية الى اعطاء فهم شمولي لهذه المادة واستخداماتها · وكما تؤدي الى ترابط الافكار في وحدات البرنامج المختلفة ·

**مثال (ب) :**

لقد ورد ذكر فلمنات الزئبق وأزيد الرصاص عند الحديث عن تطور المقذوف واجهزة القذف في ( (الوحدة الثانية ) ودون تسميتها ، بل اكتفينا بان اطلقنا عليها اسم« مادة كيمياوية حساسة » تحتويها كبسولة الطلقة · كما وردت ايضا في الوحدة السادسة كمادة حساسة دون تسميتها · وعند الحديث عن المواد المتفجرة في الوحدة السابعة سميت هذه المادة الحساسة وصنفت وعرفت استخداماتها ·

ويمكن الاستدلال بأمثلة كثيرة على ما سبق ، بالرجوع الى وحدات البرنامج· وقد أدى هذا كله الى ترسيخ المصطلحات العلمية ومدلولاتها ·

٤ ـ تمت التجربة باشتراك موجهين وباشراف عدد منهم · وقد اعطى احد الموجهين الثلاثة معظم وحدات البرنامج · وسمح في بعض الوحدات للموجهين المراقبين بالاشتراك في شرح الوحدات عن طريق توجيه الاسئلة للموجه الذي يقوم اساسا بشرح الوحدة بحيث تخدم هذه الاسئلة التوجه الاساسي في الوحدة، وعن طريق شرح بعض المفاهيم والافكار، او اعطاء بعض الامثلة ، بهدف مساعدة الموجه على تبسيط بعض الافكار ، ومساعدة الاشبال على استيعابها ·وبهذا طبقنا اسلوب اكثر من مدرس واحد في الفصل · وكان لاشتراك اكثر من موجه في اعطاء وحدات البرنامج المختلفة بعض المساوىء ، منها ان الاشبال تعودوا على موجه معين وعلى اسلوبه وكان من الصعب عليهم قبول موجه اخر ، مما اثر على مدى استيعابهم · وكان هذا

واضحا في الوحدة الخامسة ، وهي اول وحدة يشرحها موجه جديد · وكان الموجه الجديد في الوحدة العاشرة ( الصاروخ ) من غير المتابعين للوحدات السابقة ونتيجة لذلك فانه لم يعد الى بعض الافكار في الوحدات السابقة للاستفادة منها · وهذا يطرح مرة اخرى ضرورة الدورات التدريبية للوصول الى اسلوب تربوي واحد ·

٥ ـ اختلفت العلاقة بين الشبل والموجه خلال البرنامج عن العلاقة التقليدية القائمة بين الاشبال وكادر المعسكر · ان العلاقة الاخيرة قائمة على الروح العسكرية وهي علاقة يحكمها الخوف من العقاب والذي يكون في العادة عقابا جسديا · ولا تؤمن هذه العلاقة الانضباط الذاتي للشبل ، بل اقصى ما نستطيع ان نؤمنه هو الانضباط المؤقت اثناء وجود الكادر المسؤول · اما علاقة الموجه بالشبل خلال البرنامج فقد قامت منذ البداية على اشعار الشبل بالمسؤولية وتحميله اياها ، دون اللجوء الى اسلوب العقاب الجسدي او الصراخ · ولم ننجح في بداية الامر في ضبط الاشبال ، وكانت تسود الفصل بعض الفوضى من وقت لاخر · الا ان اللجوء الى العصا او الصراخ كان لا يعني اكثر من الوقوف امام مجموعة صامتة ، دون ان يؤدي ذلك الى تركيز انتباهها وكسب اهتمامها بالدرس · وربما لم يكن نجاحنا في هذا المجال حتى نهاية البرنامج لتعود الاشبال على اسلوب تربوي معين · ان تعودهم على اسلوب اخر لا يتم من خلال برنامج واحد ، بل من خلال برامج تربوية عديدة تكسب الاشبال روح الجماعة وروح المسؤولية ·

٦ ـ ان العلاقة بين الموجه والشبل لم تقتصر على تلك العلاقة القائمة اثناء الدرس بل تعدتها لتشمل فترات اخرى في غير اوقات الدروس من خلال الزيارات التي كان يقوم بها الموجهون للمعسكر من وقت لاخر اثناء التجربة ، ويجري فيها الحوار مع الاشبال حول سير الدروس وحول حياتهم في المخيم بشكل عام · كان هذا الحوار يجري احيانا في طرقات المخيم ، اذا ما التقى الموجه باحد الاشبال وساعد هذا كله على خلق جو من الالفة والثقة بين الموجه والاشبال، جعلهم يقبلون الموجه ويقبلون على دروسه · ويمكن ان تظهر نتائج هذه العلاقة جيدا في حال استمرارها من خلال تطبيق برامج اخرى مشابهة ·

٧ ـ كان من بين الموجهين المراقبين موجه واحد من كادر معسكر الاشبال ، وهو مدرب عسكري اساسا ، وكان المطلوب منه ان يتابع الاشبال بين كل درسين متتالين · فيقوم باعادة الدرس وتوضيح الاشياء الصعبة ، كما يقوم بالاشراف على التجارب العلمية التي لا يسمح الوقت باجرائها خلال الدرس ( تحضير البارود مثلا ) · كما كان عليه ان يشرف على الواجبات التي يكلف بها الاشبال بعد كل وحدة ( مثلا الرسومات)· الا ان كل ذلك لم يتم على الوجه المطلوب لعدم تفرغ ذلك الكادر لهذه المهمات لانشغاله بنشاطات اخرى داخل المعسكر· وقد اثر هذا كثيرا على استفادة الاشبال من مواد البرنامج وخاصة فيما يتعلق بالتطبيقات العملية ·

٨ ـ واخيرا يمكن تلخيص الاسلوب الذي اتبع في كتابة المادة العلمية وفي ايصال المعلومات الى ذهن الشبل بما يلي :

ـ تجنب الاسلوب التقريري والتلقيني واعتماد اسلوب الحوار والمشاركة من خلال :

★ طرح الاسئلة والطلب من الاشبال الاجابة عليها ·

★ استدراج الشبل للاجابة على

الاسئلة الصعبة من خلال الاجابة على سلسلة من الاسئلة البسيطة التي تقدم المعطيات الاساسية للاجابة على السؤال الرئيسي ·

ـ شرح مضامين المفاهيم العلمية المعقدة وشرح تطبيقاتها في الحياة العلمية دون الاضطرار الى تسميتها ، حتى لا يربك ذهن الشبل بحفظ تعريفات ومصطلحات لا يلبث ان ينساها · ولكن هذه الخطوة تساعده في المستقبل على تذكر هذه المفاهيم اذا مرت في اي منهاج دراسي ·

مثال : كمية الحركة = الكتلة × السرعة

الاجهاد = مقدار القوة الدافعة على وحدة المساحة من جسم ما ·

ـ تحدي ذهن الشبل احيانا ، وحفزه على التفكير بطرح افكار علمية صعبة ، والاكتفاء بالحد الادنى الذي امكن للشبل استيعابه ، على ان يكون هذا بمثابة تمهيد في حال التعرض لهذه الافكار مرة اخرى ·

ـ شرح المفاهيم العلمية الصعبة من خلال ربطها بتجارب وملاحظات من الحياة اليومية ·

مثال (١) :

الاجهاد ( المسمار والحائط ، ابرة الخياطة ) ·

**مثال (٢) :**

كمية الحركة ( اصطدام سيارة بجدار ) ·

ـ مقارنة بعض الظواهر المعروفة لدى الشبل بظواهر اخرى غير معروفة للوصول الى فهم الظاهرة المعينة ·

( مثال أ ) : مقارنة سلسلة التفجير بسلسلة الاشتعال ·

( مثال ب ) : مقارنة تركيز طاقة الانفجار بواسطة الحشوة الجوفاء في نقطة واحدة لاحداث الخرق ، بتركيز الضوء بواسطة العدسة لاحداث الحريق ·

ـ الانطلاق من المعلومات التي يعرفها الشبل وبناء نسيج من المعلومات حول هذه النواة يساعد في النهاية على توضيح حقيقة علمية معينة ·

مثال : انطلاقا من معرفة الاشبال لظاهرة البرق والرعد ، نخرج بمعرفة سرعة الصوت والضوء وايهما اسرع ؟ ننتقل بعد ذلك الى سرعة رصاصة البندقية الحديثة ، وبمعرفة انها اكبر من سرعة الصوت بحوالي ثلاثة اضعاف ، يدرك الشبل ان الرصاصة تصل الى الانسان قبل ان يصل الصوت الناتج عن رمايتها · ونخرج في النهاية بالحقيقة العلمية القائلة بانه طالما انك لا تسمع صوت الرماية ، فان هذا لا يعني انك بخير ولم تصب بأذى مميت ·

**ثانيا ـ مدى استيعاب وتطوير المادة العلمية من قبل الاشبال :**

١ ـ بالاستناد الى نتائج الاستمارات تراوحت نسبة الاشبال التي استوعبت المادة العلمية في بداية البرنامج ( من المقدمة حتى الوحدة الثانية ) ما بين ١٥ـ ٣٠٪ فقط ، وذلك حسب تقديرات الجهات المختلفة التي اشتركت في التقييم · ثم اخذت هذه النسبة في الازدياد مع تتالي وحدات البرنامج · فازدادت بشكل ملحوظ في الوحدة الثالثة ( مسار المقذوف ) ، على عكس ما كان متوقعا ، حيث انها وحدة نظرية بحتة وتخلو من التجارب العملية ، ويمكن القول من خلال ملاحظة الموجه الشخصية بان حوالي نسبة ٥٠٪ من الاشبال قد استوعب المادة العلمية في تلك الوحدة ، بينما تجاوب اكثر من ٧٥٪ منهم مع الدرس بشكل ملحوظ عن طريق طرحهم للاسئلة والاستفسارات · وكذلك من خلال

محاولتهم الاجابة على الاسئلة المطروحة· ونسجل هنا ، انه ابتداء من هذه الوحدة **اخذت معظم الزهرات في التجاوب مع الدروس** · وحسب اقوال الزهرات كان السبب في ذلك ان الاهتمام من قبل الموجه تركز في الوحدات السابقة على الاشبال فقط دون الزهرات ، وهذا ما امكن تجاوزه في هذه الوحدة · وحسب تقديرات الاستمارات ايضا اخذت نسبة الاشبال التي تستوعب المادة العلمية في الازدياد ، ولكن ليس في خط بياني متصاعد · وبلغت هذه النسبة من ٧٠ــ ٩٠٪ ابتداء من الوحدة السادسة وحتى نهاية البرنامج · ذكرنا ان الزيادة لم تكن زيادة منتظمة ويرجع ذلك لعوامل عدة :

ــ وجود مصطلحات ومفاهيم صعبة في بعض الوحدات لم يتطرق اليها المنهاج المدرسي مثال : الوحدة الرابعة ، فكرة اتحاد العناصر لتكوين المركبات الكيماوية والتعبير عن ذلك في رموز ومعادلات ·

ــ عدم التمكن من اجراء بعض التجارب العملية :

مثال (١) : الوحدة الرابعة ، توضيح مفهوم الانفجار عن طريق اشعال كمية من البنزين في صفيحة مغلقة الا من فتحة من اعلاها ·

مثال (٢) : الوحدة الخامسة ، احتراق البارود ضمن حيز محدود ·

ــ نقص وسائل الايضاح : مثال : الوحدة التاسعة ، نقص القطاعات المجسمة في بعض انواع القذائف ( قذائف المدفعية ، القذائف الخارقة··· الخ ) ·

هذا ويمكن الخروج بمجموعة من الملاحظات بمدى استيعاب الاشبال للوحدات :

أ ــ كان هناك تفاوت في استيعاب وحدات البرنامج من قبل الاشبال · استوعبت الوحدات الثالثة ، الثامنة ، العاشرة ، والى حد ما الوحدات السادسة والسابعة والتاسعة ، اكثر من غيرها من الوحدات · وكون معظم هذه الوحدات من وحدات البرنامج الاخيرة يجعلنا لا نغفل عاملا مهما ، وهو ان تتالي وحدات البرنامج وتراكم المعلومات الاساسية خلق عند الاشبال المزيد من الاستعداد والقدرة على استيعاب وفهم المفاهيم العلمية حول السلاح · كما ان تدني نسبة الاشبال التي استوعبت المادة في بداية البرنامج يمكن ان يرجع الى عدم تراكم المعلومات والى نقص وسائل الايضاح وخصوصا في الوحدة الثانية ·

ب ــ كان هناك تفاوت في استيعاب بعض الافكارنظرا لتفاوت المستوى المدرسي من ناحية ، والمستوى الذهني من ناحية اخرى : استوعب اثنان من الاشبال فقط ، وممن ينتسبون الى الصف الثاني والثالث تكميلي ، بطريقة اتحاد العناصر لتكوين المركبات ( الوحدتين الرابعة والخامسة ) ·

ج ــ كان هناك تفاوت في استيعاب الاشبال والزهرات لبعض الافكار والمصطلحات التي تتطلب معرفة بالسلاح· ان عدم حصول معظم الفتيات على تدريب عسكري جعل من الصعب عليهن تلمس بعض الظواهر ، والتعرف على بعض الاسلحة ( فكرة الفعل ورد الفعل عند الرمي من بندقية ، التعرف على قاذف الار·بي·جي ، الهاون ٦٠ ) ·

د ــ ان عدم ارتباط البرنامج العلمي ببرنامج تدريب عسكري وغياب السلاح ، كان له اثره في عدم خلق حافز اضافي لدى الاشبال والزهرات للاقبال على معرفة القوانين العلمية للسلاح الذي يتدربون عليه ·

هـ ــ ان الاستيعاب الجيد للوحدتين

الثالثة ( مسار القذف ) والثامنة ( مفهوم كمية الحركة بشكل اساسي ) وهما وحدتان نظريتان تفتقران الى التجارب العملية وتعتمدان فقط على الاستشهاد بملاحظات من الحياة اليومية مثل : اصطدام سيارة بجدار ، دق مسمار في حائط ، قذف كرة قدم على حارس المرمى ، يثبت قدرة الاشبال على التخيل وعلى تحليل وربط المعلومات ٠

٢ ــ من خلال التعامل مع الاشبال عن قرب في فترة تطبيق البرنامج ، ومن خلال معرفة المستوى الذهني والمدرسي لكل شبل من اشبال المجموعة على حدة ، يمكن تصنيفهم فيما يختص بمدى استيعابهم الى عدة مجموعات ٠ ولكن قبل عملية التصنيف ينبغي الاتفاق على مقياس تعتمد عليه عملية التصنيف وسنقترح هنا مقياس الحد الادنى من المادة العلمية المستوعبة من قبل الشبل ٠ اذا اتفقنا على تعريف الحد الادنى بانه ذلك الخط العام الذي تعرضنا له سابقا والذي يتكون من عدد من الافكار الرئيسية تعرف ما هو السلاح علميا ، وتوضح الخط العام الذي حكم تطوره ولا يدخل ضمن هذا الخط العام الخطوط العرضية التي تتقاطع معه والتي تشرح بعض الافكار والمفاهيم الضرورية حول السلاح ٠ ويقدر هذا الخط العام بحوالي ٧٠٪ من المادة العلمية المعطاة ٠ وبهذا يصنف الاشبال الى ثلاثة مجموعات مع الاحتفاظ بالتصنيف القائم على اختلاف الصف المدرسي :

ــ المجموعة الاولى ، وتتكون من أربعة زهرات انهين الصف الاول تكميلي، حضرت اثنتان منهن ٩٠٪ من الدروس ، بينما حضرت الاثنتان الاخريان ٥٠٪ فقط من الدروس ٠ من بين هذه المجموعة يمكن اعتبار ان اثنتين فقط استوعبتا الحد الادنى المطلوب : بينما لم تتمكن الاخريان من تحصيل ذلك الحد ٠ وقد يكون السبب الرئيسي غيابهن عن ٥٠٪ من الدروس ٠ ولكن هذا لم ينف ان هاتين الزهرتين قد تمكنتا من استيعاب بعض المعلومات عن السلاح والمتمثلة في الخطوط العرضية ٠

ــ المجموعة الثانية ، وتتكون من شبلين ( انهى احدهما الصف الثالث تكميلي ، فيما انهى الاخر الصف الثاني ) وزهرة انهت الصف الثاني تكميلي ٠ وقد حضر جميعهم ٩٠٪ من الدروس ٠ ويمكن اعتبار الزهرة في هذه المجموعة بالاضافة الى الشبل الذي انهى الصف الثالث تكميلي من اكثر افراد العينة استيعابا لمادة البرنامج ٠ وقد زاد استيعابهم عن الحد الادنى المشار اليه ٠ ويمكن ان نقول بانهم قد استوعبوا ( ٨٠ــ٩٠٪ ) من المادة العلمية ٠ اما بالنسبة للشبل فيمكن ان يضم الى اشبال المجموعة الاولى التي استوعبت الحد الادنى ٠

ــ المجموعة الثالثة ، وتتكون من ١٣ شبلا وزهرة معظمهم من الاشبال ٠ وقد انهى (١١) منهم الصف السادس ابتدائي واثنان الصف الخامس ابتدائي ٠ وقد تمكن خمسة من اشبال هذه المجموعة ممن انهوا الصف السادس ، من استيعاب الحد الادنى ٠ بينما ابدى الاثنان الاخران اللذان انهيا الصف الخامس مقدرة على الفهم مكنتهم من الاقتراب من استيعاب الحد الادنى ٠

ــ بناء على ما سبق يمكننا ان نستنتج بان اكثر من نصف المجموعة (١١ شبلا) قد استوعبت الحد الادنى اي ٧٠٪ من المادة العلمية ٠ وبان عددا من الاشبال الذين انهوا الصف السادس قد تساوى في مستواه الذهني مع بعض الاشبال الذين انهوا الصف الاول تكميلي بل والثاني تكميلي ٠

٣ ــ تمكن بعض الاشبال من مشاركة الموجه في اضافة وتطوير بعض الافكار العلمية المتعلقة بالمادة العلمية :

مثال (أ) : اختيار مبدأ الفعل ورد فعل ( الوحدة السادسة ) عن طريق نفخ بالون ثم افلاته في الهواء ٠

عندما سأل الموجه الاشبال ماذا يحدث لبالون له فتحتان اذا ما نفخ ثم افلت في الهواء ؟

٠ اجاب معظمهم بان البالون يقع على الارض ولا يندفع في اي اتجاه ، فيما اعترض احد الاشبال على هذه الاجابة، موضحا بان هذا يتوقف على ما اذا كانت الفتحتان متساويتين ام لا ٠٠ وبأن البالون يندفع باتجاه الفتحة الصغيرة اذا كانت الفتحتان غير متساويتين ٠ ان هذه الاجابة تمثل تطويرا للفكرة المطروحة كما ان لقطر الفتحة التي تندفع منها الغازات ضمن وعاء محكم الا من هذه الفتحة ، اهمية كبيرة في تصميم الصاروخ ، ولذلك جاءت هذه الفكرة ، أيضا ، تمهيدا للفكرة الاساسية المطروحة في الوحدة العاشرة ٠

مثال (ب) :

في الوحدة الثانية عند شرح تأثير شكل المقذوف ( الرأس المدبب ) على اختراق الاجسام ، اعطي مثل ابرة الخياطة والسبب الذي يجعلها تنفذ بسهولة في قطعة القماش اكثر من المسمار مثلا ٠ وفسر عمل الابرة على اساس مبدأ الاجهاد ( مقدار القوة المؤثرة على وحدة المساحة من جسم ما ) ٠ اذ ان نفس مقدار القوة التي تضغط بها اليد في حالة المسمار تتوزع في حالة الابرة على مساحة اصغر ، (لان مساحة رأس الابرة اصغر ) مما يجعلها تخترق القماش بسهولة أكثر من المسمار ٠

اضاف احد الاشبال عندئذ ، بان هذا يتوقف ايضا على نوع القماش ومقدار مقاومته للابرة ٠ ولذلك اضاف الموجه تجربة اخرى فاخذ ابرة واحدة وجعلها تنفذ في قطعتين من القماش أحداهما سميكة والاخرى رقيقة ، لاكتشاف في اي القطعتين تنفذ الابرة بسهولة واخيرا ربطت هذه الفكرة بالمحاولات التي بذلت لزيادة سماكة الدروع لمنع اختراقها بواسطة القذائف المضادة للدروع والتي يعتمد مبدأ عملها على طاقة حركة القذيفة ( الوحدة التاسعة ) ٠

**تقييم عام**

لقد تم تقييم هذه التجربة باستخدام عدد من الوسائل :

١ الاستمارات والملاحظات الشخصية التي دونها الموجه ٠

٢ مراجعة عامة للبرنامج لقياس استيعاب الاشبال للمادة العلمية عن طريق الاسئلة اساسا ٠

٣ تقسيم الاشبال والزهرات الى مجموعتين في شكل حلقات نقاش ، مجموعة تضم الزهرات ، والمجموعة الاخرى تضم الاشبال ٠ ثم توجيه عدد من الاسئلة الى المجموعة وتسجيل الاجابات عليها ، مع اعتماد اسلوب النقاش في الحصول على الاجابات ٠ ولا تهدف الاسئلة اساسا الى اختبار استيعابهم للمادة العملية بل تتعلق بانطباعاتهم العامة حول البرنامج وتمثل استمارة غير مكتوبة موجهة للاشبال وهذه هي الاسئلة :

أ) حول علاقة الشبل بالسلاح : هل قمت باستعمال السلاح وباطلاق النار ؟ قبل البرنامج ؟ خلاله ؟ بعده ؟ ، ام لم تقم بذلك حتى الان ؟

ب) اي موضوع من مواضيع البرنامج احببته اكثر من غيره ، وما هو السبب ؟

ح) هل قمت او تنوي القيام بصنع بعض النماذج من الاسلحة التي رأيتها خلال البرنامج ؟ أو هل قمت باجراء بعض التجارب العلمية بعد الدروس ؟

د) ما هو رأيك في البرنامج بشكل عام ؟ التوقيت ، الانضباط خلال الدروس، العلاقة مع الموجه ، الاسلوب ، وما هي اقتراحاتك ؟

هـ) هل ترغب في الالتحاق ببرنامج متطور يوسع معلوماتك حول مواضيع البرنامج ؟

و) لقاء تقييمي للموجهين الذين شاركوا في البرنامج واشرفوا عليه ، والطلب الى بعضهم كتابة تقييم خاص منفصل للبرنامج ·

٤ ـ لقاء تقييمي بين عدد من كوادر القسم التربوي الذين شاركوا في التجربة وبين كادر معسكر الاشبال ·

بالاستعانة بوسائل التقييم السابقة يمكن ان نبدي عددا من الملاحظات :

١) ان ٩٠٪ من المادة العلمية كانت تتناسب تماما مع مستوى الصف الاول تكميلي · كما انها تتناسب مع المستوى الذهني لبعض الاشبال دون الصف السادس ابتدائي وهذا يطرح امكانية تطوير البرنامج مستقبلا في الاتجاهين الادنى والاعلى · بحيث تصبح هناك برامج للصف السادس ، ولصفوف المرحلة التكميلية · ولو اخذنا عامل تدني مستوى التعليم في مدارس الاونروا، فانه يمكننا اعتماد مادة البرنامج العلمية بسهولة للصف الاول من المرحلة التكميلية ·

٢) قبل تجربة التقييم الاخيرة وزعت على الاشبال الكراريس التي تحتوي المادة العلمية ، بهدف قراءتها واسترجاع المعلومات ، الا انه تبين ان كل الاشبال لم يتمكنوا من قراءة المادة وفهمها مباشرة من الكراس · واعتمد بعضهم في المراجعة على ما دونوه بانفسهم من مذكرات حول الدروس · وهذا يوضح ان الكراس يناسب المدرب فقط وليس الشبل ·

٣) توضح من خلال حلقات التقييم بشكل اساسي ، الى اي مدى تغيرت علاقة الشبل بالسلاح · ان عددا من اشبال المجموعة ( وخاصة الزهرات ) لم يقم باستعمال السلاح واطلاق النار الا في فترة تطبيق البرنامج · بينما لم تقم بعض الزهرات حتى الان بذلك · وقام عدد اخر من الاشبال باستخدام السلاح قبل واثناء البرنامج · وفي حلقة التقييم اجاب بعض الذين استعملوا السلاح لاول مرة خلال البرنامج ، بان المعلومات التي حصلوها عن السلاح شجعتهم على تجاوز علاقة الخوف من السلاح · وأصبح السلاح شيئا مألوفا لديهم يعرفون ما يتم بداخله من عمليات · ان عملية ضغط الاصبع على الزناد اصبحت لدى الشبل بداية سلسلة من العمليات المعروفة لديه مسبقا ، سواء تلك العمليات التي تتم داخل ماسورة السلاح ، ام تلك التي تحدث للمقذوف خلال طيرانه نحو الهدف او عند ارتطامه به · ان الهدف من العملية كلها اصبح واضحا في ذهن الشبل ، وهو اصابة العدو بكفاءة عالية · اما بالنسبة للاشبال الذين قاموا باطلاق النار مرات عديدة قبل البرنامج، فقد اجابوا بانهم لم يشعروا بالخوف من السلاح من قبل ، ولكنهم اصبحوا يعرفون اكثرمن ذي قبل ما الذي يحدث تماما عند ضغط اليد على الزناد · وكان اهتمامهم السابق يتركز حول اطلاق النار وسماع صوت الطلقة · اي ان علاقتهم السابقة بالسلاح كانت علاقة سيطرة من جانب السلاح · ثم بدأت هذه العلاقة في التغيير ليصبح الشبل هو المسيطر على السلاح ، وهو الذي يوجهه · واما الذين لم يقوموا باطلاق النار حتى الان فقد اجابوا ، بانه اصبح لديهم جراة اكبر للقيام بهذه العملية ·

٤) اجمع معظم الاشبال وخاصة الزهرات بان وحدة الصاروخ كانت من

احب مواضيع البرنامج لديهم واجابوا بانهم سمعوا بالصواريخ تنطلق من المنطقة واليها ، مما حفزهم على التعرف عليها عن قرب ٠ وقد ساعدناهم في ذلك باننا احضرنا الى الفصل عينات من صواريخ ٣ر٥ بوصة صاروخ كاتيوشا ، وغيرها ٠ كما ان وسائل الايضاح كانت كافية بشكل عام ٠ وابدى الاشبال رغبة وحماسة شديدتين لاستمرار البرنامج نفسه او اية برامج اخرى متطورة ٠ مما دفعنا الى التفكير في اختيار مجموعة من بينهم ، وتشكيل ما يشبه نادي هواة الصواريخ ٠ الا ان الفكرة طورت الى نادٍ للعلوم العسكرية يكون فيه الصاروخ عبارة عن مشروع يتم من خلاله تحقيق اسلوب العلوم المتكاملة ، اي تعلم الكيمياء والفيزياء والرياضيات من خلال الصاروخ ٠ ولا نعني بالصاروخ هنا ، الصاروخ الحديث المعقد ، بل الاشكال الاولية له ، على اعتبار ان الصاروخ من اقدم الاسلحة التي عرفها الانسان ٠

٥) ومن غير الممكن هنا قياس تأثير مواد البرنامج على مواد العلوم التي تدرس في المدرسة لان هذا يتطلب ان يشترك مدرسو العلوم بشكل مباشر في التجربة ، كما يتطلب ملاحظة الاشبال في المدرسة لتلمس تأثير مثل هذه البرامج على تقبلهم لمواد العلوم وستكون الامكانية متاحة في حال تطبيق البرنامج في احدى المدارس ٠

٦) بجانب الاهداف التي توخاها البرنامج في اكساب الشبل حدا من المعلومات العلمية حول السلاح ٠ هناك اهداف اخرى يتوخاها القسم التربوي من هذا البرنامج واية برامج اخرى ، وهي ارساء علاقة واضحة مع مؤسسة الاشبال تهدف الى تطوير عملها التربوي من ناحية ، ومن ناحية اخرى توفير امكانية التطبيق الميداني لبرامج القسم ، وتطوير عمله عن طريق التعلم من التجربة ٠ وكان القسم يهدف من وراء هذه التجربة ايضا الى اشراك اكبر عدد ممكن من مؤسسات الثورة المهتمة بالتربية ، انطلاقا من فهمنا الشامل للتربية ، من حيث انها عملية لا تقوم بها المدرسة وحدها ، بل تشارك فيها مؤسسات الثورة الاخرى ٠ ولذلك تعاونا مع اللجنة العلمية منذ البداية ، ودعونا الكشاف الفلسطيني واتحاد المرأة لفرز بعض كوادرهم للمشاركة في البرنامج ٠ هذه المشاركة يمكن ان توفر عددا من الكوادر القادرة على تطبيقه ، سواء في المؤسسات المشاركة نفسها ، ام في معسكرات الاشبال الصيفية التي تضم اعدادا كبيرة من الاشبال ٠ مستفيدين في ذلك من تجربة معسكر الاشبال الصيفي في العام الماضي – معسكر عز الدين القسام – ، حيث اصطدمنا بواقع نقص الكوادر القادرة على تطبيق مثل هذا البرنامج ، بسبب كون نشاط المؤسسة نشاطا موسميا ينتهي بانتهاء المعسكر الصيفي ٠

### تطوير البرنامج

في ضوء التجربة برزت الحاجة الى تطوير مادة البرنامج ، بحيث يبقى ملائما لمستوى الصف الاول تكميلي ٠ ويشمل التطوير الاوجه التالية ، وهي معطاة هنا على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر :

١ – تبسيط بعض المصطلحات العلمية الصعبة ، او حذف بعضها ٠

مثال : موجة ضاغطة ، مرونة المواد الجامدة ، تحول اشكال الطاقة ٠

مثال : سرعة حركة الغازات ٠٠٠

٢ – اعادة النظر في بعض الرسومات ، والاشكال ، واضافة اخرى ٠

مثال : الاشكال المتعلقة بمسار المقذوف ٠٠

٣ ـ اضافة بعض الامثلة التوضيحية لزيادة تبسيط بعض الافكار ٠

مثال (أ) : لعبة كرة القدم ، لتوضيح اثر تدني سرعة المقذوف في المرحلة النهائية من طيرانه ، على قوة ارتطامه بالهدف ٠٠٠

مثال (ب) : البالون ذو الفتحتين ، لتوضيح فكرة الفعل ورد الفعل ٠٠٠

٤ ـ اضافة المعلومات حول بعض التطبيقات المتعلقة بالاسلحة ٠

مثال : مقذوفات الاسلحة الفردية ، الحارقة ، والخارقة والمقذوفات المتفجرة ٠

٥ ـ اختصار بعض الوحدات او تقسيمها الى وحدتين حتى تتناسب مع الوقت المحدد لكل وحدة ٠ لان بعض وحدات البرنامج استغرق شرحها حوالي الساعتين او اكثر ٠

مثال : الوحدة العاشرة ( الصاروخ )٠

٦ ـ اضافة بعض الوحدات للبرنامج لتغطية بعض نواحي النقص فيه ٠

مثال (١) : وحدة مستقلة خاصة بحرب الشعب ، وتاتي توسيعا للافكار التي وردت في المدخل عن نشوء السلاح، حول اهمية العلم والتكنولوجيا في حرب الشعب ٠ وتكون وحدة تعبوية في الاساس ٠

مثال (٢) : وحدة تشرح حركة الغازات في السلاح ٠ والاسس العلمية لتصنيف الاسلحة الخفيفة الى اسلحة الية ونصف الية ٠ وكذلك تفسير الاعطال التي تحدث في السلاح ٠

وقد أخذت اللجنة التربوية للعلوم في القسم التربوي ، الاقتراحات السابقة لتطوير البرنامج ، بعين الاعتبار ٠ وتعمل حاليا على طبع البرنامج واصداره في كراس يكون في متناول الجميع ٠

جابر سليمان

# مـراجعات

Joseph Churba , **The Politics of Defeat : America's Decline in the Middle East** ( Cyrco Press , New York : 1977 )

مع تصاعد الصراع على المنطقة العربية ، وتنامي اهمية هذه المنطقة على الصعيدين الاستراتيجي والاقتصادي ، اخذت قضية « الشرق الاوسط » تحتل موقعا اساسيا في برامج مختلف القوى السياسية في العالم ، وتشكل محورا من محاور الصراعات السياسية في داخل الدول الغربية وعدد من بلدان العالم الثالث ·

ولئن كان الموقف من ما يعرف « بقضية الشرق الاوسط » قد اصبح احد نقاط الاختلاف الرئيسية بين قوى التغيير وقوى المحافظة في عديد من البلدان · فلقد اصبحت تلك القضية كذلك نقطة جدل حاد بين مختلف تيارات قوى المحافظة في الدول الرأسمالية الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية · واذا كانت تلك التيارات تجمع على اولوية الحفاظ على المصالح الامبريالية في المنطقة العربية كهدف استراتيجي حيوي بالنسبة الى مستقبل النظام الرأسمالي العالمي ، فان تلك التيارات تختلف حول السبل الكفيلة بالحفاظ على تلك المصالح · والسياسة الواجب اتباعها تجاه « قضية الشرق الاوسط » وما تحمله من تناقضات تهدد على الدوام بتفجير الاوضاع في هذه المنطقة الملتهبة والحساسة من العالم ·

ويحاول « جوزيف تشوربا » في كتابه « سياسة الهزيمة : افول اميركا في الشرق الاوسط » ان يقدم وجهة نظر متكاملة حول وضع الشرق الاوسط والسياسة الاميركية تجاه ذلك الوضع ، مع ابراز الخيارات الاستراتيجية التي يطلب من واضعي السياسة الاميركية اتباعها من اجل ضمان المصالح الاميركية في المنطقة ·

و « جوزيف تشوربا » ليس بباحث عادي متخصص في شؤون الشرق الاوسط · فلقد كان يشغل منصب مستشار خاص لاستخبارات سلاح الجو في البنتاغون ، بالاضافة الى منصب كبير مستشاري سلاح الجو لشؤون الاستخبارات المتعلقة بالشرق الاوسط ، وذلك قبل ان يصطدم بالجنرال جورج براون رئيس هيئة رؤساء الاركان المشتركة السابق · ولقد « اضطر » تشوربا الى الاستقالة بسبب خلافه مع براون اثر التصريحات التي اطلقها الاخير في اواخر العام ١٩٧٦ ، والتي اكد فيها ان « اسرائيل » اصبحت عبئا عسكريا على الولايات المتحدة ·

ولاضفاء مزيد من الاهمية على الكتاب وما يتضمنه من اراء ، اسندت مهمة تقديمه الى الاميرال « المو زموالت » رئيس العمليات البحرية السابق في سلاح البحرية الاميركي · وعلى الرغم من ان « زموالت » اشار في تقديمه الى عدم تبنيه لمجمل الاراء التي تضمنها

الكتاب ، فلقد حرص على ان يؤكد على ان عمل تشوربا « يسد ثغرة في الادبيات الاستراتيجية » الاميركية ، كما انه « يجبر قراءه على رؤية التطورات في الشرق الاوسط كجزء من قضايا اكبر ، ومن ضمنها العلاقات بين الدول في المناطق المتاخمة ، والعلاقة الاستراتيجية المهيمنة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي»٠

ويوضح تشوربا الهدف من وراء كتابه في الفقرة الاولى من مقدمته الخاصة ، حيث يشير ان الهدف هو « اظهار ان حيوية اسرائيل حاسمة بالنسبة الى الولايات المتحدة وان على الولايات المتحدة بالتالي ان تتعهد بدون شروط بالدفاع عن تلك الامة والحفاظ عليها ٠ لا يجدر بنا ان ندعم اسرائيل فقط لان هناك ملايين من اليهود في هذا البلد ٠٠٠ لا يجب ان ندعمها لمجرد انها تجسد اخر وقفة لشعب اضطهد عبر القرون ، ولان التزامنا بمبادىء الانسانية واللياقة لا يسمح باقل من ذلك ٠ يجب ان ندعم اسرائيل اساسا لانها ـ وستبقى ـ ذات اهمية استراتيجية عظمى لامن الولايات المتحدة » ٠

ومن ثم ينتقل تشوربا الى الفصل الاول من الكتاب الذي يحمل عنوان « الاهمية الاستراتيجية للشرق الاوسط » ٠ ويبدأ تشوربا ذلك الفصل بتعداد المصالح الاميركية في الشرق الاوسط ، التي تتضمن « الحفاظ على منفذ استراتيجي الى المنطقة ومنفذ آمن لمواردها النفطية ، واحتواء النزاعات المحلية ، والنمو الاقتصادي والتقدم الاجتماعي المستمر ، وحماية الاستثمارات الاميركية ومساهمتها في ميزان المدفوعات الاميركي ، وتنمية التجارة الاميركية ، والحفاظ على العلاقات الثقافية مع شعوب المنطقة والعمل على توسيعها » ٠ ويستدرك تشوربا ، حيث يشير الى ان المصلحة الاميركية العليا في الشرق الاوسط هي ذات طبيعة « سياسية ـ استراتيجية : منع المنطقة من السقوط تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي وان تستغل ضد الغرب ، حيث ان ذلك سيعرض من قدرة منظمة حلف شمالي الاطلسي واليابان على مقاومة الضغط السوفياتي ، كما سيؤدي الى تحييد ايران وتركيا ، بالاضافة الى تطويق الصين ، وصولا نحو عزل الولايات المتحدة » ٠

ويستطرد تشوربا مشيرا الى انه بالاضافة الى احتواء النفوذ السوفياتي ، هناك اهتمامان رئيسيان اخران للولايات المتحدة في المنطقة ٠ ويتعلق الاول ببقاء اسرائيل ، في حين يرتبط الاخر بالمصالح الاقتصادية الخاصة ، وبشكل اساسي مصالح شركات النفط الاميركية في المنطقة ٠ ويشير تشوربا الى تصادم هذين الاهتمامين ، ومن ثم ينتقل الى تفنيد الرأي القائل بان الدعم الاميركي « لاسرائيل » يعيق نمو الاستثمارات والتجارة الاميركية مع البلدان العربية ، حيث يؤكد ان « الاعتبارات الاقتصادية تكون العنصر الغالب عادة عندما تكون فائدتها متبادلة » ٠ اما بالنسبة للجانب الامني ، « فاسرائيل » هي « الصديق الوحيد الديمقراطي في المنطقة الذي لا يعتمد ارتباطه بالغرب على بقاء حاكم اوتوقراطي او نزواته » ٠ كما وان « اسرائيل » ستكون ذات قيمة كبيرة في حال وقوع مواجهة حول امدادات النفط في المنطقة ، حيث تشير كل المؤشرات الى ان « المواجهة الرئيسية الاولى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ستكون في الشرق الاوسط ـ وحول النفط » ٠ وفي تلك الحالة يمكن « لاسرائيل » ان تلعب دور « طريق بري للامدادات ، وقاعدة تزويد بالوقود ،

ومستودع تموينات ، وذراع دعم تكتيكي للولايات المتحدة في المواجهة مع الاتحاد السوفياتي » · وكل ذلك بكلفة ضئيلة ، حيث ان الدعم العسكري الاميركي « لاسرائيل » يشكل « اقل من ١٪ من موازنة الدفاع الاميركية » ·

وينتقل « تشوربا » الى الفصل الثاني من الكتاب ، الذي يحمل عنوان «مخططات موسكو بالنسبة للمنطقة » ، حيث يستعرض تطور العلاقات السوفياتية بالمنطقة ، مؤكدا عدم صحة الفرضية القائلة بان تنامي النفوذ السوفياتي كان نتيجة للقضية العربية ـ الاسرائيلية · فتلك الفرضية « تتجاهل الطابع الراديكالي للقومية العربية » ، كما تتجاهل عددا من التطورات والعوامل الهامة ، كالقرار البريطاني بالانسحاب من « شرق السويس » ، والانسحاب الفرنسي من « الناتو »ومن القواعد البحرية في تونس والجزائر ، والمسألة القبرصية ، والمنافسة العربية ـ الايرانية في الخليج ، والنزاعات الداخلية في اليمن والعراق والسودان ، والسياسة السوفياتية الناجحة في التكيف مع ايران وتركيا ·

وفي حين اعتبر البعض ان الجهد السوفياتي في البلدان العربية استهدف كسب نفوذ على ايران وتركيا كجزء من « الاندفاعة نحو الخليج الفارسي والمضائق التركية » ، يشير تشوربا انه يجدر تفهم اهداف النشاطات السوفياتية من منظور اشمل ، حيث يتضح انها تهدف تحييد الاسطول السادس الاميركي والالتفاف على قوات حلف الناتو في البحر الابيض المتوسط واوروبا الغربية ، ومن ثم الالتفات نحو الصين · كما وان توصل السوفيات الى قدرة حركية استراتيجية ، وقوة بحرية مكتفية ذاتية يساهم في توسيع الخيارات السوفياتية الدبلوماسية والعسكرية في العالم الثالث · ويتطلب ذلك « تمديد خطوط المواصلات عبر الشرق الاوسط ، وعلى سواحل البحر الاحمر والخليج الفارسي ، والى شرقي افريقيا » ·

وينتقد تشوربا واضعي السياسة الاميركية الذين يعلقون الامال على «دور سوفياتي بناء في عملية التسوية » في المنطقة · كما ينتقد عدم فهم الصراع العربي الاسرائيلي « كالصدع المتنامي في اسس السياسة الدولية : تحد سوفياتي لميزان القوى » ·

وينتقل « تشوربا » الى فصله الثالث الذي يحمل عنوان « انحطاط السياسة الاميركية » ، فيؤكد في البداية ان تدهور نفوذ اميركا في المنطقة جاء نتيجة لعدم فهم النزاع المحلي ضمن اطار الامن الاوروبي ·

ويستعرض تشوربا التطورات التي تلت حرب ١٩٤٨ حتى حرب ١٩٥٦ التي عارضت فيها الولايات المتحدة الدور الانكلو ـ فرنسي وانقذت مصر عبد الناصر « ضد مصالحها الحقيقية الخاصة » ، ومن ثم وجدت نفسها ملتزمة بدور المدافع الرئيسي عن المصالح الغربية المشتركة في المنطقة · ولقد أدت حرب السويس الى تطورات هامة مثل الثورة العراقية في العام ١٩٥٨ ، واحداث لبنان في العام نفسه حيث كان للتدخل الاميركي نتائج كبيرة ·

وينتقل تشوربا الى انتقاد سياسة التنمية والدعم الاقتصادي التي اتبعتها الولايات المتحدة الاميركية في مطلع الستينات ، التي أفادت الانظمة الراديكالية دون ان تفقدها راديكاليتها · ولقد بنيت تلك السياسة على فرضية ان الانظمة « المعتدلة » المحافظة ضعيفة · فكان الاعتراف بالجمهورية اليمنية « حتى ولو هددت السعودية والنفوذ البريطاني في شبه الجزيرة العربية » ·

وكانت حرب حزيران نقطة تحول في

علاقة الولايات المتحدة بالمنطقة ، حيث هيمن الصراع العربي - الاسرائيلي على القضايا الاخرى . كما ظهرت اولويات جديدة في السياسة الاميركية . وفي مقدمة تلك الاولويات كان الحؤول دون اندلاع حرب جديدة مخافة مواجهة سوفياتية اميركية . كما برز تصور بحاجة لمنع المحاولات السوفياتية للهيمنة عبر فرض استقطاب للقوى العظمى في الصراع العربي - الاسرائيلي .

ويؤكد تشوربا ان مصر والسوفيات افادوا من مشروع روجرز ، كما افادوا من وقف اطلاق النار الذي تلا حرب الاستنزاف في العام ١٩٧٠ . وجاء السادات « ليتعلم من اخطاء ناصر » ، وليحاول ابعاد « الدعم الاميركي عن اسرائيل بسلسلة من الضربات السياسية والعسكرية » . واندلعت حرب ١٩٧٣ ، التي رافقها ضغوطات اميركية على « اسرائيل » ، و « عملية انقاذ » اميركية للجيش الثالث المصري ، لتليها سلسلة من التطورات التي ساهمت في ابطال الاستقلال السياسي « الاسرائيلي » ، وتعزيز « السياسة الانتقامية » العربية ، وتشجيع « اللااخلاقية » في السياسة الاميركية .

وينتقل تشوربا الى موضوع «اسرائيل ومفاهيم الامن القومي » في الفصل الرابع من كتابه ، فيبدأ بالاشارة الى ان « اسرائيل ، وعلى عكس جاراتها العرب ... تعتبر الامن القومي مرادفا للبقاء » . ثم يستعرض محاولات « اسرائيل » للتوصل الى « سلام » ، حتى الفترة الراهنة حيث برز نجاح عربي - سوفياتي في اظهار مسألة المناطق المحتلة « كسبب للنزاع » في حين انها « احد اعراضه » . ويرتكز ذلك على « الحجة المضللة » بان الامن ليس متعلقا بالاراضي ، وذلك على حساب حقيقة ان « زيادة في الامن النسبي يمكن ان تكون لها قيمة مطلقة في حالة معركة حياة او موت »

وتاتي مسألة « السلاح والعرب » في الفصل الخامس من الكتاب ، الذي يبدأ بالاشارة الى الصفقات الاميركية الى عدد من الدول العربية . ويطرح تشوربا عددا من التساؤلات حول سياسة التسليح الاميركية للدول العربية ، وبشكل خاص حول جدوى سباق التسلح بين ايران والسعودية ، وتسليح الاردن « ضد اسرائيل » ، وغيرها من الصفقات التي تشكل « تهديدا متزايدا للميزان المحلي في الشرق الاوسط » . ثم يؤكد ان صفقات الاسلحة الراهنة تعكس « ميلا قصير النظر للاعتماد على المعدات العسكرية في السعي وراء اهداف السياسة الخارجية » . ويعدد تشوربا الانتقادات التي تستهدف تلك السياسة ، والتي تردد معظمها خلال المناقشات التي جرت مؤخرا حول صفقة الطائرات الاميركية للسعودية ومصر و « اسرائيل » . ثم يشير الى ان شعور « اسرائيل » - وليس العرب - بالامن هو الذي يجب ان يتعزز .

ويعالج تشوربا موضوع « مصر والسعي العربي وراء الهيمنة » في الفصل السادس من كتابه ، حيث يستعرض الدور العربي الذي لعبته مصر في عهد عبد الناصر ، مع الاشارة الى ميل المحللين الاميركيين « للتقليل من اهمية الدلائل » حول سعي مصر وراء دور قيادي مطلق في الشرق الاوسط . وبعد ان ينتقل الى الاستراتيجية الجديدة التي اعتمدها السادات ، يعدد الثغرات التي يعاني منها نظامه ، والتهديدات التي تواجهه . ومن سمات الضعف التي يعاني منها النظام المصري كان الانتقال في مركز الثقل السياسي الذي تمثل

بالعلاقات السورية ـ الاردنية والتدخل السوري في لبنان ، ذلك التدخل الذي « استهدف خلق منطقة نفوذ » مقصورة على طرف واحد ، او بكلمات اخرى خلق « محمية » . وينتقد تشوربا السياسة الاميركية تجاه لبنان ، مؤكدا ان هذا القطر « سيصبح دولة مواجهة اضافية » .

وينتقل تشوربا الى الفصل السابع ، الذي يعالج فيه « منافسات الخليج الفارسي في معادلة موسكو » . ويبدأ تشوربا فصله هذا بالاشارة الى ان المنافسة بين العرب والمنافسة العربية ـ الايرانية تكون الموضوع المهيمن في المناطق المتاخمة « للخليج الفارسي » عندما تغيب المواجهة مع « اسرائيل » . ويستعرض تشوربا الوضع في منطقة الخليج ، ثم ينتقل الى مشكلة الاكراد ، حيث « كان الدور الاميركي في التخلي عن النضال الكردي واضحا ، ويشكل مثالا اخر للعقلية الانهزامية المسيطرة على دبلوماسيتنا في المنطقة » . ثم ينتقل الى موضوع « النفط العربي والتهديدات للامن الغربي » في الفصل الثامن من كتابه ، حيث يؤكد اهمية الموارد النفطية في المنطقة ، لينتقد الدور الذي تلعبه شركات النفط الاميركية بما لا يتناسب و « مصالح الامن القومي الاميركية » ، ولينتقد سياسة المهادنة تجاه منظمة « اوبيك » ، قبل ان يحاول تفنيد الرأي القائل بأن التخلي الاميركي عن الالتزامات تجاه « اسرائيل » يضمن استمرار تدفق النفط . ويؤكد في نهاية ذلك الفصل أن مصلحة الدول النفطية تكمن في التحالف مع الغرب بغض النظر عن السياسة تجاه « اسرائيل » .

ويخصص تشوربا الفصل التاسع من كتابه لمعالجة « مسألة فلسطين » ، فيبدأ بالاشارة الى خطأ اساسي ارتكبته السياسة الاميركية الانهزامية في المنطقة عبر الفرضية القائلة بان المشكلة المركزية في الصراع العربي ـ الاسرائيلي هي « مشكلة فلسطين » . وفي حين توجد مشكلة تتعلق بفلسطين ، فانها « ليست مشكلة العرب الفلسطينيين » ، وانما ان فلسطين هي بلد « تتنازع عليها قوميتان احداهما فقط مستعدة للتوصل الى حل وسط » . ويهاجم تشوربا فكرة الدولة الفلسطينية ، مؤكدا ان الحل في هذا المجال يكمن في تفاهم « اسرائيلي ـ اردني » .

وينهي تشوربا كتابه في الفصل العاشر الذي يحمل عنوان « الامن والسلام للغرب » ، والذي يكرر فيه اهم الاراء التي تضمنها الكتاب . ويشدد تشوربا على ضرورة اعادة النظر في السياسة الاميركية تجاه المنطقة ، واتباع سياسة اكثر صراحة واكثر دعما « لاسرائيل » ، مؤكدا ان اعمدة الاستقرار في المنطقة هي « تركيا ، وايران ، واسرائيل آمنة » .

ولئن كان كتاب تشوربا اشبه بمناقشة داخلية تعكس احدى وجهات النظر الاساسية في الخريطة السياسية الاميركية ، فانه كتاب على قدر كبير من الاهمية بالنسبة للقارىء العربي المهتم بشؤون فلسطين والمنطقة العربية ، نظرا لما يقدم من تصور متكامل « لقضية الشرق الاوسط » من ضمن منظور الاستراتجية العالمية الاميركية .

د . ا .

## طاهر عبد الحكيم ، كارتر والتسوية في الشرق الاوسط
## ( دار ابن خلدون ، بيروت )

صدر حديثا عن دار « ابن خلدون » كتاب يعالج مسألة راهنة ومحورية . « كارتر والتسوية في الشرق الاوسط » بقلم طاهر عبد الحكيم الذي نشرت له نفس الدار سابقا « الاقدام العارية » . والكتاب يتضمن جملة مقالات تحاول رصد السياسة الامريكية واستراتيجيتها الشاملة في الشرق الاوسط في « الحقبة الكارترية » وتلمس مصادر هذه السياسة ، وأركانها ، ومركباتها التي تنطلق من قاعدة محددة المعالم ، وتسعى الى الوصول الى غايات محددة المعالم أيضا . نقف في كتاب طاهر عبد الحكيم أمام عدة فصول تشير الى المشروع الامريكي الذي « يحمل » كارتر رايته : اللجنة الثلاثية وحكومة كارتر ـ السياسة الامريكية في رئاسة كارتر ـ حكومة كارتر والشرق الاوسط ـ كارتر ومشروع السلام الامريكي ـ الصهيوني ـ كارتر : الى اين يقود مسيرة التسوية .....

يعتمد طاهر عبد الحكيم في تحليله اطروحة كلاسيكية وصحيحة ، مبتدئا من نقطة كل بدء وكل منتهى : نفط الشرق الاوسط والسيطرة عليه والسياسة الامريكية التي تحور وتتحرك وتتطور كي تمتلك هذا النفط استراتيجيا ، وتبعد عنه كل « شر » او داع للتغيير والثورة . يبدأ البحث اذن بجذر كل الجذور : البترول والسيطرة عليه ، واجتثاث كل ما من شانه ان « يلهب » النفط فيضعف الاثر السياسي له في الهيمنة الامريكية على السوق الامبريالية .

يواكب عبد الحكيم اذن في تحليله شومسكي في كتابه « الحرب والسلام في الشرق الاوسط » ، لكن عبد الحكيم يبحث في المستجدات أيضا ، المتولدة من الحركة السياسية في الشرق الاوسط ، والوضع الامريكي ، ومن الازمة الشامله التي تأخذ بعنق الانظمة الامبريالية .

ولكي نتلمس مفاتيح الموضوع ينبغي ان نتلمس بشكل موازٍ مفاتيح السياسة الامريكية في الشرق الاوسط ، واثر هذه السياسة على الدور العالمي للسياسة الامبريالية الامريكية . فمفتاح الشرق الاوسط هو البترول ، وهذا المفتاح الذهبي هو الاداة الامريكية لاخضاع سياسات واقتصاديات حلفاء امريكا ( اليابان وأوروبا الغربية ) لمصالح سياسات واقتصاديات الاحتكارات الامريكية . يسير البترول اذن ككيان اقتصادي واداة سياسية تفرض الحرب والسلام في الشرق الاوسط ، وتفرض ايضا الهيمنة الامريكية على الحلفاء . ولما كانت اليد الامريكية قد ضعفت في الحقبة ما قبل الكارترية ـ كما تشير الوقائع ويشير المراقبون ـ وجعلت حلفاء امريكا يتصرفون بشيء من الاستقلالية ، اصبح من المطلوب امريكيا « اعادة تنظيم الامور » و « رص

صفوف الحلفاء » · من هنا بدأ العمل لهندسة جديدة نسبيا للسياسة الامريكية يلعب فيها البترول دور القائد ودور الفصل · وهكذا ولدت اللجنة الثلاثية · فما هي هذه اللجنة ؟

أسس دافيد روكفلر « اللجنة الثلاثية » في تموز ١٩٧٣ بغية «تنمية» العلاقات بين امريكا واليابان واوروبا الغربية ، وشملت هذه اللجنة ٢٠٠ عضو من البلدان المعنية منهم ٧٠ عضوا من الولايات المتحدة · واذا كانت « مناقشة المشكلات السياسية والاقتصادية والامنية المشتركة » هي القاعدة العامة الظاهرية لعمل هذه « اللجنة » فان مشكلة الطاقة كانت في صميم هذا العمل وبؤرته · ولمعرفة اهداف هذه « اللجنة » ومنحاها ينبغي معرفة الاسماء الامريكية التي ساهمت في آليتها وحركتها ثم «استثمرت» هذه الحركة ووصلت الى مكان القيادة : الرئيس جيمي كارتر ووزير خارجيته سيروس فانس ، بريجنسكي الذي كان مديرا للجنة ثم اصبح فيما بعد كبير مستشاري كارتر للشؤون السياسية اثناء الحملة الانتخابية ، واخيرا رئيس مجلس الامن القومي · اما الحضور اليهودي فكان كثيفا ، بلا شك ، في اللجنة ، ثم انتقل بكثافته ودوره الى جهاز الرئيس المنتخب : بول رانك ، ريتشارد جاردنر ، هنري أوين ، روبرت روزا ، ويتبوأ جميعهم الان مناصب قيادية · بدأت اللجنة بـ « التشاور » ثم انتقلت الى الحركة بعد أن رسمت سياسة المستقبل لتصل في النهاية الى المكان الذي ينقل الفكر السياسي الى حيز التطبيق ·· بمعنى اخر : خلقت الاحتكارات الامريكية اللجنة لتعاين وتدرس مركبات ازمة العالم الرأسمالي بشكل عام ، وأزمة « الهيبة » والهيمنة الامريكية بشكل خاص ، ولتجد الشفاء اللازم لهاتين الازمتين اعتمادا على قيادة امريكية مسلحة بالنفط ·

انتقلت سلطة اللجنة الثلاثية بعد نجاح كارتر من القوة الى الفعل ، وبدأت بما يجب ان يكون البدء : الشرق الاوسط، ليس لانجاز تسوية بين الدول العربية واسرائيل ، بل لتنشيط جميع القوى الموالية لها ، والكفيلة بانجاح المخططات الامريكية اللازمة لتأمين سيطرة امريكية مباشرة على المنطقة ( النفط ) ، تكون قاعدة لفرض الزعامة الامريكية « الكاملة » على الدول الغربية واليابان ·

اخلاصا منها للفكر البراغماتي الذي لا يؤمن بالنظرية الا بقدر « مردودها » المباشر ، بدأت « اللجنة الثلاثية » المجسدة في حكومة كارتر بالتعامل مع المحسوس ، مع اطراف اللعبة المباشرة ، زادت من ضغطها على منظمة الاوبك وعملت على تخريبها ، وجعلتها هدفا مستمرا لحملات الاعلام الغربية والامريكية ، مصورة اياها كسبب وحيد للازمة الاقتصادية التي تجثم فوق البلدان الرأسمالية ، وللتضخم النقدي وارتفاع الاسعار ، اي ان « اللجنة » تحركت باتجاه جعل أمريكا « صاحبة القرار » في عالم النفط ·

توجه كارتر منذ البدء الى الشرق « حالما » بالسلام وتأمين الحقوق ، ومد يده مصافحا « اطراف الصراع » ، ونما « منطقه » باتجاهين ، اولهما سرمدي في ثباته ، والاخر غائم ، زئبقي ، يتمدد ويتقلص حسب « المناسبات » · يقول المنطق الاول بـ « العلاقة الامريكية ـ الاسرائيلية الابدية ، وبالدعم التقافي ، وبحق اسرائيل في الوجود ، وحقها

ايضا بالتمتع بعلاقات كاملة مع جيرانها » . اما المنطق الثاني فلا يقدم على مستوى التسويق الا قبضة من القش يطالب مقابلها بتنازلات بلا نهاية وبتحولات سياسية واقتصادية .

تحرك كارتر بروح كيسنجر واضعا « التسوية والسلام » بين قوسين ، طامحا بتشكيل منطقة عربية خاضعة لامريكا ، منطقة عربية ـ أمريكية تحت زعامة اسرائيل وحمايتها ، اي ان السياسة الامريكية تهدف الى خلق جو ملائم ومتناغم تحل فيه المشاكل والتناقضات تحت الرعاية الامريكية ، من دون وجود اي « عنصر غريب » عن « العائلة » وخاصة الاتحاد السوفيتي الذي « يشكل » العدو الرئيسي لهذه « العائلة الامريكية» .

عندما تعمل السياسة الامريكية تجود بالمصطلحات ، فتهدهد « احلام الاصدقاء » وتنثر الغبار والضباب والوعد والوعيد ، تتكلم عن « الخيارات المفتوحة لبناء الثقة ولحماية الجانبين » و « السياسات الواقعية الضرورية » ، « التسوية العربية ـ الاسرائيلية الشاملة » ، كما تتكلم عن « كيان فلسطيني » تنمو مواصفاته باستمرار فيصبح : « مرتبطا بالاردن » ثم ذا « علاقة وثيقة باسرائيل » ، ثم « منزوع السلاح » ، واخيرا تختفي مواصفات هذا الكيان عندما ينتهي حتى على مستوى الكلام والتصريحات .

اذا رجعنا الى « سياسة كارتر » وبحثنا فيها عن العارض والجوهري ، عن ثوابتها التي تمنحها وضوح العمل والرؤيا ، وغيمية التصريح ، نجد ما يلي : الجوهري هو حماية اسرائيل ودعمها مهما كان شكل سياستها ، وتأمين هيمنة امريكية استراتيجية في الشرق الاوسط . اما « العارض » فهو التسوية. لنر ذلك بشكل اكثر وضوحا .

بدأ كارتر في الحديث عن « تسوية شاملة عادلة » ثم انتقل الى « وضوح » متدرج قارب المنطق الاسرائيلي الى درجة التناظر ، دفعه « الوضوح » فتكلم عن « الحدود التي يمكن الدفاع عنها » بعد ان كان الموقف الامريكي يتحدث سابقا عن « تعديلات طفيفة في الحدود » ، وبعد ذلك دخلت مصطلحات جديدة وهي « الحدود الامنة المعترف بها » والتي تختلف عن « الحدود التي يمكن الدفاع عنها » ، وبين الامن والدفاع تتلاشى الحقوق العربية وتصبح الارض المحتلة ملكية شرعية اسرائيلية .

« ان مشروع كارتر ـ في التحليل النهائي ـ هو خريطة للتوسع الصهيوني في الاراضي العربية ، وللتواجد العسكري الامريكي في قلب المنطقة العربية ، تحقق به الولايات المتحدة سيطرتها الاستراتيجية على شرق البحر الابيض المتوسط من ناحية وتقيم من الناحية الثانية سلسلة من القواعد تكمل بها تطويق منابع النفط العربية من الشمال ـ ص ٦٨ ـ » .

وهكذا يتقدم « السلام الامريكي » عادلا ، فيصبح كوميديا سوداء في المكان والزمان ، في حجم المكان « المعطى » ، وحجم المكان « المستعاد » ، وفي « زمان العطاء والاستعادة » :

ـ « في المرحلة الاولى التي قد تمتد الى ثماني سنوات ـ كما قال كارتر ـ ستقام مناطق عسكرية بعرض ٢٠ كيلومترا او اكثر ترابط فيها قوات صهيونية وقواعد الكترونية اميركية » .

ـ « تعفي المرحلة الاولى اسرائيل من الانسحاب الى خطوط ١٩٦٧ لمدة قد تصل الى ثمانية اعوام ، كما تعفيها

من توضيح الحدود السياسية النهائية » .

- « على الانظمة العربية ان تعترف رسميا بحق اسرائيل في الوجود وان تقيم معها علاقات طبيعية تجارية وسياسية وسياحية ... » .

ان المدة اللازمة لتحقيق التسوية الامريكية - على ما يبدو - ستستمر سنوات طويلة . وهذه الحقبة الزمنية « الطويلة » ضرورية من وجهة النظر الامريكية والاسرائيلية لسببين : اولهما ، اعطاء « العرب » فرصة تاريخية يبرهنون خلالها عن قبولهم لاسرائيل ، ويتعاملون معها كجار ودود وحليف مخلص ، واي بادرة من طرفهم لا توحي بالثقة لاسرائيل من شأنها ان « تعرقل » من مسار التسوية . والسبب الثاني هو تأمين الوجود الامريكي لفترة طويلة كافية لصنع حكومات واحلاف وارتباطات تخدم الاستعمار الامريكي حاضرا ومستقبلا .

وهكذا يتابع كتاب طاهر عبد الحكيم حركة المنطق السياسي والامريكي مظهرا الجوهري والعارض . فما هي دلالة « التسوية » في هذا المنطق ؟

ان التسوية لا تشكل هدف السياسة الامريكية في الشرق الاوسط بل هي الوسيلة التي تستعملها وتلوح بها لدفع الانظمة العربية في الطريق الامريكي لخلق جملة شروط جديدة تسمح بتحالف عسكري عربي - صهيوني - أمريكي من شأنه حماية المصالح الامريكية وحماية الانظمة العربية نفسها ، وبذلك تستبدل التناقضات وتتغير الدلالات ، ويصبح تناقض الحكومات العربية المروضة أمريكيا مع شعوبها هو التناقض الرئيسي . ومعنى هذا ان التسوية هي مفهوم استعمالي وبراغماتي لا يحل « مشكلة » الشرق الاوسط ، بل يحل تناقض الحكومات العربية مع اسرائيل سواء عادت « الارض السليبة » أم لم تعد .

ويمثل النظام الساداتي تجسيدا ابداعيا لمفهوم التسوية في البيت الابيض، فهو قد انسحب من الصراع من دون ان ينتظر تحقق الوعود ، وانخرط في الصفوف الموالية لامريكا مقاتلا في زائير والصومال بانتظار اماكن اخرى .

يربط عبد الحكيم أيضا بين التصلب الاسرائيلي الراهن والسياسة الكارترية في الشرق الاوسط انطلاقا من مفهومها البراغماتي للتسوية من حيث هي فضاء زمني رحب لتحقيق الهيمنة الامريكية . فالبيت الابيض لا يستعجل التسوية واستمرار الوضع الراهن المتميز بـ « فتات » امريكي ، وتراجعات وتنازلات عربية صارخة يخدم الاهداف الامريكية حتى الاشباع ، وبذلك يتم التوافق والتنسيق بين السياستين الاسرائيلية والامريكية ، وتخطو سياسة بيغن خطوة الى الامام والوضوح تميزها عما سبقها من السياسات الاسرائيلية ، فحزب العمل كان ينادي ايضا بسياسة ضم الاراضي المحتلة لكنه كان يقول بذلك انطلاقا من « الضرورات الامنية » اما كتلة ليكود فتنطلق في سياسة الضم مما تسميه بالحق التاريخي ، لا يعني ذلك ان حزب العمل لم يكن يتكلم عن الحق التاريخي المزعوم بل يعني أن الشروط السياسية في الشرق الاوسط قد تغيرت بمنحى يسمح لاسرائيل ان تأخذ كل ما تريد مدعومة بموافقة امريكية حازمة ، بمعنى اخر « ان الظروف الان ناضجة لكي تتبنى الولايات المتحدة علنا مشروع « اسرائيل الكبرى » ، وهي مطمئنة الى

ان ذلك التبني لن يهدد مخططاتها في المنطقة بعد أن عززت طوال السنوات الماضية مواقعها جيدا فيها ، وأصبحت هي وحلفاؤها من اليمنيين العرب قادرة على تطويق ، ان لم يكن منع ، اي ردود فعل ضارة بسياستها – ١٢٩ – » ·

وهكذا تنمو المواقف السياسية الامريكية وتتغير بتغير الرصيد السياسي الذي تعتمده ، فالارض قد مهدت جيدا ، وما بدأه كيسنجر يثمر وينضج اكثر في زمان كارتر ، ويتمم الثاني ما بدأه الاول ، لكن توحد الاهداف لا يعني التناظر في شكل الممارسة السياسية ، فمنطلقات كيسنجر السياسية تختلف عن سياسة كارتر التي صاغها وقررها بريجنسكي رئيس الامن القومي · يقول عبد الحكيم في كتابه « بينما يخطو كيسنجر خطوات صغيرة نحو مستقبل غير محدد المعالم ، يرى بريجنسكي أنه ينبغي اولا تحديد شكل التسوية القادمة بعد ذلك يمكن السير بخطوات صغيرة نحوها ، بما في ذلك بعض الاختيارات المفتوحة لبناء الثقة ولحماية كل من الجانبين – ص ٤٦ – » · اي ان السياسة الامريكية الراهنة لا تتعامل مع جزئيات متفرقة بل مع استراتيجية شاملة واضحة البداية والنهاية ·

ان كتاب طاهر عبد الحكيم يشير الى المفاصل الاساسية للسياسة الامريكية القاتلة من اجل حلف او احلاف عربية – اسرائيلية تؤمن النفط وتقمع الشعوب وتنقل الجيوش العربية من حرب التحرير والاستقلال الى حرب كولونيالية سافرة ·

وعلى الرغم من التكرار الذي يجثم احيانا فوق صفحات الكتاب ، ومن بعض الامور الهامة التي عولجت باختزال وتسرع ( الفرق بين الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي ، حدود التحالف والهيمنة بين اسرائيل وامريكا ، الفرق بين حزب العمل وكتلة ليكود ··· ) فان عبد الحكيم يعطي رؤيا واضحة لما يجري من تآمر على الوطن العربي · تآمر محكم يمكن ان يعطي نتائج مدمرة لسنوات طويلة قادمة ·

ف · د

---

## حسين ابو النمل : **الضفة والقطاع ٦٧ – ١٩٧٨ بين الالحاق والدمج**
( مركز الابحاث وقسم الدراسات في صامد – بيروت : ١٩٧٨ )

الكتاب هو « دراسة للتحولات السكانية والاقتصادية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ودلالاتها السياسية والاحتمالات المستقبلية واهداف مشروع بيجن للحكم الذاتي المقرون بسلام اقتصادي بين العرب واسرائيل » · تقع هذه الدراسة في ٢٣٠ صفحة ، وتنقسم الى ثلاثة فصول كما تشتمل

على ملحقين ، احدهما مذكرة يسرائيل كينيج ، والثاني مقابلة اجرتها صحيفة هاآرتس الاسرائيلية مع موشي دايان بشأن موقفه من قيام دولة فلسطينية ٠

يتناول الفصل الاول « الاوضاع والتطورات السكانية » في الضفة والقطاع ، مع التركيز بشكل خاص على الهجرة ، او بتعبير أصح على سياسة التهجير التي تتبعها اسرائيل تمشيا مع مصلحتها في احتلال الاراضي وتفريغها من سكانها العرب ، مغلبة بذلك الاعتبارات السياسية على الاقتصادية ٠ ويؤكد الكاتب في هذا الفصل على الترابط بين الهجرة والاوضاع الاقتصادية ٠ فوراء الهجرة تكمن عوامل اقتصادية عدة منها تباطؤ النشاط الاقتصادي ومحدودية فرص العمل في المناطق المحتلة ، بالاضافة الى الاغراءات المالية التي تقدمها الدول النفطية ٠ ويخلص الكاتب الى الدعوة الى ضبط الهجرة بالشكل الذي يضمن المصلحة الاقتصادية لمواطني المناطق المحتلة والمصلحة السياسية الفلسطينية العليا ٠

اما الفصل الثاني من الكتاب فيتناول « الاوضاع والتطورات الاقتصادية » في المناطق المحتلة ٠ يبدأ هذا الفصل بعرض سريع للاوضاع الاقتصادية في مرحلة ما قبل ١٩٦٧ ، باعتبار ان مثل هذا العرض يتضمن المقدمات الضرورية لتوضيح السياسة الموضوعة مسبقا من قبل اسرائيل واستجابة ظروف المناطق المحتلة لهذه السياسة ٠

ثم ينتقل الكاتب الى عرض التطورات الاقتصادية في الفترة ٦٧ ـ ١٩٧٥ متناولا المجالات التالية : الموارد البشرية ، الطاقة العاملة وتركيب اليد العاملة ، الموارد الاقتصادية غير البشرية واستعمالاتها ، الناتج القومي ، ميزان المدفوعات والتحويلات الخارجية ، والتجارة الخارجية ٠

يخلص الكاتب في هذا الفصل الى مجموعة من النتائج المهمة : فالموارد البشرية « عانت من عملية تبديد مزدوج تمثلت في استمرار تدفق الايدي العاملة الى الخارج من ناحية ، وفي ابتلاع الاقتصاد الاسرائيلي لما يزيد على ثلث القوى العاملة من ناحية اخرى ٠ وكذلك فان ارقام الناتج القومي ، التي تشير الى معدلات زيادة قياسية ظاهريا ، تخفي الانعكاسات الاجتماعية السلبية «للنمو» الاقتصادي الحاصل في المناطق المحتلة : فمثلا ازداد اجمالي الكثافة السكانية في الغرفة الواحدة في الضفة من ٦ر٢ الى ٢ر٣ شخص وفي القطاع من ٧ر٢ الى ٩ر٢ شخص للغرفة الواحدة في العامين ١٩٦٨ و ١٩٧٥ على التوالي ، كما ان النمو الاقتصادي كان مصحوبا بتناقص في عدد الطلاب ٠ ومن جهة ثانية ، فان معدلات تزايد الانتاج القومي في المناطق المحتلة لا تعكس متانة الاوضاع الاقتصادية بقدر ما تعكس اثر العوامل الاقتصادية الخارجية وفي مقدمتها تدفق التحويلات من الخارج ٠ وفيما يتعلق بالتجارة الخارجية للمناطق المحتلة توصل الكاتب الى الكشف عن سمتين اساسيتين تطبعانها وهما : « التدهور المستمر في الميزان التجاري » و « ابتلاع السوق الاسرائيلية لسوق المناطق المحتلة » ٠

ان الاستنتاج الرئيسي الذي يتوصل اليه الكاتب في الفصل الثاني هو التالي : « ان التطورات الاقتصادية بين ١٩٦٨ ـ ١٩٧٥ في الضفة الغربية وقطاع غزة قد انتهت الى ابتلاع شبه كامل من قبل اسرائيل لاقتصاديات المناطق ، وتحولت الى سوق لاستهلاك البضائع الاسرائيلية ، ولد السوق

الاسرائيلي بحاجته من اليد العاملة غير الفنية ، وهو الخط التقليدي الذي تقيمه الدول الامبريالية مع مستعمراتها » . ( ص ١٢٩ ) .

لا يقف الكاتب عند حدود الخلوص الى استنتاجات اكاديمية باردة معزولة عن حرارة النضال الفلسطيني ، كما انه لا يقع اسير نظرة « اقتصادية » ضيقة تغفل الاعتبارات السياسية والايديولوجية لدى وضع القرار ، او تجعل هذه الاعتبارات امورا ثانوية تتقرر اتوماتيكيا بنتيجة الاعتبارات الاقتصادية . الاقتصادي ، رغم اهميته الحاسمة ، لا ينفي السياسي . وانه فقط ضمن العلاقة الجدلية المعقدة بين ما هو اقتصادي وما هو سياسي ، وفقط ضمن الاشكال المحددة المتميزة التي ترتديها هذه العلاقة ، يمكن للاستنتاجات التي يتوصل اليها الباحث ـ اي باحث ـ ان تكون صحيحة من جهة وعملية من جهة اخرى .

وهكذا فان الكاتب يخصص جزءا كبيرا من الكتاب للاجابة على السؤال السياسي التالي ، بعد ان عرض في الفصلين الاول والثاني خلفية اقتصادية لا بد منها .

والسؤال هو : هل من الممكن ان نتوقع انسحابا اسرائيليا طوعيا في ضوء الاهمية التي تمثلها المناطق بالنسبة لاسرائيل ؟

في الفصل الثالث يجيب الكاتب على هذا السؤال بالنفي من خلال تصديه للبرهنة على صحة المقولة التالية : الانسحاب من المناطق المحتلة يتعارض بشكل قاطع مع طموحات الحركة الصهيونية ومصالح اسرائيل . فالحركة الصهيونية تحتاج في مشروعها الاستيطاني الى مزيد من الاراضي والموارد العربية بحيث تضمن للمستوطنين الصهاينة تمايزهم وارتقاءهم الطبقي .

واسرائيل تريد الارض والسلام معا ، واذا خيرت بينهما فانها تختار الارض . انها ترفض السلام ـ الصلح وانهاء حالة الحرب ـ بعلاقات طبيعية مع العرب وخاصة علاقات اقتصادية معهم . وكذلك، فان الاقتصاد الاسرائيلي كان يعيش في عام ١٩٦٧ نهاية مرحلة خلق وبناء الاصول ويستعد لدخول مرحلة تشغيل هذه الاصول . وقد جاءت النتائج التي ترتبت على حرب حزيران ( يونيو ) لتحل اعنف ازمة مر بها الاقتصاد الاسرائيلي. ففي حين قدمت المناطق المحتلة حوالي مئة الف عامل ، فانها في الوقت ذاته قد قدمت حوالي مليون وربع مليون مستهلك جديد . ويؤكد الكاتب في هذا المجال ان اهمية اليد العاملة من المناطق المحتلة تتعدى اهمية الـ ٤ر٥٪ التي يشكلونها من اجمالي العاملين ، باعتبار انهم يوجهون اساسا الى قطاع الانتاج ـ خاصة الزراعة والبناء ، بالاضافة الى ان اليد العاملة العربية ساهمت في توفير حل لعدم التوازن بين العمل الفني والعمل غير الفني وفي التخفيف من عدم التوازن بين قطاعي الانتاج والخدمات . وعليه ، فانه سواء اتم الاستغناء عن هذه اليد العاملة طوعا او قسرا ، فان اسرائيل ستكون في مأزق لن تستطيع الخروج منه لان هذا يستدعي منها اعادة النظر في هيكل القوى العاملة الاسرائيلية وطريقة توزيعها على الفروع الاقتصادية والمهن المختلفة ، الامر الذي يترتب عليه المساس بالموضوع الاكثر حساسية بالنسبة لاسرائيل ( اي الهجرة ) ، بالاضافة الى مجموعة نتائج « سلبية جدا » على جملة منطلقاتها ومرتكزاتها الايديولوجية والطبقية .

تكمن أهمية هذه الدراسة في منهجها العلمي القائم على ربط الابعاد السياسية والاقتصادية في وحدة عضوية ، على

تقديم البيانات الضرورية دخولا الى الاستنتاجات المنطقية القائمة على اساسها، وعلى الالتزام السياسي الذي لا يشكل قيدا اضافيا للبحث نتيجة انطلاقه من قناعات مسبقة بقدر ما يشكل البحث اغناءا وتعميقا وترسيخا لهذا الالتزام . ليست هذه الدراسة مثالا على الاكاديمية الشكلية الميتة . انها محاولة لشحذ السلاح النظري للنضال الوطني الفلسطيني ( ولعل هذا هو السبب في ان السلطات الاسرائيلية سارعت الى وضعها في قائمة المطبوعات المحظورة ) .

ولانها كذلك ، ولانها « لا تدعي لها موقعا خاصا » ــ على حد تعبير الكاتب ، فاننا نورد هنا مجموعة من الملاحظات الاولية والمتفاوتة الاهمية :

١ ــ ان طريقة احتساب « الحد الادنى المتوقع لعدد السكان » ( ص ٣٠ ) ليست دقيقة . فمن الواضح في هذه الطريقة انها تتناول فقط الزيادة البسيطة في عدد السكان ، وذلك عوضا عن الزيادة المركبة ــ وهي الاصح . وهكذا مثلا فانه بدلا من الرقم المستخرج والبالغ ٤١٣٤٦٤ فان الرقم الصحيح هو ٤٣٢٣٤٨ محسوبا حسب المعادلة التالية :

الحد الادنى لعدد السكان المتوقع سنة ١٩٦٧ = عدد السكان سنة ١٩٥٣ × (١ + الزيادة السنوية الصافية معبرا عنها بالنسبة المئوية ) ١٤ = ٣٠٦٢٧٠ ( ١ + ٠٢٥ر٠ ) ١٤ = ٤٣٢٧٤٨ .

( وعلى كل حال ، من الواضح ان هذه الملاحظة ليست اساسية كونها لا تؤثر في الاستنتاجات الرئيسية التي توصل اليها الكاتب ) .

٢ ــ بصدد الانتاج القومي : رغم وفرة البيانات المتعلقة بالانتاج القومي والدقة في تحليل دلالاتها ــ دون الوقوع في ما يمكن تسميته عمى الارقام ــ الا ان هذه البيانات والتحليلات لم تشتمل على جانب اساسي ، وهو مساهمة القطاعات الاقتصادية في الناتج المحلي الاجمالي في الفترة موضع البحث . كان ينبغي ان يشتمل الكتاب على جدول واحد على الاقل يوضح تطور مساهمة قطاعات الاقتصاد المختلفة من زراعة وصناعة خاصة ، ومن كهرباء وماء وبناء ومال وتجارة وخدمات اخرى . ويمكن في هذا المجال المقارنة بين مساهمة هذه القطاعات ومساهمة عوائد عوامل الانتاج من الخارج . كما يمكن ان يشتمل الجدول على النسب المئوية لمساهمة تلك القطاعات على امتداد الفترة ١٧ ــ ١٩٧٥ . وكان ينبغي تحليل دلالات هذا الجدول : ما هي القطاعات التي ازدادت مساهمتها وما هي القطاعات التي نقصت مساهمتها؟ لماذا ؟ ماذا يعني ذلك من حيث التوازن ( او بالاحرى مفاقمة الاختلال في التوازن ) بين تلك القطاعات ؟ ثم أليس وجود هذا الاختلال هو الوجه المكمل للتوازن الاضافي الذي حققه الاقتصاد الاسرائيلي ؟ وماذا يعني ذلك الاختلال من حيث اثره في حركة اليد العاملة في الضفة والقطاع سواء الى مناطق ١٩٤٨ أو الى الخليج ؟ ثم أليس هذا الاختلال هو النتيجة المنطقية للعلاقة الامبريالية التي تربط اسرائيل بالمناطق المحتلة ؟ وايضا : ما هو انعكاس ذلك الاختلال على موقف الطبقات الاجتماعية المختلفة ( التي تحتل مواقع مختلفة في سلم الانتاج ) من النضال الوطني الفلسطيني، وما هو في المقابل انعكاس ذلك على البرنامج السياسي الوطني ؟ هل يمكن القول مثلا ان تدهور القطاع الزراعي في المناطق المحتلة وما رافقه من تحويل الفلاحين الى « بروليتاريا » في قطاعات

الانتاج الاسرائيلية قد أدى الى تعميق اسهام الريف في النضال الوطني ، ام انه ادى الى تمركز هذا النضال في المدن بصورة حاسمة ، ام ماذا ؟ هل يمكن القول ان التطورات الاقتصادية في ظل الاحتلال قد أدت ، ضمن ما أدت اليه ، الى نشوء « كومبرادور » يلعب دور الوسيط بين الاقتصاد الاسرائيلي وسوق المناطق المحتلة ، « كومبرادور » معاد للنضال الوطني ويشكل الفئة الاجتماعية المحلية التي تستند اليها اسرائيل في ادامة الاحتلال ؟ ما هي قوة هذا الكمبرادور ، الاقتصادية والسياسية ؟... الخ ٠

٣ ـ بصدد التجارة الخارجية : هنا ايضا يقدم الكاتب جداول مختلفة تتعلق بالتجارة الخارجية للضفة والقطاع : اجمالي الصادرات والواردات والعجز التجاري ، التجارة مع اسرائيل ، مع الاردن ... الخ ٠ كما انه يستنتج بحق ان نمط التبادل بين اسرائيل والمناطق المحتلة يمثل « النمط التقليدي الذي تقيمه الامبريالية مع مستعمراتها » ٠ (ص١٢٩) ان هذا الاستنتاج الصحيح كان ينبغي تدعيمه ببيانات حول التركيب السلعي للتجارة الخارجية للمناطق المحتلة ، ولتركيز بنوع خاص على تركيب صادرات المناطق المحتلة الى اسرائيل ووارداتها منها ٠ فمن المعروف ان النمط الامبريالي التقليدي في التبادل يتضمن مبادلة البضائع المصنعة ( استهلاكية كانت ام وسيطة ام رأسمالية ) للبلد الامبريالي مع المواد الخام للبلد المستعمر ( بفتح الميم ) ٠ وهكذا ، ما هي المواد المصنعة التي تصدرها اسرائيل الى المناطق المحتلة وما هي المواد الخام التي تصدرها هذه المناطق الى اسرائيل ؟ وما هو حجم كل من هذه المواد بالنسبة لاجمالي المبادلات التجارية بين الطرفين ؟ وكيف تطور التركيب السلعي في الفترة ٦٧ ـ ١٩٧٥ ؟ ثم ما هي انعكاسات كل ذلك من حيث الطابع الالحاقي للعلاقة بين الاقتصاد الاسرائيلي واقتصاد المناطق المحتلة ؟ وما هي انعكاساته السياسية ؟

٤ ـ بصدد الاستنتاج السياسي الرئيسي القائل باننا يجب الا نتوقع انسحابا اسرائيليا طوعيا من المناطق المحتلة : يمكن القول ان للاستنتاج الذي توصل اليه الكاتب ، وبالشكل الذي اورده فيه، خلفية سجالية واضحة ، ذلك ان الكاتب يصوغ استنتاجه وفي ذهنه مقارعة الدعوات الاستسلامية التي يجري الترويج لها في سوق السياسة العربية ٠ لكن هذه الصياغة ، رغم مشروعيتها ، تترك انطباعا بقطعية الاستنتاج المذكور وجزمه ، مما لا يتطابق مع كامل المعطيات التي يوردها الكاتب ذاته او مع وقائع اخرى لم يتطرق اليها ٠ فالكاتب يشير الى ثلاثة عوامل رئيسية تجعل اسرائيل غير مستعدة للتخلي عن الاراضي المحتلة، وهذه العوامل هي : اولا ، حاجة اسرائيل الى اليد العاملة التي تلبيها المناطق المحتلة وبالتالي النتائج السلبية التي ستواجهها اسرائيل في حال انسحابها نتيجة « لاعادة توزيع هيكل اليد العاملة اليهودية » ٠ وثانيا ، حاجة اسرائيل الى القوة الشرائية المتمثلة في حوالي مليون وربع المليون من سكان هذه المناطق وبالتالي النتائج السلبية للانسحاب على مقدرة الاقتصاد الاسرائيلي على النمو ، بل ومقدرته على المحافظة على مستوياته الانتاجية الحالية ٠ وثالثا، ان الانسحاب الاسرائيلي يمس اكثر المواضيع حساسية بالنسبة لاسرائيل الا وهو الهجرة ومعها الايديولوجيا الصهيونية بوجه عام ٠

يبقى الان ان نطرح مجموعة من

الاسئلة المتعلقة بهذه العوامل الثلاثة ٠ الا تقدم العلاقات الطبيعية ( ومن ضمنها العلاقات الاقتصادية ) حلا للمشكلة الاولى ، بما تعنيه من استمرار لتدفق اليد العاملة من الضفة والقطاع ؟ بل ، وهو الاهم ، الا تعني تلك العلاقات توفير شروط افضل بكثير لحل المشكلة مما هي عليه الان حيث تضمن سوق عمل أوسع وايد عاملة أرخص ، واضعين في الذهن هنا سوق العمل والايدي العاملة الحصرية بخاصة ؟

وبالمثل ، الا تعني العلاقات الطبيعية حلا للمشكلة الثانية : مشكلة القوة الشرائية الضرورية لامتصاص المنتجات الصناعية الاسرائيلية ؟ ويا لها من سوق عربية واسعة تحلم بها اسرائيل خاصة اسواق الدول النفطية حيث انماط الاستهلاك الباذخة !

وهل يبقى بعد ذلك سوى مشكلة الهجرة والايديولوجيا ، وهي بحق اكثر المشاكل حساسية وتعقيدا ؟ ولكن ، الا يمكن « تقنين » هذه المسألة في ظرف هو اكثر الظروف ملاءمة للصهيونية ، ومعها طبعا الامبريالية العالمية ، حتى لو أدى مثل هذا التقنين الى ازعاج مؤسسي الصهيونية الاوائل في قبورهم او اثارة استنكار غلاة الصهاينة الاحياء ؟ ام هل ان مثل هذا « التقنين » يعني التخلي بالفعل عن جوهر الصهيونية ؟ والاجابة على هذا السؤال تقتضي الاجابة على سؤال آخر : هل الصهيونية حركة يهودية تستهدف اساسا جمع شتات يهود العالم في « أرض الميعاد » ، ام هي بالاساس حركة البرجوازية اليهودية في عصر الامبريالية مستندة الى « المسألة اليهودية » التي عرفتها اوروبا منذ قرون والتي اتخذت شكلا مأساويا في ظل الاضطهاد النازي ؟ ثم أليس الاحرى باسرائيل التي قد تعمد الى « توطين نصف مليون عربي ، مؤقتا ، في صحراء النقب » ( كما يقول الكاتب في صفحة ١٨٤ ) ان تتعامل مع توطين مهاجريها هي ؟ وهل تنفي العلاقات الطبيعية مع « الجيران » العرب امكانية بروز استيطان صهيوني من نوع جديد : جاليات من التجار واصحاب المصارف والمستشارين والعمال الفنيين وغيرهم مع عائلاتهم على امتداد المنطقة العربية ، جاليات قد تأتي عبر اسرائيل او مباشرة من الولايات المتحدة او اوروبا او غيرها ٠ ويكون لها حقوق اين منها الحقوق التي اعطاها نظام الامتيازات العثماني للجاليات الاوروبية منذ قرون ؟!

وحتى لو جاء الجواب على كل هذه الاسئلة وغيرها على نحو يؤكد المشكلة بدل ان يحلها ، فانه ثمة بعد اخر للمسألة : الا يمكن ان تتجرع اسرائيل المشكلة في الوقت الذي تجني فيه مع الامبريالية مكاسب طائلة لم تكن تحلم بها من قبل ؟ كيف نفهم في هذا السياق « زعل » امريكا على اسرائيل ، وكيف نفهم حركة السلام الان ، وتصاعد شعبية فايتسمان على حساب بيجن ، والخلافات ضمن الحكومة الاسرائيلية : هل هي مجرد حركات في مسرحية محكمة الاخراج، ام انها تعبير عن خلافات فعلية ضمن صفوف الصهيونية والحلف الامبريالي الصهيوني ، في أطار المصلحة الواحدة قطعا ؟ ٠٠٠ الخ ٠

ان هذه الاسئلة ، رغم الشكل الذي اتخذته صياغتها ، تبقى اسئلة لا اكثر ، ولكنها على كل حال اسئلة ينبغي اثارتها تمهيدا للبحث فيها والاجابة عليها ، بطريقة المنهج العلمي الذي يتبناه الكاتب ٠ وهي بمجموعها يمكن ان يشتملها سؤال كبير : أليس من الممكن

ان تنسحب اسرائيل عسكريا من معظم المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ لقاء احتلالها لمعظم المنطقة العربية اقتصاديا ( تحت غطاء « السلام الاقتصادي » ) ؟ والقيمة العملية للاجابة على هذا السؤال ينبغي أن لا تخفى على احد : فالاجابة بالنفي تعني قبر الاوهام المتعلقة بالانسحاب الاسرائيلي الطوعي ، اما الاجابة بالايجاب فيعني قطع الطريق سلفا على ادعاءات الانظمة المستسلمة حول تحقيق عبور جديد ، في حال تم الانسحاب · وفي الحالتين يبقى العنف الجماهيري الثوري المسلح هو الطريق الى الانتصار ·

وغني عن القول ان الملاحظات السابقة لا تنتقص من اهمية الكتاب موضع المراجعة بقدر ما تهدف الى الاسهام في اغناء الموضوعات التي تناولها الكاتب وحفز الدعوة التي تبناها : الدعوة الى دراسات اخرى اكثر تفصيلية تمس الجوانب المختلفة لاوضاع المناطق المحتلة، دون البعد عن التأثير في القرار السياسي الفلسطيني ·

**خالد عايد**

# المقاومة الفلسطينية

## العلاقات الفلسطينية ـ العراقية

تميزت منظمة التحرير الفلسطينية ، ومجمل فصائل المقاومة ، وحركة فتح بالذات ، بالحرص الدائم على العلاقات العربية ، وعدم الرغبة في افتعال مشكلات مع اي بلد عربي ، حين لا يكون هذا البلد طرفا في قضية كبيرة تمس اهداف النضال الفلسطيني وغاياته ٠

وحين كانت منظمة التحرير تختلف مع اي نظام عربي ، فقد كانت قضايا الخلاف من الوضوح بحيث يفهم الجميع اسبابها ، ويبرر الجميع عنفها السياسي ٠ فالخلاف مع النظام الاردني الذي وصل الى حد الصدام المسلح وانتهى بمجزرتي عمان وجرش في عام ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ، استمر بعد ذلك طويلا في معركة اعلامية وسياسية لم تتوقف اصداؤها حتى الان ٠ كانت المعركة بين المنظمة والاردن ولا تزال ، معركة عنيفة ومصيرية ومكشوفة ، هدفها حماية التمثيل الفلسطيني للشعب الفلسطيني ، ومنع التلاعب بمصيره ٠

وحين اختلفت منظمة التحرير مع لبنان ، ووصل هذا الخلاف الى حد الصدام المسلح ، انتهى الصدام بتعامل بين انداد ، وبمنطق سياسي ، الى توقيع اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩ ليكون اساس تنظيم العلاقات ٠

وحين اختلفت منظمة التحرير مع السادات بعد مبادرته باتجاه اسرائيل ، كان الخلاف العنيف حول نهجين في التعامل مع العدو القومي ومع مستقبل القضية الفلسطينية ٠

وفي كل هذه الخلافات ، هناك طرفان ، يتناقضان سياسيا ، ويعلنان تناقضهما ، ويدافعان عنه ، واحيانا بالسلاح ٠ ومقياس تجميد هذا التناقض ، او ايجاد حل له ، او الغائه ، هو الاتفاق في الهدف السياسي للقضايا التي يثيرها الصراع العربي الاسرائيلي ٠

اما الخلاف الذي برز مؤخرا بين منظمة التحرير والعراق ، فله مميزات خاصة به ، ولا سابق لها في الصراعات الفلسطينية ـ العربية ٠

فالعراق في هذا الصراع ، لا يعلن انه يتناقض وطنيا مع اهداف منظمة التحرير الفلسطينية في السعي لتحرير فلسطين واعتماد الكفاح المسلح ، كما يفعل الاردن ٠

والعراق في هذا الصراع ، لا يعتبر انه غير معني ببناء القوة العسكرية لمواجهة اسرائيل في اي حرب تنشأ معها ، كما يفعل لبنان ٠

والعراق ، رغم عدم تأييده للسياسة

الرسمية لمنظمة التحرير ( النضال المرحلي، والسعي لانشاء دولة فلسطينية ) لا يلغي اعترافه بمنظمة التحرير كما تفعل مصر ، بل ويقيم علاقات رسمية معها ، ويقيم علاقات وثيقة مع فصائل تلتقي معه في تكتيكه السياسي ·

وبسبب هذه الاختلافات في الموقف العراقي عن موقف كل من الاردن ولبنان ومصر ، فان الصراع الفلسطيني ـ العراقي الدائر حاليا يشكل ظاهرة جديدة ·

ان النظام العراقي يتعامل مع منظمة التحرير من موقع المتطرف والمتفوق والمتقدم ، بسبب موقفه السياسى الذي يرفض النضال المرحلي لانشاء الدولة الفلسطينية ·

وهو يمارس سياسته من داخل الساحة الفلسطينية وليس من خارجها ، بحكم وجود تنظيمات موالية له كليا ·

وهو يمارس سياسته من داخل بعض التنظيمات ( فتح ( ، متبنيا بعض عناصرها ضد القيادة ( ابو نضال ) ·

وهو حسب الاتهامات الفلسطينية الرسمية يشجع ويحمي خط الاغتيالات التي تمارس ضد بعض القيادات الفلسطينية ·

ومن المهم التوضيح هنا ان الخلاف الفلسطيني ـ العراقي خلاف قديم ، يعود الى الفترة الاولى من تسلم الحكم العراقي الحالي للسلطة في عام ١٩٦٨ . ولكن يسجل هنا لمنظمة التحرير انها لم تبرز هذه الخلافات للسطح طوال عشر سنوات ، وابرزت بالمقابل حرصا على استمرار العلاقات مع العراق ، وحرصا اشد على محاولة كسبه لصف تحالفاتها السياسية والوطنية ، وحين تشكلت جبهة الصمود والتصدي لمواجهة سياسة السادات، ورفض العراق المساهمة فيها ، كان الحرص الفلسطيني واضحا على ضرورة العمل لجر العراق الى هذه الجبهة · وقد فشلت كل هذه الجهود وبرز بالمقابل موقف عراقي يشجع ويحمي الاغتيالات ضد القيادات الفلسطينية ، كما تعلن ذلك الوثائق الرسمية الفلسطينية المقدمة للحكومة العراقية ·

## اغتيال علي ياسين

وقد بدأ هذا الخلاف يعبر عن نفسه علنا ، وللمرة الاولى ، بعد اغتيال علي ناصر ياسين ، عضو حركة فتح ، ومدير مكتب منظمة التحرير في الكويت (٦/١٥)· فبعد الحادث مباشرة ، وبعد الانتهاء من تشييع الجثمان في الكويت بمظاهرة شعبية فلسطينية ضخمة ، اعلن ابو اياد اتهاما مباشرا للعراق ، اوضح فيه ان العراق يحمي ( ابو نضال ) الذي نفذ هذه العملية · وفي ٦/١٦ عقدت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير اجتماعا طارئا اصدرت على اثره بيانا قالت فيه « ان هذه الجريمة البشعة الموجهة للشعب الفلسطيني وثورته ، نفذتها ايد عميلة للصهيونية ، متسترة وراء اجهزة استخبارات عربية » ، وحذر البيان من ان « اللجنة تعتبر تنفيذ هذه الجريمة من قبل الجماعات المشبوهة المعروفة عملا جبانا لن تقف المنظمة امامه مكتوفة الايدي » ·

وقد اعلنت منظمة مجهولة تطلق على نفسها اسم « منظمة ابناء فلسطين » مسؤوليتها عن اغتيال علي ياسين ، ( ١٧/ ٦ ) ، ولكن ابو اياد نفى من الكويت وجود هذه المنظمة ، واتهم ابو نضال « المنشق عن فتح واللاجىء الى العراق » بالاغتيال ·

تم برز في التصريحات العلنية عامل جديد يربط بين اغتيال علي ياسين في الكويت ، واغتيال سعيد حمامي قبل اشهر

في لندن ، وذكر ناطق باسم حركة فتح بالكويت ( ٦/١٨ ) ان اغتيال علي ياسين تم بنفس اسلوب اغتيال سعيد حمامي . وقال « تعرض الفقيدان قبل الاغتيال لحملة من صحيفة ابو نضال في بغداد « فلسطين الثورة » ومن « اذاعة فلسطين » التي تبث من بغداد » . وختم حديثه بالقول ان الاذاعة المذكورة اتهمت علي ياسين بانه يمثل « سياسة عرفات الاستسلامية » .

وفي ٦/٢٧ اعلن ابو جهاد في كلمة امام احدى الدورات المتخرجة « لا يضيرنا بعض الادوات التي تلعب بها الاستخبارات العربية » وهدد « ان يد فتح ان تحركت لن تكون بعيدة عن احد » .

وفي بداية شهر تموز انتقل الموقف الفلسطيني تجاه العراق نحو خطوة عملية جديدة . ففي ٧/٤ التقى عرفات مع كوادر الاعلام الفلسطيني وابلغهم ان « الثورة تتعرض لمؤامرات امبريالية ومحاولات لطعنها من قبل دول عربية تدعي وترفع الشعارات الوطنية والتقدمية » . واجتمعت اللجنة التنفيذية في اليوم نفسه بدمشق وقررت مقاطعة جميع الاجتماعات الرسمية والشعبية في العراق « نتيجة لموقف الحكومة العراقية من الثورة الفلسطينية وايواء المجرمين المأجورين والقتلة » . واقرت اللجنة نص مذكرة رسمية موجهة الى الحكومة العراقية ، جرى تسليمها للسفارة العراقية بدمشق ، ونشرتها « وفا » يوم ٧/١١ . وطالبت المذكرة بتسليم ابو نضال لمنظمة التحرير . وفيما يلي ابرز ما جاء فيها :

**مذكرة اللجنة التنفيذية**

« يعز علينا ان نبحث معكم قضية كانت تبدو الى وقت قريب من الخلافات الجزئية الصغيرة ، فاذا بها تكبر وتكبر حتى تكاد تقطع بيننا وبينكم . تلك هي قضية العميل الفار ابو نضال ومجموعته . فلقد سكتنا على اذاعة يديرها من بغداد ، وصبرنا على محاولات قام بها من قبل استهدف بها اخوة لنا قادة ومسؤولين وفشلت . ولكن الامور تطورت في الفترة الاخيرة ، فاذا بالسباب والشتائم والتحريض والحقد يثمر القتل الجبان .

لقد بدأ المجرمون بالاخ المناضل الشهيد سعيد حمامي في لندن ، واجمعت جميع المصادر على أن القتلة توجهوا بعد جريمتهم النكراء الى بغداد حيث وجدوا الحماية والمكافأة والامان . ثم اعترف ابو نضال عبر اذاعته وصحفه بانه هو وجماعته قاتلو حمامي .

ثم جاءت واقعة لارنكا المشؤومة التي قتل فيها يوسف السباعي ، والعالم كله سمع اذاعتكم الناطقة باسمه من بغداد وهي تتبنى هذه الجريمة .

ثم كانت جريمة اغتيال الاخ المناضل الشهيد علي ناصر ياسين ، هذه الجريمة التي وقعت بعد سلسلة طويلة من المقالات المنشورة والمذاعة والتي تهجمت فيها هذه الاذاعة على الشهيد واتهمته بمختلف التهم الكاذبة ورمته بمختلف الافتراءات التي تحض على قتله علنا . ثم جاء تصريح ابو نضال الى مجلة « الشرق الاوسط » والذي نقلته الوكالات يوم ٧٨/٦/٢٢ ، والذي اعلن فيه مسؤوليته عن هذه الجريمة النكراء .

هذه بعض الادلة القاطعة التي بين ايدينا ، تقطع بادانة المدعو « ابو نضال » وجماعته ، وترسم علامة استفهام كبيرة حول موقف حكومتكم التي تسمح لمثله باستخدام اراضي العراق الشقيق وامكانياته بالاضافة الى حمايته لتنفيذ جرائمه .

لذا نرجو ان يتفهم الاخوة قادة الحكومة

العراقية موقفنا حين نعتبر مساندة ومساعدة وسكوت الحكومة العراقية عن كل ما يصدر عن ابو نضال وجماعته من بغداد هو بمثابة اعلان حرب ابادة على الشعب الفلسطيني وثورته وقيادته ٠

٠٠٠ لذا فاننا نلح في المطالبة بتسليم المدعو « ابو نضال » وجماعته حقنا للدماء واتقاء لما يمكن أن يترتب على جرائمه » ٠

## مذكرة المنظمات الشعبية

وفي ٧/١٥ وجهت ٩ منظمات شعبية فلسطينية مذكرة الى المنظمات الشعبية العراقية ، ركزت على نفس نقاط مذكرة اللجنة التنفيذية ، واضافت اليها نقاطا اخرى ٠ قالت المذكرة :

« لقد لعب النظام العراقي منذ فترة طويلة دورا اساسيا في تنفيذ مخطط جر الثورة الفلسطينية الى معارك جانبية ٠ ان النظام العراقي لم يعد نفسه للقيام بدور قوي خارج حدوده ، الا انه يمارس دورا تخريبيا في الساحة الفلسطينية ، وعمد الى تبني احد الخارجين من صفوف الثورة الفلسطينية والسماح له بتنفيذ جرائمه ضد الثورة الفلسطينية وكوادرها ، والتي كان اخرها اغتيال المناضل علي ناصر ياسين»٠

واضافت المذكرة « ان الحكم الانعزالي العراقي كان اول حكم يتجرأ على اقفال مكاتب الثورة الفلسطينية في العراق ، ومواقفه من احداث ايلول عام ١٩٧٠ ماثلة في الاذهان عندما رفض تقديم اي عون للثورة ، وقام بفتح الطريق امام جيش الاردن لتسهيل مهمته في ضرب قواعدها » ٠

ودعت المذكرة المنظمات الشعبية العراقية للتصدي للنهج التخريبي الذي يقوده النظام العراقي ضد الثورة الفلسطينية ٠

## رد عراقي

وفي ٧/١٥ ظهر اول رد عراقي على الموقف الفلسطيني ٠ وقد جاء هذا الرد بطريقة غير رسمية وعلى لسان مسؤول عراقي كبير ، نشرته صحيفة « النهار العربي والدولي » الصادرة في باريس

اتهم المسؤول العراقي ياسر عرفات بأنه وراء الحملة على العراق ، وبأنه انتهز فرصة اغتيال علي ياسين ليفجر الخلافات، وذكر ان الدوافع وراء ذلك هي الخلافات داخل فتح ، وضغط فصائل المقاومة على ابو عمار ٠ واتهم المسؤول العراقي « الاطراف التي لها صلة بسوريا ، والاطراف التي لها صلة بالاتحاد السوفياتي » بشن الحملة على العراق ٠ انتقاما لاعدام الشيوعيين ولتحويل الانظار عن القضايا الفلسطينية الداخلية»٠

وحول قضية ابو نضال قال :« لا يمكن ان نتصرف تجاهه بالطريقة التي يريدونها، فتصرفات ابو نضال يتحمل وحده مسؤوليتها ، وفي امكان عرفات ان يتفاهم معه وان يجري حوارا ، ولا يمكن ان نجبر ابو نضال ان يأخذ تحية لعرفات » ٠

## مذكرة فتح

وقد ردت حركة فتح على تصريحات المسؤول العراقي بمذكرة فورية وعنيفة ( ٧/١٦ ) موجهة الى الحكومة العراقية تناولت مجمل العلاقات بين الطرفين ٠

اتهمت مذكرة حركة فتح المسؤول العراقي بقلب الحقائق ، واعتبرت ذلك دليلا على « دور غير وطني وغير قومي تمارسه الاجهزة العراقية لضرب الثورة الفلسطينية من خلال تشويه وضرب حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية » ٠

ونفت المذكرة ان يكون العراق قدم مساعدات للمنظمة زادت على مئات الملايين ، وذكرت ان العراق تهرب من دفع التزاماته لمنظمة التحرير ، واوضحت ان العراق :

ـ اقفل مكاتب حركة فتح في العـــراق باستثناء مكتب بغداد ٠

ـ استولى على ٦٠٪ من تبرعات شعب العراق لصالح مكتب الكفاح المسلح الذي انشاه ٠

ـ صادر اسلحة وردت من الصيـــــن بحوالي ٥٠ مليون دولار ٠

ـ صادر مواد تموينية وطبية وملابس عسكرية وردت من الصين بقيمة ٣٠ مليون دولار ٠

ـ صادر مصانع اسلحة انشاتها فتح ٠

ـ صادر مزرعة دواجن انشأت لصالح اسر الشهداء ٠

ـ صادر مخازن ذخيرة فتح في الاردن عام ١٩٧٠ والتي كانت في مناطق الجيش العراقي ٠

وتطرقت المذكرة الى دور النظام العراقي في ايلول ١٩٧٠ في الاردن فذكرت « ان الحديث عنه يطول وسنكشفه في الوقـــت المناسب مع وثائقه » ٠

**بلال الحسن**

---

## المنــاطق المحتــلة

# الثورة الفلسطينية الطلابية في الجامعات الاسرائيلية

منذ اكثر من نصف عام والطـــــلاب الفلسطينيون في الجامعات الاسرائيلية ، يخوضون معركة يومية ومتواصلة ، اشبه ما تكون بثورة فلسطينية طلابية ، ضـــد سياسة القمع ، وكبت حريـــة الـــرأي والتعبير ، والتفرقة العنصرية ، التـــي تمارسها « السلطات الطلابية اليهودية » والجامعية بتغطية من السلطات الحكومية ضد الطلاب الفلسطينين في الجامعـــات الاسرائيلية ، والتي بلغت ذروتها فـــي « يوم الطالب » في ٣٠ـ٥ـ٧٨ ، حيث «قام اتحاد الطلاب في اسرائيل بحملة واسعة النطاق لجمع تواقيع الطلاب اليهود على عريضـة تطالـب بمنـع مؤيدي م٠ت٠ف من التحصيل في المعاهد الاسرائيليـــة العليا ، بعد ان كان رئيس اتحاد الطلاب في جامعة حيفا قد وجه نداء الى رئيس الجامعة البروفيسور بن شاحر ، فـــي اوائل شهر نيسان ، طالبه باتخاذ موقف في هذا الشأن » ( هآرتس ــ ٣٠ـ٥ـ٧٨ )٠

وقد كان هذا النـــداء « نتيجـــة » للتصريحات التي ادلى بها الطلاب العرب لصالح م٠ت٠ف ، بأنها المثل الشرعـي والوحيد للشعب الفلسطيني » ( هآرتس ـ ٥ـ٤ـ٧٨) ، مما دعا لجنة الطلاب العرب الى توزيع منشور ، تتهم فيه رئيس اتحاد الطلاب في جامعة حيفا اريبه فرجون بانه يعمل على طرد الطلاب العرب من الجامعة» ( المصدر نفسه ) ٠

ولم يقتصر هذا النداء على رئيـــس الجامعة وحسب ، بل نقله حزب الليكود الى الكنيست ، حيث « طالب عضـــو الكنيست روني ميلو مـــن حزب ليكود ، ببحث الاقتراح لمنع الطالب العربي الذي يؤيد م٠ت٠ف من التحصيل الجامعـي » ( هآرتس ـ ٤ـ٦ـ٧٨ ) ، وقد شاركه في هذا الاقتراح « عضو الكنيست امنون لين واعضاء آخرون ٠٠٠ وقرروا المبـــادرة بوضع مشروع قانون في هذا الشـــأن سيبحثه الكنيست بعد العودة الى العمل في مطلع الاسبوع المقبل» (المصدر نفسه)٠

ويشكل هذا الاجراء الاخير ضد الطلاب العرب في الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨، اخطر خطوة ضدهم في الصراع الطويل الذي يخوضونه ضد سلطات الجامعات من ناحية ، وضد « اتحاد الطلاب في اسرائيل » من ناحية اخرى ، وفقا لسياسة عليا تمارس ضد الطلاب العرب على مدى ثلاثين عاما ، في كل مناسبة كانوا يحاولون فيها التعبير عن رأيهم واحتجاجهم على سياسة القمع والتعسف والتفرقة العنصرية المتبعة ضدهم في الجامعات ، سواء كان ذلك على الصعيد السياسي او الاجتماعي .

ورغم الصدامات العنيفة ، التي كان يشهدها الحرم الجامعي بين الطلاب العرب واليهود ، قبل حرب حزيران عام ١٩٦٧ — وقد اقتصر انذاك على الجامعة العبرية في القدس وجامعة تل ابيب — الا ان هذا الصراع ظل محصورا ضد سياسة القمع والارهاب ومصادرة الاراضي والحكم العسكري في الارض المحتلة ، وضد سياسة التفرقة العنصرية التي كانت تمارس ضدهم في هاتين الجامعتين ، نظرا لقلة الطلاب العرب العددية ، والظروف السياسية للعرب في الارض المحتلة قبل عام ١٩٦٧ ، الى ان جاءت حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، لتشكل « نقطة تحول في مجال العلاقات بين الطلاب اليهود الذين ازدادوا اثرها يمينية ،وبين الطلاب العرب الذين عمقت فيهم الحرب . الوعي الوطني والقومي » . ( معاريف — ٢—١—٧٦) . اذ ان « الاتصال الذي تم بينهم وبين المناطق المحتلة ، ولد في داخل الكثيرين منهم الشعور بالانتماء الفلسطيني ... مما جعل العربي « الاسرائيلي » اكثر فلسطينية واقل اسرائيلية ، من النموذج الذي صورناه لانفسنا ... ونحن اليهود غير مستعدين لقبول ذلك ، لانه حصل شيء مغاير لما توقعناه عندنا » ( المصدر نفسه ) .

الا ان هذا الصراع بين الطلاب اليهود والطلاب العرب ، ظل يخضع « حتى حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، لنوع من التوازن بين اليهود والعرب في الحياة الجامعية ، المغطى بطبقة ثلج دقيقة ، معرضة للتصدع بسهولة عند اول حركة غير متوازنة ( معاريف — ٢٠—١—٧٨ ) . وفي حرب تشرين عام ١٩٧٣ « وضع الحد الفاصل بوضوح ، بين هذا التوازن الهش، وبين الاستقطاب القومي .. اذ في اللحظة التي عبر فيها المصريون القنال، رفعت اول لافتة في الحرم الجامعي بصيغة : بالروح بالدم نفديك يا جليل .. وقد ادى هذا الشعار الى اول اشتباك بالايدي بمثل ذلك العنف الذي كان عليه بين الطلاب اليهود والطلاب العرب في الجامعة ... والصدام العادي ، الذي كان يتململ تحت السطح ، تفاقم وانفجر الى الخارج » ( المصدر نفسه ) . بعد ان اعطى « زرع حرب الايام الستة اكله في حرب تشرين ، بين السكان العرب بشكل عام ، وفي اوساط الجيل الشباب بشكل خاص ، وعلى الاخص الطلاب » ( معاريف — ٢—١—٧٦) ، كما جاء على لسان احد الطلاب العرب « الذي امتنع عن الادلاء باسمه » ( المصدر نفسه ) ، والذي اضاف قائلا لمراسل الجريدة : « لقد اتضح لنا ، بعد حرب يوم الغفران ، بأننا عشنا معكم سنين ليست قليلة ،ولا نعرفكم فلقاؤنا مع اخوتنا في الاراضي المحتلة جسد لنا الى اي حد نحن بعيدون عنكم وقريبون منهم » ( المصدر نفسه ) .

وكانت حدة التوتر بين الطلاب اليهود والعرب قد تصاعدت بعد حرب تشرين ، « مع تصاعد اليمين داخل الاتحادات الطلابية ، وسيطرة اعضاء حزب الليكود

الفاشي عليها ، بعد أن كانت دفتها في ايدي رجال اليسار من كتلة يش ، الذين كانوا يسعون لزيادة التعاون بين الطلاب اليهود والعرب » ( معاريف ـ ٢٦ـ١٢ـ٧٥) ، وهذه التغييرات التي كانت قد طرأت على اتحادات الطلاب ، والتي « احدثت بدورها تغييرا كاملا في اسلوب النشاط الاجتماعي والسياسي لاتحادات الطلاب ، اثرت والى حد كبير على الطلاب العرب، الذين غيروا هم الاخرون خطوط نشاطهم في اتجاه قومي متطرف » ( المصدر نفسه ) واصبح زعماؤهم يعلنون صراحة « اننا نهتم بالمسائل السياسية ايضا » ، بعد ان « كانوا يدعون ، ان لجانهم المستقلة كانت قد اقيمت ، وقائمة ـ كي تهتم في الاساس بالمشاكل الخاصة للطالب العربي ولا تعمل في السياسة » ( المصدر نفسه ) ، بل « ونقلوا الصراع الفلسطيني الى خطوط معادية نشيطة » ( المصدر نفسه ) ، وخاصة بعد ان رفض اتحاد الطلاب في اسرائيل الاعتراف لـ « اتحاد اللجان العربية » ، و« ممارسة الضغوط المتزايدة للحد من نشاط الطلاب العرب في اطارهم التنظيمي » ( معاريف ـ ٢٦ـ١٢ـ٧٥) مما ادى الى عدة اصطدامات واشتباكات بالايدي داخل الجامعات ، اثر التظاهرات العديدة التي كان « اتحاد اللجان العربية » ينظمها احتجاجا على منعه من ممارسة حقه في حرية الرأي والتعبير ، ومن اجل الاعتراف به « كممثل لكافة الطلاب العرب الذين يتعلمون في الجامعات الاسرائيلية » ( حوتام ـ ١٣ـ٦ـ٧٥ ) .

وكان اكثر الصدامات حدة ، الصدام الذي حصل بين الطلاب اليهود والعرب ، اثر رفض اتحاد اللجان العربية الامتثال للاجراء الذي اتخذه الاتحاد العام للطلاب في اسرائيل « في شتاء عام ١٩٧٤ بادراج نوبات حراسة ومطالبه الطلاب العرب في الجامعات للمشاركة في هذه الحراسة بعد تصاعد العمليات التخريبية المعادية في القدس وتوجيه عدة ضربات الى الجامعة » ( معاريف ـ ٢٠ـ١ـ٧٨) .

وكانت اللجنة العربية قد كتلت صفوف الطلاب العرب في « جبهة رفض ، بل وحرصت على نشر علني لدوافع هذا الرفض بقولها : « ولا طالب عربي واحد يشترك في اي عملية موجهة ضد اخوانه الفدائيين » ( المصدر نفسه ) ، مما ادى الى « اشتباكات حادة بين الطلاب العرب والطلاب اليهود ، الذين وجهوا عريضة كبيرة جماعية الى ادارة الجامعة ، يطالبونها فيها باجبار الطلاب العرب على تطبيق واجب الحراسة » ( المصدر نفسه). مما « دعا ادارة الجامعة الى توجيه تهديد لجميع الطلاب العرب الذين يرفضون الحراسة باتخاذ اجراءات ضدهم » ( دافار ـ ١ـ١ـ٧٦ ، هآرتس ـ ١ـ١ـ٧٦) .

ويبدو ان السلطات الاسرائيلية قد كثفت من ضغوطها في الاونة الاخيرة ، على الطلبة العرب في الجامعات ، باستخدام الطلبة اليهود من خلال الاتحاد العام للطلاب في اسرائيل وخاصة بعد تسلم ليكود لمقاليد الحكم في اسرائيل . اذ ان مؤسسات التعليم في اسرائيل ، قد تحولت في السنوات الاخيرة الى ساحة قتال بين الطلاب اليهود والطلاب العرب » ( دافار ـ ١٤ـ٥ـ٧٨) ، فكل جدال حول اي موضوع « سرعان ما يشتعل ، والتهديدات والشتائم والاتهامات المتبادلة سرعان ما تتطاير في الهواء .. بل وكان ثمة اشتباكات في الايدي بين الطلاب اليهود والطلاب العرب » ( المصدر نفسه ) ، سواء كان ذلك « في ذكرى يوم الارض ، او عملية الجيش الاسرائيلي

في لبنان ، او بظهور محاضرين ذوي افكار شاذة » ( دافار ـ ١٤ـ٥ـ٧٨) ٠

ومع صعود الليكود الى الحكم . صعدت السلطات من قمعها للحركة الطلابية العربية وشنت حملة عنيفة عليهم في كل المجالات ، وقد بلغت هذه الحملة ذروتها وبشكل ملفت للنظر ، مع اعلان نتائج الانتخابات الاخيرة لاتحاد اللجان العربية في الجامعات ، والتي فاز على اثرها « ١١ عضوا جميعهم من القوميين المتطرفين » ٠ الذين ينتمون الى حركة اولاد البلد المتطرفة » (دافار ـ١٠ـ١ـ٧٨) اذ كان لنتائج الانتخابات هذه « معنى خطير من الناحية القومية » ، فالمنتخبون الجدد « لم يعودوا يتسترون بغطاءراكاح، ولا يدعون انهم يعترفون بدولة اسرائيل، ويطمحون للتعايش بسلام بين العرب واليهود ٠٠ فايديولوجيتهم هي اقرب ما تكون لتلك التي لمنظمات التخريب الفلسطينية ٠٠ مما سيؤدي الى التوتر في العلاقات بين الطلاب اليهود والعرب. ويتحتم على السلطات ان تدرس هذه المشكلة ونتائجها على كل تركيبة الكليات» ( دافار ـ ١٠ـ١ـ٧٨) ٠ اذ انهم «يكفرون بحق اليهود على ارض اسرائيل . ولا يعترفون في مواطنية الدولة ، ويؤيدون دولة علمانية ديموقراطية بصيغة م٠ت٠ف» ( معاريف ـ ٢٠ـ١ـ٧٨) ٠

وبالفعل فقد الغت السلطات اول مظاهرة تنظمها اللجنة العربية الجديدة بعد انتخابها ، « احتجاجا على مبادرة السلام » بعد ان كشفت وحدة تجسس طلابية يهودية ، قبل يوم فقط ، هدف المظاهرة ودوافع توقيتها ، فشرع اتحاد الطلاب في اسرائيل بعملية سريعة لاحباطها » ( معاريف ـ ٢٠ـ١ـ٧٨) ٠

وقال رئيس اتحاد الطلاب في جامعة القدس « ان الفيلم الشفاف كان قد وضع امامنا ٠٠ فعلى بعد ٣٠٠ م من الحرم الجامعي في القدس ، يتطاول فندق الهيلتون ، مقر اللجنة السياسية الاسرائيلية ـ المصرية ، بؤرة كل اجهزة الاعلام العالمية ٠٠ اللجنة العربية والمئات من مؤيديها بالاضافة الى اليسار اليهودي يرفعون اللافتات التي تصف الرئيس السادات كخائن وبيغن كمحتل متوحش ٠٠ الطلاب اليهود ينظمون انفسهم فيمظاهرة مضادة ، واستنفار الغرائز يتحول الى اشتباك في الايدي ٠ الشرطة تستدعي ، واجهزة الاعلام العالمية تصور جنود الاحتلال الصهاينة ينهالون على القوميين العرب باللكمات والهراوات » ( معاريف ـ ٢٠ـ١ـ٧٨) ٠

وقد عقب على ذلك محمود محارب ، رئيس اتحاد اللجان العربية في مقابلة له مع مراسل صحيفة معاريف ، اهرون دولاب ، بان السلطات الاسرائيلية كانت « قد الغت المظاهرة ضد خطوات السلام، التي اتخذها السادات وبيغن ، بسبب التحريض الجاري ضدنا من اتحاد الطلاب في اسرائيل » ( معاريف ـ ٢٠ـ١ـ٧٨) ٠ واستطرد محمود محارب قائلا : « انهم يتهموننا باننا جبهة رفض، صحيح ، اننا نعارض مبادرة السادات ومشروع بيغن للسلام ، لان كليهما يتجاهل الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في العودة الى فلسطين ،واقامة دولة مستقلة فيها » ٠ ( المصدر نفسه )

واضاف ان « جبهة الرفض الحقيقيةهي دولة اسرائيل التي ترفض الاعتراف بـ م٠ت٠ف، وتدعي أن فلسطين ملك للشعب اليهودي ٠ هذا ادعاء كاذب لا نعترف به ، فملكية البلاد محددة في الميثاق الفلسطيني ، فقد قررت م٠ت٠ف٠ اقامة سلطة مستقلة في كل جزء من البلاد، الذي يحرر من ايدي المحتلين الصهاينة،

وهذا قرار جيد وعادل ونحن نؤيده ، اذ انه في نهاية الصراع سوف يؤدي الى اقامة دولة ديموقراطية يستطيع اليهود الموجودون هنا ان يعيشوا فيها مع الشعب العربي الفلسطيني ٠٠ نحن الطلاب العرب في الجامعة ، نشكل جزء لا يتجزأ من الشعب العربي الفلسطيني ، ونناضل من اجل خدمته وتحقيق اهدافه» ( المصدر نفسه ) ٠

وقبل اقل من شهرين على منع هذه المظاهرة ، كان صراع اخر يتفجر داخل الجامعة ، حين قام اتحاد اللجان العربية في الجامعات الاسرائيلية ، بتوزيع المنشور الذي اصدرته مجموعة من المثقفين العرب في الاراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، والذي يعلنون فيه ان « م٠ت٠ف فقط هي الممثل الشرعي الوحيد لعرب اسرائيل » ( هآرتس ـ ٥ـ٣ـ٧٨ ) ، وان « عرب اسرائيل هم جزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني » ( المصدر نفسه ) ، فقام الطلاب العرب داخل الجامعات بوحي من السلطات ، تساندهم معظم الصحف الاسرائيلية ، مما زاد من حدة التوتر بين الطلاب اليهود والعرب ، الذيسرعان ما ادى الى اشتباك عنيف في الايدي ، في ٢٩ـ٣ـ٧٨ ، حين « قامت مجموعة من مناصري ارض اسرائيل الكاملة والليكود بتغطية من اتحاد الطلاب ، بتفجير الندوة التي نظمها الطلاب العرب عن : وضع العرب في اسرائيل في سنوات السبعين » ( هآرتس ـ ٣٠ـ٣ـ٧٨ ، ومعاريف ـ ٣٠ـ٣ـ٧٨ ، ودافار ـ ١٨ـ٥ـ٧٨ ) ، وكان « الطلاب اليهود قد حاولوا منع الثورة بالقوة ٠٠ وراحوا ينشدون ، شعب اسرائيل حي ، بينما انشد الطلاب العرب « بالروح بالدم نفديك يا جليل » ( هآرتس « ومعاريف ـ ٣٠ـ٣ـ٧٨) ٠

ونتيجة لهذه الموجة المعادية من التحريض والاستفزازات من الطلاب اليهود بقيادة اتحاد الطلاب الاسرائيلي ، عقد « اتحاد اللجان العربية » مؤتمرا صحفيا في بيت سوكولوف في تل ابيب يوم ١٧ـ٥ـ٧٨ ، حيث اعلن سكرتير الاتحاد عصام مخول عن قرار الاتحاد العام « القيام باضراب عام للطلاب العرب ليوم واحد في تاريخ ٢٤ـ٥ـ٧٨ ، احتجاجا على التحريض الذي تمارسه ضدهم الاوساط الشوفينية ،ومنع الطلاب العرب من حرية الرأي والتعبير في الجامعة » ( هآرتس ـ ١٩ـ٥ـ٧٨ ) ٠

وقد تقرر ان « يجتمع ممثلو الطلاب العرب من كل الجامعات ، ظهيرة يوم الاربعاء ٢٤ـ٥ـ٧٨ ، في احدى قاعات دور السينما في تل ابيب ، في اجتماع احتجاج ، حيث سيفدون اليها من جميع الجامعات في البلاد ، من القدس وتل ابيب وبار ايلان وحيفا » ( يديعوت احرونوت ـ ٢٢ـ٥ـ٧٨) ٠

واكد عصام مخول للصحافيين : « اننا نتضامن مع شعبنا العربي الفلسطيني وقيادته المعترف بها م٠ت٠ف ، في نضاله من اجل تقرير مصيره » ( المصدر نفسه ) ٠

وقد رد على ذلك رافي بن حور ،رئيس اتحاد الطلاب في اسرائيل بأن « التضامن مع م٠ت٠ف ، يجب ان يضيء الضوء الاحمر لدى مواطني الدولة » ( المصدر نفسه ) ٠

ورغم كل المحاولات التي بذلها اتحاد الطلاب الاسرائيلي وسلطات الجامعات ، مستخدمين كل الوسائل لمنع الاضراب ، الا ان الطلاب العرب قاموا باضراب احتجاج شامل في كل الجامعات ، « ضد القمع وخنق حرية الرأي والتعبير للطلاب العرب في الجامعات » ( هآرتس ـ

٢٢_٥_٧٨) ٠

ففي ٢٤_٥_٧٨ ، وهو اليوم المحدد للاضراب العام « تجمع اكثر من ٣٠٠ طالب عربي في سينما تخيلت في تل ابيب وعقدوا مؤتمرا عاصفا ٠٠ ووجهوا نداء للاعتراف باللجان العربية في الجامعات ، والسماح لها بمزاولة نشاطها دونما تشويش » ( المصدر نفسه ) ٠٠ بينما « نظمت مجموعة من الطلاب اليهود في جامعة بار ايلان مظاهرة احتجاج ضد هذا الاجتماع الذي وصفوه بانه اجتماع تضامن مع م٠ت٠ف». ( المصدر نفسه ) ٠

وقد شمل هذا الاضراب تنظيم تظاهرة احتجاج في جامعة حيفا ، التي يشكل الطلاب العرب فيها اكبر تجمع لهم ، وقد « تجمع المتظاهرون حول تابوت مصنوع من الكرتون يحمل يافطة ، حرية الرأي والتعبير ، وعزموا على تنظيم جنازة « لحرية الرأي والتعبير » ٠٠٠ ورفعوا يافطات تحتج على خنق حرية الرأي ، والعنصرية ، والقمع التي تمارس ضد الطلاب العرب في الجامعات » ( المصدر نفسه ) ٠

الا ان « مجموعة كبيرة من الطلاب اليهود ، والتي كان عددها اكبر بكثير من الطلاب العرب ، وقفت في مواجهة الطلاب العرب ، وراحت تقاطع الخطباء العرب في المظاهرة هاتفة « ايها القتلة اذهبوا الى سوريا » ( المصدر نفسه ) ٠ وحين لم يجد ذلك « حاول الطلاب اليهود منع الخطباء من القاء كلماتهم بانشاد نشيد هاتكفا ( النشيد القومي الاسرائيلي) ٠٠٠ بينما رد العرب بالهتافات المضادة وبالاناشيد القومية » ( المصدر نفسه )٠

وعندما صعد المنصة « محاضران يهوديان واعلنا عن تأييدهما للطلاب العرب ، قاطعهما اليهود ولم يمكنوهما من قول اكثر من بعض الجمل المتقطعة مثل : « لقد فقدنا حساسيتنا بالنسبة للديموقراطية وحسنا بان نكون أقلية » ، او مثل : « لقد جئنا اليوم لندفن الميت ، حرية الرأي والتعبير ، ونرافق العائلة الثكلى » ( المصدر نفسه ) ٠ فما كان من الطلاب اليهود الذين « استفزتهم هذه الكلمات » الا ان هاجموا الطلاب العرب « ونشبت معركة بين الطلاب اليهودوالعرب استمرت دقائق معدودة » ( المصدر نفسه ) ٠

وحين حمل الطلاب العرب « التابوت » « انقض الطلاب اليهود عليهم ومزقوا التابوت ٠٠ ومرة أخرى حصل اشتباك بالايدي لعدة دقائق ٠٠ بينما كانت قوات الشرطة تقف على اهبة الاستعداد على بعد عدة مئات من الامتار من الحرم الجامعي » ( هآرتس _ ٢٥_٥_٧٨) ٠

اما في جامعة القدس فقد « تظاهر اكثر من ٥٠ طالبا مقابل مبنى ادارة الجامعة ٠٠٠ وفي اطار التظاهرة اضرب المتظاهرون عن الطعام » ( المصدر نفسه)٠

وردا على تظاهرات الطلاب العرب في الجامعات « ارسل رئيس اتحاد الطلاب في اسرائيل رافي بن حور ، مذكرة الى رئيس الكنيست ، يحتج فيها على ان الطلاب العرب يشتكون بالنسبة لحرية الرأي والتعبير بينما « تمنحهم دولة اسرائيل حق الدراسة في الجامعات ، وتغض النظر عن تصريحاتهم المعادية لاسرائيل ، وللصهيونية ، والمنسجمة مع اهداف م٠ت٠ف لابادة دولة اسرائيل » ( هآرتس _ ٢٥_٥_٧٨) ٠

**توفيق فياض**

# اســـرائيليات

## ـ ١ ـ
## تجديد المفاوضات المباشرة بين مصر واسرائيــل

شهدت الفترة الاخيرة مساعي عديدة لاعادة الاتصالات والمفاوضات المباشـــرة بين مصر واسرائيل ، التي كانت قـــد توقفت لبضعـــة اشهر أثـــر التصلب الاسرائيلي ، رغم اللقاءات العديدة التي عقدت بين السادات ووزير الحربيـــة المصري عبد الغني الجمسي مـن جهـة ، ووزير الدفاع الاسرائيلي عيزر فايتسمان من جهة اخرى ٠

وقد بدأت المرحلة الجديدة ، كما يبدو ، بناءا على مبادرة اميركية ٠ فبعـــد ان تسلمت الادارة الاميركية ردود اسرائيل السلبية على الاسئلة التي وجهتها اليهـا بخصوص مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ( انظر شؤون فلسطينية ، عـــدد رقم ٨٠ ، ص ١٦٠ ـ ١٦٨ ) ، والتـــي اعرب الرئيس كارتر نفسه عن خيبة امله منها في لقاء له مع اعضاء الكونغـرس ( مآرتس ـ ٢٢ـ٦ـ٧٨ ) ، تقرر ان يقوم نائب الرئيس الاميركي وولتر مونديـــل بزيارة اسرائيل ، في محاولة لاقنـــاع حكامها ، كما يبدو ، بمحاولة استئناف المفاوضات السياسية ، من خلال تقديـــم الوعود المطمئنة بشأن الاستمرار في دعم اسرائيل على مختلف الاصعدة والمحافظة على العلاقات الخاصة معها ٠

### اسباب شخصية وسياسية وراء زيارة مونديــل :

بدأت زيارة مونديل الى اسرائيل فـــي اواخر الشهر الماضي ، حيث استغرقـت بضعة ايام ، انتقل بعدها الى الاسكندرية لمقابلة الرئيس المصري ، قبل عودته الى واشنطن ، وقد اجرى مونديل في اسرائيل مفاوضات مكثفة مع الزعماء الاسرائيليين مشددا على استمرار الدعم الاميركي دون توقف ، وعدم ربطه بأية تطورات سياسية قد تحدث ٠ كذلك اصـــــر في خطبـــه وتصريحاته علــــى اسس السياســـة الاميركية ، فيما يتعلق بحل النزاع فـــي المنطقة ، خاصة تطبيق القرار رقم ٢٤٢ على جميع الجبهات بما في ذلك الضفـة الغربية ، الامر الذي تعارضه الحكومـة الاسرائيلية ٠ وابرز ما قاله مونديل فـــي اسرائيل ان « افضل الطرق لصنع السلام هي الاتصالات المباشرة بين اطـــــراف النزاع ٠ ونحن نجند كل جهودنا من اجل تجديد الاتصالات بين مصر واسرائيل ٠٠ وان الولايات المتحدة قدمت وستستمر في تقديم مقترحات بناءة ، من شأنها تقليص الثغرة بين اطراف المفاوضات ٠٠ [كذلك] فأن مبادىء القرار ٢٤٢ لا يمكن فصلها ابدا ٠٠ فهذا القرار هو معادلة ، منجهة واحدة يعترف بحق كل دولة في المنطقـة في العيش بسلام وبحدود آمنة ومعترف بها ٠٠٠ وفي المقابل ، على اسرائيل ان تنسحب من مناطق احتلت في عام ١٩٦٧٠ ونحن نعتقد ان الحدود يجب ان تعين من قبل الاطراف خلال المفاوضات ، ولكن لا يمكن فصل مبـادىء القـــرار ٢٤٢ . وتطبيقها بشكل اختياري ٠٠٠ نحـــن مقتنعون انه بدون انسحاب على جميـع الجبهات ، لا يمكن تحقيق سلام حقيقي٠٠ ففي سيناء اقترحت اسرائيل معاهدة سلام تقوم على اساس الانسحاب مقابـــل تحقيق الامن ٠ ويمكن تطبيق هذه القاعدة

في الضفة الغربية وقطاع غزة ايضا ٠٠٠ ويجب ان يكون هناك ارتباط قوي بين الضفة الغربية وغزة والاردن ، [ وعلى العرب ] ان يوافقوا على سلام دائم وحق اسرائيل في العيش بسلام وفي حدود ،منة ومعترف بها ٠ ونحن نعتقد ان حلا يرتكز على هذا الموقف ـ وليس دولة فلسطينية مستقلة ـ سيخلق الاستقرار والامن الضروريين لسلام قائم ٠ الا ان الوقت سيطول حتى يتحقق اتفاق كهذا ٠٠٠ لذا نعتقد ان المطلوب هو فترة انتقالية » ( داليا شموري ، عل همشمار ـ ، ٧ـ٧ـ٧٨) ٠ وتطرق مونديل ايضا الى حقوق الفلسطينيين بقوله ان « لهم ـ كجميع البشر ـ حقا في المشاركة في تقرير مستقبلهم » ٠ كذلك كرر التزام بلده تجاه اسرائيل بقوله ان « اميركا ملتزمة بأسرائيل قوية » ( المصدر نفسه ) ٠

ان حديث مونديل هذا ، لم يلق استحسانا على الصعيد الرسمي في اسرائيل ، خاصة وانه جاء بمثابة تاكيد واصرار على المواقف الاميركية ، التي لا تعتبر المشروع الاسرائيلي ، خاصة فيما يتعلق بالحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة ، الا كنقطة انطلاق للمفاوضات ، ويصلح لمرحلة انتقالية فقط ، وليس كحل نهائي ، مما يثير استياء اسرائيل ، وتبدأ بأتهام الادارة الاميركية بالانحياز نحو العرب ٠ « ان زيارة مونديل الى اسرائيل قد وفرت فرصة حسنة لفحص مركز اسرائيل الحالي في نظر البيت الابيض ٠ فقد اضفى نائب الرئيس على زيارته عبارات دافئة بهدف التزلف لاسرائيل ٠ وقد وضع برنامج زيارته بشكل يظهر الصداقة [ الا انه ] في المباحثات المغلقة وفي الكلمات العلنية ، برز الجمود القاسي ، الذي يصدع « العلاقات الخاصة » بين القدس وواشنطن ٠

« لقد اتضح للمسؤولين الاسرائيليين في المحادثات المغلقة ، ان نائب الرئيس غير مفوض بالوصول الى اي نقطة اتفاق ايجابية ـ ليس فيما يتعلق بالمعونة الاقتصادية ، او بالمساعدات الامنية ٠ من جهة ثانية ، اطلع مونديل خلال هذه المحادثات على مدى شكوك اسرائيل تجاه بلده، وعلى الغضب تجاه مواقف الولايات المتحدة ٠ كذلك ايقن الاسرائيليون ، ان غطاء « زيارة حسن النية » لا يمكن ان يخفي وجهات النظر المتناقضة بين القدس وواشنطن ٠٠٠ ان الزيارة لم تعمق الصداقة بين اسرائيل والولايات المتحدة، وثمة شك اذا كانت قد حققت هدفها في اقناع الجمهور والحكومة بهدف النوايا الاميركية ٠٠٠ لقد اثبتت الزيارة لبيغن ولاعضاء اللجنةالوزارية لشؤون الامن ، انه لا يمكن اقناع البيت الابيض بالانحراف عن موقفه ، الذي يرتكز على اعتبار المناطق [ المحتلة ] كوديعة فقط حتى اللحظة التي تعرب فيها الدول العربية عن استعدادها لاقامة سلام مع اسرائيل ٠ لقد حانت هذه اللحظة ، وواشنطن تطالب بتسديد الحوالة » (عوزي نبزيمان ، هآرتس ـ ٥ـ٧ـ٧٨) ٠

ان الحكومة الاسرائيلية ، ربما كانت تتوقع محادثات مختلفة مع مونديل ، خاصة وانها اشاعت قبل قدومه ، ان هناك اسبابا شخصية واخرى حزبية ، تكمن وراء زيارته ٠ « فالاسباب الشخصية واضحة ، وتكمن في مواقف الصداقة التي كان يظهرها لاسرائيل في الماضي ٠ فقد اعتبر مونديل وريثا روحيا للصديق الرئيسي لاسرائيل في الكونغرس الاميركي ، وبين يهود الولايات المتحدة ، هامفري ٠ ولكن هذا كان في البداية فقط، بعد ذلك حدث تغيير في المواقف [ بسبب دوره في تقرير صفقة الطائرات في الكونغرس لكل من مصر والسعودية واسرائيل ] ٠٠ ان مونديل بحاجة الى العلاقات مع اليهود لاستمرار سيرته السياسية ، التي تطمح بشكل منطقي

جدا ، لكرسي الرئاسة بعد ابتعاد كارتر · كذلك فأن هذا الامر مهم بالنسبة للحــزب الديمقراطـــي ، اذا كان يرغب فـــي الاستمرار في الاحتفاظ بتأييد الاكثريـــة اليهودية ، ومنع انتقال التأييد الى الحزب الجمهوري » ( اريئيل غيناي ، يديعـوت احرونوت ـ ١٦ـ٦ـ٧٨) · الا ان هـذه الاسباب ليست الوحيدة التي كانت وراء زيارة مونديل · فقد علق احد المراسلين السياسيين لاسرائيل في الولايات المتحدة على أسباب الزيارة بقوله ، ان الاسباب هي من منطلق اميركي اكثر من كونها من منطلق اسرائيلي · « فليس الهدف فقط مصالحة اليهود ، او التظاهر بأن الحكم لم يعرض اسرائيل للبيع ، وانما التقدير بان التعاون مع اسرائيل هو ضـــروري لنجاح سياسة كارتر الشرق اوسطيـة · فأسرائيل تملك التنازلات التي بدونها لا ينجح التقارب مع الدول العربيـــة » · ( يوئيل ماركوس ، هآرتس ـ ١٦ـ٦ـ٧٨) ·

يبقى السؤال ماذا حققت زيـــارة مونديل ؟ « من ناحية تجديد الاتصـالات الاسرائيلية ـ المصرية ، يمكن ان يسجل مونديل لنفسه نجاحا جزئيا · وينطبــق الامر نفسه على تجديد الحوار بين الادارة الاميركية وبين يهود الولايات المتـحدة ، الذي كان كما يبدو هدفا اخر في زيـارة نائب الرئيس · ان تصريحاته الواضحـة حول الالتزام الاميركي بأمن اسرائيـل ، ووعوده باستمرار المساعدات الكبيرة ، والتأكيد على ان المساعدات العسكريـــة لن تستخدم كوسيلة ضغط على اسرائيل ـ كانت موجهة للاسرائيليين وليهود الولايات المتحدة» · (افتتاحية دافار ـ ٤ـ٧ـ٧٨) ·

اي ان اهم ما حققته الزيارة ، المساهمة الفعالة في تجديد المفاوضات بين مصــر واسرائيل ، بواسطة المبادرة في عقـــد مؤتمر لندن ، وحث اسرائيل على المشاركة به · ثم كسب ود يهود الولايات المتحدة ، بعد فشلهم في منع تمرير صفقة الطائرات في الكونغرس ، خاصة وان وفداً كبيـرا من زعمائهم قد رافق مونديل في زيارتهالى اسرائيل ·

**مشروع السلام المصري :**

ومن القدس ، انتقـــل نائب الرئيس الاميركي الى الاسكندرية حيث قابـــل الرئيس المصري ، وتسلم منه مشـــروع السلام المصري ، وهو عبارة عن جملـــة مقترحات تتعلق بوجه خاص بمستقبـــل الضفة الغربية وقطاع غزة ، وحل المشكلة الفلسطينية · وقد قامت واشنطن بعد ذلك بنقل هذه المقترحات الى الحكومـــــة الاسرائيلية ، حالا بعد تسلمها ·

يتطرق البند الاول في المشروع المصري الى « حل المشكلة الفلسطينية من جميـع جوانبها ، على اساس الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، اما البند الثانـــي فيتطرق الى اعتبار الفترة التي وردت في المشروع الاسرائيلي ( ٥ سنوات ) كفترة انتقالية · والبند الثالث حول الحاجـــة للوصول الى اتفاق بشأن « طرق تنفيـــذ قرارات الامم المتحدة المتعلقة بالقضيـــة الفلسطينية » · اما البند الرابع فـــي « وثيقة السادات » فيتحدث عن الانسحاب من الضفة الغربية ( بما في ذلك القدس) ومن قطاع غزة ، بما في ذلك الانسحـاب من المستوطنات التي اقيمت في المناطـق المحتلة · ويتطرق البند الخامس الـــى وجوب الغاء الحكم العسكري الاسرائيلي، وادخال الحكم الاردني الى الضفة الغربية والمصري الى قطاع غزة «حيث تقوم مصر والاردن بتحمل المسؤولية الملقاة عليهما ، من خلال التعاون مع ممثلي الشعـــب الفلسطيني ، الذين سينتخبون بصورة حرة ويستخدموا صلاحيتهم المباشرة فيمـــا يتعلق بادارة الضفة الغربية وقطـــاع غزة » ( يوسف حاريف ، معاريـــف ـ ٧ـ٧ـ٧٨) ·

اعتبرت اسرائيل أن المشروع المصري هو « الوثيقة الاكثر تطرفا التي قدمت اليها من جانب مصر · انها لا تعتبر ابدا مشروع سلام ، وانما تشمل مطالبة بالانسحاب الشامل والمطلق ، بدون اية اشارة الى تعديلات اقليمية » ( معاريف ـ ٦ـ٧ـ٧٨) ·

وبعد تحليل المشروع « على اعلى المستويات السياسية » في اسرائيل ،صدر رد الفعل الاتي ! « اولا ، أن هذا لا يعتبر مشروع سلام ، وانما اقتراحات حول الانسحاب من الضفة الغربية وغزة ، وحول ترتيبات الامن · ثانيا . بالنسبة لقضية تقرير المصير للفلسطينيين ، فأن الامر اخطر مما ورد في «صيغة اسوان» ، وبموجبها على الفلسطينيين ان يكونوا جزءا من اولئك الذين سيشتركون في تقرير مستقبلهم · وحسب الوثيقة المصرية فأن [ الفلسطينيين ] هم الذين سيقررون مستقبل الضفة الغربية · ثالثا ، ان البند حول اللاجئين الفلسطينيين ، كما ورد في الوثيقة ، هو عامل جديد ، لم يطرح في المحادثات مع مصر حتى الآن على هذا الشكل ــ اي انه ينبغي معالجة الموضوع حسب قرارات الامم المتحدة · رابعا ، ان ادخال الامم المتحدة في مجرى المفاوضات حول الانسحاب والاشراف عليه، معناه ادخال جهة معادية لاسرائيل بشكل واضح » (المصدر نفسه)·

وقد رفضت الحكومة الاسرائيلية ،في جلستها بتاريخ ٩ـ٧ـ٧٨ ، المقترحات المصرية ، « معربة عن تقديرها بان هذه الوثيقة المتصلبة تثير الشك حول صدق نوايا السادات السلمية ·· ورغم انه يمكن اعتبار مقترحات السادات على انها [ تعبر ] عن موقف مساومة فقط ، ولكن حقيقة كونه يكرر المواقف التي عرضها في الماضي ، ويقدم وثيقة لا مثيل لها منذ مؤتمر الخرطوم في سنة ١٩٦٧ ، يمكن ان يثير الشك حول حقيقة نواياه » ( المصدر نفسه ) · وقد صدر عن مجلس الوزراء الاسرائيلي بيان في هذا الشأن، ورد فيه أن المقترحات المصرية التي نقلت الى اسرائيل في الثالث من تموز ١٩٧٨ ، والمسماة « مقترحات تتعلق بالانسحاب من الضفة الغربية وغزة وترتيبات امنية، غير مقبولة لدى اسرائيل ، ولا يمكن بطبيعتها ، ان تؤدي الى احلال السلام في الشرق الاوسط والى توقيع معاهدة السلام مع اسرائيل » ( المصدر نفسه ) · الا ان الحكومة الاسرائيلية . على الرغم من ذلك ــ وكما يبدو نتيجة لـ « ضغوط » اميركية ــ اعتبرت ان المقترحات المصرية لا تتضمن اية شروط مسبقة ، وبناء عليه قررت قبول دعوة وزير الخارجية الاميركي لحضور مؤتمر لندن ·

### بالتنسيق مع الولايات المتحدة :

تشيع وسائط الاعلام الاسرائيلية ان المشروع المصري وضع بالتنسيق مع الولايات المتحدة ، « وانه في اطار الاتصالات التي كانت جارية بين مصر والادارة الاميركية ، ساهم الاميركيون في صياغة المشروع المصري » ( رأي ــ ٤ـ٧ـ٧٨) · وقد حلل احد الكتاب السياسيين المعروفين في اسرائيل ،يوسف حاريف ، بنود المشروع المصري بقوله ، ان كل بند فيه جاء متلائما مع مبادىء السياسة الاميركية ، خاصة فيما يتعلق بمسألة الانسحاب الاسرائيلي من الضفة الغربية ، وحل المشكلة الفلسطينية في اطار اردني · وهناك نقطتا خلاف فقط بين القاهرة وواشنطن : « فالمصريون اقترحوا اشتراك الامم المتحدة في الاشراف على تنفيذ عملية الانسحاب الاسرائيلي والمحادثات حول تنفيذ الاتفاق [ الاميركيون لم يقترحوا ذلك ] ·وبينما

تتحدث وثيقة السادات حول انسحاب شامل بما في ذلك القدس ، فان المسؤولين الاميركيين يعربون ، في محادثاتهم مع اسرائيل ، حول الاستعداد للقبول بموقف اسرائيل فيما يتعلق بقضية القدس الشرقية · اما في باقي الامور فان التشابه بين واشنطن والقاهرة ، شبه كامل » ( معاريف ـ ٧ـ٧ـ٧٨) · ومما يزيد هذا التماثل في الاراء ، ان مصر ارفقت مشروعها للسلام ببعض البنود الشفوية ، التي تعتبر بمثابة نسخة طبق الاصل للافكار الاميركية · وقد نشرت صحيفة دافار الاسرائيلية ، لسان حال الهستدروت وحزب العمل ( ٩ ـ ٧ ـ ٧٨ ) فحوى هذه البنود على النحو التالي : « اولا ، الاستعداد لاجراء تعديلات في الحدود ( وقد اعلن ذلك السادات في مؤتمره الصحفي في فينا ) · ثانيا ، الاستعداد لنزع السلاح في الضفة الغربية · ثالثا ، القبول بوجود عسكري اسرائيلي محدود في الضفة لفترة زمنية معينة · رابعا ، لا يؤيد المصريون اقامة دولة فلسطينية · خامسا ، لا يؤيد المصريون اشتراك م·ت·ف· في الحل · سادسا ، ان مصر على استعداد لعدم المطالبة بازالة جميع المستوطنات الاسرائيلية ، بصورة انذارية » ·

ورغم هذه التنازلات الجديدة فقد اعلن بيغن « اننا نرفض الاقتراحات المصرية ، لانه لا يمكن لاسرائيل القبول بها · وكذلك فأن تلك الاقتراحات ، وفقا لطبيعتها ، لا يمكن ان تؤدي الى احلال السلام » ( رأا ـ ٩ـ٧ـ٧٨) ·

وقد اعتبرت وسائط الاعلام الاسرائيلية ان هناك دوافع سياسية واعلامية «لتكتيك» السادات هذا · فقد قدرت ( معاريف ـ ٦ـ٧ـ٧٨) في افتتاحيتها ان « السادات يريد من وراء عرض الامور على هذا النحو ، جذب الملك حسين الى اللعبة ، والظهور تجاه الخارج ، بمظهر المدافع عن المصالح العربية الشاملة ··· [ بواسطة ] طرح الموضوع الفلسطيني في مركز المباحثات ، « والبرهنة » كم انه غير اناني ، ولا يهتم بمصالحه الشخصية ، خاصة وان سيناء اصبحت في جيبه تقريبابفضل المشروع الاسرائيلي· على اي حال ، فأن السادات يهدف بواسطة [ مشروعه ] تثبيت حقيقة سياسية قائمة ، وبموجبها تعتبر اعادة سيناء وكأنها امر مفهوم بصورة تلقائية ، لا يستوجب اي ذكر خاص » ·

ان المبالغة في هذا التقييم تبدو واضحة ، على ضوء التنازلات المستمرة التي يعلنها السادات ، في كل يوم ، خاصة فيما يتعلق بمستقبل الضفة الغربية وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، حيث وافق خلال الايام الاخيرة فقط ، على مبدأ الحدود المعدلة ، وعلى استبعاد م·ت·ف من أية مفاوضات سياسية ·

**اللقاءات مع بيريس وفايتسمان ، ومشروع الاممية الاشتراكية :**

يعتبر اللقاء الذي تم بين زعيم المعارضة في اسرائيل شمعون بيريس ، والرئيس السادات في فينا ، في نطاق اجتماع بعض زعماء الاممية الاشتراكية ، في ٩ـ٧ـ٧٨ ، حدثا هاما على صعيد تجديد الاتصالات المباشرة بين النظام المصري واسرائيل · ويمكن تسجيل بعض الملاحظات الاساسية حول هذا اللقاء : اولا ، أن بيريس لم يمثل وجهة نظر الحكومة الاسرائيلية خلال اجتماعه مع السادات · وقد اعلن في مطار اللد ،قبل سفره الى فينا انه مسافر كممثل عن حزب العمل، وليس كممثل رسمي ·« وفي لقائي مع السادات ، سأوضح له ان مشروع السلام المصري ، غير متكامل ، لانه لا يتطرح الى قضية السلام والعلاقات

الطبيعية ... لا احمل الى السادات اية رسالة ، وقصدي فقط هو تبادل الاراء معه » ( دافار ـ ٩ـ٧ـ٧٨ ) . ثانيا ، ان وزير الخارجية دايان ، اعرب عن عدم رضاه عن اجتماع بيريس ـ السادات ، رغم موافقة بيغن . ثالثا ، ان هذا اللقاء ليس الاول بين الرجلين ، وانما سبقته لقاءات اخرى ، سواء اثناء زيارة السادات الى القدس ، او في فينا . رابعا ، اسفر هذا اللقاء ، الذي تم بواساطة مستشار النمسا كرايسكي ، عن نتيجة هامة بالنسبة لاسرائيل ، اذ بناء عليه بادر زعيما الاممية الاشتراكية كرايسكي وبراندت الى وضع مشروع سلام خاص، حمل توقيعهما ، واعتبر فيما بعد انجازا هاما بالنسبة لاسرائيل في اوساط الاممية الاشتراكية .

تتضمن وثيقة كرايسكي ـ براندت خطوطاموجهة للتسوية في الشرق الاوسط وسيجري تقديمها الى مؤتمر الاممية الاشتراكية الذي سينعقد في باريس بعد ثلاثة اشهر . واولما تدعو اليه هو « الاستمرار في عملية المفاوضات وفي مبادرة السادات حتى يتم التوقيع على اتفاقات سلام . كذلك تنادي بتثبيتحدود آمنة وفقا لقراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ ، على اساس انسحاب اسرائيل من كل قطاع من الحدود . ويقول بند آخر في الوثيقة ان مشكلة الفلسطينيين بكل جوانبها يجب ان تحظى بحل ، وان الفلسطينيين يجب ان يعطوا امكان المشاركة في بلورة مستقبلهم بواسطة ممثل منتخب منهم » ( رأي ـ ١٠ـ٧ـ٧٨ ). وتكمن اهمية هذه الوثيقة « في كونها اعلنت في نهاية محادثات فينا واللقاءات التي تمت بين السادات وبيريس وكرايسكي وبراندت ، التي استمرت ثلاثة ايام باشكال متعددة . ويمكن اعتبارها بمثابة خلاصة مشتركة للمباحثات ... ولا شك في انها انجاز عظيم الاممية لاسرائيل بعد سلسلة النكسات والهزائم التي منيت بها في اوساط الاحزاب الاشتراكية » ( المصدر نفسه ) .

لاقت هذه الوثيقة ترحيبا لدى اوساط المعارضة في اسرائيل ، خاصة وانها اعتبرت قريبة جدا من مواقف حزب العمل الاسرائيلي .« وقد علم ان المسؤولين في حزب العمل لا يعتبرون صيغة كرايسكي ـ براندت مجرد تحسن ملحوظ في موقف الاممية الاشتراكية ، بل ان بيريس وابا ايبن هما اللذان اقترحا الصيغة التي جرى تبنيها في نهاية الامر من جانب كرايسكي وبراندت . وقد تحدث في هذا الشأن ابا ايبن بقوله : ان ما حدث هو ان سفر بيريس الى فينا سبقه عمل تحضيري منهجي ومفيد ... وقد طلب مني بيريس وضع ورقة عمل تشكل قاعدة مشتركة ممكنة للاممية الاشتراكية، بهدف واضح هو تحسين موقفها السياسي وهكذا وضعت صيغة لبعض المبادىء ، مستندا على صيغة اسوان المقبولة من حركة العمل . وسافر بيريس مع تلك الورقة ، ثم اتضح مما قرأته فيما بعد ان براندت وكرايسكي قد تأثرا كثيرا بالجهد الذي بذلناه . وعلي ان اضيف ، اننا في الاممية الاشتراكية لسنا كمن في موضع اتهام ، بل نحن اعضاء فيها بشكل لا يقل عن كرايسكي وبراندت » ( رأي ـ ١١ـ٧ـ٧٨ ) . الا ان المصادر الحكومية الرسمية في اسرائيل ، اعلنت عن استيائها من الوثيقة « لانها تتضمن ـ حسب قول احد هذه المصادر ـ طريقا لاشراك م.ت.ف في المفاوضات ، حيث قيل ان الفلسطينيين سيمثلون من جانب ممثلين منتخبين من قبلهم . وهكذا من المحتمل ان ينتخب هؤلاء ممثلين لمنظمة التحرير الفلسطينية » ( المصدر نفسه ) .

اعقب اجتماع بيريس ـ السادات ،

ووثيقة الاممية الاشتراكية ، اجتماع اخر لا يقل اهمية على صعيد الاتصالات المباشرة بين مصر واسرائيل ، وهو الذي تم بين وزير الدفاع الاسرائيلي عيزر فايتسمان من جهة وبين السادات ووزير الحربية المصري عبد الغني الجمسي من ناحية اخرى · وقد كان هذا الاجتماع بمثابة مفاجأة في الاوساط السياسية ، اذ اعتبر تراجعا آخر من جانب مصر ، التي اعلنت ، على لسان الجمسي نفسه، في رسالة بعث بها الى فايتسمان ، ان لا فائدة من لقاءات كهذه ، ما دامت اسرائيل لم تغير موقفها ، ولم تقدم مقترحات جديدة · لم يعرف شيء محدد عما دار في هذا الاجتماع الذي استغرق اكثر من ثلاث ساعات، سوى ما اعلنته المصادر الاسرائيلية من « ان اللقاء ساده جو من التفاؤل » ·وان فايتسمان اعلن بعد انتهائه « انها زيارة ناجحة لسالزبورج » ( ر٦٦ ـ ١٤ـ٧ـ٧٨) · اما من الجانب المصري « فقد اعلن الناطق بلسان الرئاسة ، ان اجتماعات اخرى ستعقد في المستقبل ، اي انه يوجد ما يشير الى استمرار المفاوضات · والمح الى وجود افكار جديدة لدى الطرفين » ( المصدر نفسه ) · وقد علق وزير الخارجية الاسرائيلي دايان على لقاء سالزبورغ بقوله : « اني انظر اليه نظرة ايجابية جدا ··· فمنذ البداية جرت المفاوضات بيننا وبين مصر في قناتين ـ لجنتين متوازيتين ، جرى في بعض الاحيان ، تداخل فيما بينهما · وكانت احدى اللجنتين برئاسة وزير الدفاع والاخرى برئاسة وزير الخارجية ، ومهمتها البحث في الشؤون السياسية . ولكن التوزيع آنذاك جاء بشكل وضع المواضيع الفلسطينية في مجال اللجنة السياسية · ولكن عمليا، عندما اراد المصريون البحث مع وزير الدفاع بشأن مفهومهم للموضوع الفلسطيني ، لم ير اي منا عيبا في ذلك ـ ان سياسة الحكومة موحدة · وبالنسبة لي ، وبالنسبة لوزير الدفاع ، فعندما نتوجه لاجراء مفاوضات ··· فاننا نتصرف ونعمل وفقا لتوجيهات الحكومة التي هي موحدة في جميع المجالات » ( ر٦٦ ـ ١٣ـ٧ـ٧٨ ) ·

وعلق دايان على ما اعلنه السادات من انه يرتاح شخصيا الى الحديث مع فايتسمان ، ويفضل التفاوض معه ،بقوله: « لا يستطيع المصريون ان يقرروا من يمثل اسرائيل ، بأستطاعتهم ان يرغبوا في احداث انقلاب في اسرائيل ، وفي تغيير الحكومة ، وتأليف حكومة حسب تقديرهم ، تقبل بالمفاهيم المصرية ،وتكون مستعدة لاتخاذ خطوات لا ترضى الحكومة الحالية بها · وبأستطاعتهم ان يحاولوا التأثير على سير الامور ، وارى انهم يبذلون كل جهد في هذا الاتجاه » ( المصدر نفسه ) ·

وكانت الحكومة الاسرائيلية قد اطلعت في جلستها ليوم ١٦ـ٧ـ٧٨ ، على المقترحات الجديدة التي قدمها السادات الى فايتسمان خلال اجتماع سالزبورغ · واعلن بيغن بعد الاجتماع ان « اسرائيل ستشدد على المقترحات المصرية في الجلسة المقبلة [ بأنتظار انتهاء مؤتمر لندن ] · واضاف بيغن ان حكومته لم تبحث بالتفصيل في المقترحات المصرية الجديدة « بسبب ازدحام جدول اعمالها » ( كما نقلتها السفير ، ١٧ـ٧ـ٧٨) · وقداتخذت الحكومة الاسرائيلية خلال هذه الجلسة اجراء يمنع بموجبه فايتسمان من الاتصال بالسادات في المستقبل وذلك ردا على تفضيل السادات العلني التعامل مع فايتسمان واعلن الناطقباسم الحكومة اريه ناؤور ، ان الحكومة قررت متابعة المفاوضات مع مصر وفق الشروط الاتية: ان السلطة الوحيدة لاجراء المفاوضات منوطة بالحكومة وبممثليها المكلفين ، ان مستوى التمثيل في المفاوضات سيكون

متبادلا · وسيرئس رؤســاء الدولة او الوزراء المكلفون وفودهم ، ان اسرائيل لا تزال عند اقتراحها ، بتجديد اعمال اللجنتين السياسية والعسكرية برئاسة وزيري الخارجية والدفاع في البلدين ( المصدر نفسه ) ·

ح·ف·

## ـ ٢ ـ
## الاستعدادات والتغيرات في الجيش الاسرائيلي

فيما الجهود مستمرة للتوصل الى تسوية سلمية في المنطقة ، عن طريق المفاوضات في القدس والقاهرة ، وتارة في واشنطن ولندن وفيينا ، استمرت اسرائيل ـ وربما بمعدل اكبر واسرع ـ في اعداد قواتها العسكرية من كل الجوانب وفي جميع الاتجاهات ، ففي هذا المجال اجرت عدة تغيرات وترتيبات من شأنها التأثير على الخريطة العسكرية داخل الجيش ·

### التغيرات في الاركان العامة :

يعتبر مردخاي غور رئيس الاركان العاشر للجيش الاسرائيلي ، وخلال فترة عمله في رئاسة الاركان العامة ، لم يشترك في اية حروب باستثناء حرب الاستنزاف القصيرة مع السوريين ، بما في ذلك معركة قمة جبل الشيخ وحرب الجنوب اللبناني ·

« اما الخصوصية التي تميز بها غور فهي انه كرئيس للاركان العامة ، خدم تحت امرة ثلاثة من وزراء الدفاع ، الاول موشه دايان ، الثاني شمعون بيريز ، والثالث عيزر فايتسمان ، الامر الذي جعله يكيف نفسه لمفاهيم واراء وطبيعة الوزراء الثلاثة ، هذا اضافة الى لعبة مراكز القوى الداخلية ، التي كانت تتجسد بالضغط عليه ، ومن ابرز مواقفه في هذا الصدد انه رفض السماح للعميد ارئيل شارون بالعودة للخدمة النظامية ، رغم الحاح رئيس الحكومة يتسحاق رابين في حينه »· ( هآرتس ـ ١٢/٢/١٩٧٨ ) ·

وفي الفترة الاخيرة حاول وزير الدفاع عيزر فايتسمان ومساعده العقيد تسبوري ـ الذي كان قد ترك الجيش قبل فترة قصيرة من الانتخابات العامة للكنيست والتي ادت الى تسلم ليكود السلطة ـ ابعاد رئيس الاركان مردخاي غور عن اية مواضيع سياسية وتقليص صلاحياته ·

« لم تكن حياة مردخاي غور عسكرية فحسب فهو اولا كاتب قصص اطفال ، وله مبادئه السياسية ، والتي تجلت في بعض مواقفه وقراراته · ومنها انه ارسل مذكرة الى وزير الخارجية ابا ايبان يطالبه فيها بأن تنسحب اسرائيل الى ما خلف الممرات في سيناء ، هذا اذا ارادت اسرائيل الوصول الى اتفاق سلام مع مصر · وفي عام ١٩٧٠ ايد بشدة وقف اطلاق النار مع مصر اثناء حرب الاستنزاف · اما بعد حرب ١٩٧٣ ، فقد كان رأي غور ان اسرائيل تسرعت في الانسحاب من الضفة الغربية لقناة السويس ومن الجيب في الجولان ، معتقدا انه كان بامكان اسرائيل التصلب والحصول على اتفاقات بشروط افضل » ( المصدر نفسه ) ·

من اهم انجازات غور على الصعيد

العسكري انه استطاع انهاء حرب الجنرالات التي اعقبت حرب ١٩٧٣، اضافة الى انه اعاد الثقة للجيش ، وايقظ روح العمل والاندفاع فيه بعد الحرب ٠

**رفائيل ايتان رئيس الاركان الجديد :**

هناك خمسة شروط يجب ان تتوفر في المرشح لرئاسة الاركان العامة للجيش ، ويبدو ان هذه الشروط توفرت هذه المرة في رفائيل ايتان ٠ ملخص هذه الشروط : ان يكون لديه فهم استراتيجي وسياسي ، قدرة فنية وميدانية ، والمام بكل جوانب المعركة ، تشغيل القوات ، قدرة على خلق اتصال مع المراتب السياسية ، ووضع افكار الاركان امام هذه المراتب ٠

اما ترشيح رفائيل ايتان فلم يأت من السلطة الحالية وحدها ، اي ليس فكرة عيزر فايتسمان وزير الدفاع الحالي ، بل هي بالاساس فكرة شمعون بيرس وزير الدفاع السابق في عهد حكومة يتسحاق رابين ، ثم ان ترشيحه جاء نتيجة تزكية من رئيس الاركان مردخاي غور بعد ان تنتهي فترة خدمته هو في رئاسة الاركان ( هآرتس ـ ١٩٧٨/٢/١٤ ) ٠

لقد لقي رفائيل ايتان تأييدا كبيرا في اوساط الحكومة الحالية ، واوساط المعارضة ، كذلك في اوساط قادة الجيش سواء الذين ما زالوا في الخدمة الفعلية او في الاحتياط ، وفي اوساط كبار القادة الذين تركوا الجيش ، ولم يسجل اي اعتراض على تعيين رفائيل ايتان من اية جهة كانت ٠

حول هذا الموضوع قال وزير الدفاع عيزر فايتسمان « ان كل المرشحين لرئاسة الاركان ذوي كفاءة عالية ، لكن رفائيل ايتان شيئا ما اكثر ، شيئا مختلفا عن باقي المرشحين لهذا المنصب » ٠

اما العميد يسرائيل تال الذي كان قائدا لرفائيل ايتان ، فقد ايد تعيينه في هذا المنصب وقال عنه : « ان ايتان قائد يمكن ان يكون القدوة للوحدات العسكرية في طريقها الى ميدان المعركة » ( هآرتس ـ ٧٨/٢/١٨ ) ٠

لكن العنصر الاساسي والفعال في ترشيح ايتان لمنصب رئاسة الاركان هو طريقة معالجته لمشكلة جنوب لبنان ٠

**تاريخ رئيس الاركان الجديد :**

يعتبر رفائيل ايتان قائدا عسكريا متمرسا اكتسب خبرة وتجربة اكثر من اي قائد في الجيش الاسرائيلي ، خاصة في المهام الميدانية ٠

« فمنذ البداية شارك ايتان في عمليات الانتقام في الخمسينات ، بعد ان كان اثناء حرب ١٩٤٨ نائب قائد سرية في لواء هرئيل ، هبط في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ مع كتيبة مظلات في ممر متلا ٠ في حرب ١٩٦٧ قاد لواء المظلات النظامي الذي احتل منطقة رفح ، ووصل حتى ضفة قناة السويس حيث جرح هناك »٠

في حرب الاستنزاف مع مصر ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ ، كان قائدا لمنطقة غور الاردن ، وقد تولى مسؤوليات العديد من عمليات مطاردة الفدائيين الفلسطينيين ٠ وكان الضابط الرئيسي لسلاح المشاة والمظلات ، ذلك في الوقت الذي نفذ فيه الجيش عددا من الغارات خلف خطوط الجيوش العربية ، وقد قاد بنفسه الغارة الشهيرة على مطار بيروت الدولي وحطم ١٣ طائرة مدنية تابعة للخطوط الجوية في الدول العربية في اواخر عام ١٩٦٨ ٠

في حرب ١٩٧٣ ، كان قائد فرقة في مرتفعات الجولان، واثناء حرب الاستنزاف مع سوريا عين قائدا للجبهة الشمالية ، « ليس هناك قائد في الجيش الاسرائيلي

يستطيع منافسة رفائيل ايتان من حيث التجربة القتالية والميدانية ، ففي هذه المواضيع يعتبر ايتان خبيرا متمرسا » ( يديعوت احرونوت ـ ١٩٧٨/١/٣ ) ٠

**تغيرات اخرى في الجيش :**

الى جانب خروج مردخاي غور من الخدمة في الجيش وتسلم رفائيل ايتان رئاسة الاركان العامة ، حدثت تغيرات اخرى ، تعتبر ذات اهمية كبيرة في المجال العسكري ٠ « ففي اعقاب الاجتماع الذي عقده وزير الدفاع عيزر فايتسمان مع رئيس الاركان السابق مردخاي غور ومع رئيس الاركان الجديد ايتان ، صدرت عدة قرارات خاصة بتعيين كبار الضباط :

١ ـ تعيين العميد يوكتيئل ادام نائبا لرئيس الاركان ورئيسا لشعبة العمليات في رئاسة الاركان العامة ٠ لقد كان هذا التعيين مفاجأة كبيرة ، فحتى شهر اب من العام الماضي كان العميد ادام يشغل منصب رئيس شعبة العمليات ؛ ثم ترك هذا المنصب وذهب في دورة دراسية للولايات المتحدة ، وقد اقترح هذا المنصب الجديد كنائب لرئيس الاركان ورئيس شعبة العمليات عليه ، وهو في الولايات المتحدة ٠٠٠ كان اخر من شغل هذا المنصب العميد يسرائيل تال ، عندما كان دافيد اليعازر في رئاسة الاركان اي قبل حرب ١٩٧٣ ٠ ومن هذا التعيين يدل على ان هناك نية لاعطاء العميد ادام صلاحيات اوسع ووزنا اكبر من الصلاحيات المعطاة عادة لرئيس شعبة الاركان ٠ ومن المفترض ان تتركز معظم المهام العملية في يد نائب رئيس الاركان من اجل ان يتفرغ رئيس الاركان للمهام الرئيسية » ( هآرتس ـ ١٩٧٨/٢/٢٣ ) ٠

على ضوء التاريخ العسكري لادام ورفائيل ايتان ، يتضح ان هناك قواسم مشتركة كثيرة بينهما ، فالاثنان من القادة الميدانيين ، وهما من سلاح المشاة ثم تحولا الى سلاح المدرعات ، كما ان الاثنين شاركا في عمليات حربية كثيرة ، وان وجود العميد ادام واللواء رفائيل ايتان على رأس الهرم العسكري من شأنه ان يدعم المراتب العسكرية ، ويعطي دفعا جديدا للوحدات الميدانية في الجيش الاسرائيلي ، خاصة وان ادام يعتبر رجل المهام العملية في الجيش ٠

٢ ـ تعيين العميد المحلي دان شمرون قائدا للقيادة الجنوبية وترفيعه الى رتبة عميد ٠ لقد اذهل هذا التعيين الاسرائيليين، الا ان عددا كبيرا من الضباط في الجيش كانوا يتوقعون هذا التعيين منذ عدة شهور ٠ لقد قفز شمرون قفزة كبيرة ، فمن قيادة تشكيل الى قيادة المنطقة الجنوبية ، التي تعتبر اكبر قيادة بين القيادات الثلاث الشمالية والوسطى والجنوبية ( المصدر نفسه ) ٠

اشتهر دان شمرون عالميا بعد توليه قيادة عملية « يونتان » اي عملية عينتيبي في ١٩٧٦/٧/١٤ في اوغندا ٠ اما تجربته العسكرية فقد اكتسبها من خلال عمله لمدى سنوات عديدة في لواء المظلات ، ثم في سلاح المدرعات ٠

**الضبط والربط :**

عندما سلم مردخاي غور رئاسة الاركان العامة لرفائيل ايتان ، فانه لم يسلمه اياها بصورة مهلهلة وبمعنويات منخفضة كما تسلمها هو بعد حرب تشرين الاول عام ١٩٧٣ ٠ ففي تلك الفترة كان الجيش يعاني من تفكك وانخفاض في الروح المعنوية ، واللياقة العسكرية ، اضافة الى حرب الجنرالات التي تمثلت في اتهام العديد منهم بالتقصير والتخاذل ، والى انعدام الانضباط ٠ الا ان غور ، وخلال فترة عمله ، اعاد تنظيم الجيش وتوسع به في

النواحي الكمية والنوعية وعالج العديد من مشاكل الانضباط . وفي مقابلة صحفية قال غور : « ان الجيش الاسرائيلي لعام ١٩٧٨ ، اصبح اكثر تنظيما واكثر انضباطا ، وهذا لا يعني ان صفوف الجيش نقية تماما ، بل ان واجب الجيش الاستمرار في معالجة هذه القضية . وما من شك في ان قضية الضبط والربط في الجيش يجب ان تلقى معالجة عميقة على جميع المستويات . ففي الفترة الاخيرة عانى الجيش من عدة احداث شاذة ومفزعة في مجال الانضباط خاصة بالنسبة للمركبات ، والاشراف على السير في الطرقات ، والحفاظ على اللياقة في قيادة الاليات ، ومحاكمة الجنود الذين ارتكبوا سرقات وخاصة في قرى الجنوب اللبناني، يتضح ان هذه المشكلة مثل اية مشكلة انسانية ليس لها حلول قاطعة ، وان مشكلة الضبط والربط تتطور وفقا لتطور المجتمع ... اما بالنسبة للضباط فان المشكلة ليست مشكلة ضبط وربط تجاه الاوامر الصادرة ، بل هي مشكلة الاستعداد او عدم الاستعداد لتحمل المسؤولية ، وان كل ضابط يتعامل مع هذا الموضوع وفقا لتقريراته الشخصية ، وهذا امر يتعارض في معظم الاحيان مع قضية الانضباط ( هاتسوفيه ــ ١٩٧٨/٤/٢١ ) .

ثم تحدث مردخاي غور عن المشاكل التي كانت تواجه الجيش بعد حرب السادس من تشرين الاول عام ١٩٧٣ ، وعما تم انجازه في فترة خدمته وقال : « لقد فقدنا في الحرب عددا كبيرا من القادة والضباط ، وبشكل خاص من فئتين ، فئة العمداء وما فوق ، وفئة قادة الكتائب والسرايا ، اما اليوم وبعد تدريب خاص ومتواصل استطيع القول ان لدينا قادة ممتازين في هذا المجال . فخلال هذه الفترة طورنا كلية الامن القومي ، ثم خرجنا دورتين لقادة الالوية ، وقد اجتازت هذه الدورات بنجاح اعداد كبيرة من الضباط . كما خرجنا ثلاث دورات لقادة الكتائب ، شملت اعدادا اكبر ، وعددا كبيرا من دورات السرايا » ( المصدر نفسه ) .

خلال فترة السنوات الاربع وهي مدة خدمة اللواء مردخاي غور في رئاسة الاركان ادخلت تحسينات عدة على الجيش تحدث عنها غور : « فبالنسبة لبناء الجيش. جرى اعداد قيادة استراتيجية بديلة لديها اللياقة والقدرة على الحسم ، وقد تم اختيارها من مجموعة الضباط الذين ينسبهم رئيس الاركان العامة وتعينهم الحكومة . اما من ناحية النظرية القتالية. فقد وضعت طريقة سهلة ومضمونة للمعارك المشتركة بين جميع الجنود والاسلحة . اما من ناحية القوى البشرية ، فقد تم تحويل عشرات الالاف من الجنود من مهام الخدمات والخطوط الخلفية الى جنود يقومون بمهام قتالية وهذا انجاز قومي ، اما من حيث الاسلحة ، فقد علقنا اهمية كبرى على سرعة الحركة ، والتسليح الحديث في جميع اسلحة الجيش ، ففي حرب الليطاني ورغم الطبيعة الصعبة لميدان المعركة ، فقد اثبتت الدبابة وناقلات الجنود المصفحة والمدفع المتحرك والطائرة الحديثة والزوارق البحرية خاصة حاملات الصواريخ ، ان كل هذه الاسلحة جرت السيطرة عليها تماما ، واثبتت المعارك ان الجيش استوعبها بشكل تام ويمكن ان تعمل بتعاون كامل ، اضافة الى هذا فقد اختبرت هذه الاسلحة واختبرت قدرات جنود الاحتياط من خلال مئات من المناورات ، على مستوى الوحدات وعلى مستوى التشكيلات والفرق . ( المصدر نفسه ) .

## ايتان والجبهة الشرقية :

اكثر من اي رئيس سابق للاركان . كان رفائيل ايتان يقف امام مفترق طرق .

الا ان شهورا عديدة سوف تمر ، حتى تتضح وجهة سير منطقة الشرق الاوسط . وعلى كل حال واذا تطورت الامور في اتجاه احتمال التسوية ، او في اتجاه احتمال الصدام فان الجبهة الشرقية والشمالية ستكون ذات اهمية خاصة ، اكثر من اية مرة في الماضي ، بسبب حساسية هذه الجبهة وموقعها الجغرافي وانعدام العمق الاستراتيجي وعليه « فان هذه الجبهة سوف تحتل مكانا مرموقا في خطط الجيش الاسرائيلي وفي توجيه القوات اليها ، هذا ما يمكن ان تؤول اليه الامور ، اذا ما تم التوصل الى اتفاق سلام مع مصر ، وبقيت سوريا والاردن والفلسطينيون مصرين على رفض الاتفاق، ففي مثل هذه الحالة ستكون الضفة الغربية عبارة عن برميل من البارود تهدد الاتفاق الاسرائيلي المصري . ان الجبهة الشرقية سوف تكتسب اهمية كبرى ، خاصة ان جيوشا عربية معادية سوف تأخذ مواقعها على هذه الجبهة ، وحتى ان لم تصل اسرائيل الى اتفاق سلام مع مصر ، فان اهمية الجبهة الشرقية سوف تزداد – رغم ان الجيش المصري سيبقى اكبر جيش عربي – والسبب في ذلك التطورات التي طرأت على الجيوش العربية ، منذ حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ ، خاصة الجيش العراقي والسوري والاردني . ان هذه الجيوش يمكنها ان تتواجد على مسافة قريبة جدا من المناطق الحيوية والحساسة جدا بالنسبة لاسرائيل ، وفقا لهذا فان الجبهة الشرقية ستأخذ ابعادا جديدة في فترة رفائيل ايتان » ( هآرتس – ١٣/٢/١٩٧٨ ) .

وقد طرحت صحيفة هآرتس سؤالا بعد تولي رفائيل ايتان رئاسة الاركان . وهو هل الانسحاب من سيناء ، اذا تم فعلا ، سيترك تأثيره على الجيش في فترة رئيس الاركان الجديد ، خاصة ان الجيش الاسرائيلي ، جيش السبعينات وبداية الثمانينات بلا سيناء سيكون جيشا مختلفا ؟ على هذا الاساس سوف يواجه مشكلات ميدانية وعملية مختلفة . هذا الامر سوف يكون ملموسا ومحسوسا في جميع اسلحة الجيش ، فسلاح الطيران – بعد الانسحاب من سيناء – سوف يضطر الى تقليص قاعدته ومجاله الجوي الى النصف تقريبا ، اما سلاح البحرية فسوف يضطر الى تجميع قطعه في ميناء ايلات المكشوف ، كذلك فان الامر لن يكون مختلفا بالنسبة لباقي الاسلحة البرية ، لان الجيش سوف يضطر الى وضع خطة مختلفة ، وبشكل خاص بالنسبة لما يتعلق بوحدات مخازن الطوارىء ومراكز الذخيرة ومناطق التدريب ، ثم انه بعد انسحابه من سيناء سيكون ملزما باقامة معسكرات دائمة لكل الفرق المعدة للجبهة المصرية او لتلك التي انسحبت منها . وخلافا لما يعتقده رجال الاقتصاد فان اسرائيل لن تجري تخفيضات فعلية في ميزانية وزارة الدفاع ، على الاقل في السنوات الخمس الاولى – بعد الانسحاب – فهناك مصاريف باهظة سوف يتم انفاقها على بناء الخطوط الجديدة التي سيتمركز فيها الجيش ، كذلك سيحتاج الجيش الى اموال طائلة للحفاظ على الهوة في النوعية بينه وبين باقي الجيوش العربية ، مقابل الكميات الهائلة من الاسلحة الحديثة التي تتدفق على هذه الجيوش .

وان اكثر ما يمكن ان يميز فترة رفائيل ايتان ، هي عملية التنظيم في اتجاه العمق ، اي رفع المستوى النوعي ، خاصة بعد التعاظم الكمي النشط والسريع في عهد مردخاي غور ، وعلى ضوء هذا التوسع الكمي ستكون مهمة ايتان صعبة جدا في رفع المستوى القتالي وزيادة الفاعلية . ( المصدر نفسه ) .

اربيه الاسرائيلية بدلا من ف ـ ١٦ :

رغم ان اسرائيل تستطيع الحصول من الولايات المتحدة على معظم الاسلحة بالكمية والنوعية التي تريد ، فانها مازالت تسعى الى الاعتماد على قدرتها الذاتية في تصنيع اسلحتها وخاصة الطائرات منها ٠

فبعد ان انتجت اسرائيل طائرة « كفير » ثم عادت وطورت هذه الطائرة ، فقد بدأت تفكر في انتاج طائرة تتناسب مع الثمانينات ٠ « ففي تاريخ ١٩٧٨/٢/١٣ ، سمحت لجنة الخارجية والامن بنشر تقرير كانت قد اعدته اللجنة الفرعية لشراء الاسلحة ينص على « تزويد سلاح الطيران الاسرائيلي بطائرة حديثة تتناسب والثمانينات ، توصي اللجنة الفرعية بتطوير الطائرة الحربية الاسرائيلية « اربيه » ٠

يستغرق تطوير هذه الطائرة من ٧ـ٨ سنوات ، وهذا الامر يستلزم ميزانية قدرها ٤٠ مليون دولار » ( دافار ـ ١٩٧٨/٣/١ ) ٠

ففي عام ١٩٧٤ ، ولدى الانتهاء من تطوير طائرة « كفير » بدأ نفس الطاقم باعداد الخرائط والمشاريع لطائرة جديدة لقد نفذ هذا العمل بتصديق من مجلس ادارة الصناعات الجوية ، ووزير الدفاع السابق شمعون بيرس ، وعليه فقد خصصت الصناعات الجوية من ميزانيتها الخاصة مبلغ ٢٠٠ مليون ليرة اسرائيلية لاعداد النموذج الصناعي لهذه الطائرة٠ اما سرعة الطائرة وقدرتها على المناورة ومهامها وتسليحها ، فقد جرى التكتم عليها ٠

وحول هذا الموضوع تحدث مدير عام الصناعات الجوية السابق شويمر قائلا : «ان اسرائيل لا تحتاج مطلقا الى طائرات ف ـ ١٦ الامريكية ، لان تكاليفها باهظة جدا ، وعلينا الاستمرار بل التوسع في انتاج « كفير » المعدلة والحصول على طائرات ف ـ ١٥ ، وبالمقابل البدء فورا في عملية صناعة الطائرة اربيه ٠ والجدير بالذكر ان هناك نقاشا عنيفا وحادا يدور في اوساط اصحاب القرار في اسرائيل ، حول تطوير هذه الطائرة ام لا ، وفي حالة عدم صدور قرار ايجابي بهذا الشأن ، فأن هناك خطورة في ان تتحول مصانع الصناعات الجوية الى حظيرة لاصلاح الطائرات فقط » ٠

( يديعوت احرونوت ـ ١٩٧٨/٢/١٤ )٠

دبابة اسرائيلية :

اضافة الى سعي اسرائيل ، لانتاج طائرة حديثة ، فانها قد دخلت فعلا مرحلة انتاج دبابتها الجديدة « مركبا » « فقد صرح ناطق باسم وزارة الدفاع بان الدبابة « مركبا » قد طورت في اسرائيل ، وهذا افضل لاسرائيل من الحصول على آليات مدرعة من الخارج ، حيث ان الخبراء تمكنوا من تطوير دبابة تملك من الخواص ما يلائم منطقة الشرق الاوسط ، اضافة الى ان القائمين على صناعة هذه الدبابة ، اخذوا بعين الاعتبار الدروس المستفادة من الدبابات الاخرى ٠ وعلى الرغم من عدم نشر اية تفاصيل عن هذه الدبابة الجديدة ، الا ان مصادر اجنبية قالت ان وزنها ٥٦ طنا تحمل مدفع ( ١٠٥ ) ملم مع جهاز توجيه يعمل باشعة « ليزر » وهي قادرة على حمل ذخيرة تكفي الى ٦٢ دفعة نيران » ٠ ( هآرتس ـ ١٩٧٨/١/٣٠ ) ٠

قضايا التسليح مع الولايات المتحدة :

تقدمت اسرائيل بطلب الى الولايات المتحدة ، للحصول على اسلحة متقدمة

ومتطورة على امتداد عشرة اعوام . ومن بين الاسلحة التي تضمنهـــا الطلب ، « طائرات مقاتلة من نوعي ف ـ ١٥ و فـ ١٦ . قبل ذلك كانت اسرائيل قد حصلت ابتداء من عام ١٩٧٦ ، على ٢٥ طائـرة مقاتلة من طراز ف ـ ١٥ . لكن موضوع الحصول على المزيد من هذه الطائـــرات بالاضافة الى طائرات ف ـ ١٦ بقـــي مفتوحا ، لاسباب عديدة اهمهـــا : ان الاسرائيليين فضلوا ، خلال الفتـــرة السابقة ، عدم الحصول على المزيد مـــن طائرات ف ـ ١٥ واصروا على ان يسمح لهم بالاشتراك في انتاج طائرات ف ـ ١٦ الا ان الولايات المتحدة رفضت طلـــب الانتاج بحجة ارتباط هذا المشروع باربع دول اعضاء في حلف الاطلسي » (١٧)..

كانت اولى مهام وزير الدفاع عيـــزر فايتسمان اثناء زيارته لواشنطن، الحصول على قرار مبكر قدر الامكان لصفقـــة طائرات ف ـ ١٦ » وطلب زيادة عـــدد طائرات ف ـ ١٥ من ٢٥ الى ٥٠ طائرة ..

هذا اضافة الى ان اسرائيل خفضت عدد الطائرات من طراز ف ـ ١٦ التي طلبتهـا من ١٥٠ طائرة الى ٩٠ طائرة فقط ، هذا وسيبدأ تسليم طائرات ف ـ ١٦ في مطلع عـام ١٩٨٣ » . ( معـاريف ـ ١٢/٢٣/ ١٩٧٧) .

رغم ان الادارة الامريكية موافقة ضمنا على الخطة الاسرائيلية لشراء الاسلحة هذه الخطة التي اطلق عليها اسم «مطمون» ج ومعناها « كنز » ، وعلى الرغم من ان تفاصيل هذه الخطة غير معروفة بالضبط الا ان وزير الدفاع الامريكي هارولـــد براون علق قائلا « انه من اجل تنفيـــذ وتحقيق هذه الخطة فان اسرائيل بحاجة الى عشرة مليارات دولار بالاسعار الحالية، وهذا عبء لا يمكن لاسرائيل ان تتحمله وحدها ، حتى لو بقيت تحصل علـــى المساعدات العسكرية الامريكية طـــوال سنوات تنفيذ الخطة ، فهذه المساعـــدات لا تكفي لتمويل شراء الاسلحة المطلوبـة بشكل كامل » . ( هآرتس ـ ١٩٧٨/٧/٧ )

يتوقع المراقبون ان اسرائيل ســـوف تطالب بل ستضغط على الولايات المتحدة بواسطة اعوانها في الكونغرس والادارة من اجل الحصول على مساعدات ماديـة كبيرة لم تعهدها العلاقات الاسرائيليـــة الامريكية من قبل لتمويل خطة شـــراء الطائرات ، مستغلة رغبة امريكا في عدم تعطيل المفاوضات الاسرائيلية الامريكية ، طالما لا تعدو كونها مفاوضات .

ويقدر البعض في اســرائيل انـه ربما حصلت اسرائيل على مساعدات بقيمـــة كبيرة تغطي نصف ثمن الصفقة ،والنصف الاخر ربما ستحصل عليه بطريقة قروض طويلة الاجل دون فائدة .

الا ان الولايات المتحدة تضع شرطـا وحيدا على هذه الصفقات والامـــــوال لاسرائيل وهو « عدم تعطيل المفاوضات مع مصر وعدم عرقلة القطار الامريكـــي في المنطقة العربية » ( المصدر نفسه ) .

**مكرم يونس**

كلما اوغلت « عملية السلام » التي ترمي الى خلق حالة استمرارية للاتصالات بين مصر واسرائيل في التحول الى عملية غربية بحتة تدور فيها تحركات واتصالات الولايات المتحدة واوروبا الغربية ... كلما ازداد افراغ « قضية الشرق الاوسط » من محتواها الاسرائيلي واصبحت « القضية » تعالج وكأنها قضية علاقات مصرية – اسرائيلية لا قضية صراع عربي اسرائيلي .

هذه في اعتقادنا هي المعادلة التي تنطق بها التحركات والاتصالات الكثيفة الكثيرة التي شهدها الشهر المنقضي حول قضية الشرق الاوسط ، والتي شملت المحادثات الثنائية والمتعددة الاطراف التالية :

- السادات – كرايسكي – برانت .
- كرايسكي – برانت .
- السادات – بيريس .
- السادات – فايتسمان .
- الجمسي – فايتسمان .
- كامل – دايان – فانس .

وتنطبق المعادلة المذكورة على تصريحات اطراف هذه الاتصالات ،وغيرهم كما تنطبق على طبيعة المسائل التي اثيرت فيها تماما . وهكذا برز بشكل اوضح من اي وقت مضى عاملان متناقضان :

□ شعور حاد لدى جميع الاطراف الولايات المتحدة ، اسرائيل ، النظام المصري ، اوروبا الغربية – بمركزية المسألة الفلسطينية في القضية كلها .

□ استعداء حاد لدى تلك الاطراف – بما فيها الطرف « العربي » ، اي النظام المصري والرئيس السادات بالتحديد – بتقديم التنازلات « الفلسطينية » واستبعاد الجانب الفلسطيني باعتبار ان المسألة الفلسطينية هي العقبة الرئيسية امام الوصول بالمبادرة المصرية الى نتيجة ما، او بالاحرى الى اي نتيجة .

وهكذا كان « التطور » الابرز الذي احرزته جهود النظام المصري للتوصل الى اي نتيجة يقال معها ان « مبادرة السلام » التي بدأت بزيارته لاسرائيل لم تضع هباء هو احجام الرئيس السادات في اخر مقترحات قدمها الى اسرائيل عن اي اشارة الى منظمة التحرير الفلسطينية ، الامر الذي قيمته المصادر الدبلوماسية الغربية ( نيوزويك – ١٩٧٨/٧/١٧ ) بأنه « علامة تحمل الامل على ان المصريين يحاولون تجنب اي صياغة من شأنها ان تثير اعتراض الاسرائيليين دون ما ضرورة ».

ويمكن اعتبار هذا التنازل الجديد من جانب القاهرة جزءا من التكتيك المفضل لدى الدبلوماسية الاميركية ، وهو تكتيك البحث عن « مناطق الاتفاق » بين مصر واسرائيل ، والابتعاد عن « مناطق الاختلاف » . وفي هذا الاطار نفسه كان الاقتراب في المقترحات المصرية الجديدة نحو منطقة اتفاق يبدو ان الدبلوماسية المصرية اعتبرت انها ابرز مناطق الاتفاق

بينها وبين الدبلوماسية الاسرائيلية ، وهي « مسألة الامن » ، وبتحديد اكثر « مسألة امن اسرائيل » .

فقد قال الرئيس السادات بوضوح قاطع انه يعترف بقلق اسرائيل على امنها وانه لهذا مستعد لتقديم كافة الضمانات لهذا الامن . وبالفعل فقد ذكرت وكالة الانباء الرسمية المصرية ( وكالة انباء الشرق الاوسط ) وهي تغطي مقابلة اجراها عدد من الصحافيين اليابانيين مع الرئيس السادات في الشهر الماضي ان الرئيس قال في هذه المقابلة ان هناك اجراءات يمكن لمصر ان تقبلها لتلبية حاجات الامن الاسرائيلية ، وان هذه الاجراءات تتلخص في النقاط الست التالية :

- مناطق منزوعة السلاح على الحدود.
- مناطق محدودة التسليح .
- وجود لقوات الامم المتحدة في المناطق المنزوعة السلاح .
- وجود محطات للانذار المبكر .
- اتفاقية صلح تنص على ان خليج العقبة ممر مائي مفتوح .
- فتح الحدود وتكوين لجنة مشتركة للاشراف على تنفيذ اتفاقية الصلح .

وهكذا يتضح ان منطقة التباعد الرئيسية بين القاهرة وتل ابيب هي « المنطقة الفلسطينية » ، وان منطقة الالتقاء الرئيسية بينهما هي « المنطقة الامنية » . وتقضي المرحلة الجديدة ، التي بدأت بمجرد زيارة نائب الرئيس الاميركي مونديل لمصر ، بتجاهل المنطقة الفلسطينية والتركيز على المنطقة الامنية ، حيث لا تبدو هناك امكانية للتوصل الى تفاهم بشأن المسألة الفلسطينية ، في حين ان وجهات نظر مشتركة تتضح فيما يتعلق بالامن .

ويفسر هذا الوضع لماذا تفرض هذه الدبلوماسية على النظام المصري ان يقدم التنازلات سلبا وايجابا . سلبا عن طريق اغفال ما لا امل في التوصل فيه الى اي تفاهم مع الاسرائيليين ، وهذا بالتحديد ما يتعلق بالجوهر ، وهو المسألة الفلسطينية . وايجابا عن طريق التحرك رأسا نحو المطالب الاسرائيلية وتلبيتها حينما كان ذلك في مقدور وضمن صلاحيات النظام المصري .

ويتضح بنظرة على المعلومات المتاحة عن كل الاتصالات الغربية خلال الشهر الماضي انه اذا كانت هذه الاتصالات قد بدأت بتقديم الاقتراح المصري الخاص باعادة ضفة الاردن الغربية المحتلة الى الاردن ، واعادة قطاع غزة المحتل الى مصر ، وهو اقتراح واكبه اقتراح اسرائيلي مضاد .. الا ان سير المحادثات اتجه بعيدا عن هذا المشروع بقدر ما كان فيه من امل فلسطيني ، فتحولت الاهداف بالنسبة للاقتراح المصري الى صيغة اكثر تواضعا بكثير ، تمثلت في التمني على اسرائيل ان تقوم ببادرة تجاه الرئيس السادات ترد بها على بادرة « الزيارة » . وتردد ان هذا التمني يتعلق بامكان تسليم مدينة العريش المصرية في شمال سيناء المحتلة الى « الادارة » المصرية ( وليس الى القوات المصرية ، اي مع تجريدها من السلاح ) لتكون مقرا لمفاوضات لاحقة تجري بين الطرفين المصري والاسرائيلي.

والغريب ان اهتمام الاعلام الغربي - واهتمام جزء كبير من الاعلام العربي ايضا - انجذب بشدة خلال الشهر الماضي الى مؤتمر « قلعة ليدز » البريطانية الثلاثي الذي عقد لمدة يومين ( ١٨ و ١٩ تموز - يوليو ) بين محمد ابراهيم كامل وزير الخارجية المصري ، وموشي دايان وزير الخارجية الاسرائيلي ، وسايروس فانس وزير الخارجية الاميركي . فقد عقد هذا المؤتمر وسط اغرب تمهيدات من نوعها من جانب الطرف الداعي اليه ( الولايات المتحدة ) والطرفين الاخرين المشتركين فيه.

اذ كان بين الاطراف الثلاثة اجماع على ان هذا المؤتمر الثلاثي لا رجاء فيه · وحتى عندما عقد المؤتمر وكان من الضروري التحدث عن « جوانب » ايجابية قالت الاطراف ان اهم ما فيه من ايجابية انه جمع الطرفين المصري والاسرائيلي من جديد الى طاولة المفاوضات ، فان مجرد حقيقة جلوسهما وتحادثهما معا هي حقيقة ايجابية · وقالت الاطراف الثلاثة ايضا ان الهدف من مفاوضات المؤتمر كان التمهيد لمفاوضات اخرى لاحقة ··· لا اكثر · واعلن سايروس فانس في ختام المؤتمر ان خلافات اساسية ما زالت قائمة بين مواقع الجانبين وان كثيرا من العمل لا يزال ينتظرنا ·

والنتيجة التي اسفر عنها مؤتمر ليدز الثلاثي تؤكد ان الولايات المتحدة مستمرة في سحب « عملية السلام » الى اعماق متاهات المفاوضات التي تسبقها تمهيدات واتصالات اميركية بأسلوب « الدبلوماسية الهادئة » بعيدا عن البحث الجاد في جوهر الصراع العربي ـ الاسرائيلي · فقد تولدت عن « مؤتمر ليدز » جولة اتصالات اميركية جديدة يبدأها السفير الاميركي المتجول الفرد اثرتون ، ويكملها وزير الخارجية فانس ·

اما بالنسبة لاسرائيل فقد نجح مؤتمر ليدز في اعادة مصر الى المفاوضات المباشرة ، التي كانت قد توقفت ـ رسميا ـ منذ شهر كانون الثاني الماضي ·

وتخرج مصر وحدها بنتيجة غير مؤكدة هي « اتفاق سيناء ثالث » يتعلق بانسحاب جزئي جديد للقوات الاسرائيلية في سيناء ، واذا صحت هذه النتيجة غير المؤكدة ـ التي لم يرد لها ذكر في اطار مؤتمر ليدز ، انما سربت انباء عنها خارج اطار المؤتمر من الاعلام الغربي والعربي ـ فان الجولة الاخيرة من الاتصالات الغربية تكون قد جرت مبادرة السادات بأسرها عمليا الى نقطة الاتفاقات الثنائية الجزئية المصرية ـ الاسرائيلية · وهو اتجاه معاكس تماما لكل التأكيدات الرسمية المصرية بأن مبادرة السادات لا ترمي الى التوصل الى اتفاق ثنائي مع اسرائيل ، حتى ولو كان اتفاقا شاملا ·

ولعل هذه النتائج التي انتهى اليها مؤتمر ليدز ـ بزواياها الثلاث ـ تؤكد بصورة عملية صحة المعادلة التي لاحظنا انها تحكم التطورات الاخيرة وهي معادلة شحن « عملية السلام » بمضمون غربي بحت ، وافراغ « قضية الشرق الاوسط » من كل محتوى فلسطيني ·

وبطبيعة الحال فليس هناك ما يدعو للتصور بأن المحادثات « الفجائية » التي اجراها عيزر فايتسمان وزير الدفاع الاسرائيلي مع السادات والفريق اول محمد الجمسي وزير الحربية المصري في سالزبورغ ، كانت تسير في تيار وحدها يختلف عن التيار الذي سارت فيه المفاوضات في « قلعة ليدز » ببريطانيا · بل ان انتهاء مفاوضات ليدز الى مجرد الاتفاق على مزيد من المفاوضات يحمل الدليل على ان اللقاء المفاجيء الذي جمع بين السادات والجمسي وفايتسمان لم يكن اكثر من جزء من اللعبة الداخلية الاسرائيلية ، فقد نجحت به حكومة مناحم بيغن الاسرائيلية في ازالة الاثار النفسية لاجتماع السادات في فيينا قبلها بأيام مع شمعون بيريس زعيم المعارضة الاسرائيلي· وهكذا يكون السادات قد ترك نفسه يستخدم استخداما مهينا في لعبة الحكومة والمعارضة الاسرائيلية دون أن يخرج بأي نصيب خاص به ·

واذا كانت لا تزال هناك حاجة الى دليل جديد على الاتجاه الاميركي نحو افراغ القضية من اي محتوى فلسطيني، فاننا نجد

هذا الدليل في حقيقة ان الاقتراح الثنائي الذي اذاعه برونو كرايسكي مستشار النمسا وفيلي برانت مستشار المانيا الغربية السابق ( بوصفهما زعيمي « الدولية الاشتراكية ) بشأن ايجاد حل لقضية الشرق الاوسط ... ان هذا الاقتراح الثنائي قد ولد ميتا · فلم يجد اهتماما - بأكثر من كلمات المجاملة من بعض المسؤولين · وعلى الفور وجد طريقه الى النسيان الكامل ، على الرغم من انه - من زاوية النظر الفلسطينية - لا يشكل خطوة هامة حتى على المستوى النظري · لقد دعا هذا الاقتراح الى « بعض الانسحابات الاسرائيلية من كل قطاع من الارض العربية المحتلة ، مع تحديد دقيق لحدود السلام النهائية عن طريق المفاوضات ، كما دعا الى نزع السلاح حيثما دعت الضرورة الى ذلك في بعض المناطق التي ستعيدها اسرائيل الى العرب ، واكد الاقتراح حق اسرائيل في اتخاذ اجراءات تكفل امنها ، دون ان يحدد الاقتراح بدقة طبيعة هذه الاجراءات ، واخيرا فان الاقتراح يدعو الى حق الفلسطينيين في الاشتراك في مفاوضات تحدد مستقبلهم السياسي ·

اما اذا كان هذا الخط يوصل - كما اشار الرئيس الاميركي كارتر في حديث له في الشهر الماضي مع عدد من رؤساء تحرير الصحف الاميركية - الى « دعوة الامم المتحدة مرة اخرى الى المشاركة » ، الامر الذي فهم انه يعني العودة الى مؤتمر جنيف ... فانه يوصل بالتأكيد الى جنيف ليس فقط من دون منظمة التحرير الفلسطينية ، التي استبعدها الطرف « العربي » ( الرئيس السادات ) ، انما ايضا الى جنيف من دون المسألة الفلسطينية ، اي الى جنيف ربما ثنائية ( مصرية - اسرائيلية ) او جنيف متعددة الاطراف ولكن لا وجود للمسألة الفلسطينية على جدول اعمالها ·

واذا كان البحث عن « نقاط الاتفاق » بين موقفي القاهرة وتل ابيب قد ابتعد بالمشكلة عن العامل الفلسطيني واقترب بها من العامل الامني ، حيث قدم النظام المصري كافة الضمانات والتأكيدات والتنازلات ... فان الولايات المتحدة تركز منذ فترة غير قصيرة على حقيقة ان احدى « نقاط الاتفاق » بين الموقفين المصري والاسرائيلي تتمثل في رفضهما اي حضور سوفياتي ، سواء كان هذا الحضور ماديا في المنطقة او حضورا سياسيا ودبلوماسيا في المفاوضات · وينطبق هذا اول ما ينطبق على جنيف التي لوح بها الرئيس كارتر اخيرا · وهو تلويح اعتبر اهم تمهيد اميركي لاعلان انتهاء « مبادرة » السادات ·

وبطبيعة الحال فان ابعاد الاتحاد السوفياتي لا يشكل هدفا مصريا واسرائيليا بقدر ما يشكل هدفا اميركيا في المرحلة الراهنة بوجه خاص ·

ولقد حملت تطورات الشهر المنقضي مؤشرات واضحة على ان الولايات المتحدة لا تسعى الى تضييق هوة الخلافات بينها وبين الاتحاد السوفياتي او تخفيف حدة التوتر التي اعادت اجواء الحرب الباردة الى علاقات الشرق والغرب · بل انها على العكس فتحت من جديد ابواب المعركة التي يطلق عليها الرئيس الاميركي كارتر شعار « حقوق الانسان » · وأثرت من هذا الباب شن حملات دعائية على الاتحاد السوفياتي تذكر بالحملات التي كانت سائدة في الاربعينات والخمسينات · ولم يغب العنصر «اليهودي» في الحملات الاميركية، انما تمثل في اثنين من المنشقين السوفيات هما اناتولي شارانسكي والكسندر غينزبرغ اللذين لم يخفيا حتى على السلطات السوفياتية ولاءهما لاسرائيل ، حتى انهما يرفعان علم اسرائيل داخل مسكنيهما !

وقيام الولايات المتحدة بتصعيد الحملة على الاتحاد السوفياتي مستغلة مثل هذه القضايا الفردية يشير بوضوح الى رغبة اميركية في اختيار ميادين للمواجهة مع الاتحاد السوفياتي لا تقتصر على الميادين الخارجية . ووصول الامر الى حد الغاء عدد من العقود والصفقات التجارية بينهما كاجراء « عقابي » بسبب الاحكام التي اصدرتها السلطات السوفياتية على « المنشقين » هو دليل على ان الولايات المتحدة تستعد لحملة مقاطعة تقودها في « العالم الغربي » كله بهدف اضعاف علاقات التعاون بين الغرب والاتحاد السوفياتي من ناحية ، وخلق مشاكل مضاعفة للاحزاب الشيوعية الغربية من ناحية اخرى .. سواء بدفع هذه الاحزاب الى ادانة الاحكام السوفياتية ضد « المنشقين » ، وبالتالي اضعاف العلاقات بين تلك الاحزاب والحزب الشيوعي السوفياتي ... او بشن حملة ضد الاحزاب الشيوعية التي تمتنع عن ادانة الاجراءات السوفياتية .

ان بلوغ الحملة الاميركية على الاتحاد السوفياتي حدا كبيرا من المبالغة ازاء قضايا فردية كهذه يعني ان الولايات المتحدة اختارت التغطية على عجز سياستها الخارجية في مواقع عديدة من العالم عن حل مشكلات علاقاتها الدولية او اعادة النفوذ الاميركي وتحقيق استقرار كاف للنظم المؤيدة له عن طريق حملة مضادة تظهر فيها الولايات المتحدة من جديد في صورة « زعيمة العالم الحر » المدافعة عن قيم الحرية وحقوق الانسان ... الخ وذلك كبديل عن صورة الولايات المتحدة التي كانت قادرة اقتصاديا من قبل على ان تقود « العالم الحر بعيدا عن ازماته الاقتصادية بالدرجة الاولى .

ولعله كان من المصادفات ذات المغزى ان عقد مؤتمر القمة الاقتصادية الغربية في بون ( ١٧ و ١٨ تموز ) في هذا الوقت بالذات جاء ليؤكد ابتعاد الولايات المتحدة كثيرا ـ في المجال الاقتصادي ـ عن مواقع القيادة في الغرب . فقد اجتمع رؤساء الولايات المتحدة والمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا واليابان وكندا وايطاليا لوضع استراتيجية لمعالجة المشكلات الاقتصادية الحادة التي يعاني منها العالم الرأسمالي : التضخم ، انعدام استقرار العملات الغربية، البطالة، ارتفاع الواردات النفطية ... الخ وكانت المشكلات الاقتصادية الاميركية هي الابرز بين مشكلات الدول الرأسمالية « الغنية » المجتمعة كلها . وقد برز تحدي كل من اليابان والمانيا الغربية ـ والى حد ما فرنسا ـ للولايات المتحدة وتحميلها اياها مسؤولية الازمة الاقتصادية الحادة التي يعاني منها الغرب والنظام الاقتصادي الغربي كله ، وخاصة انهيار قيمة الدولار الاميركي وفشل الولايات المتحدة في وضع سياسة رشيدة لاستهلاك الطاقة تساعدها على الحد من وارداتها من النفط من الخارج .

وبشكل عام فقد عكس المؤتمر ـ رغم التصريحات المتفائلة والبيانات المبهمة عن التوصل الى وجهات نظر مشتركة ـ تناقض المصالح ، وبالتالي السياسات ، بين الدول الغربية ، الى حد اصبح فيه حديث الصحافة الغربية عن « الحرب الاقتصادية » بين هذه الدول بمثابة خبز يومي . ويمكن القول بأن هذه الحرب قد بدأت فعلا وان لم تعلن رسميا . وقد وجهت الصحافة الاميركية ـ التي تعكس بدرجة او بأخرى الحالة العامة للرأي العام الاميركي ـ هجوما حادا على سياسة اليابان الاقتصادية بوجه خاص ، من منطلقات تتناقض اصلا مع منطلقات الفكر الاقتصادي ـ الاجتماعي الاميركي . اذ هي تطالب بالتنسيق بين الدول الغربية ، وتطالب بتدخل الدولة في اليابان للحد من

الصادرات لمصلحة صادرات الدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة بطبيعة الحال · بينما تتمسك اليابان بمبادىء حرية التجارة وعدم التدخل باعتبارها الركائز الاساسية للاقتصاد الرأسمالي التي لا يمكنها التخلي عنها دون تغيير البنية الاقتصادية ككل ·

فهل تستطيع الولايات المتحدة بأسلوب المواجهة بالحملات الدعائية أن تعيد لنفسها موقع القيادة في العالم الغربي ؟ هل يكفي الهجوم على سياسة الاتحاد السوفياتي الداخلية ليكون عاملا لتجميع الغرب حول واشنطن ، رغم التناقضات في المصالح والسياسات ؟

ربما كانت الاجابة على هذا السؤال ابسط كثيرا لو ان الصورة على الجانب الاخر لم تكن بدورها تحمل التناقضات والتناقضات المضاعفة التي تتمثل في الصراع الفيتنامي ــ الصيني ، والفيتنامي ــ الكمبودي ، والسوفياتي ــ الصيني ، والصيني ــ الالباني ·

ان التطورات التي حملتها احداث الشهر المنقضي على ساحة شرق اسيا تفرض من علامات الاستفهام اكثر مما تقدم من الاجابات الواضحة بكثير · ولكن التطور المتمثل في انضمام فيتنام الى مجلس العون الاقتصادي المتبادل ( الكوميكون ) ــ وهو بمثابة السوق المشتركة للبلدان الاشتراكية ــ وفي الوقت نفسه قطع الصين كل مساعداتها عن فيتنام ، انما يدل دلالة واضحة على ان الصراعات الثنائية في شرق اسيا قد لا تقف عند حدودها الثنائية الراهنة من ناحية ، وقد تزداد استقطابا في تحديد مساراتها والنتائج التي ستنتهي اليها ، من ناحية اخرى · بمعنى ان هذه الصراعات الثنائية بين بلدان المعسكر الواحد ( نظريا على الاقل ) تتجه للدخول في اطارها الواسع الطبيعي وهو اطار الصراع الاكبر القائم بين الاتحاد السوفياتي والصين · وثمة مؤشر له دلالاته الخاصة ، وهو ان التغييرات « الليبرالية » الداخلية في الصين التي اتت خلال الاسابيع الاخيرة ــ في مجالات الاقتصاد والحياة العامة ــ بعد التغييرات التي حملتها السنوات الماضية الى سياسة الصين الخارجية ··· كل هذه التغييرات ابقت على عامل ثابت واحد ، هو العداء القاطع للاتحاد السوفياتي وغياب اي استعداد للتحاور معه ، بل ظهور علامات على التوجه نحو تحالفات استراتيجية ضده ·

**سمير كرم**

---

## قضايا عسكرية

### البحرية الاسرائيلية تدعم قواتها

جرى في ميناء « حيفا » ، يوم ١١ــ٧ــ٧٨ ، احتفال بمناسبة انزال زورق صواريخ جديد من فئة « ريشيف » الى الماء ، حضره « عيزر فايتسمان » وزير الدفاع الاسرائيلي و « رفائيل ايتان » رئيس الاركان العامة واللواء البحري

« ميخائيل بركائي » قائد البحرية ٠

وهذا الزورق ، الذي لم يعلن اسمه بعد ، هو الزورق الثامن ، أو التاسع ، الذي انتجته احواض بناء السفن الاسرائيلية في « حيفا » ، منذ ان انزل الى الماء الزورق الاول المسمى « ريشيف» في ١٩-٢-٧٣ ، ثم ادخل الخدمة العملية في البحرية الاسرائيلية بعد ان جرى تسليحه وتجهيزه للعمل في نيسان ( ابريل ) من العام ذاته ٠

وقد بدأت البحرية الاسرائيلية في تصميم هذا النوع من زوارق الصواريخ في العام ١٩٦٨ ، اثر تسلمها ٦ زوارق صواريخ من فئة « ساعر » جرى تصنيعها في ميناء « شيربور » بفرنسا ، وذلك من اصل ١٢ زورقا مماثلا تم الاتفاق على تصنيعها في فرنسا مع شركة المانية - غربية في العامين ١٩٦٥ و ١٩٦٦ ٠ وقد تسلمت الزوارق الست الاخرى من فئة « ساعر » في العام ١٩٦٩ - ١٩٧٠ ، بعد أن فرضت فرنسا حظر تصدير الاسلحة لاسرائيل ، وذلك ضمن ما عرف بقصة سرقة زوارق « شيربور » ، التي تواطأت فيها اجهزة الاستخبارات الفرنسية مع الاستخبارات الاسرائيلية على تهريب الزوارق الخمسة الاخيرة من الميناء المذكور في اواخر العام ١٩٦٩ ٠

ويرجع تصميم وانتاج فئة زوارق « ريشيف » في اسرائيل الى ضمان حصول البحرية الاسرائيلية على حاجتها من هذه الزوارق ، التي اصبحت تشكل العمود الفقري لقوتها الضاربة ، دون مشكلات الاستيراد من الخارج والعوامل السياسية التي قد تتحكم بها ٠ فضلا عن حاجة البحرية المذكورة الى تصميم نوع اكثر قوة من زوارق « ساعر » ، من حيث بعد مدى العمل والقدرة على البقاء فترة طويلة من الزمن في اعالي البحار ، وذلك ضمن اطار الاستراتيجية البحرية الجديدة، التي بدأت تتبناها البحرية الاسرائيلية عقب اغراق المدمرة « ايلات » عام ٦٧ . والتي تستهدف خلق قدرة عمل في عمق كل من البحرين الاحمر والابيض المتوسط وخاصة بالنسبة للبحر الاحمر الذي تستورد اسرائيل عن طريقه النفط الايراني وتصدر عبره المعادن والاسمدة الى شرقي افريقيا واستراليا والشرق الاقصى ٠وقد تزايدت اهمية وجود زوارق الصواريخ بعيدةالمدى في البحر الاحمر بعد خبرة حرب ١٩٧٣ ، التي جرى فيها فرض حصار بحري عربي عند « باب المندب » ، على مسافة نحو ٢٣٠٠ كلم من ميناء « ايلات » ٠ ولذلك قامت البحرية الاسرائيلية بارسال اول زورقين تسلمتهما من هذا النوع ، وهما « ريشيف» و «كيشيت » ، الى البحر الاحمر ، في رحلة طويلة عبر البحر الابيض المتوسط ثم المحيط الاطلسي فالمحيط الهندي ، عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وذلك في نيسان ( ابريل ) عام ١٩٧٤٠

واتبعتهما بزورقين اخرين ، هما « روماه » و « كيدون » ، خلال عام ١٩٧٦ على الارجح ، وابقت بقية الزوارق في البحر الابيض المتوسط ٠ وقد جهزت الزوارق العاملة في البحر الاحمر بأجهزة « سونار » الخاصة باكتشاف الغواصات ٠

وفي كانون الثاني ( يناير ) ١٩٧٥ طلبت البحرية الاسرائيلية من احواض بناء السفن في « حيفا » ، بناء ٦ زوارق اخرى بالاضافة للزوارق الست الاولى التي كانت قد طلبتها عام ١٩٧٠ ، والتي تسلمت اخرها ، المسمى « يافا » ، في نيسان ( ابريل ) ١٩٧٥ ٠

وتم لها استلام اول زوارق الدفعة الثانية الستة في كانون الاول ( يناير ) ١٩٧٧ ٠ ولذلك فنحن نرجح ان يكون الزورق الذي انزل مؤخرا هو الزورق التاسع ، نظرا لان معدل الانتاج منذ

العام ١٩٧٣ يبلغ زورقين كل سنة ، باستثناء العام ١٩٧٦ الذي لم يعرف فيه عن تسلم البحرية الاسرائيلية زوارق من هذه الفئة ٠

وسوف تبنى ٦ زوارق من الفئة المذكورة لحساب جنوب افريقيا في احواض كل من « حيفا » و « دوربان » في جنوب افريقيا ، وذلك ضمن العلاقات الوثيقة في مجالات انتاج الاسلحة التقليدية والنووية القائمة بين الدولتين العنصريتين ٠

وتختلف الدفعة الثانية من زوارق « ريشيف » عن الدفعة الاولى ، في كونها اطول قليلا في هيكلها ( ٦٠ر٩ مترا مقابل ٥٨ مترا ) ، وبخلاف ذلك ، فان كلا الدفعتين يبلغ وزن الزورق منها ( قياسيا ) ٤١٥ طنا ( مقابل ٢٢٠ طنا للزورق من فئة « ساعر » ) ، واقصى عرض لهيكله ٨ر٧ امتار ، وعمق غاطسه متران و ٤ر٠ ٠ وهو مزود بأربعة محركات ديزل ( المانية الصنع ) قوة كل واحد منها ٢٦٧٠ حصانا ، وله عمودي حركة ٠ وتبلغ سرعة الزورق القصوى ٣٢ عقدة ، اي نحو ٥٩ كلم في الساعة ٠ ويتفاوت مدى عمله وفقا للسرعة التي يسير بها ، ويقدر مدى عمله وهو منطلق بسرعة ٣٠ عقدة ( اي نحو ٦ر٥٥ كلم/ساعة ) بحوالي ٢٤٠٠ كلم ٠ وهو مسلح بست قواذف صواريخ سطح ــ سطح من طراز « غابرئيل » المطور ، الذي يصل مداه الى نحو ٤١ كلم ٠ فضلا عن مدفعين البين ، مزدوجي المهام ( ضد السفن والطائرات ) من طراز «اوتوميلار» عيار ٧٦ ملم ( يصل مداه ضد السفن الى حوالي ١٦ كلم ، واقصى ارتفاع لقذيفته في الجو يبلغ ٥ر١١ كلم ، ومعدل رميه السريع يمكن ان يصل الى ٨٥ قذيفة في الدقيقة ، ووزن قذيفته ٢ر٦ كلغ ) احدهما في المقدمة والثاني في المؤخرة ٠ بالاضافة الى رشاشين من طراز « اورليكون » عيار ٢٠ مم ٠ اي ان تسليحه اسرائيلي ــ ايطالي ــ سويسري٠ ويبلغ عدد طاقم الزورق ٤٥ فردا ٠

وبدخول الزورق الجديد الخدمة والذي قيل ان نفقاته مع تسليحه تبلغ نحو ٣٠ مليون دولار ، ترتفع القوة النارية الصاروخية الاجمالية للبحرية الاسرائيلية ، من نحو ١٠٠ او ١٠٦ صواريخ ( وفقا لعدد زوارق « ريشيف » السابق وما اذا كان سبعة او ثمانية زوارق ) الى ١٠٦ او ١١٢ صاروخا تقريبا ٠ على حين ان القوة النارية الصاروخية للبحرية السورية مثلا تبلغ ٣٦ صاروخا ، موزعة على ٦ زوارق فئة « اوسا » و ٦ فئة « كومار » ٠ والقوة النارية للبحرية المصرية ٤٤ صاروخا ، موزعة على ٦ زوارق فئة « اوسا » و ١٠ زوارق فئة « كومار » ٠

وهكذا يشكل الزورق الاسرائيلي الجديد خطوة اخرى على طريق زيادة القدرة البحرية الاسرائيلية في العمل على مدى بعيد ، يهدد العمق البحري العربي في كل من البحرين الابيض المتوسط والاحمر ٠

**البحرية المصرية تنوع مصادر تسليحها**

اشارت صحيفة الاهرام المصرية ، في ٢٨ــ٦ــ٧٨ ، الى ان الفريق اول « محمد عبد الغني الجمسي » قال في كلمة القاها في حفل تخريج دفعة جديدة من الضباط٠ في الكلية البحرية بالاسكندرية ، جرى يوم ٢٧ــ٦ــ٧٨ ، ان مصر وافقت على شراء عدد من المدمرات الجديدة ، وانها تقوم بانتاج وتسليح انواع جديدة من زوارق الطوربيد ٠ ولم تذكر الصحيفة اسم الدولة التي ستشتري مصر منهاالمدمرات المشار اليها ، ولا عدد ونوعية هذه المدمرات ٠

ولكن وكالات الانباء كانت قد ذكرت ، في ١٦ـ٦ـ٧٨ ، نقلا عن مصادر البحرية البريطانية في لندن ، ان مصر تتفاوض حاليا على شراء فرقاطة قاذفة للصواريخ من طراز « دفونشاير » ومدمرتين من طراز « لنكولن » و « سالزبوري » وان عقد الشراء ، الذي تقدر قيمته بعدة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ، يتضمن تحديث السفن المذكورة في الترسانات البحرية البريطانية ·

واذا ما صحت هذه الانباء ، وكان الفريق اول « الجمسي » ، يعني هذه السفن البريطانية الثلاث في تصريحه هذا ( ذلك لان هناك بعض الانباء السابقة ، وغير المؤكدة ، كانت قد ذكرت ان مصر تنوي شراء فرقاطتين مسلحتين بالصواريخ من فئة « لوبو » الايطالية الصنع ) ، فأن تعليقنا على هذا النبأ نلخصه في النقاط التالية :

١ ــ السفينة المسماة « دفونشاير » ليست « فرقاطة » « Frigate » وانما هي « مدمرة » « Destroyer »، وفقا للتصنيف الرسمي لها من جانب البحرية البريطانية · على حين يعتبرها دليل « جينز » البحري ( طبعة ١٩٧٧ـ٧٨ ) من « الطرادات الخفيفة » « Light Cruisers » وكانت « دفونشاير » السفينة الاولى المنتجة من فئة مدمرات « كاونتي » « County » وقد بدأ بناءها في ٩ـ٣ـ١٩٥٩ ، وانزلت الى الماء في ١٠ـ٦ـ١٩٦٠ ، وبعد ان استكمل تجهيزها بالمعدات والاسلحة المختلفة دخلت الخدمة العملية بالبحرية البريطانية في ١٥ـ١١ـ١٩٦٢ ·

وتوجد من هذه الفئة حاليا لدى البحرية المذكورة ٧ سفن هي « دفونشاير» و « كنت » و « لندن » و « فايف » و « غلامورغان » و « نورفولك » و « انتريم » · وكان الهدف الرئيسي من بناء هذه المدمرات هو تأمين غطاء جوي بالصواريخ م/ط والمدافع بالنسبة للسفن البحرية الاخرى والقوافل المؤلفة من سفن نقل او انزال برمائي ، بالاضافة الى حمايتها من الغواصات · كما انها تعمل كسفينة دعم مدفعي لقوات انزال برمائي صغيرة او متوسطة الحجم ، ويمكنها ايضا التعامل مع السفن الحربية المعادية بالصواريخ والمدافع ·

ولكن اكثر ادوارها فاعلية هو العمل كسفينة قيادة رئيسية لعدة سفن حربية اخرى ، اذ انها تستطيع توجيه هذه السفن حتى من مسافات بعيدة ، وتوفر للطاقم القيادي البحري امكانات اتصال وقيادة واقامة طويلة في البحر في ظروف مريحة نسبيا ، ولها قدرة العمل المستقل والدفاع عن نفسها جيدا حتى في الظروف الخطرة·

ويبلغ وزن المدمرة من الفئة المذكورة ٥٤٤٠ طنا ( قياسيا ) و ٦٢٠٠ طن ( بحمولة كاملة ) ، وطولها الاجمالي ١٥٨٫٧ مترا ، واقصى عرض لهيكلها ١٦٫٥ مترا ، وعمق غاطسها ٦٫١ امتار· وتبلغ قوة محركاتها ٦٠ الف حصان ، وسرعتها القصوى ٣٠ عقدة ( ٥٥٫٥ كلم في الساعة ) ، ومدى عملها ٣٥٠٠ ميل بسرعة ٢٨ عقدة · والتسليح الرئيسي المضاد للسفن الحربية يتالف في ٣ سفن، هي « دفونشاير » و « كنت » و « لندن » . من ٤ مدافع ( موزعة على برجين في المقدمة ) مزدوجة المهمة ( ضد السفن والطائرات ) من عيار ١١٤ مم ( وزن قذيفتها نحو ٢٥ كلغ ، ومعدل رميها ٢٠ قذيفة في الدقيقة ، واقصى مدى لها ضد السفن حوالي ١٩ كلم ، وضد الطائرات نحو ٦ كلم في حالة الرمي العملي المؤثر ) ·

ولكن في المدمرات الاربع الاخرى ، وهي « فايف » و « غلامورغان » و « نورفولك» و « انتريم » ( وهي الاحدث اذ دخلت الخدمة في اعوام ١٩٦٦ ــ ١٩٧٠ ) ،

يوجد مدفعان فقط في برج واحد بالمقدمة من النوع المذكور ، على حين يعلوهمـــا رباعي للصواريخ سطح ـ سطح من طراز مم ٣٨ « اكسوسـت » « Exocet » ( صواريخ فرنسية الصنع يبلغ مداهـا الاقصى ٣٧ كلم ، وتطير على ارتفاع ٢ـ٣ امتار فوق سطح البحر ، ووزن رأسـها الحربي نحو ١٥٠ كلغ ) ٠

اما التسليح المضاد للطائرات فيتألـف من قاذف ثنائي لصواريخ « سيسلوغ » في مؤخرة السفينة ( صاروخ« Seaslug » سطح ـ جو متوسط المدى يمكنـــه ان يتعامل مع الطائرات افقياحتى ٤٥ كلم ، ويستطيع اعتراض طائرات على ارتفـاع يصل الى ١٥ كلم ، ويمكنه ان يضـرب اهدافا بحرية عند الضرورة ) ، فضلا عن قاذفين رباعيين على كل جانب مــن السفينة من الصواريخ « سي كـات » المضادة للطائرات ( صواريخ قصيـرة المدى بصريا او تليفزيونيا او بالرادار ، ويبلغ مداه في الجو نحـو ٤ كلـم ٠ وبالاضافة الى ذلك ، هناك مدفعان مـن طراز « اورليكون » عيار ٢٠ مم يستخدمان ضد الطائرات او الزوارق الخفيفة ٠

اما الدفاع المضاد للغواصات فيعتمـد بشكل تام على طائرة هليكوبتر من طراز « ويسكس مارك ٣ » ، تحملها السفينـة فوق مهبط خاص قرب مؤخرتها ، وهـي مزودة بجهاز تنصت على الغواصـات ورادار ، ومسلحة بطوربيد او اثنيـن « مارك ٤٤ » المضاد للغواصات ٠ والمدمرة مزودة بجهاز رادار للبحث الجوي طـراز ٩٦٥ ( مداه يبلغ نحو ٣٦٠ كلـم ) . وبرادار لمراقبة الجو والبحر طراز ٩٩٣ ( مداه حوالي ١٢٨ كلم ) ، وبرادار تحديد الارتفاعات طراز ٢٧٨ ٠ وذلك بالاضافة لاجهزة ادارة نيران الصواريخ والمدفعية المختلفة ، وجهاز رادار ملاحي طـراز ٩٧٥ ، وحاسب الكتروني ( عقل الكتروني) يتلقى معلومات الاجهزة المختلفة عـن الطائرات او السفن او الغواصـات ، ويضع الاجراء المضاد المناسب ، ويوجـه العمل حتى يتم اصابة الهدف ، فضلا عن ٤ اجهزة « سونار » ( تصنـت عـلى الغواصات ) ٠ والمدمرات المذكورة مكيفة الهواء بالكامل ، ومجهزة بصورة جيـدة لاقامة وعمل الطاقم ، المؤلف من ٤٧١ فردا ( ٣٣ ضابطا و ٤٢٨ رتبة اخرى ) ، لمدة طويلة ٠

٢ ـ السفينتـان « لنكولـن » و « سالزبوري » هما « فرقاطتـان » « Frigates » وليستا « مدمـرات » « Destroyers » ، كما ورد في النبـأ المشار اليه ٠ وتوجد لهما شقيقة ثالثـة في البحرية البريطانية تسمى «تشيشستر»، وكل من الثلاث ينتمي لفئة «سالزبوري» ٠

وهي تعتبر من السفن القديمة نسبيـا في البحرية البريطانية ، فقد بدأ بنـاء « سالزبوري » في ٢٣ـ١ـ١٩٥٢ ، وانزلت الى الماء في ٢٥ـ٦ـ٥٣ ، ودخلت الخدمة العملية في ٢٧ـ٢ـ١٩٥٧ ٠

أما « لنكولن » فقد بدأ بناؤها فـي ٢٠ـ٥ـ١٩٥٥ ، وانزلت الى الماء ٦ـ٤ـ١٩٥٩ ، ودخلت الخدمة العملية في ٧ـ٧ـ١٩٦٠ ٠

وقد صممت اساسا لتكون سفن توجيه للطائرات العاملة مع البحرية ، سـواء تلك التي تحملها حامـلات طائـرات او العاملة من قواعد برية ٠

ويبلغ وزن هذا النوع من الفرقاطـات ٢١٧٠ طنا ( قياسيا ) و ٢٤٠٨ اطنـان ( بحمولة كاملة ) ، وطولها الاجمالـي ١٠٣ر٦ امتار ، واقصى عرض لهيكلهـا ١٢ر٢ مترا ، وعمق غاطسها ٧ر٤ امتار ٠

وتبلغ قوة محركاتها ١٤٤٠٠ حصان ، وسرعتها القصوى ٢٤ عقدة ( ٥ر٤٤ كلم

في الساعة ) ، ومدى عملها ٢٣٠٠ ميل بسرعتها القصوى ، و ٧٥٠٠ ميل بسرعة ١٦ عقدة ٠

وهي مسلحة بمدفعين ، في برج امامي، من عيار ١١٤ مم ( من النوع ذاته المستخدم في « كاونتي » ) وبمدفعين عيار ٢٠ مم ، وقاذف صواريخ م/ط رباعي من طراز « سي كات » ، وهاون قنابل اعماق ثلاثي السبطانة ٠ وهي مزودة بأجهزة رادار مماثلة لاجهزة مدمرات فئة « كاونتي » واجهزة ادارة نيران ورادار ملاحي ، وجهازي « سونار » ٠ ويتألف طاقمها من ٢٣٧ فردا ( ١٤ ضابطا و ٢٢٣ رتبة اخرى ) ٠

ويوجد لدى بحرية « بنغلاديش » سفينة من النوع ذاته ،تسلمتها في ١-١٢-١٩٧٦، اطلقت عليها اسم « عمر الفاروق » ٠

كما أن السفينة « تشيشستر » موجودة حاليا في احتياطي البحرية البريطانية ٠

ومن الواضح ان السفينتين « سالزبوري » و « لنكولن » ، تعدان من الفرقاطات القديمة الطراز الضعيفة التسليح ، بالقياس للمدمرة «دفونشاير» . وبالنسبة للمدمرات فئة « سكوري » ( السوفييتية الصنع ) الاربع الموجودة حاليا لدى البحرية المصرية ( وزن الواحدة ٢٣٠٠ طن « قياسيا » و ٣١٠٠ طن « بحمولة كاملة » ، واطوالها ١٢٠٫٥ × ١١٫٨ × ٤٫٦ امتار ، وقوة محركاتها ٦٠ الف طن ، وسرعتها القصوى ٣٣ عقدة « ٦١ كلم/ساعة » ، ومدى عملها ٣٩٠٠ ميل بسرعة ١٣ عقدة ، وهي مسلحة بأربعة مدافع عيار ١٣٠ مم ، ومدفعين عيار ٨٨ مم و ٨ مدافع ٣٧ مم و ٤ مدافع ٢٥ مم بالنسبة لاثنتين منهما ٠ و ٤ مدافع ٥٧ مم و ٤ مدافع ٣٧ مم و ٤ مدافع ٢٥ مم بالنسبة للاثنتين الاخريين ، وقذائف اعماق ضد الغواصات ، و ١٠ انابيب طوربيد ) ، ومن ثم فانهما لا تشكلان اضافة ذات اهمية فعالة للبحرية المصرية ، ما لم يتم تحديثهما بصورة كاملة ، الا اذا اعتبرتا بدائل احدث للفرقاطتين المصريتين القديمتين « رشيد» و « بورسعيد » ، وهما بريطانيتان ايضا، دخلتا الخدمة بالبحرية البريطانية في العام ١٩٤٠ ( بالنسبة لبورسعيد ) و ١٩٤٢ ( بالنسبة لرشيد ) وحتى في هذه الحالة ، وما لم يتم تزويدهما بصواريخ سطح - سطح فعالة ، فانهما لن يصلحا الا لمهام الحراسة الساحلية المحدودة ، ولا يستطيعان مواجهة زوارق الصواريخ الاسرائيلية من طراز « ساعر » او « ريشيف » ٠

٣ - كما ورد في تصريح الفريق اول « الجمسي » المشار اليه بأن مصر تقوم بانتاج وتسليح انواع جديدة من زوارق الطوربيد ٠

والمعروف ان البحرية المصرية تمتلك ٦ زوارق طوربيد كبيرة من فئة « شيرش » السوفييتية الصنع ٠ ويبلغ وزن الزورق ١٦٠ طنا بحمولة كاملة ، وقوة محركاته ١٣ الف حصان ، وسرعته القصوى ٤١ عقدة ( ٧٥٫٩ كلم في الساعة ) ، وهو مسلح بأربعة انابيب اطلاق طوربيدات عيار ٢١ بوصة و ١٢ قنبلة اعماق ، واثنان منهما مسلحان بأربعة مدافع م/ط ٣٠ مم ، واربعة مسلحين بـ ٤٠ قاذف صواريخ « كاتيوشا » عيار ١٤٢ مم وقاذف صواريخ « سام - ٧ » ( وفقا للتسليح المصري ) ٠ و ٢٠ زورق طوربيد من فئة « ب - ٦ » P-6 ، الاصغر حجما وتسليحا ، وكانت البحرية المصرية قد تسلمت ١٢ زورقا من هذه الفئة من الاتحاد السوفييتي في العام ١٩٥٦ ، وتسلمت ٦ زوارق اخرى في العام ١٩٦٠ ، وقد غرق منها ١٠ زوارق في اعوام ٥٦ و٦٧ و٦٩ و٧٠، وجرى تصنيع

عدة زوارق منها في الاسكندرية · كما وصل عدد منهامن الاتحاد السوفييتي حتى العام ١٩٧٣ · ويبلغ وزن الزورق منها ٧٥ طنا بحمولة كاملة ، وقوة محركاته ٤٨٠٠ حصان ، وسرعته القصوى ٤٣ عقدة ( ٧٩ر٦ كلم/ساعة ) ، ومدى عمله ٤٥٠ ميلا بسرعة ٣٠ عقدة . وهي مسلحة بأنبوبي اطلاق طوربيدات عيار ٢١ بوصة ( هناك زورقان فيهما ٤ انابيب طوربيد ) وبأربعة مدافع عيار ٢٥ مم ، أو مدفعين فقط وقاذف صواريخ « كاتيوشا » عيار ١٢٢ مم ذو ٨ سبطانات ( وفقا لاعادة تسليحها في مصر ) ·

كما يوجد لدى البحرية المصرية ٤ زوارق طوربيد من فئة « ب ـ ٤ » الاصغر حجما وقوة ، ويبلغ وزن الزورق منها ٢٥ طنا ( قياسيا ) ، وقوة محركاته ٢٢٠٠ حصان ، وسرعته القصوى ٥٠ عقدة ( ٨٢ر٦ كلم في الساعة ) ، وهو مسلح بأنبوبي اطلاق طوربيدات من عيار ١٨ بوصة ، ورشاشين م/ط عيار ١٤ر٥ مم ، و ٨ قواذف صواريخ « كاتيوشا » عيار ١٢٢ مم ( تسليح مصري ) ·

والارجح ان المقصود بالزوارق المصنعة محليا هي زوارق فئة « ب ـ ٦ » التي يجري تسليحها على النحو الذي ذكرناه آنفا ، لزيادة قوة نيرانها المضادة للاهداف الساحلية والمساندة لعمليات الاغارة او الانزال الصغيرة ·

هذا ومن المعروف ان ترسانة الاسكندرية ( بنيت بمساعدة سوفييتية اقتصادية وتقنية لتكون قادرة على انتاج سفن مجموع حمولتها سنويا نحو ٥٤ الف طن ) قد انتجت في العامين ١٩٧٥ و ١٩٧٦ عددا يقدر بنحو ٦ زوارق صواريخ من نوع مماثل لفئة زوارق « كومار » السوفييتية الصنع ، والتي ما زالت البحرية المصرية تمتلك منها ٤ زوارق · وقد زودت بمحركات ديزل سوفييتية الصنع ، ولكنها سلحت بصواريخ « اوتومات » الفرنسية ـ الايطالية الصنع ( يبلغ وزن رأسها الحربي ٢١٠ كلغ ومداها الاقصى ٨٠ كلم ) ، وهي زوارق يبلغ وزن الواحد منها بحمولة كاملة ٨٠ طنا ، وقوة محركاتها ٤٨٠٠ حصان ، وسرعتها ٤٠ عقدة ( ٧٤ كلم في الساعة ) ، ومسلحة بصاروخين سطح ـ سطح ورشاشين م/ط عيار ٢٥ مم ، والنوع السوفييتي منها مسلح بصاروخين « س س ـ ن ـ ٢ » ، التي يبلغ مداها الاقصى نحو ٤٣ كلم ·

وحتى الان لم تحل الجهود سالفة الذكر ، في مجال ايجاد مصادر بديلة للتسليح السوفييتي ، المشاكل الرئيسية للبحرية المصرية ضمن حجم وفاعلية قوتها السابقة · فبالنسبة للمدمرات والفرقاطات ، يمكن ان تحل المدمرة البريطانية « دفونشاير » محل المدمرة البريطانية القديمة المسماة « الفاتح » والفرقاطتين « سالزبوري » و « لنكولن » محل الفرقاطتين البريطانيتين « رشيد » و « بورسعيد » ، ولكن تبقى المدمرات الاربع من فئة « سكوري » ، وهي « السويس » و « الظافر » و « دمياط » و « ٦اكتوبر » ( الناصر سابقا ) . بحاجة الى تحديث شامل او استبدال بمدمرات حديثة وأقوى · (★) هذا فضلا عن مشكلة تطوير ، او الاستخدام العملي الفعال ، او استبدال الاثنتي عشرة

---

(★) بالنسبة لتفاصيل قوة المدمرات والفرقاطات ، والبحرية المصرية عموما ، يمكن الرجوع الى دراستنا عن « دور الحصار البحري على اسرائيل » المنشورة في عدد شؤون فلسطينية رقم ٦٧ ، وخاصة الصفحات ٦٢ ـ ٧٠ ·

غواصة السوفييتية الصنع ، التي تشكل جانبا رئيسيا وهاما من القوة الضاربة البحرية المصرية ، خاصة في مجال فرض الحصار البحري على اسرائيل ٠

وكذلك مشكلة زوارق الصواريخ فئة « اوسا » ، البالغ عددهـا ٦ زوارق حاليا ٠ ومشكلة السفن المضادة للغواصات ، الاثنتي عشرة ، من فئة « سو ١ » ، ومشكلة كاسحات الالغام العشر الخاصة بأعالي البحار ، ومشكلة سفن الانزال الاربع عشرة ٠ وكلها مشاكل في حاجة الى حلول دائمة وفعالة ٠

**الثورة تضرب في القدس مرة اخرى**

واصلت المقاومة الفلسطينية نشاطها الفدائي في الارض المحتلة ، وفي قلب مدينة « القدس » بالذات ، حيث نفذت حركة « فتح » ، عشية زيارة نائب الرئيس الاميركي « ولتر مونديل » لاسرائيل عملية تفجير عبوة ناسفة في سوق محنا يهودا للخضر وسط صناديق البندورة يوم ٢٩ـ٦ـ٧٨ ، مما ادى الى قتل ٢ من الاسرائيليين واصابة ٤٧ بجروح ، وفقا للرواية الاسرائيلية عن الحادث ٠ في حين قال بيان المقاومة ان عدد القتلى بلغ ٨ أشخاص والجرحى ٣٥ ٠

وتلك هي ثاني عملية فدائية كبيرة تقع في « القدس » خلال فترة شهر تقريبا . اذ سبقتها قنبلة انفجرت في اوتوبيس وأدت الى مقتل ٦ اشخاص ٠

وفي اليوم التالي ، ٣٠ـ٦ـ٧٨ ، استبد الحنق بوزارة الخارجية الاميركية ، فأصدرت بيانا نددت فيه بالعملية المذكورة وبمنظمة « فتح » وبالاخ « ياسر عرفات » زعيمها ورئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ، وذلك في سابقة لا مثيل لها في بيانات الخارجية الاميركية تجاه المقاومة الفلسطينية ٠ وقد ردت الاستخبارات الاسرائيلية على العملية ، من خلال منظمة مجهولة تطلق على نفسها اسم « قانون الثأر » فالقت قنبلة في قاعة فارغة في « باريس » استؤجرت من اجل اقامة مهرجان مؤيد للفلسطينيين ، وتسببت القنبلة في احداث اضرار مادية جسيمة ٠ وقال بيان المنظمة المزعومة ان هذه القنبلة قد فجرت انتقاما لعملية « القدس » سالفة الذكر ٠

وقد جاء تنفيذ العملية الفدائية ، ليؤكد مرة اخرى ، حقيقة قدرات عمل المقاومة الفلسطينية داخل الارض المحتلة في فلسطين ، وليس انطلاقا من اراضي لبنان فحسب ، كما تزعم مصادر العدو الصهيوني ٠ ومؤكدة في الوقت ذاته عدم فاعلية عمليات الردع المباشر الاسرائيلية ضد الثورة الفلسطينية ، من حيث اجبارها على ايقاف او تقليل نشاطها الثوري المسلح ، نظرا لضخامة وعمق اهدافها النضالية وعدم وجود ما يمكن ان تخسره بعد ان فقدت ارض الوطن المغتصب ، وقدمت الاف الشهداء على ساحة النضال ٠

وفي الوقت ذاته جاءت هذه العملية لتؤكد عدم قدرة الامبريالية الاميركية ، على تصفية منظمة التحرير الفلسطينية ٠

**الولايات المتحدة توافق على بيع ٥٠ طائرة « كفير » « اسرائيلية الى « تايوان »**

ذكرت شبكة اذاعة وتليفزيون « سي بي٠اس » الاميركية ، في ٥ـ٧ـ٧٨ ، ان الولايات المتحدة سمحت لاسرائيل بأن تبيع عددا يتراوح ما بين ٥٠ و ٦٠ طائرة مقاتلة من طراز « كفير » ، ذات الهيكل المصنوع في اسرائيل والمحرك المصنوع في الولايات المتحدة الى « تايوان » ، اي ما يسمى بالصين الوطنية ٠

وجاءت هذه الموافقة الاميركية بعد معارضة سابقة لبيع هذه الطائرات الى

دول اميركا اللاتينية ، وكذلك الى النمسا، وان كانت الاخيرة قد ترددت في شراء هذه الطائرات تحسبا لدورها لدى الدول العربية ووساطتها الجارية في مجال التسوية السلمية ٠

وكان الحظر الاميركي لتصدير هذه الطائرات ، الناتج عن ان محركها اميركي الصنع ، ومن النوع المستخدم في طائرات « الفانتوم » ، وكذلك العديد من معداتها الالكترونية ، نابعا من عدم رغبة الولايات المتحدة في منافسة الصناعة الجوية الاسرائيلية للصناعة الجوية الاميركية في اسواقها التقليدية ٠ ولكن يبدو ان الموافقة على بيع الصفقة المذكورة ، والبالغ قيمتها نحو ٥٠٠ مليون دولار ، الى « تايوان » ، جاء كترضية اميركية اخرى عن صفقة الطائرات الاميركية لكل من السعودية ومصر ، وللتخفيف من المشكلات الاقتصادية التي تعانيها الصناعة الجوية الاسرائيلية ، نتيجة لعدم قدرتها على تصدير طائرات « الكفير » ٠ اذ ان هناك نحو ٢٧٠٠ شخص ، يعملون في ٢٧ مصنعا مختلفا ، يشتركون في صنع طائرات « الكفير » ، ولم يكن من الممكن الاستمرار في الانتاج وتطويره بصورة اقتصادية ما لم يتم تصدير جزء كبير منه الى الخارج ، نظرا لان متطلبات السلاح الجوي الاسرائيلي ( تسلم منها نحو ١٠٠ طائرة ) لا تكفي لتغطية نفقات الانتاج وجعله عملية مربحة اقتصاديا ٠

بقي ان نذكر ان « تايوان » طلبت شراء هذه الطائرات الحديثة ،نظرا لان مقاتلاتها من طراز « ف ــ ٥ أ و ب و أ ي » ، البالغ عددها ١١٠ طائرات ، لم تعد كافية للتصدي الفعال لخطر مقاتلات الصين الشعبية ٠ هذا في الوقت الذي تبيع فيه الولايات المتحدة ٥٠ طائرة « ف ــ ٥ اي» الى مصر ، وتعتبرها اسرائيل مخلة بالتوازن العسكري بينها وبين مصر !

و « الكفير » ( طراز سي ــ ٢ ) هي مقاتلة معترضة ومطاردة ، مزودة بمحرك تبلغ قوة دفعه مع الحراق الخلفي ، المستخدم لاحداث تسارع مفاجىء ، ٨١٢٠ كلغ ٠ وتبلغ سرعتها القصوى على ارتفاع ١١ الف متر نحو ٢٢٨٥ كلم ، وعلى ارتفاع سطح البحر ١٣٧٠ كلم ، ومعدل تسلقها ٢٤٠ مترا في الثانية ، واقصى ارتفاع عملي لها ١٨ كلم ، ومدى عملها في مهام الاعتراض الجوي ٥٢٠ كلم ، وهي مزودة بخزان وقود اضافي ، ومداها في حالة القصف الارضي على ارتفاع عالي ــ منخفض ــ عالي يبلغ نحو ١٢٠٠ كلم ٠ وهي مسلحة بمدفعين عيار ٣٠ مم لكل منهما ١٥٠ طلقة ويمكنها ان تحمل حمولة قصوى من القنابل تبلغ ٣٨٥٥ كلغ ٠

ونظرا لمحدودية مداها نسبيا ، وكذلك صفتها الاعتراضية الرئيسية ، وافقت الولايات المتحدة على تزويد اسرائيل لتايوان بها ، بدلا من طائرات « ف ــ ٤» « الفانتوم » ، التي كانت تريدها «تايوان» اصلا ٠ وذلك تمشيا مع سياسة الولايات المتحدة الجديدة مع الصين الشعبية المتسمة بالتحسن المضطرد ، كخطوة لازمة في تشجيع الاخيرة على المضي في سياسة العداء للاتحاد السوفييتي ٠ اذ ان امتلاك « تايوان » لطائرات « الفانتوم » يجعلها اكثر قدرة على قصف الصين الشعبية في العمق ، وبفاعلية اكبر بكثير من طائرات « الكفير » ٠

# شؤون ادبية

ادوار سعيد

## صور من الجغرافية التخيلية
# الشرق كما صوره المستشرقون

الاستشراق بمعناه الدقيق حقل من حقول الدراسات العلمية ، وترجع بداية حركة الاستشراق في العالم الغربي المسيحي الى قرار المجمع الكنائسي المنعقد في فيينا عام ١٣١٢ ، والذي اوصى بانشاء عدد من الكراسي الجامعية في اللغات التالية « العربية واليونانية والعبرية والسريانية في باريس واكسفورد وبولونيا وافينيون وسالامنكا » كما ذكر « ر٠و٠ سوثرن » R. W. Southern
ولا بد لاي بحث في مسألة الاستشراق ان لا يقتصر على اعمال المستشرقين المتخصصين بل يتوسع الى معالجة مفهوم **الحقل** الدراسي الذي ترتكز دعائمه على مجموعة جغرافية وثقافية ولغوية وعرقية تدعى بالشرق ٠ فمما لا شك فيه ان الحقول الدراسية تكتسب صدقا معرفيا وتماسكا فكريا بمرور الزمن ومن خلال تكريس الباحثين لجهودهم ومساهمتهم في تنمية الحقل المتفق على

---

★ مع ان مصطلح « الاستشراق » يستخدم عادة للاشارة الى دراسة الشرق بأكمله ( بما في ذلك حضارات الصين واليابان والهند والمسلمين ) الا اننا نستعمله في هذا المقال لنشير في الدرجة الاولى الى الشرق الادنى او بلاد الاسلام او العرب او كليهما ٠ وفي القرن الثامن عشر كان « الشرق » يعني بالنسبة للاوروبيين الاسلام او تركيا او بلاد العرب ٠ ويعزى سبب توسع مفهوم « الشرق » الى اكتشاف مناطق واسعة من القارة الاسيوية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ٠ ورغبة منا في عدم التفريط بالإتماسك في فكرة « الشرق » القديمة فقد عالجنا حركة « الاستشراق » من منطق كونها تمثل اهتمام الغرب بالشرق الادنى ٠ وهذا الاهتمام يتجسد في الدراسات الاكاديمية والاعمال الادبية والعلاقات التجارية ومحاولات السيطرة السياسية ٠ وهذا المقال جزء من كتاب يحمل عنوان « حركة الاستشراق » ستنشره جامعة كاليفورنيا ٠

مضمونه · ومما لا يخفى على القارىء ان حدود الحقل الدراسي قلما تكـــون بالوضوح الذي يدعيه حتى اكثر أنصاره تحمسا من باحثيـــن واساتـــذة ومتخصصين وغيرهم · كما ان الحقل العلمي قد يتغير تغيرا شاملا كما حـدث في ميادين تعليمية كالفيلولوجيا ( فقه اللغة ) والتاريخ واللاهوت ، الى درجـة يكاد يستحيل فيها الوصول الى تعريف عملي لمضمون الحقل الدراسي · وهـذا يصح وينطبق على حركة الاستشراق لاسباب مهمة ·

ان لادراج تخصص اكاديمي كالدراسات الاستشراقية تحت « حقـــل » جغرافي دلالات واضحة حيث انه يصعب تصور حقل مماثل يسمى بالدراسـات « الاستغرابية » ·وهكذا تظهر خصوصية وغرابة الموقف الاستشراقي · وممـا لا ينكر ان هناك فروعا علمية تنطوي على موقف معين تجاه مادة ما ، كالمـادة الانسانية مثلا ، ( فدارس التاريخ يعالج الماضي الانساني من موقع متمايـــز وراهن ) ولكن هذا لا يشكل عنصر قياس بين ما ذكر وبين الاخذ بوجهة نظـــر جغرافية ثابتة وتكاد تكون موحدة لحقائق اجتماعية ولغويـــة وسياسيـــة وتاريخية متعددة ومتباينة · فالمتخصص في الدراسات الكلاسيكية او الرومانسية او حتى الامريكية يركز على جزء صغير نسبيا من العالم وليس على نصفه كما تفعل الحركة الاستشراقية المتميزة بطموحها الجغرافي · وبما ان المستشرقيـن قد صرفوا همهم لكل ما هو شرقي ( فالمستشرقون يعتبرون المتخصص بالشرع الاسلامي كالمتخصص في اللهجات الصينية او الاديان الهندية مستشرقا ) فعلينا ان نتقبل مجموعة هائلة وغير متجانسة من المعلومات واستعدادا خارقـــا للتشعب كمقومين رئيسيين للحركة الاستشراقية ورؤيتها المربكة الجامعة بيـن الابهام التعسفي والانصراف الى التفاصيل الدقيقة ·

كل ما تقدم كان وصفا للحركة الاستشراقية كفرع اكاديمي · وتعبيــــر الاستشراقية في صيغته الاسمية المجردة يدل على استقلال الفرع عن غيـره · وقد تميز تطوره التاريخي كفرع اكاديمي بتوسع ميدانه وليس بازدياد تخصصه· لقد كان مستشرقو عصر النهضة كـ « اربنيوس » **Erpenius** و « جيلـــوم بوستيل » **Guillaume Postel** في المقام الاول باحثين في لغات الاقاليـم المرتبطة بالكتاب المقدس·مع ان « بوستيل » تباهى بقدرته على السفر الى الصين من دون ان يحتاج الى مترجم · وعلى العموم وحتى منتصف القرن الثامـــن عشر كانت الحركة الاستشراقية تضم باحثي الكتاب المقدس ودارسي اللغـات السامية والمتخصصين في الاسلام والصين التي كان قد بدأ اليسوعيون في فتح باب دراستها · ولم يصل غزو المستشرقين الاكاديمي الى اواسط اسيا حتى نهاية القرن الثامن عشر حين توصل « انكيتيل ـ دوبيرون » **Anquetil - Duperron** و « سير ويليام جونز » **Sir William Jones** الى الكشف عن قيمة وثـراء الزند والسانسكريتية · ولقد اصبحت الحركة الاستشراقية في منتصف القـرن

التاسع عشر ميدآنا ثريا ذا ابعاد مترامية · وهناك مصدران ممتازان لهذا النمط الانتقائي الجديد ، احدهما وصف موسوعي للحركة الاستشراقية من حوالي ١٧٦٥ الى ١٨٥٠ لصاحبه « رايمون شواب » **Raymond Schwab** في كتابه : **النهضة الشرقية** ( والصادر في عام ١٩٥٠ ) · وبالاضافة الى الاكتشافات العلمية في ميدان الدراسات الشرقية التي قام بها المتخصصون في اوروبا ، فقد سادت موجة الاقبال في هذه الفترة على الخصائص الشرقية وتركت هذه الموجة اثرها على ابرز شعراء وكتاب وفلاسفة تلك الحقبة ·

ويرى « شواب » ان « الشرقي » صار نعتا لكل منتولع بما هو اسيوي سواء كان هاويا ام متخصصا · وقد كان تعبير الشرقي مرادفا لكل ما هو غريب وغامض ، عميق وخصب · وهذا الولع يمثل امتدادا شرقيا وتحولا لاحقا لولع اوروبي مماثل بكل ما هو يوناني او روماني في قمة عصر النهضة · وقد عبر « فكتور هوجو » عن هذا التحول في عام ١٨٢٩ بالكلمات التالية : « كانت نزعتنا هيلينية في قرن لويس الرابع عشر اما الان فهي شرقية » · فنرى مما تقدم ان المستشرق في القرن التاسع عشر كان اما باحثا ( متخصصا بالصين او بالاسلام او بالعلاقات الاوروبية – الهندية ··· الخ ) او هاويا موهوبا كهوجو في « الشرقيات » **Les Orientales** او « جوته » **Goethe** في « ديوان الغرب والشرق » **West - Ostlicher Divan** او كليهما إكـ«ريتشارد برتون » **Richard Burton** او « ادوارد لين **Edward Lane** او « فردريك شليجيل » **Friederich Schlegel**

ونجد المصدر الثاني لتوسع الحركة الاستشراقية منذ مجمع فيينا في سجل الحقل نفسه وادق ما كتب في هذا الموضوع هو كتاب « جول مول » **Jules Mohl** **سبعة وعشرون عاما من تاريخ الدراسات الشرقية** ( الصادر في ١٨٧٩ – ١٨٨٠ ) في مجلدين ضخمين يحتويان على كل ما يستحق التسجيل في الحركة الاستشراقية بين ١٨٤٠ – ١٨٦٧ · وقد شغل « مول » منصب سكرتير الجمعية الاسيوية في باريس وكانت باريس عاصمة العالم الاستشراقي لفترة جاوزت النصف الاول من القرن التاسع عشر · ويرى « والتر بنيامين » :

( ان باريس بقيت مركز الاستشراق خلال القرن التاسع عشر كله ) ·

وقد لعب « مول » بفضل منصبه في الجمعية الاسيوية دورا محوريا في الحركة الاستشراقية · ومن النادر ان نقع على بحث تطرق فيه كاتب اوروبي الى اسيا خلال فترة تأريخ مول ، غير مذكور في باب « الدراسات الشرقية » ·وكتابه يشير الى المنشور من الابحاث فقط ولكن نطاق ما نشر عما يتعلق بالشرق كان رهيبا في وسعه وفيه دراسات عن العربية واللهجات الهندية العديدة والعبرية والبهلوية والاشورية والاكرية والمنغولية والصينية والكوشينية والبرمية والسومرية والجافانية · اما قائمة الاثار الفلسفية التي تدخل ضمن الدراسات

الاستشراقية فلا تعد ولا تحصى · وبالاضافة الى كل هـــذا فللدراســـــات الاستشراقية جوانب متباينة ، فهي تعني بتحقيق وترجمة النصوص وبالدراسات الاثرية والانتربولوجية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والادبية والثقافية فـ يكل حضارة معروفة في اسيا وشمال افريقيا قديما وحديثا · ومع ان كتابا كـ « **تاريخ مستشرقي اوربا في القرن الثاني عشر الى القرن التاســــع عشر** » ( الصادر في ١٨٦٨ ــ ١٨٧٠ ) لــ « جوستاف دوجا » G. D. يقتصر على سرد تاريخي لنخبة مختارة من ابرز الشخصيات الا ان دائـــــرة نطاقه لا تقل وسعا عن كتاب « مول » ·

ومع هذا فقد كان لهذا المنظار الانتقائي مناطق عمياء بقيت خارجة عن مجال رؤيته · فقد اهتم المستشرقون الاكاديميون بصورة عامة بالحقبات الكلاسيكية للحضارات واللغات التي درسوها ولم يحصل تحول الا في اواخر القرن · لقد ندر اهتمام الدراسات الاكاديمية بالشرق المعاصر او واقعه باستثناء معهـــد مصر الذي انشأه نابليون · وبالاضافة الى ذلك فقد كانت دراسة الشرق تنحصر في اغلب الاحيان في دراسة نصوصية فكانت الكتب والمخطوطات منبع التأثيــر على خلاف تأثير اليونان في فكر النهضة النابع من الفن التشكيلي كالنحــت والفخار ·وحتى علاقة المستشرق بالشرق كانت مقتصرة على النصوص الى حد انه قيل ان معاينة بعض المستشرقين الالمان في اوائل القرن التاسع عشر لتمثال هندي ذي ثماني اذرع قد شفاهم من شغفهم بالشرق · وعندما كان المستشــرق المتعلم يسافر الى اقليم تخصصه فقد كانت في ذهنه دائما قواعد مجــــردة عن « الحضارة » التي يدرسها ويندر ان يهتم المستشرقون الا باثبات صحــة هذه « الحقائق »البالية وذلك بتطبيقها تعسفيا على شعوب « غير راعيــة » وبالتالي « منحطة » في نظرهم · واخيرا فقد ساهم نفوذ ونطاق الحركـــــة الاستشراقية في تبلور المعرفة الدقيقة والوضعية عن الشرق وكذلك في خلـــق نوع من المعرفة من الدرجة الثانية والتي كانت متداخلة فيما دعي بالقصـــة « الشرقية » واساطير الشرق الغامضة وفكرة الاستغلاق الاسيوي ، وكل مـــا اطلق عليه « ف · ج · كيرنان » **V. G. Kiernan** « حلــم يقظــة اوروبــا الجماعي بالشرق » · ومن النتائج السعيدة المترتبة على هذا ان عددا من الكتاب في القرن التاسع عشر كان متحمسا للاستشراق · واعتقد انه يصح ان نتكلم عن وجود نوع ادبي من المؤلفات الاستشراقية المثلة في اعمال « هوجـــو » و « جوته » و « نيرفال » **Nerval** و « فلوبير » **Flaubert** و « فيتزجيرالد » **Fitzgerald** وامثالهم · ويتخلل هذه الاعمال جو الشرق الاسطوري ، ذلك الشرق الذي لا يستمد وجوده من المواقف المعاصرة والاهواء السائدة فحسب بل مما دعاه « فيكو » بخيال الامم والعلماء ·

وفي يومنا هذا يستبعد من المستشرق ان يسمي نفسه مستشرقا كما كانــت

العادة قبل الحرب العالمية الثانية ، وان كان المصطلح ما زال مستخدما في الجامعات ، عندما تشير الى برامجها او اقسامها المتخصصة في اللغات او الحضارات الشرقية · ففي جامعة اكسفورد « كلية » للشرقيات وفي جامعة برنستون قسم للدراسات الشرقية · وحديثا في عام ١٩٥٩ شكلت الحكومة البريطانية لجنة « لمراجعة التطور في الجامعات في حقول الدراسات الشرقية والسلافية والاوروبية الشرقية والافريقية ···· والاخذ بعين الاعتبار التطورات في المستقبل وتقديم توصيات بشأنها » · وكان تقرير « هايتر » Hayter ، كما أطلق عليه عندما صدر في عام ١٩٦١ ، غير محرج بعمومية المصطلح اكلمة « شرقي » والتي وجدها مستخدمة في الجامعات الامريكية ايضا · وحتى « هـ·أ·ر· جيب ، H. A. R. Gibb وهو من ابرز الشخصيات في الدراسات الاسلامية في العالم الانجلو ـ سكسوني المعاصر ، اختار لتقديم نفسه كلمة مستشرق على مستعرب ، وبالرغم من ثقافته الكلاسيكية فقد استخدم المصطلح المستحدث البغيض « دراسة منطقة » Area study للتعبير عن الاستشراق وليثبت ان دراسة منطقة جغرافية والاستشراق تعبيران مترادفان · ولكني ارى ان هذه الصلة الرابطة بين فرع علمي ومنطقة جغرافية ليست باكثر من زعم مبسط للواقع وبودي ان اعالج هذه الصلة بايجاز ·

ان الذهن بالرغم من تشتته في العديد من الدوافع المبهمة والشهوات والتخيلات الا انه لا ينفك عن الالتزام بما سماه « ليفي ـ ستروس » Lévi - Strauss بمنطق الملموس · فالقبيلة البدائية ، مثلا ، تحدد لكل جنس نباتي مكانا ووظيفة ودلالة في محيط بيئته وليس لكثير من هذه الاعشاب والزهور فائدة عملية ، ولكن ما رمى اليه « ليفي ـ ستروس » هو ان الذهن يحتاج الى تنظيم والتنظيم يتم بالتقييم والتمييز موزعا كل ما يعيه على مواقع فكرية يمكن الرجوع اليها ، ووفقا لذلك تكتسب الاشياء قدرة على التفاعل ضمن مجموعة العلاقات المادية والرمزية التي تشكل البيئة · ولهذا التصنيف البدائي منطق ولكن لهذا المنطق الذي قد يجعل من الخنشار الاخضر رمزا للفضيلة في مجتمع ما وعلامة شرف مجتمع اخر قواعد لا يمكن الجزم بعقلانيتها او بعموميتها الشاملة ، فهناك درجة من التحكمية الصرفة التي تصبغ نظرتنا عند التمييز بين الاشياء · ويلازم هذا التمييز فيما لو تم الكشف عن اصولها لبان فيها نفس الدرجة من التحكمية · وهذا واضح جدا في مسألة الاناقة ، فلماذا تسود ظاهرة الشعر المستعار والياقات المزركشة والاحذية ذات الكعوب العالية ثم تختفي بعد فترة من الزمن ؟ وتفسير هذه الظاهرة يكمن في ان الزي الانيق يجمع بين طرفين : الوظيفة العملية والاعتبارات الجمالية · فاذا اقتنعنا بان كل ما في التاريخ ، كالتاريخ نفسه ، من صنع البشر فسنتوصل الى نتيجة هامة وهي ان الاشياء او الاماكن او الازمنة توظف وتعطي دلالات لا تكتسب شرعية موضوعية الا بعد عملية التوظيف · وهذا ينطبق بصورة خاصة على ما هو غير مألوف نسبيا

كالغرباء والطفرات والسلوك الشاذ .

ومن الواضح ان الذهن يخلق بعض هذه الكيانات المميزة ، فبالرغم من انها تبدو وكأن لها وجودا موضوعيا فهي لا تتواجد الا في عالم التصور ولنضرب مثلا : جماعة من البشر التي تعيش في مساحة معينة ترسم حدودا بين ارضها وبين الاراضي المجاورة لها من جهة ومن جهة اخرى تطلق اسم « ارض المتوحشين » على ما وراء اراضيها . ولو شئنا ان نصوغ هذا بكلمات اخرى لقلنا ان هذا العرف المتبع في العالم كله والذي ينسب المكان المألوف « الينا » وامكان غير المألوف فيما وراء مكاننا « اليهم » ما هو الا اداة لتشكيل فوارق اقليمية قد تكون في منتهى التعسف . وانا استخدم كلمة تعسف لان الجغرافية التخيلية من النوع الذي يفصل بين « ارضنا ـ ارض المتوحشين» لا تتطلب من المتوحشين الاعتراف بهذه الفواصل فيكفي لنا ان نقيم حواجز في فكرنا حتى يصير الاخرون « هم » وفقا لذلك ونعتبر اقليمهم وفكرهم على انه مباين لما عندنا . وتستمد المجتمعات المعاصرة والبدائية الى حد ما عنصرا من هويتها بصورة سلبية . فمن المرجح ان المواطن الاثيني كان يشعر سلبيا بأنه غير متوحش كما كان يشعر ايجابيا بأنه اثيني . ويلازم الحدود الاقليمية التي تحدثت عنها فواصل اجتماعية وعرقية وثقافية معززة . فشعور الانسان بانه غير اجنبي يبقى مبنيا في الغالب على رؤية غير دقيقة عما يتواجد «هناك» فيما وراء اقليمه . وتتشابك كل انواع الفرضيات والتداعيات والتصورات في رسم المكان الغريب وغير المألوف الذي يتواجد خارج مكاننا .

لقد أشار الفيلسوف الفرنسي « جاستون باشلارد » Gaston Bachelard في تحليله لما سماه بالابداع في لغة المكان ، الى ان داخل البيت يكتسب دلالات توحي بالالفة والخفية والطمأنينة ، وهذه الدلالات قد تتجسد في واقع البيت او في خيالنا ، ولكن اقترانها بالبيت ينبع من تجاربنا . فالبيت كمكان موضوعي بزواياه واروقته واقبيته وغرفه اقل اهمية مما يقترن به من ايحاءات ومشاعر يمكننا ان نحس بها ونعبر عنها : فنصور البيت مسحورا او مسكونا ، ذا جو عائلي بهيج او نظامي صارم وما شاكله . وهكذا يكتسب المكان شحنات عاطفية ومعنوية من خلال عملية ابداعية تتحول فيها امتدادات المكان المجهولة وفراغاته الى مغزى . وتحصل العملية نفسها عندما نتعامل مع الزمن ، فأكثر ما يرتبط ذهنيا او يعرف عقليا عن حقبات تاريخية « منصرمة » او « في البدء » او « في اخر الزمان » فانها من صنع المخيلة، فمع ان لتعبير زمن منصرم عند مؤرخ يتعامل مع الملكة الوسطى في تاريخ مصر القديم معنى واضح ، الا ان هذا المعنى لا يقضي على العنصر التخيلي وشبه الخيالي الذي نحس به مندسا في مفهوم الزمن البعيد المختلف عن زماننا . فلا شك ان الجغرافية التخيلية والتاريخ التخيلي يساعدان الذهن على تكثيف وعيه الذاتي من خلال تبلور

درامي للمسافة والفارق الذي يفصل بين ما هو قريب منه وبعيد عنه · وهذا ينطبق ايضا على الشعور الذي يساورنا احيانا باننا قد نكون اكثر انسجاما وجدانيا مع القرن السادس عشر او في جزر تاهيتي ·

ولكن من الخطأ ان ندعي بان كل ما نعرفه في الزمان والمكان او بالاحرى في التاريخ والجغرافية يتسم بطابع تخيلي ، فهناك في اوروبا والولايات المتحدة تاريخ وضعي وجغرافية وضعية حققتا انجازات يشار اليها بالبنان · فالباحثون يعرفون اليوم اكثر مما كانوا يعرفون في زمن « جيبون » Gibbon على سبيل المثال · ولكن هذا لا يعني انهم يعرفون كل ما يمكن معرفته او ان ما يعرفونه – وهذا أشد خطورة – قد ازال فعليا المعرفة التخيلية للتاريخ والجغرافية كما عرضتها · ولا داعي هنا لاتخاذ قرار حاسم فيما اذا كان هذا النوع من المعرفة التخيلية قد ساهم في احياء التاريخ والجغرافية او في تخطيهما ولنكتفي بالقول في الوقت الراهن بان هناك مادة اضافية لا يغطيها مضمون المعرفة الوضعية ·

ولقد كان الشرق في نظر اوروبا ومنذ اقدم العصور غير محصور فيما هو معروف عنه فعليا · ولقد اوضح « ر·و· سوثرن » كيف ان الفهم الاوروبي لنوع معين من الحضارة الشرقية وهي الحضارة الاسلامية حتى بداية القرن الثامن عشر ( على الاقل ) كان ينم عن الجهل بالرغم من اتسامه بالتعقيد · ويبدو ان فكرة الشرق قد استقطبت عددا من المفاهيم التي تجمع بين الاستنارة والجهل· فلنتناول اولا مسألة الحدود الفاصلة بين الشرق والغرب التي تبدو واضحة حتى في زمن **الالياذة** · فيظهر العنصران البالغا التأثير والمرتبطان بالشرق في اقدم مسرحية اثينية وصلتنا وهي **الفارسيون** لـ « اسخيلوس » وفي اخر مسرحية وصلتنا من اثينا وهي **كاهنات باخوس** لـ « يوريبيدس » ويصور اسخيلوس نكبة الفرس عندما بلغهم ان جيشهم بقيادة الملك خيرخس قد دحره اليونانيون · وتغني الجوقة المقطع التالي :

اليوم تئن ارض آسيا المقفرة

قاد خيرخس قواته اه ثم اه

قهر خيرخس ! ويلاه ويلاه

وخططه كلها أحبطت

ومراكب البحر دمرت

فلماذا لم ينقهر جنود داريوس

زعيم الرجال الحبيب من بلاد سوس عندما قادهم في المعركة ؟

والمهم هنا ان اسيا تعبر عن نفسها وفقا لمتطلبات الخيال الاوروبي وبفضله ، ذلك الخيال الذي يصور اوروبا منتصرة على اسيا وعالمها « المخالف » والعدائي فيما وراء البحار ٠ ومن ذلك الحين فصاعدا تقترن في الفكر الاوربي مشاعر الفراغ والضياع والنكبة المنسوبة الى اسيا بعاقبة تحدي الشرق للغرب ، بالاضافة الى صور التحسر الاسيوي على ماض مجيد كان النصر فيه حليف اسيا على غريمتها اوروبا ٠

**نقلت النص الى العربية**
**فريال جبوري غزول**

باليبار وماشريه

# الأدب كشكل ايديولوجي

يستلزم اظهار الموضوعية المادية للادب تحديد وضع انتاج الاثار الادبية في الكل التاريخي للممارسات الاجتماعية ، ولفهم هذا التحديد الموضوعي بطريقة ديالكتيكية بعيدة عن الميكانيكية ينبغي فهم العلاقة بين « الادب » و « التاريخ » لا كعلاقة بين نظامين ، بل كتطور اشكال تناقض داخلي · كما لا ينبغي ايضا فهم الادب والتاريخ ككيانين تكون

---

**نشر هذا النص في مجلة Literature رقم ١٣ـ١٩٧٤ · ويحاول باليبار وماشريه ان يقدما في هذه الدراسة شرحا ماديا ـ علميا ـ لـ « ظاهرة الادب » ، اعتمادا على اعمال التسور · ذاهبين الى اعتبار « الادب » شكلا ايديولوجيا متميزا ، يعكس في بنيانه شرطا تاريخيا مرتبطا بتشكيلة اجتماعية محددة ومشخصة ، والى اعتبار « الادبي » وحدة عضوية تعكس في تحولاتها الكلية تناقض الواقع الذي تعكسه ، و « تعبر » عنه · ويقدمان لنا جملة من الطروحات ·**

**ـ يرتبط نمط الانتاج الادبي بايديولوجيا محددة ، على الرغم من انه ينتج ايديولوجيا متميزة خاصة به ·**

**ـ الادب هو ما يقدم ليقرأ كذلك بواسطة ايديولوجيا متميزة مرتبطة بفترة محددة تاريخيا ·**

**ـ يرتبط الادب بشكل وثيق بتاريخ التشكيلات الايديولوجية ، علما ان تكون كل ايديولوجيا يتضمن علاقة الايديولوجي بالاقتصادي ·**

**ـ تختلف دلالة « النص الادبي » ومعناه باختلاف شكل الايديولوجيا التي تتعامل معه ، والتي تتحدد بتشكيلة اجتماعية مشخصة · لهذا يأخذ « العمل الفني » دلالات عدة توازي عدد الايديولوجيات التي قرأته ·**

**ـ « النص الادبي » فاصل ايديولوجي يري ما تحجبه الايديولوجيا ، اي انه ينجو ، عبر آلية اللاوعي التي تحكم عملية الكتابة ، من رقابة الايديولوجيا النظرية ·**

←

كل منهما خارج الاخر ( حتى تحت شكل تاريخ الادب من ناحية ، وتاريخ اجتماعي وسياسي من ناحية اخرى ) بل ككيانين يتحددان مباشرة في علاقة ترابط وتداخل داخلية. وهذه العلاقة الداخلية هي شرط الوجود التاريخي لظاهرة كظاهرة الادب ، وهي التي تحكم بشكل عام تعريف الادب كشكل ايديولوجي .

لكن هذا التعريف لا يأخذ كل ابعاده الا بعد تطوير وايضاح مضمونه : ليست الاشكال الادبية ، كما نعلم ، مجرد نسق « افكار » او « اقوال » ، فهي تتكون عبـــر حركـــة وتاريخ وممارسات محددة . تحت علاقات اجتماعية محددة اقترح آلتوسر تسميتها في المجتمع الطبقي بأجهزة الدولة الايديولوجية ( أ٠د٠أ A. D. E ) يرتبط الوجود الموضوعي للادب اذن بشكل وثيق بممارسات معينة في اجهزة ( اجهزة الدولة الايديولوجية ). دولة معينة . وكما سنرى ، وبشكل اكثر دقة ، فان الادب يرتبط **بممارسات لغوية محـــددة** ( فوجود « أدب فرنسي » يعود لوجود ممارسة لغوية للـ « فرنسية » او بشكل أفضـــل لوجود كل متناقض لممارسات الـ « فرنسية » كلغة قومية ) وثيقة الاتصال بممارســـات مدرسية ، لا تحدد فقط استهلاك اللغة ، بل تحدد ايضا الحدود الداخلية لانتاجها ذاته . وعندما نربط الوجود الموضوعي للادب بهذا الكل من الممارسات نستطيع الوصول الـــى نقاط ارتكاز مادية تجعل من الادب واقعا تاريخيا واجتماعيا .

نستطيع بالاعتماد على هذا المنطق ان نقذف جانبا بالاسطورة القديمة التي تتحـدث عن **الادب الابدي** . وبذلك لا نظهر فقط وجود تاريخ للادب يتحول نمط انتاجه وفقـــا لتحولات الممارسات اللغوية والاجتماعية ، بل نظهر ايضا وبشكل خاص ان وجود الادب نفسه محدد تاريخيا ومرتبط بشروط تاريخية محددة ( لم تتواجد هذه الشروط بشكـــل

---



**ـ يبني « النص » الايديولوجيا ويعطيها شكلا متميزا ، شكلا ظاهريا ، بحيث تغـدو الايديولوجيا شرحا ، وإشارة الى ، ووشاية بجملة التناقضات التي تحكم النص .**

**انطلاقا من هذه الطروحات ، يحاول المؤلفان رصد « تشكل » الادب وتطوره ، وشرح آليته الايديولوجية في نمط الانتاج الرأسمالي التي تدفعه نحو « موضوع ـ هـــدف » ، يعكس تناقضه الداخلي ، وتناقض الواقع ، اللذين يتجليان في تناقض اللغة المشتركة . فالتناقض في « العمل الادبي » هو التناقض في اللغة ، وتناقض اللغة هو تناقض الواقع : الصراع الطبقي الشامل .**

**يهدف باليبار وماشريه في شرحهما المادي لـ « الظاهرة الادبية » ، اي ربطها بجملة الممارسات الاجتماعية المتكثفة في اللغة ، الى تجاوز المأزق الماركسي القديم ( بليخانوف ـ لوكاش ) الذي يعيد العمل الادبي الى مضمونه ، ( النزعة المضمونية ) ، او يتـــوه في ثنائية الشكل/المضمون المثالية . فالعمل الادبي ، في فهمهما ، فاصل ايديولوجي متناقض يعكس تناقضات اخرى .**

**يتجاوز هذا الشرح بالتأكيد « مضمونية » بليخانوف المبتذلة ، و « واقعية » لوكاش المثالية ، باسطا امامنا أفقا جديدا في تخطيه للصعوبات التي تعترضنا . لكننا نتحفـــظ قليلا ، اذ ان صعوبات جديدة تتوافد مع هدم الصعوبات القائمة ، وفي اللحظة التـــي تفتح هذه الطروحات أفقا ، توصد أفقا . ويكون سؤالنا ، والحال هذه : اين مكان الـذات المنتجة للعمل الادبي في هذا الشرح ؟. الجواب غائب على ما نعتقد ، وتلتبس علينـــا المسالة فلا نعرف أهي شرح ام تأويل ؟**

نزوعي وذي اتجاه الا في نمط الانتاج الرأسمالي ) ٠

كما نتخلص من أحجية مسألة سكنت التقاليد الماركسية طويلا مع انها بكل بساطة مسألة لا وجود لها : وهي التي طرحها ماركس في نهاية مقدمة ١٨٥٧ « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » عندما تساءل كيف يستطيع « فن » عهد غابر ، مرتبط كليا بعلاقات زمانه الاجتماعية وعلاقاته الايديولوجية بشكل خاص ، ان يحتفظ بـ « سحر » لا يقاوم يشد انسان المجتمع البرجوازي ، ويبدو كما لو كان « فنا » ابديا ٠ لكن « سحر الفن الاغريقي » ليس سرمديا ابدا ، لسبب بسيط ، هو أن هذا الفن لم يكن في عرف اليونان فنا ، فالالياذة لم تكن تعني لهم « عملا ادبيا » وكذلك حال تراجيديات سوفوكل او اعمال بارتينون المعمارية او تماثيل براكسيتيل ٠ ولم تصبح « الالياذة » او « أوديب ملكا » نصوصا « أدبية » الا بعد استرجاع لاحق ، وبعد هذا الاسترجاع فقط تحولت الى « ادب » وانتجت اثارا ادبية داخل تشكيلة ايديولوجية جديدة ٠ فالمسألة الحقيقية ( والتي لن نطرحها هنا لذاتها ) هي اذن معرفة الشروط المادية ( وبشكل خاص استمرار تقسيم العمل اليدوي والعمل الذهني على الرغم من تحولاتهما ) التي تستطيع فيهما عناصر تشكيلات ايديولوجية ماضية ان تستعاد وتطرح نفسها وتتغير داخل تشكيلة جديدة ، ناتجة عن تطور نمط جديد من الانتاج المادي ٠ لكن هذه المسألة لا يمكن طرحها قبل دراسة الادب ( والفن ) كشكل ( تشكيلة ) ايديولوجي برجوازي بشكل خاص ٠

نقول اذن اولا ، ان الادب قد تشكل تاريخيا في الحقبة البرجوازية ، كمجموع وقائع لغوية ، ( او بشكل افضل : ممارسات لغوية خاصة ) مندمجة بشكل غائي ( ذي اتجاه معين ) في عملية التدريس العامة ، بحيث تنتج اثارا تخيلية ضرورية لاعادة انتاج الايديولوجيا البرجوازية كايديولوجية مسيطرة ٠ وهكذا يظهر لنا ان الادب يخضع بشكل عام لتحديدات ثلاثة : « لغوية » ، « مدرسية » ، و « خيالية » ( وسنعود الى النقطة الاخيرة التي تستلزم اللجوء الى التحليل النفسي في شرح الاثار الادبية ) ٠

ينتج التحديد « اللغوي » بشكل جوهري من واقع ان مادة وهدف ( لانه يشارك مباشرة في تكوينها ) عمل الانتاج الادبي هو وجود **لغة مشتركة** ترمز التبادلات اللغوية : ينحرف الادب عن هذه اللغة بطريقة محددة ( غير اعتباطية ) تقرر نقطة انطلاقه ونقطة وصوله ٠ وترتبط هذه **اللغة المشتركة** من حيث هي **لغة قومية** بالشكل السياسي لـ « ديمقراطية البرجوازية » ، فهي المحصلة التاريخية لصراع طبقي خاص ٠ وبذلك تناظر القانون البرجوازي ( الحقوق ) في وظيفتها الاساسية والتي هي اعطاء شكل موحد ، وكوني ، لسيطرة طبقية جديدة في فترة تقدمية تاريخيا ( الفترة البرجوازية ) ٠ وهذا يعني ان اللغة ترتبط بالتناقضات الاجتماعية المتولدة في عملية مستمرة ٠ فما هي جوانب هذا التناقض ؟

ان هذا التناقض هو احد اثار الشروط التاريخية التي تقوم فيها السيطرة الاقتصادية، السياسية والايديولوجية للطبقة البرجوازية : ويتطلب ذلك على المستوى القاعدي ، تغيير علاقات الانتاج تحت تأثير نمط الانتاج الرأسمالي ، كمايتطلب ايضا تغييرات جذرية للعلاقات الايديولوجية في البنيان الفوقي ٠ ونستطيع ان نصنف هذه التغييرات بـ « الثورة الثقافية » البرجوازية التي لا تفرض فقط بناء ايديولوجية جديدة ، بل تفرض تحقيقها ايضا، كأيديولوجيا مسيطرة في اجهزة الحكم الايديولوجية الجديدة وكتغيير كامل في علاقاتها المختلفة ( العلاقة بين اجهزة الدولة ) ٠ ان السمة الاساسية لهذا التغيير الثوري الذي يشمل اكثر من قرن ، والذي يتم تحت اشكال متفرقة وناقصة منذ فترة زمنية اطول ، هو

جعل الجهاز المدرسي الجهاز المسيطر في اخضــــاع الافراد للايديولوجيــا المسيطرة : اخضاع للافراد واخضاع لايديولوجيا الطبقات المسيطر عليها ايضا · لهذا فان كل التناقضات الايديولوجية التي تقوم ، في التحليل الاخير ، على تناقضــات الجهــاز المدرسي ، تصبح تناقضات خاضعة للشكل المدرسي ، وفي الشكل المدرسي ·

بدأنا نعرف الان تحت اي شكل تتجلى التناقضات الاجتماعية في الجهاز المدرســي ولا تستطيع هذه التناقضات الوجود الا داخل الوحدة الشكليـــة للمدرسة « الواحدة » و « الموحدة » ، وهي نتاج هذه الوحدة نفسها ، التي تنتج من تعايش جهازيـــن ، أو سلسلتين متناقضتين (١) : يمكن تسمية السلسلة الاولى بـ « الابتدائيـــة ـ المهنية » والثانية بـ « الثانوية ـ العالية » ، يضاف الى ذلك دور النظام في تحديد وحد « درجة التعلم » والتي كان دورها في فرنسا ولمدة طويلة تجسيد هذه التناقضات في ماديتهــا المباشرة ·

ينزع التقسيم المدرسي ، في مجتمع قائم على بيع وشراء قوة العمل الفردية ، الى اعادة انتاج تقسيم الطبقات الاجتماعية ، والى تأمين السيطرة الايديولوجية البرجوازية في الوقت ذاته تحت شكل قائم على الوحدة ( الوحدة القومية بشكل خاص ) ، ويتحقق هذا التقسيم أولا ومنذ اللحظة الاولى وخلال فترة التدريس كلها **كتقسيم لغوي** · وكي نكون واضحين بشكل كاف نقول : ان الشكل الموحد هو الوسيلة الاساسية للتقسيم وللتناقض · ان التقسيم اللغوي المحايث للنظام المدرسي ، يختلف عما يمكن أن نلاحظ في بعض التشكيــلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية ، فهو ليس تقسيما بين « لغات » مختلفة ( « لغة الشعب ، اللغة العامية ···· و « لغة البرجوازية » ) لكونه يفترض وجود **لغة مشتركة** ، بل تناقض **ممارسات مختلفة** للغة نفسها (١) · ويتطور على هذا الاساس التناقض بين الممارسات المدرسية ( وبشكل خاص بين الممارسة « الابتدائية » للانشاء ـ والاستظهار والتي هــي مجرد تمارين لتعلم اللغة « الصحيحة » المعبرة عن « الواقع » والممارسة « الثانوية » لـ دراسة ـ وشرح النصوص · وتفترض هذه التمارين « المبدعة » ظاهريا استعمـــال وتقليد النصوص الادبية ) والممارسات الايديولوجية ، اي بين الممارسات الاجتماعية · وهكذا يبدو لنا أن سيرورة الانتاج الادبي تقوم على علاقة لا متكافئة ( أو حسب منطق الشكــل المدرسي نفسه ، علاقة ملكية لا متكافئة ) مناقضة لايديولوجيا بعينها : الايديولوجيــا المسيطرة · لكن هذه العلاقة المتناقضة لا تستطيع البقاء لولا نضال الايديولوجيا المسيطرة المستمر من اجل الاحتفاظ بسيطرتها ·

---

١ ـ نعتمد في تحليل هذه النقطة على الفصل الاول والثاني من كتاب بوديلو وايستابليه : المدرسة الرأسمالية في فرنسا · باريس ـ ١٩٧٢ ·

(٢) لا نود هنا اضافة فصل جديد يعالج اللغة بواسطة علم الالسن او ان نعارض نتائج هذا العلم · كما لا نود ان نعارض علم اللسان « البرجــوازي » بعلـــم لسان « بروليتاري » وهمي ، او نوغل في اللامعقول فنقيم معارضة ميكانيكية بين « لغـــة برجوازية » و « لغة بروليتارية » · مع ذلك ينبغي ان نقول بوضوح ان التحليل المستند الى علم الالسن الذي يتعامل مع موضوعه كما هو ، اي كما هو معطى له ، بدون الرجــوع الى الشروط التاريخية لتكونه لا يستنفد معرفة اثار اللغة ، فهو يغفل بشكل خاص ومستمر ما نصنفه هنا تحت مفهوم **الممارسات اللغوية** · وليس من شأننا هنا ان نقول فيما اذا كان هذا التغافل *ايجابيا* شرط امكانية علم الالسن ، او سلبيا هو الحد التاريخي والمـــادي لتطوره · فهذه مسألة علم الالسن وعليه ان يجد لها حلا ·

من المسلم به ان الادب ( نصوص تنتج وتستهلك كنصوص « أدبية » ) لا يظهر الى الحياة بشكل مطلق ، اي بشكل ميكانيكي ، مع هذا التاريخ او ذاك من السيطرة الاقتصادية والسياسية لنمط الانتاج الرأسمالي · فكما وجد في قلب التشكيلات الاجتماعية الماقبل ـ رأسمالية سيرورة طويلة ، لتكون لا متكافىء ومتعدد الاشكال لنمط الانتاج الرأسمالي، فقد وجد بالمثل وبالضرورة سيرورة طويلة لتكون « الادب » كتشكيلة ايديولوجية جديدة ، سيرورة قلقة لـ « اشكال بدائية مختلفة · ان هاتين السيرورتين مترابطتان : لكنه ينبغي دراستهما بشكل مشخص ، فنحن لا نستطيع ان نقول شيئا ذا بال بشكل مسبق وبطريقة محض استنباطية · نطرح الان السؤال التالي : هل تسمح لنا معرفتنا للشكل الادبي في مجتمعات نمط الانتاج الرأسمالي ، ان نطرح مسألة تكون الادب واشكاله البدائية ؟ نعم ، بلا شك ، وباتجاهين :

في المقام الاول ، ان اكتشاف كون الاساس المادي للاشكال الادبية في الادب الفرنسي في القرن التاسع عشر والعشرين ، يقوم على العلاقة المتبادلة والمتعارضة التي تحكم الممارسات المدرسية واللغوية ( القومية ) ، يسمح لنا بتحليل الحقب المتعاقبة في تاريخ الاشكال الادبية : من هنا تأتي اهمية دراسة « حالات » نمطية : نصوص فلوبير التي ظهرت في زمن تشكل الجهاز المدرسي الفرنسي ، نصوص بيجيه المواكبة للفترة الاولى لتعميم التعليم المدرسي ، ونصوص كامو والسرياليين الموافقة للازمات الاولى للجهاز المدرسي الفرنسي واليته المرتبطة بتحولات ذات اساس اقتصادي واجتماعي · وهذا يسمح لنا ايضا بطرح مسألة اشكال تكون الادب في تشكيلات اجتماعية رأسمالية اخرى حيث تترابط اللغة القومية مع عملية التدريس بشكل مختلف (٣) ·

في المقام الثاني ، ان معرفة هذا الاساس المادي يستطيع ان يرشدنا في بحث مواضيع تستعيد الماضي : القرن الرابع عشر ، والثامن عشر ، وتسمح لنا أن نتساءل : تحت اي شرط تشكل « الادب » كتشكيلة ايديولوجية مستقلة ؟ وما هي الممارسات اللغوية المتناقضة التي شكلت اساسا له ؟ وضمن أي حدود مر تحققها باشكال مدرسية بدائية و « قديمة » اخذت في التكوين في اجهزة ايديولوجية مغايرة ؟ · لا نستطيع هنا الا طرح هذه الاسئلة الباحثة عن اجابة ·

انطلاقا من هذا التحليل ، نستطيع الان فهم نقطة جوهرية : موضوعية الادب ، وعلاقته بالواقع الموضوعي الذي يحدده تاريخيا ، وهذه العلاقة ليست علاقة بـ « موضوع» تمثله ، اذ انها **ليست علاقة تمثيل** · كما أنها ليست ببساطة مجرد علاقة استعمالية ،

---

(٣) ينبغي التذكير هنا بحدس غرامشي الفني بدلالاته الوارد في جزئين من « دفاتر السجن » : « المثقفون وتنظيم الثقافة » ، و « الادب والحياة القومية » · حيث يقارن غرامشي بشكل منهجي بين الصفة « القومية » و « الشعبية » للادب الفرنسي في القرن التاسع عشر ، والصفة « الكوزموبوليتية » و « النخبوية » للادب الايطالي في نفس الفترة · ويربط هذا بتباين التاريخ السياسي ، المدرسي واللغوي لكل من البلدين · ويقترح تحليل روابط التوافق والاختلاف بين الادب الفرنسي والادب الايطالي ، والاوبرا القومية الايطالية · الا يدعو للدهشة ان اعمال غرامشي التي تنم عن معرفة واسعة لتاريخنا وثقافتنا ، والتي يمكن *ان* تعلمنا الكثير ، ما زالت غير مترجمة في فرنسا ؟ وان بعض « شذراته المختارة » المتماسكة نسبيا والتي طبعتها « دار المنشورات الاجتماعية » لم تعد طباعتها منذ زمن طويل ؟

استعمال وتحويل مواده المباشرة · فالممارسات اللغوية المحددة مدرسيا ، وبسبب تناقضاتها بالذات ، لا يمكن استخدامها كمجرد مواد أولية : فكل استعمال هو مداخلة ، اتخاذ موقف ، تحزب ( بالمعنى العام ) في التناقض ، اي مساهمة نشطة في تطويره · **ان موضوعية الادب ، هي مداخلته الضرورية في عملية تحديد واعادة انتاج الممارسات اللغوية المتناقضة للغة مشتركة بعينها ، حيث تتحقق الفعالية الايديولوجية لاجهزة التدريس البرجوازية ·**

ان طرح المسألة بهذا الشكل ، يلغي السؤال المثالي القديم « ما هو الادب ؟ » ، الذي لا يتساءل عن موضوعية الادب المحددة ، بل يسأل عن جوهره الفني والانساني ذي الطابع الكوني · يلغي هذا الطرح السؤال القديم لانه يظهر لنا مباشرة شكلا ماديا لالية الادب متداخلا في عملية يعجز الادب عن تحديدها على الرغم من كونه ضروريا لها · واذا طرحنا السؤال بشكل مشخص نقول : اذا كان الانتاج الادبي يتخذ من تناقض الممارسات اللغوية المدرسية أساسا ماديا ومتميزا له ، بعد استعادته والتأثير في مركباته الداخلية ، فذلك لان الادب يكون احد عناصر هذا التناقض التي تتحدد بالنسبة اليها أيضا عناصر التناقض الاخرى · فالادب دیالكتيكيا هو في الوقت نفسه نتاج وشرط مادي للتقسيم اللغوي في عملية التدريس ، سبب ونتيجة تناقضات تاريخه · ان ما يثير الدهشة في هذه الحال هو ان الايديولوجيا الادبية ، التي تشكل جزءا من الادب ذاته ، تستشرس في نكران الاساس المادي للادب ، مقدمة اياه كـ « اسلوب » ، او كابداع فردي ، واع او غير واع ، او كعمل ابداعي ··· الخ ، تقدمه كشيء خارج ( او متعال ) عن عملية التدريس ، التي لا يتجاوز دورها في نظر هذه الايديولوجيا غير توزيع الادب ، و « التعليق » عليه ، عبر جهد متفان لا يحد الادب ولا يحدده ·

ان ما ترفضه هذه الايديولوجيا الادبية هو موضوعية الادب كشكل ايديولوجي تاريخي ، اي شكله الخاص في علاقته مع الصراع الطبقي ، وبذلك تصبح القاعدة الاولى للايديولوجية الادبية اذن هي « تستطيع ان تتكلم عن كل اشكال الصراع الطبقي ، الا عن الشكل الذي يحددك مباشرة » ·

انطلاقا مما تقدم ، يطرح سؤال علاقة الادب بالايديولوجيا المسيطرة نفسه في تعابير جديدة : وينجو السؤال بدوره من مواجهة الجوهر الكوني الذي سجنت الكثير من النقاشات الماركسية نفسها داخله · ان اعتبار الادب شكلا ايديولوجيا محددا ، لا يعني أبدا « ارجاعه » الى الايديولوجيات الاخلاقية ، السياسية ، الدينية ، او حتى الجمالية ، التي يمكن تعريفها بمعزل عن الادب ، كما لا يعني في الوقت ذاته ان نجعل من هذه الايديولوجيات ( مواضيع او بيانات ايديولوجية يمكن عزل بعضها عن البعض تماما ) المضمون الذي نلبسه **شكلا خاصا فيما بعد** · ان هذه القسمة ميكانيكية ، وأكثر من ذلك : انها تتوافق مع الموقف الذي يقول بأن الايديولوجيا الادبية تجهل تحديدها التاريخي باستبداله ، وتدفع باتجاه ديالكتيك الشكل والمضمون الزائف واللامحدود ، حيث يستطيع هذان العنصران ( الشكل والمضمون ) المتمايزان بشكل زائف ان يتبادلا مواقعهما دوريا كجوهري وغير جوهري ، ويرجعان تارة الى المضمون ( الايديولوجي ) وتارة الى الشكل ( الادبي المحض ) · ان تحديد الادب كشكل ايديولوجي خاص يعني طرح مشكلة جديدة : خصوصية الاثار الايديولوجية التي ينتجها الادب ونمط ( آلية ) انتاجه لها ·

**نقل النص من الفرنسية الى العربية**

**فيصل دراج**

سامي سويدان

# قراءة "رجال في الشمس"

**١ ـ الواقع والرمز والموقف :**

اذا كان همنا تفسير الرواية باظهار بنيتها والدلالات التي تحملها ابعاد هذه الدلالات في كل مستوى من مستوياتها وكل عنصر من عناصرها ، فاننا على طريق بلورة هـذه البنية بالذات ننطلق من مطلع الرواية لدرس الاشارات الموحية فيه ٠

فمطلع الرواية يقدمها معلنا بشكل او بآخر لغتها ، مفاتيحها الاساسية ، محددا بذلك وجهة قراءتها ، مضيئا بنيتها العامة (*) ٠

يبدأ المطلع بالجملة التالية : « أراح ابو قيس صدره فوق التراب الندي ، فبدأت الارض تخفق من تحته : ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجة ثم تعبـر الـى خلاياه ٠٠٠ » ( ص ٣٧ )

ان طلب الراحة هذا يتضمن تعبا ما ، ولما كان ما يريحه هو صدره ، فان التعب المقصود هو هم يعمر القلب ، ولما كان التراب الذي هو ما يلجأ اليه ابو قيس ، فانه يبحث فيـه عن هذا الارتياح المفقود ٠ ولكن التراب ليس الا جزءا بسيطا ـ رغم كونه الاكثر بروزا ـ من كل اخر هو الارض التي تستجيب مباشرة بشكل قوي الايحاء : تخفق من تحته ٠

---

(*) راجع :
Pour une Socio - critique , ou variations sur un incipit
In. Littérature . revue trimestrielle No 1 février 1971 ( 5 — 14 )
Claude Duchet

مع العلم ان المطلع لا يعطي البنية الروائية ميكانيكيا، وان طرق الوصول الى هذه البنية شتى ٠٠

فالخفقان المقصود هو خفقان قلب الارض ذاته الذي لا يحول تعبه دون ان تحلق ضرباته من اعماق صدر الارض مطوفة في ذرات الرمل قبل ان تعبر الى خلايا ابي قيس ذاته ٠

فاذا بنا ازاء علاقة متعددة الابعاد ــ بين ابي قيس والارض حتى التداخل الحياتي ــ الدموي بينهما ٠ ان ما بدا تطلبا عاطفيا يبحث ابو قيس عن تلبية له في الارض ، اندلح في ردة فعل الارض الى ما يشبه العملية الجنسية التقليدية ، الا ان هذه العملية ذاتها لا تلبث ان تتكشف ( عبر النقطتين التفسيريتين ) عن علاقة ابعد غورا ، علاقة تكاد تكون رحمية فيما ينقل نبض الارض الى خلايا ابي قيس عبر ذرات الرمل المرتجة ، لكنها ليست رحمية بالمعنى الدقيق للكلمة : فالتداخل بين الطرفين يتحول الى اقرب ما يكون من الدمج والتوحيد في ذلك القلب المتعب الذي ينتشر خفقانه في الجسدين معا ٠ لذلك لا يعود عجبا ان يتعب ابو قيس ، تتكاثر همومه ، تثقل صدره ، تضعف قلبه ، كلما ابتعد عن هذه الارض فابتعاده هذا يحمل ضمنه تهديدا له بالموت في النهاية ٠

لكن هذا التهديد لا يأتيه فقط من انقطاع ملامسته للارض ــ من ابتعاد صدره عنها ــ انما يأتيه ايضا من انقطاع اخر : ابتعاده عن رائحتها ٠

فردا على ما كان يحاوله جاره في فلسطين من اقناع له بأن ما كان يسمعه حين كان يلصق صدره بالارض هو صوت قلبه ، كان ابو قيس يحتج رافضا وهو يتساءل : « والرائحة اذن ؟ تلك التي اذا تنشقها ماجت في جبينه ثم انهالت مهومة في عروقه ؟ ٠٠» ( ٣٧ )

هذه الرائحة التي ترسم حركتها اتجاها مماثلا لذاك الذي رسمه نبض الارض ، وتنتهي مثله في عروق ابي قيس ، في دمه ، وانحاء جسمه ٠ ورغم هذا البعد الحياتي ــ الدموي في العلاقة بين ابي قيس ورائحة الارض ، فهو لا يحول دون بعد اخر متعدد الدلالات كما لاحظنا ذلك ايضا فيما يتعلق بنبض الارض : العلاقة الجنسية ــ العاطفية كما يبديها تعبير ابي قيس عن الاحساسات التي تثيرها فيه تلك الرائحة ( « رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطيبا ٠٠ » (٣٧) )

واذا كان هذا البعد الجنسي ــ العاطفي بسيطا وثانيا في خفقان الارض ، فانه هنا في رائحتها يصبح مركبا كثير الغنى والنفاذ واولا ، يسيطر على العلاقة الحياتية ــ الدموية ، فينطلق التعبير فيه متقابلا مع انطلاقته عن هذه العلاقة الاخيرة في مسألة خفقان الارض ٠ وفي اكتمال هذا التقابل كما يؤكده ابو قيس اخيرا في تعبيره عن هذا الخفقان : « كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفورا صغيرا ٠٠ » (٣٧) يكتمل مفهوم العلاقة الكلية لابي قيس بالارض في تشديده على بعد ثالث يجمع ذينك السابقين : البعد الوجداني ، واذا بهذه العلاقة الكلية بينهما تعلن على انها علاقة حياتية ــ جنسية ــ وجدانية اساسا ٠ وبالتالي يصبح الانقطاع فيها ، الابتعاد عن الارض تهديدا بالخيانة والعجز والموت ، وكلما كان الابتعاد اقوى ــ ملامسة ورائحة ــ كلما كان التهديد اشد وبالتالي تصبح اقوى النتائج ــ الموت ــ متوقعة ٠

الا ان الارض التي يلجأ اليها ابو قيس ليست ارضه بالمعنى الامتلاكي والوطني معا ٠ فهذه الاخيرة تركها منذ عشر سنوات ، والارض التي اتي يستلقي فوقها هي ارض الشط

( شط العرب في العراق ) · وفي هذا الاختلاف ينتصب عنصر متميز يحدد الاطار الخاص الذي تتم فيه هذه العلاقة · هذا العنصر هو البعد المكاني ـ الزماني عن تلك الارض الاصيلة التي تقوم معها اكثر العلاقات حميمية وصدقا · ويؤدي هذا الى ان تشـــكل الارض البديلة خطرا مباشرا بالانقطاع المشار اليه آنفا وبمضاعفاته ، وذلك فيما تحمله في حد ذاتها من ايحاء بتلك الاصيلة ، بما في ذلك الايحاء المقبول من خطأ وتوهم · فيكون هذا التوهم ، هذا الخطأ ، وقوعا خطرا في الشرك المثلث الذي يتهدده ، ويتفاقم خطره كلما تفاقم رسوخه ، كلما امعن في البعد الزماني ـ المكاني عن فلسطين ·

والمطلع يقدم لنا عينة عن هذا الخطر في شكله الاولي البسيط · فأبو قيس يفكر مستلقيا على الشط ، على الارض الندية النابضة تحته : « هي لا شك بقايا من مطر امس ·· كلا ، امس لم تمطر !· لا يمكن ان تمطر السماء الان الا قيظا وغبارا ! أنسيت اين انت ؟ أنسيت ؟ » · ويدور مستلقيا على ظهره ليعلن لنفسه : « كلا ، لم تمطر امس ، نحن في اب الان »··· ، ثم : « نحن في اب ! اذن لماذا هذه الرطوبة في الارض ؟ انه الشط ! ألست تراه يترامى على مد البصر الى جانبك ؟ » (٣٨) · فيبدو لنا ابو قيس يخطىء في تحديد الوضع ( الارض البديل ) زمانيا ومكانيا ، اذ يسقط عليه مقاييس وضع اخـر ( الارض الاصيل ) توهما يخلط بين الوضعين ولا ينجو منه الا بالذاكرة التي تقـــوم بالتحديد الصحيح · واذا كان التوهم زمانيا ـ مكانيا فان جهد الذاكرة وهو كذلك زماني مكاني ، يدحضه · فكأن الذاكرة ، بما هي صنو للماضي ، تعلن ازاء الانقطاع الحاصل في علاقة ابي قيس بأرضه الاصيلة ، كما تتمثل في التوهم القائم وفي المخاطر الحادة التي يتضمنها ، ضرورة العودة الى تلك العلاقة ، الى الارتباط بفلسطين ، على انه فيـه تتمثل الحقيقة الصادقة ، وتنعدم في تلك الصلة الاصيلة بالارض والتاريخ مخاطر الخيانة والعجز والموت ، لتقوم بديلها انفتاحات الوفاء والقدرة والحياة ·

هكذا تتحدد في المطلع وجهة قراءة الرواية التي تبدو ، كما لاحظنا ذلك عبر دراستنا له ، مثقلة بالابعاد الرمزية ، رغم الواقعية الحادة التي يتسم بها اسلوبها (*) · كما تتضح بنيتها العامة ·

واذا تركنا مسألة توضيح هذه الابعاد الرمزية الى حين تفسير البنية الروائية العامة في المفاصل المحورية التي تستند عليها هيكليتها ، فان علينا ان نشير في البداية الى هذا الاشكال المرهف الذي يشكله الرمز بحد ذاته ·

---

(*) معظم الذين درسوا هذه الرواية ـ او روايات كنفاني اجمالا ـ اشاروا الى هذه الابعاد الرمزية ذاهبين فيها مذاهب شتى ·· لكن لم يقدم اي منهم دراسة جدية في هذا الخصوص· فقد سقطوا جميعا في اسقاط دلالات محددة على بعض العناصر الرمزية المتفرقة التي تحفل بها الرواية ، دون ان يبين البنية العامة والكلية للرواية التي وحدها ـ هذه البنية ـ تتيح تمييز الابعاد الحقيقية لما ترمز اليه هذه الرواية ، وبالتالي تمييز الابعاد الحقيقية لكـل عنصر من عناصرها · خارج هذا الاطار يتعدى مفهوم الصحة في الدراسة التوفيق فـي التقاط دلالة رمزية ما ·· ليتحدد في المنهجية العامة التي يأتي فيها · وليس لنا هنا ان نثقل السياق بالتوقف التفصيلي عند مختلف المعالجات النقدية ، مكتفين بهذه الاشارة العامة ·

فالرمز ، بما هو ايحاء مكثف نوعا وكما ، يشكل اختزالا واجتزاء لرؤية تدعي التعميم والاطلاق لظاهرة ما ليس على المستوى الاجتماعي ( المكاني ) فقط ، بل ايضا عـــلى المستوى التاريخي ( الزمني ) ·

ان الرمز بحد ذاته عملية جدلية ممتلئة زخما وخصبا ، في كونه المجال الذي يتم عبره اختصار واقع ما واطلاقه في آن معا ، وفي كونه معبرا في هذا التحول الذي يؤديه عن رؤية ووضع خصوصيين ومحددين · وهنا تكمن قيمته ، وهنا يكمن خطره في آن · ومـــا يحسم امره طريقة استعماله بحد ذاتها · على ان قيمته ليست معطى مسبقا بل ممارسة جدلية هي الاخرى · وان خطره يكمن بالتحديد في اغفال هذا الامر ، والتعامل اليهغيلي معه كأنه جدلية هيغيلية · اي اعتبار دلالته معطى جامدا ومنفصلا عنه وقائما لذلـــك قبله ، وان توسله شكلية محضة · بينما تكون الممارسة الجدلية في استعمال له يبدي تدخله وتأثره معا في وبكل من الطرفين اللذين ينهض لتاديتهما معا · فيعيد الى الاطلاق والتعميم محدوديتهما وتاريخهما في البنية العامة للانتاج الادبي ، جامعا بذلك على تمايز خاص فيه بين هذين الوجهين المتداخلين في ترابط مدهش : الابداع الفني والرؤيـــة التحريرية ·

وكنفاني هنا اذ يحاول تقديم رواية واقعية بأبعاد رمزية ، (*) كما تشير الـــى ذلـك ملاحظاتنا الاولية حول مطلع روايته ، فانه يحاول استعمالا جدليا للرمز في ذلك التفاعل الجدلي الذي يقيمه بينه وبين الواقع محددا عبر ذلك رؤيته التاريخية ـ الاجتماعية ، او بالاحرى موقفه التاريخي الاجتماعي · محاولة لا يمكن الحكم عليها الا بتتبع آلية انتاجها تفصيليا · الا ان ما يجدر تبيانه قبل ذلك تلك البنية التي تندرج هذه الآلية فيها وتصيغها معا · على ان هذه البنية تحدد الموقف العام للكاتب ·

فالرواية تقدم لنا حكاية فلسطينيين ثلاثة يموتون اختناقا على الحدود الكويتية ، فـــي محاولتهم الوصول خلسة ( تهريبا ) الى الكويت من البصرة في العراق داخل خزان ماء شاحنة يقودها سائق فلسطيني يعمل عند احد الاثرياء الكويتيين صاحب الشاحنـــة المذكـورة ·

لقد ماتوا بسبب هذا الالتحام الدنيوي المكاني ـ الزماني المتمثل في اتجاه تحركهم الذي فرض عليهم وضعا محددا ( داخل الخزان ) ومدة معينة فيه ( حوالي ٢٠ دقيقة ) ، هذا الاتجاه الذي كان في حد ذاته مؤشر التهديد المتفاقم ، والذي وصل في الالتحام المكاني ـ الزماني المذكور الى مرحلة الخطورة القصوى ·

وفي ذلك تتبدى بنية الرواية العامة · ان الانقطاع عن الارض ( فلسطين ) يشكل تهديدا بالخيانة والعجز والموت · وتزداد خطورة هذا التهديد بنسبة الابتعاد المكاني ـ الزماني عن هذه الارض · فالحقيقة والصدق لا نجدهما الا في تلك الارض · فالاستاذ

---

(*) راجع حديثا جرى بينه وبين احسان عباس في هذا الصدد كما ينقله هـذا الاخير في مقدمته لانتاج غسان كنفاني الروائي : ( **الآثار الكاملة** : الروايات ، ص ١٥ـ١٦ ·· )

سليم ( الذي يعلم الحقائق لتلامذته ·· ) يعلن امام الحضور في ديوانية مختار قريــة ابي قيس بكل صدق – مهما كانت حدة وقعه – جهله للصلاة واتقانه لاطلاق النار، ويتوقع امورا تقع بالفعل ( الهجوم على القرية ·· ) ·

خارج تلك الارض لا نجد غير الكذب والخداع والتوهم والخيانة ··· تتصاعد وتقوى مع الابتعاد المكاني – الزماني عنها · فابو قيس واسعد ومروان يتوهمون الحل لمشكلاتهم في وصولهم الى الكويت ·· ويتوهم اسعد الصدق في تعهد ابي العبد بأن يوصله الــى بغداد « ولكنه كذب عليه ، استغل براءته وجهله ، خدعه » ·· (٥٧) وتوهم مروان ان بامكانه تهديد سمسار البصرة الذي يتولى تهريب الناس الى الكويت بتخويفه من اللجوء الى الشرطة ··· ( ٧٢–٧٣ ) ·

كما ان مفاوضات الثلاثة مع ابي الخيزران تبين اغراقهم في الدجل والخداع والكذب : فمروان الذي كان قد قام باتفاق مسبق وضمني مع ابي الخيزران يمارس لعبة التفاوض كلها ··· مثله مثل ابي قيس الذي كان ايضا قد التقى قبله بأبي الخيزران ··· اما اسعد الذي كان قد ابرم اتفاقا مع سمسار البصرة ( ٦٢) فانه يأتي للتفاوض مع ابي الخيزران ، فيبدأ ذلك ممثلا ابا قيس ومروان ولكنه يقرر السفر مع ابي الخيزران وحــده دون الرجوع اليهما (١٠١) ···

الا ان من يتقن الكذب والخداع حد الخيانة هو ذاك الذي امعن في القطيعة مع الارض مكانيا وزمانيا والذي يمثله ابو الخيزران خير تمثيل ، فهو الذي يعمل في الكويت منـذ سنوات حتى انه حين يذكر ابا قيس يأتي بتعبير عظيم الدلالة على انقطاعه : « انه مــن بلدتي في فلسطين ايام زمان ··· » (٨٢) ، لذلك يصل الكذب والتدجيل عنده حــده الاقصى : فهو يكذب على الحاج رضا ويخونه حين يقوم بعملية تهريب في سيارته ، ويكذب على موظفي الحدود فيما يتعلق بالتهريب وفيما يتعلق بالراقصة كوكب ، وهــو يكذب على الثلاثة الذين يقوم بتهريبهم ذاكرا لهم ان المرور على الحدود العراقيــة لا يستغرق اكثر من خمس دقائق وكذلك الامر بالنسبة للحدود الكويتية ( ٩٧–٩٨ ) ، لكنه لا يلبث ان يقول لهم قبل نزولهم في خزان ماء السيارة للمرة الاولى ان المرور يستغــرق بين خمس وسبع دقائق ( ١١٥ ) وفي الحين الذي يؤكد لهم ان المرور على الحدود الكويتية لن يستغرق اكثر من سبع دقائق قبل نزولهم في الخزان للمرة الثانية ( ١١٣–١٣٤ ) نجد انه يضطر ان يمضي عشرين دقيقة ولم يكن متوقعا له ان يمضي في كل الاحوال اقل من تسع دقائق (*) !

والابتعاد عن الارض يحمل معه الضعف والتهديد بالعجز الذي يشتد كلما امعن فــي هذا الابتعاد مكانيا وزمانيا ·

فأبو قيس يفقد مورد عيشه ( حقله وزيتوناته العشر ·· ) مع خروجه من فلسطين ،

---

(*) نستعمل هنا النتائج النهائية لحساب الوقت المستغرق منذ نزل الثلاثــة في الخزان الساعة الحادية عشرة والنصف ( ١٣٣ ) الى حين فتح ابو الخيزران بابه لاحقا بعــد تجاوزه مركز المطلاع على الحدود الكويتية الساعة الثانية عشرة الا تسع دقائق ( ١٤١ )·

ولكنه اذ يصل البصرة فهو هذا العجوز الذي لا يملك الا خمسة عشر دينارا ، ولا يجد غير الارتماء على التراب متنفسا لهمومه التي تطوقه ٠٠٠

واسعد لا يستطيع مجابهة السلطة في الاردن ، ولكنه يصل البصرة بالتهريب فيشتد ضعفه في المجابهة ، وليس شبابه وماله وثقافته الا مظاهر خادعة لا تنم عن قسوة حقيقية : فهو ساذج في ثقته بأبي العبد ، ساذج اكثر في حذره مع ابي الخيزران ، وامواله المستعارة يذهب قسم منها سدى مع ابي العبد ، لتتبدد كلها لاحقا مع ابي الخيزران دون ان تتيح وضعا افضل من غيره ، اما شبابه فليس للفعل كما يحكمه بذلك وضعه المأزقي في العراق ، ولاحقاً في الخزان ٠٠٠ بينما يبدو مروان قاصرا في فهمه ، قاصرا في ماله ، قاصرا في عمره : فهو لا يتمكن من استيعاب وضع المهربين في البصرة ، وهو لا يملك المال المطلوب من قبلهم ، فيظن ان بامكانه التهديد بالشرطة فيصفع ويشتم ويطرد دون ان يتمكن من مجابهة ذلك ٠٠٠

وحين يمعن هؤلاء الثلاثة بالسفر ، فانهم يوضعون في خزان ماء سيارة مقفل بكل ما يعنيه هذا الوضع من تسليم وعجز يهددان بالموت بوضوح ٠

وليس وضع ابي الخيزران الخصي ، الا الرمز الحاد الجارح لما يمكن ان يبلغه هذا العجز في حده الاقصى : البتر والموت ٠

هذا الموت هو الذ ي‌يصل اليه اولئك المسافرون الثلاثة الممعنون انقطاعا عن ارضهم ، واذا كان ابو الخيزران يعيش ، فلانه ليس الا موتاً يتحرك ٠ حركته لا تسعى الا الى موت (١١٤) ولا يمكن لها ان تلد الا العدم ٠

هكذا فان البنية الروائية في رمزيتها تؤكد ما سبقت الاشارة اليه في المطلع من ان الانقطاع عن الارض ( فلسطين ) بالهرب ( بالسفر ) منها هو مخاطرة قاتلة ٠ وليس موت هؤلاء الثلاثة على الشكل الذي قضوا فيه الا التجسيد الحي لذلك ٠ فهم يموتون اختناقا داخل الخزان المقفل الذي يمثل ابتعادهم عن الارض ونبضها ، وحرمانهم ايضا من رائحتها، اي يمثل اليباس الضاري النقيض الكامل للارض الندية على كل المستويات ٠ فبقدر ما كان رتاج الخزان المقفل يمثل الحد الاقصى للانقطاع عن الارض ، وبقدر ما كان موقعهم ( ما بين العراق والكويت ) يمثل الحد الاقصى للامعان في السفر ( الهرب ـ الانقطاع ٠٠ ) ، وبقدر ما كان الوقت الذي يمر ( التاريخ ٠٠ ) لا يرحم ويمثل الحد الاقصى لاحتمالهم ( احتمال الوجود ٠٠ ) فانهم كانوا يعيشون ذروة الموت ٠

وفي هذه البنية بالذات ، البنية الرمزية لرواية واقعية ، يعلن غسان كنفاني موقفه على انه ادانة كاملة للابتعاد عن الارض ( فلسطين ) ٠ فهذا الابتعاد هو اغراق الواقع السائد ومفاهيمه ، واستغراق في الموت أنجح ام فشل ، سيان ٠ فالاندراج في البعد هو اندراج في الكذب والخداع ، كما هو سائد في العلاقات الاجتماعية القائمة في الانظمة العربية ، وليس هذا الاندراج الا انخراط في مؤسساتها بما يعنيه من تذويب للشخصية الفلسطينية التي تنتهي وتموت ٠ وهذا ما يعرفه، اولئك الذين ينجحون في هذا الانقطاع عن فلسطين ، فيبقون حيث هم ويقطعون كل صلة لهم بالوطن كحال ابي الخيزران الذي

لم يعد له هم سوى العيش المرفه حد الموت : « اريد ان استريح ·· اتمدد ·· استلقي في الظل وافكر او لا افكر ·· لا اريد ان اتحرك قط ·· » (١١٤) او حال زكريا الذي انقطعت اخباره عن عائلته حين تزوج ، وتوقف عن اعالتها ، منكفئا على ذاته في الكويت ·· او حال اي شخص اخر يتوصل الى نجاح ما ···

ولكن هذا الموت ليس الا ظاهر موت اخر : اكثر اكتمالا ، يصيب اولئك الذين لا يفلحون في الوصول والنجاح · امثال عشرات القتلى الذين تودي بهم صحراء الغياب والسفر والانقطاع عن أرض فلسطين ، امثال اولئك الذين يتحولون هياكل عظمية في صحراء الحدود العراقية الكويتية ( ١١٣ ـ ١٣١ ـ ١٣٢ ) ومن بينهم ذانك الفلسطينيان ( الغزاويان ) اللذان دفنهما صديقهما في هذه الصحراء (١٢) هذا الموت يسقط في الغياب المكاني ايضا كرمز على الضياع الكلي فيه · كما جاء موت الفلسطينيين الثلاثة في الخزان عند الحدود الكويتية يؤكده ·

لذلك تشكل هذه البنية في ادانتها للابتعاد عن الارض ( فلسطين ) توضيحا بينا لعدمية اي حل يقوم على الهرب ـ السفر · فليس هناك من جدوى على الاطلاق في الابتعاد لحل المشاكل المطروحة · بالعكس ، لا يزيدها الابتعاد الا تعقيدا ، ينتهي الى كارثة وموت · فهذه المشاكل ليست الا نتيجة انقطاع اولي ـ خروج اولي من الارض ـ هرب اولي منها ، وليس الاستمرار في الهرب والخروج والانقطاع الا تعميقا لها · فمشكلات ابي قيس التي انتهت الى دفعه نحو السفر هي نتيجة خروجه الاول من قريته ، كذلك فان مشكلات مروان مرتبطة بخروج عائلته وعيشها في المخيم ··· ، كذلك الحال بالنسبة لاسعد الذي تقوم مشكلاته على قاعدة هذا الخروج ( التظاهرات ـ السلطة الاردنية ·· ) ومضاعفاتها ··· وفي ذلك كله تنتصب دعوة ملحاح لكسر هذه الحلقة الميتة ، وذلك بتغيير الوجهة التي يجري التحرك فيها : بديل الذهاب بعيدا عن الارض ( فلسطين ) يجدر الذهاب العميق فيها : استعادتها · ورهافة الرواية ، تقوم في جعلها هذه الدعوة تنتصب في ثنايا دراميتها ، متصاعدة بقوة ورشاقة مع تناميها ، وذلك بالايحاء الذي يعطيها البعد الرمزي لبنيتها الواقعية ·

ان استيعاب خصائص هذا الموقف لا يتأتى الا باستيضاح هذه البنية كامل دلالاتها ـ او اهم ما يبدو لنا منها ـ في عملية تفسير تسعى لاستنطاق الابعاد الرمزية لهذه البنية ايضا واسع مراميها ·

## ٢ ـ بنية الخطر والموت والتاريخ :

اذا كانت بنية الرواية العامة تقوم على الخطر الذي يشكله الانقطاع عن الارض اندراجا مكانيا ـ زمانيا في الاوضاع السائدة ، في الهرب والكذب والخيانة ··· حتى العجز والموت ·· فان هناك مؤشرات عديدة عليها شكلت الاشارات الاولى والتحذيرات البدائية بما سيصبح خطرا داهما وموتا كريها · فأبو قيس يذكر اول ما يذكره بعد تركه لقريته في فلسطين اثر سقوطها في ايدي اليهود موت ابنته « حسنا » · لقد كان هذا الموت ـ موت طفلة بعد شهرين من ولادتها ـ بعد ثلاثة اشهر من تركه ارضه مؤشرا بينا على خطر هذا الانقطاع بالتحديد ، خاصة بالنسبة اليه هو الذي يقيم مع الارض

علاقة عضوية ـ حياتية كما اشرنا · اما اسعد فاول الذكريات التي تطرأ على رأسه في الرواية هي ذكرى خيانة ابي العبد له ، وخداعه له عند « الاتشفور » ـ مركز الحدود الاردني على الطريق من عمان الى بغداد · هذه الذكرى التي يعود اليها ثلاث مرات متتابعة وهو في مكتب سمسار البصرة ليستكمل تفاصيلها الاساسية · وقد كانت هذه الحادثة بالذات اشارة واضحة بالنسبة له لذاك الخطر الذي يحمله الهرب ، والاغراق في الانقطاع عن الارض · حتى انه يتساءل اذا لم يكن معتقل الجفر الصحراوي ارحم من تلك الصحراء التي يقطعها عند الاتشفور ليعلن : « عبث ·· الصحراء موجودة في كل مكان ·· »

وبدل ان تكون « تعريفة التهريب » الى الكويت ( خمسة عشر دينارا ) ـ وهي اول ما تستعيده ذاكرة مروان ـ تعرية للوهم الذي يطلبه هذا الشاب من السفر الى الكويت ، اذ تبدو مفارقة تماما لما ذكره له احد اصدقائه ، حسن ( خمسة دنانير : اي ثلاثة اضعاف هذه ! ) فانها على العكس تظهر انها تزيد توهمه بما يتضمنه هذا التوهم من تعرض للخطر متزايد ، كما حصل له حين هدد باللجوء الى الشرطة فاذا به ينال صفعة شديدة وشتيمة قاسية ويخرج من هذه المواجهة كسيرا ذليلا ، وبالتالي ترهص هذه الحادثة بتوهم اكبر ونتيجة اعظم (*) وكانت نهاية زكريا في زواجه فيالكويت وانقطاعه التام عن اهله الذين كان يساعدهم ، وما يذكره له ابو الخيزران من انه سيتعلم في الكويت ان « القرش يأتي اولا ، ثم الاخلاق » (٨٤) من المؤشرات الاخرى لدى مروان في تبيان عقم ما يحاوله ، والوهم القائم في مشروعه ان يغرق امه واخوته بالمال « حتى يجعل من كوخ الطين جنة الهية ··· » (٨٥) والخطر الملوح في مثل هذه المحاولة ·

ورغم ان ابا الخيزران لا يبدو مقنعا ابدا فيما رواه عن عمله لهؤلاء الثلاثة ، حتى انهم يبدون متفقين على انه يكذب عليهم في بعض المسائل كما يخفي امورا اخرى ( ١٠٠ـ١٠١ ) فانهم يوافقون على السفر معه معطينه ثقتهم ، غير ملقين اي بال لما يشكله وضعه من تحذير من خوض مغامرة الاعتماد على صدقه والثقة بأقواله · الا انهم لا يتفقون على محضه هذه الثقة فقط ، بل انهم عندما يخوضون مشتركين تجربة تجاوز الحدود العراقية ويعانون بالفعل والواقع الخطر الداهم الذي يزداد احاقة بهم كلما امعنوا في هذا السفر الصحراوي ، فانهم لا يعون ابعاده الحقيقية ويعودون الى الاعتماد المطلق على ما يدعيه ابو الخيزران ·

لقد كان الاتفاق مع ابي الخيزران نقطة الالتقاء التي صهرت التعرجات المختلفة للوجهة الواحدة ، المجال الموحد للتجارب المتميزة في تجربة مشتركة كثيفة الدلالات على مآل هذا الخط العام الواحد القائم على الانهماك في السفر والانهماك في مخاطره حتى النهاية ، حتى الموت ·

لذلك تبدو تجربة اجتيازهم الحدود العراقية الى الكويت اشبه بالتمرين النهائي لعرض مسرحي ، ليس فقط في احتوائها النهائي للتجربة الفردية لكل من هؤلاء المسافرين الثلاثة

---

(*) هذه البنية المثلثة لدى كل من هذه الشخصيات الثلاث ليست الا بنية موتهم ، ليس فقط عدديا انما ايضا زمانيا كما سنبين ذلك لاحقا ·

في اكثر اطرها اكتمالا ، وانما ايضا في ما كانت تعلنه من حد اقصى لاكتمال مخاطر هذا السفر بالذات ، مخاطر القطيعة النهائية بالارض والتاريخ : الخيانة والعجـز والمـوت ٠

فلنتبين بالتفصيل قيام هذه الدلالات بالذات في تلك التجربة والابعاد التي تأخذها في النص الروائي ٠

بعد تجاوز مركز الحدود العراقي في صفوان وخروج ــ او بالاحرى اخراج ــ المسافرين الثلاثة من الخزان ، يبدو هؤلاء اشبه بالموتى ٠ فوجوههم تبدو لابي الخيزران « وجوها ، صفراء محنطة ، ولولا ان صدر مروان كان يرتفع ويهبط ، ولولا ان اباقيس كان يتنفس بصوت مسموع ، لخيل اليه اذن انهما ميتان ٠٠ (١٢٢) وليس صدفة ان يبادر ابو قيس مباشرة اثر خروجه الى ان يستلقي « في ظل السيارة منبطحا على وجهه » (١٢١) وان يقف اسعد محمر الوجه وعلائم الصدأ المنطبعة على صدره تجعله يبدو « وكأنه ملطخ بالدم » ، ان يقف « هنيهة يتنشق بملء صدره » (١٢١) وان ينزل مروان الـى الارض محمر العينين مصبوغ الصدر بالصدأ ليمدد جسده عليها واضعا رأسه « فوق فخـذ ابي قيس » ( ١٢١ ــ ١٢٢ ) فالخزان المقفل الذي كانوا فيه يمثل انقطاعا كاملا عـن الارض ، عن نبضها وعن رائحتها ، وفي ذلك يمثل خطرا يتنامى بالموت ، الذي يهـدد الجميع انما على تفاوت اوضاعهم ، وليست اشكال الخروج واوضاع المسافرين بعدها الا تعبيرا عن هذا الخطر بالذات بتفاوت اثاره ٠

ان هذا الخطر ناجم عن انقطاع مكاني ، وزماني ايضا ٠ فبمقدار ما يمر من وقت على هذا الوجود في الخزان بمقدار ما يتفاقم الخطر بالموت ٠ وكنا قد اشرنا الى ان ابـا الخيزران اثناء تفاوضه مع المسافرين الثلاثة على شروط « الصفقة » يحاول ان يوحي اليهم بأن العملية ــ تواجدهم في الخزان ــ لن تستغرق اكثر من خمس دقائق على كل من نقطتي الحدود في صفوان ( العراق ) والمطلاع ( الكويت )٠ (٩٧ــ٩٨) الا انه عنـد تنفيذ العملية الاولى يستعمل رقما جديدا قائلا ان وجودهم في الخزان سيكون « لخمس دقائق او سبع »٠ (١١٥) وحين تنتهي العملية الاولى على الشكل المشار اليه آنفا نجده يعلن : « قلت لكم سبع دقائق ٠٠ ورغم ذلك لم يستغرق الامر اكثر من ست » (١٢٢) وحين يناقشه مروان في الامر مشككا فيما يدعيه يتدخل ابو قيس قائلا : « انها سـت دقائق ٠٠ كنت طوال الوقت اعد ٠٠ من الواحد الى الستين : دقيقة ، هكذا حسبت ٠٠ عددت ست مرات ٠٠ في المرة الاخيرة عددت ببطء شديد ٠٠ » (١٢٣) ٠

نستنتج من ذلك ان العملية استغرقت اكثر من ست دقائق بالفعل ، وان لم تتجـاوز السبع دقائق ٠ مع ذلك انتهى هؤلاء الثلاثة منها ــ على الاقل مروان وابو قيس ــ وهـم على اخر رمق ٠

ما الذي يعنيه ذلك ؟

يعني ان الدقيقة السابعة هي دقيقة الموت في الوضع الذي يوجد فيه هؤلاء الفلسطينيون الثلاثة داخل خزان مقفل يتعرض لحرارة شمس قوية في منطقة صحراوية على الحدود العراقية ــ الكويتية ٠ انها دقيقة موت لا يصبح ناجزا الا باكتمالها ٠

وبناء للتفاوت القائم في اوضاع هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة من حيث اعمارهم واحتمالهم الجسدي ، وبناء لما يؤكده الوصف المشار اليه آنفا حين خروجهم من الخزان اثر العملية الاولى ، فان بامكاننا القول ان اكتمال الدقيقة السابعة كفيل بأن يودي بمروان ، وان اكتمال الثامنة يقضي على ابي قيس ، بينما اكتمال التاسعة هو الكفيل بالقضاء على اسعد ·

هكذا فان الارقام ٧ ـ ٨ ـ ٩ تلعب في النص دورا مأساويا مميتا ، خاصة الرقم ٨ نظرا لانه يعلن مباشرة اكتمال الرقم ٧ والاندراج في موت اخر يحضر لموت بعده ·

الا ان اكتمال ٩ هو في الوقت نفسه دخول في العدد ١٠ الذي يعني اذ ذاك ، وفي هذا السياق بالذات ، الموت الجماعي : موت هذه الجماعات الذاهبة في البعد عن الارض ، المغرقة في السفر والانقطاع ، موتها وموت ما تمثله من قيم ومفاهيم ومواقف ميزت مرحلة تاريخية محددة بكامل اجيالها ·

فاذا ما تقصينا ذلك في النص الروائي فاننا نجد ان الرقم ٨ يلعب فيه لعبة الموت الفلسطيني بامتياز · فلو تركنا جانبا ذكر الموتى اللامحددين في النص : التسعين بالمئة من المسافرين بالمتهريب (٩٩) الهياكل العظمية الكثيرة في الصحراء (١١٣) من مات بضربة شمس (١٣١) ··· واقتصرنا على اولئك المحددين كشخصيات لها علاقاتها ودلالات لافعالها فاننا نجد ان عددهم في هذا النص ثمانية هم على التوالي كما يرد ذكرهم تباعا في النص :

١ ـ الاستاذ سليم الذي ارسل الى قرية ابي قيس من يافا ومات « قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في ايدي اليهود » (٤٣) ·

٢ ـ حسنا ، بنت ابي قيس التي ولدت « بعد شهر من تركه قريته » و « ماتت بعد شهرين من ولادتها » (٤٤) ·

٣ ـ والد اسعد ، صديق ابي العبد الذي يقول انه قاتل واياه معا سنة ١٩٤٨ (٥٤) ·

٤ ـ ٥ الفلسطينيان اللذان بدأ رحلتهما مع صديق ثالث لهما « من غزة ، عبر اسرائيل، عبر الاردن ، عبر العراق ·· ثم تركهم المهرب في الصحراء ، وهم لما يعبروا حدود الكويت ·· » (١١٢) ·

٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ الفلسطينيون الثلاثة : مروان وابو قيس واسعد ·

وراء هذا الموت الفلسطيني يربض العدو الحقيقي : العدو الذي قتل ويستمر في التقتيل ، لا بالسلاح ولكن ايضا بالتهجير والسفر الناتج عنه وما يرتبط بهذا الاخير من ضعف وعجز وخيانة وضياع ··· هذا العدو الصهيوني الذي يرد ذكر مواجهته ثماني مرات ايضا خلال الرواية :

١ ـ هو ضمير الجمع المضمر في قول الاستاذ سليم : « اذا هاجموكم ايقظوني ، قد اكون ذا نفع ٠٠ » (٤٢) ٠

٢ ـ هو هؤلاء اليهود الذين سقطت قرية ابي قيس في ايديهم ٠٠ (٤٣)

٣ ـ هو ذاك الرابض عند « خط القتال » الذي تقع القرية التي التجأ اليها ابو قيس بعيدا عنه ٠٠ (٤٤)

٤ ـ هو ذاك الذي يقول ابو العبد انه قاتله مع والد اسعد « في الرملة منذ عشر سنوات ٠٠» (٥٤)

٥ ـ هو ذاك الذي كان وراء قصف يافا الذي فقدت فيه شفيقة ساقها اليمنى٠ (٨٠) (*)

٦ ـ هو ايضا اولئك الذين كانت فرق المجاهدين التي انضم اليها ابو الخيزران سنة ١٩٤٨ تقاتلهم ٠٠ (٩٤)

٧ ـ هو كذلك من كان يحاربهم ابو الخيزران عندما « كان يركض مع عدد من الرجال المسلحين حين تفجرت جهنم امامه فسقط على وجهه » ٠٠ (١٠٩)

٨ ـ هو اولئك الذين قاموا بزرع قنبلة في الارض او قام احدهم بقذفها لتنفجر امام ابي الخيزران (١٣١)

ولما كان هذا الصراع الفلسطيني ـ الصهيوني يتم على ارض فلسطين بالذات ، فان هذه الارض تتخذ في البنية الروائية اوضاع الموت الفلسطيني الذي يسم مرحلة تمتد من الهزيمة الى نزيف السفر ٠ فاذا تتبعنا اسماء الامكنة في فلسطين حسب ظهورها تباعا في النص الروائي فاننا نلاحظ فيها الترقيم الاتي :

١ ـ يافا : التي ارسل منها الاستاذ سليم ٠٠٠ ( ص ٤١ )

٢ ـ الرملة : حيث قاتل ابو العبد مع والد أسعد ٠٠ ( ٥٤ )

٣ ـ رام الله : حيث امضى ثري بغداد شطرا من الصيف ٠٠٠ (٥٧)

٤ ـ فلسطين : وطن أسعد ٠٠ ( ٦٦ )

---

(*) يمكن القول ان هذا القصف لم يكن صهيونيا بالتاكيد ، وربما كان بريطانيا ٠٠ اننا نتجاوز السجال ، الذي يتيحه النص لعدم ذكره القائمين به بالتحديد ، لنعتبره صهيونيا بناء للدور الذي يلعبه في النص ـ من جهة عدو للفلسطينيين ـ عدا عن الدور التاريخي للبريطانيين في دعم الحركة الصهيونية ٠٠

٥ ـ الرملة : بلدته ٠٠ ( ٦٦ )

٦ ـ الرملة : التي يقول عنها السائح أنها بعيدة جدا ٠٠ ( ٦٦ )

٧ ـ ٨ ـ ٩ ـزيتا : التي ترد ثلاث مرات على لسان هذا السائح ٠٠ ( ٦٦ ) ٠٠٠

فيتبين لنا مباشرة ان البدء بالرقم ٧ هنا يعني الولوج في الخطر المتمثل في هـــذه المستعمرة الصهيونية ( زيتا ) وان اكتماله يعني موتا هو في انسيابه ثلاث مرات متلاحقة هنا ( تكرار زيتا ) يأتي متوازيا في البنية المكانية مع بنية النص الروائي بأكمله عنـــد مفصلها المحوري ، ويلعب الرقم ٨ بالتالي هنا نفس الدور المشار اليه في الزمن المميت للفلسطينيين الثلاثة (*) وليس صدفة أن يأتي ذكر هذه المستعمرة على لسان السائح الذي يتكلم الانكليزية مع أسعد ، وذلك خلال انتقاله من الاردن الى العراق ، في تلك المنطقـــة التي لم تعد الاردن ولم تصبح العراق بعد ، في الفراغ ( الوطني ) واللامكان ـ نظيـــر الموت ذاته ٠

واذا كنا قد أشرنا الى أن اكتمال ٩ يعني الدخول في ١٠ التي تصبح اشارة الى موت جماعي يميز مرحلة تاريخية محددة ، فان اسماء الارض الفلسطينية هنا تعرف اكتمالها ـ كموت جماعي مرحلي ـ على هذا الشكل الآتي :

١٠ ـ يافا ٠٠٠ (٨٠)

١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ فلسطين ٠٠٠ ( ٨٢ ـ ٨٥ ـ ٩٤ )

١٤ ـ الطيرة ٠٠٠ ( ٩٤ )

١٥ ـ غزة ٠٠٠ ( ١١٢ )

١٦ ـ اسرائيل ٠٠٠ ( ١١٢ )

واذ تختم اسرائيل هذه التسميات عند هذا الرقم ( المضاعف لـ ٨ : مضاعفات زيتا ٠٠) على لسان ابي الخيزران يحدث اسعد عن اولئك الذي يقضون او يتعذبون خلال سفرهـم المهرب ( الهارب ) وذلك في خضم عملية سفر بالتهريب ايضا ، في عملية انتزاع من ارض الى ارض تكرس ذاك الانقطاع الخطر عن الارض الاصيلة وتمعن فيه اشتدادا ، فانهـــا

---

(*) يمكن لنا ان ننظر الى هذا الدور ذاته من زاوية مختلفة تفضي الى النتيجة ذاتهـا تؤكد ما نحن بصدد تبينه ٠ فلو اقتصرنا على اسماء المدن فقط ، وعلى تلك التي اصبحت تحت الاحتلال الاسرائيلي دون سواها ، فاننا سنجد ذكرا مزدوجا ليافـــا ( ٤١ ـ ٨٠ ) وثلاثيا للرملة ( ٦٦ ) وواحدا للطيرة ( ٩٤ ) وثلاثيا لزيتا ( ٦٦ ) ، بحيث أن هـــذه الاخيرة تحتل ازاء السابقات الست موقعا ثلاثيا يمكن لنا ان نعطيه الارقام ٧ و ٨ و ٩ ٠

تأتي ايضا كما لاحظنا مع زيتا ـ على لسان شخص يحترف السفر والتنقل : اللا ارتباط واللاانتماء (*) ٠

كذلك فان هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة يحاولون الوصول الى الكويت في الشهر الثامن ( آب ) هذا الشهر الذي يرد ذكره فيالرواية ثلاث مرات فقط أيضا ( مرتين ص : ٣٨ ـ مرة واحدة ص : ٤٩ ) ٠

أما السيارة الكبيرة التي يستعملون خزانها لعبور الحدود خلسة ، فانها في اليوم الذي يتم الاتفاق بينهم وبين سائقها ابي الخيزران ، تكون في اليوم الثامن لخروجها في رحلة قنص الحاج رضا وضيوفه ( ص ٩٦ ) ٠ مما يجعل الاتفاق بحد ذاته مدفوعا بعلامة الموت هذه ٠ وفي هذا اليوم كذلك يكون قد مضى عليها ستة ايام لم يعرف خزانها فيها الماء ( كما يقول ابو الخيزران ص ٩٨ ) اي تكون في اليوم السابع ٠ ولما كان الاتفاق يقضي بالسفر في اليوم اللاحق ( ١٠٢ ) ، فان هذا اليوم ( الثامن ) يتطابق تماما مع موت الفلسطينيين الثلاثة كما تبين الرواية ذلك ٠

واذا كان الموت الفلسطيني يقوم في اساسه على الانهزام امام هذا العدو الاسرائيلي ، الا ان اشكاله التي يتبدى فيها منذ عام ١٩٤٨ تبدو مركبة الاسباب واحيانا تظهر الاخيرة منها ، تلك التي تجري يوميا ، وكأنها لا علاقة لها بذاك الاساس ، فان العودة للماضي كفيلة باظهار الحقيقة التي تطمس يوما بعد يوم ٠ لذلك تبدو استعادة الماضي والرجوع الى الذكريات وتدفق الاحداث العابرة في ذاكرة ووعي شخصيات الرواية ضرورية لاعطائها البنية التاريخية ـ النفسية الخاصة في وحدة كيانية تستقيم فيها المواقف ودلالاتها وفي السياق البنيوي العام للرواية يصبح هذا الاصرار على استعادة الماضي لفهم الحاضر على حقيقته ابعد من تقنية روائية يلجأ اليها غسان كنفاني لاعطاء حيوية معاصرة للعمل الروائي ، في جعله ينهض على رهافة تركيبية للمواقف والاحداث المتداخلة من ناحية ، وعلى دقة توحيدية في جمع شتات الشخصيات المتباعدة في استقلالها من ناحية ثانية ، في زخم حدث يعطيها في مأساويته القاتلة الابعاد الحقيقية لوضع تاريخي تشير اليه بالرمز الجلي ، يصبح وجها من وجوه التمسك بالاصول ، اصول الارض واصول النزاع، على ان هذا التمسك وحده ، يتيح للواقع الفلسطيني الراهن رؤية تاريخية واجتماعية حقيقية تنهض لتحطم كل الزيف الذي يغلفه وبالتالي تفتح الباب واسعا امام تحرره ٠

لذلك تأتي هذه الذكريات لتعلن لدى كل شخصية ارتباطاتها الخاصة ومرامي مواقفها

---

(*) ضمن هذا السياق تأخذ خواطر ابي الخيزران حول الوطنية التي يتساءل عن جدواها بعد ان فقد عضوه الجنسي متوصلا الى موقف « ليكسر الفخار بعضه » متطلعا الى المزيد من النقود اي المزيد من السفر والتنقل والانقطاع ٠٠٠ ( ص ١٣١)

واتجاهاتها ، التي جميعا تعود الى جذور تاريخية حيث يقـــوم ذاك الصراع بيـــن الفلسطيني والصهيوني ··· (*)

ورغم احتفاظ هذه الذكريات ببنية مماثلة لدى كل من شخصيات الرواية ، فان تمايزها جاء يعكس تمايز هذه الشخصيات واختلاف مواقعها وان كانت في حدث واحد ـ خـزان واحــد ·

فجميعها تصل الى ارقام الخطر الآنفة الذكر على نسب فظيعة الدلالة كما سيتبين لنـا لاحقـا ·

فذكريات ابي قيس تصل الى تسع :

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ تتعلق بوجود ابي قيس في فلسطين خلال سنة ١٩٤٨ او مـا قبلها ··· ( ٣٧ ـ ٣٨ ) ( ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٣ ـ ٤٤ )

٦ ـ تتعلق بالعام ١٩٥٨ عن لقائه بسعد صديقه العائد من الكويت ·· ( ٤٦ )

٧ ـ متعلقة بالفترة الممتدة من ١٩٤٨ الى ١٩٥٨ وهو خارج أرضه ووطنه ·· ( ٤٦ )

٨ ـ عن نقاشه مع سعد الذي ينصحه بالذهاب الى الكويت عام ١٩٥٨ ·· ( ٤٧ )

٩ ـ عن لقائه بالسمسار السمين في البصرة في اليوم ذاته ··· (٤٩) (**)

وذكريات أسعد أيضا لا تتعدى التسع :

الست الاول تكاد تكون كلها في شهر آب ١٩٥٨ وتتعلق بسفره من الاردن الى العـراق ( ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٧ ـ ٥٨ ـ ٦٠ ـ ٦١ )·

---

(*) كان من الصعوبة بمكان ان نخرج باحصاء دقيق لعودة الماضي في ذاكرة شخصيات الرواية ·· فتداخل صوت الراوي مع صوت الشخصية المعينة ، وتداخل الذكريات المتفاوتة زمانيا ، واختلاف الحيز الذي تشغله كل ذكرى ··· يجعل عملية احصائهـا بدقة امــرا مستعصيا ·· لذلك قد يعتور هذا الجانب بعض الضعف ، خاصة في ذلك الحيز الــذي يفترض فيه ان يفسر هذه الصعوبة ذاتها فلم نتناوله استبعادا لاستغراقات قد تخل فــي سياق الدراسة ذاتهـا ·

(**) في فصل «الشمس والظل» لا يتعدى ما يطرأ على رأس ابي قيس من خواطــر ما يستحق التسجيل ( انظر ص ١٣٠ ) اذ لا نجد فيها الا تكرارا يكاد يكون حرفيا لما سبق وتفكر فيه ··· ونظرا للوضع الخاص لهذا المقطع ( في الصفحتين ١٣٠ ـ ١٣١ ) جعلنـا مقياسا له الا نعتبر ذكرى الا ما اتى يضيف شيئا جديدا على ما سبق ، فنهمل ما يتكرر ، ونحتفظ بالعناصر المستجدة معتبرين اياها ذكريات / أو خواطر طارئة للماضي فـــي الحاضر ··

٧ ـ السابعة مرتبطة بمولده وتعود الى ما قبل ١٩٤٨ في فلسطين ( ٦١ )

٨ ـ الثامنة عن لقائه بالسائح وزوجته على الطريق الحدودية بين الاردن والعراق(٦٢)

٩ ـ التاسعة عن حادثة اعتقاله بسبب التظاهر في الاردن سنة ١٩٥٨ ٠٠ ( ١٣١ )

كذلك هو الحال مع مروان الذي تبدو ذكرياته على النحو التالي :

١ ـ عن بداية لقائه بالسمسار السمين في البصرة منذ لحظات في اليوم ذاته (٧١)

٢ ـ ما قاله له صديقه حسن عن كلفة تهريب الفرد من العراق الى الكويت خلال هـذا الشهر ذاته سنة ١٩٥٨ او قريبا جدا منه ( ٧١ ) ٠

٣ ـ استكمال لقائه بالسمسار حتى خروجه مهانا من دكانه (٧٢) ٠

٤ ـ عن الرسالة الطويلة التي كتبها الى امه صباح هذا اليوم ( ٧٦ ) ٠

٥ ـ عن سر زواج اخيه زكريا الذي احتفظ به شهورا طويلة هذا العام ١٩٥٨ )(٨٤) ٠

٦ ـ عن هروب الاب وزكريا الذي ارسل له رسالة صغيرة ٠٠ هذا العام كذلك (٨٤) ٠

٧ ـ عن علاقته بزكريا منذ ١٩٤٨ حتى زواج الاخير ٠٠ (٨٥) ٠

٨ ـ عن وداعه لابيه قبل ان يسافر هذا الشهر آب ٠٠ (٨٥) ٠

٩ ـ عن شفيقة التي « طوحت قنبلة مورتر بساقها فبترها الاطباء من اعلى الفخذ٠٠ » (١٣٠) ٠

أما بالنسبة لابي الخيزران فاننا نلاحظ الآتي في ذكرياته :

١ ـ عن قيادته البارعة للسيارات الكبيرة سنة ١٩٤٨ وقبلها في فلسطين ٠٠( ٩٤ ٠٠)

٢ ـ عن براعته هذه أيضا حين عمل لدى الحاج رضا في الكويت بعد ١٩٤٨ ٠٠ (٩٥٠٠)

٣ ـ عن خروجه الاخير مع الحاج رضا والعطل الذي طرأ على سيارته منذ اسبوع ٠٠ ( ٩٦ ٠٠ ) (*)

---

(*) هذه الذكريات الثلاث تأتي في سياق اشكالي ٠ فهي تذكر من قبـل الراوي خـلال تفاوض ابي الخيزران مع الفلسطينيين الثلاثة في « الصفقة » ٠ وذلك ضمن حوار يستعملها كأنها قيلت واعلنت ٠٠ الا اننا لا يمكن اعتبارها جميعا في الحوار ، وهي لا تستعمـل شكله ، مما يبرر اعتبارنا اياها ذكريات وان اتخذت منحى الاخبار التاريخي ٠

٤ ـ عن وجوده في المستشفى اثر حادث الانفجار الذي تعرض له سنة ١٩٤٨ ٠٠ (١٠٦)

٥ ـ موقفه من فقدانه قدرته الجنسية ( « رجولته » ٠٠ ) وهروبه من المستشفى ٠٠(١١٠)

٦ ـ عن القنبلة التي انفجرت بين قدميه سنة ١٩٤٨ ٠٠ (١٣٠ )

٧ ـ عن وجوده في المستشفى حيث اثارت خجله ممرضة كانت تساعد الاطباء هناك٠٠ ( ١٣٠ ٠٠ )

٨ ـ سقوط وجه مروان في ذهنه اثر اكتشافه موت الفلسطينيين الثلاثة ٠٠ (١٤٢) ٠

٩ ـ تذكره ابا قيس بعد ذلك مباشرة ٠٠ (١٤٢ )

١٠ ـ عما قرره في الظهيرة ٠٠٠ (١٤٧ )

١١ ـ عما انتهى اليه قبل اخراجه السيارة من كاراج الحاج رضا ٠٠ (١٤٧ )

هكذا يمكننا ان نلاحظ بسهولة وجود بنية الموت المثلثة الآنفة الذكر لدى كل من هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة المسافرين بالتهريب : ٧ و ٨ و ٩ ٠

كذلك فان هذه البنية بالذات اذ تعيد عند بدء الموت ( رقم ٧ ) طرح اساس الصراع الذي اودى بهم جميعا تبين لدى كل فرد بينهم الشكل الرئيسي الذي تناهى اليهم فيه عدوهم الذي قهرهم ٠ فنحن نجد ان جميع الذكريات ذات الرقم ٧ ترتبط بفلسطين سنة ١٩٤٨ او ما قبلها دون استثناء ٠ واذا تتبعنا لدى كل فرد الذكرى التي تحمل رقم موته فاننا نجد بيسر السبب النهائي كما توصل اليه ذلك الصراع الاساسي مع العدو الصهيوني لذاك الانقطاع المميت ( السفر ) ٠ فمروان يستعيد في الذكرى السابعة رسالة اخيه زكريا التي يعلن له فيها زواجه وما يترتب عليه ذلك من ضرورة تركه المدرسة والانتقال الى مجال العمل ٠٠٠ ـ وابو قيس ينقل في الذكرى الثامنة النقاش الذي جرى بينه وبين صديقه سعد الذي يعود ثريا من الكويت ويشدد عليه بالنصيحة كي يذهب الى هناك ، وينتهي الى اقناعه ٠٠ ـ واسعد يستعيد في ذكراه التاسعة موقفه معتقلا أمام الضابط الذي بصق عليه ٠٠٠ وجميع هذه الذكريات كانت في صلب الدوافع المباشرة لاصحابها كي يمضوا الى الكويت ، يمعنوا في الانقطاع عن ارضهم ، ويتعرضوا للموت٠

ورغم ان أبا الخيزران يتمتع بوضع خاص ازاء الثلاثة الآخرين ، فان خصوصيته لا تكمن في شذوذه عن الاخرين بل في تفرده ضمن البنية ذاتها بتمايز له دلالاته الخاصة ٠

ففي الذكرى السابعة حادثة انتزاع رجولته في المستشفى ٠٠ وهي في نفس الوقت اساس موقفه العام في لا مبالاته من ثم بالوطن واهتمامه الوحيد بالمال ٠٠ لذلك فان هذا الانتزاع ـ المتعدد الاوجه ـ يصبح بالتالي نوعا من انواع الموت ٠ ولما كان بذلك اسبق من سواه من اولئك الفلسطينيين الثلاثة ، فانه يتقدمهم منذ هذا الرقم المميت (٧) ليأتوا هم بعده تباعا كما نلاحظ : مروان في الذكرى الثامنة ، ابو قيس في الذكرى التاسعة ،

واذ يكتمل الرقم ٩ ويدخل في الرقم ١٠ فان موت اسعد يصبح في خضم الموت الجماعي الذي يميز المرحلة ، وهو يتخذ شكل القبر الواحد بين القبور الثلاثة التي يذكرها ابو الخيزران في الذكرى العاشرة · بقي ان الذكرى الحادية عشرة في اشارتها للموت المشتت والضائع تمثل نمطا آخر لهذا الموت المرحلي : نمط التخلي عن الارض الاصيلة والانخراط النهائي في أراضي الغير ، ذوبان الشخصية الفلسطينية في الانظمة العربية بما يعني نهايتها واندثارها · (*)

بناء لكل ما سبق ، يصبح بامكاننا ان نفهم لماذا تحاول الارقام المطمئنة في النص ان تبقى دون تلك الخطرة التي درسنا ميزاتها · فعندما يسأل اسعد سمسار البصرة السمين ان كان سيمشي كثيرا مع دليل مجموعة المسافرين بالتهريب يجيبه : « ست او سبع ساعات فقط ·· » ( ص ٦٠ ) ورغم الخطر الذي يوميء اليه الرقم ٧ هنا ، فانه ليس بذي شأن كبير ، وفي كل الاحوال ليس مميتا ، بالنسبة لاسعد ، كما يشير النص الى ذلك في مكان آخر حيث يقول السمسار ذاته لاسعد : « ··· طبعا عليك ان تمشي قليلا ولكنك فتى في غاية القوة ، لن يضيرك هذا » · (٥٨)

وكنا قد أشرنا سابقا الى ان ابا الخيزران في محاولته طمانة محاوريه الفلسطينيين الثلاثة اثناء التفاوض معهم يقول لهم حرفيا : ·· « ستنزلون الى الخزان قبل نقطة الحدود في صفوان بخمسين مترا ، سأقف على الحدود أقل من خمس دقائق ، بعد الحدود بخمسين مترا ستصعدون الى فوق ·· وفي المطلاع على حدود الكويت ، سنكرر المسرحية لخمس دقائق اخرى ، ثم هوب ! ستجدون انفسكم في الكويت ! » ( ص ٩٨ ) فيبدو ليس فقط مقنعا بل باعثا على الثقة والاطمئنان اكثر من ذاك السمسار ( الـ ٥ افضل من ٦ و ٧ ) وهذا ما دفع بالمسافرين الى الاتفاق معه وتفضيله على هذا الاخير ( من يملك بينهم على الاقل القدرة على الاختيار ، ومن هذه الزاوية البنيوية للرؤية ) فكل النقاش الذي يتم لا يتطرق ابدا الى هذه « المسرحية » التي سيقومون « بتمثيلها » تلك التي سيعيشونها ـ سيموتون فيها · كذلك لا احد منهم يناقشه حين يعلن رقما جديدا قبل ان ينزلوا في الخزان لاول مرة ، مؤكدا لهم بأن وجودهم فيه سيكون « لخمس دقائق او سبع ـ بل هناك شك بأن يكون احدهم قد تنبه الى هذا التغيير الذي يحمل في طياته خطر الموت باكتمال الدقائق السبع » (٧) · الا ان الامر يختلف اثر التجربة التي يخوضونها عند اجتياز الحدود العراقية في صفوان ، حين يتمحور النقاش حول عدد الدقائق التي استغرقها عبور هذه الحدود كما بينا سابقا ، ويبقى هذا العدد ( ٧ ) دون الاكتمال ، وخطره القاتل مستبعدا · وهذا بالتحديد ما يحاول ابو الخيزران مجددا ان يوصي به في العملية الثانية ( اجتياز الحدود الكويتية عند المطلاع ) حين يتوجه الى هؤلاء المسافرين الثلاثة مؤكدا : « ·· احسبوا ·· سبع دقائق على الاكثر وافتح لكم الباب ·· » (١٣٣) وحين يسأله ابو قيس مستزيدا من الاطمئنان : « سبع دقائق ؟ » يسارع الى اجابته : « على الاكثر ! » (١٣٤) · وكان لتوه قد أعلن متوجها الى مروان : « هل انت خائف الى

---

(*) لن نتأخر في تأكيد هذا الوجه الآخر للموت المرحلي المرتبة بالانظمة من زاوية اخرى ، عبر البنية الزمانية ـ المكانية لعملية عبور حدود الكويت لاحقا ···

هذا الحد من البقاء خمس او ست دقائق في الداخل ؟ » (١٣٣) (*)

كذلك نتمكن من تحديد خصائص الوضع المميت الذي اودى بهؤلاء الفلسطينيين الثلاثة عند الحدود الكويتية · وعلينا ان نشير باديء الامر الى تزايد حرارة الجو المتصاعد بنسبة شديدة الوطأة بسبب التهاب الشمس عند الظهيرة واثر ذلك على الخزان بحيث يصبح فيه هذا اقرب ما يكون الى « الفرن الحقيقي » الذي توقعه ابو الخيزران عند العمليه الاولى ( ١١٥ ) · فقد بدا خزان السيارة لابي الخيزران وهو على وشك الصعود اليها لمغادرة مركز المطلاع الحدودي الكويتي « ان حديده على وشك ان ينصهر تحت تلك الشمس الرهيبة ··· » (١٤٠ ) وهو عندما اوقف سيارته بعد ذلك وتوجه ليفتح باب الخزان ولامست كفاه مسطحه الحديدي « احس بهما تحترقان ولم يستطع ان يبقيهما هناك فسحبهما واتكأ بكميه ــ عند الكوعين ــ فوق حديد السطح ثم زحف الى القفل المضلع ، وامسكه بطرف قميصه الازرق ودوره فانفتح مقرقعا ···»

اذن لقد وصلت حرارة الخزان الى اقصاها لتعطي لكل دقيقة من الدقائق التي تمر ابعادها القصية ، وبالتالي فان الارقام المميتة ( ٧ ــ ٨ ــ ٩ ··· ) تصبح حاسمة هنا ، وتودي بحياة هؤلاء المسافرين القابعين داخله · واذا تتبعنا ما يعلنه النص الروائي هنا من علامات ، فاننا نستطيع استجلاء هذا الزمن القاتل منذ اغلق ابو الخيزران خزان سيارته على هؤلاء المسافرين الثلاثة الى حين فتحه على موتهم ·

فعندما يطلب ابو الخيزران من هؤلاء المسافرين دخول الخزان مجددا لاجتياز الحدود الكويتية عند المطلاع يعلن لهم ان الساعة تشير الى « الحادية عشرة والنصف » ( ١٣٣ )، وهو عندما يفتح باب الخزان لاحقا بعد مروره في مركز المطلاع الحدودي يلمح ساعته في يده « تشير الى الثانية عشرة الا تسع دقائق » (١٤١ ) ، فيكون الوقت المستغرق بين هذين التوقيتين احدى وعشرين دقيقة · ولكن عند التوقيت الاول لم يكن المسافرون قد دخلوا الخزان بعد · واذا اعتبرنا ان ابا الخيزران ــ كعادته ــ يحاول ان يتلاعب بالوقت وقد كذب بما يعادل دقيقة على الاكثر (*) وان دخول الثلاثة الخزان واغلاق ابي الخيزران لبابه لم يتجاوزا الدقيقتين ، فان بامكاننا اعتبار ان ابا الخيزران انطلق بسيارته في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والثلاثين ·

---

(*) يؤكد اختلاف اقوال ابي الخيزران بناء للشخص الذي يتوجه اليه بالحديث الوضع المتميز لكل من هذه الشخصيات الفلسطينية الثلاث في علاقتها بالبنية المكانية ــ الزمانية المميتة كما بيناه آنفا ··· كما يمكننا ان نضيف ما ورد عن قيادة ابي الخيزران « لسيارة مار جبارة اكثر من ست ساعات في طريق ملحي موحل دون ان تغوص في الارض وتتعطل ·· » ( ٩٥ وكذلك ٩٦ ) حيث يبقى الرقم ما دون السبعة موحيا بالخلاص والنجاح والطمأنينة ···

(**) كما فعل في التجربة الاولى على الحدود العراقية في صفوان (٦ بدل ٧) ــ راجع ص ١٢٢ و ١٢٣ ــ ، وكما ترجحه ردة فعل مروان على اعلانه هذا التوقيت : « نظر مروان الى ساعته وهز رأسه ، لقد حاول ان يقول شيئا الا انه لم يستطع · فمشى خطوات قليلة الى السلم الحديدي وبدأ يتسلق » ( ١٣٣ ــ ١٣٤ ) ·

« بعد دقيقة ونصف فقط اجتاز ابو الخيزران بسيارته الباب الكبير المفتوح في الاسلاك الشائكة المشدودة حول مركز المطلاع .. » (١٣٤ ) اي في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين والنصف · واذا قدرنا ان ابا الخيزران احتاج كي يوقف « سيارته أمام السلم العريض الذي يرقى الى البناء المقرمد ذي الطابق الواحد » (١٣٤ ) ويرتقي الدرج مسرعا الى الغرفة الثالثة الى اليمين في نصف دقيقة فقط ، فانه يدخل هذه الغرفة في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والثلاثين · لم يكن متوقعا له ان يمضي في هذه الغرفة ـ قياسا على ما سوف يحصل في « الغرفة الاخرى » (١٣٩ ) حيث ينجز مهمة مماثلة ( توقيع بعض الاوراق من قبل موظفي الحدود ) لا تستغرق « اكثر من دقيقة » .. (١٤٠ ) ـ اكثر من دقيقة واحدة · الا انه يضطر للبقاء فيها حوالي اثنتي عشرة دقيقة بسبب اصرار احد الموظفين ( ابي باقر ) عليه ان يخبره عن تلك الراقصة ( كوكب ) التي روى له الحاج رضا حكاية وهمية عن علاقتها بأبي الخيزران .. (١٣٨ ) وان يتعهد له باصطحابه معه الى البصرة في المرة القادمة ليعرفه عليها .. (١٣٩) ·

لذلك فانه يدخل الغرفة المجاورة في الساعة الثانية عشرة الا ربعا · (١٣٩ ) حيث لا يبقى « اكثر من دقيقة » ( ١٤٠ ) كما اشرنا ، يسارع بعدها الى سيارته لينطلق بها خارج مركز الحدود في الطريق المعبدة ( الكويتية ) · أي أنه بامكاننا القول انه كان على هذه الطريق في الساعة الحادية عشرة والدقيقة السادسة والاربعين ونصف ـ باعتبار ان وصوله الى السيارة وتشغيل محركها والخرو جمن مركز الحدود حتى الانطلاق في الطريق المعبدة استغرقت حوالي نصف دقيقة ·

ورغم ان النص يشير هنا الى انه « أمامه دقيقة او دقيقة ونصف ليتجاوز اول منعطف يحجبه عن مركز المطلاع » ... (١٤٠) فان ابا الخيزران لا يتوقف ويفتح باب الخزان قبل اربع دقائق ونصف ، في الساعة «الثانية عشرة الا تسع دقائق » ! (١٤١) ·

فتكون الفترة الزمنية التي استغرقها عبور الحدود الكويتية ، والمسافرون الفلسطينيون الثلاثة داخل خزان السيارة المعرض لحرارة شمس جهنمية عند تلك الحدود الصحراوية، حوالي عشرين دقيقة ( من الساعة الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والثلاثين حتى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والخمسين ) وهي فترة اكثر من كافية للقضاء على هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة بناء لما سبق ولاحظناه · وهي كانت كذلك بسبب التأخير الذي طرأ على أبي الخيزران عند دخوله الغرفة الاولى فيمركز المطلاع حيث اضطر للبقاء اثنتي عشرة دقيقة بدل الدقيقة الواحدة المتوقعة لانجاز معاملته · بيد ان الفترة الزمنية التي كان لعبور هذا المركز الحدودي ان يستغرقها (*) بغض النظر عن هذا التأخير تشكل بحد ذاتها فترة كافية لقتل المسافرين الثلاثة في الخزان · فاذا وضعنا جانبا فترة التأخير هذه ( ١١ دقيقة ) فاننا نجد ان المدة المستغرقة تساوي تسع دقائق · وكما بينا سابقا فان هذه الدقائق التسع كافية لقتل مروان وابي قيس واسعد ، وليست الدقائق الاخرى الواردة الا تأكيد هذا الموت في انسياقه الى ابعاد تتعدى الافراد الثلاثة · ويقدم النص الروائي بحد ذاته هنا بنية الموت ولغته ·

---

(*) من أجل متابعة ومراجعة هذه الفترة الزمنية بصورة واضحة يمكن الاعتماد على الجدول الزمني لعملية عبور الحدود الكويتية الوارد هنا ...

فخلال الحوار الذي يتم بين ابي الحيزران وابي باقر ، تبرز جملة واحدة هي اكثر التعابير الواردة في هذا المقطع دلالة عنمبلغ اضطراب ابي الخيزران وقلقة : «نظر الجميع الى بعضهم فيما انقلب وجه ابي الخيزران الهزيل فصار مبيضا من فرط الرعب واخذ القلم يرتجف في يده » · ( ١٣٧ ) هذه الجملة تقع في الوسط من بين المخاطبات العديدة هنا يأتي بعد المخاطبة الثامنة ( ص ١٣٥ ـ ١٣٩ ) (*) ·

واذا اعتبرنا ان وسط هذه المخاطبات هو ايضا منتصف الوقت الذي يمضيه ابو الخيزران في هذه الغرفة ، اي عند انتهاء الدقيقة السادسة ، فان عدد المخاطبات (٨) يتحد تماما مع عدد الدقائق التي تكون قد مرت (٨) لتأكيد هذا الاوج الذي يعرفه الموت في مكان آخر ( في الخزان ) ـ نقطة موت الثاني من المسافرين ( ابي قيس ) بعد موت الاول ( مروان ) وبداية نزاع الثالث( أسعد ) · لذلك يأتي هذا الوصف لوجه ابي الخيزران المرتعب ينضح بمأساوية الوضع الذي يجد نفسه فيه ، وكأنه ينظر الى الفلسطينيين الثلاثة يسقطون تباعا في الموت الرديء ·

ويأتي سقوطهم المتتابع ( في الدقائق ٧ و ٨ و ٩ ) هنا ينقل بنية الموت الفلسطيني المرحلي التي تعم النص ، وتتداخل هنا بنية المخاطبات العددية الموحية بها مع بنية الامكنة التي اوضحناها سابقا لنجد في الارقام المفصلية ٧ و ٨ و ٩ ثم ١٦ ، زيتا المكررة ثلاث مرات واسرائيل ·

**جدول بالتوقيت الزمني لاجتياز مركز المطلاع الحدودي الى الكويت**

| الساعة الحادية عشرة والنصف دعوة المسافرين الثلاثة الى دخول الخزان | من الساعة ١١٫٣١ انطلاق السيارة | الى الساعة ١١٫٣٢½ الوصول الى مركز المطلاع | الى الساعة ١١٫٣٣ دخول الغرفة الاولى في المركز | الى الساعة ١١٫٤٥ دخول الغرفة الثالثة | الى الساعة ١١٫٤٦ الخروج من الغرفة الثالثة | الى الساعة ١١٫٤٦½ السيارة على الطريق المعبدة | الى الساعة ١١٫٥١ فتح باب الخزان | المجموع |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| الزمن الممتد منذ اقفال باب الخزان على المسافرين الثلاثة حتى فتحه ··· | – | ١½ | ½ | ١٢ (٦ + ٦) | ١ | ½ | ٤½ | ٢٠ دقيقة |
| الزمن الذي كان بامكان اجتياز مركز المطلاع ان يستهلكه لولا التأخير الذي حصل في الغرفة الاولى ·· | – | ١½ | ½ | ١ | ١ | ½ | ٤½ | ٩ دقائق |

(*) على ان جواب علي باسم الراقصة «كوكب» (١٣٧) لا يأتي من قبل ابي باقر ولا يتوجه الى اسعد ، وعلى ان الكلمات الاخيرة لابي باقر : « يا ملعون يا ابا الخيزرانه ! خدعتنا اكثر من سنتين ··· » (١٣٩ ) تتم اثناء وبعد مغادرة اسعد للغرفة ، وهي على كل حال لا تتوجه اليه ··

وكما سبق وقلنا ان اكتمال ٩ يعني الدخول في ١٠ ، الرقم الذي يمثل في هذه الهيكلية البنوية موتا جماعيا مرحليا ، يميز وضع اولئك الفلسطينيين الساقطين في الهــــرب ، والانقطاع عن الارض ، والضياع ، والموت . ونلاحظ هنا ان مخاطبة أبي باقر العاشـرة لابي الخيزران ( ١٣٧ ) ، التي توضح ما يتصوره عن علاقة هذا الاخير بالراقصة كوكب، تشكل اعلانا مأساويا عن هذا الموت المرحلي الــذي يجسده ابـــو الخيـــزران المخصي ، الشخصية الفلسطينية الاخيرة التي تبقى !

لذلك لا يستدعي الاستغراب ان يكون هو الوحيد بين الشخصيات الفلسطينية التي يتطرق اليها النص الروائي دون اسم محدد له ، ويتعامل معه بكنيته فقط ( ابي الخيزران ) ، وان تتحور هذه الكنية فتصبح على لسان ابي باقر فقط « ابا الخيزرانة » ، وان يستعيد هذا الاخير هذه الكنية المحورة تسع مرات (*) : بما يتفق واعــلان موت الفلسطينييــــن الثلاثـــــة .

الا ان هذه اللغة المستعملة ، وموضوعها لا يأتيان الا ليضيئا ابعاد هذا الموت الفلسطيني المرحلي كما تتبدى عبر تلك البنية المكانية الزمانية التي يأتي فيها .

فاذا كان هذا الموت يتم بالتحديد عند الدقائق ٧ و ٨ و ٩ ، فمعنى ذلك ان الفلسطينيين الثلاثة يختنقون في الخزان المقفل عليهم عند مركز الحدود الكويتي ( المطلاع ) اثنــــــاء الحديث الذي يدور بين ابي الخيزران وابي باقر ، وبالتحديد عندما يتجه حديث الاخير الى موضوع الراقصة المزعومة من التلميح الى التصريح (**). ولن تكون الدقائق اللاحقة الا تكريسا لهذا الموت وامعانا فيه ... ويأتي دخول الخزان الى الكويت اشبه بتابوت ينقل الجثث الثلاث كما سيكتشفها ابو الخيزران حين فتحه باب الخزان .

ولم يكن هذا الزمن بدقائقه المشار اليها ) قاتلا ، لو لم يكن هؤلاء الفلسطينيون في هذا الوضع المكاني بالذات ، هذا الوضع الذي يرمز الى اقصى حد من الانقطاع عن الارض كما سبق وقلنا . لكن هذا الوضع بالذات هو وضع فرضته ظروف السفر الخاص لهؤلاء الثلاثة : الســـفر بالتهريب . وهنا يبدو تدخل العنصر العربي بارزا في البنية الرمزية الكلية للنص الروائي . فان يتجه الفلسطينيون نحو الكويت ويدخلوه خلسة ، فلانه كــان بلدا مغريا لهم بالارتزاق وتحقيق الامال المعيشية الكبيرة .. ولانه ايضا كان ممنوعـــا عليهم او على معظمهم . وهو بذلك يمثل في النص البعد الاقصى لما يمكن لنظام عربي ان يغري به هؤلاء الفلسطينيين وان يؤذيهم في نفس الوقت . واذا ما تتبعنا ما يذكره هــذا النص عن العناصر العربية التي يتعرض لها لادركنا الشروط الفعلية لموت الفلسطينييــن الثلاثة . فاذا كان المسؤولون العسكريون فيالاردن يعتقلون الفلسطينيين الذين يتظاهرون

---

(*) ص ١٣٥ : مرة واحدة ، ص ١٣٦ : مرة واحدة ، ص ١٣٧ : ثلاث مرات ، ص ١٢٨ مرتان ، ص ١٣٩ : مرتان أيضا . وهذا يتفق مع ذكر الرقم ٩ الذي لا يرد الا مرة واحدة في النص : عند فتح باب الخزان على هؤلاء الفلسطينيين الثلاثة موتى !

(**) راجع مخاطبات ابي باقر لابي الخيزران ذوات الرقم ٧ و٨ و٩ في الصفحة ١٣٨.

ويهينونهم ··· ( ص ١٣١) ، فان المسؤولين في العراق ينامون على حدوده ولو كان بعضهم مفتح العيون ··· ( ص ٦٦ ــ ١١٩ ) ، ويتواطؤون مع المهربين امثال ذلك « الرجل السمين صاحب المكتب » (٦٧) الذي يتوجه اليه الفلسطينيون الثلاثة فيصفع احدهم ( مروان ) ويهينه ويشتم الشرطة ··· ( ٧٢ ــ ٧٣ ) هذه الشرطة التي تحميه وامثاله من غضبة ضحاياه فتعتقلهم ··· (١١٣) ·

واذا كان الحاج رضا يملك قافلة من السيارات يسخرها للتمتع الباذخ ( رحلة قنص لضيوفه ·· ) ( ص ٩٦ ) فلن يأتي موظفو الدولة الكويتية افضل حالا منه كما تبديها سمنة ( ابي باقر ) وكأس الشاي الصغير على الطاولة الفارغة امام احدهم ( ١٣٦ ) واهتمامهم الكبير بسخافات يستلذون تداولها ( الحكاية المزعومة بين ابي الخيزران وكوكب ··· ) في الحين الذي تشفق فيه الدوريات على نفسها من الاستطلاع في النهار الشديد الحر ··· (١٣٢ ) وتعبر سيارات الحاج رضا معصومة من التفتيش ··· (٩٤ )·

وفي هذا السياق تأخذ فكرة اسعد ابعادها وهو يمضي تحت الشمس الحارقة على رمل الحدود الاردنية نحو العراق ، ليدور حول الا تشفور متلافيا المركز الحدودي ، ومعه خطر اعتقاله ووضعه في السجن : « تراهم لو حملوني الى معتقل الجفر الصحراوي ·· هل سيكون الامر ارحم مما هو الآن ؟ عبث ·· الصحراء موجودة في كل مكان ··· »(٥٩) ·

ان الفلسطيني الذي يهرب من مصائبه يقع بفضل الاوضاع العربية السائدة بأشد منها : هذه هي النتيجة التي كانت تعلن عند كل خطوة ابتعاد عن الارض يقوم به هؤلاء الفلسطينيون · ومع ذلك امعنوا في التجربة والمخاطرة حتى الموت ·

غرهم ان يعود امثال سعد بأكياس النقود من الكويت ، فلم يعودوا يرون او يسمعون شيئا آخر حتى افكارهم · ان ابا قيس يقمع بنفسه تلك الافكار التي تراوده عن مخاطرة السفر ( ٤٧ ــ ٤٨ ــ ١٣٠ ) ·· ورغم ما يقوله عم اسعد له ، من ان العشرات قد ذهبوا قبله الى الكويت ولم يعودوا بقرش واحد ( ٦١ ) يصر على ان هذا الذهاب هو مفتاح مستقبله ( ٦٢ ) ··· ، وكانت تصلهم اخبار من يقضون بضربة شمس في هذه البلاد ·· ( ١٣١ ) ، كما أن ابا الخيزران ذاته ذكر للمسافرين الثلاثة ان « عشرة بالمئة على الاكثر » من اولئك الذين سافروا عن طريق المهربين وصلوا الى الكويت ··(٩٩) مع ذلك خاضوا غمار الخطر وانجرفوا فيه ·· وقد تمثل هذا الخطر داخل النص بخزان ماء السيارة المقفل عليهم · وحين تكون السيارة كويتية ملك الحاج رضا المسرف في لهوه ، وحين يكون هو الذي اوحى بقصة أبي الخيزران مع كوكب ، وحين يكون موظفو الحدود وراء دخول الفلسطينيين في الخزان ، وهم كذلك الذين ضاعفوا مدة وجودهم فيه تحت الشمس القاتلة ، يتضح مدى الدور الذي يلعبه العنصر العربي في النص الروائي ليساهم في الموت الفلسطيني المرحلي · اذ انه يؤمن الشروط اللازمة لهذا الموت المتوقع · والفلسطينيون الذين لا يموتون ــ عدا عن ندرتهم ــ لا يتوانون عن التخلي عن فلسطينيتهم ذاتها ، بمعنى انهم يتخلون عن المسؤوليات التي يفترضها وضعهم ( زكريا ) ، او انهم يتصرفون كما تتصرف العناصر غير الفلسطينية ، كالمهربين ·· ( أبو الخيزران ) لذلك تصبح دقائق التأخير الاحدى عشرة هي البعد الزمني الممثل لبعد التدخل العربي ودوره الغالب في هذا الموت الفلسطيني ·

بيد ان دلالات البنية الرمزية للرواية لا تتوقف عند حدها الافقي ( الاوضاع السائـدة للمرحلة ) بل انها تمتد عاموديا ( العناصر الفاعلة تاريخيا ) أيضا ·

فليست الارقام ٧ و ٨ و ٩ التي تمثل الموت الفلسطيني المرحلي وحيث يمثل الرقـم ٨ موقعا متميزا بينها ، الا ذاك الرمز العددي التاريخي لهذا الموت فالمؤتمر الصهيونـي السابع الذي عقد في شهر آب سنة ١٩٠٥ كان حاسما باتجاه التخلي النهائي عن مشروع دولة اسرائيلية في اوغندا ــ هذا المشروع الذي كان سائدا حتى هذا المؤتمر ، حتى ان المؤتمر الذي سبق ــ كان قد ارسل بعثة استكشاف الى اوغندا في سبيل ذلك ــ وبالتوجه النهائي الى فلسطين لبناء الدولة الصهيونية على ارضها (*) · ولما كان هذا المؤتمـر يأتي بعد ٨ سنوات من المؤتمر الاول المنعقد في بال ــ سويسرا ، الذي كان الانعطـاف الكبير في تاريخ المسألة اليهودية حيث ارسى قواعد التحرك العالمي والموحد في مؤسسة صهيونية مركزية متشعبة الامتدادات والمصالح ··· ويأتي ايضا في الشهر الثامن مـن ذلك العام ( آب ١٩٠٥ ) ، فانه يشكل ضمن هذه الابعاد التي يجسدها الخطر على ارض فلسطين وشعبها ، في تنامية حتى الموت المتصاعد في اوجه · لذا فان النص الروائـي الذي تدور احداثه تاريخيا سنة ١٩٥٨ (**) · وفي شهر آب (٨) بالذات ، والـذي فيه يجسد موت الفلسطينيين الثلاثة الموت الفلسطيني المرحلي ، يؤكد مرور عشر سنوات على تلك الهزيمة التاريخية عام ١٩٤٨ · وفي هذا الرقم بالذات (١٠) يجد هذا الموت ابعاده الرمزية تاريخيا على مستوى المرحلة الممتدة بين ١٩٤٨ و ١٩٥٨ ·

ويأتي موت الفلسطينيين الذين كانوا يسعون وراء المال في السفر السري ، لينزع منهم ما كانوا يمتلكونه ايضا ( عودة ابي الخيزران الى جثثهم واخذه لاموالهم ولساعـة مروان ·· ص ١٥١ ) وليؤكد ايضا هذا البعد التاريخي للنص الروائي · فاذا كان ما بحوزة كل منهم من مال يتناسب طردا مع قدرته على احتمال الخطر ( مروان : ٧ دنانير. ابو قيس : ١٥ دينارا ، اسعد ٣٠ دينارا ) (***) فانمجموعما اخذمنهم، عدا تلك الساعة التي تختزن بعدا رمزيا مكثفا نظرا للدور المحوري الذي يحتله مرور الوقت في النـص والتي تفرض هذه الرؤية الزمانية التاريخية بالذات ، يبلغ اثنين وخمسين دينارا · فاذا كانت تلك الساعة هي الاطار الزمني للتاريخ ، فان ٥٢ هو عدد السنوات الممتدة بيـن ١٩٠٥ و ١٩٥٨ ، بين المؤتمر الصهيوني السابع ومرور ١٠ سنوات على قيام الكيـان الاسرائيلـي الصهيوني في فلسطيـن · ولـما كـان قيـام هذا الكيـان قـد تم فـي ١٥ـ٥ـ١٩٤٨ (****) ·

---

(*) اسعد عبد الرحمن : **المنظمة الصهيونية العالمية** ، مركز الابحاث ، بيروت ص ٦٨ مرجع يذكره محمد حافظ يعقوب في كتابه : **نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينيـة** ١٩١٨ ــ ١٩٤٨ ( بحث سوسيولوجي ) ( دار الطليعة ــ بيروت ــ الطبعة الاولى ١٩٧٣ ــ ص ٢٣ ) ·

(**) ص ٣٧ ــ ٤٦ ــ ٤٨ ــ ٥٤ ··· ١٠٩ ····

(***) راجع بالنسبة لمروان ص ٧٢، ولابي قيس ص ٤٩ ، اما اسعد فالثلاثون دينارا تمثل ما تبقى له من الخمسين دينارا التي اعطاه اياها عمه ( ٦١ ) بعد ان دفع لابـي العبد عشرين دينارا ( ٥٤ ــ ٥٧ ) ·

(****) هاني الهندي : **حول الصهيونية واسرائيل** ، دار الطليعة ــ بيروت الطبعـة الاولى ١٩٧١ ، ص ١٠٤ ·

فان النص يثقل بالدلالات التي توحي بهذا التاريخ ٠

فسمسار البصرة يطلب من جميع الذي يسعون الى السفر بالتهريب خمسة عشر دينارا معلنا لاسعد ان هذا السعر « رسمي » : « كل المهربين يتقاضون نفس السعر ، نحن متفقون فيما بيننا ) (٦٢) وهذا الرقم ١٥ يتكرر في النص الروائي ايضا ثماني مرات مؤكدا في هذا التكرار كونه رقم الموت بامتياز (*) ٠

واذا كان قد مر عشر سنوات على هذا الكيان ، فان هذا التكريس له يجد في النص وجها من وجوهه الرمزية : ففي الفصل المتعلق بأبي قيس نجد الرقم عشرة (١٠) الذي يعني له ارتباطه الماضي بالارض ، يتكرس موتا بترديده عشر مرات ( الصفحات : ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٦ ـ ٤٦ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٨ ـ ٥٠ ـ ٥٠ ) ٠ أما في الفصل المتعلق بأسعد ، والذي يملك ضعف ما يملك ابو الخيزران ( ٣٠ دينارا ) ، فان ما يتكرر عشر مرات هو الرقم عشرون ( ٢٠ ) ( ثلاث مرات في الصفحة ٥٤ ، وسبع مرات في الصفحة ٥٧ ) بيد ان الفصل المتعلق بمروان ، الذي يعامل‌معاملة خاصة من قبل سمسار البصرة ، كما من قبل ابي الخيزران ، يدل على قصوره في سن البلوغ والقوة المادية والمالية ، فأعوامه الستة عشر ( ص ٧٢ ) تعني انه ترك ارض فلسطين وهو في السادسة من عمره ٠ ضمن هذه العلاقة يأتي تكرار الرقم خمسة (٥) ـ وهو ما يعرضه من دنانير على السمسار وما يتفق مع ابي الخيزران بشأنه ـ ست مرات على ان يأتي الرقم عشرة (١٠) مكررا اربع مرات ، ليرفد قعر الرقم السابق ويصل به الى نهاياته المميتة . كما سيتم الامر مع ابي الخيزران وخزانه ٠٠٠

لكن هذا الكيان الصهيوني اخيرا لم يقم على ارض فلسطينية فقط ، بل ايضا على جزء من ارض عربية وجد في الاوضاع السائدة فيها الشروط المناسبة لنموه واستكماله ومن ثم تكريسه ٠ واذا كان الفلسطينيون يشكلون قوة التصدي الرئيسية للحركة الصهيونية التي حاولت ان تقيم دولة لها على ارضهم الوطنية ، فان التطورات المتسارعة التي حصلت اواخر عام ١٩٤٧ وفي عام ١٩٤٨ عدلت هذا الوضع وغيرته ٠ فقد اصدرت هيئة الامم « قرارها بتقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ واعلنت بريطانيا انها ستنسحب من فلسطين في ايار ١٩٤٨ ٠٠٠ » (**) مما دفع الدول العربية لان تقرر في الثاني عشر من نيسان سنة ١٩٤٨ ، أي قبل نهاية الانتداب بشهر وثلاثة ايام ، ادخال جيوشها النظامية الى فلسطين ٠ وكانت في فلسطين قيادتان اولاهما قيادة الجهاد المقدس وهي تابعة للهيئة العربية العليا ، وقيادة جيش الانقاذ ، المؤلف من متطوعين عرب ، ( ٠٠٠ ) مثلت القيادة الثانية وجهة النظر العربية الرسمية ، ومن هنا بدأ التنافس بينهما

---

(*) نذكر هنا بان مخاطبات ابي باقر لاسعد التي بلغت ١٦ مخاطبة ، يأتي السادس عشر فيها متفقا مع اعلان اسرائيل في بنية الامكنة كما لاحظناها ٠٠٠ اما الصفحات التي يأتي فيها ذكر هذا الرقم (١٥) فهي التالية : ٤٩ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥٣ ـ ٧١ ـ ٩٣ ـ ٩٦ ٠

(**) عبد الوهاب الكيالي : **الموجز في تاريخ فلسطين الحديث** المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٧٥ ص : ١٩٤ ٠

وبين القيادة الاولى · ولقد حسم دخول الجيوش العربية في الخامس عشر من ايـــار الموقف ، لمصلحة الحكومات العربية · (*)

في هذا الاطار يمكننا القول ان الدقائق التسع التي كان من المفترض ان يقضيهـــا الفلسطينيون في الخزان لولا تأخير ابي باقر لابي الخيزران والتي بحد ذاتها كانت ستودي بهم ، تمثل في النص غلبة المسؤولية الفلسطينية ( وبالاخص القيادة : ابي الخيـزران السائق ) ، بينما تمثل الدقائق الاحدى عشرة الباقية المسؤولية العربية وبالتحديد انظمة الحكم : ( ابي باقر موظف الحدود الكابت والمكبوت ··· )

وكنا قد المحنا الى ارتباط ابي الخيزران بهذا الرقم القاتل (٩ ) ·· ونضيف هنا الــى ان هذا الرقم يمثل بالتحديد تلك الاعوام الفاصلة بين ١٩٣٩ و ١٩٤٨ ـ الاعوام التــي اعقبت « مرحلة الاضراب الكبير والثورة الكبرى » في السنوات الممتدة ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ ، لتبدأ «مرحلة الركود والهزيمة» من ١٩٤٠ الى ١٩٤٨ (**) · أما الرقم ١١ فيمثـــل هذا الغياب الفلسطيني بغلبة مسؤولية الدول العربية التي وضعت بعضها اليد على ما تبقــى من ارض وشعب فلسطين · وهو يمثل بالتحديد هذه المرحلة الممتدة من ١٩٤٨ الى ١٩٥٨· ولذا نجد ان النص الروائي يحفل ايضا بتكرار الرقم ٥ احدى عشرة مرة (***) ،لكأنه يشير الى عدد الايارات التي مرت على الارض الفلسطينية منذ قيـام الكيان الصهيونــي عليها في أيار ١٩٤٨ ·

وبما ان هذا الكيان شكل انتزاعا لهذه الارض ـ وبصورة ادق للجزء الاهم مــنها ـ وشتت شعبها ـ او كذلك الجزء الاهم منه ـ فان الموت الذي مثله لا يعني فقط اولئـــك الذين قضوا ، انما كذلك اولئك الذين يقضون يوميا في استغراقهم في ابعاد هذا الوضع بالـــذات · فلم يكن التدخل العربي في هزيمته الا ليزيد هذا الموت كثافته ومأساوية · واذ انتهى الى اقتسام ما تبقى من الارض ( ضم الاردن للضفة الغربية ـ وضم مصر لقطـاع غزة ) فليضع الفلسطينيين بالتحديد في خزانات الانظمة القمعية منهيا بذلك ما تبقى مــن امكانات حركة وطنية فلسطينية مستقلة النضال ، ممعنا بالضبط في تقتيلهـم وسحقهـم

---

(*) ناجي علوش ، **المقاومة العربية في فلسطين** ( ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ ) ـ دار الطليعـــة بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٩٧٥ ص ١١١ ، ( الطبعة الاولى ١٩٦٧ ـ الثانية ١٩٧٠ ) ·

الجدير بالاشارة ان الهيئة العربية العليا هي القيادة السياسية الفلسطينية العليا التي اتفق على انشائها بضغط من مجلس الجامعة العربية المنعقد في بلودان ( ٨ ـ ١٢ حزيران ١٩٤٦ ) على هيئتين فلسطينيتين متنافستين آنذاك : اللجنة العربية العليا ـ والهيئـــة العربية ·

( راجع : ناجي علوش ـ **المقاومة العربية في فلسطين** ··· ص ١٠٩ ) ·

(**) راجع ناجي علوش : المرجع السابق ـ الفصلين الثاني والثالث ·

(***) يأتي هذا الرقم في الصفحات : ٧٢ ( اربع مرات ) ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ٩٤ ـ ٩٨ ( مرتين ـ ١١٥ ـ ١٣٣ ·

وابادتهم · لذلك يكون هذا الخزان العربي المقفل والمتصاعد الحرارة على ارض الصحراء العربية التجسيد الرمزي لهذا الوضع ، ويكون دخول الفلسطينيين الثلاثة فيه رضوخا بينا لما تفرضه الانظمة العربية من تبديد لوجه نضالي فلسطيني مستقل · فيكون موتهم فطسا وكتمانا في الخزان ، والقاء جثثهم حيث تكوم النفايات ، تعبيرا مأساويا عن انقطاع اصولهم بارضهم وحدا اقصى لنتيجة السفر السري الذي يحاولونه ، ليكون في ذلك رمزا لذاك الموت الملموس الذي يتعرض له الفلسطينيون في مرحلة حرموا فيها من التعبير المستقل والحر عن ذاتهم ، ورضوا بهذا الحرمان الذي كرس حرمانهم من ارضهم · وهم ايضا اذ يفطسون قبل دخولهم الكويت ، فانما يفطسون خارجها ، وانما ايضا خارج العراق الذي تجاوزوا حدوده ، فهم ايضا يفطسون في اللامكان ، في اللا انتماء ، في اللا ارض ـ الصحراء المطلقة الجدب المطلقة الموت ، ويفطسون كذلك في اللا زمان ، على مزبلة التاريخ ، في ليل قاتم الظلمة ـ كقبر مطلق ·

٣ ـ الادوار والمسؤوليات والمواقف :

رغم ان البنية العامة للرواية تتمفصل حول محورها المكاني ـ الزماني الذي تعرف فيه كثافة وزخم دلالاتها الرمزية في ابعادها المرحلية وضعيا وتاريخيا ، كما حاولنا اظهاره حتى الآن ، فان الشخصيات الرئيسية فيها تمثل في علاقاتها وتصرفاتها وضعا بنيويا يمثل هو الآخر صورة رمزية مكثفة عن الوضع العام الفلسطيني ( والعربي ) المرحلي ، مكملا في مد تلك الدلالات بابعاد ورؤى اكثر عمقا وغنى ·

فليس الموت الفلسطيني البارز في النص الا نتيجة عجز بنيوي لا يقوم فقط على الوضع المكاني ـ الزماني الذي تم فيه ، بل يأتي كذلك امتدادا لذاك العجز التاريخي في مواجهة العدو والانتصار عليه ·

فهزيمة ١٩٤٨ لم تؤل فقط الى قيام الكيان الصهيوني على ارض فلسطينية ، وانما ايضا الى تشتيت الشعب الفلسطيني وتمزيقه وتفتيته في انحاء عدة · فكان هذا التشتيت تكريسا لذاك العجز الذي اودى الى الانكسار والهزيمة · ومن هذه الزاوية يصبح السفر امعانا في تأكيد هذا الانكسار وذاك العجز ـ امعانا في التفتت والموت · ولما كانت هذه الهزيمة ( ١٩٤٨ ) هي ايضا عجزا وانكسارا عربيين ، وان تفتت الانظمة وتجزئتها وتشتتها هي احد المظاهر الرئيسية التي يتبدى فيها هذا الانكسار وذاك العجز ، فان الامعان فيذلك ـ وفي افضل الاحوال البقاء عندها ـ يعني الامعان في الهزيمة والموت ـ وفي افضل الاحوال تكريس ما تم منهما ·

ضمن هذه المعطيات يتخذ موت الفلسطينيين الثلاثة في عز سفرهم وعند الحدود الكويتية ، ابعادا جديدة تغني تلك التي لاحظناها حتى الآن · فليس المضي في السفر الا امعانا في التشتت والضياع والموت · وليست الحدود الفاصلة بين الدول العربية الا تكريسا لشرذمتها وتفتتها وعجزها ، فتشتت الفلسطينيين ـ وخاصة نهاياته الخطرة في الاندماج بالمجتمعات الاخرى والضياع فيها ـ يعني تبديدا لتلك القوة التي يمكن لها ان تواجه العدو وتستعيد الارض ومعها شخصيتها الوطنية وحياتها القومية والتاريخية·

الا ان ظاهرة العجز العامة التي تسم المرحلة ، لا تتبدى في النص الروائـــي باستواء ووحدة ، بل على العكس تتمثل على اختلاف وتمايز يحملان دلالاتها الخاصة في توضيـح الادوار المساهمة في هذا العجز ، وبالتالي المسؤوليات المختلفة التي تترتب على القائمين بـــه ٠

واذا تتبعنا هذا الجانب لدى شخصيات الرواية الاساسية ، فاننا نجد اوضاعهـــا الخاصة توحي بهذا التنوع والتمايز ، مما يتيح تبين دور كل منها في البنية العامـــة للرواية ٠

لا شك ان دخول كل من هذه الشخصيات في الرواية يأتي معبرا الى حد كبير عـــن وضعهـــا العام ٠

فمروان يخرج من دكان سمسار البصرة السمين مطرودا ذليلا وطنين الكف الذي ناله منه لم يكن بعد قد انتهى عند الدوران بين اذنيه (٣٢) ، والتهاب اصابع الرجل على خده الايسر لم يكن قد فتر بعد (٧٣) ٠٠٠

وابو قيس يتمدد على تراب الشط باحثا فيه عن عزاء لما واجهه به سمسار البصـــرة من صعوبة مذلة دفعت به للخروج باكيا ( ٤٩ ـ ٥٠ ) ٠٠٠

اما أسعد فيقف في مواجهة هذا السمسار ويناقشه قبل أن ينتهي الى الاتفاق معه (٥٣٠٠)

في الحين الذي يتقدم ابو الخيزران من مروان ويده تربت على كتفه ، ليتحدث معه حول وضعه قبل أن يتفق معه على ان يهربه الى الكويت ( ٧٤ ٠٠٠)

فيتبدى لنا بسهولة قصور مروان وعجز ابي قيس وسجالية اسعد وجسمانية ابـــي الخيزران ٠

وكنا قد اشرنا من قبل الى تفاوت اعمار هذه الشخصيات المنسجمة مع ما تملكه مـــن مال ، هذا التفاوت الذي يؤكد ما يوميء اليه دخولهم في النص الروائي ٠ (*)

---

(*) رغم ان مروان هو الوحيد الذي يورد النص عمره ـ ١٦ سنة ( ٧٢ ) ـ بينما لا يذكر عن ابي قيس سوى انه « رجل عجوز » (٤٨) ، وان اسعد في عمر الزواج الحـرج بالنسبة لابنة عمه ( ٦١ ) وان اباالخيزران كان قد « خدم في الجيش البريطاني فـــي فلسطين قبل عام ١٩٤٨ اكثر من خمس سنين » (٩٤) فاننا نكاد نلمح تراتبية دقيقة في الاعمار تعلن عن نفسها سنة ١٩٤٨ على هذا الشكل تقريبا : مروان : ٦ سنوات ، اسعد: ١٢ سنة ، ابو الخيزران : ٢٤ سنة ، ابو قيس : ٤٨ ، اي انها تعتمـــد على الرقم ٦ ومضاعفاته التي تبقى الاعمار في وحدة بنيوية قوية ٠ فيأتي الخروج من فلسطين ولوجـا في السنة السابعة ـ سنة الخطر والموت ـ لتفقد الاعمار فيها تلك الوحدة ويكون تشتتهـا صورة عن التفتت العام الذي طرأ ، فتكون اعمار هذه الشخصيات سنة ١٩٥٨ على هـذا

←

لذلك تأتي مواقف هذه الشخصيات محكومة بأوضاع العجز التي تتميز بها كل واحدة منهـــا ٠

فمروان القاصر عمرا ومالا ، قاصر ايضا عن دفع الخمسة عشر دينارا لسمســـــار البصرة السمين ، وعن الرد على الاهانة التي يلحقها به ، وقاصر التجربة لا يستوعب وضع المهربين في البصرة ، ولا الطريقة التي سيهربه بها ابو الخيزران ٠٠٠ بل هو قاصر بنيويا عن تحقيق المهمة التي يسافر من اجلها : فماذا بامكان تلميذ مدرســة عمره ستــة عشر عاما ان يحقق في الكويت ـ خاصة اذا تجاهله زكريا ـ ليغرق امه واخوته « بالخير حتى يجعل من كوخ الطين جنة الهية » ( ٨٥ ) ؟

وعجوز ابي قيس عمرا ومالا ، هو ايضا عجز عن دفع خمسة عشر دينارا ـ هي كل ما يملك ـ لسمسار التهريب في البصرة ، وعجز كذلك عن حبس دمعه ازاء انتكاستـــه وذله امام هذا السمسار ، وعجوز في استيعاب عرض ابي الخيزران وفـي التقريــــر بشأنه ٠٠٠ بل هو عجوز بنيوي كذلك ينال من الهدف ذاته الذي يسعى الى بلوغه : فماذا بامكان فلاح عجوز ان يفعل في صحراء الكويت ليتمكن من تعليم ابنه قيس وشراء بضـع زيتونات وبناء « غرفة في مكان ما » (٤٨) ٠٠٠

الا ان اسعد يحتل موقعا متميزا ازاء مروان وابي قيس ، فهو اولا في عز الشباب (٢٢ سنة ؟ ) والقوة من ناحية ( يقول له ابو العبد : « انك قوي كالثور » ، وسمسار البصرة : «« ولكنك فتى في غاية القوة » ٠ ( ٥٨ ) ، ويملك مالا كافيا من ناحية اخرى ( ٣٠ دينارا؟) وايضا تجربة سابقة في التهريب ( مع ابي العبد ٠٠ ) ٠ الا ان هذا الموقع المتميز لم يحل دونه ودون سخرية السمسار منه ، كما لم يجعله ينزل في فندق مختلف عنذاك الــذي ينزل فيه مروان ـ اضعفهم ـ كما لن يكون عائقا دونه ودون ولوج خزان سيارة ابـــي الخيزران ٠٠ والموت ٠ والاهم من ذلك انه رغم كونه يحسن قيادة السيارات ( ٦٥ ) فان وضعه ـ « لا جواز سفر ولا سمة مرور ٠٠ ومتآمر على الدولة الاردنية » ٠٠ واسمــــه « مسجل في كل نقاط الحدود » التابعة لها ٠٠ ( ٥٨ ) ـ لا يتيح التفاؤل ابدا بالنسبة لتطلعاته بجمع المال (٦١ ) وضمان مستقبله (٦٢) ٠٠٠

الا انه اذا لم يغير موقع اسعد المتميز في بنية العجز السائدة شيئا يذكر وان عدل في

---



الشكل تقريبا مروان : ١٦ سنة ، اسعد : ٢٢ سنة ، ابو الخيزران : ٣٤ سنة ، ابو قيس: ٥٨ سنة ٠٠ دون ان يكون هذا الاستنتاج جزما نهائيا ٠٠٠

أما بالنسبة للاموال التي بحوزتهم فقد كنا قد اشرنا الى ما يملكه كل من مروان وابي قيس واسعد ( ٧ ، ١٥ ، ٣٠ ) ولا يوضح النص ما بحوزة ابي الخيزران ، الا انه على كل حال يملك القدرة على قيادة سيارة الحاج رضا والتصرف بها ،هذه القدرة التي تتيـح له اتفاقا مع الثلاثة يعيد فيه توزيع الاموال السابقة بحيث يصبح بين يديـــه مبدئيا ٢٥ دينارا بينما يبقى لدى مروان ديناران ولدى ابي قيس خمسة واسعد عشرون لكن الامر ينتهي عمليا الى وضعه اليد على جميع الاموال وعلى ساعة مروان ٠

بعض تفاصيلها ، فانه يتيح له على كل حال ان يلعب دورا خاصا بين الشخصيات الفلسطينية الاربع ·

فهو ، في عملية التفاوض التي تجري بين المسافرين الثلاثة وابي الخيزران ، يتولى الدور الرئيسي فيها ممثلا ابا قيس ومروان (٩٠) · وليست هذه العملية هي الاولى من نوعها التي يمارسها اسعد ، فقد كان قد جرب ذلك مرتين قبل الآن : المرة الاولى مع ابي العبد « قرب جبل عمان » (٥٤) والمرة الثانية مع صاحب مكتب التهريب السمين في البصرة · وهو في كل من هاتين المرتين بدأ التفاوض معارضا لبعض التفاصيل وانتهى الى القبول بها ، وبجميع شروط الطرف الآخر : العشرين دينارا بالنسبة لابي العبد ···، والدفع المسبق بالنسبة لمهرب البصرة السمين ··· هذا في الحين الذي لا تغيب عن باله التجربة الاولى وهو يعقد الاتفاق الثاني ·· وهذا بالتحديد ما يقوم به ايضا في تفاوضه مع أبي الخيزران منتهيا الى القبول بشروطه بالنسبة للسعر وبالنسبة لطريقة التهريب ايضا ··· التي تؤدي الى الموت ·

اما ابو الخيزران فيحتل موقعا متفردا في النص ازاء هذه الشخصيات الفلسطينية الثلاث السابقة · فهو لا يقوم هنا بالهرب ( السفر ) بل بالتهريب ، لاعبا الدور الذي كان لعنصر عربي غير فلسطيني مبدئيا كان يلعبه ( سمسار البصرة ) ، مؤكدا في ذلك المدى العميق لانخراطه في هذا المجتمع العربي وانسلاخه عن ارضه ووطنه في آن ، واذا كانت رجولته ومهنته هما ميزتي القوة لديه هنا ، فان فيهما بالتحديد تتبدى بنية العجز العامة · فهو رغم كونه في عز رجولته ( ٣٤ سنة ؟ ) لكنه في الوقت ذاته مخصي · وهو رغم قيادته لسيارة لا يؤخرها موظفو الحدود ولا يفتشونها فانها ليست له ، فصاحبها « رجل ثري معروف » (٩٤) · لذلك يأتي تأخير ابي باقر له عند الحدود الكويتية بسبب تلك القصة المختلقة عن كوكب الراقصة ، تأكيدا مزدوجا لهذا العجز العام في اقوى مواقعه ، لذلك يأتي فشله في تهريب هؤلاء الفلسطينيين الى الكويت ، اذ بدلا عن ادخالهم الى هذا البلد للارتزاق ، يلقيهم جثثا حيث تلقي سيارات البلدية قمامتها وينتزع ما في جيوبهم من أموال ···

هكذا فان المواقع المختلفة للشخصيات الفلسطينية الاربع تتيح لنا ان نجد فيها ضمن الابعاد الرمزية للبنية الروائية ادوارا محددة يجدر ايضاحها ·

ان الموقع المتميز لاسعد ، يجعله يحتل في العلاقات الاجتماعية ــ التاريخية التي توصي بها رمزية الرواية ، موقع القيادة النظرية لهذه المرحلة الفلسطينية الخاصة ·

وهذا ما يؤكده ليس ما اشرنا اليه من تمثيله للمسافرين في التفاوض مع ابي الخيزران وانما ايضا الدور السياسي الذي يلمح اليه النص ، والذي بسببه تظاهر واعتقل واهين وعد متآمرا على الدولة فأصبح مطلوبا وسجل اسمه على نقاط الحدود ( ١٣١ ــ ٥٨ ·· )

وهو كذلك الوحيد الذي يتكلم لغة اجنبية بين بقية الشخصيات (٦٥) ·

بينما يقوم الموقع المتفرد لابي الخيزران على تمثيل موقع القيادة العملية للمرحلة ذاتها · وهذا ما يعلنه النص ليس فقط عبر قيادة ابي الخيزران للسيارة بل ايضا عبر

الاشارة الى قتاله العدو الاسرائيلي سنة ١٩٤٨ متفردا عن بقية الشخصيات الاخرى ، والى كونه ايضا الوحيد الذي يحظى بوصف جسماني دقيق : « طويل القامة جدا ، نحيل جدا ، ولكن عنقه وكفيه تعطي الشعور بالقوة والمتانة ··» (٧٥ ) وهو حين يبتسم يعلن « ابتسامة واسعة » وتنشق « شفتاه عن صفين من الاسنان الكبيرة الناصعة البياض »·· ( ٨١ ـ وانظر ٨٣ ـ ١٠١ ـ ١١٤ ـ ١١٥ ···)

في الحين الذي يمثل فيه مروان موقع الاغرار السريعي الاغترار والحماس ، كما عبر عن ذلك حماسه في الاسراع بالموافقة على قرار اسعد بالسفر مع ابي الخيزران ، ولكـن كذلك عبر اتفاقه المسبق مع ابي الخيزران وحادثته مع سمسار البصــــرة السمين ··· ويمثل فيه ابو قيس ايضا موقع العجزة المنساقين في الركب دون ان يكونوا متمكنين من اتخاذ قرار مستقل ، خاصة بانفراد عن الجماعة ··· انهما يمثلان في سلوكهما ومواقفهما عفوية وبساطة جماهير واسعة من الناس حد السذاجة على تفاوت كذاك القائم بيـــــن العجز والقصور ·

على المستوى اللغوي يتمثل هذا الوضع العام باشارات بالغة الرهافة · فالنص الروائي يغلب عليه في لغة السرد التي يستعملها ضمير الغائب ( الشخص الثالث : هو ) فـــي التعبير عن كل من الشخصيات المعنية ، بينما يحتل ضمير المخــاطب المستعمــل للــذات ( الشخص الثاني : أنت / بدل انا ) المركز الثاني ، ويأتي اخيرا ضمير المتكلم للتعبيــر عن الذات ( الشخص الاول : أنا ) في الموقع الثالث ·

واذا كانت غلبة الضمير الغائب تعبر في البنية الرمزية العامة للرواية عن العجز البنيوي العام الذي يسم المرحلة الفلسطينية المعنية ، عن غياب الشخصية الوطنية ( النضالية ) المستقلة للشعب الفلسطيني ، وبالتالي عن طمس وجوده الوطني ·· وعن موته ، فان ضمير المخاطب والمتكلم يستدعيان فهما اخر · فاستعمال صيغة المخاطب للتعبيــر عن الذات يأتي دلالة عن استيعاب الذات من قبل الاخرين او وقوعها تحت سطوتها بشكل لا يمكن معـــه التوجه الى الذات الا ضمن صيغ التوجه الى الاخرين لاقناعهم بأمر ما او موقف خاص · أو أيضا ضمن صيغ توجه الآخرين هؤلاء الى الذات لاقناعها هي بأمر او موقف ·· بينما يجري في التوجه الى الذات بصيغة المتكلم تأكيد على استقلالية الذات وقدرتهــا علــى الاكتفاء وتعبير عن مدى قوتها الخاصة ···

لذلك فان غياب اسعد الوحيد بين هذه الشخصيات الاربع الفلسطينية التي تستعمل ثلاث منها فقط صيغة المخاطب خارج الحوار ـ في السرد ـ وفي التوجه الى الذات ـ للمتكلم ـ تأكيد لوضعه القادر على مستويات عدة والقوي الذي يتيح له ان يبقى خارج نطـــاق العجز والقصور اللذين يسمان بقية الشخصيات في هذا السفر ·

بينما يعبر غياب مروان الوحيد بين تلك الشخصيات التي تعتمد ثلاث منها فقط صيغة المتكلم في لغة السرد تعبيرا عن الذات ، عن قصور ذاتي في النضج والبلوغ عـــلى مستويات عدة كما اشرنا الى ذلك سابقا في مغامرة السفر هذه التي ينخرط فيها ·

الا اننا نلاحظ ايضا فيما يتعلق بصيغة المخاطب من قبل المتكلم في توجهه الى ذاته في السرد ، ان مروان وابا قيس هما الوحيدان اللذان يستعيدان اقوال الاخرين في حرفيتها ويتوجهان بها الى ذاتيهما (*) · بينما يتميز ابو الخيزران واسعد بكونهما الوحيدين اللذين يتمتعان باستعمال لصيغة المتكلم صافية من اي التباس في المخاطبة او استعادتها ، فتأتي تعبيرا ذاتيا محضا من ناحية ، ومن ناحية ثانية بأنهما الوحيدان اللذان ترد امام تعبير لكل منهما بصيغة المفرد كلمة « فكر » (**) ·

واذا كانت خصوصية مروان وابي قيس المشار اليها تمثل خصوصية العجز والقصور كما يتميز بهاكل منهما (***)، فان تميز ابيالخيزران واسعد تمثل تمايز القيادة العملية عن النظرية · ففي كلا الاستعمالين المشار اليهما هنا لصيغة المتكلم من قبل كل منهما ، نلاحظ عددا من الضمائر المفردة للمتكلم · فكأن كلا منهما يتمثل في هذه الصيغة الموقع القيادي الممثل للفلسطينيين المهربين · ولكننا نلاحظ ان ضمير المتكلم المفرد يسرد مرة واحدة بدون اي تقديم (٥٩) . ويرد ثلاث مرات اثر كلمة « فكر » (٦١) ، بينما نجد التركيبة العكسية لدى ابي الخيزران حيث يرد ضمير المتكلم المفرد ثلاث مرات دون اي تقديم (١٣١) ، ومرة واحدة بعد كلمة « فكر » (١٤٨) · فتكون كثرة الضمائر بعد فعل التفكير لدى الاول ، تعبيرا عن غلبة دوره النظري في القيادة ، بينما تكون كثرة الضمائر دون ذكر لفعل التفكير لدى الثاني ، تعبيرا عن غلبة دوره العملي في القيادة ···

ويمكننا القول ان اسعد هو نظريا قائد ـ ممثل ـ للمسافرين الثلاثة ـ وهو احدهم ـ ، بينما عمليا لا يقود ولا يمثل الا نفسه · بينما نظريا لا يقود ولا يمثل ابو الخيزران احدا سواه ، بينما عمليا يقود الفلسطينيين الثلاثة ويمثلهم ·

وهذا بالتحديد ما يعلنه النص الروائي · فأسعد الذي يتولى التفاوض باسمه وباسم الاخرين ( ابي قيس ومروان ) ( ص ٩٠ ) فيلعب دور الممثل والقائد نظريا بالنسبة لهم ، يعلن ردا على سؤال ابي الخيزران « ماذا قررتم ؟ » · « انا شخصيا لا اهتم الا بموضوع وصولي الى الكويت ، اما ما عدا ذلك فانه لا يعنيني ·· ولذلك فانني سأسافر مع ابي الخيزران » ·· (١٠١) متخليا عمليا عن ذاك الدور ،معلنا موقفا شخصيا منفردا دون الرجوع الى من انتزع تفويضهم له ، وتحت هذا الاعتبار كان قد حد من تدخلهم في النقاش ومن تقريرهم موقفا مستقلا ( ص ٩٣ حيث يردع ابا قيس عن الموافقة على سعر التهريب ـ ١٠ دنانير ـ بحجة « لقد سلمتني الامر اذن دعني احكي ··· » )

---

(*) ص ١٣٠ حيث يستعيد ابو قيس الحوار الذي تم بينه وبين صديقه اسعد ··· وحيث يستعيد مروان اقوال ابي الخيزران واخيه زكريا له ···

(**) راجع بالنسبة لاسعد ص ٥٩ و ٦١ ·· وبالنسبة لابي الخيزران ص ١٣١ و ١٤٨·

(***) نلاحظ ان مروانيكتفي بالاستعادة، بينما يتخطاها ابو قيس الى التعبير المباشر الذي لا يستعمل اقوال الاخرين من ناحية ، والذي لا يكتفي بالحاضر من ناحية ثانية ··· ( راجع عدا ص ١٣٠ ـ الصفحات ٣٧ و ٣٨ ـ ٤٦ و ٤٧ ) ·

لكن هذا التخلي بالذات في الوقت الذي يعبر فيه عن عجز بنيوي في القيادة النظرية ، معبرا عن الحد الذي يمكن لهذه القيادة ان تصل اليه في تمثيل سواها ، يضع ايضا هذه القيادة في موقع التنازل عن موقعها لقيادة اخرى ( عملية ) ترضخ لها وتنزع بذلك عنها صفة التمايز في الاستقلالية والقوة التي كانت في صلب تمثيلها للاخرين ٠

الا ان بنية عامة كهذه ليست الا بنية موت ٠

فحين يسلم القاصرون والعجزة امرهم الى شباب لا يحول وعيه وتجربته دونه ودون التخلي عن هذه المسؤولية ــ بل أن حدود وعيه وتجربته هي التي تدفعه الى هذا التخلي ــ الى رجولة مخصية ، فلا يمكن لهذه الرجولة ان تؤدي الا الى ما تحمله في بنيتها ذاتها : العدم ٠

لذلك فان موت الفلسطينيين الثلاثة جاء يتفق مع تركهم لارضهم وانقطاعهم عنها . ليس كما تأسس ذلك عام ١٩٤٨ ، بل ايضا كما يستمر ذلك عام ١٩٥٨ ، وخاصة بشكله الاكثر انغماسا وانخراطاً في هذا الانقطاع ــ هذا الاتصال بالغير ارضا وشعبا ــ بالسفر ٠٠ واذ يبقى ابو الخيزران وحده ، فهو يبقى عقيما ، موتا مع وقف التنفيذ ، موتا مساهماً في القتل والتبديد والعدمية ، موتا اسوأ من الموت الذي انتهى اليه سواه ٠٠٠

بقي هذا المدى الذي تشرعه الفكرة الفاجئة الاخيرة التي انزلقت من رأس ابي الخيزران ثم تدحرجت على لسانه :

ــ « لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ ٠٠٠ » (١٥٢) ٠

فهذا السؤال الذي لا يتيح النص استجلاء الملابسات المحيطة به : هل هو استفهامي ام استنكاري ام تبريري ٠٠٠؟ ويستدعي جوابا او اجوبة لا يقدمها النص كذلك ، على انه يختتم بتكرار هذا السؤال مرات عدة ، او بالاحرى لا يقدمها النص اثره وان كان يتضمنها قبله بشكل او بآخر ، يتضمن في البنية التي اتاحت وجودهم في هذا الخزان بالذات ٠

فجميع هؤلاء المسافرين الثلاثة كانوا يعانون وضعا معيشيا بالغ الصعوبة :

مروان الذي طلق ابوه امه بعد انقطاع اخبار اخيه زكريا الموجود في الكويت ومعها المئتي روبية التي كان يرسلها الى العائلة شهريا ، ليتزوج من شفيقة المبتورة الساق ليعيش « ما تبقى له من الحياة مستقرا غير ملاحق بأيما شيء ٠٠ واهم من ذلك ٠٠ تحت سقف من اسمنت ٠٠ » كان كل طموحه طيلة عشر سنوات ، وبالتالي عليه هو الان اطعام امه واخوته الاربعة وتأمين حاجياتهم ( ٧٩ــ٨٠ ) ٠

ابو قيس الذي امضى « عشر سنوات كبيرة جائعا » يأكل من « طحين الاعاشة الذي تهرق من اجل كيلو واحد منه كل كرامتك على اعتاب الموظفين » ، وينزل في نصف غرفة مع زوجته وولده قيس منذ تسع سنوات . واخيرا مع طفل جديد اخر ٠٠٠ ( ٤٦ــ٤٧ــ١٣٠ )

واسعد المطلوب الفار لتآمره على الدولة ، والمهدد بالسجن ، والمهدد بالزواج من ابنة عمه التي لا يرغب فيها كما انه لا يريد الزواج ابدا ··· ( ٥٧ـ٥٨ـ٦١ )

ولما كانت اوضاعهم بائسة الى هذا الحد فانهم كانوا مندفعين في هذا السفر ومخاطره حتى الموت ، ذلك انهم كانوا مقتنعين ان حياتهم التي يعيشونها ليست افضل من الموت الذي يخاطرون فيه · فمروان يتحدث عن زواج اخيه زكريا منتهيا الى التساؤل والجواب : « ولكن ماذا ترك له ليختار ؟ لا شيء غير ان يترك المدرسة ويعمل ، يغوص في المقلاة من هنا والى الابد ! » (٨٥)

وحين يفكر ابو قيس بخطر موته خلال السفر يأتيه الرد من داخله : « تموت ؟ هيه ! من قال ان ذلك ليس افضل من حياتك الان ؟ » ·· وخلال السفر ذاته يستعيد الفكـــرة ذاتها : « اوتحسب اذن ان حياتك هنا افضل كثيرا من موتك ؟ » (٤٨ـ١٣٠ )

وفي ارهاقه ووحدته وهو يقطع على قدميه الصحراء عند الحدود الاردنية ليتلافـى « الاتشفور » يتفكر اسعد الذي يحاول في السفر الهروب من خطر الاعتقال : « تراهـم لو حملوني الى معتقل الجفر الصحراوي ·· هل سيكون الامر ارحم مما هو الان ؟ عبث ·· الصحراء موجودة في كل مكان » ·· الا ان وحدته في هذه الصحراء والتي يسير عليها توفر عليه ذل واهانة الاخرين له في « صحراء » اخرى ( السجن ) ، فهو يتذكر ، اثناء سفره ، حين اعتقل كيف ان الضابط « بصق على وجهه ولكنه لم يتحرك فيما اخـذت البصقة تسيل ببطء نازلة من جبينه ، لزجة كريهة تتكوم على قمة انفه ··· » (٥٩ـ١٣١ )

كذلك لم تكن حال كل منهم ازاء سمسار البصرة الا تأكيدا على هذا الوضع البائس حتى اليأس ··· فمروان حين خرج من دكان السمسار السمين والصفعة التي نالها منـه لا تزال تترك اثارها على خده علامات كف هذا الرجل ، وقد فشل في تدبير امر سفره الى الكويت ، كان يعتبر انه هناك ، « داخل الدكان ، تقطعت اخر خيوط الامل التي شـدت لسنوات طويلة ، كل شيء في داخله ·· » (٧١) وابو قيس يقف امام السمسار « حاملا على كتفيه كل الذل وكل الرجاء اللذين يستطيع رجل عجوز ان يحملهما ·· » وهو اذ يفشل في الاتفاق معه على سعر يناسبه للسفر تتنامى غصة الالم في حلقه وتطفر الدموع الى عينيه تعبيرا عن ضياع آماله ايضا ووقوعه في الذل الكامل ··· (٤٩) اما اسعد فـان اول فكرة تطرأ على رأسه اثناء حديثه مع هذا السمسار : « الطريق !·· اتوجد بعد طرق في هذه الدنيا ؟ ألم يمسحها بجبينه ويغسلها بعرقه طوال ايام وايام ··» (٥٣) لذلك فان الموت الذي انتهوا اليه ليس الا شكلا واحدا من اشكال موت متعددة يعلنها النص · فان يقصر مروان عن الوصول الى الكويت يعني تبديد اخر امل لديه في ان يحمل الخير الى عائلته بعد ان فقد الامل في اكمال دراسته وتحقيق طموحاته ··· (٨٥) وبذلك لا يكون عدم سفره الا وقوعا في اليأس الكامل بما يعنيه من عجز هو معادل للموت ·

وان يمضي ابو قيس عشر سنوات « ككلب عجوز في بيت حقير » (٤٦) بانتظار حـل لوضعه الذليل لا يأتي ·· فان فشله في السفر والعودة الى هذا الوضع اشبـــه بالمـوت مجددا ·· فهذا السفر كان باب الخروج الوحيد الذي توصل اليه ليتخلص من تلك الحياة التي يفضل الموت عليها كما اشرنا آنفا ·· وان لا يتمكن اسعد من الوصول الى الكويت

ايضا يعني وقوعه في ذل الاهانة التي حاول تجاوزها بالهرب من السلطة ومن عمسه ايضا وابنته ٠٠

اذن اشكال متعددة من الموت كان هؤلاء المسافرون يعانونها : موت اليأس والقصور ، موت العجز والذل ، وموت السجن والاهانات ٠٠٠ انواع متعددة من الموت حاولـــوا تجاوزها والتخلص منها ليقعوا في موت اشد ايلاما واذلالا وقمعا وبؤسا ٠٠ موت السفر والهرب ـ الموت في الخزان المقفل ٠٠٠

لقد كانت معاناتهم من القسوة الى درجة ان لم يعد فيها خطر الوقوع في هذا الموت الاخير كافيا لردعهم عنه ، مدفوعين بعذابات حياتهم ومشدودين بالاماني التي يتطلعون الى تحقيقها ٠ بل ان وضعهم البائس جعلهم يتطلعون الى موت اخر على شيء من الحسد ٠ فأبو قيس يترحم على الاستاذ سليم معتبرا اياه « ذا حظوة عند الله » حين جعله يموت « قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في ايدي اليهود ٠٠ ليلة واحدة فقط ٠٠ يا الله ! اتوجد ثمة نعمة الهية اكبر من هذه ؟ ٠٠ » (٤٣) وكأن هذه الليلة تكاد تصبح ليلة القدر !

وفي هذا التمجيد لموت الاستاذ سليم تضاء الابعاد الحقيقية للسؤال الذي تختتم به الرواية ٠ فمن سقوط القرية ، من زمن الهزيمة سنة ١٩٤٨ منذ قيام اسرائيـــل ، منـذ بدء التشتت والضياع ٠٠٠ تتحدد اسس ومرتكزات موت يتبدى بأشكاله المتعددة التي رأينا ٠ ما قبل ذلك كان امرا اخر ، كان حياة اخرى ، وكان موتا مختلفا ٠ كان ارضا وزمنا مختلفين تماما ٠٠٠

اذن فان السؤال الاخير الذي تختتم به الرواية ابعد من أن يستدعي ردا على طارحه ، ومحاولة لاجابة نهائية عليه ، يتطلب تفسيرا لهذا الموت المستمر نزفا سريا واجتثاثا مهملا ٠٠٠ تفسيرا يجد اسسه ومرتكزاته في تفسير النص الروائي ذاته كما حاولنـاه حتى الان ٠

ضمن هذا الاطار يبدو عقم سؤال كهذا ٠ وهو ليس عقيما فقط لان ابا الخيـــزران المخصي هو الذي يطرحه ، ويطرحه بعد ساعات من حادث الموت ذاته (*) ويأتـــي في طرحه مكررا تسع مرات لاسم الاستفهام المستعمل ( لماذا ) مؤكدا في هذا التكرار الدور الخاص الذي لعبه هو في قتلهم (**) مذكر بالتالي بما يحاول هذا السؤال ذاته ان يغفله

---

(*) اكتشف ابو الخيزران موت الفلسطينيين الثلاثة في الخزان بين الدقيقـــة الواحدة والخمسين والدقيقة الثانية والخمسين بعد الساعة الحادية عشرة ظهرا (١٤١) ولكـــن الفكرة التي طرأت على رأسه لم تظهر الا في الليل البهيم بعد ان القى بالجثث خـــارج الخزان وسحبها الى رأس الطريق وبعد ان عاد اليها مجددا ليأخذ ما في جيوب اصحابها من مال وساعة مروان ٠٠٠ ( ١٤١ ـ ١٥٢ )

(**) نذكر هنا بما اوضحناه عن دور ابي الخيزران في موت الفلسطينيين الثلاثة خلال تتبعنا لدقائق عبور الحدود الكويتية في الصفحات السابقة ٠٠

ويخفيه : دور القيادة في هذا الموت المرحلي ، بل لانه هو ايضا سؤال عاجز ـ مخصي ـ عن رؤية الابعاد الفعلية للموت في بنية العجز العامة التي تسم المرحلة ، وهو عاجز لانه جزء منها ، فاعل فيها ونتيجة لها في آن ·

ومن هنا ، من هذا السؤال بالذات يبقي غسان كنفاني روايته مشرعة ، مفتوحة ، غير مكتملة · وابعد من ان تستدعي جوابا ، تتطلب اسئلة عديدة توضح وتفسر وتبرز بنية الموت المرحلي السائدة ، وتكون ـ هذه الاسئلة بالذات تعبيرا عن مواقف اولئك الذين يطرحونها ، كما هو حال السؤال الاخير في رواية كنفاني ·

فاذا كان النص الروائي لا يحدثنا اطلاقا عما يجري في « الظل » ـ في ليل الخزان المقفل ، فمن اجل ان يجعل ابعاد الموت الملموس على اقصى ما تكون من كثافة ، وبالتالي ليطلق للاسئلة العديدة المجال الاوسع ·

فأبو الخيزران لا يمكنه ـ كما القارىء ـ ان يعرف ان كان هؤلاء الثلاثة قد دقوا جدران الخزان ام لم يدقوه ، اصرخوا في داخله ام كتموا صراخهم ·· فقد كان في الطابق الاول من البناء وفي « الغرفة الثالثة الى اليمين » ، لا تعزله عن اولئك الفلسطينيين جدرانها بل ايضا « هدير مكيفات الهواء المثبتة على كل الشبابيك المطلة على الساحة » ·· وكذلك حديث ابي باقر الشيق ··· (١٣٥) الا اننا ابعد من نقاش لهذا الجانب (*) ، وبناء لما سبق وبيناه حول اوضاع هؤلاء المسافرين الثلاثة ، يمكننا القول ان تشبثهم بالانتقال الى الكويت كان اقوى بكثير من تمسكهم بحياتهم التي يعيشونها ·· وان معادل الخروج من الخزان في المطلاع ـ هذا اذا استجاب احد لدق جدرانه ـ يعني الدخول في خزان جديد : السجن ـ الموت البطيء ··· واذا كان اسعد اكثرهم احتمالا ، وبالتالي اكثرهم قدرة على التقرير ، اذ باستطاعته ان يتبين موته من خلال موت رفيقيه ، فانه بالذات يسافر كي يتلافى الوقوع في السجن · وخروجه هناك كان يعني سجنين : سجن الكويت ، وسجن الجفر الصحراوي معا · ان اعتبارهم حياتهم غير مجدية ، ورهانهم الاخير على الوصول الى الكويت ، هو الذي يبرر موتهم الصامت ···

الا ان السؤال المطروح من زاوية بنية الرواية ككل وليس من قبل ابي الخيزران يستعيد بالذات اسئلة عديدة ، هي بحد ذاتها مفاتيح تفسير هذه البنية بالذات : لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ على الاقل اسعد ـ القائد النظري ـ ؟ بل لماذا لم يفتح ابو الخيزران ـ القائد العملي ـ باب الخزان حين دقت لحظة الخطر ؟ اكثر من ذلك لماذا اقفل عليهم باب الخزان مدورا « ذراعه المضلعة دورتين » (١٣٤) محكما هذا الاقفال جاعلا من المستحيل على من بداخله ان يفتحه ؟ وهم لماذا رضوا بذلك ، بل لماذا رضوا ولوج الخزان اصلا ، وقبل ذلك لماذا هذا السفر ؟ لماذا هذا الاتكال التاريخي على الاخرين : لماذا انتظار ابي قيس الذليل عشر سنوات ، والاعتماد المطلق على زكريا ، وتبعية اسعد لعمه ··· ؟ ولماذا استدعي هذا الاتكال بالذات ؟ لماذا خرجوا من الارض ، اوقفوا النضال ضد عدوهم أولم يمارسوه وانخرطوا في ارض الغير واوطان الغير ··· ؟ ···

---

(*) هذا النقاش الذي يمكن خوضه انطلاقا من موقف الحارس القريب او بعض المتواجدين في ساحة المطلاع ··· ( ١٣٤ـ١٣٥ )

هكذا تتتالى الاسئلة لتعيد طرح المشكلة من جذورها ـ منذ ١٩٤٨ وقبل ذلك في كل العناصر التي ادت الى هزيمة ١٩٤٨ ـ ومن هنا نفهم هذا التمجيد لموت الاستاذ سليم على انه مات دفاعا عن القرية التي سقطت بسقوط المدافعين عنها ( في اليوم التالي لموته ) ـ وفي هذه البنية الروائية كما تتشكل في صيغتها الاخيرة ـ الاستفهامية ، الاستنكارية ، الداعية الى تفسير وفهم ما يحدث مرحليا وتاريخيا ، وفي ادانتها لجميع اشكال الموت الناتجة عن الانقطاع عن الارض والوطن ، ودعوتها عبر ذلك الى العودة والنضال لتحريرهما ، على انه في هذا التحرير يكمن الحل الفعلي لكل المشكلات المطروحة ـ او لمعظمها : وبالاخص لتلك الميتة بينها ـ ٠ وهذا ما يفسر بالتحديد اصرار غسان كنفاني على جعل عدد فصول روايته سبعة غير مكتملة ( بالسؤال الذي يبقي الاخير مفتوحا ٠٠٠ ) (*) ٠ في هذا الاصرار يتبدى موقف كنفاني بالتحديد على انه رفض لبنية الموت السائدة ٠ ورفضه ليس مطلقا ، انما هو رفض واع ٠ اي انه يفهم حقيقة الواقع السائد على انه واقع الموت المرحلي والتاريخي الذي يعيشه الشعب الفلسطيني ، وهذا ما تدل عليه الكلمات الثماني المستعملة في عناوين الفصول (**) ٠ لكنه يرفض الاعتراف بهذا الواقع ، وذلك عبر محاولة التفسير وفهم العوامل التاريخية والمرحلية التي يدعو اليها في استنكاره لاستمرار هذا الواقع وطرحه لاشكالياته ، وبالتالي ما يتضمنه هذا الموقف من دعوة للثورة عليه وتغييره ٠

وتأتي الاسئلة الاخيرة في روايته قرعا حادا للذاكرة والوعي في دعوة ملحاح لكل قارىء ( وخاصة كل ناقد ) (***) ( ان يحدد موقفه من هذا الموت الفلسطيني والعربي انما بشكل اخر ٠٠٠ ) المرحلي المستمر ، في نفس الوقت الذي يرفض فيه هو هذا الموت انما معلنا في الان ذاته عن خطره اليومي : كأنه يدق هو ناقوس خطر يجثم ليوقف هذا الموت ويستعيد الحياة والحرية ٠ وقد يكون هذا الدق يفتقد الى بعض الدربة والتفنن وبالتالي يفقد بعض قوة تأثيره وفعاليته ، الا انه يحسن في كل الاحوال اعلان الموقف والدعوة الى التفكر فيه واتخاذ موقف منه ٠ من هذا الضعف الحديث عن عودة قيس الى المدرسة ( ٤٧ـ٤٨ ٠٠٠ ) بالرغم من تركه لها منذ عشر سنوات كما يوحي النص ٠٠ ـ كأن كنفاني يرفض مرور هذه السنوات العشر ؟! ـ وبعض الافتعال الوارد اثناء اللقاء بين ابي الخيزران والفلسطينيين الثلاثة ، خاصة في الحوار الذي ينتزع فيه اسعد التفاوض من مروان وابي قيس (٩٠) او في دمغ صوت اسعد بالهدوء ، وصوت مروان بالمفاجأة خلال الحوار اللاحق ( ٩٨ـ١٠٠ـ١٠١ ) ـ كأن كنفاني يصر على تقريب الرمز

---

(*) هي على التوالي : ابو قيس ، اسعد ، مروان ، الصفقة ، الطريق ، الشمس والظل، القبر ٠

(**) لا نعتقد اننا بحاجة هنا الى التذكير بالدور المميت بامتياز الذي يلعبه هذا العدد ٨ كما بينا ذلك آنفا ٠

(***) في هذا السياق تبدو دراسة الاجوبة ـ او التأويلات المختلفة ـ التي حاول النقاد ـ ولا نستثني انفسنا منهم ـ تقديمها على هذا السؤال الاخير في الرواية كبيرة الدلالة في تحديد المواقع الفعلية لهم والمواقف الحقيقية التي يتخذونها ازاء ما تطرحه الرواية من قضايا ٠٠ هذا مع استبعاد المباشرية الميكانيكية بالطبع ٠

وتعرية الدلالات التي تومىء اليها الشخصيات ومواقفها ؟! ـ هذا عدا الضعف التقني المتمثل في عدم التعرض لاقفال فوهة الخزان من قبل اي من المسافرين الثلاثة رغم مناقشتهم لامور اكثر بساطة واقل اهمية من هذه المسألة في سياق الاهتمام بوضعهم داخله ... وانتقال اسعد في حديثه مع ابي الخزيران الى سؤاله « الم تتزوج ابدا ؟ » (١٠٦) بشكل مفاجىء ودون اي داع مبرر في النص الا استعمال هذا السؤال لاطلاق ذاكرة ابي الخيزران كي تنقل للقارىء حادثة الاخصاء التي اضطر الى التعرض لها .. والخلل الوارد فيما يتعلق بالوقت الضروري للوصول الى اول منعطف يحجب السيارة التي يقودها ابو الخيزران عن مركز المطلاع : يقدرها ابو الخيزران بين دقيقة او دقيقة ونصف ، بينما يبين النص انه امضى بين اربع دقائق ونصف وخمس دقائق ( ١٤٠ـ ١٤١ ) ... (*) . بالاضافة الى كل تلك الصور والتعابير التي ترهص بالموت تحت الشمس .

بقي ان نشير الى دور يتعدى التقنية والرواية بحد ذاتها لعبه غسان كنفاني وسواه من ادباء وشعراء وسياسيين وعسكريين .. فلسطينيين وعرب في طرح اشكاليات الوضع الفلسطيني والتحريض باتجاه انتزاعه من الموت الذي فرض عليه سنوات عديدة ، والاعداد الدؤوب والعميق لثورته التي اعلنت مع استعادة المقاومة الفلسطينية لنشاطها عام ١٩٦٥ لتوقف نزفا استمر اكثر من ستة عشر عاما ، ولتتيح لغسان كنفاني كتابات وروايات اخرى .

---

(*) هذه الدقائق الثلاث التي تمثل الفارق بين الزمنين ليست الرقم الوحيد في نص يكثر من ترداد هذا الرقم (٣) ، فهناك زيتا المكررة ثلاث مرات ، والغرفة الثالثة على اليمين التي يدخلها ابو الخيزران اولا عند مركز المطلاع ، والموظفين الثلاثة الذين فيها ، والغزاويين الثلاثة الذي يحكي عنهم ابو الخيزران ، وحسنا التي تموت بعد ثلاثة اشهر من ترك فلسطين ، والمرات الثلاث التي يذكر فيها آب ... الخ .. وهي ليست هاجس الموت المرحلي الذي يتجسد بالجثث الثلاث لهؤلاء الفلسطينيين الذين يقضون في الخزان فقط ... ، كما انها ليست الفارق بين الرقم ٨ ( رقم الموت الفلسطيني بامتياز ) والرقم ١١ ( رقم المسؤولية العربية فيه ) فقط ... بل ايضا تمثل الفارق بين الزمن الروائي ( ١٩٥٨ ) والزمن الذي كتب فيه غسان روايته ( ١٩٦١ ) ( راجع : « حوار مع غسان كنفاني » في : غسان كنفاني انسانا واديبا ومناضلا : عباس ، النقيب ، خوري . ص ١٣٩ ) لتاكيد استمرارية مرحلة الموت الفلسطيني هذه في هذا العام الاخير ( ١٩٦١ ) ـ دون ان تقتصر فقط على العام الاول ( ١٩٥٨ ) فقط ...

# Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Mahmoud Darwish; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 60. other Arab countries L L 75 or equivalent, Europe L L 100 elsewhere L L 125; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 65. *Address*: P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351261: Cables: MARABHATH.

السعر :

١٠ ل.ل. في لبنان
١٢ ل. س. في سوريا
١٢٠٠ فلس في الكويت والعراق
٢٠ درهما في دولة الامارات العربية
١٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
١٧٠٠ درهم في ج.ع.ل.